كتاب الرّوضتين

في

أخبار الدّولتين

النّوريّة والصّلاحيّة

تأليف

شهاب الدّين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان
المقدسي الدّمشقي الشّافعي
المعروف بأبي شامة
المتوفى سنة ٦٦٥هـ

محمد وفا مجدي ذخيرة لاهور

وضع حواشيه وعلّق عليه
إبراهيم شمس الدّين

١-٢

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Marfat.com

جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لـدار الكتب العلميـة بـبيروت ـ لبـنان

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive Rights by
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits Exclusifs à
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ١١ ـ ٩٤٢٤ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel & Fax 00 (961 1) 37 85 42 - 36 61 35 - 36 43 98
PO Box 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ere Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37 85 42 - 36 61 35 - 36 43 98
B.P. 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3329-2
9 0 0 0 0 >
9 7 8 2 7 4 5 1 3 3 2 9 8

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الكتابة التاريخية بشكل عام ليست نشاطاً فكرياً محايداً، على الرغم من الشروط التي حددها علماء الاجتماع والتاريخ لتكون الكتابة التاريخية علماً قائماً بذاته. وإذا كان المؤرخ لا يستطيع أن يتجرد من أهوائه السياسية وارتباطه ذاتياً أو موضوعياً بأحد أطراف الصراع باعتبار أن التاريخ بشكل أساسي هو تاريخ الصراعات ـ فكيف بصاحب القراءة التاريخية السياسية الذي يجد مادته الأساسية في نصوص التاريخ الموضوعة.

والواقعة التاريخية إن كانت قائمة بذاتها موضوعياً، فإنها في المتناول تلك الصورة التي يقدمها ذهن ما لتلك الواقعة، أو بتعبير آخر، ليست هناك واقعة تاريخية، بل هناك وعي ما لتلك الواقعة، وهذا الوعي متعدد بتعدد القائمين به.

هذه المقدمة تنطبق بشكل واضح على كتابي أبي شامة «الروضتين» و«المذيل على الروضتين». لقد ولد وعاش أبو شامة في الفترة ما بين ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م و٦٦٥هـ/ ١٢٦٨م، وهذه الفترة تشمل، بالنسبة إلى مصر وبلاد الشام والعراق، تقسم المملكة التي أقامها صلاح الدين يوسف بن أيوب (توفي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) والتي ضمت مصر وبلاد الشام وغيرهما، والتي جمع جهودها وإمكاناتها وقدراتها ووجه بها ضربة قاصمة للصليبيين في معركة حطين (سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م). هذه المملكة تقسمت بعد وفاته، مع أن الملك العادل (توفي سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م) والملك الكامل (توفي سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨). تمكنا من الحفاظ على وحدة الأمبراطورية نسبياً، غير أن عوامل التقسيم كانت طاغية على عوامل التوحيد، فنشأت دويلات أيوبية في مصر، وأخرى في الشام، وأخرى في حلب، وأخرى في ديار بكر، وأخرى في اليمن، هذا فضلاً عن الدويلات الأخرى الأصغر مثل مملكة حماة.

وانتهى أمر المنطقة بأن قامت دولة المماليك في مصر (سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) وضمت بلاد الشام، بعد أن قضى المغول على الدويلات الأيوبية في الجزيرة وبلاد الشام.

Marfat.com

في هذا المناخ السياسي والاجتماعي عاش أبو شامة، ويبدو أنه قد مرّ عليه وقت وجد فيه نفسه مؤرخاً يبحث عن موضوع، وفي الوقت نفسه يبحث عن بطل، في حياته أمثولة، وفي تصرفه درس خلقي، يقول أبو شامة في تقديمه لكتابه: «ومرّ بي فيه من الملوك المتأخرين ترجمة الملك العادل نور الدين، فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خلّانه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين[1] في المتقدمين، فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقديمه في العدل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أيّ اجتهاد».

لقد وجد أبو شامة أبطاله وهما كما يقول هو عنهما: «ملكا بلدتنا وسلطانا خطتنا، خصنا الله تعالى بهما»، وهنا يدخل عنصر آخر، وهو عنصر العصبية المحلية، وقد كانت هذه صفة من صفات الكتابة التاريخية في القرون السادس والسابع والثامن الهجري فالبطلان نور الدين وصلاح الدين، ملكا دمشق، وأبو شامة يشعر بشيء من الفخر لأنهما ملكا بلدته، وسلطانا خطته.

ويضيف أبو شامة في مقدمته: «فعزمت على إفراد ذكر دوليتهما بتصنيف، يتضمن التقريظ والتعريف، فلعلّه يقف عليه من الملوك، من يسلك في ولايته ذلك السلوك. فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك والمتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين، فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم، بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهم أحد، إن وفّق الله تعالى الكريم وسدّد.. وهكذا أقول: هذا الملكان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين».

لقد وضع أبو شامة كتاب «الروضتين» عن قصد وتصميم وعزم على إفراد ذكر دولتي نور الدين وصلاح الدين في كتاب، ولكنه لم يكتف بهذا، فوضع كتابه التاريخي الثاني الذي سمّاه «المذيل على الروضتين»، وقد بيّن السبب الذي دفعه لوضع هذا الكتاب فقال: «أما بعد فإن في مطالعة كتب التواريخ معتبراً، وفي ذكرها عن الغرور مزدجراً، لا سيما إذا ذكر بعض من مات في كل عام من المعارف والإخوان، والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان، فإن ذلك مما

(١) العمران: هما عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما.

Marfat.com

يزهد ذوي البصائر في الدنيا، ويرغبهم في العمل للحياة العليا، والاستعداد لما هم ملاقوه، والإقلاع عما هم عن قليل مفارقوه...

وكان أن سهل الله تعالى عليّ، وحبّب إليّ، أن جمعت في كتاب الروضتين، كثيراً من الحوادث الواقعة زمن الدولتين النورية والصلاحية سقى الله عهدهما، وأصلح ما بعدهما، وانتهى ذلك إلى السنة التي توفي فيها صلاح الدين رحمه الله تعالى، وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وذكرت تبعاً لذلك أشياء مفرقة فيما يتعلق بأحوال أولاده ومن يتعلق بهم...

ثم خطر لي أن أجمع كتاباً يتضمن كثيراً من الحوادث بعد ذلك إلى آخر ما تدركه حياتي ختمها الله بالعمل الصالح والفعل الرابح. وكان فيما حملني على ذلك كثرة موت المعارف فأردت إثباتهم لعلي بمطالعتهم أجد قلباً على الآخرة يساعف... فاستخرت الله وابتدأت من سنة تسعين التي تتلو سنة وفاة صلاح الدين، فذكرت فيها وفيما بعدها ما فاتني في كتاب الروضتين، سنة بعد سنة... من أول سنة تسعين على ترتيب السنين»[1].

أما عملنا في هذين الكتابين «الروضتين» و«الذيل»، فهو:

أولاً: وضع ترجمة وافية للمؤلف.

ثانياً: وضع دراسة وافية لكتابي «الروضتين» و«الذيل».

ثالثاً: بذلنا ما أمكننا من الجهد في مقابلة ومقارنة النصوص التي أوردها المؤلف في كتابه والتي أخذها من كتب تاريخ أخرى.

رابعاً: حرصنا بقدر الطاقة على تنقية النص من الأخطاء النحوية واللغوية.

خامساً: شرحنا في حواشي الكتاب ما في متنه من غريب اللغة أو صعب المتناول منها، وذلك استناداً إلى المعاجم اللغوية المشهورة.

سادساً: وضعنا في حواشي الكتاب تعريفاً وافياً ـ مع ذكر المراجع والمصادر ـ لجميع الأعلام، وما أهملناه من ذلك إما معروف مشهور، ولم نجد ضرورة لنافل القول فيه، وإما لم نهتد إليه فيما بين أيدينا من المراجع والمصادر، وقد أشرنا إلى ذلك أيضاً.

سابعاً: بذلنا ما أمكننا من الجهد في شرح جميع المصطلحات والتي تعود أصولها إلى غير اللغة العربية، وكانت منتشرة في ذلك العصر، كالتركية والهندية،

---

(١) انظر مقدمة المؤلف للمذيّل على الروضتين ص٥.

Marfat.com

والفارسية، وغيرها. وذلك استناداً إلى المعاجم المتوفرة لدينا.

ثامناً: خرّجنا جميع الأحاديث النبوية والآثار، تخريجاً وافياً، وضبطنا نص الحديث استناداً إلى كتب الحديث المعتبرة.

تاسعاً: خرجنا جميع الآيات القرآنية الكريمة على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

عاشراً: اجتهدنا في ضبط أسماء الأشخاص والمواضع التي أوردها على أمهات المعاجم والمراجع التي توفرت لنا، وأشرنا إلى الضبط المختلف أو الروايات المتعددة بهذا الشأن.

حادي عشر: ضبطنا الشعر ضبطاً عروضياً ووضعنا بحوره.

ثاني عشر: أضفنا عناوين فرعية للكتاب وضعناها بين معكوفين وأخيراً نرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه تعالى، ولله الكمال وحده، وهو ولي التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

Marfat.com

ترجمة المؤلف

هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد المقدسي الشافعي المعروف بأبي شامة، لأنه كان به شامة فوق حاجبه الأيسر، وكان يلقب بشهاب الدين ويكنى بأبي القاسم محمد.

ولد أبو شامة في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة ٥٩٩هـ الموافق العاشر من شهر كانون الثاني ١٢٠٣م، بدمشق في حي متواضع من أحيائها يعرف بدرب الفواخير، القريب من الباب الشرقي، في أسرة متواضعة لا تكاد تتميز بتفوق خاص في الحياة العلمية أو السياسية، كما لم تترك لنا كتب التراجم عنها شيئاً ذا أهمية. وكل ما نعرفه عن هذه الأسرة، عن طريق أبي شامة نفسه، أن مؤسس هذه الأسرة هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم علي الطوسي، المقرئ الصوفي. إمام صخرة بيت المقدس، قتل على يد الصليبيين، فيمن قتل، بعد فتحهم للقدس سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م وأصبح من الشهداء الذين تزار قبورهم، ويلاحظ أن أبا شامة يتشكك في أن هذا الشهيد هو مؤسس أسرته، ويظهر هذا التشكك من خلال حديثه في المذيّل، إذ قدّم له بقوله:

«ولعل محمداً الذي انتهى إليه النسب هو أبو بكر.....»

ويقرر أبو شامة أنه نقل هذه الحقيقة عن ابن عساكر[1]. وعلى هذا لم يبق أمام أسرته إلّا الرحيل عن القدس، فخرجوا منها إلى دمشق واستقروا في بعض أحيائها قريباً من الباب الشرقي.

ولم يظهر لأحدٍ من أفراد أسرة أبي شامة، بعد هذا، نشاط ذو شأن يحدثنا عنه أبو شامة أكثر من واحد منها هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، الذي اشتغل بتعليم الصبيان في مكتب، بباب الجامع الشامي، حتى توفي سنة ٦٠٥ بعد أن عمر تسعين عاماً[2] أما إسماعيل والد أبي شامة، الذي توفي سنة ٦٣٨هـ، فقد أنجب ولدين: إبراهيم في سنة ٥٩١هـ وعبد الرحمن «أبا شامة» سنة ٥٩٩هـ.

---

(١) أبو شامة: المذيّل على الروضتين (وقد طبع خطأ باسم الذيل) ص٣٧.
(٢) أبو شامة: نفسه ص٦٥.

Marfat.com

ويبدو أن والد أبي شامة وأخاه إبراهيم لم يحظيا بدرجة عالية من الثقافة، كما يتضح من رؤيا[١] يقصها أبو شامة عن أخيه الذي رأى والده يقول له في المنام: «عليك بالعلم، انظر إلى منزلة أخيك، فنظر فإذا هو في رأس جبل، والوالد والراني يمشيان في أسفله».

ويورد أبو شامة في الترجمة التي كتبها لنفسه، كثيراً من الرؤى التي رآها بنفسه أو رآها غيره عنه. فقد رأت والدته، وكانت لا تزال حاملاً به، كأنها في أعلى مكان من المئذنة عند هلالها وهي تؤذن. فقصصت رؤياها على من يجيد التعبير عن الرؤيا فقال: تلدين ذكراً ينتشر ذكره في الأرض بالعلم والخير.

ورأى أبو شامة. في صفر سنة ٦٢٤هـ كأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أقبل إلى الشام منجداً لأهله على الفرنج، وكان له به خصوصية من إفضاء أمره إليه والتحدث معه في أمور المسلمين، وهو يمشي إلى جانبه ملاصقاً منكبه، حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل، وهو يخبرهم وكأنه واسطة بينه وبين الناس.

وفي هذه السنة أيضاً، أي سنة ٦٢٤هـ، رأى أيضاً كأنه والفقيه عبد العزيز بن عبد السلام داخل باب الرحمة بالبيت المقدس وقد أراد فتحه، وثمّ من يمنع عن فتحه ويدفعونه لينغلق فما زالا يعالجان الأمر حتى فتحا مصراعيه فتحاً تاماً بحيث أسند كل مصراع إلى الحائط الذي خلفه. ورأى أيضاً في جمادى الآخرة من السنة نفسها كأن المسلمين في صلاة الجمعة في حر شديد وهو خائف عليهم من العطش ولا ماء ثمّ يُعرف، فنظر إلى قليب ماء قريباً منه وحوض، فخطر له أن يسقي من ذلك القليب ويسكب في الحوض حتى يشرب منه الناس إذا انصرفوا من الصلاة. فاستقى شخص قبله لا يعرفه دلواً ودلوين. ثم أخذ الدلو منه فاستقى دلاء كثيرة لم يعرف عددها وسكب في الحوض.

ورآه المهتار هلال بن مازن الحراني متقلداً هيكلاً وهو يقول: انظروا فلاناً كيف تقلد كلام الله. ورأت امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا، وهي قرية من قرى غوطة دمشق، وكأنهم سألوا ما شأنهم. قالوا: ننتظر النبي ﷺ يُصلّي بنا. قالت: فحضر (يعني أبا شامة) فصلى بهم.

وجاءه رجل يستفتيه وهو بالمجلس الكبير الذي للكتب، في صدر الإيوان بالمدرسة العادلية وهو الموضع الذي يجلس فيه عادة للفتوى، ومنه يخرج إلى الصلاة بهذه المدرسة. فتعجّب الرجل، فقيل له ممّ تتعجب؟ قال: هذا مكان ما

(١) أبو شامة: نفسه ص٣٨ ـ ٣٩ وكذلك ٢٢١ ـ ٢٣٧.

Marfat.com

رأيته قط. قال: ورأيت في المنام كأني كنت بهذه المدرسة العادلية وفيها خلق كثير، وكأن قائلاً يقول للناس: تنحوّا فالنبي ﷺ يمر: قال: فنظرت فخرج علينا من المجلس الذي للكتب، ومرّ كما هو إلى المحراب.

ورأى الصلاح الصوفي أول ليلة من جمادى الآخرة سنة ٦٥٥هـ كأن أبا شامة متوجه إلى الحج ومعه من الزاد جميع ما يحتاج إليه تزوداً تاماً يُعجب منه الرائي.

ورأى حسن الحجازي في شهر رمضان سنة ٦٥٧هـ كأن قائلاً في عالم الغيب لا يراه بل يسمع صوته يقول: الشيخ أبو شامة نبي هذا الوقت.

ورأى أخاه الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، وهو أسنّ من أبي شامة بنحو تسع سنين، وكان من الصالحين، كأن أبا شامة متمسك بحبل قد دلي من السماء وهو مرتفع فيه، فسأل إنساناً عن ذلك في المنام، فانكشف لهما البيت المقدس والمسجد الأقصى. فقال له ذلك الإنسان: من بنى هذا المسجد فقال: سليمان بن داود. فقال: أعطي أخوك مثل ما أعطي سليمان. فقال له: كيف ذلك؟ فقال: أليس سليمان أوتي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. أليس أعطي كذا وكذا، وعدّد أنواع ما أوتي. فقال: بلى. قال: وكذا أخوك أوتي أنواعاً من العلم كثيرة.

هذه المنامات التي أوردها أبو شامة في الترجمة التي كتبها لنفسه. سواء التي رآها بنفسه أو رآها غيره عنه يستدل بها على كثير من تطورات حياته. وإن كان أبو شامة يخبرنا أنه سطرها في مذيّلة تحدثاً بنعم الله تعالى كما أمر سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١] واعتبرها من البشائر حيث قال النبي ﷺ: لم يبق من المبشرات إلّا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له[١].

وعندما بلغ أبو شامة العاشرة من العمر فاجأ أباه بقوله: قد ختمت القرآن حفظاً، فتعجّب أبوه من ذلك، كما كان يتعجب من ولع أبي شامة بالتردد على المكتب وسعيه في طلب العلم وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان[٢] ثم لم يلبث أبو شامة أن بدأ دراسة القراءات السبع، والفقه والعربية والحديث. وبعد أن أتقن هذه الدراسات وفرغ منها، رأى أن يصرف بعض عمره إلى الدراسة التاريخية حتى يستكمل ثقافته الدينية و«يحوز بذلك سنة العلم وفرضه».

وإذا تتبعنا حياة أبي شامة في مرحلة طلبه العلم، ثم فيما أعقب هذه

(١) أبو شامة: نفسه ص٣٩.
(٢) أبو شامة: نفسه ص٣٧.

Marfat.com

المرحلة. لنتبين وضعه في هذه الظروف الاجتماعية التي عاش فيها كثير من أنداده العلماء. وجدنا الغموض يكتنف حياته في جميع مراحلها، فهو مقتصد في الحديث. اللهم إلّا في بعض الفترات القصيرة التي نجد عنها إشارات موجزة مختصرة، يذكرها أبو شامة بين حين وآخر فتلقي بصيصاً من الضوء على حياته، في هذه الفترات القصيرة.

وأولى هذه الإشارات يرجع إلى سنة ٦١٥هـ، عندما كان في السادسة عشرة من عمره، ففي هذه السنة نجده مقيماً في المدرسة العزيزية بدمشق. ثم لا نلبث أن نجد بعد هذا إشارة إلى أنه أتم دراسة علم القراءات في السنة التالية. أي سنة ٦١٦هـ. وقد يفهم من هذا أن صلته بهذه المدرسة انقطعت منذ نجح في إتمام دراسته لهذا الفرع من العلوم. حجّ مع والده سنة ٦٢١هـ، ثم في السنة التي بعدها أي سنة ٦٢٢هـ، وزار القدس سنة ٦٢٤هـ بصحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام، وزار مصر سنة ٦٢٨هـ زيارة علمية دراسية، استمع فيها إلى أساتذة دمياط والقاهرة والإسكندرية، ولا نجد بعد هذا شيئاً يذكر عن حياة أبي شامة إلا إشارة مقتضبة في سنة ٦٣٤هـ، وأخريات في سنوات ٦٤٤، ٦٤٨، ٦٥٤، ٦٥٦، وكلها إشارات غير مباشرة وردت في أثناء تسجيله لبعض الحوادث أو الوفيات. ومن الممكن الاستدلال بها على أنه كان يقيم في هذه السنوات في المدرسة العادلية بدمشق. ونحن لا ندري إذا كان أبو شامة قد استمر مقيماً في هذه المدرسة بعد سنة ٦٥٦هـ حتى انتقل منها سنة ٦٦٠هـ إلى المدرسة الركنية عندما عيّن مدرساً لها كما أنه من غير الممكن الجزم بتاريخ انتقاله من المدرسة العزيزية التي كان مقيماً بها حوالي ٦١٥هـ إلى المدرسة العادلية التي ثبت استقرارها بها سنة ٦٣٤هـ. ويبدو أن إقامة أبي شامة بهذه المدرسة الأخيرة بين سنتي ٦٣٤، ٦٥٦هـ كانت متصلة، لم يقطعها إلا مدة انصرافه إلى بساتينه الخاصة. هذا الغموض الذي يحيط بحياة أبي شامة يمتد حتى يخفي عنا الوظائف التي كان يشغلها ويعتمد عليها في حياته، غير أنا نجده يشير إلى أن الاختيار وقع عليه، سنة ٦٣٥هـ ليكون أحد المعدّلين بدمشق[١]. ويذكر أن نائبه في الصلاة بالمدرسة العادلية، الشيخ شمس الدين محمود النابلسي، توفي سنة ٦٥٦هـ[٢]. وقد ناب الشيخ النابلسي عن أبي شامة في مناسبتين لم يحدّد تاريخهما، الأولى مدة مرضه، والثانية في المدة التي انصرف فيها أبو شامة عن المدرسة إلى بساتينه الخاصة يفلحها ويعمل فيها بنفسه، معرضاً عن الأوقاف، متحرراً من قيودها.

---

(١) المعدّل أو العدّل اصطلاح يلقب به من يثق به القاضي ويطمئن إلى شهادته فيعينه لمعاونته في أعماله ومنها تسجيل الأحكام انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.

(٢) أبو شامة: المذيّل ص١١٩.

Marfat.com

وعندما بلغ أبو شامة الستين من عمره تولى التدريس في المدرسة الركنية سنة ٦٦٠هـ، وبقي فيها حتى عيّن مدرساً للمدرسة الأشرفية سنة ٦٦٢هـ، ثم أضيفت إليه وظيفة الإقراء بالتربة الأشرفية. واستمر يشغل هاتين الوظيفتين حتى توفي سنة ٦٦٥هـ.

من هذه الإشارات جميعها يمكن القطع بأن أبا شامة شغل منصب الأستاذية للمرة الأولى سنة ٦٦٠هـ. وهذه الوظيفة كانت تتيح لمتقلدها الإشراف على إدارة المدرسة، إشرافاً كاملاً يشمل الأوقاف المخصصة لها. والمتتبع لحياة العلماء في هذه الفترة التي شهدت نهضة علمية ميسرة يجد أن كثيراً منهم اعتمد اعتماداً كبيراً على هذه الأوقاف والمدارس في تنظيم حياته، مستفيداً من مواردها في فترة طلب العلم، ثم متقلداً وظيفة الأستاذية في هذه المدارس، أو قائماً بالإشراف على الأوقاف المخصّصة لها بعد اجتياز مرحلة الطلب. بل أننا نجد كثيراً من هؤلاء العلماء يجمعون بين التدريس والإشراف على عدد كبير من الأوقاف يديرونها ويدبّرون شؤونها، ووسيلة بعضهم إلى هذا التقرب من الأمراء الواقفين، أو من السلاطين الحاكمين.

كما يمكن القطع أن أبا شامة كان يشغل وظيفة صغيرة في شبابه، سنة ٦٣٥هـ، عندما اختير واحداً من عدول دمشق، ثم أمّ الصلاة في المدرسة العادلية التي كان يقيم بها في دمشق مدة لا نستطيع تحديدها، كما لا نعرف تاريخ بدئها أو نهايتها، ويستثنى من هذه المدة الفترة التي انقطع فيها عن الإمامة، عندما خرج إلى بساتينه الخاصة يعمل فيها ويعتمد عليها في حياته.

هذا الغموض الذي يحيط بالجانب المادي من حياة أبي شامة لا يعني، في حال من الأحوال أنه كان شخصية مغمورة في الحياة الحكومية، كما لا يدل على نقص في كفاءته جعل رجال الدولة يصرفون النظر عن إسناد بعض المناصب الهامة إليه، بل إننا نجد في حديث أبو شامة عن بعض أساتذته الذين أعرضوا عن التزلف إلى ذوي السلطان ما يدل على أنه اتخذهم قدوة له ينهج نهجهم ويترسّم خطاهم. فمنذ صغره عندما كان يقرأ القرآن في جامع دمشق، كان أبو شامة ينظر إلى مشايخ العلم كالشيخ فخر الدين أبو منصور ابن عساكر. ويرى طريقه في فتاوى المسلمين وحاجة الناس إليه وسماع الحديث النبوي عليه، وهو يمر من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم، إلى تحت قبة النسر لسماع الحديث، إلى المدرسة التقوية[1]. لإلقاء دروس الفقه، ويرى إقبال الناس عليه وتردّدهم إليه، مع حسن سمته

(١) أبو شامة: المذيّل ص٣٧.

Marfat.com

واقتصاده في لباسه، فيستحسن طريقته ويتمنى رتبته في العلم ونشره له وانتفاع الناس بفتاويه.

كما صحب أبو شامة أستاذه علم الدين السخاوي[١] ما يقرب من ثلاثين سنة بين سنتي ٦١٤ ـ ٦٤٣هـ؛ وقد كان السخاوي هذا «زاهد في صحبة رجال السلطان» كما كان «متعففاً زاهداً مقتنعاً باليسير» وكان للناس «فيه اعتقاد عظيم. . . . فكانوا يزدحمون في الجامع لأجل القراءة ولا يصح لواحد منهم نوبة إلّا بعد زمان». ومما يدل على زهده وتعففه خروجه مرة مع أبي شامة لزيارة المقابر. وفي هذه الزيارة لفت نظر أبي شامة إلى بيت كتب على قبر الفقيه ابن الشاغوري يقول:

ما كنت تقرب سلطاناً لتخدمه لكن غنيت بسلطان السلاطين

وتتلمّذ أبو شامة كذلك على عزّ الدين بن عبد السلام الذي أخرج من دمشق سنة ٦٣٩هـ لقوة شخصيته وخوف سلطانها منه، فذهب إلى مصر وأقام بها حتى توفي سنة ٦٦٠هـ وكان عزّ الدين بن عبد السلام هذا «شيخ المسلمين والإسلام وسلطان العلماء. . . . . لم ير من رآه مثله علماً وورعاً وقياماً في الحق، وشجاعة وسلاطة لسان» والسبب المباشر لإخراجه من دمشق أنه أسقط اسم الصالح إسماعيل، أميرها من الخطبة عندما استعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا. وقد ساعد ابن عبد السلام في هذه الخطوة الشيخ جمال الدين بن الحاجب إمام المالكية، وعندما وصل إلى مصر تنحى له العلماء عن أماكنهم، وتأدب معه الشيخ زكي الدين بن عبد العظيم المنذري وامتنع عن الإفتاء من أجله وتقديراً له وقال: ليس لها إلا عزّ الدين. وفي سنة ٦٦٠هـ توفي ابن عبد السلام في مصر فخرج السلطان بيبرس في جنازته وحدّث خاصته قائلاً: «اليوم استقر ملكي لي، فلو أمر عزّ الدين الناس في شأني بما أراد لأطاعوه مبادرين».

طالت صحبة أبي شامة لهذين العالمين الجليلين، ولأمثالهما من أئمة الزاهدين فتأثر بهم واتخذهم قدوة، ومثلاً، فعزف عن المناصب الحكومية، وترفّع عن التكالب على أموال الأوقاف، وانصرف مدة، كما ألمحنا، إلى بساتينه الخاصة يفلحها بنفسه ويعتمد عليها وحدها في حياته حتى أغنى بيته وتمكن من إسعاد أهله

---

(١) يذكر أبو شامة أنه استفاد من السخاوي، علّامة زمانه وشيخ عصره، علوماً جمة كالقراءات والتفسير وعلوم فنون العربيّة وأنه صحبه من شعبان سنة ٦١٤هـ. وقد توفي السخاوي سنة ٦٤٣. أبو شامة: المذيّل ص١٧٧.

Marfat.com

وأقاربه المحتاجين وصان وجهه عن الناس وأحسّ بالحرية والاستقلال، كما يقول في المذيّل[١] وقد سجل شعوره هذا في قصيدة أوردها في المذيّل في مائة وعشرة أبيات وفيها يقول:

أيـهـا الـعـاذل الـذي إن تـحـرى ... قـال خـيـراً ونـال بـالـنـصـح أجـرا
لا تـلـمـني عـلـى الـفـلاحـة واعـلـم ... إنـهـا مـن أحـلّ أحـب وأثـرى
وبـهـا صـنـت مـاء وجـهـي عـن الـنـا ... س جـمـيـعـاً وعـشـت فـي الـقـوم حـرا
إذ بـهـا صـار مـنـزلـي ذا غـلال ... مـع عـيـال مـن بـعـد مـا كـان فـقـرا

وفي هذه القصيدة يوجه حديثه إلى طالب العلم منددّاً بتكالب العلماء على التزلف إلى ذوي السلطان. فيقول:

اتـخـذْ حـرفـة تـعـيَّـشْ بـهـا يـا ... طـالـب الـعـلـم، إن لـلـعـلـم ذكـرا
لا تـهـنـه بـالاتـكـال عـلـى الـوقـ ... ـف، فـيـمـضـي الـزمـان ذلاً وعـسـرا
إنـمـا تـحـصـل الـوقـوف لـشـرّ ... يـد ونـذل مـن الـعـلـوم مُـبـرّا
أو لـمـن يـلـزم الأكـابـر لا يـبْـ ... ـرح فـي خـدمـة لـهـم، ومـدح وإطـرا
طـالـبـاً جـاهـهـم مـجـيـبـاً إلـى كـل ... أمـورٍ لـهـم، عـكـوفـاً مـصـرّا
فـتـرى قـاضـي الـقـضـاة ومـن يـذ ... كـر درسـاً يـرعـاه سـراً وجـهـرا
قـاصـداً قـربـة فـيـصـغـي إلـيـه ... فـاعـلاً مـا يـريـد نـفـعـاً وضـرا

وقد أطنب كتاب التراجم في مدح صفات أبي شامة الطيبة، من تواضع وأخلاق حميدة واطراح للتكلف وحرص على الاجتهاد في الأحكام المختلف فيها فلا يفتي إلا بما يراه أقرب إلى الحق وإن كان خلاف مذهبه الشافعي تبعاً للأدلة. وجب للعزلة والانفراد، عزوف عن التردد إلى أبواب أهل الدنيا متجنباً المزاحمة على المناصب لا يؤثر على العافية والكفاية شيئاً. ومن شعره في هذا الخصوص[٢].

الـثـوب والـلـقـمـة والـعـافـيـة ... لـقـانـع مـن عـيـشـه كـافـيـه
ومـا يـزد فـالـنـفـس لـيـسـت بـه ... وإن تـكـن مـمـلـكـة راضـيـه

وله أيضاً:

أنـا فـي عـز الـقـنـاعـة ... رافـل فـي كـل سـاعـه
رب اتـمـمـهـا بـخـيـر ... فـي مـعـافـاة وطـاعـه

(١) أبو شامة: المذيّل ص٢٢٢ ـ ٢٢٦.
(٢) أبو شامة: المذيّل ص٢٠٢.

Marfat.com

ولا نجد في مؤلفي التراجم من يشذ عن هذا الإجماع في تقدير شخصية أبي شامة وطيب أخلاقه إلّا قطب الدين اليونيني، الذي يتخذ موقفاً معارضاً، فيذكر أن أبا شامة كان كثير البغض من العلماء والأكابر والصلحاء والطعن عليهم والتنقيص بهم، وذكر مساوئ الناس وثلب أعراضهم، ولم يكن بمثابة من لا يقال فيه فقدح الناس فيه وتكلموا في حقه، وكان عند نفسه عظيماً فسقط بذلك من أعين الناس.

وصدور هذا الطعن من معاصر لأبي شامة يحملنا على الوقوف عند قوله لنتبين وجه الصحة فيه، وهذا ما يقتضينا أن نحاول معرفة نوع الصلة التي كانت بين الرجلين. وفي هذا نجد أن أبا شامة كان شافعي المذهب، على حين كان اليونيني من قادة الحنابلة وابناً لإمام من أئمتهم في بعلبك وهو الشيخ محمد الحنبلي اليونيني الذي توفي سنة ٦٥٧هـ. وقد ذكر أبو شامة نبأ وفاته في المذيّل ضمن حوادث هذه السنة[١] وعلق عليها، مبيناً أن الإمام اليونيني ألّف كتاباً في الإسراء مليئاً بالخطأ الفاحش، فحمل هذا أبا شامة على تأليف كتاب خاص يفند به مزاعم اليونيني ويصحح أخطاءه وسمى كتابه هذا: «الواضح الجلي في الرد على الحنبلي». ولم يكن الحنابلة عندئذٍ على علاقة طيبة بأئمة المذاهب الأخرى في الشام عامة ودمشق خاصة. حتى أننا نرى أبا شامة يمدح أستاذه زين الأمناء ابن عساكر بأنه «كان لا يمر قرب صفوف الحنابلة حتى لا يأثموا بسببهم له» ويعلل هذا صراحة بالبغض العنيف الذي يكنه الحنابلة للشافعية ذلك البغض الذي يكفينا للتدليل عليه أن نذكر أن زكي الدين بن رواحة أنشأ مدرستين في دمشق وحلب، وجعل من شروطه للدراسة فيهما «ألا يدخلهما مسيحي ولا حنبلي» وهكذا نجد أن من المحتمل أن اليونيني تأثر في العبارات التي تحدث بها عن أبي شامة بعاملين أحدهما البغض التقليدي الذي شاع بين الحنابلة والشافعية. وكلاهما إمام من أئمة مذهبه، وثانيهما البغض الشخصي الذي أحس به اليونيني نحو أبي شامة الذي ألّف كتاباً خاصاً يعدد فيه أخطاء والده ويصححها[٢].

ويبدو أن حياة أبي شامة في مجموعها، كانت سهلة مطمئنة، وأنه لم يعترضه من الصعوبات ما يعكر صفوها أو يخرج بها عن هدوئها واستقرارها باستثناء حادثتين أشار

---

(١) أبو شامة: نفسه ص١١٩.

(٢) يذكر أبو شامة أن اليونيني صنف أوراقاً فيما يتعلق بإسراء النبي ﷺ ليلة المعراج وأخطأ فيه أنواعاً من الخطأ الفاحش. فصنف أبو شامة كتاباً خاصاً يعدد فيه هذه الأخطاء بعنوان «الواضح الجلي في الرد على الحنبلي».
أبو شامة: المذيّل ص٢٠٧.

Marfat.com

إليهما في تقريريه عن سنتي ٦٥٨ و٦٦٥هـ. ففي سنة ٦٥٨هـ[١]، وهي سنة دخول التتار دمشق، استدعاه نائب التتار وأهانه، وهدّده بضرب عنقه، فاضطر أبو شامة أن يوقع له بمبلغ كبير، حتى يطلق سراحه وقد هزم التتار بعد هذه الحادثة بعشرة أيام في موقعة عين جالوت، واعتبر أهل دمشق الهزيمة كرامة لأبي شامة وقيل في ذلك:

تفرق جمع الكفر لما تعرضوا ... أبا شامة ظلماً وكدر ورده
أرادوا به كيداً وما هيب علمه ... فغار له الرحمٰن إذ هو عبده
فما كان بين الجور منه وكسرهم ... لدى رمضان غير عشر نعدّه
فحاشى لمفتي الشام يهمل أمره ... ويخفض ذو علم ويرفع ضده
له أسوة بالأنبياء وصالحي الـ ... ـبرية فيه ليس يخلف وعده
يعز علينا ما جرى غير أننا ... نسر به حيناً فلا كان فقده

وحادثة أخرى كان لها على ما يظهر أثر هام في صحة أبي شامة. تلك هي أنه تعرض لهجوم اثنين عليه وهو في منزله، في جمادى الآخرة من سنة ٦٦٥هـ متظاهرين بأنهما قدما في طلب الفتيا، وبعد أن اطمأنا إلى انفرادهما به وإلى غيبة من قد يحاول نجدته وإنقاذه من اعتدائهما، انهالا عليه بالضرب المبرّح، ربما لأسباب مذهبية وتركاه بعد ذلك مريضاً مجهداً. وقد عرض عليه بعض أصحابه أن يتقدم بالشكوى إلى ولاة الأمر فرفض قائلاً: قد فوضت أمري إلى الله، فما أغيّر ما عقدته مع الله وهو يكفينا سبحانه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه[٢]. وقد نظم في هذه المناسبة الأبيات الثلاثة التالية:

قل لمن قال آلا تشتكي ... ما قد جرى فهو عظيم جليل
يفيض الله تعالى لنا ... من يأخذ الحق ويشفي الغليل
إذا توكلنا عليه كفى ... فحسبنا الله ونعم الوكيل

وقد توفي أبو شامة بعد شهرين ونصف من هذا الحادث وذلك في التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٦٦٥هـ الموافق ١٣ حزيران سنة ١٢٦٨ دفن في مقبرته بالفراديس. وكان الذي قتلوه هم الذين جاؤوه من قبل فضربوه ليموت فلم يمت[٣].

---

(١) أبو شامة: المذيّل ص٢١١.
(٢) أبو شامة: نفسه ص٢٤٠.
(٣) نجد ترجمة لأبي شامة، بالإضافة إلى تلك التي كتبها لنفسه، في:
- تاج الدين تقي الدين السبكي: طبقات الشافعية ٥/ ٧٠.
- ابن كثير البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥١.

Marfat.com

ـ مؤلفات أبي شامة

أورد له بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» ٦/ ١٤ ـ ١٧، المؤلفات التالية:

١ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: تاريخ السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين.

٢ ـ الذيل على الروضتين، عن السنوات ٥٩٠ ـ ٦٦٥هـ/ ١١٩٤ ـ ١٢٦٦م.

٣ ـ المقاصد أو المنائح السنية في شرح القصائد النبوية: شرح القصيدة اللامية الشقراطسية لأبي محمد عبد الله بن أبي زكرياء يحيى بن علي الشقراطسي والقصائد السبع لشيخه علي بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣/ ١٢٤٥.

«شرح سبع قصائد السخاوي في مدح النبي» ألّفه سنة ٦٤٢/ ١٢٤٤.

٤ ـ شرح البردة.

٥ ـ قصيدة في أربعين بيتاً يشكو فيها مزاجه الحزين الحاد العكر، ويطلب النصح من شيخه علم الدين السخاوي.

٦ ـ إبراز المعاني في شرح حرز المعاني أي في شرح القصيدة الشاطبية.

٧ ـ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز.

٨ ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر.

٩ ـ مختصر كتاب المؤمّل في الرد إلى الأمر الأول. ويهاجم فيه على طريقة الظاهرية «المذهب» و«التقليد».

١٠ ـ الباعث إلى إنكار البدع والحوادث.

١١ ـ الممتع المقتضب في سيرة خير العجم والعرب.

١٢ ـ كتاب البسملة.

١٣ ـ كتاب السواك وما أشبه ذلك.

وبالعودة إلى المذيّل حيث ترجم أبو شامة سيرة حياته. نراه يذكر كتباً أخرى لم يذكرها بروكلمان إلى جانب تلك التي ذكرها هذا الأخير، ولعلها ضاعت. وللمقارنة نورد ما ذكره أبو شامة عن أسماء هذه المصنفات[1]:

وجمع وألّف وهذّب وصنّف في فنون العلوم النافعة كتباً كثيرةً ومصنفات

---

(١) أبو شامة: المذيّل ص٤٠.

جليلة مختصرة ومطوّلة تم أكثرها وسمعها ووقفها وكثرت النسخ بها. فأول ما أظهر من مصنفاته شرح القصائد النبوية مجلد. ومنها: شرح قصيدة الشيخ الشاطبي رحمه الله الذي سماه إبراز المعاني من حرز الأماني، وهما شرحان أصغر وأكبر، والأكبر إلى الآن لم يتم، والأصغر مجلدان.

ومنها: اختصار لتاريخ دمشق وهما أيضاً أكبر وأصغر وكلاهما تام، فالأكبر بخطه في خمسة عشر مجلداً والأصغر في خمس مجلدات. ومنها كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في مجلدين ومختصر في مجلدة صغيرة. ومنها: الكتاب المرقوم في جملة العلوم يجمع عدة مصنفات في مجلدين، الأول فيه خطبة العلم الكبرى التي سماها خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول، وكتاب نور المسرى في تفسير آية الإسراء وشرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى، وضوء الساري أي رؤية معرفة الباري، والمحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول، وكتاب البسملة، والباعث على إنكار البدع والحوادث، وكتاب السواك وما أشبه ذلك. ومختصر كتاب البسملة وغير ذلك.

«ومنها: كشف حال بني عبيد، والواضح الجلي في الرد على الحنبلي، وإقامة الدليل الناسخ لجزء الفاسخ، والأصول من الأصول، ومفردات القراءة، وشيوخ الحافظ البيهقي، ومقدمة في النحو، والألفاظ المعربة، والقصيدة الدامغة، وقصيدتان في منازل طريق الحج ونظم مفصل الزمخشري، ونظم العروض والقوافي، ونظم شيء من متشابه القرآن، وشرح عروس السمر».

«وابتدأ كتباً كثيرة لم يتفق إلى الآن إتمامها ونحن في سنة تسع وخمسين وستمائة التي تعقبها سنة ستين فيها: كتاب جامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفهن الله تعالى، ومختصر تاريخ بغداد، وتقييد الأسماء المشكلة، ورفع النزاع بالرد على الأتباع، والمذهب في علم المذهب، ونية الصيام وما في يوم الشك من الكلام، وشرح نظام المفصل، والأعلام بمعنى الكلمة والكلام، وشرح لباب التهذيب والأرجوزة في الفقه، وذكر من ركب الحمار، ومشكلات الآيات، ومشكلات الأخبار، وكتاب القيامة، وشرح أحاديث الوسيط، وتعاليق كثيرة في فنون مختلفة من غير ترتيب على طريقة التذكرة لأبي علي الفارسي، وأمالي ثعلب، وأمالي الزجاجي، ونحو كتاب المجالسة، واختصار جملة من الدواوين.

Marfat.com

وقد نظم أحد الفضلاء بعض هذه المصنفات في أبيات كتبها له (أي لأبي شامة)[١] فقال:

هذا الشهاب الثاقب الفهم الذي ... قد فاق في بحر العلوم وشطّهِ
أكرم بتحقيق وإتقان وتصـ ... ـنيف له وبراعة في ضبطه
وعناية من ربه فيما يحاو ... له به فأحله في وسطه
فكلامه في الفقه يشبه ما تقد ... م من كلام الشافعي وسبطه
يبني على نص الكتاب وسنة ... المصطفى في رفعه أو حطه
ومذاهب العلماء يلحظها فيفتي ... بالمرجح عنده من قسطه
ويفسر القرآن والأخبار عن ... حذف بمفهوم الكلام وربطه
وبنص أسماء الورى وحديثهم ... ووفاتهم فكأنهم من رهطه
شرح الصدور بشرحه لقصائد ... نبوية في قبضه أو بسطه
والشاطبية جولوا أفكاركم ... فما شرحها إن كنتم من شرطه
وله كتاب الروضتين وهذب التا ... ريخ مختصراً له من شحطه
وكتابه المرقوم فيه مصنفا ... ت في علوم جازها في مرطه
منها المحقق والسواك وباعث ... مع مبعث أحسن به وبقمطه
والضوء والإسراء وبسملة ومر ... شدها الذي أحيا بحسن محطه
ولنظمه في النحو والأوزان الـ ... ـأحكام لم يك ما مضى من سمطه
وقد ابتدا كتباً فأن أبقه من ... قوّاه أكملها بجودة سفطه
رفع النزاع ومشكل الـ ... آيات والأخبار مما شده في قمطه
أرجو له عفو الإله فأنه ... ما زال يطلب عفوه في خطه

وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون (٥/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥) مؤلفاته، وهي:

١ ـ إبراز المعاني من حرز الأماني. أعني الشاطبية.
٢ ـ أزهار الروضتين في أخبار الدولتين، أعني نور الدين وصلاح الدين.
٣ ـ الأصول في الأصول.
٤ ـ الباعث على إنكار البدع والحوادث.
٥ ـ الروض الآنف في الذيل على أزهار الروضتين.

---

(١) أبو شامة: المذيّل ص٤٠.

Marfat.com

٦ ـ شرح قصيدة البردة.

٧ ـ شرح القصائد السبع في المدائح النبوية للسخاوي.

٨ ـ شرح المقتفى في مبحث مبعث المصطفى ﷺ.

٩ ـ ضوء القمر الساري إلى معرفة رؤية الباري.

١٠ ـ كتاب البسملة الأصغر.

١١ ـ كتاب البسملة الأكبر.

١٢ ـ كتاب السواك وما أشبه ذلك.

١٣ ـ كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والكيد.

١٤ ـ المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول ﷺ.

١٥ ـ مختصر تاريخ ابن عساكر.

١٦ ـ المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز.

١٧ ـ مفردات القرآن.

١٨ ـ المقاصد السنية في المدائح النبوية.

١٩ ـ نظم المفصل للزمخشري في النحو.

٢٠ ـ النور المسرى في تفسير آية الإسرا.

Marfat.com

عصر أبي شامة وبيئته

أحوال العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية

يجد الباحث في تاريخ الدولتين الزنكية والأيوبية، لزاماً عليه، أن يحيط بأحوال العالم الإسلامي بشكل عام، وأحوال الخلافتين العباسية والفاطمية بشكل خاص، ليتسنى له فهم الظروف التي ساهمت في إبراز آل زنكي وآل أيوب على مسرح الأحداث السياسية فهماً صحيحاً فبعد فترات الزهو والانتصار التي عرفها العالم الإسلامي، بدأ الوهن يدب في أوصاله منذ القرن الحادي عشر الميلادي. ففي جناحه الشرقي خلافتان إحداهما عباسية سنية في بغداد، والأخرى فاطمية شيعية في القاهرة، وولاء المسلمين موزع بينهما. وقد أنهكتهما مشاكلهما الداخلية بحيث باتتا عاجزتين عن حماية حدودهما، وحدّ أطماع الطامعين فيها من قوى محلية وخارجية تمثلت بالصليبيين والبيزنطيين. ولم يكن الغرب الإسلامي بأفضل حال، فقد كان هو أيضاً يعاني من الإنهيار بسبب تفككه إلى دويلات عرفت بدول الطوائف في الأندلس، الأمر الذي أطمع الإربان فيها وقوّى أملهم في طرد المسلمين نهائياً من الأندلس، وبدا كأن معجزة فقط هي التي تنقذ العالم الإسلامي من انهيار محقق، وقد تحققت هذه المعجزة فعلاً على أيدي المرابطين في المغرب الإسلامي والسلاجقة الأتراك في المشرق ويهمنا هنا الحديث عن السلاجقة، فعن طريقهم ظهر الأتابكة من آل زنكي، وعن طريق هؤلاء ظهر الأيوبيون فيما بعد.

والسلاجقة مجموعة من قبائل الغز التركية تنسب إلى سلجوق بن دقاق، الذي جمع شملها ووحد كلمتها، وبدأت به أهميتها، منذ أن انتقلت معه من سهوب تركستان، موطنها الأصلي، إلى بلاد ما وراء النهر، حيث اعتنقت الديانة الإسلامية على المذهب السني. واستقرت بنواحي سمرقند وبخارى أواخر القرن الرابع الهجري وتعاونت مع السامانيين في نشر الإسلام بين الأتراك الوثنيين وحماية الثغور الإسلامية، وما لبثت جموعهم أن اتجهت غرباً نحو خراسان بقيادة طغرل بك، حفيد سلجوق، حيث استولوا على مرو ونيسابور وبلخ وطبرستان وخوارزم

Marfat.com

سنة ١٠٣٧م. كما استولوا على همذان والدنيور، والري، وأصبهان التي اتخذها طغرل بك عاصمة له من بين سنتي ٤٣٣ ـ ٤٣٧هـ. وقد حرصوا خلال زحفهم على إظهار تمسكهم بالمذهب السني ومناهضة المذهب الشيعي دون هوادة.

وفي الوقت الذي كانت فيه جموع السلاجقة تنثال غرباً، كانت الخلافة العباسية تعاني الكثير من سيطرة الأسرة البويهية الشيعية على الخلفاء العباسيين بحيث باتت سلطة الخليفة العباسي اسمية، ليس له من مظاهرها إلّا الخطبة والسكّة وتعيين القضاة وخطباء المساجد بينما استأثر البويهيون بالحكم واتخذوا لأنفسهم لقب ملك أو شاهنشاه، بدلاً من لقب أمير الأمراء الذي كان سائداً في عصر النفوذ التركي السابق، كما قرنت أسماؤهم باسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة[١].

وعانت الخلافة العباسية، إضافة إلى النفوذ البويهي، من مؤامرات الدولة الفاطمية، مما حمل الخليفة العباسي القائم بأمر الله على التطلع إلى الاستعانة بطغرل بك والسلاجقة للتخلص من البويهيين الذين كانوا قد طردوه من منصب الخلافة، فأسرع طغرل بك بتلبية ندائه ودخل بغداد سنة ٤٤٧/ ١٠٥٥م وأعاده القائم إلى سدة الخلافة بعد أن قضى على دولة الملك الرحيم أخر الملوك البويهيين. وبذلك أصبح السلاجقة السنيون أصحاب السيطرة في بغداد، حيث اتخذ طغرل بك لقب سلطان ونقشه على العملة الإسلامية لأول مرة. وهذا اللقب الذي يعني القوة والنفوذ، كان يطلق على الخلفاء وحدهم.

وكان رد الخلافة الفاطمية على دخول السلاجقة بغداد وقضائهم على البويهيين سريعاً إذا شجعت وأيّدت ثورة القائد التركي البساسيري بالمال والسلاح، ممّا مكّنه من التغلب على جيوش الخليفة العباسي في سنجار سنة ٤٤٩. ثم أخذ ينتظر فرصة مناسبة لدخول بغداد نفسها، فانتهز خروج طغرل بك من بغداد إلى شمال العراق ليخضع تمرداً قام به أخوه إبراهيم وهاجم بغداد واستولى عليها، وأجبر الخليفة القائم على إصدار عهد عنه يعترف فيه بعدم أحقية بني العباس في الخلافة مع وجود الفاطميين أبناء فاطمة الزهراء. وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد، وأرسلت إليه عمامة الخليفة وعرشه. إلّا أن ثورة البساسيري لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما عاد طغرل بك ليقضي على البساسيري وليعيد الخليفة القائم[٢]. وتوّج انتصاره هذا بالزواج من ابنة الخليفة القائم عام

(١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٤/ ١٤٢.
(٢) النجوم الزاهرة ٥/ ١١ ـ ١٢.

Marfat.com

٤٥٤هـ. لكن العمر لم يطل به بعد هذا الزواج فما لبث أن توفي في العام التالي ٤٤٥/ ١٠٦٣ وقد جاوز السبعين.

وولي الحكم بعد طغرل بك، ابن أخيه السلطان عضد الدين ألب أرسلان فحمل لواء الجهاد ضد البيزنطيين والشيعة على السواء طيلة فترة حكمه التي دامت عشرة أعوام (١٠٦٣ ـ ١٠٧٣م). وبسط سيطرته على حلب سنة ١٠٧٠م وكانت معقلاً للشيعة، ومنها أرسل قائده أتسز الخوارزمي إلى فلسطين وكانت تابعة للفاطميين، ففتح الرملة والقدس وما جاورها. ثم قصد دمشق وحاصرها وخرّب ضواحيها، وقطع الإمدادات عنها، ولكنه فشل في دخولها.

ومن حلب اتجه ألب أرسلان لمقابلة الأمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس الذي توغل في الأراضي الإسلامية حتى بلغ ملاذكرد التي دارت عندها معركة هائلة كتب النصر فيها لألب أرسلان وأسر الأمبراطور البيزنطي سنة (٤٦٢ ـ ١٠٧١م).

وتمهدت الطريق بهذا النصر لألب أرسلان إلى ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى. فوجه إليها ابن عمه سليمان قتلمش فأقام فيها دولة سلاجقة الروم. ولم يعش ألب أرسلان بعد نصره هذا طويلاً، إذ قتل على يد أحد أتباعه أثناء حروبه في بلاد ما وراء النهر عام ١٠٧٣م. وكان قد أوصى بالملك من بعده لولده ملكشاه.

وفي عهد ملكشاه، استطاع القائد اتسز الاستيلاء على دمشق عام ٤٦٨هـ وما لبث ملكشاه أن عيّن أخاه تتش ملكاً على بلاد الشام وجعل الحكم وراثياً في أسرته، وبذلك قامت في دمشق دولة سلاجقة الشام التي وقفت في وجه أي تقدم فاطمي من مصر باتجاه الشام.

وجاء وفاة ملكشاه، آخر السلاطين السلاجقة العظام عام (٤٨٥ ـ ١٠٩٢م) إيذاناً بتفكك إمبراطورية السلاجقة، فقد خلف من الأولاد أربعة هم: بركياروق، ومحمود، ومحمد وسنجر. وقد انقسمت دولته فيما بينهم. فتنافسوا، ومن بعدهم أولادهم، على السيطرة على الخليفة العباسي وكان من يسيطر عليه منهم يتخذ لنفسه لقب السلطان. كما تنافس ابنا تتش، رضوان ودقاق في الشام[1]. وأعمامه وأبناءهم في ولايات المشرق[2].

ولعل أبرز مظهر لانحلال دولة السلاجقة، إضافة إلى التفكك والتناصر الأسري، هو استقلال عدد من كبار قادة السلاجقة ممن اصطلح على تسميتهم

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٤٨.
(٢) المصدر السابق ٨/ ١٠٣ ـ ١١٣.

Marfat.com

بالأتابكة، بولاياتهم، والأتابكة هي جمع لكلمة أتابك التركية المؤلفة من مقطعين: «أتا» بمعنى أب، و«بك». بمعنى السيد الذي يربي أولاد الملوك. ثم أصبح لقباً تشريفياً يمنح لكبار القادة بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة. وقد أطلقت على الدول التي أسسوها الأتابكيات وهي كثيرة عديدة، وبيوتها شتى لا تنتسب إلى نسب واحد. ولكن مما يجمعها هو صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقي والنظام الإقطاعي الإسلامي. وأهم هذه الأتابكيات أتابكية الموصل التي أسسها عماد الدين زنكي. وعن طريق آل زنكي ظهر الأيوبيون. ولعب هؤلاء وأولئك أدوارهم على مسرح الحوادث السياسية في الشرق الأدنى الإسلامي.

ولم تكن الخلافة الفاطمية في مصر، أسعد حالاً في هذه الفترة من الخلافة العباسية التي كانت في هذه الفترة في أشد حالات الضعف. وقد كان أول ظهورها بالمغرب على يد عبيد الله الذي أعلن الخلافة، وتلقب بلقب المهدي، وتسمى بأمير المؤمنين سنة (٢٩٧ ـ ٩٠٩م). وبعد أن استولت على مصر والشام ومعظم بلاد جزيرة العرب أخذ الضعف يدب في أوصالها، نتيجة لاستبداد الوزراء، وهو نفس السبب الذي تسبّب في ضعف الخلافة العباسية حين استبد بها أمراء الأمراء، ومن بعدهم ملوك بني بويه، ثم سلاطين السلاجقة. وقد كان الخلفاء الفاطميون أثناء إقامتهم بالمغرب، وفي أوائل حكمهم في مصر، يعتمدون على أنفسهم في تدبير الأمور، وإن استخدموا في مصر الكاتب أو المدبّر أو الوسيط أو السفير، وهي تسميات تدل على الذي يتصرف برأي الخليفة دون أن يبلغ مرتبة الوزير، ولما اتخذوا الوزراء منذ عهد الخليفة العزيز بالله، كان هؤلاء ممن عرفوا بوزراء القلم أو وزراء التنفيذ.

واعتباراً من النصف الثاني من عهد الخليفة المستنصر بالله، الذي تميزت فترة حكمه الطويلة بالمجاعات بسبب قصور النيل وما تلاه من قحط شديد استمر سبع سنوات، كثرت الفتن والقلاقل، ففقد الخليفة ووزراؤه كل سلطة في البلاد بحيث كان هؤلاء الوزراء يسقطون بسرعة بحيث عيّن في مدى أربع سنين عشرون وزيراً منهم.

ولما أضحى الخليفة المستنصر عاجزاً على قمع الفتن. وتصريف أمور الدولة بنفسه، التجأ إلى واليه على عكة بالشام، بدر الجمالي، الأرمني الأصلي، فطلب منه القدوم إلى مصر لتنظيم أمورها وإخماد ما نشب فيها من فتن، ورحب بدر الجمالي بذلك ودخل مصر في جيش كبير من الأرمن عام ٤٦٦هـ وقبض على زمام الأمور بيد من حديد. فخلع عليه الخليفة المستنصر خلعة الوزارة إلى جانب

Marfat.com

تفويضه إمرة الجيوش. وبذلك أصبحت سلطته تمتد إلى كل أمر من أمور الدولة فهو أمير الجيوش، المسيطر على الجيش وكافل قضاة المسلمين، المسيطر على السلطة القضائية، وهادي دعاة المؤمنين، أي المشرف على الدعوة الفاطمية[١]. وقد حكم بدر حكماً مطلقاً إلى وقت وفاته سنة (٤٨٧هـ ـ ١٠٩٤م) حيث كان المستنصر معه كالمحجور عليه[٢].

وبعد بدر الجمالي توالت سلسلة من وزراء التفويض أولهم الأفضل بن بدر الجمالي الذي كان له من القوة ما حمله على إيصال المستعلي، الابن الأصغر للمستنصر، لمركز الخلافة رغم أحقية أخيه نزار بها. وما لبث أن تخلص منه باغتياله بالسم عام ١١٠١م وأحل في مركز الخلافة المنصور بن المستعلي وكان لا يزال طفلاً في الخامسة من عمره ولقبّه بالآمر بأحكام الله، وحجر عليه ولم يسمح له بالظهور إلّا مرتين في السنة، ولكن الآمر بعد أن بلغ رشده حاول أن يسترد نفوذه الضائع فتخلص من وزيره بعد أن دسّ السم له فقتله عام ١١٢١م. وشغل هذا المنصب بعد الأفضل المأمون البطائحي الذي حاول أن يسير على خطى سلفه من حيث الاستبداد بالخليفة، الأمر الذي اضطر الخليفة الآمر أن يدس له أحد مماليكه فقتله عام ٥١٩ ـ ١١٢٥م.

وفي عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م) قتل الآمر على يد أحد أتباع عمه نزار، الذين كانوا يعتبرونه، وأباه من قبله، غاصبين للحكم[٣]. ولمّا لم يترك الخليفة الآمر وريثاً، فقد انتقلت الخلافة إلى أحد أقربائه ويدعى عبد المجيد، الذي تلقب بالحافظ لدين الله. وفي عهده استبد بالسلطنة الوزير الأكمل بن الأفضل الذي قبض على الخليفة وسجنه واستولى على ما في قصره من أموال وتحف. ولما لبث الأكمل أن قتل عام ٥٢٦هـ وأخرج الحافظ من سجنه. وقد اعتبر هذا اليوم يوم عيد يحتفل به كل عام وسمي عيد النصر[٤]. وبعد وفاة الحافظ عام ٥٤٤هـ ١١٤٦م اشتد التنافس بين كبار موظفي الدولة على منصب الوزارة، وساعدهم على ذلك صغر سن الخلفاء الذين توالوا على الخلافة بعد الحافظ وهم على التوالي: الظافر والفائز والعاضد وتوالى على منصب الوزارة في هذه الفترة الأخيرة من حياة الدولة الفاطمية رضوان بن ولخشي والي الغربية والعادل بن السلار والي البحيرة، وطلائع بن رزيك

---

(١) الخطط المقريزية ٢/ ٣٠٤.
(٢) النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣.
(٣) النجوم الزاهرة ٥/ ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٤) خطط المقريزي ٢/ ١٧٢.

والي الأشمونين وشاور والي قوص، وأبو الأشبال ضرغام الذي تولى الوزارة لآخر الخلفاء الفاطميين العاضد بعد أن هزم شاور الذي هرب إلى الشام ليستنجد بالزنكيين.

يتضح لنا، من هذه العجالة أن الخلافتين العباسية والفاطمية لم تكونا على حال تحسدان عليه، وشغلتهما مشاكلهما الداخلية عن مقاومة خصم مشترك لكلتيهما وللإسلام وتمثل هذا الخصم بالحملات الصليبية التي استهدفت ظاهرياً استخلاص الأماكن المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين وحماية الحجاج الوافدين من أوروبا، بشكل خاص، مما كانوا يلاقونه من عراقيل ومصاعب واضطهاد من جانب المسلمين، ولما كان العصر عصر العاطفة الدينية المشبوبة فقد اتخذ القائمون على تلك الحملات من الدين ستاراً يخفون وراءه مطامعهم وأهدافهم الحقيقية ليجتذبوا أكبر عدد من المشاركين بهذه الحملات. والواقع أنه تجمعت من الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ما ينبغي أن يأخذه الباحث المنصف بعين الاعتبار وهو يدرس تاريخ هذه الفترة. وإذا كانت قلة من المشاركين بهذه الحملات قد حملت شارة الصليب لدوافع دينية. فقد كان عدد من زعماء هذه الحملات قد قصدوا من اشتراكهم بها أن يفتتحوا أراضي جديدة لهم يرفعون عليها أعلامهم وتدين لهم بالطاعة. كما قصدت المدن التجارية في أوروبا مثل البندقية وجنوى وبرشلونه وبيزا وفلورنسا أن تجني الأرباح الهائلة من احتكار التجارة بين الشرق والغرب، والسيطرة على طرق التجارة التي تمر عبر الوطن العربي. والقضاء على البحرية الإسلامية التجارية، لذا فإنها موّلت هذه الحملات وساعدت في نقلها على متن سفنها إلى ميادين القتال، متخذة من هذه الحرب فرصة لتنشيط تجارتها. لقد كان الشرق منجم ذهب هرع لينهبه الأفاقون والمفلسون واللصوص والباعة والخدم والرهبان والرقيق يسيطر عليهم جميعاً حمى الخوف على الحياة والاختيار بين الإثراء والشحاذة على حد تعبير أحد المؤرخين. لقد كانت الحملات الصليبية في واقع الأمر استعماراً سياسياً واقتصادياً لهذه المنطقة من العالم.

وإذا كان الصليبيون قد نجحوا جزئياً في تحقيق أهدافهم واستطاعوا إقامة مملكة في القدس وإمارات ثلاث في الرها وأنطاكية وطرابلس، فإن نجاحهم هذا لا يُعزى إلى وفرة عددهم، وإلى سيل الإمدادات الذي لم ينقطع من الغرب الأوروبي بتشجيع ودعم من البابوية في روما، ومن الإمبراطورية البيزنطية فحسب، بل يعود أساساً إلى تفرق كلمة المسلمين وضعف الخلافتين الفاطمية والعباسية مع العداء المذهبي الذي دمغ بطابعه تصرفات وعلاقات كلتا الخلافتين الواحدة بالأخرى، فأفاد الصليبيون من هذا الواقع ووظفوه لصالحهم.

Marfat.com

١ ـ المواجهة الصليبية ـ العربية الإسلامية

ليس بمقدورنا في هذا الدراسة أن نقدم تقريراً مفصلاً لسير الأحداث العسكرية والسياسية ولكننا نود أن نشير إلى أن عداوة مريرة نشأت بين الأمم التي تدين بالمسيحية والإسلام منذ أن أخذ المسلمون يمدون نفوذهم نحو البحر المتوسط، بعد أن أجبروا البيزنطيين على التراجع إلى أقصى بلادهم في آسيا الصغرى وسيطروا في عهد الخلفاء الراشدين على أملاكهم في سوريا والجزيرة ومصر وأرمينية وقبرص ورودس، أي على معظم شرق البحر المتوسط كما سيطروا في عهد الخلافة الأموية على المغرب والأندلس وجزر البيار وسردينية وكريت في غرب المتوسط، ولما جاءت الدولة الأغلبية، في شمال إفريقيا، استولت على صقلية سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م ثم على مالطة ٢٢١هـ/ ٨٣٥م وفتح المسلمون كالبريا جنوب إيطاليا ووصلوا إلى روما سنة ٢٣١هـ/ ٨٤١م مقر البابا التي دخلوها وأحرقوها ونهبوا كنائسها، واضطر البابا ليون الرابع أن يختبئ. ثم لما أسس الفاطميون خلافتهم في شمال إفريقيا، بعد قضائهم على الأغالبة، استولوا على صقلية سنة ٣٣٣هـ/ ٩١٥م وأخذوا يغزون أيضاً في كالبريا (قلّورية كما سماها العرب) وهاجموا لمبارديا، وفتحوا مدينة جنوى سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م. وهاجموا جنوب شرق فرنسا، كما غزوا سواحل بلاد الروم.

وكان من الطبيعي والمنتظر أن تستهدف الأمم النصرانية، بعد أن اشتد ساعدها، الانتقام من المسلمين، ولم يكن متوقعاً أن يأتي الخطر من جانب البيزنطيين الذين تلقوا ضربات قاسية من المسلمين، منذ انسياحهم في حركة الفتوح، باستيلائهم على أملاكهم في حوض البحر المتوسط، ومن ناحية أخرى بسبب أن حدودها في أوروبا كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية وبخاصة البلغار. ولما قويت بيزنطة، بضعف الخلافة العباسية، وبعد تسوية علاقاتها بالبلغار، مدّت نفوذها في عهد الأسرة المقدونية إلى الإمارات الإسلامية في شمال الشام وفي إقليم الجزيرة، كما استعادت رودس وقبرص وكريت. وجعلتها مراكز للإغارة على سواحل المسلمين. وفي أوائل عهد الفاطميين، بعد أن نقلوا خلافتهم من المغرب إلى مصر، وصل البيزنطيون إلى قرب القدس مرار[1] إلّا أن الفاطميين أوقفوا تقدمهم وما لبثوا أن عقدوا الصلح معهم. دون أن يسترجعوا الجزر التي فقدوها ولما جاء السلاجقة إلى العراق، زادوا من ضعف البيزنطيين، بخاصة بعد أن تقدموا باتجاه آسية الصغرى التي فتحوا أبوابها لهجرة قبائلهم فتكوّنت إمارة

(١) النجوم الزاهرة ٤/ ١١٨.

Marfat.com

سلجوقية قوية على يد سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، اتخذت قونية عاصمة لها وبدأت تتوسع مقتطعة الأراضي البيزنطية جزءاً جزءاً. كما اضطروا البيزنطيين أن يدفعوا لها الجزية[١].

ولكن الخطر الحقيقي جاء من أهل أوروبا الذين عرفهم العرب باسم الفرنجة أو الإفرنج[٢]، أو الفرنج، وبخاصة من العناصر النورماندية الشمالية المخاطرة الذين غزوا إنكلترا في القرن الثاني الميلادي وفيها تحولوا إلى النصرانية، ثم انتقلوا إلى شمال فرنسا واستقروا في منطقة النورماندي التي نسبت إليهم. ومن هناك بدأوا يهاجمون سواحل الأندلس الإسلامية سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٤م. كما حاولوا بقيادة زعيمهم روبير جيسكار أن يقضوا على نفوذ بيزنطية على سواحل الأدرياتيك. وحينما صُدّوا اتجهوا إلى جنوب إيطاليا وصقلية ومالطة وكانت تخضع للفاطميين ولآل باديس في تونس، واستولوا عليها بقيادة ملكهم روجار Roger في سنة ٤٨٤/ ١٠٩١ بعد أن حطموا سيطرة الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط، وبدأوا يغيرون على مراكب المسلمين المتجهة من مصر إلى إفريقيا[٣]. كما هاجموا طرابلس الغرب سنة ٥٤١هـ١١٤٦م واستولوا على المهدية سنة ٥٤٣هـ؟ ١١٤٨م وقد تحالفوا للقضاء على نفوذ المسلمين في البحر المتوسط مع دويلات قوية بدأت تظهر في إيطاليا، مستقلة عن نفوذ بيزنطية مثل بيزا وجنوى والبندقية.

كذلك جاء الخطر من قبل نصارى الأندلس الذين بدأوا يسترجعون جزءاً فجزءاً الأراضي الواقعة تحت سيطرة المسلمين فيما عرف بحروب الاسترداد (الريكونكيستا) مستغلين ضعفهم وانقسامهم إلى دويلات يحكمها ملوك عرفوا بملوك الطوائف. ولكن مما حدّ من انتصاراتهم ظهور الدولتين المرابطية والموحدية في المغرب اللتين أوقفتا تقدم الأسبان وجمّدتا نشاطاتهم المعادية إلى حين.

ولكن الخطر الداهم على المسلمين، أتى على الخصوص من عناصر الفرنجة الساكنين فيما سماه المؤرخون العرب في العصور الوسطى بالأرض الكبيرة، وهي تمتد من شمال الأندلس إلى رومة شرقاً وكانت البابوية في روما تسيطر بسلطتها الروحية المطلقة عليهم. وباستثناء فرنجة فرنسا الذين أغار المسلمون عليهم وهاجموا أراضيهم في عهد الأمويين والعباسيين[٤] لمجاورتها الأندلس، لم يكن

(١) رحلة ابن جبير ص٢١٧.
(٢) المصدر نفسه ص٢٢٢.
(٣) الكامل في التاريخ ٩/ ٥.
(٤) الكامل في التاريخ ٥/ ١٠٢.

Marfat.com

الإسلام على عداء مع سائر فرنجة أوروبا، إلّا أنهم حينما دعاهم البابا إلى حرب المسلمين لبوا النداء وأضحوا من أشد أعداء الإسلام.

ابتدأت أحداث الحركة الصليبية الفعلية يوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٠٩٥م بمؤتمر كليرمونت (Clermont - Ferrand) بجنوب فرنسا، بناءً على دعوة البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) وحضره حشد غفير من الناس، كنسيين وعلمانيين وقد ألقى البابا أوربان في المؤتمر خطاباً حض فيه على حرب المسلمين ولتحرر الكنيسة الشرقية من ربقتهم، والأراضي المقدسة من سيطرتهم مقابل غفران جزئي لكل من سيشارك في هذه الحرب سواء مات في الطريق إلى الأراضي المقدسة أو قتل في الحرب ضد المسلمين، كما خطب بطرس الناسك أيضاً ولقيت خطبة البابا العاطفية الحماسية، بما لوحت به من مكاسب دنيوية ورغبت بالمكاسب الدينية استجابة فورية وحماسية تجسدت في الصيحة التي رددها الحاضرة: الله يريد ذلك (Dieu le Veut - Dies le volt) والواقع أن هذه الاستجابة لم تكن ناتجة عن فصاحة البابا وقوة بيانه بقدر ما كانت استجابة للمشروع الذي طال انتظارهم له. فقد كانت الدعوة إلى القيام بالحرب الصليبية تتناسب مع العصر تماماً، إذ كان المجتمع الإقطاعي الأوروبي، بغطرسته وكبريائه وتعصبه ضد غير الكاثوليك على أتم الاستعداد لتلبية مثل هذا النداء الذي يحل مشكلته في الدنيا ويضمن له المغامرة والكسب مثلما يضمن له خلاص الروح.

أخذ الفرنجة يتجمعون في كل مكان لقتال المسلمين وهم يعلقون على الكتف الأيمن أو على الكتفين صليباً من قماش أحمر لذلك عرفت الحروب التي قاموا بها ضد المسلمين بالحروب الصليبية، أما المؤرخون العرب فسموها بحركة الفرنج[1].

وقد اشترك في أول موجة صليبية رجال ونساء وأطفال جاؤوا من كل مكان في أوروبا يقودهم بطرس الناسك إلى بيت المقدس. حيث تحركوا بزحوفهم الحاشدة عبر وسط أوروبا إلى القسطنطينية، فقتلوا اليهود في طريقهم وسلبوا ونهبوا ويبدو أن بطرس الذي كان قادراً على تحريك مشاعر الجماهير وإثارتها لم يكن يصلح لقيادة جيش عجيب مثل جيشه الذي تألف من المقاتلين والطامعين، والذي ضم مئات من الأفاقين والمجرمين وبنات الهوى والفلاحين المعدمين والفقراء من أهل المدن فضلاً عن عدد صغير من الفرسان. فلما وصلوا إلى أسوار

(١) النجوم الزاهرة ٥/ ١٤٦.

Marfat.com

القسطنطينية في سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٦٩م نصحهم ملكها ألكسيوس كومينوس (١٠٨١ ـ ١١١٨م) بألّا يتسرعوا في العبور إلى آسيا الصغرى. ولكنهم أساؤوا التصرف فأحرقوا القصور ونهبوا الكنائس، فأمرهم بالرحيل وسرعان ما وقعوا في كمين أعده لهم السلاجقة فأجهز على الحملة الشعبية في حين تمكن بطرس الناسك من النجاة بنفسه والهرب إلى القسطنطينية.

وفي الوقت ذاته قامت تجمعات أخرى كبيرة معظمها من فرسان الفرنجة أكثر تنظيماً من السابقة. ولذا كان خطرها شديداً على المسلمين. وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون ارتبط اسمهم بهذه الحملة مثل غودفروا دي بويون Godefroi de Bouillon ويسميه العرب كند فري أو كند هري، وشقيقه بودوان (Boudouin) ويسمونه بغدوين أو بردويل. وبوهيمند النورماندي (Bohémond) ويسمونه بيمنت أو بيمند[1] وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة نحو الشرق من طرق متعددة، بعضها عن طريق وسط أوروبا، والبعض الآخر عن طريق سهول إيطاليا الشمالية. فلما وصلوا إلى القسطنطينية سنة ٤٩٠/ ١٠٩٧ ليعبروا بحر مرمرة أو ما سماه العرب بالخليج أو «المجاز» إلى بلاد الترك السلاجقة لم يمكنهم ألكسيوس من العبور حتى يتعهدوا له وأن يقسموا له يمين الولاء بإعادة أنطاكية إذا ما استولوا عليها من السلاجقة.

كانت نيقية أول أهداف الصليبيين. وهي عاصمة دولة سلاجقة الروم يحكمها قلج أرسلان وتتحكم في الطريق الأساسي عبر الأناضول. فتم فرض حصار عليها استسلمت بعده للإمبراطور البيزنطي خوفاً من وحشية الصليبيين وكان النصر حافزاً للصليبيين على مواصلة الزحف جنوباً صوب فلسطين. ولكنهم توقفوا أمام أنطاكية لحصانتها[2] ولأن جماعات مسلمة من مدن حلب ودمشق والقدس خرجت لنصرتها. وبعد حصار دام تسعة أشهر استولى الصليبيون على أنطاكية من صاحبها التركي ياغيسيان في آذار ١٠٩٨/ ٤٩١هـ فلما دخلوها ذبحوا معظم أهاليها المسلمين بحيث لم تعد ترى الأرض من كثرة الجثث. ومع أن سلاجقة الشام والجزيرة، ومعهم العرب، ساروا لاستعادتها بقيادة كربوقا التركي أمير الموصل، وكادوا يستولون عليها، وأصبح الصليبيون فيها محاصرين، لكن الانقسامات بين المسلمين أضاع عليهم الفرصة فانهزموا هزيمة منكرة[3]. وكان الصليبيون قد اتفقوا

(١) ابن الأثير ٨/ ١٨٥ ـ ١٨٧.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٦.
(٣) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

Marfat.com

مع ألكسيوس على أن تسلم إليه أنطاكية، إلّا أنهم سلموها لبوهيمند الذي تركها بعد ذلك لابن أخيه تنكرد (Tangrid).

بعد هذا الانتصار سار قسم من الصليبيين نحو بلاد الجزيرة فاستولوا على مدن عديدة منها الرُّها[١] وأغلب سكانها من الأرمن: لكن أتابكة السلاجقة في الجزيرة تمكنوا من وقف تقدمهم إلى بغداد. كذلك ذهب قسم آخر من الصليبيين إلى الجنوب وكانوا يسيرون على طول الشاطئ وتمدهم المراكب الإيطالية بالذخائر والرجال فكانت مدن الشام العليا وموانيها تسلّم إليهم دون مقاومة. وقد تعامل الصليبيون بمنتهى القسوة مع أهل المدن المستسلمة، فحينما دخلوا معرة النعمان مثلاً، قتلوا من الرجال والنساء أكثر من مائة ألف، وأخذوا من كان حياً لبيعه.

وهكذا قامت إمارتان صليبيتان في بلاد الشام، رغم أن المسلمين كانوا قادرين على إبادة القوات الصليبية لو نبذ حكام المنطقة الشك والعداوة التي رسختها طوال القرن السابق حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة، الأمر الذي جعلهم عاجزين عن مقاومة قوات الصليبيين. لقد أفاد الصليبيون كثيراً من التشرذم السياسي للحكام العرب والسلاجقة في المنطقة العربية، سواء أثناء تقدمهم في آسيا الصغرى، أو أثناء صراعهم في بلاد الشام. وإذ لم يدرك المسلمون حقيقة الخطر المحدق بهم فإنهم لم يروا ضرورة تدعوهم لنبذ ما هم فيه من خلافات[٢]. ولا بُدّ أن السلاجقة ظنوا أن الحملة الصليبية لم تكن أكثر من حملة بيزنطية من النمط الذي تعودوا عليه. أما الفاطميون الشيعة فإنهم لم يفكروا أبداً في مساعدة السلاجقة السنّة ضد الصليبيين، وإنما حاولوا التفاهم مع الصليبيين على اقتسام الأرض والنفوذ على حساب الأتراك السلاجقة، حيث أرسل الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستعلي سفاره لمفاوضة الصليبيين وهم أمام أنطاكية على اقتسام بلاد الشام. ولم تثمر هذه المحاولات شيئاً. وعاد سفراء الأفضل ومعهم رسل من الصليبيين إلى القاهرة، ولكنهم لم يكونوا مفوضين بأي سلطات ولا شك أن الفاطميين، كالسلاجقة، ظنوا أن هذه الجيوش القادمة من الغرب الأوروبي مجرد مرتزقة في خدمة البيزنطيين.

---

(١) الكامل في التاريخ ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٨.
ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩.
ـ ياقوت: معجم البلدان ٤/ ٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٢ ـ ١٨٥.

وقرر الأفضل أن يفيد من الحرب الدائرة في شمال بلاد الشام بين السلاجقة والصليبيين، وبمجرد أن سمع بهزيمة قربوغا في أنطاكية، أدرك أن السلاجقة ليسوا في وضع يسمح لهم بمقاومة هجوم جديد، فشن هجوماً على فلسطين التي كانت في حوزة سقمان وأيلغازي ابني أرتق، وكانا يدينان بالولاء أمير دمشق دقاق. وفي سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م استولى على القدس وأناب فيها قائداً اسمه افتخار الدولة[١].

وفي الشمال من بلاد الشام، كانت الأسر العربية الحاكمة تراقب انهيار السلاجقة في سرور، ولم يتدخل أحد إلى جانبهم. ويذكر ابن الأثير ما نصه: «وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب وصاحب دمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية. . . . .»[٢]. وإذا كان رضوان ودقاق السلجوقيان، قد اتخذا هذا الموقف، فإن موقف الأمراء العرب يصبح واضحاً.

وتحرك ريمون دي تولوز من معرة النعمان على رأس قواته، جنوباً بحذاء منحدرات جبل النصيرية دون مشاكل، لأن الأمراء المحليين كانوا غاية في الضعف والتشرذم لدرجة أن معظمهم كانوا على استعداد لأن يقدموا الأموال والهدايا تحاشياً لهجوم الصليبيين عليهم. وبعدما حدث في أنطاكية والرها ومعرة النعمان، قرر أمراء دمشق وحلب والموصل اتخاذ موقف المراقب السلبي. وجنوب طرابلس اتخذ الصليبيون الطريق الساحلي، ثم انضم غود فري وتنكريد وبوهيمند إلى الجيش الزاحف جنوباً. وقد استولى الصليبيون في طريقهم على بلاد صغيرة إلى أن وصلوا إلى نهر الكلب الذي كان يمثل منطقة الحدود بالنسبة للممتلكات الفاطمية، وتوغل الصليبيون في الأراضي الفاطمية، ولم يدرك الفاطميون حقيقة الخطر الصليبي إلّا بعد فوات الأوان.

كان الفصل الأخير في الحملة الصليبية الأولى، هو الحصار الذي ضربه الصليبيون على مدينة القدس على مدى خمسة أسابيع: من ٧ حزيران إلى ١٥ تموز ١٠٩٩م استبسل خلالها المدافعون فكانوا يفضلون الانتحار بإلقاء أنفسهم من الأبراج عن تسليم أنفسهم[٣] وفي يوم الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩م (٢٢ شعبان

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٩.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٩.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٤٩.

٤٩٢هـ) تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة، ولم ينج من سكانها سوى قائد الحملة الفاطمية افتخار الدولة وعدد من رجاله. وأعقب ذلك مذبحة فظيعة، وأبيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام وجرى الدم في الشوارع وظلت الجثث مطروحة في الشوارع أياماً.

وكان الوزير الأفضل، لما بلغه وصول الصليبيين إلى القدس، قد حشد العساكر المصرية وسار بهم، فلما قرب من القدس، كانوا قد فتحوها، وهجموا عليها وهزموه وأحرقوا من التجأ من عساكره إلى الغابات وقد فرحوا بهذا الانتصار والوصول إلى قبر المسيح بحيث إنهم كانوا يبكون من شدة الفرح. وهكذا سقطت القدس في أيدي الصليبيين بعد أن ظلت في يد المسلمين منذ فتحها زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م.

وعندما خفّت شهوة القتل لدى الصليبيين، كانت أولى المهام التي واجهتهم هي مواراة الجثث التي فاضت منها الروائح النتنة في كل أنحاء المدينة أو التخلص منها بطريقة ما. ثم بدأت مناقشة مشكلة حكم المدينة المقدسة. واجتمع الزعماء الصليبيون، قساوسة وعلمانيين، لكي يقرروا ما ينبغي عمله في هذا الصدد. وقد حدث نزاع على من يتولى السلطة العليا فيها، فقد تنازعتها البابوية، التي كانت تأمل بالسيطرة على الكنيسة الشرقية بالإضافة إلى سيطرتها على الكنيسة الغربية، والمدن الإيطالية التي قامت بنقل الجنود والإمداد على متن سفنها، وبيزنطة التي كانت تريد استعادة مستعمراتها في الشرق. ولكنهم اتفقوا أخيراً على أن يكون غود فري (كند فري أو كند هري) حاكماً عليها تحت لقب «حامي الضريح المقدس» وكان هذا الحل الوسط في حقيقة الأمر هروباً من تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة بشكل حاسم في هذه الدولة الوليدة.

وفي الثاني عشر من تموز عام ١١٠٠ مات غود فري أثناء محاولته مد نفوذه في السهل الساحلي بمساعدة البنادقة الذين قدموا قبل شهر واحد من موته لينافسوا أهل بيزا في الإفادة من النصر الصليبي. وتمّ استدعاء بدوين من إمارته في الرها ليتولى حكم بيت المقدس خلفاً لأخيه المتوفى. وفي الخامس والعشرين من كانون الأول تم تتويجه. وهكذا قامت مملكة بيت المقدس اللاتينية، التي تكونت بالإضافة إلى القدس من يافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل وأريافها التي تسكنها أغلبية من المسلمين الذين رفضوا التعاون مع الصليبيين.

وعلى الرغم من رحيل بعض كبار القادة الصليبيين إلى أوروبا إلّا أن العدد الأكبر منهم بقي في المنطقة حيث كان عليهم أن يقوموا بمهمات الإدارة

Marfat.com

الاستعمارية الاستيطانية، ولأنهم كانوا أقل كثيراً في عددهم من المسلمين والعرب أصحاب البلاد، فقد حاولوا جهد طاقتهم أن يشجعوا الهجرة من أوروبا إلى فلسطين لتدعيمهم. كما كانت من ناحية أخرى أخبار النجاح الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى قد شجعت عناصر أوروبية جديدة على القدوم إلى الشرق العربي رغبة في الحصول على نصيب من المغانم التي شاعت أخبارها في الغرب الأوروبي على ألسنة العائدين من فلسطين وبدأت الدعاية لخروج حملة صليبية جديدة لمساعدة المؤمنين في «جيش الرب» تحقق نجاحاً ملحوظاً.

وفي سنة ١١٠١م كانت حملة جديدة قد تجمعت في الغرب الأوروبي لمساعدة صليبيي الشرق، وكانت عبارة عن جموع من اللمبارديين تشبه جموع بطرس الناسك من قبل، يتحرقون شوقاً للرحيل وقد غادرت ميلانو في ١٣ حزيران سنة ١١٠١ وسلكت الحملة الطريق نفسه الذي سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى. وعندما وصلوا إلى القسطنطينية بدأوا في إثارة المتاعب الصليبية المعتادة. ولم يجد الإمبراطور ألكسيوس كومينوس بداً من نقلهم إلى آسيا الصغرى. وهناك لحقت بهم الجيوش الألمانية ثم الفرنسية. وفي تلك الأثناء كان بوهيمند أمير أنطاكية أسيراً لدى أمير سيواس الملك الغازي بن الداتشمند. وسيطرت على النورمان فكرة الزحف لتحريره. ولكن السلاجقة الذين علمتهم أحداث الحملة الأولى درساً قاسياً، اتحدت جهودهم في مواجهة جيوش الحملة الصليبية الجديدة، فأطبقت جيوش قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، ورضوان أمير حلب، والغازي أمير سيواس على الصليبيين، الذين تبدّد جمعهم بين قتيل وجريح وأسير، وهرب الزعماء في الوقت المناسب ليحاولوا الإشاعة أن الهزيمة كانت بسبب خيانة الإمبراطور البيزنطي. وانسحب الناجون من فلول هذه الحملة إلى القدس[١].

ومن ناحية أخرى، بدأ الصليبيون يمدون نفوذهم في الأراضي والموانئ التي كانت تفصل، أو تصل، بين المناطق المتناثرة التي استولوا عليها، وفي بطء بدأوا يفرضون سلطانهم على منطقة تلو الأخرى، على حين بدت المقاومة العربية الإسلامية عاجزة عن التصدي لهم تماماً ففي سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠١م استولى الصليبيون على سروج، وحيفا، وأرسوف، ثم قيسارية وكان الجنويون بأساطيلهم خير عون لهم في هذا الهجوم[٢].

وحاول الفاطميون في السنة التالية (١١٠٢م) أن يشنوا هجوماً مضاداً على

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢١١.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٠٤.

Marfat.com

الصليبيين ولكنه باء بالفشل على الرغم من فداحة الخسائر التي نزلت بالصليبيين[١]. ثم استولى تنكرد من البيزنطيين على اللاذقية سنة ١١٠٣م.

وعبثاً حاول الفاطميون أن يستردوا من الصليبيين أملاكهم، ولكن محاولاتهم لم تثمر شيئاً وأخذ الصليبيون من ناحية أخرى يتقدمون بسهولة بسبب تفرق المسلمين. وقد أشار ابن الأثير إلى حراجة الوضع وسلبيته بقوله: «لما استطال الفرنج خذلهم الله تعالى بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً، فتفرقت حينئذٍ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء.....»[٢]

وفي سنة ١١٠٤م ملك الصليبيون عكا، ثم طرابلس بعد حصار دام سبع سنوات مات أثناءها ريمون دي تولوز، وقد أظهرت طرابلس تحت قيادة فخر الملك بن عمار بطولة وصبراً رائعين طوال سنوات الحصار السبع، وأخيراً سقطت المدينة سنة ١١٠٩م. وبذلك قامت الإمارة الصليبية الثالثة إلى جانب الرها وأنطاكية، فضلاً عن مملكة بيت المقدس.

طوال تلك الفترة وبعدها، لم تتوقف المقاومة الإسلامية في الشمال من جانب السلاجقة الذين نجحوا في أسر بوهيمند فترة من الزمن، ثم أسروا بلدوين كونت الرها وجوسلين. كما أن الفاطميين في الجنوب استغلوا قاعدتهم في عسقلان لشن هجمات ضد الصليبيين في سنوات ١١٠١م، ١١٠٢م، و١١٠٥م، وقد كلفت هذه الهجمات الكثير من الخسائر في الرجال والأموال بيد أن بذور الشك والمرارة لا زالت تفعل فعلها، فمنعت أي تنسيق جدي على محور القاهرة دمشق، وبعد ١١٠٥م لم يشن المصريون أي هجوم خطير على الصليبيين، بيد أن عسقلان ظلت مصدر تهديد دائم على الصليبيين.

في تلك الأثناء تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على الساحل كله[٣] باستثناء صور وعسقلان. وكان معنى هذا اختلال التوازن العسكري لصالحهم بالشكل الذي أقلق إمارة دمشق وإزاء الفشل على محور دمشق القاهرة، بدأ أمير دمشق طغتكين (١٠٩٥م ـ ١١٢٨م) يحاول عقد تحالف مع حاكم الموصل الجديد مودود (١١٠٨م ـ ١١١٣م) الذي كان يحاول تنظيم تحالف إسلامي كبير لطرد الفرنج من بلاد الشام ومن المنطقة العربية[٤]. ولكن هذه المحاولات لم تؤت

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢١٢.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٢١.
(٣) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٦٠.
(٤) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

Marfat.com

ثمارها لأن المنازعات بين العناصر العربية والعناصر التركية في بلاد الشام حالت دون ذلك، كما أن سلاطين السلاجقة كانوا أكثر اهتماماً بفارس منهم بالبلاد الشامية.

في تلك الأثناء كانت ثمة تغيرات هامة قد جرت في معسكر الصليبيين، إذ مات بوهيمند سنة ١١١١م، ثم تلاه تنكرد سنة ١١١٢م. وبذلك قوي مركز بلدوين الأول كثيراً بالشكل الذي أغراه بنقض تحالفه مع طغتكين أمير دمشق.

وعلى الجانب الإسلامي كانت تجري محاولات جدية لتوحيد الجهود ضد الصليبيين. وقد انتهز مودود أتابك الموصل فرصة استنجاد طغتكين به، فجمع جيشاً كبيراً لمهاجمة الصليبيين في فلسطين هذه المرة. ففي سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) تقدمت جيوشه مع جيوش أمير سنجار، وطغتكين أمير دمشق والأمير أياز بن أيلغازي صوب فلسطين. وبالقرب من طبرية تم تدمير الجيش الصليبي تماماً[١]. بيد أن اغتيال مودود على يد أحد الباطنية في آخر يوم جمعة في شهر ربيع الثاني من هذه السنة (تشرين الأول ١١١٣م)، ثم موت رضوان أمير حلب في جمادى الآخرة في السنة نفسها، خفّف من وطأة الهجوم الإسلامي على جبهة الشمال.

ولم يكن ثمة حادث مهم في الفترة الباقية من حكم بلدوين الأول ملك بيت المقدس، سوى محاولته غزو مصر سنة ٥١٢هـ/١١١٨م ولكن مرضاً عضالاً أصابه، فعاد مسرعاً إلى فلسطين ليلقى حتفه[٢]. وتنتهي بذلك مرحلة التوسع الصليبي التي قادها هذا الملك لتبدأ مرحلة التوازن بين الجبهة الإسلامية في الشمال وبين الصليبيين، بحيث يتجه الجانبان في أنظارهما شطر مصر التي بدأ الصليبيون يحاولون التوسع على حسابها.

ومعنى هذا أن النصرانية قد عادت منتصرة إلى الشام والجزيرة، وأنه أصبحت لها مملكة وإمارات في هذه البلاد بين إمارات السلاجقة وأتابكياتهم، وعلى حدود مصر، ونميز منها: إمارة الرها على الفرات التي كان يتبعها عدة بلاد، وإمارة أنطاكية في الشمال التي امتدت إلى جبال طوروس وشمال الشام، ومملكة القدس التي امتدت من لبنان حتى صحراء النقب والبحر الأحمر، وإمارة طرابلس التي نشأت تابعة لمملكة بيت المقدس، واعتبرت منفذاً لها على الساحل، وامتدت من

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٦٦.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٧١.

Marfat.com

حمص إلى شمل لبنان دون أن تدخل فيها إمارة دمشق السلجوقية، ومع ذلك، فإن مملكة بيت المقدس كانت أهم بلاد الفرنجة، إذ كان يخضع لها أشرافهم في الشام والجزيرة. وموقفهم منها يشبه موقف الإمارات السلجوقية وأتابكياتها من السلطان السلجوقي في العراق.

٢ ـ المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين ودور آل زنكي وآل أيوب

لم تكن المواجهة الصليبية العربية الإسلامية مجرد صدام عسكري، وإنما كانت صداماً بين حضارتين. وقد تجلّت الاستجابات التي خلفتها هذه المواجهة في عدة مستويات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية. هذا التفاعل بين هذه الجوانب جميعاً أمر تحتمه ضرورة حركة التاريخ، ومن ثم يصعب الفصل بينها بشكل قاطع.

إن الاستجابة الأولى للتحدي الذي فرضه العدوان الصليبي على العالم العربي تبرز في الحقيقة القائلة أن نموذج دولة الخلافة قد انتهى عملياً على الرغم من بقاء الخلافة لتلعب دور الرمز الديني والواجهة الشرعية ليتكرس نموذج الدولة العسكرية كبديل مناسب بشرط أن تقوم بتوحيد الجهود في مواجهة الصليبيين. وهذا الدور التاريخي هو الذي يضفي عليها الشرعية في نظر رعاياها، كما أنه مبرر وجودها واستمرارها.

لقد شكل الغزو الصليبي صدمة نفسية مؤلمة وأثارت أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج مشاعر الاستياء والغضب في كل مكان ذهب إليه هؤلاء اللاجئون وأدرك المسلمون أن الصليبيين قد جاؤوا إلى بلادهم بقصد البقاء. وبدأ العالم الإسلامي يشهد ظاهرة إيجابية، جاءت هذه المرة من جماهير الناس العاديين، إذ تشكل رأي عام قوي وضاغط بدأ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام وأنانيتهم، وضيق أفقهم الذي ضيّع البلاد وأذلّ العباد[1]. وأخذ الفقهاء والعلماء يخطبون من فوق منابر المساجد في فضل القدس الشريف وفضل الجهاد والمجاهدين، ولم تكن حلقات الدروس تخلو من حديث حول القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، كما دبجت الكتب والرسائل التي تتناول هذا الموضوع بشكل أو بآخر. وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسري بين الناس في العالم العربي الإسلامي بسرعة كبيرة بحيث عمت سائر المناطق. وسرعان ما تحولت إلى حركة رأي عام ضاغطة يقودها أصحاب الرأي والمفكرون. وفي رحم هذه الحركة القوية تبلورت اتجاهات

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٩.

Marfat.com

المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين. وفي ظل هذا البعث الإيديولوجي ظهر آل زنكي في الموصل اعتباراً من سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م ليقودوا حركة الجهاد والمقاومة العربية الإسلامية وما لبث عماد الدين زنكي أن صار أقوى حاكم مسلم في زمانه، لأنه طوع قوته وموارده العسكرية في خدمة المطلب العربي الإسلامي العام، أي الجهاد ضد الصليبيين. فقد كانت المدارس والعلماء والمفكرون قد مهدوا السبيل بخلق مناخ للرأي العام القوي المطالب بوجوب الجهاد ضد الوجود الصليبي. وجاء عماد الدين زنكي استجابة تاريخية للمطلب العربي الإسلامي العام. من ثم برزت أتابكية الموصل، باعتبارها سابقة ومقدمة للدول العسكرية التي يقودها ملك مقاتل لكي تتولى الجهاد ضد الصليبيين حتى نجحت في طردهم نهائياً من المنطقة العربية بعد فشل الخلافتين العباسية والفاطمية في التصدي لهم. هذه الدول هي: الزنكية ـ الأيوبية ـ ثم المملوكية.

تمكن عماد الدين زنكي تدريجياً من التغلب على النعرات الانعزالية في كل من بلاد الشام والعراق والجزيرة. وفي سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م ملك مدينة حلب وقلعتها. وكان هذا أمراً في غاية الخطورة على الصليبيين في شمال بلاد الشام لأنه كان يقطع الطريق بين الرها وغيرها من المستوطنات الصليبية. وفي العام التالي استولى على حماه. ثم توالت فتوحاته وتوسعاته حتى استولى على حمص ٥٣٢هـ/ ١١٤٣.

وجاءت هذه الضربة سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م حين استطاعت قوات عماد الدين زنكي أن تستولي على الرها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً وكانت تلك هي أول إمارة صليبية قامت على أرض الشرق العربي الإسلامي وأول إمارة خسروها في حرب الاسترداد الإسلامية لذا كان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة على الصليبيين ترددت أصداؤها في كل مكان إذ إن المدينة كانت ترتبط بتراث المسيحية الباكر، كما أن سقوطها بعد أقل من خمسين عاماً على استيلاء بلدوين دي بويون عليها كان نذير شؤم بالنسبة للصليبيين.

وعلى الجانب العربي الإسلامي كان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي تعزيزاً لجهود التوحيد العربية الإسلامية من جهة وتدعيماً له في مواجهة النعرات الانعزالية من جهة ثانية. وعلى المستوى العسكري كان سقوط الرها بيد المسلمين كسباً كبيراً لأنه جعل وادي الفرات كله منطقة إسلامية. كما ضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التي تربط بين شمال الشام والعراق والجزيرة.

أما في الغرب الأوروبي، فعلى الرغم من الحزن الذي عم الناس هناك، إلّا

أن أحداً لم يحاول أن يجنّد حملة صليبية سريعة. وجاء وفد من فرنج الشرق لمقابلة البابا أيجينوس الثالث (١١٤٥ ـ ١١٥٣) بعد أن اعتلى العرش البابوي بوقت قصير، ثم جاء وفد من الأرمن يستنهض همم البابوية وملوك الغرب لمحاولة استرداد الرها. وفيما بين سنتي ١١٤٥ و١١٤٩م جرت أحداث هذه الحملة التي عرفت في تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الصليبية الثانية وكانت بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا فاخترقت جنودهما بلاد وسط أوروبا، واتجهت نحو القسطنطينية. ولكن الترك السلاجقة في آسيا الصغرى تمكنوا من القضاء على الجزء الأكبر من جيوشهما في ١١٤٦/٥٤١. وبقي الملكان ومع قلة وصلا بها بحراً إلى أنطاكية بعد أن نجا لويس من القتل أو الأسر بأعجوبة.

أما موقف الصليبيين في بلاد الشام فلم يكن أفضل. فعلى الرغم من أن عماد الدين زنكي لقي مصرعه على يد بعض خدمه غيلة في السادس من شهر ربيع الآخر سنة ١١٤٦/٥٤١[1] وانقسام مملكته بين ولديه غازي الذي استولى على الموصل والجزيرة ونور الدين وكان من نصيبه حلب، فقد فشل جوسلين أمير الرها في هجومه على المدينة لاستردادها لأن نور الدين أفشل محاولته وانتظر المسلمون والفرنج ما يسفر عنه قدوم جنود الحملة الثانية ولكن لويس السابع الذي أقلقته مكائد أمير أنطاكية والإشاعات التي راجت عن وجود علاقة غرامية بينه وبين زوجته، تجاهل الرها وسار حتى انضم إلى بقايا جيش كونراد الثالث في فلسطين وبدلاً من محاولة استرداد الرها سار كونراد نحو أتابكية دمشق، حيث لحق به عندها ملك بيت المقدس وحاصرها سنة ١١٤٨/٥٤٣م فجاء غازي ونور الدين لنصرة صاحب دمشق معين الدين أنر. لكن معين الدين الذي خاف على ملكه من ولدي عماد الدين، أرسل إلى الفرنجة وصالحهم بتسليم بعض القلاع والمال. وعاد كونراد إلى ألمانيا، كما عاد لويس بعد أن مكث في الأرض المقدسة حتى عيد الفصح سنة ١١٤٩م.

وهكذا باءت الحملة الصليبية بالفشل وأصبح نور الدين أكبر الأتابكة الزنكيين بعد وفاة أخيه الأكبر غازي في الموصل سنة ١١٤٩/٥٤٤م[2] وتنازل أخيه الأصغر

---

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٤٢، الكامل في التاريخ ٩/ ١٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٦٥ ـ ٦٦.

ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٢٤.

Marfat.com

قطب الدين مودود عن أملاكه في الشام لقاء وراثته أملاك أخيه غازي بالجزيرة. مما جعله يفكر جدياً في الاستيلاء على أتابكة دمشق لا سيما وأن حاكمها معين الدين أنر لا يزال يمثل عقبة كأداء في وجه محاولاته لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية. ففي كل مرة كان نور الدين يظهر بقواته أمام دمشق كان الصليبيون يسرعون لنجدتها، ومما جعله يعجل أيضاً هو استيلاء الفرنجة على عسقلان أكبر معاقل المصريين بالشام سنة ٥٤٨/ ١١٥٣م[١] الأمر الذي قوّى أملهم في أخذ دمشق ولا سيما أن معين الدين أنر كان قد توفي، وضعُف مجير الدين صاحبها، ووعد الفرنجة بتسليم بعلبك. كما ورده تقليد من الخليفة العباسي المتقي على البلاد الشامية وكذلك المصرية. وفي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م نجح نور الدين محمود في دخول دمشق برغبة أهلها ونقل إليها مركز حكمه بعد أن تركها مجير الدين إلى العراق. وعيّن نجم الدين أيوب حاكماً عليها شيركوه نائباً عنه وصلاح الدين رئيساً لحاميتها[٢].

وهكذا تم توحيد الجبهة الشمالية تحت قيادة نور الدين محمود، وبسبب تماسك هذه الجبهة وهجمات المسلمين المستمرة فيها ضد الصليبيين اتجهت الأنظار إلى مصر التي كانت تعاني الضعف السياسي آنذاك. إذ كانت الخلافة الفاطمية في الطور الأخير من عمرها، عارية إلّا من بعض ظلال قوتها السابقة ومجدها الغابر، إذ انهكتها الكوارث الطبيعية والمنازعات الداخلية. ومنذ وزارة بدر الدين الجمالي صار الوزراء أصحاب السلطة الحقيقية، وأصبح الخلفاء ألعوبة بين أيديهم. كما توالى جلوسهم على كرسي الحكم في إيقاع سريع يدل على مدى الاضطراب والتدهور وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى زيادة منحى التدهور في قوة الدولة الفاطمية بشكل أغرى جيرانها بالطمع فيها. لقد كانت الدولة الفاطمية في ذلك الحين أشبه بالرجل المريض الذي ينتظر الجميع نهايته حتى ينال كل منهم ما يستطيع الحصول عليه من تركته.

ولما كانت مصر بمواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة من يستولي عليها، أو يضمها إلى جانبه في الصراع الدائر آنذاك بين نور الدين محمود والصليبيين، فإن كلاً من الطرفين آثر ألّا ينتظر النهاية الطبيعية للدولة الفاطمية وإنما يبادر إلى وضع حد لهذه النهاية.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ١٢٦ ـ ١٢٧.
ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٤٢.
(٢) النجوم الزاهرة ٦/ ٨.

Marfat.com

كانت الأحداث السياسية في مصر تجري بسرعة نحو التدهور، فمنذ اغتيال الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥١٥/ ١١٢١م[١] لم يعد هناك حاكم قوي في مصر يستطيع إدارة دفة الأمور. ودخلت البلاد في دوامة لا نهاية لها من المؤمرات والدماء، بحيث انتعشت آمال الأعداء المتربصين خارج الحدود، وفي سنة ١١٥٠م بدأ بلدوين الثالث (١١٤٣ ـ ١١٦٣م) في إصلاح تحصينات غزة، مما كشف عن نيته المبيّتة في الهجوم على مصر بوضوح، وكانت عسقلان لا تزال بأيدي المصريين وتمثل تهديداً محتملاً ضد الوجود الصليبي في فلسطين. وفي سنة ٥٤٨/ ١١٥٣م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة عسقلان. وهكذا لم يتم إخضاع الساحل الفلسطيني كله للصليبيين إلّا بعد نصف قرن من الحملة الصليبية الأولى. وهكذا تمت موازنة الهزائم التي لقيها الصليبيون على الجبهة الشمالية ضد نور الدين محمود بانتصارهم في عسقلان ضد الدولة الفاطمية المتهاوية.

وحين مات بلدوين الثالث في ١٠ شباط ١١٦٣م، كان واضحاً أن سياسته الخارجية التي قامت على أساس غزو مصر لم ولن تتوقف إذ إن سياسة خليفته أملريك الأول (عموري) (١١٦٣ ـ ١١٧٤م) كانت في حقيقة أمرها سلسلة متصلة من المحاولات الدؤوبة لفتح مصر. وكانت الظروف تحتم تلك السياسة، إذ إن اتحاد حلب ودمشق تحت حكم نور الدين محمود جعل من غزو مصر الحل الوحيد لنجاة الصليبيين. إذ أدرك أملريك الأول أن سقوط مصر في يد المسلمين السنة في بلاد الشام سيجعل الدويلات الصليبية بين حجري الرحى. ولكن من سوء حظ الملك الصليبي أن نور الدين محمود كان مدركاً لأهمية التطورات السياسية الداخلية في مصر على مجريات الصراع الإسلامي الصليبي. وهكذا كان نور الدين وأملريك على أهبة الاستعداد لبدء السباق للفوز بالجائزة الكبرى، وهي مصر بمواردها الاقتصادية والبشرية الهائلة.

وأخيراً سنحت الفرصة لتدخل الجانبين. فبعد موت الوزير الفاطمي الصالح بن رزيك سنة ٥٥٨/ ١١٦١م اندلع الصراع على كرسي الوزارة بين ابنه العادل الذي مكث على كرسي الوزارة خمسة عشر شهراً، شاركه أثناءها شاور حاكم الصعيد الذي قتل ابن رزيك، ثم حاجبه ضرغام الذي بادر بقتل كبار الأمراء الذين كان يخشى منهم على نفسه وعلى منصبه[٢]. ولم يجد شاور بداً من الهرب

(١) النجوم الزاهرة ٢/ ٢٩٧ ـ ٣٧٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٨١، أبو شامة: الروضتين ١/ ١٣٠.

Marfat.com

صوب بلاط نور الدين محمود على حين وجد الملك الصليبي أملريك في الفوضى الضاربة في مصر آنذاك فرصة ملائمة للهجوم على مصر بحجة عدم دفع الجزية التي تقررت على مصر للصليبيين في عهد سلفه بلدوين الثالث. وفي سنة ١١٦٣م كانت قوات أملريك تعبر برزخ السويس. ثم حاصر مدينة بلبيس. ولكن ضرغاماً الذي انفرد بكرسي الوزارة والسلطة تصدى له وقطع جسور النيل، بحيث شكلت مياه الفيضان وأوحال الدلتا عائقاً صعباً جعل الصليبيين يرجعون القهقرة إلى فلسطين ولكن إلى حين.

وفي تلك الأثناء كان الوزير المخلوع شاور يحث الخطى نحو بلاد نور الدين محمود في دمشق ليطلب حملة عسكرية يستعيد بها كرسي الوزارة الضائع في القاهرة. وفي مقابل ذلك عرض أن يتكفل بنفقات الحملة، وأن يتنازل عن بعض مناطق الحدود المصرية لنور الدين محمود، وأن يعترف له بالسلطة على مصر، ويرسل إليه ثلث الموارد المصرية سنوياً.

واستجاب نور الدين محمود لطلب شاور وأرسل معه حملة يقودها أسد الدين شيركوه وبرفقته ابن أخيه، الشاب الذي لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، صلاح الدين يوسف الأيوبي الذي خلف فيما بعد نور الدين في قيادة الجهاد ضد الصليبيين.

ولكن ضرغاماً الذي بلغته أنباء الاتفاق بين شاور ونور الدين تحرك بدافع من شهوة السلطة والأنانية السياسية، فأرسل يستنجد بالصليبيين، ولم يتردد عموري (أملريك) وعلى الفور تحركت حملة صليبية بقيادته ضد مصر. وخلال الست سنوات التالية قام هذا الملك بغزو مصر خمس مرات. لقد انتقل الصراع بين نور الدين والصليبيين من شمال بلاد الشام إلى ميدان جديد هو شرق دلتا النيل، وعلى طول المسافة ما بين الفرما والقاهرة. وكانت هذه النقلة في مجال الصراع أكثر من مجرد نقلة جغرافية. لقد كانت بمثابة تطور جديد في المفاهيم السياسية، فقد فرض منطق التاريخ وحقائق الجغرافية أن تكون مصر ميداناً رئيسياً في الحرب الصليبية، لا هامشاً عرضياً من هوامش ذلك الصراع الطويل المضني.

على أي حال أدت محاولات أملريك الفاشلة ضد مصر إلى نتيجتين في غاية الأهمية، **أولاهما**: تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس اللاتينية من جهة، **وثانيهما**: تغيير خريطة العلاقات السياسية لصالح القوى العربية الإسلامية من جهة ثانية فقد قتل ضرغام وشاور في خضم هذه الأحداث وصار أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد، وبعد موت أسد الدين سنة ٥٦٤هـ/

Marfat.com

١١٦٩م خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي في الوزارة.

وفيما بعد أثبتت الأحداث أن صلاح الدين هو بطل الحقبة الحرجة في تاريخ المنطقة العربية آنذاك. وكانت وزارة صلاح الدين في خدمة العاضد آخر الفاطميين بمثابة الفترة الانتقالية لتألق نجمه، وكان فشل مشروع أملريك بشن حملة مشتركة مع البيزنطيين ضد مصر سنة ٦٦٥/ ١١٦٩م وحصارهم الفاشل لدمياط على مدى خمسين عاماً[١] بمثابة الإعلان عن أن القائد الشاب قد دعّم حكمه واطمأن إلى سلامة مركزه السياسي.

وفي هذه الأثناء كانت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة متسعة الأرجاء فيها خمس عواصم هي: دمشق والرها وحلب والموصل ثم القاهرة. وأخذ نور الدين يلح على صلاح الدين لاتخاذ الخطوات الحاسمة بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى الخلافة العباسية. ولكن صلاح الدين تمهل حتى واتته الفرصة في أول يوم جمعة في سنة ٥٦٧/ ١٠ أيلول ١١٧١م أحل اسم الخليفة العباسي محل اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة التي ألقيت في مسجد عمرو بن العاص. وكان الخليفة الفاطمي العاضد طريح الفراش، ثم مات بعد أسبوع دون أن يدري أن دولة أبائه قد دالت وأنه آخر الفاطميين[٢].

كان انفراد صلاح الدين الأيوبي بالسلطة في مصر مقدمة لمرحلة حاسمة من مراحل الصراع ضد الصليبيين، إذ إن مصر بمواردها الهائلة جعلت قدرته لا حدود لها ثم جاءت وفاة نور الدين محمود في ١١ شوال ٥٦٩/ ١١٧٤. ثم موت عدوه اللدود أملريك ملك بيت المقدس في السنة نفسها، فرصة طيبة لكي يوحد الجبهة الإسلامية وليؤكد زعامته على العالم الإسلامي كانت الخطوة الضرورية لتأكيد زعامة صلاح الدين تتطلب منه أن يعالج في حزم ورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين محمود من منازعات وصراعات. وبعد عدة تطورات سياسية أعلن صلاح الدين نفسه ملكاً على مصر والشام بمباركة الخليفة العباسي سنة ٥٧٠/ ١١٧٥م. وقضى صلاح الدين في مصر حوالي ست سنوات من ٥٧٢ ـ ٥٧٧هـ (١١٧٦ ـ ١١٨١م) لترتيب الأوضاع الداخلية في مصر والشام استعداداً للمواجهة مع الصليبيين.

وفي تلك الأثناء كانت سياسة صلاح الدين تقوم على أساس تجنب المواجهة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٠٥ ـ ١٠٦.
ـ أبو شامة: الروضتين ١/ ١٨٣.
(٢) أبو شامة: الروضتين ١/ ١٩٣ ـ ١٩٧.

Marfat.com

على مستوى كبير مع الصليبيين. لقد تمكن صلاح الدين من بسط سلطانه على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات، حافلة بإمكانات وموارد هائلة، غير المساعدات المتوقعة في حال نشوب المعركة ضد الصليبيين.

وفي تلك الأثناء قام الصليبيون بعدة غارات عبر شبه جزيرة سيناء، بل أن قواتهم وصلت حتى بحيرات منطقة السويس، كما شنوا غارات على تيماء شمال شبه الجزيرة العربية وحاول رينالددي شاتيون أمير الكرك ويسميه العرب أرناط أن يقتحم البحر الأحمر ويحتل مكة والمدينة، وأن يتحكم في حركة التجارة الدولية المارة في هذا البحر. وهاجم بعض موانئ مصر والحجاز، ولكن الأسطول المصري سحق أسطوله تماماً.

وهكذا وجد صلاح الدين مبرراً قوياً لبدء عملياته ضد الصليبيين. وكانت قمة انتصاراته على زهرة جيوش الصليبيين عند قرون حطين في فلسطين يوم ٢٤ ربيع الثاني سنة ٥٨٢هـ الموافق ٤ تموز ١١٨٧م. لقد فقدت المملكة اللاتينية في القدس قواتها العسكرية الرئيسية في هذه المعركة. صحيح أن كوارث سابقة وقعت على الفرنج في المنطقة العربية إذ حدث من قبل أن قتل بعض أمرائهم. كما وقع بعض ملوكهم وأمرائهم في الأسر، ونالتهم هزائم عسكرية قاسية. ولكن ما حدث في حطين كان أخطر من ذلك بكثير. فقد تم تدمير أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي. كما أن المنتصر كان هو صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة على العالم الإسلامي بأسره.

وما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية، إذ سارعت المدن والقلاع الصليبية إلى الاستسلام إما لصلاح الدين شخصياً وإما لقادة جيوشه. وتم أخذ عكا ويافا، وبيروت، وجبيل، ثم عسقلان وغزة[١]. وفي أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣/ أيلول ١١٨٧م اتجه صلاح الدين صوب القدس. وبعد حصار قصير دخل صلاح الدين وقواته المدينة المقدسة في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ٢ تشرين الأول ١١٨٧م بصورة إنسانية تناقض وحشية الصليبيين حتى غزوها قبل أكثر من ثمانين سنة. وأقيمت خطبة الجمعة في المدينة المحررة بعد أن ظلت ممنوعة طويلاً[٢].

ولم يتبق بأيدي الصليبيين سوى صور، وأنطاكية، وطرابلس، وبعض القلاع والحصون المتناثرة على الأرض العربية في بلاد الشام.

---

(١) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٨٥ ـ ٩٢.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٩٦ وما بعدها.

وجاء رد الفعل الأوروبي عنيفاً، فقد مات البابا أربان الثالث (١١٨٥ ـ ١١٨٧م) من هول الصدمة حين بلغته الأنباء. ولأن الأنباء تنتشر بسرعة، فإن الرسل توجهوا إلى غرب أوروبا عقب هزيمة حطين لإبلاغ أمراء الغرب الأوروبي بأنباء الكارثة. فقد ذهب كبير أساقفة صور في جولة قادته إلى بلاطات عدد من ملوك وأمراء الغرب لكي يستنهض هممهم وقام البابا غريغوري الثامن، الذي لم يستمر في كرسي البابوية سوى شهرين، بإرسال خطاب بابوي لكل «المؤمنين في الغرب» يذكرهم فيه بأن فقدان الرها قبل أربعين عاماً كان يجب أن يكون نذيراً لهم. كما وعدهم بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوه في حملة صليبية جديدة. وفرض صياماً في كل يوم جمعة على مدى خمس سنوات قادمة والامتناع عن أكل اللحم في أيام السبت والأربعاء.

ومات البابا غريغوري الثامن في ١٧ كانون أول سنة ١١٨٧م. تاركاً لخليفته كليمنت الثالث (١١٨٧ ـ ١١٩١م) مهمة الاتصال بملوك ألمانيا، وفرنسا، وإنكلترا، وتم فرض ضريبة مقدارها عشرة بالمائة على كل دخل، وعلى الأملاك المنقولة عرفت باسم «عشور صلاح الدين». وأخذ شارة الصليب الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠م)، وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا (١١٨٩ ـ ١١٩٩)، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا (١١٨٠ ـ ١١٢٣). في ١١ آيار ١١٨٩ تحركت قوات الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا، قبل القوات الفرنسية والقوات الإنكليزية. وسارت قوات الألمان عبر الطريق البري الذي سارت عليه من قبل قوات الحملة الأولى. ولكن الإمبراطور لقي حتفه في أحد أنهار آسيا الصغرى غريقاً في ١٠ حزيران سنة ١١٩٠م. وكانت تلك خسارة فادحة لحقت بالجيش الصليبي قبل أن يصل إلى هدفه. وانتهى الأمر بالألمان إلى المشاركة الرمزية في الحملة الصليبية الثالثة أما ريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنكلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد وصلا بقواتهما إلى صقلية عن طريقين بحريين مختلفين حيث أمضيا شتاء سنة ١١٩٠ ـ ١١٩١ في نزاع حول الأمور الداخلية في صقلية. ومع ذلك أبحر الاثنان تجاه فلسطين، حيث وصل الملك الفرنسي أولاً بسبب انشغال ريتشارد بالاستيلاء على قبرص من الحكم البيزنطي. وفي تلك الأثناء كان الناجون من سيوف صلاح الدين والمسلمين قد تجمعوا في مدينة صور التي رحبت بالمقاتلين منهم فقط. أما الملك غي دي لوزينيان، الذي أطلق صلاح الدين الأيوبي سراحه فقد عسكر بقواته الضئيلة في سهل عكا. ثم بدأت الجيوش والإمدادات الأوروبية تفد إلى الشام. وهكذا بدأت معارك الحملة الصليبية الثالثة.

Marfat.com

لا تهمنا التفاصيل كثيراً، بيد أننا نود أن نشير إلى أن المعارك الأولى انتهت بسقوط عكا في أيدي صليبيي الحملة الثالثة؛ وعاد فيليب أوغسطس إلى فرنسا، على حين بقي ريتشارد في بلاد الشام سنة كاملة. ثم اضطر إلى عقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ٥٨٨/ ١١٩٢م الذي أبقى الوضع كما هو عليه.

وهكذا كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلاً بالقدر الذي خيّب آمال الأوروبيين والفرنج المقيمين تحت سماء الشرق العربي، وسرعان ما تحولت آمال الكبار التي عقدت على هذه الحملة إلى إحباط واتهامات متبادلة تبادلها زعماء الصليبيين.

أما صلاح الدين فقد بقي شهوراً قليلة في بيت المقدس. ثم اتجه إلى دمشق حيث انتقل إلى جوار ربّه في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩/ ٤ آذار ١١٩٣. وبوفاة صلاح الدين الأيوبي توارت عن مسرح التاريخ شخصية ظلت ملء السمع والبصر والفؤ د. وموضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه. أعداء كانوا أم حلفاء. ولكن الظروف التي أنجبته لقيادة الأمة الإسلامية كانت لا تزال قائمة. فالصليبيون ما زالوا موجودين فوق أرض الشام، كما أن خطر قدوم حملات صليبية جديدة كان لا يزال قائماً. والإحياء الأيديولوجي والأخلاقي الذي كان بمثابة التعبئة المعنوية للعمليات العسكرية، كان لا يزال في طور النمو، ولا تزال قطوفه بعيدة المنال.

من الواضح أن وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي جاءت خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة إذ كانت نذيراً بقيام المنازعات بين ورثته حول تقسيم التركة. وكان صلاح الدين، يدرك أن إدارة إمبراطورية واسعة، فيما بعد وفاته سوف يؤدي إلى نتائج خطيرة، فما من أبنائه الذين خلفهم من يملك من الخلال والمواهب ما يمكنه أن يفرض طاعته على سائر الأمراء الأيوبيين، فشخصية صلاح الدين ومهابته وحزمه، كانت كلها ضمانة لبقاء الدولة موحدة في غياب النظم الثابتة اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة القائد. حقاً كانت الخلافة نظاماً له من الثبات ما يكفل استمرارها بعد وفاة متوليها، إلّا أن صلاح الدين لم يكن خليفة، وإنما فرض طاعته على المسلمين بقوة شخصيته. وقد افتقر أبناؤه إلى هذه الشخصية لذا حاول قبل وفاته أن ينظم دولته بنفسه، وأن يجعل أمراءه وخاصته يقبلون حلّه.

بقي السلطان صلاح الدين أميناً لما كان معروفاً من قبله من التقاليد والأعراف. ولما استقر من النظم، وهي بمجملها تذهب إلى اعتبار الملك إرثاً خاصاً يوزّع أنصبة متساوية، أو غير متساوية بين أبناء البيت الحاكم. لذا حرص على أن تكون أهم أقاليم الدولة الأيوبية لأبنائه دون سواهم من أقربائه. ففي عام

Marfat.com

١١٨٤م، أعلنت في دمشق نصوص وصيته القاضية بأن تؤول مصر لابنه العزيز عثمان، وأن تكون الشام لابنه الآخر الأفضل علي ويكون له لقب السلطان. ونصّت الوصية أيضاً على أن يكون صاحب حماه تقي الدين عمر وصياً على العزيز، وأن يكون العادل أخو صلاح الدين، الذي أعطي حلب وصياً على الأفضل حتى يبلغا سن الرشد ويصبحا قادرين على تصريف الأمور. ثم أجرى تعديلاً أولاً على الوصية عام ١١٨٦م عملاً بنصيحة أحد المقربين من قادته، وهو الأمير سليمان بن جندر، أعيدت حلب بموجبه للظاهر غازي ثالث أبناء صلاح الدين. وأرسل العادل إلى مصر ليكون بجانب العزيز عثمان أتابكاً له. وبعد وفاة تقي الدين عمر، صاحب حماه عام ١١٩١م أجرى السلطان صلاح الدين تعديلاً ثانياً على وصيته، انتزع بموجبه من ابنه المنصور بن تقي الدين، وكان يكن له الكراهية، حران والرها وسمياط وميافارقين وأعطاها لأخيه العادل، إضافة إلى ما بيده من بلاد وهي الكرك والشوبك والبلقاء وبعض جهات مصر.

وبوفاة صلاح الدين تقسّمت الإمبراطورية الأيوبية بين أبنائه وإخوته وكبار قادته. فاستقلّ الملك الأفضل علي بدمشق وما يتبعها، واحتفظ الملك العزيز عثمان بمصر وكان ينوب عن والده في حكمها، في حين أخذ الملك الظاهر غازي حلب وشمال الشام. وأصبحت بصرى من نصيب الظافر خضر وهو أحد أبناء صلاح الدين. وأما الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين فقد أخذ الكرك والشوبك فضلاً عن بلاد الجزيرة وديار بكر، وهي أملاك متناثرة لا اتصال بينها، كما لا تتناسب مع أهمية العادل الذي ستزداد مطامحه وضوحاً مع مضي الوقت. كما ملك سيف الإسلام طغتكين، الأخ الآخر المتبقي على قيد الحياة للسلطان، اليمن وجزيرة العرب، وكان قد خلف أخاه تورانشاه عليها، وأخذ الأمجد بهرامشاه ابن أخ السلطان بعلبك. واستقل المجاهد شيركوه الثاني ابن محمد بن شيركوه بحمص، أما حماه فكانت من نصيب المنصور بن تقي الدين عمر، كما حاز بعض القادة كثيراً من المدن والحصون وعلى هذا النحو كان لا بد أن يظهر بعد وفاة السلطان صلاح الدين حرص أفراد أسرته على امتلاك البلاد ووصل أملاكهم المتناثرة. وقد طفح تاريخ الأيوبيين في هذه المرحلة بالمؤامرات والحروب الأهلية المنهكة بين أفراد الأسرة الأيوبية، كلٌ يريد أن يتوسع على حساب الآخرين ما وسعه جهده، لكن من الغبن أن لا نرى في تاريخ الأيوبيين، في هذه الفترة، سوى المنازعات والخلافات الأسرية، فتاريخهم حفل أيضاً بالجهاد ضد الصليبيين مقتفين بذلك سيرة سلفهم السلطان صلاح الدين بيد أنهم، وبسبب تشتت صفوفهم، لم

Marfat.com

يحسموا الأمر بوحدتهم. ولو توحدوا لعجلوا في إسدال الستار على آخر فصل من رواية الحروب الصليبية. لكن التوتر الذي ساد العلاقات بين هؤلاء الورثة، كان نعمة على بقايا الوجود الصليبي الذي كان يشغل حيزاً ضيقاً من أرض فلسطين ولبنان، ويمتد بحذاء الساحل من بيروت حتى يافا. وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية، التي أصبحت عاصمتها عكا، بفترة سلام قاربت السنوات العشر، وهي فترة كانت كافية لأن يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المرعبة التي مرّت بهم. وكان واضحاً أن قوات الصليبيين في بلاد الشام لم تكن نداً للمسلمين، ومن ثم انعقدت آمالهم على قدوم حملة صليبية جديدة لنجدتهم.

ورغم أن السلطان العادل استطاع أن يفرض نوعاً من الوحدة على الأيوبيين في مصر والشام ولكن الطابع العام لسياسة الأيوبيين، بعد صلاح الدين، كان يميل إلى مهادنة الصليبيين، ويعني هذا في التحليل الأخير أنهم قد تخلوا عن دورهم التاريخي الذي هو مبرر استمرارهم حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية. ومن اللافت للنظر أن الدولة الأيوبية التي ظهرت على مسرح التاريخ مثلها مثل دولة آل زنكي، لأن مؤسسها صلاح الدين قد التزم بهذا الدور التاريخي، قد فقدت مبررات وجودها منذ أخذ ملوك وسلاطين بني أيوب يتخلفون عن هذا الدور بشكل أو بآخر وعلى الرغم من جهود البعض منهم، كالعادل والكامل والصالح نجم الدين أيوب، العسكرية ضد الصليبيين فإن سقوطها في مصر أولاً، ثم في بلاد الشام، جاء نتيجة بروز قوة بديلة أثبتت أنها أقدر على القيام بالدور التاريخي للدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب. وكان المماليك هم الذين يجسدون هذه القوة الجديدة. ونتيجة نجاحهم فيما فشل به الأيوبيون احتلت دولتهم مكان الدولة الأيوبية في مواجهة الصليبيين.

Marfat.com

كتاب الروضتين
في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

إذا استعرضنا ترجمة أبي شامة في كتب التراجم، وجدنا المترجمين معاً يقدمونه إلى القراء مستهلين حديثهم بأنه «العلّامة ذو الفنون. . . . . الشافعي المقرئ النحوي» الذي «كان فقيهاً محدثاً مقرئاً نحوياً»؛ وبأنه «أتقن الفقه وبرع في العربية حتى بلغ رتبة الاجتهاد»، «وكان يكتب الخط المليح المتقن»؛ «وله نظم متوسط كثير». ولكننا لا نجد بين هذه العبارات التمهيدية التي يقدم بها المترجمون حديثهم عن أبي شامة ما يدل على نشاطه في دراسة التاريخ والتأليف فيه؛ وإنما يجيء الكلام عن هذه النقطة عرضاً بعد ذلك عند تعداد مؤلفاته.

ويشعرنا أبو شامة نفسه، في مقدمة كتاب الروضتين، بأن اهتمامه بالتاريخ لم يبدأ إلّا في مرحلة متأخرة من مراحل ثقافته؛ فهو يقول: «. . . . . أما بعد؛ فإنه بعد أن صرفت جل عمري ومعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عنّ لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه، فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه، اقتداء بسيرة من مضى، من كل عالم مرتضى»[1] فهو لم يهتم بالتاريخ إلّا بعد أن برع في الدراسات الشرعية والأدبية، وهو لم يقدم على هذه الدراسة إلّا اقتداء بسيرة من مضى من العلماء المبرزين، الذين أخذوا من كل علم بنصيب، ومتأثراً في ذلك بالنهج العام الذي تميزت به الحياة العلمية في هذا العصر. ليحوز سنّة العلم بعد أن حاز فرضه. ولا يكتفي أبو شامة بهذا الشرح لتبرير موقفه من دراسة التاريخ، بل يحاول تبرير اهتمامه به في هذه المرحلة المتأخرة تبريراً. فيقول: «ففي كتاب الله وسنة رسوله حديث الأمم الخالية» والإمام الشافعي درس «أيام الناس والأدب عشرين سنة» ولم يرد الشافعي بهذا «إلّا الاستعانة على الفقه»[2].

---

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١/ ٢.
(٢) أبو شامة: نفس المصدر والصفحة.

Marfat.com

ويبدو من هذا كله أن أبا شامة لم يرد بدراسته للتاريخ أن تشغل كل وقته، وإنما أراد أن يستعين منها بما يكمل ثقافته ويمكّن للدراسات الرئيسية التي يهتم بها، وهي الدراسات الشرعية واللغوية. وبرغم هذا نجد أبا شامة يدين بكثير مما اشتهر به في ميدان المعرفة إلى مؤلفاته التاريخية.

ومن بين هذه الكتب التاريخية يظفر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ويقصد دولة نور الدين وصلاح الدين، في الحياة العلمية الحديثة. بمكانة عظيمة تضعه في مقدمة المصادر التي يرجع إليها الباحثون في مرحلة هامة من مراحل تاريخ العصور الوسطى الإسلامية، وهي مرحلة النزاع الذي اصطلح على تسميته بالحروب الصليبية.

ومع أن أبا شامة، في واقع الأمر، لم يكتب في الروضتين شيئاً من عنده، سوى بعض الأسطر والتعليقات الصغيرة بين المقتطفات المقتبسة، إلّا أنه استطاع في مهارة بارعة جداً أن يؤلف كتاباً متوازناً، شاملاً في تاريخ الفترة الممتدة بين مطلع العهد النوري حوالي سنة ٥٤٠هـ، إلى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ، وذلك عن طريق جمع مقتطفات حسنة الاختيار، محبوكة الرصف بعضها وراء بعض، اقتطفها من مختلف المصادر المعاصرة بمنتهى الذكاء والدقة. وهكذا جاء الكتاب مجموعة من حوالي تسعمائة وإحدى وستون قطعة مقتبسة أخذت عن اثنين وعشرين مصدراً وبعض المصادر التي اعتمدها أبو شامة ضائعة، وهذا ما أعطى كتابه قيمة هامة، كما أنه أكثر من الاعتماد على الوثائق يأتي بها في مواضعها لتوثيق تاريخه، وهذا ما أعطى كتابه قيمة أخرى. وإذا كانت بعض المقتبسات قد لا تزيد على سطر أو سطرين. وبعضها يمتد صفحات تصل أحياناً إلى سبع وعشرين صفحة، فإن أبا شامة فيما بين هذه وتلك واضح الشخصية والوجود رغم هذه المقتبسات ينقد ويناقش ويضيف ويوضح في إيجاز ودقة واستشهاد بما شاهد أو عرف أو سمع، أو باللجوء إلى المنطق. وهذا بدوره مما ميّز الكتاب وزاد في قيمته كمصدر موثوق. وقد أضاف أبو شامة بنفسه على كتابه ذيلاً هو «مذيّل كتاب الروضتين» حيث وصل بالحوادث ما بين سنة ٥٩٠هـ إلى تاريخ وفاته سنة ٦٦٥هـ. وقد أكثر فيه من التراجم، ولكنه ذكر أحداث تلك الفترة الكثيرة القلق والاضطراب في حدود ما عرف وشاهد، سنة بعد سنة، لكن المذيّل أقل أهمية وقيمة تاريخية من الروضتين.

ويدل عنوان «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» على أنه يتعرض بموضوعه لزمن محدود بعصري نور الدين وصلاح الدين ولأمكنة محدودة

بدولتي هذين السلطانين ومنطقة نفوذهما فما الذي حدا بأبي شامة إلى اختيار هذه الفترة لتكون موضوع كتابه؟

قد يفيدنا في الإجابة على هذا التساؤل أن نتبين الملامح الخاصة للتأليف التاريخي في الشام بين القرنين الثالث والسابع الهجريين، حيث ولد أبو شامة وعاش، كما ضمت تربتها رفاته، وحيث في مدارسها تعلّم وعلّم، وعن شيوخها وأعلامها أخذ واقتبس، وإلى مدرستها التاريخية انتمى.

والأصول الأولى للمدرسة الشامية أموية، وقد ساهمت في نشأة التدوين التاريخي في الإسلام بشكل فعال، فلما كان العصر العباسي. انتقل مركز الدولة الإسلامية من الشام إلى العراق وتحديداً من دمشق إلى بغداد، الأمر الذي سلب هذه المدرسة كثيراً من الديناميكية التي تتمتع بها العواصم، ومن الإمكانيات المادية ومن الرفد الخارجي الذي يزيد في غناها الفكري، ودفعها للعيش على هامش الحياة السياسية والحضارية الموّارة في بغداد إلّا أن هذا التهميش لم يلغ هذه المدرسة، فقصارى ما نجم عنه أنه منعها فترة طويلة من أن تطلع مؤرخين كباراً أو إنتاجاً غزيراً غنياً في كميته ونوعيته إلّا في نهاية هذه الفترة.

وعلى هذا، فسوف لن نلتقي في الواقع إلا مجموعات من الأسماء الصغيرة، طوال فترة تزيد على ثلاثة قرون، قبل أن يظهر المؤرخون الكبار في الشام. وهذه القرون الثلاثة نفسها هي الفارق الزمني في التخلف التأريخي، في المنظور والشمولية، لمدرسة الشام عن مدرسة العراق. وبينما كان منظور المؤرخين في العراق، منظوراً عالمياً بين الصفة العالمية التي كانت تتمتع بها بغداد، ومن ورائها العراق. لذا كان إنتاجها، بالضرورة، شاملاً لأمور وأحداث وتراجم من كل قطر وتهم كل قطر، نجد الصفة الإقليمية المحدودة تغلب على إنتاج المدارس الإقليمية، ومنها بلاد الشام، حيث نراها بأرضها ألصق وبرجالها وأحداثها أكثر اهتماماً.

وملاحظتنا هذه حول الإنتاج التاريخي ببلاد الشام. لا تمس النهج والأسلوب والأنواع التاريخية التي أضحت مألوفة، متشابهة في العالم الإسلامي كله والذي انتظمته وحدة المصير والتاريخ والفكر نتيجة ارتباطه بالخلافة العباسية السنيّة، وهو ارتباط سياسي وديني انعكس بوضوح في التدوين التاريخي، وكان يتمثل سياسياً في الخطبة لخليفة بغداد والتماس شرعية الحكم منه كما تمثل دينياً في المذهب السني الذي كان ينتسب إليه الناس عامة، وكان بالتالي مذهب معظم المؤرخين باستثناء بعضهم. لكن ملاحظتنا تنصب على المسيرة العامة للعمل التاريخي، سعة وعمقاً وفروعاً، كمثل ضخامة الأعمال التاريخية، وإلحاح مدرسة على بعض

Marfat.com

المواضيع دون الأخرى، وكثرة عدد المؤرخين أو قلتهم، وتوزعهم الجغرافي والزمني، في هذا الصدد نلاحظ أن مدرسة الشام كانت موزعة النشاط بين عدد من المدن، وإن استأثرت دمشق وحلب بالنصيب الأوفى منها ومن رجالها.

السمة الثانية: هي أن أكثرية المؤرخين في بلاد الشام كانوا من المحدثين والفقهاء، يليهم من حيث العدد الموظفون من الكتاب والقضاة خاصة، كما كان من بين المؤرخين ملوك ووزراء وأشراف وتجار وأطباء، وآخرون أهمل ذكر مواقعهم في الحياة فلا نعرف إلّا أسماءهم المجردة والشام في كل هذا منسجمة تمام الانسجام مع واقع الحياة الفكرية الإسلامية من جهة. وواقع المدارس التاريخية الأخرى من جهة أخرى، فقد ندر جداً أن اختص عالم بعلم واحد دون أن يشارك في علوم أخرى. أما المشاريع التاريخية لهؤلاء المؤرخين فكانت بوجه عام صغيرة، محدودة المدى الزمني والمكاني على السواء. وبالتالي لم يكن لمعظمهم من الطموح التاريخي الأوسع ما يجعله يقفز إلى ما قبل زمن هذه المشاريع. أو لما وراء إقليمه، فهي بين سيرة رجل أو دولة، أو تعليق تاريخي أو ذكر فضيلة موقع أو مناقب رجل. أو التاريخ لمدينة أو أسرة، وعلينا أن ننتظر بما بين أواسط القرن السادس وأواسط القرن السابع الهجريين (أواسط القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) لنلتقي بالمشاريع التاريخية الكبرى وأصحابها، لنجد مثلاً ابن عساكر، ومجلداته الثمانين عن تاريخ دمشق، وياقوت بمعجميه المشهورين (معجم البلدان ومعجم الأدباء) وتاريخيه الضخمين الضائعين وسبط ابن الجوزي بتاريخه ذي العشرين مجلداً، وابن العديم بتاريخه ذي المجلدات الأربعين بعنوان بغية الطلب في تاريخ حلب، في هذه الفترة إذن ظهرت المشاريع التاريخية في دمشق وحلب لمنافسة تاريخ الطبري أو ابن الأثير بتاريخ كامل مماثل، وظهرت المعاجم التاريخية الكبرى، ليشكل كل أولئك قفزة نوعية في طموح المؤرخين الشاميين والجانب الأكبر من الأسباب إنما يرجع إلى عودة الحياة السياسية إلى بلاد الشام وظهور سلطات فيها تستقطب اهتمام الناس وتجتذب إعجابهم.

تبقى ميزة أخرى تفردت بها المدرسة الشامية وتتمثل في تصدر كتب الفضائل قائمة المؤلفات التاريخية وخاصة فضائل المدن، وعلى الأخص دمشق والقدس ومكة والمدينة والخليل وعسقلان، وأخرى في فضائل الجهاد، والتأليف في فضائل الجهاد يجد تفسيره في وجود الصليبيين العدواني في الشام، وكذلك ينبع التأليف في فضائل المدن من المنبع نفسه. وقد كانت هذه الكتب في أول الأمر رد فعل على المآسي والآلام التي لحقت ببلاد الشام منذ أوائل العصر العباسي، كما

Marfat.com

كانت ردّاً على الكوارث والفتن وظلم الحكام ونكبات الغزوات البدوية المتمادية. ولقد ظهرت كتب الفضائل بالفعل لتدافع عن الاستيطان في هذه المراكز ولتدافع في الوقت نفسه عنها بإضفاء حالة من القداسة عليها لعل وعسى ذلك يرد العدوان عنها، وقد ظهرت هذه الكتب منذ أوائل القرن الرابع الهجري بالنسبة إلى دمشق وهي بالنسبة للقدس أقدم، لِقدَم قدسيتها في النفوس. ثم لما جاء العدوان الصليبي وكبر على المسلمين ضياع القدس من بين أيديهم، كان من أهداف المقاومة والجهاد إبراز قدسية هذا البلد ومكانته وفضله في مؤلفات متداولة، وبالمقارنة فإن دمشق التي قاومت الصليبيين وهزمتهم عند أسوارها في الحملة الثانية. ثم أصبحت مركزاً لنور الدين وصلاح الدين اللذين تزعما حركة الجهاد الإسلامي، بعد أن تخلّت دولتي الخلافة في بغداد والقاهرة عن دوريهما. مما أبرز الدور الضخم الذي توجب على مدن الشام (دمشق وحلب) أن تلعبه ضد التحدي الصليبي العنيف في تلك الأوقات، فأضحت مركز الاستقطاب السياسي والاقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، تشعر بارتباط العالم الإسلامي بها وارتباطها به من خلال تلك الحروب ومن اتصالها بالماضي الإسلامي كله في الوقت الذي تدافع عن حاضره. وأصبحت سمعة وسيرة نور الدين وصلاح الدين من بعده تجذب العلماء ودولتهما التي جمعت الشام ومصر أضحت تمثل بالنسبة للمسلمين نوعاً من اليقظة الإسلامية الشاملة، كما تدفع العلماء والمؤرخين في الاتجاه نفسه للأمل في مجد إسلامي أكبر.

مما تقدم نستطيع أن نفهم بواعث أبي شامة في الاهتمام بنور الدين وصلاح الدين واقتصاره على الفترة التي حكما فيها. وفعلاً تدل حوادث التاريخ على أن عوامل الضعف بدأت تدب في الدولة التي ناضلا كي تكون موحدة قوية الجانب. إذ تحولت جهود خلفائهما من بعدهما إلى كسب انتصارات محلية ينتزعون بها بعض الإمارات والبلاد أو القرى من بعضهم البعض. وبذلك انفرط العقد الذي نجحا، بجهودهما المتواصلة، في نظمه حول راية واحدة، وتفككت وحدة الدولة التي جاهدا حتى جعلا علمها يرفرف في قوة وثبات على ربوع الجزيرة العراقية والشام ومصر واليمن والحجاز.

حقيقة استطاع بعض الأمراء الأيوبيين أن يجمع غالبية الصفوف ويوحد معظم القوى في هذه الدولة، ونعني بهذا البعض الملك العادل سيف الدين، وابنه الملك الكامل لكن الوسائل التي استخدماها لتحقيق هذه الوحدة لم تكن خالية من المآخذ والشوائب. فلكي يستطيع الملك العادل توحيد القوى تحت رايته، عمد إلى سياسة فرق تسد وإلى إذكاء نار الفتنة بين أبناء أخيه صلاح الدين الثلاثة وهم: العزيز

Marfat.com

صاحب مصر، والأفضل صاحب دمشق، والظاهر صاحب حلب، حتى يتمكن من استغلال الاضطراب والقلق لتحقيق مطمعه، ولكي يتمكن الكامل من تجميع الصفوف حول عرشه، اضطر إلى مواجهة جميع الأمراء الأيوبيين الذين اتحدوا ضده ليحدوا من جبروته، كما تحالف في مناسبة أخرى مع فردريك ملك الفرنجة وسلمه بيت المقدس سنة ٦٢٦هـ دون قتال حتى يستطيع التفرغ لحصار دمشق، وطرد الملك الناصر الأيوبي منها وضمها إلى منطقة نفوذه، وبهذا لا يمكن أن نقول بأن عصر هذين السلطانين، العادل والكامل، كان امتداداً لعصري نور الدين وصلاح الدين اللذين جاهدا لتحقيق وحدة هدفها المصلحة العامة لا المطامع الشخصية، ووسيلتها تأييد الرأي العام لا التحالف مع الفرنجة أو إثارة الفتن والاضطرابات.

وفي هذا الجو المشبع بالقلاقل والانقسامات والحروب التي اصطلى بنارها الإخوة والأقربون، ولد أبو شامة سنة ٥٩٩هـ، أي بعد وفاة صلاح الدين بعشر سنين وشب واكتهل فتألم لما كان يجري، وفي أثناء دراسته للتاريخ استرعى انتباهه وملك عاطفته تلك الجهود العظيمة التي قام بها نور الدين وصلاح الدين لتخليص البلاد من الذلة التي شملتها والفوضى التي عمتها وقارن ذلك بالظروف التي تمر بها البلاد كما رآها وشهدها في وقت كان فيه العالم الإسلامي في أمس الحاجة إلى الوحدة والتكاتف لرد العدوان الصليبي المتمادي، فعزم «على إفراد ذكر دولتيهما (دولتي نور الدين وصلاح الدين) بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعله يقف عليه من الملوك، من يسلك في ولايته ذلك السلوك»[1].

ولكي نعرف إلى أي حد نجح أبو شامة في تحقيق غرضه من تأليف هذا الكتاب، وفي عرض صورة صادقة لعصري نور الدين وصلاح الدين، يحسن أن بنا أن نستعرض الموضوعات التي تحدث عنها أو تطرق بها.

كانت البلاد الشامية قد سارت شوطاً كبيراً في طريق التكتل والوحدة بفضل الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي بن آق سنقر منذ تولى إمارة الموصل سنة ٥٣١هـ. فلما توفي وهو يحاصر قلعة جعبر خلفه ابنه نور الدين محمود في المدة بين سنتي ٥٤١ ـ ٥٦٩هـ حيث اتخذ حلب عاصمة له. ثم شاركتها دمشق عندما افتتحها عام ٥٤٩هـ فأصبحت عاصمة أخرى له حتى توفي سنة ٥٦٩هـ. وبعد وفاة نور الدين مباشرة نرى صلاح الدين، الذي كان قد استقر في مصر منذ سنة ٥٦٤هـ يضم دمشق إلى ممتلكاته، تاركاً حلب العاصمة الثانية لنور الدين وما تبعها، تحت

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٤.

Marfat.com

سيطرة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، السلطان الراحل لكنه أخذ يحد من نفوذ الملك الصغير تدريجياً حتى حصره في حلب، ثم لم يلبث بعد وفاة الصالح إسماعيل أن مدّ سلطانه على حلب في سنة ٥٧٧.

وأبو شامة في الروضتين يوجه اهتمامه إلى تاريخ ثلاثة من أهم أعلام المسلمين في تلك الفترة ونعني بهم: عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وذلك لأنهم بذلوا جهوداً كبيرة لتوحيد وتكتيل بلاد الشام والجزيرة والعراق ومصر، معتبراً جهودهم مجهوداً واحداً متصلاً استهدف وحدة العرب والمسلمين في هذه المنطقة التي يعتبرها قلب العالم الإسلامي، وذلك لصد الخطر الصليبي المداهم الذي أفاد من الفوضى التي شملت تلك المنطقة ليؤسس إمارات له في الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة هي مملكة بيت المقدس. وليوطد أقدامه فيها، ولذلك فالمجال الزمني لكتاب الروضتين هو تاريخ الدولتين الزنكية والأيوبية وبصورة خاصة تاريخ الفترة التي حكم فيها الرجال المشار إليهم.

ومن جهة أخرى نجد أن المجال المكاني لحوادث الروضتين، يبدأ محدوداً بذلك الذي شهد نشاط عماد الدين في مراحله الأولى، ثم يتدرج بالشمول والاتساع مع امتداد سلطانه، وسلطان خليفتيه، حتى ينتهي، في أوسع مدى له، عند حدود الجزيرة والعراق وآسيا الصغرى والحجاز واليمن والنوبة وإفريقيا، أي عند الحدود التي ضمتها إمبراطورية صلاح الدين ورفرف عليها علمه، أما ما عدا ذلك من الحوادث التي جرت في أنحاء أخرى من العالم الإسلامي فلا مكان له في الروضتين، باستثناء الإشارة أحياناً إلى ذكر وفاة خليفة وقيام غيره ذلك لأهمية الخلافة كرمز لوحدة العالم الإسلامي الذي سعى أبطاله الثلاثة لتحقيقها. وكذلك الإشارة إلى وفيات بعض الأعلام المبرزين في خارج النطاق المكاني لكتابه لاهتمام أبي شامة بكل ما يتعلق بالعلم والعلماء، وإذا ما كان أبو شامة قد تعرض في إحدى المناسبات للحديث عن شمالي إفريقيا، وذلك عندما توغل قراقوش التقوي مملوك تقي الدين عمر الأيوبي، في مقاطعة برقة، لكن حديثه كان عرضياً ومختصراً، لم يقصد به شمال إفريقيا لذاتها، بل أريد به الحديث عن شخص وثيق الصلة بالأسرة الأيوبية، فهو لهذا السبب داخل في نطاق الموضوعات التي قصد أبو شامة أن يتحدث عنها. أما الخطاب الذي أرسله صلاح الدين إلى يوسف بن عبد المؤمن الموحدي صاحب إفريقيا، في أثناء معركة عكا، فلا صلة له بإفريقيا، إلّا لأنه مرسل من صلاح الدين إلى ابن عبد المؤمن الذي أعلن نفسه خليفة في المغرب وموضوع هذا الكتاب يدور حول معركة عكا ومتاعبها ويعرض رغبة صلاح الدين

Marfat.com

في مساعدة ابن عبد المؤمن له. لذلك فهو يدخل أيضاً في نطاق المجال المكاني الذي حدّده أبو شامة لكتابه.

وضمن إطار مجالي كتاب الروضتين، الزمني والمكاني، تناول أبو شامة موضوعات تتعلق بتنقلات الجيوش وسير المعارك وأوصاف الأسلحة والحصون والسفن الحربية وتطورات القتال وغير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بالحروب، سواء ما كان منها بين الأمراء المحليين في سبيل توحيد الجبهة الداخلية، أو ما دار بينهم وبين الفرنجة، المقيمين والوافدين وهو في هذا كله يستعين بالوثائق الحكومية وبالأشعار التي تسجل المعارك وتهنئ السلطان وتصف الغنائم والأسلاب، وتبشر بالنصر فيما يجد من حروب واشتباكات ومن جهة أخرى نجد أن نور الدين وصلاح الدين لم ينتزعا إعجاب أبي شامة لنشاطهما الحربي فقط، بل أيضاً لعدلهم بين الناس وتخفيفهم الأعباء المالية الثقيلة عن كاهل الرعية وتأسيسهم المدارس الكثيرة لنشر العلم، هذه المآثر هي التي أراد أبو شامة أن يظهرها لملوك عصره علّهم يتأسّون بها. ولهذا كان لها نصيب في حديثه في الروضتين وإن اقتصر الحديث على ضرب الأمثلة الموضحة، كإنشاء دار الكشف أو دار العدل للنظر في مظالم الرعية وشكاواهم من الأمراء والقادة، وكالمنشورات التي تقرأ على المنابر وفي الأسواق معلنة تخفيف الضرائب وإزالة المكوس، وكالمدارس والربط والزوايا التي تنشأ هنا وهناك لطلاب العلم أو للصوفية أو للعلماء المجاهدين.

وإلى جانب هذا لا يفوت أبا شامة أن يسجل قرارات تولية الأمراء والنواب والحكّام في الولايات المختلفة صغيرة أو كبيرة، مؤيداً هذا التسجيل بمنشور حكومي أو مرسوم سلطاني، وكتاب الروضتين سجل مفصل لتاريخ الدولتين النورية والصلاحية من الناحية الحكومية حرباً وسياسة وإدارة وهذه الناحية الغالبة على الكتاب، أما الجانب الشعبي، فلا مجال له في الكتاب إلّا بما يتعلق بمقدار تأييد الشعب، والعلماء بصفة خاصة، للخطوات الحربية التي اتخذها السلطان، أو يذكر عدد الجنود الذي جمعهم أمير ما من أمراء الإقطاع ليمد بهم سلطانه في معاركه الحربية، أو بغير ذلك من الأمور التي تجيء عرضاً وتكمل جانباً من جوانب التاريخ الزمني لإبطال الكتاب.

يبدأ الكتاب في تكوينه العام، بمقدمة قصيرة وضح أبو شامة فيها الحوافز التي دفعته إلى تأليفه بعد أن صرف بعض عنايته إلى دراسة التاريخ. وذكر في هذه المقدمة المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها عند تدوينه. ثم عقد فصلاً خاصاً جعل موضوعه الدولة النورية؛ ولكنه لم يتحدث في هذا الفصل إلّا عن قضايا عامة لها

صلة مباشرة بنور الدين محمود وبصفاته الشخصية التي جعلت منه حاكماً محبوباً جديراً بالتقدير؛ ومن هذه الصفات عدله، ورحمته، وجهاده، وشجاعته، وحزمه، وسياسته، وفي الحديث عن هذه الصفات يورد الأمثلة الكثيرة التي تؤكد امتياز نور الدين بها. ثم يتبع أبو شامة هذا الفصل بآخر يجمع فيه كثيراً من المدائح الشعرية التي أنشدها شعراء عصره، محمد بن نصر بن صغير القيسراني، وأحمد بن منير الطرابلسي، والمسلم بن الخضر بن قسيم الحموي وبانتهاء هذا الفصل ينتهي الحديث العام المجمل عن الدولة النورية، وهو حديث يصطبغ في مجموعه بصبغة عاطفية تميل إلى تمجيد نور الدين وإبراز مميزاته الخلقية.

ويبدأ بعد هذا الحديث المفصل الذي يسوق الحوادث التي وقعت في عهد نور الدين ويوضحها ويؤرخها. وهنا يجد أبو شامة نفسه مضطراً إلى الحديث عن أصل بيت نور الدين ونشأته فيفرد له ثلاثة فصول قصار، يتبعها بالحديث عن عماد الدين زنكي، والد نور الدين وعن عصره وجهاده الذي امتد سحابة عشرين عاماً من سنة ٥٢١ إلى سنة ٥٤١هـ، وانتهى باستشهاده عند قلعة جعبر، ثم بتقسيم دولته بين ولديه سيف الدين غازي الذي استقر بالموصل، ونور الدين محمود الذي استقر بحلب، وبهذا التقسيم نجد أن عبء جهاد الفرنج وتوحيد كلمة الشام يقع على نور الدين، الذي أثبت أنه كفؤ لتحمل هذه المسؤولية، مقدر لتبعاتها، فأخلص في جهاده وأبلى في دفاعه، حتى أصبح يعدّ من أبطال الإسلام المعدود.

وبولاية نور الدين محمود لحلب سنة ٥٤١هـ، يتزايد اهتمام أبي شامة به، الذي كان من أهداف تأليفه كتاب الروضتين تمجيد هذه الشخصية الفذّة؛ فيبدأ في تفصيل الحديث عنه معتمداً على المصادر المعاصرة، ومؤيداً حديثه بما استطاع الوصول إليه من الوثائق الحكومية، أو من الأشعار والقصائد التي سجلت مراحل جهاده، وتتّبعت معاركه بالتفصيل والتقريظ، ويلتزم أبو شامة في هذا الحديث نظام الحوليات، الذي اتبعه كثير من المؤرخين في عصره مبتدءاً بسنة ٥٤٢هـ، وهي السنة التالية لتاريخ استشهاد والده عماد الدين عند قلعة جعبر. لكن أبا شامة لا ينسى أن يفرد فصولاً خاصة، طويلة أو قصيرة لبعض الأحداث التي تستحق من وجهة نظره هذا التخصيص، وذلك داخل نطاق النظام الحولي؛ بمعنى أن الحديث عن سنة بعينها قد يجيء في فصول متتابعة، يختص كل منها بحادثة أو بعدة حوادث، غير أنه لا يتجاوز هذه السنة إلى السنة التي تليها، ويستمر أبو شامة في حديثه، بهذه الطريقة، عن عصر نور الدين، ثم عن عصر خليفته في حمل رسالة التوحيد الإسلامي وراية الدفاع عن الإسلام في وجه الغزو الصليبي السلطان صلاح

Marfat.com

الدين يوسف بن أيوب، الذي تلقى وأهله دروس الجهاد في بلاد نور الدين، ثم حمل راية الجهاد بعده ليكمل رسالته طيلة حياته حتى لبى نداء ربه سنة ٥٨٩هـ، بعد انتهاء معركته مع جموع الصليبيين في حملتهم الثالثة بشهور قليلة.

وهنا يعامل أبو شامة بطله الثاني صلاح الدين بنفس الطريقة التي عامل بها نور الدين في أول الكتاب، فيعقد فصلاً خاصاً يتحدث فيه عن صفات صلاح الدين التي تميّز بها، فوضعته في صفوف الأبطال المجاهدين، والحكام المشهود لهم بحسن السيرة وصدق العزيمة ونبل المقصد، ويختم أبو شامة كتابه بفصول قصار متتابعة يتحدث فيها عن تطورات الأمور في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين، وبخاصة في فترة النزاع بين أبنائه وبني عمهم العادل سيف الدين؛ ولا يتقيد أبو شامة في هذا الحديث بالتسلسل التاريخي إلّا فيما يقتبسه عن العماد الأصفهاني في كتابه «خطفة البارق وعطفة الشارق» إذ إنه يعود إلى اتباع طريقة الحوليات في اختصار شديد.

وبهذا الاقتباس ينهي أبو شامة كتاب الروضتين، بعد أن سجل تاريخاً مفصلاً لدولتي نور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين يوسف الأيوبي، تتبع فيه نشاطهما ومجهودهما الذي جعل منهما في المتأخرين مثلاً يحتذى، والذي رفع مكانهما حتى صارا في زمانهما كالعُمَرين في عصرهما، عدلاً وديانة وجهاداً.

مصادر كتاب الروضتين

إن معرفة المصادر التي اعتمد عليها أبو شامة كفيلة بإظهار القيمة التاريخية لكتاب الروضتين، ومقدار دقته وصدقه في تصوير العصر الذي تعرّض له. ومن حسن الحظّ أن أبا شامة يوفر علينا كثيراً من العناء ويجعل مهمتنا مُيَسَّرة إلى حد كبير فهو يذكر في مقدمة الكتاب المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها وهي تاريخ دمشق لابن عساكر، وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، وتاريخ الأتابكة لعز الدين بن الأثير. والفتح القدسي والبرق الشامي للعماد الأصفهاني، والنوادر السلطانية لابن شداد، ورسائل القاضي الفاضل، وكثيراً من الأبيات الشعرية من دواوين العماد الأصفهاني وغيره[١]. كما أن أبا شامة يعرّج على ذكر هذه المصادر مجدداً حين كاد ينتهي من تدوين حوادث كتابه بعد الفراغ من الحديث عن صلاح الدين، إذ يقول[٢]:

«واستوفينا ما في كتابي البرق والفتح القدسي والتاريخ الأتابكي وكتاب

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٤.
(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٢٤١.

Marfat.com

القاضي أبي المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات».

ومن يستعرض الروضتين يتأكد ممّا ذكره أبو شامة في مصادره، كما يقف على مصادر ثانوية أخرى اقتبست مرة أو مرتين، أو نحو ذلك، وهي تدخل بذلك في قوله: «وانضافت إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنّفات ودواوين ومراسلات».

ومما تجدر ملاحظته أن هناك مصدراً يأتي في المقدمة بين المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها أبو شامة في الجزء الأول، والنصف الأول من الجزء الثاني من كتابه الروضتين ومع ذلك فهو لا يذكره في مقدمة الروضتين بين المصادر الرئيسية التي اعتمدها، كما لا يشير إليه في عبارته المجملة التي أوردها آنفاً، علماً أن أبا شامة يقتبس هذا المصدر في مناسبات أكثر عدداً، وفي موضوعات أعظم أهمية، وفي عبارات أكثر طولاً، من تلك المناسبات التي اقتبس فيها غيره، وهذا المصدر هو كتاب السيرة الصلاحية ليحيى بن أبي طي الحلبي. ومع أن أبا شامة أشار في مناسبات الاقتباس إلى أنها منقولة عن ابن أبي طي، كما فعل هذا ببقية المصادر الأخرى حتى تلك التي اقتبس منها مرة واحدة، لكن مما يؤاخذ عليه أبو شامة أنه لم يُشر إلى هذا المصدر إشارة واضحة، ولم يذكر صاحبه إلى جانب من ذكرهم من المؤرخين الذين اعتمد عليهم كابن الأثير وابن شداد وغيرهم وسنستعرض هذه المصادر تبعاً لأسبقيتها الزمنية.

أ ـ تاريخ دمشق:

عني كثيرون من مؤرخي المسلمين بتأليف كتب تناولوا فيها تاريخ قطر من الأقطار العربية الإسلامية أو تاريخ بلاد أخرى أو الترجمة لبعض مشاهير الرجال أو الدول. ويغلب على الظن أن اهتمام أولئك المؤرخين بقطر واحد أو بمدينة واحدة كان نتيجة أنهم من أبناء ذلك القطر أو تلك المدينة. وقد اهتم مؤرخو ذلك الفرع بكتابة سيرة الشخصيات الفذة التي نشأت في القطر أو المدينة التي عنوا بكتابة تاريخها. ومؤرخو البلدان كثيرون ومن بينهم ابن عساكر الذي يعتبر تاريخه لمدينة دمشق من تآليفه.

هو الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ثقة الدين المعروف بابن عساكر الشافعي. ولد في مستهل رجب سنة ٤٨٩ (٩/ ٣/ ١١٠٦) في دمشق. وتلقى علم الحديث في المدرسة النظامية التس أسسها نظام الملك وزير ألب

Marfat.com

رسلان وملكشاه السلجوقيين، وفي المدن الكبرى في فارس. ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث عيّن معلماً في مدرسة نور الدين زنكي المعروفة بالمدرسة النورية وقد اعتبر في حياته في طليعة فقهاء، الشافعية. وكانت وفاته بدمشق في الحادي عشر من رجب سنة ٥٧١هـ (٢٦/ ١/ ١١٧٦). وقد سار السلطان صلاح الدين الأيوبي وراء نعشه ولابن عساكر مصنفات عديدة ذكرها بروكلمان ومنها كتابه عن تاريخ دمشق وهو تاريخ مشاهير الدمشقيين والعلماء الذين أقاموا بدمشق زمناً، وبعض الأنبياء أيضاً كسليمان وشعيب. وهو يقتدي في ذلك بطريقة الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد، وقد نشر صلاح الدين المنجد منه مجلدين، الأول سنة ١٩٥١ والثاني سنة ١٩٥٤ ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. كما هذّبه بترتيب جديد واختصار في الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران المتوفى سنة ١٣٤٦ (١٩٢٧) تحت عنوان «تهذيب تاريخ ابن عساكر» وقد نشرت المجلدات الخمسة الأولى بدمشق فيما بين سنتي ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢ ونشر أحمد عبيد المجلدين السادس والسابع سنتي ١٣٤٩ ـ ١٣٥١ (حتى عبد الله بن سيّار) وقد ذكر لنا أبو شامة سبب اهتمامه بتاريخ ابن عساكر كونه احتوى على ترجمة حسنة لنور الدين محمود زنكي، كما يذكر أنه اختصره وهذّبه وزاد عليه، كما وقف عليه العلماء وسمعه الشيوخ والفضلاء[1].

ب ـ ذيل تاريخ دمشق:

هذا الكتاب لحمزة بن أسد بن علي بن محمد أبو يعلى التميمي الدمشقي العميد المعروف بابن القلانسي. ولي رياسة ديوان دمشق مرتين وتوفي في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ (٢٨/ ٣/ ١١٦٠).

ألّف كتاب ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ليكون ذيلاً على التاريخ العام الذي ألّفه هلال الصابي والذي ينتهي سنة ٤٤٧هـ. وينتهي ذيل تاريخ دمشق في سنة ٥٥٥هـ وهي السنة التي توفي فيها المؤلف. أما بدايته فموضع اختلاف، فبينما يذكر ياقوت أنه يبدأ سنة ٤٤١هـ يذكر ابن عساكر أن سنة ٤٤٨هـ هي مبدأ الذيل. وتاريخ أبي يعلى، على كلا القولين، يعالج فترة تزيد على القرن ببضع سنوات تنتهي في سنة ٥٥٥هـ.

ويذكر أبو شامة في مقدمة كتاب الروضتين سر اهتمامه بكتاب الرئيس أبي يعلى حين يقول له: «شمل قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية». ونور الدين

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٣ ـ ٤.

Marfat.com

تولى حلب بعد وفاة والده عماد الدين زنكي في سنة ٥٤١هـ. وبهذا نجد أن كتاب ابن يعلى يشمل نحو أربع عشرة سنة من عهد نور الدين زنكي تبدأ بولايته حلب وتنتهي بنهاية الكتاب. وفي حديثه عن هذه الفترة، يعتمد أبو شامة اعتماداً كبيراً على أبي يعلى. فيبدأ اقتباسه في كتابه بعد وفاة زنكي مباشرة ويواصل الاعتماد عليه بعد ذلك حتى يصل عدد الاقتباسات منه سبعاً وثلاثين مرة تنتهي بنهاية الذيل سنة ٥٥٥هـ.

وترجع أهمية الكتاب، كذلك، إلى أن مؤلفه حين يتحدث عن دمشق، إنما يتحدث حديث عليم يمد القارئ بمعلومات على درجة كبيرة من الأهمية، فأبو يعلى من مواطني دمشق المقيمين بها. وقد كان إلى جانب ذلك من رجالها الرسميين المسؤولين، لأنه تولى رياسة ديوانها مرتين، فأتاحت له هذه الصفة الرسمية الاتصال المباشر بالتقلبات السياسية والاجتماعية والحربية التي حدثت في دمشق أو التي كانت دمشق طرفاً فيها، وبهذا يتبيّن أن هذا الكتاب الذي ألّفه أبو يعلى مصدر محلي معاصر مهم، فليس هناك أولى منه في معرفة تاريخ دمشق، وما يتّصل بها في هذه الفترة من عصر نور الدين، وهي تكوّن جزءاً هاماً من تاريخ الدولة النورية الذي تعرّض له أبو شامة بالتأليف.

ج ـ رسائل القاضي الفاضل:

هو أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي ابن القاضي السعيد البيسالي اللخمي، العسقلاني المولد، المصري الدار الملقب بمجير الدين والمعروف بالقاضي الفاضل ولد القاضي الفاضل في منتصف جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ (٣/ ٤/ ١١٣٥م). وكان أبوه قاضي عسقلان أبان خلافة الحافظ لدين الله الفاطمي. فأرسل ولده عبد الرحيم إلى مصر، فاتصل بأبي الفتح بن قادوس واستفاد منه كثيراً. ثم صار كاتباً لقاضي الإسكندرية. وما لبث أن استدعاه العادل رزيك إلى القاهرة للعمل في ديوان الجيش، وقد حافظ على وظيفته خلال الاضرابات التي صاحبت سنتي الفاطميين الأخيرة، إلى أن ولّاه صلاح الدين، وكان لا يزال وزيراً، ديوان الإنشاء وقد هيّأت له صلته بصلاح الدين أن يمكّن نفوذه ويُظهر عن كفائته، حتى أصبح الساعد الأيمن له يستشيره ويعتمد عليه في كل ما يتعلق بشؤون دولته، بل نراه يستمده النصح في أخص شؤونه العائلية.

وقد تزايدت أهمية القاضي الفاضل في دولة صلاح الدين حيث عهد إليه إصلاح النظام المالي للجيش. كما أنابه صلاح الدين عنه في إدارة شؤون مصر بين

Marfat.com

سنتي ٥٨٥ ـ ٥٨٨هـ، أيام الحملة الصليبية الثالثة. ولم يكتف بذلك، بل اعتمد عليه في التصرف بكثير من المشكلات التي سبّبها بعض قواد الجيش الأيوبي وأمرائه في ميدان المعركة بالشام. وقد عبّر صلاح الدين عن تقديره للقاضي الفاضل بقوله: «ما فتحت البلاد بالعساكر، إنما فتحتها بكلام الفاضل»[١].

وعند موت السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣)م، نشبت الحرب بين ابنيه الملك الأفضل بدمشق والملك العزيز بمصر، فانضم القاضي الفاضل إلى العزيز. ثم توسط بين الإخوة لإحلال السلام سنة ٥٩١هـ (١١٩٥)، ولازم بيته بعد ذلك إلى أن توفي في السادس أو السابع من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ (٢٦ أو ٢٧ كانون الثاني ١٢٠٠م).

عرف القاضي الفاضل بغزارة إنتاجه الأدبي. وقد كانت ظروف الحرب الصليبية تُحتّم عليه، كقائم على ديوان الإنشاء، أن يكثر من تحرير الرسائل في شتى الأمور إلى الملوك والأمراء والحكام والنواب، ومن سوء الحظ أن معظم رسائله قد ضاع ولم يصلنا إلّا جزء يسير منها هي: «الفاضل من كلام الفاضل»، و«الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم» جمعها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر. و«فصوص الفصول وعقود العقول» جمعها ابن سناء الملك كما وصلت إلينا في كتب متفرقة مثل نهاية الأدب للنويري وصبح الأعشى للقلقشندي والروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة والنكت العصرية لعمارة اليمني وغيرهم.

وإلى جانب هذه الرسائل نجد في خطط المقريزي مقتبسات عدة مأخوذة عن القاضي الفاضل يصدرها المقريزي بكلمة «متجددات» أو «مجلدات» أو «مياومات» وبالمقارنة بين الرسائل والمتجددات نلحظ أن موضوع الرسائل، كما نجدها في الروضتين وفي غيره هي عبارة عن حوادث معينة محدودة، سياسية أو حربية، أو مكاتبات للأفراد أو للخليفة، أو للسلطان. وكل رسالة من هذه الرسائل وحدة مستقلة بذاتها تتناول موضوعاً معيناً له مناسبته الخاصة. أما المتجددات، كما نجدها في الخطط، فتختلف في طبيعتها عن الرسائل، فهي لا تتعلق بمناسبة معينة أو موضوع معيّن يعالجه الفاضل على شكل رسائل. هذا إلى أنها تبدأ بذكر تاريخ معين، ثم تتحدث عن موضوعات لها في الغالب، الصبغة الحكومية والإدارية. وعلى هذا فالمياومات أو التعليقات، أو المتجددات، أسماء لمؤلّف أو مؤلّفات غير الرسائل التي اقتبسها أبو شامة في كتابه وإنما هي كتاب في التاريخ سجّل فيه

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/ ٣٢٤.

Marfat.com

القاضي الأعمال التي قام بها أو أشرف عليه مدة رئاسته لديوان الإنشاء، كما تدل على ذلك المقتبسات التي أوردها المقريزي في خططه.

د ـ مؤلفات العماد الأصفهاني:

هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين الملقب عماد الدين الأصفهاني، ولد بأصفهان سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م). وانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية ببغداد. وولاه الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة نظر البصرة، ثم نظر واسط. ولما توفي الوزير ابن هبيرة سنة ٥٦١هـ (١١٦١م) فقد العماد مكانته وأودع السجن، ومع أنه أطلق سراحه بعد ذلك بقليل، فلم يستطع أن يسترد مكانته بالعراق، فانتقل إلى دمشق وهناك قدّمه كمال الدين بن الشهرزوري، قاضي قضاة دمشق، إلى نور الدين محمود بن زنكي فعيّنه في ديوان الإنشاء سنة ٥٦٣ وبقي فيه حتى نقل إلى وظيفة أخرى في سنة ٥٦٧هـ تتناسب مع نشاطه العلمي قبل قدومه إلى الشام، وهي وظيفة الأستاذية بالمدرسة النورية الشافعية، داخل باب الفرج، والتي نسبت إليه، لسكناه بها، فقيل لها العمادية ثم ولاه في السنة التالية الإشراف على ديوان الإنشاء.

وتدهورت مكانة العماد بعد وفاة نور الدين، ذلك أن ابنه وخليفته الملك الصالح إسماعيل، الذي ولي الملك سنة ٥٦٩ (١١٧٣م) وهو في الحادية عشرة من عمره، عزل العماد من جميع مناصبه، وطرده من البلاط، فخرج العماد من دمشق قاصداً بغداد، فوصل إلى الموصل ومرض بها، وهناك بلغه أن صلاح الدين استولى على مصر، وأنه خرج منها قاصداً دمشق ليستولي عليها، فلاقاه العماد في حمص، واتصل بالقاضي الفاضل الذي توسط في أمره عند صلاح الدين، فعيّنه في ديوان الإنشاء، لينوب عن القاضي الفاضل وليحمل عنه بعض أعباء وظيفته، واكتسب حظوته من جديد، ومن ذلك التاريخ لازم العماد صلاح الدين، في رحلته أو إقامته، وقام له بمثل ما كان القاضي الفاضل يقوم به من الأعمال، وإن لم يصل إلى نفس المكانة السامية التي صارت للفاضل، عشير صلاح الدين ويده اليمنى في جميع أعمال الإدارة والسياسة والحرب، بل في أخص الشؤون العائلية للأسرة الأيوبية. ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) اضطر العماد إلى ملازمة بيته وأقبل على التصنيف حتى توفي في الثالث عشر من رمضان سنة ٥٩٧ (٢٠/ ٦/ ١٢٠١م).

ويقتبس أبو شامة العماد الأصفهاني في وثائقه التي كتبها باسم السلطان،

Marfat.com

عندما كان يعمل في ديوان الإنشاء، إلى الجهات المختلفة، ويقتبسه كذلك في كتاب الفتح القدسي وكتاب البرق الشامي، وكتاب تاريخ دولة آل سلجوق، وفي خريدة القصر وجريدة أهل العصر وفي بعض رسائل أخرى قصيرة، وطائفة من أشعاره التي نقلها عن ديوانه.

أما كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي فهو تاريخ سبع سنوات فقط من حياة صلاح الدين (٥٨٣ ـ ٥٨٩) وهو العام الذي فتح صلاح الدين فيه بيت المقدس. والقاضي الفاضل هو الذي أطلق على كتاب العماد هذه التسمية، فسماه الفتح القدسي نسبة إلى بيت المقدس، والفتح القسي، نسبة إلى قس بن ساعدة الإيادي، خطيب العرب في الجاهلية وكان قس معروفاً إذ ذاك بالسجع، وكان العماد الأصفهاني قد جعل كتابه هذا سجعاً من أوله إلى آخره، فاستحسن القاضي الفاضل هذه التسمية. وقصده منها إن الله فتح على العماد في سجعه هذا كما فتح على قس بن ساعدة من قبله في السجع والبلاغة أيضاً.

وكتاب الفتح القسي تسجيل تاريخي منظم للنشاط الحربي الذي قام به صلاح الدين بين سنتي ٥٨٣ ـ ٥٨٩هـ وهي فترة الجهاد الأكبر الذي قام به لتطهين فلسطين وبلاد الشام عامة من الاحتلال الصليبي. وقد استعاد صلاح الدين بهذه الحروب كثيراً من معاقل الصليبيين، وفي مقدمتها بيت المقدس، كما واجه جموعهم في حملتهم الثالثة بزعامة فريدريك بربروسا ملك ألمانيا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا، وفيليب ملك فرنسا. وهذه الحملة انتهت بصلح الرملة قبيل وفاة صلاح الدين بشهور قليلة.

وفي مقدمة كتاب الفتح القسي يتحدث العماد عن سبب اختياره سنة ٥٨٣هـ لتكون بداية للكتاب فيقول عن خروج الجيوش الإسلامية للحرب.

«وأنا أرّخت بهجرة ثانية، وهي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس. وهذه الهجرة أبقى الهجرتين وأعظم الكرّتين».

والفرق بين فتوح الشام، في رأي العماد، والفتوح الإسلامية الأولى فرق بيّن تبيّن الخيط الأسود من الخيط الأبيض، من الفجر، فإن الشام فتح والعهد بالرسول غير بعيد، والسلاح لم يكن بهذا التنوع والضخامة التي كان عليها أيام الفتح الصلاحي، هذا بالإضافة إلى أنه فتح للقدس بعد أن طغى عليها الكفر وانحسر عنها الإسلام.

أما الفترة التي يشملها البرق الشامي فتبدأ سنة ٥٦٢هـ، وتنتهي عند وفاة

Marfat.com

صلاح الدين وهذا الكتاب أكبر حجماً من الفتح القسي وأوسع مجالاً. وقد بدأه بذكر انتقاله من العراق إلى الشام، واتصاله بخدمة نور الدين عن طريق كمال الدين الشهرزوري، الذي قدّمه أيضاً لنجم الدين أيوب، فساعد بهذا على تجديد الصلة بين الأيوبيين وأسرة العماد، تلك الصلة التي بدأت بتكريت عندما اتصل عم العماد، العزيز، بنجم الدين أيوب صاحب قلعة تكريت حينذاك والفتح القسي موجود بكثرة، مخطوطاً ومطبوعاً. أما البرق الشامي فلا يوجد منه إلّا مخطوطة للجزأين الثالث والخامس في مكتبة بودليان بأوكسفورد. ومما يذكر أن الفتح كتب للمرة الأولى في مجلدين، بينما كتب البرق في سبعة مجلدات. ولعلّ الفارق في الحجم بين الكتابين عائد إلى الفارق في الفترة الزمنية التي يتعرض لها كل منهما وأسلوب الكتابين واحد تميّز به العماد في جميع ما كتب، حتى وفي شعره، فهو يعتمد على الإكثار من استعمال المحسنات البديعية، بدرجة مملة مرهقة تجعل استخلاص الحقائق التاريخية منها أمراً صعباً ومهمة شاقة. ولكن صدق هذه المعلومات يستحق ما يُصرف في سبيل استخلاصها من العناء، فالعماد يتحدث عمّا شاهده أو سمعه بنفسه، أو عمّا وقف عليه في أثناء عمله بديوان الإنشاء. وهو يؤيد حديثه أحياناً بالوثائق التي كتبها بنفسه، أو التي وصلت إليه. كما لم يقتبس العماد في الفتح وثيقة واحدة لرئيسه القاضي الفاضل، على حين نجد في البرق الشامي بعضاً من هذه الوثائق الفاضلية. وقد يكون السبب في هذا أن الفتح في أغلبه وصف للحوادث التي وقعت في فلسطين والشام عامة، في فترة الفتوح العظيمة ثم في فترة الحروب الصليبية، وقد شهدها العماد بنفسه، أما القاضي الفاضل، فإنه لم ينزل إلى ميدان المعركة في هذه الفترة، بل قضى بعضاً منها بعيداً عنها، في مصر، نائباً عن صلاح الدين، وهذان الكتابان يتفقان في الطريقة إذ يتبعان نظام الحوليات، ولا يتعرضان لترجمة الأعلام الراحلين من العلماء أو غيرهم، إلّا فيما ندر.

وكتاب نصرة الفطرة وعُصْرة الفطرة فهو تاريخ للسلاجقة ووزرائهم، وترجمة مختصرة بأسلوب إنشائي مسجوع للكتاب الفارسي المفصل الذي صنّفه شرف الدين أنوشروان المتوفى سنة ٥٣٢هـ (١١٣٧م). وقد اختصره أبو الفتح البنداري في كتاب سماه «زبدة النصرة ونخبة العصرة». وأسرة السلاجقة بدأ نجمها بالظهور على مسرح تاريخ الدولة العباسية حوالي منتصف القرن الخامس الهجري حين خلفت الأسرة البويهية المنهارة. ثم توزع سلطان هذه الأسرة بتأثير عوامل المطامح الشخصية لأمرائها. وكان العماد قد اتصل بهؤلاء السلاجقة قبيل قدومه على

Marfat.com

الشام. وتولى التدريس ببعض المدارس التي أنشأوها، كما تولى في ظلهم منصباً إدارياً في مدينة واسط بالعراق. وقد حملته صلته هذه على تدوين تاريخهم في مؤلف خاص اقتبسه أبو شامة في مناسبات قليلة جداً. وهو لهذا السبب لا يعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر الروضتين الذي لا يهتم اهتماماً مباشراً بتاريخ السلاجقة.

وللعماد مؤلف آخر له طابع أدبي صرف. وهو كتاب «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» وهو تراجم لأدباء مصر والشام والمغرب والعراق والجزيرة، ممن عاصروا العماد، والخريدة ذيل على كتاب «دمية القصر» للباخرزي، وهذا الكتاب الأخير ذيل الكتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي.

ويقع كتاب الخريدة في عدة مجلدات يستقل واحد منها أو أكثر بجهة من الجهات وقد اقتبسه أبو شامة أيضاً في مناسبات قليلة عند الحديث عن بعض الشخصيات للتعريف بقيمتها الأدبية، وذلك مثل الصالح طلائع بن رزيك، أو الجليس بن الحباب، أو ابن المهذب الزبيري، من رجال الدولة الفاطمية.

وللعماد ديوان شعر، وقد ضاع، لكن أبو شامة سجّل بالروضتين جملة قصائد من نظم العماد في مدح نور الدين وصلاح الدين، تهنئهما بانتصارهما على الصليبيين، وفي رثاء كل منهما عند وفاته. كما ضاعت رسائله ولم يصل لنا منها سوى قدر ضئيل ومن كتبه أيضاً «رسالة العتبى والعقبى» عن الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م) وقد ذكره أبو شامة، كما ذكر كتاباً أخر له هو «خطفة البارق وعطفة الشارق» عن الأحداث من سنة ٥٩٣هـ حتى موته.

هـ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية:

للمؤرخ بهاء الدين أبا الحسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتّاب الأسدي الذي يكنى بأبي المحاسن، وينسب لأخواله من بني شداد وذلك لأنه تربى في كنفهم لوفاة أبيه وهو صغير السن. وكان شداد جده لأمه. ولد في الموصل في العاشر من شهر رمضان سنة ٥٣٩هـ (٦/ ٣/ ١١٤٥م) وتلقى العلم بها. وقد ذكر في بعض تآليفه أسماء المشايخ الأعلام الذين أخذ عنهم. وبعد أن أتم دراسته في مسقط رأسه انحدر إلى بغداد حيث عيّن مدرساً في المدرسة النظامية، ثم عاد إلى الموصل ليتولى التدريس في المدرسة العالية هناك. وفي سنة ٥٨٣هـ ذهب حاجاً إلى بيت الله الحرام وزار في طريق عودته بيت المقدس والخليل. ووفد على دمشق وصلاح الدين مقيم على حصار قلعة كوكب. فلما اتصل به أعجبه ودخل في خدمته منذ سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) حيث ولّاه قضاء العسكر وقضاء بيت المقدس.

وعند وفاة صلاح الدين انتقل ابن شداد إلى حلب لجمع كلمة أولاد سلطان بني أيوب ودخل في خدمة الظاهر غياث بن صلاح الدين صاحب تلك المدينة حيث ولّاه قضاءها وأوقافها ومنحه إقطاعاً درّ عليه أرزاقاً كثيرة لأنه لم يكن له أولاد. وقد عمّر ابن شداد مدرسة في حلب للشافعية، كانت تقع أمام مدرسة نور الدين زنكي، كما عمّر بجانبها مدرسة للحديث، وأعدّ بينهما مكاناً ليدفن به.

تمتع ابن شداد بنفوذ كبير في عهدي الظاهر والعزيز ابني صلاح الدين. وقد استغل نفوذه هذا في الإكثار من المدارس ووقف المال عليها. وما لبث ابن شداد أن اعتزل الناس والحكومة لمنافسة كانت بينه وبين آخرين معه على قضاء حلب ولازم داره إلى أن وافاه الأجل سنة ٦٣٢هـ (١٢١٤م).

ألّف ابن شداد كتباً عديدة منها: ملجأ الحكام عند التباس الأحكام، وهو كتاب للقضاة وكتاب «دلائل الأحكام» وقد ذكر فيه الأحاديث التي تستنبط الأحكام منها، وكتاب «المعجز في الفقه» وغيرها.

على أن الكتاب الذي من أجله سقنا الحديث عن ابن شداد هو كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» وهو في سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي. ألّفه بعد وفاته، وهو من المصادر الهامة الرئيسية لكتاب الروضتين. وكتاب ابن شداد صغير الحجم نسبياً إذا ما قورن بالفتح القدسي أو بما تحت أيدينا من كتاب البرق الشامي، لكنه خال من الزخرف والتزويق اللذين يميزان كتب العماد الأصفهاني لكن صغر حجم النوادر لا يقلل من قيمته التاريخية. وعلى العكس نجد هذا الكتاب حاوياً لكثير من الحقائق التاريخية المسجّلة في عبارات محدودة.

يقع كتاب النوادر السلطانية في قسمين، خصص ابن شداد أولهما للحديث عن نشأة صلاح الدين وأخلاقه، بينما يفصّل في القسم الثاني ما جرى في أيامه من وقائع وفتوحات. وقد جاء القسم الأول في فصول قصار يتحدث كل منها في صفة من صفات السلطان صلاح الدين، كوقاره وعدله وديانته، بعد أن يمهد لذلك بآية قرآنية أو حديث نبوي، أو بهما معاً، كفاتحة وعنوان للفصل، ثم يذكر ما علمه من تمسك السلطان بهذه الصفة ويذكر طرفاً من نوادره في ذلك. ثم يختم الحديث في هذه الصفة بالدعاء للسلطان أن يرحمه رحمة واسعة. والواقع أن هذا القسم الأخير لا يعدو كونه تمهيداً للغرض الأصلي الذي ألّف الكتاب من أجله، وهو تفصيل الحديث عن نشاط صلاح الدين وجهاده وحروبه التي جعلت منه بطلاً ومجاهداً.

أما في القسم الثاني من الكتاب فيتحدث ابن شداد عن وقائع السلطان حديثاً يمتاز عن حديث غيره من المؤرخين بناحية هامة. وهي أنه كان كثيراً ما يعتمد على

Marfat.com

مشاهداته ومعلوماته، لا على الروايات المختلفة التي اعتمد عليها غيره كابن واصل وأبو شامة وغيرهما. ولذلك نجده يقول أثناء حديثه عن حوادث سنة ٥٨٤هـ وهي السنة التي التحق فيها ابن شداد بخدمة صلاح الدين.

«ومن هذا التاريخ ما سطّرت إلّا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان»[١].

كما نجده يقول في أثناء الحديث عن السنة السابقة لهذه السنة، أي سنة ٥٨٣هـ، بعد رواية قصة مقتل البرنس أمير الكرك بيد صلاح الدين: «وهكذا بلغني عن ألسنة جماعة لأني لم أحضر هذه الواقعة»[٢].

وهكذا نجد أن كتاب النوادر السلطانية يعتبر مصدراً معاصراً هاماً في المدة التي تقع بين سنوات ٥٨٤ ـ ٥٨٩هـ، كما أنه يرقى باعتماده على الثقات في رواية ما سبق هذه الفترة إلى مرتبة المصادر الرئيسية الأولى التي اعتمد عليها أبو شامة من خلال ما تقدم، نلاحظ أن كلاً من ابن شداد والقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني كان على صفة بمجريات الأحداث بمقدار أهمية كل منهم في الجهاز الحكومي. على أن العبء الأكبر والمكانة الأولى كانت للقاضي الفاضل. أما ابن شداد فلم يتصل بصلاح الدين إلّا في سِنِيِّه الأخيرة عندما مر بدمشق سنة ٥٨٣هـ في طريقه إلى الحج فأعجب صلاح الدين به ثم مر بها مرة أخرى في عودته في السنة التالية، فعرض عليه السلطان أن يوليه قضاء العسكر فقبل، ولازم ابن شداد صلاح الدين منذئذٍ حتى تم له فتح القدس فولّاه قضاءها. وبقي على صلته القوية بالسلطان الذي توفي سنة ٥٨٩هـ، فاتصل بعد ذلك بابنه الملك الظاهر صاحب حلب. وهكذا نجد أن شخصية ابن شداد هي التي مهدّت له بطريق غير مباشر سبيل التقدم لدى صلاح الدين الذي اختصه، منذ اتصل به، بكثير من الرعاية والتقدير. وكانت منزلة العماد بين المنزلتين، وصلته بالجهاز الحكومي تزيد عن صلة ابن شداد، وتقصر عن صلة القاضي الفاضل، أهم الرجال الثلاثة بلا جدال. وبهذا يشترك العماد وابن شداد والقاضي الفاضل في أن كلاً منهم، كان من معاصري الفترة التي يتحدث عنها أبو شامة في كتاب الروضتين، ومن ثم تعتبر المؤلفات التي كتبها كل منهم في المرتبة الأولى من الأهمية، كمصادر معاصرة محلية، في تصوير الحوادث وتسجيلها.

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٢٧.
(٢) ابن شداد: المرجع السابق ص٦٣ ـ ٦٤.

و ـ الباهر في الدولة الأتابكية :

ومصنف هذا الكتاب هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم أثير الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم عز الدين الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، والملقب بعز الدين، ولد رابع جمادى الأولى سنة ٥٥٥هـ (١٣/ ٥/ ١١٦٠م) بجزيرة ابن عمر في أرض الرافدين. وانتقل مع أسرته إلى الموصل سنة ٥٧٦ (١١٨٠م) فأتمّ تعليمه فيها. وفي سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) اشترك في حروب صلاح الدين مع الصليبيين في سوريا. واستزاد من العلم بالحديث والتاريخ في بغداد التي أتاها مرة في طريقه للحج. ومرة رسولاً من أمير الموصل. وفي سوريا والقدس اللتين يبدو أنه جاءهما سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٦م). وعاش بعد ذلك في الموصل متفرغاً للعلم. وفي سنة ٦٢٦هـ (١١٢٩م) اجتمع به ابن خلكان في حلب حيث كان ابن الأثير ضيفاً على شهاب الدين طُغْرِل أتابك الملك العزيز. وفي سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) ذهب إلى دمشق ثم عاد في السنة التالية إلى حلب. وبعد إقامة قصيرة فيها عاد إلى الموصل ثانية وفيها مات في شعبان أو رمضان سنة ٦٣٠هـ (أيار أو حزيران سنة ١٢٣٣م).

اشتهر ابن الأثير في علم الحديث واعتبر من أعلامه، وفي حفظ التواريخ القديمة والمتأخرة وعُدَّ خبيراً في أنساب العرب وأيامهم وأخبارهم. وقد صنّف عدة كتب ذكرها ابن خلكان في ترجمته وأهمها الكامل في التاريخ، وأسد الغابة في معرفة الصحافة، والباهر في الدولة الأتابكية، كما اختصر كتاب الأنساب للسمعاني.

ويعتمد أبو شامة اعتماداً كبيراً، في حديثه عن تاريخ الجزيرة وحوادثها، على كتاب الباهر الذي خصصه ابن الأثير للحديث عن أسرة زنكي. وقد أهدى ابن الأثير كتابه هذا إلى الأمير القاهر مسعود الذي ولي الموصل سنة ٦٠٧هـ اعترافاً بفضل أسلافه على أسرة ابن الأثير، وتوجيهاً له حتى يتخذ من أسلافه مثلاً يُحتذى في حسن السيرة وعدالة الحكم. ويشمل هذا الكتاب المدة الواقعة بين سنتي ٤٧٧ ـ ٦٩٧هـ، أي منذ ولاية آق سنقر صاحب الموصل، والد عماد الدين زنكي، حتى بدء ولاية القاهر مسعود الذي أهدى إليه الكتاب. وابن الأثير مصدر رئيسي للحوادث التي يسجلها في الخمسين سنة الأخيرة التي يشملها الكتاب، أما حوادث السنوات التي سبقت فقد استقاها من الثقات الذين يعتمد عليهم، كما يقول، وفي مقدمتهم والده، الذي يتردد ذِكرُه في الكتاب كمصدر خمساً وعشرين مرة، ويذكر ابن الأثير أن والده حكى له معظم ما جاء في هذا الكتاب وإن كان هو دوّنه، مما حفظه بعد وفاة والده، الأمر الذي أدى إلى نسيانه لكثير مما قصّه عليه، ونادراً ما يذكر ابن الأثير المصادر الأخرى التي استقى منها معلوماته التي سجّلها في هذا الكتاب.

Marfat.com

ومن هذا القبيل نجده يذكر ابن عساكر مرتين، وأسامة بن منقذ مرة واحدة. وكذلك كمال الدين بن العديم والعماد الأصفهاني، وقد نجده يتعمد تعمية المصدر أحياناً، مشيراً إليه بقوله: «وذكر لي أعلم أهل زمانه بالأنساب» أو «وذكر لي من أثق في صدق روايته».

ويقصر ابن الأثير حديثه في الكتاب على تاريخ أتابكة الموصل من آل زنكي، دون أن يتعداه إلّا إلى ذكر وفاة خليفة أو سلطان وولاية غيرهما. وهو إذا ذكر شيئاً عن حملات شيركوه على مصر، لا يعدو أن يكون مقرراً لحوادث لها صلة بقائد من قواد نور الدين محمود سار بأمر منه ينفّذ تعليماته. وقد يستطرد ابن الأثير فيتحدث عن موضوعات، أو أشياء لا تتصل اتصالاً مباشراً بالأتابكة، لكنه سرعان ما يتنبه إلى هذا الأمر فيعرض عنه صراحة قائلاً: «وسنذكر هنا ما يتعلق بشؤون الموصل معرضين عن غيره حتى لا يخرج بنا عن الغرض من الكتاب».

ويشمل كتاب ابن الأثير الآخر: «الكامل في التاريخ»، وهو أكبر حجماً وأوسع مجالاً، من الناحيتين المكانية والزمانية، من كتاب الباهر، ضمن محتوياته الفترة التي اختصها بكتاب الباهر؛ بل إننا نجد الكثير من أوجه الشبه بين الكتابين في العبارات والألفاظ، مع بعض الزيادة في أحدهما بذكر حوادث جديدة، أو بالتوسع في الحديث عن حادثة معيّنة، والسبب في ذلك أن ابن الأثير كتب أولاً كتابه «الكامل» الكبير في صورته الأولى، لكنه لم يخرجه في صورته الأخيرة بعد تصحيحه ومراجعته إلّا بعد سنة ٦٠٩، في حين أنه أخرج كتابه عن الأتابكة سنة ٦٠٧هـ معتمداً فيه على ما سجله في مسودات كتاب الكامل.

ز ـ مؤلفات ابن أبي طي الحلبي:

لا نعرف عن هذا المؤرخ الشيعي شيئاً ما أكثر من أن تاريخه يعتبر من أهم مصادر الدولة الفاطمية في العصر الأخير من عصورها، نشأ في حلب في وسط شيعي الصبغة، وإن كان قد تلقى من الثقافة ما شاع منها في الأوساط العلمية عندئذٍ. فقد درس القرآن على والده ودرس الموطأ في الحديث كما برع في دراسة علوم البلاغة والأدب والتصوف واللغويات. ويذكر عنه ياقوت «أنه جعل التصنيف حانوته ومنه مكسبه وقوته». ويبدو أن ميوله الشيعية التي أدّت إلى نفي والده مرة عن حلب سنة ٥٤٣هـ جعلته مضطهداً من العلماء، غير محبوب منهم، ولعله لهذا السبب لم يجد الطريق مفتوحاً أمامه ليشغل أيّ منصب حكومي أو يقوم بالتدريس في مدارس حلب أو في مساجدها، أو في غيرها من أماكن التعليم والتثقيف.

وكتب ابن أبي طي كثيرة جداً، تدل مراجعة أسمائها على تنوعها وشمولها.

Marfat.com

فقد ألّف في الفقه والقراءات والأدب، والقواعد النحوية والبلاغة والتاريخ والتراجم. ومن مؤلفاته التاريخية، كتاب كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين، وكتاب معادن الذهب في تاريخ حلب وذيله، وكتاب سيرة ملوك حلب، وكتاب سلك النظام في تاريخ الشام، وكتاب تاريخ مصر، وكتاب مختصر تاريخ المغرب.

وابن أبي طي من أهم مصادر كتاب الروضتين. ولا ندري على وجه التحديد أيّ هذه الكتب اقتبسه أبو شامة في كتابه. وذلك لتنوع هذه المقتبسات، فمنها ما يتعلق بالشام عامة وبحلب خاصة. ومنها ما يتعلق بالجزيرة ومصر والمغرب، وممّا يجعل إعطاء الرأي في هذه المسألة عسيراً ضياع جميع المؤلفات التي كتبها ابن أبي طي، وإغفال أبي شامة في مقدمته ذكر المصدر الذي اعتمد عليه منها، بل وإهماله ذكر ابن أبي طي بين مصادره إهمالاً تاماً، مكتفياً بالإشارة العامة في عبارته التي تقول: «وقد انضاف إلى ذلك قطعة كبيرة في مواضع متفرقة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات» ويبدو من تنوع الموضوعات التي يقتبسها أبو شامة من ابن أبي طي أنه يقتبسه في كتبه التاريخية جميعاً؛ إلّا إذا كان كتاب سيرة صلاح الدين وقد اقتبسه مرة واحدة بالاسم، قد احتوى على تفصيلات شاملة لجميع الجهات حتى بلاد المغرب.

وأسلوب ابن أبي طي كما نجده في مقتبساته للروضتين، أسلوب سهل مجرد من الزخرف واقعي، مختصر، مباشر في معالجته للموضوع، وهو يشبه من هذه الناحية ابن شداد. كما نلاحظ من مقتبساته أنه يعتمد في كثير من الأحيان على والده. ولا ينسى أن يؤيد حديثه، في بعض الحالات، بالوثائق التي كتب الفاضل بعضها.

ح ـ الوقائق الرسمية

من المصادر الرئيسية التي يعتمد عليها أبو شامة، الوثائق الرسمية لأهميتها في التعبير عن وجهة النظر الحكومية في الحوادث الجارية. وقد سبق أبا شامة إلى استعمال هذه الوثائق، من مؤرخي عصره، العماد الأصفهاني كاتب الإنشاء لصلاح الدين الذي كتب كثيراً من المراسم والمنشورات والكتب السلطانية. واقتبس منها شيئاً في كتابيه الفتح القسي والبرق الشامي، كما اعتمد ابن أبي طي، وهو من مصادر الروضتين كذلك في مؤلفاته التاريخية، على بعض الوثائق التي ينقلها عن العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل.

وتدل دراسة الوثائق، التي وردت في كتاب الروضتين، دراسة إحصائية على أنها ترجع جميعها إلى عصري نور الدين وصلاح الدين، أي ترجع في تاريخها إلى

Marfat.com

السنوات ٥٤١ ـ ٥٨٩هـ. ومع هذا لا نجد منها أكثر من عشر وثائق تتحدث عن أمور حدثت في عصر نور الدين، على حين يتعلق بقيتها بعصر صلاح الدين. وهذه تبلغ مائة وستاً وتسعين وثيقة. وقد أورد أبو شامة في الجزء الأول من كتابه الذي ينتهي بنهاية سنة ٥٧٣هـ أربعين وثيقة، بينما أورد الباقي في الجزء الثاني من الكتاب. وهنا نلاحظ أن الوثائق التي تتعلق بعصر نور الدين قليلة العدد، وأن عدد الوثائق يتزايد تدريجياً بعد وفاة نور الدين. كما نلاحظ أن ما يتعلق منها بالقسم الأول من عصر صلاح الدين وهو القسم الذي يختص بفترة وزارته للخليفة العاضد أقل عدداً من الوثائق التي تتحدث عن بقية عصره، ويفسر هذه الظاهرة أن معظم الوثائق التي يقتبسها أبو شامة مأخوذة من مجلدات الرسائل الفاضلية، التي خلّفها القاضي الفاضل، ومن وثائق العماد الأصفهاني التي أوردها في كتابي الفتح القسي والبرق الشامي، أما القاضي الفاضل فإنه لم يصبح شخصية هامة في الأوساط الحكومية، رغم اتصاله المبكر بالأيوبيين عندما التحق بخدمة شيركوه في مصر إلّا بعد أن تأكد سلطان صلاح الدين ونفوذه وشخصيته، وذلك بعد أن قلّ اعتماده على نصائحه من أقاربه وخلفائه الذين كان يتصدرهم والده نجم الدين أيوب، ولم تكن للقاضي الفاضل صلة بنور الدين أو بحكومته في يوم من الأيام ولذا نجد أن الوثائق التي يكتبها القاضي الفاضل تتزايد عدداً وقيمة عندما يشتد اعتماد صلاح الدين عليه في حكومته، بينما يقل عددها في الفترة اللاحقة. وقد برهن القاضي الفاضل على أنه جدير بالمكانة التي وصل إليها والثقة التي وضعت فيه.

ويختلف العماد الأصفهاني عن القاضي الفاضل في أنه اتصل بخدمة نور الدين ثم بخدمة صلاح الدين، ولكن، رغم ذلك، لا نجد له وثائق كثيرة عن عصر نور الدين، ذلك أنه لم يلتحق بديوان الإنشاء إلّا كأحد الكتّاب ولفترة قصيرة، ثم انصرف عنه للعمل الذي كان يتقنه أكثر من غيره، في ذلك الحين، وهو التدريس. ثم ازدادت أهميته عندما عاد إلى ديوان الإنشاء مساعداً للقاضي الفاضل ونائباً عنه عندما كان يلازم صلاح الدين في تنقلاته وإقامته في بلاد الشام.

أما موضوعات هذه الوثائق فمتنوعة فهي تتناول أمور السياسة والحرب والإدارة وتنظيم الجيوش وتعيين الولاة، والتبشير بفتح جديد أو انتصار حربي، كما يؤكد بعضها ولاء السلطان للخلافة العباسية في مناسبات متعددة بعد إبلاغها بأبناء الانتصارات أو عند التماس تأييدها في بعض الإجراءات التي يتخذها السلطان ضد بعض الأمراء المحليين. ويختص بعض هذه الوثائق بإعادة توزيع الولايات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبي، أو بمعالجة بعض المشكلات الأيوبية ذات الصلة

Marfat.com

بالمجهود الموحد الذي يقوم به صلاح الدين ويتعرض بعضها للأوقاف أو للأخوانيات.

إن هذا الحصر الموضوعي لوثائق الروضتين لا يعني أنها تنقسم انقساماً محدداً إلى مجموعات متميزة يعالج كلاً منها موضوعاً خاصاً، ذلك أن كثيراً منها يعالج موضوعات متعددة في وقت واحد وبخاصة ما تعلق منها بالحرب؛ إذ إن هذا النوع من الوثائق يعالج المشكلات السياسية في كثير من الأحوال إلى جانب الموضوعات الحربية.

ومما يلفت النظر خلال استعراضنا لهذه الوثائق، أنه من النادر أن نجد بينها وثيقة كاملة، ذلك أن أبا شامة لا يقتبس من هذه الوثائق إلّا الأجزاء المتعلقة بالموضوعات التي يتحدث عنها ليعطي هذه التقريرات العادية قوة، خاصة عندما يؤكدها بوثيقة رسمية. ومن الحالات النادرة التي يقتبس بها أبو شامة الوثيقة اقتباساً كاملاً، الكتاب الذي أرسله صلاح الدين إلى ابن عبد المؤمن صاحب المغرب يستنصره على الفرنج[1] وذلك عندما اشتدت الحرب بينه وبينهم في موقعة عكا التي استمرت طويلاً قاسى خلالها جنوده مهاجمين أو محاصرين، الشيء الكثير من العنت. وفي هذه المناسبة ينقل أبو شامة خطاب صلاح الدين كاملاً، كما ينقل الخطاب الذي وجهه إلى رسوله[2] يرشده فيه إلى السلوك الذي يجب عليه اتباعه عند لقاء ابن عبد المؤمن.

وتبين الدراسة الموضوعية لهذه الوثائق التي أوردها أبو شامة في كتابه الروضتين، أنه يستخدمها لأغراض شتى، فهو قد يسوق تقريراً معيناً عن حادثة ما، يقتبسه عن ابن شداد أو عن ابن الأثير أو غيرهما. ثم يتبع هذا التقرير بآخر يقتبسه عن مصدر آخر غير السابق. وعندئذٍ قد يجد من الوثائق ما يؤكد هذين التقريرين، فيورد ما عثر عليه منها حتى يقوي جانب ما اقتبسه من تقريرات. وفي حالة أخرى قد يجد في الوثيقة ما يزيد الحادثة تفصيلاً وتوضيحاً، أو ما يضيف بعض الحقائق التي أغفلها المصدر الذي اقتبس عنه، وحينئذٍ يورد هذه الوثيقة لتحقّق الغرضين معاً، فتقوي التقرير المقتبس وتكمله، أو تزيده شرحاً وتفصيلاً، وفي حالة ثالثة يقتبس وثيقة معينة لتصحيح تقرير اقتبسه في بعض وقائعه، أو في جميع ما احتواه. ووجود هذه الوثيقة، في مثل هذه الحال، يشجع أبا شامة على التعرض للمصدر

(١) أبو شامة: الروضتين ٢/ ١٧٠.
(٢) أبو شامة: نفس المصدر ص١٧١ وما بعدها

Marfat.com

الذي يستمد منه تقريره بالنقد والاعتراض. وهناك استعمال رابع للوثائق وذلك عندما يعتمد المؤلف على الوثيقة وحدها للحديث عن موضوع خاص، دون أن يسبقها تقرير أو اقتباس من مصدر آخر. من هنا نجد أن وظيفة الوثيقة هو إمدادنا بحقائق جديدة في موضوعات مستقلة غير موجودة في مصادر أخرى.

ط ـ المصادر الثانوية:

إلى جانب المصادر الرئيسية التي ذكرنا، هناك مصادر أخرى، مكتوبة أو شفهية، اعتمد عليها أبو شامة، واقتبس كلاً منها مرة أو مرتين، وهذه المصادر هي تاريخ إربل لابن المستوفى الإربلي، وتاريخ حلب لكمال الدين بن العديم، وذيل تاريخ بغداد لابن سعد السمعاني، وتذييل تاريخ ابن الجوزي لابن القادسي، وتاريخ الغرباء الذين دخلوا مصر لابن سعيد بن يونس، وسيرة نور الدين لابن بنجة الأشتري، والنكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمني، وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، وكتاب الوشي المرقوم لابن الأثير الجزري، وكتاب الإفصاح ليحيى بن هبيرة، ثم من المصادر الشفهية نجد أبو شامة يذكر أبا الحسن السخاوي، والأمير أبو الفتوح بن العاضد، والشيخ تاج الدين الكندي.

ك ـ استخدام أبي شامة للمصادر:

من خلال العرض التفصيلي للمصادر التي اعتمد عليها أبو شامة يتبين أنه وضع لنفسه مبدءاً هاماً طبّقه بكل دقة واتبعه دون انحراف، ذلك هو مبدأ الاعتماد على المصدر المحلي المعاصر في تفصيل الحوادث التي يتعرض لتسجيلها. كما يلاحظ أن كتاب الروضتين يتكون من أقسام واضحة، يتميز كل قسم منها بمجموعة من المصادر.

وأول هذه الأقسام يبدأ بأول الكتاب وينتهي عند تعيين عماد الدين زنكي ولاية الموصل وأعمالها سنة ٥٢١هـ. ويختص هذا القسم بتعداد مآثر نور الدين وتقدير صفاته التي جعلت منه شخصية لها مكانتها الممتازة في تاريخ الإسلام. وهذا الحديث له صفة التعميم، يتعرض فيه أبو شامة لعدالة نور الدين وشجاعته وحزمه وديانته وغير ذلك، من غير اهتمام بتفصيل حوادث معيّنة. وهو في هذا كله يعتمد على مصادر ثلاث رئيسية هي ابن الأثير وابن شداد والعماد الكاتب، فيقتبس ابن الأثير ثماني عشرة مرة، ويقتبس ابن شداد ثلاث مرات، ويقتبس العماد مثلها. وأبو شامة اعتمد على ابن الأثير أكثر من صاحبيه في هذه الفترة لتخصّصه في تاريخ أتابكة الموصل، فهو من جزيرة ابن عمر بالموصل. ولأسرته صلة قوية بأسرة

Marfat.com

زنكي، والد نور الدين، وابن آق سنقر مؤسس هذه الأسرة الزنكية. أما القسم الثاني فيبدأ بولاية زنكي لإمارة الموصل في سنة ٥٢١هـ وينتهي أثناء الحديث عن حوادث سنة ٥٥٥هـ. وهي السنة التي توفي فيها أبو يعلى المعروف بابن القلانسي، أهم المؤرخين الذين اقتبسهم أبو شامة في هذه الفترة، فانتهى الاقتباس منه عند الحديث عنها. وهذه الفترة هامة جداً وطويلة شهدت جهاد عماد الدين زنكي حتى وفاته عند قلعة جعبر سنة ٥٤١. ثم ما جرى بعد ذلك من تقسيم ولايته بين ولديه، غازي الذي تولى الموصل، ونور الدين الذي تولى حلب، والموضوعات التي يتحدث عنها أبو شامة في هذه الفترة الطويلة تختص بالموصل ودمشق وحلب باعتبارها مراكز عواصم للقوى الرئيسية الثلاثة في هذه المنطقة، ونعني الجزيرة وجنوبي الشام وشماليه. ويعتمد أبو شامة في حديثه عن الجزيرة على كتاب الأتابكة لابن الأثير وعن جنوبي الشام على أبا يعلى، صاحب ذيل تاريخ دمشق. وعن شمالي الشام على يحيى بن أبي طي الحلبي، فيقتبس الأول اثنتين وخمسين مرة، ويقتبس الثاني سبعاً وثلاثين مرة، ويقتبس الثالث خمس عشرة مرة: ويظهر بين هؤلاء مصادر ثانوية أخرى كالعماد الذي اقتبس منه ست مرات، وعمارة اليمني الذي اقتبس منه مرة، وابن عساكر الذي اقتبس منه مرتين. وينتهي القسم الثالث عند سنة ٥٦٢هـ، وهي السنة التي قدم فيها العماد الأصفهاني إلى الشام، حيث اتصل بخدمة نور الدين، وتتركز مصادر أبي شامة في شخصيتين: ابن الأثير، الذي لا يزال مصدراً ممتازاً، ولذا يقتبسه أبو شامة أربع عشرة مرة، لأن الحديث لا يزال عن منطقتي الشام والجزيرة، والعماد الأصفهاني الذي يبدأ في الظهور، فيقتبسه أبو شامة إحدى عشرة مرة كما لا يزال هناك مجال للمصادر الثانوية، فيقتبس عمارة مرتين، وأسامة بن منقذ مرة، وابن عساكر مثلها، وابن شداد أربع مرات، وابن أبي طي الذي يتقهقر في هذا القسم إلى الصفوف الخلفية فيُقتبس مرة واحدة.

وينتهي القسم الرابع بنهاية الجزء الأول، أي بنهاية الحديث عن حوادث سنة ٥٧٣هـ. ويشهد هذا القسم تطورات هامة في تاريخ المنطقة، ذلك أن مجال نشاط نور الدين يتسع ليشمل فلسطين، ثم يمتد إلى مصر، بعد استنجاد وزيرها شاور به، لذا نراه يتدخل في شؤونها ثم يفتحها. وفي سنة ٥٦٩هـ ينتهي عهد نور الدين بوفاته، ويخلفه ابنه الصالح إسماعيل. ويبدأ صلاح الدين قائد نور الدين ووزير الفاطميين في الوقت ذاته، زحفه من مصر إلى الشام والجزيرة لمقابلة الصالح إسماعيل والصليبيين معاً، أي أن مركز القوة انتقل من دمشق وحلب، عاصمتي نور

Marfat.com

الدين، إلى القاهرة عاصمة صلاح الدين، ولهذا يتقهقر ابن الأثير من مركز الصدارة، كمصدر لأبي شامة في هذه الفترة، ليتقدم العماد الأصفهاني، من رجال حكومة نور الدين ثم من بعده من رجال صلاح الدين. ويشارك العماد في الصدارة يحيى بن أبي طي، على قدم المساواة، رغم زيادة عدد المقتبسات التي يأخذها أبو شامة من العماد عنها من ابن أبي طي حيث اقتبس العماد في هذه الفترة مائة وخمساً وعشرين مرة واقتبس ابن أبي طي ستاً وثلاثين مرة، وابن الأثير ثلاثين مرة.

ويدل على أهمية ابن أبي طي في هذه الفترة، أن أبا شامة يسوق الحديث عن الحملات التي قام بها شيركوه على مصر بعد استنجاد شاور بنور الدين، معتمداً على ابن الأثير والعماد الكاتب، ويواصل هذا الحديث معتمداً عليهما حتى يتولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي، ثم يعقب على هذه الأمور بقوله: «وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى بن أبي طي في السيرة الصلاحية. فأوجب ذكره مختصراً...» ويُتبع أبو شامة هذا بفصل كامل عن هذه القصة حيث لم يعامل أبو شامة أي مصدر من المصادر التي اعتمد عليها في كتاب الروضتين بمثل هذه المعاملة المتميزة التي تدل على تقدير خاص، باستثناء ما عقَّب به على وفاة صلاح الدين بإشارة مختصرة إلى ما تبعها من حوادث في إمبراطوريته الواسعة معتمداً في ذلك على رسائل قصيرة للعماد الأصفهاني في كاتب الإنشاء لصلاح الدين وذلك قريباً من نهاية الكتاب.

ويبدأ القسم التالي ببداية الجزء الثاني من الكتاب، أي بحوادث سنة ٥٧٢هـ وينتهي بحوادث سنة ٥٨٤هـ وهي السنة التي التحق فيها ابن شداد بخدمة صلاح الدين وليشاهد جميع معاركه الحربية. ويسجل ابن شداد ما سبق هذا التاريخ ثم ما شاهده بعد ذلك في كتاب خاص بسيرة صلاح الدين حيث يشير في مقدمته وفي أثناء الحديث من سنة ٥٨٤هـ إلا أنه يعتبرها حداً فاصلاً بين نوعين من الكتابة التاريخية التي اشتمل عليها كتابه، فيقول: «ومن هذا التاريخ سَطّرت إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان». وهذا ما يحمل أبا شامة على اتخاذ ابن شداد مصدراً أولياً يعتمد عليه ويضعه على قدم المساواة مع العماد الأصفهاني. والواقع أن العماد وابن شداد لازماً صلاح الدين في حروبه وإقامته في هذه الفترة، ملازمة لا تكاد تنقطع، وقد دوّنا ما شاهداه بأعينهما عن تطورات هذه المعارك.

وفي الحوادث التي جرت ما بين سنتي ٥٧٤ و٥٨٤، يتأكد مركز العماد كمصدر أول لأبي شامة الذي يقتبسه مائة وخمس عشرة مرة. ويبدأ ابن شداد في

Marfat.com

شق طريقه ليحتل المرتبة الثانية بين مصادر الروضتين حيث يقتبسه أبو شامة ست عشرة مرة، وبهذا يزاحم ابن أبي طي الذي يقتبس عشر مرات ليتوارى بعدها نهائياً من بين مصادر الروضتين، فلا يقتبس بعد هذا مرة واحدة. أما ابن الأثير فيتضاءل شأنه وتقل مكانته حتى لا يتردد ذكره أكثر من أربع مرات، لأن سجل الحوادث التي يؤرخ لها أبو شامة بعيد عن الجزيرة موطن ابن الأثير.

واعتباراً من سنة ٥٨٤هـ يقتبس أبو شامة العماد الأصفهاني خمساً وتسعين مرة، وابن شداد تسعاً وستين مرة. ويلاحظ أن المقتبسات المنقولة عن العماد تتمثل في مقتطفات من كتابي البرق الشامي والفتح القسي، ومن الوثائق التي صدرت عن ديوان صلاح الدين. أما ابن شداد فلم يكن له إلّا كتاب واحد هو النوادر السلطانية.

والقسم الأخير الذي يختم به أبو شامة كتابه يتعرض فيه في اختصار لما أصاب الإمبراطورية الواسعة التي تركها صلاح الدين بعد وفاته. والمصدر الوحيد الذي يعتمد عليه أبو شامة في هذا القسم هو العماد الأصفهاني كاتب الإنشاء لصلاح الدين، الذي تضاءلت مكانته الحكومية وتدهورت أحواله، فقلّ نفوذه، ثم ترك خدمة الحكومة مصاباً بالإحباط والألم لما أصاب الدولة وأصيب هو شخصياً. وقد سجل شعوره ومشاهداته في رسائل قصار اعتمد عليها أبو شامة في تصوير الحال وهي: العتبى والعقبى، ونحلة الرحلة، وخطفة الشارق.

ما تقدم يسمح لنا بفهم طريقة أبي شامة في اختيار مصادره، فهو يهتم باختيار المصدر الذي تتوفر له صفتان: المحلية والمعاصرة، فابن الأثير مواطن موصلي من الجزيرة، معاصر لكثير من حوادثها التي سجلها في تاريخ أتابكة الموصل، ولذا يقتبسه أبو شامة في حوادث الموصل والجزيرة. وأبو يعلى مواطن دمشقي وواحد من المسؤولين الحكوميين في الشام، وهو يتحدث عما شاهده، فهو لهذا المصدر الرئيسي لتاريخ الشام، وبخاصة ما يتعلق بدمشق وأعمالها، وابن أبي طي من أهل حلب، ولذا يعتمد عليه أبو شامة في الحديث عن تاريخها وما يتصل بها. والعماد كاتب الإنشاء لنور الدين ثم لصلاح الدين، وهو ملازم لهما متنقّل معهما. لذا يصلح ما يكتبه ليقتبسه أبو شامة في كتابه.

وبهذا اطمأن أبو شامة إلى أنه وفر لكتابه المصادر الثقة التي يُعتَدُّ بها، فاقتبسها مرتاحاً لصدقها، ولذا لم يتعرض لما يقتبسه منها بالنقد أو المناقشة أو التصحيح، فكل مصدر منها معاصر للحوادث التي يرويها، مشاهدٌ لها، أما أبو شامة فلم يعاصرها ولم يشهد شيئاً منها ولهذا لا يرضى بأن يتعرض لها بالنقد أو

المناقشة، وإنما يكتفي بأن يصدّر مقتبساته عن الحوادث التي يسوقها ويسجلها باسم المراجع الذي اعتمد عليها، محملاً المسؤولية كلها لراوي الحادثة، ولا يشذ أبو شامة عن طريقته هذه إلا في حالة من حالتين: **الأولى**: إذا كانت هناك وثيقة رسمية تخالف تقريراً بعينه، **والثانية**: إذا هيّأت له الدراسة التي تخصّص بها في دراسة الحديث أو نحوه، طريق الحكم القطعي الصادق على ما يرى أنه موضع اعتراض أو نقص.

ومن أمثلة الحالة الأولى ما أورده ابن الأثير في كتاب الأتابكة عن بعض الأعمال الخيرية التي قام بها نور الدين محمود، وذلك عندما قال: «إن أعظم البيمارستانات التي أنشأها، ذلك الموجود بدمشق. بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير»[(١)]. وقد اقتبس أبو شامة هذه العبارة في كتابه، لكنه لم يسكت عما تضمنته، بل حاول الوصول إلى وثيقة الوقف التي تحدث عنها ابن الأثير. وقد وجدها أبو شامة وقرأها ثم علّق على كلام ابن الأثير بقوله: «وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أجده مُشعراً بذلك، وإنما هذا كلام مشاع على ألسنة العامة. وإنما صرّح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يُمنع عنه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء» ويستمر أبو شامة في نقض كلام ابن الأثير مستنداً إلى دراسته لهذه الوثيقة فيقول: «وقد خصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، ولا سيما وقد صرّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين»[(٢)]. ومن أمثلة الحالة الثانية ما ذكره العماد في أثناء الحديث عن المعارك التي دارت قرب مدينة قيسارية بعد رحيل الصليبيين إليها من عكا عام ٥٨٧هـ في شعبان، إذ يقول: «وأصبح على تبنى وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تُبنى، وزرنا بتبنى قبر أبي هريرة رضوان الله عليه»[(٣)].

وحين يقتبس أبو شامة هذه الحادثة عن العماد، نرى أنه لا يرضى بهذا الاستطراد الذي ذكره عن وجود قبر أبي هريرة عند تُبنى، ويعقب على ذلك بقوله: «واعتمد العماد في هذا على ما اشتهر عند العامة عن ذلك. أما أهل العلم المصنّفون في أخبار الصحابة، رضوان الله عليهم، كابن سعد وغيرهم فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة ولم يذكروا غيره»[(٤)].

---

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٩.
(٢) أبو شامة: نفس المصدر والصفحة.
(٣) أبو شامة: الروضتين ٢/ ١٩١.
(٤) أبو شامة: نفس المصدر والصفحة.

Marfat.com

ونلاحظ في كتاب الروضتين، أن أبا شامة يتوخى الدقة في اقتباسه من المصادر المختلفة. وهو في سبيل هذا يعمد إلى اقتباس هذه المصادر اقتباساً حرفياً في الكثير الغالب، فلا يتناولها بشيء من التغيير. وفي الحالات القليلة التي يعمد فيها إلى الاختصار أو التلخيص، أو الحذف، فإنه لا يحيد عن هذه الخطة، فهو يحافظ فيما أبقى عليه من الأصل، على حرفية العبارات التي يقتبسها. ولا يحيد أبو شامة عن هذه القاعدة إلّا عندما يقتبس العماد الأصفهاني، ذلك أنه يختصره اختصاراً شديداً قد يبقى على سطر واحد أو سطرين من صفحة كاملة مما كتبه، وهو لا يفعل ذلك دون أن يكون هناك مبرر لما يفعل، بل نراه يصرّح بالدافع له على اتباع هذه السياسة مع العماد إذ يقول:

«إلّا أن العماد في كتابيه طويل النفس في السجع والوصف يملُّ الناظر فيه، ويذهل طالب المعرفة، معرفة الوقائع عما سبق من القول ويُنسيه. فحذفت تلك الأسجاع إلّا قليلاً منها استحسنتها في مواضعها. ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع... وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام».

وإذا كان كتاب الروضتين يسير على نظام الحوليات في المدة الواقعة بين ٥٤٢ ـ ٥٨٩هـ، أي مدة ولايتي نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، مع ما يقتضيه هذا النظام من الحديث عما يجري في نطاق سنة معينة من حوادث، على أن يتوقف المؤرخ في حديثه عنها إذا انتهت هذه السنة ليستأنف الحديث عن تطوراتها في السنة التالية بعد الإشارة إلى بدئها. وقد يبالغ بعض المؤرخين في اتباع هذه الطريقة في مجال السنة الواحدة، فيتحدثون عن أخبارها شهراً فشهراً، من غير ضرورة الإشعار ببدء شهر جديد، أو مع الإشعار بذلك أحياناً ومعنى هذا أن يقطع المؤرخ تقريره عن حادثة معينة بانتهاء الشهر الذي بدأت فيه، وذلك ليتحدث عن أخرى حدثت في نفس الشهر، ثم يستأنف ما قطعه في الشهر التالي وهذه هي الطريقة التي يلجأ إليها أبو يعلى في بعض الحالات في كتابه ذيل تاريخ دمشق في حوادث سنة ٥٤١هـ مثلاً. وعندما يقتبس أبو شامة مثل هذا المصدر، لا يرضى عن هذه الطريقة بل أنه يتتبع الحادثة المعيّنة بجميع تطوراتها داخل نطاق السنة الواحدة، فيجمع هذه التطورات بعضها إلى بعض في تقرير متصل يقطعه أحياناً بالإشارة إلى المصدر فقط بمثل قوله: قال، أو قال أبو يعلى، وهو يعني بذلك أنه إنما يبدأ فقرة جديدة من الاقتباس: فإذا انتهى من هذه الحادثة المعينة بدأ غيرها، وعاملها بمثل هذه المعاملة حتى يقف عند بداية سنة جديدة. ولتوضيح

Marfat.com

هذه القضية نسوق تقرير أبي يعلى عن سنة ٥٤٨هـ واقتباس أبي شامة. فالموضوعات التي وردت في هذا التقرير طبقاً لأبي يعلى هي على التوالي: مقتل ابن السلار، حصار الفرنج مدينة عسقلان والتحالف الفاشل بين حلب ودمشق لمواجهة الموقف، اضطرابات داخلية في دمشق، سقوط عسقلان بين الفرنج وصول ابن القيسراني الشاعر إلى دمشق ووفاته، وفاة الفقيه برهان الدين البلخي، تطورات هذه الاضطرابات، إعدام حيدرة وزير دمشق، اعتقال نائب الحاكم بدمشق ومقتله، أما هذه الموضوعات فقد وردت عند أبي شامة بالترتيب التالي: حصار الفرنج مدينة عسقلان وتحالف فاشل لمواجهة الموقف بين حلب ودمشق، سقوط عسقلان في يد الفرنج، اضطرابات داخلية في دمشق، تطور هذه الاضطرابات، إعدام حيدرة وزير دمشق، اعتقال نائب الحاكم بدمشق ومقتله، مقتل ابن السلار، وفاة الفقيه برهان الدين البلخي، وصول ابن القيسراني الشاعر إلى دمشق ووفاته.

وهكذا نجد أن أبا شامة يرتب الحوادث التي يتعرض لها في كتابه طبقاً لتقديره الخاص لأهميتها، دون تقيد بالترتيب الذي وردت به في الأصل الذي ينقل عنه، وذلك داخل النظام الحولي العام، كما نراه لا يرضى عن المبالغة في اتباع هذا النظام داخل إطار السنة الواحدة بل يتتبع الحادثة المعيّنة بتطوراتها المختلفة حتى يقف بها عند بداية سنة جديدة ثم يعود إلى غيرها ليعالجها بنفس الطريقة.

كتاب «المذيل على الروضتين»

لقد وضع أبو شامة كتاب الروضتين عن قصدٍ وتصميم وعزمٍ على إفراد ذكر دولتي نور الدين وصلاح الدين في كتاب. ولكنَّ الرجل لم يعزف عن تدوين الأحداث اللاحقة. فوضع كتابه التاريخي الثاني الذي سماه «المذيّل على الروضتين» والذي نشره محمد زاهد بن الحسن الكوثري (وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً) بعنوان «تراجم رجال القرنين السادس والسابع»، وأضاف «المعروف بالذَّيل على الروضتين» (القاهرة، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م).

وقد بيّن أبو شامة السبب في وضعه هذا الكتاب، فقال: «. . . أما بعد فإن في مطالعة كتب التواريخ معتبراً، وفي ذكرها عن الغرور مزدجراً، لا سيما إذا ذكر بعض من مات في كل عام من المعارف والإخوان، والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان. فإنَّ ذلك مما يزهد ذوي البصائر في الدنيا، ويرغبهم في العمل للحياة العليا، والاستعداد لما هم ملاقوه، والإقلاع عما هم عن قليل مفارقوه.

«وكان أن سهل الله تعالى عليَّ، وحبب إليّ، أن جمعت في كتاب الروضتين، كثيراً من الحوادث الواقعة زمن الدولتين النورية والصلاحية سقى الله عهدهما، وأصلح ما بعدهما، وانتهى ذلك إلى السنة التي توفي فيها صلاح الدين رحمه الله تعالى، وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وذكرت تبعاً لذلك أشياء مفرقة فيما يتعلق بأحوال أولاده ومن يتعلق بهم.

ثم خطر لي أن أجمع كتاباً يتضمن كثيراً من الحوادث بعد ذلك إلى آخر ما تدركه حياتي ختمها الله بالعمل الصالح والفعل الرابح. وكان فيما حملني على ذلك كثرة موت المعارف فأردت إثباتهم لعلي بمطالعتهم أجد قلباً على الآخرة يساعف (. . .) فاستخرت الله وابتدأت من سنة تسعين التي تتلو سنة وفاة صلاح الدين، فذكرت فيها وفيما بعدها ما فاتني في كتاب الروضتين، سنة بعد سنة (. . .) من أول سنة تسعين على ترتيب السنين»[١].

---

(١) أبو شامة: المذيّل ص٥.

Marfat.com

وقد تبدو في هذا الكتاب فوضى قليلة إذا قورن بالروضتين، لكننا نرى أن أبا شامة كان هنا يدوِّن مذكرات، ولعله لم تتح له الفرصة لتنظيمها، وخاصة أنَّه دوَّن الأحداث إلى حين وفاته.

ويعتمد أبو شامة، في القسم الأول من كتابه هذا، على سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٧م) في كتابه مرآة الزمان، وعلى ما سمعه مباشرة. لكنه بعد سنة ٦١٣هـ (بدءاً من ص ٩٢ من تراجم)، نجده يُكثر من استعمال «قلتُ» و«حضرتُ» و«صليتُ» و«اجتمعتُ»، بحيث تصبح المشاهدة والعيان أساس كتابته. ومن هنا، فإنَّه يكاد يقتصر، في ذكر الحوادث، على دمشق وأرباضها، وإن كان لا يتردد في إيراد خبرٍ أو حادثةٍ هامةٍ حدثت في مصر أو العراق أو بقية أنحاء بلاد الشام. ولعلّ أول مناسبة تدخل فيها شخصيته في الرواية هي قوله: «وأخبرني صاحبنا جمال الدين أحمد بن عبد الله بن شعيب، وكان أحد من قرأ على الشيخ تاج الدين [الكندي]، إنَّه كان مع علو منزلته وجلالته متواضعاً مع طلبته، يخاطب كلاً منهم بقوله يا سيدنا»[1]. وقد ذكر هذا لمناسبة تأريخه لوفاة الشيخ تاج في سنة ٦١٣هـ. وكان أبو شامة في ذلك الوقت في سن الرابعة عشرة. فهل أخبره صاحبه جمال الدين ذلك في تلك السنة؟ أم هل كان الإخبار، فيما بعد، ثم أضاف أبو شامة ذلك هنا فيما بعد أيضاً؟ إننا نرجح هذه، ولكنَّها على كلٍ إشارة أولى إلى المشاركة العامة.

ونحن عندما نقرأ صفحات المذيّل (تراجم) واحدةً بعد الأخرى، نجد أن الأمور، والقضايا، والمشاكل، والأحداث التي كان أبو شامة يشترك فيها هي بشكل عام، من النوع الذي يشترك فيه أهل الطبقة الوسطى، إذا جاز التعبير بالنسبة إلى ذلك الزمن. ولعلَّ أكثر الأنباء وروداً عنده هي أخبار الوفيات (والكتاب وضع أصلاً، كما رأينا، لإثبات موت المعارف). وهو إذ يذكر وفاة أحد من الناس يترجم له إن كان ذا شأنٍ (في العلم أو في الإمارة). والمثل على أهل العلم هو ترجمته لشيخين توفيا في سنة واحدة (٦٢٠هـ) هما شيخ الشافعية فخر الدين أبو المنصر ابن عساكر (وهو غير المؤرخ الذي وضع تاريخ دمشق)، وشيخ الحنابلة أبو محمد عبد الله موفق الدين بن محمد بن قدامة المقدسي[2]. والترجمة لهما طويلة (نسبياً)، وفيها ما سمعه ووعاه. والذي وعاه بشكل خاص هو ما قرأه على هذين الشيخين. فقد سمع أبو شامة على الشيخ الفخر «معظم كتاب دلائل النبوة

(١) أبو شامة: المذيّل ص٩٨.
(٢) أبو شامة: المذيّل ص١٣٦ ـ ١٤٢.

للحافظ أبي بكر البيهقي وغيره»، ويضيف أبو شامة «وكتبت إليه أبياتاً أطلب منه فيها إجازةً برواية ما يجوز له عنه روايته، وذلك في سنة ست عشرة وستمائة، فأجابني نظماً أيضاً بثلاثة أبيات وجدت بركة دعائه لي فيها. وما أعلمه فعل ذلك مع غيري، وكتبها بخط يده وهي:

أجزت له قولي وفق الله قصدُه ... وأسعده بالعلم يوم معاده
رواية ما أرويه عن كل عالم ... بصير بما فيه طريق سداده
فهناه ربي بالعلوم وجمعها ... ويلفّه فيها سنيّ مراده[1]

ويترجم لموفق الدين، ويقول: «سمعت عليه مسند الإمام الشافعي رحمه الله وفاتني منه نحو ورقتين عند باب استقبال القبلة بسماعه من أبي زرعة. وسمعت عليه كتاب النصيحة لابن شاهين وغير ذلك». ولعلَّ من أطرف ما ورد في ترجمة موفق الدين، في إشارة أبي شامة إلى كون المترجم له حنبلياً، ما يلي: «كان إماماً من أئمة المسلمين، وعلماً من أعلام الدين في العلم والعمل، صنف كتباً كثيرة حساناً في الفقه وغيره. ولكنَّ كلامه، فيما يتعلق بالعقائد في مسائل الصفات والكلام هو على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه. فسبحان من لم يوضح له الأمر له فيها، على جلالته في العلم، ومعرفته بمعاني الأخبار والآثار»[2] وترجمة اليونيني من مثل هذا النوع، (تراجم ص١٢٥ ـ ١٢٨).

على أن أبا شامة حريص، شأنه في ذلك شأن علماء زمانه، يذكر الذين سمع عنهم عندما يورد خبر وفاتهم، بقطع النظر عما كان لهم من مكانةٍ خاصةٍ. (ويمكن الرجوع إلى تراجم ص١٥٤ و١٥٦ و١٥٨ و١٦١ و١٦٢ و١٦٣ و١٧٤ للحصول على نماذج من هذه الإجازات).

ويُشيرُ مراتٍ كثيرةً إلى وفياتٍ لأشخاصٍ من الجيران أو ما إلى ذلك، ويعلق على ذلك بقوله: «وحضرت الجنازة». أو قدْ يذكر أنَّه لم يحضر الجنازة لأنه كان مريضاً (تراجم ص١٦٣).

وما دمنا بذكر الوفيات فأبو شامة يذكر خبر وفاة والدته سنة ٦٢٠هـ (ص١٣٤)، ووالده سنة ٦٣٨هـ (ص١٧٠)، وأولاده (راجع ص١٧٦ مثلاً حيث يذكر خبر وفاة اثنين من أولاده). ومع ذلك فلا يراه يتوجع أو يتألم، أي أنه لا يعبر عن ذلك. فالعبارة عن والدته هي: «توفيت والدتي رحمها الله ودفنتها بالجبل...» وقال عن وفاة والده: في ثالث عشر ربيع الأول ـ ٦٣٨ ـ توفي

(١) أبو شامة: المذيّل ص١٣٧.
(٢) أبو شامة: المذيّل ص١٣٩.

Marfat.com

والدي رحمه الله». هذا مع العلم بأنه يتحرق لوعة وأسى عند ذكره وفياتٍ أخرى.

كان أبو شامة قليل السفر. وهو يذكر في «المذيّل» أخبار أسفاره. وأسفاره كانت حجتين، وزيارة لبيت المقدس، وزيارة لمصر. وكانت أول إشارة إلى الحج تتعلق بالأسرة تلك التي ذكر فيها أنَّ أباه حج تلك السنة (٦١٨هـ) بصحبة أمير حج الشام الذي اسمه «شقيقات» (ص١٣٠) ثم يصل إلى سنة ٦٢١هـ فيقول: «وفيها حججت من الشام مع والدي رحمه الله على طريق تبوك والعلاء. وهي أول السنين الأربع المتصلة التي وجد الحج فيها هنيئاً مريئاً من رخص الأسعار والأمن في الطريق الشامية وبالحرمين. أما في المدينة فبسبب أن أميرها كان من أتباع صاحب الشام الملك المعظم عيسى [حكم ٦١٥ ـ ٦٢٤هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٢٧م]، فكان يدبر الحرس على الحاج الشامي ليلاً. وأمَّا مكَّة فبسبب أنها صارت في المملكة الكاملية المسعودية [حكم المسعود في اليمن ٦١٢ ـ ٦٢٦هـ/ ١٢١٥ ـ ١٢٢٩م] فانقمع بها المفسدون وسهّل على الحاج أمر دخول الكعبة. فلم يزل بابها مفتوحاً ليلاً نهاراً مدة مقام الحاج فيها. وكان الملك قد أرضى بني شيبة سدنة الكعبة بمال أطلقه لهم عوضاً عما كانوا يأخذونه بإغلاق الباب وفتحه لمن أرادوا. وكان الناس ينالون من ذلك شدّة، ويزدحمون عند فتح الباب، ويتسلّق بعضهم على رقاب بعض، لأنَّ الباب مرتفع عن الأرض بنحو قامةِ رجلٍ، فيقع بعضهم على بعض فيموت بعضٌ وينكسر بعضٌ ويشجُّ بعضٌ. فزال ذلك عن الناس بتلك السنة وما بعدها مدة بقاء مكّة في المملكة الكاملية. وكان قد بلغني صعوبة ذلك وكنت حاملاً همه. فلما دخلت من باب بين شيبة ووقع نظري على البيت، شرفه الله تعالى، إذ الباب مفتوحٌ والسلم منصوبٌ، والناس طالعون إليه ونازلون من غير ازدحام. فمن فرحي بذلك وخوفي من أنَّه لا يدوم، عجّلت في الطواف القدوم، ودخلت البيت، عظمه الله تعالى، وقضيت منه وطري اللائق بذلك الوقت. وعندي من الشوق المبرّح ما كفى. ثم كرّرت الدخول إليه ليلاً ونهاراً، فكنت أصادف نحو العشرة وما دونها... ونظمت في طريقي في تلك السفرة قصيدة ميميّة ذكرت فيها المنازل من دمشق إلى عرفات، ووصفت بها ما أمكن من أماكن الزيارات، أولها:

ما زلت أشتاق حج البيت والحرم ... وأن أزور رسول الله ذا الكرم

وهي طويلة، أقول فيها تعبيراً عن فتح باب الكعبة للحجيج مطاعاً:

وشرعوا نحو ذاك البيت حاسرة ... رؤوسهم بين مطواف ومستلم[1]

(١) أبو شامة: المذيّل ص١٤٢ ـ ١٤٣.

Marfat.com

وقد حجَّ أبو شامة في السنة التالية (٦٢٢هـ) «راكباً في المحمل السلطاني المعظمي. وكان أيضاً حجاً مباركاً كثير الخير والأمن في الطريق والحرمين، وباب الكعبة مفتوحٌ للحاج مدّة مقامهم ليلاً ونهاراً» (ص١٤٤).

ونظم أبو شامة هذه السنة أيضاً قصيدة، لكنَّه لم يذكر منها هذه المرة سوى صدر البيت الأول قال:

«يا حبذا وطن الحبيب النائي»

والقصيدة، كما يقول أبو شامة، فيها وصف الأمير الحج، ومنازل الطريق التبوكية (ص١٤٥).

ويحدثنا أبو شامة عن زيارته لبيت المقدس فيقول: «وفيها [سنة ٦٢٤هـ] في آخر شعبان سافرت أنا إلى بيت المقدس صحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام وغيره على سبيل الزيارة للأقصى والخليل وما بتلك الديار من الآثار. ورجعنا إلى دمشق بعد أربعة عشر يوماً» (ص١٥١).

ولا شك في أن واحدنا يأسف لأنَّ أبا شامة لا يصف طرق أسفاره بشيء من التفصيل الذي نتوق إليه ـ سواء في ذلك طريق الحج أو طريق بيت المقدس وكم كنا نحبُّ أن نعرف أين أقام في طريقه من دمشق إلى بيت المقدس؟

ومثل هذا يقال عن سفرته الأطول في زيارتهٖ للديار المصرية: إذ لا يعطينا أي تفاصيل تتعلق بسفره وحلّه وترحاله، ومراحل الطريق، وأي طريق اتبع. فهو يقول: «وفيها [سنة ٦٢٨هـ] في آخر ربيع الآخر سافرت إلى الديار المصرية فدخلت دمياط في جمادى الأولى، والقاهرة ومصر في جمادى الآخرة، والإسكندرية في ذي الحجة (. . .) ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة وأنا بالإسكندرية (. . .) ورجعت إلى دمشق في سابع ربيع الآخر» (ص١٦٠). ويتحدث عن بعض من لقي هناك، ومن توفي. فقد «توفي الزين النحوي (. . .) الزواوي رحمه الله بالقاهرة وأنا بها. . . حضرت دفنه والصلاة عليه. وكان آية في حفظ كلام النحويين» (ص١٦٠).

على أن أبا شامة يتحدث عن دمياط في مناسبة سابقة. فهو إذ يذكر خبر أخذ الفرنج النازلين على دمياط برج السلسلة في آخر جمادى الأولى من سنة ٦١٥هـ [١٢١٨م] يضيف «وأذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة [بدمياط] وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله، ورأيته يضرب يداً على يدٍ ويعظم أمر ذاك، وسمعت الفقيه عز الدين بن

Marfat.com

عبد السلام يسأله عنه فقال هو قفل الديار المصرية. وصدق رحمه الله تعالى. فإني لما رأيته في سنة ثمان وعشرين [وستمائة]، كما سيأتي ذكره بأن لي صحة ما أشار الشيخ إليه. وذلك أنه برج عالٍ مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه. وفي ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط، والأخرى على النيل إلى الجيزة (كذا)، وتمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو. فهو قفل البلاد بالديار المصرية، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها. ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوان والله المستعان» (ص١٠٩).

وأبو شامة يشارك الدمشقيين بعض آلامهم وصفاً. فهو يتحدث عن الغلاء الذي أصاب المدينة بسبب قطع الخوارزمية الطرقات سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) فيقول «ففي ثامن عشر شوال بلغت غرارة القمح ستمائة درهم ناصرية (. . .) وبيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعة دراهم (. . .) وكان ذلك في تاسع آذار. وبقيت الصعاليك مرميين في الطرقات. كانوا يطلبون لقمة، ثم صاروا يطلبون فلساً يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها كما تطعم الدجاج. وشاهدت ذلك بعيني (. . .) واشتريت أنا الخبز كل رطل بأربعة دراهم غير مرة. ثم تفاقم الأمر في حادي عشر ذي القعدة فبيع الخبز الأسود كل أوقيتين بدرهم [أي الرطل بستة دراهم!] وخبز الشعير كل كيل بخمسين درهماً (. . .) وبيع الدقيق كل أوقية وربع بدرهم (. . .) وبيع الشعر كل كيل بخمسين درهماً (. . .) والزبيب كل أوقيتين بدرهم ثم بيع أوقية ونصف بدرهم، وكذا الدبس (. . .) وبيع الباقلا الأخضر كل رطل بدرهم وربع (. . .) والفحم الرديء كل رطل بستة دراهم (. . .) وفي يوم عيد النحر بيع رطل الخبز بسبعة دراهم (. . .) ثم أن الله تعالى نفس عن الناس بنزول السعر (. . .) فبيع الخبز آخر السنة كل رطل بدرهمين واللحم كذلك»[1].

وهناك حادثتان تتعلقان بأبي شامة شخصياً أوردهما: **الأولى**: حدثت سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) إذ إنه «في رابع عشر رمضان جرت عليَّ حكاية من نائب التتار واسمه ايل سبان لعنه الله وإياهم إهانة وتهديداً بضرب الرقبة على أن وضعت خطي لهم بمبلغ كبير من المال ظلماً وقهراً. فلم تمض بعد ذلك اليوم إلاَّ عشرة أيام حتى كسر التاتار بعين جالوت. . . كسرة عظيمة مشهورة». (ص٢٠٩).

(١) أبو شامة: المذيّل ص١٧٨، راجع أيضاً ص٢١١، وفي ص٢١٩، يتحدث أبو شامة عن الإرجاف بوصول التتار (المغول) في سنة ٦٦٠هـ، وما حدث في دمشق من بيوع واستعداد للهرب.

Marfat.com

أما الحادثة الثانية فقد كانت اعتداء على حياته، وذلك في سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م. وقد دوّنها بقوله: «وفي سابع عشر جمادى الآخرة جرت لي محنة بداري بطواحين الأشنان [إذ تعرض لهجوم اثنين عليه وهو في منزله متظاهرين بأنهما قدما في طلب الفتيا. وقد اعتديا عليه وضرباه ضرباً مبرّحاً بعد أن اطمأنا إلى انفرادهما به (. . .) وتركاه بعد ذلك مريضاً مجهداً] فألهم الله الصبر وفعل الله تعالى فيها من اللطف ما لا نقدر على التعبير عنه بوصف. وكان قيل لي قم واجتمع بولاة الأمر، فقلت فوضعت أمري إلى الله، فما أغير ما عقدته مع الله، وهو يكفينا سبحانه، ومن يتوكّل عليه فهو حسبه. ونظمت في ذلك ثلاثة أبيات:

قلت لمن قال لي أما تشتكي ... ما قد جرى فهو عظيم جليل
يقيض الله تعالى لنا ... من يأخذ الحق ويشفي الغليل
إذا توكلنا عليه كفى ... فحسبنا الله ونعم الوكيل»

م (ص٢٤٠).

ويقول ابن كثير: «وكأنهم [الذين ضربوه] عادوا إليه مرّة ثانية وهو في المنزل المذكور فقتلوه بالكلية في ليلة الثلاثاء تاسع عشر من رمضان رحمه الله. ودفن من يومه بمقابر الفراديس»[١].

أشرنا، من قبل، إلى أن أبا شامة كان يسجل أخبار وفيات أفراد أسرته كما لو كان يدوّن خبراً في جريدة، إلا أنه شذّ في حالة واحدة إذ خرج عن وقارة فنظم قصيدة طويلة في زوجته «ست العرب». وقد قدّم لها بقوله: «وفي هذه السنة [٦٥٥هـ] نظمت قصيدتي في أم ولدي أحمد ست العرب ابنة شرف الدين محمد بن علي بن دنو القرشي العبدري الأندلسي المرسي، وكان من أهل الفضل والرئاسة في الدنيا ومن وجوه بلده» (ص١٩٦) وهي قصيدة طويلة في ستةٍ وأربعين بيتاً. وهو إذ يمتدح أخلاقها ونبلها ومهارتها وحضانتها. ولما نظم القصيدة كانت قد مرت عليها عشر سنوات وهي زوجته. ولسنا ننوي أن ننقل القصيدة بكاملها هنا، ولكنّنا نودُّ أن نقول إنَّ هذه القصيدة فيها حسٌّ مرهفٌ لهذا العالم المؤرخ. فالبيت التالي حري بالنظر:

تقل نظيراً في نساء زماننا ... فلا تعذلوني في محبتها عذلا

(ص١٩٧).

وقد نقلنا من قبل بضعة أبيات من قصيدته المتعلقة بالفلاحة. ونود أن نؤكد

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٨.

Marfat.com

هنا ثانيةً أنَّ أبا شامة أراد من هذه القصيدة لا أن يمتدح «الاستقلال الاقتصادي» عن طريق العناية بالأرض والزراعة، ولكنَّه أراد أن يبعد الناس، والعلماء بوجه خاص، عن الوظائف، كائنةً ما كانت تلك الوظائف، لأنَّها كلها تؤدي بالمرء إلى المصانعة، والمداهنة، وتحمله على أن يقبل الوقوف في مواقف بعيدة عن الاحترام. والقصيدة تزيد أبياتها عن المائة بيت؛ ولولا خشية الإطالة لنقلنا منها أمثلة غير ما ذكرنا قبلاً.

في ص٣٧ من المذيل (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) دوَّن أبو شامة ترجمة له.

Marfat.com

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

[مقدمة المؤلف]

الحمدُ لله الذي بلطفه تصلُح الأعمال، وبكرمِهِ وجوده تُدْرَكُ الآمال، وعلى وَفْقِ مشيئته تتصرف الأفعال، وبإرادته تتغيَّر الأحوال، وإليه المصير والمرجع والمآل، سبحانه هو الباقي بلا زوال، المنزَّه عن الحلول والانتقال، عالم الغيبِ والشَّهادة الكبيرُ المتعال، ذو العرش والمعارج والطَّوْل[1] والإكرام والجلال؛ نحمَدُه على ما أسبغَ مِنَ الإنعام والإفضال، ومَنَّ به من الإحسان والنَّوال، حمداً لا تُوازنه الجبالُ، مِلْءَ السَّموات والأرض وعلى كلِّ حال، ونصلِّي على رسوله ونبيّه وخيرته مِن خَلْقه وصفيّه وخليله ووليِّهِ وحبيبه المِفْضَال؛ سيدِنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشَّرف الباذخ، والعِلْم الراسخ، والفضل الشامخ، والجمال والكمال؛ صلَّى الله عليه وعلى الملائكة المقرَّبين والأنبياء والمرسلين، وعِتْرتهم الطَّيِّبين، ما أَفَلَ كوكبٌ وطلَعَ هلال، وعلى آل محمدٍ وصحبه خيرِ صحبٍ وأكرمِ آل، وعلى تابعيهم بإحسان وجميع الأولياءِ والأبدال، وعفا عن المقصِّرين من أمته أُولي الكسل والمَلَال، وحَشَرَنا في زمرته، متمسِّكين بشُرْعته، مقتدين بسُنَّته، مُتَّعِظين بما ضَرَبَ مِنَ الأمثال، مزدحمين تحتَ لوائه، في جُمْلة أوليائه، يومَ لا بيعٌ فيه ولا خِلال.

أما بعد، فإنه بعد أَنْ صرفت جُلَّ عُمري ومُعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عَنَّ لي أن أصرفَ إلى علم التاريخ بعضَه، فأحوز بذلك سُنَّةَ العلم وفرضَه؛ اقتداء بسيرة مَنْ مضى، مِنْ كلِّ عالم مُرْتَضَى. فَقَلَّ إمامٌ مِنَ الأئمة إلا ويُحكى عنه من أخبار مَنْ سَلَف فوائدُ جمَّة؛ منهم إمامُنا أبو عبد الله الشَّافعي[2]، رضي

---

(١) الطَّوْل: القدرة.

(٢) هو الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي، أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد في غزة بفلسطين وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة ١٩٩هـ، فتوفي فيها سنة ٢٠٤هـ (الأعلام ٦/ ٢٦).

Marfat.com

الله عنه. قال مُصْعَب الزُّبيري[١]: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بأيام النَّاس مِنَ الشافعي. ويُروى عنه أنه أقام على تعلُّم أيام الناس والأدب عشرين سنةً، وقال: ما أردتُ بذلك إلا الاستعانة على الفِقْه.

قلتُ: وذلك عظيمُ الفائدة، جليل العائدة. وفي كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ مِنْ أخبار الأمم السالفة، وأنباء القرون الخالفة ما فيه عبرٌ لذوي البصائر، واستعدادٌ ليوم تُبْلَى السَّرائر. قال الله عزَّ وجلَّ وهو أصدقُ القائلين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٤، ٥].

وحدَّث النبيُّ ﷺ بحديثِ أُمِّ زَرْع[٢]، وغيرِهِ مما جرى في الجاهلية، والأيام الإسرائيلية. وحكى عجائبَ ما رآه ليلة أُسري به وعرج، وقال: «حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج»[٣]. وفي «صحيح مسلم» عن سِمَاك بنِ حَرْبٍ قال: قلتُ لجابر بن سَمُرَة: أكنتَ تجالسُ رسولَ الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً؛ كان لا يقوم من مُصَلَّاه الذي صلَّى فيه الصُّبْح أو الغَدَاة حتى تطلُعَ الشمس، فإذا طلَعَتْ قام، وكانوا يتحدَّثونَ فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّمُ، ﷺ[٤].

وفي «سنن أبي داود» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: كان نبيُّ الله ﷺ يحدِّثنا عن بني إسرائيل حتى يُصبح، ما يقوم إلا إلى عُظْمِ صلاةٍ[٥].

قلتُ: ولم يزل الصَّحابة والتابعون فَمَنْ بعدهم يتفاوضون في حديث مَنْ مضى، ويتذاكرون ما سبقَهُمْ من الأخبار وانقضى، ويستنشدون الأشعار، ويتطلَّبون الآثارَ والأخبار؛ وذلك بَيِّنٌ من أفعالهم لمن اطَّلع على أحوالهم، وهم السَّادة القُدْوة، فلنا بهم أُسوة. فاعْتَنَيْتُ بذلك وتصفَّحْته، وبحثتُ عنه مدَّةً وتَطَلَّبْتُه،

---

(١) هو أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، المعروف بالزبيري المصري، المتوفى سنة ٢٣٣هـ (كشف الظنون ٦/ ٤٦٢).

(٢) حديث أم زرع أخرجه البخاري في النكاح باب ٨٢، حديث رقم ٥١٨٩، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٩٢.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ٥٠، وأبو داود في العلم باب ١١، والترمذي في العلم باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/ ١٥٩، ٢٠٢، ٢١٤، ٤٧٤، ٥٠٢، ٣/ ١٣، ٤٦، ٥٦.

(٤) أخرجه مسلم في المساجد حديث ٢٨٦، وأبو داود في الصلاة باب ٢٠٢، والنسائي في الصلاة باب ٥٥٢.

(٥) أخرجه أبو داود في العلم باب ١١.

Marfat.com

فوقفتُ ـ والحمد لله ـ على جُمْلة كبيرة من أحوال المتقدّمين والمتأخرين؛ من الأنبياء والمرسلين، والصَّحابة والتابعين، والخلفاء والسَّلاطين، والفقهاء والمحدِّثين، والأولياء والصَّالحين، والشُّعراء والنَّحويين، وأصناف الخَلْق الباقين. ورأيتُ أن المطَّلع على أخبار المتقدّمين كأنه قد عاصرَهُمْ أجمعين، وأنه عندما يفكِّر في أحوالهم أو يَذْكُرُهم كأنه مُشَاهِدُهم ومحاضِرُهُم؛ فهو قائمٌ له مقام طولِ الحياة، وإن كان متعجِّل الوفاة. قال نُعيم بن حَمَّاد[1]: كان عبدُ الله بنُ المبارك[2] يكثر الجلوسَ في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه! وفي رواية قال: قيل لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن، تكثر القعودَ في البيت وحدَك! فقال: أنا وَحْدي؟! أنا مع النبي ﷺ وأصحابه ـ يعني النظرَ في الحديث. وفي رواية أخرى: وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان!

قلتُ: وقد أنشدتُ لبعضِ الفُضَلاء: [المتقارب]

كتابٌ أطالعُهُ مُؤْنِسٌ ... أحبُّ إليَّ مِنَ الآنِسَهْ
وأَدْرُسُه فيريني القرونَ ... حُضُوراً وأَعْظَمُهُمْ دارِسَهْ

وقد اختار الله سبحانه لنا أن نكون آخرَ الأمم، وأطلعنا على أنباء مَنْ تَقَدَّم، لنتَّعظَ بما جرى على القرون الخالية ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: ٨] ولنقتديَ بمن تقدَّمنا من الأنبياء، والأئمة الصُّلحاء، ونرجو بتوفيق الله عَزَّ وجلَّ أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم، ونذاكرهم بما نُقِلَ إلينا عنهم، وذلك على رَغْم أنف من عَدِمَ الأدب، ولم يكن له في هذا العلم أَرَب، بل أقام على غَيِّهِ وأكبَّ، والمرء مع من أحبّ.

هذا، وإن الجاهلَ بعلم التاريخ راكبٌ عمياءَ، خابطٌ خَبْطَ عَشْواء؛ ينسب إلى مَنْ تقدَّم أخبارَ من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدَبَّر، وإن رُدَّ عليه وَهْمُه لا يتأثر، وإن ذُكِّر فلجهله لا يتذكَّر؛ لا يفرِّق بين صحابي وتابعي، وحنفي ومالكي وشافعي، ولا بين خليفةٍ وأمير، وسُلْطان ووزير؛ ولا يعرف من سيرة نبيه ﷺ أكثر من أنه نبيٌّ مُرْسَل، فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصَّدر الأوَّل! الذين بذكرهم

---

(١) هو أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية الخزاعي الأعور المروزي الفقيه، نزيل مصر، انتقل إلى بغداد وتوفي بسر من رأى سنة ٢٢٨هـ (كشف الظنون ٦/ ٤٩٧).

(٢) الحافظ، شيخ الإسلام وصاحب التصانيف الكثيرة والرحلات. أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً، توفي سنة ١٨١هـ. بهيت (على الفرات) منصرفاً في غزو الروم (الأعلام ٤/ ١١٥).

Marfat.com

ترتاح النفوس، ويذهب البُؤس. ولقد رأيتُ مجلساً جَمَعَ ثلاثةَ عشرَ مدرّساً، وفيهم قاضي القضاة لذلك الزمان، وغيره من الأعيان، فجرى بينهم ـ وأنا أسمع ـ ذِكْرُ مَنْ تحرُمُ عليه الصَّدقة؛ وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن، فقال جميعُهُمْ: بنو هاشم وبنو عبد المطَّلب. وعَدلوا بأجمعهم في ذلك عما يجب. فتعجَّبْتُ من جهلهم؛ حيث لم يفرقوا بين عبد المطَّلب والمطَّلب، ولم يهتدوا إلى أن المطّلب هو عمُّ عبد المطلب، وأن عبد المطلب هو ابن هاشم، فما أحقهم بلوم كلِّ لائم، إذ هذا أصلٌ من أصول الشريعة قد أهملوه، وبابٌ من أبواب العلم جهلوه، وَلَزِمَ مِنْ قولهم إخراج بني المطَّلب من هذه الفضيلة. فابتغيت إلى الله تعالى الوسيلة، وأنِفْتُ لنفسي من ذلك المقام، فأخذتها بعلم أخبار الأنام، وتصحيح نسبتها، وإيضاح محجّتها؛ فإنَّ كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفته نسبتها إلى أربابها، وإنْ نَسَبها خَلَّط فيها وصَرَفها عن أصحابها. وهو بابٌ واسِعٌ غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد، زَلَّتْ فيه قَدَمُ كثيرٍ من نَقَلَةِ الأخبار ورواة الآثار.

ثم أردتُ أَنْ أجمعَ من هذا العلم كتاباً يكون حاوياً لما حَصَّلْتُه، وأتقنُ فيه ما خَبِرْتُهُ، فَعَمَدْتُ إلى أكبر كتابٍ وُضِعَ في هذا الفن على طريقة المحدِّثين، وهو «تاريخ مدينة دمشق حماها الله عَزَّ وجلَّ»؛ الذي صنَّفَه الحافظ الثقة أبو القاسم عليّ بنُ الحسن العَساكري[1] رحمه الله؛ وهو ثماني مائة جُزْء في ثمانين مجلداً، فاختصرته، وهذبته، وزدته فوائدَ من كتبٍ أخرى جليلة، وأتقنته، ووقَفَ عليه العلماءُ، وسمعه الشيوخ والفضلاء، ومرَّ بي فيه من الملوك المتأخرين، ترجمةُ الملك العادل نور الدين؛ فأطربني ما رأيتُ من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخُّر زمانه، وتغيّر خِلّانه. ثم وقفتُ بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سَيِّد الملوك بعده، الملكِ الناصر صلاح الدين، فوجدتُهما في المتأخّرين، كالعُمَرَيْن ـ رضي الله عنهما ـ في المتقدِّمين؛ فإنَّ كل ثانٍ من الفريقين حذا حَذْوَ من تَقَدَّمه في العَدْل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أيّ اجتهاد. وهما ملِكا بلدتنا، وسُلْطانا خُطَّتنا، خَصَّنا الله تعالى بهما، فوجَبَ علينا القيامُ بذكر فَضْلِهما. فعزمتُ على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلَّه يقف عليه من الملوك، مَنْ يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أُبعد أنهما حُجَّةٌ من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين. فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقةَ الخلفاء الراشدين، ومن حذا حَذْوَهُمْ من الأئمة

(١) هو علي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر الدمشقي، المؤرخ الحافظ الرحالة. كان محدث الديار الشامية، ورفيق السمعاني صاحب الأنساب، توفي في دمشق سنة ٥٧١هـ (الأعلام ٤/ ٢٧٣).

Marfat.com

السَّابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير. فكان فيما قَدَّر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحُجَّة عليهم بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يَعْجِزَ عن التشبُّه بهما أحد، إنْ وفَّق الله تعالى الكريمُ وسدَّد. وأخذتُ ذلك من قول أبي صالح شُعيب بن حَرْب المَدَائني[1] رحمه الله ـ وكان أحدَ السادة الأكابر في الحِفْظ والدين ـ قال: إني لأحسب يجاء بسفيان الثَّوْري[2] يومَ القيامة حُجَّةً من الله تعالى على هذا الخَلْق؛ يُقال لهم: إن لم تدركوا نبيكم فقد أدركتم سفيان، ألا اقتديتم به؟! وهكذا أقول: هذانِ حُجَّةٌ على المتأخرين من الملوك والسلاطين. فَلِلَّهِ دَرُّهُما مِنْ مَلِكَيْنِ تعاقبا على حُسْنِ السيرة، وجميل السريرة، وهما حنفي وشافعيّ، شفى الله بهما كلَّ عِيّ، وظهرت بهما من خالقهما العناية، فتقاربا حتى في العُمر ومدَّة الولاية، وهذه نكتة قَلَّ من فَطِن لها ونبَّه عليها، ولطيفةٌ هداني الله بتوفيقه إليها؛ وذلك أن نور الدين رحمه الله، ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وستين، ووُلد صلاح الدين رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وثمانين. فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنةٍ واحدة وبعض أخرى، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة، فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة، وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة. وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين، وملَكها صلاح الدين سنة سبعين، فبقيت دمشق في المملكة النوريّة عشرين سنة، وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة، تُمحى فيها السيئة وتُكْتَب الحسنة؛ وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدّة الولاية ببلدةٍ معينة لملكين متعاقبين، مع قُرب الشبه بينهما في سيرتيهما، والفضل للمتقدِّم؛ فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظم محلِّه، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهَّدَ الأمور بعَدله وجهاده، وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق، واتساع الخرق. وفَتَح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على مَن بعده على الحقيقة، سلوكُ تلك الطريقة، لكن صلاح الدين أكثرُ جِهاداً، وأعم بلاداً، صبرَ وصابر،

---

(١) شعيب بن حرب البغدادي، أصله من خراسان، سكن المدائن، يروي عن الثوري وشعبة، كنيته أبو صالح، روى عنه أهل العراق، وكان من خيار عباد الله، مات في ولاية محمد الأمين (كتاب الثقات لابن حبان ٨/ ٣٠٨).

(٢) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الكوفي الثوري الفقيه ولد سنة ٩٧هـ، وتوفي بالبصرة سنة ١٦١هـ (كشف الظنون ٥/ ٣٨٧).

Marfat.com

ورابط وثابر، وذَخَر الله له من الفتوح أنفَسه، وهو فتح الأرض المقدسة. فرضي الله عنهما فما أحقهما بقول الشَّاعر: [السريع]

كـــم تَـــرَكَ الأوَّلُ لـــلآخـــر[1]

[البسيط]

وألـبـسَ الله هـاتـيـكَ الـعِـظـامَ، وإن بَلِين تحتَ الثرى عفواً وغُفرانا[2]
سـقَـى ثـرَى أُودِعُـوه رحـمـةً مـلأَتْ مـثـوى قـبـورِهـمُ رَوْحـاً وَرَيْـحـانـا

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعةٌ من العلماء، والأكابر الفضلاء. فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدِّمَشْقي في «تاريخه»[3] ترجمةً حسنة لنور الدين محمود بن زَنْكي رحمه الله، ولأجله تمَّم ذلك الكتاب، وذكر اسمه في خطبته.

وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي في «مذيل التاريخ الدُّمشقي» قطعةً صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وصنَّف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجَزَرِي ـ عُرف بابن الأثير[4] ـ مجلَّدةً في الأيام الأتابكية كلها، وما جرى فيها، وفيه شيء من أخبار الدولة الصَّلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى لكونها متفرِّعة عنها.

وصنَّف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المَوْصلي ـ عُرِف بابن شَدَّاد[5] ـ قاضي حلب مجلَّدة في الأيام الصَّلاحية،

---

(١) صدره:

يـقـول مـن تـقـرع أسـمـاعـه

والبيت لأبي تمام في ديوانه ٢/ ١٦١.

(٢) البيتان لأسامة بن منقذ في ديوانه ص٣٠٩.

(٣) أي كتاب «تاريخ مدينة دمشق».

(٤) هو علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، عز الدين، أبو الحسن الجزري الموصلي المعروف بابن الأثير، الفقيه المؤرخ الشافعي ولد سنة ٥٥٥هـ، وتوفي بالموصل سنة ٦٣٠هـ. من تصانيفه: «أداب السياسة»، «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، «تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل»، «تحفة العجائب وطرفة الغرائب» في التاريخ، «الجامع الكبير» في علم البيان، «كامل التواريخ» «كتاب الجهاد». «اللباب في تهذيب الأنساب»، وهو تلخيص أنساب السمعاني (كشف الظنون ٥/ ٧٠٦).

(٥) هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي ثم الحلبي. القاضي بها، المعروف بابن شداد الفقيه الأديب الشافعي، ولد سنة ٥٣٩هـ، وتوفي بحلب سنة ٦٣٢هـ، من تصانيفه: «الأعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة»، «دلائل الأحكام فيما يتعلق بالأحاديث المستتبعة منها الأحكام»، «فضائل الجهاد»، «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام» =

Marfat.com

وساق ما تيسَّر فيها من الفتوح، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى.

وصنَّف الإمام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني[١] كتابين كلاهما مسجوعٌ متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة؛ أحدهما «الفتح القدسي»، اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته، فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. والثاني «البرق الشَّامي»، ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق، وهي سنة اثنتين وستين وخمسمائة إلى سنة وفاة صلاح الدين، وهي سنة تسع وثمانين، فاشتمل على قطعةٍ كبيرة من أخبار أواخر الدَّولة النوريّة. إلا أن العماد في كتابيه طويلُ النَّفَس في السَّجْع والوصف، يُمِلُّ الناظر فيه، ويُذْهِلُ طالبَ معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه، فحذفتُ تلك الأسجاع إلا قليلاً منها، استحسَنْتُها في مواضعها، ولم تك خارجةً عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع، نحو ما ستراه في أخبار فتح بيت المقدس شرفه الله تعالى، وانتزعت المقصود من الأخبار، من بين تلك الرسائل الطُوال، والأسجاع المفضية إلى المَلال، وأردت أن يفهم الكلامَ الخاصُّ والعام. واخترت من تلك الأشعار الكثيرة قليلاً ممَّا يتعلق بالقَصَص وشرح الحال، وما فيه نكتة غريبة، وفائدة لطيفة.

ووقفت على مجلَّدات من «الرسائل الفاضلية»[٢]، وعلى جُملةٍ من الأشعار

= «الموجز الباهر في الفروع»، «النوادر السلطانية في سيرة صلاح الدين الأيوبي» (كشف الظنون ٦/ ٥٥٣ ـ ٥٥٤).

(١) هو محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الرجاء حامد بن محمد، عماد الدين أبو عبد الله، الكاتب الأصبهاني الأديب الشافعي، ولد سنة ٥١٩، وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧، من تصانيفه: «البرق الشامي» في التاريخ، «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» في ذيل الدمية، «خطفة البارق وعطفة الشارق» في التاريخ، «ديوان دوبيت»، «ديوان الرسائل»، «ديوان شعره»، «زبدةُ النصرة ونخبة العصرة» في التاريخ، «السيل على الذيل لتاريخ بغداد للسمعاني»، «العتبى والعقبى» رسالة في التاريخ، «القدح القسي في الفتح القدسي»، «نحلة الرحلة» في التاريخ، «نصرة الفترة وعصرة القترة» في أخبار السلجوقية، وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ١٠٥).

(٢) نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف. علي بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي البيساني، مجير الدين أبو علي العسقلاني، الشهير بالقاضي الفاضل، من وزراء صلاح الدين الأيوبي، ولد بعسقلان سنة ٥٢٩هـ، وتوفي بمصر سنة ٥٩٦هـ. من تصانيفه: «تاريخ مرتب على الأيام»، «سيرة الملك المنصور»، وغير ذلك من المنظوم والمنثور. (كشف الظنون ٥/ ٥٦٠).

Marfat.com

العمادية مما ذكره في «ديوانه» دون «بَرْقه»[١]، وعلى كتبٍ أُخِر من دواوين وغيرها، فالتقطتُ منها أشياء مما يتعلَّق بالدولتين أو بإحداهما، وبعضه سمعته من أفواه الرِّجال الثقات، ومن المدركين لتلك الأوقات. فاختصرت جميعَ ما في ذلك من أخبار الدولتين، وما حدَث في مُدَّتهما من وفاة خليفةٍ أو وزير، أو أمير كبير، أو ذي قَدْر خطير، وغير ذلك. فجاء مجموعاً لطيفاً، وكتاباً ظريفاً، يصلُح لمطالعة الملوك والأكابر، من ذوي المآثر والمفاخر. وسميته «كتاب الرَّوضتين في أخبار الدولتين». ولله دَرُّ حبيب بن أوس حيث يقول: [الكامل]

ثُمَّ انقضَتْ تلك السِّنُونُ وأهلُها فكأنَّها وكأنَّهم أَحْلامُ[٢]

فصل

[الدولة النورية]

أما الدولة النورية فَسُلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أَتابك وهو أبو سعيد زَنْكي بن قسيم الدَّوْلة آق سُنْقُر التركي. ويلقب زَنْكي أيضاً بلقب والده قَسِيم الدولة، ويقال لنور الدين ابن القسيم. وسنتكلَّم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه، وقدمتُ من إجمال أحواله ما يُستدلُّ به على أفعاله:

ذكر الحافظ أبو القاسم في «تاريخه» أنه ولدَ سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وأن جدَّه آق سُنْقُر وَلي حلب وغيرها من بلاد الشام، ونشأ أبوه زَنْكي بالعراق، ثم ولي ديار المَوْصِل والبلاد الشامية، وظهرت كفايتُه في مقابلة العدوِّ عند نزوله على شَيْزَر حتى رجع خائباً، وفتح الرُّها، والمَعَرَّة، وكَفْر طاب، وغيرها من الحصُون الشاميّة، واستنقذَها من أيدي الكُفَّار. فلما انقضى أجلُه قام ابنُه نور الدين مقامَه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. ثم قصد نور الدين حلب فملَكَها، وخرَج غازياً في أعمال تلِ باشر، فافتتح حصوناً كثيرة من جُملتها قلعة عَزَاز، ومَرْعَش، وتلِ خالد، وكَسَر إبرنس أَنْطَاكية، وقتلَه وثلاثة آلاف فرنجي معه، وأظهر بحلب السُّنَّة وغيَّر البِدْعة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها الرافضة، وبنى بها المدارس، ووقَفَ الأوقاف، وأظهر العدل، وحاصَر دمشق مرتين وفتحها في الثالثة، فضبط أمورها وحصَّن سُورها، وبنى بها المدارس والمساجد، وأصلح

(١) أي البرق الشامي.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص٢٦٣، وبلا نسبة في شرح شذور الذهب ص٧٦.

Marfat.com

طُرقَها، ووسَّع أسواقها، ومنعَ مِن أَخْذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البِطِّيخ، وسوق الغنم، والكيالة، وغيرِها. وعاقب على شُرب الخمر، واستنقَذ من العدو ثَغْر بانياس والمُنَيْطِرَة وغيرهما. وكان في الحرب ثابتَ القَدَم، حسن الرَّمي، صَلِيب الضَّرْب[1]، يَقْدُم أصحابَه، ويتعرض للشهادة، وكان يسأل الله تعالى أن يحشره من بُطُون السِّباع وحواصِل الطير. ووقَفَ رحمه الله تعالى وقُوفاً على المرضى ومُعَلِّمي الخط والقرآن وساكني الحرمين. وأقطعَ أمراء العرب لئلا يتعرَّضوا للحُجَّاج، وأمر بإكمال سُور المدينة واستخراج العَيْن التي بأُحُد، وبنى الرُّبُط والجُسور والخانات، وجدَّد كثيراً من قُنيِّ السَّبيل. وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملَكَها. ووقَفَ كُتُباً كثيرة، وحَصَلَ في أسره جماعةٌ من أمراء الفرنج، وكسر الرُّوم والأرمن والفرنج على حارِم، وكان عِدَّتُهم ثلاثين ألفاً، ثم فتح حارِم، وأخذ أكثر قرى أنطاكية، ثم فتح الدِّيار المِصْرية وكان العدوُّ قد أشرف على أَخْذها، ثم أظهر بها السُّنَّة وانقمعت البِدْعة. وكان حسنَ الخطِّ، كثير المطالعة للكتب الدينية، متَّبعاً للآثار النبويَّة، مُوَاظباً على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيفَ البطن والفرج، مقتِصداً في الإنفاق، متحرِّياً في المطاعم والملابس، لم تُسمع منه كلمة فحشٍ في رضاه ولا في ضَجَره، وأشهى ما إليه كلمةُ حقٍّ يسمَعُها أو إرشاد إلى سُنَّةٍ يتبَعُها.

وقال أبو الحسن بن الأثير[2]: قد طالعتُ تواريخ الملوك المتقدِّمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الرَّاشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من الملك العادِل نور الدين، ولا أكثر تحرِّياً للعدل والإنصاف منهُ. قد قَصَرَ ليلَه ونهاره على عدلٍ ينشرُه، وجهادٍ يتجهَّز له، وَمَظْلمة يُزيلُها، وعبادةٍ يقومُ بها، وإحسانٍ يُوليه، وإنعام يُسْديه. ونحن نذكر ما نعلمُ به محلَّه في أمر دنياه وأُخراه، فلو كان في أُمَّة لافتخرَتْ به، فكيف بيتٌ واحد؟

[زهد نور الدين وعبادته]

أما زهده وعبادَتُه وعِلْمه فإنَّه كان مع سَعَة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها، لا يأكل ولا يَلْبَسُ ولا يتصرَّف فيما يخصُّه إلا مِنْ مِلْك كان له قد اشتراه مِن سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المُرصدة لمصالح المسلمين؛ أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحلُّ له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحِلِّه، ولم يتعدَّه إلى غيره

(١) صليب الضرب: أي شديدة.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير الجزري ١٠/ ٥٦ ـ ٥٧ (طبعة دار الكتب العلمية).

Marfat.com

البتّةَ، ولم يلبس قط ما حَرَّمه الشَّرع من حريرٍ أو ذهبٍ أو فِضَّةٍ. ومنع من شُرب الخمر وبيعها في جميع بلاده، ومن إدخالها إلى بلدٍ ما، وكان يحُدُّ شاربَها الحدَّ الشرعي، كُلُّ الناس عنده فيه سواء.

حدّثني صديقٌ لنا بدمشق كان رضيعَ الخاتون ابنة معين الدِّين[١]؛ زوجة نور الدين، ووزيرَها، قال: كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختصِّ به، وتقوم في خِدْمته لا تتقدَّم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختصُّ بها، وينفرد هو، تارةً يطالعُ رِقاع أصحاب الأشغال، أو في مطالعة كتابٍ أتاه ويجيب عنهما. وكان يصلي فيطيل الصَّلاةَ، وله أورادٌ في النهار، فإذا جاء الليل وصَلَّى العِشاء ونام، يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بُكْرة، فيظهر للركوب ويشتغِلُ بمهامِّ الدولة. قال: وإنها قلَّت عليها النفقة، ولم يكفها ما كان قرَّره لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها. فلما قلتُ له ذلك تنكَّرَ واحمرَّ وجهه، ثم قال: من أين أُعطيها؟ أما يكفيها مالُها! والله لا أخوضُ نارَ جهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مُرَصَّدَةٌ لمصالحهم، ومُعَدَّة لفتقٍ إن كان من عدوِّ الإسلام، وأنا خازنُهم عليها فلا أخونهم فيها. ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً وقد وهبتُها إياها فلتأخذها. قال: وكان يحصل منها قدرٌ قليل[٢].

قال ابن الأثير[٣]: وكان رحمه الله، لا يفعل فعلاً إلا بنيّة حسنة. كان بالجزيرة رجل من الصَّالحين، كثير العبادة والورع، شديدُ الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً. فبلغه أن نور الدين يُذْمِنُ اللعبَ بالكرة، فكتب إليه يقول: ما كنتُ أظنك تلهو وتلعب وتعذِّبُ الخيلَ لغير فائدة دينية. فكتب إليه نور الدين بخطِّ يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبَطَرُ، إنما نحن في ثَغْر، العدو قريبٌ منا،

---

(١) هو معين الدين أنر. قال ابن الأثير الجزري في الكامل في التاريخ ٩/ ٣٦٤: توفي معين الدين آنر سنة ٥٤٤هـ. وهو نائب أبق صاحب دمشق، وهو كان الحاكم والآمر إليه، وكان أبق صورة أمير لا معنى تحتها.

(٢) في «الكامل» لابن الأثير ١٠/ ٥٧: ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له، يحصل له منها في السنة نحو العشرين دينار، فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين، لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك.

(٣) المرجع السابق.

Marfat.com

وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب. ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، شتاءً وصيفاً، إذْ لا بدّ من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جَماماً[1] لا قُدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكرّ والفرّ في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جَمَامها وتتعوَّد سُرعَة الانعطاف، والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب يَفْعَلُه بنيَّةٍ صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القُرُبات يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنيَّة صالحة، وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين.

قال: وحُكي لي عنه أنَّه حُمل إليه من مصر عِمامة من القصَب الرفيع مُذْهبة، فلم يحضرها عنده، فَوصِفَتْ له فلم يلتفت إليها. وبينا هم معه في حديثها، وإذا قد جاءه رجل صوفيّ، فأمر بها له، فقيل له: إنها لا تصلُح لهذا الرجل، ولو أُعطي غيرها كان أنفع له. فقال: أعطوها له، فإني أرجو أن أُعَوَّض عنها في الآخرة. فسُلِّمت إليه، فسار بها إلى بغداد، فباعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار.

قلت: قرأتُ في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الأثير بخط ابن المُعْطَى إياها قال: أعطاها لشيخ الصُّوفية عماد الدين أبي الفتح بن حَمُّويه[2] بغير طلب ولا رغبة، فبعثها إلى هَمَذَان، فبيعت بألف دينار.

قال ابنُ الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين عليُّ بن السُّكَّري ـ وكان خصيصاً بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصِّبا وأنس به، وله معه انبساط، قال: كنت معه يوماً في الميدان بالرُّها والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدَّمَنا الظِّل، فلما عُدنا صار الظل وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، وقال لي: أتدري لأي شيء أُجري فرسي والتفتُ ورائي؟ قلت: لا. قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا؛ تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها.

قلتُ: رضي الله عن ملكٍ يفكر في مثل هذا. وقد أُنشدتُ بيتين في هذا المعنى: [الرمل]

مَثَلُ الرِّزْقِ الذي تطلبُه ... مَثَلُ الظِّلِّ الذي يمشي مَعَكْ

---

(١) الجمام: الراحة. وجم الفرس يجم جماً وجماماً: ترك فلم يركب.

(٢) هو عمر بن علي بن محمد بن حموية، ولّاه نور الدين خوانق الشام، وكان يحترمه ويحبه ومات سنة ٥٧٧هـ (انظر المذيل على الروضتين، وفيات سنة ٦١٧هـ).

أنــتَ لا تــدركــهُ مــتَّــبــعــاً فــإذا ولَّــيــتَ عــنــه تَــبــعَــكْ

قال ابن الأثير: وكان ـ يعني نورَ الدين ـ رحمه الله، يصلّي كثيراً من الليل، ويدعو ويستغفر ويقرأ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب: [الكامل]

جَمَع الشَّجَاعة والخشوع لربِّه ما أحسنَ المحرابَ في المحرابِ

قال: وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، ليس عنده تعصُّب[1]، بل الإنصاف سجيته في كل شيء. وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر، وعلى الحقيقة فهو الذي جدَّد للملوك اتّباع سُنَّة العَدْل والإنصاف، وتَرْك المحرَّمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك؛ فإنهم كانوا قبله كالجاهلية: هَمُّ أحدهم بطنُه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه «ومَنْ سَنَّ سُنَّة حسنةً كان له أَجْرُها وأجر مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامة»[2].

قال: فإن قال قائل: كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة، وتجبى إليه الأموال الكثيرة؟ فليذكر نبيَّ الله سليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه وهو سيِّد الزَّاهدين في زمانه. ونبيُّنا ﷺ قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشَّام إلى العراق، وهو على الحقيقة سَيِّد الزاهدين. قال: وإنما الزهد خلوُّ القلب من محبة الدنيا لا خلوّ اليد عنها.

قال: وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرةً وأعدلهم حكماً؛ فمن عدله أنه لم يترك في بلدٍ من بلاده ضريبةً ولا مَكْساً[3] ولا عُشْراً، بل أطلقها رحمه الله جميعها في بلاد الشام، والجزيرة جميعها، والمَوْصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه. وكان المَكْس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، وهذا لم تتسع له نفس غيره. وكان يتحرَّى العدل وينصفُ المظلوم من الظَّالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء. وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجبٍ ولا أمير. فلا جَرَمَ سار ذكره في شرق الأرض وغَرْبها.

---

(١) انظر «الكامل» ١٠/ ٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في العلم حديث ١٥، والزكاة حديث ٦٩، والنسائي في الزكاة باب ٦٤، وأحمد في المسند ٤/ ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١.

(٣) المكس: الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخلون البلد من التجار، جمعه: مكوس.

[عدل نور الدين]

قال: ومن عدله أنه كان يُعظِّم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن سخر لها نُمضي أوامرها. فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة، فرأى إنساناً يحدِّث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله. فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحُكْم يحاكمني على المِلْك الفلاني. فعاد إليه ولم يتجاسر يعرِّفه ما قال ذلك الرجل، وعاد يَكْتُمُه، فلم يقبل منه غير الحق، فذكر له قوله، فألقى الجُوكان[1] من يده، وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي، وهو حينئذٍ كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري[2]، وأرسل إلى القاضي يقول له: إنني قد جئت محاكماً، فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري. فلما حضر ساوى خصمه وخاصمه وحاكمه، فلم يثبت عليه حقٌّ، وثبتَ المِلك لنور الدّين، فقال نور الدين حينئذٍ للقاضي ولمن حضر: هل ثبتَ له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المِلك الذي قد حاكمني عليه، وهو له دوني، وقد كنت أعلم أن لا حقّ له عندي، وإنما حضرتُ معه لئلا يظن بي أني ظلمتُه، فحيث ظهر أن الحقَّ لي وهبتُه له.

قال ابن الأثير: وهذا غاية العدل والإنصاف، بل غاية الإحسان، وهي درجة وراء العدل. فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة، المنقادة إلى الحق، الواقفة معه.

قلت: وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة، وإلا فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحُكْم جماعةٌ من المتقدِّمين مثل عمر وعلي ومعاوية رضي الله عنهم، ثم حُكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور. وقد نقلنا ذلك كله في «التاريخ الكبير»[3]، وفيه عن عبد الله بن طاهر[4] قريبٌ من هذا، لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمضِ إليه. وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استُدْعيَ مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه؛ فدخل حاجبه عليه متعجِّباً، وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب، فأنكر عليه تعجُّبه، وقام رحمه الله

---

(١) الجوكان: هو المحجن (وهو العصا المعوجة كالصولجان) الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً (انظر صبح الأعشى ٥/ ٤٣٠).

(٢) توفي سنة ٥٧٢هـ. انظر الجزء الثاني.

(٣) التاريخ الكبير، هو مختصر تاريخ ابن عساكر. انظر ترجمة المؤلف في «المذيل على الروضتين» حين يعدد مؤلفاته.

(٤) عبد الله بن طاهر، ولي إمرة الشام، وولاه المأمون خراسان، توفي سنة ٢٣٠هـ (وفيات الأعيان ٣/ ٨٣ ـ ٨٩).

Marfat.com

مسرعاً، ووجد في أثناء طريقه ما مَنَعه من العبور من حَفْر جُبٍّ بعض الحشوش واستخراج ما فيه، فوكّل مِن ثَمَّ وكيلاً، وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل ورجع.

قال ابن الأثير: ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظِّنة والتُّهَمَة، بل يطلب الشهود على المُتهم، فإن قامت البيِّنة الشرعية عاقبه العقوبةَ الشرعية من غيرِ تَعَدٍّ. فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدَّة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظِّنة، وأمِنت بلاده مع سَعَتها، وقلَّ المفسدون ببركة العَدْل، واتباع الشرع المُطهَّر.

قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء. وأمر بردِّه وإعادته إلى كمال الدين ليردّه على صاحبه. فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فردَّه إلى الخزانة وقال: إذا سأل الملك العادلُ عنه فقولوا له عني: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرةً أخرى، فرآه، فأنكر على النُّوَّاب، وقال: ألم أقل لكم: يُعاد هذا المال على أصحابه؟! فذكروا له قولَ كمال الدين، فردَّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمةَ عليه بين يدي الله تعالى، يُعاد قولاً واحداً.

قال: ومن عدله أيضاً بعد موته ـ وهو من أعْجب ما يُحكى ـ أن إنساناً كان بدمشق غريباً، استوطنها وأقام بها لِما رأى من عدل نور الدين رحمه الله. فلما توفي تعدَّى بعضُ الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم يُنصف. فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شقَّ ثوبه ويقول: يا نور الدين، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك! وقصد تربة نور الدين، ومعه من الخَلق ما لا يُحصى، وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعيَّة وإلّا خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل ـ وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه ـ فطيَّب قلبه ووهبَه شيئاً وأنصَفَه، فبكى أشدَّ من الأول. فقال له صلاح الدين: لِمَ تبكي؟ قال: أبكي على سلطانٍ عَدَل فينا بعد موته. فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدلٍ فمنه تعلمناه.

قلتُ: ومن عدله أن بنى دار العَدْل. قال ابنُ الأثير: كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف، وسمَّاها دار العدل. وكان سببُ بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق، وأقام بها أمراؤه ـ وفيهم أسد الدين شِيركُوه، وهو أكبر أميرٍ معه، وقد عَظُمَ شأنه وعلا مكانه، حتى صار كأنه شريك في الملك ـ واقتنوا الأملاك

Marfat.com

وأكثروا، وتعدَّى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها، فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين، فأنصف بعضهم من بعض، ولم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين شِيركُوه، فأنهى الحالَ إلى نور الدين، فأمر حينئذٍ ببناء دار العدل، فلما سمع أسدُ الدين بذلك أحضَرَ نوابه جميعهم، وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي؛ وإلا فمن هو الذي يمتنعُ على كمال الدين؟ ووالله لئن أُحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنَّه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في مِلك، فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي. فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهلُ عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يُساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة. فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم. فلما فرغت دارُ العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء، وبقي كذلك مدة فلم يحضُر عنده أحد يشكو من أسد الدين. فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحداً يشكو من شِيركُوه. فعرَّفه الحال، فسجَدَ شكراً لله تعالى، وقال: الحمد لله الذي أصحابُنا ينصفونَ من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذه المَعْدِلَة ما أحسنَها، وإلى هذه الهيبة ما أعظَمَها، وإلى هذه السياسة ما أسَدَّها، هذا مع أنه كان لا يريق دماً، ولا يُبالغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقُه في عدله وحسنُ نيته.

[شجاعة نور الدين وحسن رأيه]

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه أصبرُ الناس في الحرب وأحسنُهم مكيدةً ورأياً، وأجودهم معرفةً بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يُضرب المثل في ذلك. سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أُحصيهم أنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسنَ منه، كأنه خُلِقَ عليه لا يتحرَّك ولا يتزلزل. وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها؛ لم يُرَ جُوكانه[1] يعلو على رأسه. وكان ربما ضرب الكرة ويُجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء، ويرميها إلى آخر الميدان. وكانت يده لا تُرَى والجُوكان فيها، بل تكون في كُمِّ قَبَائه استهانةً باللعب. وكان إذا حضَرَ الحرب أخذ قوسين وتَرْكَشَيْن[2]، وباشر القتال بنفسه،

(١) تقدم التعريف بالجوكان قبل قليل.

(٢) التركاش: لفظ فارسي الأصل، ومعناه الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب (التعريف بمصطلحات الصبح ٧٦، ونزهة النفوس ٣/ ٢٥١).

Marfat.com

وكان يقول: طالما تعرَّضت للشهادة فلم أدركها. سمعه يوماً الإمام قطب الدين النَّيْسَابوري[١] الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادُهم، ولئن أُصبتَ ـ والعياذ بالله ـ في معركة لا يبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيف وأُخذت البلاد. فقال: يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقالَ له هذا؟! قبلي من حَفِظَ البلاد والإسلام؛ ذلك الله الذي لا إله إلا هو.

قال: وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخِداع مع الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ وأكثر ما ملَكه من بلادهم به. ومن جيِّد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأَرْمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله، حتى جعله في خدمته سَفَراً وحضراً، وكان يقاتل به الإفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسلك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلِبَ انحجَرَ فيها فلا يُقدر عليه، فلما رأيتُ الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألُّف حتى أجابَ إلى طاعتنا وخِدْمتنا وساعدَنا على الفرنج.

قال: وحيث توفي نور الدين رحمه الله وسلك غيرُه غيرَ هذا الطريق مَلَكَ المتولي الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد الإسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم، وخرقٌ واسع لا يُمكن رقعه.

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده؛ فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلَّف ولداً أقر الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيراً استبدَّ بنفسه، وإن كان صغيراً رتَّب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه، فيتولى أمره إلى أن يكبر. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب. وكان أيضاً يثبت أسماءَ أجنادِ كلِّ أميرٍ في ديوانه وسلاحَهم؛ خوفاً من حرص بعض الأمراء وشُحِّه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العُدَد، ويقول: نحن كل وقت في النَّفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العَدَد والعُدد دخل الوَهْن على الإسلام. قال: ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال، وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه عِياناً.

---

(١) هو قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود الشافعي نزيل دمشق، يعرف بالنيسابوري، ولد سنة ٥٠٥، وتوفي سنة ٥٧٨، من تصانيفه عقيدة أهداها للملك صلاح الدين الأيوبي. «الهادي في الفروع» (كشف الظنون ٦/ ٤٢٩، وفيات الأعيان ٥/ ١٩٦ ـ ١٩٧، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٠٦ ـ ١٠٩).

Marfat.com

[ما فعله نور الدين من المصالح]

قال: وأما ما فعله في بلاد الإسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثيرٌ عظيم؛ من ذلك أنه بنى أسوار مدن الشَّام جميعها وقلاعها، فمنها حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، وبارين، وشَيْزَر، ومَنْبِج، وغيرها من القلاع والحصون، وحصَّنها وأحكم بناءها، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمحُ به النفوس. وبنى أيضاً المدارس بحلب، وحماة، ودمشق، وغيرها للشَّافعية والحنفية. وبنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعُه في المَوْصل إليه النهاية في الحُسْن والإتقان، ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوَّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر المَلَّاء[1] رحمه الله؛ وهو رجل من الصالحين، فقيل له: إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل. فقال: إذا ولَّيت العمل بعضَ أصحابي من الأجناد والكُتَّاب اعلم أنه يَظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامعُ بظُلْم رجل مسلم، وإذا ولَّيت هذا الشيخَ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظَلَمَ كان الإثم عليه لا عليَّ. قال: وهذا هو الفِقْه في الخلاص من الظلم. وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدَّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم؛ إما بِزَلْزلة أو غيرها، وبنى البيمارَسْتانات في البلاد؛ ومن أعظمِها البيمارَسْتان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج جداً. بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غنيٍّ وفقير.

قلت: وقد وقفتُ على كتاب وَقْفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلامٌ شاع على ألسنة العامة، ليَقع ما قدَّره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان. وإنما صرَّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يُمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء. فخصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدَّى إلى غيره، لا سيما وقد صرَّح قبل ذلك بأنه وَقْفٌ على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أُعطي. ورُوي أن نور الدين رحمه الله، شرب من شراب البيمارَسْتَان فيه، وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أُعطي، والله أعلم.

وبلغني[2] في أصل بنائه نادرة، وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره

---

(١) الشيخ عمر الملّاء: هو عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي ثم الموصلي الصوفي، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر الملّاء، توفي سنة ٥٧٠هـ. له كتاب «وسيلة المتعبدين في سيرة سيد المرسلين» (كشف الظنون ٥/ ٧٨٤، الأعلام ٥/ ٦٠ ـ ٦١).

(٢) وبلغني: هو من قول أبي شامة، وليس من قول ابن الأثير.

Marfat.com

بعضُ أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً، فشاور نورُ الدين أمراءه، فكلٌ أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلَّم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه، فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين؛ حيث جمع لهم الحُسْنَيَيْن، وهما الفداء وموت ذلك اللعين. فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارَسْتان، ومنعَ المال الأمراء؛ لأنه لم يكن عن إرادتهم كان.

وقال ابن الأثير: وبنى أيضاً الخانات في الطرق، فأَمِنَ الناس وحُفِظَتْ أموالُهم، وباتوا في الشتاء في كِنٍّ[1] من البرد والمطر. وبنى أيضاً الأبراج على الطُّرُق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأَوْا من العدوِّ أحداً أرسلوا الطيور، فأخذ الناس حِذْرِهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً؛ وكان هذا من ألطف الفِكَر وأكثرها نفعاً.

قال: وبنى الرُّبُط والخانقاهات[2] في جميع البلاد للصُّوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأَدَرَّ عليهم الإدرارات الصالحة، وكان يُحْضِرُ مشايخَهُم عنده، ويقرِّبُهُمْ، ويدنيهم ويبسطهم، ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مُذْ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسُهُ معه على سَجَّادته، ويُقبلُ عليه بحديثه. وكذلك كان أيضاً يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعُهم عند البحث والنَّظَر؛ فقصدوه من البلاد الشَّاسعة، من خُرَاسان وغيرها. وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول: ومن المعصوم؟! وإنما الكامل من تُعدُّ ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قُطْب الدين النَّيْسَابوري[3]؛ الفقيه الشافعي، وكان قد استقدَمه من خُرَاسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فحسده ذلك الأمير، فنال منه يوماً عند نور الدين. فقال له: يا هذا، إن صَحَّ ما تقول فله حسنةٌ تغفر كل زَلَّةٍ تذكرها؛ وهي العلم والدين. وأما أنت وأصحابك، ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عَقَلْتَ لشغلك عَيْبُك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئةَ هذا ـ إن صحَّتْ ـ

---

(١) الكنّ: الستر.

(٢) الخانقاه: كلمة فارسية معناها «بيت» وأصلها: «خونقاه» أي الموضع الذي يأكل فيه الملك (المقريزي، الخطط ٢/ ٤١٤).

(٣) قطب الدين النيسابوري: تقدمت ترجمته قبل قليل.

Marfat.com

مع وجود حسنته! على أنني والله لا أصدِّقك فيما تقول، وإن عدتَ ذكرته أو غيره بسوء لأؤدِّبَنَّك، فكُفَّ عنه.

قال ابن الأثير: هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.

وبنى بدمشق أيضاً دار الحديث، ووقَفَ عليها وعلى مَنْ بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمنا. وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتبَ للأيتام، وأجرى عليهم وعلى معلِّميهم الجرايات الوافرة. وبنى أيضاً مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن.

قال: وهذا فعلٌ لم يُسبق إليه. بلغني من عارفٍ بأعمال الشام أن وقوفَ نور الدين في وقتنا هذا ـ وهو سنة ثمانٍ وستمائة ـ كل شهر تسعة آلاف دينار صورية[1]، ليس فيها مِلْك غير صحيح شرعي ظاهراً وباطناً، فإنه وقف ما انتقل إليه ووزَنَ ثمنه، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمَه.

[هيبة نور الدين ووقاره]

قال: وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما. ولقد كان، كما قيل: «شديد في غير عُنْفٍ، رقيق في غير ضَعْف». واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غايةٍ لا مزيدَ عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخِدْمة، الصغير منهم والكبير، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما من عداه، كأسد الدين شِيركُوه، ومجد الدِّين بن الداية، وغيرهما، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالقعود. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصُّوفي أو الفقير يقوم له، ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقربُ الناس إليه. وكان إذا أعطى أحدَهم شيئاً يقول: إنَّ هؤلاء لهم في بيت المال حقٌّ، فإذا قَنِعُوا منا ببعضه فلهم المِنَّةُ علينا. وكان مجلسه كما رُوي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء لا تُؤْبِنُ فيه الحُرَمُ[2]. وهكذا كان

(١) الدينار الصورية: أي على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس (انظر صبح الأعشى ٣/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤).

(٢) الحديث رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ١/ ١٧ بلفظ: في وصف مجلس رسول الله ﷺ: لا تؤبن فيه الحرم. أي لا يذكرن بقبيح، كان يصان مجلسه عن رفث القول. يقال: أبَنْتَ الرجل آبنه إذا رميته نحلة سوء، فهو مأبون، وهو مأخوذ من الأُبَنِ، وهي العُقَدُ تكون في القسي تفسدها وتعاب بها.

مجلسُه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدَّى هذا. بلغني أن الحافظ ابنَ عساكر الدِّمَشْقي، رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللَّغَط وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا حَدَّ عليه، فشرع يحدِّث صلاحَ الدين كما كان يحدِّث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدِّثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مُدَّة لا يحضُر المجلس الصلاحيّ، وتكرَّر من صلاح الدين الطلب له، فحضَر، فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال: نزَّهتُ نفسي عن مجلسك، فإنني رأيته كبعض مجالس السُّوقة؛ لا يُسْتَمع إلى قائل، ولا يُرَدُّ جواب متكلِّم، وقد كنا بالأمس نحضُر مجلسَ نور الدين، فكنا ـ كما قيل ـ كأنما على رؤوسنا الطَّير، تعلونا الهيبةُ والوقار، فإذا تكلَّم أنصتنا، وإذا تكلَّمْنا استمعَ لنا. فتقدَّم صلاحُ الدِّين إلى أصحابه أنه لا يكونُ منهم ما جَرَت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: فهكذا كانت أحوالُه جميعها رحمه الله مضبوطةً محفوظة.

[حفظه لأصول الدين ومحاربته للبدع]

وأما حِفْظ أُصول الدِّيانات، فإنه كان مراعياً لها لا يهملها، ولا يُمكِّن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحقّ، ومتى أقدم مُقدِمٌ على ذلك أدَّبه بما يناسب بِدْعته. وكان يبالغ في ذلك ويقول: نحن نحفظ الطُّرق من لصٍّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظُ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل!

قال: وحُكي أن إنساناً بدمشق يُعرف بيوسف بن آدم، كان يُظهر الزُّهد والنُّسُك وقد كَثُرَ أتباعُه، أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأحضره وأركبه حماراً، وأمر بصفعه. فطيف به في البلاد جميعه ونودي عليه: هذا جزاء مَنْ أظهر في الدين البِدَع. ثم نفاه من دمشق، فقصدَ حَرَّان، وأقام بها إلى أن مات.

قال: ويسوق الله القِصَار الأعمار إلى البلاد الوَخِمة[1].

[قدوم عماد الدين الكاتب إلى دمشق]

قلت: وذكر العماد الكاتب في أول كتابه: «البرق الشَّامي»[2] أنه قَدِمَ دمشق

---

(١) وخم المكان: كان غير موافق لأن يسكن، واستوخم المكان: استثقله ولم يوافقه سكنه.

(٢) طبع جزآن فقط من كتاب البرق الشامي وهما الثالث والخامس. طبعتهما مؤسسة عبد الحميد شومان عام ١٩٨٧. فالجزء الثالث يعالج الفترة الزمنية الممتدة ما بين أول سنة ٥٧٣هـ حتى ربيع أول سنة ٥٧٥هـ. وقد حققه الدكتور مصطفى الحياري. والجزء الخامس يعالج الفترة =

Marfat.com

في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك نور الدين محمود بن زَنْكي، وأخذ في وصفه بكلامه المسجوع فقال: كان ملك بلاد الشَّام ومالكها، والذي بيده ممالكها، الملك العادل نور الدين، أعفّ الملوك وأتقاهم، وأثقبهم رأياً وأنقاهم، وأعدلهم وأعبدهم، وأزهدهم وأجهدهم، وأظهرهم وأطهرهم، وأقواهم وأقدرهم؛ وأصلحهم عملاً، وأنجحهم أملاً، وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آياً، وأصدقهم قولاً، وأقصدهم طولاً، وكان عصره فاضلاً، ونصره واصلاً، وحكمه عادلاً، وفضله شاملاً، وزمانه طيباً، وإحسانه صيِّباً، والقلوب بمهابته ومحبته ممتلية، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية، وأموره مقتبلة، وأوامره ممتثلة، وجدّه منزَّه عن الهَزْل، ونوَّابه في أمن من العَزْل، ودولته مأمولة مأمونة، وروضته مصوبة[1] مصونة، والرياسة كاملة، والسياسة شاملة، والزيادة زائدة، والسعادة مساعدة، والعيشة ناضرة، والشيعة ناصرة، والإنصاف صافٍ، والإسعاف عاف، وأزر الدين قويّ، وظمأ الإسلام رَوِيّ، ونَدّ النُّجح وَرِيّ، والشرع مشروع، والحكم مسموع، والعدل مُولّى والظلم معزول، والتوحيد منصور والشِّرك مخذول، وللتُّقى شروق، وما للفسوق سوق، وهو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام، وقد غلب الكفر، وبلغ الضُّر، فاستفتح معاقلها، واستخلص عقائلها، وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد، والإبرام والنقض، والبسط والقبض، والوضع والرفع. وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع فقطعها، وعفّى رسومها ومنعها، ونصره الله عليهم مراراً حتى أسر ملوكهم، وبدَّد سلوكهم، وصان الثغور منهم، وحماها عنهم. وأحيا معالم الدين الدوارس، وبنى للأئمة المدارس، وأنشأ الخانقاهات للصُّوفية، وكثَّرها في كل بلد وكَثَّر وقوفَها، وقرَّر معروفها، وأدنى للوافدين من جِنان جنابه قطوفها، وأجَدَّ الأسوار والخنادق، وأنمى المرافق، وحمى الحقائق[2]، وأمر في الطرقات ببناء الرُّبُط والخانات، وضافت ضيوف الفضائل، وفاضت فيوض الأفاضل، وهو الذي فتح مصر وأعمالها، وأنشأ دولتها ورجالها.

= الزمنية ما بين أول ٥٧٨هـ و٥٧٩هـ. وهو من تحقيق الدكتور فالح صالح حسين. وكتاب «البرق الشامي» يعالج بمجمله الفترة الزمنية الواقعة بين سنتي ٥٦٢هـ و٥٨٩هـ. على عدة أجزاء لم يبق منها سوى الجزأين الثالث والخامس كما هو معروف. وتختلف الآراء في عدد أجزاء الكتاب، إذ يرد أنها تقع في سبعة مجلدات، أو ستة مجلدات، ويذكر ياقوت في معجم الأدباء أنه في بضعة مجلدات، بينما يذكر السخاوي في جواهر الدرر أنه يقع في تسعة أجزاء، وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٢٣٩، أنه كتاب كبير في سبع مجلدات.

(١) مصوبة: أي ممطرة، من الصوب، وهو نزول المطر.

(٢) حمى الحقائق: أي حمى ما يحق عليه أن يحميه.

Marfat.com

[أوقاف نور الدين وصدقاته]

ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسع وستين ـ وهي السنة التي توفي فيها نور الدين ـ قال: وفي هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصَّدقات وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخرَاج، وما تحصل من قسمة الغَلَّات على قويم المنهاج. قال: وأمرني بِكتْبَةِ مناشير لجميع أهل البلاد، فكتبتُ أكثر من ألف منشور، وحَسَبْنا ما تصدَّق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار. وكانت عادته في الصَّدَقة أن يُحضر جماعةً من أماثل البلد من كلِّ محلة، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف إليهم صدقاتهم. وكان برسم نفقة الخاص في كل شهرٍ من جزية أهل الذِّمة مبلغ ألفي قرطيس، يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أُجرة خَيَّاطه، وجامكية[1] طباخه، ويستفضل منه ما يتصدَّق به في آخر الشهر. وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرَّف في شيء منه، لا قليلٌ ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي يحصّل ثمنه، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة. وتقدَّم بإحصاء ما في محالّ دمشق، فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعَيَّن له وقوفاً.

قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلدٍ لطال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمد. ومُشاهدة أبنيته الدالَّة على خلوص نيته تغني عن خبرها بالعِيان، ويكفي أسوار البُلْدان فضلاً عن الرُّبُط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفي شرح طَوْلِه طُول، وعمله لله ذلك مبرور مقبول. وواظب على عقد مجالس الوعَّاظ، ونصب الكرسي لهم في القلعة للإنذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النَّيْسَابوري[2]، وهو مشغوف ببركة أنفاسه، واغتنام كلامه واقتباسه. ووفد من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر[3]، وبسط له في كل أسبوع المنبر،

---

(١) الجامكية: من الفارسية: جامة بمعنى اللباس. والجامكية في الاصطلاح الجزية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر ومن ناحية منحة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٥٩).

(٢) تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٣) ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر: هو عبد الرحيم بن عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، المتوفى سنة ٥٦٧هـ. أما أبو النجيب فهو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه (بفتح العين وضم الميم وتشديدها) ابن سعد الصديقي البكري، ضياء الدين، أبو النجيب =

وشاقه وعظُه، وراقه معناه ولفظه. وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شَوَرْوَه، وما أيمنَ تلك الأيام، وأبرك تلك الشَّتْوة.

قال: ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشُّحَن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين بن الشَّهْرَزُوري: انظر أنت في ذلك، واحمل أمور الناس على الشريعة.

قال: ولم يكن لمال المواريث الحَشْرية[1] حاصل، ولا لديوانه طائل، فجعل نور الدين ثُلُث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم، فوفَّرَه نوابه وكثَّروه، وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول: أنا قلدته على أن يتصرَّفَ بالمعروف. وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه في بناء الأسوار وحفظ الثغور، وكانت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور.

قلتُ: وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله[2] أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم رحمه الله، مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرَّ في أثناء الحديث أن النبيَّ ﷺ خرج متقلِّداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال: كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف! يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هُم على خلاف ذلك يربطونه بأوساطهم. قال: فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والنَّاس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلدٌ السيف وجميع عسكره

= السهروردي، الفقيه الصوفي، كان يدرس ويملي الحديث بالمدرسة النظامية ببغداد، ولد سنة ٤٩٠هـ، وتوفي سنة ٥٦٣هـ ببغداد، صنف «آداب المريدين» في التصوف والأخلاق (كشف الظنون ٥/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧. وفيات الأعيان ٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥. سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٧٥، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٧٣، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٦٥).

(١) المواريث الحشرية: قال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥٣٢: وهي مال من يموت وليس له وارث خاص، بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له.
وقال المقريزي في الخطط ١/ ١١١: وأما المواريث فإنها في الدولة الفاطمية لم تكن كما هي اليوم من أجل أن مذهبهم بتوريث ذوي الأرحام وأن البنت إذا انفردت استحقت المال بأجمعه، فلما انقضت أيامهم واستولت الأيوبية ثم الدولة التركية صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية، وهي التي يستحقها بيت المال.

(٢) هو الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الشافعي المعروف بزين الأمناء ابن عساكر. المتوفى سنة ٦٢٧هـ (انظر ترجمته في الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٢٧هـ).

كذلك. فرحمة الله على هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه وردَّ جنده عن عوائدهم، اتباعاً لما بلغه عن نبيّه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن.

ولقد بلغني أنه أمر بإسقاط ألقابه في الدعاء على المنابر، ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القَيْسَراني الشّاعر في منامه أنه يغسل ثيابه، وقصَّ ذلك عليه. ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول: ارحم العَشّار المكّاس. وبعد أن أبطل ذلك استجعل من الناس في حِلٍّ وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوِّ الإسلام. يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله تعالى فرداً في زمانه من بين سائر الملوك، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها، وإن اشتملت على ألفاظ قد أُغلظ له فيها. قرأتُ في «تاريخ إرْبِل»[1] لشرف الدين بن المُسْتَوْفي[2] رحمه الله: قال المنتجب الواعظ ـ هو أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد البحتري الواسطي، ورد إربل، ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زَنْكي بن آق سُنْقُر إلى الشام بسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملةً من مال فلم يقبلها وردَّها عليه. أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدةً عملها في نور الدين، وحلف أنه سمعها من لفظه ـ: [الكامل]

مثْلُ وقوفك أيها المغرور ... يومَ القيامةِ والسماءُ تمورُ
إن قيلَ نور الدين رحت مسلَّماً ... فاحذر بأن تبقى وما لَكَ نورُ
أَنَهَيْتَ عن شُرْبِ الخمور وأنت من ... كأسِ المظالم طافحٌ مخمورُ
عطَّلْتَ كاساتِ المُدام تعفُّفاً ... وعليكَ كاساتُ الحرامِ تدورُ

---

(١) تاريخ إربل: لأبي البركات مبارك بن أحمد بن المستوفي الإربلي، وهو كبير في أربع مجلدات سماه «نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل» (كشف الظنون ١/ ٢٨١).

(٢) هو المبارك بن أبي الفتوح أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي، شرف الدين أبو البركات الإربلي، الوزير المعروف بابن المستوفي، المتوفى بالموصل سنة ٦٣٧هـ، ومولده سنة ٥٦٤هـ. له من المصنفات: «أبو قماش» في الأدب جمع فيه من النوادر ما لا يحصى في مجلدين. «إثبات المحصل في نسبة أبيات المفصل»، «ديوان شعره»، «سر الصنيعة»، «كتاب في أحكام النجوم»، «نباهة البلد الحافل بما ورد من الأماثل» وهو كتاب تاريخ إربل، «النظام في شرح ديوان المتنبي وأبي تمام» في عشر مجلدات وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٣، معجم البلدان ١/ ١٣٨، وفيات الأعيان ٤/ ١٤٧ ـ ١٥٢، الأعلام ٥/ ٢٦٩).

ماذا تقولُ إذا نُقلت إلى البِلى فَرْداً وجاءك مُنْكَرٌ ونكيرُ
وتَعَلَّقَتْ فيك الخصومُ وأنت في يومِ الحساب مُسَحَّبٌ مجرورُ
وتَفَرَّقَتْ عنك الجنودُ وأنت في ضيق اللُّحود مُوَسَّدٌ مقبورُ
وَوَدِدْتَ أنك ما وَلِيْتَ ولايةً يوماً ولا قال الأنامُ: أميرُ
وبقِيْتَ بعد العزِّ رَهْنَ حُفيرةٍ في عالم الموتى وأنتَ حقيرُ
وَحُشِرْتَ عُرياناً حزيناً باكياً قَلِقاً وما لَكَ في الأنام مُجيرُ
أَرَضِيْتَ أَنْ تحيا وقَلْبُك دارسٌ عافي الخراب وجسمُك المعمورُ
أرضيت أن يحظى سواكَ بقُرْبِهِ أبداً وأنت مُبَعَّدٌ مهجورُ
مهِّدْ لنفسك حُجَّةً تنجو بها يومَ المَعاد لعلَّكَ المَعْذُورُ

قلتُ: ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحرِّكة إلى إبطال تلك المظالم، والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفَّق من رام الاقتداء به.

ونقلت من خَطِّ الصَّاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن أبي جَرَادة[1] في كتاب «تاريخ حلب»[2] الذي صنفه، وسمعتُ من لفظه، أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جَعْبر،

---

(١) هو عمر ابن القاضي مجد الدين أحمد بن هبة الله بن جرادة العقيلي، كمال الدين، أبو حفص (كذا في كشف الظنون: أبو حفص، وليس أبي القاسم)، المعروف بابن العديم، ولد سنة ٥٨٦هـ وتوفي سنة ٦٦٠هـ. من تصانيفه: «الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة»، «بغية الطلب في تاريخ حلب»، «تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد»، «الدواري في ذكر الذراري»، «رفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري»، «زبدة الحلب المنتخب من بغية الطلب»، له «ضوء المصباح في الحث على السماح»، «كتاب الخط وآدابه ووصف طروسه وأقلامه»، «منهاج في الأصول والفروع على مذهب أبي حنيفة»، «الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب» (كشف الظنون ٥/ ٧٨٧، وترجم له أبو شامة في «الذيل على الروضتين» في وفيات سنة ٦٦٠هـ).

(٢) هو كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب»، قال الذهبي في العبر: هو من نحو ثلاثين مجلداً، ثم انتزع منه كتاباً وسماه «زبدة الطلب». و«البغية» كتاب كبير في عشر مجلدات. والذيل عليه لأبي الحسن علي بن محمد بن سعد الحلبي الجبريني، المعروف بابن خطيب الناصرية، المتوفى سنة ٨٤٣هـ، رتب الأعيان على الحروف وسماه «بالدر المنتخب في تاريخ حلب»، ثم ذيله موفق الدين أبو ذر أحمد بن إبراهيم بن محمد الحلبي الشافعي سبط العجمي المتوفى سنة ٨٨٤هـ، وسماه «كنوز الذهب في تاريخ حلب» وضمنه ذكر الأعيان والحوادث معاً. ثم صنف الشيخ محمد بن إبراهيم بن يوسف الحنفي، المشهور بابن الحنبلي المتوفى سنة ٩٧١، تاريخاً باسم «در الحبب في تاريخ أعيان حلب» ضمنه أعيان المائة التاسعة (كشف الظنون ١/ ٢٤٩).

Marfat.com

وقُتِلَ عليها، قصد حلب وصَعِدَ قلعتها، وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأحسن إلى الرَّعية، وبثَّ العدل، ورفع الجَوْر، وأبطل البدع، واشتغل بالغزو، وفتح قلاعاً كثيرة من عمل حلب كانت بيد الفرنج، وحدَّث بحلب ودمشق عن جماعةٍ من العلماء أجازوا له، منهم: أبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السَّعْدي المِصْري[١]. روى عنه جماعةٌ من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد[٢]، وأبي البركات الحسن[٣]، وأبي منصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشَّافعي[٤].

قال: ووقفتُ على رُقعة بخطِّ الوزير خالد بن محمد بن نصر بن القَيْسَرَاني كتبها إلى نور الدين، وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور؛ فنقلتُ جميع ما فيها من خطيهما. قال: وكان رحمه الله كتب رقعةً يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما يُدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب وعما هو مخالف لحاله. ونسخة الورقة بخطِّ خالد: أعلى الله قدر المولى في الدارين، وبلَّغه آماله في نفسه وذُرِّيَّته، وختم له بخير في العاجلة والآجلة، بمنِّه وجوده، وفضله وحمده. وقف المملوك على الرُّقعة، وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه وعن والديه، وأن يسهِّلَ له السلوك إلى رضاه، والقُرْب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير. وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف، زاده الله شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى: اللهم أصلح عبدَك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المُعْتَصِم بقوَّتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنْكي بن آق سُنْقُر، ناصرَ أمير المؤمنين. فإن هذا جميعه لا يدخله كذبٌ ولا تزيُّد؛ والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرُّقعة بخطه ما هذا صورته: مقصودي ألَّا يُكذب على المنبر، أنا بخلافِ كل ما يقال، أفرح بما لا أعمل، قلة عقل عظيم! الذي كتبتَ جيد هو، اكتب به نسخ حتى نسيِّرَه إلى جميع البلاد. وكتب في آخر الرقعة: ثم يبدؤوا بالدعاء: اللهم أره الحقَّ حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم وفِّقه؛ من هذا الجنس.

---

(١) توفي سنة ٥٦١هـ. (طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٢٤).

(٢) هو تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن الحسن، المتوفى سنة ٦١٠هـ. ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين في وفيات سنة ٦١٠هـ.

(٣) تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٤) هو فخر الدين ابن عساكر، كان شيخ الشافعية في الشام، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين، في وفيات سنة ٦٢٠هـ.

Marfat.com

قال: وحدّثني والدي[١] قال: استدعانا نور الدين أنا وعمُّك أبو غانم[٢] وشرف الدين بن أبي عَصْرُون[٣] إلى الميدان الأخضر وأشهدَنا عليه بوقف حوانيت على سور حِمْص. فلما شهدنا عليه التفتَ إلينا وقال: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البِرّ والخير، دلُّونا عليه، وأشركونا في الثواب. فقال شرف الدين بن أبي عَصْرُون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحدٍ بعده فعل خير إلا وقد سبقَه إليه.

وقال: قال لي والدي: دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجرٌ موسر، فمات بها، وخلَّف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً. فكتب بعضُ مَنْ بحلب إلى نور الدين يذكر له أن قد مات هاهنا رجل تاجرٌ موسر، وخلَّف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين. وحسَّن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصَّغير، ويُرضى منه بشيء، ويمسك الباقي للخزانة. فكتب على رُقْعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمَّره الله، وأما الساعي فلعنه الله. وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضاً.

وحدّثني الحاج عمر بن سُنْقُر عتيق شاذبخت النُّوري قال: سمعت الطَّواشي[٤] شاذبخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسُنْقُرجا واقفَيْنِ على رأس نور الدين وقد صلى المغرب، وجلس وهو مفكّر فكراً عظيماً، وجعل ينكث بأصبعه في الأرض. فتعجَّبنا من فكره وقلنا: تُرى في أي شيء يفكر، في عائلته أو في وفاء دينه؟ فكأنه فَطِنَ بنا، فرفع رأسه فقال: ما تقولان؟ فقلنا: ما قلنا شيئاً.

---

(١) هو أحمد بن هبة الله بن أبي غانم، أبو الحسن بن العديم، كان يخطب بالقلعة في حلب أيام نور الدين، تولى القضاء سنة ٥٧٥هـ. وعزله صلاح الدين سنة ٥٧٨هـ، لأنه حنفي المذهب، والدولة شافعية، توفي سنة ٦١٣هـ. (معجم الأدباء ١٦/ ٣٥ ـ ٣٦).

(٢) أبو غانم: هو محمد بن هبة الله بن أبي غانم، خطيب جامع حلب، توفي سنة ٦٢٨هـ (معجم الأدباء ١٦/ ٣٤ ـ ٣٥).

(٣) هو عبد الله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون التيمي الحديثي الموصلي الفقيه الشافعي، نزيل دمشق، ولد سنة ٤٩٢هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٥، من تصانيفه: «إرشاد المغرب في نصرة المذهب»، «الانتصار لمذهب الشافعي»، «التنبيه في معرفة الأحكام»، «تيسير في الخلاف»، «الذريعة إلى معرفة الشريعة»، «رسالة في نفي قضاء الأعمى وجوازه»، «صفوة المذهب من نهاية المطلب لإمام الحرمين»، «فتاوى» «فوائد المهذب»، «مأخذ النظر» مختصر في الفرائض، «مرشد في الفروع»، «مسلسلات» في الحديث، «الموافق والمخالف». (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨).

(٤) الطواشي: هو الخادم من خواص السلطان، وكان للطواشي في دولته المكانة الجليلة، ومن الطواشية من كان أرباب الوظائف الخاصة بالسلطان (صبح الأعشى ٣/ ٥٥١ ـ ٥٥٢).

Marfat.com

فقال: بحياتي قولا لي. فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا: يفكر في عائلته أو في نفسه. فقال: والله إنني أفكر في والٍ ولّيتُهُ أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك. فبالله عليكم ـ وإلّا فخبزي عليكم حرام ـ لا تريان قِصَّة ترفع إليَّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها، وارفعاها إليّ.

وسمعتُ قاضي القضاة بهاء الدين الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم[١] قال: كان نور الدين ينفّذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر المَلّاء[٢] شيئاً يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه. وكان إذا قَدِمَ المَوْصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر المَلّاء. قال: وكان نور الدين لما صارتْ له المَوْصِل قد أمر كُمُشْتِكِين؛ شِحْنة المَوْصِل ألا يعمل شيئاً إلا بالشَّرْع إذا أمره القاضي به، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بأمر الشيخ عمر المَلّاء. قال: فكان لا يُعمل بالسياسة، وبطلت الشحنكية. فجاء أكابر الدَّوْلة وقالوا لكمشتكين: قد كَثُرَ الدُّعَّار وأربابُ الفساد، ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصَّلْب، فلو كتبتَ إلى نور الدين وقلتَ له في ذلك. فقال لهم: أنا لا أكتبُ إليه في هذا المعنى، ولا أجسر على ذلك، فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه. فحضروا عنده، وذكروا له ذلك، فكتبَ إلى نور الدين وقال له: إن الدُّعَّار والمفسدين وقُطّاع الطريق قد كثروا، ويُحتاج إلى نوع سياسة، فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أُخذ مالُ إنسانٍ في البرية مَنْ يشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه، وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخَلْقَ وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعةً، وهو أعلم بما يُصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شَرَعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجةٌ إلى زيادةٍ على ما شَرَعه الله تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر المَلّاء أهلَ المَوْصِل، وأقرأهم الكتاب وقال: انظروا في كتاب الزّاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد!

وسمعت صقر المُعَدَّل[٣] يقول: سمعت مقلَّداً ـ يعني الدَّوْلعي ـ يقول: لما مات الحافظ المُرادي[٤]، وكُنَّا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد، فمنا من

---

(١) هو ابن شداد، تقدمت ترجمته.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) هو صقر بن يحيى، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين، في وفيات سنة ٦٥٣هـ.

(٤) هو علي بن سليمان بن أحمد المرادي، القرطبي الشافعي، فقيه محدث، توفي في حلب سنة ٥٤٤هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٨٧ ـ ١٨٩، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون، وكان بالمَوْصِل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن نستدعي القُطْبَ النَّيْسَابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدَّس، ثم عاد إلى بلاد العَجَم، فوقع بيننا كلامٌ بسبب ذلك، ووقعت فتنةٌ بين الفقهاء. فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعةَ الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجدُ الدِّين ـ يعني ابنَ الدَّاية ـ عن لسانه وقال: نحن ما أردنا ببناءِ المدارس إلا نَشْرَ العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسنُ ولا يليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضي الطَّائفتين، ونستدعي شرفَ الدين بن أبي عَصْرُون، وقطبَ الدين النَّيْسَابوري. فاستدعاهما جميعاً، وولَّى مدرسة ابن أبي عَصْرُون لشرفِ الدين، ومدرسة النَّفْري لقُطْب الدين.

[نظر نور الدين في أمور الرعية]

قال: وعلقتُ أيضاً من خَطِّ فقيهٍ كان معيداً بالنِّظَامية يقال له: أبو الفتح بَنْجير بن أبي الحسن بن بَنْجير الأَشْتَرِي[1] ـ وكان ورَدَ دمشق، وجمع لنور الدين سيرة مختصرة ـ قال: كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العَدْل للنظر في أمور الرَّعية وكشف الظُّلامة، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً ولا زيادة ترجعُ إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، وطلباً للثواب والزُّلْفَى في الآخرة، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبَوَّاب حتى يصل إليه الضعيف والفقير، والقوي والغني، ويكلِّمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال. ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه، فيأمر بمساواته لها، فتغلب خصمها طمعاً في عدله، ويَعْجزُ الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحقُّ عنده فَيُجْري الله على لسانه ما هو موافقٌ للشَّريعة، ويسأل العلماءَ والفقهاء عما يُشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محضُ الشَّريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروفٌ إلى مصالح النَّاس، والنظر في أمور الرعية، والشفقة عليهم. وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء الرُّبُط والمدارس والمساجد حتى أن بلاد الشَّام كانت خالية من العلم وأهله،

---

(١) هو بنجير بن علي بن بنجير، أخذ عن الإمام أبي الفتح عبد الملك بن عبد الله الكروخي الهروي المتوفى سنة ٥٤٨هـ. توفي بنجير سنة ٥٧٩هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧٥).

Marfat.com

وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصُّوفية، لصَرف همته إلى بناء المدارس والرُّبُط وترتيب أمورهم، والنَّاس آمنون على أموالهم وأنفسهم، ولو لم يكن من هذه الخصال إلا ما علم منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أَوْعَدَ عفا، وإذا تحدَّث بشيء يقف عليه ولا يخالف قوله، ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لكفى. ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور، والشتم والغيبة، والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك؛ ولا يطمع في أخذ أموال الناس، ولا يرضى بأن يأخذ أحدٌ من أموال الشريعة شيئاً بغير حق.

قال: وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعةٍ يُعتمد على قولهم إنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها، وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصُّوفية الذين يُعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القُدْس للزيارة حكايةً عن الكفار أنهم يقولون: ابن القسيم له مع الله سِرٌّ؛ فإنه ما يظفر علينا بكثرة جُنْده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدُّعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل، ويرفع يده إلى الله ويدعو، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سُؤله، وما يردُّ يده خائبة، فيظفر علينا. قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدّثنا الشَّيخ داود المَقْدِسي، خادمِ قبر شُعَيْب، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرتُ في دار العَدْل في شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وخمسين، فقام رجلٌ وادَّعى على نور الدين الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالبٌ لك بذلك. فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أردُّ إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري. فمضى الرجل ليُحْضِر البيِّنَةَ، فقلت في نفسي: هذا هو العدل. قال: وحضر رجل زاهد فيه سمةُ الخير معروف بالسَّداد والصَّلاح، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البَيَان[1]. وكان قد أُودِعَ عند أخيه أبي البيان وديعة، وقد توفي، فادعى المودِع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبه بالرَّدِّ عليه، فأنكر هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حُكْمَ الشَّرع أن يحلف أنه لا علم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك، فجعل

(١) أبو البيان: هو نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي، المعروف بابن الحوراني، شيخ الطائفة البيانية المنسوبة إليه بدمشق، كان إماماً عالماً زاهداً، توفي في ربيع الأول سنة ٥٥١هـ. قال ابن السبكي في تاريخه: له تصانيف مفيدة ومجاميع حسان نظماً ونثراً (كشف الظنون ٦/ ٤٨٩).

Marfat.com

المودِع يشنّعُ عليه ويقول: إنه حلف كاذباً. ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التنمُّس[١] وغيره. فحضر عند الملك العادل شاكياً منه وذاكراً سيرته وطريقته، ومَنِ الذي يقدر أن يقول في حقي هذا. ويتعرَّض بالتماسه من الملك العادل التقدُّم بإحضاره والإنكار عليه فيما يقول في حقه. فلما فرغ من الكلام، ورمى ما كان في جَعْبته في دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الإنكار عليه. فقال الملك العادل: أليس أن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؟ فإذا كان هو يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل ما لا يجوز، فيجب عليك ألا تعمل معه مثل معاملته فتكونَ مثله، فكأنك قابلت الإساءة بالإساءة، ومن حقك أن تقابل الإساءة بالإحسان. فقلت في نفسي: الحقُّ ما قال الملك العادل، إمّا قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعة من التجار، وشكوا أن القراطيس كان ستونَ منها بدينار، فصار سبعةٌ وستون بدينار، وتزيد وتنقص، فيخسرون. فسأل الملكُ العادل عن كيفية الحال، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار، ولا يرى الدينار في الوسط، وإنما يعدُّون القراطيس بالسعر، تارةً ستين بدينار، وتارةً سبعة وستين بدينار، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدَّنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكليَّة. فسكت ساعة وقال: إذا ضربتُ الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنّي خَرَّبت بيوت الرعية، فإن كل واحد من السُّوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، أيش يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته. قال: فأي شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية!

قال: وحَضرَ صبيٌّ وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوسٌ على أُجرة حُجْرة من حُجَر الوقف. فسأل عن حاله. فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصُّوفي؛ وهو رجلٌ زاهد قاعد في حجرة الوقف، وليس له قدرة على الأُجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة. قال الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاساً. وذكروا سيرته وطريقته وفقره. فَرَقَّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها. وتقدَّم بذلك، وبإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان في حقه.

---

(١) التنمّس: أي النميمة والاحتيال.

Marfat.com

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي[١] قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكَرْدَري[٢] قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يُدعى سويداً يُحْضِر الخصوم إلى مجلس الحكم. فحضر بعضُ التجار، وادَّعى أن له على نور الدين دعوى. فقال الكَرْدَري لسويد المذكور: امضِ إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرِّفْه أنه حضر شخصٌ يطلب حضورَه. وكان نور الدين في الميدان، فجاء سويد إلى باب الميدان، فخرج إسماعيل الخِزَنْدار فوجده، فتقدَّم سويد إليه وقال: قد سيرني تاج الدين القاضي ـ وذكر أنه حضر تاجر، وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين ـ وقد أنفذني تاج الدين وقال لي كذا وكذا. فضحك إسماعيل الخِزَنْدار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئاً: يقوم المولى فقال: إلى أين؟ فقال: قد حضر سويد غلام تاج الدين الكَرْدَري وقال: إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم! فأنكر نور الدين على إسماعيل استهزاءه وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم! وقال نور الدين: يُحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويداً وقال له: امضِ إلى القاضي تاج الدِّين، وسلِّم عليه وقل له: إني جئتُ إلى هاهنا امتثالاً لأمر الشَّرْع، وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقَّة وفيها الأطيان؛ وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجَّهَتْ عليَّ يمين أحضر إن شاء الله. قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى، وتوجهت اليمين، فقال الكَرْدَري: قد توجهت اليمين فليحضر. فلما بلغ نور الدين ذلك، وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر، وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه.

---

(١) هو عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب بن الحسين الهاشمي، افتخار الدين الحلبي الحنفي المتوفى سنة ٦١٦هـ. له «شرح الجامع الكبير للشيباني» في الفروع، في مجلدات (كشف الظنون ٥/ ٦٢٢)، وترجم له أبو شامة في «الذيل على الروضتين» في وفيات سنة ٦١٦هـ.

(٢) هو عبد الغفور (وقيل عبد الغفار) بن لقمان بن محمد الخوارزمي الكردري، تاج الدين، أبو المفاخر، الفقيه الحنفي، قاضي حلب، المتوفى بها سنة ٥٦٢، من تصانيفه: «أصول الفقه»، «الانتصار لأبي حنيفة في أخباره وأقواله»، «حيرة الفقهاء في المسائل التي تحير في فهمها العلماء»، «شرح الجامع الصغير للشيباني»، «شرح الجامع الكبير» أيضاً، «شرح الزيادات» أيضاً للشيباني، «كتاب في بيان ألفاظ الكفر»، «المفيد والمزيد في شرح التجريد للكرماني» (كشف الظنون ٥/ ٥٨٧).

Marfat.com

[إبطال نور الدين للمكوس]

سمعتُ قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى لي السلطان الملك النَّاصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شِيركُوه ـ وكان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته ـ فقال: امضِ وقل لأسد الدين: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس. وَخُذْ رأيه في ذلك. قال: فجئت إليه وأنهيت إليه ما قال لي. فقال: امض وقل له: يا مولانا إذا فعلتَ ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم للغَزَاة وخروج العساكر؟ فقال السلطان صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمرٌ قد ألهمه الله إياه، فساعِدْه عليه. فصاح فيَّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك. قال: فعدت إلى نور الدين، فأنهيت إليه ما قال لي عمي، فقال: امض إليه وقل له: إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج. قال: فعدتُ إلى عمي وقلت له ما قال. فقال: قل له: إن تركوك تقعد فجيد هو. فراجعته في ألا يثبِّطه عن ذلك، فصاح فيَّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك. قال: فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مُدَّة، ثم أمضى ما كان عَزَمَ عليه.

قال لي صقر بن يحيى[1]: بلغني أن موفق الدين خالداً رأى في النوم كأنَّ نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين، فتمعَّر[2] وجه نور الدين، فخجل موفق الدين، وبقي أياماً على غاية من الخجل، فاستدعاه يوماً نور الدين وقال: تعال، قد آن لك أن تغسل ثيابي، اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين: إنني قد رفعتُ عنكم ما رفعه الله عنكم، وأثبتُّ عليكم ما أثبته الله تعالى عليكم. قال: فكتبَ موفق الدين توقيعاً.

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه[3] يقول: سمعت أبي يقول: لما كسر نور الدين؛ يعني كسرة البقيعة، تكلَّم البرهان البَلْخي[4] فقال: أتريدون أن تُنْصَروا وفي عسكركم الخمور والطُّبول والزمور! كلا. وكلاماً مع هذا. فلما سمعه

---

(١) هو صقر المعدّل، تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٢) تمعّر: أي تغيّر وعلته الصفرة.

(٣) هو شيخ ابن العديم، وتلميذ أبي بكر بن مسعود الكاساني صاحب كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع»، توفي خليفة في حلب سنة ٦٣٨هـ. (الجواهر المضيئة ٢/ ١٧٦).

(٤) هو علي بن الحسن بن محمد، برهان الدين، أبو الحسن، المتوفى سنة ٥٤٨هـ. وسيذكره المؤلف في وفيات سنة ٥٤٨هـ. (مرآة الزمان ٨/ ١٣٤ ـ ١٣٥، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧٦، الجواهر المضيئة ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦٢).

نور الدين قام، ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس، إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الإفرنج.

وسمعت صديقنا شمس الدين إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النُّوري[١] وكان أبوه أحد مماليك نور الدين وعتيقه ـ يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يَلْبَس في الليل مِسْحاً، ويقوم يصلِّي فيه قطعة من الليل. قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: ارحمِ العَثَّار المكَّاس.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سيَّر نور الدين إلى بغداد كتاباً يُعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدَّم إلى الوعاظ بأن يستجعلوا من التُّجَّار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه؛ يعني من أموالهم، فتقدَّم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

حدّثني رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر أن نور الدِّين حين خرج لأخذ شَيْزَر خرج أبو غانم بن المنذر صحبتَه، فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحَرَّان وسِنْجار والرَّحْبة وعَزَاز وتل باشر وعِدَاد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تَقَرَّبَ به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن عَلِمَ ضعفه من الرعايا، رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفَّار، أبادهم الله تعالى، عند استيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهمْ في العباد، رأفةً بالمسلمين المثاغرين[٢]، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمحنَهُمْ بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم، وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وأعاد عليهم ما اغتُصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العُمَريَّة، وأقرها في الدولة الإسلامية بعدما طرأ عليها من الظَّلَمة المتقدِّمين، واسترجعه بسيفه من الكَفَرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر، وهدم أركان التعدِّي، وأقر الحق مقرَّه. لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ

---

(١) هو إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النوري التونسي الصوفي الحنفي، شمس الدين، أبو طاهر. من تلاميذ الشيخ محيي الدين العربي. توفي في حدود سنة ٦٤٦. صنف: «تحفة التدبير لأهل التبصير» في الكيمياء، «شرح عمدة الحقائق للنسفي»، «كتاب الصلاة»، «كتاب النجاح من حجب الأشباح في شرح كل مشكل»، «لواقح الأسرار ولوائح الأنوار» في سبعة أجزاء (كشف الظنون ٥/ ٢١٢).

(٢) المثاغرون: أي سكان الثغور.

Marfat.com

عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٢]. ثم لما أعانه الله بعونه وأيَّدَه بنصره، وقمع به عادية الكُفْر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطَّاغية، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيلٍ غير مُقَاد، وهاربٍ ممنوع الرُّقاد، ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٨ ـ ٤٠]. عَلِمَ أَنَّ الدُّنيا فانية، فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى مُلْكَه الزَّائل بأن قدَّمه أمامه، وجعله ذُخراً للمَعَاد، فالتقوى مادة دارَّة إذا انقطعت المواد، وجادَّةٌ واضحة حين تلتبس الجواد ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]. فصفح لكافَّةِ المسافرين وجميع المسلمين بالضَّرَائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه، وحَرَّمها على كل متطاولٍ إليها، ومتهافتٍ عليها، تجنباً لإثمها، واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه ـ اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيِّه محمد ﷺ ـ في كل سنة من العين مائة ألف وستةً وخمسين ألف دينار، جهة ذلك: حلب خمسون ألفَ دينار، عَزَاز ـ عن مكس جدَّدته الفرنج، خذلهم الله، على المسافرين ـ عشرة آلاف دينار، تل باشر أحد وعشرون ألف دينار، المعرة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة ـ لمَّا استنجد به أهلها واستصرخ مَنْ فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدوِّ، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمُّونه الفسة ـ عشرون ألف دينار، حِمْص ستة وعشرون ألف دينار، حَرَّان خمسة آلاف دينار، سِنْجار ألف دينار، الرَّحبة عشرة آلاف دينار، عِدَاد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدَّق به وأجراه في سُبُل الخيرات ووجوه البِرِّ والصَّدَقات تقدير ثمنه مئتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار؛ من ذلك ما وقَفَه على المدارس الحنفية والشَّافعية والمالكية والحنبلية وأئمَّتها ومدرِّسيها وفُقَهائها، وما وقفه على آدُر الصُّوفية والرُّبُط والجسور والبيمارَسْتانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبيل في طريق الحجاز، وما وقفه على فَكَاك الأسرى، وتعليم الأيتام، ومقرِّ الغُرَباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعَبَّاسيين، وما ملَّكه لجماعةٍ من الأولياء والغُزَاة والمجاهدين. هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثُّغور حَرَسها الله تعالى من أملاكهم التي تقدَّم ذكرُها، فإنَّه يضاهي هذا المبلغ وزيادةً عليه، جعل ذلك ذريعةً عند الله تعالى وتقرُّباً إليه، مضافاً إلى ما أنفقه في الغَزَاة والجهاد، واستئصال شَأفة الكُفْر والعناد، من خزانته المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورة، طلباً لما عند الله ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥] فالواجب على كلِّ

Marfat.com

إمام عادل وسلطان قادر أن يَمُدَّه ويَوَدَّه، ويشدَّ عَضُدَه، ويقوِّي عزمه، وينفِّذَ حكَمه، وعلى كل مسلم أن يواصلَه بالدُّعاء، آناء اللَّيل وأطرافَ النهار، وكتب خادم دولته وغَذِيُّ نعمَته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي، غفر الله له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا المتعبِّدين، وكافَّةِ التجار والمسافرين، أحسن الله توفيقهم، وسدَّد إلى أغراض الخير تفويقَهُمْ. ليُشعروا بذلك من حضرهم من التُّجَّار، والمتردِّدين إليهم من السُّفَّار، ليعرفوا قَدْرَ ما أنعم الله به عليه وعليهم ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ويمدُّوه بأدعيتهم ويبرؤوا ذمته مما سبق من أَخْذِ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجه بِرٍّ، وتجهيزِ جيشٍ، ومعونة مجاهد، وردع كافرٍ ومعاند، فهم شركاؤه في الثَّواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنذر: فلما وقفَ نور الدين على قوله: ويبرؤوا ذمته مما سبق. استحسن ذلك كثيراً، ووعدَه بإقطاعٍ حسن، واتفق موته بعد ذلك.

قلت: ونقلت من خَطِّ الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخَضِر بن الحسين بن عَبْدَان الأزدي الدِّمَشْقي[1]: وقف المولى نور الدين بُستان الميدان سوى الغيضة التي من قبليْه بعد عمارته وإصلاح ما يحتاج إليه على تطييب المساجد التي يأتي ذكرها، وهي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعة دمشق، مدرسة الحنفية التي جدَّدها نور الدين، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية، مسجد ابن لبيد بالفسقار، مسجد سوق الرَّمَّاحين، المسجد المُعَلَّق بسوق الصَّاغة، مسجد دار البطيخ المعلَّق، مسجد العَبَّاسي بسوق الأحد، مسجد جدَّده نور الدين جوار بيعة اليهود، جامع الصَّالحين بجبل قاسيون. يبتاع بذلك طيب وعود ويُفَرَّق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً، جزءان للمدرسة، وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية، لكل مسجد جزءٌ واحد، تطيب هذه الأماكن في الأوقات الشريفة، ومواسم الاجتماعات، وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضاً أن نور الدين رحمه الله تعالى حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صَفَر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو

---

(١) في التكملة للمنذري ١/ ٩٣: أبو الحسين، ولد سنة ٥٢٠هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤هـ.

الحسن علي بن محمد بن يحيى القُرَشي[١]، والفقهاء: الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون[٢]، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد[٣]، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن الماسح[٤] الشأفعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهَّاب بن عيسى المالكي، وشرف الإسلام نجم بن عبد الوهَّاب الحنبلي[٥]، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمي؛ رئيس دمشق ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء؛ متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم: عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصَّائن أبو الحسين، وغيرهم. فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه، وأن يُظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به، ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحدٍ منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره، والسَّاكت منكم مُصَدِّقٌ للناطق ومصوِّب لقوله، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه وتشهدونَ به، وعلى هذا كان الصَّحابة رضي الله عنهم، يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين. فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارَسْتان، وقُنِيِّ السَّبيل وما يجري مع ذلك أن يَقْرَأ عليه بمحضر من

---

(١) هو والد أبي المعالي محمد بن علي بن محمد، المعروف بابن الزكي، صاحب أول خطبة جمعة في بيت المقدس بعد فتحها. ولد علي بن محمد سنة ٥٠٧هـ. تولى قضاء دمشق، ثم استعفى منه سنة ٥٥٥هـ. وأقام ببغداد حتى توفي سنة ٥٦٤هـ. (وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٦، سير أعلام النبلاء ٢/ ٥١٩).

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) هو الخضر بن شبل بن الحسين، عز الدين، أبو البركات، المعروف بابن عبد، ولد سنة ٤٨٦هـ، ودرّس الفقه وأفتى سنة ٥١٨هـ. وكان سديد الفتوى، ودرّس بالزاوية الغزالية في الجامع الأموي، وتولى الخطبة فيه، ودرّس في المدرسة المجاهدية الجوانية، ووقف له نور الدين مدرسته التي تلي باب الفرج. سمع منه القاسم ابن عساكر، ولزم درسه مرة، توفي سنة ٥٦٢هـ. (مرآة الزمان ٨/ ١٦٨، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٩٢، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٨٣).

(٤) كان فرضياً نحوياً، وله حلقة كبيرة بالجامع الأموي للإقراء والفقه والنحو، ولد سنة ٤٨٨هـ، وتوفي سنة ٥٦٢هـ (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨. طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢١٤). والماسح. هو من يتصدى لقياس أرض الزراعة، وهو فاعل من مسح الأرض يمسحها مساحة إذا ذرعها (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٨).

(٥) كان شيخ الحنابلة في وقته، ولد سنة ٤٩٨هـ، أفتى ودرّس وهو ابن نيف وعشرين سنة، توفي سنة ٥٨٦هـ، ودفن بسفح قاسيون، (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٠٣).

Marfat.com

المذكورين ضريبة الأوقاف موضعاً موضعاً ليفرد ما يعلمون أن للمصالح دون الوَقْف. فافتتح بالسُّوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارَسْتَان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين، وليس من وقفِ الجامع؛ لأنه أُحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أوفى مما غرم على عمارته من وقفه. فصدَّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عَيَّنَ للمصالح أيضاً ما في زيادة الجامع القبلية، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشَّامي من العضائد والحوانيت والحُجَر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت في الخَوَّاصين في الصف الغربي، واثنا عشر حانوتاً متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدَّة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي وعدتها ثلاثة عشر حانوتاً، ومصطبة وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي بلصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفُقَّاعي، وحوانيت اللَّبادين، والتي بحضرة الفَوَّارة، وتحت اللَّبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب دَرْب التَّمَّارين، وحانوت بقنطرة الشَّمَّاعين في الصف الشَّامي بحضرة البياطرة، وقطعة جوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمسة عشر عضادة، وستة أسهم من طاحونة السقيفة. وذلك كلُّه بعضه ميراثٌ عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشْتُري بمالِ الوقف والمصالح، وبعضه أُخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم ولم يكن له مال، وبعضه أُحدث في الطريق. قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح قال نور الدين: إن أهمَّ المصالح سَدُّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم. فصوَّبوا ما أشار إليه، وشكروه. ثم سألهم عن فواضل الأوقاف، هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين؟ فأفتى شرف الدين عبد الوَهَّاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّي في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون الشَّافعي: لا يجوز أن يُصْرَفَ وقفُ مسجدٍ إلى غيره، ولا وقف مُعَيَّن إلى جهةٍ غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدٌّ من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه مَنْ إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح،

Marfat.com

ويكون القضاء واجباً من بيت المال. فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابنُ أبي عَصْرُون نورَ الدين: هل أُنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكَلّاسة من شام الجامع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع، وعلى الرَّصَاص المعمول على سطح الرواق الشَّامي من الجامع، وسائر العمارات المتعلِّقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نورُ الدين: لم تُنْفِقْ ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمرتُ به وبفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكنتَ مبلغاً عني ومؤدياً أمري.

قلت: هذا مختصرُ المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس، وهو مشتملٌ على فوائد حسنة، وتأكيد لما نُقِلَ من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة. وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين. وصورة ما كتبه المالكي المفتي: حضرت المجلس المذكور ـ عمره الله وَزَيَّنه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه ـ وشهدت على ما تضمَّنه من المشورة المباركة، وما نسب إلى الجماعة الشهادة به من المواضع المشهورة كما نسب إليهم، وقد أخلَّ بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح، وما نسب إليَّ من الفتوى فقد كنتُ قَيَّدْته بالحاجة وفراغِ بيت المال، أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهمَّاتهم الدينية، كتبه عبد الوَهَّاب بن عيسى بن محمد المالكي.

فصل

[مدائح في نور الدين]

وقد مُدح نور الدين رحمه الله بأشعارٍ كثيرة، وأوصافه فوقَ ما مُدِحَ به. وكان في أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير[1]، وأبو الحسن أحمد بن منير[2]، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملةٌ منها في مواضعها. وقد رأيتُ أن أُقدِّم منها شيئاً هنا.

(١) هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، توفي سنة ٥٤٨هـ. له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٩٦ ـ ١٦٠. وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) هو أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح، مهذب الدين، أبو الحسين (وليس أبي الحسن، كما سماه هنا المؤلف)، الطرابلسي الشاعر، نزيل حلب، ولد سنة ٤٧٣هـ، وتوفي سنة ٥٤٨هـ، ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٥/ ٨٤، وله ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٧٦ ـ ٩٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

Marfat.com

المذكورين ضريبة الأوقاف موضعاً موضعاً ليفرد ما يعلمون أن للمصالح دون الوَقْف. فافتتح بالسُّوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارَسْتَان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين، وليس من وقفِ الجامع؛ لأنه أُحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أوفى مما غرم على عمارته من وقفه. فصدَّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عَيَّنَ للمصالح أيضاً ما في زيادة الجامع القبلية، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشَّامي من العضائد والحوانيت والحُجَر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت في الخَوَّاصين في الصف الغربي، واثنا عشر حانوتاً متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدَّة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي وعدتها ثلاثة عشر حانوتاً، ومصطبة وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي بلصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفُقَّاعي، وحوانيت اللَّبادين، والتي بحضرة الفَوَّارة، وتحت اللَّبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب دَرْب التَّمَّارين، وحانوت بقنطرة الشَّمَّاعين في الصف الشَّامي بحضرة البياطرة، وقطعة جوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمسة عشر عضادة، وستة أسهم من طاحونة السقيفة. وذلك كلُّه بعضه ميراثٌ عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشْتُري بمالِ الوقف والمصالح، وبعضه أُخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم ولم يكن له مال، وبعضه أُحدث في الطريق. قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح قال نور الدين: إن أهمَّ المصالح سَدُّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم. فصوَّبوا ما أشار إليه، وشكروه. ثم سألهم عن فواضل الأوقاف، هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين؟ فأفتى شرف الدين عبد الوَهَّاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّي في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون الشَّافعي: لا يجوز أن يُصْرَفَ وقفُ مسجدٍ إلى غيره، ولا وقف مُعَيَّن إلى جهةٍ غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدٌّ من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه مَنْ إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح،

Marfat.com

ويكون القضاء واجباً من بيت المال. فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابنُ أبي عَصْرُون نورَ الدين: هل أُنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكَلَّاسة من شامِ الجامع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع، وعلى الرَّصَاص المعمول على سطح الرواق الشَّامي من الجامع، وسائر العمارات المتعلِّقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نورُ الدين: لم تُنْفِقْ ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمرتُ به وبفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكنتَ مبلغاً عني ومؤدياً أمري.

قلت: هذا مختصرُ المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس، وهو مشتملٌ على فوائد حسنة، وتأكيد لما نُقِلَ من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة. وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين. وصورة ما كتبه المالكي المفتي: حضرت المجلس المذكور ـ عمره الله وَزَيَّنه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه ـ وشهدت على ما تضمَّنه من المشورة المباركة، وما نسب إلى الجماعة الشهادة به من المواضع المشهورة كما نسب إليهم، وقد أخلَّ بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح، وما نسب إليَّ من الفتوى فقد كنتُ قَيَّدْته بالحاجة وفراغِ بيت المال، أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهمَّاتهم الدينية، كتبه عبد الوَهَّاب بن عيسى بن محمد المالكي.

فصل

[مدائح في نور الدين]

وقد مُدح نور الدين رحمه الله بأشعارٍ كثيرة، وأوصافه فوقَ ما مُدِحَ به. وكان في أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير[1]، وأبو الحسن أحمد بن منير[2]، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملةٌ منها في مواضعها. وقد رأيتُ أن أُقدِّم منها شيئاً هنا.

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، توفي سنة ٥٤٨هـ. له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٩٦ ـ ١٦٠. وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) هو أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح، مهذب الدين، أبو الحسين (وليس أبي الحسن، كما سماه هنا المؤلف)، الطرابلسي الشاعر، نزيل حلب، ولد سنة ٤٧٣هـ، وتوفي سنة ٥٤٨هـ، ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٥/ ٨٤، وله ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٧٦ ـ ٩٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

Marfat.com

قرأتُ في «ديوان محمد بن نَصْر القَيْسَرَاني»: كتب إلى نور الدين: سلام الله وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على مَنْ عصم ثغر العواصم، وخصم بحجَّته الدَّهر المخاصم، وألجم بهيبته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل الله سيوفَ الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العُبَّاد والزُّهّاد، واهتدى إلى طاعة الله وليس غير الله من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال مَلَكته[1]، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النَّضر، وممالك الإسلام متوَّجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأَزِمَّة القهر، ومن رأى الحِكَمَ دارسة فبنى مدارسها، والهممَ يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة[2] فأمكن من صَهَوَاتها فوارسَها؛ ومن عمر رَبْعَ[3] السُّنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن مَنْ كان منها على شفى، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيَّام العَدْل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ النَّاسُ به من الزمان توقيع الأمان: [الخفيف]

ذو الجِهَادَيْنِ مِنْ عدوٍّ ونَفْسٍ ... فهو طول الحياةِ في هَيْجاءِ
أيها المالكُ الذي ألزم النَّا ... سَ سلوكَ المحجَّة البيضاءِ
قد فَضَحْتَ الملوكَ بالعَدْل لَمَّا ... سِرْتَ في النَّاس سيرةَ الخُلَفاءِ
قاسماً ما مَلَكْتَ في النَّاس حتى ... لقسمت التُّقَى على الأتقياءِ
شيم الصَّالحين في جنَنِ التُّر ... ك[4] وكم من سكينةٍ في قَباءِ
أنتَ حيناً تقاس بالأسد الوَرْ ... دِ وحيناً تُعَدُّ في الأولياءِ
صاغك الله من صميم المعالي ... حيث لا نسبة سوى الآلاءِ
وكأنَّ القَباء منكَ لما ضمَّ (م) ... مِنَ الطُّهْرِ مَسْجِدٌ بقُباءِ
أنت إلَّا تكنْ نبياً فما فا ... تَك إلَّا خلائقُ الأنبياءِ
رأفةٌ في شهامةٍ وعفافٌ ... في اقتدارٍ وسَطْوَةٌ في حياءِ
وجمالٌ ممنطقٌ بجلالٍ ... وكمالٌ مُتَوَّجٌ ببهاءِ
وإذا ما الملوكُ خافت سهام الذَّ (م) ... مِّ زَرَتْ عليك درع الثَّناءِ

(١) ملكته: أي عبيده.
(٢) شامسة: شمس اليوم ونحوه شموساً: ظهرت شمسه، أو قويت، وشمست الدابة شموساً: جمحت ونفرت.
(٣) الربع: المنزل والدار والوطن.
(٤) جنن الترك: أي دروع الترك. والجُنن: مفردها جُنَّة، وهي الدرع.

Marfat.com

عَجِبَ النَّاس منك أنك في الحر ... بِ شهابُ الكتيبة الشَّهْبَاءِ
وكَأَنَّ السيوفَ من عَزْمِكَ الما ... ضي أفادتْ ما عندها من مَضَاءِ
وَلَعَمْرِي لو استطاع فَدَاكَ الـ ... ـقومُ بالأمَّهات والآباءِ

وله فيه: [الكامل]

للَّهِ عَزْمُكَ أي سيفٍ وَغَى ... طُبِعَتْ مضارِبُه على القَهْرِ
ما زُفَّتِ الحربُ العَوَانُ[1] به ... إلَّا انجلتْ عن مَعْقِلٍ بِكْرِ
هل وَجْهُ نور الدين غير سنًى ... صَدَعَ الدُّجى عن خَجْلَةِ البَدْرِ
ملكٌ مهابتُه طليعتُه ... أبداً أمامَ جيوشِهِ تَسْرِي
كم فَلَّ كيدَهم بصاعقةٍ ... شَغَلَتْ قلوبَهُمُ عن الفِكْرِ
تركتْ حصونَهُمُ سجونَهُمُ ... فالقومُ قبل الأسر في أَسْرِ
عَصَمَ العَواصِمَ فهي ضاحكةٌ ... تجلو الظُّبى ثَغْراً على الثَّغْرِ
وإذا سرايا خَيْلِهِ قَفَلَتْ ... نَهَضَتْ سرايا الخوفِ والذُّعْرِ
ورمى القِلاعَ بمثلِ جَنْدَلِها ... حتى استكانَ الصَّخْرُ بالصَّخْرِ
يا سائلي عن نَهْجِ سيرتِهِ ... هل غيرُ مَفْرِقِ هَامة الفَجْرِ
عَدْلٌ حقيقٌ مَنْ تأمَّلَه ... أن يُحْيِيَ العُمَرَيْن بالذِّكْرِ
وشهامةٌ في الله خالصةٌ ... عَقَدَتْ عليه تمائمَ الأَجْرِ
وندًى يدٍ ما ضَرَّ وارِدَها ... ألَّا يبيتَ مجاورَ البَحْرِ
هذا المخيِّم في ذُرا حَلَبٍ ... وثناؤه أبداً على ظَهْرِ

وله فيه وقد وصف داره: [السريع]

دار تَغَارُ الشَّمْسُ في أفقها ... من حُسْنِها والشمسُ مِغْيارُ[2]
يزأَرُ فيها ضَيْغَمٌ ما لَه ... غير سيوف الهندِ أَظْفارُ
تمسي وتُضْحي وهو جارٌ لها ... والله ذو العَرْشِ له جارُ
لسيفه الباترِ من دَهْره الـ ... ـجائرِ ما يَهْوَى ويختارُ
قد ملأ الأسفارَ من ذِكْره ... نَشْرٌ له في الرَّوْضِ إسفارُ

(١) الحرب العوان: الحرب التي يتكرر فيها القتال.
(٢) مغيار: أي شديدة الغيرة.

Marfat.com

حَمْدٌ يَضُوعُ الجوُّ من طيبه كأنما راويهِ عَطَّارُ
إنْ خَطَرَتْ في قلبه خطرةٌ أجابها ماضٍ وخَطَّارُ(١)
وإن دعا داعيه يومَ الوغى سيوفَه لبَّتْه أقدَارُ
كأنما صارمه مُرْسَلٌ له من التأييد أنصارُ
يا مالك الدُّنيا ولكنَّها دنيا لها في الدين آثارُ
ويا جواداً ما لآلائه غيرَ فضاء الحمد مِضْمارُ

وله فيه: [الوافر]

تداركَ مِلَّةَ العربيِّ ذَبًّا إلى أنْ عَدَّه منه مَعَدُّ
وحَلَّ ذُرى العَوَاصِم وهي نُهْبَى فأجلى الشِّرْكَ حتى ليس ضِدُّ
ثنى يدَه عن الدُّنيا عفافاً ومال بها عن الأموال زُهْدُ
رأى حَطَّ المكوس عنِ الرَّعايا فأهدَرَ قَبْلُ ما أنشاه بَعْدُ
ومدَّ لها رِوَاقَ العَدْلِ شِرْعاً وقد طُوِيَ الرِّواقُ ومن يَمُدُّ
وبات وعند باب العَرْشِ منها لدولتِهِ دعاءٌ لا يُرَدُّ

وله فيه: [الخفيف]

مَلِكٌ أشبه الملائكَ فَضْلاً وشبيه بمالكِ الأمرِ جُنْدُهْ
عَمَّ إحسانُه فأصبحَ يُتْلى شكرهُ في الورى ويُدْرَسُ حَمْدُهْ
فَسَقَى الله ذِكْرَه أينما حلَّ (م) ولا فاتَه مِنَ النَّضْرِ رِفْدُهْ

وله: [الكامل]

ضحكت تباشيرُ الصَّباح كأنَّها قَسَماتُ نور الدين خير النَّاسِ
المشتري العُقْبَى بأنْفَسِ قيمةٍ والبائع الدُّنيا بغير مِكاسِ
وسرى دعاءُ الخَلْقِ يحرس نَفْسَه إن الدُّعاء يُعَدُّ في الحُرَّاسِ
راض الخطوب الصُّمَّ بعد جماحها وألانَ من قلبِ الزَّمان القاسي
وأعاد نورَ الحقِّ في مِشْكاته وأقام وَزْنَ العَدْلِ بالقِسْطاسِ
واختار مجدَ الدِّين سائسَ مُلْكه فحمى الرِّياسة منه طودٌ راسي
فهو الخبيرُ بكلِّ داء مُعْضِلٍ يأسو جراحَ زماننا ويواسي
وأذلَّ سُلْطان النِّفاق بعزَّة خضعت لها الآساد في الأخياس(٢)

---

(١) الماضي: السيف القاطع، والخطّار: الرمح.
(٢) الأخياس: مفردها خيس، وهو موضع الأسد، وتأتي أيضاً بمعنى المجتمع من كل شجر.

Marfat.com

وَعَرَتْه أقرانُ الخُطُوبِ فَصَدَّها ... ألوى يمارسُها أشدَّ مِرَاسِ
ولو أنَّ فَيْضَ النِّيل فائض نَيْلِهِ ... لم تفتقر مِصْرٌ إلى مِقْياسِ
سكَّنْتَ شَغْبَ الدَّهر بعد تخمُّطٍ[1] ... وألَنْتَ مِنْ عِطْفيه بعد شِماسِ
وفتحتَ بابَ الحظِّ بعد رِتاجه ... وأذِنْتَ للأطماع بعد الياسِ
حتى منحتَ الخلقَ كلَّ مَسَرَّةٍ ... فالنَّاسُ في عُرْسٍ من الأعراسِ

وله: [الكامل]

سام الشَّآم ويا لها من صَفْقَةٍ ... لولاه ما عنَّتْ على يد سائمِ
وَلَشَمَّرَتْ عنها الثُّغور وأصبحتْ ... فيها العواصم وهي غيرُ عواصمِ
تلك التي جَمَحَتْ على مَنْ راضَها ... ودعوْتَ فانقادَتْ بغير شكائمِ[2]
وإذا سعادتك احتَبَتْ في دولةٍ ... قامَ الزَّمانُ لها مقامَ الخادمِ
حصِّنْ بلادك هيبةً لا رهبةً ... فالدِّرْع من عُدَدِ الشجاع الحازمِ
هيهاتَ يَطْمَعُ في محلِّكَ طامعٌ ... طال البناءُ على يمين الهادمِ
كلَّفْتَ هِمَّتَكَ السُّمُوَّ فحلَّقَتْ ... فكأنما هي دعوةٌ في ظالمِ
وأظن أنَّ النَّاس لما لم يَرَوْا ... عَدْلاً كعدلك أزْجَفُوا بالقائمِ[3]

وله: [السريع]

قلتَ بقولِ اللَّهِ لا خائفاً ... مَعْ حَكَمِ القرآن حُكْمَ القِرانْ[4]
لا رَاقِبَ النَّجْم ولا سائلاً ... ما فعلَ السَّعْدَانِ والنَّيرانْ
بل غِرْتَ للإسلام حتى لقد ... دانَ له من بالطَّواغيت دانْ
رُعْتَ نواميس نواقيسها ... بجَلْبَةِ الآذان وقتَ الأذَانْ
تمحو تصاوير الدُّمَى عن يدٍ ... تبني المحاريبَ خلالَ المَجَانْ[5]
هذا وكم أنشأتَ من مِنْبَرٍ ... فارسُه فارسُ سِحْرِ البيانْ
مَنْ نال بالإخلاص ما نِلْتَه ... كان من الله مكينَ المكانْ
يا شائماً بالشَّام صَوْبَ الحيا ... ودانياً من كلِّ قاصٍ ودانْ

(١) التخمط: الاضطراب.
(٢) الشكائم: مفردها شكيمة، وهي في اللجام، الحديدة المعترضة في فم الفرس.
(٣) القائم: هو المهدي المنتظر.
(٤) القران: هو كسوف الشمس، وهو وجود القمر بين الشمس والأرض.
(٥) المجان: جمع مجن، وهو الترس.

Marfat.com

هـذي سُـجُـوف الـمـلـك مـرفـوعـةً عـن مـلـكٍ أخـبـاره كـالـعِـيَـانْ
أوضـح سُـبْـلَ الـعَـدْلِ مُـفْـتَـنَّـةً فـلـلـبـرايـا بـالـدُّعـاء افـتـنـانْ
أَلْـغَـى حـقـوقـاً كـلُّـهـا بـاطـلٌ إلـى ضـمـانٍ حـطّ مـال الـضَّـمـانْ
عـطـفـاً ورِفـقـاً بـالـرَّعـايـا وإن أصـبـح تـأديـبَ مـلـوكِ الـزَّمـانْ
كـم بـيـنَ مَـنْ نَـامَ عـلـى نـشـوةٍ وسـاهـدٍ فـي صـهـوةٍ مـن حِـصـانْ
فـي كـلِّ يـومٍ يـبـتـنـي سـيـفُـه بـبـلـدةٍ بِـكْـرٍ وأُخـرى عَـوَانْ

وقرأتُ في ديوان أحمد بن منير الطَّرابُلُسي من قصائدَ يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى: [المتقارب]

يـا مـحـيـي الـعَـدْل ويـا مُـنْـشِـرَه من بيـن أطـبـاقِ الـبِـلـى وقـد هَـمَـدْ
وركـنَ الإسـلام الـذي وَطَّـده طـالَ وأرسـى الـعِـزَّ فـيـه وَوَطَـدْ
وشـارعَ الـمـعـروفِ إذ لا شـفـةٌ تـجـنـحُ لـلـقَـوْل ولا تـشـمـخُ يَـدْ
مـحـوتَ مـا أثـبـتَـهُ الـجَـوْرُ مـضـى عـلـيـه إخـلادُ الـلَّـيـالـي فَـخَـلَـدْ
مِـنْ كُـلِّ مـكَّـاسٍ يـظـلُّ قـاعـداً لِـمَـا يـسـوءُ الـمـسـلـمـيـنَ بـالـرَّصَـدْ
كـانـتْ لأرجـاسِ الـيـهـودِ دولـةٌ أزالـهـا مـنـك الـهَـصُـور ذو الـلِّـبَـدْ
الـمـلـك الـعـادل لـفـظٌ طـابـقَ الـ ـمـعـنـى وفـي الـوَصْـفِ مُـعَـارٌ مُـسْـتَـرَدْ
خَيْرُ النُّعوت ما جرى الوصفُ على صفحتِه جَرْيَ النَّسيم في الوَمَدْ[1]
عَـدْلٌ جـنـيـتَ الـيـومَ حُـلْـوَ رَيْـعِـهِ وسـوفَ يُـجـنـى لـك أحـلـى مـنـه غَـدْ
لا زالَ لـلإسـلامِ مـنـك عُـدَّةٌ تـقـيـمُ مـنـه كـلَّ زَيْـغٍ وَأَوَدْ
الـنَّـاسُ أنـتَ والـمـلـوك شَـرَط[2] تُـعَـدُّ لـيـثـاً ويُـعَـدُّونَ نَـقَـدْ[3]
مـثـلـكَ لا يـسـخـو بـه زمـانُـهُ وَمِـثْـلَ مـا أُوتـيـتَ لـم يُـؤْتَ أَحَـدْ

وله: [المتقارب]

أيـا نـورَ دَيْـنٍ خَـبـا نـورُه وَمُـذْ شـاعَ عَـدْلُـكَ فـيـه اتَّـقَـدْ
رآك الـصَّـلـيـبُ صـلـيـبَ الـقـنـاة أمـيـنَ الـعِـثَـار مـتـيـنَ الـعَـمَـدْ
تـهـمُّ فـتـسـلُـبـه مـا اقـتـنـى وَتَـذْأى فَـتُـشْـكِـلُـه مـا اخْـتَـشَـدْ[4]

(١) الومد: ندى يجيء من البحر في شدة الحر وسكون الريح.
(٢) الشرط، محركة: الدون من الناس.
(٣) النقد: جنس من الغنم قصار الأرجل، قباح الوجوه، يقال: هو أذل من النقد.
(٤) ذأى يذأى: أي مرّ مراً خفيفاً سريعاً.

زَبَنْتَهُمُ[١] أمس عن صَرْخَدٍ ... فَفَضُّوا كأنَّ نَعَاماً شَرَدْ
ويومَ العُرَيْمَةِ[٢] أقبلتهم ... عُراماً تثعلَبَ منه الأَسَدْ
جَنَبْتَ مليكَهُمُ في الصَّفَاد[٣] ... وعفوكَ عنه أَعَمُّ الصَّفَدْ[٤]
وقَبْلُ أَزَرْتَهُمُ في الرُّها ... موازق مَزَّقْنَ جُرْدَ الجَرَدْ
بقيتَ ترقَّعُ خَرْقَ الزَّمانِ ... قياماً لأبنائه إن قَعَدْ
تثقَّفُ من زيغه ما التَوَى ... وتصلِحُ من طبعِهِ ما فَسَدْ

وله: [الطويل]

أيا ملكَ الدُّنيا الحُلاحِل[٥] والذي ... له الأرضُ دارٌ والبريَّة أَعْبُدُ
وليستْ بدعوى لا يقوم دليلُها ... ولكنَّه الحقُّ الذي ليس يُجْحَدُ
أخو غَزَواتٍ كالعقُودِ تناسَقَتْ ... تَحُلُّ بأجيادِ الجياد وتُعْقَدُ
لسانٌ بِذِكْرِ الله يكْسُو نهارَه ... بهاءً وجَفْنٌ في الدُّجى ليس يَرْقُدُ
وبَذْلٌ وعَذْلٌ أغرقا وتألَّقا ... فلا الوِرْدُ مثمودٌ[٦] ولا البابُ مُوْصَدُ
مَرَامٌ سمائيٌّ وحَزْمٌ مُسَدَّدٌ ... ورأيٌ شِهابيٌّ وعَزْمٌ مُؤَيَّدُ

وله: [الكامل]

أبداً تَنَكَّبُ عن ضلالٍ سادراً ... بثقوب زَنْدِكَ أو تدلُّ على هُدَى
سُدْتَ الكُهولَ مِنَ الملوكِ مراهِقاً ... وشأوت شِيبَهُمُ البوازِلَ أَمْرَدا[٧]
إنْ شَيَّدوا صَرْحاً[٨] أنافَ منارةً ... أو أَسْجَدُوا للكأس جَدَّد مَسْجِدا
وإذا استهزَّتْهُمْ قلائدُ مَعْبَدٍ[٩] ... هَزَّتْهُ موعِظَةٌ فَعَرَّفَ مَعْبَدا

---

(١) زبنتهم: أي دفعتهم.
(٢) يوم العريمة: هو يوم افتتح نور الدين حصن العريمة سنة ٥٤٣هـ. وسيأتي على ذكر هذا اليوم المؤلف في أحداث سنة ٥٤٣هـ.
(٣) جنبت مليكهم في الصفاد: يقال: جنب الأسير: أي قاده إلى جنبه، والصفاد: ما يوثق به الأسير من قيد وغل.
(٤) الصفد: العطاء والمنحة.
(٥) الحلاحل: السيد في عشيرته، الشجاع الركين في مجلسه.
(٦) مثمود: يقال: ثمد الماء ثمداً: قلّ فهو ثمدٌ.
(٧) شأوت شيبهم: أي سبقتهم. والبوازل: الطاعنون في السن. من بزل البعير: إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة، وليس بعد البازل سن تسمى.
(٨) شيدوا صرحاً: أي قصراً.
(٩) معبد: هو معبد بن وهب، أبو عباد المدني، من أكبر المغنين في العصر الأموي، توفي سنة ١٢٦هـ، (الأغاني ١/ ٣٦ ـ ٥٩).

Marfat.com

قسماً لشَامَ الشَّامُ منك مُهَنَّداً ... أرضاه مشهوراً وراعَ مُقَلَّدا
وَتَمسَّك الإسلامُ منكَ بعروةٍ ... اللَّهُ أَبْرَمَ حبلَها فاستصحدا[١]
أشفى فكنتَ شفاءه من حادثٍ ... غاداه عارِضُه مُرَدَّى بالرَّدى
كنتَ الصَّباحَ لليلِهِ لمَّا دَجا ... والغوث كفَّ لظاه حين توقَّدا
للَّهِ يومٌ أطلعتكَ به النَّوَى ... تجتابُ[٢] من مُهَجِ الأصافر[٣] مِجْسَدَا[٤]
نشوانُ غنَّتكَ الظُّبى مفلولةً ... وأمالَ عِطْفَيْكَ الوشيح[٥] مُقَصَّدا[٦]
في مَعْرَكٍ ما قام بأْسُكَ دُونَه ... إلا أقامَ المشركينَ وأَقْعَدَا
ولكَمْ مَكَرٌ قُمْتَ فيه مُعلِّماً ... أَرْضى إلهكَ والمسيحَ وأَحْمَدا
يوم العُرَيمة والخطيم وحارم ... وشِعاب باسوطا وهاب وصَرْخَدَا
لا يَغْدَمِ الأشراكُ حدَّك إنَّه ... ما سُلَّ فيهم حاكماً إلا اعتدى
أَهمَدْتَهُمْ مِنْ بعد ما ملؤوا الملا ... زَجَلاً فهل كانتْ سيوفُكَ مُرْقِدا[٧]؟
طَلَعَتْ نجومُ الحقِّ مِنْ آفاقها ... وأعادها كَرُّ العُصُورِ كما بَدَا
وهوى الصَّليبُ وحزبُه وتبختر الـ ... ـإسلامُ مِنْ بعد التَّسافُفِ أغيدا
سَبْقَ المجلِّي للخَطيِّ فَرَفْعُهُ ... نَسَقٌ بثُمَّ وقد رُفِعْتَ بالابتدا

وله: [الكامل]

محمودُ المُرْبي على أسلافه ... إن زادغي حَسَبِ الحسيبِ نِجارُ
مَلِكٌ إذا تُلِيَتْ مآثرُ قومِهِ ... كَسَدَ اللَّطيم وهُجِّنَ النُّوَّارُ[٨]
ملأَ الفِرَنْجَةَ جَوْرُ سيفكِ فيهمُ ... فلهم على سِيْفِ المحيط جُؤَارُ[٩]
يوماً يُزيرك جونَ عِرْقة معلماً ... جونٌ له خَلْفَ الدُّروبِ أُوارُ
ويجرُّ في الأُرْدُنِّ فَضْلَةَ ذَيْلِهِ ... نَقْعٌ بأكناف الأرنط مُثَارُ

---

(١) فاستصحدا: كذا في الأصل، ولعلها: فاستحصدا، أي استحكم، ومنه: حبل محصد: أي محكم مفتول.
(٢) تجتاب: تقطع.
(٣) الأصافر: أي بنو الأصفر، وهم الصليبيون وكان العرب يسمون الروم بني الأصفر.
(٤) المجسد: القميص الذي يلي البدن.
(٥) الوشيح: كذا بالأصل، ولعله الوشاح: وهو السيف والقوس.
(٦) مقصّدا: أي مستوياً بين غير مشرف ولا ناقص.
(٧) الملا: الفلاة. وزجلاً: أي صوتاً، والمرقد: شراب يشرب فينوم من شربه ويرقده.
(٨) اللطيم: المسك. وهجّن: قُبّح. والنوّار: كالنور، وهو الزهر.
(٩) سيف المحيط: أي ساحل المحيط، وجؤار: صياح وعويل.

Marfat.com

إمـا يـبـيـحُ حـريـمَ أنـطـاكـيَّـةٍ ... أو يَـفْـجَـأُ الـدَّاروم مـنـكَ دمـارُ
عـفـى جِـهَـادُكَ رَسْـمَ كـلِّ مَـخُـوفَـةٍ ... وعَـفَـتْ بـصـفـوة عَـدْلِـكَ الأَكْـدَارُ
ومـحـا الـمـظـالـمَ مـنـكَ نـظـرةُ راحـمٍ ... لله فـي خَـطَـراتِـهِ أسـرارُ
غَـضْـبَـانُ لـلإِسـلامِ مـالَ عـمـودُه ... فَـلِـنُـورِه مـمَّـا عَـرَاه نِـوَارُ
وَجَـذَمْـتَ كـلَّ يـدٍ تـسـورُ عـلـى يـدٍ ... فَـأَحَـلْـتَ ذاك الـسُّـور وهـو سِـوَارُ(١)
لـم يـبـقَ مـاكـسُ مُـسْـلـمٍ سِـلَـعـاً ولا ... سـاعٍ لـمـظـلـمَـةٍ ولا عـشَّـارُ
هَـمَـدُوا كـمـا هَـمَـدَت ثـمـودُ وقـادهـم ... لـخَـسَـارهـم مـمَّـا أتـوه قُـدَارُ(٢)
الـعـارُ فـي الـدُّنـيـا شَـقُـوْا بـلـبـاسـه ... ولـبـاسُـهُـمْ يـومَ الـحِـسَـابِ الـنَّـارُ
كـم سـيـرةٍ أَحْـيَـيْـتَـهَـا عُـمَـريـةٍ ... رُفِـعَـتْ لـهـا فـي الـخـافِـقَـيْـنِ مَـنَـارُ
ونـوافـلٍ صَـيَّـرْتَـهُـنَّ لـوازمـاً ... بـأقـلِّـهـا تُـسْـتَـعْـبَـدُ الأحـرارُ
لا زلـتَ تـقـفـو الـصَّـالـحـين مُـسَـابـقـاً ... لـهُـمُ وتَـطْـلُـعُ خَـلْـفَـكَ الأبـرارُ
نـفـس الـسِّـيـادَة زُهْـدُ مـثـلـكَ فـي الـذي ... فـيـه تَـفَـانَـتْ يَـعْـرُبٌ ونـزارُ
ومـتَـى ادَّعـى مـا تـدَّعـيـه مـحـكَّـمٌ ... أَوْهَـى مَـعَـاقِـدَ دِيـنـه ديـنـارُ(٣)
لـلـهِ مـا ظَـفِـرَتْ بـه مـنـك الـمُـنَـى ... وتـكـنَّـفَـتْ مـن رُكْـنـكَ الأسـتـارُ
وسـقَـى الـغَـمـامُ ثـرى أبـيـك فـإنَّـه ... أزكـى ثـرًى قَـطَـرَتْ عـلـيـه قِـطَـارُ(٤)
شَـهِـدَتْ نَـضَـارةُ عُـودكَ الـغـضِّ الـجنى ... أَنَّ الـذي اسْـتُـخْـلِـصْـتَ مـنـه نُـضَـارُ(٥)
أمـا نـهـارُكَ فَـهْـوَ لَـيْـلُ مـجـاهـدٍ ... والـلَّـيـل مِـنْ طـولِ الـقـيـام نَـهَـارُ
فـلـذلـكَ الـنَّـصْـرِ الـعـزيـزِ أَدِلَّـةٌ ... أنَّـى اتَّـجَـهْـتَ ولـلـفُـتُـوحِ أَمَـارُ(٦)

وله أيضاً فيه رحمه الله تعالى: [المتقارب]

رأيـنـا الـمـلـوكَ وقـد ساجـلـوك ... تـمـنَّـوا مـنـونـاً وغَـرُّوا غُـرورا
أبـى لـكَ أَنْ يُـدْرِكُـوهـا أَبٌ ... يَـزِيـرُ فَـيُـنْـسِـي الأُسُـودَ الـزَّئـيـرا

(١) جذمت: قطعت. وتسور: أي تثور.
(٢) هو قدار بن سالف الذي يقال له: أحيمر ثمود، الذي عقر ناقة صالح عليه السلام.
(٣) المحكم: الشيخ المجرب المنسوب إلى الحكمة. ومعاقد: مفردها معقد، وهو موضع العقد من الحبل.
(٤) القطار: جمع قطر، وهو المطر.
(٥) النضار: الخالص من كل شيء، وهو أيضاً اسم للذهب.
(٦) أمار: أي علامة.

Marfat.com

وَجَـــدٌّ إذا جَـــدَّ يـــوم الـــرّهـــا ... نِ أبـقـى لـتـالـيـه جَـدّاً عَـثُـورا
تَـصُـبُّ عَـصـا عـلـى مَـنْ عـصـا ... كَ يـومـاً عـبـوسـاً بـهـا قَـمْـطَـرِيـرا[1]
لـقـد أَلْـبَـسَ الـشّـامَ هـذا الإبـاءُ ... لَـبُـوسـاً مـن الأَمْـنِ لَـيْـنـاً وثـيـرا
تَـدَارَكْـتَ أَرْمـاقَـهُ والـقـلـوبُ ... نـوافِـرُ أَنْ تـسـتـجـنَّ الـصُّـدُورا[2]
أَقَـمْـتَ جـثـاثـاً وكـانـت جُـثَـى ... وشِـدْت قُـصُـوراً وكـانـت قُـبُـورا
وكـم لـكَ مـن غَـضْـبَـةٍ لـلـهُـدَى ... تـمـيـتُ الـهـوى وتَـجُـبُّ الـذُّكُـورا[3]
إذا قَـطَّـبَ الـبـأْسُ كـانـت ردى ... وإن ضَـحِـكَ الـعـفـو عـادَتْ نُـشُـورا
كَـمُـلْـتَ فَـوَفَّـيْـتَ عـيـنَ الـكـمـال ... تُـبـيـد الـسِّـنـيـن وتُـفْـنـي الـعُـصُـورا
وجـــادَ لـــنـــا بـــكَ رَبٌّ بـــرا ... كَ لـلـكُـفْـر نـاراً ولـلـدِّيـن نُـورا
إذا مـا خُـدِمْـتَ فـمـولـى كـريـمـاً ... وإمَّـا عَـبَـدْتَ فـعـبـداً شَـكُـورا
أمـامَ الـمـحـاريـبِ بَـرّاً حَـصُـوراً ... وتـحـتَ الـحـروبِ هِـزَبْـراً هَـصُـورا[4]
تـبـارَكَ مـن شـادَ هـذي الـخـلا ... ل فـي ظِـلَّـة الـمـلـك طَـوْداً وقـورا
وألَّـف فـي مَـعْـقِـد الـتّـاج مـنـ ... ـك سـطـواً سـعـيـراً وعـفـواً نَـمِـيْـرا

وله: [الخفيف]

عَـقَـلَ الـحـقُّ أَلْـسُـنَ الـمُـدَّعِـيْـنـا ... أنـتَ خَـيْـرُ الـمـلـوكِ دُنْـيـا ودِيـنَـا
وأَسَـدُّ الأنـام قـولاً وأفـعـا ... لاً ونَـفْـسـاً ونـيَّـةً ويـقـيـنَـا
أنـتَ أَسْـنَـاهُـمُ إبـاءً وأبـاً ... وامـرأُ حـيـر وأمـروءُ حـيـنَـا
بَـسَـطَ الـرِّزْقَ فـي الـبـسـيـطـةِ كَـفّـا ... كَ فـكـلـتـا يـديـك تُـلْـفَـى يـمـيـنـا
فَـيَـدٌ تـحـسِـمُ الـنَّـوائِـبَ عَـنَّـا ... وَيَـدٌ تَـقْـسِـمُ الـرَّغـائـبَ فـيـنـا
أيُّـهـا الـبـحـرُ لـو تـسـاجِـلُـكَ الأبـ ... ـحُـرُ عـامـت فـي ساحِـلَـيْـكَ سفـيـنـا
ولـكـانَ الـمـحـيـطُ مـنـهـا مُـحَـاطـاً ... مِـثْـلَ نـونِ الـهـجـاءِ أو خِـيـلَ نـونـا
مَـشْـرَعـاً مُـتْـرعـاً ومـنّـا مُـهَـنّـا ... ورِبَـاعـاً فِـيْـحـاً وكـفّـا لَـبُـونـا

---

(١) القمطرير: يقال: يوم قمطرير: أي مشتدّ، وفي القرآن الكريم: ﴿**إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً**﴾ [الإنسان: ١٠].
(٢) الأرماق: مفردها: رمق، وهو بقية الحياة.
(٣) تجبّ الذكورا: تقطعها.
(٤) الحصور: الذي لا إربه له في النساء. والهزبر والهصور: من أسماء الأسد.

Marfat.com

ومُحَيًّا طَلْقاً ومالاً طليقاً وانتهاجاً قَصْداً وحَبْلاً متينا
بين ذَبٍّ يميت عادِيَةَ الشر ك وَهَبٍّ يحيا به المسلمونا
تتسنّى من الفُتُوح ألوفاً أنتَ أعلى من أنْ تَعُدَّ المئينا
كلما خرت ثوبَ نَصْرٍ عزيزٍ من مَرَام أَقْبَلْتَ فتحاً مبينا
صَرَفَ الله عنك صَرْفَ زمانٍ أنتَ عَلَّمْتَ صَرْفَه أَنْ يَهُونا
يا ابنَ مَنْ طَبَّقَ البسيطةَ آثا راً وعَلَّ المُنَابذيه الأُجونا[1]
وغَدَتْ حُصْنُه على سَرْج هذا الدِّ (م) ين من شِكَّةِ الأعادي حُصُونا[2]
كم تعالى صهيلُها في رُبَا الشَّا م فأعلى خَلْفَ الخليجِ الرَّنينا
كان صِنْوَ الرَّشيد أبقاك للحِكْـ ـمَةِ والبَأْسِ بعده المأمونا
سَمِعَ الله فيكَ دَعْوَةَ سَكْنٍ أوطنوا من حِماك حِصْناً حصينا
غرّقتهم مُدَى الخُطوبِ فأحييـ ـتَ رُفاتاً منَ التُّرابِ دفينا[3]
لَبِسُوا عَدْلَك المدبَّجَ فاختا لوا بناتٍ في وَشْيِهِ وبنينا
سَهِرَتْ عينُك الكَلُوءُ وناموا تحتَ أكنافِ رعيها آمنينا

قلتُ: فهذا أنموذج من أشعار هذين الفُحلين فيه، مع أنَّهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، قبل أن يفتحَ نورُ الدين دمشق، وبقي نور الدين حياً بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقَّى كل عام في ازدياد، من جهادٍ واجتهاد، ولو كانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجائب المدائح مع أنه قد تولَّى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما.

ولأبي المجد المُسْلم بن الخَضِر بن قُسَيم الحَمَوي[4] من قصيدةٍ فيه: [الكامل]

تبدو الشجاعةُ من طلاقة وجهِهِ كالرُّمحِ دَلَّ على القَساوةِ لينُهُ
ووراء يقظته أناةُ مجرِّبٍ لله سطوةُ بأسِهِ وسكُونُهُ
هذا الذي في الله صَحَّ جهادُه هذا الذي بالله صَحَّ يقينُهُ
هذا الذي بَخِلَ الزَّمان بمثلِهِ والمُشْمَخِرُّ إلى العُلا عِرْنينُهُ

(١) الأجون: من الآجن، وهو الماء المتغير الطعم واللون.
(٢) الشكّة: السلاح.
(٣) المدَى: جمع مدية، وهي السكين والشفرة.
(٤) هو ابن قسيم الشاعر، مسلم بن خضر بن قسيم الحموي الشاعر المتوفى سنة ٥٥٥هـ له ديوان شعر (كشف الظنون ٦/ ٤٣٢، وله ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٣٣ ـ ٤٨٠).

مَـلَـكَ الـورى مَـلِـكٌ أغَـرُّ مـتـوَّجٌ ... لا غَـدْرُهُ يُـخـشـى ولا تـلـويـنُـهُ
إن حَـلَّ فـالـشـرفُ الـتـلـيـدُ أنـيـسُـهُ ... أو سـار فـالـظَّـفَـرُ الـطَّـريـفُ قـريـنُـه
فـالـدَّهْـرُ خـاذل مَـنْ أرادَ عِـنَـادَه ... أبـداً وجَـبَّـارُ الـسَّـمـاءِ مُـعِـيْـنُـهُ
والـدِّيـنُ يـشـهـدُ إنـه لَـمُـعِـزُّهُ ... والـشِّـرْكُ يـعـلـمُ إنَّـه لـمـهـيـنُـهُ
مـا زال يُـقْـسِـمُ أن يـبـدِّدَ شـمـلَـه ... والله يـكْـرَهُ أنْ تـمـيـنَ يـمـيـنُـهُ
فَـتَـحَ الـرَّهـا بـالأمـسِ فـانـفـتـحـتْ لـه ... أبـوابُ مـلـكٍ لا يُـذال مـصـونُـه

وممادحُ نور الدين رحمه الله كثيرة.

وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليلَ الابتهاج بالشَّغر. ومات حادي عشر شوال سنةَ تسعٍ وستين وخمسمائة، ودُفِنَ بقلعة دمشق، ثم نقل إلى قُبَّته بمدرستِهِ جوار الخَوَّاصين.

قلتُ: وقد جُرِّب استجابة الدُّعاء عند قبره. وهذا ذِكْرُ طرفٍ من مناقبه جُملة، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصَّلة مرتبة، وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار، إن شاء الله تعالى.

فـصـل

[أصل البيت الأتابكي]

أصلُ البيت الأتابكي هو قسيم الدَّولة آق سُنقُر؛ جدُّ نور الدين، رحمه الله، فنذكره وما تمَّ في أيامه، ثم نذكر ولده زَنْكي وما تمَّ في أيامه، ثم نذكر ولدَه محمود بن زَنْكي، ثم نذكر ما بعدَه وهي الدَّوْلة الصَّلاحيَّة الأيوبيّة وما تمَّ في أيامها فنقول:

كان آق سُنقُر[1] تركياً من أصحاب السُّلْطان ركن الدين مَلِكْشَاه بن ألْب أَرْسلان[2] ـ وهو عَمُّ دُقَاق بن تُتُش بن ألب أرسلان[3] الذي كان سُلْطانَ دمشق، وقبره بقُبَّة الطواويس بها، بَنَتْهُ والمشهدَ والدتهُ[4] ـ وكان السُّلطان مَلِكْشاه من

(١) انظر أخبار قسيم الدولة آق سنقر البرسقي في «الكامل في التاريخ» لابن الأثير الجزري ٨/ ٤٦٢ ـ ٤٩٥، ٩/ ١٢٤ ـ ٢٣٧. وخبر مقتله في ٩/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٢) انظر أخبار ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود في «الكامل في التاريخ» ٨/ ٣٧٦ ـ ٤٨٤.
(٣) توفي سنة ٤٩٧هـ. انظر أخباره في «الكامل في التاريخ» ٩/ ٦٧، ٧٤.
(٤) هي صفوة الملك، توفيت سنة ٥١٣هـ. (ذيل تاريخ دمشق ص٣٢١).

Marfat.com

جُملة الملوك السَّلْجوقية المتغلِّبين على البلاد بعد بني بُوَيه بالعراق، فكانَ قسيمُ الدولة من أصحابه وأترابه، وممن رُبي معه في صغره، واستمرَّ في صحبته إلى حين كبره. فلما أفضتِ السلطنة إليه بعد أبيه جعلَه من أعيان أمرائه وأخصِّ أوليائه، واعتمد عليه في مهمَّاته، وزاد قدره علواً إلى أن صار يتقيه مثل نِظَام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان وتمكُّنه من المملكة. فأشار نظامُ الملك على السلطان أن يولي آق سُنْقُر مدينةَ حلب وأعمالها؛ وأراد بذلك أن يبعدَه عن خدمة السلطان، ويتخذ عنده بذلك يداً.

قال ابن الأثير: ومن الدّليل على علوِّ مرتبته تلقُّبُه قسيم الدولة، وكانتِ الألقاب حينئذٍ مصونةً لا تعطى إلا لمستحقِّيها.

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سيَّر السُّلطان مَلِكْشَاه الوزيرَ فخر الدولة بن جَهِير[١]؛ وزير الخليفة إلى ديار بكر ليتملَّكها، وسيَّر عميدَ الدولة بن فخر الدولة بن جَهِير[٢] ـ وكان زوجَ ابنة نظام الملك ـ إلى المَوْصل، وسير معه جيشاً عظيماً، وجعل المقدَّم على الجيش قسيمَ الدولة آق سُنْقُر. فساروا نحو الموصل، ولقيهم في الطريق الأمير أُرْتُق التُّركماني[٣] ـ جد ملوك الحصن ومارِدِين ـ فاستصحبوه معهم، فحصروا المَوْصل، وصالحوا من بها وتسلَّموها، وسار صاحبُها إلى السُّلطان فردَّها عليه، وكانت يومئذٍ لأحد أمراء بني عُقَيْل، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العُقَيْلي[٤] ـ وكان ملكه من السُّنْدية بالعراق على نهر عيسى إلى مَنْبِج وما بينهما من البلاد الفُراتية كهِيت والأنبار وغيرها، وملك المَوْصل وديار بكر والجزيرة بأسرها، وملك مدينةَ حلب، وكان عادلاً حسنَ السِّيرة عظيم السياسة ـ واتَّفق أن وَقَعَ بينه وبين صاحب أنطاكية؛ وذلك أن أنطاكية كان الرُّوم قد استولوا عليها سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة[٥]، ولم يزالوا بها إلى هذه السنة، ففتحها سليمان بن قُتُلْمِش[٦]؛ وهو جدُّ الملك غياث الدين كِيخُسْرو[٧] صاحب قُونية وغيرها. وكان لشرفِ الدولة صاحبِ حلب على صاحب

---

(١) انظر أخباره في «الكامل في التاريخ» ٨/ ٣٨٣ ـ ٤٦٤.
(٢) توفي سنة ٤٩٣هـ، انظر «الكامل في التاريخ» ٩/ ٢٨ ـ ٢٩.
(٣) توفي سنة ٤٨٤هـ. انظر «وفيات الأعيان» ١/ ١٩١.
(٤) انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٣٥٥ ـ ٤٣٧.
(٥) في «الكامل في التاريخ» ذكر أن استيلاء الروم على أنطاكية كان سنة ٣٥٩هـ في المحرم. وهو المشهور. (انظر «الكامل» ٧/ ٣١٨ ـ ٣٢٤).
(٦) انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٤٣٥ ـ ٤٤٤.
(٧) قتل سنة ٦٠٧هـ. انظر أخباره في «الكامل» ١٠/ ٢٩٥ ـ ٣٢٨.

Marfat.com

أنطاكية الرُّومي جزية يأخذها كلَّ سنة، فانقطعت عنه بسبب أَخْذ سليمان البلد، فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الرُّوم ويهدِّده. فقال: أنا في طاعتك، وهذا الفتح بسعادتك، والخُطْبة والسِّكَّة لك، ولستُ بكافرٍ حتى أُعطيك ما كنتَ تأخذه من الرُّوم. فلجَّ شرف الدولة في طلب المال، فالتقيا، فقُتِلَ شرفُ الدولة، وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصَرها، وسار إليها من دمشق تاجُ الدَّوْلة تُتُش بن ألب أرسلان[1] أخو السلطان مَلِكْشَاه. فالتقى عسكر تُتُش وسليمان، فقُتِلَ سليمان وانهزم عسكره، وملك تُتُش مدينةَ حلب دون القلعة، فأرسل أهلُ القلعة إلى مَلِكْشَاه ليسلِّموها إليه، وهو يومئذٍ بالرُّها ـ وكان سببُ مسيره إليها أن ابن عُطَيْر النُّميري[2] كان قد باعها من الرُّوم بعشرين ألف دينار وسلَّمها إليهم، فدخلوها، وأخرجوا المساجد، وأجلوا المسلمين عنها. فسار مَلِكْشَاه إليها في هذه السنة فحصرها وفتحها وأقطعها للأمير بُزَان ـ فلما أتاه رُسُل أهل قلعة حلب بالتَّسْليم سار إليهم، فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلبَ إلى دمشق ووصل السلطانُ إلى حلب، وبالقلعة سالم بن مالك بن بَدْران العُقَيْلي[3]؛ وهو ابنُ عَمِّ شرف الدولة، فسلَّمها إلى السلطان بعد قتال، وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جَعْبر، وكان قد ملكها في هذه السَّفْرة من صاحبها جَعْبَر النُّميري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالمٍ وأولاده إلى أن أخذَها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي.

فلما ملك السُّلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بنُ علي بن المقلَّد بن مُنْقذ الكِنَاني[4]؛ صاحب شَيْزَر، ودخل في طاعته، وسلَّم إليه اللَّاذقية، وفامية، وكفرطاب.

ثم إن نظامَ المُلْك أشار على السلطان بتسليم حلب وأعمالها، وحماة ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سُنْقُر، فأقطعه الجميع، وبقيت في يده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة كما سيأتي. وأقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير ياغي سغانّ.

---

(١) انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٤١٨ ـ ٥٠٢.

(٢) ذكر ابن الأثير في «الكامل» تسلم ابن عطير النميري الرها في حوادث سنة ٤١٦هـ. بعد قتل والد عطير، ثم سلمها للروم سنة ٤٢٩هـ. وأورد أن اسمه ابن وثاب. انظر «الكامل» ٨/ ١٢٦، ٢٢٠.

(٣) سالم بن مالك بن بدران العقيلي، شمس الدولة صاحب قلعة جعبر، وتعرف قديماً بقلعة دوس، توفي سنة ٥١٩هـ. (انظر «الكامل» ٩/ ٢٣٤).

(٤) توفي سنة ٤٧٩هـ. انظر «الكامل» ٨/ ٤٤٤.

Marfat.com

ولما استقرَّ قسيمُ الدولة في الشام ظهرت كفايتُه وحمايته وهيبته في جميع بلاده. ثم إنَّ السلطان استدعاه إلى العراق، فقَدِمَ إليه في تجمُّلٍ عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعَظُمَ محلُّه عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب، فعاد إليها[١].

فلما مات السلطان مَلِكْشَاه سَيَّر قسيم الدولة جيشاً إلى تَكْرِيت فملكها.

وفي سنة إحدى وثمانين قصد قسيم الدولة شَيْزَر فنهبها وعاد إلى حلب.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين اجتمع قسيمُ الدولة وبُزان وحصروا مدينة حِمْص فملكوها، ومضى ابنُ ملاعب[٢] إلى مصر.

وفي سنة أربعٍ وثمانين ملك قسيم الدولة حصن فامية من الشَّام، وملك الرحبة.

فصل

[مقتل الوزير نظام الملك]

وفي عاشر رمضان سنة خمسٍ وثمانين قُتِلَ الوزير نظام الملك أبو عليٍ الحسن بن علي بن إسحاق[٣]، قتله صبيٌّ دَيْلَمي بعد الإفطار وقد تفرَّق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرُهم من أصناف الناس، وحمل في مِحَفَّةٍ لنِقْرِسٍ[٤] كان به إلى خيمة الحَرَم، فلقيه صبيٌّ ديلمي مستغيثاً به، فقرَّبه منه ليسمع شكواه فقتله، وقُتِلَ الصبيُّ أيضاً. فَعَدِمَتْ الدنيا واحدَها الذي لم تر مثله، وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبيَّ ﷺ في المنام كأنه أتاه وأخذه من محفته فتبعه. فاستبشر نظام الملك بذلك، وأظهر السرور به وقال: هذا أبغي وإياه أطلب.

وبلغ من الدنيا مبلغاً عظيماً لم ينله غيره. وكان عالماً فقيهاً ديِّناً خيِّراً متواضعاً عادلاً، يحبُّ أهلَ الدين ويكرمهم ويجزل صِلاتهم. وكان أقربَ الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان يناظرهم في المحافل، ويبحث عن غوامض المسائل، لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مُدَّة.

وأما صدقاته ووقوفه فلا حدَّ عليها، ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد من

---

(١) وذلك في سنة ٤٨٤هـ. انظر «الكامل» ٨/ ٤٦٦ ـ ٤٧٧.

(٢) هو خلف بن ملاعب الكلابي، قتل سنة ٤٩٩هـ. انظر خبر قتله في «الكامل» ٩/ ٩٣ ـ ٩٥.

(٣) انظر خبر مقتله في الكامل ٨/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

(٤) النقرس: مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمّى: داء الملوك.

شيء منها، حتى جزيرة ابن عمر ـ التي هي في زاوية من الأرض لا يُؤْبه لها ـ بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضي الدين. وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ، لم يسبقه من كان قبله، ولا أدركه من كان بعده.

وكان من جملة عباداته أنه لم يُحدث إلا توضأ، ولا توضأ إلا صلّى. وكان يقرأ القرآن حفظاً، ويحافظ على أوقات الصلوات محافظةً لا يتقدَّمُه فيها المتفرِّغون للعبادة، حتى أنه كان إذا غَفَلَ المؤذن أمره بالأذان، وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل بإجابته ثم بالصلاة.

وكان قد وزر للسُّلْطان عضد الدولة أَلْب أرسلان[١] والد مَلِكْشَاه[٢] قبل أن يلي السَّلْطنة، في حياة عمه السُّلْطان طُغْرُلْبَك[٣]؛ أول الملوك السلجوقية ببغداد. فلما توفي طُغْرُلْبَك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه أَلْب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرَّتْ السلطنة له، وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان مَلِكْشاه إلى أن قتل. وكان قد تحكَّم عليه إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه؛ لكثرة مماليكه ومحبَّة العساكر له والأمراء، وميل العامَّة والخاصَّة إليه لحُسْن سيرته وعَدْله. هذا كلام أبي الحسن بن الأثير.

وقرأت في كتاب «المعارف المتأخرة» ـ ويسمَّى «عنوان السِّيَر»[٤] ـ لمحمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهَمَذاني[٥] قال: وزر نظامُ الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطُّوسي للسُّلْطان أَلْب أرسلان ولولده السلطان مَلِكْشَاه أربعاً وثلاثين سنة، وقُتِلَ بالقرب من نهاوَنْد وعمره ستٌّ وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً؛ اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من فطوره. قال: وقيل: إن السلطان مَلِكْشَاه ولَّف عليه مَنْ قتله لأنه سئم طول عمره، ومات بعده بشهر

---

(١) هو عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل، واسمه محمد، وإنما غلب عليه ألب أرسلان، قتل سنة ٤٦٥هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٣٥٠ ـ ٣٩٥، وانظر خبر مقتله في «الكامل» ٨/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٢) توفي سنة ٤٨٥هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٣٩٤ ـ ٤٨٤.

(٣) هو أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق، توفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة ٤٥٥هـ. وكان عقيماً لم يلد ولداً. انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٢٢٦ ـ ٣٦٢.

(٤) في كشف الظنون كتاب «عنوان السير» هو غير كتاب «المعارف المتأخرة». وانظر الحاشية التالية.

(٥) هو محمد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد الهمداني، أبو الحسن الشافعي المؤرخ، ولد سنة ٤٦٣هـ، وتوفي سنة ٥٢١هـ، من تصانيفه: «أخبار الوزراء»، «تاريخ هراة»، «ذيل على تاريخ أبي شجاع» «ذيل على تاريخ الطبري»، «طبقات الفقهاء»، «عنوان السير في محاسن البدو والحضر»، «المعارف المتأخرة» في التاريخ (كشف الظنون ٦/ ٨٥).

Marfat.com

وخمسة أيام. وقد تقدَّم نظام الملك في الدنيا التقدُّمَ العظيم، وأفضل على الخلق الإفضال الكثير، وعَمَّ الناسَ بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشَّافعي رضي الله عنه، ووقف عليهم الوقوف، وزاد في الحلم والدِّين على مَنْ تقدَّمه من الوزراء، ولم يبلغ أحدٌ منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون فوقَّعَ على العامل بأنطاكية بما يُصرف إلى الملَّاحين، وملك من الغِلْمان الأتراك ألوفاً، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتَّاكه من مماليكه.

قلتُ: وأنشد أبو سعد السَّمْعاني[1] في «ذيل تاريخ بغداد» قال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السَّمْعاني[2] غير مَرَّةٍ من لفظه للأمير شبل الدَّوْلة؛ يعني مقاتلَ بنَ عطية بن مقاتل البكري[3]: [البسيط]

كـان الـوزيـرُ نـظـامُ الـمـلـك لـؤلـؤةً ... ثمينةً[4] صاغها الرحمنُ مِن شَرَفِ
عَـزَّتْ ولـم تـعـرفِ الأيـامُ قـيـمتَـهـا ... فـردَّهـا غَـيْـرَةً مـنـه إلـى الـصَّـدَفِ

---

(١) أبو سعد السمعاني: هو عبد الكريم بن أبي بكر محمد بن المنصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تاج الإسلام، الحافظ أبو سعد المروزي الشافعي، ولد سنة ٥٠٦هـ، وتوفي سنة ٥٦٢هـ، من تصانيفه: «الأخطار في ركوب البحار»، «أدب الطلب»، «الأدب في استعمال الحسب»، «الإسفار عن الأسفار»، «الارتياب عن كتابة الكتاب»، «أفانين البساتين»، «أمالي الخمسمائة»، «الإملاء والاستملاء» «الأنساب»، «بغية المشتاق إلى ساكني العراق»، «تاريخ مرو»، «التحايا والهدايا»، «التحبير في المعجم الكبير»، «التحف والهدايا»، «تحفة العيدين»، «تحفة المسافر» «تاريخ الوفاة للمتأخرين من الرواة»، «التذكرة والتبصرة»، «تقديم الخفان إلى الضيفان»، «حث الإمام على تخفيف الصلاة مع الإتمام»، «الحث على غسل اليد»، «دخول الحمام»، «الدعوات الكبيرة»، «الدعوات المروية عن الحضرة النبوية»، «ذكرى حبيب يرحل وبشرى منيب ينزل»، «ذيل تاريخ بغداد للخطيب»، «الربح والخسارة في الكسب والتجارة»، «رسائل الوسائل»، «رفع الارتياب عن كتابة الكتاب»، «سلوة الأحباب ورحمة الأصحاب»، «السد والعد لمن اكتنى بأبي سعد»، «الصدق في الصداقة»، «طراز الذهب في أدب الطلب»، «عز العزلة»، «فرط الغرام في ساكني الشام»، «فضل الديك»، «فضل صلاة التسابيح»، «فوائد الموائد»، «فضائل سورة يس»، «فضائل الشام»، «كتاب الحلاوة»، «كتاب التحبير في المعجم الكبير»، «كتاب في صوم أيام البيض»، «كتاب المساواة والمصافحة»، «المجير الكبير»، «معجم البلدان»، «معجم الشيوخ»، «مقام العلماء بين يدي الأمراء»، «مناسك الحج»، «النزوع إلى الأوطان»، «الهريسة» (كشف الظنون ٥/ ٦٠٨ ـ ٦٠٩).

(٢) هو أحمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبار، أبو القاسم السمعاني، توفي سنة ٥٣٤هـ، له من التصانيف: «روح الأرواح» (كشف الظنون ٥/ ٨٣، الأنساب ٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٣) هو من ولد أبي بكر الصديق، كان نظام الملك قد زوجه ابنته، توفي في حدود سنة ٥٠٥هـ. انظر: وفيات الأعيان ٢/ ١٣٠، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٠٤.

(٤) في «الكامل في التاريخ»: «يتيمة» بدل «ثمينة». انظر «الكامل» ٨/ ٤٧٩.

Marfat.com

فصل

[وفاة السلطان ملكشاه]

عاش السلطان مَلِكْشاه بعد نظام الملك خمسةً وثلاثين يوماً، ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين، وعمره ثمانيةٌ وثلاثون عاماً ونصف عام. وكانت مملكته قد اتَّسعت اتساعاً عظيماً، وخُطب له من حدود الصّين إلى الداروم من أرض الشّام، وأطاعه اليمن والحجاز. وكان يأخذ الخرَاج من ملك القُسْطنطينية، وأطاعه صاحب طِرَاز وأسبيجاب وكاشْغَر وبلاسغون وغيرها من الممالك البعيدة، ومَلَكَ سَمَرْقَنْد وجميعَ ما وراء النَّهر. ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه، فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغرَ هرب صاحبُها منه، فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به وأحسن إليه، واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السُّلْطان من الخيرات وأبواب البرّ كثيراً؛ منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحَفَر من الآبار، وبنى مدرسةً عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر مما يلي الكوفة بمكان يُعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسَمَرْقَنْد أيضاً. قيل: إنه خرج سنةً من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العُذَيب وبلغ السبعية بقرب الواقِصَة، وبنى هناك منارةً نُزِل في أثنائها قرون الظبي وحوافر الحُمُر الوحشية التي اصطادها في طريقه.

[بداية ظهور الفرنج
وتولي السلطان محمد الملك بعد والده]

وبعد موته تنازع ابناه: بَكْيارُق[1] ومحمد[2]، ودامت الحروب بينهما نحو ثنتي عشرة سنة إلى أن توفي بَكْيارُق، واستقرت السلطنة لمحمد. وفي مُدَّة تلك الحروب ظهرت الفرنجُ بالسَّاحل، وملكوا أنطاكية أولاً، ثم غيرها من البلاد. وكان السُّلطان قد أقطع أخاه تُتُش تاج الدولة مدينةَ دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي مَلِكْشاه طَمِعَ تاجُ الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة[3] فصالحه، وراسل بوزان؛ صاحبَ حرَّان، وياغي سغان

---

(١) في «الكامل» بركيارق بن ملكشاه بن ألب أرسلان، توفي سنة ٤٩٨هـ. وكانت مدة سلطنته ١٢ سنة وأربعة أشهر. انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٤٨٤ ـ ٩/ ٧٨.

(٢) توفي سنة ٥١١هـ، وأول ما دُعي له بالسلطنة ببغداد في ذي الحجة سنة ٤٩٢هـ. وكانت مدة سلطنته ١٢ سنة وستة أشهر. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٢١ ـ ١٦٩.

(٣) انظر الخبر في «الكامل» ٨/ ٤٨٨.

Marfat.com

صاحب أنطاكية، فسارا معه نحو الرَّحبة ونَصِيبين فأخذهما، وراسل صاحب المَوْصل إبراهيم بن قُريش بن بدران يأمره بالخطبة له، وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد، فامتنع، فالتقيا، فَهُزِمَ صاحبُ المَوْصل. وقُتِلَ وأخذت بلاده. وسار إلى مَيَّارِفارقين، فملكها وسائر ديار بكر. ثم سار إلى أَذْرَبِيجان، فالتقى هو وابن أخيه بَكْيارُق بن مَلِكْشاه، فانتقل قسيمُ الدولة وبوزان إلى بَكْيارُق، فرجع تاجُ الدولة إلى الشَّام، ورجعا إلى بلادهما بأمرِ بكْيارُق ليمنعا تاجَ الدولة عن البلاد إن قصدها. فجمع تاجُ الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب، فاجتمع قسيمُ الدولة وبوزان وأمدَّهما السلطان ركن الدين بَكْيارُق بالأمير كربوقا ـ وهو الذي صار فيما بعد صاحب المَوْصل ـ فالتقوا بالقرب من تَلِّ السُّلطان، وبينه وبين حلب نحوٌ من ستة فراسخ، فانهزم جيشُ قسيم الدولة وأُخذ أسيراً، فقتله تاجُ الدولة صبراً. ودخل بوزان وكربوقا حلبَ، فحصرهما تاجُ الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين. وأرسل إلى حَرَّان والرُّها ـ وكانتا لبوزان ـ فامتنع مَنْ بهما من التسليم، فقَتَلَ بوزان وأنفذ رأسه وتسلَّم البلدين. وأما كربوقا فإنه سجنه بحِمْص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رِضْوان بعد قتلِ أبيه تاج الدولة.

[مقتل قسيم الدولة آق سنقر]

قال ابن الأثير: وكان قسيمُ الدولة أحسنَ الناس سياسةً لرعيته، وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عَدْلٍ عام ورُخْص شامل وأمنٍ واسع، وكان قد شَرَطَ على أهل كلِّ قرية في بلاده متى أُخذ عند أحدهما قَفَل أو أحدٌ من الناس غَرِمَ أهلُها جميعَ ما يؤخذ من الأموال من قليلٍ وكثير، فكانت السَّيَّارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا؛ فأمِنَتْ الطرق وتحدَّث الرُّكْبان بحُسْن سيرته.

[وفاة المقتدي بأمر الله وخلافة المستظهر بالله]

وفي المحرَّم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدي بأمر الله فجأةً[1]. وهو أبو القاسم عبد الله ابن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسعٌ وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام[2]، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة

(١) انظر خبر وفاته في «الكامل» ٨/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤.
(٢) في «الكامل» ٨/ ٤٩٣: كان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام.

Marfat.com

أشهر[١]، وأُمُّه تركية[٢]. وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد. ويلقب محمد بن القائم والد المقتدي بالله الذَّخيرة، مات في حياة أبيه فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زَنْكي[٣]

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على طريق الاختصار في فصول إلى حين وفاته. ثم نذكر أخبارَ نور الدين على ترتيب السنين.

لما قُتِلَ قسيمُ الدولة آق سُنْقُر لم يخلُف من الأولاد غير واحدٍ وهو عماد الدين زَنْكي؛ والد نور الدين، وكان حينئذٍ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليكُ والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي[٤]، وهو صبيٌّ أيضاً. ثم إن الأمير كربوقا[٥] خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة[٦]، وتوجَّه إلى حَرَّان وقد اجتمع معه عسكرٌ صالح فملكها، ثم سار إلى نَصِيبين فملكها، ثم إلى المَوْصل فملكها، وأزال عنها عليَّ بن شرف الدولة العُقَيلي، وسار نحو ماردِين فملكها، وعَظُمَ شأنه وهو في طاعة ركن الدولة بَكْيارُق.

فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سُنْقُر، وأمرهم بإحضار عماد الدين زَنْكي وقال: هو ابن أخي وأنا أَوْلى الناس بتربيته. فأحضروه عنده، فأقطعهم الإقطاعات السَّنية، وجمعهم على عماد الدين زَنْكي، واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها. فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمِد، وصاحبها من أُمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين سُقْمان بن أُرْتُق[٧] جَدِّ صاحب الحصن، فكسرهم قِوَام الدولة كربوقا، وهو أول مصافٍّ حضره زَنْكي بعد قتل والده. ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة[٨]. وملك

---

(١) في «الكامل»: وثمانية أشهر غير يومين.

(٢) في «الكامل»: أمه أم ولد أرمينية تسمى أرجوان، وتدعى قرة العين. أدركت خلافته وخلافة ابنه المستظهر بالله وخلافة ابن ابنه المسترشد بالله.

(٣) قتل لخمس مضين من ربيع الآخر، سنة ٥٤١هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ١٧٥ ـ ٣٤١.

(٤) هو زين الدين علي بن بكتكين، صاحب إربل، ووالد مظفر الدين كوكبري، توفي سنة ٥٦٣هـ. انظر «الكامل» ١٠/ ٨.

(٥) هو قوام الدين أبو سعيد كربوقا. توفي في ذي القعدة سنة ٤٩٥هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٦) في «الكامل» (٨) ٥٠٢ ـ ٥٠٣. قتل تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان في صفر سنة ٤٨٨هـ.

(٧) توفي سنة ٤٩٨هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ١٩، ٦٢ ـ ٨٤.

(٨) في «الكامل» ٩/ ٥٤ ـ ٥٥، توفي كربوقا في ذي القعدة سنة ٤٩٥هـ.

Marfat.com

بعده موسى التركماني[١] فلم تطل مدته وقُتِل. وملك المَوْصِل شمس الدولة جكرمش[٢]، وهو أيضاً من مماليك السلطان مَلِكْشاه، فأخذ زَنْكي فقرَّبه وأحبه واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة ـ فلا جَرَمَ أن زَنْكي رعى هذا لجكرمش لَمَّا ملك المَوْصل وغيرَها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدَّمه وأقطعه إقطاعاً كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده، واتخذه صهراً ـ ثم ملك المَوْصل بعد جكرمش جاولي سقاوه[٣]، فاتصل به عماد الدين زَنْكي ـ وقد كَبُرَ وظهرت عليه أمارات السَّعادة والشهامة ـ ولم يزل معه حتى عصى على السُّلْطان محمد. وكان جاولي قد عبر إلى الشَّام ليملكه من الملك فخر الملك رِضْوان، فأرسل السلطان إلى المَوْصل الأمير مودوداً، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة. فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زَنْكي وغيرُه من الأمراء. فلما استقرَّ مودود بالمَوْصل، واتصل به زنكي أكرمه، وشَهِدَ معه حروبه، فسار مودود إلى الغَزَاة بالشام، ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان ـ كانت للفرنج ـ وقتل من كان بها منهم. ثم سار إلى الرُّها فحصرها ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات، فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرَّة النُّعمان فحصَرَها، ثم حضر عنده أتابك[٤] طُغْتِكِين[٥]؛ صاحب دمشق، فسار إلى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً، وظهر من أتابك زَنْكي شجاعةً لم يُسمع بمثلها؛ منها أنه كان في نفرٍ وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه، فتخلَّفوا عنه، وتقدَّم وحده وقد انهزم مَنْ بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثَّر فيه وقاتلهم عليه، وبقي ينتظر وصولَ من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أولاً ومن سلامته آخراً.

---

(١) قتل أيضاً في سنة ٤٩٥هـ. قتله الغلمان القوامية في قرية تسمى كرابا، ودفن على تل هناك يعرف الآن بتل موسى. انظر «الكامل» ٩/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) قتل سنة ٥٠٠هـ، بقرية باكلبا، قتله جاولي سقاوو. انظر «الكامل» ٩/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٣) في «الكامل» اسمه جاولي سقاوو. توفي سنة ٥١٠هـ. انظر «الكامل» ٩/ ١٦٢ ـ ١٦٥.

(٤) أتابك: أصله في التركي أطابك، ومعناه الوليد الأمير، وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حين فوّض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ. ولقبه بألقاب منها هذا، وقيل: أطابك، معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكامل (صبح الأعشى ٣/ ١٨).

(٥) أتابك صغتكين، صاحب دمشق، وهو مملوك الملك تتش بن ألب أرسلان، توفي ثامن صفر سنة ٥٢٢هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٢٤٨.

[مقتل مودود أمير الموصل]

ثم التقى الجمعان[١] فَهُزِمَ الفرنج، لعنهم الله، ووصلوا إلى مضيقٍ دون طبرية، فاحتموا به، وجاءتهم نجدة، فأَذِنَ الأميرُ مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه في الربيع. فلما تفرَّقوا دخل دمشق وأقام بها، فخرج يوماً يصلي الجمعة، فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طُغْتِكِين وثب عليه إنسانٌ فضربه بسكينٍ معه، فجرحه أربع جراحات ـ وكان صائماً ـ فَحُمِلَ إلى دار طُغْتِكِين، واجتهَدَ به ليفطِرَ فلم يفعل، وقال: لا لقيتُ الله إلا صائماً، فإنني ميتٌ لا محالة سواء أفطرتُ أو صمتُ. وتوفي في بقيَّة يومه رحمه الله.

فقيل: إن الباطنية بالشَّام خافوه فقتلوه، وقيل: بل خافه طُغْتِكِين فوضع عليه من يقتله. وكان خَيِّراً عادلاً حَسَنَ السيرة.

قال ابن الأثير: فحدَّثني والدي رحمه الله، قال: كتَبَ ملك الفرنج إلى طُغْتِكِين: إن أمةً قتلت عميدَها يومَ عيدها في بيت معبودها لحقيقٌ على الله أن يبيدها.

فلما قُتِلَ الأمير مودود أقطع السُّلْطانُ البلاد؛ المَوْصل وغيرها، للأمير جيوش بك[٢]، وسيَّر معه ولده الملك مسعود إلى المَوْصل. ثم إنه جَهَّزَ آق سُنْقُر البُرْسُقي في العساكر، وسيَّره إلى قتال الفرنج، وكتب إلى عساكر المُوصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زَنْكي؛ وكان يعرف في عساكر العجم بزَنْكي الشَّامي. فسار البُرْسُقي إلى الرُّها في خمسة عشر ألف فارس، فحصرها وقاتل مَنْ بها من الفرنج والأرمن، وضاقت الميرة عن العسكر، فرحل إلى سُمَيْسَاط؛ وهي أيضاً للفرنج، فأخرب بلدها وبلد سَرُوج، وعاد إلى شبختان فأخرب ما فيه للفرنج. وأبلى زنْكي في هذه المواقف كلها بلاءً حسناً، ثم عادت العساكر تتحدَّث بما فعله، وعاد البُرْسُقي إلى بغداد، وأقام زَنْكي بالمَوْصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، وقد علا قدرُه وظهر اسمه.

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ١٤٩ ـ ١٥٠، أحداث سنة ٥٠٧هـ.

(٢) جيوش بك، صاحب الموصل، قتله السلطان في رمضان سنة ٥١٦هـ، على باب تبريز. انظر «الكامل» ٩/ ٢١٧.

فصل

[ولادة نور الدين ووفاة السلطان محمد بن ملكشاه]

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي رحمه الله تعالى.

وفيها غرقت سِنْجَار من سَيْل المطر، وهلك منها خَلْق كثير، ومن أعجب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل، فَعَلِقَ المهد في شجرة، ونقص الماء، فسَلِمَ ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين بالسِّباحة.

وفيها أيضاً زلزلت إربِل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلةً عظيمة.

وفيها في الرابع والعشرين من ذي الحِجَّة توفي السُّلطان غياث الدين محمد بن مَلِكْشاه وعمره سبعٌ وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام[1]. وأول ما خُطب له ببغداد في ذي الحِجَّة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقُطعت خطبته عِدَّة مرار، ولقي من المشاقِّ والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفي أخوه بَكْيارُق[2]، فحينئذٍ استقرت له السَّلْطنة، وصفت له، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتماعُ الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر.

وكان عادلاً حسنَ السيرةِ شجاعاً، وأطلق المكوس والضَّرائب في جميع البلاد. ومن عَدْله أنه اشترى عِدَّة مماليك من بعض التُّجَّار، وأمر أن يوفى الثمن من عامل خُوزِسْتان، فأوصل إليه البعضَ ومطل بالباقي، فحضر التاجر مجلس الحُكْم، وأخذ غلامَ الحاكم، ووقف بطريق السلطان، واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حالهَ، فعاد الحاجب وأعلم السُّلْطان حاله، فَعَظُمَ عليه، وضاق صدره، وأمر في الحال أن يُحْضَرَ عامل خُوزِسْتان ويُلْزَمَ بمال التَّاجر. ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحُكْم، ولو فعلتُه لاقتدى بي غيري، ولم يمتنع أحدٌ عن أداء الحق.

قال ابن الأثير؛ وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى لهذا البيت الأتابكي؛ فإن الملك العادل نورَ الدين محمود بن زَنْكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه ـ وقد تقدَّمَ ذلك ـ ولما علم الأمراء وغيرهم من خُلُق السلطان محبةَ العدل وأداء

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) توفي بركيارق. سنة ٤٩٨. «الكامل» ٩/ ٧٧.

Marfat.com

الحق وكراهية الظلم، ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأَمِنَ الناس وظهر العدل.

[ولاية السلطان محمود بن محمد]

وولي بعد السلطان محمد ولدُه محمود، وعمره يومئذٍ أربع عشرة[١] سنة، فقام بالسَّلْطنة، وجرى بينه وبين عمه سنجر[٢] حربٌ انهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهدٍ فأكرمه وأقطعه من البلاد من حَدِّ خُرَاسان إلى الداروم بأقصى الشَّام؛ وهي من الممالك: هَمَذَان وأصبهان وبلد الجبال جميعه، وبلاد فارس وكرمان وخُوزِسْتان والعراق وأَذْرَبِيجان وأرمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مُضَر وديار ربيعة والشَّام وبلد الرُّوم الذي بيد قليج أرسلان[٣] وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الأثير: ورأيتُ منشورَه بذلك.

[وفاة المستظهر بالله]

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العَبَّاس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام. وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحدَ عشر يوماً[٤].

ومضى في أيامه ثلاث سلاطين خُطِبَ لهم ببغداد من السَّلْجوقية؛ وهم أخو مَلِكْشاه تاج الدولة تُتُش، وركن الدَّوْلة بَكْيارُق بن مَلِكْشاه، وأخوه غياث الدِّين محمد بن مَلِكْشاه[٥].

وكان المستظهر رحمه الله كريمَ الأخلاق، ليِّنَ الجانب، مشكورَ المساعي، يحبُّ العلم والعلماء، وصنِّفت له التَّصانيف الكثيرة في الفِقْه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسنَ الخَطِّ،

---

(١) في «الكامل» ٩/ ١٦٧: وعمره قد زاد على أربع عشرة سنة.

(٢) سنجر بن ملكشاه (السلطان)، توفي سنة ٥٥٢هـ. في ربيع الأول. أصابه قولنج ثم بعده إسهال فمات منه. انظر «الكامل» ٩/ ٤١٥.

(٣) لعله قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، صاحب الموصل، قتل سنة ٥٠٠هـ. «الكامل» ٩/ ١٠٦ ـ ١٠٧. ولعل هنا سقط من الأصل، بحيث تكون: بيد أولاد قليج أرسلان.

(٤) انظر «الكامل» ٩/ ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٥) قال ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ١٧٣: من غريب الاتفاق أنه لما توفي السلطان ألب أرسلان توفي بعده القائم بأمر الله، ولما توفي السلطان ملكشاه توفي بعده المقتدي بأمر الله، ولما توفي السلطان محمد توفي بعده المستظهر بالله.

Marfat.com

جيدَ التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولدُه المسترشد بالله، ودُفن في حُجْرة كانت له يألفها.

وفي أيامه توفي جماعةٌ من العلماء؛ ففي شعبان سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المُظَفَّر الشَّامي[١]. وفي ذي القَعْدَة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القَزْويني المُعْتزلي[٢]، مصنِّف «حدائق ذات بهجة»[٣] في تفسير القرآن يزيد على ثلاثمائة مجلد. قال ابن الأثير: رأيتُ منه تفسير الفاتحة في مجلَّدٍ كبير. وفي ذي الحجَّة منها توفي الإمام أبو نَصْر الحُمَيْدِي[٤] مصنِّف «الجمع بين الصحيحين»[٥]. وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طِرَاد بن محمد الزَّيْنَبي[٦]، وله نحو تسعين سنة وفي سنة

---

(١) هو محمد بن المظفر بن بكران بن عبد الصمد بن سليمان الشامي الحموي، أبو بكر الشافعي الزاهد، قاضي القضاة ببغداد، ولد ببغداد سنة ٤٠٠هـ وولي القضاء بها سنة ٤٧٨هـ. ولم يأخذ على القضاء رزقاً، وكان يسوي بين الوضيع والشريف في الحكم، ويقيم جاه الشرع، فكان هذا سبب انقلاب الأكابر عنه، وكان ورعاً زاهداً على حدة فيه، توفي سنة ٤٨٨هـ، له كتاب «البيان في أصول الدين» (كشف الظنون ٦/ ٧٦، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٨٥، طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢٠٢).

(٢) هو عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني، القاضي أبو يوسف الحنفي المعتزلي، ولد سنة ٤١١هـ، وتوفي سنة ٤٨٨هـ. صنف: «حدائق ذات بهجة» في تفسير القرآن ثلاثمائة مجلد. (كشف الظنون ٥/ ٥٦٩، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٦١٦ ـ ٦٢٠).

(٣) العنوان مقتبس من الآية الكريمة: ﴿**أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون**﴾ [النمل: ٦٠]. وقال الداودي في طبقات المفسرين ١/ ٣٠٢: قال ابن النجار: جمع كتاباً بلغ خمسمائة مجلد حشى فيه الغرائب والعجائب حتى رأيت منه مجلداً في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿**واتبعوا ما تتلو الشياطين**﴾.

(٤) هو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الحميدي، الحافظ، أبو عبد الله الأزدي الأندلسي المالكي المحدث، ولد قبل سنة ٤٢٠هـ، واستوطن بغداد، وتوفي بها سنة ٤٨٨هـ. له من التصانيف: «الأماني الصادقة»، «بلغة المستعجل في التاريخ»، «تذكرة»، «تسهيل السبيل إلى علم الترسيل»، «جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس»، «الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم»، «جمل تاريخ الإسلام»، «ذم النميمة»، «الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، «الفوائد المنتقاة»، «ما جاء من النصوص والأخبار في حفظ الجار»، «مخاطبات الأصدقاء في المكاتبات واللقاء»، «من ادعى الأمان من أهل الإيمان» (كشف الظنون ٦/ ٧٦ ـ ٧٧، سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٢٠ ـ ١٢٧).

(٥) هو كتاب «الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم» انظر الحاشية السابقة.

(٦) هو طراد بن محمد بن علي الهاشمي، أبو الفوارس الزينبي، نقيب العباسية ببغداد، توفي سنة ٤٩١هـ، من تصانيفه: «العوالي» (كشف الظنون ٥/ ٤٣٢، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٧ ـ ٣٩).

Marfat.com

اثنتين وخمسمائة توفي أبو زكريا التَّبريزي اللُّغَوي[١]. وفي ذي الحِجَّة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي الخازن[٢]؛ صاحب الخطِّ الحسن المشهور. وفي سنة خمس وخمسمائة توفي الإمام أبو حامد الغزالي[٣]. وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الإمام أبو بكر محمد بن أحمد الشَّاشي الفقيه[٤]، رحمهم الله أجمعين.

فصل

[خروج مسعود على أخيه السلطان محمود]

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقر أخاه مسعوداً على المَوْصل مع أتابكه جيوش بك[٥]، فبقي مطيعاً لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فحسَّن له

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي، المعروف بالخطيب، نزيل بغداد، كان يدرس بالمدرس النظامية، أديباً لغوياً ولد سنة ٤٢١هـ، وتوفي سنة ٥٠٢هـ. من تصانيفه: «أسرار الصنعة» في النحو، «بصائر الكمالات»، «تفسير القرآن»، «تهذيب أصلاح المنطق»، «تهذيب غريب الحديث»، «شرح الحماسة» لأبي تمام، «شرح ديوان المتنبي»، «شرح سقط الزند» وهو ديوان أبي العلاء، «شرح شعر أبي تمام»، «شرح القصائد العشرة المختارة»، «شرح قصيدة بانت سعاد»، «شرح اللمع لابن جني»، «شرح المعلقات السبع»، «شرح المفضليات»، «شرح المقصورة لابن دريد»، «الكافي في علمي العروض والقوافي»، «مقدمات في النحو»، «الملخص في إعراب القرآن» (كشف الظنون ٦/ ٥١٩، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٦٩ ـ ٢٧١).

(٢) هو الحسين بن علي بن الحسين بن الخازن، أبو الفوارس، قال ابن الأثير في «الكامل» إنه توفي سنة ٤٩٩هـ. انظر «الكامل في التاريخ» ٩/ ٩٨.

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الطوسي الشافعي ولد سنة ٤٥٠هـ وتوفي سنة ٥٠٥، من مصنفاته: «الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المبهتة» «إحياء علوم الدين»، «مقاصد الفلاسفة»، «تهافت الفلاسفة»، «التبر المسبوك في نصائح الملوك»، «جواهر القرآن»، «السر المصون والجوهر المكنون»، «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»، وغير ذلك الكثير (كشف الظنون ٦/ ٧٩ ـ ٨٠).

(٤) هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر، فخر الإسلام، أبو بكر الشاشي، المعروف بالمستظهري، الشافعي، ولد بميافارقين سنة ٤٢٩هـ، وتوفي ببغداد سنة ٥٠٧هـ. من تصانيفه: «الترغيب» في الفروع، «حلية العلماء في مذاهب الفقهاء»، «الشافي شرح الشامل لابن صباغ» في الفروع، «الشافي شرح مختصر المزني» في الفروع، «العمدة» في الفروع، «المساعد على معرفة القواعد»، «المستظهري» في الفروع، وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٨١. سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).

(٥) جيوش بك، صاحب الموصل، قتله السلطان سنة ٥١٦هـ. «الكامل ٩/ ٢١٧.

Marfat.com

الخروج عن طاعته وطَلَبِ السلطنة، فأظهر العصيان وخَطَبَ للملك مسعود بالسَّلْطنة. وكان زَنْكي يشير بطاعة السلطان وتَرْك الخلاف عليه، ويحذِّرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع. فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزَمَ عسكرَ مسعود، وأسر جماعةً من الأمراء والأعيان، منهم الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن إسماعيل الطُّغْرائي[1]؛ وزير مسعود فقتله السُّلْطان محمود وقال: قد صحَّ عندي فساد اعتقاده ودينه. وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسنَ الكتابة جيد الشعر.

قلت: وقيل: إنه قُتِلَ سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة وخمسمائة. وقيل: إنَّ الذي قتلَه هو السُّلْطان طغرل بن محمد بن مَلِكْشاه. ذكر ذلك كلَّه أبو سعد السَّمْعاني في «تاريخه» وسمَّاه الحسين بن علي بن عبد الصمد الدَّيْلَمي، وأنشد له أشعاراً حساناً، منها: [الوافر]

إذا ما لم تكن مَلِكاً مطاعاً ... فكن عبداً لمالِكِه مُطِيعا
وإنْ لم تَمْلُكِ الدُّنيا جميعاً ... كما تَهْوَاه فاتركْها جميعا
هما سيان مِنْ مُلْكٍ وَنُسْكٍ ... ينيلان الفَتى الشَّرَفَ الرَّفيعا
وَمَنْ يقنعْ مِنَ الدُّنيا بشيءٍ ... سِوَى هذين يَحْيَ بها وَضِيعا

[ولاية آق سنقر البرسقي الموصل]

ثم استأمَنَ مسعودٌ وأتابكه جيوش بك، فأَمَّنهما السّلْطان، وأخذ المَوْصل منهما، فأقطعها آق سُنْقُر البُرْسُقي مع أعمالها، كالجزيرة وسِنْجار ونَصِيبين وغيرها في صفر سنة خمس عشرة، وسيره إليها، وأمره بحفظ عماد الدين زَنْكي وتقديمه والوقوف عند إشارته، ففعلَ البُرْسُقي ذلك وزاد عليه؛ لمكان زَنْكي من العقل والشجاعة وتقدُّم والده في الأيام الرُّكْنية. وكانت سيره مَلِكْشاه عندهم كالشَّريعة المُتَّبعة، فأعظَمُ النَّاسِ عندهم أكثرُهم اتباعاً لسيرته.

[ولاية زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة]

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زَنْكي مدينةَ واسط وشحنكية

---

(١) الحسين بن إسماعيل: كذا في الأصل، والصحيح هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، الملقب بمؤيد الدين، أبو إسماعيل الأصبهاني، المعروف بالطغرائي، قتله السلطان سنة ٥١٥هـ، من مصنفاته: «الإرشاد للأولاد»، «تراكيب الأنوار» في الكيمياء، «جامع الأسرار وتراكيب الأنوار» في الإكسير، «الجوهر النضير في صناعة الإكسير»، «حقائق الاستشهادات» في الكيمياء، «ديوان شعره»، «الرد على ابن سينا» في الكيمياء، «لامية العجم» قصيدة مشهورة، «مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة» في الكيمياء (كشف الظنون ٥/ ٣١١ ـ ٣١٢).

البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عِظَماً. وهاب الأميرُ دُبَيْس بن صَدَقة الأسدي صاحبُ الحِلَّة ناحيتَه، وجَرَتْ بينَه وبين البُرْسُقي حروبٌ ومواقفات، وهمَّ دُبَيْس بقصد بغداد، فسار البُرْسُقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد بالله بنفسه، فانهزمَ عسكر دُبيس، وقتل منهم وأسر خَلْق كثير، وكان لعماد الدين زَنْكي أثرٌ حسنٌ في هذه الوقعة أيضاً بين يدي الخليفة، وذلك في أول المحرَّم سنة سبع عشرة. وأما دُبَيْس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل ابن السُّلْطان محمد، وصار معه من خواصِّ أصحابه، وكان عاصياً على أخيه السُّلْطان محمود.

وأمر السلطان محمود البُرْسُقيَّ أن يرجع إلى المَوْصل، فعاد واستدعى زَنْكي من البصرة ليسيرَ معه إلى المَوْصل، فقال زَنْكي لأصحابه: قد ضَجِرْنا مما نحن فيه، كل يوم قد ملك البلاد أمير، ونؤمر بالتصرُّف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارةً بالمَوْصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشَّام. فسار مِنَ البصرة إلى السُّلْطان محمود فأقام عنده، وكان يقف إلى جانب تخت السُّلْطان عن يمينه لا يتقدَّم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده من بعده.

[ولاية زنكي شحنكية بغداد]

ثم أتى السلطانَ الخبرُ أن العرب قد اجتمعت ونهبتِ البصرة، فأمر زَنْكي بالمسير إليها، وأقطعه إياها لِمَا بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي وقت اختلاف العساكرِ والحروب، ففعل ذلك، فعظُمَ عند السُّلْطان وزاد محلُّه. وكان قد جرى بين يرنقش الزكوي شِحْنة بغداد[1] وبين الخليفة المسترشد بالله نُفْرَة، فتهدَّده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة شاكياً من المسترشد، وحذَّر السلطان جانبه، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه من العراق. فسارَ السُّلْطان إلى بغداد، وجرى بينه وبين المسترشد حروبٌ ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر، ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية بغداد والعراق يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور. فولَّى ذلك زَنْكي مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع، وسار السُّلْطان عن بغداد.

[مقتل آق سنقر البرسقي]

وفي سنة عشرين وخمسمائة قُتِلَ آق سُنْقُر البُرْسُقي بالجامع العتيق بالمَوْصل بعد الصلاة يوم الجمعة[2]؛ ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس، فقتل بيده

---

(١) ولي سعد الدولة يرنقش الزكوي شحنكية العراق سنة ٥١٨هـ. «الكامل» ٩/ ٢٢٩.
(٢) انظر خبر مقتله في «الكامل» ٩/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

Marfat.com

منهم ثلاثة، وقُتِلَ رحمه الله. وكان عادلاً ليِّنَ الأخلاق حَسَنَ العشرة، وكان يصلِّي كل ليلة صلاةً كثيرة، ولا يستعين في وضوئه بأحد. فقرَّر السلطان ولده عز الدين مسعوداً على ما كان لأبيه من الأعمال؛ وهي المَوْصل وديار الجزيرة وحلب وحماة وجزيرة ابن عمر وغيرها. وكان شاباً عاقلاً، فضبط البلاد، ولم تطل أيامه، وتوفي سنة إحدى وعشرين، وولي الأمر بعده أخوه الصَّغير، وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاولي؛ وهو مملوك تركي من مماليك أبيهما، فجرت الأمور على أحسن نِظام.

فصل

[في ولاية زَنْكي المَوْصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البُرْسُقي][1]

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين؛ وسبب ذلك أن عِزَّ الدين بن البُرْسُقي لما توفي، وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرَّ البلاد عليه؛ وكان المُرْسَل بذلك القاضيَ بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشَّهْرُزُوي[2]، وصلاح الدين محمد الياغبساني. فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك، وكانا يخافان جاولي، ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه. وكان بين الصلاح وبين نصير الدين جَقَرَ[3] مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زَنْكي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمتَ أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشَّام قد استولى الإفرنج على أكثرِها، وتمكَّنوا منها، وقويت شوكتُهُمْ، وكان البُرْسُقي يكفُّ بعضَ عاديتهم، فمنذ قتل ازداد طمعُهم، وهذا ولده طفل صغير، ولا بدَّ للبلاد من شَهْم شجاع يذبُّ عنها، ويحمي حوزَتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجريَ خلل أو وَهْن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله تعالى، واللوم من السلطان. فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان فأعجبه وقال: مَنْ تريان يصلُح لهذه البلاد؟ فذكرا جماعةً فيهم عماد الدين زنْكي، وعظَّما محلَّه أكثرَ من غيره. فأجاب السُّلْطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعها، وكتبَ منشوره بها، وسار من بغداد

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٢) هو علي بن القاسم بن المظفر الشهرزوري، توفي سنة ٥٣٢هـ. وسيرد ذكر وفاته بعد قليل.
(٣) هو جقر بن يعقوب، نصير الدين. نائب أتابك زنكي بالموصل، قتل سنة ٥٣٩هـ، انظر خبر قتله في «الكامل» ٩/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

Marfat.com

إلى البوازيج ليملكها ويتقوَّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد. فلما استولى عليها، سار عنها إلى الموصل، فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسَيَّره إلى الرَّحبة وأعمالها، وأقام هو بالمَوْصل يصلحُ أمورَها ويقرر قواعدها. فولَّى نصيرَ الدين دُزْدَارية قلعة المَوْصل، وفوَّض إليه أمرَ الولاية جميعها، وجعل الدُزْدارية في البلاد جميعها له، وجعل الصَّلاح محمد الياغبساني أمير حاجب الدولة، وجعل بهاءَ الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بما وعدهم. وكان بهاء الدين أعظمَ النَّاس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطاً معه وقرباً منه، ورتَّب الأمور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

[ما استولى عليه الفرنج من البلاد، وحال المسلمين وقتئذٍ]

وكان الفرنج قد اتسعت بلادُهم، وكَثُرَتْ أجنادُهم، وعَظُمَتْ هيبتُهم، وزادت صولتهم، وامتدَّت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضَعُفَ أهلُها عن كفِّ عاديهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوءَ العذاب، واستطار في البلاد شرر شرِّهم، وامتدَّت مملكتُهم من ناحية ماردِين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحِمْص ودمشق. وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمِد ومن ديار الجزيرة إلى نَصِيبين ورأس عين.

أما أهل الرَّقَّة وحَرَّان فقد كانوا معهم في ذُلٍّ وهوان، وانقطعت الطُّرق إلى دمشق إلا على الرَّحْبة والبر. ثم زاد الأمر وعَظُمَ الشر، حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خَراجاً وإتاوةً، يأخذونها منهم ليكفوا أذيَّتهم عنهم. ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق، واستعرضوا الرقيق ممن أُخذ من الرُّوم والأرمن وسائر بلاد النَّصْرانية، وخيَّروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العود إلى أهله أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأما أهل حلب فإن الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها حتى في الرَّحا التي على باب الجِنَان، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة.

وأما باقي بلاد الشَّام فكان حال أهلها أشد من حال هذين البلدين. فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زَنْكي، فغزا الفرنج في عُقْر ديارهم، وأخذ للموحِّدين منهم بثارهم، واستنقذ منهم حصوناً ومعاقل. وسيأتي تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الإسلامية هو وابنه من بعده إن شاء الله تعالى.

Marfat.com

فصل

[فتوح عماد الدين زنكي]

ثم شرع زَنْكي رحمه الله في أَخْذ البلاد؛ فافتتح جزيرة ابن عمر، ثم مدينة إِرْبِل في رمضان سنة اثنتين وعشرين، ثم عاد إلى المَوْصل. وسار في جُمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين إلى سِنْجار، فتسلمها، وسيَّر منها الشُّحَن إلى الخابور، فملكه، ثم قصد الرَّحْبة فملكت قسراً، ثم افتتح نَصِيبين وسار إلى حَرَّان. وكانت الرُّها وسَرُوج وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج ـ لعنهم الله ـ وأهل حَرَّان معهم في ضيقٍ عظيم؛ فراسلوا زَنْكي بالطاعة، واستحثوه على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفرنج مُدَّة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشَّامية والجزرية. وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات، ومُلك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشَّامية[1]. فلما عبر الفرات ملك مدينة مَنْبج وحصن بزاعة، وحاصر حلب، ثم فتحت له فرتَّب أمورها، وسار عنها إلى حماة فملكها، وقبض على صاحب حمص وحصرها، وذلك سنة ثلاثٍ وعشرين.

وفي سنة أربع وعشرين اتفق صاحب آمِد مع صاحب حصن كَيْفا وغيرهما من الملوك، وجمعوا عساكر نحو عشرين ألفاً وقصدوا زَنْكي، فلقيهم، فهزمهم وملك سَرْجة ودارا. ثم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب[2]، وكان أضرَّ شيءٍ على أهل حلب، فجمع الفرنج جمعاً عظيماً، فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة، بقيت عظام القتلى بتلك الأرض مُدَّة طويلة. ثم رجع إلى الحصن فملكه عَنْوَةً، فأخربه ومحا أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره. ثم رحل إلى حصن حارِم فحصره، فأنفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج ومن نجا منها يسألون الصلح، ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك؛ لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل فأراد أن يستريحوا ويريحوا، فهادنهم وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون بالشَّام بالأمن وحلول النصر، وسُيِّرت البشائر إلى البلاد بذلك.

[استيلاء زنكي على حماة]

وفيها استولى زَنْكي على مدينة حماة وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذه ورجالَه، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف

---

(١) انظر سبب وكيفية ملك حلب في «الكامل» ٩/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧.
(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٢٥٤.

Marfat.com

دينار، فاتفق حضور دُبَيْس بن صدقة بن مَزْيَد[١] أمير العراق بدمشق منهزماً، فطلبه زَنْكي، وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه. ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى.

[وفاة السلطان محمود بن محمد]

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود بهَمذَان[٢]، وكان عمره نحو ثماني وعشرين سنة[٣]، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة[٤]، وكان حليماً كريماً عاقلاً عادلاً كثير الاحتمال. وطلب السلطنة بعد وفاته ابنُه داود بن محمود، وأخواه: مسعود وسَلْجُوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن مَلِكْشَاه ومعه طغرل ابن السلطان محمد. فجرت بينهم حروبٌ واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان وأصفهان والرَّي وسائر بلاد الجبل.

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى المَوْصل في ثلاثين ألف فارس، فحاصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضاً.

وفي سنة تسع وعشرين استولى زَنْكي على سائر قلاع الحُميدية وولاياتهم[٥]؛ ومنها قلعة العَقْر وقلعة شوش، وحاصر مدينة آمِد ثم مدينة دمشق.

وفيها توفيت والدته بالمَوْصل.

[وفاة السلطان طغرل بن محمد ومقتل المسترشد بالله، وخلافة الراشد بالله]

وفي المحرَّم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد بن مَلِكْشَاه[٦]، فخرج السُّلْطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكرَ الخليفة، وقبضَ عليه وعلى خواصِّه، وأنفذ

---

(١) قتل دبيس بن صدقة سنة ٥٢٩، قتله السلطان مسعود على باب سرادقه بظاهر مدينة خوى، أمر غلاماً أرمنياً بقتله فوقف على رأسه وهو ينكث الأرض بأصبعه فضرب رقبته وهو لا يشعر. انظر «الكامل» ٩/ ٢٨٥.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٢٥٩.

(٣) في «الكامل» كان عمره نحو سبع وعشرين سنة.

(٤) في «الكامل» كانت ولايته للسلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً.

(٥) في «الكامل» ٩/ ٢٧٤: استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الأكراد الحميدية، سنة ٥٢٨هـ.

(٦) انظر «الكامل» ٩/ ٢٧٨.

Marfat.com

السلطان شِحْنة إلى بغداد فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعةٌ من الباطنية على المسترشد وهو في الخيمة فقتلوه[١]. وكتب السُّلْطان إلى شِحْنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور بن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القَعْدة، ولقب بالرَّاشد.

وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر. وكان شهماً شجاعاً، مقداماً فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يره أحد ممن تقدَّمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلا أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديماً يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى مُلْك الدَّيْلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة الدَّيْلم.

فلما ملك السَّلْجقية جدَّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس، لا سيما في وزارة نظام المُلْك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلا أن الحكم والشِّحَن بالعراق كان إلى السُّلْطان، وكذلك العمداء وضُمَّان البلاد، ولم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دَخْله.

وأما المسترشد فإنه استبدَّ بالعراق بعد السلطان محمود، ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر الحروب.

[مقتل الراشد بالله وخلافة المقتفي لأمر الله]

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الرَّاشد إلى المَوْصل صحبة زَنْكي ملتجئاً إليه؛ وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال وتلوُّن في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه وخافه الباقون، وتقدَّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها. فخرج الراشد ملتجئاً إلى زَنْكي، فسار به إلى المَوْصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الرَّاشد ومبايعة عمه أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ففعل ذلك، ولقب المقتفي لأمر الله.

---

(١) في «الكامل» ٩/ ٢٨٣: قصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنية ودخلوا عليه، فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً وقتل مع نفر من أصحابه منهم: أبو عبد الله بن سكينة وكان قتله يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة على باب مراغة وبقي حتى دفنه أهل مراغة.

Marfat.com

وأما الرَّاشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أَذْرَبيجان ثم إلى هَمَذان، فاجتمع إليه مُلوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم، فتصافوا، فانهزم الرَّاشد، وقصد أصبهان، فقتله الباطنية بها في السَّابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ودُفِنَ بأصبهان[١].

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضاً تزوَّج زَنْكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك إسماعيل، وإخوته بني تاج الملوك بوري بن طُغْتِكِين أتابك؛ وهي أُخت الملك دُقاق لأُمه ـ وإليها يُنْسب مسجد خاتون الذي هو مدرسة لأصحاب أبي حنيفة بأعلى الشَّرَف القبلي بأرض دمشق بأرض صنعاء ـ وتسلَّم قلعة حمص.

فصل

[في جهاد زَنْكي للفرنج]

لما كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الرُّوم من القُسْطَنْطينية ومعه خَلْقٌ عظيم لا يحصون كثرةً من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشَّام، فخافه النَّاس خوفاً عظيماً[٢].

وكان زَنْكي مشغولاً بما تقدَّم ذِكْرُه لا يمكنه مفارقة المَوْصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها ـ وهي على مرحلة من حلب ـ وفتحها عنْوَةً، وقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان. ثم سار عنها إلى شَيْزَر ـ وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة فحصرها منتصف شعبان، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً وأرسل صاحبها أبو العساكر سُلْطان ابن مُنقذ[٣] إلى زَنْكي يستنجده، فنزل على حماة، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شَيْزَر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السَّرايا يتخطَّف من يخرج عن عساكرهم للميرة والنَّهْب، ثم يعود آخر النهار. وكان الروم والإفرنج قد نزلوا على شرقي شَيْزَر، فأرسل إليهم زَنْكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شَيْزَر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شَرِّكم. ولم

---

(١) في «الكامل» ٩/ ٣٠٥: لما كان الخامس والعشرون من رمضان، وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة، ودفن بظاهر أصفهان بشهرستان.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٠١ ـ ٣٠٣.

(٣) في «الكامل» ٩/ ٣٠٢: أبو العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني.

يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم. فأشار الفرنج على ملك الرُّوم بلقائه وقتاله، وهوَّنوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة! وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له، فحينئذٍ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم.

وكان أتابك زَنْكي مع هذا يُراسل فرنج الشَّام، ويحذِّرهم ملك الرُّوم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم. وكان يراسل ملكَ الروم يتهدَّده ويوهمه أن الفرنج معه. فاستشعر كلُّ واحدٍ من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملكُ الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فسار زَنْكي خلفهم فظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر، وأخذ جميع ما خلَّفوه ورفعه إلى قلعة حلب ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وكان المسلمون بالشام قد اشتدَّ خوفُهم، وعلموا أن الرُّوم إن ملكوا حصن شَيْزَر لا يبقى لمسلم معهم مقام، لا سيما مدينة حماة لقربها.

ولما يسَّر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراءُ الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحَمَوي[1]، له قصيدة، قد ذكرتُها في ترجمته في «التاريخ»، أولها[2]: [الوافر]

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ ... تَذِلُّ لك الصِّعاب وتستقيمُ
ألم تَرَ أَنَّ كلبَ الرُّومِ لمَّا ... تَبَيَّنَ أنه الملكُ الرَّحيمُ
فجاء يطبِّق الفلواتِ خيلاً ... كأَنَّ الجَحْفَلَ اللَّيْلُ البهيمُ
وقد نَزَلَ الزَّمانُ على رضاه ... فكان لِخَطْبِهِ الخَطْبُ الجسيمُ[3]
فحين رَمَيْتَه بكَ في خميسٍ ... تيقَّنَ أَنَّ ذلك لا يدُومُ
وأبصر في المفاضة منك جيشاً ... فاحزن[4] لا يسيرُ ولا يُقيمُ
كأَنَّك في العَجَاج شهابُ نورٍ ... توقَّدَ وهو شَيْطانٌ رجيمُ

(١) هو ابن قسيم الشاعر، تقدمت ترجمته في هذا الجزء.
(٢) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤، الأبيات الثمانية الأولى فقط. والقصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٧٠ ـ ٤٧٢.
(٣) رواية عجز البيت في «الكامل»:
ودان لخطبه الخطب العظيم
(٤) فاحزن: كذا في الأصل. وفي «الكامل»: فاحرب.

Marfat.com

أراد بـقـاءَ مـهـجـتـه فـولّـى ... ولـيـس سـوى الـحِـمَـام لـه حـمـيـمُ
يـؤمّـلُ أن تـجـودَ بـهـا عـلـيـه ... وأنـت بـهـا وبـالـدُّنـيـا كـريـمُ
أَيَـلْـتَـمِـسُ الـفـرنـجُ لـديـكَ عَـفْـواً ... وأنـتَ بِـقَـطْـعِ دابـرِهـا زَعـيـمُ
وكـم جَـرَّعْـتَـهـا غُـصَـصَ الـمَـنَـايـا ... بـيـومٍ فـيـه يَـكْـتَـهِـلُ الـفَـطِـيـمُ
ولـمّـا أنْ طـلـبـتَـهُـمُ تَـمَـنّـى الْـ ... ـمـنـيَّـة جُـوسَـلِـيـنَـهُـمُ الـلَّـئـيـمُ
أقـام يـطـوِّف الآفـاقَ حـيـنـاً ... وأنـتَ عـلـى مـعـاقـلـه مـقـيـمُ
فـسـار ومـا يُـعـادلـه مـلـيـكٌ ... وعـاد ومـا يُـعـادلـه سـقـيـمُ
إذا خَـطَـرَتْ سـيـوفُـكَ فـي نـفـوسٍ ... فـأوَّل مـا تـفـارِقُـهـا الـجـسـومُ

وله أيضاً من قصيدةٍ يمدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان صاحبَ حماة: [الطويل]

ومـا جـاء كـلـبُ الـرُّومِ إلا لـيـحـتـوي ... حماة وما يسطو على الأسدِ الكَلْبُ
أرادَ بـهـا أنْ يـمـلـكَ الـشّـامَ عَـنْـوَةً ... وقد غُلبت عنه الضَّراغمة الغُلْبُ
ومـا ذَمَّ فـيـهـا الـعـيـش حـتـى صَـدَمْـتَـه ... فمال جناحُ الجيشِ وانكسرَ القَلْبُ
فـولّـى وأطـرافُ الـرِّمـاح كـأنّـهـا ... نـجـومٌ عـلـيـه بـالـمـنـيَّـة تَـنْـصَـبُّ

ولابن منيرٍ من قصيدة في مدح أتابك زَنْكي رحمه الله، سيأتي بعضها عند ذكر فتحه لمدينة الرُّها إن شاء الله تعالى: [الطويل]

ومـا يـومُ كَـلْـبِ الـرُّومِ إلا أخـو الـذي ... أَزَحْتَ به ما في الجَنَاجِنِ من تَبْلِ[1]
أتـاك بـمـثـل الـروم حـشـداً وإنـه ... لـيـفـضـل أضـعـافـاً كـثـيـراً عـن الـرَّمْـلِ
فـقـاتَـلْـتَـهُ بـالـلّـهِ ثُـمَّ بِـعَـزْمَـةٍ ... تـصـكُّ قـلـوبَ الـعـاشـقـيـنَ بـمـا يـسـلـي
تـوهَّـمَ أنَّ الـشّـامَ مـرعًـى ومـا درى ... بأنَّكَ أَمْضَى منه في الشَّزْر والسَّحل[2]
فـطـارَ وخـيـر الـمـغـنـمـيـن ذَمَـاؤه ... إذا رُدَّ عـنـه مـغـنـم الـمـال والأهـلِ[3]

قال ابن الأثير: ومن عجيب ما يُحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الرُّوم شَيْزَر قال الأمير مرشد بن علي؛ أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفاً، فرفعه بيده وقال: اللهم بحق مَنْ أنزلته عليه إن قضيتَ بمجيء الروم فاقبضني إليك. فتوفي بعد أيام، ونزل الروم بعد وفاته.

---

(١) الجناجن، بجيمين ونونين: عظام الصدر، وقيل: رؤوس الأضلاع. والتبل: العداوة والحقد والزحل.
(٢) الشزر: إحكام الفتل وإبرامه، والسحل: دون ذلك، أي أمضى فيه في الأمور الكبار والصغار.
(٣) الذماء: بقية الروح في المذبوح.

ولما عاد الرُّومُ إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عِرْقة؛ وهو من أعمال طرابُلُس، فحصره وفتحه عَنوة، ونهب ما فيه وأسر من به من الفرنج وأخربه، وعاد سالماً غانماً.

وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش.

وفيها توفي بهاء الدين علي بن القاسم الشَّهْرُزُوري[١]؛ قاضي الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده.

وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بِتَكْرِيت.

فصل

[في فتح شَهْرُزُور وبَعْلَبَك وحِصَار دمشق][٢]

قال ابن الأثير: كانت شَهْرُزُور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني، وكان مالكها نافذَ الحكم على قاضي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً حتماً؛ فتحامى الملوك قصدَ ولايته، ولم يتعرَّضوا لها لحصانتها، فَعَظُمَ شأنُه وازداد جَمْعُه.

فلما كان سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد أتابك عنه ما اقتضى أن يقصد بلادَه؛ فهزم عسكره، وملك بلاد شَهْرُزور وغيرها، فأضافها إلى بلاده، وأصلح أحوال أهلها، وخفَّفَ عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان. وعاد إلى الموصل عازماً على المسير إلى الشَّام؛ فإنه كان لا يرى المقام، بل لا يزال ظاعناً؛ إمّا لردِّ عدوٍّ يقصده، وإمّا لقصد بلاد عدوّ، وإمّا لغزو الفرنج وسدّ الثغور. وكانت مياثر[٣] السُّروج آثر عنده من وثير المهاد، والسّهر في حراسة المملكة أحبّ إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألذّ في مسمعه من الغناء، لا يجد لذلك كلّه عناء.

وفي هذه السنة ـ وهي سنة أربع وثلاثين ـ ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي[٤].

---

(١) هو عم القاضي كمال الدين المتوفى سنة ٥٧٢هـ. دفن في صفين. انظر وفيات الأعيان ٢/ ٣٢٩، وطبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢٢٨.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣١٣ ـ ٣١٥.

(٣) مياثر: جمع ميثرة، وهي فراش صغير يحشى بقطن أو صوف يجعل تحت السرج.

(٤) هو ابن أخي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، توفي في ١٩ رمضان سنة ٥٩٧هـ.

Marfat.com

وفيها سار الشهيد في جنوده بعد ملك شَهْرُزور إلى مدينة دمشق، فحصرها، وصاحبها حينئذٍ جمال الدين محمد بن بُوري بن طُغْتِكِين، وكان محكوماً عليه، والغالب على أمره معين الدين أُنَر؛ مملوك جده طُغْتِكِين. وكان أتابك قد أمر كمال الدّين أبا الفضل بن الشَّهْرُزُوري بمكاتبةِ جماعةٍ من مقدَّمي أحداثها وزناطرتها[1] واستمالتهم وإطماعهم في الرغائب والصلات. ففعل ذلك، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد، وخرجوا متفرِّقين إلى كمال الدين، وجدَّد عليهم العُهود، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشَّهيد إلى البلد لِيفْتحوا له الباب ويسلِّموا البلد إليه. فأعلم كمال الدين الشهيد أتابك بذلك، فقال: لا أرى هذا رأياً؛ فإنَّ البلد ضيّق الطُّرُق والشَّوارع، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكّنون من القتال فيه لضيقه، وربما كثُر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم؛ لأنّهم يقاتلون على الأرض والسطوحات، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرُّق لضيق المسالك، فيطمع فينا أهلُه. وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.

[وفاة محمد بن بوري صاحب دمشق
وولاية ابنه مجير الدين أبق بن محمد]

ومن العجب أن محمد بن بُوري صاحب دمشق توفي وأتابك يحصره، فضبط أُنَر الأمور وساس البلد، فلم يتغيّر بالنّاس حال، وأرسل إلى بَعْلَبَكّ، فأحضر ولدَه مجير الدين أبق بن محمد بن بوري، ورتَّبه في الملك مكان أبيه، فمشى الحال بتمكين معين الدين أُنَر وحسن تدبيره. وهذا مجير الدين أبق هو الذي منه أخذ نور الدين بن زَنْكي دمشق كما سيأتي.

ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بَعْلَبَكّ مُعين الدين أُنَر، فأرسل إليها نائبه وتسلمها. فلما علم الشهيد ذلك سار إلى بعلبك، وحصرها عِدَّة شهور، فملكها عَنْوَةً، وترك بها نجمَ الدين أيوب، والد صلاح الدين دُزْداراً، وعزم على العَوْد عنها إلى دمشق، فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعاد عن قصد دمشق، وقد خُطب له فيها، وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيى بن أبي طيّ الحلبي: واتّفق أن الأمراء لمَّا نزلوا من بَعْلَبَك أفسدوا ذخائرها، فقبض عليهم أتابك زَنْكي، وقتل بعضَهم وصلبهم، وكان ولّى قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني. فحكى أنه أُحضر إليه في جملة الأمراء

= كما سيأتي في الجزء الرابع، وكان والده شاهنشاه قد قتل على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة ٥٤٣هـ. انظر وفيات الأعيان ٢/ ٤٥٢.

(١) الزناط، بالكسر: الزحام، وقد تزانطوا، والزناطرة: هم السكان المولعون بتحريك الفتن والقلاقل.

Marfat.com

شيخ مليح الشيبة، ومعه ولدٌ له أَمْرَد كأنه فلقة قمر، فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك إلا صلبتني قبل ولدي لئلا أراه يعالج سكرات الموت. وبكى، وكان نجم الدين أيّوب واقفاً، فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاحَ الدين في إطلاقه فقال: ما أفعل خوفاً من المولى أتابك. فذهب نجم الدين إلى أتابك، وسأله في الشَّيخ وولده، وقصَّ عليه ما قاله، فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقي من الجماعة، ووهبه نصف بَعْلَبَك.

وقيل: إنَّ نجم الدين ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك، فسأله في الأمراء فأطلقهم له، وولّاه بعلبك، وكتب له ثُلُثها ملكاً، واستقرَّ فيها هو وأهلُه، ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زَنْكي، فأخرجَه منها على ما سنذكره.

ثم إن أتابك بعد ملكه بعلبك سار إلى دمشق، فنزل البقاع، فوردت هدية صاحب دمشق، وطلب العود، ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص. فأشار نجم الدين على زَنْكي بقبول ذلك، وقال: هذا مال كثير، وقد حصل بلا تعب وبلد كبير بلا عناء، ودمشق بلدٌ عظيم، وقد أَلِفَ أهله هذا البيت وتمرَّنوا على سياستهم، وقد بلغتهم الأحوال التي جرت ببعلبك. فامتنع زَنْكي من قبول ما أشار به، ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

[فتح زنكي حصن بارين والمعرة وكفرطاب]

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة، وهي سنة أربع وثلاثين[1]، إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها، واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارِين[2]، وهو للفرنج، فصبر الفريقان صبراً لم يُسمع بمثله إلا ما يُحكى عن ليلة الهرير[3]، ونصر اللّهُ المسلمين، وهرب ملوكُ الفرنج وفُرسانهم، فدخلوا حصن

(١) في «الكامل في التاريخ» ٩/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩، ملك زنكي قلعة بارين سنة ٥٣١هـ.
(٢) في «الكامل» هي قلعة بعرين. وهي تقارب حماة من أمنع الحصون وأحصنها.
(٣) ليلة الهرير: هي من قولهم: هارّه وهرّ في وجهه، وشرٌّ أهرّ، يقال في ظهور أمارات الشر ومخايله، وهرّ يهرّه هريراً: كرهه. وليلة الهرير ويوم الهرير يوصف به اليوم الذي يشتدّ فيه القتال ويتواصل، وتطلق ليلة الهرير على إحدى ليالي القادسية سنة ١٤هـ، وإحدى ليالي صفين سنة ٣٧هـ. ويوم الهرير: يوم بين بكر بن وائل وتميم، قتل فيه الحارث بن بيبة سيد تميم (انظر القاموس المحيط: هرر. والكامل في التاريخ ٢/ ٣٢٨، ٣/ ١٩١).

Marfat.com

بارِين، وفيهم ملك القُدْس؛ لأنه كان أقرب حصونهم، وأسلموا عدَّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح. ثم سار الشهيد إلى حصن بارِين، فحصره حصراً شديداً، فراسلوه في طلب الأمان ليَسْلَموا ويُسَلِّموا الحصن، فأبى إلا أخذَهم قهراً. فبلغه أنّ مَنْ بالسَّاحل من الفرنج قد ساروا إلى الرُّوم والفرنج يستنجدونهم، ويُنْهُون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر؛ فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومَنْ بالحصن لا يعلمون شيئاً من ذلك لقوَّة الحصر عليهم. فأعادوا مراسلته في طلب الأمان، فأجابهم وتسلّم الحصن، وساروا، فلقيتهم أمداد النصارى، فسألوهم عن حالهم، فأخبروهم بتسليم الحصن، فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين! فحلفوا لهم إنّا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حُصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا، فَحَقَنّا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الأثير: وكان حصن بارِين من أضرّ بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطَّعت السُّبُل، فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم. وفي مُدَّة مقامه على حصن بارِين سيّر جنده إلى المعرة وكفرطاب وتلك الولاية جميعها، فاستولى عليها وملكها، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة.

قلت: وقد قال القَيْسَراني يذكر هزيمةَ الفرنج ويمدح زَنْكي قصيدةً أولها:

[البسيط]

حَذار مِنَّا، وأنّى ينفعُ الحذر ... وَهْيَ الصَّوارم لا تُبقي ولا تَذَرُ
وأين تنجو ملوكُ الشِّرْك من ملكٍ ... مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ، لا بل جُنْدُه القَدَرُ
سلُّوا سيوفاً كأغماد السُّيوفِ بها ... صالوا فما غَمَدُوا نَصْلاً ولا شَهَروا
حتى إذا ما عمادُ الدِّين أَرْهَقَهُمْ ... في مأزق مِنْ سَنَاه يَبْرُقُ البَصَرُ
وَلَّوْا تضيقُ بهم ذَرْعاً مسالكُهم ... والموتُ لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ
وفي المسافة من دون النَّجاة بهم ... طُولٌ وإنْ كان في أقطارها قِصَرُ
وأصبحَ الدِّين لا عيناً ولا أثراً ... يخافُ والكُفْرُ لا عينٌ ولا أَثَرُ
فلَا تَخَفْ بعدَها الإفرنج قاطبةً ... فالقومُ إن نفروا أَلْوَى بهم نَفَرُ
إن قاتلوا قُتِلوا أو حاربوا حُرِبوا ... أو طاردوا طُرِدُوا أو حاصروا حُصِروا
وطالما استفحلَ الخَطْبُ البهيمُ بهم ... حتى أتى مَلِكٌ آراؤه غُرَرُ
والسَّيْفُ مُفْترعٌ أبكارَ أنفسهم ... ومِنْ هنالك قيل الصَّارِمُ الذَّكَرُ
لا فارَقَتْ ظِلَّ محيي العَدْل لامعةً ... كالصُّبْح تطوي من الأعداء ما نَشَرُوا

Marfat.com

ولَا انثنى النَّصْرُ عن أنصار دَوْلته بحيثُ كان وإن كانوا به نُصِرُوا
حتّى تعودَ ثُغورُ الشَّام ضاحكةً كأنما حَلَّ في أكنافها عُمَرُ

وقال ابنُ منير: [المتقارب]

فَدَتْكَ الملوكُ وأيّامُها ودام لنقضكَ إبرامُها
وزلّت لِعَيْنِك أَقْدَامُها وزَالَ لبطشك إقْدَامُها
ولو لم تُسلِّم إليكَ القلوبُ هواها لما صحَّ إسلامُها
أيَا محيي العَدْل لَمَّا نعاهُ أيامَى البرايا وأيتامُها
ومُسْتَنْقِذَ الدِّين من أُمَّةٍ أذال المحاريب أصنامُها
دَلَفْتَ لها تقْتفيك الأسُو دُ والبيض والسُّمر آجامُها
جَزَرْتَ[1] جزيرتَها بالسُّيو فِ حتى تشاءمها شامُها
وصارت عواريَّ أكنافِهِ متى شئت أَرْخَصَ مُسْتامُها

قال ابن الأثير: ولما وصل الرُّوم والفرنج إلى الشَّام، ورأوا الأمر قد فات، أرادوا جَبْر مُصيبتهم بمنازلة بعض بلادِ المسلمين، فنازلوا حلب وحَصَرُوها، فلم يَرَ الشّهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم، لأنهم كانوا في جمع عظيم. فانحاز عنهم، ونزل قريباً منهم، يمنع عنهم الميرة، ويحفظُ أطرافَ البلاد من انتشار العدوّ فيها، والإغارة عليها. وأرسل القاضيَ كمال الدين بن الشهرزوري إلى السُّلطان مسعود ينهي إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدوّ، ويطلب منه النّجدة وإرسال العساكر. فقال له كمال الدين: أخاف أن تخرجَ البلادُ من أيدينا، ويجعل السلطانُ هذا حُجَّة ويُنفّذ العساكر، فإذا توسّطوا البلادَ ملكوها. فقال الشّهيد: إن هذا العدوَّ قد طمع في البلاد، وإنْ أخَذَ حلب لم يبقَ بالشَّام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أوْلى بها من الكُفَّار. قال: فلمَّا وصلتُ إلى بغداد وأديت الرسالة، وعدني السلطان بإنفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك ولم يتحرَّك فيه بشيء، وكُتُبُ الشَّهيد إليَّ متّصلةٌ يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر، وأنا أخاطبُ فلا أُزاد على الوعد. قال: فلما رأيت قِلَّة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرتُ فلاناً ـ وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء ـ فقلتُ: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة، وصَعِدَ الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا، وأنت معهم، واستغاثوا بصوتٍ واحد: وَا إِسْلاماه! وادِينَ مُحمَّدَاه! ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين. ثم وضعت إنساناً آخر

(١) جَزَرْتَ: قطعت.

Marfat.com

يفعل مثل ذلك في جامع السلطان. فلما كانت الجمعة وصعِد الخطيب المنبر، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عِمامته عن رأسه، وصاح، وتبعه أولئك النَّفر بالصّياح والبكاء، فلم يبق بالجامع إلّا مَن قام يبكي، وبطلت الجمعة، وسار الناس كلُّهم إلى دار السلطان. وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهلُ بغداد وكلُّ من بالعسكر عند دار السلطان، يبكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضّبط، وخاف السلطان في داره وقال: ما الخبر؟ فقيل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغَزَاة. فقال: أحضروا ابن الشَّهْرُزُوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلّا أنّني قد عزمت على صِدْقه وقول الحق. فلما دخلت عليه قال: يا قاضي، ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر، ولا شك أن السلطان ما يعلمُ كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، ولئن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد. وعظَّمْتُ الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم فقال: اردُدْ هؤلاء العامة عنا، وخُذْ من العساكر ما شئتَ، وسِرْ بهم والأمداد تلحقك. قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم، وعرَّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفرَّقوا. وانتخبتُ من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشَّهيد أُعرِّفُه الخبر، وأنّه لم يبق غيرُ المسير، وأُجدِّدُ استئذانه في ذلك. فأمرني بتسييرهم والحثّ على ذلك، فعَبَرتِ العساكر الجانبَ الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة وَإذَا قد وصل نجّابٌ من الشّهيد يخبر أن الرُّومَ والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين، لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر. فلما خوطب السلطان في ذلك أصرَّ على انفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها؛ وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها. قال: فلم أزل أتوصَّل مع الوزير وأكابر الدولة حتّى أَعَدْتُ العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشَّهيد[1].

قال ابن الأثير: فانظروا إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس - يعني كمالَ الدين - رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا هِمَّة عالية، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، يرغبهم ويخطبهم من البلاد، ويُوفّر لهم العطاء. حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إنَ هذا كمال الدّين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار. فقال لهم: بهذا العقل والرَّأي تدبِّرون دولتي! إن كمال الدين يقلُّ له هذا القدر، وغيره يكثُر له خمسمائة دينار! فإنّ شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خيرٌ من مائة ألف دينار. وكان كما قال رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر الخبر في «الكامل» ٩/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩، في حوادث سنة ٥٣١هـ.

Marfat.com

فصل

[فتح زنكي قلاع الأكراد]

قال: وفي سنة سبع وثلاثين[١] سار الشهيد إلى بلد الهكَّارِية[٢]، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جَقَر نائب السلطان الشهيد بالمَوْصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم. فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني؛ وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العِمَادية عوضاً عنها[٣]. وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره. فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لا أعجز عنه. فأمر ببنائه، وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمرٍ، فَبُني وسماه القلعة العمادية، نسبةً إلى لقبه عماد الدين.

وفي هذه السنة خُطب لأتابك بآمِد، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن، والانتماء إلى خدمته والخطبة له، فأجابه إلى ذلك.

وفيها ملك الشَّهيد مدينة عانة[٤].

[فتح زنكي حمص]

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد ولاية دمشق فشتى بها.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد المَوْصل بعساكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة. فترددت الرسل بينهما حتى استقرتِ الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السُّلْطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته، فامتنع، واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشَرَطَ عليه فتح الرُّها. وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له إن مملكة البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين؛ فإنها قد وليها قبله مثل

---

(١) وخمسمائة.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٢٦.

(٣) في «الكامل» ٩/ ٣٢٦: في هذه السنة أرسل أتابك زنكي جيشاً إلى قلعة أشب، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية، وأمنعها، وبها أموالهم وأهلهم، فملكها فأمر بإخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضاً عنها.

(٤) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٣٠ ملك أتابك زنكي مدينة عانة، في أحداث سنة ٥٣٨هـ.

Marfat.com

جاولي سقاوة، ومودود، وجيوش بك، والبُرْسُقي، وغيرهم من الأكابر، وكان السلاطين يُمِدّونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها، ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك. فلم يُمدّه أحد من السلاطين بفارسٍ واحد ولا بمال، ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدة حصون وولايات، وهزمهم غير مرة، واستضعفهم، وعزّ الإسلام به.

ومن الأسباب المانعة له أيضاً أن الشهيد كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده، وكان السلطان يحبه ويُقرّبه، ويعتمد عليه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى المَوْصل، وأرسل إلى نائبه بالمَوْصل يأمره أن يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً. ففعل ذلك، وقال له: ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعله. فأرسل إليه، فعاد الجواب: إنني لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك. وألزمه بالعود إليه، فعاد ومعه رسولٌ إلى السلطان يقول له: إنني لمّا بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن لم أجتمع به ورَدَدْتُه إلى بابك. فحلَّ هذا عند السلطان محلاً كبيراً، وأجاب إلى ما أراد الشهيد.

ولما استقر المال حمل منه نحو عشرين ألف دينار. ثم إن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان، فاحتاج إلى مداراة الشهيد، فأطلقَ له الباقي استمالة له[١].

[مسير زنكي إلى ديار بكر وفتح عدة بلاد منها]

وفي هذه السنة سار الشهيد إلى ديار بكر ففتح عِدَّة بلاد منها طنْزَة، وإسْعِرد، وملك مدينة المعدِن الذي يعمل منه النحاس من أرمينية، ومدينة حَيْزَان، وأخذ من أعمال ماردين عدة مواضع، ورتَّب أمور الجميع، وملك مدينة حاني، وحاصر آمِد، وأرسل عسكراً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدَّم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

[فتح مدينة الرها]

في فتح الشهيد الرُّها في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة[٢].

وكانت لجوسلين، وهو عاتي الفرنج وشيطانهم، والمقدَّم على رجالهم وفرسانهم.

---

(١) انظر الخبر في «الكامل» ٩/ ٣٢٨.

(٢) انظر الخبر في «الكامل» ٩/ ٣٣١، وفيه: في سادس جمادى الآخرة.

وكان مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام. وهذه الرُّها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسيّ عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية وقُسْطنطينية والرُّها.

وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرُّها شرٌ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان عدة حصون كسَرُوج، والبِيْرَة، وجُملين، والمُوَزَّر. وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمِد من ديار بكر، وماردين، ونَصِيبين، ورأس عين، والرَّقَّة. وأما حَرَّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبَّحوها بالغارة. فلما رأى الشهيد الحال هكذا أَنِفَ منهم، وعلم أنه لا ينال منها غرضاً ما دام جوسلين بها. فأخذ في إعمال الحيل والخداع، لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الإسلام كحاني وجبل جور وآمِد؛ فكان يقاتل مَنْ بها قتالاً فيه إبقاء، وهو يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء[1]، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم. ووكَّل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده. فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنَّ أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرُّها إلى بلاده الشَّاميّة، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرُّها.

ثم وصف ابنُ الأثير الجيش وأنشد: [الوافر]

بجيشٍ جاش بالفُرْسان حتى ... ظننتُ البرَّ بحراً من سلاحِ
وألسنةٍ من العَذبات حُمْرٍ ... تخاطبنا بأفواه الرِّياحِ
وأروعَ جيشُه ليلٌ بهيم ... وغُرَّتهُ عمود للصباحِ
صَفوحٌ عند قُدْرته ولكن ... قليلُ الصفح ما بين الصِّفاحِ
فكان ثباتُه للقلب قلباً ... وهيبته جناحاً للجناحِ

وألَحَّ الشهيد في حصارها، فملكها عَنْوَةً، فاستَباحها، ونكس صلبانها، وأباد قُسُوسها ورُهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النَّهْب والسَّبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأَنِفَ لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أخذ منه من أثاث ومال وسبي ورجال، وجوار وأطفال، فَرُدُّوا عن آخرهم، لم يُفْقَد منهم إلا الشّاذّ والنّادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً. ثم رتَّبَ البلد وأصلح من

(١) يسرُّ حسواً في ارتغاء: هو مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره. ومعنى المثل: أي يظهر أخذ الرغوة وهو يحسو اللبن (لسان العرب: رغا).

Marfat.com

شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كَسَرُوج وغيرها، وأخْلَى ديار الجزيرة من معرَّة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره، وطاب بها نَشْره، وشهده خَلْقٌ كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنّهم رَأَوْا يوم فتح الرُّها الشّيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي؛ وكان من العلماء العاملين، والزّاهدين في الدّنيا، المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة. ذكروا عنه أنّه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مُسْتَبْشِرٌ مسرور، عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً، فلما قعد معهم قال: حدّثني بعض إخواننا أن أتابك زَنْكي فتح مدينة الرُّها، وأنّه شهد معه فتحها يومنا هذا. ثم قال: ما يضرُّك يا زَنْكي ما فعلتَ بعد اليوم. يُردّد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح. ثم إن نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشّيخ وقالوا له: منذُ رأيناك على السّور تكبّر أيقنّا بالفتح. وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً.

قال: وحكى لي بعضُ العلماء بالأخبار والأنساب؛ وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صِقِلّية من الفرنج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصّالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يُحضره ويكرمه، ويرجع إلى قوله، ويقدّمه على مَن عنده من الرهبان والقسيسين. فلما كان الوقتُ الذي فُتحت فيه الرُّها سيّر هذا ملكُ الإفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالسٌ وعنده هذا العالم المغربي وقد نَعَس وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرُّها. فتضاحك مَنْ عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم. واشتد هذا على الملك، فلم يمض غيرُ قليلٍ حتّى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدةُ هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر؛ لعلوّ منزلة الرُّها عند النّصرانية.

قال: وحكى لي أيضاً غيرُ واحد ممن أثق إليهم، أن رجلاً من الصالحين قال: رأيتُ الشّهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرُّها[1].

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٣٢.

Marfat.com

قلتُ: وهنأه القَيْسَراني عند فتح الرُّها بقصيدةٍ أولها[١]: [الطويل]

هو السَّيْفُ لا يُغْنيك إلا جِلادُهُ ... وهل طوَّق الأملاكَ إلا نِجادُهُ
وعن ثَغر هذا النَّصْرِ فلتأخذِ الظُّبى ... سناها وإن فاتَ العيونَ اتقادُه
سمت قُبَّة[٢] الإسلام فخراً بطَوْله ... ولم يكُ يسمو الدِّينُ لولا عِمادُهُ
وذاد قسيمُ الدَّولة ابنُ قسيمِها ... عنِ الله ما لا يُسْتَطاعُ ذيادُهُ
لِيَهْنِ بني الإيمان أمنٌ ترفَّعَتْ ... رواسيه عِزًّا واطمأنَّ مِهادُهُ
وفتحٌ حديثٌ في السماع حَدِيْثُه ... شهيٌّ إلى يوم المَعَادِ مُعادُه
أراحَ قلوباً طِرْنَ عن وُكُناتِها[٣] ... عليها فوافى كلَّ صدر فؤادُهُ
لقد كان في فتح الرُّهاء دلالةٌ ... على غير ما عند العُلُوج اعتقادُهُ
يُرَجُّون ميلاد ابن مريمَ نُصرةً ... ولم يُغْنِ عند القوم عنه ولادُه
مدينةُ إفْكٍ منذ خمسين حِجَّةً ... يفلُّ حديدَ الهند عنها حدادُهُ
تفوتُ مدى الأبصار حتى لوَ أنَّها ... ترقَّتْ إليه خانَ طَرْفاً سوادُهُ
وجامحةٌ عَزَّ الملوكَ قِيادُها ... إلى أنْ ثناها مَنْ يعِزُّ قِيَادُهُ
فأوسعَها حرَّ القِرَاع مُؤَيَّدٌ ... بصيرٌ بتمرين الألدِّ لِدَادُهُ
كأنَّ سنا لَمْعِ الأسنَّةِ حَوْلَه ... شَرَارٌ ولكنْ في يديه زِنادُهُ
فأضرَمها نارَيْن: حَرْباً وخَدْعةً ... فما راعَ إلّا سورُها وانهدادُهُ
فصدَّت صُدُودَ البِكْر عند افتضاضها ... وهيهات كان السيفُ حتماً سِفاده
فيا ظَفَراً عمَّ البلادَ صلاحُه ... بمن كان قد عمَّ البلادَ فسادُهُ
فلا مُطْلَقٌ إلا وَشُدَّ وثاقُه ... ولا مُوثَقٌ إلّا وحُلَّ صِفادُهُ
ولا مِنْبَرٌ إلا ترنَّح عُودُه ... ولا مُصْحَفٌ إلا أنار مِدَادُهُ
فإن يشكل الإبرنز فيها حياته ... وإلا فَقُلْ للنَّجْم كيف سُهادُهُ
وباتت سرايا القمص تقمص دونَها ... كما يتنزَّى عن حريقٍ جرادُهُ
إلى أينَ يا أسرى الضَّلالةِ بعدها ... لقد ذَلَّ غاويكُم وعَزَّ رشادُهُ
رُوَيْدَكُمُ لا مانعٌ من مُظَفَّرٍ ... يعانِدُ أسبابَ القضاءِ عِنادُهُ
مُصيبُ سهام الرأي لو أنَّ عَزْمَهُ ... رمى سَدَّ ذي القَرْنين أصمى سَدادُهُ

---

(١) بعض أبيات هذه القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥.
(٢) في «خريدة القصر» ١/ ١٥٥: «قبلة» بدل: «قبّة».
(٣) وكناتها: جمع وَكْن، وهو عش الطائر في جبل أو جدار.

Marfat.com

وقل لملوك الكُفرِ تُسلِمُ بعدها ... ممالكَها إن البلادَ بلادُهُ
كذا عن طريق الصُّبْحِ أيتُها الدُّجى ... فيا طالما غالَ الظلامَ امتدادُهُ
ومن كان أملاكُ السَّمواتِ جندَه ... فأيةُ أرضٍ لم ترضها[1] جيادُهُ
ولله عزمٌ ماءُ سَيْحانِ وِرْدُهُ ... وروضة قُسْطَنْطِيْنَةٍ مُستراده[2]

وله من قصيدة هنّأ بها القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوْري أَوَّلُها: [الكامل]

هي جنة المأوى فهل مِنْ خاطب

يقول فيها: [الكامل]

إن الصَّفائح يوم صافحت الرُّها ... عطفت عليها كل أَشْوسَ ناكبِ[3]
فتح الفُتوح مبشِّراً بتمامه ... كالفَجْرِ في صَدْرِ النَّهار الآيبِ
لله أيَّة وقفةٍ بَدْرِيَّةٍ ... نُصرت صحابتها بأيمنِ صاحبِ
ظفرٌ كمال الدّين كنتَ لقاحَه ... كم ناهضٍ بالحرب غيرِ مُحَاربِ
وأمدَّكم جيشُ الملائك نُصرةً ... بكتائب محثوثة بكتائب
جنبوا الدَّبورَ وقُدْتُمُ ريحَ الصَّبا ... جندُ النُّبوة هَلْ لها من غالبِ[4]
أترى الرُّها الوَرْهاء يوم تمنَّعَتْ ... ظَنَّتْ وجوبَ السورِ سَوْرَةَ لاعبِ[5]
لا أين يا أسرى المهالك بعدَها ... ضاقَ الفضاءُ على نجاة الهارب
شدًّا إلى أرضِ الفرنجة بعدَها ... إن الدُّرُوبَ على الطَّريق اللَّاحب
أفغرُّكم والثّارُ رهنُ دمائكم ... ما كان من إطراق لَحْظ الطَّالبِ
وإذا رأيت اللَّيث يَجْمَعُ نفسَه ... دونَ الفريسة فَهو عينُ الواثبِ

وقال ابن منبر: [البسيط]

صفاتُ مجدِكَ لفظٌ جلَّ معناه ... فلا استردَّ الذي أعطاكهُ الله
يا صارماً بيمينِ الله قائِمُهُ ... وفي أعالي أعادي اللّهِ حَدَّاه
أَصْبَحْتَ دُون ملوك الأرض مُنفرداً ... بلا شبيهٍ إذِ الأَملاكُ أشباه

---

(١) في «خريدة القصر» ١/ ١٥٥: «تطأها» بدل: «ترضها».
(٢) سيحان: نهر كبير، وهو نهر أذنة بين أنطاكية والروم (معجم البلدان: سيحان). ومستراده: أي مكان ارتياده.
(٣) الأشوس: الجريء على القتال، الشديد.
(٤) الدبور: ريح تهب من نحو المغرب، وريح الصبا تقابلها من ناحية المشرق.
(٥) الورهاء: الخرقاء. ووجوب السور: أي سقوطه.

فداكَ من حاولَتْ مسعاكَ هِمّتُهُ ... جهلاً وقصَّرَ عن مسعاكَ مسعاه
قُلْ للأعادي ألَا موتوا به كمداً ... فاللّهُ خيَّبكُم واللّهُ أعطاه
مَلْكٌ تنامُ عن الفحشاءِ هِمَّتُهُ ... تُقى وتَسهرُ للمعروفِ عَيْنَاه
ما زال يَسْمُكُ والأيامُ تخدُمه ... فيما ابتلاه وتُدْني ما توخَّاه(١)
حتى تعالتْ عن الشِّعْرَى مشاعِرُهُ ... قَدْراً وجاوزتِ الجوزاءَ نَعْلاه(٢)
وقد روى النَّاسُ أخْبارَ الكرام مَضَوْا ... وأين مِمَّا رَوَوْه ما رأيناه
أين الخلائف عن فتحٍ أُتيح له ... مظلِّلٌ أُفُقَ الدُّنيا جناحاه
علا المنابر من أنبائه أَرَجٌ ... مقطوبةٌ بفتيق المِسْك ريَّاه
فتحٌ أعادَ على الإسلام بهجَتَهُ ... فافترَّ مبسمُه واهتزَّ عِطْفَاه
يُهْدَى بمعتصم بالله فتكته ... حَدِيثُها نَسَخَ الماضي وأنساه
إنَّ الرُّها غير عَمُّوريةٍ وكذا ... مَنْ رامها ليس مَغْزَاهُ كمغزاه
أخت الكواكب عِزًّا ما بغَى أحدٌ ... من الملوكِ لها وَقْماً فواتاه(٣)
حتّى دَلَفْتَ لها بالعَزْم يشحذُه ... رأيٌ يبيتُ فُوَيْقَ النَّجم مسراه
مشمِّراً وبنو الإسلام في شُغُل ... عن بَدْءِ غَرْسٍ لهم أثمارُ عقباه
يا مُحيي العَدْلِ إذ قامت نَوَادِبُه ... وعامرَ الجُودِ لما محَّ معناه(٤)
يا نعمةَ الله يستصْفي المزيد بها ... للشاكرين ويستقني صفاياه
أبقاكَ للدِّين والدُّنيا تحوطُهما ... من لمْ يُتَوِّجْكَ هذا التَّاجَ إلا هو

ولابن منير أيضاً من قصيدةٍ تقدَّم بعضُها: [الطويل]

أيَا ملِكاً ألقى على الشِّرْك كلكلاً ... أناخَ على أُماته كَلْكَلُ الثُّكْلِ(٥)
جمعتَ إلى فَتْحِ الرُّها سَد بابِه ... بِجَمْعِكَ بينَ النَّهْبِ والأَسْر والقَتْلِ(٦)
هو الفَتْحُ أنسى كلَّ فتحٍ حديثُه ... وتوَّجَ مَسْطُورَ الرِّواية والنَّقْلِ
فَضَضْتَ به نقشَ الخواتمِ بعدَه ... جُزيتَ جزاءَ الصِّدْقِ عن خاتَم الرُّسْلِ

---

(١) يَسْمُكُ: أي يعلو ويرتفع.
(٢) الشعرى: كوكب نير يطلع بعد الجوزاء.
(٣) وقماً: أي ذلاً.
(٤) محّ: خلق، ودرس.
(٥) أماته: جمع أم، وجمعها أمات وأمهات، وقيل: الأمهات: تقال لمن يعقل. والأمات: تقال لمن لا يعقل.
(٦) سدّ بابه: أي سدّ باب الشرك.

Marfat.com

يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع، وكلٌ يداريه ويخضع له، ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قال: وأما غَيْرَتُه فكانت شديدةً ولا سيما على نساء الأجناد، فإن التعرُّض إليهنَّ كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقلَّما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعرُّض إلى حُرَمهم هلكن وفَسَدْن.

قلتُ: وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخُدْري، وذكر حديث رجم النبي ﷺ ماعِزاً، قال: ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً قال: «أَوَكُلَّمَا انْطَلَقْنَا غُزَاةً في سَبِيلِ الله تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيالنا له نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ[1]، عَلَيَّ أَنْ لا أُوتِي بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إلَّا نَكَّلْتُ بِهِ»[2].

قال ابنُ الأثير: وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْداراً اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خواصِّه وأقرب النَّاس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه عنه أنه يتعرَّض للحُرَم، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغبساني أن يسير مُجِداً ويدخل الجزيرة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره، وقلع عينيه، عقوبةً لنظره بهما إلى الحُرمِ، ثم يصلبه. فسار الصَّلاح مُجداً، فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد، فخرج إلى لقائه، فأكرمه الصَّلاح، ودخل معه البلد، وقال له: المولى أتابك يُسلِّم عليك ويريد أن يُعليَ قدرك، ويرفع منزلتك، ويسلِّم إليك قلعة حلب، ويولِّيَك جميع البلاد الشَّامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهَّز وتحدر مالك في الماء إلى المَوْصل، وتسير إلى خدمته. ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السُّفن ليحدرها إلى المَوْصل في دِجْلة. فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصَّلاح، وأمضى فيه ما أُمر به، وأخذ جميع ماله. فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وأما صدقاته فقد كان يتصدَّق كل جُمُعة بمائة دينار أميري ظاهراً، ويتصدَّق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به. وركب يوماً فعثرت به دابَّته فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن

---

(١) النبيب: صوت التيس عند السفاد.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود حديث ١٧، ١٨، ٢٠، وأبو داود في الحدود باب ٢٣، والدارمي في الحدود باب ١٢، وأحمد في المسند ٥/٨٦، ٨٧، ١٠٢، ١٠٣.

يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته وودَّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ما ذنبك وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال، فقالت له: إن نصير الدين له بك عناية، فاذكر له قصَّتك، وافعل ما يأمرك به. فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك. فلم تزل زوجته تراجعه وتُقَوِّي عزمه، فعرَّف النصير حاله، فضحك منه وقال له: خذ هذه الصُّرَّة الدَّنانير واحملها إليه فهي التي أراد. فقال: الله الله في دمي ونفسي. فقال: لا بأس عليك فإنه ما أراد غير هذه الصُّرَّة. فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم. فأمره أن يتصدَّق به. فلمّا فرغ من الصَّدَقة قصد النَّصير وشكره، وقال: من أين علمت أنه أراد الصُّرَّة؟ فقال له: إنه يتصدق هذا اليوم بمثل هذا القدر، يرسِلُ إلي يأخذه من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أنَّ دابَّته عثرت به حتى كاد يسْقُط إلى الأرض، وأرسلك إلي، فعلمتُ أنه ذكر الصَّدقة.

قال: وحُكي لي من شدَّة هيبته ما هو أشدُّ من هذا. قال والدي: خرج يوماً الشَّهيد من قلعة الجزيرة من باب السِّرّ خلوة وملَّاح له نائم، فأيقظه بعضُ الجاندارية[1] وقال له: اقعد. فحين رأى الشَّهيد سقط إلى الأرض فحرَّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلوُّن والتنقُّل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغيّر على أحدٍ من أصحابه مُذْ مَلَكَ إلى أن قُتل إلّا بذنب يُوجب التّغيُّر، والأمراء والمقدَّمون الذين كانوا معه أولاً هُم الذين بقوا أخيراً، مَنْ سَلِمَ منهم من الموت؛ فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له. وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجنادُ وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشَّهْرُزُوري، فيُحسنون إليه ويؤنسون غُربته فيعود كأنه آهل. وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرّجال ذوي الهمم العليَّة، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسِّع عليهم في الأرزاق، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسنَ ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة: [مجزوء الرمل]

---

(١) الجاندارية: في صبح الأعشى ٤/ ٢ (الطبعة الأميرية) أن الجاندارية فئة من مماليك السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية، والكلمة مركبة من لفظين فارسيين: أحدهما: جان، ومعناه السلاح، والثاني: دار، ومعناه ممسك، ووظيفة الجاندار أن يستأذن السلطان بدخول الأمراء للخدمة. وفي النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠: الكلمة فارسية مركبة من: جان، ومعناها: الروح. ودار: بمعنى حافظ. والجاندار: حافظ الروح، وهم الحرس أو العسس. والكلمة في السياق أعلاه تفيد معنى مهمة الحراسة أكثر مما تفيد الاستئذان على السلطان.

Marfat.com

فـي ذَرَا مَـلْـك هـو الـدَّهْـ ـرُ عـطـاءً واسْـتِـلابـا[١]
مـن لـه كـفٌّ تـبـذُّ الـ ـغـيـثَ سـحًّـا وانـسـكـابـا
فـاتـحٌ فـي كـلِّ وجـهٍ أَمَّـهُ لـلـنَّـصْـر بـابـا
تَـرْجُـف الـدُّنـيـا إذا حَـرَّ (م) كَ لـلـسَّـيـر الـرِّكـابـا
وتـخِـرُّ الـمُـشْـمَـخِـرَّا تُ اخـتـلالاً واضـطـرابـا[٢]
وتـرى الأعـداءَ مـن هَـيْـ ـبَـتِـهِ تـأوي الـشِّـعـابـا
وإذا مـا لَـفَـحَـتْـهـم نـارُه صـارُوا كـبـابـا
يـا عـمـادَ الـدِّيـن لا زِلْـ ـتَ عـلـى الـدِّيـن سـحـابـا
جـاعـلاً مـن دونـه سَـيْـ ـفَـكَ إنْ رِيـع حِـجـابـا
فـالـبِـسِ الـنَّـعـمـاء فـي الأمـ ـنِ الـذي طِـبْـتَ وطـابـا
واصـفُ عـيـشـاً إنَّ أعـدا ءك قـد صـارُوا تُـرابـا

وقال العماد الكاتب: استولى زَنْكي على الشَّام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين. وهو الذي فتح الرُّها عَنْوَةً، واحتلَّ بها من السعادة ذروة، فتسنَّى بفتح الرُّها للمسلمين، جَوْسُ بلاد جوسلين، وعادَ جميعُها إلى الإسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقودُ الفرنج من ذلك الحين تنفسخ، وأمورُها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلُها تُفْتَرع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت، والمسالك قد اختلت، بعد الهيبة المشهورة، والأمنة المشكورة، وانطلقت أيدي التركمان والحراميَّة في فساد الأطراف، والعيث في سائر النَّواحي والأكناف؛ ونظمتُ في صفة هذا الحال أبياتاً من قصيدة[٣]: [الطويل]

كذاكَ عماد الدِّين زَنْكي تنافَرَتْ سعادَتُهُ عَنْهُ وخَرَّتْ دعائِمُهْ
وكم بيتِ مالٍ من نُضَارٍ وجَوْهَرٍ وأنواعِ دِيباجٍ حَوَتْها مخاتِمُهْ
وأضحت بأعلى كلِّ حِصْنٍ مصونةً يُحامي عليها جُنْدُه وخوادِمُهْ
ومنْ صافناتِ الخيلِ كلُّ مُطَهَّمٍ يَرُوعُ الأعادي حَلْيُه وبَرَاجِمُهْ
فلو رامتِ الكُتَّابُ وصفَ شِياتِها بأقلامها ما أدرك الوصفَ ناظِمُهْ

(١) الذرا: الكنف والستر.
(٢) المشمخرّات: أي الجبال العالية.
(٣) القصيدة في «ذيل تاريخ دمشق» ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.

Marfat.com

وكم معقلٍ قد رامَهُ بِسُيوفه ... وشامِخ حِصْنٍ لم تَفُتْه غَنائِمُهْ
ودانَتْ وُلَاةُ الأرضِ فيها لأمره ... وقد أمَّنَتْهُمْ كُتْبُه وخواتمُهْ
وأمَّن مَنْ في كُلِّ قُطْرٍ بِهَيْبَةٍ ... يُراعُ بها أعرابُه وأعاجِمُهْ
وظالم قوم حين يُذْكَرُ عَدْلُه ... فقد زالَ عنهم ظُلْمُه وخصائِمُهْ
وأصبحَ سُلْطانَ البلادِ بسيفه ... وليس له فيها نظيرٌ يُزاحِمُهْ
وزاد على الأملاكِ بَأْساً وسطوةً ... ولم يبق في الأملاك مَلْكٌ يقاوِمُهْ
فلما تناهى مُلْكُهُ وجلالُه ... وراعتْ وُلَاةَ الأرضِ منه لوائِمُهْ
أتاهُ قضاءٌ لا تُرَدُّ سهامُه ... فلم تُنْجِهِ أموالُه ومغانِمُهْ
وأدركه للحين فيها حِمامُه ... وحامتْ عليه بالمَنُون حوائِمُهْ
وأضحى على ظَهْرِ الفراشِ مُجَدَّلاً ... صريعاً تولَّى ذَبْحَهُ فيه خادِمُهْ
وقد كان في الجيش اللُّهام مَبِيْتُهُ ... ومِنْ حَوْله أبطالُه وصوارِمُهْ[1]
وسُمْرُ العوالي حَوْلَهُ بأكُفِّهم ... تذُود الرَّدى عنه وقد نام نائمُهْ
ومِن دونِ هذا عُصْبةٌ قد ترتَّبَتْ ... بأسْهُمها يُرْدَى من الطَّير حائِمُهْ
وكم رامَ في الأيام راحةِ سِرِّه ... وهِمَّتُه تعلو وتقوى شكائِمُهْ
وكم مَسْلكٍ للسَّفر أمَّن سُبْلَه ... ومسرح حَيٍّ أن تُراعَ سوائمُهْ
وكم ثَغْرِ إسلامٍ حواه بسيفه ... من الرُّوم لما أدْرَكَتْهُ مراحِمُهْ
فمن ذا الذي يأتي بهيْبة مثلِه ... وتنفُذُ في أقصى البلادِ مراسِمُهْ
فلو رُقيت في كلِّ مِصْرٍ بذكرِه ... أراقِمُهُ ذلَّتْ هناك أراقِمُهْ[2]
فمن ذا الذي ينجو من الدَّهْرِ سالماً ... إذا ما أتاه الأمر والله حاتِمُهْ
ومَن رام صَفْواً في الحياة فما يرى ... له صَفْوَ عَيْشٍ والحِمَامُ يُحاوِمُهْ
فإيَّاك لا تغبِطْ مليكاً بمُلْكِه ... وَدَعْهُ فإنَّ الدَّهْرَ لا شكَّ قاصِمُهْ
وقل للذي يَبْني الحصونَ لحِفظه ... رُوَيْدَكَ ما تَبْني فَدَهْرُكَ هادِمُهْ
وفي مثل هذا عِبْرَةٌ ومواعظٌ ... بها يَتَناسى المرءُ ما هو عازِمُهْ

[مقتل يرنقش الخادم قاتل زنكي]

قال: وفي ثامن عشر جُمادى الآخرة من السَّنة وصل الخادم يرنقش القاتل لعماد الدين زَنْكي، وانفصل من قلعة جَعْبَر لخوف صاحبها من طلبه منه، فوصل

(١) الجيش اللهام: أي الكثير، كأنه يلتهم كل شيء.
(٢) الأرقم من الحيات: الذي فيه سواد وبياض، وهو من أخبث الحيات وأطلبها للناس.

دمشق متيقناً أنه قد أمن بها، ومدلّاً بما فعله، وظنًّا منه أنَّ الحال على ما توهَّمه، فقُبضَ عليه، وأُنْفِذ إلى حلب صُحبةَ من حفظه وأوصله إليها، فأقام بها أياماً، ثم حُمل إلى المَوْصل وذُكر أنه قتل بها.

قلت: وللحكيم أبي الحَكَم المغربي[1] قصيدةٌ في مرثية الشَّهيد عماد الدين زَنْكي رحمه الله، منها: [الخفيف]

عينُ لا تذخري الدموعَ وبَكِّي ... واستهلِّي دماً على فَقْدِ زَنْكي
لم يَهَب شخصَه الرَّدى بعد أنْ كا ... نتْ له هيبةٌ على كل تُرْكي
خيرُ مَلْكٍ ذي هيبةٍ وبهاءٍ ... وعظيمٍ بين الأنام بُزُرْكِ
يَهَبُ المالَ والجيادَ لمن يمَّـ ... (م) ـمَهُ مادحاً بغير تَلَكُّي
إنَّ داراً تمدُّنا بالرَّزايا ... هي عندي أحقُّ دارٍ بِتَرْكِ
فاسْكُبوا فوقَ قبره ماءَ وَرْدٍ ... وانضَحُوهُ بِزَعْفرانٍ وَمِسْكِ
أيُّ فتكٍ جرى له في الأعادي ... بعد ما استفتحَ الرُّها أيُّ فَتْكِ
كلُّ خَطْبٍ أَتَتْ به نُوَبُ الدَّهْـ ... ـر يسيرٌ في جَنْبِ مَصْرع زَنْكي
بعد ما كاد أنْ تدينَ له الرُّو ... مُ ويَخْوي البلاد مِن غير شكٍّ

فصل

[فيما جرى بعد زَنْكي من تفرُّقِ أصحابه وتمَلُّك ولَدَيْه غازي ومحمود][2]

قال الرئيس أبو يعلى: توجَّه الملك ولد السُّلْطان، المقيم كان معه، فيمن صحبه وانضمَّ إليه إلى ناحية المَوْصل، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين

(١) هو عبيد الله بن المظفر بن عبد الله بن محمد الباهلي المري، أبو الحكم الأديب الأندلسي المعروف بالمغربي، ولد باليمن سنة ٤٨٦هـ. عالم بالطب والهندسة، يغلب عليه المجون، اشتهر ببغداد، وخدم السلطان محمود بن ملكشاه، وأنشأ له في معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جملاً، توفي بدمشق سنة ٥٤٩هـ. له: «ديوان شعره»، «مقصورة هزلية»، «نهج الوضاعة لأولي الخلاعة» أيضاً ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٦٤٨، طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٦١٤ ـ ٦٢٧، خريدة القصر، القسم الرابع، الجزء الأول ص٣٦٩ ـ ٣٨٢، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٣ ـ ١٢٥، نفح الطيب ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩).

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.

Marfat.com

أتابك[١]، وامتنع عليهم الوالي بالموصل علي كوجك أياماً إلى حين تقرَّرت الحال بينهم. ثم فتح الباب، ودخل ولدُه، واستقام له الأمر، وانتصب منصبه. وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين ـ يعني محمدَ بنَ أيوب الياغبساني[٢] ـ في تلك الحال إلى ناحية حلب، ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زَنْكي، وحصل بها، وشرع في جمع العساكر وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدَّهماء. وفَصل عنه الأمير صلاح الدين، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمرٍ يُدَبَّر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما راهق نور الدين لزم خدمةَ والده إلى أن انتهت مُدَّته على قلعة جَعْبر، وسيَّر في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السُّلطان محمود إلى المَوْصل مع جماعةٍ من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى المَوْصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرر أمورَ الشَّام وأتوجَّه إليكم. ثم قصد حلب، ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر، ورتَّبَ النُّوَّاب في القلعة والمدينة.

وقال ابن أبي طيّ[٣] الحلبي: لما اتَّصل قتل أتابك بأسد الدين شِيركُوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين وقال له: اعلم أن الوزير جمال الدين[٤] قد أخذ عسكر الموصلِ وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين وقصدُه إلى المَوْصِل، وقد انضوى إليه جُلُّ العسكر، وقد أنفذ إليَّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أُعرِّج عليه، وقد رأيتُ أن أصيِّرَك إلى حلب، وتجعلَها كرسي مُلكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشَّام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعُه إليك لأن ملك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشَّرْق. فركب وأمر أن يُنادَى في الليل في عساكر الشَّام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، ودخلوها سابع ربيع الأول. ولما دخلوا حلب جاء أسدُ الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها، وقرر أمره ومشى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يمتُّ بأنه كان السَّبب في توليته.

وقال ابن الأثير: لما قُتل أتابك الشَّهيد ركب الملك ألب أرسلان ابن

---

(١) توفي سنة ٥٤٤هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٣٤١ ـ ٣٦٠.

(٢) في «الكامل» ٩/ ٣٤١: صلاح الدين محمد الباغيسياني.

(٣) هو يحيى بن حميدة بن ظافي، المعروف بابن أبي طي، المتوفى سنة ٦٣٠هـ. تقدمت ترجمته.

(٤) هو أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، جمال الدين وزير الموصل. توفي سنة ٥٥٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧١.

Marfat.com

السُّلْطان محمود ـ وكان مع الشهيد ـ واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصَّلاح يقول له: المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلكَ طريقاً نبقي به الملك في أولادِ صاحبنا، ونُعمر بيته جزاءً لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلافَ هذا الأمر في أوله ونتداركْه في بدايته ليَتَّسِعَنَّ الخرقُ ولا يمكن رقعُه. فأجابه الصلاح إلى ذلك، وحلف كل واحدٍ منهما لصاحبه. فركب الجمال إلى الملك فخدمه، وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها، ومعه الصلاح، وقالا له: إنَّ أتابك كان نائباً عنك في البلاد، وباسمك كُنَّا نُطِيعُه. فقبل قولهما، وظنَّه حقاً، وقرَّبهما طمعاً أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه. وأرسلا إلى زين الدين بالمَوْصِل يُعرفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي ـ وهو ولد عماد الدين زَنْكي الأكبر ـ وإحضاره إلى المَوْصل، وكان بشَهْرُزُور، وهي إقطاعُه من أبيه. ففعل زين الدين ذلك وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قُتل والده إلى حلب فملكها، وذلك بإشارة أسد الدين شِيركُوه عليه بذلك، وقال الجمال للملك: إنَّ من الرأي أن تُسَيِّرَ الصلاح إلى مملوك نور الدين بحلب يدَبِّر أمره ـ وكانت حماة إقطاعَ الصلاح ـ فأمره فسار، وبقي الجمال وحده مع الملك، فأخذه وقصد الرَّقَّة فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنِّساء، وأراد أن يُعطي الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم الإقطاع الجزيل والنِّعَم الوافرةُ. وشرع الجمال يستميل العسكر ويُحلِّف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد، وكلُّ من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك. وأقام بالملك في الرَّقَّة عِدَّة أيام، ثم سار به إلى ماكِسين فتركه بها عدَّة أيام أيضاً، قد اشتغل بلذَّاته عن طلب الملك، ثم سار به نحو سِنْجار. وكان سيفُ الدين غازي قد دخل المَوْصِل واستقرَّ بها، فقوِي حينئذٍ جَنانُ جمال الدين، ووصل هو والملك إلى سِنْجار، فأرسل إلى دُزْدَارها وقال له: لا تُسلِّم البلد ولا تُمكِّن أحداً من دخوله، ولكن أرسلْ إلى الملك وقل له: إنَّا تبع المَوْصِل، فمتى دخلتَ الموصل سلَّمتُ إليك. ففعل الدُّزدار ذلك. فقال الجمال للملك: المصلحة أنَّا نسير إلى الموصل، فإنَّ مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذٍ نقبضُ عليه ونتسلَّم البلاد. فساروا عن سِنْجار، وكثُر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك، فبقي في قِلَّة من العسكر، فساروا إلى مدينة بَلَد، وعبر الملك دِجْلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدُّبَيْسي في عسكرٍ إلى الملك في عسكر، وهو في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان

Marfat.com

آخرَ العهد به. واستقرَّ أمر سيف الدين، وأقرَّ زين الدِّين على ما كان عليه من ولاية المَوْصل، وجعل الجمال وزيرَه. وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين، فحلف له وأقرَّه على البلاد، وأرسل له الخِلَع. وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفراً وحضراً، وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه. فلما خُوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقَّف.

قال ابن الأثير: فانظروا إلى فعل جمال الدين وحُسْن عهده وكمال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقامُ الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس، ولقد قلل من قال: النَّاس ألفٌ منهم كواحد. وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

[استقرار غازي في الملك]

قال: ولما استقرَّ سيفُ الدين في الملك أطاعه جميعُ البلاد ما عدا ما كان بديار بكر: كالمعدِن وحِيْزَان وإسْعِرد وغير ذلك، فإن المجاورين لها تغلَّبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد عَبَر إلى الشام لينظر في تلك النَّواحي، ويقرِّر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخَّر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسلُه ويستميله، فكلَّما طلب نورُ الدين شيئاً أجابه إليه استمالةً لقلبه. واستقرَّت الحالُ بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السَّيفي، ومع كل واحدٍ خمسمائة فارس، فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره، في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه، فحينَ رآه عرفه، فترجَّل له، وقبَّل الأرض بين يديه، وأمر أصحابه بالعَوْد عنه فعادوا. وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لِمَ امتنعتَ من المجيء إليَّ، أكنت تخافني على نفسك؟ والله ما خطر ببالي ما تنكره، فلمن أريد البلاد، ومع من أعيش، وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحبِّ الناس إليَّ؟ فاطمأنَّ نور الدين وسكن رَوْعُه، وعاد إلى حلب فتجهَّز، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعَوْد وترك عسكره عنده، وقال: لا غرض لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه. فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده.

Marfat.com

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين: [الوافر]

أيا خيرَ الملوكِ أباً وجَدًّا ... وأنقعهم حياً لغليلِ صادِ[1]
علَوْا وغلَوْا وقال الناسُ فيهم ... شوارِدَ من ثُناءٍ أو أُحادِ
وما اقتَسموا ولا عمدوا بناهم ... بمنصبك القَسيميِّ العِمادي
وهل حلبٌ سوى نَفْس شَعَاعٍ ... تقسَّمها التَّمادي والتَّعادي
نفى ابنُ عماد دين عنها[2] الشـ ... (م) ـكاةَ فأصبحَتْ ذاتَ العمادِ
تَبَخْتَرُ في كُسَا عَدْلٍ وبَذْلٍ ... مُدَبَّجَة التَّهائم والنِّجادِ
وفي محرابها داودُ منه ... يهذِّبُ حكمه آيات صادِ
تجاوزتَ النجومَ فأينَ تبغي ... تَرَقَّ فلا خلوتَ من ازديادِ

فصل

[فيما جرى بعد وفاة زَنْكي من صاحب دمشق والإفرنج المخذولين]

قال ابن أبي طي: في سابع يومٍ من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمندَ، فخرج ليومه في عساكر أنطاكية، وقسم عسكره قسمين: قسماً نفَّذه إلى جهة حماة، وقسماً أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها ـ وكان الناس آمنين ـ فقتل وسبى عالماً عظيماً، وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها. ووصل الخبرُ إلى حلب، فخرج أسد الدين شِيركُوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدَّ في السير، ففاتَهُ الفرنج، وأدرك جماعةً من الرَّجَّالة يسوقون الأسرى فقتلهم، واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنجُ أخذته، وسار مُجنِّباً عن طريق الفرنج إلى أن شنَّ الغارة على بلد أَرْتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه، وعاد إلى حلب مظفَّراً.

وقال ابن الأثير[3]: لما قُتل الشَّهيد سار مجير الدِّين صاحب دمشق في عسكر إلى بَعْلَبَكَّ وحاصرهم، وبها نجم الدِّين أيوب والد السُّلْطان صلاح الدين،

---

(١) أنقعهم: أي أرواهم.
(٢) نفى ابن عماد الدين عنها: كذا في الأصل.
(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٣٤٢.

فسلَّمها إليه، وأخذ منه مالاً، وملَّكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابنُ أبي طَيّ: اشتدَّ صاحب دمشق في القتال، وصبرَ نجم الدين أيوب أحسن صبر، فاتفق أن الماء ـ لما شاء الله ـ من حصن بَعْلَبَك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهله القلعة يستمدُّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدَّ الأمر، فطلبوا الأمان والمصالحة، فاستخلف صاحبُ دمشق نجمَ الدين، وأقرَّ له الثُّلُث الذي كان أتابك قد جعله له فيها، وأقرَّه فيها. ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يَفْسُدَ عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق لحصول أخيه نجم الدين عنده، ومال نور الدين إلى مجد الدين أبي بكر بن الدَّاية حتى ولّاهُ جميع أموره وجميع مملكته، فشقَّ ذلك على أسد الدين.

قال الرَّئيس أبو يعلى: لما اتصل خبر موت زَنْكَي بمعين الدين أُنَر شرع في التأهُّب والاستعداد لقصد بَعْلَبَكَ، وانتهاز الفرصة فيها بآلات الحرب والمنجنيقات. فنزل عليها وضايقها، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيها قِلَّةً دعتهم إلى النزول على حكمه. وكان الوالي بها ذا حزم وعقل ومعرفةٍ بالأمور، فاشترط ما قام له به من إقطاعٍ وغيره، وسلَّم البلد والقلعةَ إليه، ووفى له بما قرَّر الأمر عليه، وتسلم ما فيه مِن غَلَّة وآلةٍ في أيامٍ من جُمادى الأولى من السنة. وأرسل[1] معين الدين الوالي بحمص، وتقرَّرت بَينه وبينه مُهادنة ومُوادعةٌ يعودان بصلاح الأحوال وعمارة الأعمال. ووقعت المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدِّين بحماة، وتقرَّر بينهما مثل ذلك. ثم انكفأ بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بَعْلَبَك، وترتيب من رَتَّبه لحفظها والإقامة فيها.

قال: ووردت الأخبار في أيام من جُمادى الآخرة من السنة بأن ابن جوسلين[2] جمع الإفرنج من كلِّ ناحيَة، وقصد مدينة الرُّها، على غفلةٍ، بموافقة من النصارى المقيمين فيها، فدخلها واستولى عليها، وقَتل مَنْ فيها مِنَ المسلمين. فنهض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زُهاء عشرة آلاف فارس، ووقفت الدَّوابُّ في الطرقات من شدَّة السَّير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم ووقع السَّيف فيهم. وقُتِل من أرمن الرُّها والنَّصارى من قُتل، وانهزم إلى بُرْج يقال له برج الماء، فحصل فيه ابن جوسلين في تقدير عشرين فارساً من وجوه أصحابه، وأحدق بهم

(١) وأرسل: كذا بالأصل، ولعلها: وراسل، لموافقتها سياق الخبر.
(٢) انظر الخبر في «الكامل» ٩/ ٣٤٢، وفيه: جوسلين وليس ابن جوسلين.

Marfat.com

المسلمون، وشرعوا في النَّقْب عليهم حتى تَعَرْقب البرج، فانهزم ابن جوسلين في الخفية من أصحابه، وأُخذ الباقون، ومحَقَ السَّيفُ كلَّ من ظُفر به من نصارى الرُّها، واستُخلص من كان فيه أسيراً من المسلمين، ونُهب منها شيء كثير من المال والأثاث والسَّبي، وانكفأ المسلمون بالغنائم إلى حلب وسائر الأطراف.

قال ابن الأثير[١]: لما قُتل زَنْكي كان جوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرُّها في ولايته غرب الفرات في تل باشر وما جاورها، فراسل أهلَ الرُّها ـ وكان عامَّتُهم من الأرمن ـ وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، فقاتلهم وجَدَّ في قتالهم، فبلغ الخبر نور الدين، وهو يومئذٍ بحلب، فسار إليها بعسكره، فهرب جوسلين، ودخل نور الدين مدينة الرُّها، ونهبها وسبى أهلها. وفي هذه الدفعة نُهبت وخُرِّبت وخَلَت من أهلها، ولم يبق منهم بها إلا القليل. ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازي بالموصل، فجهَّز العساكر إلى الرُّها، فوصلت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده، ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قال: ومن عجيب ما جرى أنَّ نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجواري، فحُملن إلى داره ودخل لينظر إليهنَّ، فخرج وقد اغتسل وهو يضحك، فسُئل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرُّها مع الشهيد كان في جملة ما غنمتُ جارية مالت نفسي إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعادة السَّبي والغنائم، وكان مهيباً مخوفاً، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها. فلما كان الآن أرسل إليَّ نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية، فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: وللقيسراني قصيدة مدح بها جمال الدين وزير المَوْصِل، ذكر فيها فتح الرُّها؛ أولها[٢]: [المتقارب]

أمَا آنَ أنْ يَزْهَقَ الباطِلُ ... وأن يُنْجِزَ العِدَةَ الماطِلُ
إلى كم يُغِبُّ ملوكَ الضَّلا ... لِ سيفٌ بأعناقها كافِلُ
فلا تَحْفِلَنَّ بصَوْلِ الذئاب ... وقد زأرَ الأسدُ الباسلُ
وهل يمنعُ الدِّين إلا فتى ... يَصُولُ انتقاماً فيستاصل
أبا جعفرٍ أشرَقَتْ دولةٌ ... أضاءَ لها بَدْرُكَ الكامِلُ

(١) انظر الحاشية السابقة.
(٢) القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/١٠٨ ـ ١١١.

Marfat.com

فـإمَّـا نُـصِـبْـتَ لـرفـعِ اسـمِـهـا ... فـإنَّـكـمـا الـفِـعـلُ والـفـاعِـلُ
لـيَـهْـنِـكَ مـا أفـرج الـنَّـصْـر عـنـه ... ومـا نـالـه الـمـلـكُ الـعـادِلُ
فـقـل لـلـحِـقَـاق الـطَّـريـقَ الـطَّـريـقَ ... فـقـد دَلَـفَ الـمُـقْـرَمُ الـبـازِلُ(١)
وجـاهَـد فـي الله حـقَّ الـجـهـا ... دِ مُـحـتـسِـبٌ بـالـعُـلا قـافِـلُ
وهـل يَـمْـنـعُ الـسُّـورُ مـن طـالـعٍ ... يُـشـايِـعُـه الـقَـدَرُ الـنَّـازِلُ
فـإنْ يـكُ فـتـحُ الـرُّهـا لُـجَّـةً ... فـسـاحِـلُـهـا الـقُـدْسُ والـسَّـاحِـلُ
فـهـل عَـلِـمَـتْ عِـلْـمَ تـلـك الـدِّيـا ... رِ أن الـمُـقِـيـمَ بـهـا راحِـلُ
أرى الـقُـمْـصَ(٢) يأمُل فَوْتَ الرِّماح ... ولا بُـدَّ أنْ تُـضْـرَبَ الـشَّـائِـلُ(٣)
يُـقـوِّي مـعـاقـلَـه جـاهِـداً ... وهـلْ عـاقـلٌ بـعـدَهـا عـاقِـلُ
وكـيـف بِـضَـبْـطِ بـواقـي الـجـهـات ... لـمـن فـاتَ حِـسْـبَـتَـهُ الـحـاصِـلُ

ولابن منير من قصيدةٍ في نور الدين: [الخفيف]

مَـلِـكٌ مـا أذلَّ بـالـفـتـح أرضـاً ... قـطُّ إلا أعـزَّهـا إغـلاقُـهْ
والـوهَـى فـي الـرُّهـاءِ أزجـى إلـيـهـا ... عـارضـاً شَـيَّـبَ الـدُّجـى إبـراقُـهْ
جـأرَتْ جـأرةً إلـيـه فـحـلَّـى ... عُـطَّـلاً مـن أعـنـاقـهـا إعـنـاقـه(٤)
تـلـك بِـكْـرُ الـفُـتُـوحِ فـالـشَّـام مـنـهـا ... شـامُـهُ والـعِـراقُ بَـغْـدُ عِـراقُـهْ
أيـن كـان الـمـلـوكُ عـن وَجْـهـهـا الـطَّـلْـ ... ـقِ يُـريـنـا إضـاءةً إطـلاقُـهْ
سُـنَّـةٌ سـنَّـهـا أبـوه بـكـلـب الـرُّ ... (م) ومِ لـمـا أظـلَّـه إزهَـاقُـهْ
خـافـقـاً قـلـبُـه إلـى أمـلٍ عـا ... جَـلَـه دون نَـيْـلِـه إخْـفـاقُـهْ
قـسـمـت رايـة الـمـواضـي الـقـسـيـمـيـ ... (م) ـات وابـتـزَّ مـن لَـهَـاهُ عـراقُـهْ
وكـذا أنـت يـا بْـنَـه مـا عـدا مـن ... خُـلْـقـه فـيـك خَـصْـلَـةً خَـلَّاقُـهْ
وكـفـى الـبَـحْـرَ أنَّـه ابـنُ سـحـابٍ ... مـا وَنَـى سَـحُّـه ولا إضـعَـاقُـهْ
لـم يَـمُـتْ مـن سَـدَدْتَ ثُـلْـمَـتَـه يـا ... مَـنْ عـلـى الـدِّيـن كـظَّـه إشْـفَـاقُـهْ

(١) الحقاق: جمع حِقّ، بكسر الجيم وتشديد القاف، وهو من أولاد الإبل الذي بلغ أن يركب ويحمل عليه. والبازل: هو البعير المكرم الذي لا يحمل عليه ولا يذلل، ويسمى السيد الرئيس من الرجال المقرم لعظم شأنه وكرمه.
(٢) في «خريدة القصر» ١/ ١١١: «القس» بدل: «القمص».
(٣) في «خريدة القصر» ١/ ١١١: «السابل» بدل: «الشائل».
(٤) الإعناق: ضرب من السير.

Marfat.com

رهبة لم تدَعْ على الأرضِ قلباً ... خَلْفَ صَدْرٍ يَنْشَقُّ عنه شِقَاقُهْ
كلما طنَّ ذكْرُها منه في السَّمْـ ... ـعِ تَكَمَّى في النَّافِقاء نفاقُهْ[1]
وجهادٍ عن حوزة الدين لم يأ ... لُ له ركضه ولا إنفاقُهْ

وله فيه من قصيدةٍ أخرى: [الوافر]

بنورِ الدين روَّضَ كلُّ مَخْلٍ ... من الدُّنيا وجُدِّدَ كلُّ بالِ
أقام على ثَنيةٍ كلَّ خوفٍ ... سُهاداً بات يكلأُ كُلَّ كالِ
وصوَّبَ عدلُه في كلِّ أَوْبٍ ... فعوَّضَ عاطلاً منه بحالِ
ينكِّسُ رايَهُ رايَ المحامي ... ويَقْتُلُ خوفُه قبلَ القِتالِ
لقد أحصدتَ للإسلام عِزًّا ... يفوت سَنامُهُ يدَ كلِّ قالِ
وأصبحتِ العواصمُ مُلْحَفَاتٍ ... عِصَاماً غيرَ منتكثِ الحبالِ[2]

فَصْل

[توقيع كتب عن الحافظ لدين الله]

وقفت على توقيع كُتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذٍ، وهو الملقب بالحافظ[3]، وعليه علامته: الحمد لله رب العالمين:

إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين بن أحمد البَيْسَاني[4] ـ وهو والد القاضي الفاضل[5]، وكان يومئذٍ متولِّي القضاء والحُكْم بمدينة عَسْقلان ـ يقول فيه: انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوماً من أهل ثَغْرِ عَسْقلان، حماه الله، قد صاروا يؤدُّون توقيعاتٍ بقبول أقوالهم من غير تزكيةٍ من

---

(١) تكمَّى: أي تغطَّى، والنافقاء: جحر الضب واليربوع.
(٢) العصام: الحبل يُعصم به الشيء.
(٣) هو الحافظ لدين الله العبيدي، عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، تملك الديار المصرية سنة ٥٢٤هـ، بعد موت الآمر بأحكام الله، كان كثير الفتك بوزرائه، توفي سنة ٥٤٤هـ (الأعلام ٤/ ١٥٠، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٩٩ ـ ٢٠٢).
(٤) هو القاضي الأشرف علي بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي البيساني. كذا في ترجمة القاضي الفاضل، عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف علي بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي البيساني.
(٥) القاضي الفاضل، تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

شهوده المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غير مستوجبين للشهادة ولا مستحقين لسماع القول. أنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن لا يُسمع قولُ شاهدٍ، وَلَا مَنْ تقدّم لِخَطَابةٍ ولا لصلاة بالناس، ولا لتلاوةٍ في موضع شريف، إلا من زكَّاه أعيانُ شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان؛ فعَدَّ ثمانية أنفس: عبد السَّاتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت: وهذا من أحسن ما يؤرَّخ عن أيام تلك الدولة المباينة للشريعة، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال الرئيس أبو يعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين تردَّدت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أُنَر إلى أن استقرَّت الحال بينهما على أجمل صفةٍ وأحسن قضية، وانعقدت الوُصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكَّدت الأمور على ما اقترح كلٌّ منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شَوَّال، وشُرع في تحصيل الجهاز، وعندَ الفراغ منه توجَّهت الرُّسل عائدةً إلى حلب، وفي صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواصِّ الأصحاب، في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجَّه معين الدين إلى ناحية صَرْخَد وبُصْرى بالخيل والرَّجْلِ وآلات الحرب، ونزل على صَرْخَد، وبها المعروف بالتونتاش غلام أمين الدَّوْلة كُمُشْتِكين الأتابكي الذي كان واليها أولاً[1].

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الأمينية قبلي الجامع بدمشق.

قال: وكانت نفس ألتونتاش قد حدَّثته بجهله أنه يقاوم من يكون مستولياً على دمشق، وأن الإفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صَرْخَد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم وتقرير أحوال الفساد معهم، فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين. وراسل نورَ الدين في إنجاده على الكفرة فأجابه، وكان مبرِّزاً بظاهر حلب في عسكره، فثنى إليه الأعِنَّة وأغذَّ المسير، فوصل دمشق في السَّابع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياماً يسيرة.

---

(١) توفي سنة ٥٤١هـ، وخوطب بالأتابكية سنة ٥٣٠هـ، وكان أميراً جليلاً. انظر ذيل تاريخ دمشق ص٢٥٣.

Marfat.com

[تسلم معين الدين بصرى وصرخد وانهزام الفرنج] ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجَّه نور الدين نحو صَرْخَد، ولم يُشاهد أحسنُ من عسكره، وهيئته وعُدَّته، ووفور عِدَّته. واجتمع العسكران، وأرسل مَنْ بصَرْخَد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياماً وتسلُّم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم. وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمُّع الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم، مجدِّين السير إلى ناحيةَ بُصرى، وعليها فرقة وافرةٌ من العسكر محاصرةً لها. فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بُصْرى فسبقوا الفرنج إليها، فحالوا بينهم وبينها. ووقعت العين على العين فانهزم الكُفَّار، ووَلَّوْا الأدبار، وتسلَّم معين الدين بُصْرى، وعاد إلى صَرْخَد فتسلَّمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السَّابع والعشرين من المحرَّم. وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش ـ الذي خرج من صَرْخَد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله ـ إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توهُّماً منه أنه يُكرم ويُصطنع بعد الإساءة القبيحة والارتداد عن الإسلام. فاعتقل في الحال، وطالبه أخوه خُطْلخ بما جناه عليه من سَمْل عينيه، وعُقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القِصاص، فَسُمِل كما سَمَل أخاه، وأُطلق إلى دار له بدمشق، فأقام بها.

قلت: وقد ذكر ابنُ منير وقعة بُصْرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدَّم بعضها منها: [الخفيف]

أيَّ شأوٍ أدركتَ يا نورَ دينِ الـ ... ـلـه أعيا على الملوكِ لحاقُهْ
نَطَقَ الحاسدونَ بالعَجْزِ عن مَلْـ ... ـكٍ محلًّى بالنَّيِّرات نِطَاقُهْ
غَضَّ أبصارَهُمْ لحاقُ جَوَادٍ ... ليس إلا إلى المعالي سِبَاقُهْ
سَلْ بصيراً كم أَعْتَقَتْ يومَ بُصْرى ... من إسارِ الموتِ الزُّؤامِ عِتَاقُهْ[1]
كم عُرَامٍ على العُرَيمة شَبَّتْ ... ضاقَ منه على الصَّليبِ خِنَاقُهْ
ولكم هَبْوَةٍ بهاب وأُخْتَيْـ ... ـها لها صَكَّتِ الأسارى رِبَاقُهْ[2]
بَسَطَ الذُّلَّ فوقَ بسطة باسو ... طا ولكن طواه عنه ارتفاقُهْ

(١) عتاقُه: جمع عتيق، وهو الفرس الكريم.
(٢) رباقُه: جمع ربق، وهو حبل فيه عدة عُرى تُشَدُّ به الغنم.

Marfat.com

وفي هذه السنة ولد بِبَعْلَبَكَّ الملكُ العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زَنْكي الرُّها.

قال أبو يعلى: وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأول توفي الفقيه شيخ الإسلام أبو الفتح نصرُ الله بن محمد بن عبدالقوي المِصِّيصي[١] بدمشق، وكان بقية الأئمة الفقهاء المفتين على مذهب الشَّافعي، ولم يخلُف بعده مثله.

قال: وفي جُمادى الآخرة تقرَّرت ولاية حِصْن صَرْخَد للأمير مجاهد الدين بُزان بن مامين[٢] على مبلغ من المال والغَلَّة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهلُ تلك الناحية به لما هو عليه من حُبِّ الخير والصلاح، والتدَيُّنِ والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوال، وهو مستهل نيسان أظلم الجو، ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغَدِرة[٣] بين العشاءين، وبقيت السماء في عين الناظر إليها كصفرة الوَرْس[٤]، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة، وكل ما يُنظر إليه من حيوانٍ وجماد ونبات. ثم جاء في أثر ذلك من الرَّعد القاصف، والبرق الخاطف، والهدَّاتِ المزعجة، والرَّجفات المُفْزِعة، ما ارتاع لها الشَّيْبُ والشُّبَّان، فكيف الولدان والنسوان؟! وقلقت لذلك الخيول في مرابطها، وبقي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخرة، ثم سكن بقدرة الله تعالى، وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبارٌ في رقة الهواء، بين البياض والغُبْرة.

قال ابن الأثير[٥]: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين أَرْتاح بالسَّيف، وحصن باراة[٦]، وبصرفوث[٧]، وكَفْر لاثا. وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردُّون ما أخذ منهم، فلما رأَوْا من نور الدين هذا الجِدَّ علموا أَنَّ ما أمَّلوه بعيد.

---

(١) كان متجنباً أبواب السلاطين، ولد باللاذقية سنة ٤٤٨هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١١٨ ـ ١١٩، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ١٢٩، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٣٢٠ ـ ٣٢١).

(٢) توفي في صفر سنة ٥٥٥هـ، سترد ترجمته في صفحة لاحقة من هذا الجزء.

(٣) الغدرة: يقال: ليلة غدرة: أي شديدة الظلمة تحبس الناس في منازلهم، فيغدرون أي يتخلفون.

(٤) الورس: نبات مثل نبات السمسم لونه أصفر.

(٥) انظر «الكامل» ٩/ ٣٤٨.

(٦) في «الكامل»: «حصر مابولة» بدل «حصن باراة».

(٧) في «الكامل»: «بصرفوت» بالتاء، بدل «بصرفوث» بالثاء.

Marfat.com

فصل

[في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله تعالى عنها]

قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة تواصلت الأخبار من ناحية القُسْطنطينية وبلاد الفرنج والرُّوم وما والاها بظهور ملوك الإفرنج من بلادهم؛ منهم الألمان والفُنش، وجماعةٌ من كبارهم في العدد الذي لا يُحصر، لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم: النَّفيرَ النَّفيرَ إليها، والإسراع نحوها. وخلَّوْا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حُماتها والحفظة لها. ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعُددهم الشيء الكثير الذي لا يحصى، بحيث يقال: إن عدَّتهم ألف ألف من الرَّجَّالة والفرسان، ويقال أكثر من ذلك. وغلبوا على أعمال قُسْطنطينية، واحتاج ملكها إلى الدُّخول في مُدَاراتهم ومسالمتهم، والنُّزول على أحكامهم. وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم، شرعت ولاة الأعمال المصاقبة لهم، والأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهُّب للمدافعة لهم، والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم، لكي يمنعوهم من العُبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام، وواصلوا شنَّ الغارات على أطرافهم، واستحرَّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العددُ الكثير، وحلَّ بهم من عدم القوت والعُلوفات والمِيَر وغلاء السعر ـ إذا وجدوه ـ ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم، وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين، بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

[الحرب بين الفرنج والمسلمين] ودخلت سنة ثلاث وأربعين

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية: صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج. ويقال: إنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير من مائة ألف، وقصدوا البيت المقدَّس، فَقَضَوْا حجَّهم، وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلقُ العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه. واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، إلى أن استقرَّت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين،

Marfat.com

فاستعدَّ لحربهم، فجاؤوا في تقدير خمسين ألفاً، ودنَوْا من البلد، وقصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها، فصادفوا الماء مقطوعاً، فقصدوا ناحية المِزَّة فخيَّموا عليها لقربها من الماء، وزحفوا إلى البلد بخيلهم ورَجْلهم، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوَّل، ونشبت الحربُ بين الفريقين، واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفُتَّاك وأحداث البلد والمطوِّعة والغُزاة الجمُّ الغفير، واستظهر الكُفَّار على المسلمين بكثرة الأعداد، وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين، وخيَّموا فيها، وقَربوا من البلد، وحصلوا منه بمكان لم يتمكَّن أحدٌ من العساكر قديماً وحديثاً منه، واستُشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفِنْدَلاوي المالكي[1]، رحمه الله، قريبَ الرَّبوة على الماء؛ لوقوفه في وجوههم، وترك الرجوع عنهم؛ اتِّبع أوامر الله تعالى في كتابه الكريم[2] وقال: بعنا واشترى[3]، وكذلك عبد الرحمن الحلحول الزَّاهد[4]، رحمه الله، جرى أمره هذا المجرى.

قلت: وذكر الأمير أسامة بن مُنْقذ[5] في «كتاب الاعتبار»[6] أن ملك الألمان

---

(١) هو حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي، أصله من المغرب، قدم دمشق حاجاً، فسكن بانياس مدة، وكان خطيباً بها، ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، ودرس بها مذهب الإمام مالك، وحدث بالموطأ وكتاب التلخيص لأبي الحسن القابسي (انظر: معجم البلدان ٤/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨، وفيات الأعيان ٢/ ٤٥٢، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ [التوبة: ١١١].

(٣) في «الكامل» ٩/ ٣٥٣: وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي، كان شيخاً كبيراً فقيهاً صالحاً، فلما رآه معين الدين وهو راجل، قصده وسلم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور لكبر سنك، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين، وسأله أن يعود، فلم يفعل، وقال له: قد بعت واشترى مني، فوالله لا أقلته ولا استقلته، يعني قول الله تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ [التوبة: ١١١].

(٤) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلحولي (وليس الحلحول كما في المتن) نسبة إلى قرية في الخليل، ولد بحلب، وسار في الآفاق، وكان آخر أمره أنه انقطع بمسجد في ظاهر دمشق حتى قتل شهيداً (معجم البلدان ٢/ ٢٩٠).

(٥) هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي، مؤيد الدولة، مجد الدين، أبو المظفر الشيزري، ولد سنة ٤٨٨هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤هـ، من تصانيفه: «أزهار الأنهار»، «البديع في علم البلاغة»، «التجاير المربحة والمساعي المنجحة»، «ديوان شعره»، «كتاب الاعتبار» (كشف الظنون ٥/ ١٩٦).

(٦) انظر «كتاب الاعتبار» ص١١٧.

Marfat.com

الفرنجي لما وصل إلى الشَّام اجتمع إليه كلُّ من بالشام من الإفرنج، وقصد دمشق، فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفِنْدلاوي المالكي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحَلْحُولي ـ رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين ـ فلما قاربوهم قال الفقيه: يا عبد الرحمن، أما هؤلاء الرُّوم؟ قال: بلى. قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله. فتقدَّما فقاتلا حتى قُتلا في مكان واحد، رحمهما الله تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتَّحصُّن بها، وهدُّوا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه، والرَّوْع بما عاينوه، ما ضعفت به القلوب وحَرِجَتْ معه الصدور، وباكروا الظُّهور إليهم في غد ذلك اليوم؛ وهو الأحد تاليه، وزحفوا إليهم، ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يُشاهد في غيره، بحيث لا يني في جهادهم، ولا ينثني عن ذيادهم. ولم تزل رحا الحرب دائرةً بينهم، وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم، حتى تتهيأ الفرصة لهم، إلى أن مالت الشمس إلى الغروب، وأقبل الليل، وطلبت النفوس الراحة، وعاد كلٌّ منهم إلى مكانه، وبات الجند بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم. وكانت المكاتبات قد نفُذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل، ورجَّالة الأطراف تتتابع. وباكرهم المسلمون وقد قويت نفوسهم، وزال عنهم رَوْعهم، وثبتوا بإزائهم، وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ[1]، بحيث يقع في مخيَّمهم في راجل أو فارس، أو فرس أو جمل. ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجَّالة كثيرة من الرُّماة، فزادت بهم العِدَّة، وتضاعفت العُدَّة. وانفصل كل فريق إلى مستقرِّه في هذا اليوم، وباكروهم من غده يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم في مخيمهم، وقد تحصَّنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنُّشَّاب، وحذْفاً بالأحجار، وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا، ولم يظهر منهم أحد، وظُنَّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبِّرون حيلة، ولم يظهر منهم إلا النَّفر اليسير من الخيل والرَّجْل على سبيل المطاردة والمناوشة، خوفاً من المهاجمة إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً. وليس يدنو منهم أحد إلا صُرع برِشْقة أو طعنة. وطمع

(١) الجرخ: آلة حربية كرمي السهام والحجارة والنفط، والقائم على تشغيلها يسمى جرخي.

Marfat.com

فيهم نفر كثير من رَجّالة الأحداث والضِّياع، وجعلوا يقصدونهم في المسالك وقد أمنوا، فيقتلون من ظفروا به ويُحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها. وحصل من رؤوسهم العدد الكثير. وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار، وحُلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرَّحيل، فرحلوا سَحَر يوم الأربعاء التالي مفلولين. وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم، وسارعوا في آثارهم بالسهام، بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدَّوابِّ العدد الكثير. ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم ما لا عَدَدَ له ولا حَصْر يلحقه، بحيث لها أراييح من جيفتهم تكاد تَصْرع في الجو. وكانوا قد أحرقوا الرَّبوة والقُبَّة الممدودية في تلك الليلة. واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم، وأكثروا من الشُّكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدَّة. فللَّه الحمد على ذلك والشكر. واتفق عقيب هذه الرَّحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قرية من دمشق للإنجاد لها.

وقال ابن الأثير[1]: خرج ملك الألمان من بلاد الفرنج في جيوش عظيمة لا تحصى كثرةً من الفرنج إلى بلاد الشَّام، فاتفق هو ومَنْ بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها، ولا يشكُّ ملك الألمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره. قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عدداً وأوسعهم بلاداً، وملكهم أكثر عَدَداً وعُدَداً، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً. فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين آبق بن محمد بن بُوري بن طُغْتِكِين[2]، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جده طُغْتِكِين؛ وهو معين الدين أُنَر، فهو كان الحاكم والمدبِّر للبلد والعسكر، وكان عاقلاً ديناً خيِّراً حسنَ السيرة، فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم. وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن ذوناس المَغْرِبي الفِنْدَلاوي[3] شيخ المالكية بدمشق ـ وكان شيخاً كبيراً، زاهداً عابداً ـ خرج راجلاً، فرآه معينُ الدين، فقصده وسلَّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوَّة على

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٣.
(٢) في «الكامل»: «طغدكين» بدل: «طغتكين».
(٣) تقدمت ترجمته قبل قليل، وفي «الكامل»: يوسف بن ذي باس الفندلاوي.

Marfat.com

القتال. فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نَسْتَقيله. يعني قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] الآية. وتقدَّم فقاتل الفرنج حتى قُتِلَ، رحمه الله، عند النَّيْرَب شهيداً. وقوي أمر الفرنج، وتقدَّموا فنزلوا بالميدان الأخضر، وضعُفَ أهل البلد عن رَدِّهم عنه. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده، ويسأله القدوم عليه، ويُعلمه شدَّة الأمر. فجمع سيف الدين عساكره، وسار مُجدّاً إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعي كل من يُطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوَّابي وأصحابي وكانت الهزيمة ـ والعياذ بالله ـ علينا، لا يسلم منا أحدٌ لبُعْد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلِّم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك، إن كانت النُّصرة لنا على الفرنج، أنني لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدوُّ عنها، وأعود إلى بلادي. فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج. فأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهدَّدهم ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا. وأرسل معين الدين إليهم أيضاً يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلَّمت البلد إليه، وحينئذٍ لا تطمعون في السَّلامة منه. وأرسل إلى فرنج الشام يخوِّفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم، ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين؛ إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يُبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلَّمتُ أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدَّس. وبذل لهم أن يسلِّم إليهم بانياس إن رحَّلُوا ملك الألمان عن دمشق. فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه، واجتمعوا بملك الألمان، وخوَّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالسَّاحل. فأجابهم إلى الرَّحيل عن دمشق، فرحل ورحل فرنج الساحل، وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين محمود، رحمه الله، كما سنذكره[1].

قلتُ: وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر، رحمه الله، في «تاريخه» أن الفقيه الفِنْدَلاوي رُؤي في المنام، فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن على سُرُرٍ متقابلين.

---

(١) فتح نور الدين محمود حصن بانياس سنة ٥٦٠هـ.

وقبره الآن يُزار بمقابر الباب الصَّغير من ناحية حائط المُصَلَّى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله.

وأما عبد الرحمن الحَلْحُولي[1] فقبره في بستان الشَّعْباني في جهة شرقه، وهو البُسْتان المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت. وكان مُقامه في حياته في ذلك المكان، رحمه الله.

وقرأتُ قصيدةً في شعر أبي الحَكَم الأنْدَلُسي[2] شَرَحَ فيها هذه القصَّة، منها: [الهزج]

بشطَّيْ نهر داريَّا ... أمورٌ ما تواتينا
وأقوام رأَوْا سَفْكَ الـ ... ـدِّ (م) ما في جِلْقِ دينا
أتانا مئتا ألفٍ ... عديداً أو يزيدونا
فبعضهمُ مِنَ أنْدَلُسٍ ... وبعضٌ من فِلَسْطينا
ومن عكَّا ومن صورٍ ... ومن صَيْدا وتِبْنِينا
إذا أبصرتَهُمْ أبْصَرْ ... تَ أقواماً مجانينا
ولكنْ حرَّقوا في عا ... جلِ الحال البساتينا
وجازوا المَرْجَ والتعديـ ... ـلَ أيضاً والميادينا
تخالهمُ ـ وقد ركبوا ... فطائرها ـ حراذينا
وبين خيامهم ضمُّوا الـ ... ـخنازر والقرابينا
وراياتٍ وصُلْباناً ... على مسجدِ خاتونا
وقُلْنا إذْ رأيناهُمْ ... لعلَّ اللَّهَ يكفينا
سَمَا لهُم مُعينٌ قد ... أعانَ الخَلْقَ والدِّينا
وفتيانٌ تخالهمُ ... لدى الهيجا شَياطِينا
فولَّوْا يطلبونَ المرْ ... جَ من شرقيِّ جِسْرِينا
ولكنْ غادروا إليـ ... ـسَ تحت التُّرْب مدفونا
وشيخاً فِنْدَلاوياً ... فقيهاً يعضُدُ الدِّينا
وفتياناً تفانَوْا من ... دمشقَ نحو سَبْعينا
ومنهم مئتا عِلْجٍ ... وخيلٍ نحو تسعينا
وباقيهم إلى الآنَ ... مِنَ القَتْلِ يفرُّونا

(١) عبد الرحمن الحلحولي، تقدمت ترجمته.
(٢) أبو الحكم الأندلسي، عبيد الله بن المظفر، تقدمت ترجمته.

Marfat.com

وللعرقلة حسّان[١] في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذٍ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج، أوّلها: [الكامل]

عَرِّجْ على نَجْدٍ لعلَّكَ مُنْجِدي ... بنسيمِها، وبذكرِ سُعْدى مُسْعِدي

يقول فيها:

مَنْ قاتلَ الإفرنجَ ديناً غيرهُ ... والخيلُ مِثْلُ السَّيْلِ عند المَشْهَدِ
ردَّ الأمانَ بكلِّ نَدْبٍ باسلٍ ... وَمِنَ الجيادِ بكُلِّ نَهْدٍ أَجْرَدِ[٢]
ومِنَ السُّيوفِ بكلِّ عَضْبٍ أبيضٍ ... ومِنَ العَجَاجِ بكلِّ نَقْعٍ أسودِ
حتى لوى الإسلامَ تحتَ لوائه ... وغدا بِحَمْدٍ مِنْ شريعةِ أحمدِ

وقرأت في ديوان محمد بن نَصْر القَيْسَرَاني قصيدةً في مدح تاج الملوك بُوري جدِّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاثٍ وعشرين وخمسمائة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين.

أول القصيدة: [البسيط]

الحقُّ مبتهجٌ والسَّيْفُ مُبْتَسِمُ ... ومالُ أعداء مجير الدين[٣] مُقْتَسَمُ

يقول فيها: [البسيط]

قُدْتَ الجيادَ وحصَّنْتَ البلادَ وأمـ (م) ـنْتَ العبادَ فأنت الحِلُّ والحَرَمُ
وجئت بالخيل من أقصى مرابِطها ... معاقِدُ الحزم في أوساطها الحُزُمُ
حتى إذا ما أحاط المشركونَ بنا ... كاللَّيْلِ يلتهم الدُّنيا له ظُلَمُ
وأقبلوا لا مِنَ الإقبالِ في عددٍ ... يؤود حاسبَهُ الإعياءُ والسَّأَمُ
أجريتَ بحراً من الماذِيِّ معتكراً ... أمواجه بأواسي البأس تَلْتَطِمُ[٤]
وسُسْتَ جُنْدَكَ والرَّحمن يكلؤه ... سياسةً ما يُعَفِّي إثرها نَدَمُ
وقفتَ في الجيش والأعلام خافقةٌ ... بالنَّصْرِ كلُّ قناةٍ فوقَها عَلَمُ

---

(١) العرقلة حسان: هو حسان بن نمير بن عبد الرحمن الدمشقي، الأديب النحوي المعروف بعرقلة الشاعر، ولد سنة ٤٨٦هـ، وتوفي سنة ٥٦٧هـ. له ديوان شعره. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ١٧٨ ـ ٢٢٩. وفي كشف الظنون ٥/ ٢٦٥، توفي عرقلة سنة ٥٩١هـ.

(٢) رجل ندب: خفيف في الحاجة، نجيب.

(٣) مجير الدين: كذا في الأصل. ولعله تحريف. إذ لقب بوري بن طغتكين، فخر الدين، وليس مجير الدين.

(٤) الماذي: السلاح كله من الحديد، ويقال: الماذي: خالص الحديد وجيده. وأواسي: جمع آسية، وهي الدعامة والسارية.

Marfat.com

يحوطك اللَّهُ صوناً عن عيونهم والله يَعْصِمُ مَنْ بالله يَعْتَصِمُ
حتى إذا بَدَتِ الآراءُ ضاحكةً وأقبلَتْ أَوْجُهُ الإقبالِ تَبْتَسِمُ
أتبَعْتَ جِنَّ سراياهم مُضمَّرَةً فيها نجومٌ إذا جدَّ الوغى رَجَمُوا
والنَّصْرُ دانٍ وخيل الله مقبلةٌ ترجو الشَّهادةَ في الهيجا وتَغْتَنِمُ
صابَ الغمامُ عليهم والسُّهامُ معاً فما دَرَوْا أيُّما الهَطَّالة الدِّيَمُ
سَرَوْا لينتهبُوا الأعمار فانْتُهِبوا قتلاً ويَغْتَنِمُوا الأموالَ فاغْتُنِمُوا
وأقبلت خيلُنا تَرْدِي بخيلهم مجنوبَةً وعلى أرماحنا القِمَمُ
وأدْبَرَ المَلِكُ الطَّاغي يُزَعْزِعُه حَرُّ الأسِنَّة وَهْوَ البارِدُ الشَّيِمُ
وَافَوْا دمشقَ وظنُّوا أنَّها جِدَةٌ ففارقوها وفي أيديهم العَدَمُ
وأيقنوا مع ضياءِ الصُّبْحِ أنَّهُمُ إنْ لم يَزُولُوا سِرَاعاً زالَتِ الخِيَمُ
فغادروا أكثر القُربانِ وانجفَلُوا وخلَّفُوا أكبرَ الصُّلْبانِ وانهزَمُوا
مُسْتَسلِمين لأيْدِي المُسْلمين وقد أغرى القَنَا بتمادي خَطْفِهِمْ نَهَمُ
لا يملكُ الجسمُ دَفْعاً عن مَقَاتله كأنه حين يغشاهُ الرَّدى صَنَمُ
وحاولُوا المسجدَ الأدنى فما عَبَرَتْ عن مَسْجِدِ القَدمِ الأقصى لهم قَدَمُ

فصل

[فتح نور الدين حصن العريمة]

قال ابن الأثير[1]: لما رحل الفرنجُ عن دمشق سار معين الدين أُنَر إلى بَعْلَبَكَّ، وأرسل إلى نور الدين، وهو مع أخيه سيف الدين، يسأله أن يحضُرَ عنده، فاجتمعا، فوصل إليهما كتاب القُمْص صاحب طرابُلُس يشير عليهما بقصد حصن العُرَيْمة[2] وأَخْذه ممن فيه من الفرنج. وكان سبب ذلك أن ولد الفُنش صاحب جزيرة صِقِلِّية خرج مع ملك الألمان إلى الشَّام، وتغلَّب على العُرَيمة وأخذها من القُمْص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضاً ـ وجدُّ هذا الذي ملك العُريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب ـ فلما استولى هذا على العُرَيمة كاتَبَ القَوْمص نورَ الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مُجدَّيْن، فصبَّحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه ويطلبان منه المدد، فأمدَّهما. فحصروا الحصن وبه ابن

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٤ ـ ٣٣٥.
(٢) في «الكامل»: «حصن العزيمة» بدل: «حصن العريمة».

Marfat.com

الفُنش، ونقَّبوا السُّور فأذعن الفرنجُ واستسلموا، وألقوا بأيديهم. فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كُلَّ مَنْ به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفُنش، وأخربوا الحصن، وعادوا إلى سيف الدين.

وافتتح نور الدين أيضاً باسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قُتل أكثر من كان فيه ـ يعني في حصن العُرَيمة ـ وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه، ونُهب ما فيه من العُدد والخيول والأثاث. وعاد عسكر سيف الدين إلى مُخيمه بحمص، ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولدُ الملك وأمه ومن أُسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجَّه في عسكره إلى ناحية الأعمال الإفرنجية، وقصد فامية، وظفر بعِدَّة من الحصون والمعاقل الإفرنجية، وبعُدَّة وافرةٍ من الإفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمعَ الفرنج وقصده على حين غفلة منه، فَنَال من عسكره وأثقاله وكُراعه[1] ما أوْجَبَتْه الأقدار النازلة، وانهزم بنفسه وعسكره، وعاد إلى حلب سالماً في عسكره لم يفقد منه إلا النفر اليسير، بعد قتل جماعةٍ وافرة من الإفرنج. وأقام بحلب أياماً بحيث جَدَّد ما ذهب له من البَرَك[2]، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله، وقيل: لم يَعُد[3].

وذكر ابن أبي طيّ أن أسدَ الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الدَّاية عليه لم ينصح يومئذٍ، وهي وقعةَ يَغْرا، ومَرَّ به نور الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا؟! فقال: يا خُوند[4]، أيش ننفع نحن؟ إنما ينفع مجد الدين أبو بكر، فهو صاحب الأمر. فاستدرك نور الدين ذلك، وطيَّب قلب أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقَّه، وأصلح بينهما.

قال: وقُتل في هذه الكسرة شاهِنْشَاه بن أيوب، أخو الملك النَّاصر، وقيل في كسرة البقيعة[5].

---

(١) الكراع: السلاح، وقيل: الخيل والسلاح.

(٢) البرك، بالتحريك: كذا في الأصل، ولعلها: البَزْك، بسكون الراء، وهو المتاع والثقل والكراع والسلاح، ولعلها: اليزك، ومعناها الطلائع. انظر صبح الأعشى ٧/ ٢٢٣.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٥.

(٤) الخوند: لفظة عجمية بمعنى السيادة، (صبح الأعشى ٦/ ٧٨).

(٥) في «وفيات الأعيان» لابن خلكان ٢/ ٤٥٢، أن شاهنشاه بن أيوب قتل على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة ٥٤٣هـ.

قلت: وهو والد عز الدين فَرُّخْشاه، وتقي الدين عمر، والست عذرا المنسوب إليها المدرسة العذراوية داخل باب النَّصْر بدمشق، وقبره الآن بالتُّربة النَّجمية جوار المدرسة الحُسَامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق، رحمهم الله تعالى.

قلت: ولابن منير من قصيدةٍ تقدَّمت اعتذاراً عما جرى في هذه الغزاة قال: [الخفيف]

لم يَشِنْهُ من ماء يغرا أن فرَّ (م) الأشاباتُ ذادَ عنها انذلاقُهْ[1]
كان فيها ليثَ العرينِ حمى الأشـ ـبَالَ منه غضبانُ كالنَّارِ ماقُهْ[2]
وشبيه النبيّ يوم حُنَيْنٍ إذ تلافى أدواءَهُمْ دِرْيَاقُهْ[3]
وهي الحَرْبُ فحلُها يُحْسِنُ الكرَّ (م) ة إنْ عَضَّ بأسُها لا نِياقُهْ

[وقعة يغرا]

وقال ابنُ الأثير[4]: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضاً سار نور الدين إلى بُصرى[5]، وقد اجتمع بها الفرنج في قَضِّهم وقضيضهم، وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام، فالتقى بهم هنالك، واقتتلوا أشدَّ قتال، ثم أنزل الله نصرَه على المسلمين، وانهزمَ الفرنج، وكانوا بين قتيلٍ وأسير، وفي هذه الوقعة يقول القَيْسَرَاني من قصيدةٍ أولها: [السريع]

يا ليتَ أن الصدود[6] مَصْدُودُ أوْ لَا فليتَ النَّوْمَ مَرْدُودُ
إلى متى تُعْرِضُ عن مُغْرَمٍ في خَدِّه للدَّمْعِ أُخْدُودُ
قالوا عيونُ البيضِ بيضُ الظُّبى قلتُ ولكنْ هذه سُودُ
يُخافُ منها وهي في جَفْنِها والسَّيْفُ يُخْشَى وَهْوَ مَغْمُودُ

ثم خرج إلى المدح فقال: [السريع]

وكيف لا نُثْني على عَيْشِنا الـ ـمحمودِ والسُّلْطانُ محمودُ

---

(١) الأشابات: الأخلاط من الناس، يقال: أوباش من الناس، وأوشاب من الناس.
(٢) ماقُه: مخففة من مأق، وهو مؤخر العين.
(٣) الدرياق: لغة في الترياق، فارسي معرب، وهو ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين.
(٤) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٦.
(٥) بصرى: كذا في الأصل، وفي «الكامل»: «يغرى» وهو الصحيح.
(٦) أن الصدود: كذا بالأصل، وهو بهذا اللفظ مخل بوزن البيت، ولعلها: أن الصدُّ، ليستقيم الوزن.

Marfat.com

فليشكرِ الناسُ ظلالَ المنى ... إنَّ رِوَاقَ العدْلِ ممدودُ
ونَيِّرَاتُ المُلْكِ وهَّاجةٌ ... وطالعُ الدَّولةِ مَسْعُودُ
وصارمُ الإسلامِ لا ينثني ... إلا وشِلْوُ الكُفْرِ مَقْدُودُ
مناقبٌ لم تكُ موجودةً ... إلا ونورُ الدين موجودُ
مُظَفَّرٌ في دِرْعِهِ ضَيْغَمٌ ... عليه تاجُ المُلْكِ مَعْقُودُ
نالَ المعالي حاكماً مالكاً ... فَهْوَ سليمانٌ وداودُ
تَرْتَشِفُ الأفواه أَسْيَافَهُ ... إنَّ رُضَابَ العِزِّ مَوْرُودُ
وكم له مِنْ وَقْعَةٍ يومُها ... عند ملوكِ الشِّرْكِ مَشْهُودُ
والقومُ إما مُزْهَقٌ صُرْعَةٌ ... أو مُوثَقٌ بالقِدِّ مَشْدُودُ
حتى إذا عادوا إلى مِثْلِها ... قالتْ لهم هَيْبَتُهُ عُودُوا
طالِبْ بثأرٍ ضَمِنَتْه الظُّبى ... فكلُّ ما تَضْمَنُ مَرْدُودُ
والكَرُّ والفَرُّ سِجالُ الوغى ... فطاردٌ طَوْراً ومَطْرُودُ
وإنَّما الإفرنجُ مِنْ بَغْيِها ... عادوا وقد عاد لها هُودُ
قد حَضْحَصَ الحقُّ فما جاحدٌ ... في قلبه بَأْسُكَ مجحودُ
فكلُّ مِصْرٍ بكَ مُسْتَفْتَحٌ ... وكُلُّ ثَغْرٍ بك مَسْدُودُ

وقال أيضاً قصيدةً في نور الدين، وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الإفرنج على يَغْرا[1] وهزمهم إلى حِصْن حارِم، وقد كانت الفرنجُ هزمت المسلمين أولاً بهذا الموضع، أولها: [الوافر]

تفي بضمانِها البِيْضُ الحِدَادُ ... وتَقْضي دَيْنَها السُّمْرُ الصِّعَادُ[2]
وَتُدْرِكُ ثارَها مِنْ كلِّ باغٍ ... فوارسُ من عَزَائمها الجِلادُ
ويَغْشى حَوْمَةَ الهَيْجَا هُمامٌ ... تَشُدُّ بِضَبْعِهِ السَّبْعُ الشِّدادُ[3]
أظَنُّوا أنَّ نارَ الحَرْبِ تخبو ... ونورُ الدينِ في يَدِهِ الزِّنادُ!
وَجُنْدٌ كالصُّقُورِ على صُقُورٍ ... إذا انقضُّوا على الأبطالِ صادُوا
إذا أَخْفَوا مَكِيْدَتَهُمْ أخافُوا ... وإنْ أَبْدَوْا عَدَاوَتَهُمْ أبادُوا
وَنُصْرَةُ دولةٍ حاميتَ عنها ... وهَلْ تَخْشى وأنتَ لها عِمادُ

(١) تقدم قول المؤلف قبل قليل: بصرى، وهنا يغرا، وهو الصحيح.
(٢) السمر الصعاد: أي القنا المستويات اللواتي لا يحتجن إلى تثقيف.
(٣) الضبع: وسط العضد.

وإنْ نُـثْـلِ الـقـوافـي مـا تَـلَـثْـهُ بـإنْـب مـا يـؤبِّـنُـهـا سِـنَـادُ[١]
جَـرَتْ بـالـنَّـضْـرِ أقـلامُ الـعـوالـي ولـيـس سـوى الـنَّـجِـيـعِ لـهـا مِـدَادُ[٢]
وطـالـتْ أرؤُسُ الأعـلاجِ خِـضْـبـاً فـنـادى الـسَّـيْـفُ: قـد وَقَـعَ الـحَـصَـادُ
أحـطـتَ بـهـم فـكـانَ الـقَـتْـلُ صـبـراً ولا طَـعْـنٌ هـنـاكَ ولا طِـرَادُ
ولـلإبـرنـز فـوقَ الـرُّمْـحِ رأسٌ تَـوَسَّـدَ والـسِّـنـان لـه وِسَـادُ
تـرجَّـل لـلـسَّـلامِ فـفـرَّسـوه ولـيـس سـوى الـقَـنَـاةِ لـه جَـوَادُ[٣]
غَـضِـيـضُ الـمُـقْـلَـتـيـن ولا نُـعـاسٌ وغـائِـرُهـا ولـيـس بـه سُـهـادُ
فَـسِـرْ وَاسْـتَـوْعِـبِ الـدُّنـيـا فـتـوحـاً فـلا هَـضْـبٌ هـنـاك ولا وِهـادُ
وزُر بـبـنـي الـوغـى مـثـوى حـبـيـب فـمـا عـن بـابِ مـسـلـمـةٍ ذيـادُ[٤]
ولا فـي بـاب فـارس غـيـر ثـكـلـى بـفـارسـهـا يـضـيء بـهـا الـحِـدَادُ
أأنـطـاكـيَّـة تـحـمـي ذَرَاهـا وقـد دانـتْ لِـسَـطْـوَتِـكَ الـبـلادُ
وأذعـنـتِ الـمـمـالـكُ واسـتـجـابـتْ مُـلَـبِّـيَـةً لِـدَعْـوَتِـكَ الـعِـبَـادُ

قلت: ووقعة إنْب هذه كانت عظيمةً، وقد كَثُرَ ذكر الشعراء لها، وسيأتي ذكرها قريباً.

فـصـل

[إبطال نور الدين «حي على خير العمل»]

قال أبو يعلى التَّميمي: وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأنَّ صاحبها نور الدين بن أتابك أمر بإبطال «حيَّ على خير العمل» في أواخر تأذين الغَدَاة، والتظاهر بسبِّ الصَّحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وساعدَه على ذلك جماعةٌ من السُّنَّة بحلب، وعَظُمَ هذا الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيُّع، وضاقت له صدورُهم، وهاجوا وماجوا، ثم سكنوا وأحجموا، للخوف من السطوة النوريَّة المشهورة، والهيبة المحذورة.

---

(١) ما يؤنّبها سناد: أي ما يعيبها سناد، والسناد على أنواع وهو من عيوب القوافي.
(٢) النجيع: الدم.
(٣) ففرّسوه: لعلها من تفرّس في الشيء: نظر وتثبّت، ويقال: تفرّس فيه الخير: رأى فيه مخايل الخير. ولعلها: جعلوه فارساً، والفارس الماهر في ركوب الخيل.
(٤) حبيب: هو حبيب النجار، كان قبرة يزار بأنطاكية يقال: إنه نزلت فيه الآية الكريمة: ﴿**وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى**﴾ [يس: ٢٠] (معجم البلدان ١/ ٢٦٩).

Marfat.com

قلت: وأنشده ابن منير في شهر رمضان: [السريع]

فِـدَاكَ مَـنْ صَـامَ ومـن أفـطـرا ... وَمَـنْ سـعـى سَـعْـيَـك أو قَـصَّـرا
ومـا الـورى أهـلاً فَـتُـفْـدَى بـهـم ... وهـل يـوازي عَـرَضٌ جَـوْهَـرا
عَـذْلٌ تـسـاوَى تـحـتَ أكـنـافِـهِ ... مَـطَـافِـلُ الـعـيـنِ وأُسْـدُ الـشَّـرى[1]
يـا نـورَ ديـنِ الله كـم حـادثٍ ... دَجَـا وأَسْـفَـرْتَ لـه فـانْـسَـرى
وكـم حِـمًـى لِـلـشِّـرْكِ لا يـهـتـدي الـ ... ـوَهْـمُ لـه غـادَرْتَـه مَـجْـزَرَا
يـا مَـلِـك الـعـصـر الـذي صَـدْرُه ... أفـسـحُ مـن أقـطـارِهـا مَـصْـدَرا
وابْـنَ الـذي طـاول أفـلاكَـهـا ... فـلـم يـجـد مِـنْ فـوقـه مَـظْـهَـرا[2]
مـنـاقـبُ تـكـسِـرُ كِـسْـرى كـمـا ... تَـقْـصُـرُ عـن إدراكـهـا قَـيْـصـرا
مـا عـامَ فـي أوصـافِـهـا شـاعـرٌ ... إلا رأى أوصـافـهـا أَشْـعَـرا
لله أصـلٌ أنـت فَـرْعٌ لـه ... مـا أطـيـبَ الـمـجـنـى ومـا أَطْـهَـرا
مـا حـلـبُ الـبـيـضـاء مُـذْ صُـنْـتَـهـا ... إلا حَـرَامٌ مـثـل أُمِّ الـقُـرَى
شـيَّـدْتَ فـي مـعـمـورِ أرجـائـهـا ... لـكـلِّ بـاغـي عُـمْـرَةٍ مَـشْـعَـرا
فـأصـبـحَ الـشَّـادي إذا ثـوَّبَ الـ ... ـدَّاعـي لـه هـلَّـلَ أو كـبَّـرا[3]
لا عَـدِمَ الإسـلامُ مَـنْ كَـفُّـه ... كـهـفٌ لِـمَـنْ أُرهـق أو أُحـصِـرا
كـأنَّـمـا سـاحـتُـه جَـنَّـةٌ ... أجـرتْ بـهـا راحـتُـه كَـوْثَـرا
تَـصَـرَّمَ الـشـهـرُ الـذي كـنـتَ فـي ... أوقـاتِـهِ مِـنْ قَـدْره أَشْـهَـرا
جِـهـادُ لـيـلٍ فـي نـهـارٍ فَـفُـزْ ... إذْ كـنـتَ فـيـه الأَصْـبَـرَ الأشـكـرا
أصـدقُ مـا يـرشـفُـه سـامـعٌ ... مـا هـزَّ مـن أوصـافِـكَ الـمِـنْـبَـرا
أبـقـاكَ لـلـدُّنـيـا ولـلـدِّيـن مَـنْ ... خَـلَّاك فـي لـيـلـهـمـا نَـيِّـرا
حـتـى تـرى عـيـسـى مـن الـقُـدْسِ قـد ... لـجـا إلـى سـيـفِـك مُـسْـتَـنْـصِـرا

قال أبو يعلى: وفي رجب أُذِنَ لمن يتعاطى الوعظ بالتكلُّم في الجامع المعمور بدمشق على جاري العادة والرَّسم، فبدا من اختلافهم في أحوالهم

---

(١) مطافل العين: أي أولاد بقر الوحش، والشرى: موضع تكثر فيه الأسود.
(٢) مظهراً: أي مصعداً.
(٣) ثوّب: رجّع، وثوّب: دعا، وثوّب الداعي: ثنّى الدعاء، ويقال: ثوّب بالصلاة: دعا إلى إقامتها، ومنه تثويب المؤذن إذا نادى بالأذان للناس إلى الصلاة، ثم نادى بعد التأذين فقال: الصلاة رحمكم الله، يدعو إليها عوداً بعد بدء.

Marfat.com

وأغراضهم، والخوض في قضايا لا حاجة إليها من المذاهب، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال وإبطال الوعظ، لما يتوجَّه معه من الفساد، وطمع سفهاء الأوغاد، وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكَثُرَ فسادُ الفرنج المقيمين بصور وعكَّا والثغور السَّاحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم، وخَيَّم في ناحية حوران بالعسكر، وكاتبَ العرب، واستدعى جماعةً وافرةً من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النّكاية فيهم والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجدِّدت المهادنة في المحرَّم مُدَّة سنتين، وأنفذ نورُ الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية قد جمع إفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد بَرَزَ في عسكره إلى ظاهر حلب للقائه، والحاجة ماسَّة إلى معاضدته. فندب معينُ الدين مجاهدَ الدين بُزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقيَ معين الدين في باقي العسكر بناحية حَوْرَان.

[وقعة إنب وتسمى أيضاً وقعة الخطيم]

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد، على حشد الإفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلا من خبَّر ببوارهم وتعجيل دمارهم؛ وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الأتباع والسَّواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإنَب، وهم في نحو أربعمائة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم، ووُجد اللعين البرنس مقدَّمهم صريعاً بين حُماته وأبطاله، فعرف وقُطع رأسُه وحُمل إلى نور الدين[1]. وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدَّة البأس، وقوة الجِيَل وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة، والتَّناهي في الشَّر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر. ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية، وقد خلتَ من حُماتها، والذَّابِّين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم. وتردَّدت المرسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقع الاحتجاجُ منهم بأن هذا أمرٌ لا

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

Marfat.com

يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من الناصر لهم، والمعين على من يقصدهم. وحملوا ما أمكنهم من التُّحف والمال، واستمهلوا فأُمهلوا. ثم رتَّب نور الدين بعض العسكر للإقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في باقية العسكر إلى ناحية أفامية، وقد كان رتَّب الأمير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان، فأُمّنوا على أنفسهم، وسلَّموا البلد في ثامن عشر ربيع الأول، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية، وقد انتهى إليه الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها، فاقتضت الحال مهادنة مَن في أنطاكية وموادعتهم، وتقرير أن يكون ما قرُب من الأعمال الحلبيَّة له، وما قرُب من أنطاكية لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم، بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل وغيرها المغانم الجمَّة. وفصَل عنه الأمير مجاهد الدين بُزان في العسكر الدمشقي، وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور والذُّكر المشكور، لما هو موصوفٌ به من الشَّهامة والبسالة، وإصابة الرأي، والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طيّ: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله، وقَتَلَ البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يُقتل من المسلمين من يؤبه له، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى. وكان لأسد الدين في هذه الحروب اليدُ البيضاء، ومدحه بها بعضُ الشعراء الحلبيين بقصيدةٍ يقول فيها: [البسيط]

إنْ كـانَ آلُ فـرنـجٍ أدركـوا فَـلَـحـاً ... في يوم يَغْرا ونالوا مُنْيَةَ الظَّفَرِ[١]

ففي الخَطيم خَطَمْتَ الكُفْرَ مُنْصَلِتاً ... أبا المُظَفَّرِ بالصَّمْصَامة الذَّكَرِ

نالوا بيغرا نِهاباً وانْتَهَبْتَ لنا ... على الخطيم نفوسَ المعشر الأَشِرِ

واستقودوا الخيلَ عُرْياً واستَقَدْتَ لنا ... قَوامِص الكُفْرِ في ذُلٍّ وفي صَغَرِ[٢]

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاحٌ كثير، وعدة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئاً.

وفي هذه السنة عَظُمَ أمر أسد الدين.

وقال ابن الأثير[٣]: سار نور الدين إلى حصن حارِم، وهو للفرنج، فحَصَره

---

(١) أدركوا فلحاً: أي فوزاً، ويوم يغرا، وقع في سنة ٥٤٣هـ.

(٢) استقود والخيل عرياً: أي لا سروج عليها. والقوامص: جمع قومس، وهو الأمير، وتكتب بالسين: قومس، والصاد: قومص.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

Marfat.com

وخرَّب رَبَضَه، ونهب سواده، ثم رحل عنه إلى حصن إنّب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية، وساروا إليه ليُرَحِّلُوه عن إنّب فلم يرحل، بل لقيهم وتصافَّ الفريقان، واقتتلوا، وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصَّبر في الحرب على حداثة سِنِّه ما تعجَّب منه الناس، وأجلت الحربُ عن هزيمة الفرنج، وقَتَلَ المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وفيمن قُتِلَ البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عُتاة الفرنج، وذوي التقدم فيهم والملك. ولما قتل البرنس خلَّفة ابناً صغيراً، وهو بيمند، فبقي مع أمّه بأنطاكية، فتزوجت أمه بإبرنس آخر، وأقام معها بأنطاكية يدبِّرُ الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند. ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى، وهزمهم، وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند. فلما أَسَره تملَّك بيمند أنطاكية بلد أبيه، وتمكَّن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس. وممَّن قال فيه القَيْسَراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد، الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية، أولها[1]: [البسيط]

هذي العزائمُ لا ما تدَّعي القضبُ ... وذي المكارمُ لا ما قالتِ الكُتُبُ[2]
وهذه الهِمَمُ اللاتي متى خَطَبَتْ ... تعثَّرَتْ خَلْفَها الأشعارُ والخُطَبُ
صافحتَ يا ابنَ عمادِ الدين ذُرْوَتَهَا ... براحةٍ للمساعي دونها تَعَبُ
ما زال جَدُّكَ يبني كلَّ شاهقةٍ ... حتى ابتنى قُبَّةً أوتادُها الشُّهُبُ
لله عَزْمُكَ ما أمضى وهمُّكَ ما ... أقضى[3] اتِّساعاً بما ضاقتْ به الحِقَبُ
يا ساهدَ الطَّرْفِ والأجفانُ هاجعةٌ ... وثابتَ القَلْبِ والأحشاءُ تَضْطَرِبُ
أَغْرَتْ سيوفَك بالإفرنجِ راجفةٌ ... فؤادُ روميَّة الكُبْرى لها يَجِبُ
ضربتَ كَبْشَهُمُ منها بقاصمةٍ ... أودى بها الصُّلْبُ وانحطَّتْ بها الصُّلُبُ
قُلْ للطُّغاة وإنْ صَمَّتْ مسامِعُها ... قولاً لِصُمِّ القَنا في ذِكْره أَرَبُ
ما يومِ إنّب والأيامُ دائلةٌ ... من يوم يغرا بعيدٌ لا ولا كَثَبُ
أغَرَّكُمْ خَدْعةُ الآمالِ ظَنَّكُمُ ... كم أسلمَ الجَهْلُ ظناً غرَّهُ الكَذِبُ
غَضِبْتَ للدين حتى لم يَفُتْك رضًى ... وكان دينُ الهُدَى مَرْضَاتُه الغَضَبُ

(١) أورد ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٦٣، سبعة أبيات منها.
(٢) القُضُب: جمع قضيب، وهو السيف اللطيف الدقيق.
(٣) أقضى: كذا بالأصل، ولعله تصحيف أقصى، وهي أكثر ملائمة للمعنى.

Marfat.com

طهَّرْتَ أرضَ الأعادي من دمائِهِمُ ... طهارةً كلُّ سَيْفٍ عندها جُنُبُ
حتَّى استطارَ شرارَ الزَّنْدِ قادحهُ ... فالحَرْبُ تُضرَمُ والآجالُ تُختَطَبُ
والخيلُ من تحت قَتْلاها تَقِرّ لها ... قوائمٌ خانَهُنَّ الرَّكْضُ والخَبَبُ(١)
والنَّقْعُ فوقَ صِقَال البيض مُنْعَقِدٌ ... كما اسْتَقَلَّ دُخَانٌ تحتَه لَهَبُ(٢)
والسَّيْفُ هامَ على هام بمعركةٍ ... لا البَيْضُ ذو ذمَّة فيها ولا اليَلَبُ(٣)
والنَّبْلُ كالوَبْلِ هطَّالٌ وليس له ... سوى القِسِيِّ وأيدٍ فوقَها سُحُبُ(٤)
وللظُّبى ظفرٌ حُلْوٌ مذاقَتُهُ ... كأنَّما الضَّرْبُ فيما بينهم ضَرَبُ(٥)
وللأسِنَّةِ عما في صُدُورِهِمُ ... مصادرٌ أقلوبٌ تلكَ أم قُلُبُ(٦)
خانُوا فخانَتْ رِماحُ الطَّعْنِ أيديَهُمْ ... فاستسلموا وهي لا نَبْعٌ ولا غَرَبُ(٧)
كذاك مَنْ لم يوقِّ الله مُهْجَتَه ... لاقَى العِدَى والقَنَا في كفِّه قَصَبُ
كانت سيوفُهُمُ أوحى حتوفِهِمُ ... يا رُبَّ حائنةٍ منجَاتُهَا العَطَبُ(٨)
حتى الطوارقُ كانت من طوارقهم ... ثارتْ عليهم بها من تحتها النُّوَبُ
أجسادُهُمْ في ثيابٍ من دمائِهِمُ ... مسلوبةً وكأنَّ القومَ ما سُلِبوا
أنباءُ ملحمةٍ لو أنها ذُكرت ... فيما مضى نَسِيَتْ أيامَها العَرَبُ
من كان يغزو بلادَ الشِّرْكِ مُكْتَسِباً ... من الملوك فنورُ الدين مُحْتَسِبُ
ذو غُرَّةٍ ما سَمَتْ واللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ ... إلّا تَمَزَّقَ عن شَمْسِ الضُّحى الحُجُبُ
أفعالُه كاسْمِه في كلِّ حادثةٍ ... وَوَجْهُهُ نائبٌ عن وَصْفِهِ اللَّقَبُ
في كلِّ يومٍ لفكري من وقائعه ... شُغْلٌ فكلُّ مديحي فيه مُقْتَضَبُ
مَنْ باتَتِ الأُسْدُ أسرى في سلاسله ... هل يأسر الغُلْبُ إلا من له الغَلَبُ(٩)

---

(١) تقرّ: أي تسكن وتستقر. والخبب: نوع من العدو للفرس، يقال: خبّ الفرس خبباً: نقل أيامنه وأياسره جميعاً في العدو.
(٢) استقل: أي ارتفع.
(٣) البيض: جمع بيضة، وهي الخوذة. واليلب: الدروع.
(٤) الوبل: المطر الشديد، الضخم القطر.
(٥) الضَّرَب، بالتحريك: العسل الأبيض الغليظ، وقيل: عسل البر.
(٦) قُلُبُ: جمع قليب، وهو البئر.
(٧) النبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسي. والغرب: نوع من الشجر أيضاً.
(٨) الحائنة: النازلة ذات الحين.
(٩) الغُلْب: بضم الغين، وسكون اللام: الأسد.

Marfat.com

فـمـلَّـكُـوا سَـلَـبَ الإبـرنـز قـاتـلَـه وهَـلْ لـه غَـيْـرَ أَنْـطَـاكـيَّـةٍ سَـلَـبُ
مَـنْ لـلـشَّـقـي بـمـا لاقَـتْ فـوارِسُـهُ وإن يـسـايـرهـا مـن تـحـتـه قَـتَـبُ
عَـجِـبْـتُ لـلـصَّـعْـدة الـسَّـمـراءِ مُـثْـمِـرَةً بـرأسـه إن إثـمـار الـقَـنَـا عَـجَـبُ(١)
سـمـا عـلـيـهـا سـمـوَّ الـمـاءِ أَزْهَـقَـهُ أُنـبـوبـةٌ فـي صَـعُـودٍ أصـلُـهـا صَـبَـبُ
مـا فَـارَقَـتْ عَـذَبـاتُ الـتَّـاجِ مَـفْـرِقَـهُ إلا وهـامـتـهُ تـاجٌ ولا عَـذَبُ
إذا الـقـنـاةُ ابْـتَـغَـتْ فـي رأسـه نَـفَـقـاً بـدا لِـثَـعْـلَـبِـهَـا مِـنْ نـحـره سَـرَبُ(٢)
كـنـا نَـعُـدُّ حِـمـى أطـرافِـنـا ظَـفَـراً فـمـلَّـكَـتْـكَ الـظُّـبـى مـا لـيس يُـحْـتَـسَـبُ
عـمـت فُـتُـوحُـكَ بـالـعَـدْوى مَـعَـاقِـلَـهـا كـأنَّ تـسـلـيـمَ هـذا عـنـد ذا جَـرَبُ
لـم يـبـقَ مـنـهـم سـوى نَـبْـضٍ بـلا رَمَـقٍ كـمـا الـتَـوَى بـعـدَ رأس الـحَـيَّـةِ الـذَّنَـبُ
فانْهَضْ إلى المسجدِ الأقصى بذي لَجَبٍ يوليك أقصى المُنَى فالقُدْسُ مُرْتَقِبُ
وائـذَنْ لـمـوجـكَ فـي تـطـهـيـرِ سـاحِـلِـهِ فـإنَّـمـا أنـتَ بـحـرٌ لُـجُّـه لَـجَـبُ
يـا مَـنْ أعـادَ ثُـغـورَ الـشَّـام ضـاحـكـةً من الظُّبى عن ثُغورٍ زانها الشَّنَبُ(٣)
مـا زِلْـتَ تُـلْـحِـقُ عـاصـيـهـا بـطـائـعـهـا حـتّـى أقـمـت وأنـطـاكـيَّـة حَـلَـبُ
حَـلَـلْـتَ مِـنْ عَـقْـلـهـا أيـدي مـعـاقِـلـهـا فـاسْـتَـجْـفَـلَـتْ وإلـى مـيـثـاقِـكَ الـهَـرَبُ
وأيْـقَـنَـتْ أنَّـهـا تـتـلـو مـراكِـزَهـا وكـيـف يـثـبـتُ بـيـتٌ مَـا لَـهُ طُـنُـبُ(٤)
أَجْـرَيْـتَ مـن ثُـغَـر الأعْـنَـاق أنْـفُـسَـهـا جريَ الجفونِ امتراها بارحٌ حَصِبُ(٥)
ومـا رَكَـزْتَ الـقـنـا إلا ومـنـك عـلـى جسرِ الحديد هِزَبْرٌ غِيلُه أَشِبُ(٦)
فـاسـعـدْ بـمـا نِـلْـتَـهُ مـن كـلِّ صـالـحـةٍ يأوي إلى جنَّة المأوى لها حَسَبُ
إلا تـكـن أحـدَ الأبـدال فـي فـلـك الـ ـتَّـقْـوَى فلا يُتمارى أنَّك القُطُبُ(٧)
فـلـو تُـنَـاسِـبُ أمـلاكَ الـسَّـمـاءِ بـهـا لـكـانَ بـيـنَـكُـمـا مـن عِـفَّـةٍ نَـسَـبُ

---

(١) الصعدة: القناة.
(٢) الثعلب: طرف الرمح الداخل في جبة السنان. والسرب: جحر الثعلب، وبيت تحت الأرض.
(٣) الشنب: هو صفاء الأسنان ونقاؤها.
(٤) تتلو: تخذل، تترك. والطنب، بالضم: حبل طويل يشد به البيت، وقيل: هو الوتر.
(٥) ثُغَر الأعناق: جمع ثُغرة، وهي نقرة النحر فوق الصدر. وامتراها: استخرجها واستدارها. والبارح: الريح الحارة في الصيف، وحصب: أي ذو خصباء.
(٦) الهزبر: الأسد، والغِيل، بالكسر: الأجمة، وكذلك عرين الأسد، والجمع غيول. والأشب: الملتف.
(٧) لا يتمارى: لا يشك.

هـذا وهـل كـان فـي الإسـلامِ مـكـرمـةٌ إلّا شَـهِـدْتَ وعُـبّـادُ الـهـوى غَـيَـبُ[١]

وله فيه من قصيدةٍ أُخرى: [الوافر]

ألَا لله دَرُّكَ أيُّ دُرٍّ صـريـحٍ جـاءَ بـالـكَـرَمِ الـصَّـريـحِ
وَعَـسْـكَـرُكَ الـذي استـولـى مُـشِـيْـحـاً عـلـى مـا بـيـن فـامـيـةَ وشِـيْـحِ[٢]
ووقـعـتـك الـتـي نَـبَـتِ الـعـوالـي صـوادِرَ عـن قـتـيـلٍ أو جـريـحِ
بـإنْـب يـومَ أبْـرَزَتِ الـمَـذاكـي مـن الـنَّـقْـعِ الـغَـزالـةَ فـي مُـسـوحِ[٣]
غـداة كـأنـمـا الـعـاصـي احـمـراراً مـن الـدَّمِ عـبـرة الـجَـفْـنِ الـقـريـحِ
وقـد وافـاك بـالإبـرنـز حَـتْـفٌ أُتـيـح لـه مـن الـقَـدَرِ الـمُـتـيـحِ
قـتـلـتَ أشـحَّـهـم بـالـنـفـس إذْ لا يـجـودُ بـنـفـسـه غـيـرُ الـشـحـيـحِ
مـلأتَ بـهـم ضـرائِـحَـهُـمْ فـأمْـسَـوا ولـيـسَ سـوى الـقَـشَـاعـمِ مـن ضَـريـحِ
وَعُـدْتَ إلـى ذَرَا حـلـب حـمـيـداً سُـمـوَّ الـبَـدْرِ مـن بـعـد الـجُـنُـوحِ
فـإنْ حَـلِـيَـتْ بـغُـرَّتـك الـلـيـالـي فـكـم لِـسَـنَـاكَ مـن زمـن مـلـيـحِ
رُوَيْـدَكَ تـسـكـن الـهـيـجـا فَـوَاقـاً بـحـيـث تـريـح مـن تَـعَـبِ الـمـريـحِ[٤]
فـأنـتَ وإنْ أرَحْـتَ الـخـيـلَ وقـتـاً فـهـمُّـكَ غـيـرُ هَـمِّ الـمُـسْـتـريـحِ

وقال أحمد بن منير يمدحه ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه وحمل رأسه إلى حلب، وأنشده إياها أيضاً بجسر الحديد[٥]: [الكامل]

أقـوى الـضَّـلالُ وأقْـفَـرَتْ عَـرَصَـاتُـهُ وعـلا الـهُـدَى وتـبـلَّـجـت قـسـمـاتُـهُ[٦]
وانـتـاشَ ديـنَ مـحـمـدٍ مـحـمـودُه مـن بـعـد مـا عُـلَّـتْ دمـاً عَـبَـراتُـهُ[٧]

---

(١) غيب: جمع غائب.
(٢) مشيحاً: مجداً. وشيح: قرية كانت تعد قديماً من أعمال أنطاكية، يقال لها: شيح الحديد (الأعلاق الخطيرة الجزء الأول القسم الأول صفحة ١٢٦).
(٣) المذاكي: الخيل. والغزالة: الشمس.
(٤) الفَوَاق: بالتحريك: الراحة والتمهل، والفواق، للضرع: ما يعود فيجتمع من اللبن بعد ذهابه برضاع أو حلاب. والفُواق، بالضم: إفاقة العليل والسكران.
(٥) ذكر ابن الوردي في تاريخه ٢/ ٦٩ (المطبعة الحيدرية ـ النجف سنة ١٩٦٩)، ثمانية أبيات من القصيدة.
(٦) أقوى: افتقر، ومنه: أقوت الدار: إذا خلت من أهلها.
(٧) انتاش: أنقذ. وانتاشه: استدركه واستنقذه، وتناوله، وأخذه من مهواته. وفي تاريخ ابن الوردي: «عشراته» بدل: «عبراته».

Marfat.com

رَدَّتْ على الإسلامِ عَصْرَ شَبابِهِ وَثَباتُه مِنْ دونه وثَباتُه
أرسى قواعِدَه ومَدَّ عِمادَه صُعُداً وشيَّدَ سُورَهُ سوراتُه
وأعادَ وجه الحقِّ أبيضَ ناصعاً إصْلَاتُه وصِلَاتُه وصَلَاتُه(١)
لمَّا تواكل حِزْبُهُ وتخاذَلَتْ أنصارُه وتقاصَرَتْ خُطُواتُهُ
رُفِعَتْ لنور الدّين نارُ عزيمةٍ رَجَعَتْ لها عن طَبْعِها ظُلماتُه
مَلِكٌ مجالسُ لهوه شَذَّاته ومُشُوقُهُ بين الصفوف شَذَاته(٢)
يُغْرَى بحثحثة اليراعِ بَنَانُهُ إنْ لذ حَثْحَثَة الكؤوس لِذَاتُهُ
ويروقُه ثَغْرُ العِدَى قان دماً لا الثَّغر يَعْبَقُ في لَماه لثاتُه
فَصَبُوحُه خَمْرُ الطُّلى وغَبُوقُه نُطَفُ النُّفوسِ تُديرُها نشواتُهُ(٣)
فَتْحٌ تعمَّمَتِ السماءُ بفخرِه وَهَفَتْ على أغصانِهَا عَذَبَاتُهُ
سَبَغَتْ على الإسلامِ بيض حُجُوله واختالَ في أوضاحها جبهاتُهُ
وانهلَّ فوقَ الأبطحين غمامُهُ وَسَرَتْ إلى سَكْنيهما نَفَحاتُهُ(٤)
لله بُلْجَة ليلةٍ مَخِضَتْ به واليوم دَبَّجَ وَشْيَه ساعاتُهُ(٥)
حَطَّ القوامِصَ فيه بعد قِماصها ضربٌ يُصَلْصِلُ في الطُّلى صعقاتُهُ
نَبَذُوا السِّلاحَ لِضَيْغَمٍ عاداتُه فَرْسُ الفوارِسِ والقَنَا غاباتُهُ(٦)
لمجرِّب عُمريَّةٍ غضباتُهُ لله، مُعْتَصِميَّةٍ غَزَوَاتُهُ
تجنا لضيقِ صِفَادِهِ أُسراؤه وتُفيضُ ماءَ شُؤُونها نغماتُهُ(٧)
بين الجبالِ خواضعاً أعناقُها كالذَّوْدِ نابت عن بُراه حُدَاتُهُ(٨)
نَشَرَتْ على حلب عقودُ بُنودِهم حُلَلَ الرَّبيع تناسَقَتْ زهراتُهُ
رَوْضٌ جناه لها مَكَرُّ جيادِهِ واسْتَوْأَرَتْ حَمَّالةً حَمَلاتُهُ

---

(١) إصلاته: أي تجريده للسيف من غمده. وهو هنا كناية عن الحرب، وصِلاتُه: منحه وهداياه، وهو هنا كناية عن الكرم. وصلاتُه كناية عن الإيمان.
(٢) شذّاته: أي حملاته في الحرب. وشذاته: أي شذّته وجرأته.
(٣) الطُّلى: جمع طلاة: وهي العنق.
(٤) سكنيهما: أي سكانهما.
(٥) البلجة: آخر الليل عند انصداع الفجر.
(٦) فرس الفوارس: أي قتلهم، والأصل في الفرس، دق العنق، ثم كثر حتى جعل كل قتل فرساً.
(٧) الصفاد: ما يوثق به الأسير، من قدّ وقيد وغل.
(٨) الذود: القطيع من الإبل ما بين الثلاث إلى التسع وبراه: الحلقة في أنف البعير.

متساندينَ على الرِّجال كما انتشى ... شَـرْبٌ أمـالَـتْ هـامَـه قـهـواتُـهُ[١]
لـم تُـنْـبـتِ الآجـامُ قـبـل رِمـاحِـهِ ... شَـجَـرَاً أُصُـولُ فُـروعِـهِ ثَـمَـرَاتُـهُ
فَـلْـيَـحْـمَـدِ الإسـلامُ مـا جُـدِحَـتْ لـه ... شَـرَبَـاتُ غَـرْسٍ هـذه مـجـنـاتُـهُ
وسقى صَدَى ذاك الحيا صَوْبُ الحيا ... خَيْرُ الثَّرى ما كنتَ أنت نباتُهُ[٢]
نَـصَـبَ الـسَّـريـرَ ومـالَ عـنـه ومُـهِّـدَتْ ... لِـمَـقَـرِّ مَـنْـصِـبِـك الـسَّـرِيِّ سَـرَاتُـهُ
مـا ضَـرَّ هـذا الـبـدر وهـو مـحـلَّـقٌ ... أن الـكـواكـبَ فـي الـذُّرَا ضَـرَّاتُـهُ
فـي كـلِّ يـوم تـسـتـطـيـل قـنـاتُـهُ ... فـوق الـسَّـمـاء وتـعـتـلـي دَرَجَـاتُـهُ
وتـظـل تَـرْقُـمُ فـي الـضُّـحـى آثـارَه ... مَـجْـداً وألـسـنـةُ الـزَّمـانِ رُوَاتُـهُ
أيـن الأُلـى مـلـؤوا الـطُّـروسَ زخـارفـاً ... عـن نَـزْفِ بـحـرٍ هـذه قَـطَـرَاتُـهُ
عَـذَقُـوا بـأعـنـاق الـعـواطِـلِ مـا لـه ... مـن جَـوْهَـرٍ فَـأَتَـتْـهُـمُ فَـذَّاتُـهُ
لـو فَـصَّـلُـوا سِـمْـطاً بـبـعـضِ فـتـوحـه ... سَـخِـرَتْ بـمـا افـتـعـلـوا لـهـم فـعـلاتُـه
تـمـسـي قَـنـانـيـه بـنـاتُ قُـيـونـه ... فـوقَ الـقـوانـسِ والـقَـنَـا قَـيْـنَـاتُـهُ[٣]
صَـلَـتَـانُ مـن دون الـمـلـوك تـقـرُّهـا ... حـركـاتُـهُ وتُـنِـيـمُـهـا يـقـظـاتُـهُ
قَـعَـدَتْ بـهـم عـن خـطـوه هِـمَّـاتـهـم ... وَسَـمَـتْ بـه عـن قَـطْـوهـم هِـمَّـاتُـه[٤]
سَكَنُوا مسجَّفةَ الحِجَال وأَسْكَنَتْ ... زجلِ الرِّجال مع السها عَزَمَاتُهُ[٥]
لـو لاح لـلـطـائـي غُـرَّة فـتـحِـهِ ... بـاءتْ بـحـمـلِ تـأوِّهِ بـاءاتُـهُ[٦]
أو هَـبَّ لـلـطَّـبـريِّ طِـيْـبُ نـسـيـمـه ... لاخْـتَـشَّ مـن تـاريـخِـه حـشـواتُـه[٧]

---

(١) قهواته: جمع قهوة، وهي الخمر.
(٢) الصوب: نزول المطر.
(٣) قنانية: جمع قنينة، من الزجاج الذي يجعل الشراب فيه، وقُيونه: جمع القين، وهو الحداد، والقوانس: جمع قونس: أعلى البيضة من الحديد، وقيناته: جمع قينة، وهي الأمة غنت أم لم تغن، وكثيراً ما يطلق على المغنية في الإماء.
(٤) القطو: المشي بثقل.
(٥) مسجّفة الحجال: السجف: الستر، والحجال: جمع حجلة، وهو بيت كالقبة يستر بالثياب، وكانت الحجلة تتخذ للعروس أيضاً. والسها: كويكب صغير، خفي الضوء في بنات نعش الكبرى.
(٦) الطائي: هو أبو تمام الطائي، ويشير إلى قصيدته البائية المشهورة التي يقول فيها:
السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
(٧) الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير، أبو جعفر الطبري، البغدادي المولد والوفاة، ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ. صاحب التاريخ المشهور، والتفسير

صَدَمَ الصَّليبَ على صلابةِ عُوده ... فتفرَّقَتْ أيدي سبا خَشَباتُهُ
وسقى البرنس وقد تَبَرْنَسَ ذِلَّةً ... بالرُّوج مُمْقِرَ ما جَنَتْ غَدَراتُهُ(١)
فانقاد في خَطْمِ المنيَّة أَنْفُهُ ... يومَ الخَطِيمِ وأَقْصَرتْ نَزَوَاتُهُ
ومضى يُؤَنِّبُ تحت إنْبِ هِمَّةً ... أَمْسَتْ زوافِرَ غَيِّها زَفَرَاتُهُ
أسدٌ تَبوَّأَ كالغريف فجأتَهُ ... فتبوَّأَتْ طَرَفَ السِّنانِ شَوَاتُهُ(٢)
دونَ النُّجومِ مغمَّضاً ولطالما ... أَغْضَتْ وقد كرَّت لها لحظاتُهُ
فجلوته تبكي الأصادق تحته ... بدمٍ إذا ضَحِكَتْ له شُمَّاتُهُ(٣)
تمشي القناةُ برأسه وهو الذي ... نَظَّمَتْ مَدَارَ النَّيِّرينِ قَنَاتُهُ
لو عانقَ العَيُّوقَ يومَ رَفَعْتَه ... لأراك شاهدَ خَفْضِه إخْباتُهُ(٤)
ما انقادَ قبلَك أنفُه بِخزامةٍ ... كلا ولا همَّت لها هَدراتُهُ(٥)
طَيَّان خلف السَّرْحِ طال زئيرُه ... نَطَقَتْ سطاك له فطال صُماتُه(٦)
لما بدا مسودُّ رأيك فوقه ... مبيضُّ نَصْرِك، نُكِّسَتْ راياتُه
ورأى سيوفَكَ كالصَّوالج طاوَحَتْ ... مِثْلَ الكُرِين فقلَّصت كرَّاتُهُ(٧)
ولَّى وقد شَرِبَتْ ظُباكَ كُماتَه ... تحت العَجاج وَأَسْلَمَتْه حُماتُه
ترك الكنائسَ والكِناسَ لناهبٍ ... بالبِيضِ ينهبُ ما حواه عُفَاتُه

المشهور (جامع البيان)، له من المصنفات: «الآداب الحميدة والأخلاق النفيسة»، «اختلاف الفقهاء»، «تاريخ الرجال»، «تاريخ الأمم والملوك وأخبارهم ومولد الرسل وأنباؤهم»، «جامع البيان في تفسير القرآن»، «تهذيب الآثار»، «كتاب البسيط في اللغة»، «الجامع في القراءات»، «كتاب التبصير»، في الأصول، «كتاب الخفيف في الفقه»، «كتاب الزكاة»، «كتاب الشذور»، «كتاب الشروط»، «كتاب الصلاة»، «كتاب الطهارة»، «كتاب العدد والتنزيل»، «كتاب الفضائل»، «كتاب القراءة»، «كتاب المحاضر والسجلات»، «كتاب المسترشد»، «كتاب الوصايا» وغيرها (كشف الظنون ٦/ ٢٦ ـ ٢٧).

(١) الروج: كورة من كور حلب. وممقر: شديد المرارة.
(٢) الغريف: الشجر الملتف. والشواة: جلدة الرأس.
(٣) الأصادق: جمع صديق.
(٤) العيّوق: كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا في ناحية الشمال، ويطلع قبل الجوزاء، سمي بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا. والإخبات: الخشوع والتواضع.
(٥) الخزامة: حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير، يشد بها الزمام.
(٦) الطيان: الجائع. والسرح: الماشية. وحماته: سكوته.
(٧) الكرين: جمع كرة، وهي التي تضرب بالصولجان.

Marfat.com

لـغـلاب أروع لا يُـمـيـتُ عِـدَاتِـه داءُ الـمِـطـال ولا تـعـيـش عُـدَاتُـه
لـلـوحـشِ مـلـقًى بـالـعـرا يـقـتـاتُـه مـا كـانَ قَـبْـلُ بـصـيـده يـقـتـاتُـه
الـيـومَ مَـلَّـكـك الـقِـرَاعُ قـلاعَـه مـتـسـنِّـمـاً مـا اسْـتَـشْـرَفَـتْ شـرفـاتُـه
وغـداً تُـحِـلُّ لـك الـحـلائـلَ أسـهـمٌ مـتـوزِّعـاتٌ بـيـنـهـن بـنـاتُـهُ
أَوْطـأْتَ أطـرافَ الـسَّـنـابـك هـامَـه فـتـقـاذَفَـتْ بـعـنـيـقـهـا قَـذَفـاتـه
لا زال هـذا الـمـلـك يـشـمـخُ شـأنُـه أبـداً وتُـكْـفَـتُ في الـحـضـيـضِ شـنـاتُـهُ
مـا أخـطـأتـكَ يـدُ الـزَّمـان فـدونَـه مـن شـاء فـلـتـسـرعْ إلـيـه هَـنَـاتُـهُ
أنـت الـذي تـحـلـي الـحـيـاةَ حـيـاتُـه وتُـهِـبُّ أرواحَ الـقـصـيـدِ هِـبَـاتُـهُ

فـصـل

[فتح نور الدين حصن أفامية]

قال ابن الأثير: وفيها[1] سار نور الدين إلى حصن أفامية ـ وهو للفرنج أيضاً، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة، وهو حِصْنٌ منيع على تلٍّ مرتفع عالٍ من أحصن القلاع وأمنعها ـ وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشَيْزَر وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذلّ والصَّغار. فسار نور الدين إليه، وحصره وضيَّق عليه، ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها، وسَاروا نحوه ليزحزحُوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر؛ من طعام ومال، وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه. فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوَهم، فحين رأوْا جدَّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قُصَاراهم أن صالحوه على ما أخذ. ومدَحَه الشعراء وأكثروا؛ منهم أبو الحسين أحمد بن مُنير، قال: [الكامل]

أسـنـى الـمـمـالـك مـا أَطَـلْـتَ مـنـارَهـا وجـعـلـتَ مُـرْهَـفَـةَ الـشِّـفـارِ دِثَـارَهـا
وأحـقُّ مَـنْ مـلـك الـبـلادَ وأهـلَـهـا رَؤُوفٌ تـكـنَّـفَ عَـدْلُـه أقـطـارَهـا
مـن عـام سـام الـخـافـقـيـن وحـامـهـا مـنـنـاً وزاد هـوًى فـخـصَّ نِـزَارَهـا
مُـضَـرِيَّـة طُـبـعـت مـضـارِبُـه وإن عَـدَّتْـهُ ذروة فـارسٍ أُسْـوارَهـا[2]
آل الـرعـيَّـة وهـي تـجـهـلُ آلـهـا وتـعـافُ نُـطْـفَـتَـهـا وتـكـرَهُ دارَهـا[3]

(١) أي في سنة أربع وأربعين وخمسمائة.
(٢) الأسوار: قائد الفرس.
(٣) آل الرعية: أي ساسها وأحسن سياستها. والنطفة: الماء الصافي.

Marfat.com

فأقرَّ ضجعتَها وأنبت نَيَّها ... وأساغ جُرعتها وأثبت زارها
مَلِكٌ أبوه سما لها فسما بها ... وأجارها فَعَلَتْ سُهيلاً جارَها
نَهَجَ السَّبيلَ له فأوضعَ خلفه ... وشدا له يُمْنُ العُلا فأنارَها(١)
أَنَشَرْتَ يا محمودُ مِلَّةَ أحمدٍ ... مِنْ بعدِ ما شَمَلَ البِلَى أبشارَها
إن جَانأَتْ عَدَلَ السِّنانُ قَوامَها ... أو نأنَأَتْ كان الحُسامُ جِبارَها(٢)
عُقِلَتْ مع العُصْمِ العواصمِ مُذْ غَدَتْ ... هذي العزائمُ أسرَها وإسارَها
وتكفَّلَتْ لك ضُمَّرٌ أنضَيتَها ... في صونها أن تستردَّ ضِمارَها
كَلأتْ هوامِلُها ورَدَّ مطارها ... ما أريشَتْهُ وثقَّفَتْ آطارها(٣)
كم حاولتْ من كَفَّتيها غِرَّةً ... غُلُبُ الأسودِ فقلَّمتْ أظفارَها
أنَّى وحامي سَرْحِها مَنْ لو سمت ... للفُلْكِ بَسْطَتُه أحال مدارَها
في كلِّ يومٍ من فتوحك سورةٌ ... للدِّين يحملُ سِفْرُه أسفارَها
ومطيلة قِصَرِ المنابرِ إنْ غدا الـ ... ـخطباءُ تنثرُ فوقَها تِقْصارَها(٤)
هِمَمٌ تحجَّلَتِ الملوكُ وراءها ... بدم العِثارِ وما اقتفَتْ آثارَها
وعزائمٌ تستوئِزُ الآسادَ عن ... نَهْشِ الفرائسِ إن أحسَّ أُوارَها(٥)
أبداً تقصّر طول مشرفة الذُّرا ... بالمشرفيَّة، أو تطيل قِصارَها
فغرَت أفاميةٌ فماً فهتَمْتَهُ ... كوبار أجناها الإران بوارَها(٦)
أرهفتَ رأيك فوق رايك تحتها ... فحططتَ من شَعَفَاتِها أعفَارَها(٧)
أدركتَ ثأركَ في البُغاة وكنتَ يا ... مختارَ أمةِ أحمدٍ مختارَها
عاريَّةُ الزَّمن المعيرِ سما لها ... منكَ المغير فاستردَّ معارَها
زأر الهِزَبْرُ فقيَّدَتْ عاناتِها ... عصر الضَّلال وأسلمت أعيارَها(٨)

---

(١) أوضع خلفه: أي سار خلفه.
(٢) جانأت: أي مالت. ونأنأت: أي ضعفت وعجزت.
(٣) هواملها: أي المهملة. ومنه: إبل هوامل: أي مسيبة لا راعي لها.
(٤) التقصار: القلادة، للزومها قصرة العنق.
(٥) تستوئز: أي تفزع.
(٦) وبار: أرض كانت لعاد. والإران: البطر.
(٧) رايك: جمع راية. وشعفاتها: جمع شعفة، وهي رأس الجبل. وأعفارها: جمع عفر، وهو ظاهر التراب.
(٨) عاناتها: جمع عانة: القطيع من حمر الوحش.

Marfat.com

ضاءت نجومُك فوقَها ولربَّما ... باتتْ تنافثها النجومُ سِرَارَها
أمست مع الشِّعْرى العبورِ وأصبحت ... شعراء تستفلي الفحولُ شِوَارَها
ولكم قَرَعْتَ بمقرباتك مثلها ... تلعاً، وقلَّدْتَ الكُماةَ عِذَارَها[1]
حتى إذا اشتملَتْكَ أشرَقَ سورُها ... عِزًّا، وحلَّاها سناكَ سوارَها
خرَّ الصَّليبُ وقد عَلَتْ نغماتُها ... واستَوْبَلَتْ صلواتهُ تكرارَها
لما وعاهَا سمعُ أنطاكيَّةٍ ... سَرَتِ الوقار وكشَّفَتْ أستارَها
فاليومَ أضْحَتْ تستذمُّ مجيرَها ... من جَوْره وغداً تذمُّ جوارَها
عَلِمَتْ بأنْ ستذوق جُرْعةَ أختِها ... إن زَرَّ أطواق القباء وزارَها
ماضٍ إذا قَرَعَ الرِّكابَ لبلدةٍ ... ألْقَتْ له قبلَ القِرَاعِ إزارَها
وإذا مجانقُه رَكَعْنَ لصعبةِ الـ ... ـملقاةِ أسجد كالجدير جِدارَها
ملأ البلادَ مواهباً ومَهَابَةً ... حتَّى استرقَّتْ آيَهُ أحرارَها
يذكي العيونَ إذا أقامَ لعونها ... أبداً، ويفضي بالظُّبى أبكارَها
أومى إلى رِمَمِ النَّدَى فأعاشها ... وهمَى لسابقةِ المُنى فأزارها
نبويُّ تشبيه الفتوح كأنَّما ... أنصارُه رجعت له أنصارَها
أحيا لِصَرْحِ سلامها سَلْمانَها ... وأماسٍ تحت عمارها عَمَّارَها
إن سار سار وقد تقدَّم جيشَه ... رَجْفٌ يقصِّع في اللِّها ذُعَّارَها
أو حَلَّ حَلَّ حُبا القُروم بهيبةٍ ... سَلَبَ البُدُورَ بِدارِها أبدارَها
وإذا الملوكُ تنافسوا درج العُلا ... أَرْبَى بنفسٍ أفْرَعَتْهُ خِيارَها
ونُهَى إذا هِيْضَتْ تدلُّ بخيرِها ... وسُطًى تُذلُّ إذا عَنَتْ جَبَّارَها
تُهدَى لمحمودِ السَّجايا كاسمه ... لو لزَّ فاعله بها لأبارَها
الفاعلُ الفعلات يَنْظِمُ في الدُّجى ... بين النُّجوم حسودُها أسمارَها
ساعٍ سعى والسَّابقات وراءه ... عَنَقاً فعصفر منتماه عثارها
كالمَضْرَحيِّ إذا يُصَرْصِرُ رابئاً ... خَرِسَ البُغاث وهاجَرَتْ أوكارَها
عُرِفَتْ لنورِ الدين نورُ وقائعٍ ... تغشى إذا اكتحلَتْ به أبصارَها
مشهورة سعطت وقد حاولتها الـ ... ـأقدار عجزاً أن تَشُقَّ غُبارَها
لله وجهك والوجوه كأنَّما ... حَطَّت بها أوقار هِيت قارَها

(١) المقربات: الخيل التي تكون قريبة معدة، مفردها: المقربة.

Marfat.com

والبيض تخنِس في الصُّدور صدورها هَبْراً وتكتحل الشفور شفارَها
والخيل تدلجُ تحت أرشيةِ القَنا جَذْبَ المواتحِ غاورت آبارَها
فبقيتَ تستجلي الفتوحَ عرائساً متملِّياً صدرَ العُلا وصدارَها
في دولةٍ للنَّصرِ فوقَ لوائِها زُبُرٌ تنمُّقُ في الطُّلَى أسطارَها[1]
فالدِّين مَوْمَاةٌ رَفَعْتَ بها الصُّوى وحديقةٌ ضَمِنَتْ يداك إبارَها[2]

وله فيه من قصيدة أخرى: [الكامل]

خَنَسَ الثَّعالبُ حين زمجرَ مصحر ملأ البلادَ هماهماً وزئيرا
تركُوا مشاجرةَ الرِّماحِ لحاذقٍ جَعَلَتْ مخافَتُه القُصورَ قُبورا
لربيبِ حَرْبٍ لم تزل فَعَلاتُهُ كالرَّاءِ يلزمُ لَفْظَهَا التَّكْريرا
أسدٌ إذا ما عاد من ظفرٍ بمفْـ ـترس أحدَّ لمثلِهِ أظْفُورا
يتناذر الأعداءُ منه سطوةً ملء الزَّمان تغيُّظاً وزَفيرا[3]
عرفوا لنورِ الدين وقعَ وقائعٍ وفَّى بها الإسلامَ أمسِ نُذُورا
أبداً يظافرك القضاءُ على الذي تبغي فترجعُ ظافراً منصورا
قوَّضْتَ فانتقع الظهائر ظلمة وقفلتَ فاشتعلَ الدياجِرُ نورا[4]
وعلى العواصمِ من دفاعكِ عاصِمٌ يُنْسي الرَّشيدَ وينشرُ المنصورا

فصل

[في وفاة معين الدين أُنَر بدمشق[5] ما كان من الرئيس ابن الصُّوفي[6] في هذه السَّنة]

قال أبو يعلى التَّميمي: فصل معين الدين من عسكره بحَوْرَان ووصل إلى

(١) الطُّلى: جمع طلاة، وهو العنق.
(٢) المومَاة: المفازة الواسعة الملساء. وقيل: هي الفلاة التي لا ماء فيها ولا أنيس. والصوى: جمع الصوة، وهو ما نُصِب من الحجارة ليستدل به على الطريق.
(٣) يتناذر: أي يخوف بعضهم بعضاً.
(٤) الظهائر: جمع ظهيرة، وهي الهاجرة.
(٥) انظر «الكامل» ٩/ ٣٦٤. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٠، وقال ابن الوردي: وإليه ينسب قصر معين الدين بالغور.
(٦) هو مؤيد الدولة المسيب، سترد أخباره في هذا الجزء، وانظر «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

Marfat.com

دمشق في أواخر ربيع الآخر، لأمر أوجب ذلك ودعا إليه، وأمعن في الأكل، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده فيما يدبِّره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوَّته، وتولَّد معه مرضٌ في الكبد، فأوجب الحال عوده إلى دمشق في مِحَفَّة لمداواته، فوصل وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نُقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها[1].

قلت: قبره في قُبَّةٍ بمقابر العوينة شمالي دار بطيخ الآن، واسمه مكتوبٌ على بابها، فلعلهُ نُقل من ثَمَّ إليها. وفيه يقول الأمير مؤيَّد الدولة أسامة بن منقذ، وكتب إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض بُصرى وصَرْخَد مع نور الدين ـ وقد تقدَّم ذلك ـ كتب إليه قصيدةً يقول فيها: [الخفيف]

كلُّ يومِ فَتْحٍ مبينٌ ونَصْرُ ... واعتلاءٌ على الأعادي وقَهْرُ
صَدَقَ النَّعْتُ فيكَ، أنت معين الد (م) ين إن النُّعوت فألٌ وزَجْرُ
أنتَ سيفُ الإسلامِ حقاً، فلا كلّ (م) غِرَارَيْكَ أيها السَّيْفُ دَهْرُ[2]
لم تَزَلْ تُضْمِرُ الجِهَادَ مُسِرًّا ... ثم أعلنتَ حين أَمْكَنَ جَهْرُ
كلُّ ذخرِ الملوكِ يَفْنَى وذخرا ... كَ هما الباقيانِ: أجرٌ وشُكْرُ

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرئ المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصَّلاة على المنبر بإبطال الفسة المستخرجة من الرَّعيَّة، وإزالة حكمها وتعفية رسمها، وإبطال دار الضَّرْب؛ فكثر دعاء الناس له وشُكْرُهم.

قال: واستوحش الرئيس مؤيَّد الدولة من مجير الدين استيحاشاً أوجب جَمْعَ من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء، وحَمَلة السلاح من الجهلة العوام، وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حَيْدَرَة[3]، للاحتماء بهم من مكروهٍ يَتمُّ عليهما، وذلك في ثالث عشر رجب. ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يُسَكِّنهما ويطيِّب أنفسهما، فما وثقا بذلك، وجدَّا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الأجناد، وأثارا الفتنة، فقصدوا باب السجن وكسروا أغلاقه وأطلقوا من فيه، واستنفرُوا جماعةً من أهل الشَّاغور وغيرهم، وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جَمْعٍ كثير، وامتلأت بهم الأزقَّة والدُّروب. فحين عرف

(١) هي المدرسة المعينية.
(٢) الغراران: شفرتا السيف.
(٣) قتل سنة ٥٤٨هـ. انظر «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ٢٤٢.

Marfat.com

مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشَّاك[١]، وأخرج ما في خزائنه من السلاح والعُدَد، وفُرِّقت على العسكرية، وعزموا على الزَّحف على جمع الأوباش، والإيقاع بهم، والنكاية فيهم، فسأل جماعةٌ من المقدمين التمهُّل في هذا الأمر وترك العجلة، بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحُّوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم.

ووقعت المراسلة والتلطُّف في إصلاح ذات البين، فاشترط الرئيس وأخوه شروطاً أُجيبا إلى بعضها وأُعرض عن بعضٍ، بحيث يكون ملازماً لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولا يركب إلى القلعة إلا مُستدعًى إليها، وتقرَّرت الحال على ذلك، وسكنت الدَّهْماء. ثم حدث بعد هذا التقرير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد، وجَمَعَ الجمع الكثير من الأجناد والمقدَّمين والرَّعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة وحَضرِ من بها، وطَلَبَ من عيَّن عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحربُ بين الفريقين، وجُرح وقُتل بينهم نَفَرٌ يسير، وعاد كلُّ فريقٍ منهم إلى مكانه. ووافق ذلك هروب السَّلَّار زين الدين إسماعيل الشِّحْنة وأخيه إلى ناحية بَعْلَبَك، ولم تزل الفتنة ثائرة والمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصُّورة إبعاد من التمس إبعاده من خواصِّ مجير الدين، وسكنت الفتنة وأُطلقت أيدي النَّهَّابة في دار السَّلَّارَيْن وأصحابهما، وعمهما النهب والإخراب. ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما، وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرِّياسة، بحيث لا يكون له في ذلك معترض ولا مشارك.

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقلة[٢]: [مجزوء الوافر]

ذَرِ الأتـــراكَ والـــعَـــربـــا ... وكُـــنْ فـــي حـــزب مَـــنْ غَـــلَـــبـــا
بـــجِـــلِّـــقَ أصـــبـــحـــتْ فـــتـــنٌ ... تـــجـــرُّ الـــوَيْـــلَ والـــحَـــرَبـــا
لـــئـــن تـــمَّـــت فـــوا أســـفـــا ... ولـــم تَـــخْـــرَبْ فـــوا عَـــجَـــبـــا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة: [الخفيف]

زِدْ عُـلُـوًّا فـي الـمـجـدِ يـا ابـن عـلـيٍّ ... هـــكـــذا مَـــنْ أرادَ أَنْ يَـــتَـــعَـــالـــى
قـد حَـوَى الـديـن يـا مـؤيَّـدَهُ مِـنْـ ... ـكَ هِـــزَبْـــراً وديـــمـــةً وهـــلالا

(١) السلاح الشاك: أي السلاح التام.
(٢) تقدمت ترجمة عرقلة الشاعر قبل قليل.

وغـدت جِـلّـقٌ تـنـاديـك عُـجـبـاً هــكــذا هــكــذا وإلا فــلا لا[١]
جئتها في الظلام خيلاً ورَجْلاً وحـمـيـتَ الـنُّـفـوس والأمـوالا
لـن تـبـالـي مـن بـعـدهـا بـعـدوٍّ إنـمـا ذاك كـان قَـطْـعـاً فـزالا
قـد بـلـغـتَ الـمُـرَاد مـن كـلِّ ضـدٍّ وَكَـفَـى الـلّـهُ الـمُـؤْمِـنِـيـنَ الـقِـتَـالَا[٢]

قال أبو يعلى التَّميمي: وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف بها الملقَّب بالحافظ، واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر[٣] في خامس جُمادى الآخرة، وولي الأمر بعده ولدُه الأصغر أبو منصور إسماعيل، ولقِّب بالظَّافر[٤]، وولي الوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي[٥].

فـصـل

[في وفاة سيف الدين غازي بن زَنْكي صاحب المَوْصِل[٦] وهو أخو نور الدين الأكبر]

قال ابن الأثير: كان أتابك الشهيد ـ يعني زَنْكي ـ ملَك دارا، وبقيت بيده إلى أن قُتل، فأخذها صاحب ماردِين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنة

---

(١) هذا عجز بيت للمتنبي مضمن في القصيدة، وصدره:
ذي الـمـعـالـي فـلْـيَـغْـلُـوَنْ مـن تـعـالـى
يمدح في القصيدة سيف الدولة ويذكر نهوضه إلى ثغر الحدث لما بلغه أن الروم أحاطت به، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٤٤هـ. انظر ديوان المتنبي ٢/ ١٦٤ (طبعة دار الكتب العلمية).

(٢) عجز البيت فيه تضمين من الآية الكريمة: ﴿**ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً**﴾ [الأحزاب: ٢٥].

(٣) كذا ورد اسمه بالأصل. وهو الحافظ لدين الله عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم بن المنتصر بالله العلوي، صاحب مصر، وخلافته عشرون سنة إلا خمسة أشهر وعمره نحو سبع وسبعين سنة، وما ولي الخلافة من ليس أبوه خليفة غير الحافظ والعاضد. وبويع بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل ابن الحافظ عبد المجيد، واستوزر ابن مصال وبقي أربعين يوماً. انظر «الكامل» لابن الأثير ٩/ ٣٦١ ـ ٣٦٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٨ ـ ٦٩.

(٤) في «الكامل» ٩/ ٣٦١: الظاهر بأمر الله أبو منصور إسماعيل. وهو تصحيف والصحيح الظافر بأمر الله. قتل في المحرم سنة ٥٤٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

(٥) ولي أبو الفتح بن مصال المغربي الوزارة أربعين يوماً ثم قتله العادل بن السلار. انظر «الكامل» ٩/ ٣٦١، ووفيات الأعيان ٣/ ٤١٦ ـ ٤١٧، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٣.

(٦) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٨.

Marfat.com

أربع وأربعين، فحاصرها وملكها، واستولى على كثيرٍ من بلد مارِدِين بسببها، ثم حصر مارِدِين عازماً على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ما أُخِذَ من البلاد بعد قتل والده، فتفرَّق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون. فقال صاحب مارِدِين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه؟ فلقد كانت أعياداً! قد حَصَرَنا غير مرة فلم يتعدَّ هو وعسكره حاصل السُّلْطان، ولا أخذوا كفّاً من التبن بغير ثمن: [الخفيف]

رُبَّ دهـرٍ بـكـيـت مـنـه فـلـمَّـا ... صِـرْت فـي غـيـره بـكـيـتُ عـلـيـه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوَّجه ابنته الخاتون، ورحل سيف الدين عن مارِدين وعاد إلى المَوْصل، وجُهِّزت خاتون وسُيِّرت إليه، فوصلت إلى الموصل وهو مريضٌ، فتوفِّي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكان عمره نحو أربعين سنةً.

وكان من أحسن الناس صورةً، ودُفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن المَوْصِل، وخلَّف ولداً ذكراً، أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته، وزوَّجه ابنة عمه قُطْب الدين مودود، فلم تطل أيامه، وأدركه أجله في عنفوان شبابه، فتوفي، وانقرض عقب سيف الدين.

وكان كريماً شجاعاً ذا عزم وحَزم.

وهو أوَّل من حُمِل على رأسه سَنْجَق[1] من أصحاب الأطراف، فإنه لم يكن فيهم من يفعلُه لأجل السلاطين السلجوقية، وهو أوَّل من أمر عسكره ألا يركب أحدُهم إلا والسيف في وسطه، فلمَّا أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الأطراف.

وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة؛ وهي من أحسن المدارس وأوسعها، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشَّافعية والحنفية نصفين. وبنى رباط الصُّوفية بالموصل أيضاً، وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، ووقف عليهما الوقوفَ الكثيرة.

وكان كريماً؛ قصدَه شهاب الدين حَيْصَ بَيْصَ[2]، وامتدحه بقصيدته

---

(١) السنجق: باللغة التركية معناه الطعن. والمراد به عند استعماله الراية، وقد يعبر عنها بالسناجق جمع سنجق، سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح، والرمح هو آلة الطعن يسمّى بذلك مجازاً (انظر صبح الأعشى ٢/ ١٤٢). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١/ ٤٧٤: أول من حمل السنجق على رأسه من الملوك غازي بن زنكي صاحب الموصل، وهو أول من اختار الأجناد أن يركبوا بالسيوف في أوساطهم والدبابيس تحت ركبهم.

(٢) هو سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي، شهاب الدين، أبو الفوارس البغدادي، المعروف بحيص بيص، وإنما سمي بحيص بيص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد، فقال: ما للناس في حيص بيص، فبقي عليه هذا اللقب، ومعنى هاتين =

Marfat.com

المشهورة وهي من جيد شعره، فأجازه عنها ألف دينار أميري سوى الإقامة والتعهُّد مدَّة مُقَامه، وسوى الخلع والثياب.

قلت: أول تلك القصيدة: [الطويل]

* إلَامَ يراك المَجْدُ في زِيِّ شاعر*[1]

يقول في آخرها[2]: [الطويل]

أتابكُ إن سُمْيتَ في المَهْدِ غازياً ... فسابقةٌ معدودةٌ في البشائرِ
وَفَيتَ بها والدِّين قد مال رَوْقُه ... وصدَّقتها والكُفْرُ بادي الشَّعائرِ

وعزَّى أبو الحسين أحمدُ بن منير نورَ الدِّين بأخيه بقصيدة تقدَّم بعضُها، أولُها: [الكامل]

* هو الجدُّ بَزَّ التمام البدورا *

يقول فيها: [الكامل]

سوى كل ما جَنَتِ الحادثا ... تُ ما كنتَ ظلاً علينا قريرا
أسأن وأحسن عكن الهلال ... وملأننا منك بدراً منيرا
إذا ثَبَجَ البحر أخطأنه ... فلا غَرْوَ أنْ ينتشفن الغديرا
وأصْغِر بفقداننا الذاهبيـ ... ـن ما عشت تأتال ملكاً كبيرا
وما أغمد الدَّهْرُ ذاك الحُسا ... مَ ما سلَّ حدَّاك عَضْباً بَتُورا
قسيمُ عُلاك ونِعْمَ القسيمُ ... أخٌ ساف نَزْراً وأعطى كثيرا
وكان نظيركَ غارَ الزَّما ... نُ من أنْ يرى لك فيه نظيرا
فَدَتْك نفوسٌ بك استَوْطَنَتْ ... من الأمن نوراً وقد كُنَّ بُورا
بقيت مُعزًّا من الهالكين ... تُوقَّى الرَّدَى وتوفَّى الأجُورا

الكلمتين: الشدة والاختلاط. وهو شاعر مشهور من أهل بغداد، نشأ فقيهاً، وغلب عليه الأدب والشعر، وكان يلبس زي عرب البادية، ولا ينطق إلا بالعربية الفصحى، توفي ببغداد سنة ٥٧٤هـ. له ديوان شعره. ورسائل في مسائل الخلاف (انظر: كشف الظنون ٥/ ٣٨٥، «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٩٧، خريدة القصر، قسم شعراء العراق ٢/ ٢٠٢ ـ ٣٦٦، وفيات الأعيان ٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥).

(١) عجز البيت:

وقد نحلت شوقاً فروع المنابرِ

(٢) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨. وانظر مطلع القصيدة في «الكامل» ٩/ ٣٥٩.

Marfat.com

وغيرك يمهد بسط العزاء ويولي المُسَلِّين سمعاً وَقورا
وما نقص الدَّهرُ أعدادكم إذا شفَّ قطراً وأبقى بُحُورا
ولو أنصفَ المجدُ موتاكم لَخَطَّ لهم في السَّماء القُبُورا
حياتُك أحيت رَميمَ الرَّجاء وأمطَتْ من الجود ظهراً ظهيرا

وللقَيْسَراني قصيدةٌ منها: [البسيط]

ما أَطْرَق الجوُّ حتى أشرقَ الأُفُقُ إن أُغْمِدَ السَّيْفُ فالصَّمصام يأتلقُ
دون الأسى منك نورَ الدِّين في حلبٍ مُملَّكٌ ينجلي عن وجهه الغَسَقُ
كنتَ الشقيق الشفيق الغيب حين ثوى أراق ماءَ الكَرَى من جفنك الأرَقُ
تلقى الأسى من لباس الصَّبر في جُنَنٍ حصينةٍ تحتها الأحشاءُ تحترقُ
ومدَّةُ الأجلِ المحتومِ إن خَفِيَتْ فإنَّ أيامنا من دونها طُرُقُ
وإنما نحن في مضمارِ حَلْبتها خيلٌ إلى غاية الأعمار تستبِقُ
شأوٌ إذا ابتدرَ الأقوامُ غايتَه كان المؤخَّر فيها من له السَّبقُ
إن كان صِنْوك هذا قد ثوى فذوى ففي مغارسك الأثمارُ والوَرَقُ
أو أصبحت بعدَه الأهواءُ نافرةً أيدي سبا فعلى علياك تتَّفِقُ
ما غابَ مَنْ غابَ عن آفاقِ مطلعه إلَّا ليفتر عَنْ أنوارك الأفُقُ
ما دام شمسُكَ فينا غير آفلةٍ فالدِّين منتظِمٌ والمُلْكُ مُتَّسِقُ

فصل

[ولاية قطب الدين مودود بن زنكي الموصل]

قال ابن الأثير[1]: ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بالمَوْصِل، فاتَّفقت كلمة جمال الدين[2] وزين الدين[3] على توليته وتمليكه طلباً للسلامة منه، فإنه كان لَيِّنَ الجانب، حسنَ الأخلاق، كثير الحلم، كريمَ الطباع. فأحضروه من داره وحلَّفوه لهم وحلَفوا له، ونزل بدار المملكة، وحلف له

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠.
(٢) جمال الدين: هو أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، جمال الدين، وزير الموصل، توفي سنة ٥٥٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧١.
(٣) زين الدين: هو زين الدين علي بن بكتكين، صاحب إربل، ووالد مظفر الدين كوكبري، توفي سنة ٥٦٣هـ. انظر «الكامل» ١٠/ ٨.

Marfat.com

الأمراء والأجناد، واستقرَّ في الملك، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين. ولما ملك واستقرَّ في الملك تزوَّج امرأة أخيه التي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده، على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قُطْب الدين أحدٌ غير أولادها.

قال: وكانت هذه الخاتون يحلُّ لها أن تضَعَ خِمارها عند خمسة عشر ملكاً من آبائها، وأجدادها، وإخوتها، وبني إخوتها، وأزواجها، وأولادها، وأولاد أولادها.

ثم ذكرهم ابن الأثير في كتابه وسمَّاهم، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، زوج عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه؛ كان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة، وهم: مِنْ معاوية رضي الله عنه إلى آخر خلفاء بني أمية، سوى آخرهم؛ وهو مروان بن محمد، فإنه ابن عم لها ليس بمحرم، والباقون محارم لها، وما تم له ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية؛ فمعاوية جدُّ أمها، ويزيد جدُّها لأمها، ومعاوية بن يزيد خالها، ومروان جدُّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليد وسليمان وهشام ويزيد إخوتها، وعمر بن عبد العزيز زوجها، والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد أولاد أخوَيْها، وهؤلاء كلُّهم خلفاء وعدَّتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبنيٌ على أصلٍ فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمُّها عاتكة بنت يزيد بن معاويةَ، بل أمها امرأة مخزوميّة، على ما بيَّناه في ترجمتها في «تاريخ دمشق». ولكن الصَّواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن عبد العزيز ومروان بن محمد، بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارمُ لها: معاوية جدُّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها. ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالإخوة والأعمام والأخوال وبني الإخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك هما أخوا فاطمة وربيبا عاتكة، وعمر بن الوليد بن عبد الملك، وغيرهم. وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية.

وما ذكره ابن الأثير من أمر بنت حُسام الدين، فستُّ الشَّام بنت أيّوب أكثر منها محارم من الملوك، يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكاً من إخوتها

الأربعة: المعظم، وصلاح الدين، والعادل، وسيف الإسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم، وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين، وذريته أصحاب حماة، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بَعْلَبَك.

فصل

[مسير نور الدين إلى سنجار وصلحه مع مودود وتسلمه حمص]

قال ابن الأثير[1]: ولما ملك قُطْب الدين المَوْصِل والبلاد الجزريَّة كان أخوه نور الدين بحلب ـ وهو أكبر من قطب الدين ـ فكاتبه بعضُ الأمراء وطلبوه إليهم، منهم الأمير المقدَّم والد شمس الدين بن المقدَّم[2] وهو حينئذٍ دُزْدار سِنْجار. فسار نور الدين جريدةً[3] في سبعين فارساً من أكابر دولته، منهم أسد الدين شِيركُوه، ومجد الدين أبو بكر بن الدَّاية، وغيرهما. فوصلوا إلى ماكِسِين في ستة أنفس في يوم شديد المطر وعليهم اللَّبابيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلوا إلى الشُّحنة وأخبروه بوصول نفرٍ من الأجناد وكأنهم تُركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين، فحين رآه الشُّحنة قبَّل يده، وخرج عن الدَّار، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه. وسار مجدًا إلى سِنْجار فوصلها وليس معه إلا نفرٌ يسير، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورةٍ صغيرة من شدَّة تَعبه، وأرسل إلى المقدَّم بالقلعة يُعرِّفه وصوله، وكان المقدَّم قد استُدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها، فأرسلوا إليه، فتوقَّف عدة أيام، فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسِنْجار، وقال له: أنا أتأخَّر في الطريق، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سِنْجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين، فخاف فوات الأمر. ووصل القاصد الذي سيَّره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتلِّ يعفر، فعاد إلى سِنْجار وسَلَّمها إلى نور الدين، وكاتَبَ فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٣٥٩ ـ ٣٦٥.

(٢) هو شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب بعلبك، من كبراء أمراء الدولتين النورية والصلاحية. انظر أخباره في «الكامل» ١٠/ ٨١ ـ ٨٢. الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٣) الجريدة: أي الحملة العسكرية المكونة من فرسان فقط ليس فيها رجّالة.

الحصن يستنجده، وبَذَلَ له قلعة الهيثم، فسار إليه بجنده. فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن المَوْصِل نحو سِنْجار، ومعه الجمَال والزَّين، ونزلوا بتلِّ يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، ويهدِّدوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً. فأعاد الجواب: إنني أنا الأكبر، وأنا أحقُّ أن أدبِّر أمر أخي منكم، وما جئت إلا لما تتابعت إليَّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتَهم لولايتكم عليهم - يعني الجمال والزَّين - فخِفت أن يحملهم الغيظ والأَنَفَة على أن يُخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهدُّدُكم إيّاي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم. وكان قد هرب إليه جماعةٌ من أجنادهم، فخافوا أن يلقَوْه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصُّلح، وأشار به جمال الدين الوزير وقال: نحن نُظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويتهدَّدهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن ظفرنا به طمع فينا الفرنجُ، ولنا بالشَّام حمص وقد صار له عندنا سِنْجار، فهذه أنفعُ لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه، والرأي أن نسلِّم إليه حمص ونأخذ سِنْجار، وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعيَّن مساعدته. فاتفق الجماعةُ على هذا الرأي، وسار جمال الدين إلى نور الدين، وأبرم معه الأمر، وتسلَّم حمص وسَلَّم سِنْجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسِنْجار من المال. ولما تسلَّم قُطْب الدين سِنْجار أقطعها لزين الدِّين، لأن حمص كانت لأخيه يَنَال وهو مقيمٌ بها. واتفقت كلمتهم واتحدَتْ آراؤهم، وكلُّ واحدٍ منهما لا يصدُر إلا عن أمر أخيه. وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال: أنت عندك من الكفاية ما تستغني به عن وزيرٍ ومُشير، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك، لأنَّ عدوَّك كافرٌ فالنَّاس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنتُ عند أخيك فالنَّفع إليك عائد، وأريد من بلادك مثل ما لي من بلاد أخيك معونةً على كثرة خرجي. فأجابه إلى ذلك، فقال له جمال الدين: أنت عليك خرجٌ كثير لأجل الكُفَّار فيجب مساعدتك، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة. فأمر له بها. فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت: وقرأت في «ديوان القَيْسراني»: وقال في نور الدين عند قدومه، وقد استولى على سِنْجار وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربع وأربعين وخمسمائة: [الكامل]

هـذا الـذي وَلَـدتْ لـه الأفـكـارُ ... وتـمـخَّـضَـتْ فـألاً بـه الأشـعـارُ
وجَرَتْ لـه خـيـل الـنُّـهى في حَلْبةٍ ... وردت وصـفـو ضـمـيرها الـمِـضْـمارُ
وأتـت بـه نُـذرُ الـقـوافـي بُـرهـةٍ ... إنَّ الـقـوافـي وحـيـهـا إنـذارُ

حكَمَتْ لسيفكِ بالممالكِ عَنْوَةً ... حكماً لَعمري ما عليه غُبارُ
يأيها الملك المقلُّ نِجادُهُ ... بَرٌّ يَدِينُ بِهَدْيِه الأبرارُ
يا ابن السيوفِ وهل فَخَرْتَ بنسبةٍ ... إلا سما بك قائمٌ وغِرارُ[1]
فارَقْتَ دارَ المُلْكِ غير مُفارِقٍ ... لكَ من عُلاك بكلِّ أرضٍ دارُ
في عسكرٍ تخفي كواكبُ ليله ... نَقْعاً فيطلِعُها القَنا الخطّارُ
جرّارُ أذيالِ العَجاجِ وراءه ... وأمامَهُ بل جَحْفَلٌ جَرّارُ
تُدْني لكَ الغاياتِ أكبرُ هِمَّةٍ ... نوريَّةٍ هِمَمُ الملوكِ كِبارُ
حتى ملأتَ الخافقينِ مهابةً ... دانت لعُظْمِ نِظامِها الأقطارُ
وَمَلَكْتَ سِنْجاراً وما من بلدةٍ ... إلا تَمَنَّى أنَّها سِنْجارُ
وَبَسَطْتَ بالأموالِ كفًّا طالما ... طالَتْ بها الآمالُ وَهْيَ قِصارُ
وَجَرَتْ بأمدادِ الجيادِ شِعابُها ... جَريَ السُّيولِ وما سواك قَرارُ
وَثَنَى الفُرَاتُ إلى يديكَ عِنانه ... والبَحْرُ ما اتَّصَلَتْ به الأنهارُ
وَمَلَكْتَ رَحبة مالك فتبرَّجَتْ ... منها لِعَيْنِك كاعِبٌ مِعْطارُ
جاءتْكَ في حُللِ الرَّبيعِ وحَلْيِها ... قَبْلَ الربيع شقائقٌ وَبَهارُ
نَثَرَتْ عليكَ هوى القلوبِ محبةً ... وتَوَدُّ لو أنَّ النُّجومَ نِثارُ
فأقمت كالشَّمسِ المُنيرةِ إنْ نأتْ ... عن أُفْقِها فَلَها به أَقْمارُ
مَنْ كان نورَ الدين ثُمَّ أجَنَّه ... لَيلُ السُّرى حَفَّتْ به الأنوارُ
تَدْعو البلادَ إليكَ ألسنةُ الظُّبى ... فَتُجيبكَ الأنجادُ والأغوارُ
حتى عَمَدْتَ الدِّينَ يا ابنَ عمادِه ... بقَناً أسِنَّتُها عليه مَنارُ
وقَفَلْتَ من أسفار جدِّك قادماً ... كالصُّبْحِ نَمَّ بثغره الإسْفارُ
يغشى البصائرَ نورُ وجهكَ بعدما اغـ ... ـتركَتْ على قَسَماته الأبصارُ
حتَّى عَمَرْتَ بكلِّ قلبٍ صدرَهُ ... حين الصُّدور مِن القلوب قِفارُ
إن تُمسِ في حَلَبٍ رياحك غضَّة ... فلَها بأنطاكيَّةٍ إعصارُ
وَغَدَتْ جيادُك بالشَّآم مقيمةً ... ولها بأطراف الذُّروبِ مُغارُ
هِمَمٌ سَبَقْتَ بها مُهَجَ العِدَى ... صَرْفَ الرَّدى ومسيرُه إحْضارُ[2]

(١) القائم: مقبض السيف. والغرار: حد السيف.
(٢) الإحضار: العَدْو السريع.

Marfat.com

وأرى صباحَ القمص كان خديعةً فطغى وجَارَ وليس ثَمَّ وِجَارُ[١]
خان الصنيعة غير محقوقٍ بها والخير يهدِمُ ما بنى الخَتَّارُ[٢]
حتى إذا ما غبتَ أقدَمَ عائثاً إقدامَ من لم يَدْنُ منه قَرارُ
أمضى السِّلاح على عدوِّك بغيهُ بالغدرِ يُطْعَنُ في الوغى الغَدَّارُ
فاحْسِمْ عنادَ ذوي العنادِ بجحفلٍ كالليلِ فيه من الصَّفيح نَهارُ
جُنْدٌ على جُرْدٍ أمام صدورِها صَدْرٌ عليه من اليقين صِدَارُ
قد بايعَ الإخلاص بيعةَ نُصْرَةٍ ولكل هادي أمةٍ أنصارُ
مَلِكٌ له مِنْ عدلِه ووفائه جيشٌ به تُسْتَفْتَحُ الأمصارُ
وإذا الملوكُ تثاقلَتْ عن غايةٍ وأرادَها خَفَّت به الأقدارُ
وإذا انتضَتْهُ إلى الثغورِ عزيمةٌ قامت مقام جنودِه الأخبارُ

ولابن منير من قصيدةٍ فيه: [الوافر]

ترنَّح مِعْطَفُ الزَّوْرَاءِ لما دعاك لزَوْرِ سِنْجَارٍ لمامُ[٣]
وزلزلتَ الصَّعيدَ وراءَ مِصْرٍ غداةَ عَلَتْكَ في قَطَنا الخيامُ[٤]
رجاءٌ هَزَّ تِيك وتلك خوفٌ ولو قد شئتَ ضمَّهما قِرامُ[٥]
بعيشك يا مبيدَ الخيلِ ركضاً حَمامٌ هنَّ تحتك أم حِمَامُ

وقال ابن منير أيضاً يهنئه بتسلُّمِ قلعة حمصٍ من يَنَال[٦]، وأنشده في القلعة القصيدة، أولها: [الوافر]

أَرِخها فهي أزلامُ المعالي لهنَّ إلى الوغى توقُ المغالي[٧]
أما ومقيلهن بكل نَقْعٍ يقوِّضُ بالهُدَى عُمْرَ الضَّلالِ
وأيُّ سيوفك الحمر الحواشي منزَّلة متى دُعِيَتْ نَزَالِ
مَواضٍ إن سُللن سلكن جزماً نفاه من الطُّلى لفظ اعتلالِ[٨]

---

(١) الوجار: سرب الضبع والأسد ونحوه، أي بيته.
(٢) الختار: الخائن، والغدار.
(٣) الزوراء: هي بغداد.
(٤) قطنا: قرية قرب دمشق.
(٥) القرام: الستر الرقيق.
(٦) ينال: هو أخو زين الدين علي كما مرّ.
(٧) المغالي: جمع مغلاة، وهو سهم يغلى به أي ترفع به اليد حتى يتجاوز المقدار أو يقارب ذلك.
(٨) الطلى: الأعناق.

Marfat.com

لقد غُلب الصَّليب بِحَرِّ حَرْبٍ يُشيب أُوارُها لِممَ اللَّيالي
وشمتَ لنصرِ هذا الدين بأساً تحرّم منه كل حمّى حلالِ
وقائع أترعت في كلِّ فجٍّ وقائعَ جوُّها دامي العَزَالي(١)
تسائل حمص عن منسيِّ دين تقاضاه لك الحِجج الخَوَالي
فواتتْ وهي أُختُ النَّجم بُعداً ووعداً صِيغَ من مَطْلٍ مِطَالِ
تشامَخَ أنفُها عِزًّا وشدَّت على أن لا تنال يداً يَنَالِ
فما زالَتْ رُقاك تجدُّ نقضاً لما تثنيه من مِرَرِ الحِبَال
إلى أن أطلقَ الحسناءَ كَرْهاً وآل إلى ملاوحة المآلي(٢)
يصدُّ الوجه عن شمّاء ألْقَتْ يداً لأشمَّ ذي باعٍ طوالِ
شغلت بها يمينك والمواضي تكفَّلُ أنَّ مِضْراً للشِّمالِ
إذا فَتَحَ القتالُ عليك أرضاً أباحك أختها لا عَنْ قتالِ

فصل

[تحالف حكام دمشق مع الفرنج ومحاصرة نور الدين دمشق]

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بإفساد الفرنج في الأعمال الحَوْرَانيَّة بالنَّهب والسَّبي، فعَزَمَ على التأهُّب لقصدهم، وكتب إلى مَنْ بدمشق يعلمهم ما عَزَمَ عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مُقدَّم يُعوَّل عليه ـ وقد كانوا عاهدوا الفرنج أن يكونوا يداً واحدةً على من يقصدهم من عساكر المسلمين ـ فاحتُجَّ عليه وغولِطَ. فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يَبُوس، وبعض العسكرية بيعفور. فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبرَه ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الإفرنج بخبره، وقرَّروا معهم الإنجادَ عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عَسْقلان لعمارة غَزَّة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس. وعرف نور الدين خبرهم فلم يحفل بهم، وقال: لا أنحرف عن جهادهم. وهو مع ذلك كافٌّ أيدي أصحابه عن العيث والإفساد في الضِّياع، وأمر بإحسان

(١) وقائع: جمع وقيعة، وهي نقرة في متن حجر في الجبل أو في السهل يستنقع فيها الماء، يقال: أعذب من ماء الوقيعة. والعزالي: جمع عزلاء: مصب الماء من الراوية والقربة.
(٢) المآلي: جمع مئلاة، وهي خرقة تمسكها المرأة عند النوح والبكاء.

Marfat.com

الرَّأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدُّعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها. وكان الغيثُ قد انحبس عن حَوْرَان والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمَحْل واشتداد الأمر. فلما وصل نور الدين إلى بَعْلَبَكَّ اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحِجَّة، وأقام إلى مثله، فروَّى الآكام والوهاد، وجرت الأودية، وزادت الأنهار، وامتلأت بِرَكُ حَوْران، ودارت أَرْحِيَتُها، وعاد ما صَوَّح[1] من النَّبات والزَّرْع غضًّا طرياً، وجدَّ الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا: هذا ببركته وحُسْن مَعْدلته وسيرته. ثم رحل من منزله بالأعوج، ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجير الدين والرَّئيس، وقال: إنني ما قصدتُ بنزولي هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حَوْران والعربان بأن الفلاحين أُخذت أموالهم وسُبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج، وعَدِمَ النَّاصر لهم، ولا يسعني ـ مع ما أعطاني الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرِّجال ـ أن أقعُدَ عنهم ولا أنتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالهم والذبِّ عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبَذْلِكُم لهم أموال الضُّعفاء والمساكين من الرعية ظُلْماً لهم وتعدِّياً عليهم، وهذا ما لا يُرْضي الله تعالى، ولا أحداً من المسلمين، ولا بدَّ من المعونة بألف فارس مُزاحِي العلَّة، تُجرَّدُ مع من يوَثَقُ بشجاعته من المقدَّمين، لتخليص ثَغْر عَسْقلان وغَزَّة. قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة: ليس بيننا وبينك إلا السَّيْف، وسيُوافينا من الإفرنج ما يُعينُنا على دفعك إن قصدتنا ونزلتَ علينا. فلما عاد الرَّسولُ بهذا الجواب ووقف عليه، أكثر التعجُّبَ منه والإنكار له، وعزم على الزَّحف إلى البلد ومحاربته في غد ذلك اليوم، فأرسل الله من الأمطار وتدارُكها ودوامها ما منعه من ذلك.

[الصلح بين نور الدين وحكام دمشق ورفع حصاره عن دمشق] ودخلت سنة خمس وأربعين[2]

ففي مستهلِّ المحرَّم تقرَّر الصُّلْح بين نور الدين وأرباب دمشق، والسببُ في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة

(١) صوّح من النبات: أي ما يبس.
(٢) وخمسمائة.

Marfat.com

لها، بعدما اتَّصَل به من أجناد دعته إلى ذلك. واتفق أنهم بذلوا له الطَّاعة وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسُّلْطان، وكذا السِّكَّة، ووقعت الأيمان على ذلك. وخلع نورُ الدين على مجير الدين خِلْعة كاملةً بالطَّوق، وأعاده مكرَّماً محترماً، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرَّم. ثم استدعى الرئيس إلى المخيَّم، وخلع عليه خلعةً كاملة أيضاً وأعاده إلى البلد، وخرج إليه جماعةٌ من الأجناد والخواصِّ إلى المخيم، واختلطوا به، ووصل مَن استماحه من الطُّلاب والقَرَأة والضعفاء، بحيث ما خاب قاصدُه، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيَّمه عائداً إلى حلب بعد إحكام ما قرَّر، وتكميل ما دبَّر.

قلت: وفي ذلك يقول القَيْسَراني: [الطويل]

لك اللَّهُ إن حاربتَ فالنَّصْرُ والفَتْحُ ... وإن شئتَ صُلْحاً عُدَّ من حَزْمك الصُّلْحُ
وهل أنتَ إلا السَّيْفُ في كلِّ حالةٍ ... فطَوْراً له حدٌّ وطوراً له صَفْحُ
سقيت الرُّدَينيَّات حتى رَدَدْتَها ... تَرَنَّحُ من سُكْرٍ فخلُّ القَنَا تصحو(١)
وما كان كفُّ العَزْمِ إلا إشارةً ... إلى الحَزْم لو لم يغضبِ السيفُ والرُّمْحُ
وقد عَلِمَ الأعداءُ مُذْ بِتَّ جانحاً ... إلى السِّلْمِ ما تنوي بذاك وما تنحوا
إذا ما دمشقٌ ملَّكتك عِنانَها ... تيقَّنَ مَن في إيليا أنَّه الذَّبحُ(٢)
متى التف نَقْعُ الجحْفلين على الهدى ... فلا مَهْمَهٌ يحوي الضَّلالَ ولا سَفْحُ
إذا سار نور الدين في الجيش غازياً ... فقولا لليل الإفك قد طَلَعَ الصُّبْحُ
تَرَكْتَ قلوبَ الشِّرْكِ تشكو جراحَها ... فلا زالت الشكوى ولا اندمَلَ الجُرْحُ
صَبَرْتَ فكان الصَّبْرُ خيرَ مغبَّةٍ ... فسيقَ إليك المُلْكُ يسعى به النُّجْحُ
كأن القَنَا تجلو له وَجْه أمره ... ولو أُمهلتْ بلقيس ما غَرَّها الصَّرْحُ
بدولتكَ الغَرَّاء أصبحَ ضدُّها ... بهيماً ولولا الحُسْنُ ما عُرِفَ القُبْحُ
وكم مِنْ قريحِ القَلْبِ لو باتَ وارداً ... موارِدَ هذا العَدْلِ ما مَسَّه قَرْحُ
سخا بك هذا الدَّهْرُ جُوداً على الورى ... على أنه ما زال في طبعه شُحُّ
وقد كان يمحو رَسْمَ كلِّ فضيلةٍ ... ونحن نَرَاه اليومَ يُثْبِتُ ما يَمْحُو
بك ابتهج الألباب وابتهج الحِجَا ... وأثمرتِ الآدابُ واطَّرَدَ المَدْحُ
ولاذت بك التَّقوى وعاذت بك العُلا ... ودانت لك الدُّنيا وعَزَّ بك السَّرْحُ

(١) الردينيات: هي رماح منسوبة إلى امرأة كانت تصنع الرماح في الجاهلية.
(٢) إيلياء: هي بيت المقدس.

Marfat.com

فلا قَلْبَ إلا قد تَمَلَّكْتَهُ هوًى ولا صَدْرَ إلا قد جَلاه لك النُّصْحُ
وما الجودُ في الأملاكِ إلا تجارةٌ فمن فاته حَمْدُ الورى فاته الرِّبْحُ
ولم أختصرْ ما قلتُ إلّا لأنني أعبِّرُ عما لا يقومُ به الشَّرْحُ

فصل

[في فتح عَزَاز]

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرَّم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جُوسلين صاحب عَزَازَ وأصحابه، وحصلوا في قبضة الأسر في قلعة حلب، فَسَرَّ هذا الفتحُ كافَّة الناس، وتوجَّه نور الدين في عسكره إلى عَزَاز، ونزل عليها، وضايقها وواظب قتالها، إلى أن سَهَّل الله تعالى ملكها بالأمان، وهي على غايةٍ من المَنَعة والحصانة والرِّفْعة. فلما تسلَّمها رتَّب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائداً إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأول.

قلت: وذكر ابن منير فتح عَزَاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدةٍ أولها:

[المتقارب]

فَدَتْكَ القُلُوبَ بألبابها وَسلحُ الملوك بأربابها
كتائبُ تَرْمي جنودَ الصَّليـ ـبِ منها بتقطيعِ أصلابها
إذا ما انثنَتْ من قِرَاع الكُماة كَسَتْ وفدَها وَشْيَ أسلابِها
تَبَرْنَسَ منها البرنس الثِّياب وحَلَّبه وَقْعُ أحلابِها
عَشِيَّةَ غصَّت على إنْب نفوس النصارى بغصَّابها
وقام لأحمد محمودُها بجدع موارن أحزابها[1]
تجلَّى لها حَيْدَرِيّ المصا ع أغلب مُودٍ بغلَّابها
مورِّث أركاسها من أبٍ أكولِ الفوارس شَرَّابها
همامٌ إذا اغصَوْصَبَتْ نَبْوة دهاها بهاشم أعصابِها
مضى وجَنَى لك حُلْوَ الشها دِ ممَّا تمطَّقَ من صابها
وأوصى بها لك من بعد ما تجرَّعَ ممقرَ أوصابِها[2]

---

(١) موارن: جمع مارن، وهو الأنف، أو طرفه، أو ما لان منه منحدراً.
(٢) الممقر: المرّ. والأوصاب: جمع الوصب، بالتحريك: الوجع والمرض والتعب والفتور في البدن.

Marfat.com

وأقسمَ جَدُّك ألا يسليق بِغيرك ملبس أثوابِها
صَبَحْتَ دمشق بمشقِ الجياد زبورَ الوغى بين أحدابها
وأَصْلَتَّ رأيك قبل الحسام فخمَّدَ جمرةَ أجلابها
فأعطتك ما لم تَنَلْهُ يدٌ وفازَتْ رُقاك بأصحابها
وأنت تصرف فضل الزِّما م مِن حمص تأخير[1] رُكَّابها
تخونها الجَوْزُ فاستَدْرَكَتْ بِعدلك أغبار ظبظابها
وفاجأت قُورُسَ بالشائلات تَمُجُّ القَنَا سُمَّ أذنابها[2]
فما رِمت حتى رَمَت بِيْضُها إليك أزمة ضرابها
وعَزَّت عَزَاز فأذلَلْتَها بمجرٍ مضيقٍ لأسهابها[3]
بأشمخ من أنفها منكباً وأكثر من عَدِّ تورابها
دلفت لعيطاء أم النجو م في الأمر إيطاء أترابها
وعذراءُ مُذْ عَمَرت ما اهتدت ظنون اللَّيالي لإخْرَابها
تفرّعتها بفروع الوشيـ ـج مثمرةً هام أوشابها[4]
وعوجٍ إذا أنبضت أغمضت ذُكاءُ لإرسال نُشَّابها
ومحدودبات تطير الخطوب ملاقط ألسُنِ خُطَّابها
تصوّب عُقْبان رَيْبِ المنُون متى زَبَنَتها بأعقابها[5]
وما ركَعَتْ حَوْلَ شمْ الهِضا بِ إلا سَجَدْنَ لأنصابها
فلاذَتْ بمعْتَصم بالكتابِ وَهوبِ الممالك سلّابها
بمعتصميِّ النَّدى والهُدَى هموس السُّرى غير هَيَّابها[6]
محلَّى المحلِّ بوصفِ الفُتُوح ووصف التَّهاني وأربابها
وتعجز مُدَّاحه أن تحيطَ بآدابه فُلْكُ آدابها
بدائعُ لو رُدَّ دهرٌ رمين بنات حبيبٍ بأحبابها

(١) تأخير ركابها: كذا بالأصل ولعله تصحيف: يا خير ركّابها.
(٢) الشائلات: العقارب، وشولة العقرب: شوكتها التي تضرب بها.
(٣) المجرّ: الجيش العظيم.
(٤) الوشيج: شجر الرماح.
(٥) زبنتها: دفعتها. ومنه الزبانية الذين يدفعون الكفار إلى جهنم في قوله تعالى: ﴿سندع الزبانية﴾ [العلق: ١٨].
(٦) الهموس: السيار في الليل.

وأيـــن ابـــنُ أوسٍ[١] وآيـــاتـــه[٢] مـــن الـــلَّاءِ أَوْدَتْ بـحـسَّـابـهـا
مـــن الـــلاء عـــاد عـــتـيـــقٌ لـــهـــا وَرَدَّ عـلـيـهـا ابـنُ خَـطَّـابـهـا[٣]
فـــأيَّـامـــه مـــن حـــبـــورٍ تـــكـــادُ يـطـيـرُ بـهـا فَـرْطُ إعـجـابـهـا
لـك الـفَـضْـلُ إنْ راسـلَـتْـكَ الـجـيـاد وقـــامـــت أدلَّـــة أنـــجـــابـــهـــا
إذا اعـتـسـفَـتْ هِـمَـمُ الـجـائـريـن أتـيـتَ الـسِّـيـادةَ مـن بـابـهـا
أبـوك أبـوهـا وأنـت ابـنـهـا الـــ ـعـريـقُ ودمـيـة مـحـرابـهـا
أقـول لـمـؤجـره بـالـغـرور تَـمَـطَّـتْ هـواهـا فـأَهْـوى بـهـا
حَـذَارِ فـعـنـدَ ابـتـسـامِ الـغـيـو ثِ يُـخْـشَـى صـواعـق ألـهـابـهـا
ولا تُـخْـدَعُـوا بـافـتـرارِ الـلُّـيـو ثِ فـالـنـار فـي بَـرْدِ أنـيـابـهـا

فـصـل

[في صفة أسر جُوسلين][٤]

قال ابن الأثير: سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب، منها تل باشر، وعين تاب، وعَزاز، وغيرها من الحصون. فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، وكانت بينهم عربٌ شديدة أجلت عن انهزام المسلمين، وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار[٥] كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السِّلاح فأنفذَه إلى السُّلْطان مسعود بن

(١) ابن أوس: هو أبو تمام حبيب بن أوس الشاعر المشهور.
(٢) وآياته: كذا بالأصل، ولعلها: وأبياته.
(٣) عتيق: هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه سماه رسول الله ﷺ بذلك، عن عائشة أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال: أنت عتيق الله من النار فيومئذٍ سمي عتيقاً (أخرجه الترمذي في المناقب باب ١٦). وابن خطاب: هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٤) أورد ابن الأثير حادثة أسر جوسلين في حوادث سنة ٥٤٦هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠.
(٥) السلاح دار: قال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥: أي حامل السلاح حول الخليفة في المواكب، وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم لزيهم بالركابية وبصبيان الركاب الخاص أيضاً، وهم الذين يعبر عنهم بالسلاح دارية، وكانت عدتهم تزيد على ألفي رجل، ولهم اثنا عشر مقدماً، وهم أصحاب ركاب الخليفة والسلطان، ولهم نقباء موكلون بمعرفتهم، والأكابر من هؤلاء الركابية تندب في الأشغال السلطانية وإذا دخلوا عملاً كان لهم فيه الصيت المرتفع.

Marfat.com

قليج أرسلام السَّلْجُوقي[1] صاحب قُونية وأقصرا وغيرهما من تلك الأعمال ـ وكان نور الدين قد تزوَّج ابنته ـ وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره. فَعَظُمت هذه الحادثة على نور الدين، وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإِسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع. فأحضر نور الدين جماعة من التركمان، وبذل لهم الرَّغائب من الإِقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين، إما قتلاً وإما أسراً. فاتَّفق أن جوسلين خرج في عسكره، وأغار على طائفةٍ من التركمان فنهب وسبى، فاستحسن من السَّبي امرأةً منهم، فخلا معها تحت شجرةٍ، فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً، فصانعهم على مالٍ بذله لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك، وأخفوا أمره عن نور الدين. فأرسل جوسلين في إحضار المال، فأتى بعضُ التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسيَّر معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قهراً، وكان نور الدين حينئذٍ بحمص. وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج، شديدَ العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدَّم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدَّة عداوته للملة الإِسلامية، وقسوة قلبه على أهلها. وأصيبت النصرانية كافَّة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها، وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده. وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين، ولا يفي بعهد. طالما صالحه نورُ الدين وهادنه، فإذا أَمِنَ جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غَدْرُه، وحاق به مكره، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. فلما أُسر تيسَّر فتح كثيرٍ من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب، وعَزاز، وقُورُس، والرَّاوَنْدَان، وحصن البارة، وتل خالد، وكَفْر لاثا، وكفر سود، وحصن بَسَرْفُوث بجبل بني عُليم، ودُلُوك، ومَرْعَش، ونهر الجوز، وبرج الرَّصاص.

قال: وكان نور الدين، رحمه الله، إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفاً من نُصْرةٍ تتجدَّدُ للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدَّة غير محتاجة إلى شيء. وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا؛ منهم القَيْسَراني. قال يمدَح نور الدين بعد صدوره عن دمشق

(١) توفي سنة ٥٥١هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٤٠٧.

Marfat.com

واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنز وأسر جوسلين وأخذ بلاده[١]: [الطويل]

دعا ما ادَّعى مَن غَرَّه النَّهي والأَمْرُ ... فما الملك إلّا ما حباكَ به القَهْرُ
وَمَنْ ثَنَتِ الدُّنيا إليه عِنانها ... تصرَّف فيما شاء عن إذنه الدَّهْرُ
وَمَنْ راهنَ الأقدار في صَهْوَة العُلا ... فلن تُدْرِكَ الشِّعْرى مَدَاه ولا الشِّعْرُ
إذا الجدُّ أمسى دونَ غايته المُنَى ... فماذا عسى أن يَبْلُغَ النَّظْمُ والنَّثْرُ
وَلِمْ لا يلي أسنى الممالكِ مالكٌ ... زعيمٌ بجيشٍ من طلائعه النَّصْرُ
لِيَهْنِ دمشقاً أن كُرْسيَّ مُلْكِها ... حُبي منك صَدْراً ضاق عن هَمِّه الصَّدْرُ
وأنك نورَ الدين مُذ زُرْتَ أَرْضَها ... سَمَتْ بك حتى انحطَّ عن نَسْرِها النَّسْرُ
خَطَبْتَ فلم يَحْجُبْكَ عنها وَلِيُّها ... وَخَطْبُ العُلا بالسَّيفِ ما دونَه سِتْرُ
جلاها لك الإقبال حُورِيَّة السَّنا ... عليها من الفِرْدَوْسِ أَرْدِيَةٌ خُضْرُ
خَلُوبٌ أكَنَّتْ من هواكَ مَحبَّةً ... نَمَتْ فانتمَتْ جَهْراً وسِرُّ الهوى جَهْرُ
فَسُقْتَ إليها الأمنَ والعَدْل نِحْلَةً ... فأَمْسَتْ ولا أسرٌ تخافُ ولا إصْرُ
فإنْ صافَحَتْ يُمْناك من بَعْدِ هَجْرِها ... فأحلى التَّلاقي ما تَقَدَّمه هَجْرُ
وهل هي إلّا كالحَصَانِ تَمَنَّعَتْ ... دلالاً وإن عَزَّ الحيا وغلا المَهْرُ
ولكنْ إذا ما قستَها بصَدَاقِها ... فليسَ له قَدْرٌ وليسَ لها قَدْرُ
هي الثَّغر أمسى بالكراديسِ عابساً ... وأصبح عن باب الفَرَاديس يَفْتَرُّ
على أنَّها لو لم تُجِبْكَ إنابةً ... لأَرْهَقها من بأسِكَ الخَوْفُ والذُّعْرُ
فإما وقَفْت الخيل ناقعة الصَّدى ... على بَرَدى من فوقها الوَرَقُ النَّضْرُ
فمنْ بَعْدِ ما أَوْردتَها حَوْمَةَ الوغى ... وأَصْدَرْتَها والبيضُ من عَلَقٍ حُمْرُ
وجلَّلْتَها نَقْعاً أضاعَ شِيَاتها ... فلا شُهْبُها شُهْبٌ ولا شُقْرُها شُقْرُ
علا النَّهْرُ لما كاثَرَ القَصَبُ القَنَا ... مكاثرةً في كلِّ نَحْرٍ لها نَحْرُ
وقد شَرِقَتْ أجرافه بدم العِدَى ... إلى أن جرى العاصي وضَحْضَاحُه غَمْرُ
صَدَعْتَهُمْ صَدْعَ الزُّجاجة لا يَدٌ ... لجابرِها ما كلُّ كَسْرٍ له جَبْرُ
فلا ينتحل من بعدها الفَخْرَ دائلٌ ... فَمَنْ بارَزَ الإبرنز كانَ له الفَخْرُ
ومن بَزَّ أنطاكية من مليكها ... أطاعَتْهُ ألحاظُ المُؤَلَّلة الخُزْرُ

(١) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٧٠، ستة أبيات من القصيدة. وهي من: كما أهدت الأقدار للقمص... وستة أبيات بعدها. وذكر في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ١٥٧ - ١٥٩. أبياتاً من القصيدة.

Marfat.com

أخو اللَّيث لولا غَدْرُه نزعت به ... إلى الذِّئبِ إنَّ الذئبَ شِيْمَتُه الغَدْرُ
أتى رأسُه ركضاً وغُودر شِلْوُه ... وليس سوى عافي النُّسورِ له قَبْرُ
وقد كان في استبقائه لك مِنَّةٌ ... هي الفَتْكُ لو لم تَغْضَبِ البيضُ والسُّمْرُ
كما أَهْدَتِ الأقدارُ للقمصِ أَسْرَهُ ... وأَسْعَدُ قِرْنٍ مَن حواه لك الأَسْرُ
طغَى وبغَى عدواً على غُلوائه ... فأوبقه الكُفْرانِ عَدواه والكُفْرُ
وأَلْقَتْ بأيديها إليكَ حُصُونُه ... ولو لم تُجِبْ طَوْعاً لجاء بها القَسْرُ
وَأَمْسَتْ عَزَاز كاسمها بك عِزَّةً ... تَشُقُّ على النَّسْرَيْن لو أَنَّها الوَكْرُ
فَسِرْ وَامْلأ الدُّنيا ضياءً وَبَهْجَةً ... فبالأُفُقِ الدَّاجي إلى ذا السَّنا فَقْرُ
كأني بهذا العَزْمِ لا فُلَّ حَدُّه ... وأقصاه بالأقصى وقد قُضِيَ الأَمْرُ
وقد أصبحَ البيتُ المُقَدَّسُ طاهراً ... وليسَ سوى جاري الدِّماءِ له طُهْرُ
وقد أدَّتِ البيضُ الحِدَادُ فروضَها ... فلا عُهْدَةٌ في عُنْقِ سَيْفٍ ولا نَذْرُ
وصَلَّت بمعراج النبيِّ صَوَارِمٌ ... مساجدها شَفْعٌ وساجِدُها وِتْرُ
وإن تتيمَّمْ ساحل البَحْرِ مالكاً ... فلا عجبٌ أن يملكَ السَّاحِلَ البَحْرُ
سَلَلْتَ سُيُوفاً أَثْكَلَتْ كُلَّ بَلْدَةٍ ... بصاحِبها حتى تَخوَّفَك البَدْرُ
إذا سارَ نورُ الدين في عَزَماته ... فقولا لِلَيلِ الإفك قد طَلَعَ الفَجْرُ
ولو لم يَسِرْ في عسكرٍ من جنوده ... لكانَ له مِنْ نَفْسِه عَسْكَرٌ مَجْرُ
مَليكٌ سَمَتْ شُمُّ المنابر باسمه ... كما زُهيت تِيهاً به الأنجُمُ الزُّهْرُ
فيا كعبةً ما زال في عَرَصَاتها ... مواسمُ حجٍّ لا يروِّعها النَّفْرُ
خَلَعْتَ على الأيام من حُلل العُلى ... ملابسَ من أعلامها الحَمْدُ والشُّكْرُ
وَتَوَّجْتَ ثَغْرَ الشَّامِ منك جلالةً ... تمنَّتْ لها بغدادُ لو أنَّها ثَغْرُ
فلا تَفْتَخِرْ مِصْرٌ علينا بنيلِها ... فيُمناكَ نيلٌ كلُّ مِصْرٍ بها مِصْرُ
رَدَدْتَ الجهادَ الصعبَ سهلاً سبيلُه ... ويا طالما أمسى وَمَسْلَكُه وَعْرُ
وَأَطْمَعْتَ في الإفرنجِ مَنْ كان بَأْسُه ... تخوَّف أن يعتادَه منهم فِكْرُ
وأقحمت جُرْدَ الخيلِ أعلى حصونها ... ولولاكَ لم تهجم على كافرٍ كَفْرُ
ومن يَدَّعي في قتلِكَ الشِّرْكَ شركةً ... إذا لم يكن عند القوافي له ذِكْرُ
هي القانتاتُ الحافِظاتُ فروجَها ... فشاهِدُها عَدْلٌ وراتقها سِخْرُ
ولو لم يكن في فَضْلِها وكمالها ... سِوَى أنها من بعد عُمْرِ الفتى عمرُ

Marfat.com

وله من قصيدةٍ يصف فيها وقائعه، أولها: [الطويل]

أمـا وخـيـالٍ زار مـمـن أحـبُّـه ... لـقـد هـاج مـن ذكـراه مـا لا أغـبُّـه
إذا ما صبا قَلْبُ المحبِّ إلى الصبا ... ذكـرتُ نـسـيـماً بـالـثُّـغـور مَـهَـبُّـهُ
فـيـا نَـفَـحـاتِ الـشَّـام رِفْـقـاً بـمـهـجـةٍ ... يُـحـامي عـلـيـهـا مُـدْنَـفُ الـقَـلْـبِ صَـبُّـه
فـلا تـسـألَـنَّ الـصَّـبَّ أيـن فـؤادُه ... فـإنَّ فـؤادَ الـمـرءِ مَـعْ مَـنْ يـحـبُّـه
وفـي شُـعـب الأكـوار مَـنْ هـو عـالـمٌ ... غـداةَ اسْـتَـطَـارَ الـبـرق مَـن طـار لـبُّـه
يـشـيـم ثـغـور الـمُـزْن تـهـمـي كـأنَّـهـا ... سَـنَـا بِـشْـرِ نـورِ الـديـن تـنـهـلُّ سُـحْـبُـه
إذا ما سما في مُبْهَم الخَطْبِ وجهُه ... تـمـزَّق عـن بَـدْرِ الـدُّجُـنَّـة حُـجْـبُـه
تـولَّـد بـيـن الـغَـيْـثِ والـلَّـيْـثِ والـتُّـقـى ... مـنـافـسـةٌ أي الـثـلاثـة تِـرْبُـهُ
يـعـدُّ مـضـاءً فـي الـظُّـبـى، لا، وضـربُـه ... بـهـا قـلـل الأعـداء مـا الـسَّـيـف ضَـرْبُـهُ
مـكـيـن الـحِـجـا أرضـى الـزمـانَ بـنـفـسـه ... إلـى الآن حـتـى لانَ وانـقـاد صَـعْـبُـهُ
حـمـى قُـبَّـة الإسـلام بـالـخـيـل فـاغْـتَـدَتْ ... وأوتـادهـا جُـرد الـطـعـان وقُـبُّـه
فـكـم هـبـوةٍ أوقـعـن بـالـكُـفْـرِ تـحـتـهـا ... فـمـا انـقـشـعـتْ إلا ولـلـذُّلُّ جَـنْـبُـه
كـيـوم الـرُّهـا الـورهـاء والـهَـامُ يـانـعٌ ... مـلـيٌّ بـرعـي الـهـنـدُوَانـي خـصـبُـه
وشـهـبـاء هـاجـتـهـا وغـى صَـرخَـدِيَّـةٌ ... ثـنـاهـا ولـيـلُ الـحَـرْبِ تـنـقـضُّ شُـهْـبُـهُ
وعـارِمَ يـومـاً بـالـعُـريـمـة فـاغـتـدَتْ ... كـواديٌّ ثـمـودٍ إذْ رغـا فـيـه سَـقْـبُـهُ
وعاصَى على العاصي بأرْعَنَ خاطب ... دم الإفك حتى أنكحَ النَّصْلَ خطبُه
بـإنْـب لـمـا أكـسـب الـمـال وانـثـنـى ... بـصـاحِـبِ أنـطـاكـيـةٍ وهـو كَـسْـبُـهُ
غـداة هـوى شـطـريـن لـلـسَّـيْـفِ رأسُـه ... ولـلـرُّمْـحِ حـتـى تـوَّجَ الـرأسَ قَـلْـبُـهُ
عـلـى حـيـن لـلـخـطـيِّ فـيـه عـوامـلٌ ... يـعـاقـبـه خَـفْـضُ الـحُـسَـام ونَـصْـبُـهُ
وقـائـعُ مـحـمـوديَّـةُ الـنَّـصْـرِ لـم يـزل ... غـريـبـاً بـهـا عـن مَـوْطِـنِ الـسَّـيْـفِ غـربُـه
يـقـومُ مـقـامَ الـجـيـشِ فـيـهـا وعـيـدُه ... وتـفـعـلُ أفـعـالَ الـكـتـائـبِ كُـتْـبُـهُ
وحـيـن انـتـضَـتْـهُ عـزمـةٌ مِـن قـرابـةٍ ... مـضـى وهـو نَـصْـلٌ والـمـمـالـكُ قـربـه
إلـى أن دَعَـتْـهُ ربُّـهـا كـلُّ بَـلْـدَةٍ ... فـلـيـس مـن الأمـصـارِ مـا لا يـربُّـهُ
ولـمـا يـرى بـالـقُـمـص عُـجْـبٌ هَـوَى بـه ... عـلـى أُمِّ رأس الـبـغـي والـغَـدْرِ عُـجْـبُـهُ
فـأصـبـح فـي الـحـجـلـيـن يـنـكـر خـطـوه ... بـعـيـد عـلـى الـرجـلـيـن فـي الـسَّـعـي قـربُـه
تُـعـاقـبـه الـبُـشْـرى بـأَخْـذِ حُـصُـونِـهِ ... فـيـا عـانـيـاً ضـرب الـبـشـائـر ضَـرْبُـه
تـنـاجـي عـزاز بـاسـمـه تـلَّ بـاشـرٍ ... فـيـلـعـنُـهُ لَـعْـنُ الـصَّـريـحِ وسَـبُّـهُ

Marfat.com

فإن يكن المقهورُ من ثُلَّ عَرْشُه فهذا عمودُ الكُفرِ قد طاحَ طُنْبُه
فَقُلْ لملوكِ الخافقين نصيحةً كذا عن طريقِ اللَّيث تزأر غُلْبُهُ
وخَلُّوا عن الآفاقِ فالشَّرْقُ شَرْقُهُ بحكم الرُّدَيْنيَّات والغَرْبُ غَرْبُهُ(١)
ولا يعتصم بالذَّرْبِ طاغٍ على القَنَا فإنَّ القَنَا في ثِغْرَةِ النَّحْرِ دَرْبُهُ
رحيبُ فضاءِ الحِلْمِ عن ذات قُدْرَةٍ إذا ضاقَ من صَدْرِ المملك رَحْبُهُ
عفوٌّ عن الجاني يكادُ الذي جنى يكرُّ به شوقاً إلى العفو ذنبُهُ
أُمتَّخِذَ الإخلاص لله جُنَّةً ومن يَعْتَصِمْ باللَّهِ فاللَّهُ حَسْبُهُ
أبوكَ استردَّ الشَّامَ بالسَّيْفِ عَنْوَةً وللرُّوم بَأْسٌ طالما غالَ خَطْبُهُ
إذا ذبَّ عن أضغاثِ دنياه مالكٌ فأنتَ الذي عن حَوزةِ الدين ذَبُّهُ
رأيتَ اتِّباعَ الحقِّ خيراً مَغَبَّةً فأفرجتَ عن أري يسرُّك غبُّهُ
وأوضحتَ ما بين الفريقين سُنَّةً بها عَرَفَ المربوبُ مَنْ هو رَبُّهُ
وَبَيَّنْتَ ما قد كانَ من كان يبتغي دليلاً بأن الله مَنْ أنتَ حِزْبُهُ

وقال ابنُ منير يمدح نور الدين بظاهر حمص: [الكامل]

هيهاتَ يعصمُ من أردتَ حِذارُ أنَّى ومن أوهاقك الأقدارُ(٢)
طَلَعَتْ عليك بجوسلين ذريعة لا سَخْلَ أنشاها ولا إمرارُ
وسعادةٍ ما زلتَ تمري خلفَها فيشفُّ وَهْوَ الناتقُ المِذْرَارُ
فأرتك ما يُجني الوفيَّ وفاؤه وأرته كيف يُحيَّن الغَدَّارُ
عودٌ أمرّ على أبارك طَلْعُهُ فأُحيل ذاك البر وهو بَوَارُ
ما زلتَ تُنْعِمُ وهو يكفُرُ عاتياً والله يَهْدِمُ ما بنى الكُفَّارُ
حتى أتاحَ لقومِهِ ما جَرَّه لثمود من عَقْرِ الفصيلِ قُدَارُ(٣)
أسرى فأصبح في براثن آسرٍ ما زال يُدْمِي ظفرَه الأظفارُ
سامٍ كَقَرْنِ الشمسِ يَقْبِسُ نورَه وتُغَضُّ دون محلِّه الأبصارُ
يَهَبُ التلاد من البلاد وما حَوَتْ إنَّ السَّماحة للبحارِ بحارُ
يقظانُ يخشى الله في خلواته لا مُترفٌ لاهٍ ولا جَبَّارُ

(١) الردينيات: رماح منسوبة إلى امرأة في الجاهلية تدعى ردينة وكانت تصنع الرماح.
(٢) الأوهاق: جمع وهق، وهو حبل تشد به الإبل لئلا تند.
(٣) هو قدار بن سالف الذي يقال له: أحيمر ثمود، الذي عقر ناقة صالح عليه السلام.

Marfat.com

نَصَبَ المَرَاقِبَ للعواقِب ناظراً فيها كذلك تربأ الأبرارُ[1]
لا كالَّذين تعجَّلوا حَسَواتِها وتقلَّسوها بعد وهي خُسَارُ
دَرَجُوا وأدرج في ملفُ رُفاتهم سوأى تُساءُ لِذِكْرِها الآثارُ
والمَرْءُ من يُطوى فَيَنْشُرُ طَيَّه ما أَوْدَعَتْهُ صُدُورَها الأخيارُ
قُلْ للأُلى ناموا على نأماته ما كلُّ هَبَّةِ بارحٍ إغصَارُ
لا تأمنوا في الله بطشةَ ثائرٍ لله مِلْءُ سَرِيرِه أسرارُ
صافٍ إذا كَدِرَ المعادنُ عادلٌ إن حافَ حُكَّامُ الملوكِ وجارُوا
أعلى أبوه له النّجاد وشِيد في صهواتها ممَّا ابتناه مَنَارُ
محمودٌ المحمودُ آثاراً إذا نُظِمَتْ على جِيْدِ الدُّجى الأسمارُ
دانَتْ له الأيامُ صاغِرةً كما دانت له في ظِلِّه الأمصارُ

وله من أخرى، أولها: [الكامل]

* ما الملك إلا ما حواهُ نجادُه *

يقول فيها: [الكامل]

وتدين حُسَّدُه لمحكم آيه والفَضْلُ ما شَهِدَتْ به حُسَّادُه
شمسٌ إذا ما الحربُ زُرَّ جيوبها حَلَّ المعاقِدَ كَرُّه وطِرَادُه
ألوى ألدُّ حمى الشريعة جُهده وأذلَّ ناصيةَ الضَّلالِ جِهادُهُ
صَعَقَ البِرِنْسَ وقد تلألأ بَرْقُهُ وأطارَ ساكنَ جَأْشِهِ إزعادُهُ
ولَّى وقد سُلَّت فَسَلَّتْ ضغنه زبر تلقى فودهن فؤادُه
مستلئماً مستسلماً لا عدَّةٌ رَدَّ المُنَى عنه ولا استِعْدَادُه
ولجوسلين احتثَّهنَّ فأصبحت نُهْبَى لهنَّ بلادُه وتلادُه
جاءت به بعد الشماسِ عوابسٌ قودٌ يلين لعُنقهنَّ قيادُه
وتصيَّدَتْهُ لك السُّعود وقلَّما ينجو بخيرٍ من أردتَ مصاده
داني له قيناه أدهم كلَّما غنَّاه طار شماتةً عُوَّادُه
سَلَبَتْ عَزَاز عزاءه وبِقُورُس محجوبةً فُرِشَتْ له أقتادُه
وبتلُّ خالد يوم تَلَّ جبينَها خَلَطَ الثَّرى بجبينِهِ إخلادُه
وغداً يباشرُ تلَّ باشرَ قَلْبُه بأحرِّ ما حَمَلَ القلوبَ عدادهُ

(١) المراقب: جمع مرقب ومرقبة. وهو مكان الرقيب المشرف يرتفع عليه.

Marfat.com

مـنَّـتْ أمـانـيَـهُ بـشـائـرُك الـتـي عـادَتْ لـهـنَّ مـآتـمـاً أعـيـادُهُ
وحبوتَ مُلْكَك من نظيم ثُغُوره حَـلْـيـاً تَـتَـايَـه تـحـتَـه أجـيـادُه
لا يَـخْـدَعَـنْـك فـإنَّـمـا إصـلاحُ مَـنْ يُـخـشـى انـتـشـاطُ خِـنـاقِـه إفـسـادُه
أنـزِلْـهُ حـيـثُ قَـضَـتْ لـه غَـدَرَاتُـه وأحـلَّـه طُـغْـيَـانُـه وعِـنـادُه
فـي حـيـثُ لا يـأوي لـه سَـجَّـانـه حـتـفـاً ويَـكْـشِـطُ جِـلْـدَه جـلَّادُه[1]
وَثَـنَّ هَـدَمْـتَ بـنـي الـضَّـلال بـهَـدْمِـه وغَـدَتْ عـبـادَك عَـنْـوَةً عُـبَّـادُه
فَـتَـكَـتْ بـه آيـاتُ مَـنْ لِـمُـحَـمَّـدٍ ولِـدِيـنـه إبـداؤه وعِـوَادُه
لـو أنـشـطَ الـبـلـدُ الـحـرام تـواءمـت تُـثْـنـي عـلـيـه تـلاعُـه ووِهـادُه
وَلَـوَ أنَّ مِـنْـبَـرَه أطـاق تـكـلُّـمـاً نَـطَـقَـتْ بـبـاهـرِ فَـضْـلـه أعـوادُه
نـامَ الـخـلـيـفـةُ واسـتـطـار لـذَبِّـه عـن سُـدَّتـيـه واسْـتُـطـيـر رُقَـادُه
رَجَـعَـتْ لـك الـعِـزَّ الـقـديـمَ سـيـوفُـه مـا زانَ رونـقَ مـائـهـا أغـمـادُه
من بعد ما نَعَقَ الصَّليبُ لحزبه ورأيت زَرْعَ الـمـلـكِ حـانَ حـصـادُه
أنَّـى تُـمـيـلُ الـحـادثـاتُ رِوَاقَـهُ بـهـبـوبـهـا وابـنُ الـعـمـادِ عـمـادُه

فـصـل

[استيلاء نور الدين على دلوك]

قال ابنُ الأثير[2]: ولما سار نور الدين إلى قِلاع جُوسلين ملك بعضاً وبقي بعض، فاجتمعت الفرنجُ، فالتقوا مع نور الدين بدُلُوك، فهزمهم، واستولى على دُلُوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن مُنير قصيدةً، منها[3]: [المتقارب]

هـي الـخَـيْـلُ خَـيْـرُ عَـتَـادِ الـكـريـ ـم يـحـضـر لـلـهـمُ إحـضـارَهـا
ضَـغَـمْـتَ فـأدررت أفـواهَـهَـا وسِـرْتَ فـقـلَّـمْـتَ أظْـفَـارَهـا
إلامَ ولـم تُـبْـقِ مـمـا غَـزَوْتَ قُـلُـوبـاً تـكـابـدُ إذعـارهـا
أمـا فـي مُـفَـصَّـل آي الْـقِـرا عِ أن تَـضَـعَ الـحـربُ أوزارَهـا
عـسـى أنْ يُـحـمَّ لـهـذا الـحـمـا مِ أنْ يـتـوكَّـرَ أوكـارَهـا

(١) لا يأوي له سجانه: أي لا يرحم له.
(٢) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٧٥، هذا الخبر في أحداث سنة ٥٤٧هـ.
(٣) أورد ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٧٥، ثمانية أبيات من القصيدة.

Marfat.com

وما يومُ من غلته واحدٌ فتودعَه اللُّسْنُ أشعارَها
وأينَ المَقاولُ ممَّا فَعَلْتَ ولو شَفَعَ القَطْرُ إكثارَها
فكم أجْلَبَتْ خَلْفَك الجافخاتُ فَصَلْصَل فخرُكَ فَخَّارَها[1]
أَعَذْتَ بِعَصْرِكَ هذا الأنيقِ فتوحَ النبيِّ وأعصارَها
وكان مُهَاجِرُها تابعيك وأنصارُ رأيك أنصارَها
فجدَّدت إسلام سَلْمانها وعمَّرَ جدُّك عَمَّارَها
وما يوم إنْب إلا كتيـ ـكَ بل طالَ بالبَوْعِ أشبارَها
وأيامك الغرُّ من بعده تُعيد إلى الطي أغرارَها
ولما هببتَ ببُصْرى سمكتَ بأهباء خَيْلِكَ أبصارَها
ويومٌ على الجون جون السرا ة عَزَّ فَسَعَّطَها عارها
صدمت عُرَيْمَتَها صدمةً أذابتْ مع الماء أحجارَها
وفي تلِّ باشر باشرتَهُمْ بزحفٍ تسوَّرَ أسوارَها
وإنْ دالكتهم دُلُوك فقد شددت فَصَدَّقْتَ أخبارَها
وشبَّ التَّدامرُ حتى طلعتَ عليها فولَّتْكَ أدبارَها
مشاهِدُ مشهورةٌ نَمْنَمَتْ على صفحةِ الدَّهرِ أسطارَها
يلذُّ الأغاني ترجيعُها ويستسفر السَّفْرُ أسفارَها
بنيتَ لوفدِ المنى كعبةً تجيرُ المعلَّقَ أستارَها
ومُلْكُتَ الأرض مغبرَّة تكادُ تُحَدِّثُ أخْبارَهَا
فما زِلتَ تَدْجُنُ حتى محوتَ دُجاها وشَعْشَعْتَ أنوارَها
وصَلْتَ فأعْزَزْتَ مسكينَها وَصُلْتَ فأذْلَلْتَ جَبَّارها
وصغتَ حُلَى من عُلاً أَحْكَمَتْ على عُنقِ الدَّهرِ أَزْرارَها

قال أبو يعلى: وفي رجب وردت الأخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الإفرنج النازلين بإزائه قريباً من تلِّ باشر، وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد الذي كان مُضايقَه ومنازلَه.

قال[2]: وفي أيام من المحرَّم وصل جماعةٌ من حُجَّاج العراق وخُرَاسان المأخوذين في طريق الحج عند عودهم بجماعةٍ من كفَّار العُربان، وحكوا مصيبةً ما

---

(١) الجافخات: أي المفاخرات بكبر.

(٢) أورد ابن الأثير في «الكامل» هذه الحادثة في وقائع سنة ٥٤٥هـ، في رابع عشر المحرم.

نزل مثلها بأحدٍ في السنين الخالية، ولا يكونُ أبشع منها. وذُكر أنه كان في هذا الحاج من وجوه خُراسان وتُنَّائها[١]، وفقهائها وعلمائها، وقضاتها، وخواتين أمراء العساكر السُّلْطانية والحُرَم العدد الكثير، والأموال الجمَّة، والأمتعة الوافرة، فأُخذ جميع ذلك وقُتل الأكثر، وسَلِمَ الأقل، وهتكت النساء وسُلبن، وهلك من هلك بالجوع والعطش، فضاقت الصُّدور لهذه النازلة، فَكُسيَ العاري منهم وأُطلق لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦، ويس: ٣٨، وفصلت: ١٢].

فصل

[النفرة بين مجير الدين والرئيس ابن الصوفي]

قال: وكان مجاهد الدين بُزَان قد توجَّه إلى حصنه صَرْخَد لتفقُّدِ أحواله، فعرضت نُفْرَةٌ بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الأغراض والفساد، واقتضت الحالُ استدعاء مجاهد الدين لإصلاح الحال، فوصل وتَمَّ ذلك بوساطته على شرط إبعاد الحاجب يوسف؛ صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه، وتوجَّهوا ولم يعرض لشيء من أموالهم، وقصد بَعْلَبَكَّ فأكرمه واليها.

قال: ووردت الأخبار من مصر بالخُلْف المستمرّ بين وزيرها ابن مَصَال وبين الأمير المُظَفَّر بن السَّلَّار، ووقوع الحرب وسفك الدِّماء إلى أن أسفرتِ الحالُ عن قتل ابن مصال الوزير، وانتصاب ابن السَّلَّار موضعه في الوزارة[٢].

قال: وفي سابع عشر رجب توفي القاضي بهاء الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهَّاب الحنبلي[٣]، وكان إماماً فاضلاً، مناظراً مستقلاً، مفتياً على مذهب الإمامين أحمد وأبي حنيفة بحكم ما كان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدُّم، وكان يعرف اللِّسان الفارسي مع العربي، وهو حَسَنُ الحديث في الجدِّ والهزل، وكان له يومٌ مشهود، ودُفن في جوار أبيه وجدِّه في مقابر الشُّهداء.

قال: وتوفي عقيب وفاته الشريف القاضي النقيب فخر الدولة أبو الحسين بن أبي الجن، وتفجَّع الناس عليه لخيرته وشرف بيته.

---

(١) تنّائها: أي من أهلها المقيمين فيها.
(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٦١.
(٣) هو أخو شرف الإسلام نجم بن عبد الوهاب الحنبلي المتوفى سنة ٥٨٦هـ.

Marfat.com

[حصار نور الدين دمشق]
ودخلت سنة ست وأربعين[١]

ففيها حاصر نور الدين رحمه الله دمشق لمعاضدةِ أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدَحه ابنُ منير بقصيدةٍ يحرِّضُه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماة وهو محاصر دمشق، وقد تخلَّف عن الخدمة لمرضٍ عَرَضَ له، منها: [الكامل]

أخليفةَ الله الذي ضَمِنَتْ له ... تصديقَ واصفِه سَراةُ المِنْبَرِ
لا المستطيل بمصر ظلَّ قُصُوره ... والمستطال إليه شُقَّة صَرْصَرِ
يا نورَ دين الله وابنَ عمادِه ... والكوثَرَ بن الكوثر بن الكَوْثَرِ
صفْر بحدِّ السَّيْفِ دار أشائبٍ ... عَقَلُوا جيادَكَ عن بناتِ الأَصْفَرِ
هُم شَيَّدُوا صَرْحَ النِّفاقِ وأوقَدُوا ... ناراً تُحَشُّ بهم غداً في المَحْشَرِ[٢]
أذكوا بجِلْق حَرَّها واستشعرت ... لفحاتُها بين الصَّفا والمَشْعَرِ
شردتهم مَنْ خَلْفهم مُسْتَنْجداً ... ما ظَاهَرَ الكُفَّارَ مَنْ لم يَكْفُرِ
لا تَعْفُ بل شَقَّ الهُدَى نَفْسَ الذي ادَّ (م) رَعَ الضَّلالَ على أغرَّ مُشَهَّرِ
قَلِّدْه ما أهدَى عليٌّ لمِرْحَبٍ ... فلقد تهكَّمَ في الخِداعِ الخَيْبَرِي[٣]
ما الغِشُّ ممن أُمُّه نصرانةٌ ... لم تختتن كالغِشِّ من مُتَنَصِّرِ
أَذْكَتْ لنا هذي العزائمُ لا خَبَتْ ... ما غارَ من سُنَنِ الملوكِ الغُبَّرِ
إثقابُ آراء المُعِزِّ، وخَفْقُ را ... ياتِ العزيز ويَقْظَةُ المُسْتَنْصِرِ[٤]
شَمِّرْ فقد مَدَّت إليك رِقابَها ... لا يُدْرِكُ الغاياتِ غَيْرُ مُشَمِّرِ
أَوَلَسْتَ من ملأ البَسِيْطَةَ عَدْلُه ... واجْتَثَّ بالمَعْرُوفِ أَنْفَ المُنْكَرِ
حَدَبُ الأَبِ البَرُّ الكبيرِ، ورأفةُ الـ ... أمِّ الحَفِيَّةِ باليتيمِ الأَصْغَرِ

---

(١) وخمسمائة.
(٢) تحشّ: أي توقد.
(٣) مرحب: هو مرحب اليهودي الخيبري، صاحب حصن خيبر، الذي قتله الإمام علي بن أبي طالب في غزوة خيبر سنة ٧هـ.
(٤) المعز: هو أبو تميم المعز لدين الله الفاطمي انظر «الكامل» ٧/ ٣٠٩ ـ ٣٦٠، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٥٩ ـ ١٦٧. والعزيز: هو العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد. انظر «الكامل» ٧/ ٣٦٠ ـ ٤٨٢. وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٦٧ ـ ١٧٣. والمستنصر: هو أبو تميم معد بن علي. انظر الكامل ٧/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٨٦ ـ ١٩٦.

Marfat.com

يا هضبةَ الإسلامِ من يُعْصِمْ بها ... يُؤمن ومَنْ يتولَّ عنها يَكْفُرِ
كانوا على صَلْبِ الصَّليب سرادقاً ... أنَبَتْ بنيَّته بكلِّ مُذَكَّرِ
آثارُهم نجَسٌ أذالَ المسجِدَ الـ ... أقصى فَصُنْ ما دَنَّسُوه وَطَهِّرِ
جارَ الخليل ومَنْ بغَزَّة هاشم ... بِلُهامك المُتَدَمشِقِ المُتَمَصِّرِ(١)
بعَرَمْرَمٍ صَلَمَتْ وعاوِعُه عُرَى ... أسماعِ جَيْحُونٍ وسيْفِ البَرْبَرِ(٢)
يفترُّ عن ملكِ الملوك مُنَحَّل الـ ... أنواء بل سَعْد السُّعود الأكْبَرِ
عن طاعِنِ الفرسانِ غيرَ مكذَّبٍ ... وَمُتَمِّمِ الإحسانِ غَيْرَ مُكَدِّرِ
بَدْرُ الجَحَافِلِ والمحافلِ فارسُ الـ ... آسادِ في غابِ الوشيجِ الأَسْمَرِ(٣)
مَلِكٌ تساوى النَّاسُ في أوصافه ... عُذِرَ المُقِلُّ وبانَ عَجْزُ المُكْثِرِ
يا أيها المَلِكُ المُنَادِي جُودُه ... في سائر الآفاقِ هل مِنْ مُعْسِرِ
إنَّ القصائِدَ أصبَحَتْ أبكارُها ... في ظلِّ مُلْكِكَ غالياتِ الأَمْهُرِ
إنْ كنتَ أحييتَ ابنَ حمدانٍ لها ... فأنا الذي غَبَّرْتُ في وجه السَّرِي(٤)
ولأنْتَ أكْرَمُ من أُناسٍ نوَّهوا ... باسم ابن أوسٍ واسْتَخَصُّوا البحتري(٥)
ذلَّتْ لدولتِكَ الرِّقابُ ولا تَزَلْ ... إنْ تَغْزُ تَغْنَمْ أو تُقَاتِلْ تَظْفَرِ

وكتب إليه من حماةَ أيضاً، وهو محاصر دمشق، قصيدةً ينال فيها من صاحبها، منها: [الطويل]

أبوكَ أبٌ لو كان للناس كُلِّهم ... أباً ورضوا وَطْءَ النُّجومِ لَفُنِّدُوا
وما ماتَ حتى شدَّ ثُلْمةَ مُلْكِه ... بك اللَّهُ تَرْمي ما رماه فَتُصْرِدُ
صَدَمْتَ ابن ذي اللُّغْدَين فانحلَّ عَقْدُه ... وكالسِّلْكِ قد أمسى يُحَلُّ ويُعْقَدُ
يُقَلِّبُ خَلْفَ السَّجْفِ عيناً سَخِينَةً ... ويبكي بأُخرى ذات شَتْرٍ ويَسْهَدُ

---

(١) اللهام: الجيش الكبير، كأنه يلتهم كل شيء.
(٢) وعاوعه: أي ضجيجه وجلبته.
(٣) الوشيج: يقال: وشج الشيء وَشْجاً، تداخل وتشابك والتف. ويقال: وشجت العروق والأغصان: أي التفت وتشابكت وتداخلت.
(٤) ابن حمدان: هو سيف الدولة الحمداني علي بن عبد الله بن حمدان. انظر «الكامل» ٧/ ١٦٢ ـ ٢٨٨، ويتيمة الدهر للثعالبي ١/ ٣٧ ـ ٥٦. والسري: هو السري بن أحمد الكندي المعروف بالرفاء، المتوفى سنة ٣٦٢هـ. من شعراء سيف الدولة. انظر يتيمة الدهر ٢/ ١٣٧ ـ ٢١٤. ووفيات الأعيان ٢/ ٣٥٩ ـ ٣٦٢.
(٥) ابن أوس: هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، الشاعر المشهور.

ولا غَـزْوَ قـد أبـقـى أبـوه وجَـدُّه ... لـه كـلَّ يـومٍ ثـوْبَ عَـجْـزٍ يـجـدَّدُ
فـيـا راكـبـاً إمَّـا عَـرَضْـتَ فَـبَـلِّـغَـنْ ... بـيـوتـاً عـلـى جَـيْـرُون بـالـذُّلِّ تُـعْـمَـدُ
وقُـلْ لـمـبـيـرِ الـدِّيـنِ وَهْـوَ مُـجِـيْـرُه ... بـزعـم لـه وَجْـهُ الـحـقـيـقـةِ أَزْبَـدُ
حَـمَـلْـتَ الـصَّـلـيـبَ بـاغـيـاً ونَـبَـذْتَـهُ ... وثـغـرَاكَ مـوطـوسٌ بـبـابٍ وأَذْرَدُ
وحـارَبْـتَ حـزبَ الله والـلَّـهُ نـاصِـرٌ ... لـنـاصـره ودِيـنُ أحـمـدَ أَحْـمَـدُ
تَـنَـصَّـرْتَ حـيـنـاً والـبـلاءُ مـوكَّـلٌ ... ولا بُـدَّ مـن يـومٍ بـه تـتـهـوَّدُ
وأُقْـسِـمُ مـا ذاقَ الـيـهـودُ بـإيـلـيـا ... ومَـوْضَـعُـهـا مـن بـخـتـنَـصَّـرَ أسـوَدُ
كـبـعـضِ الـذي جُـرْعْـتَـهُ فَـسَـرَطْـتَـهُ ... وأُيِّـدَ فـيـه مـن عـمـاك الـمُـؤَيَّـدُ[1]
ولايـتُـهُ عَـزْلٌ إلـيـكَ مُـوَجَّـهٌ ... وتـصـحـيـفُـه قَـتْـلٌ عـلـيـكَ مُـؤَبَّـدُ
رمـاكَ بـبـاقِـلّا دمـشـق فـلـم تـكـن ... سوى بَقْلَةٍ حمقاء بالحُمْقِ تُحْصَدُ
وجـالَـدْتَ جَـلّاداً وأنـتَ مُـؤَنَّـثٌ ... تَـذَكَّـرْتَ والـجـلّادُ أذهـى وأَجْـلَـدُ
تـطـاوَلْـتَ لا نـفـسٌ تـسـمَّـى ولا أَبٌ ... وراءك زحـفـاً إنـمـا أنـتَ مُـقْـعَـدُ
أمسعاةَ نورِ الدين تبغي ودونها الـ ... أسـنَّـة تـبـر والـعـوامِـلُ تَـعْـضُـدُ[2]
بـمـحـمـودِ الـمـحـمـود سيفاً وساعداً ... حملت لقد ناجتك صماءُ مُؤْيِدُ[3]
وهـل يـسـتـوي سـارٍ تـأسَّـدَ طـاويـاً ... ونـشـوان يُـغْـلَـى مـعـصـمـاً ويـؤيـدُ
تَـنَـصَّـرْتَ أمَّـا بـل تـمـجَّـسْـت والـداً ... وعـمَّـاً فَـعِـرْقُ الـكُـفْـرِ فـيـك مـردَّدُ
تـخـذتَ بـنـي الـصُّـوفـي أسـراً وأُسـرةً ... لكي يُصْلحوا ما في يديك فأَفْسَدُوا
لَعَـمْـري لَـنِـعْـمَ الـعـبـدُ أنـتَ تـجـيـعـه الـ ... ـمـوالـي وتُـولـيـه هَـوَانـاً فَـيَـحْـمَـدُ
إلـيـكـم بـنـي الـعـلّات عـن مُـتَـشـاوسٍ ... لـه الـشَّـام مـرفـا والـعـراقُ مُـرَفَّـدُ
ومـا مِـصْـرُ إلا بـعـضُ أمـصـارِه الـتـي ... إلـى أمـره تـسـعـى قِـمـاءً وتَـخْـفِـدُ
أنـيـبـوا إلـيـه فَـهْـوَ أرْحَـمُ قـادرٍ ... له الصَّفْحُ دينٌ واقبلوا النُّصْحَ تَرْشُدوا
ولا تَـرْشِـفُـوا نَـفْـثَ الـمُـؤَيَّـدِ إنـه ... عن الخيرِ يزوي أو إلى المَيْنِ يَسْنُدُ
وفـرُّوا إلـى مـولاكُـمُ والـذي لـه ... عـلـيـكـم أيـادٍ وَسْـمُـهـا لـيـس يُـجْـحَـدُ
ولا تَـكْـفُـروه إنَّـمـا أنـتُـمُ لـه ... ومـنـه ويـوم عـنـد حـورانَ يَـشْـهَـدُ
غـداةَ عـلـى الـجَـوْلان جَـوْلٌ ولـلـظُّـبـى ... رُعـودٌ فـريـصُ الـمـوتِ مـنـهـنَّ تُـرْعَـدُ

---

(١) فسرطته: سرطه سرطاً: ابتلعه.
(٢) العوامل: جمع عامل، وهو صدر الرمح.
(٣) الصماء: الداهية الشديدة. والمؤيدُ، كمؤمن الأمر العظيم والداهية الشديدة.

Marfat.com

ولـمـا اكـفَـهَـرَّ الـيـوم واربَـدَّ وجـهُـهُ وعــوَّذ مــرهــون وفَــرَّ مــزبّــدُ
وأيـقـنَ مَـنْ بـيـن الـسَّـديـر وجـاسِـم بـأنَّ الـحـرارَ الـسُّودَ بـالـجُرْد تـجـردُ[1]
رَدَتـهـم عـلى بُـصْـرى وصَـرْخَـدَ خَـيْـلُـهُ وقد أبصرتْ بصرى رداها وصَرْخَدُ
وطـاروا تـهـزُّ الـمُـزهِـفـات طُـلاهـم كـمـا انـصـاعَ من أُسْدِ نَعَام مُشَرَّدُ[2]
ولـيـلـةَ ألـقـى الـشـرك بـالـمَـرْج بَـرْكَـهُ ومــارِجُ نــيــرانِ الــوغــى يــتــوقَّــدُ
رمى وأخوه مَغْرِبَ الشَّمْسِ دُونكم بـمـشـرقـهـا غـضـبـان يَـغْـدُو ويُـسْـئِـدُ
فــمُــذْ وَرَدَتْ مــاءَ الأرنــط مُــغِــذَّةً أثـارَتْ بَـثَـوْرا غُـلَّـة لـيـسَ تَـبْـرُدُ[3]
أيا سيفُ شامَتْهُ يد الملك صارماً فيمهد[4] إذ يسري ويسري فيُمْهِدُ
دمـشـقَ دمـشـقَ إنـمـا الـقُـدْسُ سَـرْحَـةٌ ومـركَـزُهـا صَـرْحٌ عـلـيـهـا مـمـرَّدُ
حَمُوها لكي يحموا وقد بلغَ المدَى بـهـم أجـلٌ حَـتْـمٌ وعُـمْـرٌ مـحـدَّدُ
مـتـى أنـا راءٍ طـائـرَ الـفَـتْـحِ صـادِحـاً يُـرَفْـرِفُ فـي أرجـائـهـا ويُـغَـرِّدُ

وله من قصيدة أخرى: [المنسرح]

نَـذْرُكَ بـالـغُـوطـتـيـن قـد ضَـمِـنَـتْ رَبْــوَتُــهــا ريــعــه ومُــقْــرَاهــا
أطلِعْ لـهـا الـشَّـمْـسَ من جبينكَ لـم يَـزْجُ سِـوَاهـا فـي الـنَّـوْمِ جَـفْـنـاهـا
فـالـخَـيْـلُ صـور إلـى تـسـاهـم سَـهْـ ـمَـيْـهـا ومـلـهًـى فـي بـيـت لـهـيـاهـا
دولــة مَــنْ دانَــتْ الــبِــلادُ لــه وعَــمَّــهــا ظِــلُّــه فــأَغْــنــاهــا
لا بِـسِـواهـا تـلـيـقُ بـهـجـتـهـا ولا ســواه تــبــغــي رعــايــاهــا

[نزول عسكر نور الدين على أرض عذراء من عمل دمشق]

قال أبو يعلى: وفي عاشر المحرَّم نزلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عذراء من عمل دمشق وما والاها، وفي الغد قصد فريقٌ وافر منهم ناحية السَّهم والنَّيْرَب؛ وكَمَنُوا عند الجبل لعسكر دمشق، فلما خرج منها إليهم أسرع النَّذير إليهم فحذَّرهم وقد ظهر الكمين، فانهزموا إلى البلد. وفي الغد نزل نور الدين

(١) جاسم: قرية في حوران بينها وبين دمشق ٥٠ كيلومتراً، منها أبو تمام الشاعر. انظر معجم البلدان ٢/ ٩٤.
(٢) طلاهم: أعناقهم.
(٣) الأرنط: هو نهر العاصي. وثورا: أحد فروع نهر بردى.
(٤) فيمهد: كذا في الأصل، ولعلها: فيهمد.

بعسكره على عيون فاسريا بين عذراء ودُومة، وامتدُّوا إلى تلك الجهات، ونزلوا من الغد في أراضي حجُيرا وراوية في الخلق الكثير والجم الغفير، وانبثَّت أيدي المفسدين من العسكر الدمشقي والأوباش، من أهل العيث والفساد في زروع النَّاس فحصدوها، وفي الثمار فأفنوها، بلا مانع ولا دافع، وتحرَّك السعر وانقطعت السَّابلة، ووقع التأهُّب للحصار، ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلَّا صلاحُ أمر المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد، فذلك المراد. فلم يَعُدِ الجوابُ إليه بما يرضاه، فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشَّرق والغرب. وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبليّ البلد.

قلتُ: هو الذي يُسمَّى في زماننا بمقبرة المعتمد؛ بين مسجد القدم ومسجد فلوس.

قال: وهذا منزلٌ ما نزله أحدٌ من مقدَّمي العساكر فيما سلَف من السِّنين، وأهمل الزَّحف إلى البلد إشفاقاً من قتل النُّفوس. ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدورُ أهل الصَّلاح، وزادَ إنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة، والمناوشات في كلِّ يوم مُتَّصلة من غير مزاحفةٍ ولا محاربة. فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر، فرحل العسكر النُّوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي قدايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد، وما عُرف في قديم الزمان من أقدَمَ على الدنوِّ منها. ثم رحل في العشرين من صَفَر إلى ناحية دَاريَّا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الإفرنج من البلد لقوَّة عزمه على لقائهم. وصار العسكرُ النُّوري في عددٍ لا يُحصى، وفي كلِّ يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائفِ التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لا يأذن لأحدٍ من عسكره في التسرُّع إلى قتال أحدٍ من المسلمين، وكانوا ـ يعني أهلَ البلد ـ يحملهم الجهلُ والغرور، على التسرُّع والظهور، ولا يعودون إلا خاسرين مغلولين. وأقام على هذه الصُّورة، ثم رحل إلى ناحية الأَعْوَج لقُرب عسكر الإفرنج وعَزْمهم على قصده، واقتضى رأيه الرَّحيلَ إلى جهة الزَّبَدَاني استجراراً لهم، وأفرق من عسكره فريقاً يناهز أربعة آلافِ فارس مع جماعةٍ من المقدَّمين ليكونوا في أعمال حَوْرَان مع العرب لقصد الإفرنج ولقائهم، وترقباً لوصولهم، وخروج العسكر الدمشقي إليهم، واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم. واتفق أن عسكر الإفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأوَّل، ودخل منهم خَلْقٌ كثير إلى البلد لقضاء حوائجهم، وخرج مجير الدين ومؤيَّدُه في خواصِّهما، وجماعةٌ وافرة من الرَّعية، واجتمعا بملكهم وخواصِّه، وما صادفا عنده شيئاً مما هجس في النُّفوس

من كثرة ولا قوة، وتقرَّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بُصْرى لتملُّكه واستغلال أعماله. ثم رحل عسكر الإفرنج إلى رأس الماء، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم؛ لعجزهم واختلافهم، وقَصَدَ من كان بحَوْران من العسكر النُّوري، ومن انضاف إليهم من العرب في خَلْقٍ كثير ناحية الإفرنج للإيقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الإفرنج إلى لَجَاة حوران للاعتصام بها، ونُمِيَ الخبرُ إلى نور الدين، فرحل ونزل على عين الجرّ من البقاع، عائداً إلى دمشق، وطالباً قصد الفرنج والعسكر الدمشقي. وكان الإفرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بُصْرى لمضايقتها ومحاربتها فلم يتهيأ ذلك لهم، وظهر إليهم سُرخاك[1] واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الفرنج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤيَّدَه يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن نَدفعه ما رحل عنكم.

قال أبو يعلى: وفي هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأسطول المِصْري إلى ثغور السَّاحل في غايةٍ من القُوَّة، وكثرة من العِدَّة والعُدَّة، وذُكِرَ أن عدَّة مراكبه سبعون مركباً حربية مشحنة بالرِّجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد أُنفق عليه فيما حُكي وقرِّب ثلاثمائة ألف دينار. وقَرُبَ من يافا من ثغور الفرنج، فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به، واستولوا على عدَّةٍ وافرة من مراكب الرُّوم والإفرنج، ثم قصدوا ثغر عكّا، ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدَّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا من حُجَّاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكُلِّ مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الأسطول المذكور لإعانته على تدويخ الفرنجيَّة، فاتَّفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده إليها لمضايقتها، وحدَّث نفسه بملكها لعلمه بضعفه، وميل الأجناد والرَّعية إليه، وإشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذُكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفاً مقاتلةً، ثم رحل ونزل بالدلهميَّة من عمل البقاع، ثم نزل بأرض كَوكَبا غربي دارَيَّا، ثم نزل بأرض داريا إلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الأجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلا اليسير ممن كان يخرج أولاً، ثم تقدَّم ونزل القطيعة وما والاها، ودنا منها بحيث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحفٍ ولا شدٍّ في محاربة، تحرُّجاً من قتل المسلمين، وقال: لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أُرفِّهُهُم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

---

(١) قتل سنة ٥٥٢هـ.

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلُّم نائبه الأمير حَسَّان المَنْبِجي[١] مدينة تل باشر بالأمان في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وورد مع المبشرِّ جماعةٌ من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال. وتردَّدت المراسلات في عقد الصُّلْح مع أهل دمشق على شروطٍ واقتراحات، وتردَّد فيها الفقيه بُرْهان الدين علي البَلْخي والأمير أسد الدين شِيركُوه، وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرت الحال على قَبول الشروط المقترحة، ووقعت الأيمان من الجهتين على ذلك والرِّضا به في عاشر ربيع الآخر. ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بُصْرى للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب؛ لأنَّ سُرْخاك كان شاع خلافه وعصيانُه، ومال إلى الفرنج فاعتضدَ بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه، وأنهض إليه فريقاً وافراً من عسكره.

قلتُ: ولابن منير في نور الدين يذكر وقعة الجَوْلان وغيرها قصيدة، أوَّلها: [الرجز]

ما بَرَقَتْ بيضُكَ في غمامها ... إلا وغِيْثُ الدين لابتسامها

يقول فيها: [الرجز]

محمود المحمود جِدًّا وَجَداً ... أرخص جلد الأرض حكم عامها
مَلْكٌ أزالَ الرُّومَ عن صُلْبانها ... دفاعُهُ وكَبَّ من أصنامها
جَال على الجَوْلان أمس جَوْلَةً ... صفَّرت الأُدْحيَّ من نعامها
والجون قد جرَّعها أُجونه ... وَفَلَّ مشحوذاً من اعتزامِها
وشدَّ في القِد له مليكها ... قودَ عَتُودِ القَوْط في شِبَامها[٢]
وفي الرُّها صابَتْ له سحابةٌ ... صاروا جفاءَ خَفَّ في التطامها
وهَبَّ في هاب له عواصِفٌ ... تجهَّمتها الهِفُّ من جَهامها[٣]
وكَفْرلاثا لاث في جبينها ... لَثْمُ ظُبًى أتت على لثامها
وقائِعُ يرفضُّ تحت وَقْعها ... نَظْمُ الثُّريا في فضا مصامها
فساعةُ البيضِ إذا عدَّدها ... سوطُ عذابٍ صُبَّ في أيامها
واعجباً لعُصب الشِّرْك التي ... لم يَعْصِبِ الرُّشْدُ على أحلامها

(١) في «الكامل» ٩/ ٣٣٩: حسان المنجي.
(٢) العتود: من أولاد المعز. والقوط: القطيع اليسير من الغنم.
(٣) الهف: السحاب الرقيق، لا ماء فيه.

حكمةٌ استواؤها في غَيِّها ... في نَقْضِ ما أُحْصِدَ من إبرامها
مُظَفَّرُ الرَّاياتِ والرَّأي إذا الـ ... ـحَرْبُ مَشَتْ تَعْثُر في خِطَامها
عَدَتْ به حَدَّ العَلاءِ هِمَمٌ ... هنَّ النُّجومُ أو نواصي هامها
جلَّت له الدُّنيا على زيزحها ... عَفْواً فلم يلو على حُطامها
رأَتْهُ وهو اللَّيثُ يَدْمي ظُفْرُهُ ... أَنْفَذَ في المُشْكِلِ من حُكَّامها
فتوَّجَتْه العِزَّ في مرتبةٍ ... تمنطقَ الجوزاءَ في نِظَامها
غضبانُ للإسلامِ لا يغيظه اسـ ... ـتسلامُها للقَسْرِ من إسلامها
خطَّ على مِثْلِ أبٍ طاعَتْ له الـ ... آفاقُ واستَشْرَفَ لاغتنامها
تصرِّفُ الدُّنيا على إيثاره ... عِراقَها مُسْتَرْدِفاً بشامِها
لو لم تكن دون مِنًى فاتَ المُنَى ... وأُقْعِدَ الفائزَ من قُوَّامها
وامتكَّ ماءَ مكَّةٍ رواضعٌ ... يقصُر باعُ الدَّهرِ عن فِطَامها
وصارَ كالجمر الجِمَارُ وخلا ... من أهلِهِ الأشرف من مقامها
حَمَيْتَها لا زِلت تَرْقَى في حمًى ... من مُؤْلِم الأرداء أو لِمَامها
تُلْبس بيتَ الله وَشْيَ يَمَنٍ ... يقرأ آياتِك من أعلامها
فإنَّما الدِّين رحًى قُطْبُتَها ... وبازلٌ مُكِّنْتَ من زِمامها
أَمَّتْ بنا الآمالُ منكَ كعبةً ... سلم اللَّيالي آية استسلامها
وأرشفتنا بك ثَغْرَ نِعْمَةٍ ... لا نسألُ اللَّهَ سِوَى دَوَامِها

وقال أيضاً يمدحه: [الوافر]

بجدِّك أصحب الجدُّ الحَزُونُ ... وأطْلَعَ فَجْرَه الفَتْحُ المبينُ
وفي كَنَفَيْكَ سُولمت اللَّيالي ... وفارقَ طَبْعَهُ الزَّمَنُ الخَؤُونُ
ومنكَ تعلَّم القَطْعَ المواضي ... وقد زَبَنَتْ بها الحَرْبُ الزَّبونُ
وأنتَ السَّيْفُ لم تَمْسَسْهُ نارٌ ... ولا شَحَذَتْ مضارِبَه القُيُونُ(١)
ترَقْرقُ فوقَ صَفْحَتِه الأماني ... وتقطُرُ من غِرَاريه المَنُونُ(٢)
وقبلَكَ ما سَمِعْتُ بذي فَقَارٍ ... يُبيرُ الفَقْرَ كانَ ولا يكونُ
ولا غيثٍ سماوته سريرٌ ... ولا ليثٍ وسادته عَرِينُ

(١) القيون: جمع قين، وهو الحداد.
(٢) الغراران: هما شفرتا السيف.

Marfat.com

ولا قَمَر له الهَيْجاءُ هالٌ ... ولا تاج له الدُّنيا جبينُ
جُبِلْتَ ندًى وعَفْواً وانتقاماً ... وماءٌ كلُّ مجبولٍ وطينُ
وملكك عَمَّمَ الأقطار قَطْراً ... فأمْرَعَتِ الأواعثُ والحُزُونُ
تلألأُ تحتَهُ غُرَرُ اللَّيالي ... إذ الأيامُ عند سِوَاك جُونُ
وأنتَ أقمتَ للجَدْوى مناراً ... يبينُ لشائميه ولا يبينُ
وعندكَ مَشْرَبُ النُّعْمَى زُلالٌ ... إذا عبقت مشارِبَها الأُجونُ
تحكَّمُ في عَطَائك كُلُّ عاطٍ ... وقد شِيْدَتْ مِن المَنْعِ الحُصُونُ
لقد أشعَرْتَ دينَ الله عِزًّا ... تتيه له المَشَاعر والحجون
وقامَ بِنَصْرِهِ والنَّاسُ فوضى ... قويٌّ منك في الجُلَّى أمِينُ
رجعت ملوكهم وهم خيوفٌ ... أسيرٌ في صفادِكَ أو كنينُ[1]
فبَرْنَسْتَ البِرنسَ لقاعِ خَسْفٍ ... وجُرِّعَ مُرَّ جوسك جوسلينُ
إذا ما الفِعْلُ عُلَّ تلاه حَذْفٌ ... يتاحُ لمنتهاهُ أو سكُونُ
غنوا حتى غزوتهم فغنى الـ ... ـصَّدَى في أرضهم خفَّ القطينُ
وَكَمْ عَبَرَ الصَّليبُ بهم صليباً ... فردّته قَناكَ وفيه لينُ
وما خَطَرَتْ بدار الشِّرْكِ إلا ... هوى النَّاقوسُ وارْتَفَعَ الأذِينُ
ملأتَ عِظَامَ ساجِهم عظاماً ... فكلٌّ ملاً لقوكَ به جرين
بإنْبَ والقَنَا تجري نجيعاً ... كأنَّ عيونَ أكعُبِها عُيونُ
وبين جِرار صَرْخَد ذُبْنَ حَرًّا ... له في كلِّ خَبْخَبَةٍ كمينُ[2]
وفئن من العُرَيْمة في عُرَام ... له في جُونها الأقصى وجونُ
وكم حَرَمٍ بحارِمَ غادَرَتْهُ ... ودارته لمنسفها دَرِينُ
وفي شعراءَ قُورُس صُغْنَ شِعْراً ... تُدارُ على غِرَارَيه اللُّحون
وقائعُ صِرْنَ في صنعاء طيراً ... يوقعها على عَدنٍ عدونُ
نماكَ أبٌ إذا عُدَّ انتساباً ... تراقى مُصْعِداً والنَّاسُ دونُ

---

(١) خيوف: خيف الإنسان وغيره خيفاً: كانت إحدى عينيه زرقاء والأخرى سوداء كحلاء، فهو أخيف، وهي خيفاء. وخيّف عن القتال: نكص عنه. والأخياف من الناس: الضروب المختلفة الأخلاق والأشكال، ويقال: الناس أخياف: لا يستوون. وهم أخياف: أمهم واحدة وآباؤهم شتى.

(٢) الخبخبة: شجر، ومنه: بقيع الخبخبة بالمدينة، لأنه كان منبتها.

شِمالاً كان أملاكُ البَرَايا وقد قِيسُوا به وهو اليمينُ
فصار قضاؤه في الأرض حتماً وطاعةُ أهلها لبنيه دِينُ
لهذا اليوم تُنتخب القوافي ويذخر نفسه الدُّرُّ المَصُونُ
ونحنُ أحقُّ منك بأن نُهَنَّا إذا قَرَّتْ برؤيَتِك العُيونُ
سَلِمْتَ لنا فإنَّا كُلُّ صَعْبٍ نوازنه بأن تبقى يَهُونُ
ترابطنا بِعَقْوَتِك التَّهاني وتغبِطُنا بدولتك القُرونُ

فصل

[في باقي حوادث هذه السَّنة]

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديار مِصْر بأنَّ أهل دِمْياط حَدَث فيهم فَنَاءٌ ما عُهِدَ مثلُه في حديث ولا قديم، بحيث أُحصي المفقودُ منهم في سنة خمس وأربعين سبعة آلاف شخص، وفي سنة ستٍّ وأربعين مثلهم، فصار الجميع أربعةَ عشر ألفاً، وخلت دور كثيرة من أهلها، وبقيت مغلقةً لا ساكن فيها ولا طالب لها.

قال: وفي ثاني جُمادى الآخرة توفي القاضي السَّديد الخطيب أبو الحسين بن أبي الحديد خطيب دمشق، وكان خطيباً بليغاً صيِّتاً عفيفاً، ولم يكن له من يقوم مقامَه في منصبه سوى أبي الحسن الفَضْل؛ ولد ولده، وهو حدَث السِّن، فَنُصِبَ مكانَه وخَطَب وصلَّى بالناس، واستمرَّ الأمر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكاياتُ بحدوثِ زلزلةٍ وافت الليلة الثالثة عشرة من جُمادى الآخرة اهتزَّت الأرضُ لها ثلاث رجفات في أعمال بُصرى وحَوْران وما والاها من سائر الجهات، وهدَّمت عدةً وافرة من حيطان المنازل بِبُصْرَى وغيرها، ثم سكنت بقُدْرة مَنْ حرَّكها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجيرُ الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصِّه، ووصل إليها، ودخل على نور الدين صاحبها فأكرمَهُ، وبالغ في الفعل الجميل في حقِّه وقرَّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحُسْنَ النِّيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

قلتُ: وفي ذلك يقول القَيْسَرَاني: [السريع]

وَفَتْ لك الدُّنيا بميعادِها باذِلَةً أفلاذَ أكبادِها
وأوْفَدَتْ غرَّ سلاطينها عليك في همة أنجادِها

Marfat.com

تبغي سناءَ أقصَدَتْ قَصْدَه ... طائعةً طاعةَ أجنادِها
خاضِعةً تعتدُّ أعمارَها ... يومَ التَّلاقي يومَ ميلادِها
شامَتْ دمشقُ بك بَرْقَ العُلا ... فأرسَلَتْ أصدَقَ رُوّادِها
رأتْكَ نورَ الدينِ نارَ الهُدَى ... قد أشرَقَ الأفقُ بإيقادِها
فيمَّمَتْ منكَ حيا مُزْنَةٍ ... بيضَ الأيادي ورد ورّادِها
فاسألْ مجيرَ الدينِ عن خُبْرِه ... أورَدَها محمودَ إيرادِها
تبوَّأتْ من عِزِّها قُبَّةً ... سُمْرُ القَنا أطنابُ أوتادِها
تنافَسَ النَّاسُ على دَوْلَةٍ ... فُتَّ بها أعينَ حُسَّادِها
يغدُو المُعادِي كالمُوالي لها ... فَوالِها إنْ شِئْتَ أو عادِها
يا ملكاً تُزهى بأسمائِهِ ... منابرُ تسمو بأعْوادِها
وتأخذُ الأسماعُ أوصافَهُ ... عن جُمَعِ الدُّنيا وأعيادِها
كَمْ للمعالي فيكَ مِن رَغْبَةٍ ... تَفْنَى الأماني دُونَ تَغْدادِها
لكَ المساعي الغُرُّ يا جامعاً ... مِنْ طَرَفَيْها بينَ أضْدادِها
تَغْشَى الوغى أفرسَ فُرْسانِها ... وفي التُّقى أزْهَدُ زُهّادِها
فأنتَ نُسْكاً غيثُ أبْدالِها ... وأنتَ فَتْكاً ليثُ آسادِها
في أُمَّةٍ أنتَ حِمَى دِينِها ... حيناً وحيناً شَمْسُ عُبّادِها
يطوي بكَ العُمْرُ إلى غايةٍ ... حَسْبُكَ تقوى الله مِن زادِها
هذا وكم مِنْ سُنَّةٍ بِدْعةٍ ... أعْدَمْتَها من بَعْدِ إيجادِها
مآثرٌ لو عَدِمَتْ راوياً ... تكفَّلَ النَّظْمُ بإسنادِها

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعضُ التُّركمان على ظاهر بانياس، فخرج إليهم واليها من الإفرنج في أصحابه، وظهر التُّركمان عليهم فقتلوا وأسروا. وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحيةً من البِقاع وأغاروا، فأنهضَ إليهم والي بَعْلَبَكَّ رجاله. فلحِقُوهم وقد أرسل الله عليهم من الثُّلوج المتداركة ما ثبَّطهم؛ فاستخْلَصوا منهم الغنيمة.

قلتُ: والي بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب؛ والد صلاح الدين يوسف.

قال ابن أبي طي: في سنة ستٍّ وأربعين أغار التركمانُ على بانياس، فخرج أهل بانياس من الفرنج، ليستنقذوا ما أخذوه، فعاد التُّركمان عليهم فكسروهم ونهبوهم، واتَّصل ذلك بصاحب دمشق، فأغضَبَهُ فعل التركمان لِمَكان الهُدْنة

Marfat.com

المنعقدة بينه وبين الفرنج، فأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ما أخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيَّشوا وخرجوا في جيشٍ عظيم، وشَنُّوا الغارة على البقاع والنَّاس غافلون، فامتلأت أيديهم من الغَنائم والأسارى، واتَّصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب وهو في بعلبكَّ وعنده جماعةٌ من عسكر دمشق وأصحابه، فقدَّم عليهم ولده شمس الدولة[1]، فخرج وأوقع بالفرنج، واتَّفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثَلْجٌ عظيم هلك به أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورِّطون، فَقَتَل فيهم مقْتَلةً عظيمة، وخلَّص من كان مع الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السَّنة فارق صلاحُ الدين والده، وصار إلى خدمة عَمِّه أسد الدين بحلب، فقدَّمه بين يدي نور الدين، فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً.

قال أبو يَعْلى: وفي ثاني شوال، وهو الثَّاني من شباط، وافت قُبيل الظُّهْر زلزلةٌ اهتزَّت لها الأرض ثلاث هَزَّات هائلة، وتحرَّكت الدُّورُ والجُدران، ثم سكنت.

قلتُ: وفي هذه السنة، في غُرَّة جُمادى الأولى، كتب أحمد بنُ منير من حماة إلى نور الدين قصيدةً يهنِّئه بوصول الخِلَع إليه من بغداد من عند الخليفة، على يد الشَّيخ شرف الدين بن أبي عَصْرون، ويصف الفرس الأصفر، الأسود القوائم والمعارف، والسَّيْف العربي، أوَّلها: [الكامل]

لِعَلائك التَّأييدُ والتأميلُ ... ولمُلكك التأبيد والتَّكميلُ
أبداً تَهُمُّ وتقتفي فتنالُ ما ... عَزَّ الوَرَى إدراكُه وتُنيلُ
إما كتابٌ يستقلُّ به الكتا ... ئبُ أو رسولٌ للنَّجاحِ رَسِيْلُ
لك من أبي سعد زعيم سعادة ... فَمَنْ تفاءلَ فيكَ ليس يَفيلُ[2]
نِعْمَ الحُسَامُ جَلَوْتَه وبلوتَهُ ... يُرْضيك حين يصلُّ ثم يصولُ
سَهْمٌ تعوَّد في الكِنانة عوده ... ويقصِّرُ المطلوب وهو طويلُ
سددته فمضى وقرطسَ صادراً ... كالنَّجمِ لا وَهْلٌ وَلَا تهليلُ
فثنى القلوبَ إلى ولائك حُوَّلٌ ... منه بما يجني رضاك كفيلُ
وأقامَ يَنْشُرُ في العِراقِ ودِجْلَةٍ ... آياً تأوَّلها لمصر النِّيلُ
وكساك مِنْ رأي الخليفة جنَّة ... لا النقص يُوهيها ولا التَّقليلُ

(١) هو شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر، توفي بالإسكندرية سنة ٥٧٦هـ. وكان له أكثر بلاد اليمن. انظر «الكامل» ١٠/ ١٠٤.
(٢) أبو سعد: هو ابن أبي عصرون، عبد الله بن محمد بن هبة الله المتوفى سنة ٥٨٥. تقدمت ترجمته.

Marfat.com

كنتَ الشَّريفَ أفضتُ في تشريفه ... ماءً عليه من سَناكَ دليلُ
أليُوسف لما طلعت مُقرطقاً ... طَمَثَتْ حَصَانٌ واستخَفَّ أبيلُ
أم عن سليمان يفرّج ضاحكاً ... سُجف الرّواقِ وضعضع الكيُّولُ
ومملَّكٍ في السَّرج أمْ ملكٍ سطت ... لبهائه عقلٌ وتاه عقولُ
وبَرَزْتَ في لُبْسِ الخِلافة كالهلا ... لِ جلاه في حُلَلِ الدُّجى التَّهليلُ
خِلَعٌ خَلعْن على القلوب مَسَرَّةً ... سدكاتها[1] التعظيمُ والتَّبْجيلُ
نشرت نُضَاراً جامداً أعلامها ... وتكادُ تجري رِقَّةً وتسيلُ
لَقَضَى لها أنْ لَا عديلَ لِفَخْرِها ... رَبٌّ بَرَاك فلا تلاكَ عَدِيْلُ
أنتَ المهند مُنذُ سلَّتْهُ العُلا ... لم يخلُ مِن مُهجٍ عليه تسيلُ
مُذْ هزَّ قائمَهُ الإمامُ تألَّقت ... غررٌ شُدخن لمُلْكه وحجولُ
والَيْت دولتَه فتِهتَ بِدَوْلَةٍ ... مُتكلِّل بصعيدِها الإكليلُ
ونَصَرْتَهُ فَحلاك أبيضَ دُوْنَه ... صَرْف الزَّمان إذا استكلَّ كليلُ
قُلِّدتَه وكِلَاكُما مُتَلَهِّذِمٌ ... عَضْبٌ فَرَانَ المغمد المَسْلُولُ
وحبا رِكابُك حين قر بِزحفه الْـ ... ـقرآنُ واستُخْذَى لهُ الإنجيلُ
بأقبَّ أصفر مُشْرِفَ الهادي له الـ ... ـتَّحْجيل لونٌ واللَّما تحجيلُ
قَسَمَ الدُّجى بين الغدائرِ والشَّوى ... واغتامَ رَوْنَقَه الأصيلَ أصيلُ
وتقاسمَ الرَّاؤُوه تحتك أنَّه ... حيزوم صرَّف عِطْفَه جبريلُ[2]
يختال في حبك الحُليُّ مخيَّلاً ... أنَّ الشَّوامخَ للبدورِ خيولُ
مُرْخَى الذَّوائبِ كالعروسِ يزينُه ... طَرْفٌ بأطرافِ الرِّماحِ كحيلُ
تتصاعق النعرات تحتَ لَبانِه ... إن شَبَّ زفْرٌ واستجشَّ صَهِيْلُ
لم يَخبُ مِثْلَكَ مِثْلَه مُهْدٍ ولم ... يُشْلَلْ على بَرْقٍ سواه شليلُ

وأنشده في هذه السنة أيضاً بحمص قصيدةً، منها: [الكامل]

الدَّهْرُ أنتَ ودارُك الدُّنيا ومَن ... في العَدِّ بعدُ مؤمِّل وحَسُودُ
وأزمَّةُ الأقدار طَوْعُ يديك والْـ ... ـأيَّامُ جُنْدُك والأنامُ عبيدُ
فُتَّ الوَرى وعَقَدْتَ ناصيةَ المدى ... بِمُذَمَّرِ الشَّعْرى فأين تريدُ؟!

(١) سدكاتها: كذا بالأصل.
(٢) حيزوم: فرس جبريل عليه السلام.

Marfat.com

تالِ أباك فهل سليمان يرى ... في الدَّست مَهَّدَ مُلْكَه داودُ
جَلَّى وسُدْتَ مصلِّياً لا يُرفع الـ ... ـمَغْدُومُ ما لم يَشْفَعِ الموجودُ
لمْ يُخترم جدٌّ نماك ولا أَبٌ ... إن النَّباهةَ في الخليفِ خلودُ
شَمَخَتْ منارُك في اليَفَاع وأمَّها ... من لم يَسُدْ فَأَرَتْه كيفَ يسودُ
وهَبَبْتَ للإسلام وهو مُصَوِّحٌ ... فاهْتَزَّ أهضابٌ وَرَقَّ نجودُ
وفشأت جمرةَ صالميه بِصَيْلَم ... يَضَع الأجِنَّةَ يومُها المَشْهُودُ
خَطَمَتْهُمُ فوقَ الخطيمِ لوافحٌ ... نفس الأرين لوأرهنّ برودُ
ورُمُوا على الجَوْلان منك بِجَوْلةٍ ... توئيدها نسر الضَّلال وئيدُ
ولَحَا عِظَامَهُمُ بِعِرْقةَ عارقٌ ... ما زلتَ تمخض جوَّه فتجودُ
وشللْت بالرُّوج السُّروج وفوقَها ... زَزَعٌ لمحصده الرِّماحُ حَصِيْدُ(١)
وعلى عزاز عَنَوْا وثَلَّ عُروشَهُمْ ... ملكٌ مقيِّدُ مَنْ عَصَاه مقيدُ
وبِتَلِّ باشِرَ باشُروك فعافسوا ... أُهُبُ الأساود حَشْوهنّ أُسودُ
أوْدَوْا كما أوْدى بِعادٍ غَيُّها ... وعقوا كما اسْتَغْوَى الفَصِيْلَ ثَمُودُ
إنْ آلموا عقراً فإنك صالحٌ ... أو آلموا غَدْراً فإنَّك هُودُ
وزغْتَهُمْ فبكُل مَهْبِطِ تَلْعَةٍ ... خدٌّ به من وازعٍ أُخْدُودُ
وَعَصَبْتَهُمْ بعصائبٍ مِلْء الملا ... شَتَّى وإنْ خلَّ البسالة عُودُ
آثارها محمودةٌ وإثارها ... مَشْهُودَةٌ وَشِعَارُها محمودُ
لَبِستْ من اسمك في الكِريهة ملبساً ... يَبْلَى جديدُ الدَّهرِ وهو جديدُ
وقصيرة الآجال طَوَّلَ باعَها ... بوعٌ يسامي هامَها وقُدودُ
مطرورةُ الأسلاب مُذْ هَزَّعْتَها ... تاه الهُدَى وتبختَرَ التَّوحيدُ
أَشْرَعْتَها فعلى شريعةِ أحمدٍ ... مِما جَنَتْهُ بوارقٌ وعُقودُ
ولكم نَثَرْتَ نظيمها في مَوْقفٍ ... تغريد صالي حَرِّه التَّغريدُ
يجلو سناك ظلامَهُ ويحُلُّ ما ... عَقَدَتْ قناهُ لواؤك المعقودُ
في هبوةٍ زحم السماء رواقُها ... والأرض تَرْجُف تحتَهُ وتَميدُ
ضَرَبَتْ مُخَيِّمَها فكان كُمَاتُها ... أوتَادَهُ القُصوى وأنتَ عَمودُ
في كلِّ يومٍ من فتوحك صادحٌ ... هزِجُ الغِناء وطائرٌ غِرِّيدُ

(١) الروج: من كور حلب المشهورة.

Marfat.com

تـهـدي لـغـانـةِ كـأسِـهِ فَـرْغَـانـةٌ وتـسـيـغ زبـدة مـا شـداه زبـيـدُ
فـغِـرار سَيْفِك لـلأحـابشِ مـحـبسٌ ومُـثـار نَـقـعِـك لـلـصَّـعـيـد صَـعِـيـدُ
لا تَـغْـدَمَـنْ هـذا الـمـقـلَّـدَ أمـة مُـلـقًـى إلـيـه لـرعـيـهـا الإقـلـيـدُ
الْـوِرد قَـرٌّ والـمـسـارحُ رَحْـبَـةٌ والـرِّفْـد مـدٌّ والـظِّـلال مـديـدُ
والعيش أبلجُ مشرق القَسَماتِ والْـ أشْـجـار غـرٌّ والأصـائِـل غِـيْـدُ
والـمُـلْـكُ مـمـدودُ الـرِّواق مـنـوَّرُ الْـ آفـاق وضَّـاءُ الـمُـنَـى مـحـسـودُ
فـي دولـةٍ مُـذْ هَـبَّ نَـشْـرُ رَبِـيـعـهـا نُـشِـر الـرُّفـاتُ وأثـمـرَ الـجُـلْـمُـودُ
مـحـمـودَةُ الآثـارِ مـحـمـوديَّـة كـلُّ الـمـواسـمِ عـنـدَهـا تَـعـيـيـدُ

وقال يهنئه بليلة الميلاد، ويصف النَّازلين في الجبل من قلعة حلب قصيدةً منها: [المنسرح]

هُـنـيـت زورَيْ ذَرَاك صـومـك والْـ ـمـيـلاد جـاءا والـسَّـعْـدَ فـي نَـسَـقِ
فـذاك بَـخَّـلْـتَ فـيـه كـل نـدٍ وذاك أخـمـلـتَ فـيـه كُـلَّ تـقـي
وَجْـهٌ كـصَـدْرِ الـحُـسَـام تَـصْـبُـو لـه الْـ ـعَـيْـنُ ويـنـقـدُّ الـقـلـب مِـنْ فَـرَقِ
ومُـقْـلَـةٌ شَـوْقُـهـا لَـيَـقْـظَـتِـهـا شَـوْقٌ لـحُـسَّـادِهـا إلـى الأرَقِ
ومُـرْتَـقًـى تَـعْـجَـبُ الـسَّـمـاءُ لـه إذا اسـتـطـالـتْ إلـيـه: كـيـف رَقـي؟
تَـوَّجْـتَ شـهـبـاءَهـا بـمُـشْـرقـةٍ مُـشْـرِفـةٍ شُـهْـبُـهـا عـلـى الأُفُـقِ
جـوٌّ تـهـادى مـنـه كـواكـبُـه طَـرْفـةَ طَـرْفٍ رُجـومَ مُـسْـتَـرِقِ
فـوارسٌ تُـذْهِـلُ الـفـوارسَ أن تـهـافـتـت مـن أرشـاقـهـا الـرشـق
مـن راكـضٍ فـي الـهـواء أهـوى مـن الْـ ـفـتـح مـجـرّ مـن تـحـتـه لـبـق
شـاوٍ مـن الـحـضـر لـو تـحـاولَـهُ الْـ ـخُـضـر لـزلَّـتْ عـن مـوطـئٍ زَلَـقِ
يـقـول مَـن دينـه الـفـروسـة: مـا لاقـك إلا ضَـرْبٌ مـن الألَـقِ
بَـدائـعٌ تَـغْـبِـطُ الـسَّـمـاءُ بـهـا الْـ أرْضَ وتُـذكـي الإشـفـاق فـي الـشَّـفِـق
فـي دولـةٍ جَـمَّـعَـتْ إيـالـتـهـا مـن بـدَّدَ الـحُـسْـنَ كـل مُـفْـتـرقِ
تُـزَرُّ أطـواقُـهـا عـلـى مـلِـكٍ مـكـتـفـلٍ رِزْقَ كُـلِّ مُـرْتَـزِقِ
مـحـمـودٌ اسـمـاً ومِـيـسـمـاً ونـدًى واعـتـصـب الـذَّمَّ كـل مـرْتَـفِـقِ
طَـبَّـقَ طـوفـانُـه فـلـسـتَ تـرى إلّا مـغـيـثـاً مـشـفٍ عـلـى غَـرَقِ
يـا بـحـرُ لَا خُـلْـق تـدَّعـي شَـبَـهـاً فـاتَ الـمـدى مـا حَـويـتَ مـن خُـلُـقِ
مـلـكـك هـذا الـذي تـمـلَّأه صِـبَـاه يـجـري والـدَّهـرُ فـي طَـلَـقِ

Marfat.com

[فتح نور الدين حصن أنطرسوس ويحمور]
ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرَّم بنزول نور الدين على حِصْن أَنْطَرْسُوس في عسكره، وافتتاحه وقتل من كان فيه من الإفرنج، وطلب الباقون الأمانَ على النُّفوس، فأُجيبوا إلى ذلك، ورتَّب فيه الحَفَظَة، وعاد عنه، وملَك عِدَّةً من الحُصُون بالسَّبْي والسَّيف والإخراب والإحراق والأمان[1].

قال: وورد أيضاً ظَفَرُ رجال عَسْقلان بالإفرنج المجاورين لهم بغَزَّة، بحيث هلك منهم العددُ الكثير، وانهزمَ الباقون.

قلتُ: وقرأت في ديوان ابنِ منير يمدح نور الدين ويهنِّئهُ بفتح أَنْطَرْسُوس ويحمور وعوده عنهما قصيدةً، منها: [الكامل]

أبداً تُباشِرُ وَجْهَ غَزْوِك ضاحكاً ... وتؤوبُ منه مُؤَيَّداً منصورا
تُدْني لك الأملَ البعيدَ سَوَاهِمٌ ... مُحِقَتْ أَهِلَّتُها وَكُنَّ بُدُورا
مثل السِّهام لو ابتغى ذو أربعٍ ... في الجوِّ مُطَّلَباً لكُنَّ طيورا
نَبَذَتْ علائقها بحمصَ وأعلقتْ ... سِخْراً بمعرق عرقه الأُظْفورا
وعَدوْن صافيثاء لاح شوارها ... قد أتْلَعَتْ عُنقاً إليكَ مُشِيرا
القَلْبُ أنتَ فإن تعامى عن هُدًى ... عُضْوٌ أَهَابَ بِه فعاد بَصِيرا
عَرَفُوا مكانَكَ والظَّهيرة بينهم ... يَفْرِي بياضُ أديمها دَيْجُورا
أين الذُّبالُ من الغَزَالةِ أَشْرَقَتْ ... وجهاً وطبَّقَتِ البسيطةَ نُورا
غضبانُ أَقْسَمَ لا يَشيم حُسامه ... والأرضُ تحمل في الكُفور كَفُورا
غَسَلَ العواصِمَ أمسِ من أدرانهم ... واليوم رَدَّ به السَّواحل بُورا
لم يُبْقِ بين الحَوْلتَين وآمِدٍ ... وتراً لِمُضْطغنٍ وَلَا مَوْتُورا
أخلَى ديارَ الشِّرْكِ من أوثانها ... حتى غدا ثالوثُهن نَكِيْرا
رَفَعَ القُصورَ على نَضَائِدِ هامِهِم ... من بَعد ما جَعَلَ القُصورَ قُبورا
بشواجِبِ الألْياط تقطو في الظَّلا ... مِ قطاً وتهوي في الصَّباح نُسُورا
غادَرْتَ أَنْطَرْسُوس كالطِّرْسِ امَّحى ... رَسْماً وحمَّر دِرْعُها يحمورا
وهي الزِّناد لفتنةٍ كانت على الـ ... إسلامِ أحكم كسرةٍ إكسيرا

(١) انظر «الكامل ٩/ ٣٧٥، وفيه: الحرب بين نور الدين محمود، وبين الفرنج.

Marfat.com

هَتَمَتْ طرابلساً فأصبح ثَغْرُها الْـ ـبَسَّامُ من عِزِّ الثُّغور ثَغِيرا
إقليدُها كانتْ وقد أنطَيْتَه واسأل به مِمَّنْ دهَتْه خَبيرا[1]
إن الأُلى أمِنوا وقاعك بعدَها غُرُّوا وقد ركبوا الأغَرَّ غُرورا
ألقِ العصا فيمن أطاع وَمَنْ عصى منهم ودمر أَرْضَهُمْ تَدْمِيرا
لا يُلهِهِم أنْ قد مَنَنْتَ وشُنَّها شعواء تُصْلي الكافرينَ سَعِيرا
باكِرْ بركز قناً تُنَسِّفُ أُسَّها والخيلَ صَوِّرْ كي تُزيرك صُورا
وتُريك لامعةَ التَّريك بساحةِ الْـ أقصى مُطهَّرةً لها تَطْهيرا[2]
أوَلَسْتَ من قومٍ إذا هزُّوا القَنَا فتلوا معاصمهم لها تَسْويرا
وإذا هُم خَطَبوا اليَرَاع عزيزةً ساقوا الشِّفار على المهار مهورا
ألقى قسيماهم إليك أزِمَّةَ الْـ ـمُلك المطل على السُّها تأثيرا
ضَحِكَتْ لك الأيامُ واكتأب العِدَى قلقاً فجئتَ مُبَشِّراً ونَذِيرا
لا مُلك إلا ملكُ محمود الذي تَخِذَ الكِتابَ مُظاهِراً ووزيرا
تمشي وراءَ حُدُودِه أحكامُه تأتمُّهنَّ فَيُحْكِمُ التَّقْديرا
يَقْظَانُ يَنْشُر عَدْلَه في دولةٍ جاءت لِمَطْوِيِّ السَّماح نُشورا
خَلَفَ الخلائفَ قائماً عنهم بما عَيُوا به ألْوى ألدَّ غَيُورا
البرَّ والمعصومَ والمهديَّ والْـ ـمأمونَ والسَّفَّاحَ والمنصورا
نُشِروا به فعهودُهُمْ وعهادهم يَمْتَخِنَ تحتَ لوائِهِ مَنْشُورا

وأنشده بحلب في هذه السَّنة قصيدةً، أوَّلُها: [الكامل]

المجدُ ما ادَّرَعَتْ ثَرَاك هضابُه وَتَثَقَّفَتْكَ شعوبُه وشِعَابُهُ
مَلِكٌ تكنَّفَ دين أحمد كِنَّه فأضاءَ نيِّرَهُ وصابَ شهابُه
فالعَدْلُ حيثُ تصرَّفَتْ أحكامُه والأمنُ حيثُ تَصَرَّمَتْ أَسْرَابُهُ
متهلِّلٌ والموتُ في نَبَرَاتِهِ يُرْجَى ويُرْهَبُ خوفُه وعقابُه
عَقَدَ اللِّواءَ وسار يَقدُمُهُ وما حلَّتْ عقودَ تَميمِها أترابُهُ
أسدٌ فرائِسُهُ الفوارِس والظُّبَى أظفارُهُ والسُّمْهَرِيَّةُ غابُهُ
طَبَعَ الحديدَ فكانَ منه جَنَانُه وسِنَانُه وإهابُه وثِيَابُهُ

(١) أنطيته: أعطيته، وأنطى: لغة في أعطى.
(٢) التريك: بيضة الحديد للرأس.

Marfat.com

ويَهَشُّ إنْ كَبَتِ الوجوهَ كأنَّما ... أعداؤه تحتَ الوغى أحْبَابُهُ
نُشِرَتْ بمحمودٍ شريعةُ أحمدٍ ... وأرى الصَّحابةَ ما احتذاه صِحَابُهُ
ما غاب أصْلَعُ هاشم فيها ولا الـ ... ـفاروقُ باء بخطبه خَطَّابُهُ(١)
أبناءُ قَيلة قائمون بِنَصْرِه ... إنْ أجلبت من قاسطٍ أحزابُهُ
صَبَحوا مُحلَّقة البِرِنْس بحالقٍ ... حرش الضباب من القلوب ضبابُهُ
ما زالَ يَغْلِبُ من بَغَاه ضلالُهُ ... حتى أُتيح من الهُدَى غلَّابُهُ
مُلْقَى بوحش الأصرمين تَزيَّلَتْ ... آرابُهُ وتزايلَتْ آلابُه
دون الأُرنط سخت به نجداتُه ... ونجاده وقِرابه وقُرابُهُ(٢)
سَلَبَتْهُ دُرَّةَ تاجه يَدُ ضَيْغَم ... لم تنْجه من بَأْسِهِ أسلابُهُ
وأتته تجلب جُوسلين جنائبٌ ... هَبَّتْ فَقَلَّ إلى القِتال هبابه
أَسَرَتْهُ لا مَنَعَتْ سُرَاه وغرَّه ... بالقاعِ إنْ رامَ الورودَ سَرَابُهُ
يمشي فَتُسْمِعُهُ قعاقعُ قَيْدِه ... هَزَجاً تقيءُ دماً له أندابُهُ
لا تلّ باشِرِه ولا كيسونه ... صَدَّتْ منّى عنه ولا عنتابُه(٣)
ضَمِنَتْ شقاوته سعادةُ صافح ... غَطَّى على إعناته إعتابه
ما زال يَغْدِرُ ثم يغدر قادراً ... حتّى أتاه بجامحٍ أصحابُهُ
قَصْرُ الأماني أن يُمَلِّىء عصرك الـ ... إسلامُ مضروباً عليه حِجَابُه
مَجْرٌ يجرُّ إلى الغنائم قُبَّهُ ... وحمًى يُزَارُ على الفتوحِ قِبَابُه

وأنشده بحلب أيضاً في شوال من هذه السنة قصيدةً، منها: [الوافر]

لقد أوطأتَ دينَ الله عِزًّا ... أديمُ الشِّعريَيْنِ له رَغَامُ
دعاك وقد تناوَشَتِ الرَّزايا ... له أُهباً يوزعها العُذَامُ
فَقُمْتَ بنصره والنَّاسُ فوضى ... قيام ذمَّ ما اقترفت فئامُ
جَذَبْتَ بضبعه من قَعْر يَمٍّ ... له من فوق مَقْسَمِهِ التِطَامُ
صببتَ على الصَّليب صليبَ بأسٍ ... قواه تحت كَلْكَلِهِ حُطَامُ
وَمِلْتَ على معاقِلهم فَخَرَّت ... وِلاءً مِثْلَ ما انتقضَ النِّظَامُ

(١) أصلع هاشم: هو الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد ورد في صفته أنه أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه. والفاروق هو الخليفة الثالث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) الأرنط: هو نهر العاصي.
(٣) كيسونه: كذا بالأصل، ولعلها: كيسومه. نسبة إلى كيسوم.

Marfat.com

بِصَرْخَد والخَطيم وفي عَزَاز وقائِع هَزَّ مَشْهَدَها الأنامُ
ولو لم تَغْتَرِقْ وتشم لأمسى وأصبح لا عِرَاق ولا شآمُ
ويوم بالعُرَيْمة كان حَتْفاً على الإشراك أمْقَرَهُ العُرَامُ
لقُوك كأنَّ ما سلُّوه شيخٌ وما اعتقلوه من خَوَرٍ ثُمامُ
وهابَ وقُورُس وبكَفْرلاثا ذممتَ وأنتَ للجُلَّى ذِمامُ
صَدَمْتَهُمُ بأرعنَ مُرجِحِنّ كأنّ مَطَارَ أنْسُره غَمَامُ
وأيَّةُ لَيْلَةٍ لم تُلْفَ فيها لهم طَيْفاً يَروعُ به مَنَامُ
بنورِ الدين أُنشر كلُّ عَدْلٍ تعفَّتْ في الثَّرَى منه الرِّمامُ
وعاد الحقُّ بعد كلال حَدٍّ حمًى من أن تُراعَ له سَوام
تألَّقَ عَدْلُه وذَكَتْ سُطَاه فَلَا حَيْفٌ يُخَافُ ولا اهْتِضَامُ
بقاؤك خيرُ ما يرجوه راجٍ وأنْفَعُ ما يُبَلُّ به أُوام

فصل

وفي هذه السَّنة ولد لنور الدين بحمص ابنٌ سماه أحمد، وهنَّأه به ابن مُنير في بعض قصائده، ثم توفِّي بدمشق، وقبره خَلْفَ قبر معاوية رضي الله عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصَّغير. وقصيدة ابن منير قد تقدَّم بعضُها في أوَّل الكتاب، ومنها في ذكر المولود: [المتقارب]

توالتِ الأعيادُ لا زلْتَ لها تُبلي ديابيج البقاء وتُجِذْ[1]
الفِطْرُ والميلادُ والمولود لو قابلَه بَدْرُ التَّمام لَسَجَدْ
ثلاثةٌ تُغرِبُ عن ثلاثةٍ لمثلها يذكر حمداً من حَمِدْ
فَتْحٌ مبينٌ وطلابٌ مُدْرك ودولة ما تنتهي إلى أَمَدْ

وله من أخرى: [الوافر]

وجئتَ بأحمدٍ فملأتَ حَمْداً موارِدَ كان معدنُها عِذَابا
تهلَّل وَجْهُ مُلْكِكَ يَوْمَ أَهْدَتْ قَوَابِلُه لكَ المَلِكَ اللُّبابا
شَبِيْهُكَ لا يُغادرُ منك شيئاً سَناً وحَياً وبَذْلاً واستلابا

(١) ديابيج: جمع ديباج، وتجمع على دبابيج أيضاً، والديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير. ودبج الشيء دبْجاً: نقشه وزيّنه.

Marfat.com

قسيمُ الحَمْدِ إلا أن حَرْفاً من اسمِكَ زادَ للمعنى منابا
ألَا لله يومٌ فُرَّ عنه ورَكْبٌ نَصَّ بالبُشْرى الرِّكابا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجَّه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بُصْرى، ونزل عليه محاصراً لِسُرْخاك واليه لمخالفته وجَوْرِه، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صَرْخَد لمشاهدته، فاستأذن مجاهدَ الدين واليه في ذلك، فقال له: هذا المكان بحكمك، وأنا فيه والٍ من قِبَلِك. وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النَّائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه، وتلقِّي مجير الدين بما يجب له. فخرج إليه في أصحابه ومعه المفاتيح، وأخلى الحِصْنَ من الرِّجال، ودخل إليه في خواصِّه، وسُرَّ بذلك، وتعجَّب من فعل مجاهد الدين، وشكَرهُ على ذلك، وعاد إلى مُخيَّمه على بُصرى وحاربها عِدَّة أيام إلى أن استقرَّ الصُّلْح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق.

[وفاة الأمير سعد الدولة]

قال: وفي شوَّال تُوفي الأمير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الملحي، ودفن في مقابر الكهف، وكان فيه أدبٌ وافر وكتابة حسنةٌ ونَظْم جيد. وتقدَّم والده في حلب في التدبير والسِّياسة وعَرْض الأجناد.

[وفاة السلطان مسعود بن محمد
وولاية السلطان محمد بن محمود]

قال ابن الأثير[1]: وفيها توفي السُّلْطان مسعود بن محمد بن مَلِكْشاه بهمَذَان، وعهد إلى ابن أخيه مَلِكْشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل. وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاصبك بن بلنكري[2]، فقام بأمر ملكشاه، ولم يمهله غير قليل حتى قبضَ عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود[3]، وهو بخُوزستان، يستدعيه إليه ليخطب له بالسَّلْطنة، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً فيخلو وجهه من منازع من السَّلْجُوقية، وحينئذٍ يطلب السَّلْطنة لنفسه. فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده، وسار إليه وهو بهَمَذان، واجتمع به، وخدمه خاصّبك خدمةً عظيمة، فلما

(١) انظر: «الكامل» ٩/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٣.
(٢) انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.
(٣) توفي سنة ٥٥٤هـ. وهو الذي حاصر بغداد طالباً السلطة وعاد عنها، فأصابه سلّ، فمات بباب همدان. انظر «الكامل» ٩/ ٤٣٤.

Marfat.com

كان الغد دخل عليه خاصبك فقتله محمد، وألقى رأسه إلى أصحابه، فتفرّقوا، واستقرّ محمد وثبتت قدمه، واستولى على بلاد الجبل جميعها. وكان قتل خاصبك سنة ثمانٍ وأربعين، وبقي مطروحاً حتى أكلته الكلاب. وكان ابتداء أمره أنّه كان من بعض أولاد التّركمان، فخدم السُّلْطان، فمال إليه وقدّمه حتى فاق سائر الأمراء، واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشّاغلة للسُّلْطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من اتّباعه لما كان يُقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الوزير يحيى بن هُبيرة[1] في كتاب «الإفصاح»[2] أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحابُ مسعود وأساؤوا الأدب، ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة، اتّفق الرّأي على الدُّعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول الله ﷺ على رِعْل وذَكْوان شهراً[3]. فابتدأ هو والخليفة سِرًّا، كلُّ واحد في موضعه يدعو سَحَراً، من ليلة تسع وعشرين من جُمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة، واستمرَّ الأمر على ذلك كلَّ ليلةٍ، فلمّا كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة، كان موت مسعود على سريره، لم يَزِدْ عن الشهر يوماً ولا نقص يوماً. ووصل القُصّادُ بذلك من هَمَذان إلى بغداد في ستة أيام، فأزال الله يده ويد أتباعه عن

---

(١) يحيى بن هبيرة: هو عون الدين أبو المظفر الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سعد الشيباني الفقيه الحنبلي، من وزراء المقتفي لأمر الله العباسي، وبعد، للمستنجد، أصله من قرية بني أوقر من أعمال دجيل، ولد سنة ٤٩٧هـ، وتوفي سنة ٥٦٠هـ، ببغداد، له من التصانيف: «اختلاف العلماء»، «أرجوزة في الخط»، «الإشراف على مذاهب الأشراف»، «الإفصاح عن شرح معاني الصحاح» وهو يشتمل على تسعة عشر كتاباً، «الإيضاح على معاني الصحاح»، وهو شرح الجمع بين الصحيحين لأبي نصر الحميدي، «تهذيب إصلاح المنطق لابن السكيت»، «الطامس والفالس» في علم السيمياء، «كتاب الإجماع والاختلاف»، «كتاب العبادات»، «كتاب المقتصد»، «كتاب المقصور والممدود». وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٥٢١. «الكامل» ٩/ ٤٨٠).

(٢) هو كتاب «الإفصاح عن شرح معاني الصحاح»، انظر الحاشية السابقة.

(٣) عن أنس بن مالك، قال: دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة، ثلاثين صباحاً، يدعو على رعل وذكوان ولحيان وعصية عصت الله ورسوله. وقد روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في المناقب باب ٦، والمغازي باب ٢٨، ومسلم في المساجد حديث ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٠٨، وفضائل الصحابة حديث ١٨٦، ١٨٧، والترمذي في المناقب باب ٧٣، والنسائي في التطبيق باب ٢٦، والدارمي في السير باب ٧٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٠، ٥٠، ٦٠، ١١٦، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ٣/ ١١٦، ٢١٠، ٢١٥، ٢١٦، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٧٨، ٢٨٩، ٤/ ٥٧، ٣٨٧.

Marfat.com

العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم، فتبارك الله رب العالمين، مجيب دعوة الدَّاعين. قال: وكان الشَّيخُ محمد بن يحيى[١] يقول: لا أدلّ على وجود موجود أعظم من أنْ يُدْعى فيجيب.

[سقوط عسقلان بيد الفرنج]
ثم دخلت سنةُ ثمانٍ وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج، خذلهم الله تعالى، عَسْقَلان[٢]، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله سنة ثلاث وثمانين كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قال الرئيس أبو يعلى التَّميمي: وتواصلت الأخبارُ من ناحية نور الدين بقوَّة عزمه على جمع العساكر والتُركمان، من سائر الأعمال والبلدان، للغزو في أحزاب الشِّرْك والطغيان، ولِنُصرة أهل عَسْقلان على الإفرنج النَّازلين عليها، وقد ضايقوها بالزَّحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير. واقْتَضت الحال تَوَجُّه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضُدِ على الجهاد في ثالث عشر محرَّم، واجتمع معه في ناحية الشمال، وقد ملك نور الدين الحِصْنَ المعروف بإفليس بالسَّيف، وهو في غاية المَنَعة والحصانة، وقتل من كان فيه من الإفرنج والأرمن، وحصل للعسكر من المال والسَّبْي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حُماته، وتسهَّلَتْ أسباب ملكته. وقد تواصلت استغاثةُ أهل عَسْقلان واستنصارهم بنور الدين، فقضى الله تعالى بالخُلْف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل، فأجفلوا عنها من غير طارقٍ من الإفرنج طرقهم، ولا عسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج، وعزموا على مُعاودة النُّزول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سببٍ ولا موجب، وتفرَّقوا، وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها

---

(١) هو محمد بن يحيى بن علي بن عمران القرشي الزبيدي، أبو عبد الله اليمني الحنفي، نزيل بغداد، المتوفى سنة ٥٥٥هـ. كان إماماً عابداً قدوة، وهو من شيوخ ابن هبيرة، قال علي القاري في طبقات الحنفية: له قريب من مائة مصنف منها: «تعليل من قرأ ﴿ونحن عصبة﴾ بالنصب»، «الرد على ابن الخشاب»، «كتاب الحساب»، «كتاب العروض»، «كتاب القوافي»، «مقدمة في النحو»، «منار الاقتضاء ومنهاج الاقتفاء»، في النحو. (كشف الظنون ٦/ ٩٣. المنتظم لابن الجوزي ١٠/ ١٩٧ ـ ١٩٨، وفيه ولد سنة ٤٨٠هـ. وفيات الأعيان ٦/ ٢٤٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣١٦ ـ ٣١٩).

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٩١ ـ ٣٩٢.

Marfat.com

سالماً في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأوّل، وعاد نور الدين إلى حِمْص، ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عَسْقلان، فقويت نفوسُ من بها بالمال والرِّجال والغِلال، وظفروا بعُدَّة وافرة من مراكب الفرنج في البحر، وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها، والزَّحف بالبرج إليها. واستمرَّ ذلك إلى أن تيسَّرت لهم أسبابُ الهجوم عليها من بعض جوانب سورها، فهدموه، وهجموا البلد، وقتل من الفريقين الخلق الكثير، وألجأت الضَّرورة والغَلَبة إلى طلب الأمان، فأُجيبوا إليه، وخرج من أمكنهُ الخروج في البر والبحر إلى ناحية مِصْر وغيرها. وقيل إن في هذا الثغر المفتتح من العُدَد الحربية والأموال والميرة والغلال ما لا يُحصر فيذكر. ولمَّا شاع هذا الخبرُ في الأقطار ساء سماعُه، وضاقت الصُّدور، وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله، فسبحان من لا يُرَدُّ نافذ قضائه، ولا يُدفع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه.

فصل

[نزاع بين ابن الصوفي وأخويه وقتل الوزير حيدرة]

قال: وعرض بين الرَّئيس ابن الصُّوفي وبين أخويه عزّ الدولة وزين الدين مشاحنات ومشاجرات، اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجيرُ الدين إلى الرئيس يستدعيه للإصلاح بينهم في القلعة، فامتنع من ذلك، وجلس في داره، وهَمَّ بالتحصُّن عنه بأحدَاث البلد والغوغاء، وآلت الحالُ إلى تمكُّن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرَّر بينهما إخراج الرئيس من البلد وجماعة إلى حصن صَرْخَد مع مجاهد الدين بُزان وإليه بعد أن قرَّر له بقاء داره وبُسْتانه وما يخصُّه ويخصُّ أصحابه. وتقلَّد أخوه زين الدولة مكانه، وأمر ونهى، ونفَّذ الأشغال على عادته في العجز والتَّقصير، وسوء الأفعال، والتماس الرشا على أقل الأعمال. ورأى مجير الدين عقيب ذلك التَّوصُّل إلى بَعْلَبَكَّ لتطييب نفس واليها عطاء الخادم، واستصحابه معه إلى دمشق لينوبَ عنه في تدبير الأُمور؛ وعاد وهو معه. واستشعر مجاهد الدين بُزَان أن نيَّة مجير الدين قد تغيَّرت فيه، فاستوحشَ من عَوْده إلى البلد بغير يمين يحلف له بها على أمانِه في نفسه، فوعد

Marfat.com

بالإجابة، فعاد إلى داره بدمشق. ثم هَجَسَ في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم، فدعاه ذلك إلى الخروج من البلد سرًّا طالباً صَرْخَد، فحين عَرَف خبره أنهضَ في طلبه وقُصَّ أثره، فأدرك وقد قَرُبَ من صَرْخَد، فقبض عليه، وأُعيد إلى القلعة بدمشق، واعتُقل بها اعتقالاً جميلاً.

ثم تجدَّد من الرَّئيس الوزير حيدرة[1] المقدَّم ذكره أشياء ظهرت عنه، مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيّب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة عن القضاء النَّازل به، لسوء أفعاله، وقبح ظلمه، وخُبْثه. ثم عَدَلَ به الجانْدَارِية إلى الحمَّام بالقلعة مستهلّ ذي القَعْدة، وضُربت عنقُه صبراً، وأخرج رأسُه، ونُصب على حافَةِ الخندق، ثم طيف به، والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه، وتفنُّنه في الفساد، ومقاسمة اللُّصوص وقُطَّاع الطريق على أموال الناس المستباحة، بتقريره وتدبيره وحمايته، وكثر السُّرور بمصرعه، وابتُهج به. ثم زحفت العامَّة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازله وخزائنه، ومخازن غَلَّاته، وأثاثه وذخائره، فانتهبوا منها ما لا يُحصى، وغلبوا أعوان السُّلْطان وجنده عليها بالكثرة، فلمْ يحصل للسلطان من ذلك إلا النَّزْر اليسير. ورُدَّ أمر الرِّياسة والنَّظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التَّميمي في اليوم المقدَّم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله، وسكنت الدَّهْماء، وبولغ في إخراب منازل الظَّالم ونَقْل أخشابها.

قال: وكان عطاء الخادم قد استبدَّ بتدبير الأمور، ومدَّ يده في الظُّلم، وأطلق لسانه بالهُجْر[2]، وأفرط في الاحتجاب، وقصَّر في قضاء الأشغال، فتقدَّم مجير الدين باعتقاله وتقييده، والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبكَّ وما فيها من مالٍ وغلال، ثم ضربت عنقه، ونهبت العوام والغوغاءُ بيوتَ أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السَّلَّار، الذي كانت رتبتُه قد عَلَتْ، ومنزلته في الوزارة قد تمكَّنت، كان لزوجته ولدٌ يُعرف بالأمير عبَّاس[3]

---

(١) الوزير حيدرة: هو زين الدولة نفسه.

(٢) الهجر: القبيح من الكلام.

(٣) هو عباس بن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي، وكان عباس قد قدم مصر من المغرب مع أبيه وأمه سنة ٥٠٩هـ، ونزلوا بالإسكندرية، فلما توفي أبوه، تزوج والي الإسكندرية وقتئذٍ العادل بن السلار أمه. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٣٨٩. ووفيات الأعيان ٣/ ٤١٨.

Marfat.com

قد قدَّمه، واعتمد عليه في الأعمال، ولعبَّاس هذا ولدٌ[١] قدَّمه الوزير، وأنعم عليه، وأذِنَ له في الدُّخول بغير إذن إليه فدخل عليه وهو نائم في فرشته، فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هو أبو الحسن علي بن السَّلار[٢] وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشَّافعية بالإسكندرية للحافظ أبي طاهر السِّلَفي[٣]، رحمه الله. وكان قتله في سادس المحرَّم بمواطأةٍ من الخليفة الملقب بالظَّافر ابن الحافظ[٤].

قال: وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البَلْخي[٥] رئيس الحنفية، ودُفن في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشُّهداء. وكان من التفقُّه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع والدين، والعفاف والتَّصوُّن، وحفظ ناموس العالم، والتَّواضع، والتودُّدِ إلى الناس على طريقةٍ مرضية، وسجيَّة محمودة.

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسين أحمد بن مُنير الشاعر[٦] في جمادى الآخرة. ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشَّاعر أبو عبد الله محمد بن نَصْر بن صغير القَيْسراني[٧] من حلب، باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام، في الثاني والعشرين من شعبان.

---

(١) هو نصر بن عباس. «الكامل» ٩/ ٣٨٩.

(٢) كان والده السلار في طائفة عسكر سقمان بن أرتق صاحب القدس، ضمه الأفضل أمير الجيوش إليه بعد استيلائه على القدس سنة ٤٨٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٧٢ ـ ٧٤. ووفيات الأعيان ٣/ ٤١٨.

(٣) أبو طاهر السلفي: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة السلفي الحافظ، أبو طاهر، صدر الدين الأصبهاني الشافعي، ولد سنة ٤٧٨، وتوفي سنة ٥٧٦هـ، من تصانيفه: «أربعين البلدانية» في الحديث، «سداسيات» في الحديث، «سلفيات من أجزاء الحديث»، «سلماسيات» أمالي يعرف بالمجالس الخمسة، «شرط القراءة على الشيوخ»، «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة»، «معجم السفر»، «المعجم لمشيخة أصبهان»، «المعجم لمشيخة بغداد» (كشف الظنون ٥/ ٨٧).

(٤) هو الظافر بالله أبو المنصور إسماعيل ابن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي، قتل في المحرم سنة ٥٤٩هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٥) هو أبو الحسن علي بن الحسن بن محمد البلخي، له ترجمة في مرآة الزمان ٨/ ١٣٤ ـ ١٣٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧٦.

(٦) تقدمت ترجمته.

(٧) تقدمت ترجمته.

Marfat.com

قلت: هما شاعرا الشَّام في وقتهما، وقد شبَّههُما العمادُ الكاتب في كتاب «الخريدة» بالفَرَزْدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه الله قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرضٍ سنذكره.

ومما قاله ابن منير من قصيدةٍ له: [الوافر]

أيا سيفاً أعزَّ الدين منه الـ ـغِرارُ العَضْبُ والنَّوْم الغِرارُ
مَلأتَ جوانحَ الأقطارِ رَجْفاً كأنَّ الأرضَ خامَرَها دُوارُ
علاك حُلَى على الدُّنيا فتاجٌ بِمَفْرقها وفي يدها سِوارُ
أضاءَتْ شمسُ عَدْلك في دُجاها فكلُّ زمانِ ساكنِها نَهارُ
تُحرِّق مَنْ عَصَاك وأنتَ ماءٌ وتُغرق مَنْ رَجاك وأنتَ نارُ
ألَا للّهِ وجهك والمنايا مكلَّحة وللبيض افْتِرَارُ
هتكْتَ حِجابَهُ والنَّصْرُ غَيْبٌ وللهبوات طَيٌّ وانتشارُ
بِطَعْنٍ للقُلُوبِ به انتظامٌ وضَرْبٍ للرُّؤوس به انْتِثَارُ
تبادره كأنَّ الموتَ غُنْمٌ وما من عادةِ البَدْرِ البِدَارُ
أَنَخْتَ على الصَّليبِ مطاً صليباً به من صَكِّ مبركه هدارُ
بمشرفةِ المَنَاكب مقرباتٍ لهنَّ بمتن كلِّ وغًى حِصَارُ
جبين بإنَّب أنبَ العَنَاصي وإضْنَ وللقَنَا منها ثِمارُ[1]
وفي هابٍ أَهَبْتَ بها فجاءت كما أجلى من الكشم الصِّوَارُ[2]
وكم في فَجِّ حَارِمَ من حريم عَفَتْهُ فلا جدير ولا جِدَارُ
وأنطاكيَّةُ اسْتَنَّتْ إليها فأَجْفَلَ خَيْطُها وله عِرَارُ[3]
وصَبَّحَ في عَزَاز بها عزازٌ فأمسى وهو وَغْثٌ أو خَبَارُ[4]
يَشُقُّ بها دُجى الغَمَراتِ عَسْفاً جَوَادٌ لا يُشَقُّ له غُبارُ

وله من أخرى: [الوافر]

وما يومُ الفرنجة مِنْكَ فَذٌّ فتحصر عدَّهُ خططُ الحسابِ

---

(١) إنّب الأولى: موضع. وأنْب: فاكهة هندية. والعناصي: جمع عنصوة: القليل المتفرق من النبت.
(٢) الكشم: اسم للفهد. والصِّوار: القطيع من البقر.
(٣) العرار: صوت ذكر النعام.
(٤) الخبار: ما استرخى من الأرض وتحفر.

أجاشَ الأربعاءَ لهم خميساً ... بعيدَ الغَوْرِ مُلْتَطِمِ العُبابِ
وأحكم بالخطيم لهم خطاماً ... أمَرَّ بريمُهُ مُرَّ الضِّرابِ
مَشَوْا متساندينَ إلى صَلِيْبٍ ... تبرقع هبوة الصُّمُ الصُّلابِ
تَلُفُّهمُ المنايا في الثَّنايا ... وتفجُؤهم شَعوبُ من الشعاب(١)
أطاشَتْ سَهْمَ كَبْشِهُمُ هَنَاةٌ ... فكنتَ ذُبابَ طائشةِ الذّباب(٢)
حللتَ التّاجَ عنه وحَلَّ تاجاً ... مكانَ العِقْدِ من عقد الكَعابِ
أنافَ على العِقاب فكان أشهى ... وأبهى منه في ظلِّ العُقابِ
فأشْرَفَ وهو عن شَرَفٍ معوقٌ ... وأصعد وهي غايةُ الانصبابِ
تكاشِره الشَّوامِتُ وهو مُغْضٍ ... ثَنَاه مَنَاه عن رَجْعِ الجوابِ
بعيداً من قراعٍ وافتراعٍ ... يؤوبُ له إلى يومِ المآبِ
وكم سوطٍ بخيلك أقبلوه الـ ... ـصُّدور فكان سوطاً من عذابِ
تَرَكْتَهُمُ بأرضِ الشّام شاماً ... لِظُفْرٍ تتَّقيه أو لِنَابِ
هَتَكْتَ حِجابَه والشَّمْسُ وَسْنَى ... بشمسٍ لا تُوارى بالحجابِ
بأبيض من حَبِيك الهند صافٍ ... مَصُون المتن مبتذل الذّبابِ
له سمةُ الشُّيوخ صفاءَ شيب ... وفي خَطَراته نَزَقُ الشَّبابِ
ألا يا ناظِرَ الدُّنيا بعينٍ ... أرته علانَها خُدَعَ السَّرابِ
تَبَطَّنَها فطلّقَها ثلاثاً ... على عزِّ التملُّق والخلابِ
فلا يأوي إلى رأي شَعاعٍ ... ولا يثني إلى أملٍ خَرَابِ
تَرَفَّعَ عن مجاوزة الأماني ... وحلَّقَ عن محاضَرة التَّصابي
صلاةُ الله كلِّ ذُرورِ شمسٍ ... على مَثْوَى أبيك من التُّرابِ
فقد أَلْقَى إلى الإسلام عَضْباً ... يطبِّق في النَّوائب غير نابي
تجيشُ له رَوَاسٍ كالرَّواسي ... تُمَدُّ لها جِفانٌ كالجوابي

وله من أخرى: [البسيط]

مُظَفَّرُ العَزْمِ ممدودُ الرِّواق على ... معالم الدِّين يرفيها ويبنيها
رَدَّ الكنائس كُنْساً للهُدى فخَبت ... نارُ الضَّلال ووارَتْها أثافيها

(١) الشعوب، بالفتح: المنية.
(٢) الذباب: حد السيف.

Marfat.com

وأَوْرَدَ العلم عَدًّا من إيالته فاستَنَّ وافتنَّ عبًّا في صَوَافيها
وبَثَّ للشِّرْكِ أشراكاً فما دَرَجَتْ طريدةٌ منه إلا اسْتَوْهَقَتْ فيها
يا بَدْرُ مُذْ أَشْرَقَتْ في الدَّسْتِ غُرَّتُه غِيثَ الرَّعيةُ واخْضَلَّتْ مَرَاعيها
أقامَ أحمدُ من محمودِها عَلَماً به استقامَ على البيضاء ساريها
محيي شريعتِهِ من بعدِ ما انْهَدَمَتْ واسْتَعْجَمَتْ بعد إفصاح معانيها
شابَتْ مواهبه فيها مَهَابَتُه حتى استقرَّت على سَمْتٍ سَوَاريها

وله من أخرى: [الكامل]

عَزَّتْ سيوفُك فالعِراقُ عِراقُها والشَّام غير مدافعاتٍ شامُهَا
إن أُغمدت حَلَّ العزائِمَ حلُّها أو جُرِّدَتْ حَرَم الكَرَى إحرامُها
شَجِيَتْ عِدَاك بها فلا إشراقُها بمفازةٍ منها ولا إعتامُها
سربت فصبَّحها بها يقظانُها هَدَأَتْ فمسَّتها بها أحلامُها
كالماءِ إلا أنَّ في رَشَفَاته ناراً حُشاشاتُ النُّفوسِ ضِرامُها
خفَّتْ على أيمانكم أوزانُها يومَ الوغى واسْتَثْقَلَتْها هامُها
حتى أَحَلْنَ الشَّام شاماً صَرْصَرَتْ فيه جَنَادِبُها وصدَّح هامُها
وَرَحَضْنَ أدْرانَ الجزيرةِ بعدما غُمِرَتْ بها وهداتها وإكامُها
شَطْراً أَبَرْت ومثله أنظرته وَقْعَ الخطوبِ تَكُرُّها أيامُها
بالخابطاتِ الغابَ تَزْأَرُ أُسْدُه والمجفلي الحي اللِّقاح صيامُها
أورَدْتَها أجماتِ أنطاكيَّةٍ عَنقاً وقد شَبَّ الصدا إجمامُها
تلقى المَشَافِرَ في مراشِفَ كُلَّما بَرَدَتْ بها الأكبادُ زادَ هيامُها
فَغَدَتْ وقد عَزَّ السراح سراحُها وتوزَّعت في كُنْسها آرامُها
ومشى الضَّلال القَهْقَرَى واستأصل الـ آذان مِن رَجْعِ الأذانِ صِلامُها
وغدا يخلِّلُها الخليلُ سواحباً عَذَباً يُمِرُّ لها العِذَابَ غمامُها
غَضَباً لدين الله حصَّ جناحه بغياً وأدمى صفحتيه لدامُها
فالآنَ رَدَّ النورَ فيه نورُه وانجابَ من تلك الهَنَاتِ ظَلامُها
محمودُ المحمود إقداماً إذا خامَ الكماةُ وَزُلْزِلَتْ أقدامُها
الفارجُ الكُرَبِ العِظَامِ تضاجمت أشدَاقُها وفَرَى القلوبَ ضِغامُها

وله من أخرى: [المنسرح]

أما الرَّعايا فإنَّها رَشَفَتْ لديك نُعمَى عَذْباً ثناياها

Marfat.com

سَلَكْتَ نَهْجَ العَدْلِ القويم بها ... فأحمدت دينها ودُنياها
وكم أميتت خَوْفاً فأمَّنَها ... مَتالفَ الخَوْفِ خَوْفُك الله
لله أقطارك التي قطرت ... لها مُناهَا إلى مَنَاياها
أنَّبَ في إنْب فوارسها ... تردى فتردي أولاك أُخْرَاها
أشْجَتْ لهاة البِرِنْس هبوتها ... وكم عتا عاتياً فأشْجَاهَا
وجُوسلين استساغ نطفتها ... فاحتلب الذُّلَّ تحتَ مَغْدَاها
رَدَّتْهُ صِفْراً من كلِّ ما مَلَكَتْ ... يَدَاهُ أيدٍ ما ضَلَّ مَسْرَاها
جويسُ جاسَتْك أَوْجُهٌ لا رأَتْ ... بُؤْساً وجادَ الحيا مُحَيَّاها
في سرية لو تكون فارِسَها ... يومئذٍ ما انْبَعَثَ أَشْقَاها
لا زالَ ظِلُّ النَّعماء عن ملكٍ ... ما الشَّمْسُ كفؤاً له إذا باهى
والله جازيه عن معبَّدةٍ ... أعزَّها اللَّهُ مُذْ تولاها
محمودٌ المعتلي إلى فلك الـ ... ـحَمْدِ وثيراً له ولاياها
أعطاكه جَدُّك المتوج بالـ ... ـجِدِّ ونفسٌ لله مَغْزَاها
نفسٌ عَزُوفٌ عن الخنا طبعت ... نَزْهها اللَّهُ يومَ سَوَّاها
أنتَ الذي سَلَّم الأنامُ له ... يُمْنَى طباقِ العُلا ويُسْراها
وأنتَ مولى المُلوكِ قاطبةً ... من كان فَنَّا خُسْرو شاهنشاها
والشِّعر هذا لا قول أحمده ... أوَّه بديلٌ من قَوْلَتي واها

وله من أخرى: [السريع]

يا ابن الذي لم يألُ في نجدةِ الـ ... إسلام إدلاجاً وتَهْجيرا
تكنَّفَ الشَّام وقد شامَ بَرْ ... قَ الخوفِ إنجاداً وتغويرا
وكَفَّ كَلْبَ الرُّومِ من بعد أنْ ... أنْشَبَهُ ناباً وأظْفُورا
فأهلُه رِقُّك إن أنصفوا ... رقَّا بحدِّ السَّيفِ مَسْطُورا
بَذْرٌ هوى واسْتَخْلَفَ الشَّمْسَ في ... دَسْتِك إشراقاً وتأثيرا

وله من أخرى: [السريع]

ملكٌ كسا الإسلامَ من ذَبِّه ... بُرْداً بِتَدبيج الظُّبى مُعْلَما
مَن أصبح الشَّامُ به شامةً ... يَقْطُرُ من قَتْلِ عِدَاه دَما
لو لم يقم مُنْصلتاً دُونَهُ ... لم تَلْقَ في أقطارِها مُسْلِما

Marfat.com

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماة واهتمامه بالعرس وعَوْده إلى حلب: [البسيط]

الدَّهْرُ ما رُضْتَهُ بالجُودِ والباسِ ... مُقَسَّمٌ بين أغراسٍ وأعراسِ
فتح يعاقبه فَتْحٌ ومُطَّلَبٌ ... داني المنال ومُلْكٌ ثابتٌ راسي
نَصْراً ببُصرى وصفحاً عن حماةَ لقد ... أَحْسَنْتَ للدَّاء حَسْماً أيها الآسي
يا ابنَ الذي عَنَتِ الدُّنيا لِدَوْلته ... من فاطميٍّ أعزَّته وعَبَّاسي

وله فيه: [المتقارب]

غَدَا الدينُ باسمِكَ سامي العَلَمْ ... أمينَ العمادِ مكينَ القَدَمْ
لذلك لُقِّبْتَ نوراً له ... وقد أغطَشَ الظُّلْمُ فيه الظُّلَمْ
أضاءَتْ بِعَدْلِكَ آفاقُه ... وفَضَّتْ عُرَى الدِّين لما انْفَصَمْ
ولم تمشِ رَهْواً لِنَصر الرُّها ... ومثلُكَ أدركَ لمَّا عَزَمْ
ويومَ بسوطا بَسَطْتَ الحِمام ... على الهضب من رُكْنها فانْهَدَمْ
وبُصرى وصَرْخَد لو لم تثر ... دِراكاً لكانا رَدِيفَيْ إرَمْ
ومُذْ فضَّ جيشك في الغوطتيـ ... ـنِ فضَّ الصَّليب له ما نَظَمْ
وفي كَفْرلاثا وهابَ حَلَلْـ ... ـتَ عَقْدَ البرنس ببيض خُذُمْ
معوَّدَةٍ أنها لا تُسَلُّ (م) ... إلا مقمقمةً للقِمَمْ
ويومَ بَسَرْفُود جَرَّعْتَهُمْ ... أُجاجاً أغصَّهُمُ واصطَلَمْ
وفوقَ العُرَيمة غشَّاهم ... عُرَامُ جيوشك سيلَ العَرِمْ
وأنت بكلبهُمُ في الكُبُولِ ... مباح الحريم مُذَالَ الحُرَمْ
وبارتهم آذَنَتْ أنَّها ... أبارَتْهُمُ فلْيَبُوؤوا بِذَمْ
بنَوْها وأعلَوْا ولم يعلموا ... بما خَطَّ في اللَّوْحِ منك القَلَمْ
وأنك خارِمٌ ما أَحْكَمُوه ... ومِنْ دِيننا راقِعٌ ما انْخَرَمْ
تَرْفَعُ من بعدِ خَفْضِ هُدًى ... وتخفض من بعد رَفْع صَنَمْ
سَمَكْتَ المدارِسَ فوقَ النُّجوم ... فكم مَنْجَمٍ تحتَها قد نَجَمْ
وعاشَ الحنيفيُّ والشَّافعي ... بما شِدْتَ منها وكانا رِمَمْ
وإن لم تكن هاشميَّ الأُصول ... فإنك فَرْعُ الهِزَبْرِ الهَشِمْ
ومن يدَّعي في العُلا ما ادَّعَيْتَ ... وأنت ابنُ من عزَّ لمَّا احْتَكَمْ
وأُقْسِمُ ما غابَ مَيْتٌ سَقَتْ ... مغارِسَه عينُ هذي الشِّيَم

Marfat.com

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة، ونَفَسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القَيْسَراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد المَوْصلي[١]، وسيأتي شيءٌ من شعره، إلى أن قدم العماد الكاتبُ الشَّام في سنة اثنتين وستين، فتسلَّم هذا الأمر، وعَبَّر عن أوصاف نور الدين ومناقب وغَزَواته بأحسن العبارات وأتمِّها نظماً ونثراً، وسيأتي كُلُّ ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال ابن الأثير: وفي هذه السنة توفي صاحب مَارِدين حسام الدين تمرتاش[٢]، ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن أُرْتُق.

قلت: وقد مدحه القَيْسَراني والعَرْقَلة[٣] وغيرهما من الشعراء.

[فتح نور الدين دمشق]

ثم دخلت سنة تسعٍ وأربعين وخمسمائة

قال ابن الأثير[٤]: ففيها ملك نور الدين دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد[٥]، وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها أن الفرنج ملكوا في السَّنة الخالية عَسْقلان؛ وهي مدينة فِلَسْطين حُسْناً وحَصَانةً. ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهَّفُ ولا يقدرُ على إزعاجهم عنها؛ لأن دمشق في طريقه وليس له على غيرها مَعْبَر، لاعتراض بلاد الإفرنج في الوسط. وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين، وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا القتل بها والنَّهْبَ والسَّبْي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد. ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج، واستعرضوا

---

(١) ابن أسعد الموصلي: هو عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن أحمد، مهذب الدين، أبو الفرج الموصلي، المعروف بابن الدهان الشاعر، توفي بحمص سنة ٥٨١هـ، له ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧).

(٢) ذكره ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٨٣، في وفيات سنة ٥٤٧هـ. وقال: وفيها (سنة ٥٤٧هـ) توفي حسام الدين تمرتاش، صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيفاً وثلاثين سنة، وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبي.

(٣) هو عرقلة الشاعر، واسمه حسان بن نمير تقدمت ترجمته.

(٤) انظر «الكامل» ٩/ ٣٩٨. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٩.

(٥) في «الكامل»: وأخذها من صاحبها مجير الدين أنز بن محمد بن بوري، وهو تصحيف.

عبيدهم وإماءهم الذين نُهبوا من سائر بلاد النَّصرانية، وخيَّروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحبَّ وطنه سار إليه. وزالت طاعةُ مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مُؤَيَّد الدين بن الصُّوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدو، فجأروا إلى الله تعالى[1]، ودعَوْه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم، وأذن في خلاصهم مما هم فيه على يد أحبِّ عباده إليه، وأحسنهم طريقةً، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقاً نور الدين محمود، فحَسَّنَ له السعي في ملك البلدة وألقاه في رُوعه. فلما خطر له ذلك أفكر فيه، فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذَّر عليه، لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم.

قلت: وكان قد سبق له سوابق قد تقدَّم ذكر شيء منها، ولذلك قال العَرْقَلَة يمدح أتابكه معين الدين أُنَر من قصيدة: [الطويل]

يظنُّ صلاحُ الدين فرسانَ جِلِّقٍ ... كفرسانِهِ ما الأسد مثلَ الثَّعالبِ
غداً تطلع الشَّام الفرنج بفيلقٍ ... مُعوَّدةٍ أبطالُهُ للمصائبِ
رجالٌ إذا قام الصَّليبُ تَصَلَّبَتْ ... رماحُهُمُ في كل ماشٍ وراكبِ
لها اللَّيْلُ نَقْعٌ والأَسِنَّةُ أنجمٌ ... فما غيرُ أبطالٍ وغيرُ جنائبِ

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك حينئذٍ لم يكن ملكاً يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني صاحب حماة؛ أحد أصحاب زَنْكي، وقد تقدَّم ذكره مراراً، وكأنه كان في مقدِّمة الجيش النُّوري لما قصد دمشق في المرتين الأُوْلَيَين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زَنْكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير[2]: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها؟ وانضاف إلى ذلك كراهيته لِسفك دماء المسلمين، فإن الدَّم كان عنده عظيماً، لما كان قد جُبِلَ عليه من الرأفة والرَّحمة والعَدْل. فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصلَه بالهدايا، وأظهر له المودَّة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن

(١) فجأروا إلى الله تعالى: أي رفعوا صوتهم بالدعاء مع تضرع واستغاثة.
(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٣٩٨.

فلاناً ـ ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين ـ قد كاتبني في المخامرة عليك، فاحْذَرْه. فتارةً يأخذ إقطاع أحدهم، وتارةً يقبض عليه. فلما خَلَتْ دمشق من الأمراء، قدَّم أميراً كان عنده يُسمَّى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهماً شجاعاً، وفوَّض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لا يتمكَّن من دمشق معه. فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إنَّ الحيلة قد تمَّت عليك فلا تقتلني، فإنه سيظهر لك ما أقول. فلم يصغ إلى قوله، وقتله.

قلت: وفي بعض قصائد ابنُ منير ما يدلُّ على أن عطاءً هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث، فإنه قال: [الوافر]

ودمشق في دمشق رجال سلم ... لحُور نسائهم منهم نساءُ
هي الفِرْدَوْسُ أصبحَ وهو عافٍ ... من العافي ومن خالٍ خَلاءُ
جِنَانٌ تعرِفُ الجَنَّاتِ فيها ... ولا رأيٌ هناك ولا رُواءُ
لأسمح صعبها ودَنَتْ قصاها ... وأمكنكَ اقتيادٌ وامتطاءُ
ويا نِعْمَ العطاءُ عطاءُ رَبٍّ ... توسَّطَهُ فأَنْشطَهُ عطاءُ
تفاءل باسمه فالفأل وَغْدٌ ... يكون على ظُبَاك به الوفاءُ
هو السَّبب الذي شزَرَتْ قواه ... وهذَّبه لخدمتك الصَّفَاءُ
وسَيْفٌ إن تَشِمه تَشِم حُساماً ... وإنْ تُغْمِدْ فنارٌ بل ذُكاءُ
جنَتْه لك السَّعادةُ قطف رأي ... لنقب الخادِعِيك به هِناءُ[1]

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديثٌ، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لمّا بلغ مجير الدين ذلك. وعطاء هذا هو الذي يُنْسب إليه مسجد عطاء خارج الباب الشَّرْقي بدمشق، وجورة عطاء ببيت أبيات؛ وهي أرضٌ فيها أخشابٌ كبار من الحور تُرَبَّى أوتاراً[2] لجامع دمشق، وهي وَقْفٌ عليه. وقد مدحه العَرْقَلَة وغيرُه من الشُّعراء.

قال ابنُ الأثير: فلما قُتل عطاءٌ قوي طمعُ نور الدين في دمشق، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم، فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار إليهم وحاصرهم عشرة أيام. فكاتب مجير الدين الفرنج، وبذل لهم الأموال وقلعة بَعْلَبَكَّ إن رحَّلوا نور الدين عنه. فإلى أن اجتمعوا، وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق،

---

(١) الهناء، بالكسر: القطران.
(٢) أوتاراً: كذا بالأصل، ولعلها: أوتاداً.

Marfat.com

فعادوا بخُفَّيْ حُنين. وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيَّق على من به، ثار الأحداثُ الذين كاتبهم نور الدين، وسلَّموا إليه البلد من الباب الشَّرْقي فدخله بالأمان عاشر صفر، وحصر مجيرَ الدين في القلعة، وراسله وبذل له الإقطاع الكثير، من جُملته مدينة حمص، فأجاب إلى تسليم القلعة، وسار إلى حمص.

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسدَ الدين شِيركُوه رسولاً إلى صاحب دمشق، فخرج في تجمُّلٍ عظيم ومعه ألف فارس، فَعَظُمَ على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة، هذه مكيدة. ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحدٌ من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين، ونزل بمرج القصب، وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يُعرِّفه بما جرى عليه. فسار نور الدين في عساكره، وزحف إلى البلد من شرقيِّه، وكانت الحرب في عاشر صفر، وتولَّى أسد الدين القتال، وأبلى الجهد، فكسر عساكرَ دمشق إلى الأسوار من قبليِّ البلد، ولم يكن أحدٌ من المقاتلة على السُّور من ذلك الجانب، لأن نور الدين كان من شرقيِّها، وجُلُّ العسكر مقابلُه، ورأى من كان مع نور الدين من الجَانْدَارِية والحلبيين خُلُوَّ السُّور من المقاتلة، فتسرَّعوا إلى السُّور، وتعلَّقوا به، وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال: إن امرأةً كانت على السُّور، فدلَّت حبلاً فصعدوا فيه، وصار على السُّور جماعة، ونصبوا السلالم، وصَعِدَ جماعةٌ أُخرى، ونصبوا علماً، وصاحوا بشعار نور الدين، فوقع على أهل البلد الخِذْلان، وكُسِرَ بابُ البلد، ودخلت الخيَّالة منه، وملك نور الدين دمشق. وكان لأسد الدين اليد الطُّولى في فتحها، فولَّاه نور الدين أمرها، وردَّ إليه جميع أحوالها. وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرَّحْبة.

[تولي أسد الدين شيركوه أمور دمشق بعد فتحها]

وقال الرَّئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرَّم وصل الأمير أسد الدين شِيركُوه رسولاً من نور الدين إلى ظاهر دمشق، وخَيَّم بناحية القَصَب من المرج في عسكرٍ يناهز الألف، فأنكر ذلك، ووقع الاستيحاش منه، وإهمال الخروج إليه لتلقِّيه والاختلاط به، وتكرَّرت المراسلات فيما اقتضته الحال، ولم تُسْفر عن سَدَاد ولا نيل مُرَاد، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغَلَّات. ووصل نور الدين بعسكره إلى شِيركُوه ثالث صفر، وخيَّم بعيون الفاسريا عند دُومَة، ورحل في الغد، ونزل بيت الآبار من الغوطة، وزحف إلى البلد من شرقيِّه، وزحف إليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثير، ووقع الطِّرَادُ بينهم، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، ثم زحف يوماً بعد يوم، وتأكد الزَّحف يوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليه العسكر الدمشقي، فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كَيْسان والدَّباغة من

Marfat.com

قبليُ البلد، وليس على السُّور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر، غير نفرٍ يسير لا يُؤبه لهم، فتسرَّع بعضُ الرَّجَّالة إلى السُّور، وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه حبلاً، فصَعِدَ فيه، وحصل على السُّور، ولم يشعر به أحد، وتبعه من تبعه، وأطلعوا علماً نصبوه على السُّور، وصاحوا: نور الدين يا منصور. وامتنع الأجناد والرَّعية من الممانعة لما هم عليه من المحبّة لنور الدين وعدله، وحُسْن ذكره. وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشَّرْقي، فكسر أغلاقه وفتحه، فدخل منه العسكر، وسعَوْا في الطُّرقات، ولم يقف أحد بين أيديهم. وفُتح باب توما أيضاً ودخل الناس منه، ثم دخل نور الدين وخواصُّه، وسُرَّ كافَّة الناس من الأجناد والعسكرية، لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار والخوف من منازله الفرنج الكُفَّار. وكان مجير الدين لما أحسَّ بالغَلَبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه، وأُومن على نفسه وماله، وخرج إلى نور الدين، فطيَّب نفسه ووعده الجميل. ودخل نور الدين القلعة في يوم الأحد المقدَّم ذكره، وأمر بالمناداة بالأمان للرَّعيَّة، والمنع من انتهاب شيء من دُورهم، وتسرَّع قومٌ من الرَّعاع والأوباش إلى سوق علي وغيره، فعاثوا ونهبوا، وأنفذ نور الدين إلى أهل البلد بما طيَّب نفوسهم، وأزال نفرتَهُمْ. وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدَّار الأتابكية؛ دار جَدِّه، وأقام أياماً، ثم تقدَّم إليه بالمسير إلى حمص في خواصِّه ومَن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه، بعد أن كتب له المنشور بإقطاعه عِدَّة ضياع بأعمال حمص، برسمه ورسم جُنْده، وتوجَّه إلى حمص على القضيَّة المقرَّرة. ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرَّعيَّة من القُضَاة والفقهاء والتُّجَّار، وخوطبوا بما زاد في إيناسهم وسرور نفوسهم، وحُسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم، فأكثروا الدُّعاء له، والثَّناء عليه، والشكر لله تعالى على ما أصاره إليه. ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطّيخ، وسوق البقل، وضمان الأنهار، وأنشأ بذلك المنشور، وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر النَّاسُ بصلاحِ الحال، وأعلن الناس برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيامه، ونُضرة أعلامه.

وقال ابن الأثير: لما استقلَّ نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرُمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عامًا.

قلت: قد تقدَّم ذكره في أوَّل الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفرَّقة فيما بعد.

قال: وألقى الإِسلامُ جِرَانه بدمشق، وثبتت أوتاده، وأيقن الكُفَّار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشَّام من البلاد الإِسلامية بيد نور الدين.

Marfat.com

وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين، فخاف أن يحدث ما يشقُّ تلافيه، بل ربما تعذَّر، لا سيما مع مجاورة الإفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعَوَّضه عنها مدينة بالِس، فلم يرضها، وسار عن الشَّام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاور المدرسة النِّظاميَّة، وتوفي بها[1].

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج كافَّةً، وعلموا أنه لا يقعد عن غزو بلادهم، والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص وتقرَّبوا إليه. ثم إن مَنْ بتلّ باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حَسَّان المَنْبِجي؛ وهو من أكابر أمراء نور الدين، وإقطاعه مَنْبِج، فأمره أن يتسلَّمها منهم. فسار إليها، وتسلَّمها، وحصَّنها، ورفع إليها ذخائر كثيرة.

فصل

[إطلاق بزان من الاعتقال ووفاة مؤيد الدين المسيب بن الصوفي]

قال الرَّئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بُزان أُطلق يوم الفتح من الاعتقال، وأعيد إلى داره. ووصل الرئيس مُؤَيَّد الدين المسيّب إلى دمشق مع ولده النَّائب عنه في صَرْخَد إلى داره، مُعوِّلاً على لزومها، وتَرْك التعرُّض لشيءٍ من التصرُّفات والأعمال. فبدَا منه من الأسباب المُغربة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السَّدَاد والرُّشاد، ما كان داعياً إلى فساد النِّيَّة فيه. وكان في إحدى رجليه فتح قد قال به ونسيه، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه، وأسقط قوَّته، مع فهاق مُتَّصل وقُلاع في فيه زائد، فقضى نحبه في رابع ربيع الأوَّل، ودُفن في داره، واستبشرَ الناسُ بهلاكه، والرَّاحة من سوء أفعاله.

[مقتل الخليفة الظافر ابن الحافظ وقدوم طلائع بن رزيك القاهرة، وهرب عباس الوزير منها]

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظَّافر ابن الحافظ[2]، وأقيم

---

(١) توفي سنة ٥٦٤هـ. وكان ولي دمشق سنة ٥٣٤هـ. انظر وفيات الأعيان ٥/ ١٨٨ ـ ١٨٩. سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦، الوافي بالوفيات ٦/ ١٨٨. «الكامل» ٩/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٢) هو الظافر بالله أبو منصور إسماعيل ابن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي. صاحب مصر. انظر سبب قتله في «الكامل» ٩/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

Marfat.com

ولده عيسى مُقامه، وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقَّبوه بالفائز[١]، وعباسٌ الوزير[٢]. ثم ورد الخبر بأن الأمير فارس الدين طلائع بنُ رزِّيك[٣] ـ وهو من أكابر الأمراء المقدَّمين، والشجعان المذكورين ـ لما انتهى إليه الخبر ـ وهو غائب عن مصر ـ قلق لذلك وامتعض، وجمع واحتشد، وقصد العودَ إلى مصر. فلما عرف عَبَّاسٌ بما جمع خاف الغَلَبة، فتأهَّبَ للهرب في خواصِّه وأسبابه وحُرَمه، وما تهيأ من ماله، وسار مُغِذًّا، فلما قَرُبَ من أعمال عَسْقَلان وغزَّة خرج إليه جماعةٌ من خيَّالة الإفرنج، فاغترَّ بكثرة من معه وقلَّة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه، وانهزموا أقبح هزيمة، هو وابنه الصَّغير، وأُسر ابنه الكبير الذي قتل العادلَ بن السَّلار، مع ولده وحُرَمه، وماله وكُرَاعه[٤]، وحصلوا في أيدي الفرنج، ومن هرب لقي من الجوع والعطش شِدَّة، ومات العدد الكثير من النَّاس والدَّوابِّ، ووصل في أثر هروبهم فارس المسلمين، ووضع السيف فيمن ظفر به من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من نجّاه الهرب على أشنع صفةٍ من العَدَم والعُرْي في آخر ربيع الآخر.

قلت: وفي ذلك يقول عُمارة اليمني[٥] من قصيدةٍ له: [الطويل]

لكم يا بني رُزِّيك لا زال ظُلُّكم ... مواطِنُ، سُحْبُ الموتِ فيها مواطِرُ
سَلَلْتُمْ على عَبَّاس بيضَ صوارمٍ ... قهرتم بها سُلْطانَه وهو قاهِرُ

وذكر الأمير أُسامة بن مُنقذ[٦] في «كتاب الاعتبار» أن نصر بنَ عباس لما قَتَل ابن السَّلَّار وتوزَّر أبوه عَبَّاس كان نصر يُعاشر الخليفة الظَّافر ويخالطه، وعبَّاس كارهٌ لذلك مستوحش من ابنه، لعلمه بمذهب القَوْم وضَرْبِ بعض النَّاس ببعضٍ

---

(١) هو الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر. وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين، وكان له لما ولي خمس سنين. توفي سنة ٥٥٥هـ. انظر «الكامل» ٩/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

(٢) انظر خبره فيما تقدم من هذا الجزء.

(٣) هو الملك الصالح طلائع بن رزيك، أبو الغارات الأرمني، قتل سنة ٥٥٩هـ. انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠، ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٤) الكراع: اسم يجمع البغال والحمير والخيول، وقيل: الخيل والسلاح.

(٥) عمارة اليمني: هو عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي المذحجي الفقيه، نجم الدين أبو محمد الشاعر اليمني الشافعي المتوفى مصلوباً بمصر سنة ٥٩٦هـ. من تصانيفه: «ديوان شعره»، «شكاية المتظلم ونكاية المتألم»، «المفيد في أخبار زبيد»، «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية»، وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٧٧٩).

(٦) تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

Marfat.com

حتى يفنوهم. وشرَعَ الظَّافر مع ابن عباس في حمله على أبيه، ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك، فنهيتُه، فأطلعَ والدَه على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به، وقرَّر معه قتلَ الظَّافر، وكانا يخرجان متنكِّرين، وهما تِرْبان سنُّهما واحد. فدعاه إلى داره، ورتَّب من أصحابه معه في جانب الدَّار نفراً، ثم لما استقرَّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سَلْخ محرَّم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ورماه في جُبِّ الدار. وأصبح عباس جاء إلى القصر ضحوة نهارٍ للسَّلام، فجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظَّافر، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى زِمام القصر[1] وقال: ما لمولانا ما جلس للسَّلام؟ فتبلَّد الأُستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: ما لك لا تجاوبني؟ قال: يا مولاي، مولانا ما ندري أين هو. قال: مثلُ مولانا يضيع! ارجع واكشف الحال. فمضى ورجع، فقال: ما وجدنا مولانا. فقال: يبقى النَّاس بلا خليفة! ادخل إلى الموالي إخوته يخرجُ منهم واحدٌ لنبايعه. فمضى وعاد، وقال: الموالي يقولون لك: ما لَنا في الأمر شيء، والدُنا عزله عنا، وجعله في الظَّافر، والأمر لولده بعده. قال: أخرجوه حتى نبايعه.

قال: وعَبَّاسٌ قد قتل الظَّافر، وعزم على أن يقول لإخوته أنتم قتلتموه، ويقتلهم. فخرج ولدُ الظافر، ولعلَّ عمره خمس سنين، يحمله الأُستاذ، فأخذه عَبَّاس فحمله وبكى، وبكى النَّاس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه، وهو حامله، وفيه أولاد الحافظ.

قال ابن منقذ: ونحن في الرِّواق جلوس، وفي القصر أكثر من ألف رجلٍ من المِصْريين، فما راعنا إلَّا قومٌ قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة، فإذا السُّيوف تختلف على إنسانٍ، فقلت لغُلام لي أَرْمَنِيّ: أبصر من هذا المقتول. فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين! هذا مولاي أبو الأمانة جبريل ابن الحافظ قد قتلوه، وواحدٌ قد شقَّ بطَنُه يجذب مصارينَهُ. ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربةُ سيف، والدَّم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي القصر ألف سيف مجرَّد قال: وكان ذلك اليوم من أشدِّ الأيام التي جرت علي، لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره الله سبحانه وجميعُ خلقه.

---

(١) زمام القصر: قال القلقشندي في «صبح الأعشى» ٣/ ٥٥٦: وظيفة زمام القصر، وهو بمثابة زمام الدور في زماننا. والزمام: من الزّم: وهو تقديم الشخص على أقارب الخليفة واحتسابه من أقاربه، وزمام القصر هو الذي يتولى إدارة خدم القصر والإشراف على أعمالهم (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٧١ ـ ١٧٣).

Marfat.com

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في «ديوانه» قال: كان لعبَّاس أربعمائة جمل تحمل أثقاله، ومائتا بغل، ومائتا جنيب[١]، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأول سنة تسعٍ وأربعين وخمسمائة، وقد قام عليه أهل مصر وعسكريَّتُها؛ فارسُهُمْ وراجلُهم، تقدم بشدِّ خيله وبغاله وجماله ليتحمَّل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره، وقد ملأت ذلك الفضاء إلى قصر السُّلْطان إلى الإيوان، خرج غلامٌ يقال له عنبر كان على أشغاله، وغلمانُه كلُّهم تحت يده، فقال للجمَّالين والخَربَنْدية[٢] والرِّكابية[٣]: روحُوا إلى بيوتكم وسيِّبوا الدَّوابَّ. ففعلوا ذلك، وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم. وكان ما جرى من تهميل الدواب لُطفاً من الله تعالى به، فإنها سَدَّت الطريق بينَه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلقٍ كثير، ونحن في قلة ما نبلغُ خمسين رجلاً، وغلمان عباس ـ مماليكه ـ في ألف ومائتي غلام بالخيول الجياد والسِّلاح التَّام، وثمانمائة فارس من الأتراك، خرجوا كلهم من باب النَّصْر، ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطَّابية فراراً من القتال. فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال والبغال، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عبَّاس من باب النصر، وجاؤوا في إثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره. وكان عباس قد أحضر من العرب نحواً من ثلاثة آلاف فارس يَتَقوَّى بهم على المصريين، واستحلفهم، ووهبهم هباتٍ عظيمة. فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدَّ قتال ستة أيام، يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف اللَّيل، ثم يركبون ويهدُّون خيلهم على جانب النَّاس، ويصيحون صيحةً واحدة، فتجفل الخيلُ وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه مُنَّة وقوة فيأخذونه، فكان ذلك سببُ هلاك خيله، وتمكُّنِ الإفرنج منه، واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصدُ الفرنج إليه.

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضُحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليه وأخذوا منه حَسَباً على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظناً منهم أن له عودةً إليهم، وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس. ويوم الأحد صبَّحهم الإفرنج وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم، فقتلوا

---

(١) الجنيب: جمعها جنائب، وهي الخيول التي تسير وراء السلطان أو الأمير في الحروب استعداداً لاحتمال الحاجة إليها.

(٢) الخربندية: هم المكارون، مفردها: المكاري، الذي يكري دابته، أي يؤجرها.

(٣) الركابية: أي موكب السلطان، وهم الذين يحملون السلاح حول السلطان والخليفة عند ركوبه (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٦١).

Marfat.com

عباساً وابنه الأوسط، وأسروا ابنَه الأكبر[١]، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صِغاراً وانصرفوا.

قلتُ: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعز بن باديس الحِمْيَري، ويلقب بالأفضل رُكن الدين، ويكنى بأبي الفَضْل، ورأيتُ علامته في الكتب أيام وزارته: «الحمد لله وبه أثق». وفيه يقول أسامة بن منقذ: [الطويل]

لقد عَمَّ جودُ الأَفْضَل السَّيِّد الوَرَى ... وأغنى غَناءَ الغَيْثِ حيثُ يَصُوب

ومن أبيات لابن أسعد[٢] فيه لما قَتَلَ الظَّافر[٣]: [الطويل]

وأَنْفَقَ من إنعامهم في هلاكهم ... وأَظْهَرَ ما قد كانَ عنه يُنافِقُ[٤]
ومدَّ يداً هم طوَّلوها إليهم ... وحلَّتْ بأهل القَصْر منه البوائقُ
سقى رَبَّه كأسَ المنايا وما انقضى ... له الشَّهْرُ إلا وهو للكأسِ ذَائِق

وكان عبَّاس قد تخيَّل من أُسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصَّالح من المودَّة والمصافاة، فأحضره واستحلفه أنه لا ينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى نفَّذ من أستاذيِّ داره[٥] من يدخل على حُرَمه إلى داره، فأخذ أهله وأولاده، فتركهم عند أهله وأولاده، وقال له: قد حملتُ ثقلهم عنك، لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ـ يعني ولده ناصر الدين ـ وبإخوانه. فلما خرجوا، ونُهبت

---

(١) ابنه الأكبر: هو نصر بن عباس، ناصر الدين، وقد بعثه الفرنج في قفص من الحديد إلى أخت الظافر. سنة ٥٥٠هـ. فقطعت يده، وضرب بالمقارع، وقص لحمه، ثم صلب فمات، فبقي معلقاً شهوراً ثم أحرق. انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٠٧، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٩٣.

(٢) ابن أسعد: هو ابن الدهان الشاعر، عبد الله بن أسعد المتوفى سنة ٥٨١هـ. تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٣) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٤) هذا البيت ملفق من بيتين في «خريدة القصر» ٢/ ٢٩٣، وهما:

ولما رأى عباس للغدر مذهباً ... وأظهر ما قد كان عنه ينافقُ
وأنفق من إنعامهم في هلاكهم ... جزاء به عمري خليق ولائقُ

(٥) أستاذ الدار: جمع أستاذ الدار: وهو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير، ومصروفاته، وهو لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما: إستذ، بهمزة مكسورة، ومعناه الأخذ، والثاني: دار، ومعناه: الممسك، فأدمغت الذال الأولى، وهي المعجمة، في الثانية، وهي المهملة، فصار إستادار: ومعناه: المتولي للأخذ، وسمي بذلك لأنه يتولى قبض الأموال، وهناك إستادار الأملاك الشريفة، وإستادار الصحبة، وإستادار العالية، وإستادار المباشرة (انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٨١، ٤/ ٢٠، ١٨٨، ٤٥٧، ٥/ ٤٥٧، ٨/ ٢١٨.

Marfat.com

دورُهم ودوابُهم عَجَزَ عن حمل من يخصُّه، فأعادهم أسامة من بِلْبيس، ونفَّذ إلى الملك الصَّالح يقول له: قد نفَّذت أهلي وأولادي إليك، وأنت وليُّ ما تراه فيهم. فأنزلهم في دارٍ، وأجرى عليهم الجاري الواسع، وأحسن إليهم غاية الإحسان. وكان يكاتبه في الرُّجوع إلى مصر، وهو يتلطَّف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسبه إلى وحشة قلبه من القصور، ونفوره من المصريين. فنفَّذ إليه يقول له: تصل إلى مكَّة في الموسم، ويلقاك رسولي إليها يسلِّم إليك مدينة أسوان، وأنفذ إليك أهلك، وأمدّك بالأموال، وهي ـ كما علمت ـ الثَّغْر بيننا وبين السُّودان، وما يسُدُّ ذلك الثغر مثلك. وأكثر من الوعد، وذكر رغبته في قُرْبه، ورعايته ما بينه وبينه من قديم الصُّحبة. فاستأذن أُسامة في ذلك الملك العادل نور الدين، وكان في خدمته. فقال: يا فلان، ما تساوي الحياة الشتات والرُّجوع إلى الأخطار والبعد عن الأوطان. ومنعه من ذلك بإحسانه، ووعده أن يستخلص أهله. فكتب أسامة إلى الملك الصَّالح يعتذر ويسأله تسيير أهله. وتردَّدت بينهما مكاتبات، وأشعار مُتَّصلات، إلى أن سيَّرَهم، وهم نيِّفٌ وخمسون نسمة، في الإكرام والاحترام إلى آخر ولايته. وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم، وقالوا: يكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه. ووصله بعضُ أصحابه من دمشق، وهو بالعسكر النُّوري بحلب، فأخبره أن من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا، وأن المركب انكسر بهم في ساحل عكا، ونهب الفرنج كل ما فيه، ولم يصلوا إلى دمشق إلا بأنفسهم، وأن متملِّك الإفرنج أعطاهم خمسمائة دينار أصلحوا منها حالهم، واكتَرَوْا ظَهْراً إلى دمشق، فقال أسامة: [الطويل]

إلى الله أشكُو فُرْقةً دَمِيَتْ لها ... جُفُوني وأذْكَتْ بالهُموم ضَميري
تمادَتْ إلى أَنْ لاذَتِ النَّفْسُ بالمنى ... وطارَتْ بها الأشواقُ كلَّ مَطيرِ
فلما قضَى اللَّهُ اللقاءَ تعرَّضَتْ ... مساءةُ دهْري في طريقِ سُروري

فصل

[وصول ابن الداية إلى دمشق عقيب عوده من الحج]

قال أبو يعلى: وفي آخر ربيع الأوَّل وصل الأمير مجد الدين أبو بكر محمد نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج، وأقام أياماً وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

Marfat.com

قلت: هذا هو ابن الدَّاية، وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى إخوته، وسيتكرَّر ذكرهم في هذا الكتاب، ومجد الدين أكبر إخوته، وقد مدحه الشعراء. قال القَيْسَرَاني من بعض ما قاله فيه: [الطويل]

دعوا ما مضى مِنْ قَبْلِ هذا لما بَعْدُ ... فأُقْسِمُ لولا المجدُ ما عُرِفَ المَجْدُ
كريمٌ سَمَتْ أوصافُه لِعُفاته ... قرائن كل اثنين بينهما عِقْدُ[1]
محيَّاه والبُشْرى ويُمناه والنَّدى ... ونجواه والدُّنيا وتقواه والزُّهْدُ
ففي قربه الزُّلْفى وفي وَعْدِه الغِنَى ... وفي نَيْله الحُسْنى وفي رأيه الرُّشْدُ
إذا وَجْهُ نورِ الدين قابل مَجْدَه ... فَقُلْ في كمالِ البَدْرِ قابلَه السَّعْدُ

وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فَلِيتة[2]، وولي الحرمين ولدُه قاسم بن هاشم[3]؛ وهو الذي أرسل عُمارة اليمني[4] الفقيه الشَّاعر إلى الديار المِصْرية، وسيأتي ذكره.

[هجوم الفرنج على مدينة تنيس]

قال أبو يعلى: وفي ثامن جُمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مِصْر بأن عدَّةً وافرة من مراكب الفرنج من صِقِلِّية وصلت إلى مدينة تِنِّيس على حين غَفْلَةٍ من أهلها، فهجمت عليها، وقتلت وأسرت، وسَبَتْ ونهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام، وتركتها صِفْراً. وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة، ومن سَلِمَ واختفى، وضاقت الصُّدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

[وفاة فخر الدين الطرسوسي]

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضي فخر الدين أبي منصور محمد بن عبد الصَّمد بن الطَّرَسُوسي، وكان ذا هِمَّةٍ ماضية، ويقظة ومروءة ظاهرة في داره وولدِه، ومن يلمُّ به من غريبٍ ووافد، وقد نفذ أمره

---

(١) العفاة: الأضياف وطلاب المعروف.

(٢) ذكره ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٣٤، في حوادث سنة ٥٣٩هـ. وقال: وفيها كانت فتنة عظيمة بين الأمير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوي الحسيني أمير مكة، والأمير نظر الخادم، أمير الحاج، فنهب أصحاب هاشم الحجاج، وهم في المسجد يطوفون، ويصلون، ولم يرقبوا فيهم إلّا ولا ذمة.
وقد ولي هاشم إمارة مكة بعد أبيه سنة ٥٢٧هـ.

(٣) قتل سنة ٥٥٦هـ. انظر العقد الثمين ٧/ ٣٢ ـ ٣٦.

(٤) عمارة اليمني: تقدمت ترجمته قبل قليل.

Marfat.com

وتصرُّفه في أعمال حلب في الأيام النُّورية، وأثَّر في الوقوف أثراً حسناً توفَّر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

[تسلم نور الدين بعلبك]

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

ففيها تسلَّم نور الدين بَعْلَبَكَّ من واليها ضحَّاك، وذكر ابنُ الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين[1]، وقال: كان ضحَّاك البِقاعي ينوبُ ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطَّف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها، واستولى عليها.

وقالت ابنُ أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتَّصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتبَ نور الدين في تسليم بعلبك، فأنفذ إليه وتسلَّمها منه، وألحقه بأصحابه. قال: ورأيتُ بعض المؤرِّخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله في البلد، وولَّى القلعة رجلاً يقال له ضحَّاك. فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضَحَّاكاً، وتوسَّط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعاً وسيَّره إلى دمشق، فأقام فيها، وردَّ نظر دمشق إليه، وولَّى ولده تُورانشاه شِحْنَكية دمشق، فساسها أحسن سياسة، ولم يزل بها إلى أن توفي، فولى صَّلاح الدين شِحْنَكيَّة دمشق.

قلت: هذا وهم. تُورانشاه هو الملك المُعَظَّم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين، فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شِحْنَكية دمشق؟ وأما كونه ولي الشِحْنكية بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيتُ ما يؤكده. قرأتُ في «ديوان العَرْقَلَة»: وقال يهنئه بالشحنكية بدمشق وهو في دار عمه أسد الدين شِيركُوه بن شاذي: [الرجز]

قلتُ لحُسَّادك زيدوا في الحَسَدْ ... قد سكَنَ الدارَ وقد حاز البَلَدْ
لا تعجبوا إنْ حَلَّ دارَ عَمِّه ... أما تَحُلُّ الشمسُ في بُرْجِ الأَسَدْ

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية: [الوافر]

لصوصَ الشَّامِ توبوا من ذنوبٍ ... تكفِّرها العقوبةُ والصِّفَادُ
لئن كان الفَسَادُ لكم صلاحاً ... فمولاي الصَّلاح لكم فَسَادُ

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤١٩، في أحداث سنة ٥٥٢هـ.

وله فيه: [المتقارب]

رُوَيْدَكُمُ يا لصوصَ الشَّام فإني لكمْ ناصحٌ في مقالي
وإياكمُ وسميَّ النَّبيّ (م) يوسفَ ربِّ الحِجَا والجمالِ
فذاك مقطِّعُ أيدي النِّساء وهذا مُقَطِّعُ أيدي الرِّجالِ

قال ابن أبي طي: وولي صلاح الدين شِحْنَكِيَّة دمشق والديوان، فأقام فيه أياماً، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعةٍ جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن هَمَّام[1]. فأنفذ نور الدين وأخذ ابن هَمَّام وحلَقَ لحيته، وطيف به في دمشق.

قلتُ: وابن هَمَّام هذا هو الذي ذكره الشنباشي في قصيدته وأشار إلى حَلْقِ لحيته بقوله: [الخفيف]

كأبي سالم بن هَمَّامِ لما قامَ للنُّصْحِ عاد يمشي مُلَثَّمْ

ثم قال ابن أبي طي: واستخصَّ نورُ الدين صلاحَ الدين وألحقه بخواصّه، فكان لا يفارقه في سَفَرٍ ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعاً في لعب الكرة، وكان نور الدين يحبُّ لعب الكرة.

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصَّة بالملك قليج أرسلان ابن الملك مسعود بن سليمان بن قتلمش[2] ملك قُونية وما والاها، فملك عِدَّةً من قلاعها وحصونها بالسَّيْف والأمان، وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشتغلين بمحاربة أولاد الدانشمند، ونُصروا عليهم في وقعةٍ كانت بأقصرا في شعبان. فلما عاد قليج أرسلان، وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عَظُمَ عليه هذا الأمر واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر، وراسله بالمعاتبة والإنكار، والوعيد والتهديد، فأجابه نور الدين بحُسْنِ الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينها مستمراً على هذه الحال، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق.

---

(١) ولي مشارفة الديوان بدمشق بعناية أسد الدين شيركوه نائب دمشق وقتئذٍ، فظهرت منه خبايات وسعايات فقبض عليه. فأخذه نور الدين وحلق لحيته، وأركبه حماراً مقلوباً، وخلفه من يعلوه بالدرة، ثم طيف به في أسواق دمشق، ونودي عليه: هذا جزاء كل خائن ونمام، ثم نفي إلى حلب (ذيل تاريخ دمشق ص٣٣٦).

(٢) هو الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلمش بن سلجوق السلجوقي، توفي في منتصف شعبان سنة ٥٨٨هـ بمدينة قونية، وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة، ولما كبر فرّق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين. انظر أخباره في «الكامل» ١٠/ ٩٧ ـ ٩٨، ١٠١ ـ ١٠٢، ٢١٩ ـ ٢٢٠.

Marfat.com

قال: وولي الأسطول المصري مقدَّمٌ شديد البأس، بصير بأشغال البحر، فاختار جماعةً من رجال البحر يتكلَّمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابَهم، ونهضَ بهم في عدَّة من المراكب الأسطولية، وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن، والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرَّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور، وقد ذُكر له أنَّ فيه شَخْتورة روميَّة كبيرة فيها رجالٌ كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقَتَلَ من فيها، واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد عنها في البحر، فظفر بمراكب حُجَّاج الفرنج، فقتل وانتهب وأسر، وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلتُ: وفي هذه السَّنة ورد أمر الخليفة ببغداد ـ وهو المقتفي ـ إلى أمير الحرمين قاسم بن هاشم، يأمره أن يركِّب على باب الكعبة المكرَّمة بابَ ساج جديداً قد ألبس جميع خشبة فضَّة وطُلي بذهب، وأن يأخُذَ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه، ويسيِّرَ إليه خشب الباب القديم مجرَّداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته. ذكر ذلك الفقيه عُمارة الشَّاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفِضَّة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف دِرْهم، فتوجَّهتُ إلى زَبيد وعدن من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججتُ في الموسم منها، فدفعتُ لأمير الحرمين ماله، وألزمني الترسُّل عنه إلى مصر، يعني مرة ثانية، بسبب جنايةٍ جناها خَدَمُه على حاج مصر والشَّام.

[محاصرة نور الدين قلعةَ حارم]

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدِّين قلعة حارِم[1]، وهي حصن غربيّ حَلَب بالقُرْب من أنطاكية، وضيَّق على أهلها؛ وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج، من قَرُبَ منها ومن بَعُدَ، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطانٌ من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يعرفهم قوَّتهم، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذبِّ عنه، بما عندهم من العَدد والعُدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارِم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه. ففَعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نورَ الدين في الصُّلْح على أن يعطوه حصَّة من أعمال حارِم، فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد. وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدةٍ. فذكر أبياتاً من قصيدةٍ

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٠٦.

Marfat.com

لابن مُنير. وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين. فإمَّا أن يكون ابن مُنير قال هذا الشعر في غير هذه الغَزَاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة.

وقد قرأتُ في ديوان ابن منير: وقال يمدحه ويهنئه بالعود من غَزَاة حارِم[1]: [الكامل]

مـا فـوْقَ شَـأْوِكَ فـي الـعُـلا مـزدادُ ... فـعـلامَ يُـقـلـقُ عَـزْمَـكَ الإجـهـادُ
هِـمَـمٌ ضَـرَبْـنَ عـلـى الـسَّـمـاء سُـرَادِقـاً ... فـالـشُّـهْـبُ أطـنـابٌ لـهـا وعِـمَـادُ
أنـتَ الـذي خَـطَـبَـتْ لـه حُـسَّـادُه ... والـفَـضْـلُ مـا اعْـتَـرَفَـتْ بـه الـحُـسَّـادُ
قـامَ الـدَّلـيـل وسلَّـم الـخَـصْـمُ الـيَـلَـنْـ ... ـدَدُ وانـجـلـى لـلآثـر الإسْـنَـادُ[2]
زهَـرت لـدولـتـك الـبـلادُ فَـرَوْحُـهـا ... أرِجُ الـمـهـبِّ ودَوْحُـهـا مـيَّـادُ
أحـيـا ربـيـعُ الـعَـدْلِ مَـيْـتَ رُبـوعـهـا ... فـالـبَـرْضُ لُـجٌّ والـهـشـيـمُ مَـرَادُ[3]
فـالـعـيـش إلا فـي جـنـابـك مـيـتـة ... والـنَّـوم إلا فـي حِـمـاك سُـهـادُ
وإذا العِدَى زرعـوا النِّفاق وأحصدوا ... كـيـداً فَـعَـزْمُـكَ نـاقـضٌ حَـصَّـادُ
بـالـمُـقْـرَبـات كـأنَّ فَـوقَ مُـتُـونـهـا ... جِـنَّ الـمـلا وكـأنَّـهـا أَطْـوَادُ[4]
تـذأى ومـن وحـي الـكُـمـاةِ صـفـورُهـا ... فـالـزَّجْـرُ قَـيْـدٌ والـنَّـدَا قَـيَّـادُ
سُـحْـبٌ إذا سَـحَـبَـتْ بـأرضٍ ذَيْـلَـهـا ... فـالـحَـزْن سَـهْـلٌ والـهِـضَـابُ وهـادُ
يـهـدي الـنَّـواظـر فـي دُجُـنَّـةِ نَـقْـعِـهـا ... بَـدْرٌ بـسـرجِـكَ نَـيِّـرٌ وقَّـادُ
أَلْـبَـسْـتَ دِيـنَ مـحـمـدٍ يـا نـورَه ... عِـزًّا لـه فَـوْقَ الـسُّـهـا إسـآد[5]
مـا زلـت تَـسْـمُـكُـه بـمـيَّـاد الـقَـنَـا ... حـتـى تـثـقَّـف عـودُه الـمُـنْـآدُ
لـم يـبـق مُـذ أَزْهَـفْـتَ عَـزْمَـك دونَـه ... عَـدَدٌ يُـرَاعُ بـه ولا اسْـتِـعْـدَادُ
إن الـمَـنَـابـرَ لـو تُـطـيـقُ تـكـلُّـمـاً ... حَـمِـدَتْـكَ عـن خُـطـبـائـهـا الأَعْـوادُ
ولـئـن حَـمَـتْ مِـنْـكَ الأعـادي مُـهـلـةً ... فَـلَـهُـمْ إلـى الـمَـرْعَـى الـوبِـيِّ مـعـاد
ولَـكَـمْ لَـكُـمْ فـي أرضـهـم مـن مَـشْـهَـدٍ ... قـامـتْ بـه لِـطُـبـاكـمُ الأَشْـهـادُ
مُـلـقٍ بـأطـرافِ الـفـرنـجـة كَـلْـكَـلاً ... طَـرَفـاه ضَـرْبٌ صـادِقٌ وجِـلادُ

---

(١) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٤٠٦، عشرة أبيات منها.
(٢) اليلندد: الشديد الخصومة.
(٣) البرص، بالباء المفتوحة، ثم الراء الساكنة: الماء القليل. ومراد: أي موضع ارتياد.
(٤) المقربات: الخيل التي تكون قريبة معدة، التي ضمرت للركوب، مفردها: المقربة.
(٥) السها: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. والإسآدُ: سير الليل.

Marfat.com

حاموا فلما عايَنُوا حَوْضَ الرَّدى ... حاموا برائشِ كَيْدِهم أو كادُوا
ورجا البرنس وقد تبرنس ذِلَّةً ... حرماً بحارِم والمصاد مَصَادُ
ضَجَّتْ ثعالبُه فأخْرَسَ جَرْسَها ... بيضٌ تناسب في الحديدِ حِدادُ
وَسوَاعِدٌ ضَرَبَتْ بهنَّ وبالقَنَا ... من دونِ مِلَّةِ أحمدَ الأسدادُ
يُزْكَزن في حَلَبٍ ومن أفنانها ... تجني فواكِهَ أمِنها بَغْدَادُ
يا مَنْ إذا عَصَفَتْ زعازعُ بأسه ... خَمَدَتْ جحيمُ الشِّرْكِ فَهْيَ رَمَادُ
عجباً لقومٍ حاولوك وحاولوا ... عوداً فواتاهم إليه مُرَادُ
ورَأَوْا لواءَ النَّصر فَوْقَك خافِقاً ... فأقامَ منهم في الضُّلوعِ فُؤادُ
من مُنْكِرٌ أن ينسِفَ السَّيلُ الزُّبى ... وأبوه ذاك العارِضُ المِدَّادُ(١)
أو أن يعيدَ الشَّمْسَ كاسِفَةَ السَّنا ... نارٌ لها ذاك الشِّهابِ زِنادُ
لا يَنفعُ الآباء ما سمكوا من الـ ... ـعلْياءِ حتَّى ترفعَ الأولادُ
ملكٌ يُقَيِّدُ خوفُه ورجاؤه ... ولقلَّما تتظافر الأَضْدَادُ

وقال يهنئه بالنَّصر يوم حارِم قصيدةً أولُها: [الوافر]

* لملكِكَ ما تشاء من الدَّوام *

يقول فيها: [الوافر]

حَظِيْتَ من المعالي بالمعاني ... ولاذَ النَّاسُ بَعْدَكَ بالأسامي
عزيز المُنْتَمى عالي المراقي ... بعيد المُرْتَمى غالي المسامي
فما أحدٌ إلى العلياء يُدْلي ... بِمَخْتِدِك القسيميِّ القسامي
أبوك المُغْتَلي قممَ الأعادي ... إذا اسْتَعَرَتْ مذامرةُ القُمامِ
زكا عِرْقُ العِراقِ وقد تكنَّى ... به وأطال من شَمَمِ الشَّآمِ
وجدُّك جَدَّ حتى قال قَوْمٌ ... على الفَلَكِ ابتنى عَمَدَ الخيامِ
فخَرت فقُتَّ آباءً عِظَاماً ... إذا فَخَرَ المُنَافِرُ بالعِظَامِ
وقفنا والنَّواظِرُ مسجدات ... وروح العِزِّ داريُّ الخِتامِ
أساطِرَ كالزُّبورِ مفصَّلات ... كأنَّا مِن صلاةٍ في نِظَامِ
لدى ملكٍ سَجَاياه سِجَالٌ ... تَعَاقَبُ بين عَفْوٍ وانتقامِ
فأَهْلَلْنَا لسالِفَتَيْ هِلالٍ ... وكفَّرنا لضاحكتي حُسَامِ

(١) الزبى: جمع الزبية، وهي الرابية التي يعلوها الماء، ومنه المثل: بلغ السيل الزبى.

Marfat.com

ذَهَلْنَا والسِّماطُ يُخالُ سِمْطاً وقد سَجَدَ المقاوِلُ للسَّلامِ
هلِ الدَّسْتُ استقلَّ بليثِ غابٍ أم الفَلَكُ ارْتَدَى بَدْرَ التَّمامِ
كريمٌ أَكْثَرَتْ يدُه أيادي الـ ـعُفاة وقلَّلَتْ عَدَدَ الكِرَامِ(١)
وخيرُ سماعه ضَرْبٌ مُدَامٌ إذا طَرِبَ الملوكُ إلى المُدَامِ
يطير به إلى العلياءِ نَفْسٌ غَروبٌ عن ملاءمة المَلامِ
سقَى اللَّهُ العَوَامِلَ من جبالٍ شققن النَّقْعَ عن نَقْعِ الأُوامِ
فكَمْ أَنْتَجْتَ من أَمَلٍ عقيمٍ بها وحَسَمْتَ من داءٍ عُقَامِ
بإنْبٍ والرِّعالِ كأنَّ ثولاً تطاوَحَ تحتَ عيرٍ من إيامِ(٢)
وأيدي الخيلِ تَذْرَعُ لُجَّ بحرٍ من الدَّمِ مزبدِ الثَّجَّيْنِ طامي
مقامٌ كنتَ قُطْبَ رحاه أرجى مقامٍ بين زَمْزَمَ والمَقَامِ
أَحَلْتَ الدينَ فيه وكان هِمًّا عزيزَ القومِ مُعْتَدِلَ القَوَامِ(٣)
رميتَهُمُ بأرعن مرجحنّ أبارَهُمُ وكنتَ أبرَّ رامي
وفي شجراء حارِمَ شاجرتهم سواهمُ كالسهامِ بكالسِّهامِ
نظائر حمَّمت لهم حِماماً تطاير تحته مثل الحَمَامِ
فلو قد مُثِّلَ الإسلامُ شخصاً لرشَّف ما وطئت من السَّلامِ
حماه وقد تناعسَ كُلُّ راعٍ وقامَ وقد تقاعَسَ كُلُّ حامِ
فأكْذَبَ مُدَّعين هَفُوا وغرُّوا بأنَّ الأرضَ تخلو من إمامِ
أُولي الأبصار كم هذا التعاشي عن النُّورِ المبينِ بل التَّعَامي
عن القمرِ الذي يجلوه ظِلُّ الـ ـعواصمِ في ضيا اللَّيلِ التُّهامي
هو المهديُّ لا مَنْ ضلَّ فيه كثيرٌ واستخفَّ سوى هشامِ
وقائمُ عصرِنا لا ما تمنَّى به من صَوْغِ أَضْغاثِ المَنَامِ
بنور الدين أُنشر كلُّ حقٍّ أُطيلَ ثواؤه تحت الرِّجامِ
وطالت قُبَّةُ الإسلام حتَّى استوت بين الفوارس والنَّعامِ
تطابقَ لاسمِه لَفْظٌ ومعنًى أحلَّاه الطِّباقَ على الأنامِ

---

(١) العفاة: طلاب المعروف.

(٢) الرعال: جمع رعلة، وهي الخيل. والثول: جماعة النحل. والعير: الحمار الوحشي. وإيام، بكسر الألف الدخان.

(٣) الهمّ، بكسر الهاء، وتشديد الميم: الشيخ الفاني.

Marfat.com

جرى قُدَّامه ابنُ سُبُكْتِكِين وقبل الوَبْلِ هَيْنَمَةُ الرِّهامِ[١]
وكان من النجوم بحيث تومي إليه من غيَابات التكامي
وجئت فصارَ أشمخ ما بناه لما شَيَّدْتَ ألطا من رُغَامِ
أطاعك إذْ أطَعْتَ الله جَدٌّ رَكِبْتَ به الزَّمانَ بلا زمامِ
ألا يا رُبَّما اتفق الأسامي وفاضل بينها دَرَجُ التَّسامي
جنى شرفاً من استغواه حَتْفٌ إليك وكم حياةٍ من حِمَامِ
ترشفك الكُماةُ وأنتَ موتٌ كأنَّك من طِعَانٍ في طَعَامِ

فصل

قال الرَّئيس أبو يعلى: توجَّه نورُ الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرَّابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم، وصادفه في طريقه المبشِّرُ بظفر عسكره الحلبي بالإفرنج المفسدين على حارِم، وقَتْلِ جماعة منهم وأسرهم، ووصل مع المبشِّر عِدَّةٌ وافرة من رؤوس الإفرنج المذكورين، وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها، وتفقُّد أحوالها، واستقرَّت الموادعة بينه وبين ولد السُّلطان مسعود صاحب قُونية، وزال ما كان حدَث بينهما.

وفي شوال تقرَّرت الموادعة والمُهادنة بينه وبين ملك الإفرنج مُدَّة سنة كاملة، أولها شعبان، وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صوريَّة[٢]، وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدَّدة.

قال: وفي العشر الأخير من ذي الحجة غدر الإفرنج، ونقضوا ما كان استقرَّ

(١) ابن سبكتين: هو يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين، فاتح الهند، وأحد كبار القادة، امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وكانت عاصمته غزنة، ولد يوم عاشوراء سنة ٣٦٠هـ، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٤٢١هـ. وكان مرضه سوء مزاج وإسهالا وبقي كذلك نحو سنتين (انظر أخباره في «الكامل» ٧/ ٤٦٦ ـ ٤٩٤، ٨/ ٣ ـ ١٨٩. ووفيات الأعيان ٥/ ١٧٥ ـ ١٨١).

(٢) الدينار الصورية: أي على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس (انظر صبح الأعشى ٣/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤).

Marfat.com

من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدَّة وافرة من الفرنج في البحر، وقوَّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، وقد اجتمع فيها من جشارات[١] خيول العسكرية والرَّعية وعوامل فلاحي الضِّياع، ومواشي الجلَّابين[٢] والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لا يحصى فيذكر، للحاجة إلى الرَّعي بها والسكون إلى الهُدْنة المستقرَّة، ووقع للمندوبين بحفظها تقصير، فانتهزوا الفُرْصة، واستاقوا جميعَ ما وجدوه، وأفقروا أهله منه، مع من أسروه من تركمان وغيرهم، وعادوا ظافرين غانمين آثمين. والله عادلٌ في حكمه، يتولى المكافأة لهم، والإدالة منهم.

وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السَّنة الآتية.

وفيها توفي القاضي أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادُوس[٣]؛ كاتب الإنشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دِمْياط، ذكره العمادُ الكاتب في «الخريدة»[٤]، وأثنى عليه. ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في آخر الصَّلاة[٥]: [السريع]

وَفَاتِرِ النِّيَّةِ عَنْيِنِها ... مِعْ كَثْرَةِ الرَّعْدَةِ والهِزَّهْ
مُكَبِّرٌ سبعينَ في مرَّةٍ ... كأنَّهُ صلَّى على حَمْزَهْ

وله في صفة كتاب[٦]: [السريع]

مِدَادُه في الطِّرْسِ لمَّا بدا ... قَبَّلَهُ الصَّبُّ ومن يَزْهَدُ
كأنَّما قد حلَّ فيه اللَّمَى ... أو ذابَ فيه الحَجَرُ الأَسْوَدُ[٧]

وبلغني أن القاضي الفاضل[٨] كان يعظِّمه كثيراً ويُسَمِّيه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لا يتمكَّن من اقتباس فوائده غالباً إلا في ركوبه

---

(١) الجشارات: جمع جشار، وهو مكان رعي الماشية من خيل وغيرها (انظر صبح الأعشى ١١/ ١٧٠، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٨٥).
(٢) الجلّابون: أي تجار الماشية الذين يجلبون الماشية ويبيعونها.
(٣) هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس، القاضي الكاتب المصري، وصاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، أصله من دمياط (فوات الوفيات ٤/ ١٠٠ ـ ١٠١).
(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٢٦ ـ ٢٣٤.
(٥) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٢٦.
(٦) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٣٠.
(٧) اللمى: سمرة الشفتين واللثات.
(٨) القاضي الفاضل: عبد الرحيم بن علي المتوفى سنة ٥٩٦هـ. تقدمت ترجمته في أول هذا الجزء.

Marfat.com

من القَصْر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر، فَيُسَايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والأدب والشعر.

قال: وفي يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوّل من السنة توفي الفقيه الزّاهد أبو البيان نبا بن محمد المعروف بابن الحَوْراني[1]، وكان حسنَ الطريقة مذ نشأ صبياً إلى أن قضى، متديناً تقياً، عفيفاً سخياً، مُحباً للعلم والأدب، والمطالعة للغة العرب. وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر باب الصغير المجاورة لقبور الصَّحابة من الشُّهداء، رضي الله عنهم، يومٌ مشهود، من كثرةِ المتأسِّفين له والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزَّلازل بالشَّام.

[حدوث الزلازل بالشام]

قال أبو يعلى: في ليلة الثَّاني والعشرين من شعبان وافت زلزلةٌ هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار وفي الليل، ثم جاء بعد ذلك ثلاثٌ دونهنَّ، بحيث أُحصين ستَّ مرَّات. وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع النَّاس منها في أول النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماة بانهدام مواضع كثيرة، وانهدام بُرْج من أبراج أفامية بهذه الزَّلازل المباركة. وذكر أن الذي أُحصي عددُه منها تقدير الأربعين، وما عُرف مثل ذلك في السِّنين الماضية، والأعصار الخالية. وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار، وبالليل ثانيةٌ في آخره، وفي أول شهر رمضان زلزلةٌ مروِّعة، وثانية، وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأُخرى هائلة أيقظت النِّيام، وروَّعت القلوب انتصاف الليل. وفي ليلة نصف رمضان زلزلةٌ هائلة أعظم مما سبق، وعند الصَّباح أُخرى، وفي الليلة التي تليها زلزلتان أوَّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة. وفي ثاني شوال زلزلة أعظم مما تقدَّم، وفي سابعه، وسادس عشره، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه. ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه، برأفته بهم، ورحمته لهم، فله الحمد والشكر. لكن

---

(١) هو نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي، المعروف بابن الحوراني، شيخ الطائفة البيانية المنسوبة إليه بدمشق، كان إماماً عالماً زاهداً، قال ابن السبكي في تاريخه: له تصانيف مفيدة ومجاميع حسان نظماً ونثراً (كشف الظنون ٦/ ٤٨٩، مرآة الزمان ٨/ ١٣٩، معجم الأدباء ١٩/ ٢١٣ ـ ٢١٤، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٣١٨ ـ ٣٢٠).

Marfat.com

وردت الأخبارُ من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها، وانهدام مساكنها. وأما شَيْزَر فإنَّ الكثير من مساكنها انهدم على سُكَّانه بحيث قتل منهم العدد الكثير. وأما كَفْر طاب فهرب أهلُها منها خوفاً على أرواحهم. وأما حماة فكانت كذلك. وأما باقي الأعمال الشَّامية فما عُرف ما حدث فيها من هذه القُدْرة الباهرة.

[حدوث الزلازل في الشام]

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلةٌ عظيمةٌ، وتلاها أخرى، وكذا في ليلة العشرين واليوم بعدها، وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال بعظيم تأثير هذه الزلازل[1].

وفي ليلة الخامس والعشرين من جُمادى الأُولى وافت أربعُ زلازل، وضجَّ الناس بالتَّهليل والتسبيح والتقديس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان. وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال بأنَّ هذه الزلازل أثَّرت في حلب تأثيراً أزعج أهلها وأقلقهم، وكذا في حمص، وهدمت مواضع فيها، وفي حماة وكَفْر طاب وأفامية، وهدمت ما كان بُني من مهدوم الزلازل الأول، وحُكِي أن تيماء أثرت فيها هذه الزلازل تأثيراً مهولاً.

وفي رابع رجب نهاراً وافت بدمشق زلزلةٌ عظيمة لم يُر مثلُها فيما تقدَّم، ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم، وهربوا من الدُّور والحوانيت والسَّقائف، وانزعجوا، وأثرت في مواضع كثيرة، ورمت من فصِّ الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن إعادة مثله، ثم وافت عقيبها زلزلة في الحال، ثم سكنتا بقدرة من حَرَّكهما. ثم تبع ذلك في أول ليلة اليوم المذكور زلزلة، وفي وسطه زلزلة، وفي آخره زلزلة، وفي ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس، وتلاها في النصف منها ثانية، وعند انبلاج الصبح ثالثة، وكذلك في ليلة السبت، وليلة الأحد، وليلة الاثنين، وتتابعت بعد ذلك بما يطول به الشرح. ووردت الأخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويرعب النفوسَ ذِكْرُه، بحيث انهدمت حماة وقلعتها، وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان، والأطفال والنسوان، وهم العدد الكثير والجمّ الغفير، بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسير. وأما شَيْزَر فإن رَبَضَها سَلِمَ إلا ما كان خرب أولاً، وأما حِصْنُها

(١) انظر خبر الزلازل بالشام في «الكامل» ٩/ ٤١٣. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١ ـ ٨٢.

المشهور[١] فإنه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن مُنقذ[٢] ومن تبعه إلا اليسير ممن كان خارجاً. وأما حمص فإن أهلها كانوا قد اختلفوا منها إلى ظاهرها فسلموا، وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها. وأما حلب فهُدمت بعضُ دورها، وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب وأفامية وما والاها ودنا منها وبعُدَ عنها من الحصون والمعاقل إلى جَبْلة وجُبَيْل وأتلفت سَلَمْيَة وما اتصل بها إلى ناحية الرَّحبة وما جاورها، ولو لم يدرك العبادَ والبلاد رحمةُ الله تعالى ولطفه ورأفته لكان الخَطْبُ أفظع.

وقد نَظَم في ذلك من قال: [الخفيف]

رَوَّعَتْنَا زلازلٌ حادثاتٌ ... بقضاءٍ قَضَاهُ ربُّ السَّماءِ
هَدَمَتْ حِصْنَ شَيْزَرٍ وحماةً ... أهْلَكَتْ أهلَهُ بسوء القضاءِ
وبلاداً كثيرةً وحُصُوناً ... وثغوراً مُوَثَّقات البِنَاءِ
فإذا ما رَنَتْ عيونٌ إليها ... أجْرَتِ الدَّمْعَ عِنْدَها بالدِّماءِ
وإذا ما قضى من الله أمْرٌ ... سابقٌ في عباده بالمَضَاءِ
حار قَلْبُ اللَّبيب فيه ومَنْ كا ... نَ له فِطْنَةٌ وحُسْنُ ذكاءِ
وتراه مسبِّحاً باكيَ العيـ ... ـنِ مَرُوعاً من سخطة وبلاءِ
جَلَّ ربي في ملكه وتعالى ... عن مِقال الجُهَّال والسُّفهاءِ

قال: وأما أهل دمشق، فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التَّاسع والعشرين من رجب ارتاع النَّاس من هولها، وأجفلوا من منازلهم والمسقَّف إلى الجامع والأماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى، فَفُتِحَ البَلَدُ وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء، وأقاموا عِدَّة ليال وأيام على الخوف والجزع، يسبِّحون ويهلِّلون، ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللُّطْفِ بهم والعفو عنهم.

قال: وفي الرَّابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة روَّعت الناس وأزعجتهم، لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشَّام من تتابع الزَّلازل فيها. ووافت الأخبار من ناحية حلب بأنَّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجُدْرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماة أعظم مما كانت في غيرها، وأنها

---

(١) انظر خبر حصن شيزر وتهدمه في الزلازل. وخبر بني منقذ في «الكامل» ٩/ ٤١٣ ـ ٤١٥. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١ ـ ٨٢.

(٢) هو الأمير ناصر الدين محمد ابن سلطان.

هدمت ما كان عُمر فيها من بيوت يلتجأ إليها، وأنها دامت فيها أياماً كثيرة في كلِّ يوم عدَّة وافرة من الرَّجفات الهائلة، يتبعها صيحات مختلفات تُوفِي على أصوات الرُّعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر. وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهنَّ. فلما كان ليلة السبت العاشر من شوال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة عشاء الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها هزَّة خفيفةٌ. وكذا ليلة العاشر من ذي القعدة، وفي غدها زلازل، وليلة الثالث والعشرين، والخامس والعشرين منه أيضاً زلازل، نفر الناسُ من هولها إلى الجامع والأماكن المنكشفة، وضجُّوا بالتكبير والتهليل، والتَّسبيح والدُّعاء، والتضرُّع إلى الله تعالى. وفي يوم الجمعة، انسلاخَ ذي القعدة، وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

قال ابن الأثير[1]: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشَّام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدُّها بمدينة حماة وحصن شَيْزَر، فإنهما خربا بمرَّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرَّة، وغيرهما من البلاد والقرايا. وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتهدَّمت الأسوار والدُّور والقلاع، ولولا أنَّ الله تعالى منَّ على المسلمين بنور الدين، جمع وحفظ البلاد، وإلا كان دخلها الفرنج بغير حصار ولا قتال.

قال: ولقد بلغني من كثرة الهَلْكَى أنَّ بعض المعلِّمين بحماة ذكر أنه فارق المكتب لِمُهِمّ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدُّور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلمُ: فلم يأتِ أحدٌ يسأل عن صبيٍّ كان له في المكتب.

قلتُ: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مُؤَيَّد الدولة أُسامة بن مُرشد بن مُنْقذ: وقال في الزلازل التي أهلكت كثيراً من أهل الشام، وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وهلك بها من هلك من الخَلْقِ، فكان نحواً من عشرة آلاف نسمة، قال: وكتب هذا المكتوب والزلازلُ إلى الآن تتعاهد البلاد: [المنسرح]

نِمْنَا عن الموتِ والمعادِ وأصـ ـبحنا نَظُنُّ اليقينَ أحلاما
فحرَّكتنا هذي الزَّلازلُ أي تيقَّظوا كم ينامُ مَنْ ناما

وقال أيضاً: [الخفيف]

أيها الغافلونَ عن سَكْرَةِ المو تِ وإذْ لا يسوغُ في الحَلْقِ ريقُ

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤١٣.

Marfat.com

كم إلى كم هذا التَّشاغل والغَفْـ ـلة حار السَّاري وضَلَّ الطريقُ
إنما هَزَّتِ الزلازلُ هذي الـ أرْضَ بالغافلين كي يَسْتَفِيقُوا

وقال في الزَّلازل أيضاً، وقد سكن الناس بعد الدُّور والنُّزْهَة في أكواخ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل: [البسيط]

يا أرحم الرَّاحمين ارْحَمْ عبادك من هذي الزَّلازل فهي الهُلْك والعَطَبُ
ماجت بهم أرضُهُمْ حتى كأنَّهُمْ رُكَّابُ بحرٍ مع الأنفاس تَضطَرِبُ
فنصفُهم هَلَكُوا فيها ونصفهمُ لمصرع السَّلَفِ الماضين يَرْتَقِبُ
تعوَّضوا من مشيدات المنازل بالـ أكواخِ فهي قبورٌ سَقْفُها خَشَبُ
كأنَّها سُفُنٌ قد أقبلتْ وهُم فيها فلا ملجأٌ منها ولا هَرَبُ

وقال يرثي أهلَه الذين هلكوا بالزلازل بحصن شَيْزَر قصيدةً منها: [البسيط]

ما اسْتَدْرَجَ الموتُ قومي في هلاكهُم ولا تخرَّمهم مثنّى وَوُحْدَانا[1]
فكنتُ أصبرُ عنهم صَبْرَ مُحْتَسِبٍ وأحملُ الخَطْبَ فيهم عَزَّ أوْ هَانا
وأقْتَدِي بالوَرَى قَبْلي فكم فَقَدُوا أخاً وكم فارقُوا أهْلاً وجيرانا
لكنَّ سَقْبَ المنايا وسطَ جمعهمُ رَغَا فخرُّوا على الأذقان إذعانا
وفاجَأتْهُمْ من الأيام قارعةٌ سقتهمُ بكؤوس الموتِ ذَيْفَانا[2]
ماتوا جميعاً كَرَجْعِ الطَّرْفِ وانقرضوا هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا
أعْزِزْ عليَّ بهم من معشرٍ صُبُرٍ على الحفيظة إنْ ذو لُوثةٍ لانا[3]
لم يتركِ الدَّهْرُ لي من بَعْدِ فَقْدِهِمُ قلباً أُجَشِّمُه صَبْراً وسُلْوانا
فلو رَأَوْني لقالوا ماتَ أَسْعَدُنا وعاشَ للهَمِّ والأحزانِ أَشْقَانا
لم يتركِ الموتُ منهم من يخبِّرني عنهم فَيُوضِحُ ما قالوه تِبْيَانا
بادُوا جميعاً وما شادُوا فوا عجباً للخَطْبِ أهلكَ عُمَّاراً وعُمْرانا
هذي قصورُهُمْ أَمْسَتْ قبورَهُمُ كذاك كانوا بها مِنْ قَبْلُ سُكَّانا
ويحَ الزَّلازلِ أَفْنَتْ مَعْشَرِي فإذا ذكرتُهم خِلْتُني في القومِ سَكْرانا
لا ألتقي الدَّهْرَ من بعد الزَّلازلِ ما حييتُ إلَّا كسيرَ القَلْبِ حَيْرَانا

---

(١) تخرّمهم: استأصلهم، واقتطعهم.
(٢) الذيفان: السم القاتل.
(٣) اللُّوثة، بفتح اللام: الحمق والهيجان، واللُّوثة، بضم اللام: مسّ الجنون.

Marfat.com

أَخْنَتْ على مَعْشَرِي الأدْنَيْنَ فاصْطَلَمَتْ ... منهم كهولاً وشُبَّانا ووِلْدَانا
لم يَحْمِهِم حِصْنُهم منها ولا رَهِبَتْ ... بأساً تناذَره الأقرانُ أزمانا
إنْ أَقْفَرَتْ شَيْزَرٌ منهم فهم جعلوا ... منيعَ أسوارِها بِيضاً وخِرْصانا(١)
هُم حَمَوْها فلو شاهَدْتَها وهمُ ... بها لشاهَدْتَ آساداً وخَفَّانا
تراهمُ في الوَغَى أُسداً ويومَ ندًى ... غَيْثاً مُغيثاً وفي الظَّلْماء رُهْبانا
بنو أبي وبنو عَمِّي دَمي دَمُهُمْ ... وإن أَرَوْني مُناواةً وشَنْآنا
يُطَيِّبُ النَّفْسَ عنهم أنَّهم رَحَلُوا ... وخلَّفوني على الآثار عَجْلانا

وكتبَ إليه الصَّالح بن رُزِّيك قصيدةً يعزِّيه عن أهله، منها: [الخفيف]

بأبي شَخْصُك الذي لا يغيبُ ... عن عِياني فهو البعيدُ القريبُ
يا أخلَّايَ بالشَّآم لئن غِبْـ ... ـتُم فَشَوْقي إليكُمُ لا يغيبُ
غَصَبَتْنَا الأيامُ قُرْبَكُمُ مِنَّـ (م) ـا ولا بدَّ أن تُرَدَّ الغُصُوبُ
كَرِهَ الشَّامُ أهلَه فهو محقو ... قٌ بألَّا يُقيمَ فيه لَبيبُ
إن تجلَّتْ عنه الحروبُ قليلاً ... خَلَفَتْها زَلازِلٌ وخُطُوبُ
رَقَصَتْ أَرْضُه عَشِيَّةَ غَنَّى الرَّ (م) عْدُ في الجوِّ والكريمُ طَرُوبُ
وتَثَنَّت حِيطانُه إذْ أمالَتْـ ... ـها شَمالٌ بزَمْرِها وجَنُوبُ
لا هُبُوبٌ لنائم من أمانيـ ... ـه وللعاصفاتِ فيها هُبُوبُ
وأرى البَرْقَ شامتاً ضاحِكَ السِّنِّ (م) وللجوِّ بالغمام قُطُوبُ
ذَكَرُوا أنَّهُ تَذُوبُ به السُّحْـ ... ـبُ فما للصُّخور أيضاً تَذُوبُ
أبِذَنْبٍ أصابها قَدَرُ اللَّـ ... ـه فللأرضِ كالأنام ذُنوبُ
إنَّ ظَنِّي والظَّنُّ مِثْلُ سهامِ الرَّ (م) مي منها المُخْطِي ومنها المُصِيبُ
إنَّ هذا لأنْ غَدَتْ ساحةُ القُدْ ... سِ وما للإسلامِ فيها نَصِيبُ
منزلُ الوحي قبلَ بعث رَسُولِ اللَّـ (م) ـه فهو المحجوجُ والمحجوبُ
نَزَلَتْ وَسْطَه الخنازِيرُ والخَمْـ ... ـرُ وبارَى النَّاقوسَ فيه الصَّليبُ
لو رآه المسيحُ لم يَرْضَ فعلاً ... ذَكَرُوا أنَّه له مَنْسُوبُ
أبعدُ النَّاس عن عبادةِ رَبِّ النَّـ (م) ـاسَ قَوْمٌ إلهُهُمْ مَصْلُوبُ

(١) الخرصان: جمع خرص، وهو سنان الرمح.

Marfat.com

لَهْفَ نفسي على ديارٍ من الشُّكْـ (م) ـانِ أَقْوَتْ فليس فيها عَرِيبُ[١]
فاحْتَسِبْ ما أصابَ قَوْمَك مجدَ الدِّ (م) ين واصبر فالحادثاتُ ضُروبُ
إن تَخَصَّصْكُمْ نوائبُ ما زا (م) لت لكم دون من سِواكم تَنُوبُ
فكذاك القناةُ يُكْسَرُ يومَ الرَّ (م) وْعِ منها صَدْرٌ وتبقى الكُعوبُ

وقرأت في «ديوان العرقلة»: كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيدٍ غلامِ المولى ـ وكان عبيد هذا موصوفاً بالثُّقَل ـ في بيت بمدينة حماة يوم الزلزلة، فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هُما فيه. فقال العرقلة: [السريع]

قُلْ لصلاحِ الدِّين ربِّ النَّدَى (م) بلِّغ عُبَيداً كلَّ ما أمَّلَهْ
بثِقْلِهِ لمَّا تصاحبتُما (م) سَلَّمك اللَّهُ مِنَ الزَّلْزلَهْ

وقرأت في بعض كتب أبي الحسين الرَّازي[٢] عن شيوخه أنه وقع بدمشق في ذي القَعْدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة حُكي عنها نحوٌ مما مضى ذكره وأكثر، نسأل الله تمام العافية.

فصل

[توجه نور الدين إلى بعلبك وانتصار أمير أميران على الفرنج]

قال الرَّئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأول توجَّه نور الدين إلى ناحية بَعْلَبَك لتفقُّد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار إليه من ناحية حمص وحماة بإغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال[٣].

---

(١) أقْوت: أي خلت وأقفرت. وليس فيها عريب: أي ليس فيها أحد.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد، والد تمام الرازي، الحافظ أبو الحسين، محدث الشام الشافعي، استوطن دمشق، وتوفي بها سنة ٣٤٧هـ، صنف «مناقب الإمام الشافعي» (كشف الظنون ٦/ ٤٣).

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٤١٩، وفيه: في هذه السنة ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها، وكانت بيد إنسان يقال له ضحاك البقاعي، منسوب إلى بقاع بعلبك، وكان قد ولاه إياها صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق، امتنع ضحاك بها، فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج، فتلطف الحال معه إلى الآن، فملكها واستولى عليها.

Marfat.com

وفي خامس عشر ربيع الأول ورد المُبَشِّر من العسكر المنصور برأس الماء بأنَّ ناصر الدين أمير أميران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سريَّة وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم، وعِدَّتهم سبعمائة فارسٍ سوى الرَّجَّالة، فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس وقد خرج إليهم من كان فيها من حُماتها، فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كُمناء من شجعان الأتراك، واندفع المسلمون بين أيديهم في أول المجال، وظهر عليهم الكمناء، فأنزل الله نصره على المسلمين، بحيث لم ينجُ منهم إلَّا القليل، وصاروا بأجمعهم بين قتيلٍ وجريح، ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لا يحدُّ كثرةً، ومحقت السُّيوف عامَّة رجَّالتهم من الإفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعُدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوماً مشهوداً. وأُنفذ إلى نور الدين إلى بَعْلَبَكَّ جماعةٌ من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البُشْرى الثَّانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنَّه قد ظفر من المشركين بسريَّة وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال، فانهزمت، وتخطَّف التركمان منهم من ظفروا به.

[وصول أسد الدين شيركوه إلى بعلبك]

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجمِّ الغفير، واجتمعوا بنور الدين، وتقرَّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنُّزول على بانياس، وقدِمَ نور الدين دمشق في إخراج آلات الحرب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياماً يسيرة ويتوجَّه. وأمر بالنداء بدمشق في الغُزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث، والمُطَّوِّعة والفقهاء والصُّوفية والمتدينين خَلْقٌ كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول.

[محاصرة نور الدين بانياس]

وفي سابع ربيع الآخر، عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس، يتضمَّن كتابه الإعلام بورود المُبَشِّر من معسكر أسد الدين بناحية هُونِين في التركمان والعرب بأن الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ أنهضوا سريَّةً من أعيان مُقدَّميهم

Marfat.com

وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم، لكبس المذكورين، ظناً منهم بأنهم في قُلّ، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنَوْا منهم وثبوا إليهم كاللُّيوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يبق منهم إلّا اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعُددهم من الخيول المنتخبة، والطُّوارق(١)، والقُنْطاريات(٢) إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالي اليوم المذكور.

[فتح نور الدين بانياس]

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدْدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسَّيْفِ قَهْراً، على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور، عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه، وسقُوط البُرْج المنقوب وهجوم الرِّجال فيه، وبذل السيف في قتل من فيه، ونَهْب ما حواه، وانهزام من سَلِمَ إلى القلعة وانحصارهم بها، وأنَّ أخْذهم بمشيئة الله تعالى لا يبطئ، والله يسهِّله ويعجله.

قال: واتَّفق بعد ذلك أن الفرنج تجمَّعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس، وقد أشرفوا على الهلاك، وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان، ويسلِّمون ما في أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين؛ فلم يجبهم إلى ما سألوا ورغبوا فيه. فلما وصل ملك الإفرنج في جمعه من الفارس والرَّاجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العَسْكَرَيْن؛ النَّازل على بانياس لحصارها، والنَّازل على الطَّريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السِّياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها، واستخلصوا من كان فيها، وحين شاهدوا ما عمَّ بانياس من إخراب سورها ومنازل سُكَّانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

[انتصار نور الدين على الفرنج في الملاحة]

قال: وفي تاسع جُمادى الأولى سقطت الأطيار بالكتب من المعسكر النُّوري تتضمن الإعلام بأن الملك العادل نور الدين ـ أعز الله نصره ـ لما عرف أنَّ معسكر الكفرة الإفرنج على الملَّاحة؛ بين طبريَّة وبانياس، نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب، وجَدَّ في السير، فلما شارفهم وهم غارُّون، وشاهدوا راياته قد

---

(١) الطوارق: جمع طارقة، وهي الترس.
(٢) القنطاريات: جمع قنطارة، وهي الرمح.

Marfat.com

أظلَّتهم، بادروا بلبس السِّلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين، فعند ذلك ترجَّل الملك نور الدين، فترجَّلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسِّهام وخِرْصان الرِّماح، حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحِمام، فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وتمكَّنوا من فرسانهم قتلاً وأسراً، واستأصلت السُّيوفُ الرَّجَّالة، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه الله فيهم، وقيل إنه في جُمْلة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يُفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين قتل أربعة من شجعان الكفرة، وقُتل عند حضور أجله إلى رحمة الله تعالى، والآخر غريب لا يُعرف، وكل منهما مضى شهيداً، مثاباً مأجوراً، رحمهما الله. وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعُددهم، وكُراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحاً مبيناً، ونصراً عزيزاً. ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رَتَّبوا على كلِّ جملٍ فارسين من أبطالهم ومعهما رايةٌ من راياتهم منشورة، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عِدَّة، والمقدَّمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرسٍ، وعليه الزَّرَدية[1] والخوذة، وفي يده راية، والرَّجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يُحصى لهم عدد، من الشُّيوخ والشبان، والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله ـ تعالى ذِكْرُه ـ كافَّةَ المسلمين من هذا النصر المبين، وأكثروا شكر الله تعالى، والدعاء لنور الدين المحامي عنهم، والرَّامي دونهم، والثناء على مكارمه، والوصف لمحاسنه.

ونُظم في ذلك أبيات في هذا المعنى: [الخفيف]

ما رأينا فيما تقدَّم يوماً ... كاملَ الحُسْنِ غايةً في البهاءِ
مِثْلَ يومِ الفرنج حين عَلَتْهُمْ ... ذِلَّةُ الأسْرِ والبلا والفَناءِ
وبراياتهمْ على العِيسِ زُفُّوا ... بين ذُلٍّ وحَسْرَةٍ وعَناءِ
بعد عِزٍّ لهم وهيبةِ ذِكْرٍ ... في مصاف الحروب والهَيْجاءِ
هكذا هكذا هلاكُ الأعادي ... عند شنِّ الإغارة الشَّعْواءِ
شؤم أَخْذِ الجشار كان وَبالاً ... عَمَّهُمْ في صَباحهم والمساءِ[2]
نقضوا هُدْنةَ الصَّلاحِ بجهلٍ ... بَعْدَ تأكيدِها بحُسْنِ الوَفاءِ

(١) الزردية: جمع زرد وهي درع مزخرفة.
(٢) الجشار: هو مكان رعي الماشية وغيرها.

فلقوا بَغْيهم بما كانَ منهم ... من فسادٍ بجهلهم واعْتِدَاءِ
لا حمى اللّهُ شَمْلَهُمْ من شَتَاتٍ ... بِمَواضٍ تفوقُ حَدَّ المَضَاءِ
فجزاء الكَفورِ قَتْلٌ وأَسْرٌ ... وجَزَاء الشَّكُورِ خَيْرُ الجَزَاءِ
ولِرَبِّ العِبادِ حَمْدٌ وشُكْرٌ ... دائمٌ مَعْ تواصلِ النَّعْماءِ

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملُّكها وتدويخها، والله المعين والموفق.

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا، وأكثروا العيث، واتَّصل ذلك بنور الدين فأنْهَدَ إليهم عسكراً كثيفاً، فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس، وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشدَّ حصار، حتى افتتحها في الثَّامن والعشرين من ربيع الأول، وأخَذَ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعةً من خَيَّالتها، واتَّصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج، فلبس لأْمَتَه[1]، وتقدَّم في جماعةٍ من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرِّجال بلقاء الفرنج، وناجزهم الحرب، فلم يتماسكوا بين يديه، ورجعوا على أدبارهم، وتبعهم مقدار فرسَخين يقتل ويأسر، وغَنِمَ منهم غنيمةً حسنة، وعاد إلى أصحابه ظافراً، وتوجَّه في وجهته مُؤَيَّداً.

فصل

[توجه نور الدين إلى حلب وقرب الملك ابن مسعود منها]

قال الرَّئيس أبو يعلى: وفي العشر الثَّاني من جُمادى الآخرة تواصلت الأخبار بوصول ولد السُّلْطان مسعود في خَلْق كثير للنُّزول على أنطاكية، وأوجبت الصُّورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الإفرنج، وتكرَّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات، بحيث فسد الأمر ولم يستقرَّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرِّ عزه في بعض عسكره، وأقَرَّ باقيه ومقدَّميه مع العرب بإزاء أعمال المشركين.

(١) اللأمة: الدرع، وقيل: السلاح، وإنما سمي لأمة، لأنها تلائم الجسم وتلازمه.

Marfat.com

قال: وفي ثالث رجب توجَّه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها لتجديد مشاهدتها، والنَّظر في حمايتها عندما عاث المشركون فيها، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها.

ثم قال بعد ذلك: قد تقدَّم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بلاد الشام عند انتهاء الخبر إليه بتجمع أحزاب الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ وقَصْدِهم لها، وطمعهم ـ بحكم ما حدث من الزلازل والرَّجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها ـ لحمايتها والذبِّ عنها، وإيناس من سَلِمَ من أهل حمص وشَيْزَر، وكفَرْطاب، وحماة وغيرها، بحيث اجتمع إليهم العدد الكثير والجمُّ الغفير، من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخَيَّم بهم بإزاء جَمْعِ الفرنج بالقُرْب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارسٌ منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حادٌ، فلما اشتدَّ به، وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شِيْركُوه، وأعيان الأمراء والمقدَّمين، وأوصى إليهم ما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرَّر معهم كَوْنَ أخيه نُصْرة الدين القائم في منصبه من بعده، والسَّادّ لثُلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة وشدَّة البأس، ويكون مقيماً بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة. فلما تقرَّرت اشتدَّ به المرض، فتوجَّه في مِحَفَّةٍ إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجَّه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها من فساد الإفرنج. وتواصلت الأراجيف بنور الدين، فقلقت النفوس، وانزعجت القلوب، فتفرَّقت جموعُ المسلمين، واضطربت الأعمال، وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شَيْزَر، وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا. وتجمَّعَ من عِدَّة جهات خَلْقٌ كثير من رجال الإسماعيليَّة وغيرهم، وظهروا عليهم، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شَيْزَر. واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب، وعصى عليه، فثارت أحداثُ حلب، وقالوا: هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه. فزحفوا في السِّلاح إلى باب البلد، وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد، وقامت الأحداث على والي القلعة باللَّوْم والإنكار والوعيد، واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جُمْلتها إعادة رسمهم في التأذين «حيَّ على خَيْرِ العَمَل، محمدٌ وعليٌّ خَيْرُ البَشَر»، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسنَ القولَ لهم والوعد، ونزل في داره وأنفذَ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حَيٌّ في نفسه وما كان إلى ما فُعل حاجة. فقيل: الذَّنب في ذلك للوالي. وصَعِدَ إلى القلعة من شاهد نور الدين حيًّا يفهم ما يقول وما يقال

له. فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفحُ للأحداث عن هذا الخطل، ولا أؤاخذهم بالزَّلل، وما طلبوا إلَّا صلاحَ حال أخي ووليِّ عهدي من بعدي. وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأَنِسَتِ القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصُرفت الهمم إلى مكاتبات المقدَّمين، بالعَوْد إلى جهاد الملاعين. وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حَرَّان وما أضيف إليها، وتوجَّه نحوها. ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الإسلامية للجهاد، سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب، ووصل إليها في خيله، واجتمع بنور الدين فأكرم لُقياه، وشكر مَسْعاه، وشرعوا في حماية الأعمال من شَرِّ عُصَب الكفر والضَّلال.

قال: ونظمتُ هذه الأبيات في هذا المعنى: [الوافر]

لقد حَسُنَتْ صِفَاتُك يا زماني ... وَفُزْتُ بما رَجَوْتُ من الأماني
فكم أصبحتُ مُرْتاعاً لخوفٍ ... فبدَّلْتَ المخافةَ بالأمانِ
وجاءتنا أراجيفٌ بِمَلْكٍ ... عظيمِ الشَّأنِ مسعودِ الزَّمانِ
فَرَوَّعْتَ القلوب من البرايا ... وصارَ شُجَاعُها مِثْلَ الجَبَانِ
وثارَتْ فِتْنَةٌ يُخشى أذاها ... على الإسلام في قاصٍ ودانِ
ووافى بعد ذاك بشيرُ صِدْقٍ ... بعافيةِ المليك مع التَّهاني
فولَّى الخوفُ منهدمَ المباني ... وعاد الأمنُ معمورَ المغاني

قال ابنُ أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شَيْزَر، فخرج نور الدين وأخذها من بني مُنْقذ، وسلَّمها إلى مجد الدين بن الدَّاية، وسار إلى سَرْمِين، لأنه بلغه حركة الفرنج، فاعترضَهُ هناك مرض أشفى منه، فأحضر شِيركُوه، وأوصاه بالعساكر، وأن يكون الأمر بعده لأخيه نُصْرة الدين أمير أميران. فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصُّفَّر خوفاً أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين فعاد إلى خدمته، مهنئاً له بالعافية. وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مُدَّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سَيَّره إلى حَرَّان، وجعل وليَّ عهده أخاه قُطْب الدين صاحب المَوْصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه، فتحزَّم لأمره، وتقرَّب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار، وشَحَن الطُّرقات والسُّبُل بالرِّجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها والدَّاخلين إليها.

Marfat.com

قلت: ولابنِ مُنير تهنئة لنور الدين بالعافية من مرضٍ غير هذا: [الرجز]

يا شمسُ لا كَسْفٌ ولا تَكْدَارُ ... ولا خَلَتْ من نُورِكَ الأنوارُ
البَدْرُ مَنْقُوصٌ وأنتَ كاملٌ ... لك السَّرايا وله السَّرَارُ
برؤك للإسلام من أدوائه ... بُرْءٌ وفي أعدائه بَوارُ
ما أنت إلا السَّيْفُ صَدَّ صدأً ... عن مَتْنِهِ مَضْرَبُه البَتَّارُ
لو كان محمولاً أذى عن مُنْفِسٍ ... لَحَمَلَتْهُ دُونَك الأبصَارُ
ولو فَدَتْ أرضٌ سماءً ساقت الـ ... ـملوكَ في فدائِكَ الأمْصارُ
أنتَ غياثُ مَحْلهم إنْ أجدبوا ... وخيرهُم إن ذُكر الخِيَارُ
وفي سرير الملك منها ملكٌ ... لله في سَرَّائه أسرارُ
خَيْرُ ملوكِ الأرضِ جَدًّا وأباً ... إن هَزَّ عِطْفَي ماجدٍ نِجَارُ
مَدَّ على الدِّين رِوَاقَ دَوْلةٍ ... تنازعت أسمارَها السُّمَّارُ
علَّتْ بناياه وحَلَّتْ يدَه ... فهي عليه السُّور والسِّوارُ
محمودُ المحمودُ عصرُ ملكه ... فلِلْحَيَا مِن مُزْنِهِ اعْتِصارُ
يا نورَ دينٍ أَظْلَمَتْ آفاقُه ... لَوْ لَمْ تبلَّج هذه الآثارُ
لله أيَّامُك ما تخطُّه ... بالمِسْك من إسفارها الأَسْفارُ
سَلِمْتَ للإسلامِ ترعى سَرْحَهُ ... إذا وَنَى رُعاتُه وجارُوا
شكوتَ فالدُّنيا على سُكَّانها ... قرارةٌ جانَبَها القَرَارُ
كادَتْ تموتُ الأرضُ من إشفاقِها ... لولا شفاءٌ رَدَّها تُمارُ
زرَّتْ عليك التُّرك جَيْبَ نسب ... يحسُدُها بِزِيِّه نزارُ
لا عَدِمت منك الأماني ريَّها ... معطًى من الإقبال ما يختارُ
ما سمح الدَّهرُ بأن تبقى لنا ... فكلُّ جُرْحٍ مَسَّنا جُبَارُ

وله من قصيدة أخرى: [الخفيف]

لا نُؤَدِّي لأنعُمِ الله شُكْراً ... بكَ يا أعظمَ البريَّةَ قَدْرا
زَوْرُ عَشْرٍ وافى لإقلاعِ دارٍ ... جعلا المنة الممنَّاة عَشْرا
أَمَّ مَغْناك ضامِناً أنَّ أيَّا ... مَكَ تُفني الأحقابَ عَصْراً فعصرا
في محلٍّ له السِّماكانِ سمكٌ ... وجدود لها المجرَّة مجرى
أيها العادِلُ المُظَفَّر لا قَصَّـ ... (م) ـتْ شَبا الدَّهر من شباتك ظُفْرا
جَعَلَ اللَّهُ ما استهلَّ من الأشْـ ... ـهرِ ينهلُّ في مغازيك نَصْرا

Marfat.com

أبداً ينشر التهاني على سا حَاتِك الزَّهْرُ في المواسم نَشْرا
أنتَ أسرى الملوكِ نَفْساً وقِنْساً وإلى أَسْرِهِمْ من الطَّيفِ أَسْرَى[1]
مَلِكٌ عندَه المشاربُ تُسْتمـ ـرَى وأخلاف الجود تُمرى فَتُفْرَى
فَلَكَ الله مِنْ مُثمِرٍ بَذْر يصطفي صالحاً ويحصُد أَجْرا
عش لمُلكٍ أصبحتَ في الدَّسْت منه فوق كسرى عَدْلاً وشَعْباً وكَسْرا
تفطر الطَّيِّبات للفطر فطراً وتعمُّ الأعداء في النَّحرِ نَحْرا
يقتني من كُسَاك أنفس ملبو سٍ ويُقْنيك منه أطولَ عُمْرا
أنت تُملي ونحنُ ننظمُ ما تَنْـ ـثُرهُ الغُرُّ مِنْ مساعيك نَثْرا
صَرَفَ الله عنك عينَ زمانٍ بك صارَتْ بعدَ الإصابة عَبْرَى
وتوالَتْ لكَ الفُتوحُ إلى أنْ تملأَ الخافقين نَهْياً وأمرا
كلما أَنْهَجَتْ ملابسُ نُعمى وتملَّيْتَهُنَّ جدَّدْتَ أُخرى[2]

وقال القَيْسَراني من قصيدة: [الخفيف]

أشرق البدر يا جبينَ الهلالِ فحلاه لوجهك المُتَلالي
عن ليالٍ حَجَبْنَ عنَّا سَنَاها إنما غيبةُ الهلالِ ليالي
لم يكن ما ألَمَّ بالجسم شَكْوى فتُهنَّا لِوافدِ الإقبالِ
لا ولا كان زائراً من سَقَام إنما كان طائفاً من خَيَالِ
وعكةٌ أَقْلَعَتْ وأنتَ صحيحٌ ويصُحُّ النَّسيمُ بالاعتلالِ
أومَا هذه السماء سَرار الـ ـبَدْرِ فيها على طريقِ الكمالِ
نعمةُ الله لا يخصُّ بها الخا لقُ إلا من كان منه بِبَالِ
ولباسٌ من المَثُوبةِ والغُفْـ ـرانِ أُلْبِسْتَ ضافيَ الأذيالِ
فهنيئاً لك البقاء وإن كا ن هناءً يخصُّ فيه المعالي
والتُّقى والنَّدى ومَقْرَبة الخيْـ ـلِ[3] وبيض الظُّبى وسُمْر العوالي
والخِلالُ التي إذا ما تحلَّت صَدَرَتْ منك عن كريم الخِلالِ
إنْ وَقَتْكَ النُّفوس ما تتوقَّى فحقيقٌ فدا المُوالي الموالي
أو تحصَّنْتَ في شعارٍ من الثَّقْـ ـوَى فما زلتَ منه في سِرْبالِ

(١) القنس: الأصل.
(٢) أنهجت: بليت.
(٣) مقربة الخيل: أي التي تكون معدة وقريبة، ضمرت للركوب.

Marfat.com

فشفى الله مَنْ أجلُّ دوائيْـ ـه صريحُ الدُّعاءِ والابتهالِ
مَلِكٌ أبْدَلَ المخافةَ بالأمْـ ـنِ وأضحى يُعَدُّ في الأبْدَالِ
وهْو تاجُ الملوكِ فالملك العا طل حَالٍ به على كُلِّ حالِ
وإذا النَّيِّران غابا فنورُ الدِّ (م) ين شَمْسٌ فَجْرِيَّةُ الآصالِ
قد أرت وجهك العُلَا ما يريها وهي مرآةُ صالحِ الأعمالِ
وقضى الله أنَّ نجمَك في الأنـ ـجُم سامٍ وأن جَدَّك عالِ
كل يوم هذا المحيا محييٌ بالتهاني على يد الإقبالِ

فصل

[في ذكر حِصْن شَيْزَر وولاية بني مُنْقِذ]

قال ابنُ الأثير[1]: وهو حصن قريب من حماة، بينهما نحو نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصنها، على حجرٍ عالٍ، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قُطع الطريق في وسطه، وجُعل عليه جسر من خشب، فإذا قُطع ذلك الخشب تعذَّر الصُّعود إليه. وكان لآل مُنقِذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مِرْدَاس[2] إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المُقَلَّد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم[3]، بعد أبيه أبي الحسن علي[4]، فبقي به مدة طويلة إلى أن مات بِشَيْزَر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجاعاً كريماً، صوَّاماً قوَّاماً. فلما حضره الموتُ استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي؛ وهو والد أُسامة، فقال: والله لا وليتها، ولأَخرُجَنَّ من الدُّنيا كما دخلتُها. وكان عالماً بالقرآن والأدب، كثيرَ الصَّلاح، فولَّاها أخاه أبا العساكر سُلْطان بن علي، وكان أصغر منه، فاصطحبا أجمل صحبةٍ مُدَّة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عِدَّة أولاد ذكور، فكبروا وسادوا؛ منهم عِزُّ الدولة أبو الحسن علي[5]، ومُؤَيَّد الدولة

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤١٣ ـ ٤١٥. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١ ـ ٨٣.
(٢) انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٦٧ ـ ٧٢. وفيه أنه قتل سنة ٤٢٠هـ.
(٣) انظر أخباره في «الكامل» ٨/ ٤٤٤.
(٤) هو سديد الملك علي بن المقلد بن نصر بن منقذ. وهو أول من ملك قلعة شيزر من بني منقذ سنة ٤٧٤هـ، وكانت بيد الروم، وتوفي سنة ٤٧٥هـ. انظر وفيات الأعيان ٣/ ٤٠٩ ـ ٤١٠.
(٥) قتل شهيداً في غزة سنة ٥٤٥هـ. انظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٥٤٨ ـ ٥٥١. ومعجم الأدباء ٥/ ٢١٤ ـ ٢٢٠، والوافي بالوفيات ٢٢/ ١٩١ ـ ١٩٢. وفي الوافي أنه استشهد بعسقلان سنة ٥٤٦هـ.

Marfat.com

أسامة بن مُرْشد[١]، وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كَبِرَ فجاءه أولاد، فحسدَ أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صِغَر أولاده وكِبَر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما، فغيَّروا كلاً منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبياتٍ جيدة في معناها، وكلُّهم كان أديباً شاعراً، فمنها[٢]: [الطويل]

ظَلُومٌ أَبَتْ في الظُّلْمِ إلا تماديا ... وفي الصَّدِّ والهِجْران إلَّا تناهيا[٣]
شَكَتْ هَجْرَنا في ذاك والذَّنْبُ ذَنْبُها ... فيا عجباً من ظالمٍ جاءَ شاكيا
وطاوَعَتِ الواشين فيَّ وطالما ... عَصَيْتُ عذُولاً في هَوَاها وواشِيا
ومالَ بها تِيْهُ الجمال إلى القِلى ... وهيهاتَ أن أمسي لها الدَّهْرَ قاليا
ولا ناسياً ما أَوْدَعَتْ من عُهودِها ... وإنْ هي أَبْدَتْ جفوةً وَتَناسيا
ولما أتاني من قريضِك جَوْهَرٌ ... جَمَعْتَ المعالي فيه لي والمعانيا
وكنتُ هَجَرْتُ الشِّعْرَ حيناً لأنه ... تَوَلَّى بِرغمي حين وَلَّى شبابيا
وأينَ من السِّتين لَفْظٌ مُفوَّفٌ ... إذا رُمْتُ أَدْنى القَوْلِ منه عَصَانيا
وقلتُ أخي يرعى بنيَّ وأُسرتي ... ويحفظ عَهْدي فيهمُ وذِماميا
ويجزيهم ما لَمْ أكلِّفه فِعْلَه ... لنفسي فقد أَعْدَدْتُه من تُراثيا
فَمَالَكَ لما أن حنى الدَّهْرُ صَعْدتي ... وثَلَّمَ مني صارِماً كان ماضيا[٤]
تنكَّرْتَ حتى صارَ بِرُّكَ قَسْوَةً ... وقُرْبُكَ منِّي جفوةً وتنائيا
فأصبحتُ صِفْرَ الكفِّ مما رجوتُه ... كذا اليَأْسُ قد عفَّى سبيلَ رجائيا[٥]
على أنني ما حُلْتُ عما عَهِدْتَه ... ولا غَيَّرَتْ هذي السِّنونُ وِدَادِيا
فلا غَرْوَ عند الحادثات فإنَّني ... أراكَ يميني والأنامَ شِماليا
تهنَّ بها عذراء لو قُرنت بها ... نجومُ السَّماءِ لم تُعَدَّ دراريا

---

(١) هو أسامة بن منقذ، تقدمت ترجمته.
(٢) انظر القصيدة في «الكامل» ٩/ ٤١٤. وفي تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٢ ـ ٨٣. تسعة أبيات منها. وفي معجم الأدباء ٥/ ٢٢٨ ـ ٢٣٠، ومنها مختارات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٥٦٠ ـ ٥٦١.
(٣) في «الكامل»: «تغاليا» بدل: «تناهيا».
(٤) الصعدة: القناة المستوية، يشبه به القامة المستقيمة.
(٥) البيت في «الكامل»:
وأصبحت صفر الكف مما رجوته ... أرى اليأس قد عفى سبيل رجائيا

تحلَّتْ بِدُرٍّ من صفاتِك زانَها كما زانَ منظومُ اللآلي الغوانيا
وعش بانياً لِلجُود ما كان واهناً مُشيداً من الإحسانِ ما كان واهيا

[سبب خروج أسامة بن منقذ وإخوته من شيزر]

قال: وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد بعض الستر، فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، قلب أخوه لأولاده ظهر المجنّ، وبادأهم بما يسوؤهم، وتمادتِ الأيام بينهم إلى أن قَوِي عليهم، فأخرجهم من شَيْزَر. وكان أعظم الأسباب في إخراجهم ما حُدِّثتُ به عن مُؤَيَّد الدولة أُسامة بن مرشد قال: كنتُ من الشجاعة والإقدام على ما قد علمه الناس، فبَيْنَا أنا بشَيْزَر وإذا قد أتاني إنسان فأخبرني أن بدجْلة، يقاربُها، أسداً ضارياً، فركبتُ فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله، ولم أُعلم أحداً من النَّاس لئلا أُمنع من ذلك، فلما قربت من الأسد نزلتُ عن فرسي وربطته، ومشيت نحوه، فلما رآني قصدني ووثب، فضربتُه بالسيف على رأسه فانفلق، ثم أجهزتُ عليه، وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدتُ إلى شَيزَر، ودخلتُ على والدتي وألقيت الرأس بين يديها، وحدثتها الحال. فقالت: يا بني، تجهَّز للخروج من شَيْزَر، فوالله لا يُمكِّنك عَمُّك من المقام، ولا أحداً من إخوتك، وأنتم على هذه الحال من الإقدام والجُرْأة. فلما كان الغدُ أمر عمي بإخراجنا من عنده، وألزمنا به إلزاماً لا مُهلة فيه، فتفرَّقنا في البلاد. فقصدوا الملك العادل نور الدين، وشكَوْا إليه ما لقوه من عمهم، فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى أوطانهم، لاشتغاله بجهاد الفرنج، ولخوفه من أن يسلِّم شَيْزر إلى الفرنج، وبقي في نفسه. وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج، فاشتدَّ ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة، فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحدٌ كان بالحصن، فبادر إليها وملكها، وأضافها إلى بلاده، وعمرها وأسوارها، وأعادها كأن لم تخرب، وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة، وكل ما خرب بالشَّام بهذه الزلزلة، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

قلتُ: وسيأتي ذكر أسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين؛ وهي السَّنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شَيْزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أُنَر؛ أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدةً أولها: [البسيط]

وَلُوا فلمَّا رَجَوْنا عَدْلَهُمْ ظَلَموا فليتَهُمْ حَكَمُوا فينا بما عَلِمُوا

Marfat.com

ما مَرَّ يوماً بفكري ما يَريبهُمُ ... ولا سَعَتْ بي إلى ما ساءهم قَدَمُ
ولا أضعتُ لهم عَهْداً ولا اطَّلَعَتْ ... على ودائعِهم في صَدْريَ التُّهَمْ
فَلَيتَ شِعْري بمَ استوجبتُ هَجْرَهمُ ... ملُّوا فَصَدَّهُمُ عن وَصْليَ السَّأمُ
حَفِظْتُ ما ضَيَّعُوا أَغْضَيْتُ حين جَنَوْا ... وفَيْتُ إذ غَدَرُوا واصلتُ إذْ صَرَمُوا
حُرِمْتُ ما كنتُ أرجو من وِدَادِهُمُ ... ما الرِّزْقُ إلا الذي تجري به القِسَمُ
وبَعْدُ لو قيلَ لي ماذا تحبُّ وما ... تختارُ من زينةِ الدُّنيا لقلتُ هُمُ
لهم مجال الكَرَى من مُقْلَتيَّ ومن ... قلبي محلُّ المُنَى جارُوا أو اجْتَرَمُوا[1]
تبدَّلوا بي ولا أبغي بهم بَدَلاً ... حَسْبي همُ أنصفوا في الحُكْم أو ظَلَمُوا
بلِّغ أميري معين الدين مألُكَةً ... من نازحِ الدَّارِ لكنْ ودُّه أَمَمُ[2]
وَقُلْ له أنتَ خَيْرُ التُّرك فَضَّلَك الـ ... ـحياءُ والدِّين والإقْدَامُ والكَرَمُ
هلَّا أَنِفْتَ حَياءً أو محافظةً ... من فِعْلِ ما أَنْكَرَتْهُ العُرْبُ والعَجَمُ
أَسْلَمْتَنا وسيوفُ الهِنْدِ مُغْمَدَةٌ ... ولم يُرَوِّ سِنانَ السَّمْهَرِيِّ دَمُ[3]
وكنتُ أَحْسَبُ من والاك في حَرَمٍ ... لا يعتريه به شَيْبٌ ولا هَرَمُ
وما طُمانُ بأَوْلى من أُسامةَ بالـ ... ـوفاءِ لكنْ جَرَى بالكائنِ القَلَمُ
هَبْنَا جَنَيْنا ذُنُوباً لا يكفِّرُها ... عُذْرٌ فماذا جَنَى الأطفالُ والحُرَمُ
ألقيتَهُمْ في رضا الإفرنج متَّبعاً ... رضا عِدًى يُسْخِطُ الرحمنَ فِعْلُهُمُ
جَرِّبْهُمُ مِثْلَ تجريبي لتَخْبُرَهُمْ ... فللرِّجال إذا ما جُرِّبوا قِيَمُ

وهي طويلة. وطُمان المذكور خادم تركيٌّ كان لأتابك ملك الأمراء زَنْكي بن آق سُنْقُر، هرب من خدمته إلى دمشق، فطلبه ولجَّ فيه، فاشتمل عليه مُعين الدين للجنسيَّة وحماه، فلمَّا لجَّ فيه سَيَّره إلى العرب، وقام له بما يحتاجه إلى أن رَدَّه لخدمته بدمشق.

وبقي أسامة بمصر إلى أن خرج منها مع عَبَّاس ـ كما سبق ذكره ـ وأسر الفرنج أخاه نجم الدولة محمد بن مُرْشد، وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد ابن سُلْطان، صاحب شَيْزَر، الإعانة في فكاكه فلم يفعل. قال: وادَّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحُسْنَ ذكره للملك العادل نور الدين، رحمه الله تعالى، فوهبه فارساً

(١) اجترموا: يقال: اجترم الذنب: ارتكبه، وجرم جرماً: أذنب.
(٢) المألكة: الرسالة.
(٣) السمهري: الرمح الشديد العود.

Marfat.com

من مقدَّمي الدَّاوِيَّة[١] يقال له المشطوب، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر.

وبلغ أسامة أن القاضي كمال الدين بن السَّهْرُزُوري[٢] أنشدَ نورَ الدين: [مخلع البسيط]

مُلْكُ بني مُنْقِذٍ تولَّى ... وكان فوقَ السِّماك سُمْكُهْ
فَاعْتَبِرُوا وانْظُروا وقُولوا ... سبحانَ مَنْ لا يَزُول مُلْكُهْ

والمعروف مُلك بني بَرْمَك، فغيَّره المنشد لمَّا تمثَّل به في غرضه، فأجازهما أسامة بهذه الأبيات: [مخلع البسيط]

وكلُّ مُلْكٍ إلى زَوَالِ ... لا يعتري ذا اليقين شَكُّهْ
إنْ لم يَزُلْ بانتقالِ حالٍ ... أزال ذا المُلْك عنه هُلْكُهْ
والله ربُّ العِبادِ باقٍ ... وهالِكٌ نِدُّه وشِرْكُهْ
فَقُلْ لمن يَظْلِمُ البَرَايا ... غَرَّك إمهالُه وتَرْكُهْ
تنسى ذنوباً عليك تُحصى ... يحصرها نَقْدُه وحُكُّهْ
كم ناسكٍ نُسْكُه رياءٌ ... أوبقَهُ في المعاد نُسْكُهْ
فاحْذَرْ فما يختفي عليهِ ... مِنْ عبدهِ صِدْقُهُ وإفْكُهْ

وما أحسنَ ما قال أسامة في كِبَرِه[٣]: [البسيط]

مع الثَّمانين عاثَ الضَّعْفُ في جلَدي ... وساءني ضَعْفُ رِجْلي واضطرابُ يَدي
إذا كتبتُ فخطِّي جِدُّ مضطربٍ ... كخطِّ مُرْتَعِشِ الكفَّين مُرْتَعِدِ
فاعجبْ لِضَعْفِ يدي عن حَمْلِها قلماً ... مِنْ بَعْدِ حَطْمِ القَنَا في لَبَّةِ الأَسَدِ

---

(١) الداوية: الفرنج الداوية بالأصل طائفة مشهورة من الرهبان المرابطين، كان مركزهم الأساسي في قلعة رباح بإسبانيا التي كانت حداً فاصلاً بين أرض النصارى وأرض المسلمين، وقد جاء قسم منهم إلى المشرق مع الحملات الصليبية، ويقال لهم في فرنسا: فرسان المعبد، وهم طائفة متدينة عسكرية تأسست عام ١١١٩م، وكان لها دور بارز في الحملات على فلسطين، وقد جمعوا ثروات طائلة من غزواتهم أصبحوا بفضلها ممولي البابا وعدد من الأمراء، ومنذ العام ١٣١٢م ألغى البابا كليمان الخامس شرعية هذه الطائفة بطلب وتحريض من ملك فرنسا (انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٣٧٩، والحلة السيراء ٢/ ١٧٨).

(٢) هو عبد القاهر بن الحسن بن علي بن القاسم حجة الدين أبو السعادات الشهرزوري ثم الموصلي الشافعي المتوفى سنة ٥٧١هـ. قال صاحب عقد المذهب: كان يدرس ويعظ بالموصل، له تصانيف في الفقه والفرائض والعربية (كشف الظنون ٥/ ٦٠٧).

(٣) الأبيات في سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٦٧.

Marfat.com

وإنْ مَشَيْتُ وفي كَفِّي العصا ثَقُلَتْ رِجلي كأني أَخُوضُ الوَحْلَ في الجَلَدِ
فَقُلْ لمن يتمنَّى طول مُدَّته هذي عواقبُ طُولِ العُمْرِ والمُدَدِ

فصل

[في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين]

قال الرئيس أبو يعلى: تناصَرَتِ الأخبارُ بظهور أمير المؤمنين المقتفي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضمَّ إليه من عسكر الموصل وغيره، بحيث قتل منهم العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرَّقين مفلولين خاسرين، بعد المضايقة والتَّناهي في المحاصرة والمصابرة.

[وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه]

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب بوفاة السُّلْطان غياث الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خُرَاسان، عقيب خلاصه من الشِّدَّة التي وقع فيها، والأسر الذي حصل فيه[1]، وكان يحبُّ العدل والإنصاف للرعايا، حسن السيرة، جميل الفعل، وقد عَلَتْ سِنُّه وطال عمره. وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من هذه السَّنة إلى نور الدين بالتشوُّق إليه والإحماد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما منَّ الله عليه به من خلاصه من الشِّدَّة التي وقع فيها، والأسر الذي بُلي به في أيدي الأعداء الكفرة، من ملوك التركمان، بحيلةٍ دَبَّرها، وسياسةٍ أحكمها وقرَّرها، بحيث عاد إلى منصبه من السَّلْطنة المشهورة، واجتماع العساكر المتفرِّقة عنه إليه.

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلِّص الدين أبي البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جَرَادة الحلبي[2]، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين، وكان كاتباً بليغاً، حسنَ البلاغة نظماً ونثراً، مُسْتَحْسَنَ الفنون من التَّذهيب البديع، وحُسْنِ الخَطِّ المحرَّر على الأُصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن وتوقُّد الفِطْنة والذَّكاء.

وقال: وفي رابع عشر شوَّال ورد الخبر من ناحية بُصرى بأن واليها فخر

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤١٥ ـ ٤١٦. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٤. وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥. ووفيات الأعيان ٢/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٣. ومعجم الأدباء ١٦/ ١٦ ـ ١٩.

الدين سُرخاك قُتل غيلة بموافقةٍ من أعيان خاصَّته، وكان فيه إفراط في التحرُّز واستعمال التيقُّظِ، ولكنَّ القضاء لا يُغالب ولا يدافع.

قال: وفي أوائل ذي القَعْدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقَّب بصلاح الدين وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زَنْكي، وتقدَّم عنده بالمناصحة وسَدَاد التدبير، وحُسْنِ السِّفارة وصواب الرأي، ولما عَلَتْ سِنُّه ضَعُفَ عن ركوب الخيل، وألجأته الضَّرورة إلى الحمل في المحفَّة لتقرير الأحوال، والنَّظر في الأعمال، ولم ينقص من حسه وفهمه ما يُنكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولادُه في منصبه وولايته.

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة فقهاء بَلْخ في عنفوان شبابة وغضارة عوده، ما رأيتُ أفصحَ من لسانه ببلاغتَيْه العربية والفارسية، ولا أسرعَ من جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلماً في كتابته: أبو الحياة محمد بن أبي القاسم بن عمر السُّلَمي، ووعظ في جامع دمشق عِدَّة أيام، والنَّاس يستحسنون وعظه، ويستظرفون فنَّه، وسلاطة لسانه، وسرعة جوابه، وحِدَّة خاطره، وصفاء حِسِّه.

قال ابنُ الأثير: وفيها في ذي الحِجَّة توفي الأمير عز الدين أبو بكر الدّبيسي صاحب جزيرة ابن عُمر، وكان من أكابر الأمراء، يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلاً حازماً، ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قُطْب الدين مودود بن زَنْكي، صاحب المَوْصِل، أخو نور الدين.

[استيلاء الفرنج على حصن حارم]

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرَّم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشَّام ـ خذلهم الله تعالى ـ بمضايقتهم لحصن حارم ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق[1] إلى أن ضعف ومُلك بالسيف، وتزايد طمعهم في شنِّ الغارات

---

(١) المجانيق، والمناجيق: جمع منجنيق: قال ابن قتيبة في كتابه «المعارف» وأبو هلال العسكري في «الأوائل»: هو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيء إلا أهلكه. وأول من وضع المنجنيق جذيمة الأبرش ملك الحيرة على العرب. وذكر الواحدي في تفسير سورة الأنبياء: أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام ولم يقدروا على القرب من النار ليلقوه فيها، فجاءهم اللعين إبليس فعلمهم وضع المنجنيق فعملوه وألقوه فيه فقذفوا به في النار، فكان أول منجنيق عمل (صبح الأعشى ٢/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

في الأعمال الشَّامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرُّق العساكر الإسلامية، والخُلْف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، ولله المشيئة التي لا تُدافع والأقضيةُ التي لا تُمانع.

وقال: وفي صفر ورد الخبر والمُبَشِّر بنزول نور الدين في حلب للتوجُّه إلى دمشق، واتَّفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شنِّ الغارات على أعمال حَوْران والإقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والإخراب في الضياع، والنَّهب والسبي والأسر، وقَصْد داريا والنزول عليها في انسلاخ صفر، وإحراق منازلها وجامعها، والتَّناهي في إخرابها، وظهر إليهم العسكريَّة والأحداث، وهموا بقصدهم والإسراع إلى لقائهم وكفِّهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكُفَّار ـ خذلهم الله تعالى ـ كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الإقليم. ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول، سالماً في نفسه وجملته ولُقي بأحسن زِيٍّ وترتيب وتجمُّلٍ، واستبشر العالم بمقدمه المسعود، وابتهجوا، وبالغوا في شكر الله تعالى على سلامته وعافيته، والدُّعاء له بدوام أيامه، وشرعَ في تدبير أمر الأجناد، والتأهُّب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غَزَّة وعَسْقلان، وأغاروا على أعمالها، وخرجَ إليهم من كان بهما من الفرنج الملاعين، فأظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلاً وأسراً، بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين. وقيل: إن مقدَّم الغُزاة في البحر ظفر بعدَّة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العددَ الكثير، وحاز من أموالهم وعُدَدهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى، وعاد ظافراً غانماً.

قلتُ: وأرسل إلى مُؤَيَّد الدولة أُسامة بن منقذ من مصر وزيرُها الملك الصَّالح أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك قصيدةً يشرحُ فيها حال هذه الغَزَاة، ويحرِّض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما مَنَّ الله تعالى عليه من العافية والسَّلامة من تلك المرْضَة المقدَّم ذِكْرُها. وكان كثيراً ما يكاتبُه طالباً منه إعلام نور الدين بالغَزَاة لحثِّه عليها، وأوَّل هذه القصيدة: [الطويل]

ألا هكذا في اللَّهِ تمضي العزائمُ ... وتُنْضى لدى الحَرْبِ السُّيوفُ الصَّوارِمُ
وتُستنزل الأَعداءُ من طَوْدِ عزِّهم ... وليسَ سوى سُمْرِ الرِّماحِ سلالمُ
وتُغْزَى جيوشُ الكُفْرِ في عُقرِ دارِها ... ويوطا حِماها والأنوف رَوَاغِمُ

Marfat.com

وَيُوفي الكِرامُ النَّاذرون بِنَذْرِهم ... وإن بُذِلَتْ فيها النُّفوسُ الكرائِمُ
نَذَرْنا مَسِيرَ الجيشِ في صَفَرٍ فما ... مضى نِصْفُه حتَّى انْثَنَى وهو غانمُ
بعثناه من مِصْرٍ إلى الشَّام قاطعاً ... مفاوِزَ وَخْذُ العِيس فيهن دائِمُ
فما هالَه بُعْدُ الدِّيارِ ولا ثنى ... عزيمتَه جُهْدُ الظَّما والسَّمائمُ
يهجِّر والعُصْفُورُ في قَعْرِ وكره ... ويَسْرِي إلى الأعداءِ واللَّيْلُ نائِمُ
تُبَاري خيولاً ما تزالُ كأنَّها ... إذا ما هي انقضَّتْ نُسورٌ قَشَاعِمُ(١)
يسيرُ بها ضِرْغامُ في كلِّ مأزِقٍ ... وما يَصْحَبُ الضِّرْغامَ إلا الضَّراغِمُ(٢)
وَرُفْقَتُهُ عينُ الزَّمانِ وحاتِمٌ ... ويحيى وإنْ لاقى المنيَّةَ حاتِمُ(٣)
وواجهَهُمْ جمعُ الفرنجِ بحملةٍ ... تَهُونُ على الشُّجعان فيها الهزائمُ
فلقَّوْهُمُ زُرْقَ الأَسِنَّةِ وانطوَوْا ... عليهم فلم يرجعْ من الكُفْر ناجِمُ
وما زالتِ الحربُ العَوَانُ أشدُّها ... إذا ما تلاقى العَسكَرُ المتضاجمُ(٤)
يُشَبِّهُهُمْ من لاحَ جَمْعُهُمُ له ... بُلجَّةِ بحرٍ مَوْجُها متَلاطِمُ
وعادوا إلى سَلِّ السُّيوفِ فَقُطِّعَتْ ... رؤوسٌ وحُزَّتْ للفرنجِ غَلَاصِمُ(٥)
فلم يَنْجُ منهم يوم ذاكَ مُخَبِّرٌ ... ولا قيل هذا وحدَه اليومَ سالمُ
نُقَتِّلُهُمْ بالرَّأي طوراً وتَارةً ... تدوسُهُمُ منا المَذَاكي الصَّلادِمُ(٦)
فقولوا لنورِ الدين لا فُلَّ حَدُّه ... ولا حَكَمَتْ فيه اللَّيالي الغواشمُ
تجهَّزْ إلى أرضِ العدوِّ ولا تَهِن ... وتُظهرْ فتوراً إن مَضَتْ منك حارِمُ
فما مِثْلُها تُبدي احتفالاً به ولا ... تُعَضُّ عليها للملوكِ الأباهمُ
فعندَك من ألطاف رَبِّك ما به ... عَلِمْنا يقيناً أنَّه بك راحِمُ
أعادكَ حيًّا بعد أن زَعَمَ الورى ... بأنك قد لاقيت ما الله حاتمُ

---

(١) قشاعم: جمع قشعم، والقشعم من كل شيء: الضخم المسن، ويقال للحرب، والمنية، والداهية: أم قشعم.
(٢) ضرغام: هو ضرغام بن عامر بن سوار، تولى وزارة مصر سنة ٥٥٨هـ، وقتل سنة ٥٥٩هـ. انظر: «الكامل» ٩/ ٤٦٦. ووفيات الأعيان ٢/ ٤٤٠.
(٣) عين الزمان، وحاتم، ويحيى، أسماء قواد في الجيش الفاطمي.
(٤) الحرب العوان: التي يتكرر فيها القتال مرة بعد مرة. والمتضاجم: المختلف.
(٥) غلاصم: جمع غلصمة: وهي اللحمة التي بين الرأس والعنق.
(٦) المذاكي: الخيل التي أتى عليها بعد انتهاء أسنانها، سنة أو سنتان، وذلك استتمام القوة. والصلادم: جمع الصَّلْدم والصُّلادم، وهو الشديد الحافر، وقيل: القوي الشديد من الحافر.

Marfat.com

بِوقْتٍ أصابَ الأرضَ ما قد أصابَها وحلَّتْ بها تلك الدَّواهي العظائمُ
وخَيَّمَ جيشُ الكفر في أرضِ شَيْزَرٍ فَسِيْقَتْ سبايا واستُحِلَّت محارِمُ
وقد كانَ تاريخ الشآم وهُلكُه ومن يحتويه أنَّه لك عادِمُ
فَقُمْ واشكرِ الله الكريمَ بنهضةٍ إليهمْ فَشُكْرُ اللّهِ للخَلْقِ لازِمُ
فنحنُ على ما قد عَهِدْتَ نَرُوعُهُمْ ونَخلِفُ جَهداً أنَّنا لا نسالمُ
وغاراتُنا ليستْ تَفَتَّرُ عنهمُ وليس يُنَجّي القومَ منَّا الهزائمُ
فأسطولُنا أضعافُ ما كان سائراً إليهم فلا حِصْنٌ لهمْ منه عاصمُ
ونرجو بأنْ نجتاحَ باقِيَهُمْ بهِ وتُحوى الأسارى منهمُ والغَنَائمُ

وكتب إليه أيضاً: [مجزوء الكامل]

يا سَيِّداً يسمو بهمَّـ (م) ـته إلى الرُّتَبِ العَلِيَّهْ
فينالُ منها حين يُخْـ ـرَمُ غَيْرُه أوفى مَزِيَّهْ
أنتَ الصَّديقُ وإن بَعُدْ تَ وصاحبُ الشِّيَمِ الرَّضِيَّهْ
يهنيك أنَّ جيوشَنا فَعَلَتْ فِعالَ الجاهِلِيَّهْ
سارَتْ إلى الأعداءِ من أبطالِها منتا سَرِيَّهْ
فتُغيرُ هذي بُكْرَةً وتُعاوِدُ الأُخرى عَشِيَّهْ
فالويلُ منها للفرنـ ـج فقد لقوا جَهْدَ البَلِيَّهْ
جاءَتْ رؤوسهمُ تلو حُ على رؤوس السَّمْهَرِيَّهْ[1]
وقلائعٌ قد قُسِّمَتْ بين الجنودِ على السَّوِيَّهْ[2]
وخلائقٌ كَثُرَتْ من الـ ـأسرى تقادُ إلى المَنِيَّهْ
فانهضْ فقد أنبيتُ مجـ ـدَ الدِّين بالحال الجَلِيَّهْ
والمِمْ بنورِ الدِّين وآغـ ـلمْهُ بهاتيك القَضِيَّهْ
فهو الذي ما زال يخـ ـلص منه أفعالاً وَنِيَّهْ
ويبيدُ جَمْعَ الكُفْرِ بالـ ـبيضِ الرِّقاقِ المَشْرِفِيَّهْ[3]
فعساه ينهضُ نهضةً يفني بها تلك البَقِيَّهْ
إمَّا لنُصْرَةِ دِينِهِ أو مُلْكِه أو للحَمِيَّهْ

---

(١) السمهرية: جمع السمهري، وهو الرمح القوي العود.
(٢) قلائع: هي الخيل المجنوبة.
(٣) المشرفية: هي سيوف منسوبة إلى المشارف، من أرض اليمن. مشهورة بصناعة السيوف.

Marfat.com

وكتب إليه أيضاً: [الخفيف]

أيها المفتدي لأنتَ على البُعـ ـدِ صديقٌ لنا ونِعْمَ الصَّديقُ
ليس فيما نأتيه من بِرٍّ أفعا لك للطالب الحقُوقِ عُقوقُ
فلهذا نرى مواصلة الكُتـ ـبِ تباعاً إليك مما يَليقُ
ونُناجيك بالمهمَّاتِ إذْ أنـ ـتَ بإلقائها إليك خَليقُ
وأهمُّ المُهِمِّ أمْرُ جهادِ الـ ـكُفْرِ فاسمعْ فعندنا التَّحْقِيقُ
واصَلَتْهُمْ مِنَّا السَّرايا فأشجا هُمْ بُكُورٌ منَّا لهم وطُروقُ
وأباحَتْ دِيارَهُمْ فأبادَ الـ ـقَومَ قَتْلٌ ملازِمٌ وحريقُ
وانتظرنا بِزَحْفِنا بُرءَ نور الدِّ (م) ين علماً مِنَّا بأنْ سيُفِيقُ
وهُو الآنَ في أمانٍ من اللَّـ ـه وما يعتريه أمرٌ يَعُوقُ
ما لهذا المُهِمِّ مثلُك مجدَ الدِّ (م) ين فانهضْ به فأنتَ حقيقُ
قُلْ له لا عَداه رأيٌ ولا زا لَ لديه لكلِّ خَيْرٍ طريقُ
أنتَ في حَسْمِ داء طاغية الكُفَّـ (م) ـار ذاك المرجوُّ والمزمُوقُ
فاغْتَنِمْ بالجهادِ أجرَكَ كي يلـ ـقى رفيقاً له ونِعْمَ الرَّفِيقُ

فأجابه أسامة بقصيدةٍ منها: [الخفيف]

يا أميرَ الجُيوشِ ما زال للإسـ ـلامِ والدين منك رُكْنٌ وثيقُ
أَسْمَعَتْ دعوةُ الجهادِ فلبَّا ها مليكٌ بالمَكْرُماتِ خَليقُ
مَلِكٌ عادِلٌ أنارَ به الدِّيـ ـنُ فَعَمَّ الإسلامَ منه الشُّروقُ
ما لهُ عن جهاده الكُفْرَ والعَدْ لِ وفعْلِ الخيرات شُغْلٌ يَعُوقُ
هو مِثْلُ الحُسَامِ صَدْرٌ صقيلٌ لَيِّنٌ مَسُّه وحَدٌّ ذليقُ
ذو أناةٍ يخالها الغِرُّ إهما لاً وفيها حَتْفُ الأعادي المُحيقُ
فاسْلَمَا للإسلامِ كَهْفَيْنِ ما طرَّ (م) زَ ثوبَ الظلام بَرْقٌ خَفوقُ

وكتب الصَّالح إليه أيضاً: [مجزوء الكامل]

قُلْ لابنِ مُنْقِذِ الذي قد حاز في الفَضْلِ الكَمالا
فلِذَاك قد أضحى الأنا مُ على مكارمِه عِيالا
كم قَد بعثنا نحوكَ الـ ـأشعارَ مُسْرِعَةً عِجالا
وصَدَدْتَ عنها حين را مَتْ من محاسِنكَ الوِصَالا
هلَّا بَذَلْتَ لنا مقا لاً حينَ لم تَبْذُلْ فِعَالا

Marfat.com

مـع أنـنـا نُـولـيـكَ صَـبْـ ـراً فـي الـمـودَّةِ واحـتـمـالا
ونـبـئْـكَ الأخـبـارَ إن أضـحـت قِـصـاراً أو طِـوَالا
سـارَتْ سَـرَايـانـا لِـقَـضْـ ـدِ الـشَّـام تَـغْـتَـسِـفُ الـرِّمـالا
تُـزْجـي إلـى الأعـداءِ جُـزْ دَ الـخـيـلِ أتـبـاعـاً تَـوَالـى
تـمـضـي خِـفَـافـاً لـلـمُـغـا رِ بِـهـا وتَـأْتـيـنـا ثِـقـالا
حـتـى لـقـد رامَ الأعـا دي مـن ديـارِهُـمُ ارتـحـالا
وعـلـى الـوُعَـيْـرة مَـعْـشَـرٌ لـم يـعـهـدُوا فـيـهـا الـقِـتـالا[1]
لـمـا نَـأَتْ عـمَّـن يـحـفُّ (م) بـهـا يـمـيـنـاً أو شِـمـالا
نَـهَـضَـتْ إلـيـهـا خَـيْـلُـنـا مـن مِـصْـرَ تـحـتـمـلُ الـرِّجـالا
والـبـيـضَ لامـعـةً وبـيـ ـضَ الـهـنـدِ والأَسَـلَ الـنِّـهـالا
فَـغَـدَتْ كـأَنْ لـم يـعـهـدُوا فـي أرضـهـا حَـيًّـا حِـلالا
هـذا وفـي تَـلِّ الـعـجـا ل مَـلأْنَ بـالـقَـتْـلـى الـتِّـلالا
إذ مَـرَّ مُـرِّي لـيـس يـلْـ ـوي نـحـو رُفْـقَـتِـهِ اشْـتِـغـالا
واسْـتَـاقَ عَـسْـكَـرُنـا لـه أهـلاً يـحـبُّـهُـمُ ومـالا
وسَـرِيَّـةُ ابـنِ فُـريـجِ الـطَّـ (م) ـائـيِّ طـالَ بـهـا وَصَـالا
سـارَتْ إلـى أرض الـخـلـيـ ـلِ فـلـم تَـدَعْ فـيـهـا خِـلالا
فـلـو أنَّ نـورَ الـدِّيـن يـجـ ـعَـلُ فـعْـلَـنـا فـيـهـم مِـثَـالا
وَيُـسَـيِّـرُ الأجـنـادَ جَـهْـ ـراً كـي يُـنـازِلَـهـم نِـزَالا
ووفـى لـنـا وهـل دَوْ لـتـه بـمـا قـد كـان قـالا
لـرأيـتَ لـلإفـرنـجِ طُـرًّا (م) فـي مـعـاقِـلـهـا اعـتـقـالا
وتـجـهَّـزوا لـلـسَّـيْـرِ نَـحْـ ـوَ الـغَـرْبِ أو قَـصَـدُوا الـشَّـمـالا
وإذا أبـى إلَّا اطِّـرا حـاً لـلـتَّـصِـيْـحَـةِ واعْـتِـزَالا
عُـذْنـا بـتـسـلـيـمِ الأمـو رِ لـحُـكْـمِ خـالـقِـنـا تَـعـالـى

فأجابه ابنُ منقذ بقصيدةٍ منها: [مجزوء الكامل]

يـا أَشْـرَفَ الـوزراءِ أخـ ـلاقـاً وأَكْـرَمَـهُـمْ فَـعـالا
نَـبَّـهْـتَ عـبـداً طـالـمـا نَـبَّـهْـتَـهُ قـدَراً وحـالا

(١) الوعيرة: حصن قرب وادي موسى، قبلي بيت المقدس (معجم البلدان ٥/٣٤٦).

Marfat.com

وَعَتَبْتَهُ فَأَنَلْتَهُ فخراً ومجداً لن يُنالا
لكن ذاك العَتْبَ يُشـ ـعِلُ في جوانحه اشتعالا
أسفاً لجَدٌّ مالَ عنـ ـه إلى مساءته ومَالا
أما السَّرَايا حين تر جعُ بعد خِفَّتِها ثِقالا
فكذاكَ عاد وفودُ با بِك مثقلين ثناً ومالا
وَمَسِيْرُها في كلِّ أَرْ ضٍ تبتغي فيها المجالا
فكذاك فَضْلُكَ مثلُ عَدْ لِكَ في الدُّنا سارا وَجالا
فاسلَمْ لنا حتى نرى لك في بني الدُّنيا مِثَالا
واشْدُدْ يَدَيْكَ بودِّ نو رِ الدين والقَ به الرِّجالا
فهو المحامي عن بلا دِ الشَّامِ جمعاً أَنْ تُذَالا[1]
ومُبِيْدُ أملاكِ الفِرَنْـ ـجِ وجَمْعَهُمْ حالاً فحالا
مَلِكٌ يتيه الدَّهْرُ والدُّ (م) نيا بِدَوْلَتِهِ اخْتِيالا
جَمَعَ الخِلال الصَّالحا تِ فلم يَدَعْ منها خِلالا
فإذا بدا للنَّاظِريـ ـنَ رَأَتْ عيونُهُمُ الكَمَالا
فبقيتُما للمُسْلميـ ـنَ حِمًى وللدُّنيا جَمالا

وكتب إليه الصَّالح في القصيدة المقدَّم ذِكْرُها في الزلازل: [الخفيف]

وَلَعَمْرِي إن المُنَاصِحَ في الديـ ـنِ على الله أجرُه مَحْسُوبُ
وجهادُ العدوِّ بالفِعْلِ والقَوْ لِ على كلِّ مُسْلِمٍ مَكْتُوبُ
ولك الرُّتبةُ العَلِيَّةُ في الأمـ ـرَيْن مُذْ كنتَ إذ تَشُبُّ الحروبُ
أنتَ فيها الشُّجاع مَا لَك في الطَّعْـ ـنِ ولا في الضِّرابِ يوماً ضريبُ
وإذا ما حَرَّضْتَ فالشَّاعر المُفْـ ـلِقُ فيما تقوله والخطيبُ
وإذا ما أَشَرْتَ فالحَزْمُ لا يُنْـ ـكِرُ أنَّ التَّدْبيرَ منك مُصِيْبُ
لك رأيٌ يقظانُ إن ضَعُفَ الرَّأ يُ على حاملي الصَّليبِ صَليبُ
فانهض الآن مُسْرِعاً فبأمثا لِك ما زَال يُدْرَكُ المَطْلُوبُ
ألْقِ منَّا رسالةً عند نور الدِّ (م) ين ما في إلقائها ما يُريبُ
قُلْ له دامَ مُلْكُه وعليه مِنْ لباسِ الإقبال بُردٌ قَشِيْبُ

(١) أن تذالا: أي أن تهان.

أيـهـا الـعـادِلُ الـذي هـو لـلـدّيـ ـنِ شـبـابٌ ولـلـحُـروبِ شَـبِـيـبُ[1]
والـذي لـم يـزل قـديـمـاً عـن الإسـ ـلامِ بـالـعَـزْمِ مـنـه تُـجْـلَـى الـكُـروبُ
وغـدا مـنـه لـلـفـرنـج إذا لَا ـقُـوه يـومٌ مـن الـزّمـان عـصـيـبُ
إنْ يَـرُمْ نَـزْفَ حِـقْـدِهـم فِـلأَشْـطـا نِ قـنـاهُ فـي كـلّ قَـلْـبٍ قَـلِـيـبُ[2]
غَـيْـرُنـا مَـنْ يـقـولُ مـا لـيـس يُـمـضـيـ ـه بـفـعـلٍ وغَـيْـرُكَ الـمَـكْـذُوبُ
قـد كَـتَـبْـنَـا إلـيـكَ مـا وَضَـحَ الآ نَ بـمـاذا عـنِ الـكـتـابِ تـجـيـبُ
قَـصْـدُنـا أن يـكـونَ مِـنّـا ومـنـكـم أجـلٌ فـي مـسـيـرِنـا مَـضْـرُوبُ
فَـلَـدِيـنـا مـن الـعـسـاكـرِ مـا ضـا قَ بـأدنـاهُـمُ الـفَـضَـاءُ الـرَّحِـيـبُ
وعـلـيـنـا أَنْ يَـسْـتَـهِـلَّ عـلـى الـشّـا مِ مـكـانَ الـغـيـوثِ مـالٌ صَـبِـيـبُ
أَوْ تَـرَاهـا مِـثْـلَ الـعَـروسِ تَـرَاهـا كُـلُّـه مـن دَمِ الـعِـدَى مَـخْـضُـوبُ
لِـطَـنِـيـنِ الـسُّـيـوفِ فـي فَـلَـقِ الـصُّـبْـ ـحِ عـلـى هـامِ أهـلِـهـا تَـطْـرِيـبُ
ولـجـمـعِ الـحـشـودِ مـن كـلِّ حِـصْـنٍ سَـلَـبٌ مُـهْـمَـلٌ لـهـم ونُـهـوبُ
وبـحـولِ الإلـه ذاكَ ومَـنْ غـا لَـبَ ربـي فـإنّـه مَـغْـلُـوبُ

وكتب إليه أيضاً: [الخفيف]

أيـهـا الـسّـائِـرُ الـمـجِـدُّ إلـى الـشّـا مِ تَـبَـارَى رِكـابُـه والـخـيـولُ
خُـذْ عـلـى بـلـدةٍ بـهـا دارُ مـجـد الـدِّ (م) يـن لَا رِيـع رَبْـعُـهـا الـمـأهـولُ
وتـعـرَّفْ أخـبـارَه وَاقْـرِه مـنّـا (م) سـلامـاً فـيـه الـعِـتـابُ يـجـولُ
قُـلْ لـه أنـتَ نِـعْـمَ ذُخْـرُ الـصَّـديـقِ الـ ـيـومَ لـكـنَّـك الـصَّـديـقُ الـمَـلُـولُ
مـا ظَـنَّـنـا بـأنَّ حـالـكَ فـي الـقُـرْ بِ ولا الـبُـعْـدِ بـالـمـلال يَـحُـولُ
لا كِـتـابٌ ولا جـوابٌ ولا قَـوْ لٌ بـه لـلـيـقـيـنِ مـنـا حُـصُـولُ
غَـيـرَ أنّـا نُـواصِـلُ الـكُـتْـبَ إذ قـصَّـ (م) ـرَ مـنـك الـبَـرُّ الـكـريـمُ الـوَصُـولُ
ذاكـريـنَ الـفَـتْـحَ الـذي فـتـح الـلّـ ـهُ عـلـيـنـا فـالـفَـضْـلُ مـنـه جـمـيـلُ
جـاءنـا بـعـد مـا ذكـرنـاه فـي كُـتْـ ـبِ أتـاكـم بـهـنَّ مـنـا رَسُـولُ
إن بـعـضَ الأسـطُـولِ نـالَ مـن الإفـ ـرنـجِ مـا لا يَـنَـالُـه الـتَّـأمِـيـلُ

(١) شبيب: هو شبيب بن يزيد الشيباني، أحد قادة الخوارج، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان، وكان مشهوراً بقوته وشجاعته. مات غرقاً سنة ٧٧هـ. انظر أخباره في «الكامل في التاريخ» ٤/ ١٥٠ ـ ١٧٨. ووفيات الأعيان ٢/ ٤٥٤ ـ ٤٥٨، والبيان والتبيين ١/ ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) الأشطان: جمع شطن، وهو الحبل الطويل، الشديد الفتل يستقى به، وتشد به الخيل.

Marfat.com

سارَ في قِلَّةٍ وما زالَ بالـلَّـ ـه وصِدْقِ النِّيَّاتِ يَنْمي القليلُ
وبقايا الأسطول ليسَ له بَعْـ ـدُ إلى جانبِ الشَّآمِ وُصُولُ
فحوى من عكَّا وأَنْطَرْسوسِ عدَّةٌ لم يُحِطْ بها التَّخْصِيلُ
جَمْعَ دِيْوِيَّةٍ[1] بهمْ كانتِ الإفـ ـرنجُ تَسْطُو على الورى وتَصُولُ
قِيْدَ في وَسْطِهم مُقَدَّمُهُمْ مُهْـ ـدَى إلينا وجِيْدُه مَغْلُولُ
بعدَ مَثْوَى جماعةٍ هلكوا بالسَّـ (م) ـيفِ منها الغريقُ والمَفْلُولُ
هذه نعمةُ الإله وتعديـ ـدُ أيادي الإله شيءٌ يَطُولُ
أَبْلِغَنْ قولَنا إلى الملك العا دلِ فهو المرجُوُّ والمَأْمولُ
قُلْ له تُماطِلُ الدَّيْنَ في الكُفَّـ (م) ـارِ فاحْذَرْ أن يغضبَ المَمْطُولُ
سِرْ إلى القُدْسِ واحْتَسِبْ ذاك في اللَّـ ـهِ فبالسَّيرِ منك يُشْفَى الغليلُ
وإذا ما أبطا مَسِيْرُكَ فاللَّـ ـهُ إذاً حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيلُ

فأجابه أسامة بقصيدة منها: [الخفيف]

يا أميرَ الجُيوشِ يا أَعْدَلَ الحُكَّـ (م) ـامِ في فِعْلِهِ وفيما يقولُ
أنتَ حلَّيْتَ بالمكارمِ أهلَ الـ ـعَصْرِ حتَّى تَعَرَّفَ المَجْهُولُ
وَقَسَمْتَ الفرنجَ بالغَزْوِ شَطْرَيْـ ـنِ فهذا عانٍ وهذا قَتِيْلُ
بالغَ العَبْدُ في النِّيابةِ والتَّحْـ ـريضِ وهو المُفَوَّه المَقْبُولُ
فرأى من عَزِيْمَةِ الغَزْوِ ما كا دَتْ له الأَرْضُ والجبالُ تميلُ
وإذا عاقَتِ المقاديرُ فاللَّـ ـهُ إذاً حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيلُ

وكتب الصَّالح إليه جواباً قصيدته الطائية التي أولها: [الطويل]

هي البَدْرُ لكنَّ الثريا لها قُرْطُ ومِنْ أَنْجُم الجَوْزَاء في نَحْرِها سِمْطُ
ذَخَرْنا سُطاها للفرنج لأنَّها بهم دونَ أهل الأرض أَجْدَرُ أن تَسْطُو
وقد كاتبوا في الصُّلْح لكنْ جَوَابُهُمْ بحضرتنا ما تُنْبِتُ الخَطُّ لا الخَطُّ[2]
سُطُورُ خُيولٍ لا تُغِبُّ ديارَهُمْ لها بالمواضِي والقَنَا الشَّكْلُ والنَّقْطُ
إذا أَرْسَلَتْ فَرْعاً من النَّقْعِ فاحماً أثيثاً فَأَسْنَانُ الرِّماحِ لها مُشْطُ[3]

---

(١) ديوية: هم الفرنج الداوية، طائفة من الرهبان المحاربين، قدموا مع الحملات الصليبية. تقدم التعريف بهم.
(٢) الخط: أرض في البحرين ينسب إليها الرماح الخطية.
(٣) الفرع: الشعر التام، والشعر الأثيث: الغزير الطويل.

Marfat.com

رَدَدْنا به ابن الفُنْشِ عنّا وإنما يُثَبِّتُه في سَرْجه الشَّدُّ والرَّبْطُ
فَقُولوا لنور الدين ليس لجائفِ الـ ـجِرَاحاتِ إلا الكيُّ في الطُبِّ والبَطُّ[1]
وحَسْمُ أُصولِ الدَّاءِ أَوْلَى بعاقلٍ لبيبٍ إذا اسْتَولَى على المُدْنَفِ الخِلْطُ[2]
فَدَعْ عنك ميلاً للفرنج وهُدْنَةً بها أبداً يُخْطي سِوَاهُمْ ولم يُخْطُوا
تأَمَّلْ فكم شَرْطٍ شَرَطْتَ عليهمُ قديماً وكم غَدْرٍ بهُ نُقِضَ الشَّرْطُ
وشَمِّرْ فإنَّا قد أعنَّا بكلِّ ما سألتَ وجَهَّزْنا الجيوشَ ولن يُبْطُوا

قال العماد في كتاب «الخريدة»: الصَّالح أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك سلطان مصر في زمان الفائز، وأول زمان العاضد، ملك مصر، واستولى على أمر صاحب القصر، ونفق في زمانه النَّظْم والنثر، وقرَّب الفضلاء، واتخذهم جُلَساء، ورحل إليه ذوو الرَّجاء، وأفاضَ على الدَّاني والقاصي العطاء. وله قصائدُ كثيرةٌ مستحسنة نفَّذها إلى الشَّام، يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام، وما يُصَدِّق أحدٌ أن ذلك شعره؛ لجودته، وإحكام مباني حكمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال: إن المهذَّب ابن الزُّبير[3]، كان ينظم له، وأن الجليس بن الجبَّاب[4] كان يُعينه، وله ديوان كبير وإحسان كثير.

ولما جلس في دَسْت الوزارة نظم هذه الأبيات بديهةً: [مجزوء الكامل]

انْظُرْ إلى ذي الدَّار كم قد حَلَّ ساحتَها وَزِيرُ
ولكَمْ تبختَرَ آمناً وَسْطَ الصُّفوفِ بها أميرُ
ذَهَبُوا فلا والله ما يبقى الصَّغيرُ ولا الكبيرُ
ولِمِثْلِ ما صاروا إليـ ـهِ من الفَنَاءِ غداً نَصِيرُ

(١) الجائفة: الطعنة التي تنفذ إلى الجوف. وبطَّ الجرح: شقه.
(٢) المدنف: المريض الذي اشتد مرضه وأشفى على الموت. وأدنف المرض فلاناً: اشتدّ عليه. والخلط: مخالط العقل.
(٣) المهذب ابن الزبير: هو الحسن بن أبي الحسن علي ابن القاضي الرشيد إبراهيم بن الحسين بن الزبير الغساني، أبو محمد الأسواني المصري، المعروف بالقاضي المهذب، توفي سنة ٥٦١هـ، من تصانيفه: «تفسير القرآن» في خمسين جزءاً. «ديوان شعره»، «كتاب الأنساب». (كشف الظنون ٥/ ٢٧٩).
(٤) الجليس بن الجباب: هو أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الجباب الأغلبي السعدي التميمي، توفي سنة ٥٦١هـ. وسترد ترجمته في الجزء الثاني. وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٧٣ ـ ١٧٤.

Marfat.com

فصل

[حدوث زلزلة في حلب ودمشق]

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيع الأول من ناحية حلب بحدوث زلزلةٍ رَوَّعَتْ أهلها وأزعجتهم، وزعزعت مواضع من مساكنها، ثم سكنت بقدرة محرِّكها سبحانه وتعالى. وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة في دمشق روَّعت وأقلقت، ثم سكنت.

وفي التاسع من ربيع الآخر بَرَزَ نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفرة. وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعَه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قَرُبَ منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيَّالة الفرنج ورجَّالتها، وقد كمنوا لهم فغنموهم، وقُتل أكثرهم وأُسر الباقون، وفيهم ولد المقدَّم المتولي حصن حارِم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارسٍ واحد.

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأول جُمادى الآخرة من السَّنة وافى في البقاع مطر هَطَّال بحيث حدَث منه سيلٌ أحمر كما جَرَتْ به العادة في تنبوك الشتاء[1]، ووصل إلى برَدَى، ووصل إلى دمشق، وكَثُرَ التعجب من آثار قُدْرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفي ليلة الثالث والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أُخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغَدَاة. وورد الخبر من العسكر بأن الفرنج تجمَّعوا وزحفوا إلى العسكر المنصور، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر، والتقى الجمعان، واتَّفق أن عسكر الإسلام حدَث فيه فشل لبعض المقدَّمين، فاندفعوا وتفرَّقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتاً مكانَه في عِدَّة يسيرة من شجعان غِلْمانه وأبطال خواصِّه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السِّهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولَّوا منهزمين خوفاً من كمين يظهر عليهم من عسكر الإسلام، ونجَّى الله ـ وله الحمد ـ نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى، وشدَّة بأسه، وثبات جأشه، ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيَّمه سالماً في جماعته، ولامَ من كان السبب في

(١) تنبوك الشتاء: من نبك وانتبك: أي ارتفع، ومكان نابك: مرتفع. ولعل معنى تنبوك الشتاء: أي ارتفع واشتد.

Marfat.com

اندفاعه بين يدي الفرنج، وتفرَّق جمع الفرنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصُّلح والمهادنة وحرص على ذلك، وتردَّدَتْ بين الفريقين مراسلات، ولم يستقرَّ بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالماً.

قلت: وذكر أبو الفتح بن أبي الحسن الأشتري[1]؛ المعيد ـ كان ـ بالمدرسة النِّظامية، في سيرة مختصرة جَمَعها لنور الدين، وقد تقدَّم شيءٌ منها، رحمهما الله قال: وبلغنا أنَّ نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ستٍّ وخمسين وخمسمائة[2]، فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة، وطائفةٍ يسيرة، واقفاً على تلٍّ يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكُفَّار بحيث اختلط رجَّالة المسلمين مع رجَّالة الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولِّياً وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضراً بجميع قلبه، مناجياً رَبَّه بسرِّه يقول: يا رَبَّ العباد، أنا العبد الضَّعيف، ملَّكْتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النِّيابة، عمرتُ بلادك، ونصحتُ عبادك، وأمرتُهُمْ بما أمرتني به، ونهيتُهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرتُ شعار دينك في بلادهم، وقد انهزمَ المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيِّك محمد ﷺ، ولا أملك إلا نفسي هذه، وقد سَلَّمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيِّك. فاستجابَ الله تعالى دعاءه، وأوقع في قلوبهم الرُّعب، وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنُّوا أنَّ الملك العادل عمل عليهم الحِّيلة، وأنَّ عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد. فوقفوا وما أقدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصَّفَّين يطلُبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل بِخُطْلُخ الزَّاهد[3]؛ مولى الشَّهيد بالخروج إليهما، فخرج وجال بينهما ساعة، وحمل على واحدٍ منهما فقتله، ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعَهُ، ورجع إلى قريب صفِّ الكُفَّار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

---

(١) هو بنجير بن علي بن بنجير الأشتري، أبو الفتح. توفي سنة ٥٧٩هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧٥).

(٢) سنة ست وخمسين وخمسمائة: كذا والصحيح كما ذكر المؤلف سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

(٣) سيرد ذكره في حوادث سنة ٥٦٥هـ.

Marfat.com

قال: وحدَّثنا الشيخ داود المَقْدِسي خادم قبر شعيب، على نبينا وعليه السَّلام، قال: كان أعطاني مَلِكُ القدس بغلة كنتُ راكباً عليها ـ يعني في ذلك اليوم ـ واقفاً مع الملك العادل، فلما وصل الكُفَّار وقربوا منا شمَّت بغلتي رائحة خيل الكفار، فصهلت تطلبُ خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي، فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشِرْذِمة القليلة، والطَّائفة اليسيرة. فتحقق ذلك في قلوبهم، فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه قال: فترجَّل كلُّ من كان مع الملك العادل وتشفَّعوا إليه، وباسوا الأرضَ بين يديه، وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع وفي هذا الإقليم، فإن جرى ـ والعياذ بالله ـ وَهْنٌ وضَعْفٌ من استيلاء الكُفَّار على المسلمين من الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلَف هذا الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كرهاً، ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع. فلما عرف الكفار ذلك، وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين، ندموا على ذلك ندامةً عظيمة.

قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملكُ العادل الكُفَّارَ وقتل منهم مقتلةً عظيمة وأسر منهم خلقاً كثيراً، على ما حكي عن صلاح الدين[1] صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصَل في الجريدة[2] ألف أسير مع التركمان. هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القُدْس، ودخل إلى قلعته؛ فلما جَنَّ عليه اللَّيل خرج من القلعة ومضى.

فصل

[مطالبة بعض سفهاء العوام بإرجاع المكوس والرسوم، ثم إبطال نور الدين لها ثانية]

قال أبو يعلى: وفي رجب تجمَّع قومٌ من السُّفهاء العوام، وعزموا على التَّحريض لنور الدين على إعادة ما كان أَبْطَلَ وسامحَ به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعرصة البقل والأنهار، وصانهم من إعنات شرار الضُّمَّان وحوالة الأجناد. وكرَّروا لسخف عقولهم الخطاب، وضمنوا القيامَ بعشرة آلاف دينار بيض، وكتبوا بذلك حتى أُجيبوا إلى ما راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك من

(١) صلاح الدين: هو محمد بن أيوب الياغبساني، مرت أخباره في هذا الجزء.
(٢) الجريدة: الحملة العسكرية، والعسكر الخيالة لا رجّالة فيهم.

Marfat.com

المقدَّمين والأعيان والرَّعايا، فما اهتدوا إلى صواب، ولا نجح لهم قصدٌ في خطاب ولا جواب، وعسفوا النَّاس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضَّجيج والاستغاثة إلى نور الدين، فصرف همَّه إلى النَّظر في هذا الأمر، فنتجت له السعادةُ وإيثارُ العدل في الرَّعية الإعادة إلى ما كان عليه، فأمر في عاشر رمضان بإعادة الرسوم المعادة إلى ما كانت عليه، من إماتتها وتعفية أثر ضُمَّانها، وأضاف إلى ذلك تبرُّعاً من نفسه، إبطال ضمان الهريسة والجُبْن واللَّبن، ورَسَمَ بكتابة منشورٍ يُقرأ على كافَّة الناس بإبطال هذه الرُّسوم جميعها وتعفية ذكرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثَّناء عليه، والنَّشْر لمحاسنه.

[انتصار العسكر المصري على الفرنج]

قال: وفي الحادي والعشرين من رمضان وصل الحاجب محمود المُسْتَرْشِدي من ناحية مصر بجواب ما تحمَّله من المراسلات من الملك الصَّالح متولي أمرها، ومعه رسول من مقدَّمي أمرائها، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة النُّورية، وأنواع الأثواب المصرية، والجياد العربية. وكانت فرقةٌ من الإفرنج ـ خذلهم الله ـ قد ضربوا لهم في المعابر، فأظفر الله بهم، فلم يفلت منهم إلا القليل النَّزْر. ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصري بظفره بجملةٍ وافرة من الفرنج تناهز أربعمائة فارس، وتزيد على ذلك في ناحية العريش من الجِفار، بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلبُ.

[مهاجمة امبراطور الروم أعمال أنطاكية وما والاها]

قال: وقد كانت الأخبار تناصرت من ناحية القُسْطنطينية في ذي الحِجَّة ببروز ملك الرُّوم منها بالعدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الإسلامية، ووصوله إلى مروج الدِّيباج[1] وتخييمه فيها، وبَثَّ سراياه للإغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوماً من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن افتتح من أعمال لاوين ـ ملك الأرمن ـ عِدَّة من حصونه ومعاقله. ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدَث من الروم، وبعثهم على استعمال التيقُّظ، والتأهُّب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

[محاصرة السلطان محمد بن محمود بغداد]

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد ابن السلطان

(١) مروج الديباج: واد بينه وبين المصيصة عشرة أميال (معجم البلدان ٥/ ١٠١).

Marfat.com

محمود، فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر الله، ومعه وزيره عون الدين بن هُبَيْرة[١]، فكاتَبَ أصحاب الأطراف فتحرَّكوا، ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه مَلِكْشاه قصد هَمَذَان، ودخلها في عسكر كبير ونهبها، وأخذ نساء الأمراء الذين معه وأولادهم، فاختلط العسكر وتفرَّقوا، وعاد محمد نحو هَمَذَان، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعَّثوا دار السُّلْطان.

قلتُ: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأوَّل[٢] المحدِّث المنفرد بعلوِّ رواية كتاب «الجامع الصَّحيح» للبخاري، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين[٣]

قال أبو يعلى: في أول يوم منها وافت زلزلةٌ عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها.

[مرض نور الدين في دمشق وإبلاله منه]

وكان قد عرض لنور الدين مرضٌ تزايد به بحيث أضعفَ قوَّته، ووقع الإرجاف به من حُسَّاد دولته، والمُفْسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرَّعايا وأعيانِ الأجناد، وضاقت صدور قُطَّان الثغور والبلاد خوفاً عليه، وإشفاقاً من سوءٍ يصلُ إليه، لا سيما مع أخبار الرُّوم والفرنج، ولما أحسَّ من نفسه بالضَّعف تقدَّم إلى خواصِّ أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمتُ على وصيَّةٍ إليكم بما قد وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين. إني مشفق على الرَّعايا وكافَّة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين، والظَّلَمة الجائرين، فإن أخي نُصْرة الدين أعرفُ من أخلاقه وسوء أفعاله ما لا أرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي الأمير قُطْب الدين مودود؛ متولِّي المَوْصِل، لما يرجعُ إليه من عقلٍ وسَدَاد، ودين وصحة اعتقاد. فحلفوا له، وأنفذ رُسَلَه إلى أخيه بإعلامه صورة الحال ليكون لها مستعداً. ثم تفضَّل الله تعالى بإبلاله من المرض وتزايد القوَّة في النفس والحس، وجلس للدخول إليه والسَّلام عليه.

---

(١) عون الدين بن هبيرة: هو يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعد الشيباني، الفقيه الحنبلي، المتوفى سنة ٥٦٠هـ. تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) هو عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم السجزي الهروي المالينى، سماه أبوه محمداً، فغيره شيخه عبد الله الأنصاري إلى عبد الأوّل، وكناه بأبي الوقت، ولد سنة ٤٥٨هـ، وقدم بغداد سنة ٥٥٢هـ، وتوفي فيها عن خمس وتسعين سنة (سير أعلام النبلاء ٢٠/٣٠٣ ـ ٣١١).

(٣) وخمسمائة.

Marfat.com

وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رَتَّبَ في الطرقات من يحفظ السَّالكين فيها، فظفر المقيمُ في مَنْبج برجلٍ حمَّال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولِّي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحمِّلها، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم؛ متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حُجَّابه، إلى أخيه نُصْرة الدين أمير أميران صاحب حَرَّان بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والإسراع إلى دمشق لِتُسَلَّم إليه. فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها، فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين. وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جَعْبَر يخبر بقطع نُصْرة الدين الفرات مُجِدًّا إلى دمشق، فأنهضَ أسدَ الدين في العسكر المنصور لردِّه ومنعه من الوصول، فاتَّصَل به خبرُ عوده إلى مقرِّه عند معرفته بعافية أخيه، فعاد أسدُ الدين إلى دمشق، ووصلت رُسُلُ الملك العادل من ناحية المَوْصِل بجواب ما تحمَّلوه إلى أخيه قطب الدين، وفارقوه وقد برز في عسكره، متوجِّهاً إلى ناحية دمشق، فلما فصل عن المَوْصل اتصل به خبر عافيته، فأقام بحيث هو، وأنفذ وزيره جمالَ الدين أبا جعفر محمد بن علي[1] لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يوم السبت الثامن من صفر في أحسن زِيٍّ وأبهى تجمُّلٍ، وخرج إلى لقائه الخَلْقُ الكثير[2].

قال: وهذا الوزير قد ألهمه الله تعالى من جميل الأفعال وحميد الخلال، وكرم النفس، وإنفاق أمواله في أبواب البِرِّ والصِّلات، والصدقات، ومستحسن الآثار في مدينة الرسول عليه السَّلام، ومكَّة ذات الحرم، والبيت المعظَّم، شرَّفه الله تعالى، ما قد شاع ذكره، وتضاعف عليه حمدُه وشُكْره. واجتمع مع نور الدين وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعد الإكرام له، وتوفيته حقَّه من الاحترام، وأصْحَبَهُ برسم قطب الدين أخيه وخواصِّه من الملاطفة ما اقتضته الحال الحاضرة، وتوجَّه معه الأمير أسد الدين.

وقال ابن أبي طي: لما وصل الوزير جمال الدين إلى حلب تلقَّاه موكب نور الدين، وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة، وأنزل في دار ابن الصوفي، وأُكرم غاية

---

(١) هو جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، وزير قطب الدين، صاحب الموصل، توفي في شعبان سنة ٥٥٩هـ، مقبوضاً، وكان قد قبض عليه سنة ثمان وخمسين وخمسمائة. فبقي في الحبس نحو سنة. وانظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧٣.

(٢) انظر الخبر في «الكامل» ٩/ ٤٣٥.

Marfat.com

الإكرام، وأُعيد إلى صاحبه شاكراً عن نور الدين، وسَيَّر معه الأمير أسد الدين شِيركُوه رسولاً إلى قطب الدين بالشُّكْر له والثناء عليه، وأنفذت معه هدايا سَنِيَّة، فسار وعاد إلى حلب مُكرَّماً، فوجد نور الدين عازماً على الخروج إلى دمشق لما بلغه من إفساد الفرنج في بلد حَوْران، فسار في صحابته، ووصل نور الدين إلى دمشق، فأمر الناسَ بالتجهُّز لقتال الفرنج، ثم أنهض أسدَ الدين في قطعةٍ من العسكر للإغارة على بلد صيدا، فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلا وهو قد عاث في بلد صيدا وقتل وأسرَ عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلتُ: وهذا هو ما تقدَّم ذكره بعد المرضة الأولى وكأن ابن أبي طي جعل المرضتين واحدةً بحلب، وأبو يعلى ذكر أن الأولى بحلب والثانية بدمشق، وهو الأصح، والله أعلم.

فصل

[وصول رسول امبراطور الروم إلى نور الدين]

قال أبو يعلى: كان قد وصل من ملك الرُّوم رسولٌ من معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعال، وقوبل بمثل ذلك. وحكي عن ملك الفرنج ـ خذله الله ـ أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرَّرت؛ والمهادنة انعقدت، والله يردُّ بأس كل واحدٍ منهما إلى نحره، ويذيقه عاقبة غدره ومكره.

قال: ووردت أخبار من ناحية ملك الرُّوم باعتزامه على أنطاكية وقصد المعاقل الإسلامية، فبادر نور الدين بالتوجُّه إلى البلاد الشَّامية لإيناس أهلها من استيحاشهم من شَرِّ الرُّوم والإفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ فسار في العسكر صوب حمص وحماة وشَيْزَر.

قال: وفي ثالث ربيع الأول وافت زلزلة هائلة ماجت أربع موجات وأيقظت النِّيام وأزعجت اليقظى، وخاف كلُّ ذي مسكن مضطربٍ على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأُولى هَبَّتْ ريح عاصفٌ شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثِّمار، صيفيَّها وشتويَّها، وأفسدت بعض الأشجار، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال: وتجدَّدَتْ المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم، بعد تكرر

Marfat.com

المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأُجيب ملك الرُّوم إلى ما التمسه من إطلاق مقدَّمي الإفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم. وقابل ملكُ الروم هذا الفضل بما يُضاهيه من الإتحاف بأثواب الدِّيباج الفاخرة، المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الدِّيباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية. ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائداً إلى بلاده مشكوراً محموداً ـ ولم يؤذ أحداً من المسلمين ـ في العشر الأوسط من جُمادى الأولى، فاطمأنَّتِ القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قُطْب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدَّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والإفرنج سِماطاً عظيماً هائلاً تناهى فيه، وفَرَّق من الحُصُن العربية والخيول والبغال العددَ الكثير، ومن الخِلَع من أنواع الدِّيباج المختلف وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهوداً في الحُسْن والتجمُّلِ. واتفق أن جماعةً من غرباء التركمان وجدوا من النَّاس غفلة باشتغالهم بالسِّماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني سامة وغيرهم، واستاقوا مواشيهم فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في أثرهم فريقاً وافراً من العسكر، فأدركوهم واستخلصوا منهم جميعَ ما أخذوه، وأعيد إلى أربابه.

قال: وتقرَّرَ الرأي النُّوري على التوجه إلى مدينة حَرَّان لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نُصْرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصَّلاح، فرحل في عسكره أول جمادى الآخرة فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرَّر الحال على أمانِ من بها، وسلِّمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقُرِّرت أحوالها، وأُحسن النظر في أحوال أهلها، وسلَّمها للأمير زين الدين عليّ[1] على سبيل الإقطاع، وفوَّضَ إليه تدبير أُمورها.

[وفاة الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين]
ثم دخلت سنة خمس وخمسين[2]

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بُزَان بن مامين؛ أحد مقدَّمي أمراء الأكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوفٌ بالشجاعة

(١) هو زين الدين علي بن بكتكين. صاحب إربل، ووالد مظفر الدين كوكبري توفي سنة ٥٦٣هـ. انظر «الكامل» ١٠/٨.
(٢) وخمسمائة.

Marfat.com

والبسالة والسَّمَاحة، مواظبٌ على بث الصِّلات والصَّدقات في المساكين والضعفاء والفقراء، مع الزمان في كلِّ عصر ينقضي وأوان، جميل المحيَّا، حسن البِشْر في اللُّقاء. وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصَّلاة، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، ولم يخلُ من باكٍ عليه، ومُؤَبِّن له، ومتأسِّف على فقده؛ لجميل أفعاله وحميد خلاله.

قلتُ: وله أوقاف على أبواب البر منه المدرستان المنسوبتان إليه، إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدَّد، والأُخرى قبالة باب دار سيف الغربي، في صف مدرسة نور الدين رحمه الله تعالى. وله وقفٌ على من يقرأ السُّبع كلَّ يوم بمقصورة الخَضِر بجامع دمشق، وغير ذلك. وقد مدحه العَرْقَلَةُ[1] وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهلِّ صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القُرَشي[2]؛ قاضي دمشق، إلى الملك العادل نور الدين رقعةً يسأله فيها الإعفاء من القضاء، والاستبدال به، فأجاب سؤاله، وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري؛ وهو المشهور بالتقدُّم ووفور العلم، وصفاء الفهم، والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنَّزاهة، وتجنُّب الهوى والظلم. واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه، على أن القضاء من بعض أدواته، واستقر أن يكون النائبَ عنه عند اشتغاله ولدُه.

قلت: ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصَّدقة الجارية بعده على الفقراء كل يوم جمعة وإليه ينسب الشُّبَّاك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مُدَّة، ويصلُّون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى ههنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التَّميمي، فإنه آخر كتابه. وفي هذه السنة توفي رحمه الله تعالى.

[وفاة المقتفي وولاية ابنه المستنجد]

قال ابن الأثير[3]: وفي سنة خمس وخمسين توفي أمير المؤمنين المقتفي بن المستظهر، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة

---

(١) عرقلة الشاعر، تقدمت ترجمته.

(٢) تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

Marfat.com

وشهرين[١]، وبويع ولده أبو المُظَفَّر يوسف، ولقِّب المستنجد بالله. فأقَرَّ ابنَ هُبيرة على وزارته[٢].

قال: وفيها حَجَّ زين الدين عليٌّ وأحسن إلى النَّاس في طريق مكَّة، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله، فلما لبس الخِلْعة كانت طويلة، وكان قصيراً جداً، فمدَّ يده إلى كمراته وأخرج ما شَدَّ به وسطه، وقصَّر الجُبَّة، فنظر المستنجد إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الأمير والجندي لا مثلكم.

[وفاة الفائز بن الظافر وولاية ابن عمه العاضد]

قلت: وفي هذه السنة توفي المستخلف بمصر، الملقَّب بالفائز بن الظافر ابن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف ابن الحافظ؛ وهو آخر خلفاء مصر[٣]. ووصل من الصَّالح بن زُرِّيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه: [الطويل]

هناءً بنعمى قَلَّ عن قَدْرِها الشُّكْرُ ... وصبراً لِرُزْءٍ لا يقومُ به الصبْرُ
مضى الفائز الطُّهر الإمام وقام بالـ ... إمامة فينا بعدَه العاضِدُ الطُّهْرُ
إماماً هُدًى، لله في نَقْلِ ذا إلى ... كرامته وفي إقامةِ ذا سِرُّ
فعش أبداً واسلم لهم يا كفيلهم ... تدافعُ عنهم كلَّ حادثةٍ تَغْرُو

[خروج أسد الدين شيركوه إلى الحج]
ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي طَيّ: في هذه السنة حَجَّ أسد الدين من الشَّام، وخرج في تجمُّلٍ

---

(١) قال ابن الأثير في «الكامل»: في ثاني ربيع الأول توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله بعلة التراقي، وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأمه أم ولد تدعى ياعي، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، ووافق أباه المستظهر بالله في علة التراقي، وماتا جميعاً في ربيع الأول.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٤٣٧ ـ ٤٣٩. وقال: كانت خلافته ست سنين ونحو شهرين، وكان له لما ولي خمس سنين. ولما مات دخل الصالح بن رزيك القصر، واستدعى خادماً كبيراً، وقال له: من ههنا يصلح للخلافة؟ فقال: ههنا جماعة وذكر أسماءهم... فأمر بإحضار العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف ابن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان العاضد، ذلك الوقت، مراهقاً قارب البلوغ، فبايع له بالخلافة، وزوجه الصالح ابنته.

Marfat.com

عظيم وشارة رائعة، واستصحب معه من الأزواد والكُسَى أشياء عظيمة ويقال: إنه كان مَعه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب. وحَجَّ علي كوجك المعروف بزين الدين من العراق، وحَجَّ ملهم أخو ضِرْغام وزير مصر، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثيرَ الخير، واستغنى بسببهم أهلُ الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً، وخرج نور الدين إلى لقائه، وكان يوم وروده يوماً عظيماً.

[مقتل الصالح بن رزيك]

وقال أيضاً: فيها قُتل الصَّالح بن رزيك بمصر[1]، وكان سبب قتله أن عَمَّة العاضد عملت على قتله، ونفَّذَت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصَّالح، فاستعاد الأموال، واحتاط على عمة العاضد. قال: وإنما كرهَتْهُ عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحِفْظِهِ للأموال، وقَتَلَ الصَّالحُ بسببها جماعةً من الأمراء ونكبهم، وتمكَّن من الدولة تمكناً حسناً. ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم من السُّودان مالاً جزيلاً حتى أوقعوا به الفعل: جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر ودخله، وسلَّم على العاضد، وخرج من عنده، فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصَّيحة، فعثر الصَّالح بأذياله، فطعنه أحدُهم بالسَّيف في ظاهر رقبته، فقطع أحد عمودي الرَّقبة، وحُمل إلى باب القصر، وأُصيب ولده رُزِّيك في كتفه. ولما حصل الصَّالح في داره أوصى ولده رُزِّيك، ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل، ورَخُصَ سعر الشعر، وانخفض عَلَم العِلْم، وضاق فضاء الفضل، وعَمَّ رُزْءُ ابن رُزِّيك، وملك صَرْفُ الدَّهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ، منحوسة الجَدّ، منكوسة الرَّاية، معكوسة الآية، إلى أن ملكها يوسفها الثاني[2]، وجعلها مغاني المعاني، وأنشر رميمها، وعطَّر نسيمها، وتسلَّم قصرها، والتزم خصرها. قال زين الدين الواعظ[3]: عمل فارسُ المسلمين؛ أخو الصَّالح دعوةً في شعبان من

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٤٩ ـ ٤٥١. وقال في «الكامل»: أرسلت عمة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين، ودعتهم إلى قتله، وكان أشدهم عليه في ذلك، إنسان يقال له: ابن الداعي، فوقفوا له في دهليز القصر، فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش.

(٢) يوسفها الثاني: يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب، ويوسفها الأول: هو يوسف بن يعقوب عليه السلام.

(٣) زين الدين الواعظ: هو علي بن إبراهيم بن نجا، المعروف بابن نجيّة، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة ٥٩٩هـ. بمصر، ترجم له أبو شامة في «الذيل على الروضتين» في وفيات سنة ٥٩٩هـ.

Marfat.com

السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلَّمها إلي: [الطويل]

أنستُ بكم دهراً فلما ظعنتُمُ اسْـ ـتَقَرَّتْ بقلبي وحشةٌ للتفرُّقِ
وأعجب شيءٍ أنَّني يوم بَيْنِكُمْ بقيتُ وقلبي بين جنبيَّ ما بقي
أرى البُعْدَ ما بيني وبين أحبَّتي كَبُعْدِ المدى ما بين غَرْبٍ ومَشْرِقِ
ألا جدِّدي يا نفسُ وجداً وحسرةً فهذا فِراقٌ بعده ليسَ نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماعٌ في مسرَّة، وقُتل في شهر رمضان.

قلت: ولعُمارة اليمني[1] ولغيره في الصالح مدائح ومراثٍ جليلة، وقد أثنى عليه كثيراً في كتاب «الوزراء المصرية»[2] وقال: لم يكن مجلس أُنسه ينقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته. قال: وكان مرتاضاً، قد شَمَّ أطراف المعارف، وتميَّز عن أجلاف الملوك، وكان شاعراً يحبُّ الأدب وأهله، يُكرم جليسه، ويبسُط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبيَّة في مذهب الإمامة، وكان مرتاضاً حصيفاً قد لقي في ولايته فقهاء السُّنَّة وسمع كلامهم.

قال: ودخلتُ عليه قبل أن يموت بثلاث ليال، وفي يده قرطاس قد كتبَ فيه بيتين من شعره عملهما في تلك السَّاعة، وهما: [الخفيف]

نحنُ في غَفْلَةٍ ونومٍ وللمو تِ عيونٌ يقظانةٌ لا تنامُ
قد رحلنا إلى الحِمامِ سنيناً ليتَ شِعْري متى يكونُ الحِمامُ

قال: ومن عجيب الاتِّفاق أني أنشدتُ ابنه مجد الإسلام في دار سعيد السُّعداء، ليلة السَّادس عشر من شهر رمضان، أو السَّابع عشر، قصيدة أقول فيها: [الطويل]

أبوك الذي تسطو الليالي بحدِّه وأنت يمينٌ إن سطا وشِمالُ
لَرُتْبَتُهُ العُظمى وإن طالَ عُمْرُه إليكَ مصيرٌ واجبٌ ومآلُ
تخالسك اللَّحظُ المصونُ ودونَها حجابٌ شريفٌ لا انقضى وحجالُ

قال: فانتقل المُلْك بعد ثلاثٍ إليه.

قال: ومما رثيته به قولي: [الطويل]

أفي أهل ذا النَّادي عليمٌ أسائِلُهْ فإني لما بي ذاهبُ اللُّبِّ ذاهِلُهْ

---

(١) عمارة اليمني: تقدمت ترجمته في هذا الجزء.
(٢) هو كتاب «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية».

Marfat.com

سمعتُ حديثاً أحْسُدُ الصُّمَّ عنده ... ويَذْهَلُ واعِيْه ويَخْرَسُ قائِلُهْ
فقد رابني مِنْ شدِ الحال أنني ... أرى الدَّسْتَ منصوباً وما فيه كافِلُهْ
وأني أرى فوقَ الوجوه كآبةً ... تدُلُّ على أنَّ الوجوه ثواكِلُهْ
دعوني فما هذا بوقتِ بكائه ... سيأتيكُمُ طَلُّ البكاءِ ووابِلُهْ
ولِمْ لا نبكِّيه ونندُبُ فَقْدَهُ ... وأولادُنا أيتامُهُ وأرامِلُهْ
فيا ليت شِعْري بعد حُسْن فعَاله ... وقد غاب عَنَّا ما بنا الدَّهْرُ فاعِلُهْ
أيُكْرَمُ مثوى ضيفكم وغريبكم ... فيسكن أم تُطْوى ببينٍ مراحِلُهْ

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه: [الخفيف]

طَمَعُ المرءِ في الحياةِ غُرورُ ... وطويلُ الآمالِ فيها قصيرُ
ولكم قَدَّرَ الفتى فأتَتْهُ ... نُوَبٌ لم يُحِطْ بها التَّقْديرُ
فَضَّ ختمَ الحياةِ عنك حِمامٌ ... لا يراعي إذناً ولا يستشيرُ
ما تخطَّى إلى جلالِكَ إلا ... قَدَرٌ أمرُه علينا قديرُ
يا أميرَ الجيوشِ هل لك عِلْمٌ ... أنَّ حَرَّ الأسى علينا أميرُ
إنَّ قبراً حَلَلْتَهُ لَغنيٌّ ... إنَّ دهراً فارَقْتَهُ لفقيرُ
انطوى ذلك البِساطُ وعَهْدي ... وهو بالعِلْمِ والنَّدَى مَغْمُورُ
لا تظنَّ الأنام أنك مَيْتٌ ... لم يَمُتْ مَنْ ثناؤه مَنْشُورُ
إنْ مضى كافلٌ فهذا كفيلٌ ... أو وزيرٌ يغِبْ فهذا وزيرُ
دولة صالحيَّةٌ خلفتْها ... دولةٌ عادليَّة لا تجورُ
أَعْقَبَ الدَّهْرُ بؤسَه بنعيمٍ ... رُبَّ حُزْنٍ في الطَّيِّ منه سرورُ
ما شَكَوْنا كَسْرَ النَّوائب حتى ... قيل في الحالِ كَسْرُكُمْ مجبورُ
نَصَرَ النَّاصر العُلا بالعوالي ... وَلَنِعْمَ المولى ونِعْمَ النَّصِيرُ

وقال أيضاً يرثيه: ويذكر الظَّفَر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقَرافة، قصيدة طويلة، منها: [الكامل]

قد كنت أشرَقُ من ثِمَادِ مدامعي ... أسفاً فكيفَ وقد طَمَى التَّيَّارُ
عَمَّ الورى يوم الخميس وخَصَّني ... خَطْبٌ بأنفِ الدَّهرِ منه صَغَارُ
ما أوحشَ الدُّنيا غديَّةَ فارَقَتْ ... قُطْباً رحى الدُّنيا عليه تُدَارُ
خَرِبَتْ ربوعُ المكرمات لواحدٍ ... عَمَرَتْ به الأجداثُ وهي قِفارُ
نَعْشُ الجدودِ العاثراتِ مُشَيَّعٌ ... عَشِيَتْ برؤيةِ نَعْشِهِ الأبصارُ

Marfat.com

نعشٌ تَوَدُّ بناتُ نَعْشٍ لو غَدَتْ ... ونظامُها أسفاً عليه نِثارُ
شَخَصَ الأنامُ إليه تحتَ جِنازةٍ ... خُفِضَتْ لرفعةِ قَدْرِها الأقدارُ
سارَ الإمامُ أمامَها فَعَلِمْتُ أنْ ... قد شَيَّعَتْها الخمسةُ الأبرارُ
ومشى الملوكُ بها حُفاةً بعد ما ... حَفَّتْ ملائكةٌ بها أطهارُ
فكأنَّها تابوتُ موسى أُودِعَتْ ... في جانبيه سكينةٌ ووَقارُ
لكنَّه ما ضَمَّ غيرَ بقيَّةِ الـ ... إسلامِ وهو الصَّالح المختارُ
أَقْطَنْتَهُ دارَ الوِزارَةِ ريثما ... بُنيت لنقلته الكريمةِ دارُ
وتغايرَ الهَرَمان والحرمانِ في ... تابوته وعلى الكريم يُغارُ
آثرتَ مِصْراً منه بالشَّرف الذي ... حَسَدَتْ قرافَتَها له الأمصارُ
وَجَعَلْتَها أمناً به ومثابةً ... ترجو مثابةَ قَصْدِها الزُّوَّارُ
قد قلتُ إذ نقلوه نقلةَ ظاعنٍ ... نَزَحَتْ به دارٌ وشَطَّ مزارُ
ما كان إلا السَّيفَ جَدَّد غِمْدَه ... بسواه وهو الصَّارمُ البَتَّارُ
والبَدْرَ فارق بُرْجَه متبدِّلاً ... بُرْجاً به تتشعشعُ الأنوارُ
والغيثَ رَوَّى بَلْدَةً ثم انتحى ... أُخرى فَنَوْءُ سَحابِه مِدْرَارُ
يا مُسْبِلَ الأستار دون جلاله ... ماذا الذي رُفِعَتْ له الأستارُ
ما لي أرى الزُّوَّارَ بعد مهابةٍ ... فوضى ولا إذنٌ ولا استئمارُ
غَضِبَ الإله على رجالٍ أقدَموا ... جهلاً عليك وآخرينَ أشاروا
لا تعجباً لِقُدَارِ ناقةِ صالحٍ ... فلكلِّ دَهْرٍ ناقةٌ وقُدَارُ(١)
واخجلتا للبِيضِ كيف تطاوَلَتْ ... سَفَهاً بأيدي السُّودِ وهي قِصارُ
واحَسْرتا كيف انفَرَدْتَ لأعْبُدٍ ... وعبيدُكَ السَّاداتُ والأحرارُ
رَصَدُوك في ضِيقِ المجالِ بحيثُ لا الـ ... خَطِّيُّ متَّسعٌ ولا الخَطَّارُ
ما كانَ أقصر باعهم عن مثلها ... لو كنتَ متروكاً وما تختارُ
ولقد ثَبَتَّ ثباتَ مُقْتَدِرٍ على ... خِذْلانهم لو ساعَدَ المقدارُ
وتعثَّرَتْ أقدامُهُمْ بك هيبةً ... لو لم يكن لك بالذُّيول عِثارُ
أُخْلِلْتَ دارَ كرامةٍ لا تنقضي ... أبداً وحَلَّ بقاتليك بَوارُ
يا ليتَ عَيْنَكَ شاهَدَتْ أحوالَهم ... من بعدِها ورأَتْ إلى ما صاروا

(١) هو قدار بن سالف الذي يقال له: أحيمر ثمود، الذي عقر ناقة صالح عليه السلام.

Marfat.com

وَقَعَ القِصاصُ بهم وليسوا مَقْنعاً يُرْضي وأينَ من السَّماء غُبارُ
ضاقَتْ بهم سَعَة الفِجَاج وربما نامَ العدوُّ ولا ينامُ الثَّارُ
وتوهَّموا أن الفِرَارَ مطيَّةٌ تنجي وأينَ من القَضَاءِ فِرارُ
طاروا فمدَّ أبو الشجاع لصيدِهم شَرَكَ الرَّدَى فكأنَّهم ما طاروا
فتهنَّ بالأجرِ الجزيل ومِيْتَةٍ دَرَجَتْ عليها قَبْلَكَ الأخيارُ
مات الوصيُّ بها وحمزةُ عمُّه وابنُ البتولِ وجعفرُ الطَّيَّارُ
نِلْتَ السَّعادَة والشَّهادَة والعُلا حيًّا ومَيْتاً إن ذا لَفَخارُ
ولقد أَقَرَّ العينَ بعدَكَ أروعٌ لولاه لم يكُ للعُلا اسْتِقْرَارُ
النَّاصِرُ الهادي الذي حَسَناتُهُ عن سيِّئاتِ زماننا أعذَارُ
لمَّا استقامَ لحفظِ أُمَّةِ أحمدٍ عُمرت به الأوطانُ والأوطارُ

[هزيمة نور الدين تحت حصن الأكراد]

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير[1]: فيها جمع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم وحصرها، وجَدَّ في قتالها، فامتنعت عليه؛ لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشُجعانهم، واجتمع الفرنج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحُلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصافَّ، فلم يجيبوه إلى ذلك، وراسلوه وتلطَّفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده. وممن كان معه في هذه الغَزَاة الأمير مُؤَيَّد الدولة أسامة بن مُرْشد بن مُنْقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج؛ فلما دخله عامئذٍ كتب على حائطه: [الطويل]

لك الحمدُ يا مولاي كم لك مِنَّةٍ عليَّ وفَضْلٍ لا يحيطُ به شُكْري
نَزَلْتُ بهذا المسجد العامَ قافلاً من الغَزْوِ موفورَ النَّصيبِ من الأَجرِ
ومنه رَحَلْتُ العِيس في عاميَ الذي مضى نحو بيت الله ذي الرُّكْن والحِجْرِ[2]
فأدَّيْتُ مَفْروضي وأسقطتُ ثقل ما تحمَّلْتُ من وِزْرِ الشَّبيبة عن ظَهْري

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٥٧.

(٢) رواية عجز البيت في «الكامل»:

مضى نحو بيت الله والركن والحجر

Marfat.com

قلتُ: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضاً بمدينة صور وقد دخل دار ابن أبي عقيل فرآها وقد تهدَّمت وتغيَّرت زخرفتها، فكتب على لوحٍ من رُخام: [مجزوء الكامل]

احـــذرْ مـــن الـــدُّنـــيـــا ولا تـغـتـرّ بـالـعُـمْـرِ الـقـصـيـرِ
وانـــظـــرْ إلـــى آثـــارِ مَـــنْ صَـرَعَـتْـهُ مـنَّـا بـالـغُـرورِ
عـــمـــروا وشـــادوا مـــا تـــرا هُ مـــن الـــمـــنـــازلِ والـقُـصُـورِ
وتـحـوَّلـوا مـن بـعـد سُـكْـ ـنـاهـا إلـى سُـكْـنـى الـقُـبُـورِ

قلت: ابنُ أبي عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبي عقيل صاحب صور، ويلقَّب عين الدَّولة، مات سنة خمسٍ وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النَّفيس.

[مجيء شاور وزير مصر إلى نور الدين مستنجداً وإرسال شيركوه إلى مصر المرة الأولى ورجوعه عنها وذكر بداية أمره وأمر أخيه نجم الدين أيوب]

ثم دخلت سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير[1]: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج، عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس، فبينما النَّاس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صُلْبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم، فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا، فانهزموا، ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قَبَاء، فركب فرساً هناك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رِجْله شِبْحة[2]، فنزل إنسانٌ من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقُتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلِّفي ذلك الكردي، فأحسن إليهم جزاءً لفعله، وكان أكثر القتل في السُّوقة والغِلْمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام، ونصبها على بحيرة قَدَس على فرسخ من حمص، وبينها وبين مكان الوقعة أربعة فراسخ، وكان النَّاس يظنون أنه لا يقفُ دون حلب، وكان رحمه الله تعالى

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣. ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج، وهي الوقعة المعروفة بالبقيعة.
(٢) الشبحة: هي التي تربط بها يد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه.

Marfat.com

أشجع من ذلك وأقوى عزماً. ولما نزل على بحيرة قَدَس اجتمع إليه كلُّ من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوبَّخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلُّوا أو كثروا، ووالله لا أستظلُّ بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري. ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدَّواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجُنْد، فأكثر، وفرَّق ذلك جميعه على من سَلِمَ، وأما من قُتل فإنه أقرَّ إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله. فعاد العسكر كأنه لم يُفقد منه أحد.

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة؛ لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوَّة أن يمنعنا.

وكان نور الدين رحمه الله تعالى قد أكثر الخرج إلى أن قَسَمَ في يوم واحد مائتي ألف دينار، سوى غيرها من الدوابِّ والخيام والسِّلاح وغير ذلك. وتقدَّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند، ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أُخذ منه، فكلُّ من ذكر شيئاً أعطوه عوضه، فحضر بعض الجند، وادَّعى شيئاً كثيراً علم بعضُ النواب كذبه فيما ادَّعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين يُنهون إليه القضية، ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادَّعاه. فأعاد الجواب: لا تكدِّروا عطاءنا، فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره. وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدراراتٍ كثيرةً وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصُّوفية والقُرَّاء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل. فغضب من هذا وقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، «فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم»[1]. كيف أقطع صِلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطئ وتصيب! ثم هؤلاء القوم لهم نصيبٌ في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقوا[2].

---

(١) حديث حسن صحيح، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ابغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم». أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الجهاد باب ٧٦، وأبو داود في الجهاد باب ٧٠، والنسائي في الجهاد باب ٤٣، والترمذي في الجهاد باب ٢٤، وأحمد في المسند ١/ ١٧٣، ٥/ ١٩٨.

(٢) انظر «الكامل»: ٩/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

Marfat.com

قلتُ: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبد الله بن أسعد المَوْصلي[١] نزيل حمص، من جُملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى، أوّلها[٢]: [البسيط]

ظُبى المواضي وأطرافُ القَنَا الذُّبُل ... ضوامِنٌ لك ما حازوه من نَفَلِ
وكافِلٌ لك كافٍ ما تحاوِلُه ... عِزٌّ وعزمٌ وبأسٌ غير مُنْتَحَلِ
وما يَعِيْبُكَ ما حازوه[٣] من سَلَبٍ ... بالخَتْلِ قد تُؤْسر[٤] الآسادُ بالحِيَلِ
وإنّما أَخْلَدُوا جُبْناً إلى خُدَعٍ ... إذْ لم يكن لهمُ بالجيشِ من قِبَلِ
واستيقظوا وأرادَ اللّهُ غفلتَكُمْ ... ليَنْفُذَ القَدَرُ المحتومُ في الأزَلِ
حتى أتوكم ولا الماذيُّ من أَمَمٍ ... ولا الظُّبى كَثَبٌ من مُرْهَقٍ عَجِلِ[٥]
قَناً لَقًى وقِسِيٌّ غيرُ مُوتَرَةٍ ... والخيلُ عازبة تَرْعَى مع الهَمَلِ[٦]
ما يصنَعُ اللَّيثُ لا نابٌ ولا ظُفُرٌ ... بما حوالَيْهِ من عُفْرٍ ومن وُعُلِ
هلّا وقد رَكِبَ الأُسْدُ الصُّقُورَ وقد ... سلُّوا الظُّبى تحتَ غاباتٍ من الأَسَلِ
وإنّما هُمُ أضاعوا حَزْمَهُمْ ثِقَةً ... بِجَمْعِهِمْ ولَكَمْ من واثقٍ خَجِلِ
بني الأَصافِرِ ما نِلْتُم بمكْرِكُمُ ... والمَكْرُ في كلِّ إنسانٍ أَخُو الفَشَلِ[٧]
وما رَجَعْتُم بأَسْرى خابَ سَعْيُكُمُ ... غيرَ الأراذِلِ والأتباعِ والسَّفَلِ
سَلَبْتُمُ الجُرْدَ مُغْراةً بلا لُجُمٍ ... والسُّمْرَ مَرْكُوزةً والبيضَ في الخِلَلِ
هل آخذُ الخيلِ قد أَرْدَى فوارِسَها ... مثالُ آخذِها في الشَّكْلِ والطُّوَلِ
أم سالِبُ الرُّمْحِ مركوزاً كسالبه ... والحربُ دائرةٌ من كفِّ مُعْتَقِلِ
جيشٌ أصابَتْهُمُ عَيْنُ الكمالِ وما ... يَخْلُو من العين إلّا غيرُ مُكْتَمِلِ
لهم بيومِ حُنَيْنٍ أُسوةٌ وهُمُ ... خَيْرُ الأنام وفيهم خاتَمُ الرُّسُلِ
سَيَقْتَضِيكُمْ بِضَرْبٍ عند أَهْوَنِهِ ... البيضُ كالبيضِ والأَذْرَاع كالحُلَلِ
مَلْكٌ بعيدٌ من الأَدْناسِ ذو كَلَفٍ ... بالصِّدْقِ في القول والإخلاصِ في العَمَلِ

---

(١) هو ابن الدهان الشاعر، المتوفى بحمص سنة ٥٨١هـ. تقدمت ترجمته في هذا الجزء.
(٢) القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢.
(٣) في «خريدة القصر»: «ما نالوه» بدل: «ما حازوه».
(٤) في «خريدة القصر»: «توتر» بدل: «تؤسر».
(٥) الماذي: السلاح كله من الحديد، ويقال: الماذي خالص الحديد وجيده.
(٦) في «خريدة القصر»: «الحمل» بدل: «الهمل».
(٧) بنو الأصافر: هم الروم.

Marfat.com

فالسُّمْرُ[1] ما أصبَحَتْ والشَّمْسُ ما أَفَلَتْ ... والسَّيفُ ما فُلَّ والأَطْوَادُ لم تَزُلِ
كَمْ قد تجلَّتْ بنورِ الدين من ظُلَمٍ ... للظُّلْم وإنجاب للإضلال من ظُلَلِ
قُلْ لِلْمُولِّين كُفُّوا الطَّرْفَ من جُبُنٍ ... عند اللِّقاءِ وغضُّوا الطَّرْفَ من خَجَلِ
طَلَبْتُمُ السَّهْلَ تَبْغُونَ النجاةَ ولو ... لُذْتُمْ بمَلْكِكُمُ لُذْتُمْ إلى جَبَلِ
أَسْلَمْتُموه وَوَلَّيتُمْ فأسلمكم[2] ... بِثَيْتَةٍ لو بَغَاها الطَّوْدُ لم يَنَلِ
فقامَ فَرْداً وقد ولَّتْ جَحافِلُه ... فكانَ من نَفْسِهِ في جَحْفَلٍ زَجِلِ
في مَشْهَدٍ لو لُيوثُ الغِيل تَشْهَدُهُ ... خَرَّتْ لأذقانِها من شِدَّة الوَهَلِ
وَسْطَ العِدَى وحدَه ثَبْتَ الجَنَانِ وقد ... طارَتْ قلوبٌ على بُعْدٍ من الوَجَلِ
يَعُودُ عنهم رُوَيْداً غيرَ مُكْتَرِثٍ ... بهم وقد كَرَّ فيهم غيرَ مُحْتَفِلِ
يَزْدَادُ قُدْماً إليهم من تَيَقُّنِهِ ... أَنَّ التَّأخُّرَ لا يَحْمِي من الأَجَلِ
ما كان أَقربهم من أَسْرِ أَبْعَدِكُمْ ... لو أنَّهم لم يكونوا منه في شُغُلِ
ثباتُهُ في صُدُورِ الخيل أَنْقَذَكُمْ ... لا تَحْسِبوا وَثَبَاتِ الضُّمَّر الذُّلُلِ
ما كل حينٍ تُصابُ الأُسْدُ غافلةً ... ولا يُصيبُ الشَّديدَ البَطْشِ ذو الشَّلَلِ
والله عَوْنُك فيما أنتَ مُزْمِعُهُ ... كما أعانك في أيَّامِكَ الأُوَلِ
كم قد ملكتَ لهم مُلْكاً بلا عِوَضٍ ... وحُزْت من بَلَدٍ منها بلا بَدَلِ
وكم سَقَيْتَ العَوَالي من طُلَى مَلِكٍ ... وكم قَرَيْتَ العَوَافي من قَرا بَطَلِ
لَا نكَّبَتْ سَهْمَكَ الأقدارُ عن غَرَضٍ ... ولا ثَنَتْ يدَك الأيامُ عن أَمَلِ

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله: [البسيط]

غيري بأكثر هذا النَّاس ينخدعُ[3]

القصيدة.

فإنَّ كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون، وقد أحسنا معاً، عفا الله عنهما.

وعبد الله بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مُفْلِق، كان مدرِّساً بحمص يعرف

---

(١) في «خريدة القصر»: فالشمس»، بدل: «فالسمر».
(٢) في «خريدة القصر»: «فسلّمكم» بدل: «فأسلمكم».
(٣) عجز البيت:

إن قَاتلوا جبنوا أو حدّثوا شجعوا

والبيت في ديوان المتنبي ٢/ ٦٢ (طبعة دار الكتب العلمية).

Marfat.com

بابن الدُّهَان، وله ترجمة في «تاريخ دمشق». وقد ذكره العماد الكاتب في «خريدته»[١]، فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره، وسيأتي ذكره أيضاً في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين، وست وسبعين، وثمان وسبعين، إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة ـ أعني سنةَ ثمانٍ وخمسين ـ توفي عبد المؤمن بن علي؛ خليفة المهدي محمد بن تُومَرْت؛ صاحب المغرب، وولي بعده ابنُه يوسف[٢].

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سار أسد الدين شِيركُوه بن شاذي إلى مصر المرَّة الأولى؛ وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النُّورية، عازماً على ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية[٣].

وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب ـ وهو الأكبر ـ ابنا شاذي، من بلد دُوِين، وهي بلدةٌ من آخر بلاد أَذْرَبِيجَان مما يلي الرُّوم، وأصلهما من الأكراد الرَّوَادِية؛ وهذا القبيل هو أشرف الأكراد، وقدما العراق، وخدما مجاهد الدينِ بِهْرُوز الخادم[٤] وهو شِحنة العراق، فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وحُسْنَ سيرةٍ فجعله دُزْدَاراً بتَكْريت، وهي له، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين.

فلما انهزم أتابك زَنْكي الشهيد؛ والد نور الدين، بالعراق من قراجة السَّاقي؛ وهو أتابك داود ابن السُّلْطان محمود[٥]، وذلك زمن المسترشد بالله، سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تَكْريت، فخدَمهُ نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دِجْلَة هناك، وتبعَهُ أصحابه، فأحسن نجم الدين صُحْبتهم وسيَّرهم. ثم إن أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بِتَكْريت لملاحاة جَرَت بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين، فأخرجهما من تكْريت.

وقيل: إن أيوب كان يحسن الرِّماية، فرمى شخصاً من مماليك بِهْرُوز بسهمٍ

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٧٩ ـ ٢٩٤. وانظر أيضاً ترجمته في وفيات الأعيان ٣/ ٥٧ ـ ٦١، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦١. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٥.

(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦٥ ـ ٤٦٧: ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر وعودهم عنها.

(٤) بهروز الخادم: هو مجاهد الدين بهروز بن عبد الله، أبو الحسن. مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي. كان حاكماً بالعراق نيفاً وثلاثين سنة. توفي ببغداد سنة ٥٤٠هـ. (انظر «الكامل» ٩/ ٣٣٦، ووفيات الأعيان ٧/ ١٤٢).

(٥) في «الكامل» ٩/ ١٤٨: قراجة الساقي هو أتابك الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمد.

Marfat.com

فقتله، فخشي على نفسه، فتوجَّه نحو الشام وخدم مع زَنْكي. وقيل: لما قَتَلَ أسدُ الدين شيركُوه النَّصْراني ـ وكان عزيزاً عند بِهْرُوز ـ هرب إلى المَوْصِل، والتحق أيوب به. وسنوضح هذه القضية إن شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمانٍ وستين.

ثم إن أيوب وشِيركُوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، وصارا من جُمْلة جُنْده. فلما فتح حصن بَعْلَبَك جعل نجم الدين دُزْداراً فيه. فلما قُتل الشهيد حَصر عسكرُ دمشق نجمَ الدين، فأرسل إلى سيف الدين غازي ـ وقد قام بالملك بعد والده ـ يُنهي الحال إليه، فلم يتفرَّغ لبعلبك، وضاق الأمر على من بها، وخاف نجمُ الدين أن تؤخذ عَنْوَةً ويناله أذًى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعاً ذكره، فأُجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه، وسَلَّم القلعة، ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدُّم، وصار عنده من أكابر الأمراء.

واتصل أخوه أسد الدين شِيركُوه بالخدمة النُّورية بعد قتل الشَّهيد ـ وكان يخدمه في أيام والده ـ فقرَّبه نور الدين وأقطعه، ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجزُ عنها غيرُه لشجاعته وجُرْأته، فزاده إقطاعاً وقرباً حتى صارت له حمص والرَّحبة وغيرهما؛ وجعله مقدَّم عسكره.

فلما تعلَّقت الهمة النُّورية بملك دمشق أمر أسدَ الدين، فراسل أخاه نجم الدين ـ وهو بها ـ في ذلك، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يُرادُ منه، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لمَّا ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل، لا سيَّما نجم الدين، فإن جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك، إلَّا نجم الدين، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يُؤمر بذلك.

فلما كان سنة تسع وخمسين عزم نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر، ولم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين، فَسَيَّره.

وكان سببُ ذلك أن شاوَرَ بن مُجير أبا شجاع السَّعْدي[1]، وهو الملقَّب أمير الجيوش الذي يقول فيه عُمارة من جُمْلَة قصيدة: [الكامل]

ضَجِرَ الحديدُ من الحديد وشاوَرٌ ... في نَصْرِ آلِ محمدٍ لم يَضْجَرِ

(١) انظر أخباره في «الكامل» ٩/ ٤٦٠، وانظر أيضاً نسبه في وفيات الأعيان ٢/ ٤٣٩.

Marfat.com

حلَفَ الزَّمان ليأتينَّ بمثله حَنِثَتْ يمينُك يا زَمانُ فَكَفِّرِ

وهو وزير الملقَّب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمانٍ وخمسين في سادس ربيع الأول، إلى نور الدين مستنجداً به على من أخذَ منه منصبَه قهراً.

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب وعجز صاحبُ المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه، وقَعوا للقاهر منهم ورتَّبوه ومكَّنوه، فإن قوَّتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم، وهو الملقَّب عندهم بالسُّلْطان، وما كانوا يرون المكاشفة، وأغراضهم مستتبَّة وقواعدهم مستقرَّة من أول زمانهم على هذا المثال.

وكان شاوَرُ قد غلب على الوزارة، وانتزعها من بني رُزِّيك، وقَتَلَ العادل بن الصَّالح بن رُزِّيك الذي وزر بعد أبيه، واسمُه رُزِّيك، ويلقب بالنَّاصر أيضاً، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي من الإسكندرية، واستخدمه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيش، على ما ذكره عُمارة اليمني في كتاب «الوزراء المصرية». وقال: غرس منه للدولة، بل للملَّة، شجرةً مباركة متزايدة النماء، أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماء.

ثم خرج على شاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضِرْغام بن سِوَار ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قِبَل، فغلبه وأخرجَه من القاهرة وقَتَلَ ولدَه طيئاً، واستولى على الوزارة.

فرحل شاورَ إلى الشَّام قاصداً خدمة نور الدين، مستصرخاً به ومستنصراً، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه، فطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعودَ إليها، ويكون له فيها حصَّة ـ ذكرها له ـ ويتصرَّف على أمره ونَهْيه واختياره. ونور الدين يُقدِّم في ذلك رجلاً ويؤخِّر أُخرى، تارةً تحملُه رعاية قصد شاور وطلب الزِّيادة في الملك والتقوِّي على الفرنج، وتارةً يمنعُه خطرُ الطَّريق وكون الفرنج فيه، إلا أن يوغلوا في البَرِّ فيتعرَّضُوا لخطرٍ آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً. ثم استخار الله تعالى، وأمر أسد الدين بالتجهُّزِ للمسير معه قضاءً لحق الوافد المستصرخ، وجساً للبلاد، وتطلعاً على أحوالها. وكان هوى أسد الدين في ذلك، وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يُبالي بمخافة. فتجهَّزَ وسار مع شاورَ في جُمادى الآخرة[1] من سنة تسعٍ وخمسين. هكذا ذكر ابنُ الأثير، والعماد الكاتب وقال القاضي ابن شدَّاد: كانَ ذلك سنة ثمانٍ وخمسين، والقول في ذلك قولهما، فقد بيَّنا أنَّ قدوم شاور إلى

(١) في «الكامل»: جمادى الأولى.

Marfat.com

الشام كان في سنة ثمان وخمسين، وإرسالَ نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين.

قالوا: وأمر نورُ الدين أسدَ الدين بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة. وساروا جميعاً، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلي الفرنج بعساكره لِيَشْغَلَهُمْ عن التعرُّض لأسد الدين، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين. ووصل أسدُ الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه، فهرب المنازع لشاورَ في الوزارة، وقُتل، وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً وتمكَّن من منصبه[1].

وكان عُمارة قد مدح ضِرْغاماً بقصيدةٍ منها: [الكامل]

وأحقُّ من وَزَرَ الخلافةَ مَنْ نشا ... في حَضْرَةِ الإكرامِ والإجلالِ
واختصَّ بالخُلَفاءِ وانكشَفَتْ له ... أسرارُها بقرائنِ الأحوالِ
وتصرَّفَ الوزراءُ عن آرائه ... كتصرُّفِ الأسماءِ بالأفْعَالِ

قال عُمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج، وكنت أسكنُ صَفَّ الخليج بالقاهرة، قلتُ ارتجالاً: [الوافر]

أرى حَنَكَ الوزارة صار سيفاً ... يَجُذُّ بحدِّه صِيدَ الرِّقابِ
كأنَّك رائدُ البلوى وإلا ... بشيرٌ بالمنيَّةِ والمُصَابِ

ولعُمارة اليمني من قصيدةٍ مدح بها شاور، وذكر وزارتيه: [الكامل]

فنُصرتَ في الأولى بضربِ زَلْزَلَ الـ ... ـأقدامَ وهْي شَديدةُ الإقدامِ
ونُصرتَ في الأخرى بضربٍ صادقٍ ... أضحى يطيرُ به غُرابُ الهَامِ
أدركت ثأراً وارتجعتَ وزارةً ... نزعاً بِسَيْفِك من يَدَيْ ضِرْغامِ

وكان ضِرْغامُ أولاً من أصحاب شاور وأتباعه، وقد أشار إلى ذلك عُمارة في قوله من قصيدةٍ له: [الكامل]

كانت وزارتُك القديمةُ مَشْرَعاً ... صَفْواً ولكنْ كُدِّرَتْ غُدْرَانُها
غَضِبَتْ رجالٌ تاجَه وسريره ... مِنْ بَعْدِ ما سَجَدَتْ له تِيْجانُها

وله من قصيدةٍ أُخرى في شاور: [الطويل]

وزيرٌ تَمَنَّتْهُ الوزارةُ أولاً ... وثانيةً عفواً بغيرِ طِلابِ

(١) انظر «الكامل»: ٩/ ٤٦٠، ٤٦٥ ـ ٤٦٧.

Marfat.com

فخانته في الأُولى بطانةُ ودِّه ... وربَّ حبيبٍ في قميصِ حُبابِ[1]
وجاءته تبغي الصُّلح ثانيَ مَرَّةٍ ... فلم يرضَ إلا بعد ضَرْبِ رِقابِ

ولم يُغلب وزيرٌ لهم وعاد غير شاور. وكان مدة أخذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهي مُدَّة الحمل. نَصَّ عُمارة على ذلك، وقال: قُتل ولدُه طيّ يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان، وجاز رأسُه على رُمْحٍ تحت الطُّيقان، والنِّساء يولولن بالصُّراخ، وكان فيهن واحدةٌ تحفظ قولي في الصَّالح: [الطويل]

أَيُنْسَى وفي العينينِ صورةُ وَجْهِهِ الـ ... ـكريمِ وعَهْدُ الانتقالِ قَرِيبُ

فما زالت تكرِّره حتى رأت رأس ضِرْغام.

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جُمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلتُ في ذلك: [الكامل]

وَنَزَعْتَ مُلْكَكَ مِنْ رجالٍ نازَعُوا ... فيه وكُنْتَ به أَحَقَّ وأَقْعَدا
جَذَبوا رِدَاءك غاصبين فلم تَزَلْ ... حتى كَسَوْتَ القَوْمَ أرديةَ الرَّدَى
وبردْتَ قَلْبَكَ من حَرارة حُرْقَةٍ ... أَمَرَتْ نسيمَ اللَّيلِ ألّا يَبْرَدا
تاريخُ هذا نِلْتَهُ في مِثْله ... يوماً بيوم عبرةً لمن اهتدى
حَملت به الأيامُ تسعةَ أَشْهُرٍ ... حتى جَعَلْنَ له جُمادى مَوْلِدا

وله فيه أيضاً في ذلك: [البسيط]

لله درُّك موتوراً أَقَضَّ به ... دَسْتٌ وسَرْجٌ وأجفانٌ ومُضْطَجَعُ
ما غِبتَ إلا يسيراً ثم لُحتَ لنا ... والثَّأْرُ مُسْتَدْرَكٌ والمُلكُ مُرْتَجَعُ
قَضيَّة لم يَنَلْ منها ابنُ ذي يَزَنٍ ... إلا كما نِلْتَ والآثارُ تُتَّبَعُ
فافَخَرْ على الحيِّ من قَيْسٍ ومن يَمَنٍ ... أبا شُجاعٍ فليسَ الحقُّ يَنْدَفِعُ

قال ابن الأثير[2]: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قَرَّره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضاً. وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشَّام، فأَنِف أسدُ الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان

(١) الحباب: الحية، والشيطان أيضاً.
(٢) انظر «الكامل»: ٩/ ٤٦٦.

Marfat.com

استقرَّ، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوَّابه فتسلَّموا مدينة بِلْبِيس، وحكم على البلاد الشَّرْقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدُّهم ويخوِّفهم من نور الدين إن ملَك مصر. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إنْ ملَكها نور الدين، فهم خائفون. فلما أرسل شاورَ إليهم يستنجدهم ويطلبُ منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فَرَجٌ لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته، والمبادرة إلى نُصْرته، وطمِعُوا في ملك ديار مصر. وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهَّزوا وساروا. فلما بلغ نور الدين خَبَرُ تجهُّزهم للمسير سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الإفرنج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا؛ لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملَك أسدُ الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم. فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملكُ القُدْس في الباقين إلى مصر. وكان قد وصل إلى السَّاحل جمعٌ كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدَّس، فاستعانَ بهم ملك الإفرنج، فأعانوه، وسار بعضُهم معه، وأقام بعض في البلاد يحفَظُها.

فلما قارب الفرنجُ مصر فارقَها أسدُ الدين وقصد مدينة بِلْبيس، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصَّن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسدَ الدين بمدينة بِلْبيس، وحصروه بها ثلاثة أشهر، وقد امتنع أسدُ الدين بها وسورُها من طين، قصير جداً، وليس له خندق ولا فصيل[1] يحميها، وهو يُغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً، فبينا هم كذلك إذ أتاهم الخبرُ بهزيمة الفرنج بحارِم، وملك نور الدين الحصن، ومسيره إلى بانياس. فحينئذ سُقط في أيديهم، وأرادوا العودَ إلى البلاد ليحفظوها، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يُدْركوها إلا وقد ملكوها، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وراسلوا أسد الدين في الصُّلْح، والعود إلى الشَّام، ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك، لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في السَّاحل.

قال ابنُ الأثير[2]: فحدَّثني من رأى أسد الدين حين خرج من بِلْبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم وبيده لَتٌّ[3] من حديدٍ يحمي

(١) الفصيل: هو حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد.
(٢) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧.
(٣) اللتّ: الفأس العظيمة، وهي فارسية معربة.

Marfat.com

ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون قال: فأتاه فرنجي من الفرنج الغرباء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك، فلا يبقى لك معهم بقية! فقال شِيركُوه: يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثلَه، كنتُ والله أضع سيفي، فلا أُقتَل حتى أقتُل رجالاً، وحينئذ يقصدُهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني أبطالهم، فيملك بلادَهم، ويُفْني من بقي منهم، ووالله لو أطاعني هؤلاء ـ يعني أصحابَه ـ لخرجتُ إليكم أولَ يوم، لكنهم امتنعوا، فَصَلَّب الفرنجي على وجهه وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم. ثم رجع عنه، وسار شِيركُوه إلى الشَّام وعاد سالماً.

وقال العماد الكاتب: وصل شاوَر إلى نور الدين ملتجئاً، فألفاه على عدوه معدياً مشكياً، وسيَّر معه أسد الدين على قرارِ عَيْنه، وأمرِ بَيْنه، وبُغيةٍ يدركها، وخطَّةٍ يملكها، ومَحجَّةٍ واضحة في الملك يسلكها. فمضى معه ونَصَرَه، وأصفَى له مَشْرَعَه، واستردَّ له موضعَهُ، وأظهره بعلوِّه، وأظفره بعدوِّه، فلما باد خصمه، بدا وصمه، وغدر بعهده، وأخلف في وعده. وكان قد رَاسل الفرنج وهَدَاهم في حرب الإسلام، فوصلوا، فتحصَّن شِيركُوه ومن معه بمدينة بِلْبيس، فحاصَره شاور بجنود مصر والفرنج ثلاثة أشهر، من مستهلِّ رمضان إلى ذي الحِجَّة، فبذلوا له قطيعةً فانصرف عنهم، وعاد إلى الشَّام وفي قلبه من شرِّ شاور الإحن، وكيف تمَّت بغدره تلك المِحَن.

قلتُ: وقد أشار إلى ذلك عُمارة في قوله في مدح شاورَ، وذكر الإفرنج. فقال: [الكامل]

وأنقذتَ من مصرٍ عدوًّا بمثله ... فللّه من ظُفْرٍ فَلَلْتَ ونابِ
صَدَمْتَ جُموعَ الكُفْرِ والشَّامِ صَدْمَةً ... أقمتَ بها للقوم سوقَ ضِرابِ
وقد جَرَّدَتْ أجنادُ مِصْرَ عزائماً ... مضارِبُها في الصَّخْر غير نوابي
تولَّوا عن الإفرنج فادحَ ثِقلها ... ودارَتْ رَحَاها منهمُ بهِضَابِ
أقامَتْ دروعُ الجُنْدِ تسعينَ ليلةً ... ثياباً لهم ما بُدِّلَتْ بثيابِ
وهم بين مطروحٍ هناك وطارحٍ ... وبين مُصِيبٍ خصمَه ومُصَابِ

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر، واستصحب معه ابنُ أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وجعله مُقَدَّم عسكره وصاحب رأيه، وكان لا يفصل أمراً ولا يقرِّر حالاً إلا بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال

Marfat.com

والسعادة، والفكرة الصَّحيحة، واقترانِ النصر بحركاته وسكناته. فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وَقْعٌ عظيم، وخافه أهلُ مصر، ونَصَرَ شاور على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرَّر قواعِدَه، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلم أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال.

وكان ابتداءُ رحيله عنها متوجِّهاً إلى الشَّام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مُدَبِّراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدِّثاً بذلك نفسه، مقرِّراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين.

قلتُ: ولِفعل شاور ما فَعَل مع أسد الدين وصفَه الشعراءُ بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده، على ما سنذكره، وبقي متخوِّفاً من أسد الدين. فقال عَرْقَلة الكلبي من جُملة قصيدةٍ له: [الطويل]

وهَلْ هَمَّ يوماً شِيرَكُوه بِجِلِّقٍ ... إلى الصَّيدِ إلا ارتاعَ في مِصْرَ شاوَرُ
هو المَلِكُ المنصورُ والأَسَدُ الذي ... شذا ذِكْرِهِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ سائِرُ

في ذي الحِجَّة من هذه السنة احترقت جيرون بعد رجوعِ أسد الدين إلى دمشق، فقال العَرْقَلَة يمدحه ويذكر ذلك: [الخفيف]

جارَ صَرْفُ الرَّدى على جَيْرونِ ... وسقَى أهلَها كؤوسَ المَنُونِ
أصبحَتْ جَنَّةً وأَمْسَتْ جحيماً ... تتلظَّى بكلِّ قَلْبٍ حزينِ
كيف لا تُذْرَفُ الدُّموع عليها ... وَهْي في الشَّامِ نزهةٌ للعيونِ
حَبَّذا حِصْنُها الحصينُ لقد كا ... ن جمالاً لكلِّ حِصْنٍ حَصِينِ
أيُّ سيفٍ سطا على دارِ سَيْفٍ ... وزَبُونٍ أتى بحَرْبِ زَبُونِ
خِلْتُ نيرانَها وكلَّ ظلامٍ ... نارَ ليلى تلوحُ للمجنونِ
كم غنيِّ اليمينِ أمسى فقيراً ... وفقيرٍ أمسى غنيَّ اليمينِ
كلَّ حينٍ لها حريقٌ جديدٌ ... ليتَ شِعْري ماذا لها بعد حينِ
كلُّ هذا البلاء عاقبة الفِسْـ ... ـقِ وشُرْبِ الخمور والتَّلْحِينِ
ولقد رَدَّها بعزمٍ وحَزْمٍ ... أسدُ الدين غايةُ المسكينِ
وحمى الجامعَ المقدَّسَ والمشْـ ... ـهَدَ من جمرها بماءٍ معينِ
مَلِكٌ فِعْلُه بِدَلْجةَ والبا ... ب فَعالُ الإمام في صِفِّينِ

Marfat.com

فصل

[في فتح حارِم][1]

قال العماد الكاتب: وفي تلك السَنة ـ يعني سنةَ تسعٍ وخمسين ـ اغتنم نور الدين خُلُوَّ الشَّام من الفرنج وقصَدَهم، واجتمعوا على حارِم، فضرَبَ معهم المصافَّ، فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم، وقتلهم، ووقع في الإسار إبرنس أنطاكية، وقومص طرابلس، وابنٌ لجوسلين، ودُوك الرُّوم وذلك في رمضان.

وقال في «الخريدة»: كانت نوبة البقيعة نوبةً عظيمة على المسلمين، وأَفْلَتَ نورُ الدين في أقل من عشرة من عسكره، ثم كسر الإفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقُتل في معركة واحدة منهم عشرون ألفاً، وأُسر من نجا، وأخذ القومص والإبرنس والدوقس وجميع ملوكهم، وكان منحاً عظيماً، وفتحاً مبيناً[2].

قال ابن الأثير[3]: والسَّبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزماً، على ما سبق، من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجد والاجتهاد، والاستعداد للجهاد، والأخذ بثأره، وغزو العدوِّ في عُقْر داره، وليرتق ذلك الفَتْق، ويمحو سِمَة الوَهْن، ويعيد رونق الملك. فراسل أخاه قُطْبَ الدين بالمَوْصِل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ونجم الدين ألبي بمارِدِين، وغيرهم من أصحاب الأطراف.

أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجداً، وعلى مقدِّمة عسكره زين الدين نائبه.

وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصُّه: على أيِّ شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصَّوْم والصلاة، فهو يلقي نفسَه والناس معه في المهالك. وكلُّهم وافقه على ذلك. فلمّا كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهُّز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا! فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدَّها! فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زُهَّادها وعُبَّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج،

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦٧ ـ ٤٦٩. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٦.
(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٨٨ ـ ٢٩٠.
(٣) انظر «الكامل» ٩/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨.

Marfat.com

وما نالهم من القتل والأسر والنَّهب، ويستمدُّ منهم الدُّعاء، ويطلبُ منهم أن يحثُّوا المسلمين على الغَزَاة، فقد قعد كلُّ واحدٍ من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كُتُبَ نور الدين ويبكون، ويلعنونني ويدعون عليَّ، فلا بدَّ من إجابة دعوته. ثم تجهَّز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه.

وأما نجم الدين ألبي فإنه سيَّر عسكراً. فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارِم، فنزل عليها وحصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالسَّاحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا، ومقدَّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدُّوك معهم وهو رئيس الرُّوم ومقدَّمُها، وجمعوا من الرَّاجل ما لا يقع عليه الإحصاء، قد ملؤوا الأرض وحجَبُوا بِقَسْطلهم[1] السماء، فحرَّض نور الدين أصحابه، وفرَّق نفائس الأموال على شُجعان الرجال. فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه. فساروا حتى نزلوا علم عِمَّ[2]، وهو على الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغَمِّ، ثم تيقَّنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله، ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كلَّ خير، وتبعهم نور الدين.

فلما تقاربوا اصطفُّوا للقتال، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبدَّدوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، وولُّوا الأدبار، وتبعهم الفرنج. وكانت تلك الفَرَّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دَبَّروه، ومكرٍ بالعدوِّ مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم، فيميل عليهم من بقي من المُسْلِمِين، ويضعُوا فيهم السيوف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم. فكان الأمر على ما دَبَّروا؛ فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر المَوْصِل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعادت خيَّالتهم ولم يُمْنعوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادَفوا راجلهم على الصَّعيد معفَّرين، وبدمائهم مضرَّجين؛ فسُقِط في أيديهم، ورأوا أنَّهم قَدْ ضلُّوا، وخضعت رقابُهم وذلُّوا. فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنَّتهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كلِّ جانب، فحينئذٍ حمي الوطيس،

(١) القسطل: الغبار الساطع.
(٢) عمّ: قرية بين حلب وأنطاكية.

Marfat.com

وباشر الحربَ المرؤوس والرئيس، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة. وانقضَّت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصُّقور على بُغَاث الطُّيور، فمزَّقوهم بَدَداً، وجعلوهم قِدَداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف. وأما الأسرى فلم يحصوا كثرةً، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن ملوكهم أُسروا، وهم الذين من قبل ذُكروا.

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكها في الحادي والعشرين من رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلوِّها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل. وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القُسْطنطينية وسلَّموها إليه، ومجاورة بيمند أحبُّ إليَّ من مجاورة ملك الرُّوم.

وبثَّ سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسّويداء وغير ذلك، وعادوا سالمين. ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمالٍ جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

وقال الحافظ أبو القاسم: كَسَرَ نورُ الدين الرُّوم والأرمن والفرنج على حارِم، وكان عدَّتهم ثلاثين ألفاً. قال: ووقع بيمند في أسر في نوبة حارم، وباعه نفسه بمالٍ عظيم أنفقَهُ في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان، أو قُبيله، انفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عزّ وجلّ، ومرَّغ وجهه وتضرَّع، وقال: يا رب، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط؟ يشير إلى ذلك يا رب إن نَصَرْتَ المسلمين فدينكَ نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحقٍّ للنصر.

وبلغني أنه قال: اللهم، انصر دينك ولا تنصر محموداً، مَن هو محمود الكلب حتى يُنصر! وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمسٍ وستين عند رحيل الفرنج عن دِمْياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذٍ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شِيركوه كما سبق، وهذا من عجيبِ ما وقع واتفق.

Marfat.com

فصل

[وفاة وزير الموصل جمال الدين]

في ذكر وزير المَوْصِل جمال الدين، الجَوَاد الممدَّح، ووفاته في هذه السنة رحمه الله[١].

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنَّفاته، وأثنى عليه ثناء عظيماً حسناً. فمما ذكره في كتابه الموسوم «بنُصرة الفَترة وعُصرة الفِطرة، في أخبار الوزراء السَّلْجوقية» أن قال: ذكرُ جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور. كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي؛ وهو صاحب الوزير شمس المُلك بن نِظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فَهَّاداً في عهد السُّلْطان مَلِكْشاه بن ألب أرسلان، وابنه الكامل أديبٌ لبيب، وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النمو حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء. وقد كان زوَّج بنتاً له ببعض أولاد أخوال العزيز ـ يعني عم العماد الكاتب ـ قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله تعالى على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرَّجه في الأدب ودرَّجه في الرُّتَب، فأول ما رتَّبه في ديوان العَرْض السُّلْطاني المحمودي، وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعتَه الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج. واتفق أنه لما تولى زَنْكي بن آق سُنْقُر الشَّام تزوج بامرأة الأمير كُنْدُغدي وولدها خاصْبَك بن كُنْدُغدي؛ من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها، فرتَّبه العزيز لخاصْبَك وزيراً، فسار في الصحبة، وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الهشاشة، بهي البشاشة؛ فتوفرت مُنى زَنْكي على منادمته، وقَصَرَ صباحه ومساءه على مساهمته، وعوَّل عليه في آخره عمره في إشراف ديوانه، وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زَنْكي جُود، ولا عُرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يُحَصَّل له إلى خزانة زَنْكي استبقاءً لجاهه، واستعلاءً به على أشباهه، فمكَّنه زَنْكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرَّ بإساءته، ومنهم من انتفع بإحسانه.

ولما قُتل زَنْكي صار للدولة الأتابكية ملاذاً، وللبيت الآق سُنْقُري معاذاً، واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته.

---

(١) انظر خبر وفاته وأخباره في «الكامل» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧٣.

Marfat.com

وجرى بين جمال الدين الوزير، وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي التعاقد على التعاضد، والعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة المَوْصِل واستولى، فعاض بنداه الجود، وعشا إلى ناديه الوفود، وعادت به المَوْصِل قِبْلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سُعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعَمَّر الحرمين الشريفين، وشمل بالبِرِّ أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، وأجرى بحر السماح، ونادى: حيَّ على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظُ الفِصاح، وأتوا إليه من كلِّ فجٍّ عميق، وقُصد من كل بلد سحيق، وقصده العظماء، ومدحه الشعراء.

وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي، المعروف بحيصَ بيص[1]. قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أولها[2]: [الكامل]

يا للصَّوارِمِ والرِّماحِ الذُّبَّلِ ... نَصْراً ومن أنجدتما لم يُخْذَلِ
لو شئتُما ومشيئةٌ بمشيئةٍ ... جادَ الزمانُ وبالعُلا لم يَبْخَلِ
فاقْني فخارك يا مُجاشعُ واعلمي ... أني لكم من هِمَّتي في جَحفلِ
أنا فارسُ اليومينِ يوم مقالةٍ ... ووغًى أصولُ بصارمي وبمِقْوَلي
ظَلَمَتْ فضائِليَ المَقاوِلُ مثلَما ... ظَلَمَتْ جمالَ الدينِ مأوى العُيَّلِ
مَدَحُوه كي يحووا مناقبَ نَفْسِهِ ... فطَمَتْ فسالَتْ بالمدائحِ من عَلِ
فأتيتُ أبذلُ ما استطعتُ ومن يُرِدْ ... نَقْلَ الخِضَمِّ إلى المزادةِ يَخْجَلِ
شَمْسٌ من الإحسانِ عَمَّ ضياؤها ... بل آيةٌ جاءت بحُجَّةِ مُرْسَلِ
يُعْطي الجزيلَ لسائلي معروفه ... ويجودُ بالنُّعمى إذا لم يُسأَلِ
وتزيدُه شوسُ الخُطوبِ طلاقةً ... فيكون أبسمَ ما يُرَى في المُعْضِلِ
ثَقُلَتْ به الأعناقُ من مِنَنِ النَّدى ... فالهامُ مُطْرِقةٌ لذاك المُثْقِلِ
فإذا تلاقى النَّاسُ كان حديثُهم ... عن كلِّ جَفْنٍ بالحجالة مُسْدَلِ
أُسراء معروف الوزير فكلُّهم ... عافٍ تراه مُطَلَّقاً كمُكَبَّلِ
من سمرَقندَ إلى تِهامةَ شاهدٌ ... فَضْلَ الجمالِ على الحَيا المُتَهَلِّلِ
السُّحْبُ تُمْطِرُ ما تُظِلُّ وجُودُه ... يَسْرِي ودارُ مُقامهُ بالمَوْصِلِ

---

(١) سعد بن محمد الصفي: كذا ورد اسمه بالأصل، واسمه: سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي، شهاب الدين، أبو الفوارس البغدادي، المعروف بحيص بيص. تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٣.

Marfat.com

وتَقَرُّ عينُ محمدٍ بمحمدٍ مُحيي دَرِيسَيْ عِلْمِهِ[1] والمَنْزِلِ
معمارُ مَرْقَدِهِ وحافظُ دينه ومعينُ أمَّتِه بجودٍ مُسْبِلِ
جَعَلَ المدينةَ مِصْرَ ربعاً[2] آهِلاً نشوانَ يمرح بالنعيم المُخْضِلِ
فكأنَّها بالخِصب من قُرُباته بَلَدٌ على شَطِّ الفُرَاتِ السَّلْسَلِ
فلو أنه في عَصْرِهِ نَزَلَتْ له في مَدْحِهِ سُوَرُ الكتابِ المُنْزَلِ
عَبْدٌ أخٌ في ضيفه وَوِدَادِه لا يستحيلُ وسيِّدٌ في المَحْفِلِ
خِرْقٌ يُناطُ قميصُهُ ورداؤه بعُباب زَخَّار وهَضْبَةِ يَذْبُلِ

وقال العماد. وكنت أنا في ذلك العهد متفقهاً ببغداد، واتفق حضوري بالمَوْصِل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فحضرتُ عند جمال الدين بالجامع في جُمْعتين، وتكلَّمْتُ عنده مع الفقهاء في مسألتين. ومما مدحته به قصيدة، أوَّلها: [الوافر]

أظنُّهمُ وقد عَزَمُوا ارتحالا ثَنَوا عَنَّا جَمالا لا جِمالا
سَرَوْا والصُّبْح مُبْيَضُّ الحواشي فلما حالَ عَهْدُ الوَصْلِ حالا
هم اعتادوا المَلَال فكيفَ ملُّوا وِصَالَهُمُ وما مَلُّوا المَلالا
أحادي عِيْسِهم باللَّهِ رِفْقاً فإنَّ السَّيْرَ أورثها الكَلالا
وعُجْ نحو الأراك بها فإني أراه لاجتماع الشَّمْلِ فالا
سقى صَوْبُ الحَيَا تَلَعاتِ نجدٍ وحيَّا بالحمى تلك التِّلالا
أخلائي وهل في النَّاسِ خِلٌّ به أُخْلي من الأحزانِ بالا
لئن لم أشفِ صدري من حَسُودي ولم أُذقِ العِدَى داءً عُضَالا
فلا أَدْرَكْتُ من أدبي مُرَاداً ولا صادَفْتُ من حَسَبي مَنَالا
ولا وَخَدَتْ إليكم بي جِمالٌ ولا واليتُ مولانا الجَمالا
هو المُغْني إذا ما المرءُ أَقْوَى هو المُنْجي إذا ما الخَطْبُ هالا
وقائلةٍ أفي الدُّنيا كريمٌ سواه فقلت لا وأبي العُلا لا
أَطَلْتَ على الورى كَرَماً وفَخْراً كذلك من حَوَى هذين طالا
وحُزْتَ المجدَ عن كَسْبٍ وإرثٍ فيا صَدْرَ الورى حُزْتَ الكمالا
خُصِصت بكلِّ مَنْقَبَةٍ وفَضْلٍ تعالى من حَباكَ به تعالى

(١) في «خريدة القصر»: «شرعه»، بدل: «علمه».
(٢) في «خريدة القصر»: «ريف»، بدل: «ربعاً».

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه، منهم العرقلة، له من قصيدة: [المنسرح]

يهوى تجنّيه والصُّدودَ كما ... يهوى المعالي محمدُ بنُ علي
جمالُ دينِ الإله خيرُ فتًى ... للرِّزقِ أقلامُهُ وللأَجَلِ
مُعْطي القُرى والقِرى لقاصدِه ... من غير مَنٍّ والخيلِ والخَوَلِ
مِثْلُ فتوحِ الفاروق نائِلُهُ ... شَرْقاً وغَرْباً في السَّهْلِ والجَبَلِ
من قال لم يَخْوِ ذا ويسكن ذي ... أصبحَ مما يقولُ في خَجَلِ
محمدٌ خاتَمُ الكِرامِ كما ... سميُّهُ كانَ خاتَمَ الرُّسُلِ

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدةٍ: [الوافر]

كسا الحَرَمينِ لِبْسَة عَبْدِ شَمْسٍ ... وهاشم غُرَّتي نسلِ الخليلِ
ولِلْبلدِ الأمينِ أجدَّ أمناً ... تكنَّف مِثْلَه جَدَث الرَّسُولِ
عَشِيتُم يا ولاةَ الأمرِ عمَّا ... أتيحَ له مِنَ الأثَرِ الجميلِ
وطارَ لها وأشفقتم فشدَّ الـ ... ـيدين على عُرَى المَجْدِ الأَثِيلِ
بيوتٌ بالحجازِ مقدَّساتٌ ... رماها الدَّهْرُ بالخَطْبِ الجليلِ
وكان أذَالَهُنَّ فصابَ صوناً ... لمن آوته من ولد البَتُول
مآثرُ باقياتٌ يوم يُجْنَى الـ ... ـمقهال ويُجتنى طيبُ المقيلِ
وكم للمَوْصِلِ الحدباء مما ... تُنيل يداه من ريفٍ ونيل
بَرُود الصَّفْح مَلْتَهِبُ الحَوَاشي ... مَهِيبُ البَطْشِ فرَّاسُ الدخول

ولأبي المجد قسيم الحَمَوي[1] فيه من قصيدة: [الوافر]

أغرّ تبصرُ منه النَّاسَ في رَجُلٍ ... واللَّيْثَ في بَشَرٍ والبَدْرَ في غَضَنِ[2]
سما بهمَّته في المَكْرُماتِ إلى ... علياءَ تَقْصُرُ عنها هِمَّةُ الزَّمَنِ
يلقاك واضحَ ليلِ الفِكْرِ راجحَ نيـ ... ـل الكفِّ طاهرَ ذيل السِّرِّ والعَلَنِ
ماضي العزيمةِ ميمون النقيبة، رئـ ... ـبال الكتيبةِ عَيْنُ القائلِ اللَّسِنِ
إذا تكلَّم واستَجْليتَ غُرَّته ... في مَحْفِلٍ رُحت حالي العين والأُذُنِ
كأنَّ في الدَّسْتِ منه حين تنظره ... شمسَ النهار وصَوْبَ العارِضِ الهَتِنِ

(١) أبو المجد قسيم الحموي: هو مسلم بن خضر بن قسيم الحموي، الشاعر، المتوفى سنة ٥٥٥هـ. له ديوان شعر (كشف الظنون ٦/ ٤٣٢).
(٢) الغضن: الدرع.

Marfat.com

قال قال ابن الأثير[١]: وفي شعبان من هذه السنة، وهي سنة تسع وخمسين وخمسمائة، توفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، وكان قد خدَمَ الشهيد، فولاه نَصِيبين، وظهرت كفايتُه، فأضاف إليه الرَّحبة، فأبان عن كفايةٍ وعِفَّة، وكان من خواصِّه فجعله مشرف مملكته كلِّها، وحكَّمه تحكيماً لا مزيد عليه، حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضياء الدين بن الكَفَرْتُوثي يحكي عن جمال الدين قال: كان يدخل إلى الشهيد أتابك قبلي ويخرجُ بعدي. ولم يزل كذلك إلى أن قُتِلَ الشهيد، ثم وزر لولدَيْ الشهيد سيف الدين ثم قُطْب الدين، وكان بينه وبين زين الدين علي كوجك عهودٌ ومواثيق على المُصَافاة والاتفاق، وكان أصحاب زين الدين يكرهونَه ويقعون فيه عند زين الدِّين، فنهاهم.

وكانت المَوْصِل في أيامه ملجأً لكل ملهوف، ومأمناً لكلِّ خائف، فسعى به الحُسَّاد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له: إنه يأخذ أموالك فيتصدَّق بها. فلم يمكنه أن يغيِّر عليه شيئاً بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع على زين الدين من غيَّره عن مصافاته ومؤاخاته، فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة المَوْصِل، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه لأن خواصَّ قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين، فلما قُبض تبسَّطوا في الأمر والنهي على خلاف غرض زين الدين. فبقي جمالُ الدين في الحبس نحواً من سنة، ثم مرض، ومضى لسبيله عظيم القدر والخَطَر، كريم الوِرْدِ والصَّدَر، عديم النظير، في سَعَة نفسٍ، لم يُرْوَ في كتب الأولين أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروَّة.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصُّوفي[٢] ـ وهو رجلٌ من الصَّالحين كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه ـ قال: لم يزل الجمال مشغولاً بأمر آخرته مُدَّة حبسه، وكان يقول: كنتُ أخشى أن أُنقل من الدَّسْت إلى القبر. قال: فلما مرض قال لي بعضَ الأيام: يا أبا القاسم، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرِّفْني. فقلت في نفسي: قد اختَلط الرجل. فلما كان الغد أكثرَ السؤالَ عن ذلك الطائر، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط، فقلتُ له: جاء الطائر. فاستبشر، ثم قال: جاء الحق. وأقبل على الشهادة وذِكر الله تعالى، وتُوفي. فلما توفى طار ذلك الطائر. قال: فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه.

---

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧٣.

(٢) في «الكامل» ٩/ ٤٧١: حكى لي إنسان صوفي، يقال له أبو القاسم، كان مختصاً بخدمته في الحبس.

Marfat.com

ودفن بالمَوْصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شِيركُوه عهداً؛ من مات منا قبل صاحبه حمله الحيُّ إلى المدينة ـ على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام ـ فدفنَه بها في التُّرْبة التي عملتها، فإن أنا مُتُّ فامضِ إليه وذكِّره. فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى، فأعطاه مالاً صالحاً ليحمِلَه به إلى مكة والمدينة، وأمر أنْ يحجَّ معه جماعةٌ من الصوفية ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النُّزول والرَّحيل، وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد: الصلاة على فلان. ففعلوا ذلك، فكان يُصَلَّي عليه في كل مدينة خلقٌ كير، فلما كان في الحِلَّة اجتمع النَّاس للصلاةِ عليه، فإذا شابٌّ قد ارتفع على موضع عالٍ، ونادى بأعلى صوته:[1] [الطويل]

سَرَى نَعْشُه فوقَ الرِّقابِ وطالما ... سَرَى بِرُّه[2] فوقَ الرِّكابِ ونائِلُهْ
يَمُرُّ على الوادي فتُثْني رمالُه ... عليه وفي النَّادي فتبكي أرامِلُهْ[3]

فلم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة، وصلُّوا عليه بالحَرَم، وحملوه إلى المدينة فصلُّوا عليه أيضاً، ودفنُوه بالرِّباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبي ﷺ خمسة عشر ذراعاً.

قلت: كذا قال ابن الأثير، وقد رأيت المكان ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي ﷺ لا نفسَ القبر الشريف، زاده الله شرفاً وصلى على ساكنه.

ثم قال[4]: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلاً للمال، رحيماً بالنَّاس، متعطفاً عليهم، عادلاً فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدَّد بناء مسجد الخَيْف بمِنى، وغرم عليه أموالاً عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غُيِّر وبُني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة، وزخرف الكعبة بالذهب والنُّقْرة[5]، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة. ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن هاشم[6] خِلَعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكّنه منه. وعمر

---

(١) البيتان في «الكامل» ٩/ ٤٧١.
(٢) في «الكامل»: جودُه»، بدل: «برُّه».
(٣) رواية عجز البيت في الكامل»:
عليه، وبالنادي فتثني أرامِلُه
(٤) انظر «الكامل» ٩/ ٤٧١ ـ ٤٧٢.
(٥) النقرة: الفضة.
(٦) هو عيسى بن فليتة، وجده الأعلى أبو علي محمد بن جعفر، تولى مكة بعد قتل ابن أخيه

Marfat.com

أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج التي يُصْعَدُ فيها إليه، وكان النَّاس يلقون شدةً في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نَعْمان[1] في طريق معمولة تحت الجبل مبنيَّة بالكلس، فغرم على ذلك مالاً كثيراً. وكان يعطي أهل نَعْمان كُلَّ سنة مالاً كثيراً ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحُجَّاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحةً عظيمة.

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً أنه بنى سوراً على مدينة النبي ﷺ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضَنْكٍ وضُرٍّ معهم. رأيت بالمدينة إنساناً يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحَّم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك، فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعَو له، لأنَّا كُنَّا في ضرٍّ وضيق ونكد عيشٍ مع العرب، لا يتركون لأحدنا ما يواريه ويشبع جَوْعته، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا؛ فكيف لا ندعو له!

قال: وكان الخطيبُ بالمدينة يقول في خطبته: اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك بالسُّور، محمد بن علي بن أبي منصور. قال: فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها! وسمعتُ عن مُتولِّي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء، سوى الإدرارات والتعهّدات، قال: كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدَّق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناسُ مثلها الجسر الذي بناه على دِجْلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرَّصاص والكِلْس، إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبض قبل فراغه. وبنى أيضاً جسراً على نهر الأريار عند الجزيرة أيضاً. وبنى الرُّبط بالمَوْصِل، وسِنْجار، ونَصِيبين، وغيرها، وقصده الناس من أقطارِ الأرض. ويكفيه أن صدر الدين الخُجَنْدي[2]؛ رئيس أصحاب الشَّافعي، رضي الله

قاسم بن هاشم سنة ٥٥٦هـ. وبقي أميراً عليها حتى توفي سنة ٥٧٠هـ (العقد الثمين ٦/ ٤٦٥ ـ ٤٧٠).

(١) نعمان: واد بين مكة والطائف، على ليلتين من عرفات (معجم البلدان ٥/ ٢٩٣).

(٢) صدر الدين الخجندي: في «الكامل» ٩/ ٤٧٢: ابن الخجندي، ولعله: محمد بن ثابت بن الحسن بن علي الخجندي، أبو بكر الشافعي، نزيل أصبهان المتوفى سنة ٤٨٣هـ. صنف «روضة المناظرين»، «زواهر الدرر في نقض جواهر النظر» (كشف الظنون ٦/ ٧٥). ولعله (وهو الأرجح): محمد بن عبد اللطيف (وقيل: عبد الله) الخجندي، فخر الدين الطبيب المتوفى بأصبهان سنة ٥٥٢هـ. صنف: «التلويح إلى أسرار التنقيح» أي اختصار التنقيح له، «تنقيح المكنون من مباحث القانون لابن سينا» في الطب (كشف الظنون ٦/ ٩٢).

Marfat.com

عنه، بأصبهان، وابن الكافي قاضي قضاة هَمَذان، قصداه، فأخرج عليهما مالاً جزيلاً، وكذلك غيرهما من الصُّدُور والعلماء ومشايخ الصُّوفية، وصارت المَوْصِلُ في أيامه مقصداً وملجأ.

وكان أحبَّ الأشياء إليه إخراجُ المال في الصَّدَقات، وكان يضيِّق على نفسه وبيته ليتصدَّق. حكى لي والدي قال: كنتُ يوماً عنده وقد أُحضر بين يديه قُنْذُر[1]، ليُعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير، اشتروا لي قُنْدُزاً بدينارين وتصدَّقوا بثلاثة دنانير. قال: فراجعناه غيرَ مَرَّة فلم يفعل.

قال: وحكى لي من أثق إليه من العدول بالمَوْصِل أن الأقوات تعذَّرت في بعض السنين بها وغَلَت الأسعار، وكان بالمَوْصِل رجل من الصَّالحين يقال له الشيخ عمر المَلَّاء[2]، فأحضر جمال الدين وسلَّم إليه مالاً، وقال له: تخرج هذا المال على مستحقه، وكلما فرغ أرسلْ إليَّ لأنفذ غيره، فلم تمضِ إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئاً آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرجه، فقال جمال الدين للرسول: والله ما عندي شيء، ولكن خذ هذه المحافر التي في داري فبيعوها وتصدَّقوا بثمنها إلى أن يأتينا شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر. فبيعت المحافر وتصدَّقوا بثمنها وعرَّفوه ذلك، فلم يكن عنده ما يرسله، فأعطاه ثيابه التي كان يلبسها مع العِمامة التي كانت على رأسه، وأرسل الجميع، وقال للرسول: قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة. فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدَّق بثمنها.

قال: وحكى لي بعضُ الصُّوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النَّسَائي؛ شيخ الشيوخ بالمَوْصِل قال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير، وهو بظاهر الموصل، واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك. ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمَّالين يحملون أحمالاً من النَّصافي والخام، وإذا قد جاء نائبُ جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماشٌ كثير، وثمانية عشر ألف دينار، وعِدَّة كثيرة من الجمال. فقال لي: تأخذ هذه الأحمال، وتسير إلى الرَّحبة، فتوصل هذه الرُّزْمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا أحضر لك فلاناً العربي، فتوصل إليه هذه الرُّزْمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربي، فتوصل إليه هذه

---

(١) قنذر: هو القندس، ثعلب الماء، تتخذ من جلده فراء فاخرة يلبسها السلاطين.

(٢) الشيخ عمر الملّاء: هو عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي ثم الموصلي الصوفي، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر الملّاء، توفي سنة ٥٧٠هـ. له كتاب «وسيلة المتعبدين في سيرة سيد المرسلين». (كشف الظنون ٥/ ٧٨٤، الأعلام ٥/ ٦٠ ـ ٦١).

Marfat.com

الرزمة وهذا الكتاب؛ وهكذا إلى المدينة على ساكنها السَّلام، توصِّل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدَّق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى. قال: فسرنا كذلك إلى وادي القُرى، فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوفُ الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادي، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار. فانقلبت المدينة بالدُّعاء له. ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أَمَرَنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيتُ جمال الدين وقد حضر عنده رجلٌ فقيه قبل أن يصير وزيراً، فطلب منه شيئاً، وتردَّد إليه عِدَّة أيام، ثم انقطع، فسأله عنه، فقيل: إنه سافر. فشقَّ ذلك عليه، ثم قال: هكذا تنصرف الأحرار عن دور الكلاب. ورَدَّد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه فقيل: إنه سار نحو ماردِين. فأرسل إليه خِلْعَةً ونفقة إلى ماردِين.

قال: ولو رُمتُ شرحَ مفردات أعماله لأطلتُ وأضجرت، وهي ظاهرة لا تحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأنا متوجِّه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة، فعرض عليَّ الدخول إلى دارٍ في الموصل، فامتنعت، ونزلتُ بخيمتي على الشط، فكان مدة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نِينَوَى[1]، وأتابك قد ركب إلى المَيْدَان، وينفذ إلي يقول: اركب، فأنا واقف أنتظرك. فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث. فوجدتُ يوماً منه خلوة من أصحابي، فقلتُ له: في نفسي شيء يتردَّدُ من حيث اجتمعنا أشتهي أن أقوله لك، وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا السَّاعة. قال: قل. قلت: أقول لك ما قاله الشَّريف الرضي[2]: [البسيط]

ما ناصَحَتْك خفايا الودِّ من أحدٍ ... ما لم يُصِبْك بمكروهٍ من العَذَلِ

---

(١) نينوى: قرية بالموصل، وتسمى قرية يونس بن متى عليه السلام (معجم البلدان ٥/ ٣٣٩).

(٢) الشريف الرضي: هو محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم الموسوي، الشريف الرضي الشيعي، نقيب العلوية ببغداد، ولد سنة ٣٥٩هـ، وتوفي سنة ٤٠٦هـ. له من التصانيف: «أخبار قضاة بغداد»، «تلخيص البيان في مجازات القرآن»، «حقائق التنزيل في تفسير القرآن»، «خصائص الأئمة»، «ديوان شعره»،

Marfat.com

مـودَّتـي لـك تـأبـى أن تُـسَـامـحـنـي بـأن أراكَ عـلـى شـيءٍ مِـنَ الـزَّلـلِ

وقد بسطتَ يدَك في إنفاق المال في الصَّدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولا تصبر نفوسهم عليه، ولو أنَّ الإنسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة، فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه. فأطرق ساعة وقال: جزاك الله خيراً، لكن الأمر قد عَبَر عما تخافه. ففارقتُه وسرت إلى الحجاز، وعدت من مكة على طريق الشَّام، ونُكب جمال الدين ومات في الحبس.

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشَّاتاني[1] في هذا الوزير الجَوَاد لما نكب[2]: [البسيط]

مـا حَـطَّ قَـدْرَك مـن أوج الـعُـلا الـقَـدَرُ كـلا ولا غَـيَّـرَتْ أفـعـالَـكَ الـغِـيَـرُ
أنـت الـذي عَـمَّ أهـلَ الأرض نـائِـلُـه ولـم يَـنَـلْ شـأوَه فـي سُـؤْدَدٍ بَـشَـرُ
سارَتْ صفَاتُك في الآفاقِ واتَّضَحَتْ وصدَّقَ السَّمْعُ عنها ما رأى البَصَرُ
فـاصـبـرْ لِـصَـرْفِ زمـانٍ قـد مُـنِـيْـتَ بـه فـآخِـرُ الـصَّـبْـرِ يـا طـودَ الـنُّـهى الـظَّـفَـرُ
فـمـا تَـرَى أحـداً فـي الـخَـلْـقِ يَـسْـلَـمُ مِـنْ صـروفِ دَهْـرٍ لـه فـي أهـلـه غِـيَـرُ
سَـعَـوْا بـقـصـدِك سِـرًّا واسـتـتـبَّ لـهـم ولـو سَـعَـوْا نـحـوه جَـهْـراً لـمـا قَـدَرُوا
لـولا الأمـانـي الـتـي تـحـيـا الـنُّـفُـوسُ بـهـا لـمـتُّ مِـن لَـوْعـةٍ فـي الـقَـلْـبِ تَـسْـتَـعِـرُ
وأَصْـدَقُ الـنَّـاسِ فـي حِـفْـظِ الـعُـهُـودِ إذا مَـيَّـزْتَ بـالـفِـكْـرِ أحـوالَ الـوَرَى عُـمَـرُ
الـزَّاهِـدُ الـعـابـد الـبَـرُّ الـتـقـيُّ ومـن يـزورهُ ويـقـوِّي أزرَه الـخَـضِـرُ

وقال العَرْقلة يرثي جمال الدين الوزير والصَّالح بن رُزِّيك: [السريع]

لا خَـيْـرَ فـي الـدُّنـيـا ولا أهـلِـهـا بـعـد جـمـالِ الـدِّيـن والـصَّـالـحِ
بَـحْـرانِ لـولا دَمْـعُ بـاكـيـهـمـا مـا كـانَ مـاءُ الـبَـحْـرِ بـالـمـالـحِ

«الرسائل»، «الزيادات في شعر أبي إسحاق الصابي وشعر أبي تمام»، «طيف الخيال»، «كتاب الحسن من شعر الحسين» انتخبه من شعر ابن الحجاج، «كتاب المتشابه في القرآن» «مجازات الآثار النبوية»، «نهج البلاغة من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه». وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٦٠).

(١) الشاتاني: نسبة إلى شاتان، قلعة بديار بكر ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي سنة ٥٧٩هـ، وكان فقيهاً أديباً شاعراً، («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٦١ ـ ٣٨٤، وفيات الأعيان ٢/ ١١٣ ـ ١١٤. وفي الوفيات: توفي سنة ٥٩٩هـ).

(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٧٢.

Marfat.com

قال ابن الأثير: وقال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشَّهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والمحاققة فيها، ما يدلُّ على تمكُّنه من الكفاية. فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشَّهيد، وجمالُ الدين وزيرُه حينئذٍ، وقد تمكَّن زين الدين عليُّ بن بُكْتِكِين في الدولة تمكناً عظيماً، وتقدَّم عند قطب الدين جماعةٌ من أصحابه، فكان جمال الدين مع تمكُّنه وعلوِّ محلِّه يهمل بعض الأمور، قال: فقلت له يوماً: أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدية؟ ما أرى الآن منها شيئاً! فقال لي: والآن ما عندي كفاية؟ فقلت: ما هذا العمل من ذلك بشيء. فقال: أنت صبي غِرٌّ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان ما ينسِبُهُ، ذلك الوقت كان لنا صاحبٌ متمكن قوي العزم، لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه، ولا يَتَلَوَّن بأقوال أصحابه، فحفظناه، فكان ما أفعله هو الكفاية. وأما الآن فلنا سُلْطان غير متمكن، وهو محكومٌ عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

[فتح نور الدين قلعة بانياس]

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

قال ابن الأثير[1]: فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج. وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارِم، وأَذِنَ لعسكر المَوْصِل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبريَّة، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها. فسار نور الدين مجدًّا إلى بانياس لعلمه بقلَّة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها، وضيَّق عليها وقاتلها. وكان في جُملة عسكره أخوه نُصْرة الدين أمير أميران، فأصابه سَهْمٌ أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعِدَّ لك لتمنيتَ أن تذهب الأخرى.

وجدَّ في حصارِها، وسمع الفرنجُ بذلك فجمعوا، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحه الله تعالى. على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعُدة، ورجالاً عِدة.

وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتمٌ بِفَصٍّ ياقوت من أحسن الجوهر، فسَقَط من يده في شَعْراء بانياس ـ وهي كثيرةُ الأشجار ملتفة الأغصان ـ فلما أبعد

---

(١) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠، فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج، في أحداث ذي الحجة من سنة ٥٥٩هـ.

من المكان الذي ضاع فيه الفَصُّ عَلِمَ به، فأعاد بعضَ أصحابه في طلبه ودَلَّهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع. فعادوا إلى فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشَّاميين، وأظنُّه أحمد بن منير، من جملة قصيدة يمدحُه بها ويهنئه بهذه الغَزَاة وعود الفَصِّ الياقوت[1]: [الكامل]

إن يمْتَرِ الشُّكَّاك فيك فإنَّك الـ ـمهديُّ مطفئُ جَمْرَةِ الدَّجَّالِ
فلعودةِ الجَبَلِ الذي أضللته بالأمسِ بين غياطل وجبالِ[2]
مسترجعاً لك بالسَّعَادةِ آيةً رَدَّتْ مطال الفال غير مُطَالِ
لم يُغطَها إلا سليمانٌ وقد نِلْتَ الرِّفاءَ بموشكِ الإعجالِ
زجرٌ جَرَى لسرير مُلْكِكَ أنه كسريره عن كُلِّ جَذْرٍ عالِ
فلو البِحَارُ السَّبْعَةُ اسْتَهْوَيْنَهُ وأَمَرْتَهُنَّ قَذَفْنَهُ في الحالِ

قلت: هذه الأبيات لابن منير بلا شك، ولكن في غير هذه الغَزَاة؛ فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين، وفَتْحُ بانياس كما تراه في سنة ستين وقد قرأتُ في ديوان ابن منير: وقال يمدحه، يعني نور الدين، ويهنئه بالعود من غزاة وضياع فَصِّ ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد، شِرَاه ألف ومئة دينار. وفي نسخة: وَوِجْدان خاتم ضاع منه في الصَّيد قيمته ألف ومئة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص. فذكر القَصيدة، وأولها: [الكامل]

* يوماك يوم ندًى ويوم نِزال *

يقول فيها: [الكامل]

أَخْرَسْتَ شِقْشِقةَ الضَّلالِ وقُدْتَه قودَ الذَّلولِ أطاعَ بعد صِيالِ
ورميتَ دارَ المشركين بصَيْلَمٍ ألحقتَ فيها الحَرْبَ بعد جِيالِ
وسَعَرْتَ بين تريبهم وترابهم ذُعْراً يُشيبُ نواصيَ الأطفالِ
فوق الخطيم وقد خَطَمْتَ زَعِيمَهُمْ ضَرْباً سوابِقُهُ بغير توالي
ضَرْباً ملأتَ فرنجةً من حرِّه رُهْباً به سَيْفُ الصَّقالب صالي
وبفَجٍّ حارمَ أحرمتْ لقراعهم هيمٌ أحلن النوم غير حَلالِ
عَجَموا على الجسر الحديد حديدَها نبعاً يعاذِمُهُ أُديردُ صَالِ
زلزلتَ أرضَهُمُ بوقعِ صواعقٍ أعطيننا أمناً من الزِّلزالِ

(١) ذكر ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٤٧٠، خمسة أبيات.
(٢) غياطل: جمع غيطلة، وهي اجتماع الشجر والتفافه.

في مـأزِقٍ شَـمَّـرْتَ ذيـلـك تـحـتَـهُ والـنَّـصْـرُ فـوقَـك مُـسْـبِـلُ الأذيـال
فـي دولـةٍ غَـرَّاءَ مـحـمـوديَّـةٍ سَـحَـبَـتْ رداءَ الـحَـمْـدِ غـيـر مُـذَال
تُنْسي الفتوحُ بها الفتوحَ، وتجتَنى زُهـر الـمـقـال بـبـاهـرِ الأفـعـالِ
لَـبِـسَـتْ بـنـورِ الـدِّيـن نـور حـدائـق ثـمـراتُـهُـنَّ غـرائـبُ الأفـضـال
مـلـكٌ تـحـجَّـب فـي الـسـريـر بـزأرةٍ زرَّتْ حـواشـيـهـا عـلـى رئـبـالِ
تـنـجـابُ عـن ذي لـبـدتـيـن شَـذَاتُـه فـي بُـرْدَتـي بَـدَلٍ مـن الأبـدالِ
رَفَـعَ الـرُّواقَ بـروقِ أنـطـاكـيَّـةٍ فـرمـى الـخـلـيـجَ بـمـرهـق الـبَـلْـبَـالِ
بَـدْرٌ لأربـعَ عَـشْـرَةَ اقـتـبـسَ الـسَّـنـا مـن خـمـسَ عَـشْـرَةَ سـورة الأنـفـالِ
فـوزُ الـمـآل أخـاضـه مـاءَ الـطُّـلـى وسـواه يُـقـعـده احـتـيـازُ الـمـال
متـقـسِّـمٌ بـيـن الـقـسـيـمـيـن الـعُـلا عـن عـمٍّ عـمٍّ أو مـخـايـل خـالِ
لا زِلْـتَ تـطـلُـعُ مـن ثـنـايـا جَـحْـفَـلٍ يـقـفـو لـواءك كـالـلـوى الـمِـنْـهَـالِ
تـغـزو فَـتَـنْـهَـبُ أو تـؤوبُ فَـتُـنْـهِـبُ الـ ـعـافـيـن سَـلْـبَ قـنـاً وكَـسْـبَ نِـصَـالِ
لـك أن تـطـلَّ عـلـى الـكـواكـبِ راقـيـاً ولـحـاسـديـك بُـكـاً عـلـى الأطـلالِ

ومما يناسِبُ هذه السعادة في وِجْدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرَّشيد أخذه، فطلبه منه فامتنعَ، فألحَّ عليه فيه، فحنق الرشيد ومَرَّ على جسر بغداد فرماه في دِجْلَة. فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه ثَمَّ، وأمر الغَطَّاسين أن يلتمسوه، ففعلوا، فاستخرجوا الخاتم الأوَّل، فعُد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير[1]: ولما فتح نور الدِّين حِصْنَ بانياس كان ولد معين الدِّين أُنَر الذي سَلَّم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفتَ إليه وقال له: للناس بهذا الفتحِ فرحة واحدة، ولك فرحتان. فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برَّد جلدة والدك من جهنم.

وقد تقدَّم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

[وفاة الوزير ابن هبيرة]

وفيها توفى وزير بغداد عون الدين أبو المُظَفَّر يحيى بن محمد بن هُبَيْرة

(١) انظر «الكامل» ٩/ ٤٧٠.

Marfat.com

الشَّيْبَاني[١]، من بني ذُهْل بن شَيْبَان بن ثَعْلَبَة بن الحِصْن. وكان عالماً ديناً مدبراً حنبليَّ المذهب، وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده، وله عدة مصنفات، منها: «الإفضاح في شرح الأحاديث الصحاح». وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة. توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جُمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة. ورئيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء. ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دُجَيْل تعرف بالدُّور، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العُصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأوْلى الأمور ستر العيوب.

[نجز الجزء الأول من كتاب الروضتين،
ويليه الجزء الثاني
ويبدأ بحوادث سنة (٥٦١)]

(١) ابن هبيرة: تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

Marfat.com

فهرس المحتويات

تقديم ٥
ترجمة المؤلف ٧
مؤلفات أبي شامة ١٦
عصر أبي شامة وبيئته ٢٠
أحوال العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية ٢٠
١ ـ المواجهة الصليبية ـ العربية الإسلامية ٢٦
٢ ـ المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين ودور آل زنكي وآل أيوب ٣٦
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ٤٨
مصادر كتاب الروضتين ٥٧
أ ـ تاريخ دمشق ٥٨
ب ـ ذيل تاريخ دمشق ٥٩
ج ـ رسائل القاضي الفاضل ٦٠
د ـ مؤلفات العماد الأصفهاني ٦٢
هـ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٦٥
و ـ الباهر في الدولة الأتابكية ٦٨
ز ـ مؤلفات ابن أبي طي الحلبي ٦٩
ح ـ الوقائق الرسمية ٧٠
ط ـ المصادر الثانوية ٧٣
ك ـ استخدام أبي شامة للمصادر ٧٣
كتاب «المذيل على الروضتين» ٨٠
مقدمة المؤلف ٨٩
الدولة النورية ٩٦
زهد نور الدين وعبادته ٩٧
عدل نور الدين ١٠١
شجاعة نور الدين وحسن رأيه ١٠٣
ما فعله نور الدين من المصالح ١٠٥

Marfat.com

هيبة نور الدين ووقاره ١٠٧
حفظه لأصول الدين ومحاربته للبدع ١٠٨
قدوم عماد الدين الكاتب إلى دمشق ١٠٨
أوقاف نور الدين وصدقاته ١١٠
نظر نور الدين في أمور الرعية ١١٧
إبطال نور الدين للمكوس ١٢١
مدائح في نور الدين ١٢٧
أصل البيت الأتابكي ١٣٨
مقتل الوزير نظام الملك ١٤١
وفاة السلطان ملكشاه ١٤٤
بداية ظهور الفرنج وتولي السلطان محمد الملك بعد والده ١٤٤
مقتل قسيم الدولة آق سنقر ١٤٥
وفاة المقتدي بأمر الله وخلافة المستظهر بالله ١٤٥
ذكر أخبار زَنْكي ١٤٦
مقتل مودود أمير الموصل ١٤٨
ولادة نور الدين ووفاة السلطان محمد بن ملكشاه ١٤٩
ولاية السلطان محمود بن محمد ١٥٠
وفاة المستظهر بالله ١٥٠
خروج مسعود على أخيه السلطان محمود ١٥٢
ولاية آق سنقر البرسقي الموصل ١٥٣
ولاية زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة ١٥٣
ولاية زنكي شحنكية بغداد ١٥٤
مقتل آق سنقر البرسقي ١٥٤
في ولاية زَنْكي المَوْصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البُرْسُقي ١٥٥
ما استولى عليه الفرنج من البلاد، وحال المسلمين وقتئذٍ ١٥٦
فتوح عماد الدين زنكي ١٥٧
استيلاء زنكي على حماة ١٥٧
وفاة السلطان محمود بن محمد ١٥٨
وفاة السلطان طغرل بن محمد ومقتل المسترشد بالله، وخلافة الراشد بالله ١٥٨
مقتل الراشد بالله وخلافة المقتفي لأمر الله ١٥٩

Marfat.com

في جهاد زَنْكي للفرنج ١٦٠
في فتح شَهرُزُور وبَعْلَبَك وحِصَار دمشق ١٦٣
وفاة محمد بن بوري صاحب دمشق وولاية ابنه مجير الدين أبق بن محمد ١٦٤
فتح زنكي حصن بارين والمعرة وكفرطاب ١٦٥
فتح زنكي قلاع الأكراد ١٦٩
فتح زنكي حمص ١٦٩
مسير زنكي إلى ديار بكر وفتح عدة بلاد منها ١٧٠
فتح مدينة الرها ١٧٠
مقتل جقر نائب الموصل ١٧٨
قصيدة لابن منير في عماد الدين زنكي ١٨٠
في وفاة زَنْكي رحمه الله ١٨١
في ذكر بعض سيرة الشهيد أتابك زَنْكي ١٨٣
مقتل يرنقش الخادم قاتل زنكي ١٨٩
فيما جرى بعد زَنْكي من تفرُّقِ أصحابه وتمَلُّك ولَدَيْه غازي ومحمود ١٩٠
استقرار غازي في الملك ١٩٣
فيما جرى بعد وفاة زَنْكي من صاحب دمشق والإفرنج المخذولين ١٩٤
توقيع كتب عن الحافظ لدين الله ١٩٨
تسلم معين الدين بصرى وصرخد وانهزام الفرنج ودخلت سنة اثنتين
وأربعين وخمسمائة ٢٠٠
في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله تعالى عنها ٢٠٢
الحرب بين الفرنج والمسلمين ودخلت سنة ثلاث وأربعين ٢٠٢
فتح نور الدين حصن العريمة ٢٠٩
وقعة يغرا ٢١١
إبطال نور الدين «حي على خير العمل» ٢١٣
ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة ٢١٥
وقعة إنب وتسمى أيضاً وقعة الخطيم ٢١٥
فتح نور الدين حصن أفامية ٢٢٤
في وفاة معين الدين أُنَر بدمشق ما كان من الرئيس ابن الصُّوفي في هذه السَّنة ٢٢٧
في وفاة سيف الدين غازي بن زَنْكي صاحب المَوْصِل
وهو أخو نور الدين الأكبر ٢٣٠

Marfat.com

ولاية قطب الدين مودود بن زنكي الموصل ٢٣٣
مسير نور الدين إلى سنجار وصلحه مع مودود وتسلمه حمص ٢٣٥
تحالف حكام دمشق مع الفرنج ومحاصرة نور الدين دمشق ٢٣٩
الصلح بين نور الدين وحكام دمشق ورفع حصاره عن دمشق ٢٤٠
ودخلت سنة خمس وأربعين ٢٤٠
في فَتح عَزَاز ٢٤٢
في صفة أسر جُوسلين ٢٤٤
استيلاء نور الدين على دلوك ٢٥١
النفرة بين مجير الدين والرئيس ابن الصوفي ٢٥٣
حصار نور الدين دمشق ٢٥٤
ودخلت سنة ست وأربعين ٢٥٤
نزول عسكر نور الدين على أرض عذراء من عمل دمشق ٢٥٧
في باقي حوادث هذه السَّنة ٢٦٣
فتح نور الدين حصن أنطرسوس ويحمور ٢٦٩
ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة ٢٦٩
وفاة الأمير سعد الدولة ٢٧٣
وفاة السلطان مسعود بن محمد وولاية السلطان محمّد بن محمود ٢٧٣
سقوط عسقلان بيد الفرنج ٢٧٥
ثم دخلت سنةُ ثمانٍ وأربعين وخمسمائة ٢٧٥
نزاع بين ابن الصوفي وأخويه وقتل الوزير حيدرة ٢٧٦
فتح نور الدين دمشق ٢٨٤
ثم دخلت سنة تسعٍ وأربعين وخمسمائة ٢٨٤
تولي أسد الدين شيركوه أمور دمشق بعد فتحها ٢٨٧
إطلاق بزان من الاعتقال ووفاة مؤيد الدين المسيب بن الصوفي ٢٨٩
مقتل الخليفة الظافر ابن الحافظ وقدوم طلائع بن رزيك القاهرة،
وهرب عباس الوزير منها ٢٨٩
وصول ابن الداية إلى دمشق عقيب عوده من الحج ٢٩٤
هجوم الفرنج على مدينة تنيس ٢٩٥
وفاة فخر الدين الطرسوسي ٢٩٥
تسلم نور الدين بعلبك ٢٩٦

Marfat.com

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة ٢٩٦
محاصرة نور الدين قلعة حارم ٢٩٨
ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ٢٩٨
حدوث الزلازل بالشام ٣٠٤
حدوث الزلازل في الشام ٣٠٥
ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ٣٠٥
توجه نور الدين إلى بعلبك وانتصار أمير أميران على الفرنج ٣١٠
وصول أسد الدين شيركوه إلى بعلبك ٣١١
محاصرة نور الدين بانياس ٣١١
فتح نور الدين بانياس ٣١٢
انتصار نور الدين على الفرنج في الملاحة ٣١٢
توجه نور الدين إلى حلب، وقرب الملك ابن مسعود منها ٣١٤
في ذكر حِصْن شَيْزَر وولاية بني مُنْقِذ ٣١٩
سبب خروج أسامة بن منقذ وإخوته من شيزر ٣٢١
في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين ٣٢٤
وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه ٣٢٤
استيلاء الفرنج على حصن حارم ٣٢٥
ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ٣٢٥
حدوث زلزلة في حلب ودمشق ٣٣٥
مطالبة بعض سفهاء العوام بإرجاع المكوس والرسوم، ثم إبطال
نور الدين لها ثانية ٣٣٧
انتصار العسكر المصري على الفرنج ٣٣٨
مهاجمة امبراطور الروم أعمال أنطاكية وما والاها ٣٣٨
محاصرة السلطان محمد بن محمود بغداد ٣٣٨
ثم دخلت سنة أربع وخمسين ٣٣٩
مرض نور الدين في دمشق وإبلاله منه ٣٣٩
وصول رسول امبراطور الروم إلى نور الدين ٣٤١
وفاة الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين ٣٤٢
ثم دخلت سنة خمس وخمسين ٣٤٢
وفاة المقتفي وولاية ابنه المستنجد ٣٤٣

Marfat.com

وفاة الفائز بن الظافر وولاية ابن عمه العاضد ٣٤٤
خروج أسد الدين شيركوه إلى الحج ٣٤٤
ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة ٣٤٤
مقتل الصالح بن رزيك ٣٤٥
هزيمة نور الدين تحت حصن الأكراد ٣٤٩
ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة ٣٤٩
مجيء شاور وزير مصر إلى نور الدين مستنجداً وإرسال شيركوه إلى مصر
المرة الأولى ورجوعه عنها وذكر بداية أمره وأمر أخيه نجم الدين أيوب ٣٥٠
ثم دخلت سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة ٣٥٠
ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة ٣٥٤
في فتح حارِم ٣٦٢
وفاة وزير الموصل جمال الدين ٣٦٥
فتح نور الدين قلعة بانياس ٣٧٥
ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة ٣٧٥
وفاة الوزير ابن هبيرة ٣٧٧

Marfat.com

كتاب الرّوضتين

في

أخبار الدّولتين

النّوريّة والصّلاحيّة

تأليف

شهاب الدّين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان
المقدسي الدّمشقي الشّافعي
المعروف بأبي شامة
المتوفى سنة ٦٦٥هـ

وضع حواشيه وعلّق عليه
إبراهيم شمس الدّين

٢

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السّنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

[وفاة فتح الدين بن أسد الدين شيركوه]

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسد الدين شِيركُوه؛ أخو ناصر الدين، وقبره بالمقبرة النجميَّة إلى جانب قبر ابن عمه شاهِنْشاه بن أيوب[1] في قُبَّةٍ فيها أربعة قبور، هما الأوسطان منها.

وفي هذه الأخوين، ناصر الدين وفتح الدين، يقول العرقلة حَسَّان[2]: [السريع]

لله شِبْلا أَسَدٍ خَادِرٍ ... ما فيهما جُبْنٌ ولا شُحُّ[3]
ما أقبلا إلا وقال الورى ... قد «جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ»[4]

[فتح نور الدين حصن المنيطرة]

وفيها سار نور الدين أيضاً إلى حصن المُنَيْطرة، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولا جمع عساكره، إنما سار إليه على غِرَّة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا، فانتهز الفُرْصَة، وسار إلى المُنَيْطرة وحصرها، وجَدَّ في قتالها، وأخذها عَنْوَةً وقهراً، وقتل من بها وسبى، وغنم غنيمة كثيرة لأَمْن مَنْ به، فأخذتهم خيلُ الله بغتةً وهم لا يشعرون، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لِدَفْعه إلا وقد ملكه. ولو علموا أنه جريدة لأسرعوا، وإنما ظنُّوا أن نور الدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرَّقوا وأيسوا منه[5].

---

(١) قتل شاهنشاه بن أيوب على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة ٥٤٣هـ، وانظر أيضاً الجزء الأول (وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٤٥٢).

(٢) البيتان في ديوان عرقلة الكلبي ص٢٠، وخريدة القصر، قسم شعراء الشام ١/ ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣) الأسد الخادر: المقيم في عرينه.

(٤) ما بين مزدوجين، اقتباس من سورة النصر في القرآن الكريم ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً**﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

(٥) انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير الجزري ٩/ ٤٨١.

Marfat.com

هذا قول ابن الأثير، وذكر القاضي ابن شداد[١] أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين كما سيأتي، والله أعلم.

[وفاة الجليس بن الحباب]

وفيها توفي الجليسُ بن الحباب[٢] بمصر. قال العماد في «الخريدة»: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحَبَّاب الأغلبي السَّعْدي التَّميمي؛ جليس صاحب مصر، فضله مشهور، وشِعْرُه مأثور، وكان أوحد عصره في مِصْره نظماً ونثراً، ترسُّلاً وشعراً، ومات بها في سنة إحدى وستين، وقد أناف على السبعين. أنشدني له الأمير نجم الدين بن مَصَال[٣] من قصيدةٍ يقول فيها[٤]: [الطويل]

ومن عَجَبٍ أنَّ السيوفَ لديهمُ ... تحيضُ دماءً والسُّيوفُ ذكورُ
وأَعْجَبُ مِنْ ذا أنَّها في اكُفِّهِمْ ... تأجَّجُ ناراً والأكُفُّ بُحُورُ

قال: وأنشدني له الشَّريف إدريس الإدريسي[٥] قصيدةً سيَّرها إلى الصَّالح بن رُزِّيك[٦] قَبْلَ وزارته، يحرِّضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس

---

(١) القاضي ابن شداد: هو يوسف بن رافع، تقدّمت ترجمته في الجزء الأول.
(٢) في وفيات الأعيان لابن خلكان ٧/ ٢٢٣: الجليس بن الجبّاب، بالجيم المعجمة، والباء المشددة، وكذلك في فوات الوفيات ٢/ ٣٣٢، وهو الأصح.
(٣) نجم الدين بن مصال: لم أجد له ترجمة في المراجع والمصادر التي بين يدي، ولعله كان والي الإسكندرية في هذا الوقت، وقد ذكره عماد الدين الكاتب الأصفهاني في البرق الشامي ٣/ ١٢٧، وذكر تاريخ وفاته في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ٥٧٤هـ.
(٤) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٨٩ ـ ١٩٠.
(٥) الشريف إدريس الإدريسي: هو إدريس بن الحسن بن علي بن عيسى، الإدريسي، الحسني الإسكندراني، أبو الحسن، ولد في مصر سنة ٥٤٥هـ. كان فاضلاً أديباً شاعراً مجيداً، عالماً بأيام العرب، والتاريخ والأخبار، راوية للدواوين والأشعار، له مصنفات في الأنساب والتواريخ، سمع من الحافظ ابن عساكر وابنه القاسم، ومن القاضي الفاضل، وروى عنه العماد الكاتب، والقاضي ابن الخشاب، وابن أبي طي، والشريف أبو المحاسن عبد الله بن محمد الهاشمي، توفي في حلب سنة ٦١٠هـ (بغطية الطلب في تاريخ حلب، لكمال الدين ابن العديم ٣/ ١٣٢٤ ـ ١٣٣٣).
(٦) هو الملك الصالح، طلائع بن رزيك الأرمني، وزير العاضد العلوي، صاحب مصر، قتل سنة ٥٥٦هـ. وكان سبب قتله، أنه تحكم في الدولة التحكم العظيم، واستبد بالأمر والنهي وجباية الأموال إليه، لصغر العاضد، ولأنه هو الذي ولاه، ووتر الناس، فأرسلت عمة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين ودعتهم إلى قتله، وكان أشدهم عليه في ذلك إنسان يقال له ابن الداعي، فوقفوا له في دهليز القصر، فلما دخل ضربوه بالسكاكين (انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير الجزري ٩/ ٤٤٩ ـ ٤٥١).

Marfat.com

وزيرهم قَتَلَه وقتل أخويه يوسف وجبريل[١]، يقول فيها[٢]: [الطويل]

أصادِفُهُمْ قولاً وغيباً ومَشْهَداً ... نَحَوْهم على عمدٍ بفعل أعادي
فأين بنو رُزِّيك عنها ونصرُهُمْ ... وما لهُمُ من مَنْعَةٍ وذِيادِ
تداركْ من الإيمان قَبْلَ دُثورِهِ ... حُشَاشَة نَفْس آذَنَتْ بنفادِ
فلو عايَنَتْ عيناكَ بالقَصْرِ يومهمْ ... ومَصْرَعَهُمْ لم تَكْتَحِلْ بِرُقَادِ
فَمَزِّقْ جموعَ المارِقينَ فإنَّها ... بقايا زُرُوعٍ آذَنَتْ بحصادِ

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة[٣]: [الطويل]

ولما تَرَامى البَرْبَرِيُّ بجهله ... إلى فَتْكَةٍ ما رامَها قَطُّ رائِمُ
رَكِبْتَ إليه مَتْنَ عَزْمَتِكَ التي ... بأمثالها تُلْقَى الخطوبُ العظائمُ
أَعَدْتَ إليهم مُلْكَهُمْ بعد ما لوى ... به غاصِبٌ حَقَّ الإمامة ظالمُ

وأنفذ إليه في المعنى[٤]: [الطويل]

أَعَدْتَ إلى جِسْمِ الوِزَارة رُوحَهَا ... وما كان يُرْجَى بَعْثُها وَنُشورُها
أقامَتْ زَماناً عند غَيْرِك طامثاً ... فهذا الأوان قَرْؤُها وطُهورُها
من العَدْلِ أن يحظى بها[٥] مُسْتَحِقُّها ... ويخلَعَها مردودةً مُسْتَعِيرُها
إذا مَلَكَ الحسناءَ مَنْ لَيْسَ كُفْأها ... أشارَ عليه بالطَّلاق مشيرُها

وله يشكو طبيباً[٦]: [الوافر]

وأصْلُ بَلِيَّتي مَنْ قد غَزَاني ... من السُّقْمِ المُلِحِّ بِعَسْكَرَيْنِ
طبيبٌ طِبُّهُ كغُرابِ بَيْنٍ ... يُفَرِّقُ بَيْنَ عافيتي وبيني
أتى الحُمَّى وقد شاخت وباخَتْ ... فَرَدَّ لها الشبابَ بِنُسْخَتَيْنِ
ودَبَّرَها بِتَدْبيرٍ لطيفٍ ... حكاه عن سِنانٍ أو حُنينِ[٧]

---

(١) تقدّمت قصة قتل الظافر في الجزء الأول.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٩٠، ما عدا البيت الأول.
(٣) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٩٠ ـ ١٩١.
(٤) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٩٣.
(٥) يحظى بها: كذا في الأصل، وفي «خريدة القصر»: (يحيا بها)، بدل: «يحظى بها».
(٦) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٧) سنان: هو أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة، الطبيب الحراني، كان نصرانياً ثم أسلم، وتوفي ببغداد سنة ٣٣١هـ، من تصانيفه: «رسالة إلى ابن رابق»، «رسالة إلى أبي الحسن علي بن عيسى»، «رسالة في أخبار آبائه وأجداده»، «رسالة في الاستواء»، «رسالة إلى بجكم»، =

وكـانـتْ نـوبـةً فـي كـلِّ يـومٍ فَـصَـيَّـرهـا بـحِـذْقٍ نَـوْبَـتَـيْـنِ

قلت: الأبيات الرَّائية تمثل بها الجليسُ، وهي لِصُرْدُرّ[1]، قرأتها في «ديوانه»، وهي من قصيدة مدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جَهير[2]، ويهنئه بعوده إلى الوزارة، وأول القصيدة[3]: [الطويل]

لـجـاجـةُ قَـلْـبٍ مـا يُـفـيـق غُـرورُهـا وحـاجـةُ نَفْسٍ ليس يُقضى يَسِيرُها
وَقَـفْـنـا صُـفُـوفـاً فـي الـدِّيـارِ كـأنَّـهـا صـحـائـفُ مـلـقـاةٌ ونـحـن سُـطُـورُهـا
يـقـولُ خـلـيـلـي والـظِّـبـاء سـوانـحٌ أهـذي الـتي تـهـوى؟ فـقـلـتُ نَـظِـيـرُهـا
وقد قُلْتما لي ليس في الأرضِ جَنَّةٌ أمـا هـذه فـوقَ الـرَّكـائـبِ حُـورُهـا؟
أراكَ الـحِـمـى قُـلْ لـي بـأيِّ وسـيـلـةٍ وَصَـلْـتَ إلـى أنْ صـادَقَـتْـكَ ثُـغُـورُهـا!
ومـا لـي بـهـا عِـلْـمٌ فـهـل أنـت عـالِـمٌ أأَفْـوَاهُـهُـا أَوْلَـى بـهـا أم نُـحـورُهـا
على رِسْلِكُمْ في الـهَـجْـر إنَّـا عـصـابـةٌ إذا ظَفِرَتْ في الـحُـبِّ عَفَّ ضَـمـيـرُهـا
فـقـل لـلَّـيـالـي كـيـفَ شِـئْـتِ تَـقَـلَّـبـي فـفـي يـد عَـبْـلِ الـسَّـاعِـدَيْـنِ أمـورُهـا

= «رسالة في تاريخ ملوك السريانيين»، «رسالة في سهيل»، «رسالة في شرح مذهب الصابئيين»، «رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر»، «رسالة في قسمة أيام الجمعة على الكواكب السبعة»، «رسالة في النجوم»، «كتاب التاجي في سيرة عضد الدولة» (كشف الظنون ٥/ ٤١٠).

وحنين: هو أبو زيد، حنين بن إسحاق العبادي، المسيحي الطبيب البغدادي المشهور، توفي سنة ٢٦٠هـ. له العشرات من المصنفات، منها: «آلات الغذاء»، «اختصار ستة عشر كتاباً لجالينوس»، «اختلاف الطعوم»، «أسماء الأدوية المفردة»، «تدبير الأصحاء»، «تركيب العين»، «تدبير الأمراض الحادة»، «جوامع كتاب جالينوس في أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً»، «كتاب البيطرة»، وغيرها الكثير (كشف الظنون ٥/ ٣٣٩، ٣٤٠، وانظر أيضاً عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٥٧ ـ ٢٧٤، ووفيات الأعيان ٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨).

(١) صرْدُرّ: هو علي بن الحسن بن علي بن الفضل الكاتب، أبو منصور البغدادي، أحد نجباء شعراء عصره، جمع بين جودة السبك وحسن المعنى، وسمي بصرّدر لأن أباه كان يلقب بصربعر لشحه، فلما نبغ ولده وأجاد في شعره قيل له: صرّدُرّ، توفي في طريق خراسان سنة ٤٦٥هـ، له ديوان شعره مشهور، وكتاب في الحساب (كشف الظنون ٥/ ٦٩١ ـ ٦٩٢، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢، وفيات الأعيان ٣/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٢) كان وزيراً للقائم ولابنه المقتدي بأمر الله، ثم عزل عنها، فخرج سنة ٤٧٦هـ إلى السلطان ملكشاه باستدعائه إياه، فعقد له على ديار بكر. انظر أخباره في «الكامل في التاريخ» ٨/ ٣٨٣، ٤٦٤. ووفيات الأعيان ٥/ ١٢٨.

(٣) الأبيات في ديوان صردر ص٥٦ ـ ٦٢، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٤م.

Marfat.com

أمانيُّ في نَفْسِ الوِزَارَةِ بُلِّغتْ ... به كُنْهَها حتى استحقَّتْ نذورُها
لوَتْ وَجْهَها عن كلِّ طالبِ مُتْعةٍ ... إلى خاطبٍ حلَّ عليه سُفُورُها
إذا مَثَلَ الأقوام دون عَرِينه ... تساوى به ذو طَيْشِها ووقورُها
تكاد لِما قد أُلبِستْ مِنْ سكينةٍ ... تَرِفُّ على تلك الرؤوس طيورُها

[عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر للمرة الثانية]

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزالُ يحدِّث نفسه بقصدها ومعاودتها، حريصاً على الدُّخول إليها، يتحدَّث به مع كل من يثق إليه. وكان مما يهيِّجه على العود زيادة حقده على شاوَر وما عمل معه. فلما كان هذه السنة تجهَّز وسار إليها، وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب. وفي ذلك يقول العرقلة[1]: [السريع]

أقول والأتراكُ قد أزمَعَتْ ... مِصْرَ إلى حَرْبِ الأعاريبِ
رَبٌّ كما ملَّكتها يوسف الصِّـ ... ـدِّيقَ من أولادِ يعقوبَ
يملكها[2] في عَصْرِنا يوسفَ الصَّـ ... ـادِقَ من أولادِ أيوبَ
من لم يَزَلْ ضرَّابَ هامِ العِدَى ... حقًّا وضرَّابَ العَرَاقِيبِ

ثم إن أسد الدين جَدَّ في السير على البرّ، وترك بلاد الإفرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية وقصد إطْفِيح، وعبر النِّيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجِيزة مقابل مصر، وتصرَّف في البلاد الغربية، وأقام بها نَيِّفاً وخمسين يوماً.

[استغاثة شاور بالفرنج]

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصَّعْب والذَّلُول، فتارةً يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدِّ والتشمير، وتارةً يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النُّوري على الإسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم. فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي. وكان أسد الدين والعسكر النُّوري قد ساروا إلى الصَّعيد

(١) هو حسان بن نمير الكلبي، أبو الندى، الأديب النحوي، ولد سنة ٤٨٦هـ، وتوفي سنة ٥٦٧هـ، له ديوان شعره. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ١٧٨ ـ ٢٢٩، وفي كشف الظنون ٥/ ٢٦٥، توفي عرقلة سنة ٥٩١هـ. والأبيات في ديوان عرقلة ص١٢ ـ ١٣.
(٢) يملكها: كذا في الأصل، وفي الديوان «ملكها».

فبلغوا مكاناً يُعرفُ بالبابَيْن، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم، فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جُمادى الأولى. وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُددهم، وجدِّهم في طلبه، فعزم على قتالهم ولقائهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم. إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثَّبات في هذا المقام الخطير الذي عطبهم فيه أقرب من السَّلامة؛ لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم، فاستشارهم، فكلُّهم أشار عليه بعُبُور النِّيل إلى الجانب الشَّرْقي والعَوْد إلى الشَّام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لا شك فيه ـ فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا، ويَوَدُّون لو شربوا دماءنا؟! وحُقَّ لعسكرٍ عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارِهم وقلّ ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف، مع أن كل أهل البلاد عدوٌّ لهم. فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له شرف الدين بُزْغُش[1] ـ وكان من الشجاعة بالمكان المشهور ـ وقال: من يخاف القتل والجراح والأَسْر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عُدْتُم إلى الملك العادل من غير غَلَبَةٍ وبلَاءٍ تُعذرون فيه ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموالَ المسلمين وتفرُّون عن عدوهم، وتسلِّمون مثل هذه الديار المصرية يتصرَّف فيها الكُفَّار؟! قال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل. ووافقهما صلاحُ الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وقد جعل الأثقال في القلب يتكثَّر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكانٍ آخر فينهبها أهل البلاد.

ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب، وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم، واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم. واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة. فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين، وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم. فحمل حينئذٍ أسد الدين فيمن معه على من تخلَّف من الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين

(١) صاحب شقيف، كان ممن أرسله نور الدين مع أسد الدين لفتح مصر سنة ص٥٦٤، استشهد في معركة الكرك سنة ٥٧٩هـ كما سيأتي في الجزء الثالث.

فهزموهم، ووضعَ السَّيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون. فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلْقعاً ليس بها منهم ديَّار، فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرَّخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السَّاحل[1].

[تسلم شيركوه الإسكندرية من غير قتال واستنابة صلاح الدين فيها، وعوده إلى الصعيد]

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية، وجبى ما في طريقها من القرايا والسَّواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلَّمها من غير قتال؛ سلَّمها أهلها إليه، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصَّعيد وتملَّكه، وجبى أمواله، وأقام به حتى صام رمضان.

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم، وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية ـ وبها صلاح الدين ـ في عسكرٍ يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتدَّ الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك.

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُّلْح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك، وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر، ولا يتسلَّمون منها قرية واحدة، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين. فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا، وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وتسلم المصريون الإسكندرية في النصف من شوّال.

[حصار الفرنج والمصريين للإسكندرية]

وأما الفرنج فإنهم استقرَّ بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شِحْنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكرٍ إليهم، ويكون للفرنج من دَخْلِ مصر كل سنة مئة ألف دينار. هذا كله يجري بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء، ولا يعلمُ بشيء من ذلك؛ قد حكم عليه شاور وحجَبَهُ. وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعةً من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة.

---

(١) انظر الخبر في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣ ـ ٤.

Marfat.com

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي ـ وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف ـ ينهي محبته وولاءه، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجَمْع الكلمة بمصر على طاعته، وبجمع كلمة الإسلام، وبَذْل مالاً يحمله كل سنةَ. فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالاً جزيلاً. فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سنة أربعٍ وستين[1].

قال القاضي أبو المحاسن: ذِكْر عَوْدِ أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية، وهي المعروفة بوقعة البابَيْن. لم يزل أسد الدين يتحدَّث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك، وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لا بُدَّ له من قَصْدِها. فكاتب الفرنج، وقرَّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكيناً كلياً، ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها. وبلغ ذلك نورَ الدين وأسد الدين، فاشتدَّ خوفهما على مصر أن يملكها الكُفَّار فيستولوا على البلاد كلها. فتجهَّز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالمسير معه على كراهيةٍ منه لذلك، وذلك في أثناء ربيع الأول. وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين، والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروبٌ كثيرة ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية، وانفصل أسد الدين.

وكان سببُ عود الفرنج أن نور الدين، قَدَّس الله روحه، جَرَّد العساكر إلى بلاد الإفرنج وأخذ المُنَيْطِرة، وعلم الفرنج ذلك، فخافوا على بلادهم وعادوا. وكان سبب عود أسد الدين ضعفَ عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين، وما عانوه من الشَّدائد وعاينوه من الأهوال. وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلُّهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السَّنة، وقد انضمَّ إلى قوة الطمع في البلاد شِدَّةُ الخوف عليها من الفرنج، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها، وعرفوها من الوجه الذي عرفها. فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجرُّه إلى شيء قد قُدِّرَ لغيره وهو لا يشعر بذلك.

قال: وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المُنَيْطرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرَّب قلعة أكاف بالبرية.

---

(١) انظر الخبر في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٤ ـ ٥.

وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين بحماة للغَزَاة، وساروا إلى بلاد الفرنج، فخرَّبوا هُونِين في شوال منها.

وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين من مصر.

وفيه مات قرا أرسلان[١] بديار بكر.

فصل

[قدوم العماد الكاتب إلى دمشق وتجديد معرفته بنجم الدين وشيركوه، وبداية معرفته بصلاح الدين، ومدحه لهم]

وفي شعبان من هذه السنة قَدِمَ دمشق عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصْفَهاني، مصنِّف كتابي الفَتْح والبرق[٢]، فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفَضْل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُورِي بالمدرسة النُّورية الشَّافعية عند حمام القصير بباب الفرَج، المنسوبة الآن إلى العماد. وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه الله تعالى ولاه إياها في رجب سنة سبع وستين بعد الشَّيخ الفقيه ابن عبد[٣].

وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شِيركُوه ابني شاذي من تَكْريت؛ بسبب أن عمَّه العزيز أحمد بن حامد[٤] اعتقله السُّلْطان محمود بن

---

(١) ولي حصن كيفا وديار بكر سنة ٥٣٩هـ.

(٢) هو محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي رجاء حامد بن محمد، عماد الدين، أبو عبد الله، الكاتب الأصفهاني الأديب الشافعي، ولد سنة ٥١٩هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧هـ. له الكثير من التصانيف، انظر ترجمته الوافية في الجزء الأول.

(٣) ابن عبد: هو الخضر بن شبل بن الحسين، عز الدين، أبو البركات، المعروف بابن عبد، ولد سنة ٤٨٦هـ، ودرس الفقه وأفتى سنة ٥١٨هـ، ودرّس بالزاوية الغزالية في الجامع الأموي، وتولى الخطبة فيه، ودرّس في المدرسة المجاهدية الجوانية، ووقف له نور الدين مدرسته التي تلي باب الفرج، توفي سنة ٥٦٢ (سير أعلام النبلاء ٢٥/ ٥٩٢).

(٤) العزيز أحمد بن حامد، ولد في أصفهان سنة ٤٧٢هـ، وولي مناصب رفيعة في الدولة السلجوقية، وكان في آخر أمره متولي الخزانة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، وسبب القبض عليه أن السلطان سنجر طالب السلطان محموداً بأنواع التحف والغرائب التي أخرجها مع جهاز ابنته، وذلك بعد وفاتها، فخاف السلطان محمود من أحمد بن حامد أن يشهد بما وصل في صحبتها ـ وكان مطلعاً عليه ـ فقبض عليه ببغداد، وسيره إلى تكريت، فحبس في قلعتها، ثم قتل سنة ٥٢٧هـ. وكان نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه قد دافعا عنه وتشفعا فيه، فلم يستجب لهما (وفيات الأعيان ١/ ١٨٩).

Marfat.com

محمد بن مَلِكْشاه بقلعة تَكْرِيت، ونجم الدين أيوب إذ ذاك واليها، فانتسجت المودَّة بينهم من هناك. فلما سمع نجم الدين بوصوله، بكَّر إلى منزله لتبجيله، وكان شِيركُوه وصلاح الدين حينئذٍ بمصر، فمدح العمادُ نجمَ الدين أيوب بقصيدةٍ منها، أولها[1]: [البسيط]

يومُ النَّوى ليس من عُمْري بمحسوبِ ... ولا الفِراقُ إلى عَيْشِي بمنسوبِ
ما اخترتُ بُعْدَك لكنَّ الزَّمان أتى ... كَرْهاً بما ليسَ يا محبوبُ محبوبي
أرجو إيابي إليكم ظافراً عَجِلاً ... فقد ظَفِرْتُ بنجم الدِّين أيوبِ
موفَّقُ الرأي ماضي العَزْم مُرْتَفِعٌ ... على الأعاجم مَجْداً والأعاريبِ
أحبَّك الله إذ لازَمْتَ نَجْدَتَه ... على جبينٍ بتاجِ الملك مَعْصُوبِ
أخوك وابنكَ صِدْقاً منهما اعتصما ... بالله والنَّصْرُ وَعْدٌ غيرُ مَكْذوبِ
هما همامانِ في يَوْمَيْ وغًى وقِرًى ... تعوَّدا ضَرْبَ هام أو عَرَاقِيبِ
غداً يَشُبَّان في الكُفَّارِ نار وَغًى ... بِلَفْحِها يُصْبِحُ الشُّبَّان كالشِّيبِ
بمُلك مِصْرَ ونَصْرِ المؤمنين غداً ... تحظَى النُّفوسُ بتأنيسٍ وتَطْييبِ
ويستقرُّ بمصر يوسفٌ وبه ... تَقَرُّ بعد التَّنائي عَيْنُ يَعْقُوبِ
ويلتقي يوسفٌ فيها بإخوتِهِ ... والله يجمَعُهُمْ مِنْ غَيْرِ تَثْرِيبِ

وكان إنشاده هذه القصيدة في آخر شوَّال سنة اثنتين وستين، وتمَّ ملكهم مصر بعد سنتين قال: فنظمتُ ما في الغيبِ تقديره.

قال: وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرَّمْل في النِّصف من ربيع الأول، ووصل في سادس ربيع الآخر إلى إطْفِيح وعبر منها إلى الجانب الغَرْبي، وأناخ بالجِيزة محاذاة مصر، فأقام عليها نيفاً وخمسين يوماً. واستعان شاور بالفرنج ورتَّبوا لهم سوقاً بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشَّرْقية إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم، فالتقوا بموضع يُعرف بالبابَيْن، فكسرهم أسد الدين وأصحابه، وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفاً، وحصل منهم في الإسار سبعون فارساً من بارونيَّتهم. فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الإسكندرية، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها. ثم قال أسد الدين: أنا لا يمكنني أن أحصرَ نفسي. فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصَّعيد فاستولى عليها، وجبى خَراجَها. وأقام صلاح الدين بالإسكندرية، فسار إليه شاوَر والفرنج،

(١) ذكر ياقوت في معجم الأدباء ١٩/ ١٣، بعض الأبيات من القصيدة.

فحاصروه أربعة أشهر، وصَدَقَ أهلُ الإسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بِقُوص، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص. فسمع الفرنجُ أنه جاء يقصدهم، فرحلوا عن الحصار. وكان شاور قد استمال جماعةً من التركمان الذين مع أسد الدين بالذَّهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عِوَضَ ما غَرِمَهُ، فبذلوا له خمسين ألف دينار، فخرجوا من الإسكندرية في النِّصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القَعْدة، وعادوا إلى الخدمة النُّورية.

فاجتمع العمادُ بأسد الدين، وأنشده هذه القصيدة: [البسيط]

بَلَغْتَ بالجدِّ ما لا يبلُغُ البَشَرُ ... ونِلْتَ ما عَجَزَتْ عن نَيْلِهِ القُدَرُ
مَنْ يَهْتَدِي للذي أنتَ اهتديتَ له ... ومَنْ له مِثْلَ ما أَثَرْتَهُ أَثَرُ
أسِرتَ أم بِسُراكَ الأرضُ قد طُوِيَتْ ... فأنتَ إسكندرٌ في السَّيْرِ أم خَضِرُ
أوْرَدْتَ خيلاً بأقصى النِّيلِ صادِرَةً ... عن الفُراتِ يقاضي وِرْدَها الصَّدَرُ
تناقَلَتْ ذِكْرَكَ الدُّنيا فليسَ لها ... إلا حديثُكَ ما بين الوَرَى سَمَرُ
فأنتَ مَنْ زانَتِ الأيام سِيرَتُهُ ... وزادَ فوقَ الذي جاءت به السِّيَرُ
لو في زمانِ رسولِ الله كنتَ أتَتْ ... في هذه السِّيرَةِ المحمودةِ السُّوَرُ
أصْبَحْتَ بالعَدْلِ والإقدامِ مُنْفَرِداً ... فقل لنا: أعليٌّ أنتَ أم عُمَرُ
إسكندرٌ ذكروا أخبارَ حِكْمَتِهِ ... ونحنُ فيكَ رأينا كُلَّ ما ذَكَرُوا
ورُسْتُمٌ خَبَّرُونا عن شجاعَتِهِ ... وصارَ فيكَ عِياناً ذلك الخَبَرُ
إفْخَرْ فإنَّ ملوكَ الأرضِ أذهلَهم ... ما قد فَعَلْتَ فكلٌّ فيك مُفْتكِرُ
سَهِرْتَ إذْ رَقَدُوا بل هِجْتَ إذ سَكَنُوا ... وصُلْتَ إذ جَبُنُوا بل طُلت إذ قَصُروا
يَسْتَعْظِمونَ الذي أَدْرَكْتَهُ عَجَباً ... وذاك في جَنْبِ ما نرجوه مُحْتَقَرُ
قضى القضاءُ بما نرجوه عن كَثَبٍ ... حَتْماً ووافقك التَّوفيقُ والقَدَرُ
شَكَتْ خيولُكَ إدمانَ السُّرى وشكت ... من فَلِّها البيضُ بل من حَطْمِها السُّمُرُ[1]
يَسَّرْتَ فَتْحَ بلادٍ كان أيْسَرُها ... لغيرِ رأيك قُفْلاً فَتْحُهُ عَسِرُ
قَرَنْتَ بالحَزْمِ منك العَزْمَ فاتَّسَقَتْ ... مآربٌ لك عنها أسْفَرَ السَّفَرُ
ومَنْ يكونُ بنورِ الدين مُهْتَدِياً ... في أَمْرِهِ كيفَ لا يقوى له المِرَرُ
يرى برأيك ما في المُلك يُبْرِمُه ... فأنتَ منه بحيث السَّمْعُ والبَصَرُ
لقد بَغَتْ فئةُ الإفرنجِ فانْتَصَفَتْ ... منها بإقدامك الهِنْدِيَّةُ البُتُرُ

(١) البيض: السيوف، والسمر: الرماح.

Marfat.com

غَرَسْتَ في أرض مِصْرٍ من جُسُومِهِمُ ... أشجارَ خَطٍّ لها من هامهم ثَمَرُ[١]
وسالَ بحرُ نجيعٍ في مقام وغًى ... به الحديدُ غَمَامٌ والدَّمُ المَطَرُ[٢]
أنهرتَ منهم دماءً بالصَّعيد جَرَى ... منها إلى النِّيلِ في واديهمُ نَهَرُ[٣]
رأوا إليكَ عبورَ النِّيل إذ عَدِمُوا ... نَصْراً فما عَبَرُوا حتى قد اعْتَبرُوا
تحتَ الصَّوارِم هامُ المشركين كما ... تحتَ الصَّوالج يوماً خفَّتِ الأُكَرُ[٤]
أَفْنَتْ سيوفُك من لاقَتْ فإنْ تركت ... قوماً فَهُمْ نَفَرٌ من قبلها نَفَرُوا
لم يَنْجُ إلا الذي عافَتْهُ من خَبَثٍ ... وَحْشُ الفلا وهو للمَخْذُورِ مُنْتَظِرُ
والسَّاكنونَ القصورَ القاهريةَ قد ... نادَى القُصُورُ عليهم أنهم قُهِرُوا
وشاورٌ شاوروه في مكايِدِهِمْ ... فكادَه الكيدُ لما خانَهُ الحَذَرُ
كانوا من الرُّعبِ موتى في جُلُودِهم ... وحينَ أَمَّنْتَهُم من خَوْفِهِم نُشِرُوا
وإنَّ من شِيركُوه الشِّرْكَ مُنْخَزِلٌ ... والكُفْرَ مُنْخَذِلٌ والدِّينَ مُنْتَصِرُ
عَوْل على فئةٍ عند اللِّقاء وَفَتْ ... وَعَدٌ عن تركمانٍ قَبْلَه غَدَرُوا
وكيفَ يُخْذَلُ جيشٌ أنتَ مالِكُهُ ... والقائدانِ له التأييدُ والظَّفَرُ
أجابَ فيك إله الخلق دَعْوَةَ مَنْ ... يطيبُ باللَّيْلِ من أنفاسِهِ السَّحَرُ

قال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين ابن أخيه مودَّة، تمت لي بها على الزمان عُدَّة؛ ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميلُ إلى شِعْري. فأول ما خدمتُه به هذه الكلمة[٥]: [الخفيف]

كيفَ قُلْتُمْ بِمُقْلَتَيْهِ فُتُورُ ... وأراها بلا فُتُورٍ تَجُورُ
مستجيزٌ جَوْري وإنِّيَ منه ... يا ابنَ أيوبَ يوسفٍ مستجيرُ
فَضْلُهُ في يدِ الزَّمانِ سِوَارٌ ... مِثْلَما رَايُهُ على المُلْكِ سُورُ
كرمٌ سابغٌ وجُودٌ عميمٌ ... ونَدًى سائغٌ وفَضْلٌ غزيرُ
أنتَ مَنْ لم يَزَلْ يَحِنُّ إليه ... وهو في المَهْدِ سَرْجُه والسَّريرُ
من دَم الغادرينَ غادَرْتَ بالأمـ ... ـسِ صعيدَ الصَّعيدِ وهو غديرُ

(١) خط: بلد في نواحي البحرين وعمان، تنسب إليها الرماح الخطية.
(٢) بحر نجيع: أي بحر من دم.
(٣) أنهرت: أي أسلت.
(٤) الأُكَرُ: جمع أكرة، وهي الكرة.
(٥) القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٤ ـ ٤٠.

Marfat.com

ولكلٍّ مما تطاولتَ فيهمْ أملٌ قاصِرٌ وعُمْرٌ قَصيرُ
لاذَ بالنِّيلِ شاوَرٌ مِثْلَ فِرْعَوْ نَ فذلَّ اللاجي وعَزَّ العَبُورُ
شاركَ المشركينَ بغياً وقِدْماً شارَكَتْهَا قُرَيظةٌ والنَّضِيرُ
والذي يدَّعي الإمامةَ بالقا هِرةِ ارتاعَ إنَّهُ مَقْهُورُ
وغدا المَلْكُ خائفاً من سُطاكم ذا ارتعادٍ كأنَّهُ مَقْرُورُ
وبنو الهفري[1] هانوا ففرُّوا ومِنَ الأُسْدِ كلُّ كلْبٍ فَرُورُ
إنّما كان للكلابِ عُواءٌ حيثُ ما كان للأسودِ زَئِيرُ
وفِليبٌ[2] عند الفِرارِ سليبٌ فَهْو بالرُّعْبِ مُطْلَقٌ مأسُورُ
لم يبقُّوا سوى الأصاغرِ للسبـ ـي فودُّوا أن الكبيرَ صغيرُ
وَحَمَيْتَ الإسكندريةَ عَنْهُمْ ورَحى حَزْبِهِمْ عليهم تَدُورُ
حاصَرُوها وما الذي بانَ من ذَبْـ (م) ـكَ عنها وحِفْظُها مَحْصُورُ
كَحِصَارِ الأحزاب طَيْبَةَ قِدْماً ونبيُّ الهُدَى بها مَنْصُورُ
فاشكرِ اللّهَ حينَ أولاكَ نَصْراً فهو نِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصِيرُ
ولكَمْ أَرْجَفَ الأعادي فَقُلْنَا ما لِما تَذْكُرونَهُ تَأْثِيرُ
ورَقَبْنا كالعيدِ عَوْدَكَ فاليو مَ به للأنامِ عِيدٌ كبيرُ
عادَ من مِصْرَ يوسفٌ وإلى يعـ ـقوبَ بالتهنئاتِ جاءَ البَشِيرُ
فلأيوبَ من إيابِ صلاحِ الدِّ (م) ـين يومٌ به توفَّى النُّذُورُ
ولكُمْ عَوْدَةٌ إلى مِصْرَ بالنَّصْـ ـرِ على ذكرها تمرُّ العصورُ
فاسْتَرِدُّوا حَقَّ الإمامةِ ممن خانَ فيها فإنَّه مُسْتَعِيرُ
وافْتَرِعها بِكْراً لها بمدى الدَّهْـ ـرِ رَوَاحٌ في مَدْحِكُمْ وبُكُورُ
أنا سَيَّرْتُ طالعَ العَزْمِ مني وإلى قَصْدِكَ انتهى التَّسْيِيرُ
وأرى خاطري لِمَدْحِكَ إلْفاً إنما يألفُ الخطيرَ الخطيرُ

وهي والتي قبلها طويلتان جداً. فانتظمت معرفةُ العماد بصلاح الدين، وكان له مساعداً عند نور الدين.

---

(١) الهفري: لعله ابن الهنفري صاحب بانياس والكرك. سيأتي ذكره في هذا الجزء.
(٢) فليب: هو فيليب ميللي، كان إقطاعه شرقي الأردن، ثم أصبح مقدم الداوية، ثم استعفى وأصبح سفيراً للملك أملريك في القسطنطينية (تاريخ الحروب الصليبية لرنسيمان الترجمة العربية ٢/ ٥٤٠، ٥٨٠، ٦٣١).

Marfat.com

وقرأت في «ديوان العرقلة»: وقال يمدح أسد الدين شِيركُوه، وقد أخذ الشَّقيف، ورحل طالباً حِصْناً يقال له العُراق[١]: [الوافر]

رَحَلْتَ من الشَّقِيفِ إلى العُراق ... بعزم كالمهنَّدَةِ الرِّقاقِ
ونَكَّسْتَ الأعادي منه قَهراً ... ومَجْدُك في ذُرَا الجَوْزَاءِ باقي
بجأشك لا بِجَيْشِكَ نِلْتَ هذا ... وبالتَّوفيقِ لا بالاتِّفاقِ
فداؤكَ مَنْ مَضى بالحِصْنِ قبلي ... إلى دارِ الخُلُودِ من الرِّفاقِ
وما نخشى على الإسلام بُؤساً ... إذا هَلَكَ الجميعُ وأنتَ باقي
أشاوِرُ كَمْ تُشاوِرُ كَلَّ خِبٍّ ... وتَنْفُقُ عِنْدَ مِثْلِكَ بالنِّفَاقِ
أتَصْبِرُ إن أتتك بحارُ خَيْلٍ ... وقِدْماً ما صَبَرْتَ على السَّواقي
متى رَفَعَتْ لك السُّودانُ رَأْساً ... وقد خلَّاهُمُ مِثْلَ الزِّقاقِ
وعَيْشِكَ ما له من مِصْرَ بُدٌّ ... ومِنْ عندي ثلاثاً بالطَّلاقِ
هو الأَسَدُ الذي ما زال حتى ... بنى مَجْداً على السَّبْعِ الطِّباقِ

فصل

[اجتماع قطب الدين ونور الدين على غزو الفرنج، وتخريب قلعة جبلة وفتح العريمة وصافيتا]

قال ابن الأثير[٢]: وفي هذه السَّنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلبُ أن يعبُرَ الفُرَاتَ إليه بعساكره، فتجهَّز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة، فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلادَ الفرنج، واجتاز على حِصْن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عِرْقَة، ونزلوا عليها وحَصَرُوها، وحصروا جَبَلة، وأخربوها. وتوجَّهَتْ عساكرُ المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العُرَيمة وصافيثا. وعاد إلى حمص، فصام بها شهر رمضان. ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هُونِين، وهي للفرنج أيضاً، من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنجُ عنها وأحرقوها، فقصدَها نور الدين فوصلها من الغد، وخرَّب سورَها جميعَهُ، وأراد الدخول إلى بيروت

(١) الأبيات في ديوان عرقلة الكلبي ص٦٨ ـ ٦٩.
(٢) انظر الخبر في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥ ـ ٦.

Marfat.com

فتجدَّد في العسكر خُلْفٌ أوجب التفرُّق، فعاد. وسار قطب الدين إلى المَوْصل وأقطعه مدينة الرَّقَّة، فأخذها في طريقه.

[عصيان الأمير غازي ابن حسان صاحب منبج على نور الدين]

قال[١]: وفي هذه السنة عصى الأميرُ غازي بن حَسَّان المَنْبِجي صاحب مَنْبج على نور الدين، وهو كان أقطعَه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حَصَروه بها، وأخذها منه، وأقطعها أخاه قطب الدين يَنَال بن حَسَّان، وكان عاقلاً خَيِّراً، حَسَن السِّيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين كما سيأتي.

[وفاة الشاعر الرشيد أحمد بن علي بن الزبير]

وفي هذه السنة توفي القاضي الرَّشيد أحمد بن علي بن الزُّبير[٢] صاحب كتاب «الجنان»[٣].

قال العماد في «الخريدة»[٤]: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاوَر صبراً في سنة اثنتين وستين[٥]، ونُسب إليه أنه شارك أسد الدين شِيركُوه في قَصْده.

وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزُّبير[٦] أشعر منه وتوفي قبله

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٦ ـ ٧.

(٢) هو القاضي الرشيد أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني، الشهير بالقاضي الرشيد المصري، توفي سنة ٥٦٣هـ (كذا في كشف الظنون) مصلوباً بمصر. له من المصنفات: «أمنية الألمعي ومنية المدعي»، «تاريخ أسوان»، «جنان الجنان ورياض الأذهان» في شعراء مصر، «ديوان شعره»، «شفاء العلة في سمت القبلة»، «تذكرة أهل الألباب في استيفاء العمل بالاسطرلاب»، (كشف الظنون ٥/ ٨٦، معجم الأدباء ٤/ ٥١ ـ ٦٦، وفيات الأعيان ١/ ١٦٠ ـ ١٦٤، الطالع السعيد ص٩٨ ـ ١٠٢).

(٣) هو كتاب «جنان الجنان ورياض الأذهان» في شعراء مصر، ذيل به على يتيمة الدهر للثعالبي، (كشف الظنون ١/ ٦٠٦).

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٥) في كشف الظنون ٥/ ٨٦، ووفيات الأعيان ١/ ١٦١، أنه صلب سنة ٥٦٣هـ.

(٦) هو الحسن بن أبي الحسن علي ابن القاضي الرشيد إبراهيم بن الحسين بن الزبير الغساني، أبو محمد الأسواني (وليس كما ذكر المؤلف أنه أبو علي) المصري المعروف بالقاضي المهذب، توفي سنة ٥٦١هـ. من تصانيفه: «تفسير القرآن» في خمسين جزءاً، «ديوان شعره»، «كتاب الأنساب»، (كشف الظنون ٥/ ٢٧٩، «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٠٤ ـ ٢٢٥، معجم الأدباء ٩/ ٤٧ ـ ٧٠، وفيات الأعيان ١/ ١٦١، فوات الوفيات ١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤، الطالع السعيد ص١٩٤ ـ ٢٠٣).

بسنة، ولم يكن في زمانه أشعر منه أحدٌ، وله شِعْرٌ كثير، منه قصيدةٌ غَرّاء في مدح الصالح بن رُزِّيك، وذكر فيها نور الدين، أولها[١]: [الكامل]

أَعَلِمْتَ حينَ تَجاوَر الحَيَّان ... أَنَّ القُلُوبَ مواقِدُ النِّيرانِ
يا كاسِرَ الأصنام قُمْ فانهضْ بنا ... حتى تصير مُكَسِّرَ الصُّلْبانِ
فالشَّامُ مُلْكُكَ قد وَرِثْتَ بلادَه[٢] ... عن قَوْمِكَ الماضينَ من غَسَّانِ
وإذا شَكَكْتَ بأنَّها أوطانُهُمْ ... قِدْماً فَسَلْ عن حارِثِ الجَوْلانِ
أو رُمْتَ أن تتلو محاسنَ ذِكْرِهِمْ ... فاسْنُدْ روايتَها إلى حَسَّانِ[٣]
ما زُلْزِلَتْ أرضُ العِدَى بل ذاك ما ... بقلوبِ أهليها من الخَفَقانِ
وأقولُ إنَّ حُصُونَهُمْ سَجَدَتْ لما ... أُوتيتَ من مُلْكٍ ومن سُلْطانِ
ولقد بَعَثْتَ إلى الفرنجِ كتائباً ... كالأُسْدِ حين تصول في خَفّان[٤]
لَبِسُوا الدُّروعَ ولم نَخَلْ مِنْ قبلهم ... أنَّ البحارَ تَحُلُّ في غُدْرانِ
عَجَّلْتَ في تلِّ العَجُولِ قِرَاهُمُ ... ـ وهُمُ لك الضِّيفان ـ بالذُّيفان[٥]
وثَلَلْتَ في يومِ العريشِ عُروشَهُمْ ... بشَبَا ضِرابٍ صادقٍ وطِعَانِ
أَلْجَأْتَهُمْ للبَحْرِ لمَّا أنْ جَرَى ... مِنْهُ ومِنْ دَمِهِم معاً بَحْرَانِ
ولقد أتى الأُسطولُ حينَ غزا بما ... لم يأتِ في حينٍ من الأحيانِ
وأَعَدْتَ رُسْلَ ابنِ القسيم إليه في ... شعبانَ كي يتلاءمَ الشَّعْبانِ[٦]
والفالُ يشهدُ في اسمه أنْ سوفَ يَغْـ ... ـدُو الشَّامُ وهو عليكما قِسْمَانُ
وأراك من بعد الشَّهيدِ أباً له ... وجَعَلْتَهُ من أقربِ الإخوانِ
وهو الذي ما زالَ يفعلُ في العِدَى ... ما لم يَكُنْ لِيُعَدَّ في الإمكانِ
قَتَلَ البِرِنْسَ ومَنْ عساه أعانه ... لمَّا عَسَا في البَغْيِ والعُدْوانِ[٧]
وأرى البَرِيَّةَ حين عادَ برأسه ... مُرَّ الجَنَى يبدو على المُرَّانِ[٨]

---

(١) ذكر في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٠٩ ـ ٢١٢، مختارات من القصيدة.
(٢) في «خريدة القصر»: «ورثت تراثه» بدل: «ورثت بلاده».
(٣) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه، الصحابي الجليل وشاعر رسول الله ﷺ.
(٤) خفان: مأسدة مشهورة.
(٥) الذيفان: السم الناقع.
(٦) ابن القسيم: هو نور الدين زنكي ابن قسيم الدولة آق سنقر التركي. وقسيم الدولة لقب أبيه وجده.
(٧) عسا: أي عتى.
(٨) المرّان: هي الرماح الصلبة اللدنة.

وتعجَّبوا من زُرقَةٍ في طَرْفِهِ ... وكأنَّ فوقَ الرُّمحِ نَصْلاً ثاني
عَجَباً لِجُودِ يَدَيْهِ إذْ يبني العُلا ... والسَّيْلُ يَهدِمُ ثابتَ الأركانِ
قَلَّدْتَ أعناقَ البَرِيَّة كلَّها ... مِنَناً تحمَّل ثِقْلَها الثَّقَلانِ
حتى تَساوى النَّاسُ فيكَ وأصبحَ الـ ... ـقاصي بمنزلةِ القَريبِ الدَّاني

[تعريف القاضي الشهرزوري لنور الدين بالعماد الكاتب]

وفي هذه السنة ذكر القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري للسُّلْطان نور الدين رحمه الله تعالى حال العماد الكاتب وعَرَّفه به، وعرضَ عليه قصيدةً له في مدحه، مطلعها: [الرجز]

لو حُفِظَتْ يومَ النَّوى عهودُها ... ما مُطلت بوَصْلِكُمْ وعودُها
محمد يحمد عيش بلدة ... مالكُها بِعَدْلِهِ محمودُها
مُؤَيَّدٌ أمورَه بِعَزْمَةٍ ... من السَّموات العُلا تأييدُها
آثارُه حميدةٌ وإنما ... للمَرْءِ من آثارِهِ حميدُها
إنَّ الورَى بحبِّه وبُغْضِهِ ... يُعْرَفُ من شَقِيُّها سعيدُها
قد جاءكم نورٌ مِنَ الله فَمَنْ ... به اهتدَى فإنَّه رشيدُها
جلا ظلامَ الظُّلْمِ نورُ الدين عن ... أرض الشَّآم فله تحميدُها
إنَّ الرَّعايا منه في رعايةٍ ... ونعمةٍ مُسْتَوجَبٌ مزيدُها
لنومِها يَسْهَرُ بل لأمنِها ... يخاف بَل يخصبها بجودها
بالدِّينِ والملك له قيامُه ... وللملوك عنهما قُعُودُها
وَدَأْبُهُ ثَلْمُ ثُغُورِ الكُفْرِ لا ... لَثْمُ ثُغُورٍ ناقعٌ برودُها
قد أَسْبَغَ اللَّهُ لنا بِعَدْلِهِ ... ظلالَ أمنٍ وارفٌ مَدِيدُها
غدا ملوكُ الرُّومِ في دَوْلَتِهِ ... وَهُمْ على رَغْمِهِمُ عَبيدُها
لما أَبَتْ هاماتُهم سجودَها ... لله أضحى للظُّبَى سُجُودُها
إنْ فارَقَتْ سيوفُهُ غُمودَها ... فإنَّ هاماتِهِمْ غُمُودُها
كم مُغْلَقَاتٍ من حُصُونِ عَزْمِه ... مِفْتاحُها وسَيْفُهُ إقليدُها
قد وَدَّتِ الفرنجُ لو فرَّتْ نَجَتْ ... منك ولكنْ رَوْعُها مبيدُها
قَهَرْتَها حتى لودَّ حيُّها ... من ذِلَّةٍ لو أنَّه فقيدُها
أماتَها رُعْبُكَ في حُصُونِها ... كأنَّما حُصُونُها لُحُودُها
وإنَّ مِصْراً لك تَغْنُو بعدَما ... لسيفِكَ العَضْبِ عَنَا صَعِيدُها

Marfat.com

والـمِـلَّـةُ الـغَـرَّاءُ خـالٍ بـالُـهـا ... عـالٍ سَـنَـاهـا بـكَ حـالٍ جِـيـدُهـا
مُـفْـتَـرَّةٌ ثـغـورُهـا مـمـنـوعـةٌ ... ثُـغُـورُهـا مـحـفـوظـةٌ حـدودُهـا
وإنْ بـغـى جـالـوتُـهـا ضـلالـةً ... فـأنـتَ فـي إهـلاكِـهِ داودُهـا
يـا ابـنَ قـسـيـم الـدولـة الـمَـلْـك الـذي ... خـرَّتْ لـه مِـنَ الـمُـلُـوكِ صِـيـدُهـا
دَعِ الـعِـدَى بَـغـيـظـهـا فـإنَّـمـا ... تـذيـبُ أكـبـادَ الـعِـدَى حُـقُـودُهـا
يـا دولـةً نـوريـةً أَمْـنُ الـورى ... وخِـصْـبُـهـا وَجـودُهـا وُجـودُهـا
مـا مَـثَـلُ الـدُّنـيـا لـمـن يَـجـمـعُـهـا ... بـالـحِـرْصِ إلا قَـزَّةٌ ودُودُهـا
أنـتَ الـذي تَـرْفُـضُـهـا عـن قُـدْرَةٍ ... فـلا يـشـوبُ زُهْـدَه زهـيـدُهـا
فـابـقَ لـنـا يـا مـلـكـاً بـقـاؤه ... فـي كـلِّ عـامٍ لـلـرَّعـايـا عِـيـدُهـا
فـي نـعـمـةٍ جـديـدةٍ سُـعُـودُهـا ... ودولـةٍ سـعـيـدةٍ جُـدُودُهـا

وهي طويلة. فرتَّبه نور الدين في ديوانه منشئاً لاستقبال سنة ثلاث وستين.

قال: ووجدتُ على الأيام منه الإعزاز والتمكين.

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو اليُسْر شاكر بن عبد الله[1] من الخدمة في كتابة الإنشاء وقعد في بيته. كذا ذكر العماد في «الخريدة».

وقال: تولى ديوان الإنشاء بالشَّام سنين كثيرة، وله مقاصد حَسَنة في الكتب، وهو حميد السيرة، جميل السَّريرة.

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد السَّمْعاني المَرْوَزِي[2] رحمه الله تعالى.

---

(١) أبو اليسر شاكر بن عبد الله: هو من بيت أبي العلاء المعري، الشاعر الفيلسوف المشهور، ولد في شيزر سنة ٤٩٦هـ. وتولى كتابة الإنشاء لعماد الدين زنكي، ثم من بعده لابنه نور الدين، وتوفي بدمشق سنة ٥٨١هـ، («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٥ ـ ٣٧)، معجم الأدباء ٣/ ١١٦، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٤٥، الوافي بالوفيات ١٦/ ٨٥ ـ ٨٧، فوات الوفيات ٢/ ٩٦).

(٢) هو عبد الكريم بن أبي بكر محمد بن المنصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تاج الإسلام، الحافظ أبو سعد، المروزي الشافعي، ولد سنة ٥٠٦هـ، وتوفي سنة ٥٦٢هـ. من تصانيفه: «الأخطار في ركوب البحار»، «أدب الطلب»، «الأدب في استعمال الحسب»، «الإسفار عن الأسفار»، «الارتياب عن كتابة الكتاب»، «أفانين البساتين»، «أمالي الخمسمائة»، «الإملاء والاستملاء» «الأنساب»، «بغية المشتاق إلى ساكني العراق»، «تاريخ مرو»، «التحايا والهدايا»، «التحبير في المعجم الكبير»، «التحف والهدايا»، «تحفة العيدين»، «تحفة المسافر»، «تاريخ الوفاة للمتأخرين من الرواة»، «التذكرة والتبصرة»، «تقديم الخفان إلى الضيفان»، «حث الإمام على تخفيف الصلاة مع الإتمام»، «الحث على =

Marfat.com

[قضاء نور الدين الشتاء في قلعة حلب]
ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أنَّ نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حَماة، ثم شتَّى بقلعة حلب ومعه الأسد والصَّلاح. ونزل العماد بمدرسة ابن العَجَمي، وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد عَثَرَ فرسه في المَيْدَان وهو يلعب بالكُرَة[1] مع نور الدين رحمه الله تعالى: [الكامل]

لا تُنْكِرَنَّ لسابحٍ عَثَرَتْ به ... قَدَمٌ وقد حَمَلَ الخِضَمَّ الزَّاخِرا
ألقى على السُّلْطانِ طِرْفُك طَرْفَهُ ... فهوى هنالك للسَّلام مُبَادِرا[2]
سَبَقَ الرِّياحَ بجريه وكَفَفْتَهُ ... عنها فليسَ على خِلافِك قادِرا
ضَعُفَتْ قواه إذ تذكَّرَ أنه ... في السَّرْج منك يُقلُّ ليثاً خادِرا
ومتى تُطيق الرِّيحُ طوداً شامخاً ... أو يستطيعُ البَرْقُ جَوْناً ماطِرا
فاعذرْ سقوطَ البَرْقِ عند مَسِيره ... فالبَرْقُ يَسْقُطُ حينَ يَخْطَفُ سائرا
وأقِلْ جوادَك عَثْرَةً نَدَرَتْ له ... إن الجوادَ لَمَن يُقيلُ العاثِرا
وتوقَّ من عينِ الحسودِ وشَرِّها ... لا كان ناظِرُها بسوءٍ ناظرا
واسلمْ لنورِ الدين سُلْطانِ الورى ... في الحادثات مُعَاضِداً ومؤازِرا
وإذا صلاحُ الدين دامَ لأهله ... لم يحذروا للدَّهْرِ صَرْفاً ضائرا

= غسل اليد»، «دخول الحمام»، «الدعوات الكبيرة»، «الدعوات المروية عن الحضرة النبوية»، «ذكرى حبيب يرحل وبشرى منيب ينزل»، «ذيل تاريخ بغداد للخطيب»، «الربح والخسارة في الكسب والتجارة»، «رسائل الوسائل»، «رفع الارتياب عن كتابة الكتاب»، «سلوة الأحباب ورحمة الأصحاب»، «السد والعد لمن اكتنى بأبي سعد»، «الصدق في الصداقة»، «طراز الذهب في أدب الطلب»، «عز العزلة»، «فرط الغرام إلى ساكني الشام»، «فضل الديك»، «فضل صلاة التسابيح»، «فوائد الموائد»، «فضائل سورة يس»، «فضائل الشام»، «كتاب الحلاوة»، «كتاب التحبير في المعجم الكبير»، «كتاب في صوم أيام البيض»، «كتاب المساواة والمصافحة»، «المجير الكبير»، «معجم البلدان»، «معجم الشيوخ»، «مقام العلماء بين يدي الأمراء»، «مناسك الحج»، «النزوع إلى الأوطان»، «الهريسة» (كشف الظنون ٥/ ٦٠٨ ـ ٦٠٩، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٥٦ ـ ٤٦٥).

(١) الكرة: هي لعبة، وهي عبارة عن كرة تضرب بالجوكان، وهو المحجن، عصا معوجة كالصولجان. انظر صبح الأعشى ٥/ ٤٣٠.

(٢) الطِّرْف من الخيل: (بكسر الطاء المشددة وسكون الراء): العتيق الكريم.

Marfat.com

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون[١] مكاتبات، كتب إليه العماد: [المتقارب]

أيا شَرَفَ الدِّين إن الشتا ... بكافاتِهِ كفُّ آفاتِهِ
وكفُّك من كَرَمٍ كافُها ... لقد كُفِلَتْ لي بكافاتِهِ
وإنك مِنْ عُرْفِهِ شكرُنا ... غدا عاجزاً عن مكافاته[٢]

قال: فكتب إليَّ شرف الدين في جوابها: [المتقارب]

إذا ما الشتاءُ وأمطارُه ... عن الخيرِ حابسةٌ رادِعَهْ
فكافاتُهُ الستُّ أُعْطِيتَها ... وحوشيتَ من كافه الرَّابِعَهْ
وكفُّ المهابة والاحتشام ... لكفِّيَ عن بِرِّه مانِعَهْ
وَهِمَّةُ كُلِّ كريم النِّجار ... بميسورِ أحبابه قانِعَهْ
ونفسيَ في بسط عُذْرِي إليه ... جُعِلْت الفِدَاءَ له طامِعَهْ
وشوقي إلى قُرْبِه زائِدٌ ... ومَعْذرتي إن جفا واسِعَهْ[٣]

قال: فكتبتُ إليه في جوابها: [المتقارب]

أيا من له هِمَّةٌ في العُلا ... لِذُرْوتها أبداً فارِعَهْ
ومَنْ كَفُّهُ دِيمةٌ ما تزا ... لُ بالعُرْفِ هامِيةً هامِعَهْ
وللفَضْل في سوق أفضاله ... بضائعُ نافِقَةٌ نافِعَهْ
وهل كابنِ عَصْرونَ في عَصْرِنا ... إمامٌ أدِلَّتُهُ قاطِعَهْ
فَحَبْرٌ فوائِدُه جَمَّةٌ ... وبحرٌ موارِدُه واسِعَهْ
أيا شَرَفَ الدِّينِ شَرَّفْتَنِي ... بإهداءِ رائقةٍ رائِعَهْ
أطَعْتُ أوامرَك السَّاميات ... وما بَرِحَتْ هِمَّتي طائِعَهْ

---

(١) هو عبد الله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون التيمي الحديثي الموصلي الفقيه الشافعي، نزيل دمشق، ولد سنة ٤٩٢هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٥هـ، من تصانيفه: «إرشاد المغرب في نصرة المذهب»، «الانتصار لمذهب الشافعي»، «التنبيه في معرفة الأحكام»، «تيسير في الخلاف»، «الذريعة إلى معرفة الشريعة»، «رسالة في نفي قضاء الأعمى وجوازه»، «صفوة المذهب من نهاية المطلب لإمام الحرمين»، «فتاوى»، «فوائد المهذب»، «مأخذ النظر» مختصر في الفرائض، «مرشد في الفروع»، «مسلسلات» في الحديث، «الموافق والمخالف»، (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨).

(٢) العرف: الكرم والجود.

(٣) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٥٣.

Marfat.com

أرى كـلَّ جـارحـةٍ لـي تـودُّ (م) لـو أنَّـهـا أُذُنٌ سـامِـعَـهْ
وأمـا الـشُّـتـاءُ وكـافَـاتُـهُ وكـفُّـكَ عـن كـافـه الـرَّابِـعَـهْ
فـنـفـسـي مُـنَـزَّهَـةٌ بـالـعـفـا فِ عـنـهـا وفـي غـيـرِهـا طـامِـعَـهْ
ومـاذا تُـطـيـقُ إذا لـم تـكـن بـمـيـسـورِ سـيـدِنـا قـانِـعَـهْ

وهي أكثر من هذا.

[توجه نور الدين إلى منبج لتهذيب أحوالها]

قال: وكان ابن حَسَّان[1] صاحب مَنْبِج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين مَنْ حاصره وانتزعها منه، ثم توجَّه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها، ومدحه العماد بقصيدةٍ، منها: [الكامل]

بُشْرَى الـمـمـالـك فَـتْـحُ قَـلْـعَـةِ مَـنْـبـج فـلْـيَـهْـنِ هـذا الـنَّـصْـرُ كـلَّ مـتـوَّجِ
أُعـطـيـتَ هـذا الـفَـتْـحَ مِـفْـتـاحـاً بـه فـي الـمـلـك يَـفْـتَـحُ كـلَّ بـابٍ مُـرْتَـجِ
وافـى يُـبَـشِّـرُ بـالـفُـتُـوحِ وراءه فـانـهـضْ إلـيـهـا بـالـجـيـوش وعَـرِّجِ
أبـشِـرْ فـبـيـتُ الـقُـدْسِ يـتـلـو مَـنْـبِـجـاً ولَـمَـنْـبِـجٌ لـسـواه كـالأُنـمـوذَجِ
مـا أعـجـزَتْـكَ الـشُّـهْـبُ فـي أبـراجِـهـا طـلـبـاً فـكـيـف خـوارجٌ فـي أَبْـرُجِ
ولَـقَـدْرُ مَـنْ يـعـصـيـك أحـقـر أن يَـرَى أثَـرَ الـعُـبُـوسِ بـوجـهِـكَ الـمُـتَـبَـلِّـجِ
لـكـن تـهـذِّبُ مَـنْ عَـصَـاكَ سـيـاسـةً فـي ضِـمْـنِـهـا تـقـويـمُ كـلِّ مُـعَـوَّجِ
فـانْـهَـدْ إلـى الـبـيـتِ الـمُـقَـدَّس غـازيـاً وعـلـى طَـرَابُـلُـسٍ ونـابُـلُـسٍ عُـجِ
قـد سِـرْتَ فـي الإسـلام أَحْـسَـنَ سِـيـرَةٍ مـأثـورةٍ وسَـلَـكْـتَ أوْضَـحَ مَـنْـهَـجِ
وجـمـيـع مـا اسـتـقـريـتَ مـن سُـنَـنِ الـهُـدَى جَـدَّدْتَ مـنـه كـلَّ رسـمٍ مُـنْـهَـجِ[2]

[سير نور الدين من منبج إلى قلعة نجم على الفرات]

قال العماد: وسار نور الدين من مَنْبِج إلى قلعة نجم[3]، وعَبَرَ الفُرَات إلى الرُّها، وكان بها يَنَال صاحب مَنْبِج، وهو سديد الرأي رشيد المنهج، فنقله إليها مُقْطعاً ووالياً. وأقام نور الدين بقلعة الرُّها مُدَّة، فمدحه العماد

---

(١) ابن حسان: هو الأمير غازي بن حسان المنجبي صاحب منبج، ذكره المؤلف قبل قليل.
(٢) المُنْهَج: أي الخلق والبالي.
(٣) قلعة نَجم: قلعة حصينة. بين منبج وحران، عندها جسر يعبر عليه، وهي المعروفة بجسر منبج (معجم البلدان ٤/ ٣٩١).

بقصيدة، وتحجّب له صلاح الدين في عَرْضها، وهي: [الكامل]

أَدْرَكْتَ من أمر الزَّمان المُشْتَهَى ... وبَلَغْتَ من نَيْلِ الأماني المُنْتَهَى
وبقِيتَ في كَنَفِ السَّلامةِ آمِناً ... متكرِّماً بالطَّبْعِ لا متكرِّها
لا زِلْتَ نورَ الدين في فَلَكِ الهُدَى ... ذا غُرَّةٍ للعالمينَ بها البَهَا
يا محييَ العَدْلِ الذي في ظِلِّه ... مِن عَدْله رَعَتِ الأسودُ مع المَهَا
محمودٌ المحمودُ مَنْ أيامُه ... لبهائها ضَحِكَ الزَّمانُ وقَهْقَها
مَولى الورى مُولي النَّدَى مُغْلي الهُدَى ... مُرْدي العِدَى مُسْدي الجَدَا مُعْطي اللُّها[1]
آراؤه بصوابِها مَقْرونةٌ ... وبمقتضاها دائرٌ فَلَكُ النُّهَى[2]
متلبِّسٌ بحصافةٍ وحَصَانةٍ ... متقدِّسٌ عن شَوْبِ مكرٍ أو دَهَا
يا مَنْ أطاعَ اللَّهَ في خَلَواته ... متأوِّباً مِنْ خَوْفِهِ مُتَأَوِّهَا
أبداً تقدَّمُ في المعاشِ لوجهه ... عملاً يُبَيِّضُ في المَعَادِ الأَوْجُها
كلُّ الأمور وَهَى وأمرُكَ مُبْرَمٌ ... مُسْتَحْكِمٌ لا نَقْضَ فيه ولا وها
ما صينَ عنك الصِّينُ لَوْ حاولتها ... والمشرقانِ فكيفَ مَنْبِجُ والرُّها
ما للملوكِ لدى ظهوركِ رَوْنَقٌ ... وإذا بَدَتْ شَمْسُ الضُّحى خفِيَ السُّها[3]
إنَّ الملوكَ لَهَوْا وإنك مَنْ غدا ... وبماله والمُلْكِ منه ما لَهَا
شَرِهَتْ نفوسُهُمُ إلى دنياهمُ ... وأبى لِنَفْسِك زُهْدُها أن تَشْرَها
ما نمتَ عن خَيْرٍ ولم يكُ نائماً ... مَنْ لا يزالُ على الجميل مُنَبِّها
أَخْمَلْتَ ذِكْرَ الجاهلينَ ولم تَزَلْ ... مَلِكاً بذِكْرِ العالمين مُنَوَّها
ورأيتَ إرعاءَ الرَّعايا واجباً ... تُغني فقيراً أو تجيرُ مُدَلَّها
لرضاهمُ متحفِّظاً ولحالهمْ ... مُتَفَقِّداً ولِدينِهِمْ مُتَفَقِّها
وبما به أَمَرَ الإلٰهُ أَمَرْتَهُمْ ... من طاعةٍ ونَهَيْتَهُم عَمَّا نَهَى
عن رحمةٍ لصغيرهم لم تَشْتَغِلْ ... عن رَأْفَةٍ لكبيرِهم لن تُشْدَها[4]
باليأس عندك آمِلٌ لم يُمتَحن ... بالرَّدِّ دونَكَ سائِلٌ لن يُجْبَهَا[5]

---

(١) الجدا واللُّها: كلاهما بمعنى العطية.
(٢) النُّهى: العقل.
(٣) السها: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى، يمتحن الناس به أبصارهم.
(٤) لن تشده: يقال: شَدَه فلاناً شدْهاً: أي أدهشه، وانشده: تحيّر، ويقصد بلن تشده: أي لن تشغل وتتحيّر.
(٥) لن يُجْبَها: أي لن ترد حاجته، وتستقبله بما يكره.

أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ كي تنالَ رفاهةً مَنْ ليسَ يتعبُ لا يعيش مرفَّها
فُقْتَ الملوكَ سماحةً وحماسةً حتى عَدِمْنا فيهمُ لكَ مُشْبِها
ولك الفَخَارُ على الجميعِ فدونَهُمْ أصبحتَ عن كلِّ العيوبِ مُنَزَّها
وأراكَ تحلُمُ حينَ تُضبِحُ ساخِطاً ويكادُ غيرُك ساخِطاً أن يَسْفَها

قلت: رحم الله العماد، فقد نظم أوصافَ نور الدين الجليلة بأحسن لفظٍ وأرقِّه، وهذا البيت الأخير مُؤكِّدٌ لما نقلناه في أول الكتاب من قول الحافظ أبي القاسم رحمه الله تعالى في وصف نور الدين رحمه الله تعالى، إنه لم يُستمع[1] منه كلمة فحشٍ في رضاه ولا في ضجره، وقلَّ من الملوك من له حظٌّ من هذه الأوصاف الفاضلة والنعوت الكاملة.

[عودة نور الدين إلى حلب]

قال العماد: ثم عاد نور الدين إلى حلب في شهر رجب، وضُرِبَتْ خيمتُه في رأس المَيْدَان الأخضر.

قال: وكان مولعاً بضرب الكُرة، وربما دَخَلَ الظَّلامُ فلعب بها بالشُّموع في الليلة المُسْفرة، ويركب صلاح الدين مذكراً[2] كل بُكْرة، وهو عارفٌ بآدابها في الخدمة، وشروطها المعتَبرة. وأقطعه في تلك السنة ضيعتين إحداهما من ضياع حلب، والأُخرى من ضياع كفر طاب.

قال: وكتبتُ إليه في طلب كَنْبُوش[3]: [الخفيف]

أَصْبَحَتْ بغلتي تشكَّى من العُرْ ي وأَسْرَاجُها بلا كَنْبُوشِ
قلتُ: كُفِّي فَخَيْرُ يومَيْكِ عندي أنْ تفوزي بالتِّبْنِ أو بالحشيشِ
وافرحي ليلة الشَّعيرِ كما يَفْـ ـرَحُ قَوْمٌ بليلةِ الماشوشِ[4]

---

(١) لم يستمع: كذا في الأصل، ولعلها: لم تُسْمع منه كلمة فحش.
(٢) المُذَكَّر من الخيل: الشديد القوي.
(٣) الكنبوش: قال القلقشندي في «صبح الأعشى» ٢/ ١٤٤: الكنبوش وهو ما يستر به مؤخر ظهر الفرس وكَفَلُه، وهو تارة يكون من الذهب الزركش، وتارة يكون من المخايش، وهي الفضة الملبّسة بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم، وبه يركب القضاة وأهل العلم.
وقال محمد قنديل البقلي في «مصطلحات صبح الأعشى» ص٢٨٩: الكنبوش هي البردعة تجعل تحت سرج الفرس، والكنبوش، بفتح الكاف، اللثام الذي يستعمله أهل المغرب لتغطية الوجه من الذقن إلى الخيشوم اتقاءً لبرودة هواء الصبح ورطوبته.
(٤) ليلة الماشوش: هي ليلة تختلط فيها النساء بالرجال، فلا يرد أحد يده عن شيء، ولا يرد أحد أحداً عن شيء.

لـو تـبـصَّـرْتِ حـالـتـي لَـتَـصَـبَّـرْ ... تِ فـإيـاكِ عِـنْـدَهـا أن تَـطِـيـشـي
أوَ مـا مـات فـي الـشِّـتـاءِ مـن الـبَـرْ ... دِ مـن فَـرْطِ جُـوعـه إكـديـشـي[1]
فـثـقـي واسْـكُـنـي بـجـودِ صـلاح الـدِّ (م) ـيـنِ غَـرْسِ الـمـلـوكِ مَـلْـكِ الـجـيـوشِ
فَـهْـو يـجـلـوكِ لـلـعـيـونِ بِـكَـنْـبُـو ... شِ جـديـدٍ مُـسْـتَـحْـسَـنٍ مَـنْـقُـوشِ
كـم عـدوٌّ مـن بـأسـه فـي عِـثـارٍ ... ووَلـيٍّ بـجـودِهِ مَـنْـعُـوشِ
والـمـوالـي عـلـى الأَسِـرَّةِ والأعـ ... ـداءُ تـحـتَ الـهـوانِ فَـوْقَ الـنُّـعـوشِ

[ولاية أسد الدين لحمص]

قال: وأقطع أسدَ الدين حمص وأعمالها، فسار إليها، فسدَّ ثغورها، وضبطَ أمورها، وحمى جُمهورَها. وكان نور الدين قد جَدَّد سُورها وحَصَّن دُورها، وبلي الفرنجُ منه بالمغاور المراوغ، ذي البأس الدامغ. وسأله نور الدين في السُّلُوِّ عن حُبِّ مصر، وقال: قد تعبتَ مرتين واجتهدت، ولم يحصل لك ما طلبت، وقد أذعنوا بالطاعة، وشفعوا السؤالَ بالشفاعة، وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة.

قلت: وأنشد العمادُ أسدَ الدين في رجب من هذه السنة: [الخفيف]

دُمْـتَ فـي الـمُـلْـكِ آمـراً ذا نـفـاذِ ... أسـدَ الـديـن شِـيـركُـوه بـنَ شـاذي
يـا كـريـمـاً عـن كـلِّ شَـرٍّ بـطـيـئـاً ... وإلـى الـخـيـرِ دائـمُ الإغـذاذِ
إن كـهـف الإسـلام أنـت فـلا زلـ ... ـتَ لأهـلِ الإسـلام خَـيْـرَ مـلاذِ
وبـقـلـب الـكـفـار رُعْـبُـكَ قـد حَـلَّ (م) بـصَـدْعِ الأكـبـادِ والأفـلاذِ
لـم تَـدَعْ بـالـظُّـبـى رؤوسـاً وأصـنـا ... مـاً مـن الـمـشـركـيـن غَـيْـرَ جُـذَاذِ
أنـتَ مَـنْ نـازل الـدَّعـيَّـنَ فـي مِـصْـ ... ـرَ لـنـصـر الإمـامِ فـي بَـغْـدَاذِ
وبـلادُ الإسـلام أنـقـذْتَـهـا أنـ ... ـتَ مـن الـشِّـرْكِ أيـمـا إنـقـاذِ

(١) إكديش: أصلها أكدش، بفتح الهمزة وكسرها، فارسية الأصل، ثم دخلت التركية بصيغة: أيكيدش ومعناها في التركية الفرس الهجين (تأصيل الدخيل).
وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٢/ ١٧: من أصناف الخيل: العجميات، وهي البراذين ويقال لها: الهماليج، وتعرف الآن بالأكاديش وتجلب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم، وغالب ما توجد مشقوقه المناخر، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشي.

Marfat.com

فصل

في وفاة زين الدِّين

قال ابن الأثير[١] وغيره: في سنة ثلاثٍ وستين سار زين الدين علي بنُ بُكْتِكِين[٢]، نائب أتابك قطب الدين، عن المَوْصل إلى إرْبِل، وسَلَّم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى قُطْب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زَنْكي رحمه الله تعالى. فمن ذلك سِنْجار وحرَّان وقلعة عَقْر الحُمَيدية، وقلاع الهكَّارية جميعها. وكان نائبه بِتَكْريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلِّمها، فقال: إن المولى أتابك لا يقيم بتكريت، ولا بُدَّ له من نائبٍ فيها، وأنا أكون ذلك النائب، فليس له مثلي، فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد. وأما شَهْرُزُوْر فكان بها الأمير بُوزان، فقال مثله أيضاً، فأُقِرَّت بيده، فكانا في طاعة قطب الدين.

وسببُ فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم، وأقام بإربِل إلى أن توفي بها في ذي الحِجَّة من هذه السنة[٣]، وكان قد استولى عليه الهَرَمُ وضَعُفَت قوته.

وكان خيِّراً عادلاً حسن السيرة، جواداً، محافظاً على حُسْن العهد وأداءِ الأمانة، قليلَ الغدر بل عديمه. وكان إذا وعد بشيء لا بُدَّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً. وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه ما يدلُّ على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدُلُّ على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء. بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذَنَبِ فَرَسٍ ذكر أنه نَفَقَ له، فأمر له بفرس، فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيرُه من الأجناد وأحضره وذكر أنه نفق له دابة، فأمر له بفرس، وتداول ذلك الذنب اثنا عشر رجلاً كلهم يأخذ فرساً. فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تَستحيُون مني كما أستحيي منكم؟ قد أحضر هذا عندي اثنا عشر رجلاً وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم، أتظنون أنني لا أعرفه؟ بلى والله، وإنما أردتُ أن يصلكم عطائي بغير مَنٍّ ولا تكدير، فلم تتركوني[٤]! [الكامل]

لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ في قَوْمِهِ ... لكنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ المُتَغَابِي

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً، وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلِّف

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨.
(٢) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٤/ ١١٤ ـ ١٢١.
(٣) في وفيات الأعيان ٤/ ١١٤، أنه توفي ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة.
(٤) البيت لأبي تمام في ديوانه ١/ ٨٧.

Marfat.com

شيئاً بل أنفذه جميعه في العطايا والإنعام على النّاس، وكان يلبس الغليظ، ويشدُّ على وسطه كلّ ما يحتاج إليه من سكّين ودِرَفش[١] ومطرقة ومسلّة وخيوط ودسترك[٢] وغير ذلك. وكان أشجعَ النّاس، ميمون النقيبة، لم تنهزم له راية. وكان يقوم المقام الخطير فَيَسْلَمُ منه بحسن نيته، وكان تركياً أسمر اللّون، خفيف العارضين، قصيراً جداً. وبنى مدارس وربُطاً بالمَوْصِل وغيرها. وبلغني أنّه مدحه الحَيْص بَيْص[٣]، فلمّا أراد الإنشاد قال له: أنا لا أدري ما تقول، لكنْ أعلم أنّك تريد شيئاً. وأمر له بخمسمائة دينار، وأعطاه فرساً وخِلَعاً وثياباً، يكون مجموع ذلك ألف دينار. قال: ومكارمه كثيرة[٤].

ولما توفي بإرْبِل كان الحاكم بها خادِمَهُ مجاهد الدّين قايماز[٥]، وهو المتولّي لأمورها[٦]. وولي بعد زين الدين ولدُه مظفَّر كُوكُبُوري مُدَّة، ثم فارقها لخُلْفٍ كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز، وجَرَتْ أمورٌ يطول ذكرها[٧].

ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخرَ الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذمُّوه ولم تَطُلْ أيّامُه[٨]، وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ستٍّ وستين إن شاء الله تعالى.

---

(١) درفش: هو سيخ مدبب من الحديد، في أسفله يد خشبية، يستعمل لثقب الجلد لإدخال الإبرة حين حياكة الأحذية، وهي كلمة فارسية (انظر معجم الفارسية ص٢٤٢).

(٢) الدستر: كلمة فارسية بمعنى منشار، والكاف للتصغير. دسترك: أي منشار صغير (انظر معجم الفارسية ص٢٥٠).

(٣) حيص بيص: هو سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي، شهاب الدين، أبو الفوارس البغدادي، المعروف بحيص بيص، وإنما سمي بحيص بيص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد، فقال: ما للناس في حيص بيص، فبقي عليه هذا اللقب، ومعنى حيص بيص: الشدة والاختلاط. وهو شاعر مشهور من أهل بغداد نشأ فقيهاً، وغلب عليه الأدب والشعر، وكان يلبس زي عرب البادية، ولا ينطق إلا بالعربية الفصحى، توفي ببغداد سنة ٥٧٤هـ، له ديوان شعره، ورسائل في مسائل الخلاف (انظر: كشف الظنون ٥/ ٣٨٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ٩٧، خريدة القصر، قسم شعراء العراق ٢/ ٢٠٢ ـ ٣٦٦، وفيات الأعيان ٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥).

(٤) انظر الخبر في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨.

(٥) توفي سنة ٥٩٤هـ. انظر «الكامل» ١٠/ ٢٥١.

(٦) ولي أمورها سنة ٥٥٩هـ، انظر وفيات الأعيان ٤/ ٨٢.

(٧) انظر الخبر في وفيات الأعيان ٤/ ١١٤ ـ ١١٥.

(٨) قال ابن الأثير في «الكامل» ١٠/ ٨: لما فارق زين الدين قلعة الموصل، سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح، وحكمه في البلاد، فعمر القلعة، وكانت خراباً، لأن زين الدين =

Marfat.com

[تملك نور الدين قلعة جعبر
وتولية شمس الدين علي ابن الداية عليها]
ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففي أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جَعْبر، وأخذَها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العُقَيلي من آل عُقَيْل من بني المسيَّب، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السُّلطان مَلِكْشاه، وقد تقدَّم ذكر ذلك. وهي من أمنع الحصون وأحسنها، مطلَّة على الفرات لا يُطْمَعُ فيها بحصار؛ وقد أعجز جماعةً من الملوك أخذُها منه، وقُتِلَ عليها عماد الدين زَنْكي والد نور الدين.

ثم اتَّفق أن خرج صاحبها منها يوماً يتصيَّدُ، فصاده بنو كلب، فأخذوه أسيراً وأوثقُوه، وحملوه إلى نور الدين، فتقَرَّبُوا به إليه، وذلك في رجب مِنْ سنة ثلاث وستِّين، فحبسه بحلب وأحسن إليه، ورغَّبه في الإقطاع والمال ليسلِّم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل به نور الدين إلى الشِّدَّة والعنف وتهدَّده، فلم يفعل أيضاً، فسيَّر إليها عسكراً مقدَّمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزَّعفَراني[1]، فحصرها مدة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدَّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الدَّاية ـ وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله ـ فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصر متعذِّراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللِّين، وأشار عليه بأخذ العِوَض من نور الدين، ولم يزل يتوسَّط معه حتى أذعن على أن يُعطى سَرُوج وأعمالها والملاحة[2] التي في عمل حلب، والباب وبزاعة[3] وعشرين ألف دينار معجَّلة، فأخذ جميع ما شرطه مكرهاً في صورة مختار. قال ابن الأثير: وهذا إقطاعٌ عظيم جداً لكنه لا حظ فيه[4].

= كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرةً سديدةً، وسياسة عظيمة، وهو خصي أبيض، من مماليك زنكي أتابك عماد الدين.

(١) في «الكامل» ١٠/ ١١: الأمير فخر الدين مسعود بن علي الزعفراني. وكان مسعود من كبار أمراء نور الدين، قدمه في آخر حياته على العساكر، وأقطعه الرها وحماة وكفرطاب وحمص وسلمية وبعرين.

(٢) الملاحة: كذا في الأصل، وفي معجم البلدان ٥/ ١٩٥: الملوحة، وهي قرية كبيرة من قرى حلب.

(٣) والباب وبزاعة: كذا في الأصل، وفي «الكامل»: وباب بزاعة، وهو الصحيح، وباب بزاعة: بلدتان، الأولى تقع في طرف وادي بطنان من أعمال حلب، وتعرف بباب بزاعة، والثانية تقع في وادي بطنان بين منبج وحلب (معجم البلدان ١/ ٣٠٣، ٤٠٩).

(٤) لفظ ابن الأثير في «الكامل»: وهذا إقطاع عظيم جداً، إلا أنه لا حصن فيه.

Marfat.com

وتسلَّم مجد الدين قلعة جعبر، وصَعِدَ إليها منتصف المحرَّم، ووصل كتابه إلى نور الدين بحلب، فسار إليها، وصعد القلعة في العشرين من المحرم، ثم سلَّمها نور الدين إلى مجد الدين ابن الدَّاية، فولاها أخاه شمس الدين علياً. وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر جد، ولكل ولاية نهاية، يُؤْتي الله المُلْكَ من يشاء، وينزِعُهُ ممن يشاء.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قيل لشهاب الدين: أيُّما أحبُّ إليك وأحسن مقاماً، أسَرُوج والشَّام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعِزُّ بالقلعة فارقناه[1].

قال العماد: وأنشدتُ نور الدين بقلعة جَعْبر قصيدةً، أولها: [المنسرح]

اسلمْ لبكْرِ الفُتُوحِ مُفْتَرِعاً ... ودُمْ لمُلْكِ البلادِ مُنْتَزِعا
فإنَّ أَوْلَى الورى بها مَلِكٌ ... غدا بعبء الخُطُوبِ مُضْطَلِعا
إنْ ضاقَ أمرٌ فغيرُ هِمَّته ... لِكَشْفِ ضيقِ الأمورِ لن يَسَعا
يا محيي العَدْلِ بعد مِيتَتِهِ ... ورافعَ الحقِّ بعدما اتضعا
ونورَ دينِ الهُدَى الذي قَمَعَ الشْـ (م) ـرك، وعفَّى الضَّلال والبِدَعا
أنتَ سليمانُ في العَفَافِ وفي الْـ ... ـمُلكِ وتحكي بِزُهْدِكَ الْيَسَعا
حُزْتَ التُّقى والحياء والكرم الـ ... ـمَحْضَ وحُسْنَ اليقينِ والوَرَعا
أسْقَطْتَ أقساطَ ما وَجَدْتَ من الـ ... ـمَكْسِ بعدلٍ والقاسِطُ ارتدعا[2]
ولم تَدَعْ في ابتغاء مصلحة الدْ (م) ـين لنا باقياً ولَنْ تَدعا
وكلُّ ما في الملوك مُفْتَرقٌ ... من المعالي لمُلكك اجْتَمعا
هِمَّتُكَ الرُّبْط والمدارس تبْـ ... ـنيها ثواباً وتَهْدِمُ الْبِيَعا
ما زلت ذا فِطْنَةٍ مُؤَيَّدة ... على غُيُوبِ الأسرار مُطَّلِعا
بباسك البِيض والطُّلى اضْطَحَبَتْ ... بِعَدْلك الذئبُ والطَّلا رتعَا[3]
كم صائدٍ لم يقع له قَنَصٌ ... في شَرَكٍ وهو فيه قد وقعَا
ومالكٌ حين رُمْتَ قَلْعَتَهُ ... غدا مطيعاً للأمر مُتَّبِعا

(١) انظر الخبر في «الكامل» ١٠/ ١١، ولفظ الكامل: بلغني أنه قيل لصاحبها: أيما أحب إليك وأحسن مقاماً سروج والشام، أم القلعة؟ فقال: هذه أكثر مالاً، وأما العز ففارقناه بالقلعة.
(٢) القاسط: الجائر والظالم، والمقسط هو العادل.
(٣) البيض: جمع أبيض، وهو السيف، والطُّلى، بضم الطاء: الأعناق، مفردها: الطلاة، والطَّلا، بفتح الطاء: ولد الظبية.

Marfat.com

عـنَـا خُـشُـوعـاً لـربِّ مـمـلـكـةٍ لـغـيـر رَبِّ الـسَّـمـاءِ مـا خَـشَـعَـا
كـان مـقـيـمـاً مـنـهـا عـلـى الـفَـلَـكِ الْـ أعـلـى شِـهـابـاً بـنـوره سَـطَـعَـا
لـكـنَّـمـا الـشُّـهْـبُ مـا تـنـيـرُ إذا لاحَ عـمـودُ الـصَّـبـاح فـانْـصَـدَعـا
يَـدْفَـعُـهـا طـائـعـاً إلـيـك وكـم عـنـهـا إبـاءً بـجَـهْـدِهِ دَفَـعَـا
هـي الـتـي فـي عُـلُـوِّهـا زُحَـلٌ كـرَّ عـلـى وِرْدهـا ومـا كَـرَعَـا
وهْـي الـتـي قـاربـت عُـطَـارِدَ فـي الْـ أُفْـقِ فَـلاحـاً والـفَـرْقَـدَيْـنِ مـعـا
كـأنَّ مـنـهـا الـسُّـهـا إذا اسـتـرق الـسَّـ (م) ـمـعَ أتـاهـا فـي خُـفْـيَـةٍ ودعـا[1]
هـضـبـةُ عـزٍّ لـولاك مـا ارتُـقـيـت وطَـوْدُ مُـلْـكٍ لـولاك مـا قُـرِعـا
مـا قَـبِـلَـتْ فـي ارتـقـاء ذُروتـهـا مـن مَـلِـكٍ لا رُقًـى ولا خُـدَعَـا
عَـزَّتْ عـلـى الـمـالـك الـشَّـهـيـدِ وأغـ ـطـتـك قِـيـاداً مـا زال مُـمْـتَـنـعـا
لـلأبِ لـو حَـلَّ خَـطْـبُـهـا لـغـدا مـحـرَّمـاً لابـنـه ومـا شُـرِعَـا
لا زلـت مـحـمـودُ فـي أمـورك مـحـ ـمـوداً بـثـوب الإقـبـال مُـذَّرِعـا

[وفاة بهاء الدين عمر]

وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين ابن الدَّاية، وفيه وفي إخوته يقول العماد الكاتب من قصيدة: [الكامل]

أنـتـمْ لـمـحـمـودٍ كـآلِ مـحـمـدٍ مـتـصـادفـي الأفـعـال والأسـمـاءِ[2]
يـتـلـو أبـا بـكـر عَـلَـى حـسـنـاتـه عـمـرُ الـمـمـدَّحُ فـي سـنـاً وسـنـاءِ
ويـلـيـه عـثـمـانُ الـمـرجَّـى لـلـعُـلا وعـلـيٌّ الـمـأمـولُ فـي الـلأواءِ
ويـقـبِّـلُ الـحـسـنَ الـمـمـجَّـدَ مـجـدُهُـم فـهـمُ ذُوو الإحـسـانِ والـنَّـعـمـاءِ
فَـرَعَـتْ لـمـجـد الـديـن إخـوتُـهُ الـذُّرى دونَ الـورى فـي الـمـجـدِ والـعـلـيـاءِ
مـن سـابـق كـرمـاً وشـمـس سـاده شـرفـاً وبـدر دُجُـنَّـةٍ وبـهـاءِ
سُرُجُ الهدى سُحُب النَّدى شُهُب النُّهى أسْـدُ الـحـروبِ ضـراغِـمُ الـهـيـجـاءِ

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علياً، وبدر الدين حسناً، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين الأكبر، فهم خمسة، رحمهم الله تعالى.

---

(١) السها: كويكب صغير خفي الضوء في نبات نعش الكبرى، يمتحن الناس به أبصارهم.
(٢) متصادفي: صادفه: قابله، ووافقه.

فصل

[مسير أسد الدين لمصر للمرة الثالثة وفتحه لها]

وفي هذه السنة فُتحت الديار المصرية؛ سار إليها أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العدوَّ، وقتل شاوراً، ووليَ الوزارة مكانه، ثم مات، فوليها صلاح الدين[1].

وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأُولَيَيْن اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شِيركُوه قد خَبَروا الدِّيار المصرية، واطَّلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقرَّ بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد. فجمعوا وحشدوا، وقالوا: ما بمصر من يصدُّنا، وإذا أردناها فمن يردُّنا؟! ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفُراتية، وعسكر الشام متفرِّق كل منهم في بلده، حافظ لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر، ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها مَعْقِل، ولا لأهلها منَّا موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشَّام، نكون قد حصلنا على المَرَام، وقوينا بتملك الدِّيار المِصْرية على سائر بلاد الإسلام. فتوجهوا إليها سائرين، ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص، وشايعهم على قصد مصر جماعةٌ من أهلها كابن الخياط وابن قَرْجَلَّة[2]، وغيرهما من أعداء شاور.

وكان الفرنج قد جعلوا لهم شِحْنة بمصر والقاهرة، وسكن فرسانهم أبواب البلدين، والمفاتيح معهم، على ما سبق ذكره، وتحكموا تحكماً كثيراً، فطمعوا في البلاد، وأرسلوا إلى ملكهم مُرْي - ولم يكن مَلَكَ الفرنج مُذْ خرجوا إلى الشَّام مثله شجاعة ومكراً ودهاءً - يستدعونه ليملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهَّلوا أمرها عليه، فلم يجبهم إلى المسير. واجتمع فرسان الفرنج وذوُو الرأي والتقدم، وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها، فقال لهم: الرأي عندي ألَّا نقصدها فإنها طُعْمة لنا، وأموالها تُساقُ إلينا، نتقوَّى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإنَّ صاحبها وعساكره، وعامة أهل بلاده وفلاحيه، لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوفُ منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشَّام. فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لا حافظ لها ولا مانع، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهِّزَ العساكر ويسيِّرَهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها،

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١١ - ١٨.

(٢) في «الكامل» ١٠/ ١٢: ابن فرجلة، وهو تصحيف.

Marfat.com

وحينئذٍ يتمنى نور الدين منا السَّلامة فلا يقدر عليها. وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهَّزوا، وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عَسْقلان في النصف من المحرَّم، ووصلوا أول يوم من صَفَر إلى بِلْبيس ونازلوها، وحَصَروها فملكوها قهراً ونهبوها، وسبَوْا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحَصَرُوها عاشر صفر، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بِلْبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه، وبذلوا جُهدهم في حفظه. ولو أنَّ الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بِلْبيس لملكوا مصر والقاهرة سُرعةً، ولكن الله تعالى حَسَّن لهم ذلك: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]. وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر، قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد، خوفاً عليها من الفرنج، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر.

ثم ضاق الحصار وخيف البَوَار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية، فشرع في تمحُّل الحيل، وأرسل إلى ملك الإفرنج يذكر له مودَّته ومحبَّته القديمة، وأنَّ هواه معه، وتخوُّفَه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير عليه بالصُّلْح وأخْذِ مالٍ لئلا تسلَّم البلاد إلى نور الدين. فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض، واستقرَّت القاعدة على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سُلِّمت إلى نور الدين، فأجابوا كاهرين، وقالوا: نأخذ المال نتقوَّى به، ونكثر من الرجال، ثم نعود إلى البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ولا غيره. ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]. فعجَّل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرَّحيل عن البلد ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً.

وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرِّفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لِتُنْقِذَهُنَّ من الفرنج. فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر. ولما صالح شاوَر الفرنجَ على ذلك المال عاود العاضدُ مراسلةَ نور الدين وإعلامَهُ بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين شِيركُوه مقيماً عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين. هذا قول ابنِ الأثير(١).

---

(١) قال ابن الأثير في «الكامل» ١٠/ ١٣: وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار، وسببه أن أهل مصر كانوا قد احترقت =

Marfat.com

وقال العماد: عجَّل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخِداعاً، وإرغاماً[١] له وإطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخاً مستنفراً، وبما ناب الإسلام من الكُفْرِ مخبراً، ويقول: إن لم تبادر ذهبت البلاد. وسيَّر الكتب مسوَّدة بمِدادها، كاسية لباس حِدَادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب محزوزة، ظُنَّ أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عَرَاهم من بليَّة الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجَّابين سِرَاعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيِّراً، وعامل الفرنج بالمِطال، يَنْقُدُهم في كلِّ حين مالاً، ويطلب منهم إمهالاً، وما زال يعطيهم ويَسْتَمْهِلُهُم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله تعالى.

فصل

فيما فعله نور الدين[٢]

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص ـ وهي إقطاعه ـ فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كُتُبَ المِصْريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكُفْر. فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب، واجتمع بنور الدين ساعةَ وصوله، فتعجَّب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسرَّه، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكَّمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس. وكان في مُدَّة حشده للتركمان، سار نور الدين لتسلُّم قلعة جَعْبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين كلَّ فارسٍ من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونةً لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعةً من الأمراء

= دورهم، وما فيها وما سلم نهب، وهم لا يقدرون على الأقوات، فضلاً عن الأقساط، وأما أهل القاهرة، فالأغلب على أهلها الجند وغلمانهم، فلهذا تعذرت عليهم الأموال، وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه، وبذلوا له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكر، وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضاً خارجاً عن الثلث الذي لهم.

(١) وإرغاماً: كذا في الأصل، ولعلها: وإرغاباً ليستقيم المعنى: وإرغاباً له وإطماعاً.

(٢) انظر «الكامل» ١٠/ ١٣ ـ ١٤.

Marfat.com

والمماليك، منهم مملوكه عزّ الدين جُرْدِيك[١]، وغرس الدين قليج[٢]، وشرف الدين بُزْغُش[٣]، وناصح الدين خمارتكين[٤]، وعين الدولة بن الياروقي[٥]، وقطب الدين يَنَال بن حَسَّان المَنْبِجي[٦]، وغيرهم. ورحلوا على قَصْدِ مِصْر، مستنزلين من الله تعالى النَّصْر، وذلك منتصف ربيع الأول.

وخيَّم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشِّرات، فوصل المُبَشِّر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسبَّ الملكُ كلَّ من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبثَّ رسلَه إلى الآفاق بذلك[٧].

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان، يعني صلاحَ الدين: كنت أكرهَ النَّاس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجتُ مع عمي باختياري. قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال ابن الأثير: أحبَّ نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه[٨]، حُكي لي عنه أنه قال: لما وَرَدَت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجدين، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عَمِّك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه يأمره بالحضور، وتحثُّه أنتَ على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير. قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادماً في هذا المعنى، فقال له نور الدين: تجهَّزْ للمسير. فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرتَ أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولا يبقى معهم مقام بالشَّام وغيره.

---

(١) توفي سنة ٥٩٤هـ. كان فارساً وشجاعاً وهماماً، ولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده.
(٢) في «الكامل» ١٠/ ١٤: غرس الدين قلج.
(٣) استشهد في معركة الكرك سنة ٥٧٩هـ، كما سيأتي في الجزء الثالث.
(٤) لم يذكره ابن الأثير في «الكامل» من بين الذين أرسلهم نور الدين.
(٥) في «الكامل»: عين الدولة الياروقي، وهو ممن رفض مبايعة صلاح الدين وزيراً بعد وفاة عمه أسد الدين، وقد توفي سنة ٥٦٤هـ، كما سيأتي في هذا الجزء.
(٦) كان صاحب منبج، أقطعه إياها نور الدين سنة ٥٦٢هـ. بعد أن حاصرها وأخذها من أخيه الأمير غازي بن حسان المنبجي.
(٧) انظر «الكامل» ١٠/ ١٤.
(٨) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٤.

Marfat.com

قال: فالتفتَ إليَّ عمي أسد الدين وقال: تجهَّزْ يا يوسف، قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين! فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرتُ إليها، فلقد قاسيتُ بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين: لا بدّ من مسيره معي، فترسم له. فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لا بُدَّ من مسيرك مع عمك. فشكوت إليه الضائقة وقلّة الدواب وما أحتاج إليه، فأعطاني ما تجهزتُ به، وكأنما أُساق إلى الموت. وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرتُ معه. فلما استقرَّ أمره وتوفي، أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحَرَّضه أيضاً حسان العَرْقَلة[1] بأبياتٍ من شعره من جملة قصيدة مدحه بها، قال[2]: [الوافر]

وَهَلْ أَخشى من الأنواءِ بُخْلاً ... إذا ما يوسفٌ بالمالِ جادا
فتًى للدِّين لم يَبْرَحْ صلاحاً ... وللأعداءِ لم يَبْرَحْ فسادا
لئن أعطاه نورُ الدينِ حِصْناً ... فإنَّ الله يعطيه البِلادا
إلى كم ذا التَّواني في دمشقٍ ... وقد جاءتكُمُ مِصْرٌ تَهادى
عروسٌ بَعْلُها أسدٌ هِزَبْرٌ ... يصيدُ المعتدينَ ولن يُصَادا
ألا يا مَعْشَرَ الأجنادِ سيروا ... وراء لوائه تلقَوْا رشادا
فما كلُّ امرئٍ صَلَّى مع النَّا ... سِ مأموماً كمن صَلَّى فُرَادى

فلما سافر صلاحُ الدين إلى مصر عبر العرقلة على داره، فوجدها مغلقة، فقال[3]: [الطويل]

عَبَرْتُ على دار الصَّلاح وقد خَلَتْ ... من القمر الوضَّاح والمَنْهَلِ العَذْبِ
فوالله لولا سُرْعَةٌ مِثْلُ عَزْمِهِ ... لغرَّقها طرفي وأحرقَها قلبي

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصُّوفية بحارة قطامش جوار قيسارِيَّة القصاع، وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله. فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج، وتملك صلاح الدين على ما سيأتي.

---

(١) هو حسان بن نمير الكلبي، أبو الندى، تقدّمت ترجمته.
(٢) القصيدة في ديوان عرقلة ص٣٠ ـ ٣٢، وفي «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠.
(٣) البيتان في ديوان عرقلة ص١٤.

Marfat.com

وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ[١] في صلاح الدين من قصيدةٍ، أوّلها: [البسيط]

* سَلِّمْ على مِصْرَ لا ربعٍ بذي سَلَمِ*

يقول فيها: [البسيط]

النَّاصر الملكُ الموفي بذمَّتِهِ ... وَمَنْ ندى كفِّه يُغْني عن الدِّيَم
وَمَنْ إذا جرَّد البِيضَ الصَّوارِمَ في الـ ... ـهيجاءِ أغمدَها في البَيْضِ والقِمَم[٢]
وَمَنْ حَوى المُلك من بعد الطماعة في انـ ... ـتزاعه بِشَبا الهندية الحُذُم[٣]
وَرَدَّ طاغيةَ الإفرنج يحسبُ ما ... رجاه مِن مُلك مصرَ كان في الحُلُم
ولَّى وراحتُهُ صِفْرٌ وقد مُلِئَتْ ... بعد الطماعة من يأسٍ ومن نَدَمِ
يُصَعِّدون على ما فاتهم نَفَساً ... لو لَافَحَ البَحْرَ أضحى المَوْجُ كالحُمَمِ
وفي السَّلامة لولا جَهْلُهُمْ ظَفَرٌ ... لمن أراد نزالَ الأُسْدِ في الأُجُمِ
وهم أُسُودُ الشَّرى لكنْ أذلَّهُمُ ... مَلْكٌ لديه الأُسودُ الغُلْبُ كالغَنَمِ

وله من قصيدة أخرى: [الطويل]

أقمتَ عَمُودَ الدينِ حين أمالَهُ ... لطاغي الفرنج الغُتْمِ طاغي بني سعْدِ[٤]
وَجَاهَدْتَ حِزْبَ الكُفْرِ حتى رَدَدْتَهُمْ ... خزايا عليهم خيبةُ الذُّلِّ والرَّدِّ
أفدتَ بما قَدَّمْتَ مُلْكاً مُخَلَّداً ... وذِكْراً مدى الأيام يُقْرَنُ بالحَمْدِ
وذِكْرُك في الآفاقِ يَسْرِي كأنَّه الصَّـ (م) ـباحُ له نَشْرُ الأُلُوَّةِ والنَّدِّ[٥]

ولأبي الحسن بن الذَّرَوي[٦] فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مُرِّي: [الكامل]

ولكم أَشَمْتَ الرُّومَ أشأمَ بارقٍ ... أَضْحَتْ مياه نُفُوسِها من قَطْرِهِ

---

(١) هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي، مؤيد الدولة، مجد الدين، أبو المظفر الشيزري، ولد سنة ٤٨٨هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤هـ، من تصانيفه: «أزهار الأنهار»، «البديع في علم البلاغة»، «التجاير المربحة والمساعي المنجحة»، «ديوان شعره»، «كتاب الاعتبار» (كشف الظنون ٥/ ١٩٦).

(٢) البيض الأولى: جمع أبيض، وهو السيف، والبيض الثانية: جمع بيضة، وهي الخوذة. والقمم: جمع قمة، وهي أعلى الرأس.

(٣) الهندية: أي السيوف الهندية، والحُذُم: من الحذم: القطع.

(٤) الغتمة: عجمة في المنطق، مفردها: أغتم، وغتمي، وجمعها: غتم. وطاغي بني سعد: يشير إلى شاور السعدي، فإن نسبه يرجع إلى سعد بن بكر بن هوازن (انظر وفيات الأعيان ٢/ ٤٣٩).

(٥) الألوّة: العود الذي يتبخر به، والنَّدُّ أيضاً: ضرب من النبات يتبخر بعوده.

(٦) هو أبو الحسن علي بن يحيى المصري، المعروف بابن الذروي، شاعر كان مشهوراً زمن صلاح الدين، توفي سنة ٥٧٧هـ. وسترد ترجمته وافية له في الجزء الثالث.

Marfat.com

وافاكَ بَحْرُ دُرُوعِها عن مَدِّه ... ومضى وقد حَكَمَتْ ظُباكَ بِجَزْرِهِ
وَلَقِيتَ «مُرْئيا» وطَعْمُ حياتِهِ ... حُلْوٌ فبدَّلَه القتالُ بِمُرِّهِ
فاعقدْ إليه الرأيَ في عَذب القَنا ... واحللْ بها عَجِلاً معاقِدَ مَكْرِهِ
واطْرِدْه من وَكْرِ الشآم فإنَّه ... قد طارَ منك بخافقٍ من ذُعْرِهِ

فصل

في القبض على شاور وقتله(١)

وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد خليفة مصر، فخلع عليه وأكرمه، وأُجريت عليه وعلى عساكره الجراياتُ الكثيرة والإقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه، ويعده ويمنّيه ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم إنه عَزَم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأُمراء، ويقبضُ عليهم، فنهاه ابنه الكامل وقال له: والله لئن عَزَمْتَ على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلَنَّ جميعاً. فقال: صدقتَ، ولأَنْ نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خيرٌ من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركُوه، وحينئذٍ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد. فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النُّوري المَطْلَ من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جُرْديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله. فأنكر ذلك. واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشَّافعي، رضي الله عنه، وقصد شاور عسكرَه على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جُرْديك، ومعهما جمعٌ من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسدَ الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه. فسار وهما معه قليلاً، ثم ساوَروه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه وأخذ أسيراً،

(١) انظر الخبر في «الكامل» ١٠/ ١٤ ـ ١٥.

ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فسجنوه في خيمةٍ وتوكلوا بحفظه. فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه. وأرسل العاضد لدين الله؛ صاحب مصر، في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثُّه على قتله، وتابع الرُّسُلَ بذلك. فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور. فقصدها الناس ينهبونها، فتفرَّقوا عنه، هذا قول ابن الأثير[1].

وقال ابن شَدَّاد: أقام أسد الدين بها يتردَّد إليه شاور في الأحيان، وكان وَعَدَهم بمالٍ في مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئاً، وعلقت مخاليبُ الأسد في البلاد، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصةً أخذوا البلاد، وأن تردُّدهم إليها في كل وقت لا يفيد، وأن شاور يلعب بهم تارةً وبالإفرنج أخرى، وملَّاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قَبْضِه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يتردَّدون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به. وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعَلَم، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلّا السُّلْطان نفسه ـ يعني صلاح الدين ـ وذلك أنه لما سار إليهم تلقَّاه راكباً وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن خذوا على أصحابه، ففرُّوا ونهبهم العسكر، وقُبض على شاور وأنزل إلى خيمة مفردة. وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لا بُدَّ من رأسه. جرياً على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدةِ مَن قويَ منهم على صاحبه، فحزَّتْ رقبته وأُنفذ رأسه إليهم.

وقال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخُلع عليه ولقي الإحسان، وتردَّد شاور إلى أسد الدين وتودَّد، وتجدَّد بينهما من الوداد ما تأكَّد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة، والأطعمة الواسعة، والحلاوات والميرة. فقال صلاح الدين: هذا أمرٌ يطول، ومسألة فرضها يَعُول، ومعنا هذا العسكر الثقيل، وإقامته بالإقامة يَقْصُرُ عنها الأمد الطَّويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، لا سيما إذا راوغ وغادر[2]، فَنَفَّذ أسد الدين الفقيه عيسى[3] إلى شاور يشير

(١) انظر «الكامل» ١٠/ ١٥.

(٢) وغادر: كذا بالأصل، ولعلها: غاور، من أغار على القوم: أي هجم عليهم بالخيل وأوقع بهم.

(٣) هو عيسى بن محمد الهكاري، ضياء الدين، توفي سنة ٥٨٥هـ، وهو من أعيان أمراء عسكر صلاح الدين، ومن قدماء الأسدية، وكان فقيهاً جندياً شجاعاً كريماً، ذا عصبية ومروءة، =

عليه بالاحتراس، وقال له: أخشى عليك مَن عندي من النَّاس. فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النورية وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته[1]، وقبضه وأثبته، ووكل به في خيمةٍ ضربها له، وحاول إمهاله، فجاء من القصر من يطلب رأسه، ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول، وأَبَوْا أن يرجعوا إلا بنُجح السُّول، فَحُمَّ حِمامه، وحُمل إلى القصر هامُه.

قلت: وبلغني أن الذي باشر حَزَّ رقبة شاور هو عز الدين جُرْديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفَرسيْهما، فأجابه، ووافقهما في ذلك جُرْديك، وكان ذلك عن أمرٍ قد تقرَّر؛ فحرَّكوا خيلهم، فلما بَعُدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجُرْديك على شاور، وأُدخل الخيمة.

وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عَرْقَلة[2]: [الطويل]

لقد فازَ بالمُلكِ العقيم خليفةٌ ... له شِيركُوهُ العاضديُّ وزيرُ
كأنَّ ابنَ شاذي والصَّلاحَ وسيفَهُ ... عليٌّ لديه شَبَّرٌ وشَبِيرُ[3]
هو الأسدُ الضاري الذي جَلَّ خَطْبُهُ ... وشاوَرُ كلبٌ للرِّجالِ عَقُورُ
بغى وطغا حتى لقد قال قائلٌ ... عليٌّ مِثْلِها كانَ اللعينُ يَدُورُ
فلا رَحِمَ الرحمنُ تُرْبَةَ قَبْرِهِ ... ولا زال فيها مُنْكَرٌ ونكيرُ[4]

وقال أيضاً[5]: [السريع]

إنّ أمِيرَ المؤمنين الذي ... مِصْرٌ حَماه وعليٌّ أبوهُ

= وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزي، تفقه عليه بجزيرة ابن عمر، ثم اتصل بأسد الدين شيركوه فصار إماماً له. فرأى من شجاعته ما جعل له إقطاعاً، وتقدم عند صلاح الدين («الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٩٠).

(١) شحته: لعلها تحريف من: شحط، وهي كلمة عامية بمعنى جرّه على الأرض، وشَحَطَ، كمنع، شحطاً وشَحَطَاً، محركة، وشحوطاً: بَعُدَ.

(٢) الأبيات في ديوان عرقلة ص٥٢.

(٣) شَبَّرٌ، كبقّم، وشبّيرٌ، كقمّير، ومُشَبِّرٌ، كمحدّث: أبناء هارون عليه السلام، وقيل: وبأسمائهم سمّى رسول الله ﷺ، الحسن والحسين والمحسّن، أولاد علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٤) منكرٌ ونكيرٌ: اسمان لملكين، وهما فتانا القبور.

(٥) البيتان في ديوان عرقلة ص١٠٨.

نَـصَّ عـلـى شـاوَرَ فِـرْعَـوْنُـهـا وَنَـصَّ مـوسـاهـا عـلـى شِـيـركُـوه

وقد وصف الفقيه الشَّاعر أبو حمزة عمارة اليمني[١] في كتاب «الوزراء المصرية»[٢] الذي صنفه حالَ شاور في وزارته الأولى، ثم قال: وزارة شاور الثانية، فيها تكشَّفَتْ صفحاته، وأحرقت لفحاتُه، وأغرقت نفحاته، وغَضَّه الدَّهْرُ وعَضَّه، وأوجعه الثُكْلُ وأَمَضَّه، وبان غَمْرُه وثِمادُه[٣]، وجمره ورماده، ولم يجفَّ من الأنكاد لبدُه[٤]، ولا صفا من الأقذاء وِرْدُه، وما هو إلّا أن تسلَّمها بالرَّاحة، وسُلِّمت له الهمومُ عوضاً عن الرَّاحة. وفي أول ليلةٍ دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بِلْبيس، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة، فكسر النَّاسَ يوم التاج وأُسر أخوه صُبْح[٥]، وأصيبَ على بابِ القَنْطَرة بحجرٍ كاد يموت منه، وتعقَّب ذلك بنقل القتال على القاهرة حتى دُخِلَتْ من الثغرة، ثم تبع هذا مجيء الفرنج، وعمل البُرْج، وحصار بِلْبيس، ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط[٦] طالباً للوزارة، ثم تلا ذلك نفاقُ لواتَه ومن ضامَّها من قيس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر. وفي أثناء هذه المدة قبضُه على الأثير بن جَلَب راغب وقتله، وأسر معالي بن فُريج ثم قَتْله. واتَّصل إليه الخبرُ من قدوم أسد الدين إلى إطْفِيح بأم النَّوائب الكُبَر، ووافق مجيءَ الغُزّ قدومُ الفرنج ناصرين للدولة، وتوجَّهوا من مصر في البر الشَّرْقي تابعين للغُزّ. ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال، ما تنقطع دونه الآمال، وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعَهم إلى الشَّام، فتجهَّز الكامل للمسير صحبة الإفرنج. حدّثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البَيْسَاني[٧]،

---

(١) هو عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي المذحجي الفقيه، نجم الدين أبو محمد الشاعر اليمني الشافعي المتوفى مصلوباً بمصر سنة ٥٩٦هـ. من تصانيفه: «ديوان شعره»، «شكاية المتظلم ونكاية المتألم»، «المفيد في أخبار زبيد»، «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية»، وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٧٧٩).

(٢) هو كتاب «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية» انظر الحاشية السابقة.

(٣) الغمر: الماء الكثير، والثماد: الماء القليل، وهو كناية عن كرمه وبخله.

(٤) أي كثير التردد، يقال: فلان لا يجف لبده: إذا لم يزل يتردد.

(٥) صبح: هو أخو شاور، ذكر بعض أخباره عمارة اليمني في كتابه «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية».

(٦) يحيى بن الخياط وابن قرجلة: من أعيان المصريين الذين كاتبوا الفرنج، ووعدوهم النصرة، عداوة منهم لشاور.

(٧) هو القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف علي بن الحسين بن أحمد بن =

Marfat.com

قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمةٍ وليس معنا أحد، إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغريب إلى سليم وما وراءها، وقال شاور: لكن لا أبرَحُ أقاتل بمن صَفَا معي حتى أموت. فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الدَّاعي ابن عبد القوي وصنيعة المُلك جوهر وعزٌ وقد التزموا المال، وتفرَّع على هذا الأصل مقام الغُزّ بالجِيزة، ونوبة البابَين، وحصار الإسكندرية، وانصراف الغُزّ راجعين، والفرنج بعدهم. فما هو إلّا أن توهَّم شاور أنَّ الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته معه وعفا، وإذا الأيام لا تخطب إلا زواله وفَوْته، ولا تريد إلا انتقاله وموته. فكان من قدوم الفرنج إلى بِلْبيس وقَتْلِ من فيها وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين بن القَسِيم، وإنجاده كلمةَ الإسلام بأسد الدين ومن معه من المسلمين الذين قُلْتُ فيهم وقد ربط الإفرنج الطريقَ عليهم: [الطويل]

أَخَذْتُمْ على الإفرنجِ كلَّ ثَنِيَّةٍ ... وقُلْتُمْ لأيدي الخيل مُرّي على مُرّي
لئن نصبوا في البَرِّ جسراً فإنَّكم ... عبرتمْ ببحرٍ من حديدٍ على الجسرِ

قلت: وهذان البيتان من قصيدةٍ له ستأتي. ومُرّي هو اسم ملك الإفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغُزّ برحيل الفرنج عن الدِّيار المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغزّ بثمانية عشر يوماً. وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له.

قال: ولم يربُ أحدٌ رجالَ الدولة مثل ما رباهم الصَّالح بن رُزِّيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضِرْغام ـ وكانت وزارته تسعة أشهر مُدَّة حمل الجنين ـ ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغزّ والإفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها.

ولما عاد من حصار الإسكندرية أكثر من سَفْكِ الدِّماء بغير حق؛ كان يأمر بضرب الرِّقاب بين يديه في قاعة البُسْتان من دار الوزارة، ثم تسحبُ القتلى إلى خارج الدار.

= الفرج بن أحمد اللخمي البيساني مجير الدين، أبو علي المسقلاني، من وزراء صلاح الدين الأيوبي، ولد بعسقلان سنة ٥٢٩هـ، وتوفي بمصر سنة ٥٩٦هـ، من تصانيفه: «تاريخ مرتب على الأيام»، «سيرة الملك المنصور»، وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٥٦٠).

Marfat.com

وقال الحافظ أبو القاسم[١]: لما خيفَ من شَرّ شاور ومكره، لما عُرِفَ من غَدْره وخَتْره[٢] واتَّضح الأمر في ذلك واستبان، تمارضَ الأسدُ ليقتنصَ الثُّعْلُبان، فجاءه قاصداً لعيادته، جارياً في خدمته على عادته؛ فوثب جُرْديك وبُزْغُش، موليا نور الدين، فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شَرّه وما شاورا، وكان ذلك برأي صلاح الدين، فإنه أول من تولَّى القبضَ عليه، ومدَّ يده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين وَمُلْك، وخلع عليه الخِلَع وحُنْك[٣]، واستولى أصحابُه على البلاد، وجرت أموره على السَّداد، وظهر منه حميد السيرة، وظهرت كلمةُ السُّنَّة.

فصل

في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القَصْر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتَّب وزيراً، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمَن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرَّ في الأمر ولم يبق له فيه منازع ولا مناوئ، وولَّى الأعمالَ من يثق إليه، واستبدَّ بالولاية، فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للأمور مُقَرِّر لها، وزمام الأمر والنهي مفوَّض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحُسْن تأتيه وسياسته[٤].

قال العماد: وكُتِبَ لأسد الدين منشورٌ من القصر، بسيط الشَّرْح طويل الطَّي والنَّشْر، كتب العاضدُ في طُرَّته[٥] بخطه، ولا شك أنه بإملاء كتّابه: هذا عَهْدٌ لا عَهْدَ لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحُجَّة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سُبُله، فَخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بقوَّة، واسحَبْ ذيلَ

---

(١) هو علي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر الدمشقي، المؤرخ الحافظ الرحالة، كان محدث الديار الشامية، توفي في دمشق سنة ٥٧١هـ (الأعلام ٤/ ٢٧٣).

(٢) الختر: الغدر والخديعة، وخَتر فلاناً: غدر به أقبح الغدر، فهو خاتر، وختّار.

(٣) التحنيك: إدارة العمامة من تحت الحنك.

(٤) انظر الخبر في «الكامل» ١٠/ ١٥.

(٥) الطرَّة: هي الناصبة العليا في الكتاب، أو الهامش الذي يترك في أعلا الكتاب، ولها قواعد، فتطول إذا كان الكتاب من الأعلى إلى الأدنى، وفي المكاتبات الصادرة عن السلطان تكون الطرة فيها ما بين ثلاثة أوصال إلى وصلين، ومن النواب ومن في معناهم تكون وصلاً واحداً (صبح الأعشى ١/ ٥٥، ٦/ ٣١٣، والتعريف بمصطلحات الصبح ص٢٣٠).

Marfat.com

الفَخار بأن اعْتَزَتْ خدمتك إلى بُنوَّة النُّبوَّة، واتخذه للفوز سبيلاً[١] ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١][٢].

[نسخة منشور العاضد في وزارة أسد الدين]

ونسخة المنشور[٣]: «من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة[٤]، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شِيركُوه العاضدي، عَضَدَ الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله[٥] الذي لا إله إلّا هو، ويسأله أن يُصلّي على محمدٍ خاتم النبيين[٦]، وسيد المرسلين، وعلى آله الطّاهرين، والأئمة المهديين، وسلّم تسليماً»[٧].

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتملٌ على كلام طويل، وحشوٍ غير قليل، على عادة الكُتّاب المتأخرين الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبِّرين، والبلاغة عكس ذلك. قال النبيُّ ﷺ: «بُعثت بجوامع الكَلِم واختُصر لي الكلام اختصاراً»[٨].

ولما استقلَّ أسدُ الدين بالوزارة طلب من القصر كاتبَ إنشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم بن البَيْسَاني[٩]، وكان أبوه من أهل بَيْسان الشَّام. ثم ولي قضاء عَسْقَلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كاتباً بالإسكندرية على باب السُّدرة، ثم إنه اتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه وزاحم به كُتّابَ

---

(١) في صبح الأعشى ٩/ ٤٢٧: واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً.
(٢) انظر صبح الأعشى ٩/ ٤٢٧.
(٣) انظر النص الكامل للمنشور في صبح الأعشى ١٠/ ٨١ ـ ٩٢، وهو من إنشاء القاضي الفاضل، كما في الصبح.
(٤) في صبح الأعشى: «فخر الدولة» بدل: «مجير الأمة».
(٥) في صبح الأعشى: «فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله».
(٦) في صبح الأعشى: «ويسأله أن يصلي على سيدنا محمد خاتم النبيين».
(٧) في صبح الأعشى: «وسلّم تسليماً كثيراً».
(٨) أخرجه بهذا اللفظ السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٦١، والبيهقي في شعب الإيمان ١٤٣٦. وروي الحديث بلفظ: «بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب»، أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٢٢، والتعبير باب ٢٢، والاعتصام باب ١، ومسلم في المساجد حديث ٦، والأشربة حديث ٧١، والنسائي في الجهاد باب ١.
(٩) هو القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، تقدّمت ترجمته.

Marfat.com

القَصْرِ، فثقل عليهم أمرُه، فلما طَلَبَ أسدُ الدين كاتباً أُرسِلَ به إليه، وظنَّ رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم، وأن أسد الدين سيُقتل كما قُتِلَ من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه وقالوا: لعله يُقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا. فكان من أمره ما كان، واستمرَّ في الدولة، ولم يزدد في كل يوم إلا تقدُّماً، بصدقه ودينه وحُسْنِ رأيه، رحمه الله.

وأنفذ العماد قصيدةً طويلة تهنئة لأسدِ الدين، أوَّلُها: [البسيط]

بالجِدِّ أَدْرَكْتَ ما أَدْرَكْتَ لا اللَّعِبِ ... كم راحةٍ جُنِيَتْ مِنْ دَوْحَةِ التَّعَبِ
يا شِيركُوهُ بن شاذي المَلْكُ دعوةَ مَن ... نادى فعرَّف خيرَ ابنٍ بخيرِ أبِ
جرى الملوكُ وما حازوا بركضِهِمُ ... من المدى في العُلا ما حُزْتَ بالخَبَبِ
تَمَلَّ من مُلْكِ مِصْرٍ رُتْبَةً قَصُرَتْ ... عنها الملوكُ فطالت سائرَ الرُّتَبِ
فَتَحْتَ مِصْرَ وأرجو أَنْ تصيرَ بها ... مُيَسِّراً فَتْحَ بيتِ القُدْسِ عن كَثَبِ
قد أمْكَنَتْ أسدَ الدينِ الفريسةُ من ... فَتْحِ البلاد فبادِرْ نحوها وَثِبِ
أنت الذي هو فَرْدٌ من بسالته ... والدِّينُ من عَزْمِهِ في جَحْفَلٍ لَجِبِ
في حَلْقِ ذي الشِّرْكِ من عدوى سُطَاكَ شَجاً ... والقَلْبُ في شَجَنٍ والنَّفْسُ في شَجَبِ(١)
زارت بني الأصفر البيضُ التي لقيتْ ... حُمْرَ المنايا بها مرفوعةَ الحُجُبِ
وإنها نقَدٌ من خَلْفِها أسدٌ ... أرى سلامَتَها مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ(٢)
لقد رَفَعْنا إلى الرَّحمن أيدينا ... في شُكْرِنا ما به الإسلامُ منك حُبي
شكا إليك بنو الإسلام يُتْمَهُمُ ... فَقُمْتَ فيهم مقامَ الوالدِ الحَدِبِ
في كلِّ دار من الإفرنج نادبةٌ ... بما دهاهُمْ فقد باتوا على نَدَبِ
من شَرِّ شاور أَنْقَذْتَ العِبَادَ فكم ... وكم قضيتَ لحزبِ الله من أَرَبِ
هو الذي أَطْمَعَ الإفرنجَ في بلد الـ ... ـإسلام حتى سعَوْا للقَصْدِ والطَّلَبِ
وإنَّ ذلك عندَ اللهِ مُحْتَسَبٌ ... في الحَشْرِ من أَفْضَلِ الطَّاعاتِ والقُرَبِ
أذَلَّه الملك المنصورُ مُنْتَصِراً ... لما دعا الشِّرْكُ: هذا قد تعزَّز بي
وما غَضِبْتَ لدينِ الله مُنْتَقِماً ... إلا لِنَيْلِ رِضَا الرَّحمنِ بالغَضَبِ
وأنتَ مَنْ وَقَعَتْ في الكُفْرِ هَيْبَتُهُ ... وفي ذويه وقوعَ النَّارِ في الحَطَبِ

(١) الشجب: الهم والحزن.
(٢) النقد: جمع نقدة، وهي الصغيرة من الغنم.

Marfat.com

وحين سِرْتَ إلى الكُفَّارِ فانهزموا نُصِرْتَ نَصْرَ رَسُولِ اللَّهِ بالرُّعُبِ[١]
يا محيي الأمة الهادي بدعوته للرُّشْدِ كلُّ غَوِيٍّ منهمُ وغبي
لمَّا سَعَيْتَ لوجهِ الله مُرْتَقِباً ثوابَهُ نِلْتَ عفواً كلَّ مُرْتَقَبِ
أَعَدْتَ نِقْمَةَ مصرٍ نِعْمَةً فَغَدَتْ تقول: كم نُكَتٍ لله في النُّكَبِ
أركبتَ رأسَ سِنانٍ رأسَ ظالمها عَدْلاً وكنتَ لوِزْرٍ غيرَ مُرْتَكِبِ
رُدَّ الخلافةَ عباسيةً ودَعِ الـ (م) عيَّ فيها يصادفْ شَرَّ مُنْقَلَبِ
لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفعى وترسِلَه والحَزْمُ عنديَ قَطْعُ الرَّأْسِ كالذَّنَبِ

وقال العماد في «الخريدة»: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه، وقد أعفى الملك العادل نور الدين ـ قدَّس الله روحه ـ أهلَ دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه[٢]: [البسيط]

لما سَمَحْتَ لأهلِ الشَّامِ بالخَشَبِ عُوِّضْتَ مِصْرَ بما فيها من النَّشَبِ
وإنْ بَذَلْتَ لِفَتْحِ القُدْسِ مُحْتَسِباً للأَجْرِ جُوزيت أجراً غير مُحْتَسَبِ
والأَجْرُ في ذاك عندَ اللَّهِ مُرْتَقَبٌ فيما يُثيبُ عليه خيرُ مُرْتَقِبِ
والذُّكْرُ بالخيرِ بين النَّاسِ تَكْسِبُهِ خيرٌ من الفِضَّةِ البيضاءِ والذَّهَبِ
وَلَسْتَ تُعْذَرُ في تَرْكِ الجهادِ وقد أَصْبَحْتَ تملِكُ من مصرٍ إلى حَلَبِ
وصاحِبُ المَوْصِلِ الفيحاءِ مُمْتَثِلٌ لما تريدُ فبادِرْ فجأةَ النُّوَبِ
فأَحْزَمُ النَّاسِ من قَوَّى عَزِيمَتَهُ حتى ينالَ بها العالي من الرُّتَبِ
فالجِدُّ والجَدُّ مقرونانِ في قَرَنٍ والحَزْمُ في العَزْمِ والإِدْرَاكُ بالطَّلَبِ
فَطَهِّرِ المسجدَ الأقصى وحوْزَتَهُ من النَّجاساتِ والإِشراكِ والصُّلُبِ
عساك تَظْفَرُ في الدُّنيا بِحُسْنِ ثنا وفي القيامةِ تَلْقَى خَيْرَ مُنْقَلَبِ

---

(١) يشير إلى حديث رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، يُرعب مني العدو مسير شهر»، أخرجه البخاري في التيمم باب ١، والصلاة باب ٥٦، والجهاد باب ١٢٢، والتعبير باب ١١، ٢٢، والاعتصام باب ١، ومسلم في المساجد حديث ٣، ٥، ٦، ٧، ٨، والترمذي في السير باب ٥، والنسائي في الغسل باب ٢٦، والجهاد باب ١، والدارمي في السير باب ٢٨، والصلاة باب ١١١، وأحمد في المسند ١/ ٣٠١، ٢/ ٢٢٢، ٢٦٤، ٢٦٨، ٣١٤، ٣٩٦، ٤١٢، ٤٥٥، ٥٠١، ٣/ ٣٠٤، ٤/ ٤١٦، ٥/ ١٦٢، ٢٤٨، ٢٥٦.

(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٧٧.

فصل

في وفاة أسد الدين[١] وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه[٢]

توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة من هذه السنة[٣]، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التُّخَم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شِدَّة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم، فقتله رحمه الله تعالى، وفُوِّض الأمر بعده إلى صلاح الدين، واستقرَّت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام. وبَذَلَ الأموال، وملك الرِّجال، وهانَتْ عنده الدُّنيا فملكها، وشكر نِعْمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللَّهو، وتقمَّص بلباس الجِدِّ والاجتهاد، وما عاد عنه، ولا ازداد إلا جِدًّا، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته. ولقد سمعتُ منه ـ رحمه الله ـ يقول: لما يَسَّرَ الله لي الدِّيار المصرية علمتُ أنه أراد فَتْحَ السَّاحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي. ومن حين استتب له الأمر ما زال يشنُّ الغارات على الفرنج إلى الكَرَك والشَّوْبَك وبلادهما، وغشي الناس من سحائب الإفضال والنِّعَم ما لم يُؤَرِّخ عن غير تلك الأيام. هذا كلُّه وهو وزير متابع للقوم، لكنه مُقوٌّ لمذهب السُّنَّة، غارسٌ في البلاد أهل العلم والفِقْه والتصوف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويَفدون إليه من كل جانب، وهو رحمه الله، لا يخيِّبُ قاصداً، ولا يعدم وافداً. ولما عَرَفَ نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حِمْصَ من نوَّاب أسد الدين، وذلك في رجب من هذه السنة.

وقال ابن الأثير[٤]: أما كيفية ولاية صلاح الدين؛ فإن جماعةً من الأُمراء النُّورِيَّة الذين كانوا بمصر طلبوا التقدُّمَ على العساكر وولاية الوزارة، منهم الأمير

---

(١) انظر ترجمة وافية لأسد الدين شيركوه في «شفاء القلوب في مناقب بني أيوب» ص٢٥ ـ ٤٤ لأحمد بن إبراهيم الحنبلي المتوفى سنة ٨٧٦هـ. منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية سنة ١٩٧٨م. وانظر أيضاً «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٥ ـ ١٨.

(٢) انظر «الكامل» ١٠/ ١٦ ـ ١٨.

(٣) وقيل أيضاً إنه توفي يوم الأحد ثالث عشرين رمضان سنة ٥٦٤هـ. انظر «شفاء القلوب» ص٤٤.

(٤) انظر «الكامل» ١٠/ ١٧ ـ ١٨.

Marfat.com

عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خُسْرو بن تُلَيل[١] ـ وهو ابنُ أخي أبي الهيجاء الهَذَباني[٢] الذي كان صاحب إربل ـ ومنه سيف الدين علي بن أحمد الهَكَّاري[٣] ـ وجَدُّه كان صاحب قلاع الهَكَّارية ـ ومنهم شهاب الدين محمود الحارِمي ـ وهو خال صلاح الدين ـ وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خِلَع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه.

وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظنَّ أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال، كان في ولايته بحكمه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشَّامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشَّامية من يحميها من الفرنج ونور الدين. فامتنع صلاح الدين وضَعُفَتْ نفسه عن هذا المقام، فَأُلْزِمَ به وأخذَ كارهاً «إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجَنَّةِ بالسَّلاسل»[٤] فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجُبَّة والعِمامة وغيرهما، ولقِّبَ الملك النَّاصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحدٌ من أولئك الأُمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه.

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكَّاري[٥] معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إنَّ هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تُلَيل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام

---

(١) خسرو بن تليل: لم يذكره ابن الأثير في «الكامل».

(٢) هو أبو الهيجاء السمين، كان من كبار الأمراء الأكراد، لقب بالسمين لكبر بطن، ذكره المؤلف في الذيل على الروضتين حوادث سنة ٥٩٣، ٥٩٤هـ، والهذباني نسبة إلى الهذبانية، قبيلة كبيرة من الأكراد، وهي القبيلة التي ينتسب إليها السلطان صلاح الدين (انظر وفيات الأعيان ٧/ ١٣٩).

(٣) هو سيف الدين المشطوب الهكاري.

(٤) هو من حديث رسول الله ﷺ، روي بلفظ: «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»، أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٤٤، وأبو داود في الجهاد باب ١١٤، وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٢، ٤٠٦، ٤٤٨، ٤٥٧، ٥/ ٢٤٩، وأخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٥٦، بلفظ: «عجب الله من قوم يساقون إلى الجنة مقرنين في السلاسل».

(٥) هو عيسى بن محمد الهكاري، ضياء الدين، توفي سنة ٥٨٥هـ. تقدّمت ترجمته قبل قليل. ونسبه الهكاري ترجع إلى قبيلة من الأكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جهتها الشرقية (وفيات الأعيان ٣/ ٣٤٥).

الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه فلا يصل إليك. ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلَّفه له. ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه النَّاس ولم يبق غيرك وغير اليارُوقي، فعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصلَه من الأكراد، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك. ووعده وزاد في إقطاعه، فأطاع صلاح الدين أيضاً. وعَدَلَ إلى عين الدولة الياروقي ـ وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً ـ فلم تنفعه رُقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فِرَاقَهُ وقد فات الأمر ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢] وثبت[١] قدم صلاح الدين ورَسَخَ ملكه، وهو نائبٌ عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلِّها، ولا يتصرَّفُون إلا عن أمره.

وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأَسْفَهْسِلار[٢] ويكتب علامته[٣] في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، ولا يفرده في كتاب بل يكتب الأمير الأَسْفَهْسِلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه، فلم يمكنه منعه. فمال النَّاس إليه وأحبُّوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثابت فيه، وضَعُفَ أمر العاضد، وكان كالباحث عن حَتْفِه بظِلْفه.

وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد. ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسَيَّر نور الدين العساكر، وفيهم إخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ـ وهو أكبر من صلاح الدين ـ فلما أراد أن يسير قال له: إن كنتَ تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تَسِرْ، فإنك تفسد البلاد، وأُحضرك حينئذٍ وأعاقبك بما تستحقُّه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائمٌ فيها مقامي، وتخدمه بنفسك كما تخدمني، فسر إليه واشْدُدْ أزره، وساعده على ما هو بصدده، فقال: افعل

---

(١) ثبت: كذا في الأصل، وفي «الكامل»، والصواب: ثبتت.

(٢) الأسفهسلار: معناه في الأصل: مقدّم العسكر، وهو مركب من لفظين: أولهما فارسي وهو «أسفه» ومعناه: المقدم، والثاني تركي ومعناه: العسكر (صبح الأعشى ٣/ ٤٨٣، ٦/ ٧ ـ ٨).

(٣) العلامة: هي ما يكتبه السلطان بخطه على صورة اصطلاحية، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٥٣).

Marfat.com

معه من الخدمة والطّاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى. فكان كما قال.

وقال العماد: لما فُرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم واختلطت أهواؤهم، وكاد الشَّمْل لا ينتظم، والخلل لا يلتئم. فاجتمع الأُمراء النُّورِيَّة على كلمةٍ واحدة، وأيدٍ متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والرَّاية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا مقام عمه، ونحن بحكمه. وألزموا صاحب القصر بتوليته، ونادت السعادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفضَّ ختوم الخزائن، وأنضَّ رسومَ المزائن، وسلَّط الجُودَ على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفَرَّق ما جمعه أسد الدين في حياته. وأنارت على منار العُلا أناة آياته، ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته، وأحبُّوه، وما زالت محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم كأنَّهم ذوو قرابته، وما زاده الملك ترفُّعاً، وما أفاده إلا تأصلاً في السَّماح وتفرُّعاً، وضمَّ من أمر المملكة ما كان منشوراً، وكتب له العاضد صاحبُ القصر منشوراً، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السُّحْر الحلال، والعذب الزُّلال.

ثم أورده العماد، وهو شبيه بمنشور أسد الدين عمه، وجرى القلم فيه بما خَطَّ له القلم في الأزل من وَصْفِ جهاده وسِلْمه. ففي ذلك المنشور[1]: «والجهاد أنتَ رضيع دَرِّه[2]، وناشئة حَجْره، وظهور الخيل مواطِنُك، وظلال الخيام مساكنك[3]، وفي ظلمات قساطله[4] تُجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تُتْلَى مناقبك[5]. فشمِّرْ له عن ساق من القَنَا، وخُضْ فيه بحراً من الظُّبى[6]، واخْلُلْ في عُقَدِ كلمة الله وثيقات الحُبى[7]، وأَسِل الوهاد بدم العِدَى، وارفع برؤوسهم الرُّبا، حتى يأتيَ الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مَذْخُوراً لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك»[8].

---

(١) انظر النص الكامل للمنشور في صبح الأعشى ١٠/ ٩٢ ـ ١٠٠، وهو من إنشاء القاضي الفاضل.

(٢) في صبح الأعشى: والجهاد فأنت راضع دره.

(٣) في صبح الأعشى: وظلال الجبل مساكنك.

(٤) في الصبح: في ظلمات مشاكله.

(٥) في الصبح: تتلى ميامنك.

(٦) الظبا: جمع ظبة، وهو حد السيف والسنان والخنجر وما أشبهها.

(٧) حبا حبوّاً كسموا: دنا. وحبت الأضلاع إلى الصلب: اتصلت، وحبا المسيل: دنا بعضه من بعض، ولعل المراد: وثيقات الاتصال والارتباط.

(٨) في «الصبح»: ومشهوداً به يوم مقامك بين يديه من لسان إمامك.

Marfat.com

وفي طُرَّته بالخط العاضدي، ولم يذكره العماد في كتابه[١]: هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحُجَّته عند الله سبحانه عليك، فأوفِ بعهدك ويمينك، وَخُذْ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، ولمن مضى بجدِّنا رسول الله ﷺ أحسن أُسوة، ولِمن بقي بشقته بنا[٢] أعظم سَلْوة ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

يعني بمن مضى أسد الدين، وبمن بقي صلاح الدين.

ثم قال العماد: وهذا آخِرُ منشورٍ طُويت به تلك الدولة وخُتمت، وتبدَّدَت عقودها وما انتظمت.

ووصلَتْ كُتُبُ صلاح الدين إلينا إلى الشَّام، بما تسنَّى له من المَرَام، ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء، ولمن تأخَّر عنه بالخِلع والعطاء. وترددت الكتب الصَّلاحية بذكر الأشواق، وشكوى الفِراق، وشرح الاستيحاش، وبَرْحِ القلوب العِطاش، فإنَّ أصحابنا وإن ملكوا، ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أُمَّةٍ لا يعرفونها، بل ينكرونها ولا يألفونها، ورأوا وجوهاً هناك بهم عابسة، وأعيناً للمكايد متيقظة، وعن الودِّ ناعسة، فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى عقيدتهم معاقدين مخالفين.

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً، أوله: [الخفيف]

أيها الغائبون عنِّي وإنْ كنـ ... ـتمْ لقلبي بِذِكْرِكُمْ جيرانا
إنني مُذْ فَقَدْتُكُمْ لأراكم ... بعيونِ الضَّميرِ عندي عِيانا

فسألني المكتوب إليه أن أكتب جوابه، فقلتُ: [الخفيف]

أيُّها الظَّاعنون عني وقلبي ... معهم لا يفارِقُ الأَظْعانا
مَلَكُوا مِصْرَ مِثْلَ قَلبي وفي هـ ... ـذا وهاتيك أصبحوا سُكَّانا
فاعْدِلُوا فيهما فإنَّكُمُ اليَوْ ... مَ مَلَكْتُمْ عليهما سُلْطانا
لا تَرُوعوا بالهَجْرِ قَلْبَ مُحبٍّ ... أَوْرَثَتْهُ رَوْعَاتُه الخَفَقَانَا
حَبَّذا مَعْهَدٌ قَضَيْنا به العَيْـ ... ـشَ فَكُنَّا بِرَبْعِهِ جِيرَانا
إذ وَجَدْنا من الحوادثِ أمناً ... وأَخَذْنا من الخُطُوبِ أَمانا
وَرَتَعْنا من المُنَى في رياضٍ ... وسَكَنَّا من المغاني جِنَانا

(١) انظر صبح الأعشى ٩/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨.
(٢) في صبح الأعشى: ولمن بقي بقربنا أعظم سلوة.

Marfat.com

وبعد، فإنَّ وفود الهناء، وأمداد الدُّعاء، متواصلةٌ على الولاء، صادرة عن محض الولاء، إلى عالي جنابه المأنوس، ومنيع كَنَفِه المحروس، فليهنه الظَّفَران: بالملك وبالعَدُوّ، وفَرْع هضبات المجد والعُلُوّ، وكيف لا يكون النَّصر مساوقاً لدينٍ هو صلاحُه، والتأييد مرافقاً لعَزْم به نجاحه وفلاحه: [البسيط]

فالشَّام يَغبِطُ مِصْراً مُذْ حَلَلْتَ بها ... كما الفُرَاتُ عليكم تحسُدُ النِّيلا
نِلْتُمْ من المُلْكِ عَفْواً ما الملوكُ به ... عُنُوا قديماً ورامُوهُ فما نِيلا

قال العماد: ورثيتُ أسدَ الدين بقصيدةٍ خدمت بها نور الدين، وعَزَّيت بها أخاه نجم الدين، منها: [الطويل]

تَضَعْضَعَ في هذا المُصَابِ المُبَاغِتِ ... من الدِّين لولا نورُه كلُّ ثابتِ
فأيَّامُ نورِ الدينِ دامَتْ منيرةً ... لنا خَلَفٌ من كلِّ مُودٍ وفائت
فما بالُنا نُبْدِي التَّصامُمَ غَفْلَةً ... وداعي المنايا ناطِقٌ غيرُ صامتِ
نُؤَمِّلُ في دارِ الفَنَاءِ بقاءنا ... ونرجو من الدُّنيا صداقةَ ماقِتِ
وما النَّاسُ إلّا كالغُصُونِ يَدُ الرَّدى ... تقرِّبُ منها كلَّ عُودٍ لناحِتِ
لقد أبلَغَتْ رُسْلَ المنايا وأَسْمَعَتْ ... ولكنَّها لم تحظَ منا بناصِتِ
فلهفي على تلك الشَّمائلِ إنها ... لقد كَرُمَتْ في الحُسْنِ عن نَعْتِ ناعتِ

وله من أُخرى عزَّى بها أخاه نجم الدين أيوب، وولده ناصر الدين محمداً: [الكامل]

ما بَعْدَ يَوْمِكَ للمعنَّى المُدْنَفِ ... غيرُ العَويلِ وَحَسْرَةِ المُتَأَسِّفِ
ما أجرأ الحَدَثان كيف سطا على الـ ... ـلأسدِ المَخوفِ سُطاً ولم يتخوَّفِ
من ذا رأى الأسدَ الهصورَ فريسةً ... أم أبصر الصُّبْحَ المنيرَ وقد خَفِي
من ثابتٌ دونَ الكُماةِ سواه إنْ ... زَلَّتْ بهم أقدامُهُمْ في المَوْقِفِ
ما كان أسنَى البَدْرَ لو لم يَسْتَتِرْ ... ما كان أبهى الشمسَ لو لم تَكْسِفِ
ما كنتُ أخشى أن تُلِمَّ مُلِمَّةٌ ... يوماً وأنت لِكَرْبِها لم تَكْشِفِ
أيام عُمْرك لم تَزَلْ مقسومةً ... لله بينَ تعبُّدٍ وتَعَرُّفِ
متهجداً لعبادةٍ أو تالياً ... من آيةٍ أو ناظراً في مُصْحَفِ
فُجِعَ النَّدى والبأسُ منك بحاتمٍ ... وبحيدَرٍ والحِلْمُ منك بأَحْنَفِ
بالمُلْكِ فُزْتَ وحُزْتَه عن قُدْرَةٍ ... ومضيتَ عنه بسِيرَةِ المُتَعَفِّفِ
ووُصِفتَ يا أسداً لدينِ محمدٍ ... مدحاً بما مَلِكٌ به لم يُوصَفِ
وَقَفَوْتَ آثارَ الشريعةِ كُلِّها ... وقد اهتدى مَن للشَّريعة يقتفي

Marfat.com

أأنِفْتَ من دُنْياك حينَ عَرَفْتَها فَلَوَيْتَ وَجْهَ العارِفِ المتنكفِ
يا ناصِرَ الدينِ اسْتَعِذْ بتصبُّرٍ مُدْنٍ إلى مَرْضَاةِ رَبٍّ مُزْلِفِ
وتعزَّ نجمَ الدينِ عنه مهنَّأً أبدَ الزَّمانِ بمُلك مِصْرَ ويُوسُفِ
لا نستطيعُ سوى الدُّعاءِ فكلُّنا إلا بما في الوُسْعِ غيرُ مُكَلَّفِ

ولعمارة اليمني في صلاح الدين مدائح، منها قوله: [الطويل]

لكَ الحَسَبُ الباقي على عَقِبِ الدَّهْرِ بل الشَّرَفُ الرَّاقي إلى قِمَّةِ النَّسْرِ
كذا فليكن سعي الملوكِ إذا سَعَتْ بِها الهِمَمُ العُلْيا إلى شَرَفِ الذِّكْرِ
نَهَضْتُمْ بأعباءِ الوزارةِ نَهْضَةً أقَلْتُمْ بها الأقدام من زَلَّةِ العَثْرِ
كَشَفْتُمْ عن الإقليمِ غُمَّتَهُ كما كَشَفْتُمْ بأنوارِ الغِنى ظُلْمَةَ الفَقْرِ
حَمَيْتُمْ من الإفرنج سِرْبَ خلافةٍ جَرَيْتُمْ لها مُجْرى الأمانِ من الذُّعْرِ
ولما استغاثَ ابنُ النبيِّ بِنَصْرِكُمْ ودائرةُ الأنصارِ أضْيَقُ من شِبْرِ
جَلَبْتُمْ إليه النَّصْرَ أَوْساً وخَزْرَجاً وما اشتُقَّتِ الأنصارُ إلّا مِنَ النَّصْرِ
كتائبُ في جَيْرونَ منها أواخِرٌ وأوَّلُها بالنِّيلِ من شاطِئَيْ مِصْرِ
طَلَعْتُمْ فَأَطْلَعْتُمْ كواكبَ نُصْرَةٍ أضاءَتْ وكان الدِّينُ ليلاً بلا فَجْرِ
وآبَتْ إليكُمْ يا ابنَ أيوبَ دولةٌ تُراسِلُكُمْ في كلِّ يوم مع السَّفْرِ
حمى اللّهُ فيكُمْ عَزْمَةً أسديَّةً فَكَكْتُمْ بها الإسلامَ مِنْ رِبْقَةِ الأَسْرِ
أَخَذْتُمْ على الإفرنج كُلَّ ثنيَّةٍ وقُلْتُمْ لأيدي الخيلِ مُرِّي على مُرِّي
لئن نَصَبوا في البَرِّ جِسْراً فإنَّكُم عَبَرْتُمْ بِبَحْرٍ من حديدٍ على الجِسْرِ
طريقٌ تقارَعْتُمْ عليها مع العِدَى فَفُزْتُمْ بها والصَّخْرُ يُقْرَعُ بالصَّخْرِ
وأَزْعَجَهُ مِنْ مِصْرَ خَوْفٌ يلزُّهُ كما لُزَّ مهزومٌ من اللَّيلِ بالفَجْرِ
وكم وقعةٍ عذراء لما اقْتَضَضْتَها بسيفِك لم تَتْرُكْ لغيرِك من عُذْرِ
وأيديكُمُ بالبأسِ كاسِرَةُ العِدَى ولكنَّها بالجودِ جابرةُ الكَسْرِ
أبوكَ الذي أضحى ذخيرةَ مَجْدِكُمْ وأنتَ له خيرُ النَّفائس والذُّخْرِ
ومن كنتَ معروفاً له فاستفزَّه بمثلكَ تِيهٌ فهو في أَوْسَعِ العُذْرِ
فكيفَ أبٌ أصبحتَ نارَ زِنادِه وإلّا كَنُورِ البَدْرِ من سَنَهِ البَدْرِ
توقره وسط النَّدِيِّ كرامةً وتحمِلُ عنه ما يَؤُودُ من الوِقْرِ[1]

(١) النديّ: مجلس القوم نهاراً.

Marfat.com

وتَخلُفُه حَزباً وسِلماً خلافةً تُؤَلِّفُ أَضداداً من الماءِ والجمْرِ
وكم قُمتَ في بأسٍ وجودٍ ورُتبةٍ بما سرَّه في الخَطْبِ والدَّستِ والثَّغرِ
ولو أَنطَقَ اللّهُ الجماداتِ لم تَقُمْ لِنِعمَتِكُمْ بالمُستَحِقِّ من الشُّكرِ
يَدٌ لا يقوم المسلمونَ بِشُكرِها لكم آلَ أيوبٍ إلى آخرِ الدَّهرِ
بِكُمْ أَمِنَ الرَّحمنُ أعظَمَ يَثرِب وأَمَّنَ أركانَ البَنِيَّةِ والحِجْرِ(١)
ولو رَجَعَتْ مِصرٌ إلى الكُفرِ لانطوى بساطُ الهُدَى من ساحةِ البَرِّ والبَحرِ
ولكنْ شَدَدْتُمْ أَزْرَه بوِزارةٍ غدا لَفظُها يُشتَقُّ من شِدَّة الأَزْرِ
فهُنِّيتُمُ فَتحاً تقدَّمَ جُلُّه وبَشَّرَ أَنَّ الكلَّ يتلُو على الإثرِ
وما بَقِيَتْ في الشِّرْكِ إلّا بقيةٌ تَتِمَّتُها في ذِمَّة البيضِ والسُّمْرِ
وعندَ تَمامِ المُلكِ آتي مهنئاً ومُلتَمِساً أَجرَ الكَهانةِ والزَّجْرِ(٢)
ولولا اعتقادي أَنَّ مَدحَك قُربَةٌ أرجّي بها نَيلَ المثوبةِ والأَجرِ
لما قُلتُ شِعراً بعد إعفاء خاطري ولي سنواتٌ منذُ تُبتُ عن الشِّعرِ
فأَوصِ بيَ الأيامَ خيراً فإنّها مُصَرَّفةٌ بالنَّهي منك وبالأمرِ
وجائزتي تسهيلُ إذني عليكُم وملقاكُمُ لي بالطَّلاقةِ والبِشرِ

وقال أيضاً من قصيدةٍ: [الخفيف]

يا شبيه الصِّدِّيقِ عَدْلاً وَحُسْنا وسَمِيًّا حَكَاه معنًى ومغنى
هذه مِصرُ يوسفٍ حَلَّ فيها يوسُفٌ مالكاً وما حَلَّ سِجْنا
أنتَ حرَّمتَ أنْ يُثَلَّثَ فيها بِسوى اللّهِ وحدَه أو يُثَنَّى
إنّما المُلكُ والوِزارَةُ جِسْمٌ أنتَ رُوحٌ فيه وفي اللَّفظِ معنى

وقال أيضاً من قصيدةٍ: [السريع]

مُلكُ صلاح الدين لا قُوِّضَتْ أطنابُهُ مُلكُ التُّقى والصَّلاحْ
سِيرةُ عَدْلٍ حَسَّنَتْ عندنا ما كانَ من وَجْهِ اللَّيالي القِباحْ
سافَرَ في الدُّنيا وأقطارِها ذِكْرٌ غدا عنهُ جميلاً وراحْ
قُلْ لابنِ أيوبٍ وكمْ ناصحٍ أنفعُ ممن هو شاكي السِّلاحْ
حاربْ على مِثْلِ نجوم السَّماءِ فمُلكُ مِصرٍ ما عليه اصْطِلاحْ

---

(١) البنية: هي الكعبة المشرفة، إذ هي أشرف مبنى.
(٢) الزجر: العيافة والتكهن. وزجر الطير: أثارها ليتيمن بسنوحها، أو يتشاءم ببروحها.

Marfat.com

قــولا لــمــن فــي عَــزْمــهِ فــتــرةٌ ارجــعْ إلــى الــجِــدِّ وخَــلِّ الــمُــزَاحْ
فــالــقُــدْسُ قــد أذَّن إغــلاقُــهُ عــلــى يَــدَي يــوسـفَ بــالانــفــتــاحْ

وقال أيضاً من قصيدةٍ: [الطويل]

ونُبِّتَ بِمِصْرَ عن سَمِيِّكَ يُوسُفٍ كما نابَ عن سَكْبِ الحَيا واكِفٌ سَكْبُ
حذوتَ على سَجْلَيْ نَدَاه وَهَدْيِهِ وإن كنتَ لا سِجْنٌ حواكَ ولا جُبُّ
ووافَقْتَهُ في الصَّفْحِ عن كلِّ مُذْنِبٍ فما منك تَثْرِيبٌ وإنْ عَظُمَ الخَطْبُ

وللحكيم عبد المنعم الجِلْياني[1] من قصيدةٍ طويلة: [البسيط]

أبو الـمُـظَـفَّـر مـأوى كـلِّ مُـضْـطَـهَـدٍ بـحـلـمِـهِ ونَـدَاه يُـضْـرَبُ الـمَـثَـلُ
مـهـمـا يَـمِـلْ جـائِـرٌ أو عـائِـثٌ عَـمِـهٌ فـعـنـد عَـدْلِ صـلاحِ الـدِّيـن يَـعْـتَـدِلُ
أحـيـا بـه الـلَّـهُ مِـصْـراً فـهـي نـاشِـرة وافـتـكَّـهـا مـن عـدوٍّ مـا بـه قِـبَـلُ
كـم لـلـفـرنـج بـهـا وِزداً ومـنـتَـجـعـاً ونـارُهُـمْ حـولَـهـا تـذكُـو وَتَـشْـتَـعِـلُ
فـأطـفـأ الـنَّـاصِـرُ الـمـنـصـورُ جَـذْوَتَـهُـمْ وأَدْبَـرُوا بـقـلـوبٍ شَـهْـمُـهـا وَجِـلُ
مَـلْـك تـقـلَّـد سِـلْـكَ الـمـلـكِ مُـنْـتَـظِـمـاً وقـال لـلـمـال: هـذا مـنـك لـي بَـدَلُ
فَـفَـرَّقَ الـمـالَ جَـمْـعـاً لـلـقـلـوبِ بـه وحَـسْـبُـهُ فـيـهـمُ إدراك مـا سـألـوا
إنَّ الـمـلـوكَ الـذيـن امـتـدَّ أمـرهُـمُ لـم يَـخْـزُنُـوا المالَ بل مهما حوَوْا بذَلُوا
كـذا الـسِّـيـاسـةُ فـالأجـنـادُ لـو عَـلِـمـوا بُـخْـلَ الـمـلِـيـك وجـاءَتْ شِـدَّةٌ خَـذَلـوا

(١) هو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الوادي آشي الغساني، حكيم الزمان، أبو الفضل الجلياني الأندلسي، من أهل جليانة، وهي حصن من أعمال وادي آش بالأندلس، انتقل إلى دمشق، وأقام فيها، وكان السلطان يجله ويحترمه، وله فيه مدائح كثيرة أشهرها «المدبجات» والتي تسمى «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر». ولد سنة ٥٣١هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٠٣هـ، وقيل: سنة ٦٠٢هـ، من تصانيفه: «أدب السلوك»، «تحرير النظر»، «تحفة الجوهرية» قصيدة في فتوحات صلاح الدين الأيوبي، «جامع أنماط السائل في العروض والخطب والرسائل»، «ديوان الحكم وميدان الكلم»، «ديوان الغزل والتشبيب»، «ديوان المبشرات والقدسيات»، «ديوان المديح»، «سر البلاغة وصنايع البديع في فصل الخطاب»، «مذبحة رهان الأذهان في مدى ذكر الملك الناصر على ممر الزمان»، «مشارع الأشواق» في التصوف، «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر من خصائص الملك الناصر». (انظر: كشف الظنون ٥/ ٦٢٩ ـ ٦٣٠، نفح الطيب ٣/ ٣٥٧، ٣٧٨ ـ ٣٧٩، ٦/ ١٠٠، معجم البلدان ٢/ ١٥٧، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٣٠ ـ ٦٣٥، الغصون اليانعة، لابن سعيد ص١٠٤، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧، الوافي بالوفيات ٢/ ٤٠٧).

Marfat.com

فصل

[رواية ابن أبي طي لقصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين]

هذا الذي ذكرناه من قِصَّة شاور وما جرى بسببه في الدِّيار المصرية إلى أن تمَّت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زياداتٍ وفوائد في كتابِ ليحيى بن أبي طي الحلبي[1] في «السِّيرة الصَّلاحية»[2]، فأحببتُ ذكره مختصراً.

ذكر أنَّ الملك الصَّالح طلائع بن رُزِّيك[3]؛ وزير الدِّيار المصرية، لما قُتل في رمضان سنة سِتٍّ وخمسين، بتدبير عمة العاضد عليه، أوصى عند موته ابنَه رُزِّيك بشاور، وقال له: لا تزلزله من ولايته، فإنه أسلم لك، ويقال: إنه أنشد أبياتاً، منها: [الكامل]

فإذا تبدَّد شَمْلُ عِقْدكما ... لا تأمَنَا من شاور السَّعْدِي

وكان شاور متولي قُوص والصَّعيد الأعلى؛ فلما دُفن الصَّالح استوزر ابنه رُزِّيك ولقب بالعادل. ولما استقرَّت أحواله أوسل إلى عمَّة العاضد فخنقها، واجتمع إلى رُزِّيك أولادُ عمته، ومن جُملتهم عز الدين حسام، وأشاروا عليه بعزل

---

(١) ابن أبي طي: هو يحيى بن حميدة بن ظافر بن علي الغساني الحلبي، الأديب المعروف بابن أبي طي، مؤرخ شيعي، ولد سنة ٥٧٥هـ، واشتغل بصنعة النجارة مع أبيه، ثم تركها، وحفظ القرآن، ومال إلى طلب العلم، ثم انتقل إلى تعليم الصبيان وإقراء القرآن إلى سنة ٥٩٧هـ، ثم اختص بتعليم ابن لأحد الوزراء إلى سنة ٦٠٠هـ، ثم ترفع عن التعليم ولزم منزله وطلب مشايخ الأدب، فقرأ عليهم ودرس، ثم أقبل على نظم الشعر، ومدح الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وارتفعت منزلته عنه، وولاه نقابة الفتيان سنة ٦٠٩هـ، ثم صنف كتباً في التاريخ وتفسير القرآن الكريم والفقه والأصول، توفي سنة ٦٣٠هـ، له من الكتب: «حوادث الزمان» في التاريخ، «سلك النظام في تاريخ الشام»، «طبقات العلماء»، «عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر»، «كنز الموحدين في سيرة الملك صلاح الدين» «مختار تاريخ العرب»، «معادن الذهب في الطب»، «مناقب الأئمة الاثني عشر»، «المنتخب في شرح لامية العرب». (كشف الظنون ٦/ ٥٢٣، لسان الميزان ٦/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤، أعيان الشيعة ١٠/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧، سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤).

(٢) هو كتاب «كنز الموحدين في سيرة الملك صلاح الدين» انظر الحاشية السابقة.

(٣) هو الصالح بن رزيك، تقدّمت ترجمته.

Marfat.com

شاور، فامتنع، ثم ألحُّوا عليه، فأجاب. وبلغ شاور فجاهر بالعصيان، وجمع العربان وأهل الصَّعيد وسار إلى القاهرة، وخرج إليه جماعةٌ من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رُزِّيك تحت الليل، فَضَلَّ الطريق وتاه، فوقع عند إطْفِيح، وثَمَّ بيوت عرب، فقبضوا عليه، وحُمل إلى شاور وقد دخل القاهرة وتسلَّمها، وأُخرجت إليه خلع الوزارة، وتَمَّ أمرُهُ.

ولما حصل رُزِّيك عند شاور أكرمه وصلب الذي أتى به، ونادى عليه: هذا جزاء من لا يراعي الجميل. وكان للصَّالح إليه إحسان، وتفرَّق آل رُزِّيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رُزِّيك بأموال، وصار إلى حماة، فأقام بها واشترى القُرى، ولم يزل بها إلى أن مات. وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعينَ ألف دينار، فوفَوْا له وردُّوها عليه، ثم أراد تقي الدين[1] أخذها منه، فقال: من العجب أنَّ الفرنج تفي لي بردِّها وتأخذها أنت مني. فكفَّ عنه.

قال: وتمكَّن شاور، وكان له ثلاثة أولاد: طيّ، والكامل، وسليمان، فتبسَّطوا على الناس، وتعاظموا، فمَجَّتهم الأنفس.

[مقتل رزيك بن طلائع وطي وسليمان ابني شاور]

وكان مُلْهَم وأخوه ضِرْغام من صَنائع الصَّالح بن رُزِّيك، فلما شاهدا ميل النَّاس عن شاور بسبب أولاده أخذا في مراسلة رُزِّيك بن الصَّالح، وهو في السجن، والعمل له في إعادته إلى الوزارة، واتصل ذلك بطيّ بن شاور، فدخل

(١) هو الملك المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، تقي الدين بن نور الدين. كان شجاعاً، شديد البأس، له شعر حسن، كسر عسكر الروم وكانوا عشرين ألفاً، سار إلى البلاد التي زادها إياه عمه، وهي حرّان وغيرها، فامتدت عينه إلى البلاد المجاورة، واستولى على السويداء، وحاني، وأيقع مع بكتمر صاحب خلاط، فكسره وحصره في خلاط، وتملك معظم البلاد، ثم رحل ونزل ملازكرد وضايقها، وكان في صحبته ولده المنصور محمد، فعرض للمظفر مرض وتزايد به حتى توفي في يوم الجمعة لأحدى عشرة بقيت من رمضان سنة سبع، وقيل: سنة ست وثمانين وخمسمائة، فأخفى ولده موته، ورحل من ملازكرد، ووصل به إلى حماه، وقيل: إنه دفن بميافارقين، ثم نقل ودفن بظاهر حماه، وبني إلى جانبه مدرسة. واتفق أن حسام الدين محمد ابن ست الشام ـ أخت صلاح الدين ـ مات في الليلة التي توفي فيها المظفر، فأصيب السلطان بيوم واحد بابن أخيه وابن أخته (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٣٤ ـ ٢٣٥، وانظر أيضاً ترجمته في الفتح القسي ص٥٦٦، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٨، السلوك ١/ ١٠٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٤٨، طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢٨٦، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢١٦، العبر ٤/ ٢٦٢، كنز الدرر ص١١٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٦، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٣، شذرات الذهب ٤/ ٢٨٩).

Marfat.com

على أبيه وقال له: أنت غافل، ومُلْهَم وضِرْغام يفسدان أمرك، وقد شرعا في أمر رُزِّيك، واستحلفا له جماعة من الأُمراء، ولا يمكن تلافي حالك إلا بقتل رُزِّيك. فقال له شاور: إنَّ الصَّالح أولاني جميلاً، وبسببه حللتُ هذا المحل. فتركه ولده طيّ، ودخل على رُزِّيك فقتله في سجنه، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته؛ ونُمي الخبر إلى ضِرْغام وأخيه مُلْهَم فثارا وأثارا من استحلفاه من الأُمراء، وزحفَا بالعساكر إلى شاور، فانهزمَ وخرجَ من باب القاهرة، وهرب إلى الشَّام، وأدرك ضرغام ولديه طيئاً وسليمان فقتلهما، وأَسَرَ الكامل، فأخذه مُلْهَم واعتقله عنده، وأراد ضِرْغام قتله فمنعه منه مُلْهَم، وحَفِظَ له جميلاً كان قد فعله معه.

[ولاية ضرغام الوزارة في مصر]

واستقرَّ أمر ضِرْغام في الوِزَارة، وخُلِعَ عليه، ولقِّب بالملك المنصور. ولما استقرَّ به الأمر بلغه أن جماعةً من الأُمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاور ـ وكان صار إلى الشَّام ـ فأخذ في إعمال الحيلة عليهم، وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلاً، فقتلهم جميعاً، ولم يتعرَّض لأموالهم ولا لمنازلهم. وقيل: إنه قتل منهم سبعين أميراً، ويقال: إنه جعلهم في توابيت وكتب على كلِّ تابوتٍ اسمَ صاحبه، فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه، وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها لأنه أضعفَ عسكر مصر بقتل الأمراء.

وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحقُّقِهِ قتل ولديه. ولما وصل إلى بُصْرى اتصل خبره بنور الدين، فندب جماعة إلى تلقِّيه، وأنزله في جَوْسَق[1] الميدان الأخضر، وأحسن ضيافته وإكرامه. ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصُّوفي وجماعة من وجوه الدِّمَشْقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل، وسلِّموا عليه، وعرِّفوه أعذارنا في التقصير في حَقِّه، وسَلُوه فيما قَدِمَ، وما حاجتُهُ، فإن كان ورد علينا مختاراً للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأرَبه وأَوَده، وتكون عوناً له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته. فخرج الجماعة إليه بالرِّسالة، فشكر إحسان نور الدين، وسكتَ عما وراء ذلك. فسأله القوم الجواب، فقال: إذا لم يبيَّت الرأي جاء فطيراً. فعاد القوم إلى نور الدين، وَعرَّفوه ما دار بينهم وبينه، فأمر بالعَوْد إليه من غدِ ذلك اليوم، فعادوا، وطلبوا الجواب، فسكت أيضاً وأطال، ثم قال: إن رأى نورُ الدين ـ أطال الله بقاءه ـ الاجتماع بي، فله علوُّ الرأي. فعرَّفوا

(١) الجوسق: معرّب وأصله كوشك بالفارسية، والجوسق: القصر.

Marfat.com

نور الدين بمقالته، فأجاب نور الدين إلى أن يكون الاجتماع على ظَهْرٍ بالميدان الأخضر. وركب نور الدين من الغد في وجوه دَوْلَته وخواصِّ مملكته في أحسن زِيٍّ وأكمل شارة. فلما دخل الميدان ركب شاور من الجَوْسَق، والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجَّل أحدٌ منهما لصاحبه. ثم سارا من موضع اجتماعهما، وهو نصف الميدان، إلى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر.

وأما ضِرْغام فإنه حين استقرَّ به الأمر أنشأ كتاباً إلى نور الدين، على يد علم الملك ابن النَّحَّاس[1]، يُظْهر فيه الطَّاعة ويعرِّض بخِذْلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القَبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق. فلما كان بظاهر الكَرَك أخذه فيليب بن الرفيق الفرنجي، وحصل على جميع ما كان معه، وانهزَم علم الملك بنفسه، وتوجَّه إلى السَّاحل، وسار إلى مصر.

وفي هذه الأيام أنفذ نور الدين، واستحضر أسد الدين شِيركُوه من إقطاعه من الرَّحبة، وكان نور الدين قد تيمَّن بأسد الدين، وَتَبرك بميمون نقيبته، لأنه لم يرسله في أمرٍ إلا نجح، ولم يولجه في مضيقٍ إلا انفتح. ولما حضر أسد الدين إلى دمشق أخلاه نور الدين، وتحدَّث معه بأشياء في أمر مصر، وأمرَه بالاستعداد، وكان نور الدين قد أزاح عِلَّة العسكر الذي يريد تسييره إلى مصر، فخرج من يومه.

وكان شاور قد أطمع نور الدين في أموال مصر، ورغَّبه في ملكها، وأنه إذا ملكها كان من قِبَلِه فيها.

ولما بلغ شاور استتبابُ أمر العسكر سأل عن المقدَّم عليه، فقيل له أسد الدين شِيركُوه، فلم يطب له ذلك، لأنه ظَنَّ أن التقدمة تكون له، فلما زُوحم بهذا العود سُقِطَ في يده، وَفُتَّ في عَضُده، ولم يجد بُدًّا من المسير، فخرج واجتمع

---

(١) علم الملك ابن النحاس: هو أبو فراس يحيى بن جعفر بن عبد الجليل، الحميري المصري، من أمراء الدولة المصرية، خدم السلطان صلاح الدين، وقدم معه الشام في خدمة الملك المظفر، تقي الدين، عمر بن شاهنشاه بن أيوب، أورد له العماد الكاتب نتفاً من أشعاره. وقال ابن الفوطي: كان جده يعرف بالقائد مصطنع الدولة، ويعرف بابن النحاس، ولم يكن في أجداده من كان نحاساً، إنما ابتاع داراً بالإسكندرية من رجل يعرف بابن النحاس، فلما سكن الدار قيل له: ابن النحاس، وهو من ولد تميم بن المعز الصنهاجي، توفي سنة ٥٨٩هـ. (انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ٢/ ١٢١ ـ ١٢٣، تلخيص مجمع الآداب، لابن الفوطي ٤/ ٦٣٠ ـ ٦٣١.

Marfat.com

بأسدِ الدين، وسارا جميعاً حتى وصلوا أطرافَ البلاد المصرية، ونزلوا على تلٍّ في الحوْف قريبٍ من بِلْبِيس يُعْرف بتل بسطة، وضربوا خيامهم هناك.

ولما اتصل بضِرْغام خبرُ ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشَّامية جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتَخرج جريدة، وتَلقى العساكر الشامية بصَدْر ـ وهو على يومين من القاهرة ـ فإنهم لا يثبتون، لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، ولمكان قِلَّة الماء عليهم، لأن المسافر إلى مصر يحمل الماء من أَيْلَة مسيرة ثلاثة أيام. فلم يَرَوْا ذلك، واختاروا أن يلقوهم على بِلْبيس. فأمر ضِرْغام الأمراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زِيٍّ وأكمل عُدَّة، والمقدَّم عليهم ناصر الدين مُلْهَم؛ أخو ضِرْغام، وجاؤوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلاً عليه.

ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر، وأنهم قد ملكوا عليهم الجهات، وسدُّوا منافذ الطُّرقات، قال لشاور: يا هذا، لقد أرهقتنا وغَرَّرتنا، وقلتَ إنه ليس بمصر عساكر، فجئنا في هذه الشرذمة! فقال له شاور: لا يهولَنَّك ما تشاهد من كثرة الجموع، فأكثرها الحاكة والفلاحون الذين يجمعهم الطَّبْلُ وتفرقهم العصا، فما ظنُّك بهم إذا حمي الوطيس وكَلِبَت الحرب! وأما الأمراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي، وسترى ذلك إذا لقيناهم. ثم قال: أريد أن تأمر العساكر بالاستعداد والركوب، ففعل، ونهاهم شاور عن القِتال.

ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمي النهار، والتهبَ الحديدُ على أجساد الرِّجال، فضرب أكثرُ أهل مصر الخيم الصِّغار، وخلعوا السِّلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظلِّ. فأمر شاور الناس بالحملة، فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه، وأطلق عِنانه وولَّى منهزماً. وتركوا خيمهم وأموالهم ليس لها حافظ، فاحتوى عليها أصحابُ أسد الدين، وأُسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين، ولم يمكن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا. وساق أسد الدين وشاور في إثر النَّاس، ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياماً، وراسل شاور العاضد في إصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له.

وكان ضِرْغام صار إلى تحت القصر وقال: أريد أمير المؤمنين يُكلِّمني لأسأله عما أفعل. فلم يجبه أحد، فذهب على وجهه منهزماً، وخرج من باب زُوَيْلَة، والعامة تلعنه وتصيح عليه، فالتحقه رجلٌ من أهل الشَّام ليقتله، فقال له ضِرْغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك مُناك. فلم يقبل منه، وحمل عليه فطعنه، فأرداه ونزل إليه، واحتزَّ رأسه وحمله إلى أسد الدين، وأعلمه بما جرى بينهما، فصَعُبَ على

Marfat.com

أسد الدين وأوجعه ضرباً، وأراد قتله، فشفع فيه شاور. ودخل شاور القاهرة وقتل مُلْهماً أخا ضِرْغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار مُلْهَم، وكان معتقلاً فيها، وخرج معه القاضي الفاضل وكان أيضاً معتقلاً فيها معه.

واستقام أمر شاور في الوزارة، وأقام أسد الدين على المَقْس ينتظر أمر شاور فيما ضَمِنَ لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيم، وقد ضَجِرَ العسكر من الحَرِّ والغبار. فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله تعالى ودَعَتِه. فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه: إنَّ نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده، ويكون لك ثلث مُغَلِّ البلاد، والثلث الآخر لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه. فقال شاور: أنا ما قرَّرْتُ شيئاً مما تقول، أنا طلبتُ نجدةً من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى الشَّام، وقد سيرتُ إليكم نفقةً فخذوها وانصرفوا، وأنا أنفصل مع نورِ الدين. فقال أسد الدين: أنا لا يمكنني مخالفة نور الدين، ولا أقدر على الانصراف إلا بإمضاء أمره. فأمر شاور بإغلاق باب القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحصار، واستعدَّ أسد الدين أيضاً، وسيَّر صلاحَ الدين في قطعةٍ من الجيش إلى بِلْبِيس لجمع الغِلال والأتبان[1] والأحطاب وما تدعو الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك في بِلْبيس ذَخيرة، وأخذ في قتال القاهرة.

وكاتب شاور ملك الفرنج مُرِّي يستنجده ويقول له: إن شِيركُوه طلع معي نجدةً على ضِرْغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها، ومتى ملكوها مضافةً إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيشٌ ولا قرار. وضَمِنَ له في كل مرحلةٍ يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لأسبتاريته[2]. فخرج مُرِّي من عَسْقلان في جموعه إلى فاقُوس في سبع وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار.

ولما تحقَّق أسدُ الدين قُرْبَ الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بِلْبِيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانيَّة. وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج،

(١) الأتبان: جمع تبن، وهو ما تهشم من سيقان القمح والشعير بعد درسه، تعلفه الماشية.
(٢) الأسبتارية: هم فرقة عسكرية مسيحية جاءت مع الحملات الصليبية، بدافع الشحن العقائدي الديني، وقد عرفوا بكونهم جماعة مقاتلة، وكان لرئيس طائفتهم في أسبانيا دور أساسي في التأثير على ملك أرغون خايمة الأول المعروف بالغازي، ودفعه للاستيلاء على بلنسية وما بقي للمسلمين في شرقي الأندلس، إذ دخلت جيوشه بلنسية في سبتمبر ١٢٣٨م. كما وصف ابن الأبار في «الحلة السيراء» (انظر الحلة السيراء ٢/ ١٢٧، ٣٠٥).

Marfat.com

وجاء حتى خيَّم على بِلْبيس، وأحاط بها محاصراً لأسد الدين، يباكر الحرب ويُرَاوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر.

وانقطعت أخبارُ مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين ـ وهو بدمشق ـ خبرُ مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور؛ فكاتَبَ الأطراف بقدوم العساكر، فَقدِمَ عليه عساكر الشَّرق جميعها، واجتمعوا بأرض حلب، فنزل بهم مجد الدين ابن الدَّاية ـ وكان نائب نور الدين بحلب ـ وسار إلى جهة حارِم، ونزل على أَرْتاح، وخرج نور الدين من دمشق، وشنَّ الغارة على السَّاحل، وقتل وأسر عالماً عظيماً، ثم قصد جهة حلب، وجعل طريقه حصن الأكراد، فلما حصل بأرضه شنَّ الغارة فيها، وغنم غنيمةً عظيمة، ونزل في مَرْجه، فخرج إليه الفرنج الإخوة من حِصْن الأكراد، وهجموا عسكره، وقتلوا جماعةً من المسلمين، وكان عسكر نور الدين غافلاً فلم يتماسكِ النَّاس، وساروا على وجوههم.

وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره على أَرْتاح، وكان أخوه نُصْرة الدين مع الفرنج، فلما عاين أعلام نور الدين لم يتماسك أن حمل بجميع أصحابه قاصداً أخاه نور الدين، فلما قَرُب منه نزل، وقَبَّل الأرض بين يديه، فلم يلتفت إليه، فتمَّ على وجهه. واصطفَّ الناس للحرب، فحملت الفرنجُ فكسرت الميسرة، ثم عادت، فوجدت راجلها جميعه قد قتل، والخيل قد أطبقت عليهم، فنزلوا عن الخيول وألقوا أسلحتهم وأذعنوا بالأمان، فأُخذوا جميعاً قبضاً بالأيدي.

وسار إلى حارِم ففتحها، وأراد النُّزول على أنطاكية، فلم يتمكَّن لِشُغلِ قلبه بمن في مصر من المسلمين، فانحرف قاصداً لدمشق، ونزل على بانياس، فافْتَتَحها، وأغار على بلد طبريَّة، وجمع أعلام الفرنج وشِعافهم[1] وجعلها في عَيْبَة[2] وسلَّمها إلى نَجَّاب، وقال له: أريد أن تُعمل الحيلة في الدُّخول إلى بِلْبِيس، وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين، وتعطيه هذه الأعلام والشِّعاف، وتأمره بنشرها على أسوار بِلْبيس، فإنَّ ذلك مما يفتُّ في أعضاد الكُفَّار، ويدخل الوَهْن عليهم. ففعل ذلك، فلما رأى الفرنج الأعلام والشِّعاف قلقُوا لذلك وخافوا على بلادهم؛ وسألوا شاور الإذن في الانفصال. فانزعج شاور لذلك، وخاف من عاقبة الأمر، وسألهم التَّمهُّل أياماً، وجمع أمراءه للمشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفَّل إتمام الصلح له الأمير شمسُ الخلافة، فأنفذه إليه، فَتَمَّ الصُّلْح على يديه، على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

---

(١) الشعاف: جمع شعفة، وهي الخصلة من الشعر.

(٢) العيبة: ما يجعل فيه الثياب كالحقيبة.

Marfat.com

وحُكي أن شاور أرسل إلى أسد الدين، وهو محصور ببِلْبِيس، يقول له: اعلم أنني قد أبقيت عليك ولم أمكِّن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك، وإنما فعلت ذلك لأمرين: أحدهما أني ما أختار أن أكسر جاه المسلمين وأُقوِّيَ الفرنج عليهم، والثاني أني خِفت أن الفرنج إذا فتحوا بِلْبِيس طمعوا فيها، وقالوا: هذه لنا؛ لأنا فتحناها بسيوفنا. وما من يوم كان يمضي إلا وأنا أُنفذ إلى أكابر الفرنج الجملة من المال، وأسألهم أن يكسروا هِمَّةَ الملك عن الزَّحف.

قال: وأقام أسد الدين بظاهر بِلْبيس ثلاثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة السَّاحل، وسار أسد الدين قاصداً الشام، وجعل مسيره على البرِّية.

واتَّفق أن البرنس أرناط صاحب الكَرَك والشَّوْبَك تأوَّل ليمينه التي حلفها لأسد الدين، وقال: أنا حلفتُ أني ما ألحق أسد الدين ولا عسكره في البر، وأنا أريد ألحقه في البحر. وركب في البحر، وصار في يوم واحد إلى عَسْقلان، وخرج منها إلى الكَرَك والشَّوْبَك، وجمع عسكره المقيم هناك، وقعد مرتقباً خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحَدْس والتَّخمين، فسلك طريقاً مِنْ خلف المكان الذي كان فيه أرْنَاط: شَقَّ إلى الغَوْر وخرج من البَلْقاء، وسلَّمه الله تعالى منه. ودخل دمشق، واجتمع بنور الدين وأخبره بالأحوال، وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغَّبه فيها، وشوَّقه إلى ملكها، فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، ولم يكن له هِمَّة إلا تَتَبُّع مَنْ علم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صُحْبة. وكان اسْتَفْسَد جماعةً من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكُرْدِي[1]، وأقطعه شَطَّنَوْف[2]، وقتل شاور جماعةً من أهل مصر، وشرَّد آخرين.

ثم توجَّه أسد الدين في ربيع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً الديار المصرية، وكتم أخباره، فما راع شاور إلا وُرُود كتاب مُرِّي ملك الفرنج، يعرِّفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر. فطلب شاور منه إعادة النَّجْدة، والمقرَّر من المال يصلُ إليه على ما كان يصل إليه في العام الماضي. فسار مُرِّي في عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر، وكان أسد الدين سائراً

---

(١) هو عز الدين خشترين الكردي، ولاه السلطان صلاح الدين بزاعا سنة ٥٧١هـ، انظر حوادث سنة ٥٧١هـ، في هذا الجزء.

(٢) شطنوف: بلد من نواحي كورة الغربية، عنده يفترق النيل فرقتين: فرقة تمضي شرقاً إلى تنيس، وفرقة تمضي غرباً إلى رشيد، وهو على فرسخين من القاهرة (معجم البلدان ٣/ ٣٤٤).

Marfat.com

في البر، فسبقه الفرنجُ ونزلوا على ظاهر بِلْبيس، وخرج شاور بعساكر مصر، واجتمع بالملك، وقعدوا جميعاً في انتظار أسد الدين.

وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بِلْبِيس، فنكَّب عن طريقهم وأمَّ الجبل، وخرج على إطْفِيح، وهي في الجنوب من مصر، وشنَّ الغارة هناك، واتصل بشاور خبرُه، فسار في عساكره، والفرنج في صحبته، يقفُو أثره. واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شَرُونَة[1] من صعيد مِصْر، وتحيَّل في مراكب ركبها، وعدَّى إلى البرُ الغربي. ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعضَ ساقته ومنقطعي عسكريته، فأوْقَع بهم. وأحضر شاور أيضاً مراكب، وقطع النِّيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجِيزة، وخيَّم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريين والطلحيين والقُرَشيين، فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا أحلفُ لك بالله الذي لا إله إلّا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً، ولا أمكِّن أحداً من التعرُّض إليها، ومن عارضك فيها كنت معك إلْباً عليه، وما أؤمِّل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن هذا العدو قد حَصَل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصُه عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهزَ فيه الفُرْصة التي قد أمكنت، والغنيمة التي قد أُكْتِبَتْ، فنستأصل شأفته ونخمد نائرته، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً.

فلما صار الرسول إلى شاور، وأدَّى إليه الرسالة أمر به فَقُتِلَ، وقال: ما هؤلاء الفرنج، هؤلاء الفَرَج! ثم أعلم الفرنج بما أَرْسَلَ به إليه أسد الدين، وأعلمهم بما أجابه، وجدَّد لهم أيماناً وثقوا بها، وبلغ ذلك أسد الدين، فأكل يديه أسَفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي، وقال: لعنهُ الله، لو أطاعني لم يبق بالشَّام أحدٌ من هؤلاء الفرنج! ونزل شاور في اللُّوق والمقسم، وأمر بعمل الجسر بين الجِيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فَشُحِنَتْ بالرجال، وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين.

ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الإسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الإسلام، وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم، فقاموا معه، وأمَّروا عليهم نجم الدين بن مَصَال[2] ـ وهو ابنُ أحد

---

(١) شرونة: بلدة شرقي النيل (معجم البلدان ٣/ ٣٤٠).

(٢) لم أجد له ترجمة في المراجع والمصادر التي بين يدي، ولعله كان والي الإسكندرية، وقد ذكره عماد الدين الكاتب الأصفهاني في البرق الشامي ٣/ ١٢٧، وذكر تاريخ وفاته في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ٥٧٤هـ.

Marfat.com

وزراء المِصْريين ـ وكان لجأ إلى الإسكندرية مستخفياً، فظهر في هذه الفتنة.

حدثني الإدريسي الشريف[١]، نزيل حلب، قال: كنتُ بالإسكندرية يومئذٍ فكتب معي ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين، وقال لي: قل له إني أخبرك أن السلاح واصل. وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح، قال: فسبقتُها بيومين، وحضرتُ بين يدي أسد الدين، وأعطيته الكتب، وشافهته برسالة ابن مَصال في معنى السلاح والآلات، ثم وَصَلَتْ الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عَوْف[٢]. قال: وبقينا على الجِيزة يومين، فوصل إلينا رسول ابن مُدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه، ويأمره بالنَّجاة، فترك أسدُ الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله، وسار سيراً حثيثاً حتى قارب دَلْجَة، فأمر أسد الدين بنهبها فَنُهِبَتْ. ونزل النَّاس لتعشية الدواب فلم يُستتمَّ عليقها حتى أمر أسد الدين الناس بالرَّحيل، وأوقدت المشاعل ليلاً وسرنا، فإذا الجاووش[٣] ينادي في النَّاس بالرُّجوع، وعاد أسد الدين إلى دَلْجة فنزل عليها، ونزل شاور على الأشمونيين. وأمر أسد الدين الناس أن يقفوا على تعبئة، فأصبحوا على ذلك والتقوا، فَقُتِلَ من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة وانهزموا. وكان أسد الدين قد فَرَّق أصحابه فريقين: فريقاً معه، وفريقاً جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور، فدخل الضعف من هذا الطريق. ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا، وعلموا أنه لا منجى لهم إلّا الصَّبر، فتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم. فلم تزل الحربُ قائمةً إلى الليل، فولَّت عساكر الإفرنج والمصريين الأدبار، وكاد مُرِّي ملك الإفرنج يؤسر، وصار شاور ومن سَلِمَ معه إلى مُنْيَة ابن خَصِيب، وسار أسد الدين على الفيُّوم إلى الإسكندرية فدخلها، ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان فيها ابن الزُّبير[٤] متولياً ديوانها،

---

(١) الأدريسي الشريف: هو إدريس بن الحسن بن علي بن عيسى، الإدريسي، الحسني الإسكندراني، أبو الحسن، ولد في مصر سنة ٥٤٥هـ، وتوفي في حلب سنة ٦١٠هـ. تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

(٢) ابن عوف: هو إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف، شيخ المالكية في عصره، ولد سنة ٤٨٥هـ، سمع منه السلطان صلاح الدين الأيوبي الموطأ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٨١هـ. (سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٢٢ ـ ١٢٣).

(٣) الجاووش: من الجاويش، وهي كلمة تركية مشتقة من المقطع التركي: جاو، الذي يدل على معنى الصياح والنداء، ويقول البعض: إن أصلها مغولي، أما المعاجم التركية فتذكر أن أصلها فارسي، والجاويش في كل هذه اللغات منصب عسكري (تأصيل الدخيل ص٥٩ ـ ٦٠).

(٤) ابن الزبير: هو القاضي الرشيد أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي إسحاق إبراهيم بن =

Marfat.com

فحمل إلى أسد الدين الأموال، وقَوّاه بالسِّلاح. وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه، فربما تأذّى بالحصار، فأمر صلاح الدين بالمقام بالإسكندرية وترك عنده جماعةً من العسكر، ومَنْ به مرضٌ أو جراح أو ضعف، واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به، ورحل في أقوياء عسكره قاصداً إلى الصَّعيد. ونزل الفرنج وشاور على الإسكندرية وحاصروها مُدَّة ثلاثة أشهر بأشد القتال، وبذل أهلها في نُصْرة الملك النَّاصر أموالهم وأنفسهم، وقُتِلَ منهم جماعة عظيمة.

ولما صار أسد الدين بالصَّعيد حَصَّل من تلك البلاد أموالاً عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان. واتصل به اشتدادُ الأمر على الإسكندرية، فرحل من قُوص إلى جهتها، واتَّبعه جماعةٌ كثيرة من العُرْبان وأهل تلك البلاد. وبلغ ذلك شاور فرحل هو والفرنج، واضطرَّ إلى الصُّلْح، وضجرت الفرنج أيضاً، فتوسَّط ملك الفرنج في ذلك، فتقرَّر أمر الصلح على أن شاور يحمل إلى أسد الدين جميع ما غَرِمَهُ في هذه السَّفْرة، ويعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده. وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكبَ يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عِدَّة مراكب.

قال الإدريسي: كنتُ في جُمْلة من خرج في المراكب، فلما وصلنا إلى ميناء عكّا أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب إلى أن وصل الملك مُرْي فأطْلَقَنا، فخرجنا إلى دمشق.

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية بعد أن استحلف شاوَرَ لأهلها وألا يعرض لهم بسوءٍ، واجتمع بعمِّه أسد الدين.

ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مَصَال وجماعة ممن أعان صلاح الدين، وضيَّق عليهم، وتتبَّعَ أهل الإسكندرية. واتصل ذلك بصلاح الدين، فاجتمع بملك الفرنج وقال له: إن شاور نقض الأيمان. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه قبض على من لجأ إلينا. فقال: ليس له ذلك. وأنفذ إلى شاور وقال له: إن الأيمان جرت على ألا تعرض لأحدٍ من أهل مصر ولا أهل الإسكندرية. وألزمه يميناً أخرى في ألا يعرض لأحدٍ ممن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين.

ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصَّلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور، فأخذوا في الرَّحيل إلى الشَّام. واتصل ذلك بشاور، فخرج بنفسه وجَمَعَ

= محمد بن الحسين بن الزبير، الغساني الأسواني، الشهير بالقاضي الرشيد، المصري، توفي سنة ٥٦٣هـ. تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

جميع من عَزَمَ على الرِّحلة إلى الشام، وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم، فمنهم من سكن إلى أيمانه، ومنهم من لم يسكن ورحل.

[خروج أسد الدين من مصر وإقطاعه حمص]

وألهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم في مصر خاطر فقصدتها، فراسل الملك مُرْي وقال له: قد سأل أهل مصر يمين الملك ألا يدخُلَ إليهم ولا يتعرَّض لهم. فامتنع الملك، ثم أجاب خوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربما قصد ديار مصر، فربما اجتمعا عليه، فلم يجد بُدًّا من اليمين فحلف وحلف أصحابه، وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدَّوي منها، لأنه شاهدها وشاهد مُغَلَّاتها، فوجدها أمراً عظيماً. فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه، وأقطعه حِمْص وأعمالها.

[كتاب شاور لنور الدين]

وحدثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثني غير واحد أن شاور كاتب نور الدين في ذلك، وضَمِنَ له أن يحمل في كلِّ سنة عن ديار مصر مالاً مصانعةً.

ولما بلغ شاور أن نور الدين صَرَفَ هِمَّةَ أسد الدين عن ذكر مصر والتعرُّض لها أنفذ رسولاً بهدية سنية، وأصحبه كتاباً حسناً، أوله: «ورد كتابٌ استدعى شكري وحَمْدي، واستخلص من الصَّفاء ما عندي، واستفرغ في الثناء على مُرْسله جَهْدي، فكأنما اسْتُمْلَتْ معانيه مما عندي، واشتملت على حقائق قصدي؛ وسررتُ للإسلام وأهله، والدين الذي وعد الله أن يظهره على الدين كلِّه، بأن يكون مثلُه ملكاً من ملوكه، يُرجع إليه في عَقْده وحَلِّه، وتشير الأصابع وتُعقد الخناصر على عُلُوِّ محَلِّه. والله يزيده بمكانه تثبيتاً وقوَّة، ويحقِّق على يديه مخايل النصر المَرْجُوَّة، فما أسعد رأساً دلَّ على نُضْرَةِ الكلمة، ودعا إلى سبيل الفئة المُسْلِمة، ووفر على مصالح الأُمة قلوبَ رعاياها المنقسمة. وأنا متمم من هذا الأمر ما صدرَ مني، وباقٍ منه على ما نُقِلَ عني، لا أتغير عَن المصلحة فيه، ولا يخالفُ ما أظهره منه لما أخفيه، ولا أستكثر كثيراً أصلُ إليه، وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوقٍ استوجب شُكرَها قولاً وفِعْلاً، ونُضرةٍ كانت في هجير الخُطُوب بَرْداً وظِلاً، وَأَنْعُم لا تزال آياتها بألْسُن الحمد تُتْلَى وتملى، ولَعَمْري لقد بنى بها فخراً، وارتفع علىَّ الأملاك قَدْراً وذِكْراً، ووجب أن يستتمَّها فلا يصل إلى موارِدها الكَدَر، ويحوطَها فلا تتطرَّق إلى جوانبها الغِيَر. ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله

Marfat.com

كيمينه، وكتابَهُ كصفحة يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرُّقِ أسباب الاختلال.

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مُرْي ملك الفرنج في مصر، وعوَّلَ على الدُّخول إليها والاستيلاء عليها، وذلك لما انكشف له من عُوارها، وظهر له من ضعف من بقي فيها. فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الدَّاويَّة[1] والاسبتاريَّة[2]، وتشاوروا، فَجَرَتْ بينهم في ذلك خطوب، ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الدِّيار المصرية. فأحضر وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيَّالته، وفَرَّقَ قُراها على أجناده. وكان ـ لعنه الله ـ لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كَتَبَ له أسماء قرى مصر جميعها، وتعرَّف له خبر ارتفاعها. ثم سار حتى نزل الدَّاروم، فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر، وانتخب أميراً من أمرائه، يقال له بدران، وسَيَّره إلى لقاء مُرْي يسأله عن السَّبب في قصده. فاجتمع به وسأله، فتلكأ عليه، ثم استلان جانبه، وضَمِنَ له رَضِيخة[3] على أن يورِّيَ عنهم، ولا يكشف لشاور حالهم. ويقال: إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمِّمَ على المصريين الحيلة، ويُعلم شاور أنه إنما قصد مِصرَ للخدمة، ففعل ذلك بدران.

ولما سمع ذلك شاور أشفق منه، وأحضر الأميرَ شمسَ الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غَشَّني ولم ينصحني، وأنا فواثقٌ بك، فأريد تخرج وتكشف لي حال الفرنج. فسار شمس الخلافة إلى مُرْي ـ وكان بينهما مؤانسة ـ فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة، فقال: مرحباً بالملك الغَدَّار، وإلا ما الذي أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بي أنَّ الفقيه عيسى[4] يزوِّج أُخت

---

(١) الداوية: طائفة مشهورة من الرهبان المرابطين، كان مركزهم الأساسي في قلعة رباح بأسبانيا التي كانت حداً فاصلاً بين أرض النصارى وأرض المسلمين، وقد جاء قسم منهم إلى المشرق مع الحملات الصليبية، ويقال لهم في فرنسا: فرسان المعبد، وهم طائفة عسكرية متدينة تأسست سنة ١١١٩م، وكان لها دور بارز في الحملات على فلسطين، وقد جمعوا ثروات طائلة من غزواتهم، أصبحوا بفضلها ممولي البابا وعددٍ من الأمراء. ومنذ العام ١٣١٢م، ألغى الباب كليمان الخامس شرعية هذه الطائفة بطلب وتحريض من ملك فرنسا (انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٣٧٩، سيرة الملك المنصور ص٢٠، الحلة السيراء ٢/ ١٧٨).

(٢) الاسبتارية: فرق عسكرية مسيحية جاءت مع الحملات الصليبية بدافع الشحن العقائدي الديني، وهم بذلك مثل «فرسان المعبد»، أو «الداوية».

(٣) الرضيخة: يقال: رضخ له: أعطاه عطاءً غير كثير، وراضخ زيد شيئاً: أعطاه كارهاً.

(٤) هو عيسى بن محمد الهكاري، ضياء الدين، توفي سنة ٥٨٥هـ. وهو من أعيان أمراء عسكر السلطان صلاح الدين، تقدَّمت ترجمته.

الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، ويزوّج الكامل أُخت صلاح الدين، فقلنا هذا عملٌ علينا. فقال له شمسُ الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فُعل ذلك لم يكن فيه نَقْضٌ للعهد. فقال له الملك: الصَّحيح أن قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا وغَلَبُونا على آرائنا، وخرجوا طامعين في بلادكم، فخفنا من ذلك، فخرجنا لنتوسَّط الأمر بينكم وبينهم. فقال شمس الخلافة: فأي شيء قد طلبوا؟ قال ألفي ألف دينار. فقال: مكانكم حتى أصلَ إلى شاور، وأبلغه مقالكم وأعودُ بالجواب. فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بِلْبِيس إلى أن تعود.

قال: وحُكي أن ملك الفرنج لما وصل إلى الدَّاروم كتب إلى شاور يقول له: إني قد قصدتُ الخدمة على ما قرَّرْتَه لي من العطاء في كل عام. فأجابه شاور: إن الذي قَرَّرته لك إنما جعلتُه متى احتجتُ إليك، أو إذا قَدِمَ عليَّ عدو، فأما مع خُلُوِّ بالي من الأعداء فلا حاجة بي إليك ولا لك عندي مُقَرَّر. فأجابه مُرْي أنه لا بدَّ من حضوري وأخذي المقرَّر. فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونَقَضَ الأيمان، وأنه قد طمع في البلاد. فأخذ في تجنيد الأجناد، وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بِلْبِيس قطعةً من الجيش وميرة وعُدَّة.

ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لا يلوي على قولٍ حتى خَيَّم على بِلْبِيس في صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النَّحَّاس[1]، وابن الخياط يحيى، وابن قَرْجَلَة. وأرسل إلى طي بن شاور[2] ـ وكان ببِلْبيس ـ وقال له: أين ننزل؟ قال: على أَسِنَّة الرِّماح. وقال له: أتحسب أن بِلْبِيس جُبْنَةٌ تأكلها؟ فأرسل إليه مُرْي: نعم هي جبنة والقاهرة زُبْدة. ثم قاتل بِلْبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسَّيف، وقتل من أهلها خلقاً عظيماً، وخرَّب أكثرها، وحرَّق جُلَّ آدُرها[3]، ثم أخرج الأسارى إلى ظاهر البلد، وحُشروا في مكانٍ واحد، وحمل في وسطهم برمحه ففرَّقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته: قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فإني قد ملكتها بلا شك. ووقف إلى أن عدَّى أكثرهم النيل إلى جهة مُنْية حمل، وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقتسموهم،

(١) هو أبو فراس، يحيى بن جعفر بن عبد الجليل، الحميري المصري، من أمراء الدولة المصرية، وخدم السلطان صلاح الدين، توفي سنة ٥٨٩هـ. تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.
(٢) وأرسل إلى طي بن شاور: كذا بالأصل، وقد تقدم أن طيئاً قتل سنة ٥٥٩هـ، ولعله ابن طي بن شاور.
(٣) آدر: جمع دار، على القلب.

Marfat.com

وبقي أهل بِلْبِيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير؛ لأن الملك النَّاصر رحمه الله تعالى لما ملك ديار مصر وقف مُغَلَّ بِلْبِيس على كثرته على فَكَاك الأسرى منهم، وسامحَ أهل بلبِيس بِخَرَاجهم إلى آخر أيامه.

ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بِلْبيس من القَتْلِ والأسر، وأن الفرنج شحنوها بالرِّجال والعُدد، وجعلوها لهم ظهراً، أشفق من ذلك وطلب الإذن على العاضد، فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال: اعلم أنَّ البلاد قد ملكت علينا، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين، وتشرح له ما جرى، وتطلب نُصْرَتَه ومعونتَهُ. فكتب جميع ذلك، وأرسل شاور طَيَّ تلك الكتب كتباً، وسخَّم أعاليها بالمِدَاد.

قال: وحدَّثني شمسُ الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال: إنما كتب هذا الكتاب برأي أبي شمس الخلافة، لأنه لما رجع من عند مُرِّي، لعنه الله، بعد أخذِ بِلْبيس اجتمع بالكامل بن شاور وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أُفضي به إليك إلّا بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه. فلما حلف له قال: إن أباك قد وطَّنَ نفسه على المُصَابرة، وآخر أمره يُسلِّم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد، فاصعد أنت إلى العاضد، وألزمه أن يكتبَ إلى نور الدين، فليس لهذا الأمر غيره. فَصَعِدَ الكامل وكتب الكتاب. فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسدَ الدين، وكان ذلك من مُناه، وأرسل الفقيه عيسى الهكَّاري إلى مصر برسالةٍ ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة، وبرسالةٍ سِرِّية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيَّنها، وأن يكتم ذلك من شاور.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وأمر شاور بإحراق مصر وأنذر أهلها، فخرج الناس منها على وجوههم، وهجُوا في بلاد مصر، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك النَّاس أكثر أموالهم فنهبت. وأُحرقت مِصْر في تاسع صفر، وأقامت النَّار تعمل فيها أربعةً وخمسين يوماً.

ثم إن الفرنج ـ لعنهم الله ـ نزلوا في بركة الحَبَش[1]، وانبثَّتْ خيولهم في الأطراف، وتخطَّفوا من ظفروا به. فأنفذ شاور شمسَ الخلافة إلى مُرِّي ـ لعنه الله ـ فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له: أترى دخاناً في السَّماء؟ قال: نعم. قال: هذا دخان مصر،

(١) بركة الحبش: من منتزهات مصر، مشرفة على النيل خلف القرافة، كانت تعرف ببركة المعافر، وبركة حمير، قال ياقوت: وليست ببركة ماء، وإنما شبهت بها، وربما امتلأت بالماء وقت زيادة النيل (معجم البلدان ١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢).

Marfat.com

وما أتيتك إلا وقد أُحرِقَتْ بعشرين ألف قارورة نفط، وفُرِّقت فيها عشرة آلاف مَشْعَل، وما بقي فيها ما يؤمَّل بقاؤه ونفعه؛ فخلِّ الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي، وكوني كلما قلت لك انزل في مكان تعدَّيت إلى غيره، وما بقي لك إلا أن تنزل بالقاهرة. فقال: هو كما تقول، ولا بُدَّ من نزول القاهرة، ومعي فرنجٌ من وراء البحر قد طمعوا في أخذها. ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام الجرخ تقع في خِيَمه، فقاتلوا البلد أياماً.

[رسالة شمس الخلافة محمد بن مختار إلى مري]

فلما تيقَّن شاور الضَّعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة، والمغاورة والمُدافَعة، إلى أن تصل عساكر الشام. فأنفذ شمس الخلافة إلى مُرِّي ـ لعنه الله تعالى ـ برسالةٍ طويلة فَتَلَ بها في غاربه[1] ودار من حواليه، وفي ضمنها: «إن هذا بلد عظيم، وفيه خَلْقٌ كثير، ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالمٌ عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة. والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي، وتحصِّل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً». فاستقرَّت المصانعة على أربعمائة ألف دينار، وقيل ألفي ألف دينار، يُعَجَّل له منها مائة ألف دينار. فأجاب مُرِّي إلى ذلك، وانعقدت الهُدْنة، وحلف مُرِّي، ورحل إلى بركة الحَبَش، وحمل شاور إليه مائة ألف دينار في عِدَّة دفعات سوَّف فيها الأوقات، ثم أخذ يمطله بالباقي انتظاراً لقدومِ العساكر، ويوهم أنه يجمع لهم الأموال. فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشَّام عليهم، فلما رأوهم رحلوا إلى بِلْبيس، ونزل أسد الدين بالمقس. ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس، واتبعه أسد الدين ونزل على بِلْبيس.

وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين إلى صَدْر أنفذ شمس الخلافة إلى ملك الفرنج يستطلق له منه بعضَ المال، فصار إليه واجتمع به، وقال: قد قلَّ علينا المال. فقال ملك الإفرنج: اطلب منه ما شئتَ. قال: أشتهي أن تَهَب لي النصف. قال: قد فعلتُ. فقال شمس الخلافة: ما بلغني أنَّ ملكاً في مثل حالك وقُدْرَتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم في مثل حالنا! فقال ملك الإفرنج: أنا أعلم أنك رجلٌ عاقل، وأن شاور ملك، وأنكما ما سألتماني أن أهبكما هذا المال العظيم إلَّا لأمرٍ قد حدث. فقال له: صدقت، هذا أسد الدين قد وصل إلى صَدْر

(١) هو من المثل القائل: فتل في ذروته وغاربه: وهو مثل يضرب في الخداع والمماكرة، أصله أن يكون البعير صعباً وشرساً، لا يعطي رأسه للرجل، فيحك الرجل سنامه وغاربه (والغارب هو الكاهل ما بين السنام والعنق) ويفتل الوبر فيهما بأصابعه، يؤنسه بذلك ويخدعه حتى يستمكن منه، فيخطمه (المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري ٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠).

Marfat.com

نُصرةً لنا، وما بقي لك مُقام، وشاور يقول لك: أرى أن ترحل، ونحن باقون على الهدنة، فإنه أوفق لك ولنا، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشيء، وحملنا الباقي إليك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال عُدْنا عليك بما يبقى علينا من المقدار. فقال ملكُ الفرنج: أنا راضٍ بذلك، وإن بقي عليَّ شيء حملته إليكم. وعوَّل على الرَّحيل. فقال له: بعد أن تطلق طيّ بن شاور[1] وجميع من في عسكرك من الأسارى، ولا تأخذ من بِلْبيس بعد انصرافك شيئاً. فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلتِ الفرنجُ عن القاهرة نزل أسد الدين بأرضٍ يقال لها اللُّوق، وأخرج إليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ولما اجتمعا قال شاور لأسد الدين: قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت وندرك الفرنج ونوقع بهم. فقال أسد الدين: هذا كان رأيي والفرنج على البَرّ الغربي وليس لهم وَزَر، وأما الآن فلا؛ لأنهم على البَرّ المتَّصل ببلادهم، ونحن فقد خرجنا من البَرّ في أسوأ حال من الضعف والتعب، وقد كفانا الله شرَّهم، ونحن إلى الرَّاحة والاستجمام أحوج.

ولما نزل أسد الدين باللُّوق أرسل إليه العاضد هديةً عظيمة، وخِلَعاً كثيرة، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه. ثم إنه خرج إليه في الليل سِرًّا متنكراً، واجتمع به في خيمته، وأفضى إليه بأمورٍ كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره. وكان شاور قد رأى ليلةَ نزل أسد الدين على القاهرة كأنَّه دخل دار الوِزَارة، فوجد على سرير مُلْكِه رجلاً، وبين يديه دواة الوزارة، وهو يوقع منها بأقلامه، فسأل عنه، فقيل: هذا محمد رسولُ الله ﷺ.

ولما حَصَل أسد الدين بالدِّيار المصرية وانفصل عنها الفرنج أمنتِ البلاد، وتراجع النَّاس إلى بيوتهم، وأخذوا في إصلاح ما شعَّثَهُ الفرنج وأفسدوه، وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين، فتلقَّاهم بالرُّحب والسَّعَة، وأحسن إليهم.

وأما شاور فإنه أخذ في التودُّد إلى أسد الدين، والتقرُّب إلى قلبه بجميع ما وجد السَّبيل إليه، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة، حتى استحوذ على قلبه، ونوى تَبْقِيَتَهُ في مُلْكه، وصفا له قلبه حتى أنفذ إليه سِرًّا: احْرُسْ نفسك من عساكر الشَّام.

وأما عسكر الشَّام فإنهم لما رأوا طِيبَ بلاد مصر وكثرة خيرها وسَعَة أموالها

---

(١) طي بن شاور: كذا بالأصل، وقد تقدم أن طيّ بن شاور قتل سنة ٥٥٩هـ، انظر الجزء الأول. ولعله: ابن طي بن شاور.

Marfat.com

تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها، واختاروا سُكْناها، ورغبوا فيها رغبةً عظيمة؛ فقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها. ثم علم أنه لا يتم له ذلك وشاور باقٍ فيها، فأخذ في إعمال الحيلة عليه. وكان العاضد قد تقدَّم إليه بقتله، فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور، وقال لهم: قد عَلِمْتُم رغبتي في هذه البلاد، ومحبتي لها وحرصي عليها، لا سيما وقد تحقَّقْتُ أن عند الفرنج منها ما عندي، وعلمتُ أنهم قد كشفوا عَوْرَتَها، وعلموا مسالك رُقْعتها، وتيقَّنت أني متى خرجتُ منها عادوا إليها واحتوَوْا عليها؛ وهي معظم دار الإسلام وحَلُوبة بيت مالهم، وقد قوي عندي أن أثبت عليها قبل وثوبهم، وأملكها قبل مملكتهم، وأتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم، ويغرّنا ويغرّهم، ويضرّب بيننا وبينهم[1]، وقد ضيَّع أموال هذه البلاد في غير وجهها، وقوَّى بها الفرنج علينا، وما كلّ وقتٍ ندرك الفرنج، ونسبقهم إلى هذه البلاد التي قد قَلَّ رجالها وهلكت أبطالها. فتنخَّلت الآراء بين الأمراء أنه لا يتم لهم أمر إلا بعد القبض على شاور، وتفرَّقوا على إيقاع القبض به.

وكان شاور يركب في الأبَّهة العظيمة، والجلالة الجسيمة، والعُدَّة الحسنة، والآلة الجميلة، على عادتهم الأولى. وكان من جُملة قواعدهم أن الوزير إذا ركبَ حُمل في موكبه الطَّبْلُ والبوقُ، وكان شاور قليلَ الركوب، فجعل الأمراء يترصَّدونه. ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأنَّ شاور داخل إليه إلى داره، وناوله سيفَهُ وعِمامَتَهُ، فتأوله أسد الدين بالقبض عليه وأَخْذِ منصبه.

ثم إن شاور ركب يوماً في أبهته وجلالته، فلما عاينه الأُمراء هابوه وأحجموا عنه، وكان يوماً عظيم الضَّباب، وكان خروج شاور من باب القنطرة للسَّلام على أسد الدين. فتقدَّم صلاح الدين، فسلَّم عليه ودخل في موكبه، ثم سايره، ثم مدَّ يده إلى تلابيبه وصاح عليه فَرَجَّله[2]. ولما رأى ذلك عسكر الشَّام قويت عزماتهم، ووقعوا في عسكر شاور، فنهبوا ما كان مع رجاله، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شاور راجلاً إلى خيمة لطيفة وأراد قتله، فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين. وفي الحال ورد على أسد الدين توقيعٌ من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله في الحال، وأنفذ رأسه إلى القصر. وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه، فهرب إلى القصر، وخلع العاضد على أسد الدين، وقلَّده الوزارة، وأنفذ إليه طبقَ فِضَّةٍ فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاد إخوته.

---

(١) يضرّب بيننا وبينهم: أي يحرّض ويغري ويثير الفتن.
(٢) رجّله: يقال: ترجّل: أي ركب رجليه، ورجّله، أركبه رجليه، أي أنزله عن فرسه إلى الأرض.

ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين أمر بقراءته على رؤوس الأشهاد، وفرح به غاية الفرح، وأعيدت قراءته عليه عِدَّة دفعات استحساناً لمعانيه، واستظرافاً لما أودع من بديع الكلام فيه.

قال: ولما اتصل بنور الدين فَتْحُ الدِّيار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده، وجلس للهناء بذلك، وأنشده الشعراء في فتحها عِدَّة أشعار. غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وَزَر للعاضد، واستبدَّ بالأمر في ذلك الصُّقع أمضَّه ذلك وأقلقه، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهية، وأخذ في الفكرة في أمره، وسهر له ليالي، وأفضى بسرِّه إلى مجد الدين ابن الدَّاية. حدّثني جماعة عن شمس الدين علي ابن الدَّاية، أخي مجد الدين، وحدَّثني الموفق محمود بن النَّحَّاس الفقيه الحلبي[1] وقد جرى ذكر فتح مصر وأنَّ نور الدين ابتهج به، فقال: والله ما ابتهج به، ولقد كان ودُّه ألا يفتح وألا يصير أسد الدين وصلاح الدين إلى ما صارا إليه. ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه. ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له، لا سيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر، فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحدٌ أن يراه، واهتمَّ لذلك حتى أفضى عليه الهمُّ. ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً، وعليه فَضْلُه محسوباً، لمه صبر على ما جرى، ولا أغضى للملك النَّاصر على القَذَى. ولقد كاتب العاضد عِدَّة دفعات في أمر الأسد والصَّلاح، فلم يحصل له فيهما نجاح، وكثيراً ما يوجد في كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بإنفاذ أسد الدين، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال.

فمن بعض مكاتباته: «ولقد افتقر العبد إلى بعثته، وأعوز عسكرَه يُمْن نقيبته، واشتد حزب الضَّلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمي شياطين الضَّلال بشهابه الثَّاقب، ويُصْمي مقل[2] الشِّرْك بسهمه النافذ الصَّائب».

قلتُ: لعل نور الدين رحمه الله تعالى إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاضد، فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السَّبب. هذا إن صحَّ ما نقلهُ ابن أبي طيّ، والله أعلم.

---

(١) هو محمود بن هبة الله بن طارق بن النحاس، فقيه حنفي، درّس في حلب بالمدرستين الشاذبختية الجوانية والبرانية توفي سنة ٦٠٢هـ.

(٢) مقل: جمع مقلة، وهي شحمة العين التي تجمع السواد والبياض، أو هي السواد والبياض، أو الحدقة، جمعها مُقل، كغُرَد.

Marfat.com

قال: وكان أسد الدين لما ولي الوزارة لم يغيِّر على أحدٍ شيئاً، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم، إلى أن انقضت أيامه، وفنيت أعوامه.

وكان قَرَماً[١]؛ يحبُّ أكل اللَّحم ويواظب عليه ليلاً ونهاراً، فتواترت عليه التُّخَم، واتصلت به مَرضاته، إلى أن ظهرت بحلقه خوانيق كان فيها تلافه. ويقال: إنه أكل في ذلك اليوم مَضِيرة[٢] ودخل الحَمَّام، فلما خرج منها أصابه الخُنَّاق.

قال: وكان شجاعاً، بارعاً، قوياً، جَلْداً في ذات الله، شديداً على الكُفَّار وطأته، عظيمةً في ذات الله صولتُه، عفيفاً دَيِّناً، كثير الخير. وكان يحبُّ أهل الدين والعلم، كثير الإيثار، حَدِباً على أهله وأقاربه، وكان فيه إمساك، وخلَّف مالاً كثيراً، وخلَّف من الخيل والدَّواب والجمال شيئاً كثيراً، وخلف جماعة من الغِلْمان، خمسمائة مملوك؛ وهم الأسدية.

وهو كان مشيِّد قواعد الدولة الشَّاذية والمملكة النَّاصرية، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تَكْريت على إقطاعٍ مبلغه تسعمائة دينار، وتنقَّل إلى أن ملك الديار المصريَّة. وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة أيام.

قلت: وإليه تُنْسَبُ المدرسة الأسدية بالشَّرف القبلي ظاهر دمشق، وهي المُطِلَّةُ على المَيْدَان الأخضر؛ وهي على الطَّائفتين الشَّافعية والحنفية، والخانقاه[٣] الأسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين.

قال ابنُ أبي طيّ: وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يُولَّى الوزارة بين العسكر الشَّامي، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين. وفي تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأُرشد من جماعةٍ من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ إليه وأحضره، وخاطبه في تولي الوزارة، فامتنع من ذلك، وأشار بولاية الملك النَّاصر. وكان الحارِميُّ أولاً قد رغب في الوزارة وتحدَّث فيها، وحصَّل ما يحتاجه، فلما رأى مزاحمة عين الدولة اليازُوقي وغيره عليها خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين، فأشار به لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في بيته.

---

(١) القَرَم، محركة: شدّة شهوة اللحم، وكثُر حتى قيل في الشوق إلى الحبيب.

(٢) المضيرة: لحم يطبخ باللبن حتى ينضج، وهي ما تسمى في دمشق بالشاكرية (انظر لسان العرب (مضر) ومعجم متن اللغة ٥/ ٣١٠).

(٣) الخانقاه: كلمة فارسية معناها: بيت، وأصلها: خونقاه، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك (انظر خطط المقريزي ٢/ ٤١٤).

Marfat.com

[تولي صلاح الدين وزارة مصر]

وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع، وأعجبه عقله وسَدَادُ رأيه، وشجاعته، وإقدامه على شاور في موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره، ولم يتريَّث ولا توقَّف. فسارع إلى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمي من حضرة العاضد إلا وخِلَع الوزارة قد سبقت إلى الملك النّاصر.

وكانت خِلْعة الوزارة عِمامة بيضاء تِنِّيسي[١] بطرز ذهب، وثوب دَبيقي[٢] بطرازي ذهب، وجُبَّة تحتها سقلاطون[٣] بطرازي ذهب، وطَيْلَسان دبيقي بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمتُهُ عشرة آلاف دينار، وسيف مُحَلَّى بجوهرٍ قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حِجْر[٤] صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالدِّيار المصرية أسبق منها، وطوق، وتخت وسرفسار[٥] ذهب مجوهر، وفي رقبة الحِجْر مشدَّة بيضاء، وفي رأسها مائتا حَبَّة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر، وقصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة، وفي رأسها مشدَّة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخِلْعة عدة بقج[٦]، وعِدّة من الخيل، وأشياء أُخَر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض.

وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جُمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وقرئ المنشور بين يدي الملك النَّاصر يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميعُ أرباب الدَّولتين المِصْرية والشَّامية، وكان يوماً عظيماً.

وخَلَعَ السُّلْطان على جماعة الأُمراء والكبراء، ووجوه البلد، وأرباب دولة العاضد، وعمَّ الناسَ جميعهم بالهبات والصِّلات.

---

(١) تنِّيسي: نسبة إلى تنيس، وهي جزيرة بين الفرما ودمياط (معجم البلدان ٢/ ٥١).

(٢) دبيقي: نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التي كانت تصنع في دبيق، وهي بلدة بمصر قديمة زالت، وكانت واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس (التعريف بمصطلحات الصبح ص١٣٣).

(٣) السُّقلاطون: نوع من الملابس الحريرية الفاخرة ملونة بالألوان القرمزية وغيرها، وهو اسم بلد بالروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب إليه، وكانت تصنع أيضاً ببغداد وتبريز (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٨١).

(٤) فرس حجر: هي الفرس الأنثى تتخذ للنسل، لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكر.

(٥) سرفسار: كلمة فارسية مركبة من كلمتين: سر: أي رأس، وفسار: أي اللجام، (المعجم الفارسي ص٣٥٨).

(٦) بقج: جمع بقجة، كلمة فارسية أصلها «بغجة»، بضم الباء: وهي قطعة قماش مربعة، وهي ما يتخذ منها صرّة (انظر صبح الأعشى ٤/ ٦٣).

Marfat.com

ولما استقرَّتْ قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية بشريعة السياسة، ونظَم بحُسْن تدبيره من الدولة بَدَدَها، وجرى في مناهج العدل على جَدَدها، وحَيْعَلَ إلى جُوده وفَضْله، ونادى إلى رِفْده وبذله، وكاتب الأطرافَ بما صار إليه من السُّلْطان، وسَرَّ قلوبَ الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريفِ الرُّتبة والمكان، واستدعى إلى حَوْزته الأصحاب والأهل، وروَّى بسَيْح كرمه مَنْ بَعُدَ منه وقَرُبَ من أهل الفَضْل، وتاب من الخمر، وعدل عن اللهو، وتيقظ للتدبير، وسها عن السهو، وتقمَّص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشَّرْع المبين، وشمر عن ساقِ الجدِّ والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه وَجُود جوده شآبيب فضله النَّائب عن العِهاد، وورد عليه القُصَّاد والزُّوَّار، وأُمَّ بنفائس الخُطَب وجواهر الأشعار.

حدَّثني بعضُ الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر، وأحبَّه محبَّةً عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً، فإذا حصل عنده أقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يُعلم أين مقرُّه.

قال: ولما استولى الملك النَّاصر على الوزارة، ومال إليه العاضد، وحكَّمه في ماله وبلاده، حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشَّامية، كابن ياروق وجُرْديك وجماعة من غِلْمان نور الدين. ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشَّام.

وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدّثني جماعةٌ من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبَّة في قلوب الرَّعايا أعظمَ ذلك وأكبره، وتأفَّفَ منه وأنكره، وقال: كيف أقدَمَ صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري! وكتب في ذلك عِدَّة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلّا أنَّه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته. وأمر نور الدين مَنْ بالشَّام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه. وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب!

قلت: هذا كلُّه مما تقتضيه الطِّباع البشرية والجِبِلَّة الآدمية. وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك، إلّا من عَصَم الله، ومن أنصف عذَر، ومن عَرَفَ صَبَر. والذي أنكره نور الدين إفراطُ صلاح الدين في تفرقة الأموال، واستبدادُه بذلك من غير مشاورته. هذا مع أن ابن أبي طيّ مُتَّهمٌ فيما ينسبُهُ إلى نور الدين مما لا يليق به، فإنَّ نور الدين رحمه الله تعالى كان قد أَذَلَّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوَّى أهلَ السُّنَّة، وكان والدُ ابن أبي طيّ من رؤوس الشِّيعة، فنفاه من حلب. وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طيّ في كتابه[1] مفرَّقاً في مواضع، فلهذا هو في

(١) هو كتاب «كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين»، وهو الذي اختصر منه أبو شامة هذا الفصل.

Marfat.com

هذا الكتاب الذي له كثير الحمل على نور الدين رحمه الله تعالى، فلا يُقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به. والله أعلم.

قال: ولما ملك الملك النَّاصِرِ مِصْرَ انتزع نور الدين حمص والرَّحبة من ناصر الدين بن أسد الدين، وفَرَّق عُمَّاله وأعطاه تل باشر، ثم أخذها منه. ولقد كان يتألَّم لملك الملك النَّاصر. ويقال إنه لما مَرِضَ قال: ما أخطأتُ إلا في إنفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب. ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا متُّ فصِيروا بابني إسماعيل إلى حلب لأنه لا يبقي عليه غيرها.

قال ابن أبي طيّ: ولقد كان يبلغ الملك النَّاصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضُّه، غير أنّه يلقاها بصدر رحب، وخُلُق عَذْب. حدَّثني أبي عن ابن قاضي الدُّهليز ـ وكان من خواصِّ الملك النَّاصر ـ قال: جرى يوماً بين يدي السلطان ذكر نور الدين، فأكثر الترحُّمَ عليه، ثم قال: والله لقد صبرتُ منه على مثل حَزِّ المُدَى ووخز الإبر، وما قدر أحدٌ من أصحابه أن يجد عليَّ ما يعتدُّه ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدُّها عليَّ فلم يقدر. ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي الأشياء التي لا يُصبر على مثلها لعلِّي أتضرَّر أو أتَغَيَّر، فيكون ذلك وسيلةً له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط.

قلت: وقد وقفت على كتابٍ بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله تعالى، وذلك ضِدّ ما قاله ابنُ أبي طيّ. كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون[1] رحمه الله وهو بحلب ليولِّيه قضاء مصر. صورته: «حسبي الله وكفى. وفَّق الله الشيخ الإمام شرف الدين إلى طاعته وختم له بخير. غير خافٍ عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقرِّبني إلى الله، والله وليُّ التوفيق، والمطَّلع على نيَّتي. وأنت تعلم نيتي كما قال عَزَّ من قائل: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمَنا النَّظر فيها، ففي من الفتوحات الكبار، التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق، فلله المِنَّة والحمد. إلّا أنَّ المقدَّم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النَّجاة، وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع؛ وما تُدخر الدُّموع إلّا للشَّدائد، وأنا ما

(١) هو عبد الله بن السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون التيمي الحديثي الموصلي، الفقيه الشافعي، المتوفى سنة ٥٨٥هـ، تقدمت ترجمته.

Marfat.com

كنت أسْخَى ولا أشتهي مفارقتك. والآن فقد تعين عليك وعليَّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحدٌ اليوم لها إلا أنت، ولا أقدر أُولّي أمورَها وأقلّدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب عليك ـ وفقك الله ـ أن تشمُر عن ساقِ الاجتهاد وتتولّى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقرّبك إلى الله. وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله. فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي ـ وفقه الله ـ فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي. وقد كتبتُ هذا بخطي حتى لا تبقى عليَّ حُجَّة. تصلُ أنت وولدك إلى عندي حتى أسيِّرَكُمْ إلى مصر والسَّلام، بموافقة صاحبي واتفاقٍ منه صلاح الدين ـ وفقه الله ـ فأنا منه شاكر كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصَّالحين والأخيار صلاحٌ عظيم، ومنفعة لأهلِ الإسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان خير، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلَّم تسليماً».

قال ابنُ أبي طيّ: وأبطل صلاح الدين من المكُوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجلٍّ به من ديوان الإنشاء، وأُنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على المنابر، وعُرِضَ عليه سياقة جرائد الدَّواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين متقدِّمة، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف إرْدَب غلة، فسامح بجميع ذلك، وأبطله من الدَّواوين، وأسقطه عن المعاملين. وأُنهي إليه ما يُستأدى من الحُجَّاج بالحجاز المحروس من المكوس، فأنكره وأكبره، وعَوَّض عنه بعِدَّة ضياع؛ فأغاثَ أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شَرْحُها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه. ونسخةُ منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين، وذلك بإشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

فصل

[قصائد في التهنئة بملك مصر]

ذكر العماد في ديوانه قصيدةً مدح بها نور الدين يهنئه بملك مصر، ولم يذكرها في كتاب البرق، منها: [البسيط]

بمُلك مِصْرَ أُهنِّي مالِكَ الأُمَمِ ... فاسْعَدْ وأَبْشِرْ بِنَصْرِ الله عن أَمَمِ
أَضْحَى بِعَدْلِكَ شَمْلُ المُلْكِ مُلْتئماً ... وهل بِعَدْلِكَ شيءٌ غيرُ مُلْتَئِمِ

Marfat.com

يا فاعِلَ الخيرِ عَنْ طَبْعٍ بلا كَلَفٍ ... ومُوليَ العُرْف عن خُلْقٍ بلا سَأَمِ[١]
ووامقاً ثَلْمَ ثَغْرِ الكُفْرِ يُعْجِبُهُ ... لا لَثْمَ ثَغْرٍ شتيتٍ واضحٍ شَبِمِ[٢]
لله دَرُّكَ نورَ الدينِ مِنْ مَلِكٍ ... بالعَزْمِ مُفْتَتِحٍ بالنَّصْرِ مُخْتَتِمِ
آثارُ عَزْمِكَ في الإسلامِ واضحةٌ ... وسِرُّه لَكَ بادٍ غَيْرُ مُكْتَتَمِ
بما مِنَ العَدْلِ والإحسانِ تَنْشُرُه ... تخافُ رَبَّكَ خَوْفَ المُذْنِبِ الأَثِمِ
أَوْرَدْتَ مِصْرَ خُيُولَ النَّصْرِ عادمةً ... ثنيَ الأعِنَّةِ إقداماً على اللُّجُمِ
فَأَقْبَلَتْ في سَحابٍ من ذوابلها ... وقُضْبُها بدِماءِ الهَامِ مُنْسَجِمِ[٣]
تمكَّنَ الرُّعْبُ في قَلْبِ العدوِّ بها ... تمكُّنَ النَّارِ بالإحراقِ في الفَحَمِ
سَرَتْ لتقطَعَ ما للكُفْرِ من سَبَبٍ ... واهٍ وتوصِلَ ما للدِّينِ من رَحِمِ
مُسْتَسْهلاتٍ وعورَ الطُّرْقِ في طَلَبِ الـ ... ـعَلْياء مقتحماتٍ أصعبَ القُحَمِ[٤]
وجاعِلاتٍ من الإفرنجِ غِلَّهم ... والقيدَ في موضعِ الأطواقِ والحُزُمِ
لقد شَفَتْ غُلَّةَ الإسلامِ وانتقَمَتْ ... مِنَ العدوِّ بحدِّ الصَّارمِ الخَذِمِ[٥]
أعانها الله في إطفاءِ جَمْرِ أذًى ... من شَرِّ شَاوَرَ في الإسلامِ مُضْطَرِمِ
وَأَصْبَحَتْ بك مِصْرٌ بعد خِيفَتِها ... للأمنِ والعِزِّ والإقبالِ كالحَرَمِ
والسُّنَّةُ اتَّسَقَتْ والبِدْعَةُ انمحقَتْ ... وعاودت دولةُ الإحسانِ والكَرَمِ
ملوكُها لك صاروا أَعْبُداً وغدا ... بها عبيدُك أملاكاً ذوي حُرَمِ
أَنَبْتَ عنك بها قَرْماً ينوبُ بها ... في البَأْسِ عن عنترٍ في الجُودِ عن هَرِمِ[٦]
لله دَرُّكَ نورَ الدينِ من مَلِكٍ ... عَدْلٍ لحفظِ أمورِ الدينِ مُلْتَزِمِ
كانت ولايةُ مِصْرٍ قبل عِزَّتها ... بكشفِ دَوْلَتِها لحماً على وَضَمِ[٧]

---

(١) العرف: الجود والكرم.
(٢) الثغر الشتيت: المفرق المفلج والواضح: الأبيض ليس الشديد البياض. والشَّبَمُ، محركة: البرد، وقد شبم، كفرح. والشَّبِمُ، ككتِف: البردان، أو مع جوع، والموت، والسمّ لبردهما.
(٣) الذوابل: الرماح. والقضْب، بضم القاف، وسكون الضاد: جمع قضيب، وهو السيف اللطيف الدقيق.
(٤) القحَمُ: جمع قحمة، وهي الأمر العظيم الشاق.
(٥) الصارم: السيف. والخذم: القاطع.
(٦) القرم من الرجال: السيد المعظم. وهرم: هو هرم بن قطبة بن سنان الفزاري، من قضاة العرب في الجاهلية، وممدوح زهير بن أبي سلمى، وكان من أجواد العرب في الجاهلية، يضرب بجوده المثل، أسلم في عهد النبي ﷺ وثبت في الردة (الأعلام ٨/ ٧٣).
(٧) الوضم: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية (حصيرة) يوقى به من الأرض. =

فالنِّيلُ مُلْتَطِمٌ جارٍ على خَجَلٍ ... جاراً لبحرِ نَوَالٍ منكَ مُلْتَطِمِ
أُغْزُ الفرنجَ فهذا وقتُ غزوهِمُ ... واخطِمْ جموعَهُمُ بالذَّابلِ الخَطِمِ
وطَهِّرِ القُدْسَ من رِجْسِ الصَّليبِ وَثِبْ ... على البُغَاث وُثوبَ الأَجْدَلِ القَطِمِ[1]
فمُلكُ مِصْرَ وملكُ الشَّام قد نُظِما ... في عِقْدِ عِزٍّ منَ الإسلامِ مُنْتَظِمِ
محمودٌ المَلكُ الغازي يَسُوسُهُما ... بالفَضْلِ والعَدْلِ والإفضالِ والنِّعَمِ
بالشُّكْرِ كلُّ لسانٍ ناطقٌ أبداً ... محمودٌ المَلْكُ محمودٌ بكلِّ فَمِ
فَأَشْكِ مِصْرَ وأَظْهِرْ عزَّ سُنَّتِها ... كم تعتفي وإلى كم تشتكي وَكَمِ[2]

ولعلم الدين الشَّاتاني[3] في نور الدين: [الكامل]

ما نال شأوَك في المعالي سِنْجَرُ ... كلا ولا كِسْرى ولا الإسكندرُ[4]
يا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الجيادَ وخاضَ في ... لُجَجِ المنايا والأَسِنَّةُ تَقْطُرُ
هل حازَ غَيْرُك مُلْكَ مِصْرَ وصار من ... أتباعِهِ مَنْ جَدُّه المُسْتَنْصِرُ[5]
والمستضي بالله مُعْتَدٌّ به ... وبجَدِّه وبجدِّه مُسْتَظْهِرُ[6]

= وقولهم: هو لحم على وضم، من المجاز للدلالة على الذليل، الذي في ضعفه مثل ذلك اللحم لا يمتنع من أحد.

(١) الأجدل: الصقر. والقطم: الصقر المشتهي اللحم.

(٢) فأشك: أي أزل عنها ما تشكو منه.

(٣) علم الدين الشاتاني: نسبة إلى شاتان، قلعة بديار بكر، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي سنة ٥٧٩هـ، وكان فقيهاً أديباً شاعراً، («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٦١ ـ ٣٨٤، وفيات الأعيان ٢/ ١١٣ ـ ١١٤. وفي الوفيات: توفي سنة ٥٩٩هـ).
والأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٧٢.

(٤) سنجر: هو السلطان غياث الدين أبو الحارث سنجر بن أبي الفتح بن ألب أرسلان، سلطان خراسان، ومن كبار سلاطين السلاجقة اتسع ملكه، وحكم قريباً من ستين سنة توفي سنة ٥٥٢هـ (انظر «الكامل» ٩/ ٤١٥ ـ ٤١٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٤، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥، ووفيات الأعيان ٢/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨).

(٥) المستنصر: هو أبو تميم، معدّ، المستنصر بالله، ابن الظاهر لإعزاز دين الله، ابن الحاكم بن العزيز، بويع بالأمر بعد موت والده سنة ٤٢٧هـ، وقد أقام بالخلافة ستين سنة وتوفي سنة ٤٨٧هـ (وفيات الأعيان ٥/ ٢٢٩). وقد أشار القاضي الفاضل إلى نفس المعنى في عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بالوزارة عن العاضد، بقوله: واصطفاك على علم بأنك واحد منتظم في معنى العديد، وأحيا في سلطان جيوشه سُنَّة جده الإمام المستنصر بالله... (انظر صبح الأعشى ١٠/ ٩٧).

(٦) المستضيء بالله: هو الخليفة العباسي الإمام أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله ابن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن المقتضي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظر =

Marfat.com

أو سَدَّ بالشَّام الثغورَ محامياً ... للدِّين حتى عادَ عنها قَيْصَرُ
يبكي فيروي الأرضَ فيضُ دموعِه ... والجوُّ من أنفاسه يَتَسَعَّرُ
أوَ ما أبوكَ بسيفه فَتَحَ الرُّها ... والأُسْدُ تَقْتَنِصُ الكُماةَ وتَزْأَرُ
هابَتْ ملوكُ الأرضِ بأسَ كُماتِها ... فتقاعدوا عن قَصْدِها وتأخَّروا
ما ضَرَّه طيُّ المنيةِ ذاتَه ... وصفاتُه بينَ البريَّةِ تُنْشَرُ
فَلَكُمْ على كلِّ الملوكِ مزيةٌ ... لوقائعٍ مَشْهُورةٍ لا تُنْكَرُ
وإذا عَدَدْنا للأنامِ مناقباً ... فعليك قَبْلَ الكُلِّ تُثْنى الخِنْصِرُ
في الرأي قَيْسٌ في السَّماحة حاتِمٌ ... في النُّطْقِ قُسٌّ في البَسَالة حَيْدَرُ
دانَتْ لك الدُّنيا وأنت تعافُها ... وسِوَاكَ في آماله يتعثَّرُ
من ذا يَصُون الصِّينَ عنك وأنتَ مَنْ ... أُسْدُ الشَّرى منه تخافُ وتَحْذَرُ(١)

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خِلَعاً لجماعةٍ من الأعيان، وأنفذ للعماد عِمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى، منها: [الخفيف]

يا صلاحَ الدِّين الذي أصلح الفا ... سِدَ بالعَدْلِ من خُطُوبِ الزَّمانِ
أنتَ أَجْرَيْتَ نِيلَ مِصْرَ إلى الشَّا ... مَ نَوَالاً أم سالَ نيلٌ ثانِي!
وعلى نِيلِها لِكَفَّيْكَ فَضْلٌ ... فهما بالنُّضَارِ جاريتانِ
وصَلَتْ أُعطياتُك الغُرُّ غُزْراً ... فتلقَّت آمالنا بالتَّهانِي
خِلَعٌ راقتِ العيونَ وراعت ... وعلا وَصْفُها عنِ الإمكانِ
مُذْهباتٌ كأنَّها خِلَعُ الرِّضْـ ... ـوانِ قد أُهْدِيَتْ لأهلِ الجِنانِ
مُشْرقاتٌ بِطُرْزِها الذَّهبيا ... تِ الحِسانِ الرَّفيعةِ الأثمانِ
فالعِماماتُ كالغماماتِ والطُّر ... ز بروقٌ كثيرةُ اللَّمَعانِ
والموالي بها من التِّيه والفَخْـ ... ـرِ على الدَّهرِ ساحِبُو الأَرْدانِ
كيف خُصَّ العماد بالأَدْوَن المُخْـ ... ـلَق من دونِ عُصْبَةِ الدِّيوانِ
أخليقٌ مَنْ نَسْجُهُ لكَ في المَدْ ... حِ جديدٌ بأمْهَنِ الخُلْقانِ

= بالله. تولى الحكم سنة ٥٦٦هـ، عند موت أبيه الإمام المستنجد بالله، وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر، كان عادلاً حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، حليماً، محباً للعفو والصفح عن المذنبين، كانت وفاته في سنة ٥٧٥هـ. (انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٣، ٣٨، ٧٨، ٧٩، ووفيات الأعيان ٤/ ٤٧٠).

(١) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٩.

Marfat.com

وكـذا عـادةُ الـلَّـيـالـي تـخـصُّ الـ ـفـاضِـلَ الـمُـسْـتَـحِـقَّ بـالـحِـرْمـانِ
لـم تَـزَلْ سـائـرات جُـودِكَ بـالـشَّـا مِ لـديـه غـزيـرةَ الـتَّـهْـتَـانِ
فـإذا لـم تَـزِدْه مِـصْـرُ كـمـالاً فـي الـمُـنَـى فَـاحْـمِـهِ مِـنَ الـنُّـقْـصَـانِ

وكتب إلى فخر الدين أخي صلاح الدين[1] قصيدةً، منها: [السريع]

عَـبْـدُكَ شـمـسَ الـدَّولـةِ الـمُـرْتَـجـى مُـنْـتَـظِـرٌ تَـشْـرِيـفَـكَ الـمُـذْهَـبـا
واغْـتَـبْ صـلاحَ الـدِّيـن فـي حـالـتـي عـسـاه بـالإصـلاحِ أَنْ يُـعـتِـبَـا
عَـرِّفْـه مـا تَـمَّ فـإنـي أرى مـن فَـضْـلِـهِ لـلـفَـضْـلِ أن يَـغْـضَـبـا
وكـيـفَ يـرضـى ذاك بـعـضَ الـرِّضـا ومَـجْـدُه يـأبـاه كـلَّ الإبـا
وقُـلْ لـه: جـاءتـه مَـلْـبُـوسَـةً تـخـلَّـفَـتْ مـن تُـبَّـعٍ فـي سَـبـا
عِـمـامـةٌ رَقَّـتْ ورثَّـتْ فـمـا نَـشَـرْتُـهـا إلّا وطـارت هَـبَـا

قال: فوصل من صلاح الدين عِمامةٌ مُذْهبة، وكَتَبَ يعتذر عن العمامة التي قبلها. وكتب إلى سعد الدين كُمُشْتكِين ليستعير لسانه في الاعتذار إلى العماد: فإني أستقلُّ لمرامه إرم ذات العماد. فكتب العماد: [الكامل]

أمـا الـعِـمـادُ فـقـد تـضـاعَـفَ شُـكْـرُهُ نُعْماكَ شُكْرَ الرَّوْض نُعمى الصَّيِّبِ
لِـعِـمـامـةٍ ذَهَـبِـيَّـةٍ كَـغَـمـامَـةٍ يـبـدو بـهـا بَـرْقُ الـطِّـراز الـمَـغْـرِبـي
مـا كـان أحـسـنَ حـالَـهُ لـو أنَّـهُ شُـفِـعَـتْ عِـمـامَـتُـه بِـثَـوْبٍ مُـذْهَـبِ

قال: وكتب إليه: [الهزج]

أُهَـنِّـي الـمَـلِـكَ الـنَّـاصِـرَ بـالـمُـلْـكِ وبـالـنَّـصْـرِ
ومـا مَـهَّـدَ مـن بُـنْـيَـا نِ ديـنِ الـحـقِّ فـي مِـصْـرِ
ومـا أَسْـدَاه مـن بِـرٍّ بـلا عَـدٍّ ولا حَـصْـرِ
ومـا أحْـيـاه مـن عَـدْلٍ ومـا خَـفَّـفَ مـن إِصْـرِ
وإعـلاء سـنـا الـسُّـنَّـةِ فـي بُـحْـبُـوحَـةِ الـقَـصْـرِ[2]

(١) هو الملك المعظم توران شاه بن أيوب بن شاذي، أبو المفاخر، فخر الدين، ولد بمصر سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وهو آخر من بقي من إخوته، سمع الحديث بدمشق من محيي الدين الثقفي، وأجازه ابن بري، وكان ذا شجاعة وعقل، وكان مقدم الجيش الحلبي، وهو كان المقدم لما التقوا مع الخوارزمية سنة ٥٣٧هـ، بقرب الفرات، فأُسر يومئذٍ وهو مثخن الجراح، وانهزم عسكره هزيمة قبيحة. وسترد ترجمته في وفيات سنة ٥٧٦هـ. (انظر شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٢) بحبوحة القصر: وسطه وساحته.

قد استولى على مِصْرِ بحقِّ يوسفُ العَصْرِ
وأحيا سُنَّةَ الإحسا نِ في البَدْوِ وفي الحَضَرِ

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدةٍ: [الطويل]

ديارَ الهوى حيًّا معالِمَكِ القَطْرُ وجادَكِ جُودُ النَّاصِرِ الغَدِقُ الهَمْرُ
به رَجَعَتْ في عُنْفُوان شبابها ونُضْرَتِها من بعدِ ما هَرِمَتْ مِصْرُ
وكم خاطبٍ رَدَّتْهُ لم يكُ كفأها إلى أَنْ أتاها خاطِبٌ سَيْفُهُ المَهْرُ
حماها حِمى اللَّيْث العرينَ وصَانَها كما صان عَيْناً من مُلِمِّ القَذَى شُفْرُ[1]
وكان بها بَحْرٌ أُجاجٌ فأصْبَحَتْ ومن جُوده العَذْبِ النميرِ بها بَحْرُ

وله فيه من أخرى: [الطويل]

فما أنتَ إلّا الشَّمْسُ لولاك لم تَزَلْ على مِصْرَ ظلماءُ الضَّلالةِ سَرْمَدَا
وكان بها طُغْيان فِرْعونَ لم يَزَل كما كان لمَّا أَنْ طغى وتَمَرَّدا
فبصَّرْتَهُم بَعْدَ الغَواية والعَمى وأَرْشَدْتَهُمْ بعد الضَّلال إلى الهُدَى

وله فيه من أخرى: [الكامل]

قُلْ للملوك: تَزَحْزَحُوا عن ذُرْوَة الـ ـعلياءِ للملكِ الهُمَامِ النَّاصِرِ
يعطي الأُلوف ويلتقيها باسماً طَلْقَ المحيا في القنا المُتَشاجِرِ

وقرأت في ديوان العَرْقَلة[2]: وقال في المولى الملك النَّاصر وقد أنفذ له من ديار مصر ذهباً ولغيره سلاماً[3]: [الوافر]

صلاحَ الدِّين قد أَصْلَحْتَ دُنيا شقيٌّ لم يَبِتْ إلّا حريصا
وأرسلت السلامَ لنا عموماً وجُودُك جاءني وَحْدي خُصوصا
فكنتَ كيوسُفَ الصِّدِّيقِ لمَّا تلقَّى منه يَعْقُوبُ القَمِيصَا

وكان العرقلة من جُملة المتردِّدين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق، فلما

---

(١) الشفر، بالضم: شفر العين، وهو ما ينبت عليه الشعر، وأصل نبت الشعر في الجفن، وليس الشفر من الشعر بشيء.

(٢) هو حسان بن نمير بن عبد الرحمن الدمشقي، الأديب النحوي، المعروف بعرقلة الشاعر، المتوفى سنة ٥٦٧هـ. تقدّمت ترجمته.

(٣) الأبيات في ديوان عرقلة ص٥٧، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢١١.

Marfat.com

سار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار. فلما تَمَّ أمرُه بمصر كتب إليه العَرْقَلة قصيدةً منها[١]: [الطويل]

إليكَ صلاحَ الدِّينِ مولاي أشتكي ... زماناً على الحُرِّ الكريمِ يجورُ
تُرى أُبْصِرُ الألفَ التي كنتَ وَاعِدي ... بها في يدي قبل الممات تصيرُ
وَهَيْهات والإفرنجُ بيني وبينكم ... سياجٌ قتيلٌ دونه وأسيرُ
ومن عَجَبِ الأيام أنكَ ذو غِنًى ... بمِصْرَ ومثلي بالشَّآم فقيرُ

وقال أيضاً: [البسيط]

قُلْ للصَّلاحِ مُعيني عند إعساري ... يا ألفَ مولايَ أين الألفُ دينار
أخشى من الأَسْرِ إن حاولتُ أرْضَكُمُ ... وما تفي جَنَّةُ الفِرْدَوْس بالنَّارِ
فجُدْ بها عاضِديَّاتٍ مُسَطَّرَةً ... من بعض ما خلَّف الطَّاغي أبو الطَّارِي[٢]
حُمْراً كأسيافِكُم غبراً كخيلكُمُ ... عُتْقاً ثقالاً كأعدائي وأطماري[٣]

يعني بالطاغي شاور، وله ابن اسمه الطاري.

وأنفذ له من مصر عشرين ألف دينار فقال[٤]: [السريع]

يا مالكاً ما بَرِحت كفه ... تجود بالمال على كفي
أفلح بالعشرين من لم يزل ... في رأسي عشرين من الكهف
يا ألف مولاي ولكنها ... محسوبة من جملة الألف

وذكر العماد في «الخريدة»[٥] أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مِصْر، فأعطاه ذلك، وأخذ له من إخوته مثله، فعاد إلى دمشق وهو مسرور مجبور، وكان ذلك ختام حياته، ودنا وفاته، ومات بدمشق في سنة ست، أو سبع وستين وخمس مائة.

قلت: وفي ديوانه ما يدلُّ على قدومه مصر، فإن فيه: وقال، وكتبها

---

(١) الأبيات في ديوان عرقلة ص٥٠، و«خريدة القصرة» قسم شعراء الشام ١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩.
(٢) العاضديات: هي دنانير منسوبة إلى الخليفة الفاطمي العاضد، آخر ملوك الدولة الفاطمية بمصر والمغرب، وفي أيامه قوي السلطان صلاح الدين وتولى وزارته وتصرف في شؤون الملك، مات العاضد مريضاً سنة ٥٦٧هـ (الأعلام ٤/ ١٤٧). والطاري هو ابن شاور العضدي، سيأتي خبر قتله بعد قليل.
(٣) الأبيات في ديوان عرقلة ص٤٩ ـ ٥٠، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٤) الأبيات في ديوان عرقلة ص٦٤.
(٥) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ١٧٨ ـ ١٨٠.

Marfat.com

على حَمَّامٍ عمَّرها المولى الملك الناصر بديار مصر[١]: [السريع]

يا داخِلَ الحَمَّام هُنِّيتَها ... دائرةً كالفَلَكِ الدَّائِرِ
تأمَّلِ الجنَّةَ قد زُخْرِفَتْ ... وعُمِّرَتْ للملكِ النَّاصِرِ
كأنَّما فَيْضُ أنابيبِها ... نَدَاه للوارِدِ والصَّادِرِ

فصل

في قتل المُؤْتَمن[٢] بالخرقانية[٣] ووقعة السُّودان بين القصرين[٤]، وغير ذلك

قال العماد: وشرع صلاح الدين في نقص إقطاع المصريين، فقطع منهم الدَّابر من أجل مَن معه من العساكر. وكان بالقصر خَصِيٌّ يدعي مؤتمن الخلافة، متحكِّم في القَصْر، فأجمع هو ومن معه على أن يُكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية والصَّلاحية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه، فيؤخذ مَن بقي مِن أصحابه بالقاهرة ويُتبع من ورائه، فتكون عليهم الدائرة. فكاتبوا الفرنج، واتفق أن رجلاً من التركمان عبر بالبئر البيضاء[٥] فرأى مع إنسان ذي خُلْقان[٦] نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما، فأخذهما، وجاء بهما إلى صلاح الدين، ففتقهما، فوجد مكاتبة الفرنج فيهما من أهل القَصْر، يرجون بحركتهم حصول النصر. فأخذ الكتاب وقال: دلُّوني على كاتب هذا الخَطِّ. فدلُّوه على يهودي من الرَّهْط، فلما أحضروه ليسألوه، ويعاقبوه على خَطِّه ويقابلوه، نطق بالشَّهادة قبل كلامه، ودخل في عِصْمة إسلامه، ثم اعترف بما جناه، وشيَّدَه من الأمر وبناه، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة، وأنه بريء من هذه الآفة. فحسَّن السُّلْطان إسلامه، وثَبَّت اعتصامه، وعرف استسلامه، ورأى إخفاء هذا السر واكتتامه.

---

(١) الأبيات في ديوان عرقلة ص٥٢ ـ ٥٣.

(٢) المؤتمن: هو مؤتمن الخلافة، وهو خصي كان بقصر العاضد، إليه الحكم فيه، والتقدم على جميع من يحويه «الكامل» ١٠/ ١٨.

(٣) الخرقانية: قرية صغيرة من مديرية القليوبية على الشط الشرقي للنيل، في الشمال الغربي لقرية أبي القبيط، وكانت تسمى في العصر الفاطمي الخاقانية (معجم البلدان: الخرقانية).

(٤) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٨ ـ ١٩.

(٥) بئر البيضاء: هي مركز بريد منفرد ليس حوله ساكنون، وهو على الطريق بين القاهرة وغزة (صبح الأعشى ١٤/ ٤٢٢، النجوم الزاهرة ٨/ ٤٤).

(٦) خلق الثوب، كنَصَر، وكرُمَ، وسمِعَ، خلوقاً وخلقاً، محركةً: بلي. للمذكر والمؤنث.

Marfat.com

واستشعر الخَصِيّ العَصِيُّ، وخَشِيَ أن تَشُقَّه على شَقِّ العصا العِصِيُّ، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مُغْضَب وعنه مُغْض، لا يأمر فيه ببسط ولا قَبْض، إلى أن استرسل واستبسل، وظن أنه ما نسله من الشَّرّ العقيم نَصَل. وكان له قصرٌ في قرية يقال لها الخرقانية لخُرقه، ورقع ما يتَّسع عليه من خَرْقه، وهو بقرب قَلْيوب، فخلا فيه يوماً للذَّته، ولم يدر أنه يوم ذِلَّته، وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فأنهضَ إليه صلاح الدين من أخذ رأسه، ونزع مَنْ جاء به لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع؛ فورد موارده مِن رَداه على أدون مَشْرع.

قال: ولما قُتِل غار السُّودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً. وكانوا إذا قاموا على وزيرٍ قتلوه، واجتاحوه وأذلُّوه، واستباحوه واستحلُّوه، فحسبوا أنَّ كلَّ بيضاء شَحْمة، وأنَّ كُلَّ سوداء فَحْمة[1]. فثار أصحابُ صلاح الدين إلى الهيجاء، ومقدَّمهم الأمير أبو الهيجاء[2]. واتصلت الحرب بين القصرين، وأحاطت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشَّرُّ يومين، حتى أحَسَّ الأساحم بالحَيْن، وكلما لجؤوا إلى محلَّة أحرقوها عليهم، وحوَوْا ما حواليهم، وأُخرجوا إلى الجِيزة، وأُذِلُّوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السُّودان بعدها من الشِّدَّة، ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلاً و﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١].

وكانت لهم على باب زُوَيلة محلة تسمى المنصورة، وكانت بهم المعمَّرة المعمورة، فأُتي بنيانها من القواعد فأصبحت خاوية، ثم حرثَها بعضُ الأمراء واتخذها بُسْتاناً، فهي الآن جَنَّة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب[3]، أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشدُّ أزره بمصر، لما سمع بحركة الفرنج وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة.

قال: وباشر بنفسه وقعة السُّودان هذه، وكان له فيها أثرٌ عظيم. ومن عجيب ما اتفق أنَّ العاضد كان يتطلع من المنظرة، ويعاين الحرب بين القصرين، فقيل:

---

(١) هو من المثل: ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء ثمرة، يضرب في اختلاف أخلاق الناس وطباعهم، (انظر: المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩، ومجمع الأمثال ٢/ ١٥٦).
(٢) هو أبو الهيجاء السمين، كان من كبار الأمراء الأكراد، لقب بالسمين لكبر بطنه، ذكره أبو شامة في الذيل على الروضتين حوادث سنة ٥٩٣، ٥٩٤هـ.
(٣) تقدمت ترجمته قبل قليل.

Marfat.com

إنه أمر مَنْ بالقصر أن يقذفوا العساكر الشَّامية بالنُّشَّاب والحجارة، ففعلوا. وقيل: إن ذلك كان عن غير اختياره. فأمر شمس الدَّولة الزرَّاقين بإحراق منظرة العاضد، فهمَّ أحدُ الزراقين بذلك، وإذا باب المنظرة قد فُتِحَ وخرج منه زعيمُ الخلافة وقال: أمير المؤمنين يُسَلِّم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم. وكانت العبيد مشتدَّة الأنفس بأنَّ العاضد راضٍ بفعالهم، فلما سمعوا ذلك فَتَّ في أعضادهم، فجبُنُوا وتخاذلوا وأدبروا.

ومما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدةً، منها: [مخلع البسيط]

بالملكِ النَّاصِرِ استنارَتْ ... في عَصْرِنا أَوْجُهُ الفَضَائِلْ
عليَّ مِنْ حَقِّهِ فُروضٌ ... شُكْراً لما جادَ من نَوَافِلْ
يوسفُ مِصْرَ الذي إليه ... تَشُدُّ آمالُنا الرَّواحِلْ
أَجْرَيْتَ نِيلَيْنِ في ثَرَاها ... نيلَ نجيعٍ ونِيلَ نَائِلْ(١)
وما نَفَيْتَ السُّودَانَ حتى ... حُكِّمَتِ البِيضُ في المقاتِلْ
صَيَّرْتَ رَحْبَ الفَضَاءِ ضيْقاً ... عليهمُ كِفَّةً لحابِلْ(٢)
وكلُّ رأى منهمْ كَرَاءٍ ... وأرْضُ مِصْرٍ كلامُ وَاصِلْ(٣)
وقد خَلَتْ منهمُ المغاني ... وأَقْفَرَتْ مِنْهُمُ المَنَازِلْ
وما أُصيبوا إلا بِطَلْ ... فكيفَ لو أُمْطِرُوا بِوَابِلْ
والسُّود بالبِيضِ قد أُبيحوا ... فهْي نَوَازٍ بهم نَوَازِلْ
مُؤْتَمِنُ القَوْمِ خانَ حتى ... غالَتْهُ من شَرِّهِ غَوَائِلْ
عامَلَكُمْ بالخَنَا فَأَضْحى ... ورَأْسُهُ فَوْقَ رَأْسِ عَامِلْ(٤)

---

(١) النجيع: الدم.

(٢) الكفة، بكسر الكاف، وفتح الفاء المشددة: حبالة الصائد تجعل كالطوق تصاد بها الظبية.

(٣) هو واصل بن عطاء الغزّال، أبو حذيفة، رأس المعتزلة، بليغ متكلم، ولد بالمدينة سنة ٨٠هـ، وتوفي بالبصرة سنة ١٣١هـ، له عدة تصانيف منها: «أصناف المرجئة»، «كتاب التوبة»، «كتاب الخطب في التوحيد والعدل»، «كتاب الخطبة التي أخرج منها الراء»، «كتاب الدعوة»، «كتاب السبيل إلى معرفة الحق»، «كتاب طبقات أهل العلم والجهل»، «كتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد»، «كتاب معاني القرآن»، «كتاب المنزلة بين المنزلتين»، (انظر: كشف الظنون ٦/ ٤٩٩، الأعلام: ٨/ ١٠٨ ـ، خطط المقريزي ٢/ ٣٤٥، وفيات الأعيان ٢/ ١٧٠، مروج الذهب ٢/ ٢٩٨، فوات الوفيات ٢/ ٣١٧، تاريخ الإسلام ٥/ ٣١١، مرآة الجنان ١/ ٢٧٤، النجوم الزاهرة ١/ ٣١٣، لسان الميزان ٦/ ٢١٤، شذرات الذهب ١/ ١٨٢).

(٤) العامل: صدر الرمح.

Marfat.com

يـا مُـخْـجِـلَ الـبَـحْـرِ بـالأيـادي قـد آن أن تَـفْـتَـحَ الـسَّـوَاحِـلْ
فـقـدِّسِ الـقُـدْسَ مـن خِـبَـاثٍ أرجـاسِ كُـفْـرٍ غُـتْـمٍ أراذِلْ(١)

قال العماد: ومما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئةً له بالملك وتعزية بعمه: [الطويل]

أيا يوسفَ الإحسان والحسن خيرَ مَنْ حَوَى الفَضْلَ والإفضالَ والنَّهْيَ والأمرا
وَمَـنْ لـلـهُـدَى وَجْـهُ الـنَّـجـاحِ بـرأيـهِ تـجلَّى وثَـغْـرُ الـثَّـغْـرِ مِـنْ عَـزْمِـهِ افْـتَـرَّا
حـمى حَـوْزَةَ الـدِّيـنِ الـحـنـيـفِ بـحَـوْزِهِ من الخالقِ الحُسْنى ومن خَلْقِه الشُّكْرا
أبـــوه أبـــى إلا الـــعَـــلَاءَ وعَـــمُّـــهُ بـمعروفِهِ عَـمَّ الـوَرَى البَذْوَ والـحَضْرَا
وطـالَ الـمـلـوكَ شِـيـركُـوه بِـطَـوْلِـهِ وما شاركُوه في العُلا فَحَوَى الفَخْرا
بـنـو الأَصْـفَـرِ الإفـرنـجِ لاقَـوا بِـبـيـضِـهِ وسُـمْـرِ عَـوَالـيـهِ مـنـايـاهُـمُ حَـمْـرا
وما ابيضَّ يَوْمُ النَّصْرِ واخضرَّ رَوْضُهُ من الخِضْبِ حتى اسودَّ بالنَّقْعِ واغبرَّا
رأى الـنَّـصْـرَ فـي تَـقْـوى الإلٰه وكُـلُّ مـن تـقـوَّى بـتـقـوى الله لا يَـعْـدَمُ الـنَّـصْـرا
ولـمـا رأى الـدُّنـيـا بـعـيـنِ مَـلالـةٍ أغـذَّ مـن الأولـى مـسـيـراً إلـى الأُخـرى
وقـامَ صـلاحُ الـديـن بـالـمـلـك كـافـلاً وكيف ترى شَمْسَ الضُّحى تَخْلُفُ البَدْرا
ولـمـا صَـبَـتْ مِـصْـرٌ إلـى عَـصْـرِ يـوسـفٍ أعـاد إلـيـهـا الـلَّـهُ يُـوسُـفَ والـعَـصْـرا
فـأَجْـرَى بـهـا مـن راحـتَـيْـهِ بِـجُـودِهِ بـحـاراً فـسـمَّـاهـا الـوَرَى أنْـمُـلاً عَـشْـرا
هـزمـتـم جـنـودَ الـمُـشْـرِكِـيـنِ بِـرُعْـبِـكـم فلم يَلْبَثُوا خَوْفاً ولم يمكُثُوا ذُعْرا
وفـرَّقـتُـمُ مـن حَـوْلِ مِـصْـرَ جـمـوعَـهُـمْ بكسرٍ وعاد الكَسْرُ من أهلِها جَبْرا
وآمـنـتـمُ فـيـهـا الـرَّعـايـا بِـعَـدْلِـكُـمْ وأطـفـأتُـمُ مـن شَـرِّ شـاورهـا الـجـمْـرا
بـسـفـك دمٍ حُـطْـتُـمْ دمـاءً كـثـيـرة وحُـزْتُـمْ بـمـا أبـدَيْـتُـمُ الـحَـمْـدَ والـشـكـرا
ومـا يـرتـوي الإسـلامُ حـتـى تـغـادروا لـكـم مـن دمـاءِ الـغـادريـنَ بـهـا غُـدْرا
فـصُـبُّـوا عـلـى الإفـرنـج سَـوْطَ عَـذَابـهـا بأن تقسموا ما بينها القَتْلَ والأَسْرَا
ولا تـهـمـلـوا الـبـيـتَ الـمُـقَـدَّس واعـزمـوا عـلـى فَـتْـحِـهِ غـازيـن وافـتـرعـوا الـبِـكْـرا
تـديـمـون بـالـمـعـروف طـيِّـب ذِكْـرِكُـمْ ومـا الـمُـلْـكُ إلّا أنْ تـديـمـوا لـكُـمْ ذِكْـرا
وإنَّ الـذي أثـرى مـن الـمـال مُـقْـتِـرٌ وإنْ يُـفْـنِـهِ فـي كَـسْـبِ مـحـمـدةٍ أثـرى

(١) غتم: جمع غتمة، وهي عجمة في المنطق.

Marfat.com

قال: وكَثُرَتْ كُتُب صلاحِ الدين إلى أصدقائه مبشِّرة بطيب أنبائه، فمنها كتاب ضمَّنَه هذا البيت: [الكامل]

ما كنتُ بالمَنْظُورِ أَقْنَعُ مِنْكُمُ ... ولقد رَضِيتُ اليومَ بالمَسْمُوعِ

فقلتُ في جوابه أبياتاً، منها: [الكامل]

يا هَلْ لسالِفِ عيْشتي بِفِنائكمْ ... مِنْ عَوْدَةٍ محمودةٍ ورُجُوعِ
قد غِبْتُمُ عن ناظري ما آذَنَتْ ... للقَلْبِ شمْسٌ مَرَّةً بِطُلُوعِ
كنتُ المشفَّعَ في المطالب عندكم ... فَغَدَوْتُ أطلبُ طَيْفَكُمْ بِشَفِيعِ
أصبحتُ أقنع بالسَّلامِ على النَّوَى ... وبِقُرْبِكُمْ كَمْ بِتُّ غيرَ قَنُوعِ

قال: ووصل أيضاً منه كتاب ضمنُهُ هذا البيت: [الطويل]

وأنثر دُرَّ الدَّمْعِ من قَبْلُ أبيضا ... وقد حال مُذْ بِنْتُم فأصبحَ ياقوتا

فنظمتُ في جوابه أبياتاً، منها: [الطويل]

هنيئاً لِمِصْرِ حَوْزَ يوسف مُلْكَهَا ... بأمرٍ من الرَّحمن قد كانَ مَوْقوتا
وما كان فيها قتلُ يوسفَ شاوراً ... يماثِلُ إلا قَتْل داودَ جَالوتا
وقلتُ لقلبي أَبْشِرِ اليَوْمَ بالمُنَى ... فقد نِلْتَ ما أمَّلْتَ بل حُزْتَ ما شِيتَا

قال: وفي هذه السنة قتل العاضدُ بالقصرِ ابني شاور الكامل وأخاه ـ يعني الطَّاري ـ يوم الاثنين الرَّابع من جُمادى الآخرة؛ وذلك أنه لما قُتل شاور عاذوا بالقصر، فكأنما نزلوا في القبر، فلو أنهم جاؤوا إلى أسد الدين سَلِموا، وامتنعوا وعُصموا، فإنه ساءه قتل شاور، وإن كان أَمِنَ بقتله ما حاذر.

قلت: الكامل هو شجاع بن شاور، وكان له أخوان طيّ تَقَدَّم ذِكْر قتل ضِرْغام له، والآخر الطَّارِي. قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الرَّوحي في «تاريخه»[1]: أُخذ ابنا شاور، شجاع الملقَّب بالكامل، والطَّاري الملقَّب بالمعظَّم، وأخوه الملقب بفارس المسلمين، فقتلوا ودير برؤوسهم.

قال: ولما وَلي صلاح الدين ساس الرَّعية، وأظهر لهم من العَدْل ما لم يعلموه، فاجتمع أهلُ البلاد وكرهوه، فأوقع براجلهم، وأخرجهم من القاهرة إخراجاً عنيفاً، وأخرج بعد ذلك فارسهم وشتَّت شملهم. ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢].

---

(١) في كشف الظنون ١/ ٢٥٢، كتاب «بلغة الظرفاء إلى معرفة الخلفاء» للشيخ أبي الحسن الدوحي.

قال: ولما كانت سنة ست وستِّين رَفَعَ جميعَ المكُوس صادِرَها ووارِدَها، جليلَها وحقيرَها، وغزا بلاد الشام غزوتين.

قال ابنُ شداد: وفي المحرَّم من هذه السنة توفي ياروق الذي تُنْسَبُ إليه اليارُوقية، يعني المحلَّة التي بظاهر حلب.

قال غيره: وفيها احترقَ جامع حلب وأسواق البَزِّ، وأخذ نور الدين في عمارته آخر السَّنة.

[نزول الفرنج على دمياط]

ثم دخلت سنة خمسٍ وستين وخمسمائة

ففي أول صفر منها نزل الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ على دِمْياط من الدِّيار المصرية.

قال ابن الأثير[1]: كان فرنج السَّاحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصِقِلِّية يستمدُّونهم ويُعَرِّفونهم ما تجدَّد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدَّس من المسلمين، وأرسلوا جماعةً من القُسوس والرُّهبان يحرِّضون النَّاس على الحركة، فأمدُّوهم بالمال والرِّجال والسِّلاح، واتَّعدوا على النزول على دِمْياط، ظنًّا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر. فلما نازلوها حصروها، وضيَّقوا على مَنْ بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النِّيل، وحشر فيها كُلَّ من عنده، وأمدَّهم بالمال والسِّلاح والذَّخائر، وتابع رُسُلَه إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلَّف عن دِمْياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلَّفيه ومخلَّفي عسكره بالسُّوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه. فجهَّز إليه نور الدين العساكر أرسالاً، كلما تجهَّزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً. ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الإفرنج فنهبها، وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلُوِّ البلاد عن ممانع.

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين بلادها، ونهبها وإخرابها، رجعوا خائبين ولم يظفروا بشيء؛ وهذا موضع المثل: ذهبت النَّعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين[2]! فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاويةً على عُروشها.

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) هو مثل يضرب في سوء التدبير (انظر معجم الأمثال للميداني ٢/ ٥٧، والمستقصى ٢/ ٢١٨ ـ ٢١٩).

Marfat.com

وكان مُدَّة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تُحصى، حُكِي لي عنه أنه قال: ما رأيتُ أكرم من العاضد؛ أرسل إليَّ مدة مُقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مِصْرية سوى الثِّياب وغيرها[١].

قال القاضي ابن شَدَّاد: لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تَمَّ للسُّلْطان من استقامة الأمر في الديار المصرية، علموا أنه يملك بلادهم، ويخرب ديارهم، ويقلع آثارهم لما حدث له من القُوَّة والملك. فاجتمع الفرنج والرُّوم جميعاً، وحدَّثوا نفوسهم بقصد الديار المِصْرية، والاستيلاء عليها ومُلْكِها، ورأَوْا قصد دِمْياط لتمكن القاصد لها من البرّ والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مَغْرِسُ قدم يأوون إليه. فاسْتَصْحَبُوا المنجنيقات[٢] والدبابات[٣] والجروخ[٤] وآلات الحصار، وغير ذلك، ولما سمع الفرنج بالشَّام ذلك اشتدَّ أمرهم، فسرقوا حصن عَكَّار من المسلمين، وأسروا صاحبها، وكان مملوكاً لنور الدين يُسمى خُطْلُخ[٥] العلمدار[٦]، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وكان صاحب بَعْلَبَكَّ وتدمر.

ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج، وبلغه نزولهم على دمياط قَصَدَ شغل قلوبهم، فنزل على الكَرَك محاصراً لها في شعبان من هذه السنة، فقصده فرنج السَّاحل، فرحل عنها، وقصد لقاءهم، فلم يقفوا له.

ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الدَّاية بحلب في رمضان، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحبَ أمره، فعاد يطلب الشام، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خَرَّبت كثيراً من

---

(١) انظر «الكامل» ١٠/ ٢٣.

(٢) أول من اتخذ المنجنيق الضحاك حين أراد إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار، وضعه فيه ورمى به في النار، فكانت برداً وسلاماً، وأول من اتخذه من العرب جذيمة الأبرش (صبح الأعشى ١/ ٤٨٩).

(٣) المراد بالدبابة هنا الجماعة التي تدب حول الجيش لحراسته، وليس المراد الآلة المعروفة.

(٤) الجروخ: جمع جرخ، وهي آلة حربية تستعمل لرمي السهام والحجارة والنفط المشتعل، والقائم على تشغيلها يسمى جرخي.

(٥) هو خطلخ الزاهد، تقدم ذكره في حوادث سنة ٥٥٦هـ، أثناء معركة تل حبيش، مع عسكر الفرنج انظر الجزء الأول.

(٦) العلمدار: هو لقب على الذي يحمل العلم مع السلطان في المواكب. وهو مركَّب من لفظين: أحدهما عربي وهو العلم، أي الراية، والثاني فارسي وهو دار ومعنا ممسك. ويكون المعنى: ممسك العلم (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٥).

Marfat.com

البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال من السَّنة المذكورة وهو بعَشْتَرا. فسار يطلب حلب، فبلغه موت أخيه قطب الدين بالمَوْصِل، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحِجَّة، وبلغه الخبر وهو بتل باشِر، فسار من ليلته طالباً بلاد المَوْصِل.

ولما علم صلاح الدين شِدَّة قصد العدوِّ دِمْياط أنفذ إلى البلد، وأودعه من الرِّجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السِّلاح ما أمِنَ معه عليه، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات، وإزعاج العدوِّ عنهم إن نزل عليهم، وبالغ في العطايا والهبات. وكان وزيراً متحكِّماً لا يُرَدُّ أمره في شيء. ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور، واشتدَّ زحفهم عليها وقتالهم لها، وهو رحمه الله تعالى يشنُّ الغارات عليهم من خارج، والعسكر يقاتلهم من داخل، ونَصْرُ الله للمسلمين يؤيِّدهم، وحُسْنُ قَصْده في نُصْرة دين الله يسعدهم وينجدهم، حتى بان لهم الخُسْران، وظهر على الكُفْر الإيمانُ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم، ويَسْلَمون بنفوسهم، فرحلوا خائبين خاسرين، فَحُرِقَتْ مجانيقهم، ونهبت آلاتُهم، وقُتِلَ منهم خَلْقٌ عظيم، وسَلِمَ البلد بحمد الله ومَنِّه.

وقال العماد: أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه، ومدار فلكه، يُنهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العُدَد بعد العَدَد، ويسهر ليله، ولا يقيل نهاره، وقد أخلص لله سِرَّه وجهاره، ولا ينام ولا ينيم، وعنده من ذلك المُقْعِد المقيم. وسبق تقي الدين ابن أخي السُّلْطان إلى دِمْياط فدخلها، وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها. واتصلَ الحصار، وتواصل الأنصار، ودَبَّ في الفرنج الفَناء، وهَبَّ عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول، بالذل الأكمل، والصَّغَار الأشمل.

وكان لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم، واجتماعهم على دِمْياط ونزولهم، اغتَّم واهتمَّ، واستَصْعَبَ المُلِمَّ، وأنهض من عنده عسكراً ثقيلاً مقدمه الأمير قطب الدين خُسْرو الهَذَباني، وكان مقداماً مقدَّماً، وهُماماً مُغْلماً، وأمره أن يسير بالعسكر، ويخوض بهم بحر العَجَاج الأكدر، فوصل في النصف من ربيع الأوَّل قبل رحيل الفرنج بأسبوع، فوقع رَوْعُه من الكفر في كُلِّ رُوع.

قُلت: وبلغني من شِدَّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نَزَلَ الفرنج على دِمْياط أنه قرئ عليه جُزْء من حديثٍ كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم، فطلَبَ منه بعضُ طلبة الحديث أن يتَبَسَّم لتتم السلسلة، على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون مُحاصَرون بالفرنج.

Marfat.com

[رحيل الفرنج عن دمياط]

وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبيَّ ﷺ وقال له: أَعْلِمْ نورَ الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدُقني، فاذكر لي علامةً يعرفها. فقال: قل له بعلامةِ ما سجدت على تَلِّ حارِم وقلتَ: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، مَنْ هو محمود الكلب حتى يُنْصر! قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغَلَس، ولا يزال يتركَّع فيه حتى يصلِّي الصبح، قال: فتعرَّضْتُ له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلَّها. وألحَّ علي في ذلك، فقلتها، فبكى رحمه الله وصدَّق الرؤيا، وأُرِّخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصل

[إرسال نور الدين كتاب تهنئة للعاضد برحيل الفرنج عن دمياط]

أرسل نور الدين كتاباً إلى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دِمْياط، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم، والاقتصار على صلاح الدين وألزامه وخواصِّه، فكتب إليه نور الدين يمدَحُ الأتراك، ويُعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات[1] الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الدِّيار المصرية، ولحصلوا منها على الأُمْنِيَّة، فلعل الله تعالى أن ييسِّرَ فتح المسجد الأقصى، مضافاً إلى نِعَمِهِ التي لا تُحصى.

قلت: ولعُمارة اليمني من قصيدة: [الكامل]

مَنْ شاكرٌ والله أَعْظَمُ شاكر ... ما كانَ مِنْ نُعمى بني أيوبِ
طَلَبَ الهُدَى نَصْراً فقال وقد أَتَوْا ... حَسْبي فأنتم غايةُ المَطْلُوبِ

(١) القنطاريات: جمع قنطارية، وهي نوع من الأسلحة في خزانة السلاح وتكون مدهونة ومذهبة (التعريف بمصطلحات الصبح ص٢٧٧) وفي حاشية صفحة ٣٨ من البرق الشامي: القنطارية: في الأصل تعني الجزء الخشبي من الرمح أو الحربة. وتطلق على الرمح.

Marfat.com

جلبوا إلى دِمْيَاطَ عند حصارها عِزَّ القويِّ وذِلَّةَ المَغْلُوبِ
وجَلَوْا عن الإسلام فيها كُرْبَةً لو لم يجلُوها أَتَتْ بكُرُوبِ
فالنَّاسُ في أعمال مصرٍ كلها عتقاؤهم من نازحٍ وقَرِيبِ
إنْ لم تظنَّ النَّاسَ قِشْراً فارغاً وهم اللُّبابُ فأنتَ غَيْرُ لبيبِ

وللشِّهاب فِتْيان الشَّاغوري[1] من قصيدةٍ: [الطويل]

ولا غَرْوَ أَنْ عاد الفرنجُ هزيمةً ولو لم تَعُدْ لم يَبْقَ للشِّرْكِ ساجِلُ
فقد أيقنتْ أعداؤه أَنَّ حَظَّهُمْ لديه رِماحٌ أُشْرِعَتْ أو سَلاسِلُ
ولما أَتَوْا دِمْياطَ كالبحر طامياً وليس له من كَثْرَةِ القَوْمِ ساجِلُ
يزيد عن الإحصاء والعَدِّ جَمْعُهُمْ ألوفُ ألوفٍ خَيْلُهُمْ والرَّواجِلُ
رَأَوْا دونها أُسداً بأيديهمُ القنا وبِيضاً رِقاقاً أَحْكَمَتْها الصَّياقِلُ
وداروا بها في البحر من كلِّ جانب ومن دونها سَدٌّ من الموتِ حائِلُ
رجا الكلبُ مَلْكُ الرُّوم إذ ذاك فَتْحَها فخاف فأُمُّ المَلْكِ والرُّوم هابِل[2]
فعادوا على الأعقابِ منها هزيمةً كَأَنَّهُمُ ذُلَّا نَعَامٌ جَوَافِلُ
وما أمَّلوا أَنْ يلحقوا ببلادِهم لِتَعْصِمَهُمْ مما رَأَوه المَعَاقِلُ

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعملَ له أبياتاً في صلاح الدين تهنئةً بالنَّصْرِ في دِمْياط، فعملتُ قصيدةً، منها: [البسيط]

يا يوسف الحُسْن والإحسانِ يا ملكاً بجدِّه صاعداً أعداؤه هَبَطُوا
حَلَلْتَ من وَسَطِ العَلْيَاءِ في شَرَفٍ ومَرْكَزُ الشَّمْسِ من أفلاكها الوَسَطُ

---

(١) فتيان الشاغوري: هو فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الشاغوري، الأسدي، شهاب الدين الدمشقي الحنفي، ولد في بانياس الساحل سنة ٥٣٠هـ، وعاش طفولته وشبابه في حي الشاغور جنوبي دمشق، فنسب إليه، وقضى فترة طويلة من حياته معلماً للصبيان في الزبداني، تعلق بخدمة الأمير بدر الدين مودود بن المبارك شحنة دمشق وهو أخو عز الدين فروخشاه ابن أبي السلطان صلاح الدين لأمه، وكان يعلم أولاده الخط، ثم كانت له في آخر حياته حلقة في الجامع الأموي بدمشق يقرئ فيها النحو، توفي سنة ٦١٥هـ، له ديوان شعره مشهور، وديوان آخر في الدوبيت (كشف الظنون ٥/ ٨١٦، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٩، معجم البلدان ٣/ ٣١٠، وفيات الأعيان ٤/ ٢٤ ـ ٢٦، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤، التكملة للمنذري ٢/ ٤٢١. وفي النجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٤ ذكر وفاته في سنة ٦٢٧هـ. والتاريخ الأول أصح).

(٢) هابل: أي ثاكل، ومنه يقال: هبلته أمه، أي ثكلته.

Marfat.com

هنّيتَ صونَك دِمْياطَ التي اجْتَمَعَتْ لها الفرنجُ فما حَلُّوا ولا رَبَطُوا
مِصْرٌ بيوسُفِها أَضْحَتْ مُشَرَّفةً وكلُّ أمرٍ لها بالعَدْلِ مُنْضَبِطُ
وحينَ وافى صلاحُ الدينِ أَصْلَحَهَا فللمَصَالِحِ مِنْ أيامه نَمَطُ

قال: ومما سَيَّرْتُهُ إلى صلاح الدين قصيدة، منها: [المنسرح]

كأنَّ قلبي وحُبَّ مالكه مِصْرٌ وفيها المليكُ يُوسُفُها
هذا بسَلْبِ الفُؤاد يظلمني وَهْوَ بقتلِ الأعداءِ يُنْصِفُها
المَلِكُ النَّاصر الذي أبداً بِعِزِّ سُلْطانِهِ يشرِّفُها
قامَ بأحوالِها يُدَبِّرُها حُسْناً وأثقالَها يخفِّفُها
بعَدْلِه والصَّلاحِ يَغْمُرُها وبالنَّدى والجميلِ يَكْنُفُها
مِنْ دَنَس الغادِرينَ يَرْحَضُها ومن خِباثِ العِدَى ينظِّفُها[1]
وإنَّ مِصْراً بمُلْكِ يوسُفِها جَنَّةُ خُلْدٍ يَرُوقُ زُخْرُفُها
وإنَّهُ في السَّماح حاتِمُها وإنَّهُ في الوَقارِ أحْنَفُها
يوسُفُ مِصْرَ الذي ملاحِمُها جاءَتْ بأوْصافِهِ تُعَرِّفُها
كُتُبُ التَّواريخِ لا يزيِّنُها إلا بأيامه مُصَنِّفُها
وَحُطْتَ دِمْياطَ إذ أحاطَ بها مَنْ بِرجُومِ البَلاءِ يَقْذِفُها
لاقَتْ غواةُ الفرنج خَيْبَتَها فزادَ من حَسْرَةٍ تَأَسُّفُها
أوْرَدْتَ قُلْبَ القلوب أرشيةً من القَنَا للدِّماء تَنْزِفُها[2]
وَلَّيْتَهَا سَفْكَها فعامِلُها عامِلُها والسِّنانُ مُشْرِفُها[3]
يُمضي لك اللَّهُ في قتالهمُ عزيمةً للجهاد تُزْهِفُها[4]

وله فيه من أُخرى[5]: [المجتث]

قَدِ استَقَرَّتْ أُموري فيه بحسْبِ اقْتِراحي
كما اسْتَقَرَّ صلاح الدُّ (م) نيا بملك الصَّلاح

---

(١) يرحضها: أي يغسلها.
(٢) القلب: جمع قليب، وهو البئر، والأرشية: جمع رشاء، وهو الحبل.
(٣) عامل الرمح: صدره.
(٤) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٩ ـ ١٣.
(٥) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٢ ـ ٢٥.

Marfat.com

تُـنـيـر شَـمْـسُ أيـاديـه[1] فـي سـمـاءِ الـسَّـمَـاحِ[2]
وأَمْـرُه مـسـتـفـادٌ مِـنَ الـقـضـاءِ الـمُـتَـاحِ

[إرسال نور الدين العماد الكاتب إلى خلاط]

وأرسله نور الدين إلى خِلَاط، ومتولِّيها حينئذٍ ظهير الدين سُكْمان المعروف بشاه أرمن. قال: فلما كنتُ بِماردين كتبتُ إلى بعض المعارف: [مجزوء الرمل]

قـد نَـزَلْـنـا فـي جِـوَارِكْ وَطَـلَـبْـنَـا قُـرْبَ دَارِكْ
وسَـرَيْـنـا فـي الـدَّيـاجـي فـهـدانـا ضَـوْءُ نـارِكْ
فَـتَـدَارَكْ أَمْـرَنـا الـيَـوْ مَ بـطَـوْلٍ مُـتَـدَارِكْ
وَتَـفَـرَّدْ بـاغـتـنـام الـشُّـ (م) ـكْـرِ مـن غـيـر مـشـارك

قال العماد: وفي هذه السنة خرج نور الدين إلى داريَّا فأعاد عمارة جامعها، وعمَّر مشهد أبي سليمان الدَّاراني، وشتَّى بدمشق

فـصـل

في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عُمارة في قصيدةٍ مدح بها السُّلْطان صلاح الدين، تقدَّم بعضُها، يقول فيها: [الكامل]

صَـحَّـتْ بـه مِـصْـرٌ وكـانَـتْ قَـبْـلَـه تَـشْـكُـو سَـقَـامـاً لـم يُـعَـنْ بـطـبـيـبِ
عَـجَـبـاً لـمـعـجـزةٍ أَتَـتْ فـي عَـصْـرِه والـدَّهْـرُ ولَّادٌ لـكـلِّ عـجـيـبِ
رَدَّ الإلـهُ بـه قَـضِـيَّـةَ يُـوسُـفٍ نَـسْـقـاً عـلـى ضَـرْبٍ مـن الـتَّـقْـريـبِ
جـاءتـه إخـوتُـه ووالـده إلـى مِـصْـرٍ عـلـى الـتَّـدْريـج والـتَّـرتـيـبِ
فَـاسْـعَـدْ بـأكـرمِ قـادمٍ وبـدولـةٍ قـد سـاعَـدَتْـكَ ريـاحُـهـا بـهـبـوبِ

قال العماد: لما دخل فصل النَّيروز استأذن الأمير نجم الدين أيوب نورَ الدين في قَصْد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته وسَبَده

(١) في خريدة القصر: «مساعيه» بدل: «أياديه».
(٢) في خريدة القصر: «الصباح» بدل: «السماح».

Marfat.com

ولَبده[١]، وخيَّم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جَدده[٢]. وسار في حفظ الله تعالى، فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب، وقضى صاحب القصر العاضد من حقّ قدومه ما وجب، وركب لاستقباله، وزاد إقبال البلاد بإقباله.

ولما عزم على التوجُّه إلى مصر شرع في تفريق أملاكه، وتوفير ما لَهُ فيه شركة على أشراكه، وما استصحب معه شيئاً من موجوده، وجعله نُهْبة لجوده.

قلت: ووقف رباطاً داخل الدَّرْب الذي بقرب العوينة بباب البريد.

ثم قال العماد: ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه، وسحب للعُلا على رَوْض الرضا سحائبه، خرج نور الدين إلى رأس الماء بعسكره وخيامه، وأرهف للجِدِّ في الجهاد حَدَّ اعتزامه. ثم أقام بعد توديعه، والوفاء بحق تشييعه، إلى أن اجتمعت إليه عساكره، وحضر بادي جُنْده وحاضره، وعَبَّ بحرُه، وماجَ زاخره.

ثم توجهنا إلى بلاد الكَرَك مستهل شعبان، ونزلنا أياماً بالبَلْقاء على عَمّان، وأقمنا على الكَرَك أربعة أيام نحاصرها، ونصبنا عليها منجنيقين. فورد الخبر أن الفرنج قد تجمَّعوا ووصلوا إلى ماعِين. فقال نور الدين: نرى أن نعطف أعنَّتنا وبالله نستعين، فإنا إذا كسرناهم وقسرناهم، وقتلناهم وأسرناهم، أدركنا المُرَاد، وملكنا البلاد. فرحلنا إليهم فولوا مُدْبِرين حين سمعوا برجوعنا، وقالوا: رحيلهم عن الحصن قد حصل، وهو مقصودنا. وعاد نور الدين إلى حوران، فخَيَّم بِعَشْترا، وصام رمضان.

وقال ابن الأثير[٣]: كان سبب حَضر نور الدين الكَرَك أن نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، سار عن دمشق إلى مصر، فَسَيَّر معه نور الدين عسكراً، فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودَّة ما لا يُعد؛ فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكَرك فنزل عليه وحصره، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين، ونَصَبَ نور الدين على الكَرَك المجانيق، فأتاه الخبر أنَّ الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهَنْفَرِي[٤] وفليب بن الرفيق[٥] ـ وهما

---

(١) يقال: ما له سبد ولا لبد: أي ما له قليل ولا كثير. والسبد: الوبر، وقيل: الشعر. واللبد: الصوف، ويكنى بهما عن الإبل والغنم، وقيل: يكنى بهما عن المعز والضأن، وقيل: يكنى بهما عن الإبل والماعز، فالوبر للإبل، والشعر للماعز.

(٢) الجدد، بالتحريك: الطريق إذا كان مستوياً لا حدب فيه ولا وعوثة.

(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٣.

(٤) في «الكامل»: ابن صنفري.

(٥) في «الكامل»: وقريب من الرقيق، وهو تحريف.

Marfat.com

فارسا الفرنج في وقتهما ـ في المقدِّمة إليه، فرحل نور الدين، رحمه الله تعالى، نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج، وكانا في مائتي فارس وألف تُرْكُبلي[1] ومعهم من الرَّاجل خَلْقٌ كثير. فلما قاربهما رجعا القهقَرى إلى من وراءهم من الإفرنج، وقصد نور الدين وسط بلادِهم، ونهب ما كان على طريقه، ونزل بعَشْتَرا، وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه.

وقال ابن شداد: أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور، ويجمع القصة مشاكلةً ما جرى للنبي يوسف الصديق عليه السَّلام. فوصل والده نجم الدين إليه، وسلك معه من الأدب ما كان عادته، وألبسه الأمر كُلّه فأبى أن يَلْبَسَه، وقال: يا ولدي، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفء له، فلا ينبغي أن يُغَيَّر موقع السَّعادة. فحكَّمه في الخزائن بأسرها. وكان رحمه الله تعالى كريماً يطلق ولا يرد. ولم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله، وبه خُتم أمر المصريين.

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب، وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمَّله رسالة، منها: «وهذا أمر يجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة، والمنقبة النبيلة، قبل هجوم الموت، وحضور الفوت، لا سيما وإمام الوقت متطلِّعٌ إلى ذلك بكلِّيته، وهو عنده من أهم أمنيَّته».

وسار نجم الدين، وأصحبه نور الدين هديَّة سَنيَّة للملك النَّاصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهْلِيلج[2]، ولم تجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه ولقَّبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتُّحَف والهدايا، وأظهر السلطان من بِرِّه

---

(١) تركبلي: من الجند الفرنج الذين كانوا يجندون من العناصر المحلية، وكانوا مسلحين ومدربين على غرار فرق الخيالة البيزنطية الخفيفة، من عناصر مسيحية محلية، ومن المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية (حاشية البرق الشامي ٣/ ١٦٧). وقيل: تركبلي جند في خدمة الفرنج، آباؤهم أتراك أو عرب وأمهاتهم يونان، وكانوا رماة الفرنج، ورد ذكرهم كثيراً في تواريخ هذا الصعر، وذكرهم ابن العديم باسم: كافر ترك (انظر زبدة الحلب ٢/ ٢٦٤، النوادر السلطانية ص٢٢٤).

(٢) الإهليلج: من الأشجار الحرجية والزراعية، من فصيلة الإهليجيات، منبتها الهند وجاوا والأنتيل وسرنديب والسنغال، يستخرج من لحائها صمغ يستعمل في الطلاء الصيني، وهو من أجود أنواعه، ولباب ثمار بعضها يدخل في عدة علاجات طبية، وهو على أنواع عدة (قاموس التداوي بالأعشاب ص٤٤).

Marfat.com

وتعظيم أمره ما أحرز به الشُكر والأجر، وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الإسكندرية ودِمْياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة أخاه قُوص وأُسوان وعَيْذَاب، وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار.

وسار شمس الدولة إلى قُوص، وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار، وكان السلطان قبل إقطاعها شمس الدولة قد سيَّر رسلان بن دُغمش لجباية خَرَاجها، فخرج عليه عباس بن شاذي في جماعة من الأعراب والعبيد في مرج بني هُميم، فغنمه رسلان وعاد إلى القاهرة.

[ولادة الملك الأفضل علي بن صلاح الدين]

وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السُلْطان ولده الملك الأفضل نور الدين علياً[1]، وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى، وتصدَّق بما بَهَرَ به العقول.

ومن قصيدةٍ للحكيم عبد المنعم[2] تقدَّم بعضها: [البسيط]

في مَشْرِقِ المَجْدِ نجمُ الدِّينِ مَطْلَعُهُ ... وكلُّ أبنائِهِ شُهْبٌ فلا أَفَلُوا
جاؤوا كيعقوب والأسباط إذ وَرَدُوا ... على العزيزِ من ارض الشَّام واشتملوا
لكنَّ يوسف هذا جاء إخوتُه ... ولم يكن بينهم نَزْعٌ ولا زَلَلُ
ومُلِّكوا مُلْكَ مِصْرَ في شماخَتِهِ ... ومِثْلُها لرجالِ مِثْلِهِمْ نُزُلُ

فصل

في ذكر الزَّلْزلة الكبرى[3]

قال ابن الأثير: وفي ثاني عشر شوَّال كانت زلزلة عظيمة لم يَرَ النَّاسُ مثلها، عمَّت أكثر البلاد من الشَّام ومصر والجزيرة والمَوْصِل والعراق وغيرها، إلا أن أشدَّها

---

(١) هو الملك الأفضل علي بن يوسف بن أيوب بن شادي، نور الدين، أكبر أولاد السلطان والمعهود إليه بالسلطنة، وكان فاضلاً شاعراً، توفي بسميساط يوم الجمعة في ربيع الأول سنة ٦٢٢هـ، وعمره سبع وخمسون سنة (انظر ترجمته الوافية في شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٥٦ ـ ٢٦٥، ومرآة الزمان ٨/ ٦٣٧، الذيل على الروضتين ص١٤٥، وفيات الأعيان ٣/ ٩٥، السلوك للمقريزي ١/ ٢١٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٠، البداية والنهاية ١٣/ ١٠٨، كنز الدرر ص٢٧٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٢، شذرات الذهب ٥/ ١٠١).

(٢) هو الجلياني، عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الجلياني الغساني الأندلسي، المتوفى سنة ٦٠٢هـ. تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٤.

Marfat.com

وأعظمها كان بالشَّام. فخَرِبَتْ بعلبك وَحِمْص، وحماة، وشَيْزَر، وبعرين، وغيرها، وتهدَّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدُّور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العَدِّ والإحصاء. فلما أتى نورَ الدين خبرُها سار إلى بَعْلَبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها، وخلوِّها من أهلها. فرتَّب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماة، ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين، فإنها مع قربها منهم لم يبقَ من سورها شيء البتَّة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أميرٍ كبير، ووكل بالعمارة من يحثُّ عليها ليلاً ونهاراً. ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لا يقدرون يأوون إلى بيوتهم السَّالمة من الخراب خوفاً من الزَّلزلة، فإنها عاودتهم غيرَ مرَّة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج. فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفَعَلَة والبنَّائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها، وجميع البلاد وجوامعها، وأخرج من الأموال ما لا يقدَّر قَدْرُه.

وأما بلاد الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضاً يخافون نورَ الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبعرين كحصن الأكراد وصافيثا والعُرَيمة وعِرقا، في بحر الزَّلازل غَرْقى، لا سيما حصنِ الأكراد، فإنه لم يبق له سور، وقد تم عليهم فيه دُحُور وثُبُور. فشغلهم سوؤهم عن سواه، وكلٌّ اشتغل بما دهاه، وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام، بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام.

قال: وما سكنت النُّفُوس من رُعبها، وسَلَتِ القلوب عن كَرْبها، إلا بما دَهَم الكُفَّار من أمرها، وعراهم من ضُرِّها، فلقد خصَّتهم بالأمَضِّ الأشقِّ، وأخذتهم الرَّجفة بالحقِّ، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس، فأصبحوا للرَّدَى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

ثم ذكر العماد قصيدةً في مدح نور الدين، ووَصْفِ الزلزلة، مطلعها[1]: [الخفيف]

هل لعاني الهوى من الأَسر فادي ... ولساري لَيْلِ الصَّبابة هادي

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٤٦ ـ ٥٠.

Marfat.com

جنّبوني خَطْبَ البِعادِ فَسَهْلٌ ... كلُّ خَطْبٍ سوى النَّوَى والبِعَادِ
كنتُ في غَفْلةٍ من البَيْنِ حتى ... صاحَ يومَ الأثيلِ بالبَيْنِ حادي
قد حَلَلْتُمْ من مُهْجَتي في السُّوَيْدا ... ءِ ومِنْ مُقْلَتِي مَحلَّ السَّوَادِ
وَبَخِلْتُمْ مِنَ الوصالِ بإسعا ... في أما كنتُمْ من الأَجْوَادِ
وبعثتُمْ نسيمَكُمْ يتلافا ... ني فعادَ النَّسيم من عُوَّادي
سُمْتُموني تجلُّداً واشتياقاً ... ومُحَالٌ تجمُّعُ الأَضْدَادِ
أبقاءً بعد الأَحِبَّةِ يا قَلْـ ... ـبيَ ما هذه شُروطُ الوِدَادِ
ذابَ قلبي وسالَ في الدَّمْعِ لمَّا ... دامَ مِنْ نارِ وَجْدِه في اتِّقادِ
ما الدُّموعُ التي تحدِّرُها الأشـ ... ـواقُ إلا فتائتُ الأكْبادِ
حَبَّذا ساكنو فؤادي وَعَهْدي ... بِهِمُ يَسْكُنُونَ سَفْحَ الوادِي
أتمنَّى بالشَّام أهلي ببغدا ... دَ وأينَ الشَّام مِنْ بَغْدادِ
ما اعتياضي عن حُبِّهم يَعْلَمُ اللَّـ ... ـهُ تعالى إلّا بحبِّ الجهادِ
واشتغالي بخِدْمَةِ المَلِكِ العَا ... دِلِ محمودِ الكَريمِ الجَوَادِ
أنا منه على سَريرِ سُرُورِي ... راتعُ العَيْشِ في مَرَادِ مُرَادي
قَيَّدَتْني بالشَّام منه الأيادي ... والأيادي للحُرِّ كالأقيادِ
قد وَرَدْتُ البَحْرَ والخِضَمَّ وخَلَّفْـ ... ـتُ ملوكَ الدُّنيا به كالثُّمادِ[1]
هُوَ نِعْمَ الملاذُ من نائبِ الدَّهْـ ... ـرِ ونِعْمَ المَعَاذُ عند المَعَادِ
جَلَّ رُزْءُ الفِرَنْج فاستَبْدلُوا منـ ... ـه بِلُبْسِ الحديدِ لُبْسَ الحِدَادِ
فَرَّقَ الرُّعْبُ منه في أَنْفُسِ الكُفَّـ (م) ـارِ بينَ الأرْوَاحِ والأَجْسَادِ
سَطْوَةٌ زَلْزَلَتْ بِسُكَّانِها الأرْ ... ضَ وهَدَّتْ قَوَاعِدَ الأَطْوَادِ
أَخَذَتْهُمْ بالحقِّ رَجْفَةُ بأْسٍ ... تَرَكَتْهُمْ صَرْعَى صُرُوفِ العَوادي
خَفَضَتْ من قِلاعِها كُلَّ عالٍ ... وأعادَتْ تِلاعَها كالوِهَادِ
أنفَذَ اللَّهُ حُكْمَه فهو ماضٍ ... مُظْهِراً سِرَّ غَيْبِه فهو بادي
آيةٌ آثَرَتْ ذوِي الشِّرْكِ بالهُلْـ ... ـكِ وأهلَ التَّوحيد بالإرشَادِ
والأعادي جَرَى عليهمْ من الشَّذْ ... مِيرِ ما قَدْ جَرَى على قَوْمِ عادِ
أَشْرَكَتْ في الهلاك بينَ الفَرِيقيـ ... ـنِ دعاةِ الإشراكِ والإلحادِ

(١) الثماد: الماء القليل.

Marfat.com

ولقد حاربوا القَضَاء فأمضَى حُكْمَهُ فيهمُ بغيرِ جِلادِ
والإلـه الرَّؤوفُ في الشَّامِ عنا دافعٌ لُطْفُهُ بلاءَ البلادِ

قال العماد: ومنها معنى مبتكر ابتدعتهُ في الزَّلزلة، وهو:

وبحقٍّ أُصِيبَتِ الأَرْضُ لَمَّا اشتكت من مَقَام أهل الفَسَادِ

قال العماد: وفي هذه السنة عند وصولنا إلى حلب في الخدمة النُّورية كنت مقرِّظاً للفضائل الشَّهْرُزُورِيَّة، وكان الحاكم بها القاضي محيي الدين أبو حامد محمد ابن قاضي قضاة الشَّام كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُورِي[1]. وكان كمال الدين قد عُذق به[2] تنفيذ الأحكام، وإليه أمور الديوان، وهو ذو المكانة والإمكان، في بسط العدل والإحسان، ومحيي الدين ولده ينوبُ عنه في القضاء بحلب وبُلْدانها، وينظر أيضاً في أمور ديوانها، وبحماة وحمص من بني الشَّهْرُزُوري قاضيان، وهما حاكمان متحكِّمان. وكان هذا محيي الدين من أهل الفَضْل، وله نَظْمٌ ونثر، وخُطَب وشِعْر. وكانت معرفتي به في أيام التفقه ببغداد في المدرسة النِّظامية، منذ سنة خمسٍ وثلاثين، والمدرِّس شيخنا معين الدين سعيد بن الرزَّاز[3]؛ وكان مذهبُ الشَّافعي رضي الله عنه بعلمه مُعْلماً مُذْهَبَ الطراز. وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيي الدين وسلبت قراره، وغلبت اصطباره، وجلبت أفكاره، فكتبتُ إليه قصيدةً، مطلعها: [الكامل]

لو كان من شكوى الصَّبابة مُشْكيا لعدا على عَدْوى الصَّبابة مُعْدِيا
مات الرَّجاءُ فإنْ أَرَدْتَ حياتَه وَنُشُورَه فارجُ الإمام المحييا
أقضى القُضَاة محمدُ بن محمدٍ مَنْ لَسْتُ منه للفضائل مُحْصِيَا
قاضٍ به قَضَتِ المظالِمُ نَحْبَها وغدا على آثارِهِنَّ مُعقِّيا[4]
يا كاشفاً للحقِّ في أيامه غُرَراً يدوم لها الزمان مُغَطِّيا

(١) سترد ترجمة وافية له في الجزء الرابع.
(٢) عذق به: أي اختص به.
(٣) هو سعيد بن محمد بن عمر، شيخ الشافعية في عصره، تفقه بالغزالي وألكيا الهراسي، وروى عنه السمعاني، ولد سنة ٤٦٢هـ، وتوفي سنة ٥٣٩هـ، والرزاز: نسبة إلى من يبيع الأرز (انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ١١٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٦٩، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٩٣).
(٤) معقيا: كذا بالأصل. وفي القاموس المحيط (عقي): عقا عقواً: احتفر البئر، فأنبط من جانبها، وعَقَى العَلَم: علا، وارتفع، وعقى الأمرَ: كرهه، والمعقِّي، كمحدِّث: الحائم على الشيء، المرتفع كالعقاب. وعقَّى بسهمه تعقيةً: رمى به في الهواء، وعقَّى الطائر: ارتفع في طيرانه.

لم تُنْعَشِ الشُّهباءُ عند عِثارِها ... لو لم تَجِدْكَ لِطَوْدِ حِلْمِك مُرْسِيا
رَجَفَتْ لِسَطْوَتِك التي أَرْسَلْتَها ... نحو الطُّغاة لحدِّ عَزْمِك ممهيا[1]
وَتَظَلَّمَتْ من شَرِّهم فَتَمَلْمَلَتْ ... عَجْلَ إجارتها عليها مُبْقيا
أَنِفَتْ من الثُّقلاءِ فيها إذ رَمَتْ ... أثقالَها ورأتك منها مُلْجيا
حَلَبٌ لها حَلْبُ المدامع مُسْبَلٌ ... أَنْ لاقَتِ الخَطْبَ الفظيع المُبْكِيا
وَبِعَدْلِ نورِ الدين عاوَدَ أُفْقُها ... مِنْ بَعْدِ غَيْمِ الغَمِّ جَوّاً مُضْحِيا
أضحى لبهجتها مُعيداً بعدما ... ذَهَبَتْ وللمعروف فيها مُبْدِيا
لأمورِها مُتَدَبِّراً لِشَتاتِها ... متألِّفاً لصَلاحِها متولِّيا
فالشَّرْعُ عادَ بِعَدْله مُسْتَظْهِراً ... والحقُّ عادَ بِظِلِّه مُسْتَذْرِيا[2]
والدَّهْرُ لاذ بعفوه مستغفراً ... مما جَنَاهُ مُطْرِقاً مُسْتَحْيِيا

فصل

في غزوة صاحب البيرة ووفاة صاحب المَوْصِل[3]

قال ابنُ الأثير: كان شهاب الدين محمد بن إلياس بن إيلغازي بن أُرْتُق، صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره، وهم مائتا فارسٍ، إلى الخدمة النُّورية وهو بعَشْتَرا. فلما وصل إلى اللّبوة ـ وهي من أعمال بَعْلَبك ـ ركب متصيِّداً فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للغارة على بلاد الإسلام، وذلك سابع عشر شَوَّال، فوقع بعضُهم على بعض واقتتلوا، وصبر الفريقان لا سيما المسلمون، لأنَّ ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج. وكثر القتلى بينهم وانهزم الفرنج، وعَمَّهم القَتْلُ والأسر، فلم يفلت منهم إلا من لا يعتدُّ به. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢] وسار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين، فركب هو وعسكره إلى لقائه، واستعرض الأسرى ورؤوس القتلى، فرأى فيها رأس مقدَّم الإسبتاريَّة[4] صاحب حصن الأكراد، وكانت الفرنج تعظِّمه لشجاعته ودينه عندهم، ولأنه شجًى في حلوق المسلمين، وكذلك أيضاً رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازداد سروراً، ولله الحمد.

---

(١) المهي: ترقيق الشفرة، وأمهى الحديدة: سقاها الماء وأحدّها.
(٢) مستذرياً: أي مستظلاً به، والذُّرى، بفتح الذاء والراء، كل ما استترت به.
(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٤ ـ ٢٥.
(٤) الاسبتارية: تقدم التعريف بهم.

Marfat.com

قال: وفي شوال[١] سنة خمس وستين توفي الملك قطب الدين مودود بن زَنْكي بالمَوْصِل. وكان لما اشتدَّ مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زَنْكي بن مودود، وهو أكبر أولاده، وأعزُّهم عليه، وأحبُّهم إليه. وكان النَّائب عن قطب الدين حينئذٍ والقَيِّم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين زَنْكي لأنه كان قد أكثر المَقَام عند عمِّه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، وخدمه وتزوَّج ابنته، وكان عزيزه وحبيبَهُ. وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لِظُلمٍ كان فيه، ويذمُّه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الأمور. فخاف عبد المسيحَ أن يتصرَّف عماد الدين في أموره عن أمر عمره فيعزله ويبعده، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش؛ زوجة قطب الدين، فردُّوه عن هذا الرأي. فلما كان الغد أحضر الأمراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي. وتوفي وقد جاوز عمرُه أربعين سنة.

وكان تام القامة كبير الوجه، أسمر اللون، واسع الجبهة، جَهْوَريَّ الصوت. وكانت ولايتُه إحدى وعشرين سنةً وخمسة أشهر ونصفاً.

ولما توفي استقرَّ سيف الدين في المُلْك، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكياً ومستنصراً، وكان عبد المسيح هو متولي أمور سيف الدين ويحكم في مملكته، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه، لأنه في عنفوان شبابه وغِرَّة حداثته.

قال: وهذه حادثة تحثُّ على العَدْل[٢]: من جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى العُقَيمة مقابل الجزيرة من الجانب الشَّرْقي، يفصل بينهما دِجْلة، لها بساتين كثيرة، بعضها تمسح أرضه، ويؤخذ على كلِّ جريب[٣] من الأرض التي قد زرعت شيء معلوم، وبعضُها عليه خَرَاج ولا مساحة عليه، وبعضها مطلقٌ منهما. فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه منه إلا القدر القريب، وكان لنا بها عِدَّة بساتين. فحكى لي والدي قال: جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة ـ وأنا حينئذٍ أتولى ديوانها ـ يأمر بأن تُجعل بساتين العُقَيمة كلها ممسوحة. فشقَّ ذلك عليَّ لأجل أصحابها، ففيها ناسٌ صالحون، ولي بهم أُنسٌ، وهم فقراء. فراجعته، وقلتُ له: لا تظن أني أقول هذا لأجل ملكي، لا والله، إنما أريد أن يدوم النَّاس

(١) في «الكامل في التاريخ» في ذي الحجة.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٥ ـ ٢٦. وفيه قال ابن الأثير: ذكر حالة ينبغي للملوك أن يحترزوا من مثلها.

(٣) الجريب: مقياس لمساحة الأرض، وهو يساوي ٤١٦، و١٣٦٦ متراً مربعاً (النظم الإسلامية ص٤١٦).

Marfat.com

على الدُّعاء للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه. قال: فأعاد الجواب يأمر بالمساحة ويقول: تمسح أولاً ملكك ليقتدي بك غيرك، ونحن نطلق لك ما يكون عليه. فشرع النُّواب يمسحون، وكان بالعقيمة رجلان صالحان، وبيني وبينهما مودَّة، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة، فحضرا عندي وتضوَّرا من هذه الحال، وسألاني المكاتبة في المعنى، فأظهرت لهما كتاب عبد المسيح جواباً عن كتابي، فشكراني، وقالا: وأيضاً تعودُ تراجعُه. فعاودت القَوْلَ، فأصرَّ على المساحة، فعرَّفتهما الحال. فلما مضى عدة أيام عُدْتُ يوماً إلى داري وإذا هما قد صادفاني على الباب، فقلت لنفسي: عجباً لهذين الشيخين، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني ما لا أقدر عليه! فقلت لهما: والله إني لأستحيي منكما كلما جئتما في هذا المعنى، وقد رأيتما الحال كيف هو. فقالا: صدقت، ولم نحضُر إلا لنعرِّفك أن حاجتنا قُضِيَتْ. قال: فظننت أنهما قد أرسلا إلى المَوْصِل من يشفع لهما، فدخلت داري وأدخلتهما معي، وسألتهما عن الحال كيف هو، ومن الذي سعى لهما. فقالا: إن رجلاً من الصَّالحين الأبدال شكونا إليه حالنا، فقال: قد قضيت حاجة أهل العُقَيمة جميعهم. قال: فوقع عندي من هذا، ولكن تارةً أصدقهما لما أعلم من صلاح أحوالهما، وتارةً أعجب من سلامة صدرهما، كيف يعتمدان على هذا القول، ويعتقدانه واقعاً لا شكَّ فيه! فلما كان بعد أيام وصل قاصد من المَوْصِل بكتابٍ يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة وإطلاق كُلِّ مسجون وبالصَّدقة، فسألت القاصد عن السبب، فأخبرنا أن قطب الدين شديد المرض. قال: فأفكرت في قولهما، وتعجَّبْتُ منه، ثم توفي بعد يومين من هذا. قال: ورأيت والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه، ويحترمه، ويقضي أشغاله، واتخذهما صديقين.

قال: وكان قطب الدين من أحسن الملوك، وأعفِّهم عن أموال رعيَّته، محسناً إليهم، كثير الإنعام عليهم، محبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم، حليماً عن المذنبين منهم، سريع الانفعال للخير. حدَّثني والدي قال: استدعاني يوماً وهو بالجزيرة، وكنت أتولى أعمالها، فلامني في بعض الأمر، فقلت: أخاف من الاستقصاء؛ لو دُعي على بعض هؤلاء الملوك ـ وأومأتُ إلى أولاده ـ لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها، ولنا مواضع تحتمل العمارة يتحصل منها أضعاف هذا. فقال: جزاك الله خيراً! لقد نصحت وأدَّيت الأمانة، فاشرَعْ في عمارة هذه الأماكن. ففعلت، وكبرت منزلتي عنده، ولم يزل يثني علي.

قال: وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه. لقد صبر من نوابه زين

Marfat.com

الدين[١] وجمال الدين[٢] وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه. وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة له، والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله؛ حضر معه المصافَّ بحارِم وفتحها، وفتح بانياس، وكان يخطُبُ له في بلاده باختياره من غير خَوْفٍ. وكان إحسانُه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض. وكان يبغض الظلم وأهله، ويعاقب من يفعله.

قال: وبالله أقسم إذا فكَّرْت في الملوك أولاد زَنْكي: سيف الدين ونور الدين وقطب الدين، وما جمع الله فيهم من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، وحُسْن السِّيرة، وعمارة البلاد، والرِّفْق بالرَّعية؛ إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج المُلْكُ إليها، أذكر قول الشَّاعر: [البسيط]

من تلقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهم ... مِثْلَ النُّجوم التي يَسْري بها السَّاري

قلت: وقرأت بخطِّ الشيخ عمر المَلاء[٣] ـ رحمه الله ـ في كتاب كتبه إلى بعض الصَّالحين وسأله فيه الدُّعاء لقطب الدين صاحب المَوْصِل وقال فيه: يا أخي، لو ذهبت أشرح لك سيرته في بلاده وعيش رعيته في ولايته أطلتُ وأضجرت. غير أني أذكر لك ما خصَّه الله به من الأخلاق الصَّالحة: هو من أكثر النَّاس رحمةً، وأشدهم حياء، وأعظمهم تواضعاً، وأقلهم طمعاً، وأزهدهم في الظلم، وأكثرهم صبراً، وأبعدهم غضباً، وأسرعهم رضاً. وهو من هذه الأخلاق على حدٍّ أحبُّه أنا محبةً لا أقدر أصفُها، وبيني وبينه إخاء ومزاورة، يزورني وأزوره.

فصل

[عزم نور الدين على دخول الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين]

قال ابن الأثير: ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قُطْب الدين وملك ولده سيف

---

(١) زين الدين: هو علي بن بكتكين، نائب أتابك قطب الدين (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٤/ ١١٤ ـ ١٢١).

(٢) جمال الدين: هو أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، وزير الموصل، توفي في شعبان سنة ٥٥٩هـ، وكان قد قبض عليه سنة ٥٥٨هـ، فبقي في الحبس نحو سنة ثم توفي (انظر الجزء الأول، و«الكامل في التاريخ» ٩/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).

(٣) هو عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي ثم الموصلي الصوفي، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر الملّاء، توفي سنة ٥٧٠هـ، له كتاب «وسيلة المتعبدين في سيرة سيد المرسلين» (كشف الظنون ٥/ ٧٨٤، الأعلام ٥/ ٦٠ ـ ٦١).

Marfat.com

الدين بعده، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور، وحُكْمُه على سيف الدين أنِفَ من ذلك وكَبُرَ لديه، وشقَّ عليه. وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرَّعية والمبالغة في إقامة السِّياسة. وكان نور الدين رحمه الله تعالى ليناً رفيقاً عادلاً، فقال: أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم. ثم سار من وقته، فعبر الفرات عند قلعة جعبر أول محرَّم.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وقصدَ الرَّقَّةَ فامتنع النَّائبُ بها شيئاً من الامتناع، ثم سلَّمها على شيء اقترحه. فاستولى نور الدين عليها وقرَّر أمورها، وسار إلى الخابور فملكه جميعه، ثم ملك نَصِيبين وأقام بها يجمع العساكر، فإنه كان قد سار جريدةً، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان[1] صاحب الحصن وديار بكر، واجتمعت عليه العساكر؛ وقد كان ترك أكثر عسكره بالشَّام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم. فلما اجتمعت العساكر سار إلى سِنْجار فحصرها، وأقام عليها، ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كبير من المَوْصِل. فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثُّونه على السُّرعة إليهم ليسلِّموا البلد إليه، وأشاروا بترك سِنْجار، فلم يقبل منهم، وأقام على ملك سنجار، وسلَّمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زَنْكي. ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة بَلَد، وعبر دِجْلة في مخاضةٍ عندها إلى الجانب الشَّرْقي، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى، ودِجْلة بينه وبين الموصل.

قال: ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة. وكان عبد المسيح قد سيَّر عِزَّ الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك إيلْدِكِز صاحب بلاد الجبل وأَذْرَبِيجان وأرَّان وغيرها يستنجده، فأرسل إيْلدِكِز رسولاً إلى نور الدين ينهاه عن قصد المَوْصِل ويقول له: إن هذه البلاد للسُّلْطان ولا سبيل لك إليها. فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته ـ وكان بِسِنْجار ـ فسار إلى الموصل، وقال للرسول: قل لصاحبك، أنا أرْفَقُ ببني أخي منك فلا تُدخل نفسك بيننا، وعِنْدَ الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب هَمَذان، فإنك قد ملكتَ نصف بلاد الإسلام، وأهملت الثُّغور حتى غلب الكُرْجُ[2] عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجعِ

---

(١) صاحب حصن كيفا، حكم بين سنتي ٥٦٢هـ و٥٨١هـ، وتسلم آمد من السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٩هـ. انظر الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٢) الكُرْج: بضم الكاف وسكون الراء: جيل من الناس نصارى، من بني إيران بن أشوذ بن سام، وإلى إيران هذا تنسب مملكة إيران التي كان بها ملوك الفرس، كانوا يسكنون في القبق وبلد السرير فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم وملك ولغة (انظر معجم البلدان ٤/٤٤٦، وقلائد الجمان ص٣١).

Marfat.com

النَّاس؛ الفرنج، فأخذتُ بلادهم، وأسرتُ ملوكهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أَهْمَلْتَ من بلاد الإسلام، وإزالة الظُّلْم عن المسلمين. فعاد الرسول بهذا الجواب.

[حصار نور الدين الموصل]

وحصر نور الدين الموصل، فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل، من جندي وعامّي معه؛ لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه. فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه، وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمانَ وإقطاعاً يكون له. فأجابه إلى ذلك وقال: لا سبيل إلى إبقائه بالموصل، بل يكون عندي بالشَّام، فإني لم آتِ لآخذ البلاد من أولادي، إنما جئت لأخلص النَّاس منك، وأتولى أنا تربية أولادي. فاستقرَّت القاعدة على ذلك، وسُلِّمت الموصل إليه، فدخلها ثالث عشر جُمادى الأولى، وسكن القلعة. وأقرَّ سيف الدين غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كُمُشْتِكِين، وجعله دُزْداراً فيها، وقسم جميع ما خلَّفه أخوه قُطْب الدين بين أولاده بمقتَضَى الفريضة.

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خِلْعة من الخليفة[1] فلبسها، فلما دخل الموصل خَلَعَها على سيف الدين، وأطلق المكُوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النُّوري بالمَوْصِل، فبني، وأقيمت الصَّلاة فيه سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة.

[مسير نور الدين إلى الشام]

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً، وسار إلى الشَّام، فقيل له: إنك تحبُّ الموصل والمقامَ بها ونراك أسرعتَ العود؟ فقال: قد تغيَّر قلبي فيها، فإن لم أفارِقْها ظلمتُ، ويمنعني أيضاً أنني ههنا لا أكون مرابطاً للعدوِّ وملازماً للجهاد. ثم أقطع نَصِيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح، فغيَّر اسمه وسماه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كثيراً[2].

---

(١) الخليفة: هو المستضيء بأمر الله، أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٩ ـ ٣١.

Marfat.com

[سفارة العماد الكاتب إلى بغداد]

وقال العماد: واستدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقّة وقال لي: قد أَنِسْتُ بك وأَمِنْتُ إليك، وأنا غير مختار للفرقة، لكن المهم الذي عرض، لا يبلغ فيه غيرك الغرض، فتمضي إلى الديوان العزيز جريدةً، وتؤدي عني رسالة سديدة سعيدة، وتُنهي أني قصدت بيتي وبيت والدي، ومَغنى طريفي وتالدي، وأنا كبيره ووارثه، والذي له حديثه وحادثه. فامض وخذ لي إذناً فإني أعد كل جارحة لي لما أُخاطَبُ به أُذناً، وأَمْثَلُ ما يصلني من المثال لدفع كُلِّ مكروه ركناً. وأمر ناصر الدين محمد بن شِيركُوه أن يسيِّرَني إلى الرَّحْبة، في رجال مأموني الصُّحبة، وسرتُ منها على البرية غربي الفُرات، بخفيرٍ من بني خَفَاجة. فذكر أنه وصل وقضى الحاجة، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سِنْجار، فأخذها، وسلَّمها إلى خَتَنه ابن أخيه عماد الدين زَنْكي بن مودود بن زَنْكي.

قال: ثم رحل على عزم المَوْصِل، وقَصَدَ بَلَد، واستوضح فيها الجَدَد، ودُلَّ هناك في دِجْلَة على مخاضة، وكان ذا أخلاقٍ وهمم مُرْتاضة، فاستسهل من خوضها والعبور فيها ما ظُنَّ مستصعباً، وسَهَّل الله لنا ذلك ورأيناه أمراً عجباً، وجاء دليل تُرْكماني قُدَّامنا، وهو يقطع دجلة تارةً طولاً وتارة عرضاً أمامنا، ونحن وراءه كخيطٍ واحد لا نميل يميناً ولا يساراً، ولا نجد لنا في سوى ذلك المجاز اختياراً، حتى عَبَرْنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشَّرْقي برجالنا وأثقالنا، وخيلنا وبغالنا وجمالنا، وأقمنا بقية ذلك اليوم، حتى تمَّ عبور القَوْم.

ثم رحلنا ونزلنا على المَوْصِل من شرقيها، وخيَّمنا على تلِّ توبة، فاستعظم أهلها تلك النَّوْبة، وما خطر ببالهم أننا نعبر بغير مراكب، وأنَّا نأخذ عليهم ذلك الجانب، فعرفوا أنهم محصورون، مقهورون، محسورون، وانقطعت عنهم السُّبُل من الشرق، وتعذَّر عليهم الرَّفْع لاتساع الخَرْق، وبَسَطَ العطاء، وكشف الغِطاء، وتكلَّم في المصلحة والمصالحة الوسطاء؛ ومُدَّ الجسر، وقُضي الأمر، وأنعم نور الدين على أولاد أخيه، ومَثَّلُوا بناديه، وأَقَرَّ سيفَ الدين غازياً على قاعدة أبيه، وألبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء.

ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوماً، وجَدَّد مناشيرَ أهل المناصب، وتوقيعات ذوي المراتب من القضاء والنقابة وغيرهما. وأمر بإسقاط جميع المُكوس والضَّرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس، فمنه:

«قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فَسُحْقاً للسُّحت، ومَحْقاً للحرام

Marfat.com

الحقيق بالمَقْت، وبُعْداً لما يُبْعِدُ من رضا الرَّب، ويقصي من محلِّ القُرْب، وقد استخرنا الله وتقرَّبنا إليه، وتوكَّلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدَّمنا بإسقاط كل مَكْس وضريبة، في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبة، ومحو كل سُنَّة سيئة شنيعة، ونفي كل مَظلمة مُظلمة فظيعة، وإحياء كلِّ سنة حَسَنة، وانتهاز كلِّ فُرْصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة، خوفاً من عواقبها الرَّدِيَّة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولايتنا جَوْرُ جائر جارياً، ولا عمل لا يكون به الله راضياً، إيثاراً للثواب الآجل، على الحطام العاجل. وهذا حقٌّ لله قضيناه، وواجبٌ علينا أدَّيناه، بل هي سُنَّة حسنة استنَّاها، وَمَحَجَّة واضحة بَيَّناها، وقاعدة مُحْكَمة مهدناها، وفائدة مغتنمة أفدناها».

فصل

[في ذكر الشيخ عمر الملا]

قال العماد: وكان بالمَوْصِل شيخ صالحٌ يعرف بعُمَر المَلَّاء[1]؛ سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأُجْرَةٍ يتقوَّت بها، وكل ما عليه من قميص ورداء، وكسوة وكساء قد ملكه سواه واستعاره، فلا يملك ثوبه ولا إزاره. وكانَ له شيء فوهبه لأحد مريديه، وهو يتجر لنفسه فيه، فإذا جاءه ضيفٌ قَرَاه ذلك المريد. وكان ذا معرفةٍ بأحكام القرآن والأحاديث النبوية.

وكان العلماء والفقهاء والملوك والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبرَّكُون بهِمَّته، ويتيمَّنون ببركته. وله كل سنة دعوة يحتفل بها في أيام مولد رسول الله ﷺ، يحضره فيها صاحب الموصل، ويحضر الشُّعراء، وينشِدُون مدح رسول الله ﷺ في ذلك المَحْفِل.

وكان نور الدين من أَخَصِّ محبيه يستشيره في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره. وكانت بالموصل خَرِبة واسعة في وسط البلد، أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا مَن ذهب عمره، ولم يتم على مراده أمره. فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها، ورفع بنائها جامعاً تقام فيه الجُمَع والجماعات. ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضيعةً من ضياع الموصل، ورتَّب فيه خطيباً ومُدرِّساً. وكان قد وصل في تلك السنة وافداً الفقيه عمادُ الدين أبو بكر النُّوقاني الشَّافعي،

(١) تقدّمت ترجمته.

Marfat.com

من أصحاب الإمام محمد بن يحيى[١]، فسأله أن يكون مدرِّساً في ذلك الجامع، وكتب له به منشوراً.

قال: وحضر مجاهد الدين قايماز[٢] صاحب إِرْبِل في الخدمة النُّورية في المَوْصِل. وكان دخولهم إياها في بُحْبُوحة الشِّتاء، فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدةً، منها: [السريع]

ما يمنَعُ الخادِمَ من قَصْدِهِ الـ ـخِدْمَةَ غَيْرُ الطُّرْقِ والوَحْلِ
كأنما مَوْصِلُكُمْ مَقْطَعٌ ما يُهتدى فيه إلى وَصْلِ
وكلُّ معروفٍ بها مُنْكَرٌ كما تراه ضَيِّقُ السُّبلِ
وكلُّ مَنْ حَلَّ بها لا يَرَى في زَمَنِ الخِصْبِ سوى المَحْلِ
ومُذْ دَخَلْنَاها حَصَلْنا بها كَرْهاً على خَرْجٍ بلا دَخْلِ
أصعَبُ ما نلقاه من أَهْلِها قَوْلٌ بلا أَهْلٍ ولا سَهْلِ
وكنتُ أهواها ولكنَّني لقيتُ منها كُلَّ ما يُسْلي
وأنتَ مَنْ أصبحَ إحسانُه حِلْيَةَ هذا الزَّمنِ العُطْلِ

[عودة نور الدين إلى سنجار]

قال: وعاد نور الدين إلى سِنْجار، فأعاد عِمارة أسوارها، ثم أتى خَرْتَان وقد

---

(١) محمد بن يحيى: هو محيي الدين محمد بن يحيى بن أبي منصور النيسابوري، أبو سعيد الشافعي البغدادي، صاحب الغزالي وتلميذه، انتهت إليه رياسة المذهب بنيسابور، وقصده الفقهاء من النواحي، وبَعُد صيته، وهو أستاذ الفقهاء المتأخرين، ولد سنة ٤٧٦هـ، وقتل في رمضان سنة ٥٤٨هـ، قتله الغز لما استولوا على نيسابور في وقعتهم مع السلطان سنجر السلجوقي، وقتل معه أئمة وفقهاء كثر، فمنهم الحسين بن محمد الأرسابندي، والقاضي علي بن مسعود. وأكثر الشعراء في مراثي محمد بن يحيى فممن قال فيه علي بن إبراهيم الكاتب:

مضى الذي كان يُجنى الدر من فيه يسيل بالفضل والإفضال واديهِ
مضى ابن يحيى الذي قد كان صوب حيا لا برشهر ومصباحاً لداجيهِ
خلا خراسان من علم ومن ورع لما نعاه إلى الآفاق ناعيهِ
لما أماتوه، مات الدين واأسفاً من ذا الذي بعد محيي الدين يحييه

ولمحمد بن يحيى مصنفات منها: «الانتصاف في مسائل الخلاف»، «المحيط في شرح الوسيط للغزالي» في الفروع، «تعليقة في الخلافيات» (كشف الظنون ٦/ ٩١، الكامل في التاريخ ٩/ ٣٨٥، وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣١٢ ـ ٣١٥، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢٥ ـ ٢٨، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠).

(٢) توفي سنة ٥٩٤هـ، انظر «الكامل» ١٠/ ٢٥١، وترجم له أبو شامة في «الذيل على الروضتين» في وفيات سنة ٥٩٤هـ.

Marfat.com

اقتطعها عن صاحب الموصل هي ونَصِيبين، والخابور، والمِجْدَل. ووصل حلب في خامس رجب.

وقال ابن شدَّاد: دخل حلب في شعبان، وزوَّج صاحب الموصل ابنته.

قال العماد: وفَوَّض القضاء والحُكم بنَصِيبين وسِنْجار والخابور إلى الشَّيخ شرف الدين بن أبي عصرون، فولَّى بها نوَّابه، وحكَّم فيها أصحابه.

وقال القاضي ابن شداد: لما صارت المَوْصِل إلى سيف الدين ابن أخي نور الدين، كان قد استولى عليه، وتولَّى أمر البلد رجلٌ يقال له عبد المسيح، كان نصرانياً فأسلم، وقيل: إنه كان باقياً على نصرانيته، وله بيعة في داره، وتتبَّع أرباب العلم والدين وشَتَّتهم وأبعدهم وآذى المسلمين. فبلغَ نور الدين ذلك، وكُتِب له قصصٌ في ذلك. فسار ونزل على الموصل من جانب الشطِّ، والشط بينه وبينها، وقال: لا أقاتل هذه البلدة وأهتك حُرْمتها وهي لولدي. وراسل سيف الدين وقال له: أنا ليس مقصودي البلد، وإنما مقصودي حفظ البلد لك، فإنه قد كُتِب إليَّ في عبد المسيح كذا وكذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين، وأنا مقصودي أزيل هذا النَّصْراني عن ولاية المسلمين.

قال: وعبد المسيح يدبِّر البلد ويدور فيه، والأمر إليه. وبذل الصُّلْح لنور الدين، فقال نور الدين: أنا قد جئت ولا بُدَّ لي من دخول البلد. فقال: نعم لا يدخل إلّا من باب السِّرِّ. فقال نور الدين: ما أدخل إلّا من باب السر. فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات، إلى أن عَلِمَ أن نيته صالحة، فصالحه في السر، وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين، فجاءه بعض أصحابه وقال له: أنت نائم؟ دمُك قد راح وأنت غافل! فقال: ما الخبر؟ فقال: سيف الدين قد صالح عمه وأنت في مقابلة نور الدِّين! فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشَهُ[1] بين يديه، وقال له: أنت قد صالحت عَمَّك وقد علمتَ ما عملتُ في حفظ بلدك، وما لي طاقة بمقابلة نور الدين، فاللَّهَ اللَّهَ في دمي. فقال له: ما لي طاقة بدفعه عنك، ولكن عليك بالشَّيخ عمر المَلَّاء. فقال: والله لو مضيتُ إليه لم يفتح لي ـ لعلمه بما جرى منه في حَقِّ المسلمين ـ ولكن تسيِّر أنت إليه. فأنفذ سيف الدين إليه واستحضره ـ وكان معتكفاً ـ فقال له: ما الخبر؟ فقال سيف الدين لعبد المسيح: منك إليه. فوقف بين يديه يبكي، فالتفت إليه عمر وقال: من يعادي

(١) الشربوش: قلنسوة طويلة تشبه التاج كأنه على شكل مثلث، تلبس بدل العمامة، كانت شارة للأمراء دون غيرهم، (التعريف بمصطلحات الصبح ص١٩٧ ـ ١٩٨، خطط المقريزي ٢/ ٩٩).

Marfat.com

الرجال يبكي مثل النساء! فقال له: قد تمسكتُ بك وأطلب منك حَقْنَ دمي. فقال: أنت آمن على دمك. فقال: وعلى مالي. فقال: وعلى مالك. قال: وعلى أهلي. فقال: وعلى أهلك.

وكان شرف الدين بن أبي عصرون مع نور الدين حينئذٍ، فقال سيف الدين لعمر المَلّاء: تخرج تحلِّف نور الدين، فأحضر الفقهاء وعملوا له نسخة يمين ونسخة يمين لعبد المسيح، فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين، فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه. فقال له عمر: الناس يعلمون حُسْنَ عقيدتك فيَّ، وقد خرجتُ في كذا وكذا. وناوله النسخة التي تتعلَّق بسيف الدين، فقرأها وناولها لابن أبي عصرون، فقال: نسخة جيدة. فقال له الشيخ عمر المَلّاء: أيش تقول في هذه النسخة؟ فقال: جيدة. فقال: إذا حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة؟ فقال: بلى. فقال للحاضرين: اشهدوا على الشيخ بذلك. يشير إلى أن نور الدين كان تجري منه أيمانٌ في وقائع، وكان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها، فقيَّد عليه القول، فأجاب نور الدين إلى ذلك، فقال له: قد علم الناس حُسْنَ عقيدتك فيَّ، وأن قولي مسموع عندك، وقد خرجتُ إليك ولا بُدَّ لي من ضيافة. قال: كيف لي بذلك وأنت لا تأكل طعامي ولا تقبل مني شيئاً! فقال: تحلف لي بهذه النسخة. فوقف عليها وتغيَّر وجهه، وقال: «أنا ما جئتُ إلّا في هذا لأخلص المسلمين منه! فقال له الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين. فقال: قد أمنته على نفسه. فقال: وعلى أهله. فقال: ومن أهله؟ قال: نصارى. فقال: أمنتهم. فقال: وعلى ماله. فقال: ومن أين لهذا الكلب مال؟ هذا مملوك لنا. فقال: قد أُعتق وماله له، وهو اليوم كان صاحب الموصل، فقال: قد أمنته على ماله. فحلف على ذلك جميعه، واستقرَّ الصُّلْح.

وخرج سيف الدِّين إلى خدمة نور الدين، فوقف بين يديه، فأكرمه نور الدين وكان وَصله خِلْعة أمير المؤمنين فخلعها عليه، فدخل إلى الموصل بها، وانتقل إلى جانب الشط الآخر، ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطرٌ شديد جدًا، فدخل من باب السر إليها، وأقام بها مُدَّة، ورتَّب أمورها، وولَّى فيها كُمُشْتِكِين، فرأى النَّبي ﷺ ذات ليلة في المنام وهو يقول له: جئتَ إلى بلدك وطاب لك المقامُ به، وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين؟! فاستيقظ من منامه، وسار سُحْرَةَ ذلك اليوم ولم يلبث، ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه، رحمه الله تعالى.

Marfat.com

فصل

[وفاة الخليفة المستنجد بالله وتولي ابنه المستضيء بأمر الله]

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المُظَفَّر يوسف بن المقتفي، ونورُ الدين مخيِّم بشرقيِّ الموصل بتلِّ توبة. وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر، وبويع ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن.

وكان مولد المستنجد مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام. وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العَبَّاس[1]. وهذا العدد له بحساب الجُمَّل، اللام والباء، وفيه يقول بعضُ الأدباء: [البسيط]

أَصْبَحْتَ لُبَّ بني العَبَّاس كلِّهِمُ ... إن عُدِّدَتْ بحسابِ الجُمَّلِ الخُلَفَا

وكان أسمر، تام القامة، طويل اللحية، وكان من أحسن الخلفاء سيرةً مع الرعية؛ كان عادلاً فيهم، كثير الرِّفْق بهم، وأطلق من المكوس كثيراً، ولم يترك بالعراق مَكْساً. وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قَبَض على إنسانٍ كان يسعى بالنَّاس، ويكتب فيهم السِّعايات، فأطال حَبْسَه، فحضر بعضُ أصحابه وشفع فيه، وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال له: أنا أُعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكفَّ شَرَّهُ عن الناس.

وتوفي في أيامه شيخ الشيوخ إسماعيلُ بن أبي سعد[2]، وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ[3]، وذلك سنة إحدى وأربعين.

---

(١) انظر صبح الأعشى ٣/ ٢٧٦.

(٢) هو أبو البركات إسماعيل بن أبي سعد أحمد، الصوفي، كان أبوه من أهل نيسابور، واستوطن بغداد، فولد بها سنة ٤٦٥هـ، وكان وقوراً مهيباً، قرأ عليه السمعاني، وابن عساكر (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ١٢١، وفيات الأعيان ١/ ٩٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٦٠ ـ ١٦١).

(٣) توفي صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل، سنة ٥٨٠هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٠٢.

Marfat.com

وفي سنة ثمانٍ وأربعين توفي محمد بن نَصْر القَيْسَراني[١]، وأحمد بن منير[٢]، الشَّاعران. وقد تقدَّم ذلك.

وفي سنة تسعٍ وأربعين توفي الحكيم أبو الحكم الشَّاعر الأنْدَلُسي[٣].

وفي سنة إحدَى وخمسين توفي الوَأْوَاء الشَّاعر الحلبي[٤].

وفي سنة ثلاثٍ وستين توفي الشيخ أبو النَّجيب الصُّوفي الفقيه الواعظ[٥].

قال العماد: وجاءنا رسلُ دار الخلافة مُبَشِّرين بخلافة المستضيء، واتَّفق ذلك يوم عبور دِجْلَة. وركب يوم النُّزول على تَلِّ توبة في الأُهبة السوداء، واليد

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، توفي سنة ٥٤٨هـ. له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٩٦ ـ ١٦٠، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٢) هو أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح، مهذب الدين، أبو الحسين (وليس أبي الحسن، كما سماه هنا المؤلف) الطرابلسي الشاعر، نزيل حلب، ولد سنة ٤٧٣هـ، وتوفي سنة ٥٤٨هـ، ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٥/ ٨٤، وله ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٧٦ ـ ٩٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

(٣) هو عبيد الله بن المظفر بن عبد الله بن محمد الباهلي المري، أبو الحكم الأديب الأندلسي المعروف بالمغربي، ولد باليمن سنة ٤٨٦هـ، عالم بالطب والهندسة، يغلب عليه المجون، اشتهر ببغداد، وخدم السلطان محمود بن ملكشاه، وأنشأ له في معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جملاً، توفي بدمشق سنة ٥٤٩هـ. له: «ديوان شعره»، «مقصورة هزلية»، «نهج الوضاعة لأولي الخلاعة» أيضاً ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٦٤٨، طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٦١٤ ـ ٦٢٧، خريدة القصر، القسم الرابع، الجزء الأول ص٣٦٩ ـ ٣٨٢، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٣ ـ ١٢٥، نفح الطيب ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩).

(٤) هو غير الوأواء الدمشقي، محمد بن أحمد الغساني، المتوفى سنة ٣٩٠هـ. والمقصود هو أبو الفرج عبد القاهر بن عبد الله بن الحسين، الحلبي النحوي الشاعر، المعروف بالوأواء (المتوفى في كشف الظنون سنة ٦١٣هـ، وفي البغية سنة ٥٥١هـ). وأصل الوأواء من بزاعة ـ بين منبج وحلب ـ ونشأ ومات بحلب، تردد إلى دمشق غير مرة، وكان يقرئ بها النحو، ويشرح شعر المتنبي ويعربه، (انظر كشف الظنون ٥/ ٦٠٧، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ١٥٥ ـ ١٥٧، إنباه الرواة ٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣).

(٥) أبو النجيب الواعظ: هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه (بفتح العين وضم الميم وتشديدها) ابن سعد الصديقي البكري، ضياء الدين، أبو النجيب السهروردي، الفقيه الصوفي، كان يدرس ويملي الحديث بالمدرسة النظامية ببغداد، ولد سنة ٤٩٠هـ، وتوفي سنة ٥٦٣هـ ببغداد، صنف: «آداب المريدين» في التصوف والأخلاق (كشف الظنون ٥/ ٦٠٦، ٦٠٧، وفيات الأعيان ٣/ ٢٠٤، ٢٠٥، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٧٥، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٧٣، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٦٥).

البيضاء، وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحَذباء. ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون إلى بغداد نائباً عنه في خدمة الإمام.

ومما نظمه العماد فيه[1]: [الخفيف]

قد أضاءَ الزَّمانُ بالمستضيء ... وارثِ البُرْدِ وابنِ عَمِّ النَّبيء
جاء بالحَقِّ والشَّريعةِ والعَدْ ... لِ فيا مَرْحباً بهذا المجيء
فهنيئاً لأهلِ بَغْدَادَ فازوا ... بعد بُؤسٍ بكلِّ عَيْشٍ هَنِيء
ومُضيء إن كان في الزَّمَنِ المُظْـ ... ـلم فالعَوْدُ في الزَّمانِ المُضِيء

وله من قصيدةٍ أخرى[2]: [الكامل]

لهفي على زَمَنِ الشَّباب فإنني ... بسوى التأسُّفِ عنه لم أتعوَّضِ
نُقِضَتْ عهودُ الغانيات وإنَّها ... لولا انقضاءُ شبيبتي لم تَنْقَضِ
يا حُسنَ أيام الصِّبا وكأنَّها ... أيامُ مَوْلانا الإمامِ المُسْتَضي
ذو البَهْجَةِ الزَّهْرَاء يُشْرِقُ نورُها ... والطَّلْعَةِ الغَرَّاء والوَجْه الوَضي
قَسَمَ السَّعادة والشَّقاوة ربُّنا ... في الخَلْقِ بين مُحِبِّه والمُبْغِضِ
فَضَلَ الخلائِفَ والخلائِقَ بالتُّقى ... والفَضْلِ والإفْضالِ والخُلُقِ الرَّضي
فانْعَمْ أميرَ المؤمنينَ بِدَوْلَةٍ ... ما تنتهي وسَعَادَةٍ ما تنقضي

قال: ووصل نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ إلى دمشق، وأدَّى فَرْضَ الصِّيام، وخرج بعد العيد إلى الخيام، وأخرج سُرَادِقه إلى جسر الخشب، وسرنا إلى عَشْتَرا.

ثم ذكر العماد هنا سرية صاحب البيرة الأَرْتُقي باللَّبْوَة، وقد مضت في أخبار سنة خمسة وستين فَثَمَّ ذكرها ابنُ الأثير.

فصل

فيما جرى بمصر في هذه السَّنة

قال العماد: كان بمصر حبس للشُّحَن يُعرف بدار المَعُونة، فأعادها صلاح الدين مدرسةً للشافعية في أول سنة ست وستين، وعمل في النصف من المحرَّم

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ١٢ ـ ١٣.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ١٧ ـ ١٨.

دار الغزل مدرسةً للمالكية، وولّى صدرَ الدين عبد الملك بن دِرْباس[١] القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها، وذلك في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة. ثم خرج إلى الغَزَاة، وأغار على الرَّمْلة وعَسْقَلان، وهَجَمَ رَبَضَ غَزَّة، ثم رجع إلى القاهرة.

ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله، فأشفَقَ عليها، وأحبَّ أن يجتمع بها شمله، فخرج في النصف من ربيع الأول. وكانت بأيْلة قلعة في البحر قد حَصَّنها أهل الكُفْر، فعمر لها مراكب، وحملها إلى ساحلها على الجمال، وركَّبها الصُّنَّاع هناك، وشحنها بالرِّجال، وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر، واستحلَّها، واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعُدَد والعَدَد، وحَصَّنها بأهل الجلاد والجَلَد. واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سَمْت القاهرة، ودخلوا في السَّادس والعشرين من جُمادى الأولى إليها.

وسار إلى الإسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويُرَتِّب قواعدها، وهي أول دفعةٍ سار إليها في أيام سُلْطانه، وعَمَّ أهلَها بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها.

وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه[٢] ـ وهو ابن أخي صلاح الدين ـ منازل العِز بمصر وجعلها مدرسة للشَّافعية، واشترى الروضة وحَمَّام الذهب وغيرهما من الأملاك، ووقفها عليها.

وفي النصف من جُمادى الآخرة أغار شمس الدولة ـ أخو السُّلْطان ـ بالصَّعيد على العُربان، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

[وفاة القاضي الموفق أبي الحجاج يوسف بن الخلال]

وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحَجَّاج

---

(١) هو عبد الملك بن عيسى بن درباس، الهذباني، كردي من قبيلة السلطان صلاح الدين، ولد بالموصل سنة ٥١٦هـ، سمع من ابن عساكر الدمشقي، وروى عنه المنذري صاحب التكملة، كان من جلّة العلماء وفضلائهم، توفي سنة ٦٠٥هـ. وهو أخو ضياء الدين عثمان بن عيسى، وكان من أعلم الفقهاء بمذهب الشافعي، وقد ناب عن أخيه في الحكم بالقاهرة، توفي سنة ٦٠٢هـ. (انظر في ترجمة صدر الدين عبد الملك: التكملة للمنذري ٢/ ١٥٦، والذيل على الروضتين، وفيات سنة ٦٠٥هـ، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥، وانظر في ترجمة ضياء الدين عثمان، التكملة للمنذري ٢/ ٩٠، ووفيات الأعيان ٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٩١).

(٢) تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

يوسف بن الخلال[١]، وكان من الأماثل الأفاضل، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كَبِرَ. وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان له، وقام به مدة حياته يكرم عهده ويكفله.

وقال في «الخريدة»: هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره، وجامع مفاخره، وكان إليه الإنشاء، وله قوَّة على الترسُّل يكتب ما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره، وأَضَرَّ ولزم بيته إلى أن تعوَّض منه القبر. ومن شعره[٢]: [الرمل]

يا أخا الغِرَّة حَسْبُ الدَّهْر من ... عِظَةِ المغرورِ ما أَصْبَحَ يُبْدي
تؤثر الدُّنيا فهل نِلْتَ بها ... لحظةً تخلُصُ من همٍّ وكَدّ

قلت: وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجَزَري[٣] في أول كتابه المسمى «بالوشي المرقوم في حَلِّ المنظوم»، قال: حدَّثني عبد الرحيم بن علي البَيْسَاني رحمه الله تعالى بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن يعني بني عبيد غضاً طرياً، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأسٍ يرأس مكاناً وبياناً، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً. وكان من العادة أن كلاً من أربابِ الدَّواوين إذا نشأ له ولد، وشدا شيئاً من علم الأدب، أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فنَّ الكتابة، ويتدرب ويرى ويسمع. قال: فأرسلني والدي ـ وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عَسْقلان ـ إلى الديار المصرية في أيام الحافظ ـ وهو أحد خلفائها ـ وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأسُ به في تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخَلَّال. فلما حضرتُ الديوان ومَثَلْتُ بين يديه، وعَرَّفته من أنا وما طَلِبتي، رحَّب بي وسَهَّل، ثم قال: ما الذي أعددتَ لفنِّ الكتابة من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن العزيز وكتاب «الحماسة». فقال: في هذا بلاغ. ثم أمرني بملازمته.

---

(١) انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧.
(٢) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٣٧.
(٣) هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد، المعروف بابن الأثير الجزري ثم الموصلي، من جزيرة ابن عمر، نزيل بغداد، الأديب الكاتب، ولد سنة ٥٥٨هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ، صنف من الكتب: «الاستدراكات»، «البرهان في علم البيان»، «ديوان الترسل»، «رسالة في الضاد والظاء»، «رسالة في أوصاف مصر»، «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، «المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء»، «الوشي المرقوم في حل المنظوم» (كشف الظنون ٦/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣، وترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين في وفيات سنة ٦٣٧هـ).

Marfat.com

فلما تردَّدتُ إليه، وتدربت بين يديه، أمرني بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني بأن أحلَّه مَرَّة ثانية، فحللته.

[شروع صلاح الدين في عمارة سور القاهرة وشروعه في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس]

وقال ابن أبي طيّ: في هذه السنة شرع السُّلْطان ـ يعني صلاح الدين ـ في عمارة سور القاهرة، لأنه كان قد تهدَّم أكثره، وصار طريقاً لا يردُّ داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقَرَاقُوش الخادم[1]. وقَبَضَ على القصور وسلَّمها إليه، وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية، وقطع من الأذان «حيَّ على خير العمل»، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العَبَّاس.

وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وازداد على إقطاعه بُوش[2]، وأعمال الجِيزة وسَمَنُّود[3] وغيرها.

قلتُ: وقد وقفتُ على كتاب فاضلي وصف فيه غَزَاة غزاها صلاح الدين رحمه الله تعالى في زمان وزارته، وكان الكتاب إلى مدينة قُوص وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في أثناء كلامه السَّابق. أوَّلُ الكتاب: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٤].

---

(١) هو الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي الرومي، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين، في وفيات سنة ٥٩٧هـ.
وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٣٩٩: لما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية انتدب لعمارة سور القاهرة ومصر سنة تسع وستين وخمسمائة الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي الرومي على كثرة من أسرى الفرنج عندهم يومئذٍ، بنى سوراً دائراً عليها وعلى قلعة الجبل والفسطاط، ولم يزل البناء حتى توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله وهو الموجود الآن... وقياس هذا السور من أوّله إلى اخره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة وذراعان بالهاشمي.
وجاء في الخطط التوفيقية: ... وفي سنة ٥٦٦هـ في زمن صلاح الدين شرع في عمل سور واحد يحيط بالقاهرة ومصر والقلعة وبناه من الحجارة وجعل خلفه خندقاً ومات قبل أن يكمل، وكان طول ما بناه نحو اثنين وعشرين ألف متر، وبقي الأمر على ذلك إلى سنة ١٢١٣هـ عند استيلاء الفرنساوية على الديار المصرية فقاسوا المدينة فوجدوه أربعة وعشرين ألف متر، وبه أحد وسبعون باباً، منها ما هو داخل البلد في السور القديم، ومنها ما هو في السور المحيط بها (الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ١/ ٢٠٦).
(٢) بوش: مدينة من نواحي الصعيد الأدنى في غربي النيل (معجم البلدان ١/ ٥٠٨).
(٣) سمنّود: مدينة من جهة دمياط على ضفة النيل (معجم البلدان ٣/ ٥٤).

Marfat.com

وفيه: توجهنا من بركة الجُبّ[1] يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول، ووصلنا بتاريخ السَّابع والعشرين من الشهر المذكور، والعساكر بالسهل والوعر منتظمة، والهمم على السهل والصَّعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المُغْلَمة، قد أيَّدَتها جنود السماء المسوَّمة. وصابحنا الدَّير يوم الأربعاء بقتالٍ جعل كلَّ من في حِصْن الدَّير راهباً، ونصبنا عليه منجنيقاً لا يزال بشهاب القذفِ ضارباً. فلما تعالى النَّهار ملكنا رَبَضَه، وأطلقنا فيه النيران، ورمَّلْنا الرِّجال بالدَّم، وأرملنا النسوان، وزحفنا إلى أبراجه وهي أبراجٌ قد استعدَت للبلاء جِلباباً، فجعلنا لكلّ واحدٍ جورة مفردةً وباباً، وسرَّحنا إليهم رُسُلَ المنايا من النُّشَّاب، وقصدنا أَخْذَ الأبراج، والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب، وتقدَّمت إليهم نقَّابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره، وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره. وأسفر الصُّبْح وقد أمكن تعليقه، وتيسَّر تحريقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود، فلم يكن إلا مقدار اشتعالها حتى خَرَّ صريعاً سريعاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً. وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره، فحصلت في القَبْضَة، وعَجَزَ من كان فيها عن النهضة، واحتكم فيها العذابُ بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النفس والقرار.

واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق، وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق، هذا والكسوب والنهوب قد امتارت منها العساكر، وخرجت فيها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِر، وطهَّرَ الأرض منهم بالدم المائر.

فلما كان بُكْرة الجمعة وَرَدتْنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غَزَّة في فارسه وراجله، ورامحه ونابله، وحشودِ دياره، وجنود أنصاره. فركبنا مستبشرين بزحفه، موقنين بحتفه، ولقيناه، فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطُّراد، وأحدثت به إحداق الأغلال بالأجياد، وانتظرت حملته التي كان لها قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع، فملأ الله قلبه رعباً، وثنى صدقه كذباً. ولم يزل يخاتل ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يصاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لا تني في عقابه، حتى تحصَّل في الدَّير هو وخيله ورَجْله، ولم يبق له من مُلك الشام إلّا ما وطئته رِجْله. فناصبناه الحصار في ليلة السّبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه، والوقوف عليه، لعله يبرز ويبارز، ويخرج ولا يحاجز؛ فخرست غماغمه، واستذأبت ضراغمه، فتركناه وراء

(١) بركة الجب: وسميت أيضاً ببركة الحجاج، وهي منتزه بظاهر القاهرة في الجهة البحرية (خطط المقريزي ٣/ ٢٦٥ ـ ٢٦٧).

Marfat.com

ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا، فكنا في توليته مرضين لله تعالى سبحانه لا مغضبين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقرِّبين.

وواجهنا غَزَّة بعساكرنا المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بِكْراً لم تفترعها الحوادث، وحَصَاناً لم يَطْمِثْها أمل طامث، وهي معقل الديويَّة الذين هم جمرة الشِّرْك، وداهية الإفك، وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النَّصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد؛ وفتحناها من عدّة جوانب، ووطئناها وإذا هي كأمسِ الذَّاهب، فأَلْقَتْ إلينا أفلاذ كبدها، وذخيرة يدها، فمن بين مَوَاش تخرب البلاد التي منها خرجت، وخيول مسوَّمة كأنها لركوبنا أُسْرِجَتْ وأُلجمت، وحوامل أثقال وزوامل[1] خَفَّفَتْ عن عساكرنا وفَرَّجَتْ، وميرة كثيرة تمكنت فيها يد الأجناد وأفرجت، وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقِدّ، وأنقذوا بلطف الله من سوء الملَكَة وشدة الجهد. وأما الرؤوس المقطوعة، وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإنَّ الفضاءَ الفِضْي تَعَضْفَرَ من دمائهم وتذهَّب، وجرى منها ما به اضطرم وَقْدُ الجحيم وتلهّب، وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاوله وينتقل ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: ٨]، أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاوية، وعِراصاً من سُكَّانها خالية، قد بقيت عبرةً للعابر، وذكرى للذّاكر، وموعظةً سارَّةً للمسلم مُرْغِمَةً للكافر.

ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك ـ خَذله الله تعالى ـ راجعين أن يحمله الثُّكْلُ على الإقدام، ويخرجه حَرُّ النَّار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقَتْلُ أصحابه قد جَرَحه، فبِتْنا عليه والألسنةُ بقراره تعيّره، واستتاره يقَرِّعه ويقَرِّره.

وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسبُ قد أثقل المقاتلة، ونَصْرُ الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسَّلامة لصغير عسكرنا وكبيره شاملة، والعدُوُّ قد غُزي في عُقره وعُقر، وأُذِلَّ في دار مُلْكه واحتقر. ووصلنا إلى مستقرِّ سلطاننا في يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر المذكور، فاستقبلنا من مولانا، صلوات الله عليه، وتشريفه واستقلال ركابه، ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومحابّه، ما عَظُمَتْ به النِّعَم وجلَّت، وزالت به وعثاءُ الطريق وتجلَّت، وجادتها سماء إنعامه التي لم تزل تجودنا واستهلَّت.

قلت: ومن قصيدة لعُمارة في مدح صلاح الدين، أولها: [الطويل]

فؤادٌ بنارِ الشَّوْقِ والوَجْدِ مُحْرَقُ

---

(١) زوامل: جمع زاملة، وهي الدابة يحمل عليها المتاع والطعام في السفر.

Marfat.com

يقول فيها: [الطويل]

لعلَّ بني أيوب إنْ عَلِمُوا بما ... تظلَّمْتُ منه أن يَرِقُّوا ويُشفِقُوا
غزوا عُقر دار المشركين بغَزَّةٍ ... جِهاراً وطَرْفُ الشِّرْكِ خَزْيانُ مُطْرِقُ
وزاروا مُصَلَّى عَسْقَلانَ بأرعنٍ ... يفيضُ إناءُ البَرِّ منه ويَفْهَقُ[1]
وكانت على ما شاهد النَّاس قبلكم ... طرائقَ من شَوْكِ القنا ليس تُطرقُ
وما عَصَمَتْهُمْ منك إلا معاقِلٌ ... تأنَّوْا على تحصينها وتأنَّقوا
جَلَبْتَ لهم من سَورة الحرب ما التقى ... بوادِرَهُ سُورٌ عليهم وخَنْدَقُ
وأَخْرَبْتَ من أعمالهم كلَّ عامرٍ ... يمرُّ به طيفُ الخيال فَيَفْرَقُ
أضفتَ إلى أجر الجهاد زيارةَ الْـ ... ـخَليل فَأَبْشِرْ أنت غازٍ مُوفَّقُ
وهَيَّجْتَ للبيت المقدَّس لوعةً ... يطولُ بها منه إليك التشوُّقُ
تَنَشَّقَ من ملقاك أَعْطَرَ نَفْحَةٍ ... تطيبُ على قَلْبِ الهُدَى حين تُنْشَقُ
وغزْوك هذا سُلَّمٌ نحو فتحه ... قريباً وإلا رائدٌ ومُطَرِّقُ
هو البيتُ إنْ تَفْتَحْهُ والله فاعِلٌ ... فما بعدَه بابٌ من الشَّامِ مُغْلَقُ

[إقامة صلاح الدين الخطبة لبني العباس]
ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

واستفتحها صلاح الدين رحمه الله تعالى بإقامة الخُطْبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العَبَّاس، وفي الجمعة الثانية خُطِبَ لها بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها، وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر، وانقضت تلك الدولة بانتهاء ما دام لها من العصر[2].

وذكر العماد أيضاً في أخبار سنة اثنتين وسبعين، كما سيأتي، أنَّ الذي خطب بمصر لبني العباس أولاً هو أبو عبد الله محمد بن المحسَّن بن الحسين بن أبي المضاء البَعْلَبَكِّيّ. وذكر ذلك أيضاً ابن الدَّبيثي[3] في «تاريخه»، وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتابٍ له إلى وزير بغداد سيأتي ذكره.

---

(١) الأرعن: الجيش العظيم. والفهق: الامتلاء والاتساع.
(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٣ ـ ٣٥.
(٣) ابن الدبيثي: هو محمد بن أبي المعالي سعيد بن يحيى بن علي بن الحجاج، أبو عبد الله الواسطي، المعروف بابن الدبيثي، المؤرخ الشافعي، ولد بواسط سنة ٥٥٨هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ، له من الكتب: «تاريخ واسط»، «ذيل تاريخ السمعاني على تاريخ بغداد للخطيب» في ثلاث مجلدات، «معجم الشيوخ» (كشف الظنون ٦/ ١١٤).

Marfat.com

وقال ابن الأثير[١]: كان السَّبب في ذلك أنَّ صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه في مصر، وزال المخالفون له، وضَعُفَ أمرُ العاضد، وهو الخليفة بها، ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملكُ العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخُطْبة العبَّاسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر، وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك؛ لميلهم إلى العلويين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فُسْحة له فيه.

[وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر]

واتفق أنَّ العاضد مرض، وكان صلاح الدين قد عَزَمَ على قطع الخطبةِ له، فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العَبَّاسية، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلّا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين. وكان قد دخل إلى مصر إنسانٌ أعجميٌّ يُعرف بالأمير العالم[٢] ـ وقد رأيناه بالمَوْصِل كثيراً ـ فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدئ بها. فلما كان أول جمعة من المُحَرَّم صَعِدَ المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر أحدٌ ذلك عليه. فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان[٣]. وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية.

وكان العاضد قد اشتدَّ مرضه، فلم يُعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سَلِمَ فهو يعلم، وإن تُوفي فلا ينبغي أن نُنغص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجلِهِ. فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم.

قال: ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع ما

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الأمير العالم: هو محمد بن موفق الدين سعيد بن الحسن بن عبد الله الخبوشاني (بضم الخاء المعجمة والباء الموحدة، وفتح الشين المعجمة، وفي آخرها نون، بليدة بناحية نيسابور)، نجم الدين أبو البركات الشافعي، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي بمصر سنة ٥٨٧هـ. من تصانيفه: «تحقيق المحيط في شرح الوسيط للغزالي» من فروع الشافعية (كشف الظنون ٦/ ١٠٢، الفتح القسي ص٥٧٧، وابن جبير في رحلته ص٤٨، التكملة للمنذري ١/ ١٦١ ـ ١٦٢، وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٠٤، العبر للذهبي ٤/ ٢٦٢، الوافي بالوفيات ٥/ ٩٩ ـ ١٠٠، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٤ ـ ٢١، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٤٩٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٥ ـ ١١٦، حسن المحاضرة ١/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٣) هو من المثل: لا ينتطح فيها عنزان، إشارة إلى أن القضية لا يجري فيها خلف ونزاع.

Marfat.com

فيه. وكان قد رتَّب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قَرَاقُوش ـ وهو خَصِيٌّ ـ لحفظه، وجعله كأستاذ دار[١] العاضد، فحفظ ما فيه حتى تسلَّمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكَّل بحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الإيوان في القصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والإماء، فأعتق البعضَ ووهب البعض وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسُكَّانه، فسبحان من لا يزول ملكه، ولا يغيِّره ممرُّ الأيام وتعاقب الدهور.

قال: ولما اشتدَّ مرض العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين، فظنَّ أن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه، فندم على تخلُّفه عنه.

قلتُ: أخبرني الأمير أبو الفتوح بن العاضد ـ وقد اجتمعتُ به وهو محبوس مقيَّدٌ سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة بقلعة الجبل بمصر ـ أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر، قال: وأحضرنا ـ يعني أولادَه وهم جماعة صغار ـ فأوصاه بنا، فالتزم إكرامنا واحترامنا، رحمه الله. وأما ندمُ صلاح الدين، فبلغني أنه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض، وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت.

قال العماد: وجلس السُّلْطان للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في إجمال أمره، والتوديع له إلى قبره، ثم تسلَّم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه. وكان مذ نافق مؤتمنُ الخلافة وقُتِل، صُرِف مَنْ هو زمام القصر[٢] وعُزل، ووكَّل بهاء الدين قَراقُوش بالقصر، وجعله زِمَامه، واستنابه مقام نفسه وأقامه؛ فما دخل إلى القصر شيء ولا خرج إلا بمرأى منه ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد، وَوَهَتِ المعاقد، وأمر

---

(١) أستاذ الدار: هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته، وهو لقب يطلق على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «إستذ» بهمزة مكسورة ومعناه الأخذ، والثاني: «دار» ومعناه الممسك، فأدمغت الذال الأولى، وهي المعجمة، في الثانية، وهي المهملة، فصار إستادار، ومعناه: المتولي للأخذ، وسمي بذلك لأنه يتولى قبض الأموال، وهناك إستادار الأملاك الشريفة، وإستادار الصحبة، وإستادار العالية، وإستادار المباشرة (انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٨١، ٤/ ٢٠/ ١٨٨، ٤٥٧، ٥/ ٤٥٧، ٨/ ٢٢، ٢١٨).

(٢) زمام القصر: قال القلقشندي في «صبح الأعشى» ٣/ ٥٥٦: وظيفة زمام القصر، وهو بمثابة زمام الدور في زماننا. والزمام: من الزَّم: وهو تقديم الشخص على أقارب الخليفة واحتسابه من أقاربه، وزمام القصر هو الذي يتولى إدارة خدم القصر والإشراف على أعمالهم (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٧١ ـ ١٧٣).

Marfat.com

السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر جعلَهُ برسمهم على الانفراد، وقرَّر ما يكون لهم برسم الكُسوات والأقوات والأزواد.

قلتُ: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار بَرْجَوان[1] في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيباً؛ ثم نقلوا بعد الدولة الصَّلاحية منها، وأبعدوا عنها.

قال العماد: وهم إلى اليوم في حفظ قَرَاقُوش واحتياطه واستظهاره، يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره. وجَمَع الباقين من عمومتهم وعِتْرتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان، وأبعدَ عنهم النِّساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا، وقد نَقَصَ عددهم، وقَلَصَ مددهم. ثم عَرَضَ من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدّة والعديد، والطَّريق والتَّليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهنَّ، وجَمَعَ الباقيات فوهبهنَّ وفرَّقهُنَّ، وأخلى دوره، وأغلق قصوره، وسلَّط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعَدّ عن الموزون والمعدود، وأخذ كل ما صلح له ولأهله ولأمرائه، وخواصّ مماليكه وأوليائه، من أخاير الذَّخائر، وزواهر الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدُّرَّة اليتيمة، والياقوتة العالية الغالية القيمة، والمصوغات التِّبْرِيَّة، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية، والصَّواني الصينيَّة، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، والمحوكات النُّضارِيَّة، والكرائم واليتائم، والعُوَذ والتمائم، والعقود والنقود، والمنظوم والمنضود، والمحلول والمشدود، والمنعوت والمنحوت، والدُّرّ والياقوت، والحَلْي والوَشْي، والعبير والحبير، والوثير والنثير، والعيني واللُّجيني، والبُسط والفُرش، وما لا يُعَدُّ إحصاءً، ولا يحدُّ استقصاءً، فوقع فيها الفَنَاء، وكُشِفَ عنها الغطاء، وأُسرف فيها العطاء، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، ولَبِيسٍ وسحيق[2]، وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصنوع ومعمول. واستمرَّ البيع فيها مُدَّة عشر سنين، وتنقَّلَتْ إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصَّادرين.

ونقلتُ من «ديوان العماد» بخطِّه قال: ولما وصل الخبر بموت العاضد الذي كان بمصر في القصر، موسوماً بالأمر، في ليلة عاشوراء سنة سبع وستين، بعد

---

(١) برجوان: كان من خدام العزيز ومدبري دولته نافذاً مطاعاً، نقم عليه الحاكم فقتله سنة ٣٩٠هـ. (انظر وفيات الأعيان ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).

(٢) اللبيس والسحيق: الثوب الذي أكثر لبسه فأخلق.

الخطبة بها للمستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، عملت هذه الأبيات. فذكر قصيدةً، منها: [المنسرح]

تـوفـي الـعـاضـدُ الـدَّعِـيُّ فـمـا ... يَـفْـتَـحُ ذو بِـدْعَـةٍ بـمـصـرَ فـمـا
وعَـصْـرُ فِـرْعَـوْنِـهـا انـقـضـى وغَـدا ... يـوسُـفُـهـا فـي الأمـور مُـحْـتـكِـمـا
وانْـطَـفَـأَتْ جَـمْـرَةُ الـغُـواء وقـد ... بـاخ مـن الـشِّـرْكِ كـلُّ مـا اضْـطَـرَمـا
وصـارَ شَـمْـلُ الـصَّـلاح مـلـتـئـمـاً ... بـهـا وعِـقْـدُ الـسَّـداد مُـنْـتَـظِـمـا
لـمَّـا غـدا مُـعْـلَـنـاً شـعـارُ بـنـي الـ ... ـعَـبَّـاس حـقّـاً والـبـاطِـلُ اكْـتَـتَـمَـا
وبـاتَ داعـي الـتَّـوحـيـد مـنـتـصـراً ... ومِـنْ دُعـاة الإشـراكِ مُـنْـتَـقِـمـا
وظَـلَّ أهـلُ الـضَّـلالِ فـي ظُـلَـلٍ ... داجِـيَـةٍ مـن غَـيـابـةٍ وعـمـى
وَارْتَـبَـكَ الـجـاهِـلُـونَ فـي ظُـلَـمٍ ... لـمـا أضـاءَتْ مَـنَـابِـرُ الـعُـلـمـا
وعـاد بـالـمـسـتـضـيء مـمـتـهَـداً ... بـنـاءُ حـقٍّ قـد كـانَ مُـنْـهَـدِمـا
واعـتـلَّـتِ الـدَّولـة الـتـي اضْـطَـهَـدَتْ ... وانـتـصـرَ الـديـنُ بـعـدمـا اهـتُـضـمـا
واهـتـزَّ عِـطْـفُ الإسـلام مـن جَـذَلٍ ... وافـتـرَّ ثَـغْـرُ الإيـمـانِ وابـتـسـمـا
واسْـتَـبْـشَـرَتْ أَوْجُـه الـهُـدَى فـرحـاً ... فَـلْـيَـقْـرَعِ الـكُـفْـرُ سِـنَّـهُ نَـدَمـا
عـاد حـريـمُ الأعـداءِ مُـنْـهِـتَـكَ الـ ... ـحِـمَـى وفَـيءُ الـطُّـغـاةِ مُـقْـتَـسَـمـا
قُـصُـور أهـل الـقُـصـور أَخْـرَبَـهـا ... عـامـرُ بـيـتٍ مـن الـكـمـال سَـمَـا
أَزْعَـجَ بـعـد الـسُّـكـون سـاكِـنَـهـا ... ومـات ذُلّاً وأنـفُـهُ رَغِـمَـا

ومن كتابٍ فاضليٍّ عن السُّلْطان صلاح الدين إلى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء في بعض السنين: كتب الخادم هذه الخدمة من مستقرِّه ودينُ الولاء مشروع، وعَلَمُ الجهاد مرفوع، وسُؤْدُدُ السَّواد متبوع، وحكم السَّداد بين الأمَّة موضوع، وسَبَبُ الفساد مقطوع ممنوع. وقد توالت الفتوح غرباً ويمناً وشآماً، وصارت البلاد بل الدُّنيا، والشهر بل الدهر، حَرَماً حَرَاماً، وأضحى الدين واحداً بعدما كان أدياناً، والخلافة إذا ذُكر بها أهلُ الخلاف لم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً، والبِدْعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلَّة في شيع الضَّلال شائعة؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسمّوا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شِيَعاً، وفرَّقوا أمرَ الأمة وكان مجتمعاً، وكذَّبوا بالنَّار فعُجِّلَتْ لهم نار الحتوف، ونشرت أقلامُ الظُّبى حروفَ رؤوسهم نَثْرَ الأقلام للحروف، ومُزِّقوا كل ممزَّق، وأُخذ منهم كل مُخَنَّق، وقُطعَ دابرهم، ووعظ آتيهم غابِرُهم، ورَغِمَتْ أنوفهم ومنابرهم، وحقَّتْ عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً، وتمَّتْ

Marfat.com

كلماتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، وليس السيف عمن سواهم من كُفَّارِ الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم. ولا خَفَاء عن المجلس الصَّاحبي أن من شَدَّ عَقْد خلافةٍ وحَلَّ عُقَدَ خِلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عَجَزَ عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقرٌ إلى أن يُشْكَرَ ما نَصَحَ، ويُقلَّد ما فتح، ويبلَّغ ما اقترح، ويقدَّمَ حقه ولا يُطَّرَح، ويقرَّب مكانه وإن نَزَح، وتأتيه التَّشريفات الشَّريفة، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة، وتُلبَّى دعوته بما أقامَ من دعوة، وتُوصل غزوته بما وصل من غزوة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسَلَ إليه السحب المروَّضة، فكلُّ ذلك تعود عوائده، وتبدو فوائده، بالدولة التي كشف وَجْهَهُ لنصرها، وجرَّد سيفه لرفع منارها، والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النُّجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لإيصال ملطفاته وتنجُّز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالأمر قيام من بَرّ، واستفتح بلباس السَّواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السَّواد الأعظم، آملاً أنه يعود إليه بما يطوي الرجاءُ فَضْلَ عَقِبه، ويخلِّد الشَّرفَ في عَقِبه.

ولصاحبنا مجد الدين محمد بن الظهير الإِرْبلي[1] من قصيدةٍ في مَدْح بعض ذُرِّيَّة السُّلْطان رحمه الله تعالى: [الطويل]

مليكٌ من القومِ الذينَ رِماحُهُمْ ... دعائمُ هذا الدِّين في كلِّ مَشْهَدِ
هُمُ نَصَرُوا التَّوحيدَ نَصْراً مؤزَّراً ... به عَزَّ في الآفاقِ كلُّ مُوَحِّدِ
وهم قَهَرُوا غُلْبَ الفرنجِ بباسِهِمْ ... فَدَانُوا لهم بالرُّغْمِ لا عَنْ تَوَدُّدِ
وردُّوا إلى البيتِ المُقدَّس نُورَه ... وقد كانَ في ليلٍ من الشِّرْكِ أَسْوَدِ
وهم سَهَّلُوا سُبْلَ الحجيج وآمنوا ... بها الركب خوفَ الكافِرِ المتَشَدِّدِ
وقد رَكِبَتْ فُرسانُه بَحْرَ أَيْلَةٍ ... يخوضونَ في بحرٍ من الكَيْدِ مُزْبِدِ
وهم رجَّعوا مِصْراً إلى دعوة الهُدَى ... بِعَزْمٍ ورأيٍ في العظائم مُخْصِدِ

(١) هو محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن الظهير الإربلي، مجد الدين الحنفي الأديب الشاعر، ولد بإربل سنة ٦٠٢هـ، سمع بدمشق من علم الدين السخاوي شيخ أبي شامة، فانعقدت بينهما صحبة، وحدّث عنه أبو شامة أيضاً، كان من كبار الحنفية، درس بالمدرسة القيمازية، وكان من أعيان شيوخ الأدب، وفحول المتأخرين في الشعر توفي بدمشق سنة ٦٧٧هـ، له ديوان شعره في مجلدين (كشف الظنون ٦/ ١٣٣، فوات الوفيات ٣/ ٣٠١ - ٣١٠، العبر للذهبي ٥/ ٣١٦، الوافي بالوفيات ٢/ ١٢٣ - ١٢٧، الجواهر المضية ٣/ ٥٢ - ٥٤، البداية والنهايه ١٣/ ٢٨٢ - ٢٨٣، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٧٤ - ٥٧٥).

Marfat.com

وهـم شَيَّدوا رُكْنَ الخِلافةِ بالَّذي أعـادوه مـن حـقٍّ طـريـفٍ ومُـثـلَـدِ
وهـم شَرَّفوا قَدْرَ المنابرِ باسمها وذكـرِ مَـنُـوطٍ بـالـرَّسـول مـحـمـدِ
وهـم وَهَبُوا غُرَّ المماليكِ واكتفوا بسُمْرِ العوالي والعلاء المُشَيَّدِ
فَسَلْ عن ظُباهم يوم حِطِّين كم قَضَتْ بـمـرٍّ مـراد الله فـي كـلِّ أَصْـيَـدِ
وضَعْفْ حديث العَدْلِ والبأس والنَّدى إذا كـان عـن أيـامـهـم غـيـرَ مُـسْـنَـدِ

وقال ابنُ أبي طيّ الحلبي: قد قدَّمنا ذكر مكاتبة نور الدين رحمه الله، وإلحاحه على صلاح الدين في إقامة الخُطْبة بمصر للعَبَّاسيين، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك. ولما ولي ابنه المستضيء أقبل أيضاً على مكاتبة نور الدين فيه، وألحَّ نور الدين على صلاح الدين في طَلَبه، وأفضى به الأمر إلى أنه اتَّهم صلاح الدين، وشَنَّع عليه بسببه، وأكثر القول في ذلك.

ولما قدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك، فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقرَّ بعد، وأموره مضطربة، وأعداؤه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السُّودان وغيرهم، وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج وإلَّا فسدت أحواله. فلما أوقع السُّلْطان الملك الناصر بالسُّودان والأَزْمن، ونكب أمراء المصريين وقطع أخبارهم، ونزَّل أجناده في دُورهم، ثم قطع إقطاع العاضد، وقبض جميع ما كان بيده من البلاد، واستولى على القصور، ووكَّلَ بها وبمن فيها قَرَاقُوش الخادم، وخَلَت له بلاد مصر من معاندٍ ومنابذ. ثم شرع وأبطل من الأذان «حيّ على خير العمل»، وأنكر على من يتّسم بمذهبهم الانتساب إليهم. فلما رأى أموره مواتية، وأعداؤه قليلون، شرع حينئذٍ في الخُطْبة لبني العبّاس، ولمَا عَوَّل على ذلك أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعةٍ من أصحابه وأمراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمره أن يُحضِرَ الخطيبَ إليه ويأمره بما يختاره. وإنما فعل الملك النَّاصر ذلك، ووكل الأمر إلى غيره استظهاراً وخوفاً من فادحة ربما طرأت، أو عدوٍّ ربما ثار، فيكون هو معتذراً من ذلك.

ولمّا حَصَل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب وقال له: إن ذَكَرْتَ هذا المقيم بالقصر ضَرَبْتُ عنقك. فقال: فلمن أخطب؟ قال: للمستضيء العبّاسي. فلما صَعِدَ المنبر وخطب، ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحداً لكنّه دعا للأئمة المهديّين وللسُّلْطان الملك الناصر، ونزل، فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولا تقرّر معي في ذلك شيء قبل الجمعة، وفي الجمعة

Marfat.com

الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة قال: لمن خُطب؟ قيل له: لم يُخطب لأحدٍ مسمّى. قال: في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مُسَمًّى. واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية، قيل: إنه أفكر واستولى عليه الفكر والهَمُّ حتى مات. وقيل: إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتمَّ، وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط، فأقام متعلِّلاً خمسة أيام ومات. وقيل: إنه امتصَّ فَصَّ خاتمه، وكان تحته سُمٌّ، فمات.

ولما اتصل موته بالملك الناصر قال: لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة. فحُكي أن القاضي الفاضل قال للسُّلْطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت. أشار إلى أن العاضد قتل نفسه. وكان موته يوم عاشوراء.

قال: وحكى ابن المارستاني[1] في «سيرة ابن هُبيرة الوزير»[2] قال: إنه من عجيب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمسٍ وخمسين وخمسمائة، كأن قمرين أحدهما أَنْوَرُ من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة، وله لحية سوداء فيها طُول، ويهبُّ أدنىٰ نسيم فيحرِّكُها، وأثر حركتها وظلها في الأرض؛ وكان الرجل يتعجَّب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون

---

(١) ابن المارستاني: كذا بالأصل، ولعله تصحيف والصحيح: ابن المارستانية وهو عبيد الله بن أبي الفرج علي بن نصر بن حمزة، أبو بكر البغدادي المعروف بابن المارستانية، نسب إلى أمه، وكانت تخدم مع أبيه في المارستان، توفي سنة ٥٩٩هـ، من تصانيفه: «ديوان الإسلام الأعظم في تاريخ بغداد» لم يكمل (كشف الظنون ٥/ ٦٤٩، وترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين في وفيات سنة ٥٩٩هـ).

(٢) هو يحيى بن هبيرة: هو عون الدين أبو المظفر الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سعد الشيباني الفقيه الحنبلي، من وزراء المقتفي لأمر الله العباسي، وبعده، للمستنجد، أصله من قرية بني أوقر من أعمال دجيل، ولد سنة ٤٩٧هـ، وتوفي سنة ٥٦٠هـ، ببغداد، له من التصانيف: «اختلاف العلماء»، «أرجوزة في الخط»، «الإشراف على مذاهب الأشراف»، «الإفصاح عن شرح معاني الصحاح» وهو يشتمل على تسعة عشر كتاباً، «الإيضاح على معاني الصحاح»، وهو شرح الجمع بين الصحيحين لأبي نصر الحميدي، «تهذيب إصلاح المنطق لابن السكيت»، «الطامس والغالس»، في علم السيمياء، «كتاب الإجماع والاختلاف» «كتاب العبادات»، «كتاب المقتصد»، «كتاب المقصور والممدود» وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٥٢١، «الكامل» ٩/ ٤٨٠).

بألحانٍ وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد استبدل النَّاس بإمامهم. قال: وكان الرجل قد استَقْبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برًّا تقيًّا، واستيقظ الرَّجل، وبلغ هذا المنام ابنَ هُبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبَّر المنام بأنَّ الإمام الذي بمصر يُسْتَبْدلُ به، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللِّحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتَبَ نور الدين حين دخل أسد الدِّين إلى مصر في أوَّل مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده.

وقيلت في ذلك الزمان أشعارٌ في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن تركان[1]، وكان حاجب ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويله المنام: [الطويل]

لِتَهنِك يا مَوْلى الأنام بشارةٌ ... بها سَيْفُ دينِ الله بالحقِّ مُرْهَفُ
ضَرَبْتَ بها هَامَ الأعادي بهِمَّةٍ ... تَقَاصَرَ عنها السَّمْهَرِيُّ المُثَقَّفُ
بَعَثْتَ إلى شَرْقِ البلادِ وغَرْبِها ... بعوثاً من الآراء تحيي وتُتْلِفُ
فقامَتْ مَقامَ السَّيْفِ والسَّيْفُ قاطِرٌ ... ونابَتْ منابَ الرُّمْحِ والرُّمْحُ يَزْعُفُ
وقُدْتَ لها جيشاً من الرَّوْعِ هائلاً ... إلى كلِّ قَلْبٍ من عِدَاتِك يَزْحَفُ
مَلَكْتَ به أَقْصَى المغاربِ عَنْوَةً ... وكادَتْ بمن فيها المشارِقُ تَرْجُفُ
لِيَهْنِكَ يا مولاي فتحاً تَتَابعتْ ... إليك به خوصُ الركائب تُوجَفُ
أَخَذْتَ به مِصْراً وقد حال دونها ... من الشِّرْكِ ناسٌ في لَهَى الحق يُقْذَفُ
وقد دَنَّسَتْ منها المنابِرَ عُصْبَةٌ ... يَعاف التُّقى والدينُ منهم ويَأْنَفُ
فَطَهَّرَها من كلِّ شِرْكٍ وبِدْعةٍ ... أغرُّ غريرٌ بالمكارمِ يَشْغَفُ
فعادَتْ بحمد الله باسم إمامنا ... تتيهُ على كلِّ البلادِ وتَشْرُفُ
ولا غَرْوَ أن دانَتْ ليوسُفَ مِصْرُه ... وكانت إلى عَلْيَائه تتشوَّفُ
تملَّكها من قَبْضَةِ الكُفْر يوسُفٌ ... وخلَّصها من عُصْبَةِ الرِّفض يوسُفُ

قال يحيى بنُ أبي طيّ: يريد بيوسف الأول يوسف الصِّدِّيق النبي ﷺ،

---

(١) لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي، وفي «خريدة القصر» قسم شعراء العراق الجزء الرابع المجلد الثاني ص٥٠٦ ـ ٥٠٨: محمد بن الحسين، من أكابر أهل واسط، وكان الوزير ابن هبيرة يصدر عن رأيه ويأخذ بقوله، ويعتمد عليه في جميع أنحائه، ولما توفي الوزير سنة ٥٦٠هـ، أخذ وحبس، وضرب ضرباً شديداً أشرف به على الموت، توفي شاباً بعد وفاة الوزير بعام سنة ٥٦١هـ.

وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذٍ، وقاله على سبيل الفأل؛ ألا تراه قال بعد هذا البيت: [الطويل]

فشابهته خَلْقاً وخُلْقاً وعِفَّةً وكلٌّ عن الرَّحمٰن في الأرْضِ يَخْلُفُ

وجرى الفأل في البيت باسم الملك النَّاصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

قلت: وذكر ابن المارستاني[1] في السيرة المذكورة، قال: وكان هذا المنام سبباً إلى أن كاتب الوزيرُ ابنُ هبيرة نورَ الدين بن زَنْكي يحثُّه على التعرُّض لمصر والبعث إليها، واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر وقدومه هارباً منه إلى نور الدين، فحرَّك ذلك ما كان تخمَّر في نفسه مما كان كاتبه به ابنُ هُبيرة، فاستطلعَ من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين، فشرحها وأوضحها، فسيَّر إليها أسد الدين، كما سبق ذِكْره.

قال: ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السُّنَّة على الإسماعيلية وتتبعوهم وأذلُّوهم، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دُورهم، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه، وعَظُمَتِ الأذية بذلك. وجلا أكثر أهل مِصْر عنها إلى البلاد، وفرح النَّاس بذلك، وكتبت الكتب به إلى الأقطار، وتحدَّث به السُّمَّار.

[إرسال نور الدين المطهر بن أبي عصرون إلى بغداد للبشارة بإقامة الخطبة العباسية في مصر]

ولما وصل خبرُ ذلك إلى نور الدين ندبَ للبشارة به إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المُطَهَّر بن أبي عَصْرون، وكتب معه نسخة بشارة تُقرأ بكلِّ مدينةٍ يمرُّ بها، يقول فيها: أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رِتاجَه، وأوضح لنا مِنْهَاجَهُ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العبَّاسية، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المِصْرية والإسكندرية، ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة، وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قُوص وأُسْوان بأقصى الصَّعيد، وهذا شَرَفٌ لزماننا هذا وأهله، نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله. وما بَرِحت هممنا إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، وعَزَائمنا في إقامة الدَّعوة الهادية بها ماضِيَة، والأقدار في الأزل بقضاء آرابنا ونجاز مواعدنا قاضِيَة، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها،

---

(١) تقدم أن ابن المارستاني تصحيف، والصحيح ابن المارستانية.

وَقَدَرْنا عليها وقد عَجَزوا عنها. وطالما مَرَّت عليها الحِقَب الخوالي، وآبت دونها الأيام والليالي، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوَّة بدعوة المبطلين، مملوَّة بحزب الشياطين، سابغة ظلالها للضَّلال، مقفرة المَحَلِّ إلا من المُحال، مفتقرة إلى نُصرة من الله تملكها، ونظرة ستدركها، رافعةً يدها في إشكائها، متظلِّمة إليه ليكفُلَ بإعدائها على أعدائها، حتى أَذِنَ الله لغُمَّتها بالانفراج، ولعِلَّتها بالعلاج؛ وسَبَّب قصدَ الفرنج لها وتوجُّههم إليها، طمعاً في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان: الكفر والبِدْعة، وكلاهما شديد الرَّوْعة، فملَّكنا الله تلك البلاد، ومكَّن لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنا نُؤمِّله في إزالة الإلحاد والرَّفض، من إقامة الفَرْض، وتقدَّمنا إلى من استَنَبْناه أن يستفتحَ باب السَّعادة، ويستنجح ما لنا من الإرادة، ويقيم الدعوة الهادية العَبَّاسية هنالك، ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك.

وهو كتابٌ طويل اخترت منه الغرض، وهو هذا.

قال: وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد، ولم يترك مدينةً إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذِّكر، حتى وصل إلى بغداد، فخرج الموكبُ إلى تلَقيه وجميعُ أهل بغداد، مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل موروده، ونُثرت عليه دنانير الإنعام، وحُبي بكلِّ إحسانٍ وإكرام، وأُرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين، كما سيأتي ذكره.

وقال العماد: كان صلاح الدين لا يخرجُ عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين. وقد كان كاتَبَه نور الدين في شوال سنة ستٍّ وستين بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها الصَّعْبَة، وافتراع بِكْر هذه القضية وفرع الرتبة. وأيقن أن أمره متبوع، وقولَه مسموعٌ، وحكمه مشروع، ونطقت بذلك قبل التَّمام، ألسُنُ الخواص والعوام، فسيَّر نورُ الدين شهابَ الدين أبا المعالي المطهَّر ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وإشاعة ما تقدَّم له بها من الإشاعة، وأمرني بإنشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الإسلام، وبشارة خاصَّة للديوان العزيز بحضرة الإمام، في مدينة السَّلام - ثم ذكر نسخة الكتابين.

ثم قال: ونظمتُ قصيدةً مشتملة على الخُطْبة بمصر، أولها[1]: [الخفيف]

قد خطبنا للمستضيء بمصرِ ... نائب المصطفى إمامِ العَصْرِ
وخَذَلنا لنُصْرةِ العَضُدِ العا ... ضدَ والقاصرَ الذي بالقَصْرِ

(١) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ١٤ - ١٧.

Marfat.com

أراد بالعَضُد وزير بغداد عَضُد الدين ابن رئيس الرؤساء.

قال العماد في كتاب «الخريدة»: قصدت بالعَضُد والعاضد المجانسة. ونصرة وزير الخليفة كنصرته. ثم قال: [الخفيف]

وأشَعْنَا بها شعارَ بني العَبَّـ (م) ـاس فاستَبْشَرَتْ وُجُوه النَّضرِ
وتَرَكْنا الدَّعيَّ يدعو ثُبُوراً وهو بالذُّلِّ تَحتَ حَجْرٍ وحَضْرِ
وتباهَتْ منابرُ الدِّينِ بالخُطْـ ـبة للهاشميِّ في أرضِ مِصْرِ
ولدَيْنا تَضاعَفَتْ نِعَمُ اللَّـ ـهِ وَجَلَّتْ عن كلِّ عَدٍّ وَحَصْرِ
فاغتدى الدينُ ثابتَ الرُّكْنِ في مِصْـ ـرَ مَحُوطَ الحِمى مصونَ الثَّغْرِ
واستنارَتْ عَزَائِمُ المَلِك العا دل نورِ الدِّين الكريم الأغَرِّ
وبنو الأَصْفَرِ القوامصُ منه بوجوهٍ من المخافة صُفْرِ
عَرَفَ الحقَّ أهلُ مِصْر وكانوا قبلَهُ بينَ مُنْكِرٍ ومُقِرِّ
قل لداعي الدَّعيِّ حَسْبُك فاللَّـ ـه أقرَّ الحقوقَ خيرَ مقرِّ
هو فَتْحٌ بِكْر ودون البرايا خَصَّنا اللَّهُ بافتراعِ البِكْرِ
وحَصَلْنا بالحمد والأَجْرِ والنَّصْـ ـرِ وطيبِ الثنا وحُسْنِ الذِّكْرِ
ونَشَرْنا أعلامَنا السُّودَ قهراً للعِدى الزُّرْقِ بالمنايا الحُمْرِ
واستَعَدْنا من أدعياءَ حقوقاً تُدَّعى بينهم لزيدٍ وعَمْرِو
والذي يدَّعي الإمامة بالقا هرةِ انحطَّ في حضيضِ القَهْرِ
خانه الدَّهرُ في مُناه، ولا يطـ ـمَعُ ذو اللُّبِّ في وفاءِ الدَّهْرِ
ما يُقَام الإمامُ إلا بحقٍّ ما تُحاز الحسناءُ إلا بمهرِ
خلفاءُ الهدى سَرَاة بني العَبَّـ (م) ـاسِ والطَّيِّبون أهل الطُّهْرِ
بهِمُ الدين ظافِرٌ مستقيمٌ ظاهرٌ قُوَّةً قويُّ الظَّهْرِ
كشموس الضُّحى كمثل بدورِ التَّـ (م) ـمِّ كالسُّحْب كالنُّجوم الزُّهْرِ
قد بلغنا بالصَّبْرِ كلَّ مُرَادٍ وبلوغُ المُرادَ عُقْبى الصَّبْرِ
ليس مُثْري الرجال من مَلَك الما لَ ولكنما أخو اللُّبِّ مُثْرِي
ولهذا لم ينتفع صاحب القصْـ ـر وقد شارف الدُّثور بِدَثْرِ(١)
دامَ نَصْرُ الهُدى بمُلك بني العَبَّـ (م) ـاس حتى يقومَ يَوْمُ الحَشْرِ

(١) الدثور: الدروس. والدثر: المال الكثير.

Marfat.com

قال العماد في «ديوانه»، ونَقَلْتُهُ من خَطِّه، قال: ووصل الخبر بالخطبة في الإِسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشري شهر رمضان لمولانا الإِمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وإشاعة شعار بني العباس بها. فقلتُ، ونحن نزولٌ بجسر الخشب من دمشق في عاشر شَوَّال، وكتبتُ بها إلى بغداد فذكر هذه القصيدة.

[وصول عماد الدين صندل من بغداد في جواب بشارة نور الدين]

وقال في «البرق»: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين صَنْدَل[1] وهو من أكابر الخدم المقتفوية، من ذوي الروية والهِمَّة القوية. وتولى أستاذية الدار العزيزة بعد عزل كمال الدين بن عضد الدين عنها، فأُكرم نور الدين بإرسال مثله إليه، وعُوِّل في هذا الأمر المهمّ عليه. وهو أكرمُ رسولٍ وصل، فأنجح الأمل، وجاء بالتشريف الشَّريف لنور الدين مكملاً، معظَّماً مجملاً، بأُهبته السوداء العراقية، وحُلَله الموشِيَّة، وطوقه الثقيل، ولوائه الجليل.

وعُيِّن يوم يحضر فيه الرسول، ونصُّوا على من يحضر في مجلس نور الدين وأغفلوا ذِكْر العماد، فطلبه نور الدين لما حضروا، وقام لقيام الرسل له لما حضر، وقَصَدَ أن يعرِّفهم منزلته عنده، وناوله الكتاب ليقرأه. قال: فتناوله مني الموفق بن القَيْسَراني خالد، وكان عنده في مقام الوزير، وله انبساط زائد، فداريته ومَاريته، وتركته يقرأ وأنا أردُّ عليه، وأرشده في التلاوة إلى ما لا يهتدي إليه، حتى أنهاه، وأنا على افتئاته عليَّ لا أنهاه. فأعجبَ نور الدين صمتي وسمتي، وأحمد مني فضل التأني والتأتي، واجتاب الأُهبة، ولبس الفرَجية فوقها، وتقلَّد مع تقلُّد السيفين طوقها. وخرج وركب من داخل القلعة، وهو حالٍ بما عليه من الخِلْعة؛ واللواء منشور، والنُّضار منثور، والمركبان الشريفان أحدهما مركوبة، والآخر بحليته مجنوبة.

قال: وسألت عن معنى تقليده السيفين، واشتماله بالنّجادين، فقيل: هما للشَّام ومصر، والجمع له بين البلادين.

وخرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى منتهى الميدان الأخضر، ثم عاد

---

(١) هو صندل بن عبد الله الخادم المقتفوي ويلقب عماد الدين، كان أكبر الخدم وأعقلهم، أرسله الخليفة الناصر إلى صلاح الدين مراراً، وكان كثير الصدقات والخير، وولي ناظراً بواسط ومدحه ابن المعلم الشاعر بقصائد، توفي سنة ٥٩٣هـ، ودفن بالتربة التي أنشأها عند الجامع غربي بغداد (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٣هـ).

Marfat.com

شريف المفخر، جميل المنظر، جليل المحضر، حميد المخبر، سعيد المورد والمَصْدَر، لبيقاً بالأعظمين: السَّرير والمنبر. وكان وزن الطَّوْق مع أُكْرَته ألف دينار من الذَّهب الأحمر. وحملوا لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً، رائعاً رائقاً، لجماله وكماله لائقاً، لكنَّ تشريفَ نور الدين أميز وأفضل، وأجمل وأكمل. فسيَّر تشريفه بِرُمَّته إليه بمصر ليجتابه، وسَيَّر أيضاً بخِلَع من عنده يكرم بها أصحابه. ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها، وآنس من السَّعادة الدائمة قَبَسها، وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب، وهي أول أُهبة عَبَّاسِيَّة دخلت الديار المصرية؛ يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها.

قال: وكانت وصلت مع الرسل أعلامٌ وبنود، ورايات سود، وأُهَبٌ عباسية، للخطباء في الدِّيار المصرية، فسُيِّرت إلى صلاح الدين، ففرَّقها على المساجد والجوامع والخطباء والقُضاة والعلماء؛ والحمد لله على ما أنعم وأولى، ووهب وأعطى.

[أمر صلاح الدين بالقبض على قصور العاضد وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح]

قال ابن أبي طيّ: ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة أمر بالقبض على القُصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك، فلم يوجد من المال كبير أمر؛ لأن شاور كان قد ضيَّعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدَّمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر. ومن عجيب ما وجد فيه: قضيب زمرّد طوله شبر وكَسْر، قطعة واحدة، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طَبْلٌ للقولنج، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع، ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر. فأما قضيب الزُّمرد فإن السّلطان أخذه وأحضر صائغاً ليقطعه، فأبى الصَّائغ قطعه، فرماه السّلطان فانقطع ثلاث قطع، وفرَّقه السُّلطان على نسائه. وأما طبل القولنج فإنه وقع إلى بعض الأكراد فلم يَدْرِ ما هو، فكسره، لأنه ضَرَبَ به فحَبَق[1]، وأما الإبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد.

واحتاط السُّلْطان على أهل العاضد وأولاده في موضعٍ في خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقَرَّر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قَراقُوش الخادم، وفرَّق بين النساء والرِّجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم. واستعرض مَنْ بالقصر من الجواري والعبيد، والعُدَّة والعديد، والطَّريف والتَّليد فأطلق مَنْ كان منهم

(١) حبق: أي ضرط.

Marfat.com

حُرًا، وأعتق من رأى إعتاقه، ووهب من أراد هبته. وفَرَّق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات، وقطع البَلَخْش[1] والياقوت وقضيب الزُّمرُّد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع في القصر مدَّة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا: خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدُّنيا ويقال: إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر. ومن عجائبها: أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة بتاريخ الطَّبري، ويقال: إنها كانت تحتوي على ألفَي ألف وستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة. وحَصَّل القاضي الفاضل نُخبَها؛ وذلك أنه دخل إليها واعتبرها، فكلُّ كتابٍ صَلُحَ له قطع جِلْده ورماه في بركةٍ كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات، ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حَصَّل ما حصّل من الكتب، كذا أخبرني جماعةٌ من المصريين، منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد.

واقتسم النَّاس بعد ذلك دور القَصْر، وأعطى السُّلْطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة؛ وهو قَصْرٌ عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري؛ ونقل الملك العادل[2] إلى مكانٍ آخر منه، وأخذ باقي الأمراء دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً

---

(١) البَلَخْش: من الأحجار الكريمة، ويسمّى اللَّعْل، وهو جوهر أحمر شفاف مسفر صاف، وقال في صبح الأعشى: وانعقاده في الأصل ليكون ياقوتاً إلا أنه أبعده عن الياقوتية علل من اليبس والرطوبة وغيرهما، وكذلك سائر الأحجار الحمر. ومعدن البلخش الذي يتكون فيه بنواحي بلخشان، والعجم تقول: بذخشان بذال معجمة وهي من بلاد الترك تتاخم الصين... وليس لجميعه شيء من خواص الياقوت ومنافعه، وإنما فضيلته تشبهه به في الصبغ والمائية والشعاع لا غير، وقيمته في الجملة على النصف من قيمة الياقوت الجيد... وهو لا يؤخذ من معدنه إلا بتعب كثير وإنفاق زائد، وقد لا يوجد بعد التعب والإنفاق، ولهذا عز وجوده، وغلت قيمته، وكثر طالبه، والتفتت الأعناق إلى التحلي به (صبح الأعشى ٢/ ١١١ ـ ١١٢).

(٢) هو الملك العادل محمد بن أيوب بن شاذي، سيف الدين، أبو بكر، وكنيته أشهر من اسمه، أخو السلطان صلاح الدين، قيل: إن مولده فتوح الرها، وكانت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقيل: إن مولده سنة أربعين، وكان نبيلاً حازماً سديد الآراء ذا مكر وخديعة، حسن التدبير، خليقاً للملك، حليماً صفوحاً، عادلاً، مجاهداً، ديناً، عفيفاً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، توفي في سابع أو ثامن جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ. (انظر ترجمته الوافية في شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٠٠ ـ ٢٢٩، وانظر أيضاً: مرآة الزمان ٨/ ٥٩٤، وفيات الأعيان ٢/ ٢٠٧، الذيل على الروضتين، وفيات سنة ٦١٥هـ، =

Marfat.com

أخرج منها صاحِبَها وسكنها. وانقضت تلك الدولة برمَّتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد، واستخدموا العباد، مائتين وثمانين سنة وكسوراً.

قال: وحكي أن الشَّريف الجليس ـ وهو رجل كان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدِّثه ـ عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السُّلْطان بعد القبض على القُصور، وأَخْذِ ما فيها وانقراض دولتهم[1]، وغَرِمَ هذا الشريف على هذه الدعوة مالاً كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء. فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدَّولة لهذا الشريف: حدِّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم. قال: نعم، طلبني العاضد يوماً ولجماعة من النُّدماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من التُّرْك عليهم أقبية مثل أقبيتكم، وقلانس كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين، ما هذا الزِّيّ الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

قال العماد: وأُخِذَت ذخائر القصر. ففصَّلها كما سبق. ثم قال: ومن جملتها الكتب، فإني أخذت منها جملة في سنة اثنتين وسبعين، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلَّدة، مؤبَّدَة من العهد القديم مخلَّدة، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي، واقتطعه التعدِّي؛ وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهأم، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشَّام. وتقاسم الخواص بِدُورِ القصر وقُصورِه، وشرع كل من سكن في تخريب معموره؛ وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه، واستمرَّت سكناه فيه. وخطب لإمامنا المستضيء في قُوص وأُسْوان والصَّعيد، والقاضي والدَّاني والقريب والبعيد. وشاعت البشائر، وذاعت المفاخر، وسار بها البادي والحاضر. وتملك السلطان أملاك أشياعهم، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم، ثم ملَّكها أمراءه، وخَصَّ بها أولياءه؛ وباع منها أماكن، ووهب مساكن، وعفَّى الآثار القديمة، واستأنف السُّنن الكريمة.

وقال ابن الأثير: لما استولى صلاح الدين على القَصْر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد، ووهب أهله وأمراءه، وباع منه كثيراً. وكان فيه من الجواهر والأعلاق

= الوافي بالوفيات ٢/ ٢٣٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ١٩٥ ـ ٣٩٤، تاريخ أبي الفداء ٣/ ١٥٨، البداية والنهاية ١٣/ ٧٩، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٢٦٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٢، النجوم الزاهرة ٦/ ١٦٠).

(١) تقدم في أول هذا الجزء أن الجليس توفي سنة ٥٦١هـ. ولعل هذا وهم من ابن أبي طي.

Marfat.com

النَّفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جُمع على طول السنين وممرّ الدُّهور، فمنه القضيب الزمرُّد طوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت، وغيرهما؛ ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

فَصْل

[نبذة عن الدولة الفاطمية]

ولما خُطب بالديار المِصْرية لبني العبَّاس، ومات العاضد انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الإِسلام بمصر بانقراضها الذلة. واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه، وكلُّهم من قِبَل نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ هم أمراؤه وخدمه وأصحابه. وفيهم يقول العَرْقَلَة[1]: [الخفيف]

أصبح المُلكُ بعدَ آلِ عليٍّ ... مشرقاً بالملوك من آلِ شاذي
وغدا الشَّرْقُ يَحْسُدُ الغَرْبَ للقو ... مِ ومِصْرٌ تزهو على بَغْدادِ
ما حوَوْها إلّا بحزمٍ وعَزْمٍ ... وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفِرْعون والعزيز ومن كا ... ن بها كالخَصِيبِ والأُستاذ

يعني بالأستاذ كافور الإِخشيدي. وقوله: بعد آل علي، يعني بذلك بني عبيد المستخلفين بها، أظهروا للنَّاس أنهم شرفاء فاطميون، فملكوا البلاد، وقهروا العباد. وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً، ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد.

وكان والد عُبيد هذا من نسل القدَّاح الملحد المجوسي، وقيل: كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سَلَمْية من بلاد الشَّام، وكان حداداً، وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله، وزعم أنه علويٌّ فاطميٌّ، وادَّعى نسباً ليس بصحيح، لم يذكره أحد من مصنِّفي الأنساب العَلَويَّة، بل ذكر جماعة من العلماء بالنَّسب خلافه، وهو ما قدَّمنا ذكره. ثم ترقَّت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدي، وبنى المهدِيَّة بالمغرب ونسبت إليه. وكان زنديقاً خبيثاً عدوًّا للإِسلام، متظاهراً بالتشيع متَستِّراً به، حريصاً على إزالة الملَّة الإِسلامية؛ قتل من الفقهاء والمحدِّثين والصَّالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود، ليبقى العالم كالبهائم، فيتمَكَّن من إفساد عقائدهم وضلالتهم ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ

(١) الأبيات في ديوان عرقلة ص٣٧ ـ ٣٨، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

Marfat.com

ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، ونشأت ذرِّيته على ذلك منطوين، يجهرون به إذا أمكنتهم الفُرصة وإلا أَسَرُّوه، والدُّعاة لهم منبثُّون في البلاد، يضلُّون من أمكنهم إضلاله من العباد، وبقي هذا البلاء على الإِسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحِجَّة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة.

وفي أيامهم كثرت الرَّافضة واستحكم أمرهم، ووضعتِ المكوسُ على النَّاس، واقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثور الشَّام... والحشيشية نوعٌ منهم. وتمكَّن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم. وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشَّام والجزيرة، إلى أن مَنَّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي، وتقدُّمه مثل صلاح الدين، فاستردُّوا البلاد، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد.

وكانوا أربعة عشر مستخلفاً، ثلاثة منهم بإفريقية، وهم الملقَّبون بالمهدي والقائم والمنصور، وأحد عشر بمصر وهم الملقبون بالمعزّ، والعزيز، والحاكم، والظَّاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد.

يدَّعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي، حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطميَّة والدولة العلوية، وإنَّما هي الدَّولة اليهودية أو المجوسية الباطنيَّة الملحدة. ومن قِحَتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر، ويكتبونه على جُدْران المساجد وغيرها.

وخطب عبدهم جوهر ـ الذي أَخَذَ لهم الدِّيار المصرية، وبنى لهم القاهرة المعزِّية ـ بنفسه خطبة طويلة قال فيها: اللهم صَلِّ على عبدك ووليِّك، ثمرة النبوَّة وسليل العِتْرَة الهادية المهدِيَّة، مَعَدّ أبي تميم الإِمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صلَّيت على آبائه الطاهرين، وسلفه المنتخبين الأئمة الراشدين.

كذب عدوُّ الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين، ولا في ذرِّيته الباقين، والعِترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل، رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصَّدْر الأول.

وقد بيَّن نسبهم هذا، وأوضح مُحالهم وما كانوا عليه من التَّمويه وعداوة الإِسلام جماعة ممن سلف من الأئمة والعُلماء، وكل متَورِّع منهم لا يُسميهم إلَّا بني عبيد الأدعياء، أي يدَّعون من النسب ما ليس لهم. ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمد بن الطيب[1]، فإنه كشف في أول كتابه، المسمى بـ«كشف أسرار الباطنية»،

---

(١) القاضي أبو بكر: هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم البصري القاضي أبو بكر الباقلاني، المتكلم الأشعري انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة سنة ٣٣٨هـ =

Marfat.com

عن بطلان نسب هؤلاء إلى عليٍّ رضي الله عنه، وأنَّ القدَّاح[١] الذي انتسبوا إليه دَعيٌ من الأدعياء، ممخرق كذاب، وهو أصل دعاة القرامطة[٢]، لعنهم الله.

= وسكن بغداد فتوفي بها سنة ٤٠٣هـ، وجهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، من تصانيفه: «إعجاز القرآن»، «الانتصار»، «كشف أسرار الباطنية»، «الملل والنحل»، «مناقب الأئمة»، «نهاية الإيجاز في رواية الإعجاز»، «هداية المسترشدين في الكلام» (كشف الظنون ٦/ ٥٩، وفيات الأعيان ١/ ٤٨١، سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٩٠ ـ ١٩٣).

(١) القداح: هو عبد الله بن ميمون بن داود المخزومي بالولاء، عرف بالقداح، وهي صناعته، وكان يبري القداح، وهي السهام، توفي سنة ١٨٠هـ (الأعلام ٤/ ١٤١). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤: ومما اشتهر من أمر الدعاة لأئمتهم المستورين أنه ممن كان ينسب إلى التشيع رجل اسمه رمضان، ويقال: إنه صاحب كتاب «الميزان» في نصرة الزندقة، فولد له ولد يقال له: ميمون، نشأ على أهبة في التشيع والعلم بأسرار الدعاء لأهل البيت، ثم نشأ لميمون ولد يقال له: عبد الله، وكان يعالج العيون ويقدحها، فسمّي القدّاح، واطلع على أسرار الدعوة من أبيه، وسار من نواحي كرخ وأصبهان إلى الأهواز والبصرة وسلمية من أرض الشام يدعو الناس إلى أهل البيت، ثم مات ونشأ له ولد يسمى أحمد فقام مقام أبيه عبد الله القداح في الدعوة وصحبة رجل يقال له رستم بن الحسين بن حوشب النجار من أهل الكوفة، فأرسله أحمد إلى اليمن، فدعا الشيعة باليمن إلى عبد الله المهدي فأجابوه، وكان أبو عبد الله الشيعي من أهل صنعاء من اليمن، وقيل من أهل الكوفة، يصحب ابن حوشب فحظي عنده وبعثه إلى المغرب ومن نسب أحداً من هذه الدعاة إلى ارتكاب محظور أو احتقاب إثم فقد ضلّ وخرج عن جادة الصواب عندهم، ويرون تخطئة من مالأ على الإمام عبيد الله المهدي، أوّل أئمتهم القائمين ببلاد الغرب، وارتكابه المحظور وضلاله عن طريق الحق، وكذلك من خذل الناس عن اتباع القائم بأمر الله بن عبيد الله المهدي، ثاني خلفائهم ببلاد المغرب، أو نقض الدولة على المعز لدين الله أوّل خلفائهم بمصر، ويرون ذلك من أعظم العظائم وأكبر الكبائر.

(٢) القرامطة: فرقة باطنية إسلامية، أسسها حمدان قرمط ونسبت إليه (تاريخ العرب السياسي والثقافي ٢/ ٥٣٤)، وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠: القرامطة من فرق الشيعة الإسماعيلية، خرجوا من البحرين، نسبة إلى رجل منهم اسمه قرمط، خرج فيهم وادّعى النبوة وأنه أنزل عليه كتاب، ثم ظهروا بالمشرق بأصبهان، في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي، واشتهروا هناك بالباطنية، وبالملاحدة، ثم صاروا إلى الشام ونزلوا فيما حول طرابلس وأظهروا دعوتهم هناك، وإليهم تنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة، فيما حول طرابلس كمصياف والخوابي وقدموس، ولما افترقوا إلى مستعلوية ونزارية، أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية، عملاً بدعوة ابن الصباح وأخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية، وصاروا شيعة لمن بعد المستعلي من خلفاء الفاطميين بمصر، واشتهروا باسم الفداوية، ووثبوا على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالشام مرات وهو راكب ليقتلوه فلم يتمكنوا منه، ثم صالحهم بعد ذلك على قلاعهم بأعمال طرابلس في سنة ٥٧٢هـ، ثم انتموا إلى ملوك مصر في أيام الظاهر بيبرس، واشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونه.

Marfat.com

وأما القاضي عبد الجبار البَصْري[١]، فإنه استقصى الكلام في أصولهم، وبيَّنَها بياناً شافياً في أواخر كتاب «تثبيت النبوَّةِ» له. وقد نقلت كلامهما في ذلك، وكلام غيرهما في «مختصر تاريخ دمشق» في ترجمة عبد الرحيم بن إلياس[٢]، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس النَّاس، وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الإِسلام.

وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التي يقفّ الشَّعر عند سماعها، ولكن لا بدّ من ذكر شيء من ذلك تنفيراً لِمَنْ لعلَّه يعتقد إمامتهم، وخفي عنه مُحالُهم، ولم يعلم قِحَتهم ومكابرتهم، وليعذر مَنْ أزال دولتهم، وأمات بِدْعتهم، وقلَّل عِدَّتهم، وأفنى أُمَّتهم، وأطفأ جمرتهم.

ذكر عبد الجبار القاضي أنَّ الملقَّب بالمهدي ـ لعنه الله ـ كان يتَّخذ الجهال، ويسلطهم على أهل الفضل، وكان يرسل إلى الفقهاء والعُلماء فيذبحون في فُرشهم. وأرسل إلى الروم وسلَّطهم على المسلمين؛ وأكثر من الجَوْر واستصفاء الأموال وقتل الرجال. وكان له دُعاة يُضِلُّون الناس على قدر طبقاتهم، فيقولون لبعضهم: هو المهدي ابن رسول الله ﷺ، وحُجَّة الله على خلقه. ويقولون لآخرين: هو رسول الله ﷺ، وحجة الله ويقولون لطائفةٍ أُخرى: هو الله الخالق الرَّزاق. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

ولما هلك قام ابنه المسمَّى بالقائم مقامه، وزاد شرُّه على شرِّ أبيه أضعافاً مضاعفة، وجاهر بشتم الأنبياء، فكان ينادي في أسواق المهدِيَّة وغيرها: الْعنوا عائشة وبعْلَها، الْعنوا الغار ومن حوى.

---

(١) القاضي عبد الجبار: هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسدأبادي، أبو الحسين، توفي بالري عام ٤١٥هـ، قاض، أصولي، من شيوخ المعتزلة الكبار، لقب بقاضي القضاة، وله تصانيف كثيرة منها: «الأمالي» في الحديث، «تنزيه القرآن عن المطاعن»، «دلائل النبوة»، «طبقات المعتزلة» (انظر: كشف الظنون ٥/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩، طبقات السبكي ٣/ ٢١٩، لسان الميزان ٣/ ٣٨٦، تاريخ بغداد ١١/ ١١٣، طبقات المعتزلة ١١٢).

(٢) عبد الرحيم بن إلياس: كان ولي عهد الحاكم، ثم ولّاه نيابة دمشق سنة ٤١٠هـ، فلما قتل الحاكم في السنة التالية قبض الأمراء عليه، وحمل مقيداً إلى مصر، وسجن إلى أن مات، وقيل: بل نحر نفسه في الحبس (سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٧٨، ١٨٤). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٩/ ٣٠٥: كان أبو علي المنصور الإمام الحاكم بأمر الله جعل ابنه عبد الرحيم إلياس ولي عهد المسلمين، وميّزه بذلك على كافة الناس أجمعين، ونقش اسمه في السكة وأمر بالدعاء له على المنابر وبمكة.

Marfat.com

اللهم صَلِّ على نبيِّك وأصحابه وأزواجه الطَّاهرين، والْعَن هؤلاء الكفرة الفَجَرة الملحدين، وارحم من أزالهم وكان سبب قَلْعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم؛ وأَضلِهِمْ سعيراً، ولَقِّهم ثُبُوراً، وأسكنهم النَّار جميعاً، واجعلهم ممن قلت فيهم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤].

رجعنا إلى الأصل:

وبعث إلى أبي طاهر القِرْمِطي المقيم بالبحرين، وبعثه على قتل المسلمين وإحراق المساجد والمصاحف. وقام بعده ابنه المسمَّى بالمنصور، فقتل أبا يزيد مَخْلَداً الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدم ذِكْره، وسَلَخَه وصَلَبه، واشتغل بأهل الجبال يَقْتلهم ويشرِّدُهم، خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبي يزيد.

وقام بعده ابنه المسمى بالمعزّ، فبثَّ دعاته فكانوا يقولون: هو المهدي الذي يملك، وهو الشمس التي تطلُعُ من مغربها. وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الرُّوم بلادَهم، واحتجب عن الناس أياماً، ثم ظهر وأوْهَم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه.

وهذا أول خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة. واستدعى بفقيه الشَّام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرَّملي، ويعرف بابن النابُلُسي[1]، فَحُمل إليه في قفص خشب، فأمر بسلخه، فسُلخ حياً، وَحُشِيَ جلده تبناً وصُلب، رحمه الله تعالى. قال أبو ذَرٍّ الهَرَوي[2]. سمعت أبا الحسن الدَّارَقُطْني[3] يذكره ويبكي،

---

(١) قتل سنة ٣٦٣هـ، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٤٨ ـ ١٥٠.

(٢) أبو ذر الهروي: هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري، الحافظ الهروي، ثم المكي، المعروف بابن السماك المالكي، جاور بمكة زماناً، سمع من الدارقطني وغيره، وأخذ علم الكلام عن ابن الباقلاني، توفي بمكة سنة ٤٣١هـ (كذا في كشف الظنون، وفي سير أعلام النبلاء: توفي سنة ٤٣٤هـ)، من تصانيفه: «تفسير القرآن»، «المستدرك على صحيح البخاري ومسلم»، «مناسك الحج»، «دلائل النبوة»، «فضائل القرآن» «فضائل مالك»، «كتاب الجامع»، «كتاب الدعاء»، «كتاب السنة والصفات»، «كتاب شهادة الزور»، «كتاب العيدين». (كشف الظنون ٥/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٥٤ ـ ٥٦٣).

(٣) أبو الحسن الدارقطني: هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي، الحافظ أبو الحسن المعروف بالدارقطني، ولد سنة ٣٠٦هـ، كان من أئمة المحدثين، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله، توفي ببغداد سنة ٣٨٥هـ، من تصانيفه: «أربعون في الحديث»، «الإلزامات على الصحيحين البخاري ومسلم»، «سنن في الحديث»، «غريب اللغة»، «كتاب الأفراد»، «كتاب التتبع لما خرج في الصحيحين»، «كتاب التصحيف في الحديث»، «كتاب الجرح والتعديل»، «كتاب الرؤية»، «كتاب العلل في الحديث»، «كتاب القراآت»، «كتاب =

Marfat.com

ويقول: كان يقول وهو يُسْلخ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

قلت: وفي أيام الملقَّب بالحاكم منهم أمر بكَتْب سَبِّ الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع، والقياسر والشَّوارع، والطُّرقات، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسبِّ، ثم أمر بقلع ذلك. وأنا رأيته مقلوعاً في بعض أبواب دمشق في الأُسْكُفَّة العليا منقوراً في الحجر، ودلَّني أول الكلام وآخره على ذلك، ثم جُدِّد ذلك الباب، وأزيل ذلك الحجر.

وفي أيَّامه طُوِّف بدمشق رجلٌ مغربي ونودي عليه: هذا جزاء من يحبُّ أبا بكر وعمر، ثم ضربت عنقه. وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء: مثل قطع لسان أبي القاسم الواسطي، أحد الصَّالحين، وكان أذَّن ببيت المقدس وقال في أذانه «حيَّ على الفلاح» فأُخذ وقطع لسانه. ذَكَرَ ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النابُلُسي الحافظُ أبو القاسم في «تاريخه». وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلّا محنة من الله تعالى، ولهذا طالت مدتهم مع قلة عدَّتهم، فإن عدَّتهم عِدَّة خلفاء بني أمية أربعة عشر، وأولئك بقوا نيّفاً وتسعين سنة، وهؤلاء بقوا مائتي سنة وثمانياً وستين سنة؛ فالحمد لله على ما يَسَّرَ من هُلْكهم، وإبادة ملكهم، ورضي الله عمَّن سعى في ذلك وأزالهم؛ ورحم مَنْ بيَّن مَخْرقتهم وكذبهم ومُحَالهم.

وقد كشف أيضاً حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرَّحمن بن علي بن أبي نصر الشَّاشي في كتاب «الرَّدُّ على الباطنية»، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده: ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدةٍ سماها: الإيضاح عن دعوة القدَّاح، أوَّلها: [الرجز]

حيَّ على مِصْر إلى خلع الرَّسَنْ ... فَثَمَّ تعطيلُ فروضٍ وسُنَنْ

وقال: لو وُفِّق ملوك الإسلام لصرفوا أعِنَّة الخيل إلى مصر لِغَزْو الباطنيَّة الملاعين، فإنهم من شَرِّ أعداء دين الإسلام، وقد خرجَت من حدِّ المنافقين إلى حدِّ المجاهرين، لما ظهر في ممالك الإسلام من كُفْرها وفسادها، وتعيَّن على الكافة فرضُ جهادها. وضرر هؤلاء أشدُّ على الإسلام وأهله من ضرر الكُفَّار؛ إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض، والله الموفق.

قلت: ثم إنّي لم يقنعني هذا من بيان أحوالهم، فأفردتُ كتاباً لذلك سميته

= المساجد»، «المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال»، «المستجار في الحديث»، «معرفة مذاهب الفقهاء» وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٦٨٣ ـ ٦٨٤، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٤٩ ـ ٤٦١).

Marfat.com

«كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد»، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به، فإني بتوفيق الله تعالى جمعتُ فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنِّفون وغيرهم. ووقفتُ على كتابٍ كبير صنَّفه الشريف الهاشمي رحمه الله، وكان في أيام الملقَّب بالعزيز ثاني خلفاء مصر، فبيَّن فيه أصولهم أتمَّ بيان، وأوضح كيفية ظهورهم وغَلَبتهم على البلاد، وتتبع ذكر فضائحهم، وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة، وبالله التوفيق.

وما أحسن ما قال فيهم من مدح بعض بني أيوب بقصيدة، منها: [الطويل]

أَلَسْتُمْ مزيلي دَوْلَة الكُفْر من بني ... عُبيدٍ بمصر إن هذا هو الفَضْلُ
زنادقةٌ شيعيَّة باطنيَّة ... مجوسٌ وما في الصَّالحين لهم أَصْلُ
يُسِرُّون كُفْراً يُظهرون تشيُّعاً ... ليستتروا شيئاً وعَمَّهُمُ الجَهْلُ

وما فعله هؤلاء من الانتساب إلى عليٍّ رضوان الله عليه، والتستر بالتشيُّع قد فعله جماعة القرامطة، وصاحب الزِّنج الخارج بالبَصْرَة، وغيرهم من المفسدين في الأرض على ما عَرَف مِنْ سيرهم مَنْ وقف على أخبار الناس، وكلُّهم كَذَبة في ذلك، وإنما غرضهم التقرُّب إلى العوام والجهال، واستتباعهم لهم، واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ولا يُغتر بأبيات الشَّريف الرَّضي[1] في ذلك، فقد حصل الجوابُ عنها في كتاب «الكشف» بوجوه حسنة، وبالله التوفيق.

---

(١) الشريف الرضي: هو محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم الموسوي، الشريف الرضي الشيعي، نقيب العلوية ببغداد، ولد سنة ٣٥٩هـ، وتوفي سنة ٤٠٦هـ. له من التصانيف: «أخبار قضاة بغداد»، «تلخيص البيان في مجازات القرآن»، «حقائق التنزيل في تفسير القرآن»، «خصائص الأئمة»، «ديوان شعره»، «الرسائل»، «الزيادات في شعر أبي إسحاق الصابي وشعر أبي تمام»، «طيف الخيال»، «كتاب الحسن من شعر الحسين» انتخبه من شعر ابن الحجاج، «كتاب المتشابه في القرآن»، «مجازات الآثار النبوية»، «نهج البلاغة من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه». وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ٦٠).

والأبيات التي أشار إليها المصنف أولها:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقول صارم وأنف حميُّ

ومنها:

ألبس الذل في ديار الأعادي ... وبمصر الخليفة العلويُّ
من أبوه أبي ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصيُّ =

Marfat.com

وقد صنَّف الشَّريف العابد الدِّمشقي[١] ـ رحمه الله ـ كتاباً في إبطال نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفصَّل ذلك تفصيلاً حسناً، وأطنب في ذكر أخبار إخوانهم من القرامطة، لعنهم الله تعالى.

فصل

في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة[٢]

قال ابن شداد: واستمرَّت القواعد على الاستقامة، وصلاح الدين كلَّما استولى على خزانة مال وهبها، وكلَّما فتح له خزائن ملك أنهبها، ولا يُبقي لنفسه شيئاً، وشرع في التأهُّب للغَزاة، وقصد بلاد العدو، وتعبئة الأمر لذلك، وتقرير قواعده.

[فتح نور الدين عرقة]

وأما نور الدين فإنه عزم على الغَزَاة، واستدعى صاحبَ المَوْصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته. وكانت غزوة عِرْقَة، فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه في المحرَّم سنة سبع وستين.

وقال ابن أبي طيّ: جمع نور الدين عساكره وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها أياماً حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها، وغنم الناس غنيمةً عظيمة.

[نكث الفرنج الهدنة مع نُور الدين]

قال ابن الأثير[٣]: خرجت مراكب من مصر إلى الشَّام، فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوءين من الأمتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا. فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه، وراسل الفرنج في ذلك، وأمرهم بإعادة ما أخذوه، فغالطوه، واحتجُّوا بأمورٍ، منها: أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسرٍ فيهما؛ وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلم يقبل مغالطتهم، وكان رضي الله

= لف عرقي بعرقه سيد النا س جميعاً محمد وعليُ

انظر الأبيات في ديوانه ٢/ ٩٧٢ ـ ٩٧٣، طبعة بيروت.

(١) هو محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، أبو الحسين، المعروف بأخي محسن. كان يسكن بباب توما، محلة بدمشق، توفي قبل سنة ٤٠٠هـ، (سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٧.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته، فلم يردُّوا شيئاً، فجمع العساكر من الشَّام والمَوْصِل والجزيرة، وبث السَّرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وأخرب رَبَضَه، وأرسل طائفةً من العسكر إلى حصني صافيثا وعُرَيمة، فأخذهما عَنْوَةً وكذلك غيرهما، ونهب وخرَّب، وغَنِمَ المسلمون الكثير، وعادوا إليه وهو بعِرْقة، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرِّب ويحرق وينهب. وأما الذين ساروا إلى أنطاكية، فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج، وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين، ويجدِّد معهم الهُدْنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لا يعطي الجزية حتى يُلْطَم، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن، فلَمَّا نُهبت بلادهم وخربت أعادوها.

قال: وكان لوالدي في المركبين تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسانٍ إلا اليسير. وكان يُحمل المتاع فكل من اسمه على ثوبٍ أخذه. وكان في النَّاس من يأخذ ما ليس له، وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانةٌ، وكان نصرانياً فلم يأخذ إلا ما عليه اسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا شيء كثير بهذا السبب. وكان الذي حصل من مالنا أكثر من الذي حصل له، فلما عاد إلينا سلَّم الذي لنا إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال: خُذْ أنت الجميع، فإنك أحوج إليه، وأنا في غنى عنه. فلم يفعل، فقال: خذ النِّصف وأنا النِّصف. واجتهد به والدي فلم يفعل. فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام ومعه عِدَّة من الأثواب السوسي وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد حضر اليوم. وسبب حضوره أن إنساناً فُقّاعياً[1] من أهل تِبْريز كان معنا في المركب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها، فلم يسهل عليه يردها ـ يعني عليهم ـ وسأل عني وقد قصدني، وهي معي، وحضر عندي السَّاعة وسلَّمها إليَّ، وقال: قد تركت طريقي لتبرأ ذمَّتي. فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد، وطلب والدي الرجل، وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالاً يتَّجر فيه، فلم يفعل، وعاد إلى بلده. قال: وهذان رجلان نادران في هذا الزمان.

---

(١) الفقّاعي: نسبة إلى عمل الفقاع وبيعه، وهو شراب يتخذ من الشعير، سمي به لما يعلوه من الزبد.

Marfat.com

فصل

في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قال العماد: وكان صلاح الدين واعده نورُ الدين أن يجتمعوا على الكَرَك والشَّوْبك يتشاوران فيما يعود بالصَّلاح المشترك، فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المُحرَّم، بالعزم الأجزم، والرأي الأحزم. فاتفق للاجتماع عائق، ولم يُقدر للاتفاق قَدَرٌ موافق، فلقي في تلك السَّفْرة شِدَّة، وعَدِم خيلاً وظهراً وعُدَّة، وعاد إلى القاهرة في النِّصف من ربيع الأول.

وقال ابن الأثير[1]: وفي سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نُفْرَةَ نور الدين من صلاح الدين. وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية، والمسير بها إلى بلاد الفرنج، والنزول على الكَرَك ومحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج، والاستيلاء على بلادهم. فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرَّم، وكتب إلى نور الدين يُعَرِّفه أن رحيله لا يتأخر. وكان نور الدين قد جَمَعَ عساكره وتجهَّز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو. فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكَرَك، فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البُعْد عنها، فعاد إليها. فلم يقبل نور الدين عُذْرَه.

وكان سبب تقاعده أنَّ أصحابه وخواصَّه خوَّفوه من الاجتماع بنور الدين. فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه، وعَظُمَ عنده، وعزم على الدُّخول إلى مصر، وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله، وفيهم والده نجم الدين، وخاله شهاب الدين الحارِمي، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قَصْده وأخذ مصر منه، واستشارهم، فلم يجبه أحد منهم بشيء. فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد. ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه ـ وكان ذا رأي ومكر، وكيد وعقل ـ وقال لتقي الدين: اقعد. وسَبَّه وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك،

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٥ ـ ٣٦: ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً.

Marfat.com

أَتظنُّ في هؤلاء كلِّهم مَنْ يحبُّك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا. فقال: والله لو رأيتُ أنا وهذا خالك نورَ الدين لم يمكِنَّا إلا أن نترجَّل إليه، ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسَّيف لفعلنا. فإذا كنَّا نحن هكذا كيف يكون غيرنا! وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحدَه لم يتجاسر على الثَّبات على سَرْجه، ولا وسِعَه إلا النُّزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأيّ حاجة به إلى المجيء؟ يأمرك بكتاب مع نجَّاب حتى تقصد خدمته، ويولِّي بلاده من يريد. وقال للجماعة كلِّهم: قومُوا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد. فتفرَّقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة؛ تجمع هذا الجمع الكثير، وتُطلِعُهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازمٌ على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه، وأولاها بالقَصْد، ولو قصدك لم تَرَ معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه. وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبُون إليه ويعرِّفونه قولي، وتكتب أنت إليه، وترسل في هذا المعنى وتقول: أيّ حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي. فهو إذا سمع هذا عَدَل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده، والأيام تَنْدرج، والله كل وقت في شأن.

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده. فلما رأى نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين؛ توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

فصل

في الحَمَام

قال ابن الأثير[1]: وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نورُ الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده.

وكان سبب ذلك أنه اتَّسعت بلاده وطالت مملكته، فكانت من حد النَّوْبة إلى

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٨.

Marfat.com

باب هَمَذان، لا يتخلَّلها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج ـ لعنهم الله ـ ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض. فحينئذٍ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده، وأجرى الجرايات لها ولمربِّيها؛ فوجد بها راحةً كبيرة. كانت الأخبار تأتيه لوقتها، لأنه كان له في كل ثَغْر رجالٌ مرتَّبون، ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأَوْا أو سمعوا أمراً كتبوه لِوَقْته، وعلَّقُوه على الطائر، وسرَّحوه، فيصل إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرُّقْعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه. فانحفظت الثُّغور بذلك، حتى إن طائفةً من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثَّغْر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكَبْس العدوّ، ففعلوا ذلك، فظفروا والفرنج قد أمِنوا لبُعْد نور الدين عنهم. فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد.

وقال العماد: وكان نور الدين لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصَّيف محافظةً على الثغر، وصَوْناً من الحَيْف، ليحمي البلاد من العدوّ بالسَّيف، وهو متَشوِّف إلى أخبار مصر وأحوالها، وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها. فرأى اتِّخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران، لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان. وتقدَّم إليَّ بكتب منشور لأربابها، وإعزاز أصحابها، وهو حينئذٍ بظاهر دمشق، مخيِّم بوادي اللَّوَّان، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادُون على أهل العُدْوان، وذلك في سابع عشر ذي القَعْدة من السنة.

ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام، فقال: هي برائد الأنباء، المخصوصات بفضيلة الإلهام والإيحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الإبطاء، والسابقات الهُوج في الاهتداء، والحاملات مُلطَّفات الأسرار في أقرب مُدَّة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمَّات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القِفار والمَوَامي[1]، والنَّافذات بنُجْح المرام بعود السِّهام إلى المرامي. وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعة، وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتمّ استطاعة. وقد عَمَّ بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله، في إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالَّةً على مكايدها ومكامنها، طائرة بكتبهم إلى مَنْ

(١) الموامي: جمع موماة، وهي الفلاة التي لا ماء فيها ولا أنيس بها.

Marfat.com

وراءهم من الطَّلائع والسَّرايا، مظهرةً لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا. وإنها لميمونة المطار، مأمونة العِثار، سالمة على الأخطار، مَهْدِيَّة في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرةً بالأوطار، سائرة إلى المؤمنين بنبأ الكُفَّار.

قلت: وكل هذه أوصاف حسنة، وعبارات مستحسنة. وقد بلغني عن القاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف وأخصر فقال: الطُّيور ملائكة الملوك. يشير إلى أن نزولها على الملوك من جَوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء مع فرط ما فيها من الأمانة، لا يتوهَّم من جهتها خيانة. فلقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف. رحم الله الجميع.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

[إسقاط صلاح الدين المكوس بمصر]

قرأتُ نسخة سجل بإسقاط المكوس بمصر، قُرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصَّلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة، عن السُّلْطان الملك النَّاصر في أيام نور الدين رحمه الله، فهو كان الآمر وذاك المباشر، يقول فيه:

أما بعد، فإنا نحمد الله سبحانه على ما مكَّن لنا في الأرض، وحسَّنَه عندنا من أداء كلِّ نافلة وفَرْض، ونصَبنا له من إزالة النَّصَب عن عباده، واختارنا له من الجهاد في الله حقَّ جهاده، وزهَّدنا فيه من متاع الدُّنيا القليل، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النَّقير والفتيل[1]، وأولانا من شجاعة السماحة، فَيَوْماً نَهَبُ ما اشتملت عليه الدَّواوين، ويوماً نقطع ما سقاه النِّيل. فالبشائر في أيَّامنا تترى، شفعاً وَوِتْراً، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع، وأسخطت الخيمة والصّناعة

(١) النقير: النكتة في ظهر النواة، يضرب بها المثل للشيء الطفيف الصغير، والفتيل: السحاة (أي ما يقشر) التي في شق النواة، يضرب بها المثل للتافه الحقير.

وأرضتِ المنبر والجامع، ولما تقلّدت أمور الرَّعية رأينا المكوس الدِّيوانيَّة بمصر والقاهرة، أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدُّنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرَّد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهِّر منها مكاسبنا، ونصون عنها مطالبنا، ونكفي الرَّعيَّة ضَرَّهم الذي يتوجَّه إليهم، ونَضَعُ عنهم إِصْرَهُم والأغلالَ التي كانت عليهم، ونعيدها اليوم كأمس الذَّاهب، ونضعها فلا ترفعها من بعدُ يد حاسب، ولا قلم كاتب. فاستخرنا الله وعَجِلنا إليه ليرضى، ورأينا فُرْصَة أجر لا تغض عليها بصائرُ الأبصار ولا تُغضى؛ وخرج أمرنا بكَتْب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المتردِّدين إليهما، وإلى ساحل المقسم، والمنية، بأبواب المكوس صادرها ووارِدها، فَيَرِدُ التَّاجر ويُسفر، ويغيب عن ماله ويحضر، ويقارض ويتجر برًّا وبحراً، مركباً وظهراً، سرّاً وجهراً، لا يحلُّ ما شَدَّه، ولا يُحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عمَّا أورده وأصدره، ولا يُستوقف في طريقه، ولا يَشْرَقُ بِريقه، ولا يُؤخذ منه طُعْمة، ولا يُستباح له حُرمة. والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العَيْن مائة ألف دينار، مسامحة لا يتعقَّبها تأويل، ولا يتخوَّنها تحويل، ولا يعْتريها زوال، ولا يعْتورُها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة ما قام دين القَيِّمة، مَنْ عارضها رُدَّت أحكامه، ومن ناقضها نُقِضَ إبرامه، ومنْ أزالها زلَّت قدمه، ومن أحالها حَلَّ دَمُه، ومن تعقبها خُلِّدت اللَّعنة فيه وفي عَقِبه، ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الَّذي هو من حَطَبه. فمن قرأه، أو قُرئ عليه من كافَّة ولاة الأمر مِنْ صاحب سيف وقلم، ومشارف أو ناظر، فليَمتثل ما مثل من الأمر، ولْيُمْضِه على ممرُ الدَّهْر، مُرضياً لربِّه، ممضياً لما أُمر به.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو بكر يحيى بن سَعْدون القُرْطُبي المقرئ النَّحْوي[1]، وهو نزيل المَوْصِل، رحمه الله.

---

(١) هو صائن الدين أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي المالكي، ولد بقرطبة سنة ٤٨٧هـ (كذا في كشف الظنون، وفي سير أعلام النبلاء ووفيات الأعيان ولد سنة ٤٨٦هـ)، وقدم إلى المشرق في عنفوان شبابه، وأقام بدمشق مدة، واستوطن الموصل، كان بارعاً في العربية، بصيراً بعلل القراءات، وافر الحرمة، ديناً خيراً، تخرج به الأئمة، وهو شيخ بهاء الدين بن شداد صاحب «النوادر السلطانية»، وابن عساكر مؤرخ دمشق، توفي بالموصل سنة ٥٦٧هـ (كشف الظنون ٦/ ٥٢١، وفيات الأعيان ٦/ ١٧١ ـ ١٧٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٤٦ ـ ٥٤٨).

Marfat.com

وفيها ولد العزيز[١] والظَّاهر[٢] ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين[٣].

وفيها في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نَصْر بن عبد الله الإسكندري، المعروف بابن قَلاقِس الشَّاعر[٤]، بعَيْذَاب، ومولده بالإسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره نحواً من خمسٍ وثلاثين سنة.

---

(١) هو عثمان بن يوسف بن شاذي، الملك العزيز، عماد الدين، ابن الملك الناصر، ولد سنة ٥٦٧هـ، بمصر، ملك بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٩هـ، وتوفي ليلة الأحد عشرين محرم، سنة ٥٩٥هـ، وكان سنه سبعاً وعشرين سنة وشهوراً، ومدة ملكه ست سنين إلا شهراً (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٣٥ ـ ٢٥١، وانظر ترجمته أيضاً في: مرآة الزمان ٨/ ٤٦٠، مفرج الكروب ٣/ ٨٢، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٥هـ، وفيات الأعيان ٢/ ٤١٤، البداية والنهاية ١٣/ ١٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٧٨، النجوم الزاهرة ٦/ ١٢٠، شذرات الذهب ٤/ ٣١٩).

(٢) هو غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي، الملك الظاهر، غياث الدين، ابن الملك الناصر الأيوبي، صاحب حلب، ولد النصف رمضان سنة ٥٦٨هـ، بمصر، كان مهيباً، ذا سياسة وفطنة، حضر معظم غزوات والده، وضم أكابر الأمراء بعهده، وهو الذي جمع شمل البيت الأيوبي، توفي في الخامس والعشرين جمادى الأولى، سنة ٦١٣هـ (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٥٢ ـ ٢٥٥، وانظر ترجمته أيضاً في: مرآة الزمان ٨/ ٥٧٩، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٣هـ، مفرج الكروب ٣/ ٢٣٧، البداية والنهاية ١٣/ ٧١، النجوم الزاهرة ٦/ ٢١٧، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٣٤ ـ ٣٧٠، كنز الدرر ٧/ ١٨٤، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٤٢، شذرات الذهب ٥/ ٥٥).

(٣) هو محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، الملك المنصور ابن الملك المظفر، صاحب حماة، كان في خدمته قريب مائتي متعمم من النحاة والفقهاء وغيرهم، صنف عدّة مصنفات، مثل «المضمارة» في التاريخ، و«طبقات الشعراء»، توفي في ذي القعدة سنة ٦١٧هـ، وقيل: سنة ٦١٦هـ، وعمره خمسون سنة وشهور (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٧هـ، فوات الوفيات ٤/ ٤٩٨، الوافي بالوفيات ٤/ ٤٥٩، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٩، مفرج الكروب ٤/ ٧٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٠، البداية والنهاية ١٣/ ٩٣، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٥٠).

(٤) ابن قلاقس الشاعر: هو أبو الفتوح القاضي نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس الإسكندري، الأديب الأزهري، سافر إلى صقلية ثم إلى اليمن، توفي راجعاً بعيذاب (شاطئ جدة) سنة ٥٦٧هـ، وقد ذكره الجلال السيوطي في حسن المحاضرة وسماه نصير الدين بن عبد الله، والصحيح هو الأول، كما قاله ياقوت الحموي في معجم البلدان، والقاضي شمس الدين بن خلكان في وفيات الأعيان، وقد سماه في خريدة القصر، وفي الأعلام للزركلي: نصر بن عبد الله، بدل: نصر الله بن عبد الله، من تصانيفه: «ديوان شعره» مشهور، «روضة الأزهار» في الأدب، «الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم» من أمراء صقلية (كشف الظنون ٦/ ٤٩٢، «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٤٥، ١٤٦، وفيات الأعيان ٥/ ٣٨٥ ـ ٣٨٩، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٤٦، الأعلام ٨/ ٢٤ ـ ٢٦).

Marfat.com

[وفاة ملك النحاة الحسن بن صافي]
ثم دخلت سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة

ففيها توفي ملك النُّحاة الحسن بن صافي[١].

وفيها ترتب العماد الكاتب مشرفاً بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الإنشاء.

قال: وكان نور الدين ذكياً ألمعياً، فَطِناً لَوْذعياً، لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال.

[تسيير صلاح الدين تحفاً
وهدايا من خزائن العاضد إلى نور الدين]

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سَيَّر منها عِدَّة من الأمتعة المستحسنة، والآلات المثمنة، وقطع البِلَّوْر واليَشَم[٢]، والأواني التي لا يُتصوَّر وجودُها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البَلَخْش[٣]، أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقَرَنَ بها من اللآلئ مصونها ومكنونها، وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات ما لا يجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطِّيب والعطر ما لم يخطر ببال عَطَّار، فشكر نور الدين هِمَّته، وذكر بالكرم شِيمَتَهُ، ووصف فضيلته، وفضَّل صفته، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدُّ به خَلَّة الإقلال، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا إلى الذَّهب فقر، وما

---

(١) هو الحسن بن صافي بن عبد الله بن نزار البغدادي الشافعي، أبو نزار المعروف بملك النحاة الأديب ولد في بغداد سنة ٤٨٩هـ، دار البلاد أربعين سنة ورجع وسكن وتوفي بدمشق سنة ٥٦٨هـ، ودفن في مقبرة الباب الصغير، كان من كبار النحاة في عصره، لقب نفسه بملك النحاة، وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٢٧٩، «خريدة القصر» قسم شعراء العراق مجلد الأول، الجزء الثالث صفحة ٨٩ ـ ١٣٧، معجم الأدباء ٨/ ١٢٢ ـ ١٣٩، إنباه الرواة ١/ ٣٠٥، ٣١٠، وفيات الأعيان ٢/ ٩٢ ـ ٩٤، أعيان الشيعة ٥/ ١١٥ ـ ١١٨).

(٢) اليشم بسكون الشين، من الأحجار قريب من الزبرجد، لكنه أكثر شفافية وصفاءً منه، وألوانه: أبيض وأصفر وزيتي وهو أفضلها، وقال في الوسيط: اليشم، بسكون الشين، مصطلح عام يشمل مجموعة من المعادن الصلدة التي تتدرج ألوانها من الأبيض إلى الأخضر الداكن (الوسيط: ص١٠٦٥).

(٣) البلخش: من المعادن، تقدم التعريف به في هذا الجزء.

لهذا المحمول في مقابلة ما جُدْنا به قدر، وتمثَّل بقول أبي تَمَّام[١]: [البسيط]

لم يُنفِقِ الذَّهَبَ المُرْبي بِكَثْرَتِه على الحَصَى وبه فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ

لكنه يعلم أن ثغورَ الشَّام مفتقرة إلى السَّداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عَمَّ بالفرنج بلَاءُ البلاد؛ فيجب أن يقع التَّعاقد على الإمداد بالمعونة، والمعونة بالإمداد.

فاستنزره وما استغزره، واستقلَّ المحمول في جَنْبِ ما حرَّره، وتروَّى فيما يُدَبِّره، وأفكر فيما يقدِّمه من هذا المهمِّ ويؤخِّره.

قال ابنُ أبي طيّ: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، وجرَّد الموفق بن القَيْسَراني وزيره إلى مصر، وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها[٢]، وأين صُرفت أموالها، فإذا حصل جميع ذلك قَرَّر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة. وعَظُم على نور الدين أمر مصر، وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعِد، وأكثر في مراسلته في حمل الأموال. حدَّثني أبي قال: لم يَخْفَ حالُ نور الدين في كراهية الملك النَّاصر، ولقد علم ذلك جميعُ الأجناد والأمراء، وتحدَّث به العوام، ولا سيما حين أنفذ هذه الهدية. واشتدَّ بعد ذلك في مراسلته، وأنفذَ ابن القيسراني لكشف الأحوال، ولو طال عمره لم يكن له بدٌّ من الدخول إلى مصر.

قال العماد: وكان نور الدين مُذْ مُلكت مصر، وتوجَّه له فيها النَّصْر، يؤثر أن يُقَرَّرَ له فيها مالٌ للحمل، يستعين به على كُلَف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل، والأيام تماطله، والأعوام تطاوله، وهو ينتظر أنَّ صلاح الدين يبتدئ من نفسه بما يريده، وهو لا يستدعي منه ولا يستزيده. فلما حمل من أخاير الذَّخائر والمال الحاضر ما حمله، وعرف مجمله ومفصَّله، تقدَّم إلى الموفق خالد بن القَيْسَرانيّ أنْ يمضي، ويطالب ويقتضي، ويعمل أيضاً بالأعمال المصرية جُزَازة، ولا يبقي في نفوس ديوانه من أمرها حَزَازة، وأرسل معه الهدايا، والتُّحف السنايا، وأقام العماد مقامه في ديوانه الاستيفاء[٣]، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الإنشاء. ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

---

(١) البيت في ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ١/ ٦٦.

(٢) ارتفاعها: أي خراجها.

(٣) ديوان الاستيفاء: وعلى رأسه يكون المستوفي، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله وضبطها وتحديد مواعيدها (التعريف بمصطلحات الصبح ص٣١٠).

قال العماد: وخرج صلاح الدين في النصف من شَوّال ومعه الفيل، والحمارة العَتّابية[١]، والذخائر النفيسة التي كان انْتَخَبها من خزائن القصر، وهي معدودة من محاسن العصر، وقد سبق ذكر تسييرها إلى نور الدين، وقُوبلت بالإحسان والتحسين. ووصلت الحمارة وكَثُرَت لها النظارة. وأما الفيل فإنه وصل إلينا في سنة تسعٍ وستين ونحن بحلب بالميدان الأخضر، وأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدينَ غازي صاحب الموصل مع شيء من تُحفة الثياب والعود والعنبر. ثم سيَّره سيف الدين غازي إلى بغداد هدية للخليفة، مع ما سيَّره معه من التُّحف اللطيفة، وسَيَّر نور الدين الحمارة العتابية إلى بغداد مع هدايا وتُحَف سنايا.

فصل

في جهاد السُّلْطانين للفرنج في هذه السنة

قال العماد: ونزل صلاح الدين على الكَرَك والشَّوبَك وغيرهما من الحصون فَبرَّح بها، وفرَّق عنها عَرَبها، وخَرَّب عماراتها، وشنَّت على أعمالها سراياه بغاراتها.

ووصل منه كتابٌ بالمثال الفاضلي: سَبَبُ هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل، أعزَّ الله سلطانه، ومدَّ أبداً إحسانه، ومكن بالنَّصْر إمكانه، وشَيَّد بالتأييد مكانه، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه، علم المملوك بما يؤثرُه المولى بأن يقصد الكُفَّار بما يَقُصُّ أجنحتهم، ويفلِّلُ أسلحتهم، ويقطع موادَّهم ويخرِّب بلادهم. وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومُه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحدٌ من العُزبان، وأن ينتقلوا من ذُلِّ الكُفْر إلى عِزِّ الإيمان. ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد، وعَدَّه من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم، إلى أن صار العدوُّ اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يَهْتَدي سبيلاً.

ثم: ذكر باقي الكتاب.

قال ابنُ شدَّاد: وهذه أوَّلُ غزوة غزاها صلاح الدين من الدِّيار المصرية.

---

(١) الحمارة العتابية: نوع من حمر الوحش المخططة نسبة إلى العتابيين، إحدى محال بغداد في الجانب الغربي منها، اشتهرت بالنسيج المخطط، ومن ثم كان هذا النوع من الحمير يوصف بالعتابي تشبيهاً له بهذا النسيج (وفيات الأعيان ٤/ ٣٨٩)، وقال القلقشندي في صبح الأعشى: الحمارة العتابية هي حيوان في صورة البرذون موشّى الجلد بالبياض والسواد يروق الناظر حسنها (صبح الأعشى ٢/ ٤٧).

Marfat.com

وإنما بدأ ببلاد الكَرَك والشَّوْبَك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطَّريق تمنع من يقصد الديارَ المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يُعَبِّرها بلاد العدوّ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتَّصل البلاد بعضها بعض، وتسهل على السَّابلة، فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمانٍ وستين، فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الدَّفعة؛ وحصل ثوابُ القصد. وأمّا نور الدين فإنَّه فتح مَرْعَش في ذي القعدة من هذه السنة، وأخذ بَهَسْنى في ذي الحِجَّة منها.

وقال العماد: حضرتُ عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر، ووجهُه بنُور البِشْر قد سَفَر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورِقَّة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكلٌّ منا يمدَحُها، وبحبِّه يمنحُها، وكل منا يُطْريها، فقال نور الدين: أنا حُبُّ الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال، فقلت[1]: [مجزوء الرمل]

ليس في الدُّنيا جميعاً ... بَلْدَةٌ مِثْلُ دمشقِ
ويُسَلِّيني عنها ... في سبيلِ اللَّهِ عِشقي
والتُّقى الأَصْلُ ومن يتـ ... ـركها يَشْقَى ويُشْقي
كم رشيقٍ شاغِلٌ عنـ ... ـه بِسَهْمِ الغَزوِ رَشْقي
وامْتِشاقُ البيضِ يُغْني ... عنه بالأقلامِ مَشْقي

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبيتيات في معنى الجهاد على لسانه، فقلت[2]: [الدوبيت]

للغَزْوِ نشاطي وإليه طَرَبي ... مالي في العيش غَيْرَه من أَرَبِ
بالجدِّ وبالجهاد نُجْحُ الطَّلَبِ ... والرَّاحة مُسْتَوْدَعَةٌ في التَّعَبِ

وقُلْتُ أيضاً[3]: [الدوبيت]

لا راحة في العيش سوى أن أغزو ... سَيْفِي طَرَباً إلى الطُّلى يهتزُّ
في ذُلِّ ذوي الكُفْرِ يكونُ العِزُّ ... والقُدْرَةُ في غيرِ جهادٍ عَجْزُ

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ص١٧ ـ ١٨.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ص٤٣.
(٣) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ص٤٢ ـ ٤٣.

Marfat.com

وقلتُ أيضاً[١]: [الدوبيت]

أقسمتُ سوى الجهاد مالي أَرَبُ والرَّاحةُ في سواه عندي تَعَبُ
إلا بالجِدِّ لا يُنالُ الطَّلَبُ والعَيْشُ بلا جِدٍّ جهادٍ لَعِبُ

[محاولة الفرنج الإغارة على زرا وخروج نور الدين لدفعهم عنها]

قال: واتَّفق خروج كلب الرُّوم اللَّعين في جنود الشياطين، يقصد الغارة على زُرَّا من ناحية حَوْران، وهم في جمع غلبت كثرته الخُبْر والعِيان، ونزلوا بقريةٍ تعرف بشمسكين. فركب نور الدين وهو نازل بالكُسْوة إليهم، وأقدم بعساكره عليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفؤار، ثم إلى السَّواد، ثم نزلوا بالشَّلالة، ونزل نور الدين عَشْتَرا، وقد سَرَّه ما جرى؛ فأنفذ سَرِيَّة إلى أعمال طبريَّة، واغتنم خلوَّها، فأدلجت تلك الليلة وحمدت في شنِّ الغارة غدوَّها، فلما عادت لَحِقَها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشُّجعان، وثبتَ من ثَبَّته الإيمان، حتى عبرت السَّرِيَّة، وانفصلت تلك القضيَّة. ورحل نور الدين من عَشْتَرا، فنزل بظاهر زُرَّا.

قال العماد: وكنتُ راكباً في لقائهم مع الملك العادل وهو يقول لي: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة، منها[٢]: [الكامل]

عُقِدَتْ بِنَصْرِكَ رايةُ الإيمانِ وبَدَتْ لِعَصْرِكَ آيةُ الإحسانِ
يا غالبَ الغُلْبِ الملوكِ وصائِدَ الصُّـ (م) ـيدِ اللُّيوثِ وفارِسَ الفُرْسانِ
يا سالبَ التِّيجانِ مِنْ أرْبابِها حُزْتَ الفَخارَ على ذوي التِّيجانِ
محمودُ المحمودُ ما بَيْنَ الورى في كلِّ إقليمٍ بكلِّ لِسانِ
يا واحداً في الفَضْلِ غيرَ مُشارَكٍ أقسمتُ مالَكَ في البَسِيطَةِ ثاني
أحلى أمانيك الجهادُ وإنَّه لك مُؤْذِنٌ أبداً بِكُلِّ أمانِ
كم بِكْرِ فَتْحٍ وَلَّدَتْهُ ظُباكَ من حَرْبٍ لِقَمْعِ المُشْرِكينَ عَوانِ
كم وقعةٍ لك بالفِرَنْجِ حَدِيثُها قد سارَ في الآفاقِ والبُلْدانِ
قَمَّصْتَ قُومَصَهُم رداء من ردًى وقَرَنْتَ رأسَ بِرِنْسِهِمْ بِسِنانِ
وَمَلَكْتَ رِقَّ مُلوكِهم وتَرَكْتَهُمْ بالذُّلِّ في الأقْيادِ والأَسْجانِ

(١) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ص٤٢ ـ ٤٣.
(٢) انظر القصيدة في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص٥٤ ـ ٦٢.

Marfat.com

وجَعَلْتَ في أَعْنَاقِهِم أَغْلَالَهُمْ ... وسَحَبْتَهُمْ هُوناً على الأَذْقَانِ
إذْ في السوابغِ تُحْطَمُ السُّمْرُ القَنَا ... والبِيضُ تُخْضَبُ بالنَّجِيعِ القَانِي
وعلى غِنَاءِ المَشْرَفِيَّةِ في الطُّلَى ... والهَامِ رَقْصُ عوالِيَ المُرَّانِ
وكأنَّ بينَ النَّقْعِ لَمْعَ حَدِيدِها ... نارٌ تَأَلَّقُ من خِلالِ دُخَانِ
في مَأزِقٍ وِرْدُ الوَرِيدِ مُكَفَّلٌ ... فيه بِرِيِّ الصَّارِمِ الظَّمْآنِ
غَطَّى العَجَاجُ به نجومَ سمائِهِ ... لتنوبَ عنها أنْجُمُ الخُرْصَانِ
أوَ ما كَفاهُمْ ذاك حتى عاودوا ... طُرُقَ الضَّلال ومركبَ الطُّغْيانِ
يا خيبةَ الإفرنجِ حين تجمَّعُوا ... في حَيْرة وأَتَوْا إلى حَوْرَانِ
وجَلَوْتَ نورَ الدين ظُلْمَةَ كُفْرِهم ... لمَّا أتيتَ بواضحِ البُرْهَانِ
وهَزَمْتَهُمْ بالرَّأي قَبْلَ لِقَائِهِمْ ... والرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ(١)
أَصْبَحْتَ للإسْلامِ رُكْناً ثابتاً ... والكُفْرُ مِنْكَ مُضَعْضَعُ الأَرْكَانِ
قَوَّضْتَ أساسَ الضَّلالِ بِعَزْمِك الـ ... ـمَاضي وشِدْتَ مبانيَ الإيمانِ
قُل أينَ مثلُك في الملوك مجاهدٌ ... لله في سِرٍّ وفي إعلانِ
لم تَلْقَهم ثِقَةً بقُوَّةِ شَوْكَةٍ ... لكِنْ وَثِقْتَ بنُصْرَةِ الرَّحمانِ
ما زال عَزْمُكَ مستقلاً بالذي ... لا يَسْتَقِلُّ بِثِقْلِهِ الثَّقلانِ
وبَلَغْتَ بالتَّأْييد أقْصَى مَبْلَغٍ ... ما كانَ في وُسْعٍ ولا إمكانِ
دانَتْ لك الدُّنيا فقاصيها إذا ... حقَّقْتَه لنفاذِ أمرك داني
فمن العراق إلى الشَّآم إلى ذُرا ... مِصْرٍ إلى قُوص إلى أُسْوانِ
لم تَلْهُ عن باقي البلاد وإنما ... ألهاك فَرْضُ الغزو عن هَمَذَانِ
للرُّوم والإفرنج منك مصائبٌ ... بالتُّرك والأكراد والعُرْبانِ
أذْعَنْتَ لله المهيْمن إذْ عَنَتْ ... لك أوْجُهُ الأملاكِ بالإذْعانِ
أنتَ الذي دونَ الملوكِ وَجَدْتُه ... ملآن من عُرْفٍ ومن عِرْفانِ
في بَأْس عمرٍو في بسالة حَيْدَرٍ ... في نُطْقِ قُسٍّ في تُقَى سَلْمانِ
سِيَرٌ لو أنَّ الوحي يَنْزِل أُنزلت ... في شأنها سُوَرٌ مِنَ القُرْآنِ
فاسلمْ طويلَ العُمْر ممتدَّ المدى ... صافي الحياة مُخَلَّدَ السُّلْطَانِ

---

(١) عجز هذا البيت مأخوذ من مطلع قصيدة للمتنبي:
الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني
انظر ديوان المتنبي ٢/ ١٧١ (طبعة دار الكتب العلمية).

Marfat.com

وهي قصيدة طويلة، وصف فيها أمراءه الحاضرين الجهاد معه، ومدحهم.

فصل

في فتح بلاد النُّوبة(١)

قال العماد: وفي جُمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب(٢)، أخو صلاح الدين، بلاد النُّوبة، وأراهم سُطاه المرهوبة، وفتح حِصْناً لهم يُعرف بإبريم، وآلى ألا يريم؛ وهي بلادٌ عديمة الجدوى، عظيمة البَلْوى، ثم جمع السَّبْي، وعاد به إلى أُسْوان، وفَرَّقَ على أصحابه في الغنائم السُّودان.

وقال ابنُ أبي طيّ الحلبي: وفي هذه السنة اجتمعَ السُّودان والعبيد من بلاد النُّوبة، وخرجوا في أُمم عظيمة قاصدين مُلْكَ بلاد مِصْر، وصاروا إلى أعمال الصَّعيد، وصَمَّموا على قَصْدُ أُسْوان وحصارها، ونَهْبِ قراها. وكان بها الأمير كَنْز الدَّولة، فأنفذ يُعلم الملك النَّاصر، وطلب منه نجدةً، فأنفذ قِطْعَةً من جيشه مع الشجاع البَعْلَبَكي. فلما وصل إلى أُسْوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخْرَبوا أرضها، فاتَّبعهم الشجاع والكَنْز، فجرت حربٌ عظيمة قُتل فيها من الفريقين عالم عظيم.

ورجع الشُّجاع إلى القاهرة، وأخبر بفعال العبيد، وتمكُّنِهِم، من بلاد الصَّعيد، فأنفذ الملك النَّاصر أخاه شمسَ الدوْلة في عسكرٍ كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النُّوبة، فسار قاصداً بلادهم، وشَحَن مراكب كثيرةً في البحر بالرِّجال والمِيرة، وأمَرها بلحاقه إلى بلاد النُّوبة. وسار إليها ونزل على قلعة إبريم، وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغَنِمَ جميع ما كان فيها من المال والكُراع والميرة، وخلَّص جماعةً من الأسرى، وأسَرَ مَنْ وجده فيها، وهرب صاحبها.

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٤٥ ـ ٤٦: ذكر مسير شمس الدولة إلى بلاد النوبة.

(٢) هو الملك المعظم توران شاه (ومعناه ملك الشرق)، ابن أيوب بن شاذي، شقيق صلاح الدين، وأكبر إخوته، وكان السلطان يحترمه ويرجحه على نفسه، وكان في نفسه من الملك، ويرى أنه أحق من أخيه، أغزاه أخوه النوبة في جمادى الأولى سنة ٥٦٨هـ، ليفتحها فوجدها لا تساوي التعب، فرجع منها بغنائم كثيرة. والسبب في ذلك أن صلاح الدين كان يخشى أن يخرجه نور الدين من مصر، فأراد أن يحصل بلداً يلتجئ إليه عند الخوف، فلم تعجبهم النوبة، فسيّره إلى اليمن بعد أن استأذن نور الدين، توفي تورانشاه بالإسكندرية في صفر سنة ٥٧٦هـ. (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٥٠ ـ ٥٥، وانظر ترجمته أيضاً في: مرآة الزمان ٨/ ٣٦٢، وفيات الأعيان ١/ ٢٧٣، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٨٧، تاريخ أبي الفداء ٥/ ٨٤، شذرات الذهب ٤/ ٢٥٥).

Marfat.com

وكتب إلى السُّلْطان بذلك، فأنشد السُّلْطانَ أبو الحسن بن الذَّرَوي[1] يهنيه بفتح إبريم قصيدةً، منها: [السريع]

فَقَدِّمِ العَزْمَ فذا مُبْتَداه ... يَقْصُر مُلْكُ الأرضِ عن منتهاهْ
واسْحَبْ ذيولَ الجيشِ حتى ترى ... أنجمَه طالعةً عَنْ دُجاهْ
سواكَ من ألقى عَصاه بها ... قناعةً لمَّا استقرَّت نَوَاهْ
عليكَ بالرُّومِ وَدَعْ صاحبَ التَّـ ... (م) ـاج إذا شئتَ وتُورانشاهْ
فقد غَدَت إبريمُ في مُلكه ... تُبرم أمراً فيه كَبْتُ العُداهْ
لا بُدَّ للنُّوبة من نَوْبَةٍ ... تُرضي لسخط الكُفْرِ دينَ الإلهْ
تظلُّ من نوبة منسوبةً ... لعَزمةٍ كامنةٍ في أناهْ
تَكْسُو الغُزَاة القاطِني أرضها ... ما نَسَجَتْ للحَرْبِ أيدي الغُزاهْ
سودٌ وتحمرُّ الظُّبى حولَها ... كأعينِ الرُّمْدِ بَدَت للأُساهْ
أوْ لَا فَسُمْرٌ يحتميها القَنا ... مثل دِنَانٍ بزلتها السُّقاهْ
للَّهِ جَيْشٌ منك لا يَنْثني ... إلا بنصل دَمِيَتْ شَفْرتاهْ
ما بين عِقْبان ولكنَّها ... خيلٌ وفُرْسان كَمِثْلِ البُزَاهْ
آسادُ حَرْبٍ فوقَ أيديهمُ ... أساود الطَّعْنِ فهم كالحُوَاهْ
تقلَّدوا الأنهار واستلأموا الـ ... ـغُدْران فالنِّيران تجري مياهْ

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أُسوان ثم إلى قُوص، وكان في صحبته أمير يقال له إبراهيم الكُرْدي، فطلب من شمس الدَّوْلة قلعة إبريم، فأقطعه إياها، وأنفذ معه جماعةً من الأكراد البَطَّالين، فلما حصلوا فيها تفرَّقُوا فِرَقاً. وكانوا يشنُّون الغارة على بلاد النُّوبة حتى بَرَّحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عَفَتْ أرزاقهم وكثرت مواشيهم. واتَّفق أنهم عَدُّوا إلى جزيرة من بلاد النُّوبة تعرف بجزيرة دندان، فغرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي منهم إلى قلعة إبريم، وأخذوا جميع ما كانوا فيها، وأخلَوْها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النُّوبة إليها وملكوها.

وأنفذ ملك النُّوْبة، رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقُوص ومعه كتاب فيه

(١) هو علي بن يحيى المصري، أبو الحسن، المعروف بابن الذروي، توفي سنة ٥٧٧هـ. (انظر ترجمته في: «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٨٧، وفيات الأعيان ٤/ ١٤٥، فوات الوفيات ٣/ ١١٣ ـ ١١٧، الوافي بالوفيات ٢٢/ ٣١٢ ـ ٣٢٠ (وفيه وفاته سنة ٥٧٩هـ).

Marfat.com

طلب الصُلْح، ومع الرسول هَدِيَّة؛ عبد وجارية، فكتب له جواب كتابه، وأعطاه زوجَيْ نُشَّاب، وقال: ما لك عندي جواب إلا هذا. وجهَّزَ معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها. فسار الحلبي مع الرَّسول حتى وصل دُنْقُلة؛ وهي مدينة الملك. قال مسعود: فوجدتُ بلاداً ضيِّقة ليس لهم زَرْع إلا الذُرة، وعندهم نخل صِغار منه إدامُهم. وَوَصَفَ مَلكهم بأوصاف منها أنْ قال: خرج علينا يوماً وهو عُريان قد ركب فرساً عُرْياً[1]، وقد التفَّ في ثوب أطلس، وهو أقرع ليس على رأسه شعر. قال: فأتيت فسلَّمت عليه، فضحك وتغاشى، وأمر بي أن تكوى يدي، فكوي عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلاً من الدَّقيق، ثم صرفني. قال: وأما دُنْقُلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط، وباقيها أخصاص.

فصل

في وفاة نجم الدّين أيُّوب والد صلاح الدّين، وطرف من أخباره[2]

قال العماد: وركب نجم الدين أيوب، فشَبَّ به فرسه بالقاهرة عند باب النَّصْر وسط المَحَجَّة، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحِجَّة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السَّابع والعشرين من ذي الحجة.

وكان كريماً رحيماً، عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود. وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكَرَك والشَّوْبك على الغَزَاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت في الدَّار السُّلْطانية، ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة الشَّريفة النبويَّة، على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام، والتحية والإكرام، والإجلال والإعظام، وعلى آله وصحبه وسلم.

قلت: وقبرهما في تُرْبة الوزير جمال الدِّين الأَصْفهاني وزير المَوْصِل[3] المقدَّم ذكره، رحمهم الله تعالى.

---

(١) فرس عريّ: أي لا سرج عليه.

(٢) انظر ترجمته الوافية في: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٤٤ ـ ٤٧، النواد السلطانية ص٤٦، سنا البرق الشامي ص١٢٩، مرآة الزمان ٨/ ٢٩٥، وفيات الأعيان ١/ ٢٣٢، العبر للذهبي ٤/ ٢٠٣، البداية والنهاية ٢/ ٢٧١، تاريخ ابن العديم ٢/ ٣٣٩، مفرج الكروب ١/ ٢٣٠، السلوك ١/ ٥١، النجوم الزاهرة ٦/ ٦٧، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ١٧٤، شذرات الذهب ٤/ ٢٧١.

(٣) هو جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، وزير الموصل، توفي سنة ٥٥٩هـ، وقد تقدّمت ترجمته في الجزء الأول.

وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غَزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين، فشقَّ ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته. وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ شديد الرّكض، وَلعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعبُ بها يقول: ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس.

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى عز الدين فَرُّخْشاه[1] بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدَّارج[2] ـ غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تُرْبَه ـ ما عظمت به اللَّوْعة، واشتدَّت الرَّوْعة، وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصَّبر فأبى وانحدرت العبرة، فيا له فقيداً فُقِدَ عليه العزاءُ، وهانت بعده الأرزاء، وانتثر شمل البركة بفقده، فهي بعد الاجتماع أجزاء: [الكامل]

وتخطفته يدُ الرَّدى في غيبتي ... هَبْني حَضَرْتُ فكنت ماذا أصْنَعُ

قال ابنُ أبي طيّ الحلبي: هو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، ولا يُعرف في نسبه أكثر من والده شاذي. وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان.

قلت: وسمعت أنا من يقول: شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابنُ أبي طيّ: وقد ادَّعى ابنُ سيف الإسلام لما ملك اليمن أنَّهم من بني مروان بن محمد الجَعْدِي المعروف بالحمار[3]، يعني آخر خلفاء بني أميَّة. قال: وقد نقَّبْتُ عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب أنَّ هذا كذبٌ، وأن جميع آل أيوب لا يَعرفون جَدًّا فوق شاذي. وكذلك أخبرني السلطان الملك الظَّاهر[4] رحمه الله تعالى.

---

(١) هو فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، عز الدين، أبو سعد بن نور الدولة الأيوبي، صاحب بعلبك، أقطعه عمه صلاح الدين إياها سنة ٥٧٥هـ، وناب بدمشق عنه سنة ٥٧٦هـ، وفي سنة ٥٧٧هـ، سار إلى الكرك، فنهب وقتل، وفتح الشقيف، وكان شاعراً فصيحاً وشعره مدوّن، مات بدمشق في جمادى الأولى سنة ٥٧٨هـ (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٣٢ ـ ٢٣٤، وانظر ترجمته في: مرآة الزمان ٨/ ٣٧٢، تاريخ أبي الفداء ٣/ ٦٥، السلوك ١/ ٧٩، البداية والنهاية ١٢/ ٣١١، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٦١، النجوم الزاهرة ٦/ ٩٦، شذرات الذهب ٤/ ٢٥٩).

(٢) الدارج: من درج: أي مات.

(٣) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي، أبو عبد الملك، القائم بحق الله، يعرف بالجعدي، وبالحمار، آخر ملوك بني أمية في الشام، توفي سنة ١٣٢هـ (الأعلام ٧/ ٢٠٨).

(٤) هو غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي، الملك الظاهر، غياث الدين، تقدّمت ترجمته قبل قليل.

Marfat.com

قلت: ودليل صحة ذلك أنني وقفتُ على كتاب وقف الرباط النَّجمي بدمشق، ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي، وابن سيف الإسلام هذا هو أبو الفداء إسماعيل بن طُغْتِكِين بن أيوب بن شاذي[١]، ابن أخي السُّلْطان صلاح الدين، ملك اليمن بعد أبيه[٢] وتعاظم إلى أن ولّى نفسه الخلافة، وادَّعى أنه من بني أمية، وعزم على إعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية، وله في ذلك أشعار كثيرة، وتلقَّب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين. ومدحه كثيرٌ من الشُّعراء بذلك، وزيَّنُوا له فعله وما هو فيه، فمن شعره: [الطويل]

وإني أنا الهادي الخليفةُ والذي ... أدوسُ رقابَ الغُلْبِ بالضُّمَّرِ الجُرْدِ
ولا بُدَّ مِنْ بغدادَ أطوي رُبُوعَها ... وأنشُرها نَشْرَ السَّماسِرِ للبُرْدِ
وأنصب أعلامي على شُرُفاتها ... وأُحيي بها ما كان أسَّسَهُ جَدِّي
ويُخطَبُ لي فيها على كلِّ مِنْبَرٍ ... وأُظْهِرُ دينَ الله في الغَوْرِ والنَّجْدِ

ثم قال ابنُ أبي طيّ: وكان نجم الدين أيوب عدلاً مرضياً، كثير الصَّلاة

---

(١) هو إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذي، الملك المعز، شمس الملوك، ابن العزيز صاحب اليمن، كان منهمكاً في اللهو والشرب، طرده والده إلى الحجاز لأمر نقمه عليه، ولما توفي أبوه سنة ثلاث وتسعين. كان بالسرين، أرسل إليه جمال الدولة كافور من عرّفه بوفاة والده، فحضر وملك اليمن، ثم ادّعى أنه أموي ورام الخلافة، ولبس شارتها، وسمّى نفسه المهدي، وأرسل إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك وينكر فعله، وقيل: ادّعى النبوة، ثم اتفق جماعة من الأكراد وقتلوه سنة ٥٩٨هـ، وقيل: سنة ٥٩٩هـ، بالقور من أعمال زبيد، وداروا برأسه زبيد ونهبوها سبعة أيام، وأقاموا أخاه الناصر أيوب (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٧١ ـ ٢٧٢، وانظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢/ ٥٢٤، مفرج الكرب ٣/ ١٣٦، السلوك ١/ ١٥٩، العبر ٤/ ٣٠١، بلوغ المرام ص٤١، النجوم الزاهرة ٦/ ١٨١، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ، شذرات الذهب ٤/ ٣٣٤).

(٢) هو طغتكين بن أيوب بن شاذي، الملك العزيز، سيف الإسلام، ظهير الدين، صاحب اليمن، أخو صلاح الدين، سيّره أخوه إلى اليمن سنة ٥٧٨هـ، ليملكها ويقطع الفتن، وكان شديد السيرة، مضيّقاً على الرعية، يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال الآلاف، وكان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره. ولما بلغه وفاة أخيه الناصر، خرج يريد مصر، فأشار عليه رجل شريف: إنك تخرج لبلاد لا يُعلم تحصل لك أم لا؟ وتترك بلاداً بفتن فرجع إلى رأيه، توفي في شوال سنة ٥٩٣هـ، بزبيد بالمنصورة التي أنشأها، وكانت ولايته اليمن ست عشرة سنة (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص١٩٨ ـ ٢٠٠، وانظر ترجمته في: مرآة الزمان ٨/ ٤٥٣، وفيات الأعيان ٢/ ٢٠٦، مفرج القلوب ٣/ ٧٢، تاريخ أبي الفداء ٣/ ٩٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١٤١، البداية والنهاية ١٣/ ١٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٤٨، السلوك ١/ ١٤٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٦١، شذرات الذهب ٤/ ٣١١).

Marfat.com

والصِّلات، غزير الفَضْل والخيرات، يحب العلماء، ويميل إلى الفُضَلاء، وكان مُمَدَّحاً، مدحه العماد الكاتب بعِدَّة قصائد.

قال: وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد شبختان، كذا مُؤَيَّد الدين بن منقذ[١]. وحدَّثني جماعةٌ أنَّ مولد نجم الدين كان بجبل جُور، ورُبي في بلد المَوْصِل. ونشأ شجاعاً باسلاً، وخدم السُّلْطان محمد بن مَلِكْشاه[٢] فرأى منه أمانة وعقلاً، وسَداداً وشهامة، فولاه قلعة تَكْريت، فقام في ولايتها أحسنَ قيام، وضبَطَها أكْرَمَ ضبط، وأجْلى مِن أرضها المفسدين وقُطَّاع الطريق وأهل العَيْث، حتى عُمِرَتْ أرْضُها، وحَسُنَ حال أهلها، وأمنت سُبُلها.

فلما ولي السُّلْطان مسعود[٣] المُلْكَ أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بِهْرُوز الخادم[٤] شِحنة بغداد ومُتولي العراق ـ وكان هذا بهروز أميراً ينفذ أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس ـ فأقرَّ الأمير نجم الدين في ولاية تَكْريت، وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرَّر أمره عند السلطان مسعود، وجعل بِهْرُوز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل جميع ذلك منوطاً بالأمير نجم الدين، ومَعْذُوقاً[٥] بهِمَّته.

وكان نجم الدين عظيماً في أنفس النَّاس بالدين والخير وحُسْن السِّياسة، وكان لا يمرُّ أحدٌ من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يَسمعُ بأحدٍ من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه.

وقد ذكر العماد الكاتب في «سيرة السَّلْجُوقية» الأمير نجم الدين وقرَّظه وأثنى عليه، وذكر من دينه وعِفَّته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء حسنة. وحكى قضية عمه العزيز حين حُبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدَّرْكَزيني[٦]،

---

(١) مؤيد الدين بن منقذ: هو أسامة بن منقذ، والمشهور أنه مؤيد الدولة، ويلقب أحياناً بمؤيد الدين، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء وفي الجزء الأول.

(٢) توفي في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٥١١هـ. انظر الجزء الأول، والكامل في التاريخ ٩/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٣) توفي أول رجب سنة ٥٤٧هـ، انظر الجزء الأول، والكامل في التاريخ ٩/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٣.

(٤) هو مجاهد الدين بهروز بن عبد الله، أبو الحسن، مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي، كان حاكماً بالعراق نيفاً وثلاثين سنة، توفي ببغداد سنة ٥٤٠هـ (انظر «الكامل في التاريخ» ٩/ ٣٣٦، ووفيات الأعيان ٧/ ١٤٢).

(٥) معذوقاً: أي منوطاً، ومختصاً.

(٦) الدركزيني: هو أبو القاسم ناصر بن علي الأنسابادي الدركزيني، ولي الوزارة سنة =

Marfat.com

وأمره بقتله، فأبى نجم الدين إلى أن قتله بِهْرُوز بنفسه بأمر الدَّرْكَزيني.

ثم إن السلطان مسعوداً حَشَدَ وخرج في أخذ السَّلْطنة، وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سُنْقُر في بغداد، وجرَّدا عسكراً ضخماً، وسارا إلى تَكْريت طامِعَيْن في بغداد، واتصل هذا الخبر بقراجه السَّاقي ـ وهو أَتابك ابن السُّلْطان محمود[1] ـ فجرَّد ألف فارس للقاء زَنْكي، ثم أردفهم بعسكر ضخم، فانهزم زنكي، وقُتل جماعة من أصحابه، ونهب جميع ما كان في عسكره، ولجأ إلى سور تَكْريت وبه عِدَّة جراحات. وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شِيركُوه، فمتحاه إلى القلعة بحبالٍ، وداوَيا جراحاته، وخدماه أحسن خدمة، وتقربا إليه؛ فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً. ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظَّهْر، فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظَّهْر حتى إنّهما أعطياه جُمْلَةً من البقر حمل عليها ما سلم معه مِنْ أمتعته. فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصَّنيعة، ويواصله بالهدايا والألطاف مُدَّة مُقامه في تكريت. فلما انفصل عنها ـ على ما سنذكره ـ تلقَّاه زَنْكي بالرَّحب والسَّعة، واحترمه احتراماً عظيماً، وأقطعه عدة قطائع.

وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة، حتى ملك بذلك حَبَّات قلوبهم، وكان أخوه شِيركُوه معه في القلعة، وكان شُجاعاً باسلاً، ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته. وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها. فاتَّفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبَعْض شأنه ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً نصرانياً، فاتَّفق في ذلك اليوم أن النَّصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة، فعبث به بكلمة مُمِضَّة، فجرَّد أسد الدين سيفه، وقتل النصراني، وصَعِدَ إلى القلعة، وكان مهيباً، فلم يتجاسر أحدٌ على معارضته في أمر النصراني بشيء، وأُخذ النَّصْراني بِرِجْله، فأُلقي من القلعة.

وبلغ بِهْرُوز صاحبُ قلعة تكريت ما جرى، وحضر عنده مَنْ خَوَّفه جُرأة أسد الدين وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرَّعايا، وأنه ربما كان منهما أمرٌ تخشى عاقبته ويصعب استدراكه. فكتب إلى نجم الدين يُنكر عليه ما جرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائبٍ سيَّره صُحبة الكتاب. فأجاب نجم الدين ذلك بالسَّمع والطَّاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهلٍ ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمّما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل.

= ٥١٨هـ، وقتل سنة ٥٢٧هـ (انظر أخباره في تاريخ دولة آل سلجوق ص١٣٥، ومعجم البلدان ٢/ ٤٥١).

(١) في «الكامل في التاريخ» ٩/ ١٤٨: قراجة الساقي هو أتابك الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمد.

Marfat.com

وقيل: إن أسد الدين كان خرج إلى المَوْصِل قبل نجم الدين.

وأعْظَمَ أهلُ تكريت خروج نجم الدين مِنْ بين أظهرهم، ولم يبق أحدٌ إلا خرج لتوديعه وأظهر البكاء والأسف على مفارقته.

ولما اتصل بأتابك زَنْكي قُدومُهما أَفْرَحَه ذلك، وأمر الموكب بلقائهما، وأكرمهما إكراماً عظيماً، وأقْطعهما في بلد شهرزور إقطاعاً سنياً. وقيل: إنه أقطع أسد الدين بالمُوَزَّر.

وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودَّة عظيمة حتى حلف كل واحدٍ منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته. وتجرَّد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمْرِ أخيه نجم الدين حتى قرَّبهما من قلب أتابك، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة. وخرجا معه إلى الشَّام، وشهدا معه حروب الكُفَّار وقتال الفرنج ـ لعنهم الله تعالى ـ وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء، والفَعْلَة الغَرَّاء.

وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثني سعد الدولة أبو الميامن المؤملي ـ وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب ـ قال: وحدّثني أيضاً بهذه الحكاية مجد الدين ابن داية الملك الصَّالح قال: حدّثني حسام الدين سُنْقُر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب ـ وكان سُنْقُر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي ـ قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما نفَّذه نور الدين بن زنكي إلى ابنه السُّلْطان الملك النَّاصر إلى مصر مِنْ أجل قطع خُطْبة المصريين، وإقامة دعوة بني العباس، في أول سنة سبع وستين وخمسمائة، واتفق أني كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة، وقد قعدا على طُرَّاحة واحدة، والمجلس غاصٌّ بأرباب الدَّوْلتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول. فبينا الناس كذلك إذ تقدَّم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين، فقبَّل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين وقال له: يا مولاي، هذا تأويل مقَالتي لك بالأمسِ حين وُلد هذا السلطان. فضحك نجم الدين وقال: صدقتَ والله. ثم أخذ في حمدِ الله وشُكْره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء، والقُضَاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النَّصراني حكايةٌ عجيبة؛ وذلك أنّني ليلة رُزقت هذا الولد ـ يعني السلطانَ الملك الناصر ـ أمرني صاحب قلعة تكريت في تلك الليلة بالرِّحلة عنها بسبب الفَعْلة التي كانت من أخي أسد الدين شِيركُوه رحمه الله وقَتْله النَّصراني، وكنت قد أَلِفْت القلعة، وصارت لي كالوطن، فَثَقُلَ عليَّ الخروج منها، والتَّحوُّل عنها إلى غيرها، واغتَمَمْت لذلك. وفي ذلك الوقت

Marfat.com

جاءني البشير بولادته فتشاءمت به، وتطيَّرت لِمَا جرى عليَّ، ولم أفرح به ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة، وأنا على طِيرَتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً، فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام، فأذنتُ له، فقال لي: يا مولاي، قد رأيتُ ما قد حدث عندك من الطِّيَرَة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب، وبِمَ استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يُغني شيئاً! وهذا الذي جرى عليك قضاءٌ من الله تعالى سبحانه وقَدَر، ثم ما يُدريك أنَّ هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت، جليلَ المقدار. فعطفني كلامه عليه، وها هو قد وقفني على ما كان قاله. فتعجَّب الجماعة من هذا الاتفاق، وحَمِدَ السُّلْطان ووالده الله تعالى سبحانه وشكرَاه.

قلت: ولعُمارة في نجم الدين مدائح ومراثٍ، منها قوله: [البسيط]

ثَغْرُ الزَّمان بنجم الدِّين مُبْتَسِمُ ... وَوَجْهُهُ بِدَوَامِ العِزِّ مُتَّسِمُ
أَضْحَى بكَ النِّيلُ محجوجاً ومُعْتَمَراً ... كأنَّما حَلَّ فيهِ الحِلُّ والحَرَمُ
جاءت بَنُوك وشَمْلُ الدِّين مُنْتَثِر ... فقارعوا عنه فَهْوَ اليومَ مُنْتَظِمُ
وما دَرَى أحدٌ من قَبْلِ رُؤْيَتِهِمْ ... أنَّ الحُظُوظَ بِلَثْمِ الأَرْضِ تُقْتَسَمُ
نامَتْ عيونُ الوَرَى في عَدْلِ سيرتهمْ ... كأنَّ يقظتنا في عَصْرِهِمْ حُلُمُ
والنَّاصِرُ ابنُكَ كافٍ كلَّ مُعْضِلَةٍ ... إذا الحوادثُ لم يُكْشَفْ لها غَمَمُ
أَعَزَّ بالبأسِ والإحسانِ حَوْزَتَنا ... فلم يُلِمَّ بنا خَوْفٌ ولا عَدَمُ
تَبَسَّمَ الدَّسْتُ مِنْ أيوبَ عن مَلِكٍ ... تَنْحطُّ عن قَدْرِهِ الأقدارُ والهِمَمُ

وقال في مرثيته: [الطويل]

هي الصَّدْمَةُ الأُولى فمن بانَ صَبْرُهُ ... على هَوْلِ مَلْقاها تَضاعَفَ أَجْرهُ
أذُمُّ صباحَ الأربعاءِ فإنه ... تَبَسَّمَ عن ثَغْرِ المَنِيَّة فَجْرُهُ
أصابَ الهُدَى في نجمهِ بمصيبةٍ ... تَداعَى سِماكُ الجوِّ منها ونَسْرُهُ
فلا تَعْذُلونا واعْذُرونا فَمَنْ بكى ... على فَقْدِ أيوبٍ فَقَدْ بانَ عُذْرُهُ
أقامَ بأعمالِ الفُرَاتِ وخَيْلُهُ ... يُراعُ بها نِيلُ العزيزِ ومِصْرُهُ
إلى أنْ رماها من أخيه بِضَيْغَمٍ ... فرى نابُه أهلَ الصَّليب وظُفْرُهُ
فلما قَضَى نَحْبَي حياةٍ ودَوْلَةٍ ... بأمرك في إدراكها تَمَّ أَمْرُهُ
تعاقبتما مِصْراً تَعاقُبَ وابِلٍ ... يبيتُ بقُطْرِ النِّيل ينهل قَطْرُهُ
نَزَلْتَ بدارٍ حَلَّها فَحَلَلْتَها ... فمَغْناكَ مَغْناهُ وقُطْرُكَ قُطْرُهُ
وواخيتَه في البَرِّ حيّاً وميِّتاً ... فَقَبْرُكَ في دارِ القَرَارِ وقَبْرُهُ

Marfat.com

وقد شَخَصَتْ أهلُ البقيع إليكما ... وإلا فَسُكان الحَجُون وحِجْرُهُ
هنيئاً لمَلْكٍ ماتَ والعِزُّ عِزُّه ... وقُدْرَتُهُ فَوْقَ الرِّجالِ وقَدْرُهُ
وأَدْرَكَ مِنْ طُولِ الحياةِ مُرَادَه ... وما طالَ إلا في رِضا الله عُمْرُهُ
وأَسْعَدُ خَلْقِ الله مَنْ مَاتَ بعدما ... رأى في بني أبنائه ما يَسُرُّهُ
شهيدٌ تلقَّى رَبَّه وهو صائِمٌ ... فكانَ على أَجْرِ الشَّهادَةِ فِطْرُهُ
مضى وهو راضٍ عنكَ لم تَرْمِ صَدْرَه ... بضيقٍ ولا جاشَتْ من الغيظ قِدْرُهُ
حمى حَوْزَةَ الإسلام والدِّينِ بعده ... ثمانيةٌ من أَجْلِهِمْ عَزَّ نَصْرُهُ
فكيف بخِيسِ آلُ أيوبَ أُسْدُه ... لقد بانَ خَوْفُ الدَّهْرِ منه وذُعْرُهُ[1]
رَعَى الله نجماً تَعْرِفُ الشَّمْسَ أَنَّه ... أبوها ونورُ البَدْرِ منها وزُهْرُهُ
وأبقى المَقَامَ النَّاصِرِيَّ فإنَّه ... لِدَوْلَتِكُمْ كَنْزُ الرَّجاءِ وَذُخْرُه

وقال أيضاً: [البسيط]

صَفْوُ الحياةِ وإنْ طالَ المَدَى كَدَرُ ... وحادثُ الموتِ لا يُبْقي ولا يَذَرُ
وما يَزَالُ لسانُ الدَّهْرِ يُنْذِرُنا ... لو أَثَّرَتْ عندنا الآياتُ والنُّذُرُ
فلا تَقُلْ غَرَّت الدُّنيا مطامِعَنا ... فما مَعَ الموتِ لا غِشٌّ ولا كَدَرُ
كأسٌ إذا ما الرَّدى حَيَّا الحياة بها ... لم يَنْجُ مِنْ سُكْرِها أنثى ولا ذَكَرُ
كَمْ شامخِ العزِّ لاقَى الذُّلَّ من يَدِها ... ما أَضْعَفَ القَدْرَ إنْ أَلْوى به القَدَرُ
في كلِّ جيلٍ وعَصْرٍ مِنْ وقائعها ... شَعْوَاء يَقْطُرُ منها النَّابُ والظُّفُرُ
أودى عليٌّ وعثمانٌ بمخلبها ... ولم يَفُتْها أبو بكر ولا عُمَرُ
ومَن أراد التَّأسِّي في مُصِيبَتِه ... فلِلْوَرَى برسولِ الله مُعْتَبَرُ
نجمٌ هَوَى من سماءِ الدِّين مُنْكَدِراً ... والنَّجْمُ من أُفْقِهِ يهوي وَيَنْكَدِرُ
منظومةٌ أنجُمُ الجوزاء من جَزَعٍ ... له وعِقْدُ الثُّريَّا منه مُنْتَثِرُ
وكيف يُنْسى مُحَيَّاه الكريمُ ومِنْ ... نُعماه في كلِّ عَيشٍ صالحٍ أَثَرُ
جَدَّدْتَ مِنْ أَسَدِ الدِّينِ الشَّهيدِ لنا ... حُزْناً به يتساوى الصَّبْرُ والصَّبِرُ
قد كانَ للدِّين والدُّنيا بعزمكما ... ذكرٌ يُعَبِّرُ عنه الصَّارِمُ الذَّكَرُ
إنْ فاحَ نَشْرُ كلامٍ تُمدحانِ بهِ ... مِسْكاً فَعِتْرَةُ أيوبٍ هي العِتَرُ
تخفي ذُبالَ مصابيحٍ إذا طَلَعُوا ... صُبْحاً وتُنْسي مُلُوكَ الأرضِ إنْ ذُكِرُوا

(١) الخيس: الشجر الكثيف الملتف، وهو موضع الأسد.

كأنما صَوَّرَ الله الكمالَ بهم ... شَخْصاً ويوسفُ منه السَّمْعُ والبَصَرُ
لا شَوْبَكٌ منه معصومٌ ولا كَرَكٌ ... ولا خليلٌ ولا قُدْسٌ ولا زُغَرُ
لم يرتَحِلْ قافلاً إلا وساكنها ... إما مُبَاحٌ حِماه أو دمٌ هَدَرُ
ما ماتَ أيوبُ إلا بعد مُعْجِزَةٍ ... في المجد لم يُؤْتَها من جِنْسِهِ بَشَرُ
مضى سعيداً من الدُّنيا وليسَ له ... في رُتْبَةٍ أَرَبٌ باقٍ ولا وَطَرُ
وطَوَّلَ الله منه باع أربعة ... منها النَّدى والتُّقَى والمُلكُ والعُمُرُ
وأشرفُ المُلكِ ما امتَدَّت مسافَتُهُ ... في صِحَّةٍ أخواها العَقْلُ والكِبَرُ
ومن سَعَادتِهِ أَنْ ماتَ لا سَأَمٌ ... يشكوه منه مُعانيه ولا ضَجَرُ

فصل

[قصد نور الدين بلاد قليج أرسلان عازماً على حربه وأخذ بلاده منه، وفتح مرعش، وبهسنى]

قال العماد: وسار نور الدين قاصداً جانب الشّمال لتسديد ما اختَلَّ هناك من الأحوال. فسار إلى بَعْلَبك ومنها إلى حمص ثم حلب، وفعل في كلٍّ منها من المصالح ما وجب، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الرُّوم[1]، ففتح مَرْعَش في العشرين من ذي القَعْدَة، ثم فتح بَهَسْنى واتَّبع في كلٍّ منهما الطريقة الحُسْنى.

وكتب العماد إلى صديق له بدمشق، وكان سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المِشْمِش[2]: [المتقارب]

كتابي فَدَيْتُك من مَرْعَشٍ ... وخوفُ نوائبها مُرْعِشي
وما مَرَّ في طُرْقِها مُبْصِرٌ ... صحيحُ النَّواظر إلا غَشي
وما حَلَّ في أرضها آمِنٌ ... من الضَّيْم والضُّرِّ إلّا خَشِي
تُرَنِّحُني نَشَواتُ الغَرامِ ... كأنّيَ مِنْ كأسِهِ مُنْتَشي
أُسِرُّ وأُعْلِن بَرْحَ الجَوَى ... فقلبي يُسِرُّ ودمعي يَشي

---

(١) هو الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلمش بن سلجوق السلجوقي، توفي في منتصف شعبان سنة ٥٨٨هـ بمدينة قونية، وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة، ولما كبر فرّق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين. انظر أخباره في «الكامل» ١٠/ ٩٧ ـ ٩٨، ١٠١، ١٠٢، ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) الأبيات في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص٦٣ ـ ٦٤.

بَـذَلْـتُ لـكـم مُـهْـجـتـي رِشـوَةً فـحـاكِـمُ حُـبُّـكُـمُ مُـرْتَـشـي
وكـيـف يَـلـذُّ الـكَـرَى مُـغْـرَمٌ بـنـارِ الـغَـرَامِ حَـشَـاه حُـشِـي
بِـمَـرْعَـشَ أبـغـي وبـلُّـوطِـهـا مُـضَـاهـاة جِـلِّـقَ والـمِـشْـمِـشِ!

قال العماد في «الخريدة»: فسارت هذه القطعة، ونُمي حديثها إلى نُور الدين، فاستنشدنيها، فأنشدتُها إياه ونحن سائرون في وادٍ كثير الأشجار مع بيتين بَدَهْتُ بهما في الحال، وهما[1]: [المتقارب]

وبـالـمَـلـكِ الـعـادِلِ اسْـتَـأْنَـسَـتْ نـجـاحـاً مُـنـى كـلِّ مُـسْـتَـوْحِـشِ
ومـا فـي الأنـامِ كـريـمٌ سـواه فـإنْ كُـنْـتَ تُـنْـكِـرُ ذا فَـتِّـشِ

وقال ابنُ الأثير[2]: وفي سنة ثمانٍ وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عزّ الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السَّلْجُوقي، وهي مَلطْية وسيواس وقُونية وأَقْصَرا، عازماً على حربه وأخذ بلاده منه.

وكان سببُ ذلك أنَّ ذا النُّون بن دانْشَمَنْد صاحب مَلَطْيَة وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قَصده قليج أرسلان، وأخذ بلاده، وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستَجيراً به، وملتجئاً إلى ظِلّه، فأكرم نُزله وأحسن إليه، وحمل له ما يليقُ أن يُحملَ للملوك، ووعدَه النَّصْر والسَّعي في ردِّ ملكه إليه. وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحدٍ من المسلمين إلا ضرورةً؛ إما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما. فلما قصده ذو النُّون راسل قليج أرسلان وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه، فابتدأ بكيسون[3] وبَهَسْنَى ومَرْعَش ومَرْزُبان، فملكها وما بينها من الحصون، وسيَّرَ طائفةً من عسكره إلى سيواس فملكوها.

[المعاهدة بين نور الدين وقليج أرسلان]

وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلادَه قد سار من أطرافها التي تلي الشَّام إلى وسطها خوفاً وفَرقاً، وراسل نور الدين يستعطفه، ويسأله الصُّلْح والصَّفْح عنه، فتوقَّف نور الدين عن قَصْدِه رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه، فأجابه إلى الصُّلْح.

---

(١) البيتان في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص٦٤ ـ ٦٥.
(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٤٨ ـ ٤٩.
(٣) كيسون: كذا بالأصل، والمراد: كيسوم، لأن رستاقها هو رستاق بهنس (انظر معجم البلدان ١/ ٥١٦).

Marfat.com

وكان في جملة رسالة نور الدين إليه: إنني أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركتُ منها فلا أترك ثلاثة أشياء: **أحدها**: أن تجدِّد إسلامك على يد رسولي حتى يحلَّ لي إقرارك على بلاد الإسلام، فإني لا أعتقدك مؤمناً ـ وكان قليج أرسلان يُتَّهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة ـ **والثَّاني**: إذا طلبتُ عسكرك إلى الغزاة تسيِّره، فإنَّك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام، وتركت الرُّوم وجهادهم وهادنتهم، فإما أن تكون تُنْجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وإما أن تجاهد مَنْ يجاورك من الرُّوم، وتبذل الوسع والجهد في جهادهم. **والثالث**: أن تزوِّج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي. وذكر أموراً غيرها.

فلما سمع قليج أرسلان الرِّسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشَّناعة عليَّ بالزَّندقة، وقد أجبتُه إلى ما طلب، أنا أجدِّد إسلامي على يد رسوله. واستقرَّ الصُّلح، وعاد نور الدين، وترك عسكره في سيواس مع فخر الدِّين عبد المسيح في خدمة ذي النُّون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين رحمه الله تعالى، فرحل العسكر عنها، وعاد قليج أرسلان وملكها.

[قدوم قطب الدين النيسابوري إلى حلب]

قال العماد: وفيها وصل الفقيه الإمام الكبير قطب الدين النَّيْسَابوري[1]؛ وهو فقيه عصره، ونسيج وحدِه، فَسُرَّ نور الدين به، وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أطلعه إلى دمشق، فدرَّس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي[2] رحمه الله تعالى، ونزل بمدرسة الجاروق. وشرع نور الدين في

---

(١) هو قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود الشافعي نزيل دمشق، يعرف بالنيسابوري ولد سنة ٥٠٥، وتوفي سنة ٥٧٨، من تصانيفه عقيدة أهداها للملك صلاح الدين الأيوبي. «الهادي في الفروع» (كشف الظنون ٦/ ٤٢٩، وفيات الأعيان ٥/ ١٩٦ ـ ١٩٧، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٠٦ ـ ١٠٩).

(٢) نصر المقدسي: هو الحافظ أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود بن أحمد المقدسي النابلسي، شيخ الشافعية بدمشق الشام، ولد قبل سنة ٤١٠هـ، وقدم دمشق سنة ٤٨٠هـ، ونزل بالزاوية الغربية من مسجد دمشق، ثم عرفت هذه الزاوية فيما بعد بالزاوية الغزالية لنزول الإمام الغزالي فيها أيضاً سنة ٤٨٩هـ، وكان الشيخ نصر متقشفاً، متجنباً ولاة الأمور، قانعاً باليسير من غلة أرض كانت له بنابلس، يأتيه منها ما يقتاته، ولا يقبل من أحد شيئاً، توفي سنة ٤٩٠هـ، ودفن في مقبرة الباب الصغير، من تصانيفه: «أربعين في الحديث»، «الانتخاب الدمشقي في المذهب» عشر مجلدات، «التهذيب في الفروع» عشر مجلدات «شرح الإرشاد لسليم الرازي» في الفروع، «كافي في الفروع»، «كتاب الحجة على تارك الحجة»، «كتاب المقصود في الفروع»، «مناقب =

Marfat.com

إنشاء مدرسة كبيرة للشَّافعية لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلتُ: هي المدرسة العادليّة الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب[١]؛ أخو صلاح الدين، وفيها تربتُه، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومَنْ بعده منها وهو موضع المسجِد والمحراب الآن. ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة، وبناها هذا البناء المتقن المُحْكَم الذي لا نظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قَدَّر الله سبحانه وتعالى جَمْع هذا الكتاب، فلا أَقْفَرَ ذلك المنزلُ ولا أَقْوى. وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام النَّاصرية في سنة ثمانٍ وسبعين. ووقف كتبه على طلبة العلم، ونُقِلَتْ بعد بناء هذه المدرسة إليها، فما فاتها ثمرته إذ فاتها مُبَاشرته، رحمه الله تعالى.

قال العماد: وكان وَفَدَ في سنة أربع وستين شيخ الشُّيوخ عماد الدين أبو الفَتْح محمد بن علي بن محمد بن حَمُّويه[٢]، فأقبل عليه نور الدين، وأمرني بإنشاء مَنْشورٍ له بمشيخة الصُّوفية، ورغَّبه في المقام بالإِحسان إليه بالشَّام. ومن جُملة ما أتحفه به عِمامة بأعمدة ذهبيَّة نفَّذها صلاح الدين من مصر، فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها، فلم يجب من سامها إلى طلبها.

قلت: وقد سبق ذكر هذه العِمامة في أخبار نور الدين أوَّل الكتاب من كلام ابنِ الأثير، وابن المُعْطَى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله، رحمهم الله تعالى.

ثم ذكر العماد نسخة المنشور، وفيه: فلينظر في رباط السُّمَيْساطي وقُبَّة الطَّواويس ورباط الطَّاحونة وغيرها من رُبُط الصُّوفية بدمشق المعمورة وبَعْلَبك.

ثم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هذه السنة قبل الرَّحيل من دمشق كان أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين الحسن بن سعيد الشَّاتاني[٣] قطائف، وكتب إليه: [مجزوء الكامل]

مـــا راقـــداتٌ فـــي صُـــحُـــونِ مـــســـتـــوطـــنـــاتٌ فـــي سُـــكُـــونِ

= الإمام الشافعي» (كشف الظنون ٦/ ٤٩٠ ـ ٤٩١، سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٣٦ ـ ١٤٣، طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٣٥١ ـ ٣٥٣، ٦/ ١٩١ ـ ٣٨٩).

(١) تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) كذا سماه العماد، وهو في كشف الظنون ٦/ ١١٠: محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حموية الجويني صدر الدين الشافعي الصوفي المعروف بابن حموية، توفي بالموصل سنة ٦١٧هـ. له من الكتب «سلوة الطالبين في التصوف» (وانظر أيضاً الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٧هـ).

(٣) علم الدين الشاتاني: تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

يَـجْـلـيـنَ أمـثـالَ الـعَـرَا ... ئِـسِ بـيـن أبـكـارٍ وَعُـونِ
أو كـالـعَـقـائـلِ فـي الـخُـدُو ... رِقـد اعْـتُـقِـلـنَ عـلـى دُيـونِ
هُـنَّ الـلـذيـذات الـلـوا ... تـذ بـالـسُّـهـولِ مـن الـحُـزُونِ
أو كـالـتَّـمـائـم لـلـضَّـحـا ... فِ ومـا نُـسِـبْـنَ إلـى جُـنُـونِ
الـسُّـكَّـريـاتُ الـغـريـ ... ـقـاتُ الـغـلائـلِ والـشُّـؤونِ
صَـرْعَـى ومـا دارَتْ لـهـا ... يـومـاً رحـى الـحَـرْبِ الـزَّبُـونِ
لُـفَّـفْـنَ فـي أكْـفـانِـهِـنَّ (م) عـلـى الـمُـنَـى لا لـلـمَـنُـونِ
يـحـيـيـنَ بـالـتـغـريـق بـل ... يَـسْـمَـنَّ فـي ضِـيـقِ الـسُّـجـونِ
الـمُـسْـتَـطـابـاتُ الـظُّـهـو ... ر الـمُـسْـتَـلَـذَّاتُ الـبُـطُـونِ
نُـضِّـدْنَ بـالـتَّـرْصـيـع فـي الـ ... ـجـامـات كـالـدُّرِّ الـمَـصُـونِ
الـمـسـتـقـيـمـاتُ الـصُّـفُـو ... فِ وَقَـفْـنَ كـالـخـيـلِ الـصُّـفُـونِ
وقـد اشْـتَـمَـلْـنَ مـن الـلَّـطَـا ... ئِـفِ والـصِّـفـات عـلـى فُـنُـونِ
اسْـمَـعْ حـديـثـي فـي انـبـسـا ... طـي فـالـحـديـث أخـو شُـجُـونِ

وهي أكثر من هذا.

فـصـلٌ

[استيلاء مليح بن لاون للدروب، وكسره للروم وإرساله لنور الدين ثلاثين أميراً من مقدميهم]

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مُقدَّم بلاد الأرمن، والتجائه إلى نور الدين، وتطاوله بقوَّته على الرُّوم والأرمن. وكانت الدُّروب: أَذَنة، والمَصِّيصة، وسيواس، يحميها كلب الرُّوم، ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون، فكسرهم وقتل وأَسَر، وساق لنور الدين من مقدَّمي الروم ثلاثين أسيراً. فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة، وما فتح من البلاد، ويقول فيه: وقُسْطَنْطينية والقُدْس يجريان إلى أَمَد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظَّلام المُدْلَهِمّ على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يُدْني قطاف الفتحين لأهل الإِسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإِمام.

وفي آخره: ومن جُمْلة حسنات هذه الأيام الزَّاهرة ما تَسنَّى في هذه النَّوبة،

Marfat.com

من افتتاح بعض بلاد النُّوبة، والوصول إلى مواضع منها لم تَطْرُقْها سنابك الخيل الإِسلامية في العصور الخالية. وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على بَرْقة وحصونها، وتحكَّموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السُّؤل بعنقاء مُغرب.

[استيلاء قراقوش على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية]

قلت: كان اتَّفق في هذه السَّنة وصول قَراقُوش غلام تقي الدين من الدِّيار المصرية مع طائفةٍ من الترك، وانضمَّ إليهم جماعةٌ من العرب، فاستولى على طَرابُلُس وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المَهْدِيَّة وسَفَاقُس وقَفْصة وتُونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المُنى، وإقصاء عَبدَة الصَّليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مُفْتَتَح مراده، ومُقْتَدَح زِناده، ومُقترحه في جهاده، وأن يملكه السَّاحل بجميع بلاده.

وسَيَّر العماد معه قصيدةً، منها: [الكامل]

بالمستضيء أبي محمدٍ الحَسَنْ ... رَجَعَتْ أمورُ المسلمينَ إلى السُّنَنْ
في أرْضِ مِصْرَ دعا له خُطَباؤها ... وأتت لتخطب بِكْرَ خطبته عَدَنْ
فالمغربُ الأقصى لذلك مُشْرِقٌ ... وَبِنَصْرِ مِصْرَ مُحَقَّقٌ يُمْنَ اليَمَنْ
ورأى الإِله المستضيء لشرعه ... وعباده نِعْمَ الأمينُ المُؤتَمَنْ
سِرُّ النُّبوة كامِنٌ فيه وَمِنْ ... فطر الإِمامةُ مُشْرق نورُ الفِطَنْ
تَقْوى أبي بكرٍ ومن عُمَرَ الهُدى ... وحياءُ عثمانٍ وعِلْمُ أبي الحَسَنْ
وبجِدِّه عُرِفتْ مقالةُ حَيدرٍ ... لا من دَدٍ أنا، لا، ولا مِنِّي الدَّدَنْ[1]
كم من عدوٍّ ميِّتٍ في جلدِهِ ... رُعْباً وخوفاً فهو حيٌّ في كَفَنْ

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله تعالى: [الكامل]

هل مِثْلُ محمودِ بن زَنْكي مُخْلِصٌ ... متوحِّدٌ يبغي رضاك بكلِّ فَنْ
وَرِعٌ لدى المحراب أَرْوَعُ مِحْرَبٌ ... في حالتيه إنْ أقامَ وإنْ ظَعَنْ

(١) الدَّدُ والددن: اللهو واللعب، وهو من قول رسول الله ﷺ: (وليس من قول الإمام علي بن أبي طالب كما نسبه العماد): «لست من ددٍ ولا الدد مني»: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢١٧، والطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٣٤٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٥، ٢٢٦، والدولابي في الكنى والأسماء ١/ ١٧٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٢٩، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٤٢٧، وابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث ٢٢٩٥.

Marfat.com

يُمسي ويُصْبِحُ في الجهاد وغَيْرُه يَضْحَى رَضِيع سُلافَةٍ وضجيع دَنْ
وبِعِزَّةِ الإسلام منتصراً حَرِ وبِذِلَّة الإشراكِ منتقِماً قَمَنْ

[وصول ابن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين]

قال ابن أبي طيّ: وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عَصْرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصَرِيفين، وخمسين ديناراً من دنانير النُّثار التي نُثِرَتْ يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخُطْبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصَريفين من أعمال العراق لِزَنْكي - والد نور الدين - قديماً من إنعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرَّسْم في حقِّه، فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما مثالَهُ الشَّريف إليه. وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطئ دِجْلة أرضاً يبنيها مدرسةً للشافعية، ويقف عليها الناحيتين طلباً للأجر، ولحسن الذكر الباقي على الدَّهْر، فقيل له: ما ثَمَّ موضعٌ لهذا إلا دار التمر، فعاقه أمر القَدَر عن قُدْرته على هذا الأمر.

[عودة نور الدين من بلاد الروم إلى حلب ثم دخوله دمشق] ثمَّ دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ونور الدين قد فتح من حصون الرُّوم مَرْعَش وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته. ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود بن قفجاق صاحب مَلَطْيَة. وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المِجْدَل فسرَّحهم بالعطاء الأجْزَل، والسمت الأجمل، وأظهر أنه ينزل على قلعة الرُّوم على الفُرات، فتقبله مستخلَف الأرض[1] بالبراءة وحمل خمسين ألف دينار، على سبيل الجزية مصانعةً بِذُلٍّ وصَغار، وعاد إلى حلب وقد أنجح في كل ما طلب.

وأراد أن يسرعَ إلى دمشق فالتاث سِرُّه لالتياث سُرِّيَّته، وحظي بمرض القلب لمرض جسم حَظِيَّته، وجرَّت شكايَته شكايةُ جاريته، فتصدَّق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف؛ ثم سَيَّرها في مِحَفَّة، تحمل على أيدي الرجال في خِفَّة، وسارت على الطَّريق المهيع مع العسكر، يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر، فما تُقرِّب إليه بمثل حملها والمشي

(١) مستخلف الأرض: كذا في الأصل، ولعله تصحيف لكلمة الأرمن.

Marfat.com

معها، وتقدَّم بحقٍّ لازم من بخدمته شَيَّعها. وتأخر نور الدين جريدة مع عِدَّة من مماليكه وأمرائه، المماحضين في ولائه، وتقدَّم إليَّ أنْ أسايره في طريقه وأحاوره، وأحاضره في منازله وأسامره.

وسرنا على طريق قُبَّة ملاعب والمشهد وسعلَمْية، فجاءه الخبر أَنَّ الفرنج قد أغارت على حَوْرَان، فثنى إلى الجهاد العِنان، وسمع الفرنج به فتفرَّقوا، وقلقوا بعدما كانوا أقلقوا، ودخلنا دمشق.

[إبطال نور الدين فريضة الأتبان]

قلت: وفي جمادى الأُولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك، وعلامته عليه بخطه «الحمد لله»، يقول فيه:

وبعد، فإنَّ من سنتنا العادلة، وسِير أيامنا الزَّاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنَّه الظالمون من جائرات الرُّسوم. وما نزال نجدِّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفِّيها من الشُّبَه والشَّوائب، ونُلحق ما نعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضَّرائب، تقرُّباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب. وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج، وجبل سَنِير، وقصر حَجَّاج، والشَّاغور، والعُقَيبة، ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع ما يُقَسَّط بعد المقاسمة من الأتبان على الضِّياع الخواصِّ والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفَّرناه على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهَرَباً من انتقامه وأليم عقابه. وسبيل النُّواب إطلاق ذلك على الدَّوام، وتعفية آثاره، والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من التدنُّس بأوضاره، وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسعٍ وستين، وما بعدها على تعاقُب الأيام والسِّنين.

فصل

في فتح اليمن

قال العماد: وفي رجب توجَّه تورانشاه[1] ـ أكبر إخوة صلاح الدين ـ إلى

(١) هو الملك المعظم توران شاه بن أيوب بن شاذي، توفي في صفر سنة ٥٧٦هـ، تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

Marfat.com

اليمن فملكها. وكان يحثُّه على المسير إليها عُمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه، فتجهَّز وسار إلى مكة، ثم إلى زَبِيد فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيفُ الدولة مبارك بن منقذ[١]. ومضى إلى عَدَن فأخذها، واستناب فيها عز الدين عثمان الزَّنْجيلي[٢]، وفتح حصن تعز وغيره من القلاع، ففتح إقليماً، ومنح ملكاً عظيماً، وافترع بِكْراً وشيَّع ذِكْراً.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قُوَّة عسكره، وكثرة عدد إخوته وقوَّة بأسهم. وكان بلغَه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النَّبي بن مهدي، ويزعم أنه ينتشر ملكه إلى الأرض كلها، واستتبَّ أمره؛ فرأى أن يسيِّر إليها أخاه الأكبر الملك المُعظَّم تورانشاه، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق ـ سمعت منه، يعني من صلاح الدين رحمه الله تعالى، الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه، وترجيحه إياه على نفسه ـ فمضى إليها وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها.

قلت: وكان أخو هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله، ذكر عُمارة اليمني في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلام له قال: وكان جماعةٌ من أماثل الناس مثل بركات بن المقرئ وعلي بن محمد النَّيلي والفقيه أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن وأزال دولة أهل زَبيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلَّق به.

وقال العماد في «الخريدة»[٣]: علي بن مهدي، ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شُرْب الخمر، وادَّعى الملك والإمامة، ودعا إلى نفسه، وكان يحدِّث نفسه بالمسير إلى مكة، فمات سنة ستين، وتولَّى بعده أخوه، وله شِعْرٌ حسن يدلُّ على عُلوِّ هِمَّته.

---

(١) هو ابن عم أسامة بن منقذ، الشاعر المشهور، ولد سنة ٥٢٦هـ، بقلعة شيزر، وتوفي سنة ٥٨٩هـ، وهي سنة وفاة السلطان صلاح الدين (وفيات الأعيان ٤/ ١٤٤ ـ ١٤٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٨٩).

(٢) عز الدين عثمان الزنجيلي: في شفاء القلوب سماه الزنجبيلي، وهو تصحيف، والصحيح الزنجيلي، نسبة إلى زنجيلة، قرية من قرى دمشق، وهو أبو عمرو عثمان بن علي، كان أميراً كبيراً، استنابه تورانشاه بن أيوب على عدن سنة ٥٧١هـ، وتوفي في دمشق بعد سنة ٥٩٠هـ، وفي الدارس في تاريخ المدارس: هرب من اليمن إلى دمشق وسكن فيها إلى أن توفي سنة ٥٨٣هـ (انظر: العقد الثمين ٦/ ٣٤ ـ ٣٥، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص١٩٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٢٦).

(٣) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ٦٤ ـ ٧٠، وفي الخريدة: المهدي بن علي بن مهدي.

Marfat.com

قال ابن أبي طيّ: كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريماً جواداً، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفُتُوَّته، ولا ينهض بمروَّته، وكان قد انتظم في سِلْكه عُمارة الشَّاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر ومدَح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه. وكان إذا خلا به يَصِفُ له بلاد اليمن، وكثرة أموالها وخيرها، وضَعْفَ من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت: فمن جملة شعره في ذلك قولُه في القصيدة التي أولها[1]: [البسيط]

العِلْمُ مُذْ كانَ محتاجٌ إلى العَلَمِ ... وشَفْرَةُ السَّيْفِ تستغني عن القَلَمِ
كم يترك[2] البيضَ في الأجفانِ ظامئةً ... إلى الموارِدِ في الأعناقِ والقِمَمِ
أمامَك الفَتْحُ من شامٍ ومن يَمَنٍ ... فلا تَرُدَّ رؤوسَ الخيلِ باللُّجُمِ
فعمُّك الملكُ المنصورُ سوَّمها ... من الفُرَاتِ إلى مِصْرٍ بلا سَأَمِ
فاخلُقْ لنفسك مُلْكاً لا تضافُ به ... إلى سِواك وأوْرِ النَّارَ في العَلَمِ
هذا ابنُ تُومَرْتَ قد كانت بدايتُهُ ... كما يقولُ الورى لحماً على وَضَمِ
وقد ترامى إلى أن أمْسَكَتْ يَدُه ... من الكواكب بالأنفاسِ والكَظَمِ
حاسِبْ ضميرك عن رأي أتاكَ وقُلْ ... نصيحةٌ وَرَدَتْ من غَيْرِ مُتَّهَمِ

وله من أخرى: [الطويل]

أفاتحَ أرضِ النِّيلِ وهْي منيعةٌ ... على كلِّ راجٍ فَتْحَها ومُؤَمِّلِ
متى توقد النار التي أنتَ قادحٌ ... بِغُمْدَان مشبوباً سناها بِمَنْدَلِ[3]
وتَفْتَحُ ما بينَ الحصين وأبْيَنٍ ... وصنعاءَ من حصنٍ حصينٍ ومَعْقِلِ
وتملك من مخلاف طرفٍ وجعفرٍ ... نقيضين من حَزْنٍ خصيبٍ ومُسْهِلِ
وتخلق مُلْكاً لا تُحِيل بفخره ... على أَحَدٍ إلّا على عَزْمِكَ العَلي

وله من قصيدةٍ أخرى: [البسيط]

قالوا إلى اليمن الميمونِ رِحْلَتُهُ ... فَقُلْتُ ما دونَه شيْءٌ سوى السَّفَرِ
سَيْرٌ يَسُرُّ بني الدنيا وطِيبُ ثناً ... وطول عُمْرٍ كذا يُحكى عن الخضِرِ
لا توقدَنَّ لها النار التي خمدت ... خفّض عليك تَنَلْ ما شِئْتَ بالشَّرَرِ

---

(١) انظر الأبيات في شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٥٠ ـ ٥١، وفي شفاء القلوب ١١ بيتاً.
(٢) في شفاء القلوب: «لم يترك» بدل: «كم يترك».
(٣) مندل: بلد بالهند منه يجلب العود الفائق الذي يقال له العود المندلي (معجم البلدان ٥/ ٢٠٩).

الـمـالُ مـلءُ يـدِ والـقَـوْمُ مـلـكُ يـدِ ولا أطـيـل وهـذا جـمـلـة الـخَـبَـرِ

قال ابن أبي طيّ: ووافق ذلك أنه كاتَبَه رجلٌ من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم وأطمَعَه في المعاونة، لأنَّ صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدَّى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه، وتجهَّز، ثم دخل على أخيه السُلطان، واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له، وأطلق له مُغَلّ قُوص سنة، وزوَّده فوق ما كان في نفسه، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عمَّن سَيَّره من حلقته. وسار في البر والبحر، في البر العساكر وفي البحر الأسطول، يحمل الأزواد والعُدَد والآلات. فوصل إلى مكة ـ شَرَّفها الله تعالى ـ فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن، فوصل زَبيد في أوائل شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جَمٍّ وعدد كثير، فهجم زَبيد وتسلَّمها، واحتوى على ما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبيّ أخي علي بن مهدي.

ثم رحل إلى عَدَن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عَنْوَةً، وولاها عز الدين بن الزَّنجيلي. ثم سار إلى المخلاف، وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي، كتعز وغيرها، وسار إلى صَنْعاء بعد فتح مدينة الجَنَد وغيرها، فأحرقت صَنْعاء، فدخلها شمس الدولة، فلم يجد بها إلا شيخاً وامرأة عجوزاً، فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلَّة المِيرة، فرجع إلى زَبيد، فوجد ابن منقذ قد قتل عبدَ النبي ابن مهدي. وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد الأمير سيف الدولة المبارك بن منقذ وأمره بحمله، فلما بَعُدَ شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره، فرأى المصلحة في قَتْله، فقتله ابن منقذ بزَبيد، فلما بلغ شمسَ الدولة قَتْلُه استصوبه.

ولما حصل شمس الدولة في زبيد أنفذ إليه صاحب طَمَار وصالحه هو وباقي الملوك على أداء المال. ثم تتبَّعَ تلك الحصون والقلاع، فاحتوى عليها جميعها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك النَّاصر، فأرسل إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان، وخَوَّله من ملك البُلْدان، فأرسل نورُ الدين مهذب الدين أبا الحسن علي بن عيسى النَّقَّاش[1] بالبشارة بذلك إلى بغداد[2].

---

(١) ولد ببغداد، وتعلم بها، قدم الشام ودخل في خدمة نور الدين حتى توفي نور الدين، وخدم طبيباً لصلاح الدين الأيوبي بعد ملكه دمشق، توفي يوم السبت ١٢ محرم سنة ٥٧٤هـ (عيوان الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٦٣٥ ـ ٦٣٦).

(٢) انظر خبر فتح اليمن في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٢ ـ ٥٣: ذكر ملك شمس الدولة زبيد وغيرها من بلاد اليمن.

Marfat.com

فصل

[ذكر المبارك بن منقذ المستناب بزبيد]

ذكر العماد ههنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزَبيد ووصفه بأنه من الكُفَاة الكرماء، والدُّهاة ذوي الآراء. وهو فاضلٌ من أهل بيت فضل، كتب إلى العماد من شعره: [الكامل]

لما نزلتُ الدَّيْر قُلْتُ لصاحبي ... قُمْ فَاخْطُبِ الصَّهْبَاءَ من شَمَّاسِهِ
فأتى وفي يُمْناه كأسٌ خِلْتُها ... مقبوسةً في اللَّيل من نِبْراسِهِ
وكأنَّ ما في كأسه من خَدِّه ... وكأنَّ ما في خَدِّه من كاسِهِ
وكأنَّ لذَّةَ طَعْمِها من رِيقِهِ ... وأريجَها الفَيَّاحَ مِنْ أنفاسِهِ
لم أنسَ ليلةَ شُرْبِها بغنائه[1] ... إذْ باتَ يجلوها على جُلَّاسِهِ
إذ قام يسقينا المُدَامَ وكلما ... عاتبتُه ردَّ الجواب براسِهِ

قلت: ومدَحَه أبو الحسن بن الذرَوي المِصْري[2] بقصيدةٍ غَرَّاء ذاليّة، ما أظنُّ أنه نُظم على قافية الذال أرق منها لفظاً وأروق معنى، أوّلها: [الطويل]

لك الخَيْرُ عَرِّجْ بي على رَبْعِهِمْ فذي ... ربوع يفوحُ المِسْكُ من عَرْفها الشَّذي

يقول فيها:

مَبَارِكُ عِيشِ الوفد بابُ مباركٍ ... وهل منقذ القُصَّاد غيرُ ابن مُنْقِذِ

[تسيير نور الدين البشارة لبغداد بفتح اليمن وكسره الروم]

قال العماد: ثم سيَّر نور الدين إلى بغداد بشارةً بأمرين، أحدهما فتح اليمن، والآخر كسر الرُّوم مرة ثانية ومقدَّمهم الدوقس كلمان ـ وكان قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوباً أطلساً ـ وسيَّر معه أسرى من الرُّوم، وذلك في شعبان هذه السَّنة.

ومما تضمَّنه كتاب البشارة: ولم يَنْجُ من عشرة آلاف غير عشرة حُمْرٍ مستنفرة، فَرَّت من قَسْورة.

---

(١) بغنائه: كذا بالأصل، ولم أجد لها معنى يوافق السياق، ولعلها تصحيف كلمة: بفنائه.
(٢) هو علي بن يحيى المصري، أبو الحسن، المتوفى سنة ٥٧٧هـ، تقدّمت ترجمته.

Marfat.com

وقبلَ ذلك بشهرين سُيِّرَتْ قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد، أوَّلها: [البسيط]

أطاع دمعي، وصبري في الغَرَام عَصَى ... والقَلْبُ جُرْع من كأسِ الهوى غُصَصا
وإنَّ صَفْوَ حياتي ما يُكَدِّرُه ... إلا اشتياقي إلى أحبابيَ الخُلَصا
ما أطيب العيشَ بالأحبابِ لو وصلوا ... وأسعدَ القلبَ من بلواه لو خَلَصا
من ذا الذي سار سيري في ولائِكُمُ ... غداة قال العِدَى لا سير عند عصا
قد نال عبدُك محمودٌ بها ظَفَراً ... ما زال يرقُبه من قَبْلُ مُرْتَبِصا
مِنْ خوف سطوته أنَّ العدوَّ إذا ... أمَّ الثُّغورَ على أعقابه نَكَصَا

وكَلِفَ نور الدين في هذه السنة بإفادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصَّدقات، وتوفير النفقات، وكسوة النِّسْوة الأيامى في أيامها، وإغناء فقراء الرَّعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعَوْن الضعفاء وتقوية المُقْوين[1] بعدله.

ثم ذكر ما قَدَّمنا ذكره في أول الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة.

[نزول نور الدين إلى المدرسة العمادية]

قال العماد: وفي يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة، وجلسنا نحن في ديوانه، حافلين في إيوانه، لبسط عَدْله وإحسانه، وتنفيذ أوامر سُلْطانه. فجاءني من أخبرني أنَّ نور الدين نزل إلى المدرسة التي أتولاها، وبسط سجادته في قبلتها لسُنَّةِ الضُّحى وصلَّاها. فقمتُ في الحال، ومضيت على الاستعجال، فلقيته في الدِّهليز خارجاً، في أجر العبادة ناجحاً ولنهج العادة ناهجاً. فلما رآني توقَّف، ولقولي تشوَّف، فقلت له: إنَّ الموضع قد تشرَّف؛ أما ترى أنه من أيام الزلزلة قد تشعَّث؟ فلما رأى حاله تلبَّث، وقال: نعيدُه إلى العمارة، ونكسوه حُلَل النَّضارة. ثم حملت له وجوه سكر، وشيئاً من ثياب وطيب وعنبر، وكتبتُ معها هذه الأبيات: [السريع]

عند سليمان على قَدْره ... هَدِيَّةُ النَّمْلَةِ مَقْبُولَهْ
ويصغر المملوكُ عن نَمْلَةٍ ... عندك والرَّحمةُ مأمُولَهْ
رِقِّي لمولانا وملكي له ... وذمَّتي بالشُّكْرِ مَشْغُولَهْ
وكيف يقضي الحقَّ ذو مُنَّةٍ ... ضعيفةٍ بالعَجْزِ مَغْلُولَهْ

(١) أقوى الرجل: نفد طعامه، وفني زاده.

Marfat.com

وإنَّـمـا شـيـمـةُ مَـوْلـى الـوَرَى طـاهـرةٌ بـالـخـيـر مَـجْـبُـولـهْ

قال: وكان رأى قِبْلَة المدرسة غير مُفصَّصة، وبالترخيم والتذهيب غير مخصَّصة، فنفذ لي لعمارتها فصوصاً مُذهبة وذهباً. ثم حُمَّ مقدور حِمامه، وعاق القدر عن إتمامه. ودُفعتُ إلى المَوْصِل فرأيتُه في المنام، وهو يجاريني في الكلام، ويقول ما يعود إلى المدرسة معناه، وقال: الصَّلاةَ الصَّلاة. فعرفت أنه أشار إلى المحراب، وأنه الآن على هيئة الخراب، فكتبتُ إلى الفقيه الذي كان عنده الذهب أن يشرع في عمارته، ودخلت دمشق يوم فراغ الصَّانع منه.

فـصـل

[وصول رسول نور الدين إلى مصر مطالباً صلاح الدين بحساب البلاد وإرسال صلاح الدين هدية إلى نور الدين]

قال ابنُ أبي طيّ: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القَيْسَراني إلى الدِّيار المصرِيَّة، واجتمع بالسُّلْطان الملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين، وطالبه بحساب جميع ما حَصَّله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد. فصَعُبَ ذلك على السُّلْطان وأراد شَقَّ العصا لولا ما ثاب إليه من السَّكينة والعقل، فأمر بعمل الحساب، وعرضه على ابن القَيْسَراني، وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وكميات جامكياتهم[1] ورواتب نفقاتهم. فلما حَصَلَ عنده جميعُ ذلك أرسل معه هديَّة إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى[2].

قال: ووقفت على برنامج شرحها بخطِّ الموفق بن القَيْسَراني وهي خمس ختمات، إحداها ختمة ثلاثون جُزْءاً مغشَّاة بأطلس أزرق، مضببة[3] بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب، مكتوبة بذهب بخط يانس، وختمة بخط راشد مغشَّاة بديباج

(١) الجامكيات: جمع جامكية، وهي من الفارسية: جامة بمعنى اللباس والجامكية في الاصطلاح هي الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر، ومن ناحية منحة (التعريف بمصطلحات الصبح ص٥٩).

(٢) هو عيسى بن محمد الهكاري، ضياء الدين، توفي سنة ٥٨٥هـ، وهو من أعيان أمراء عسكر صلاح الدين، ومن قدماء الأسدية، وكان فقيهاً جندياً شجاعاً كريماً، ذا عصبية ومروءة، (الكامل في التاريخ ١٠/ ١٩٠).

(٣) مضببة: أي ملبسة.

Marfat.com

فُسْتُقي عشرة أجزاء. وختمة بخطِّ ابن البَوَّاب، مجلَّد واحد بقفل ذهب. وختمة بخطّ مهلهل، جزء واحد، وختمة بخطّ الحاكم البَغْدادي، ثلاثة أحجار بَلَخْش[١]؛ حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف. ست قصبات زمرُّد، قَصَبة وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلث وربع، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث. وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل، وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس، مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً، خمسون قارورة دهن بَلَسان، عشرون قطعة بلَّور، أربعة عشر قطعة جزع، وذكر تفصيلها؛ إبريق يشم[٢]، طشت يشتم سقرق مينا[٣] مُذْهب؛ صحون صيني وزبادي وسكارج[٤]. أربعون قطعة عود طيب، قطعتان كبار، كُرَتان وزن إحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري والأخرى أحد وعشرون رطلاً. مائة ثوب أطلس. أربعة وعشرون بَقْياراً[٥] مذهبة، أربعة وعشرون ثوباً حريري. أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيض. حُلَّة فلفلي مُذْهبة. حُلَّة مرايش صفراء مُذْهبة. وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مئتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعِدَّة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السِّلاح على اختلاف ضروبه.

قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك، لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها. وقيل: إنها وصلت جميعها إلى السُّلْطان، لأنه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من رَدَّها.

قال: وحدَّثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالاً لم يُعْلَم مقداره.

وقال العماد: ولما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين، وهو الموفق خالد، أطلعه على كل ما هو فيه، وأحصى له الطَّريف والتالد، وقال: هؤلاء

---

(١) تقدم التعريف بحجر البلخش.

(٢) تقدم التعريف باليشم.

(٣) مينا: الزجاج المنقوش.

(٤) سكارج: جمع سكرُجة، وهي إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وكل ما يوضع فيه الكوامخ ونحوها على المائدة حول الأطعمة للتشهي والهضم (الوسيط: ٤٣٩).

(٥) البقيار: فارسية، وهي العمامة الكبيرة التي يعتمرها الوزراء والكتّاب والقضاة.

Marfat.com

الأجناد فاعرضهم وأثبت أخبازهم، وما يُضْبط مثل هذا الإقليم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدَّوْلة وعظماءها، وأنهم اعتادوا على السَّعَة والدَّعة نُهاءها، وقد تصرَّفوا في مواضع لا يمكن انتزاعها، ولا يسمحون بأن يَنْقُصَ ارتفاعها؛ فالموارد مشفوهة، والشَّدائد مكروهة، والمقاصد بردعها مجبوهة، والهمم بها مشدوهة، وشَرَعَ في جمع مال يُسيِّره ويحمله، بجهدٍ يبذلُهُ، وبخطر يحتمله، وحصل لخالد منه ما لم يكن في خَلَده، وجاء مُطَرَّفُ غناه أضعافَ مُتَّلده.

فصل

في صَلْبِ عُمارة اليمني الشَّاعر وأصحابه[1]

قال العماد: واجتمع جماعة من دُعاة الدولة المصرية المتصعبة، المتشدِّدة المتصلِّبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخُفْية، واعتقدوا أمنيَّة، عادت بالعُقْبى عليهم منيَّة، وعينوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرَّأي والتَّدْبير، وبيَّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل، وكان عمارة اليمني الشاعر[2] عقيدهم، ودعا للدَّعوة قريبهم وبعيدهم.

وكانوا قد أودعوا سرَّهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أضاعه، وأدخلوا عِدَّة من أنصار الدولة النَّاصرية في جملتهم، وعرفوهم بجهلتهم.

وكان الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا[3] يُناجيهم فيما زُيِّنَ لهم من سوء أعمالهم، ويداخلهم في عزم خروجهم مطلعاً على أحوالهم، وتقاسموا الدُّور والأملاك، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم، وما سوَّلوه من مُرَاد مرادهم، وطلب ما لابن كامل الدَّاعي[4] من العَقَار والدُّور، وكل ماله من الموجود والمذخور. فبذل له السُّلْطان كل ما طلبه، وأمره بمخالطتهم ورغَّبه.

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٣ ـ ٥٥: ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين.

(٢) عمارة اليمني: تقدّمت ترجمته.

(٣) هو علي بن إبراهيم بن نجا، المعروف بابن نجيّة، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة ٥٩٩هـ بمصر، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين في وفيات سنة ٥٩٩هـ.

(٤) ابن كامل الداعي: هو أبو القاسم، هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدعاة، وقاضي القضاة لمن أرادوا الوثوب بصلاح الدين ستأتي ترجمته بعد قليل.

Marfat.com

ثم أمر السُّلْطان بإحضار مقدَّميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يوم السبت ثاني شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين، منهم عُمارة، وأفنى بعد ذلك من بقي منهم، ومات بموتهم الخبر عنهم.

وكان منهم داعي الدُّعاة ابن عبد القوي، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه، فباد ولم يسمح بإبدائها، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك الدفائن مخزونة، قد دُفِنَ دافنها، وخُزن تحت الثَّرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الوصول إليها، والاطلاع عليها. وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام، للاستعانة به على حماية ثغور الإسلام.

قال ابنُ أبي طيّ: وفي هذه السنة اجتمع جماعةٌ من دُعاة المصريين والعوام، وتآمروا فيما بينهم خُفْيةً، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذُّلِّ والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً، وتجمعوا هم وجماعة عَيَّنوهم من الأمراء وغيرهم، وأن يكاتبوا الفرنج، ويَثِبوا بالملك النَّاصر. وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، وواعدوا جماعةً من شيعة المصريين ليلة عَيَّنوها، وكاتبوا الفرنج بذلك، وقرَّروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرَّر، فخانهم ابنُ مصال فيما عاهدهم عليه، ونكث في اليمين وكَفَّر عنها، وصار إلى الملك النَّاصر، وعرَّفه بجليَّة ما جرى.

فأحضرهم واحداً واحداً وقرَّرهم على هذه الحالة، فأقرُّوا واعترفوا، واعتذروا بكونهم قُطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم. فأحضر السُّلْطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم.

وقيل: إن الذي أذاعَ سِرَّهم زين الدين علي الواعظ، وطلب جميع ما لابن الدَّاعي من العَقَار والمال، فأعطاه جميع ذلك.

وكان الذين صلبوا منهم المُفَضَّل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الدَّاعي، والعوريس وكان قَد تولَّى النَّظر ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصَّمد القشة أحد أمراء المصريين، ونجاح الحَمَّامي، ورجل منجم نصراني أرمني كان قال لهم إن أمرهم يتمُّ بطريق علم النُّجوم، وعُمارة اليمني الشَّاعر.

قلت: وبلغني أن عُمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتمَّ هذا الأمر، لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين، وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه.

قال العماد في «الخريدة»[1]: ووقعت اتِّفاقات عجيبة من جملتها أنه نُسِبَ

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١٠٤.

Marfat.com

إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حَرَّض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن، أوَّلها: [البسيط]

العِلْم مذ كان محتاجٌ إلى العَلَم

وقد تقدم ذكرها، وأما البيت فهو: [البسيط]

قد كان أولُ هذا الدين من رَجُلٍ سعى إلى أنْ دَعُوه سيِّدَ الأُمَمِ

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرَّضوا السلطان على المُثْلَة بمثله.

قال: ولعُمارة في مصلوب بمصر يقال له طَرْخان، وكان خرج على الصَّالح بن رُزِّيك، فظفر به الصَّالح وصلبه، وكان يستحسن أبيات عُمارة فيه، وهي: [الوافر]

أرادَ عُلُوَّ مَرْتَبَةٍ وقَدْر فَأَصْبَحَ فوقَ جِذْعٍ وهو عالي
ومُدَّ على صَليبِ الجِذْعِ منه يمينٌ لا تطولُ على الشِّمالِ
ونكَّسَ رأسهُ لعتابِ قَلْبٍ دعاه إلى الغَوايةِ والضَّلالِ

قال العماد[1]: فكأنه وصف حاله، وما آل إليه أمره.

وقال في «البرق»: ووصلَ من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية وهو بخط ابن قُريش، يعني المرتضى.

وقال ابنُ أبي طيّ: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً شَرَحَ فيه قضية المصلّبين، فقال بعد مطلع الكتاب: قصر هذه الخدمة على متجددٍ سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كُلِّه، بعد أن كانت لها مقدِّمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النُّجح، وأوائل كالليلة البهيمة[2] إلا أنها انفرجت عن الصُّبْح، فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً، وضرب في البلاد بجِرَانه[3] بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلاً عجيباً، إلا أن الله سبحانه أطلع على أمرها من أوَّله، وأظهر على سِرِّها من مستقبله، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويعرض عن ذكر الأثر:

لم يزل يُتوسم من جُنْد مصر ومن أهل القصر بعدما أزال الله من بِدْعتهم،

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١٠٩ ـ ١١٠.
(٢) الليلة البهيمة: هي الليلة التي لا يطلع فيها القمر، والمظلمة الحالكة.
(٣) ضرب في البلاد بجرانه: أي ثبت واستقر.

ونقض من عُرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء وإن قعدت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمةُ الإسلام. وكان لا يحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكَّلة، وخطراته في التحرز منهم مستعملة، لا تخلو سنةٌ تمر، ولا شهر يكرّ، من مكرٍ يجتمعون عليه، وفساد يتسرَّعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدةٍ يتمُّمونها. وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى، التي يوسّعون لهم فيها سُبُلَ المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم الفظائع، ويزيّنون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها رِبْقة الإسلام خلع المرتدّ المخصوم؛ ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون حَبْلَ طمعهم على عادتهم. وكان ملك الفرنج كلما سَوَّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم. والتحيُّلَ في مفاوضتهم، سَيَّرَ جُرج كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارِضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قَطُّ أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا. ولأهل القَصْرِ والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردَّد، وكتب إلى الفرنج تتجدَّد.

ثم قال: والمولى عالمٌ أنَّ عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألا يبسطوا عقاباً مؤلماً، ولا يعذِّبوا عذاباً محكماً، وإذا طال لهم الاعتقال، ولم ينجع السؤال، أطلق سراحهم، وخَلَّى سبيلهم، فلا يزيدهم العفوُ إلا ضراوة، ولا الرِّقَّة عليهم إلا قساوة. وعند وصول جُرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتابٌ ممن لا نرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسول مخاتلة، لا رسول مجاملة، وحامل بَلِيَّة، لا حامل هديَّة، فأوهمناه الإغفال عن التيقُّظ لكل ما يصدر منه وإليه، فتوصَّل مرَّة بالخروج ليلاً، ومرَّة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهاراً، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخُدَّامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكُتَّابهم، فدسسنا إليهم من طائفتهم مَنْ داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم. ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهرُ علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذا الجنس متمرِّدة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسَّرائر المنافقة، فكلاً أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقرَّ طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقرَّ بعد ضربه، فانكشفت أمور أُخَر كانت مكتومة، ونُوَبٌ غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد، متفقة في الفساد.

ثم ذكر تفصيلاً، حاصِلُه أنهم عيَّنوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم

Marfat.com

من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحدٍ من ولدين له. وأما بنو رُزِّيك وأهل شاور فكلٌّ منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

ثم قال: وكانوا فيما تقدَّم، والمملوك على الكَرَك والشَّوْبك بالعسكر، قد كاتبوهم وقالوا لهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صَدْر أو إلى أيْلَة ثارت حاشية القَصْر وكافة الجُنْد وطائفة السُّودان وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: ولما وصل جُرج كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلَّاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بَعْضُهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلان مَنْ عنده وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدَّم ذكره من الثورة.

ثم قال: وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سِناناً[1] صاحب الحشيشيَّة بأن الدَّعوة واحدة والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترقُ به كلمة، ولا يجب به قعودٌ عن نُصْرة. واستدعوا منه من يُتمّم على الملوك غيلة، أو يبيت له مكيدة وحيلة، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠﴾ [البروج: ٢٠] وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قَرْجَلَّة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج.

---

(١) هو سنان بن سلمان بن محمد بن راشد ابن البصري، المتوفى سنة ٥٨٨هـ، وقد قال عنه ابن جبير في رحلته، وقد مرّ بالقرب من ديار الإسماعيلية: قيض لهم شيطان من الإنسان يعرف بسنان، خدعهم بأباطيل وخيالات موّه عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها، فاتخذوه إلّهاً يعبدونه ويبذلون الأنفس دونه... الخ (انظر الأعلام ٣/ ١٤١، شذرات الذهب ٤/ ٢٩٤، رحلة ابن جبير ص٢٤٢ ـ ٢٤٣، معجم البلدان ٤/ ١٣٧، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٧).
وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٣/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨: ومن الإسماعيلية: المستعلوية الذين يعظمون راشد الدين سنان، وهو رجل كان بقلاع الدعوة بأعمال طرابلس من البلاد الشامية في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، انتهت رياستهم إليه. قال في مسالك الأبصار: وكان رجلاً صاحب سيميا، فأراهم بها ما أضل به عقولهم، من تخييل أشخاص من مات منهم على طاعة أئمتهم في جنات النعيم، وأشخاص من مات منهم على عصيان أئمتهم في النار والجحيم، فثبت ذلك عندهم واعتقدوه حقاً، ومن قدح في ذلك فقد دخل في أهل الضلال، ويقدحون في ابن السلار، ويسفهون رأي صلاح الدين فيما كان منه من إزالة الخطبة للفاطميين وحط رايتهم الصفراء والخطبة لبني العباس ورفع رايتهم السوداء، وما كان منه من الفعلة التي استولى بها على قصر الفاطميين ومن فيه، وأخذ أموالهم بعد موت العاضد.

ولما صحَّ الخبر، وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدبُ الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشَّرْع المطهَّر جماعةً من الغُواة الغُلاة، الدُّعاة إلى النَّار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفُجَّار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصُلبوا على الجُذُوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبُّعُ لأتباعهم، وشُرِّدت طائفة الإسماعيلية ونفوا، ونودي بأن يرحل كافَّة الأجناد وحاشية القصر وراجل السُّودان إلى أقصى بلاد الصَّعيد. فأما مَنْ في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وَجْهُ رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه المستخار، وهو المستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديده. ورأى المملوك إخراجهم من القصر، فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادَّة لا تنحسم الأطماعُ عنها، فإنه قِبْلة للضَّلال منصوبة، وبِيعَة للبدع محجوجة.

قال المؤلف: لعلَّها محجوبة.

ومما يطرفُ به المولى أن ثَغْرَ الإسكندرية على عموم مذهب السُّنَّة فيه، أَطْلَعَ البحث أن فيه داعيةً خبيثاً أمره، محتقراً شَخْصُه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الدِّيار المصرية، قد فَشَتْ في الشَّام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وأن أرباب الكمايش فيه يحملون إليه جُزْءاً من كسبهم، والنِّسْوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهنّ، ووجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض له، والهَجْم عليه، كُتب مجرَّدة فيها خلع العِذَار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعرُّ منه الجلود، وكان يدَّعي النَّسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً، ونشأ على الضَّلالة كبيراً، وبالجملة فقد كُفي الإسلام أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره.

قلت: وفي قضية عُمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكِنْدي[1] رحمه الله، ونقلته من خَطِّه: [الطويل]

عُمارة في الإسلام أبدَى جناية ... وبايع فيها بِيعةً وصَليبا

(١) تاج الدين الكندي: هو زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي البغدادي، تاج الدين، أبو اليمن المقري النحوي، ولد سنة ٥٢٠هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦١٣هـ، من تصانيفه: «إتحاف الزائر وأطواق المقيم المسافر»، «حاشية على شرح ديوان المتنبي للواواء الدمشقي»، «شرح خطب ابن نباتة»، «مشيخة على حروف المعجم»، «نتف اللحية من أبي دحية»، (كشف الظنون ٥/ ٣٧٧، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٣هـ).

Marfat.com

وأمسَى شريك الشِّرْك في بُغْضِ أحمدٍ فأصبح في حُبِّ الصَّليبِ صَلِيبا
وكان خبيثَ الملتقى إنْ عَجَمْتَهُ تَجِدْ منه عوداً في النِّفاقِ صَليبا
سيلقى غداً ما كان يسعى لأجله ويُسْقى صَديداً في لظًى وصَلِيبا

قلت: الصليب الأول صليب النَّصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصَّلابة، والرابع وَدَك العظام، وقيل: هو الصَّديد، أي يُسْقى ما يسيلُ من أهل النَّار، نعوذ بالله منها.

وكان عُمارة مستشعراً من الغُزِّ وهم أيضاً منه، لأنه كان من أتباع الدولة المصرية، وممن انتفع بها واختلَّ أمره بعدها، فلم تَصْفُ القلوب بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه، في نَظمه ونثره، ما يقتضي التحرُّز منه وإبعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن مدحهم تكلَّف ذلك وصرَّح، وعرَّض فيه بما في ضميره.

وقد قال في كتاب «الوزراء المصرية»: ذكر الله أيامهم بحمدٍ لا يَكِلُّ نشاطه، ولا يُطْوى بساطُه، فقد وجدتُ فَقْدَهم، وهُنْتُ بعدَهم.

وقال من قصيدة مَدَح بها نجم الدين أيوب: [البسيط]

وكان لي في ملوك النِّيل قبلَكُمُ مكانةٌ عرفتها العُرْبُ والعَجَمُ
وكان بيني وبين القَوْمِ مَلْحَمَةٌ في حربها ألْسُن الأديان تَخْتَصِمُ
وما تزال إلى داري عوارفهم يسعى إليَّ بها الإنعامُ والكَرَمُ
تَرَكْتُ قَصْدَكَ لمّا قيل إنك لا تجودُ إلا على من مَسَّه العَدَمُ
ولستُ بالرَّجُلِ المجهولِ مَوْضِعُهُ ولا لِنَزْرٍ من الإحسانِ أغْتَنِمُ
ولا إلى صدقات المال أطلُبها ولا عمّى نال أعضائي ولا صَمَمُ
وإنما أنا ضيفٌ للملوك ولي دونَ الضيوفِ لسانٌ ناطِقٌ وفَمُ

وقال من قصيدةٍ مَدَح بها صلاح الدين رحمه الله تعالى: [الخفيف]

قَرَّرَتْ لي أبناءُ رُزِّيك رِزْقاً كان في عَصْرِهم مسنًّى مُهَنَّا
وأتَتْ بَعْدَهُمْ ملوكٌ فَسَنُّوا فيَّ ما كانَ صالحُ القَوْمِ سَنَّا
ورَعَوْني إما اقتداءً بماضٍ أو لمعنًى فكلُّهمْ بي يُعَنَّى

وله من أُخرى: [الطويل]

فقد صارت الدُّنيا إليكُمْ بأَسْرِها فلا تَشْبَعُوا منها ونحنُ جِياعُ
إذا لم تزيدونا فكونوا كمن مَضَى ففي النَّاس أخبارٌ لهم وسَمَاعُ

Marfat.com

وليس على مُرِّ الفِطَامِ إقامةٌ فهل في ضُروع المكرمات رِضاعُ

وقال في قصيدةٍ مَدَح بها تقيَّ الدين: [الكامل]

هل تأذنونَ لمن أراد عِتابكم أم ليس في إعتابكم من مَطْمَعِ
ضيَّعْتُمُ من حَقِّ ضَيْفِكُمُ الذي ما زالَ قَبْلَ اليوم غيرَ مُضَيَّعِ
وتغافَلَ السُّلْطانُ عني حين لم أَكْشِفْ قِناعَ مَذَلَّةٍ وتَضَرُّعِ
وَرَجَوْتُ نَفْعَك بالشَّفاعةِ عندَه فَسَمَحْتَ لي بشفاعةٍ لم تَنْفَعِ
وإذا نطاقُ الرِّزْقِ ضاقَ مجالُه أمسى مجالُ النُّطْقِ غيرَ مُوَسَّعِ

وقال أيضاً: [الكامل]

تيمَّمْتُ مِصْراً أطلبُ الجاه والغِنى فَنِلْتُهُما في ظِلِّ عَيْشٍ مُمَتَّعِ
وَزُرْتُ ملوكَ النِّيلِ أرتادُ نَيْلَهُمْ فأحمدَ مُرْتادي وأخْصَبَ مَرْبَعي
وَفُزْتُ بألفٍ من عطيَّةِ فائزٍ مواهِبُه للصُّنْعِ لا للتَّصَنُّعِ
وكم طرقتني مِنْ يَدٍ عاضِدِيَّةٍ سَرَتْ بين يَقْظَى من عُيونٍ وهُجَّعِ
وجاد ابنُ رُزِّيكٍ من الجاه والغِنى بما زاد عن مَرْمى رجائي ومَطْمعي
وأوحى إلى سمعي ودائعَ شِعْره فحَبَّرْتُهُ مني بأكرم مُودَعِ
وليست أيادي شاورٍ بذميمةٍ ولا عَهْدُها عندي بعهدٍ مُضَيَّعِ
ملوكٌ رَعَوْا لي حُرْمةً صار نَبْتُها هشيماً رَعَتْهُ النَّائباتُ وما رُعي
مذاهِبُهُمْ في الجُودِ مَذْهَبُ سُنَّةٍ وإنْ خالفوني باعتقادِ التَّشيُّعِ
فَقُلْ لصلاح الدين والعَدْلُ شأنُهُ مَنِ الحَاكِمُ المصغي إليَّ فأدَّعي
أقمتُ لكم ضيفاً ثلاثة أشهرٍ أقول لصَدْرِي كلما ضاق وَسِّعِ
وكم في ضيوفِ البابِ ممَّن لسانُهُ إذا قطَّعوه لا يقومُ بأُصْبعي
فيا راعيَ الإسلامِ كيف تَرَكْتنا فريقَيْ ضَياعٍ من عَرَايا وجُوَّعِ
دَعَوْناك من قُرْبٍ وبُعْدٍ فَهَبْ لنا جَوابَكَ فالباري يُجيب إذا دُعي

وقال أيضاً: [الكامل]

أسفي على زَمَنِ الإمامِ العاضِدِ أَسَفُ العقيمِ على فِراقِ الواحدِ
جالستُ مِنْ وزرائه وصَحِبْتُ مِنْ أُمرائه أهلَ الثناء الخالِدِ
لهفي على حُجُراتِ قَصْرِكَ إذْ خَلَتْ يا ابنَ النَّبيِّ من ازْدِحامِ الوافِدِ
وعلى انفرادك من عساكرك الذي كانوا كأمواجِ الخِضَمِّ الرَّاكِدِ
قَلَّدْتَ زُتَمِنَ الخِلافةِ أَمْرَهُمْ فكبا وقَصَّرَ عن صَلاحِ الفاسِدِ

Marfat.com

فَعَسى اللَّيالي أن تَرُدَّ إليكمُ ... ما عوَّدَتْكُمْ من جميلِ عَوائِدِ

وقال أيضاً: [الطويل]

قَسَتْ رأفَةُ الدُّنيا فلا الدَّهرُ عاطِفٌ ... عليَّ ولا عَبْدُ الرَّحيمِ رَحِيمُ
عفا الله عن آرائِهِ كلَّ فَتْرَةٍ ... كلامُ العِدَى فيها عليَّ كُلُومُ
وسامَحَهُ في قَطْعِ رِزْقٍ بِفَضْلِهِ ... وَصَلْتُ إليه والزَّمانُ ذَمِيمُ
ألا هَلْ لَهُ عَطْفٌ عليَّ فإنني ... فقيرٌ إلى ما اعتدتُ منه عَدِيمُ

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل[1] رحمه الله تعالى.

وبلغني أن عُمارة لما مَرُّوا به ليُصلب عُبِرَ به على جهة دار الفاضل، فطلب الاجتماع به، فقيل: ليس إليه طريق. فقال: [مجزوء الكامل]

عَبْدُ الرَّحيمِ قَدِ احْتَجَبْ ... إنَّ الخلاصَ هو العَجَبْ

وقال: وهذه القصيدة تحقِّق ما رمي به من الاجتماع على مكاتبة الفرنج والخوض في فساد الدولة بل المِلَّة، وتوضح عُذْر السُّلْطان في قتله، وقتل من شاركه في ذلك: [البسيط]

رَمَيْتَ يا دَهْرُ كَفَّ المَجْدِ بالشَّلَلِ ... وجِيدَه بعد حَلْيِ الحُسْنِ بالعَطَلِ
سَعَيْتَ في منهج الرأي العثور فإنْ ... قَدَرْتَ من عَثَراتِ البغي فاسْتَقِلِ
جَدَعْتَ مارِنَك الأقنى فأنفُكَ لا ... ينفكُّ ما بين نَقْصِ الشَّين والخَجَلِ[2]
هَدَمْتَ قاعِدَةَ المعروفِ عن عَجَلٍ ... سُقِيْتَ مُهْلاً أما تمشي على مَهَلِ[3]
لهفي ولهفُ بني الآمال قاطبةً ... على فجيعتنا في أكرمِ الدُّوَلِ
قَدِمْتُ مِصْرَ فأوْلتني خلائِفُها ... من المكارِمِ ما أَزْبَى على الأمَلِ
قومٌ عَرَفْتُ بهم كَسْبَ الألوفِ ومِنْ ... كمالِها أنَّها جاءَتْ ولم أَسَلِ
وكنتُ من وزراء الدَّسْتِ حيث سما ... رأسُ الحِصانِ بهاديه على الكَفَلِ
ونِلْتُ من عظماءِ الجيشِ تَكْرِمَةً ... وخُلَّةً حُرِسَتْ من عارِضِ الخَلَلِ
يا عاذلي في هَوَى أبناءِ فاطمةٍ ... لك المَلامَةُ إن قَصَّرْتَ في عَذَلِي
بالله زُرْ ساحةَ القَصْرَيْنِ وابْكِ معي ... عليهما لا على صِفِّينَ والجملِ

(١) القاضي الفاضل: عبد الرحيم بن علي بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي البيساني، مجير الدين أبو علي العسقلاني، توفي بمصر سنة ٥٩٦هـ. تقدّمت ترجمته.
(٢) المارن: من الأنف، ما لان منه، جمع موارن.
(٣) المهل: القيح والصديد.

Marfat.com

وقُلْ لأهلهما واللّهِ ما التَحَمَتْ فيكم قُروحي ولا جُرْحي بمُنْدَمِلِ
ماذا ترى كانتِ الإفرنجُ فاعِلَةً في نَسْلِ آلِ أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيءٌ غير قسمة ما مُلْكتمُ بين حُكْمِ السَّبْي والنَّفَلِ
وقد حَصَلْتُمْ عليها واسمُ جَدِّكُمُ محمدٍ وأبيكم غيرُ مُنْتَقِلِ
مَرَرْتُ بالقَصْرِ والأركانُ خاليةٌ من الوفودِ وكانت قِبْلَةَ القُبَلِ
فَمِلْتُ عنها بوجهي خَوْفَ مُنْتَقِدٍ من الأعادي وَوَجْهُ الوُدِّ لم يَمِلِ
أَسْبَلْتُ من أسفٍ دمعي غَدَاةَ خَلَتْ رحابُكُمْ وغَدَتْ مهجورَةَ السُّبُلِ
أبكي على مأثُراتٍ من مكارِمِكُمْ حالَ الزَّمانُ عليها وهي لم تَحُلِ
دارُ الضِّيافَةِ كانت أُنْسَ وافِدكُمْ واليومَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ ومن طَلَلِ
وفطرة الصَّومِ إن أصغت مكارمُكم تشكو من الدَّهرِ حيفاً غَير مُحْتَمَلِ
وكسوة النَّاس في الفَصْلَيْنِ قد دَرَسَتْ ورَثَّ منها جديدٌ عنهمُ وبلي
وموسم كان في كَسْرِ الخليج لكم يأتي تجمُّلُكُمْ فيه على الجَمَلِ
وأوَّلُ العامِ والعيدانِ كان لكم فيهنَّ من وَبْلِ جودٍ ليس بالوَشَلِ[1]
والأرضُ تهتَزُّ في عيدِ الغدير لما يَهتَزُّ ما بينَ قصريكُم مِنَ الأَسَلِ
والخيلُ تعرض من وشيٍ ومن شِيَةٍ مِثْلَ العرائِسِ في حَلْيٍ وفي حُلَلِ
ولا حملتم قِرَى الأضيافِ من سَعَةٍ الـ أطباقِ إلا على الأعناق والعَجَلِ
وما خَصَصْتُم ببرٍّ أهلَ مِلَّتِكُمْ حتى عَمَمْتُمْ به الأَقْصَى من المِلَلِ
كانت رواتبكم للذمتين وللضَّـ (م) ـيْفِ المقيم وللطَّاري من الرُّسُلِ
وللجوامع من أَخْباسِكُمْ نِعَمٌ لمن تصدَّر في عِلْمٍ وفي عَمَلِ
وربما عادَتِ الدُّنيا لِمَعْقِلِها منكم وأضحَتْ بكم محلولةَ العُقُلِ

وقال العماد في «الخريدة»[2]: أبو القاسم، هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدُّعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلَّة العلياء، والمرتبة الشَّمَّاء، والمنزلة في السماء، حتى انكَدَرَتْ نجومُهم، وتَغَيَّرَتْ رسومهم، وأقيم قاعدهم، وعُضِدَ عاضدهم، وأخليت منهم مِصْرهم، وأجلي عنهم قصرهم. فحرَّك ابنُ كامل ناقصَ الذَّبِّ عنهم، والشد منهم، فمالأ قوماً على البيعة لبعض أولاد العاضد، ليبلغوا به ما

(١) الوبل: المطر الشديد الضخم القطر.. والوشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة.
(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

تخيَّلُوه من المقاصد، وسوَّلُوه من المكايد، فأثمرت بجثثهم الجذُوع، وأقْفَرَتْ من جسومهم الرُّبوع، وأُحكمت في لحومهم النُّسوع[١]، وهذا أول من ضَمَّه حبل الصلب، وأمه فاقرة[٢] الصُّلْب. وهذا صنع الله فيمن ألحد، وكفر النعمة وجحد، وذلك غُرَّة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة. سمعتُ الملك النَّاصر صلاح الدين يذكره، وقد ذكروه عنده بالفَضْل والأدب، ونسبوا إليه هذين البيتين في غلام رفاء، وأنشدهما الملك الناصر، وذكر أنه كان ينكرهما[٣]: [مخلع البسيط]

يـا رافـيـاً خَـرْقَ كـلِّ ثَـوْبٍ ... ويَـا رَشـاً حُـبُّـه اعـتـقـادي
عـسـى بِـكَـفِّ الـوِصـالِ تَـرْفُـو ... مـا مَـزَّقَ الـهَـجْـرُ مـن فـؤادي

فـصـل

في التعريف بحال عُمارة ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردتُ شعر عمارة بن أبي الحسن اليمني في كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر»، ونقلتُ إلى هذا الكتاب ـ يعني كتاب «البَرْق الشَّامي» ـ لمعاً من ذلك. فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو محمدٍ بن مَصَال[٤]: [الكامل]

لـو أنَّ قـلـبـي يـوم كـاظـمـةٍ مـعـي ... لـمـلـكـتُـه وكَـظَـمْـتُ غـيـظَ الأدْمُـع

ـ قال العماد: إنما أنشدني فيضَ الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالكظم ـ:

قَـلْـبٌ كَـفَـاكَ مـن الـصَّـبـابَـةِ أنَّـه ... لـبَّـى نـداءَ الـظَّـاعـنـيـن ومـا دُعـي
ومِـنَ الـظُّـنـون الـفـاسِـدَاتِ تَـوَهُّـمـي ... بـعـدَ الـيـقـيـنِ بـقـاءَه فـي أَضْـلُـعـي
مـا الـقَـلْـبُ أَوَّلَ غَـادِرٍ فـألـومَـه ... هـي شِـيـمَـةُ الأيـامِ مُـذْ خُـلِـقَـتْ مـعـي

قال: وأنشدني لعمارة أيضاً[٥]: [الكامل]

مَـلِـكٌ إذا قـابَـلْـتُ بِـشْـرَ جَـبِـيـنـهِ ... فـارَقْـتـهُ والـبِـشْـرُ فـوقَ جـبـيـنـي

---

(١) النسوع: جمع نسع، والنسع هو سير يضفر على هيئة أعنّة النعال تشد به الرحال، ويجعل زماماً للبعير وغيره.
(٢) الفاقرة: الداهية الكاسرة للفقار.
(٣) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٨٧.
(٤) هو نجم الدين بن مصال: ذكره عماد الدين الكاتب الأصفهاني في البرق الشامي ٣/ ١٢٧، وذكر تاريخ وفاته في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ٥٧٤هـ. والأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١٠٦.
(٥) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١٠٦.

Marfat.com

وإذا لَثَمْتُ يمينَهُ وخَرَجْتُ من أبوابه لَثَمَ الملوكُ يميني

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مُزْهَف بن أسامة بن منقذ[١]:

[البسيط]

لي في هوى[٢] الرَّشأ العُذْرِيِّ أَعْذَارُ لم يَبْقَ لي مُذْ أَقَرَّ الدَّمْعُ إنكارُ
لي في القُدُودِ وفي لَثْمِ الخدودِ وفي ضَمِّ النُّهودِ لُبانَاتٌ وأَوْطَارُ
هذا اختياري فَوافِقْ إنْ رَضِيتَ به أوْلا فَدَعْني وما أَهْوَى وأَخْتارُ
لُمني جزَافاً وسامحني مُصارفةً فالنَّاسُ في دَرَجات الحبِّ أَطْوارُ
وخلِّ عَذْلي ففي داري ودائرتي من المَهَا دُرَّةٌ قلبي لها دارُ[٣]

قلت: ويُروى: [البسيط]

وغُرَّ غيري ففي أسري ودائرتي

والأبيات العينية من قصيدةٍ في مَدْح تقيِّ الدين، والنُّونيَّة في مدح نجم الدين أيوب، والرائيَّة في مدح شمس الدولة بن أيوب.

وكان عمارة هذا عربياً فقيهاً أديباً، وله كتابٌ صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن. ثم بمصر[٤]، فذكر أنه أقام بزَبيد ثلاث سنين يُقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه. قال: ولي في الفرائض مصنَّف يُقْرأ باليمن.

وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من إخوتي إلى زَبيد، فأنشدته شيئاً من شعري، فاستحسنه، ثم قال: تعلم والله أن الأدب نعمة من نِعَم الله عليك فلا تكفُرها بذمِّ الناس. واستحلفني ألَّا أهجو مسلماً ببيت شعر، فحلفت له على ذلك، ولطف الله تعالى بي فلم أهجُ أحداً ما عدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح ـ يعني ابن رُزِّيك ـ ببيتي شعر، فأقسَم الصَّالح عليَّ أن أجيبه، ففعلت متأوِّلاً قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. قال: ولم يكن شيء غير هذا.

وحججتُ مع الملكة أم فاتك ملك زَبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع

---

(١) توفي في ثاني صفر سنة ٦١٣هـ، وله من العمر اثنتان وتسعون سنة ونصف (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٣هـ).

(٢) في «خريدة القصر»: «ما عن هوى» بدل: «لي في هوى».

(٣) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٤) هو كتاب «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية».

Marfat.com

ما يتناوله من حاجّ اليمن براً وبحراً، وبجميع خفارات الطَّريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها، فانتفع بها حتى أثرى وكَثُر ماله وجاهه. ثم طرأت أمورٌ اقتضت أنْ هرب من اليمن، وحجَّ سنة تسعٍ وأربعين وخمسمائة.

قال: وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فَلِيتة[1]، وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم[2]، فألزمني السَّفارة عنه والرسالة منه إلى الدولة المِصْرية، فَقَدِمْتُها في شهر ربيع الأول سنة خمسين، والخليفة بها يومئذٍ الفائز بن الظَّافر، والوزير له الملك الصَّالح طلائع بن رُزِّيك، فلما حضرتُ للسَّلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما[3]: [البسيط]

الحَمْدُ للعيسِ بعدَ العَزْمِ والهِمَمِ ... حمداً يقومُ بما أَوْلَتْ من النِّعَمِ
لا أجْحَدُ الحقَّ عندي للركاب يَدٌ ... تمنَّتِ اللُّجْمُ فيها رُتْبَةَ الخُطُمِ
قَرَّبْنَ بُعْدَ مَزَارِ العِزِّ من نَظَري ... حتى رأيتُ إمامَ العَصْرِ من أَمَمِ
ورُحْنَ من كعبة البَطْحاء والحَرَمِ ... وفداً إلى كعبة المعروفِ والكَرَمِ
فهل دَرَى البَيْتُ أني بعد زَوْرَتِهِ ... ما سرتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ
حيثُ الخلافةُ مضروبٌ سُرَادِقُها ... بين النقيضين من عَفْوٍ ومن نِقَمِ
وللإمامةِ أنوارٌ مُقَدَّسَةٌ ... تجلُو البغيضينِ من ظُلْمٍ ومن ظُلَمِ
وللنُّبوَّةِ آياتٌ تنصُّ لنا ... على الخفيَّين من حُكْمٍ ومن حِكَمِ
وللمكارمِ أعلامٌ تعلِّمنا ... مَدْحَ الجزيلين من بَأْسٍ ومن كَرَمِ
وللعُلا ألْسُنٌ تُثْني محامِدُها ... على الحميدين من فِعْلٍ ومن شِيَمِ
وراية الشَّرَفِ البذَّاخِ تَرْفَعُها ... يَدُ الرفيعين من مَجْدٍ ومن هِمَمِ
أقْسَمْتُ بالفائزِ المعصومِ معتقداً ... فَوْزَ النَّجاةِ وأَجْرَ البِرِّ في القَسَمِ
لقد حمى الدِّينَ والدنيا وأهلَهما ... وزيرُه الصَّالحُ الفرَّاجُ للغُمَمِ
اللَّابِسُ الفَخْرَ لم تَنْسُجْ غلائِلَه ... إلا يَدُ الصنعتين السَّيْفِ والقَلَمِ

---

(١) ذكره ابن الأثير في «الكامل» ٩/ ٣٣٤، في حوادث سنة ٥٣٩هـ. وقال: وفيها كانت فتنة عظيمة بين الأمير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوي الحسيني أمير مكة، والأمير نظر الخادم، أمير الحاج، فنهب أصحاب هاشم الحجاج، وهم في المسجد يطوفون، ويصلون، ولم يرقبوا فيهم إلّا ولا ذمة.
وقد ولي هاشم إمارة مكة بعد أبيه سنة ٥٢٧هـ.

(٢) قتل سنة ٥٥٦هـ. انظر العقد الثمين ٧/ ٣٢ ـ ٣٦.

(٣) انظر الأبيات في وفيات الأعيان ٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١١٢ ـ ١١٤.

Marfat.com

وُجُودُهُ أوجد الأيام ما اقترحَتْ ... وَجُودُه أعدَم الشَّاكين للعَدَمِ
قد ملَّكته العَوَالي رقَّ مملكةٍ ... تعيرُ أنفَ الثُّريا عزَّةَ الشَّمَمِ
أرى مقاماً عظيمَ الشَّأنِ أوْهَمَني ... في يقظتي أنها من جُمْلةِ الحُلُمِ
يومٌ من العُمْرِ لم يَخْطُرْ على أَمَلٍ ... ولا تَرَقَّت إليه رَغْبَةُ الهِمَمِ
لَيتَ الكواكبَ تَدْنُو لي فأنظِمَها ... عُقُودَ مَدْحٍ فما أَرْضَى لكم كَلِمي
ترى الوزارة فيه وهي باذِلَةٌ ... عِنْدَ الخِلافةِ نُصْحاً غيرَ مُتَّهَمِ
عواطِفٌ أعلمتنا أنَّ بينهما ... قرابةً من جميلِ الرَّأيِ لا الرَّحِمِ
خليفةٌ ووزيرٌ مَدَّ عَدْلُهما ... ظلّاً على مَفْرِقِ الإسلامِ والأُمَمِ
زيادةُ النِّيلِ نَقْصٌ عند فَيْضِهِما ... فما عسى نَتَعاطى مِنَّةَ الدِّيَمِ

قال: وعهدي بالصَّالح وهو يستعيدها في حال النشيد مراراً، والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب. ثم أُفيضت عليَّ خِلَعٌ من ثياب الخلافة مُذْهَبة، ودفع إليَّ الصَّالح خمسمائة دينار، وإذا بعض الأستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينارٍ أخرى، وحُمل المال معي إلى منزلي، وأُطلقت لي من دار الضيافة رسومٌ لم تُطْلق لأحدٍ قبلي، وتهادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم، واستحضرني الصَّالح للمجالسة، ونظمني في سِلْك أهل المؤانسة، وانثالت علي صِلاتُه، وغمرني بِرُّهُ.

وَوَجَدْتُ بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بن الحباب[1]، والموفق أبا الحجَّاج يوسف بن الخلَّال[2] صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس[3]، والمهذَّب أبا محمد الحسن بن الزَّبير[4]، وغيرهم، وما من هذه الحَلْبة أحدٌ إلا ويَضْرِبُ في الفضائل النفسانية والرِّياسة

---

(١) في وفيات الأعيان ٧/ ٢٢٣: الجليس بن الجبّاب، بالجيم المعجمة، والباء المشددة، وكذلك في فوات الوفيات ٢/ ٣٣٢، وهو الأصح.

(٢) توفي في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٦هـ، انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧.

(٣) هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس، القاضي الكاتب المصري، وصاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، أصله من دمياط، توفي سنة ٥٥١هـ (فوات الوفيات ٤/ ١٠٠ ـ ١٠١).

(٤) هو الحسن بن أبي الحسن علي ابن القاضي الرشيد إبراهيم بن الحسين بن الزبير الغساني، أبو محمد الأسواني، المصري، المعروف بالقاضي المهذب، توفي سنة ٥٦١هـ، تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

Marfat.com

الإنسانية بأوفر نصيب، وما زلت أحذو على طرائقهم حتى نظموني في سِلْكِ فرائدهم، وقلتُ: [الطويل]

لياليَ بالفُسْطاط من شاطئيْ مِصْرِ ... سقى عَهْدَك الماضي عِهادٌ من القَطْرِ[1]
ليالٍ هي العُمْرُ السَّعيدُ وكلُّ ما ... مضى في سِواها لا يُعَدُّ من العُمْرِ
أفادتنيَ الأقْدار فيها مَواليا ... صَفَتْ بهمُ الأيامُ من كَدَرِ الغَدْرِ
تواصَوْا على ألا تُرَدَّ إرادتي ... ولو سُمْتُهُمْ نَثْرَ الكواكبِ في حِجْري

وله في الصَّالح بن رُزِّيك من قصيدة: [الطويل]

ولو لم يكن أدرى بما جَهِلَ الورى ... من الفَضْلِ لم تَنْفُقْ لديه الفَضَائِلُ
لئن كان منا قابَ قَوْسٍ فبيننا ... فراسخُ من إجلاله ومَرَاحِلُ

قال: وأنشدتُ الصَّالح وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدةٍ، منها[2]: [الطويل]

دعُوا كلَّ بَرْقٍ شِمْتُمُ غَيْرَ بارِقٍ ... يلوحُ على الفُسْطاط صادِقُ بِشْرِهِ
وزوروا المقامَ الصَّالحيَّ فكلُّ من ... على الأرض يُنْسى ذِكْرُه عند ذِكْرِهِ
ولا تجعلوا مَقْصُودَكُمْ طَلَبَ الغِنى ... فَتَجْنُوا على مَجْدِ المقام وفخْرِهِ
ولكن سَلُوا منه العُلا تَظْفروا بها ... فكلُّ امرئٍ يُرْجى على قَدْرِ قَدْرِهِ

قال: ولما جلس شاور في دار الذَّهب قام الشُّعراء والخُطبَاء ولفيفُ الناس إلا الأقل ينالون من بني رُزِّيك وضِرْغام نائب الباب، ويحيى بن الخيَّاط الأسفهسلار، فأنشدته: [البسيط]

صَحَّتْ بدَوْلتك الأيامُ من سَقَمِ ... وزال ما يشتكيه الدَّهْرُ من أَلَمِ
زالت ليالي بني رُزِّيك وانْصَرَمَتْ ... والحمدُ والذمُّ فيها غَيْرُ مُنْصَرِمِ
كأنَّ صالحهم يوماً وعادِلَهم ... في صَدْرِ ذا الدَّسْتِ لم يَقْعُدْ ولم يَقُمِ
كنَّا نَظُنُّ وبعضُ الظَّنِّ مأثمةٌ ... بأنَّ ذلك جَمْعٌ غَيْرُ مُنْهَزِمِ
فمذْ وَقَعْتَ وقوعَ النَّسْرِ خانَهُمُ ... مَنْ كان مجتمعاً من ذلك الرَّخَمِ
ولم يكونوا عدوّاً ذلَّ جانِبُهُ ... وإنما غَرِقُوا في سَيْلك العَرِمِ
وما قَصَدْتُ بتعظيمي عِدَاك سوى ... تعظيم شأنِك فَاعْذُرْني ولا تَلُمِ
ولو شكرتُ لياليهم محافظةً ... لعهدها لم يكنْ بالعَهْدِ من قِدَمِ

---

(١) العهاد: جمع العهد، وهو أول المطر، وقيل: هو كل مطر بعد مطر.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٣/ ١١٤ ـ ١١٥.

ولـو فَـتَـحْـتُ فـمـي يـومـاً بـذمِّـهِـمُ لـم يَـرْضَ فَـضْـلُـك إلا أن يُـسَـدَّ فـمـي
والله يـأمـر بـالإحـسـانِ عـارِفَـةً منه وينهى عن الفَحْشاء في الكَلِمِ

قال: فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رُزِّيك.

قلت: وشعر عُمارة كثيرٌ حسن، وعندي من قوله: الحمد للعيس ـ وإن كانت القصيدة فائقة ـ نُفْرَةٌ عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا: الحمد لله، ولا ينبغي أن يُفْعَلَ ذلك مع غير الله تعالى عزَّ وجلَّ، فله الحمد وله الشُّكْر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الرُّبوبيَّة المقدَّسة، على ذلك اطَّرد استعمال السَّلَف والخلف، رضي الله عنهم.

فـصـل

في وفاة نور الدين رحمه الله[1]

قال العماد[2]: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلِّقت محالُّ دمشق أياماً.

قال: ونظمتُ للهناء بالعيد والطُّهْر قصيدةً، منها: [المجتث]

عـيـدانِ: فِـطْـرٌ وطُـهْـرٌ فَـتْـحٌ قـريـبٌ ونَـصْـرُ
كـلاهـمـا لـك فـيـه حـقـاً هـنـاءٌ وأجْـرُ
وفـيـهـمـا بـالـتَّـهـانـي رَسْـمٌ لـنـا مُـسْـتَـمِـرُّ
طَـهَـارةٌ طـابَ مـنـهـا أَصْـلٌ وفَـرْعٌ وذِكْـرُ
نَـجْـلٌ عـلـى الـطُّـهْـرِ نـامٍ زكـا لـه مـنـك نَـجْـرُ
مـحـمـودُ الـمَـلِـك الـعـا دِلُ الـكـريـمُ الأغَـرُّ
وبـابـنـه الـمـلـك الـصَّـا لِـحِ الـعـيـونُ تَـقِـرُّ
مـولًـى بـهِ اشـتـدَّ لـلـدِّيـ ـنِ والـشَّـريـعـة أَزْرُ
نـورٌ تـجـلَّـى عِـيـانـاً مـا دونَـهُ الـيـومَ سِـتْـرُ
أَضْـحَـتْ مـسـاعـيـكَ غُـرّاً كـمـا أيـاديـك غُـرُّ
وكـلُّ قَـصْـدِكَ رُشْـدٌ وكـلُّ فِـعْـلِـكَ بِـرُّ
وإنَّ حُـبَّـكَ دِيـنٌ وإنَّ بُـغْـضَـك كُـفْـرُ

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٥ ـ ٥٨.
(٢) انظر «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص٦٥ ـ ٦٦.

لنا بيمناكَ يُمْنٌ كما بِيُسْراكَ يُسْرُ
وللموالينَ نَفْعٌ وللمُعادينَ ضَرُّ
وللسَّماء سَحَابٌ وسُحْبُ كَفَّيْكَ عَشْرُ
ناديكَ بالرِّفْدِ رَحْبٌ نَدَاك للوَفْدِ بَحْرُ
للبحر مَدٌّ وجَزْر وما لجُودِكَ جَزْرُ
عَدْلٌ عميمٌ وَجُودٌ غَمْرٌ ويُسْرٌ وبِشْرُ
وفي العَطِيَّةِ حُلْوٌ وفي الحَمِيَّةِ مُرُّ
قد استوى منك تقوى الـ ـإلهِ سِرٌّ وجَهْرُ
تُقاك والمُلْكُ عند الـ ـقياسِ عِقْدٌ ونَحْرُ
يا أَعْظَمَ النَّاسِ قَدْراً وهل لغيرِكَ قَدْرُ!
وساهراً حين ناموا وقائماً حين قَرُّوا
ما اعْتَدْتَ إلّا وفاءً وعادَةُ القَوْمِ غَدْرُ
وفِعْلُكَ الدَّهْرَ غَزْوٌ للمشركينَ وقَهْرُ
وفِعْلُ غيرِك ظُلْمٌ للمسلمينَ وقَسْرُ
يفترُّ من كلِّ ثغرٍ إلى ابتسامِكَ ثَغْرُ
رومٌ به وفرنجٌ في شَفْعِهِمْ لك وِتْرُ
حَزْبٌ عَوَانٌ وفَتْحٌ على مُرَادِك بِكْرُ
بنو الأصافر مِنْ خشـ ـيَةِ انتقامك صُفْرُ
لم يَبْقَ للكُفْرِ ظُفْرٌ لا كان للكُفْرِ ظُفْرُ
وما دَجَا ليلُ خَطْبٍ إلّا وعَزْمُك فَجْرُ
أَصْبَحْتَ بالغَزْو صَبّاً وعنه ما لَكَ صَبْرُ
لكسرِ كلِّ يتيمٍ إسعافُ بِرِّك جَبْرُ
في كلِّ قَلْبٍ حسودٍ من حَرِّ بأسك جَمْرُ
تملَّ تطهيرَ مَلْكٍ له الملوكُ تَخِرُّ
يُزهى سريرٌ وتاجٌ به وَدَسْتٌ وصَدْرُ
وكيفَ يُغْمَلُ للطَّا هرِ المُطَهَّرِ طُهْرُ
هذا الطُّهورُ ظُهورٌ على الزَّمان وأَمْرُ
وذا الخِتانُ خِتامٌ بِمِسْكِهِ طابَ نَشْرُ
رُزِقْتَ عُمراً طويلاً ما طالَ للدَّهرِ عُمْرُ

Marfat.com

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرَّسم المعتاد، محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد. ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطَب له القاضي شمس الدين ابن الفَرَّاش[1] قاضي العسكر، بعد أن صلَّى به وذكَّر، وعاد إلى القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِمَاطه العام على رَسْمِ الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خِوَانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص، وما أوضح بِشْرَه، وأضْوَعَ نَشْرَه، وأضحك سِنَّه، وأبرك يُمْنَه.

وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكَّر وركب وجمَّل الموكب، وكأن الفَلَك بنيِّره جار، والطود الثابت يمرّ مرَّ السَّحاب في وقار. وكأنه القمر في هالته، والقدر في جلالته، والبدر في دائرته، سائرٌ بين سَيَّارته، ودخل الميدان والعظماء يُسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدِّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوَّل دولته والي حلب، وقد جرَّب الدهر بحنكته ولأَشْطُرِه حَلَب، فقال لنور الدين في كلامه، عظةً لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة! فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السَّابق، فإنَّ نور الدين لم يصل إلى الشهر، والهمام لم يصل إلى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكُرة، مع خواصِّه البَرَرة، فاعترضه في حاله أمير آخُر اسمه يَرَنْقُش وقال له: باش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخُلُقه الحليم، فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل. فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله، والنَّاس من الختان، لاهون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجودُ بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلَّا بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصَّلاح.

قال: واتصل مرض نور الدين، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء، إلى مرتع

---

(١) هو القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، قاضي العسكر، توفي في شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٨هـ. (سترد ترجمته في وفيات سنة ٥٨٨هـ، في الجزء الرابع).

البقاء. ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصَّالحين، وصار إلى جنَّات عدنٍ أُعدَّت للمتقين.

وكانت له صُفَّة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشَّمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصُّفَّة بيتاً من الأخشاب، مأمون الاضطراب، فهو يبيت فيه ويصبح، ويخلو بعبادته ولا يبرح. فدُفن في ذلك البيت الذي اتخذه حِمًى من الحِمام، وأذن بناؤه لبانيه بالانهدام.

قال العماد: وقلتُ في ذلك: [المتقارب]

عَجِبْتُ من الموتِ كيف اهْتَدى ... إلى مَلِكٍ في سجايا مَلَكْ
وكيف ثَوَى الفَلَكُ المستدير ... رُ في الأرضِ والأَرْضُ وَسْطَ الفَلَكْ

وله فيه رحمهما الله تعالى: [السريع]

يا مَلِكاً أَيَّامُه لم تَزَلْ ... لِفَضْلِهِ فَاضِلَةً فَاخِرَهْ
غاضَتْ بحارُ الجُودِ مُذْ غُيِّبَتْ ... أَنْمُلُكَ الفائِضَةُ الزَّاخِرَهْ
مَلَكْتَ دُنياك وخلَّفتها ... وسرتَ حتى تملكَ الآخِرَهْ

قال ابن شداد: وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عَجَزَ الأطباء عن علاجها. ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالدِّيار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشقَّ عصاه، ونلقى عسكره بمصافٍّ يرده، إذا تحقق قصده. قال: وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النِّزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله تعالى، ورضي عنه.

قال ابن الأثير[1]: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً عن غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى المَوْصِل وديار الجزيرة وديار بكر، يطلب العساكر ليتركها بالشَّام لمنعه من الفرنج، ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكان المانعُ لصلاح الدين من الغزو الخوفَ من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلا الجدَّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه، فتجهز للمسير إليه، فأتاه أمر الله الذي لا يُرَدُّ.

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/٥٦.

Marfat.com

قلت: ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدِّين من بعده لقرَّتْ عَيْنُه، فإنه بَنَى على ما أسَّسه نور الدِّين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها، رحمهما الله تعالى.

قال[1]: وحكى لي طبيب بدمشق، يُعرف بالرَّحْبي[2]، وهو من حُذَّاق الأطباء، قال: استدعاني نور الدِّين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيت صَغير بقلعَة دمشق، وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك، فلا يكاد يُسْمَعُ صوتُه، وكان يخلو فيه للتعبُّد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه. فلما دخلنا عليه ورأينا ما به قلتُ له: كان ينبغي أن لا يؤخِّر إحضارنا إلى أن يشتدَّ بك المرض إلى هذا الحد، فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح، فله أثر في هذا المرض. وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدَّواء، وعَظُمَ الدَّاء، ومات عن قريبٍ، رضي الله عنه.

قال ابن الأثير[3]: وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلّا في حنكه، وكان واسعَ الجبهة، حسن الصُّورة، حلو العينين. وكان قد اتَّسع ملكه جداً، فملك المَوْصِل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشَّام والدِّيار المِصْرية واليمن، وخُطِبَ له بالحَرَمين الشَّريفين: مكة والمدينة، وطبَّق الأرضَ ذِكْرُه بحسن سيرته وعَدْله. ولم يكن مثله إلا الشَّاذ النادر. رحمة الله تعالى عليه.

قال الحافظ أبو القاسم، بعدما ذكر أوصافَ نور الدِّين الجليلة المتقدِّمة مفرَّقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرَّصين، والاقتداء بسيرة السَّلف الماضين، والتَّشَبُّه بالعلماء والصَّالحين، والاقتفاء بسيرة من سلف منهم في حُسْن سمتهم، والاتِّباع لهم في حفظ حالهم

---

(١) انظر «الكامل» ١٠/ ٥٦.

(٢) الرحبي: هو رضي الدين يوسف بن حيدرة بن حسن الرحبي، من أشهر أطباء عصره، كان كبير النفس عالي الهمة شديد الاجتهاد في مداواة المرضى، أصل والده من بلد الرحبة على الفرات، وولد هو في جزيرة ابن عمر سنة ٥٣٤هـ، وقدم دمشق مع والده، وكان طبيباً أيضاً، سنة ٥٥٥هـ، وأقام فيها حتى وفاته سنة ٦٣١هـ، ودفن بجبل قاسيون.
والرحبي أيضاً ابنه علي بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي، شرف الدين، أبو الحسن الطبيب، نزيل دمشق، ولد سنة ٥٨٣هـ، وتوفي سنة ٦٦٧هـ، له من الكتب: «حاشية على القانون لابن سينا»، «حواشي على مسائل حنين بن إسحاق»، «خلق الإنسان وهيئته وأعضاؤه ومنفعتها»، «الواضح»، «قانون في الطب» (انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٦٧٢ ـ ٦٧٥، ٦٨٢، معجم البلدان ٣/ ٣٤، كشف الظنون ٥/ ٧١١).

(٣) انظر «الكامل» ١٠/ ٥٦.

Marfat.com

ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سَمِعَه وجَمَعه، حرصاً منه على الخير في نشر السُّنَّة بالأداء والتحديث، ورجاءً أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث[1]. فمن رآه شاهَدَ من جلال السَّلْطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيِّره، يحبُّ الصَّالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنِّه فيهم. وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزَوَّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكرَّرَتْ الشكاية إليه من أحدٍ من ولاته، أمره بالكفِّ عن أذى من تظلَّم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العَدْل، قابله بإسقاط المنزلة والعَزْل، فلما جمع الله له من شريف الخصال، تيَسَّر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسَهَّل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكَّن له في البُلْدان والبقاع.

ثم قال بعد كلامٍ كثير: ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ومدحه جماعةٌ من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصَّروا، وهو قليل الابتهاج بالشعر، زيادةً في تواضعه لعلوِّ القدر.

ومولِدُهُ على ما ذكر لي كاتبه أبو اليُسْر شاكر بن عبد الله[2]، وقت طلوع الشمس من يوم الأحد سابع عشر شوَّال سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسعٍ وستين وخمسمائة، ودُفن بقلعة دمشق،

---

(١) لفظ الحديث: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فقيهاً» أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤٣، وابن حجر في تلخيص الحبير ٣/ ٩٣، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٩٨، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٢٥٨، وابن حجر في المطالب العالية ٣٠٧٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٨٨١٧، ٢٩١٨٢، ٢٩١٨٣، ٢٩١٨٤، ٢٩١٨٥، ٢٩١٨٦، ٢٩١٨٧، ٢٩١٨٨، ٢٩١٨٩، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٦/ ٣٢٢، والشجري في الأمالي ١/ ٥٥، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ١٨٩، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١٤١، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧، والشوكاني في الفوائد المجموعة ٢٩٠، وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٣٣، ٢/ ٣٤٠، ٣٤١. وروي الحديث أيضاً بلفظ: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من سنتي أدخلته يوم القيامة في شفاعتي» أخرجه بهذا اللفظ ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ١١٤.
وروي الحديث أيضاً بلفظ: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً ينفعهم الله بها قيل له ادخل من أي أبواب الجنة» أخرجه بهذا اللفظ السيوطي في الدر المنثور وابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ١١٢.

(٢) ولد في شيزر سنة ٤٩٦هـ، وتولى كتابة الإنشاء لعماد الدين زنكي، ثم من بعده لابنه نور الدين، وتوفي بدمشق سنة ٥٨١هـ. تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

Marfat.com

ثم نُقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه جوار الخَوَّاصين في الشَّارع الغربي رحمه الله تعالى:

قلت: وفي هذه المدرسة يقول العَرْقَلَة[١]: [الوافر]

ومدرسة سَيَدْرُسُ كُلُّ شيء ... وتبقى في حِمَى عِلْمٍ ونُسْكِ
تَضَوَّع ذِكْرُها شَرْقاً وغَرْباً ... بنور الدِّين محمود بن زَنْكي
يقول وقولُهُ حقٌّ وصِدْقٌ ... بغير كنايةٍ وبغير شَكِّ
دمشقُ في المدائن بيت مُلكي ... وهذي في المدارسِ بيت مِلكي

ولما اشتهر به من قِلَّة ابتهاجه بالمدح لما علم من تزيد الشعراء، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء[٢]، قال يحيى بن محمد الوَهْرَاني[٣] في مقامةٍ له، وقد سُئِلَ في بغداد عن نور الدين: هو سَهْمٌ للدَّوْلة سديد، وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد، وملك مجاهد، تُساعده الأفلاك، وتعضده الجيوش والأملاك، غير أنه عُرف بالمرعى الوبيل، لابن السَّبيل، وبالمحل الجديب، للشَّاعر الأديب، فما يُرَزَّى ولا يعزَّى، ولا لشاعرٍ عنده من نعمةٍ تجزى.

وإيَّاه عنى أسامة بن منقذ بقوله[٤]: [البسيط]

سُلْطانُنا زاهِدٌ والنَّاس قد زَهِدُوا ... له فَكُلٌّ على الخَيْراتِ مُنْكَمِشُ
أيَّامُه مثل شَهْرِ الصَّوْمِ طاهرةٌ ... من المعاصي وفيها الجوعُ والعَطَشُ

قلت: رحمه الله، ما كان يبذل أموال المسلمين إلّا في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد؛ وكان كما قيل في حق عبد الله بن مُحَيْرِيز[٥]، وهو من سادات

---

(١) الأبيات في ديوان عرقلة ص٧٠، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢١٨.

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حفص الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له: خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم، وهو من خلفاء الدولة المروانية، ولد ونشأ بالمدينة عام ٦١هـ، استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩هـ، توفي سنة ١٠١هـ، (انظر: فوات الوفيات ٢/ ١٠٥، تهذيب التهذيب ٧/ ٤٧٥، حلية الأولياء ٥/ ٢٥٣).

(٣) يحيى بن محمد الوهراني: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي، ولعله: محمد بن محرز بن محمد الوهراني، ركن الدين أبو عبد الله القيرواني، قدم دمشق أيام نور الدين، وأقام فيها حتى توفي سنة ٥٧٥ من تصانيفه: «رسائل»، «مقامات» (كشف الظنون ٦/ ٩٨، وفيات الأعيان ٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦، الوافي بالوفيات ٤/ ٣٨٦ ـ ٣٨٩).

(٤) البيتان في ديوان أسامة بن منقذ ص ١٥٨، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٥١٦.

(٥) عبد الله بن محيريز القرشي، كان يتيماً في حجر أبي محذورة، يروي عن أبي سعيد =

Marfat.com

التابعين بالشام، قال يعقوب بن سفيان الحافظ[١]: حدَّثنا ضَمْرَة[٢] عن الشَّيْبَاني[٣]، قال: كان ابن الدَّيْلمي[٤] من أنصر النَّاس لإخوانه، فذُكِرَ ابن مُحَيْرِيز في مجلسه، فقال رجلٌ: كان بخيلاً. فغضب ابن الدَّيْلَمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، وبخيلاً حيث تحبُّون.

وأما شعر ابن مُنْقِذ فلا اعتبار به، فهو القائل في ليلة الميلاد يمدَحُ نور الدين رحمه الله تعالى: [الكامل]

فـي كـلِّ عـام لـلـبـريَّـةِ لَـيْـلَـةٌ ... فـيـهـا تَـشُـبُّ الـنـارُ بـالإيـقـادِ
لـكـنْ لـنـور الـدِّيـن مـن دونِ الـوَرَى ... نـارانِ نـارُ قِـرًى ونـارُ جِـهَـادِ
أبـداً يـصـرِّفُـهـا نَـدَاه وبَـأسُـهُ ... فـالـعـامُ أَجْـمَـعُ لـيـلـة الـمـيـلاد
مَـلِـكٌ لـه فـي كـلِّ جِـيـدٍ مِـنَّـةٌ ... أبـهـى مِـنَ الأَطْـواقِ فـي الأَجْـيـادِ
أعلى الملوك يداً وأمنعهُم حِمًى ... وأمـدُّهـم كَـفّـاً بِـبَـذْلِ تِـلادِ
يُعطي الجزيلَ من النَّوال تبرُّعاً ... مـن غـيـرِ مـسـألـةٍ ولا مـيـعـاد
لا زال فـي سَـعْـدٍ ومُـلْـكٍ دائـمٍ ... مـا دامَـتِ الـدُّنـيـا بـغـيـر نَـفَـادِ

وقد تقدَّم في شعر ابن منير وابن القَيسَراني والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكَرَم والجود ما قليلٌ منه يَرُدُّ قَوْلَ الوَهْراني وابن منقذ. على أنَّ ابن

= الخدري، وأبي محذورة. سكن فلسطين، وكان من العباد، وكان يشبه بعبد الله بن عمر، روى عنه الزهري ومكحول وابنه عبد الرحمن، مات في ولاية الوليد بن عبد الملك (كتاب الثقات ٥/ ٦، سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦).

(١) هو يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي، أبو يوسف، من أهل فسا، يروي عن عبيد الله بن موسى، روى عنه أهل بلده، مات سنة ثمانين أو إحدى وثمانين ومائتين، وكان مما جمع وصنف، وأكثر مع الورع والنسك والصلابة في السنة (كتاب الثقات ٩/ ٢٨٧، سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٨٠ ـ ١٨٤).

(٢) هو ضمرة بن ربيعة، مولى آل عتبة بن ربيعة، كنيته أبو عبد الله، من أهل الرملة، يروي عن يحيى بن أبي عمرو السيباني وابن شوذب وسفيان الثوري، روى عنه الحسن بن رافع وهارون بن معروف، مات في شهر رمضان من سنة اثنتين وثمانين ومائة (كتاب الثقات ٨/ ٣٢٥).

(٣) الشيباني: كذا في الأصل، وهو السيباني، بالسين المهملة، يحيى بن أبي عمرو السيباني، من أهل الرملة، يروي عن عبد الله بن الديلمي وابن محيريز، وروى عنه الأوزاعي، وابن المبارك، مات سنة ثمان وأربعين ومائة، وهو ابن خمس وثمانين سنة، وسيبان، بطن من حمير (كتاب الثقات ٧/ ٦٠٩ ـ ٦١٠، الأنساب ٧/ ٢١٥).

(٤) ابن الديلمي: هو عبد الله بن فيروز، الديلمي، أبو بشر، يروي عن أبيه، روى عنه يحيى بن أبي عمرو السيباني، كان يسكن بيت المقدس (كتاب الثقات ٥/ ٢٣، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٥٨، ٣٥٩).

Marfat.com

منقذ قد رَدَدْنا شعره بشعره كما تراه، وإنَّما الشعراء وأكثر النّاس كما قال الله تعالى في وصف قوم ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] وما كلُّ وقتٍ ينفق العطاء، ويفعلُ الله ما يشاء.

فصل

[ولاية الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين]

قال ابن الأثير[١]: لما توفي نور الدين جلس ابنُه الملك الصَّالح إسماعيل في الملك، وحُلِف له ولم يبلغ الحُلم، وحلَفَ له الأمراء والمقدَّمُون بدمشق، وأقام بها، وأطاعه النَّاس في سائر بلاد الشَّام، وصلاحُ الدين بمصر، وخَطَبَ له بها، وضرب السِّكَّة باسمه فيها. وتولَّى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدَّم[٢].

قال العماد: وأخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصَّالح إسماعيل، وقد أبدى الحُزْن والعويل، وهو مجزوز الذوائب مشقوق الجَيْب، حاسِرٌ حافٍ مما فجأه وفَجَعه من الرَّيْب، وأجلسوه في الإيوان الشَّمالي من الدَّسْت والتَّخْت الباقي من عهد تاج الدولة تُتُش، فاستوحى كلُّ قَلْبٍ حزنه واستوحش، فوقف النَّاس يضطرمون ويضطربون، ويتلهفون ويتلهبون، ولما كُفِّنَ بحُلَّة الكرامة، ودُفن في روضةٍ بابها إلى باب رضوان من دار المقامة، وقضوا الجزع، وقوَّضوا الفَزَع، وغَيَّبوا الدمعة، وأحضروا الرَّبعة، حضر القاضي كمال الدين، وشمس الدين بن المقدَّم، وجمال الدولة ريحان ـ وهو أكبر الخَدَم ـ والعَدْل أبو صالح بن العَجَمي[٣] أمين الأعمال، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعزائمهم متعاقدة، وأن ابن المقدَّم مقدَّم العسكر، وإليه المرجع في المورد والمصدر.

قال: وأنشأتُ في ذلك اليوم كتاباً عن الملك الصَّالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين، ترجَمتُه إسماعيل بن محمود، وفيه:

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٨.

(٢) في «الكامل»: وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم.

(٣) هو شهاب الدين، أبو صالح، عبد الرحيم بن أبي طالب بن العجمي. انظر ترجمته في: «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧٢، مرآة الزمان ٨/ ٢٢٢.

Marfat.com

أطال الله بقاء سيدنا الملك النَّاصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، نَدَبَ الشَّامُ، بل الإسلام، حافظَ ثغوره، وملاحظ أموره، وعَدِم الجهادُ مقتني فضيلته، ومؤدِّي فريضته، ومحيي سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعزُّ أن يرى الزَّمان نظيره، وما ههنا ما يُشْغِل السِّرَّ، ويَقْسِمُ الفِكْر إلّا أمرُ الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلّا لمثل هذا الحادث الجَلَل، والصَّرْف الكارث المذهل، فقد ادَّخره لكفايات النَّوائب، وأعدَّه لحسم أدواء المعضلات اللوازب، وأمَّله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكَّنه قوةً لعضُده. فما فُقِدَ رحمه الله تعالى إلّا صُورةً والمعنى باق، والله تعالى حافظٌ لبيته واق، وهل غيره ـ دام سُمُوُّه ـ من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل النَّاصر من ناصر. وقد عَرَّفناه المقترح، ليروض برأيه من الأمر ما جَمَحَ، والأهم شغل الكُفَّار، عن هذه الدِّيار، بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البِدَار، ويجري على العادة الحُسنى في إحياء ذكر الوالد هناك بتجديد ذكرنا، راغباً في اغتنام ثنائنا وشُكْرنا.

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين، فأرسل كتاباً بالمثال الفاضلي، فيه: ورد خبرٌ من جانب العدوِّ اللعين، عن المولى نور الدين، أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونوَّر بعافيته القلوب والوجوه، واشتدَّ به الأمر، وضاق به الصَّدْر، وانقصم بحادثه الظَّهر، وعَزَّ فيه التثبت وأعوز الصَّبْر. فإن كان ـ والعياذ بالله ـ قد تَمَّ، وخَصَّه الحكم الذي عَمَّ، فللحوادث تذخر النِّصال، وللأيام تصطنع الرِّجال، وما رَتَّبَ الملوكُ ممالكها إلّا لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدي حَقَّها يوم حَصَادها، فالله الله أن تختلف القلوبُ والأيدي، فتبلُغَ الأعداء مرادها، وتَعْدَمَ الآراء رشادَها، وتنتقل النِّعَم التي تعبت الأيام إلى أن أعْطَتْ قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها وُدّ، وسيوفاً يضمُّها غِمْد، ولا تختلفوا فتنكلوا ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقوموا على أمشاط الأرْجُل، ولا تأخذوا الأَمْرَ بأطراف الأَنْمُل، فالعداوة محدقة بكم من كلِّ مكان، والكُفْرُ مجتمعٌ على الإيمان. ولهذا البيت منا ناصر لا يخذله، وقائم لا يسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحَقَّقَتْ، بأن ولده القائم بالأمر، وسعد الدين كُمُشْتِكِين الأتابك بين يديه، فإن كانت الوصية ظهرت وقُبِلَتْ، والطَّاعة في الغيبة والحضور أُدِّيت وفُعِلَتْ، وإلا فنحنُ لهذا الولد يدٌ على من ناواه، وسَيْفٌ على من عاداه. وإن أسفر الخبرُ عن معافاةٍ فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب.

قال العماد: وورد كتابُ صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزياً لابن نور الدين، وفي آخره، وأما العدوُّ ـ خذله الله تعالى ـ فوراءه من الخادم من يطلبه طلبَ ليلٍ لنهاره، وسيل لقراره، إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقِفَه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقلِّ فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، أصَدَر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرَّح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم. وأشبه يوم الخادم أمسَه في الخدمة، ووفَّى ما لزمه من حقوقِ النِّعمة، وجمع كلمة الإسلام عالماً أنَّ الجماعة رحمةٌ. والله تعالى يخلِّد ملك المولى الملك الصَّالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النَّعْماء الراهنة لديه، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه، ويوفِّق الخادم لما ينويه من توثيق سُلْطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده، وتيسير منال كلِّ أملٍ صالح وتقريب بعيده، إن شاء الله تعالى.

ومن كتابٍ آخر: الخادِمُ مستمرٌّ على بَدْأته من الاستشراف لأوامرها، والتعرُّضِ لمراسمها، والرَّفْع لكلمتها، والإيالة[1] لعسكرها، والتحقق بخدمتها، في بواطِن الأحوال وظواهرها، والترقُّب لأن يُؤمر فيمتثل، ويُكلف فيحتمل، وأن يُرْمى به في نحر العدوِّ فيتسدَّد بجهده، ويوفي أيام الدولة العالية يوماً يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده.

قال العماد: ولما توفِّي نور الدين اختلَّ أمري، واعتلَّ سِرِّي، وعلت حُسَّادي، وبلغ مُرادَهم أضْدادي، وكان الملكُ الصَّالح صغيراً، فصار العَدْل بن العجمي له وزيراً. وتصرَّف المتحالفون في الخزانة والدَّوْلة كما أرادوا، وولَّوْا وصرفوا، ونقَّصوا وزادوا، واقتصروا لي على الكتابة، محروم الدَّعوة من الإجابة.

ومما نظمتُه في مرثية نور الدين قصيدةً، منها[2]: [الهزج]

لِفَقْدِ الملكِ العادِ ... لِ يبكي المُلْكُ والعَدْلُ
وقد أظْلَمَتِ الآفا ... قُ لا شَمْسٌ ولا ظِلُّ
ولمَّا غابَ نورُ الدِّيـ ... ـنِ عَنَّا أظْلَمَ الحَفْلُ
وزال الخِصبُ والخَيْرُ ... وزادَ الشَّرُّ والمَحْلُ
ومات البَأْسُ والجودُ ... وعاش اليَأْسُ والبُخْلُ

(١) الإيالة: السياسة، من آل الملك رعيته يؤولها أولاً وإيالاً: ساسهم، وأحسن سياستهم.
(٢) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٦٧ ـ ٧٢.

Marfat.com

وعَـزَّ الـنَّـقْـصُ لـمَّـا هـا نَ أَهْـلُ الـفَـضْـلِ والـفَـضْـلُ
وهـل يَـنْـفُـقُ ذو الـعـلـم إذا مـا نَـفَـقَ الـجَـهْـلُ
ومـا كـان لـنـورِ الـدِّيـ ـن لـولا نَـجْـلُـهُ مِـثْـلُ

فصل

[قصد الفرنج بانياس]

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين رحمه الله تعالى على الثَّغْر، وقصدهم بانياس، ورجوا أن يتمَّ لهم الأمر، ثم ظهرت خيبتهم وبان الياس. وذلك أن شمس الدين بن المقدَّم خرج وراسل الفرنج، وخوَّفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم. وتكلَّموا في الهُدْنة، وقَطْع موادّ الحرب والفتنة، وحصلوا بقطيعةٍ استعجلوها، وعِدَّة من أساراهم استطلقَوها، وتمت المصالحة.

وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كُتُباً دالة على التوبيخ والملام. ومن جملتها كتابٌ بالمثال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرون[1] يخبره فيه أنه لما أتاه كتابُ الملك الصالح بقصد الفرنج تجهَّزَ وخرج، وسار أربع مراحل، ثم جاءه الخبر بالهُدْنة المؤذنة بذُلِّ الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من جرَّد لسانه الذي تُغمد له السيوف وتُجرَّد، وقام في سبيل الله قيام من يَقُطُّ عاديةَ من تَعدَّى وتمرَّد.

وفي آخره: وكتب من المنزل بفاقوس، والفجر قد هَمَّ أن يَشُقَّ ثوب الصَّباح، لولا أن الثُّريا تعرَّضت تعرُّض أثناء الوِشاح. وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحِجَّة، بلَّغه الله فيه أمله، وقبل عمله، بالغاً أسنى المراد وأفضله.

وقال ابنُ الأثير[2]: لما توفي نور الدين قال الأمراء، منهم شمس الدين بن المقدَّم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي، وغيرهما من أكابر

---

(١) شرف الدين بن أبي عصرون: هو عبد الله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون التيمي الحديثي الموصلي الفقيه الشافعي، المتوفى سنة ٥٨٥هـ، تقدّمت ترجمته.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٧.

الأمراء: قد علمتم أنَّ صلاحَ الدين من مماليك نور الدين ونوابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعة الملك الصَّالح، ويجعل ذلك حُجَّة علينا، وهو أقوى منا لأنَّ له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصَّالح. فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا.

قال: فلم يمض غيرُ قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصَّالح، يهنئه بالملك ويعزِّيه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه، ويعرِّفه أن الخُطْبة والطاعة له كما كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عَمِّه قُطْب الدين، وملك الدِّيار الجزرية، ولم يرسل مَنْ مع الملك الصَّالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى الملك الصَّالح يعتبه حيث لم يُعْلِمْه قصدَ سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويمنعه. وكتب إلى الأمراء يقول: إنَّ الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته به، لَسَلَّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يَعْجَل عليه الموت لم يعهد إلى أحدٍ بتربية ولده والقيام بخدمته سواي، وأراكم قد تفرَّدتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصلُ إلى خدمته، وأجازي إنعام والده بخدمةٍ يظهر أثرها، وأقابل كلًّا منكم على سوء صنيعه، وإهمال أمر الملك الصَّالح ومصالحه، حتى أُخذت بلاده.

فأقام الصَّالح بدمشق ومعه جماعةٌ من الأمراء لم يمكِّنوه من المسير إلى حلب، لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي ابن الدَّاية، فإنه كان أكبر الأمراء النُّورية، وإنما تأخَّر عن خدمة الملك الصَّالح بعد وفاة نور الدين لمرضٍ لحقه، وكان هو وإخوته بحلب وأمرها إليهم، وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده. ولما عَجَزَ عن الحركة أرسل إلى الملك الصَّالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى الأمراء يقول لهم: إن سيف الدين قد ملك إلى الفُرات، ولئن لم ترسلوا الملك الصَّالح إلى حلب حتى يجمع العساكر، ويَسْتردّ ما أُخذ منه، وإلا عَبَر سيف الدين الفُرَات إلى حلب، ولا نقوى على منعه. فلم يرسلوه ولا مكَّنوه من قصد حلب[1].

قال: وكان نور الدين من قبل أن يمرض قد أرسل عساكره، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبرُ بموت عمّه نور الدين، فعاد إلى نَصِيبين فملكها، وأرسل الشِّحَن

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٥٩.

Marfat.com

إلى الخابور فاستولَوْا عليها، وسار هو إلى حرَّان فحصرها عِدَّة أيام ثم أخذها، وملك الرُّها والرَّقَّة وسَرُوج واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر. فقال له فخر الدين عبد المسيح ـ وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين وقصد سيف الدين، ظنّاً منه أن سيف الدين يرعى له خدمته، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين، على ما ذكرناه أولاً، فلم يجنِ ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء ـ ليس بالشَّام من يمنعك، فاعبر الفرات واملك البلاد، فأشار أمير آخر معه ـ وهو أكبر أمرائه ـ: قد مَلَكْت أكثر من والدك، والمصلحة أن تعود. فرجع إلى الموصل.

فصل

[هروب سعد الدين كمشتكين من قلعة الموصل إلى حلب]

قال ابنُ الأثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جَعَلَ بقلعة المَوْصِل لما ملكها دُزْداراً له وهو سعد الدين كُمُشْتِكِين ـ بعض خدمه الخصيان ـ فلما سار سيف الدين إلى الشَّام كان في مقدُمته على مرحلة. فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب، وأرسل سيف الدين في أثره فلم يُدْرك، فنهب بَرَكه ودوابَّه. وسار إلى حلب، وتمسك بخدمة شمس الدين ابن الداية وإخوته، واستقرَّ بينهم وبَيْنَه أنْ يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصَّالح. فسار إلى دمشق، فأخرج إليه ابن المقدَّم عسكراً لينهبه، فعاد مُنْهزماً إلى حلب، فأخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أُخذ منه، وجهَّزه وسيَّره إلى دمشق ـ وعلى نفسها تجني براقش ـ فلما وصلها سعد الدين دخلها، واجتمع بالملك الصَّالح والأُمراء، وأعلمهم ما في قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها، فلما وصلها، وصَعِدَ إلى قلعتها قبض الخادم سعدُ الدين على شمس الدين ابن الدَّاية وإخوته وعلى ابن الخَشَّاب رئيس حلب.

قال ابن الأثير[1]: ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه، ولا جرى من ذلك الخُلْف والوَهْن شيء ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

واستبدَّ سعد الدين بتدبير أمر الملك الصَّالح، فخافه ابنُ المقدَّم وغيره من

(١) انظر «الكامل» ١٠/ ٥٩.

الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا سيف الدين ليسلِّموا إليه دمشق، فلم يفعل، وخاف أن تكون مكيدةً عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها، ويقصده ابنُ عمه من وراء ظهره، فلا يمكنه الثَّبات. فراسل الملك الصَّالح، وصالحه على إقرار ما أخذه بيده، وبقي الملك الصَّالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبِّر أمره، وتمكَّن منه تمكُّناً عظيماً يقارب الحَجْر عليه.

وقال العماد: كان كُمُشْتِكِين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه، واستأذن في الوصول إلى الشَّام، فطلب سيف الدين غازي رضاه، فخرج وسار مرحلتين وسمع النَّعْي، فأغذَّ السير والسَّعْي، ونجا بماله وبحاله، وندم صاحب المَوْصِل على الرِّضا بترحاله. وكانت عنده بوفاة عمه بشارة، وظهرت على صفحاته منها أمارة، فإنه لم يزل من كُمُشْتِكِين متشكِّياً، فإنه كان لجمر الأمر عليه مُذْكياً. وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمور، وإزالة المحظور، وإسقاط المكوس، وإعدام أقساط البوس، فنودي في المَوْصِل يوم ورود الخبر بالفُسْحة في الشُّرْب جهاراً، ليلاً ونهاراً، وزال العُرْف، وعاد النُّكْر، وأُنشد قول ابن هانئ[1]: [الطويل]

ولا تسقني سِرّاً فقد أَمْكَنَ الجَهْرُ

وقيل: أخذ المنادي على يده دنًّا وعليه قدح وزَمْر، وزعم أنه خرج بهذا أمْر، فلا حَرَج على من يغنِّي ويشرب، ويسكر ويطرب، وعادت الضَّرائب، وضربت العوائد.

وأما كُمُشْتِكِين فإنه وصل إلى حلب بعد عبور القُرى، وتمثل: عند الصَّباح يَحْمَدُ القومُ السُّرى[2]، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين علي وإخوته؛ إخوة مجد الدين، وأظهر أنه لهم من المخلصين.

وكان مجد الدين أبو بكر أخوهم رضيعَ نور الدين وقد تربَّى مَعَه، ولَزِمَه وتَبِعَه إلى أن ملك الشَّام بعد والده، ففوَّض إلى مجد الدين جميع مقاصده، من طريفه وتالده، وحكَّمه في الملك، ونظمه في السِّلْك، فلا يحل ولا يعقد إلا

---

(١) صدره:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ

والبيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، في ديوانه ص٢٨.

(٢) في صبح الأعشى ١/ ٣٤٨: هو مثل يضرب للترغيب في السير في الليل، وفي الجمهرة ٢/ ٤٢: يضرب لما ينال بالمشقة ويوصل إليه بالتعب، وفي المستقصى ٢/ ١٦٨: يضرب في الحث على مزاولة الأمر بالصبر.

Marfat.com

برأيه، وكانت حصونه محصَّنة، وهو يسكن عنده في قلعة حلب، والحاضر عنده صباحاً ومساءً إذا طلب. وشَيْزَر مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر وتل باشر مع سابق الدين عثمان، وحارم مع بدر الدين حسن، وعين تاب وعَزَاز وغيرهما نوَّابه فيها، وهو يصونها ويحميها.

ولما توفي جَرَتْ إخوته في القُرْب والانبساط على عادته، وهم أعيان الدَّوْلة وأعضادُها، وأبدال أرضها وأوتادها، وأمجادها وأجوادها، فلما توفي نور الدين لم يشكُّوا في أنهم يكفلون ولده ويربُّونه، ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه. فأقام شمس الدين علي ـ وهو أكبرهم وأوجههم ـ ودخل قلعة حلب ـ وبها والياً شاذبخت[1] ـ وسكنها، وأسرَّ مصلحة الدولة وأعلنها، وعرف ما جرى بدمشق من الاجتماع، واتّفاق ذوي الأطماع، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصَّالح. ونفَّذ أخاه سابق الدين عثمان ـ وكان قليل الخبرة، بعيداً من الدَّهاء ـ فاستقرَّ الأمر على أن يحملوا الملك الصَّالح إليه، ويَقْدموا به عليه، وهو يتسلَّم ممالكه، ويكون أتابكه.

ووصل كُمُشْتِكِين إلى دمشق في تلك الأيام، فوافقهم على ما دبَّروه من المرام، وسار الصَّالح ومعه كُمُشْتِكِين، والعَدْل بن العَجَمي، وإسماعيل الخازن، فبغتوا إخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم، وجاء ابنُ الخشَّاب أبو الفضل، مقدَّم الشِّيعة، فسفكوا دمه. وأقام شمس الدين بن المقدَّم بدمشق على عساكرها مقدَّماً، وفي مصالحها محكَّماً؛ وجمال الدين ريحان والي القَلْعة والشِّحن من قبله، والأمر إليه بتفصيله وجُمَله، والقاضي كمال الدين الشَّهْرُزُوري الحاكم النافذ حكمه، الصَّائب سهمه، الثاقب نجمه.

وكان مسير الملك الصَّالح من دمشق في الثالث والعشرين من ذي الحِجَّة. وغاظ صلاح الدين ما فُعل بإخوة مجد الدين.

[الهدنة بين الفرنج وابن المقدم]

وقال ابنُ أبي طيّ الحلبي: لما ماتَ نورُ الدين اجتمع أمراء دولته، وتعاقدوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصَّالح ابن نور الدين ـ وكان يومئذٍ صبياً ـ وحلفوا له على منابذة الملك النَّاصر، وقبض أصحابه الذين بالشَّام، ومُصالحة

(١) شاذبخت: الخادم الهندي، كان نائباً عن نور الدين في قلعة حلب، واستمر بها مدة ولاية الملك الصالح، فلما توفي سنة ٥٧٧هـ حفظ شاذبخت حلب حتى قدمها عز الدين بن قطب الدين مودود.

Marfat.com

الفرنج، وجعلوا ابن المقدَّم شمس الدين مقدَّم العساكر. وتمَّ ذلك واستقر، وركب الملك الصَّالح بدمشق، وخُطِبَ له.

وكانت الفرنج قد تحرَّكت إلى قصد دمشق، فخرج ابنُ المُقَدَّم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين، ورَاسل الفرنج في الهُدْنة، فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجَّل حملها إليهم، وتمَّ أمر الصُّلْح، وعادت الفرنجُ إلى بلادها، وابن المقدَّم إلى دمشق.

واتَّصل خبر هذه الهُدْنة بالملك النَّاصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشَّام وعلم ضَعْفهم. فراسل ابنَ المقدَّم وغيره من الأمراء بإنكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن أبي عَصْرُون: ورد الخبر بصلحٍ بين الفرنج والدمشقيين، وبقيةُ بلاد المسلمين ما دخلت في العقد، ولا انتظمت في سِلْك هذا القصد، والعدوُّ لهما واحد، وصُرِفَ مالُ الله الذي أُعِدَّ لمغنم الطَّاعة، ومصلحة الجماعة، في هذه المعصِيَة المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأُمة، وكان مذخوراً لكشف الغُمَّة، فصار عَوْناً. وأن أسارى من طبرية وفُرسانها كانت وطأتهم شديدة، وشوكتهم حديدة، دُفعوا في القطيعة، وجعلوا إلى السِّلْم السبب والذريعة. فلما بلغنا هذا الخبر، وقفنا به بين الوِرْد والصَّدر، إن أتممنا ظُنَّ بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدوُّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهُدْنة غير بعيد، وإن فرَّقْنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد. فرأينا أن سَيَّرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وإخوته من يُعَرِّفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه أمرٌ ربما عُجز عن الاستدراك، وأن العدوَّ طالبٌ لا يغفل، وجادٌّ لا يَنْكُل، وليثٌ لا يضيع الفُرْصة، مُجِدٌّ لا يميل إلى الرُّخصة. فإن كانت الجماعةُ ساخطين، فيظهر أمارات السخط والتغيير، ولا يمسك في الأول فيعجز عن الأخير، لا سيما ونحن نغارُ لله ونُغير، ونقصد للمسلمين ما يُجمع به صلاح الرأي وصوابُ التَّدْبير، وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أن يقصد العدو ناحية حارِم بالمال الذي قويت به قوَّته، وثَرَتْ به ثروته، وانبسطت به خطوتُه، فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون، لا يمكنه أن يزايل مراكزه، ولا يبادر مناهزه.

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النُّوري، وكان شمس الدين علي، أخو مجد الدين ابن الداية، إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشَّحْنكية، وكان بيده ويد إخوته جميع المعَاقل التي حول حلب. فلما بلغ علياً موت نور الدين صَعِدَ إلى القلعة، وكان مُقْعَداً، واضطرب البلد، ثم سكَّنه ابنُ الخَشَّاب، وكوتب ابن الخَشَّاب من دمشق بحفظ البلد، وعوَّلَ أولاد الداية

Marfat.com

على الاستيلاء على حلب، وحلف لهم جماعة من القلعيين والحلبيين، وأنفذوا خلف أبي الفَضْل بن الخشاب، فامتنع من الصُّعود إليهم، وتردَّدت بينهم الرسالة. وتحزَّب الناس بحلب: السُّنَّة مع بني الدَّاية، والشيعة مع ابن الخَشَّاب، وجَرَت أسبابٌ اقتضت أن أنزلَ حسنُ ابن الداية جماعةً من القلعيين وأهل الحاضر، وزحفوا إلى دار ابن الخَشَّاب فملكوها ونهبوها، واختفى ابنُ الخشَّاب.

واتَّصلت هذه الأخبار بمن في دمشق، فأخذوا الملك الصَّالح وساروا إلى حلب في الثَّالث والعشرين من ذي الحِجَّة، وسار مع الملك الصَّالح سعد الدين كُمُشْتِكِين وجُرْديك، وإسماعيل الخازن، وسابق الدِّين عثمان ابن الدَّاية، وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم. وساروا إلى حلب، وخرجَ النَّاس إلى لقائهم.

وكان حسن قد رتَّب في تلك الليلة جماعةً من الحلبيين ليصبح ويصلُبهم، فلمَّا خرج للقاء الملك الصَّالح، ووقعت عينه عليه ترجَّل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدَّم جُرْديك وأخذ بيده، وشتمه وجَذَبه، فأركبه خلفه رديفاً، وقُبض سابق الدِّين أخوه في الحال، وتُخُطِّفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم، وساروا مجدِّين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة، وصعدوا إليها، وقبضوا على شمس الدين علي ابن الدَّاية من فراشه، وحُمل إلى بين يدي الملك الصَّالح، فاستقبله أحد مماليك نور الدين المعروف بالجُفَيْنة، فركله برجله ركلةً دحاه بها على وجهه، فانشقَّتْ جبهته. ثم صُفِّدوا جميعاً وحبسوا في جُبّ القلعة، وقبضوا على جميع الأجناد الذين حلفوا لأولاد الدَّاية، وأخرجوا جميعاً من القلعة.

[وفاة مري ملك بيت المقدس]

قلتُ: وفي آخر هذه السنة توفي مُرِّي الفرنجي الملك الذي كان حاصر القاهرة، وأشرف على أخذ الدِّيار المصرية.

وفي كتابِ فاضلي: ورد كتابٌ من الدَّاروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مُرِّي ملك الفرنج ـ لعنه الله ـ ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً، وأقدمه على نارٍ تَلَظَّى ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥﴾ [الليل: ١٥].

[قتل جرديك لابن الخشاب في حلب]
ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

قال ابنُ أبي طيّ: ففي أوَّلها ضَمِنَ القطب ابن العجمي أبو صالح[1]، وابن أمين

(١) تقدّمت ترجمته قبل قليل.

Marfat.com

الدّولة لجُرْديك إن قَتَلَ ابن الخَشّاب ردُّوا عليه جميع ما نُهِبَ له في دار ابن أمين الدولة. فدخل على الملك الصّالح، وتحدّث معه، وأخذ خاتمه أماناً لابن الخشاب، ونودي عليه، فحضر وركب إلى القلعة، فقتل، وعُلّق رأسه على أحد أبراج القلعة.

[مسير العماد الكاتب إلى الموصل]

وبقي الملك الصّالح في قلعة حلب، ومضى العماد الكاتب إلى المَوْصل، قال: وعزمتُ على خدمة سيف الدين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حَدّ الفرات، ومضى إليه ابن العجمي للإصلاح، فأصلح بين ابني العَمّ، وغُلق رَهْنُ إخوة مجد الدين في الاعتقال، وضيّقوا عليهم في القيود والأغلال، وألزموهم بتسليم الحصون، وتقديم الرُّهون، إلى أن غصبوا دورهم، وخربوا مَعْمورهم.

قال: وكان الموفّق خالد بن القَيْسَراني قد وصل ـ ونحن بدمشق ـ من مِصْر، فلزم داره ولم يدخل مع القوم.

[مساءة صلاح الدين
مما جرى لإخوة مجد الدين ابن الداية]

فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أنّ ولد نور الدين يتولاهُ بعده إخوة مجد الدين، فلما جرى ما جرى ساءه وقال: أنا أحقُّ برعي العهود، والسّعي المحمود، فإنه إن استمرّت ولاية هؤلاء تفرّقت الكلمة المجتمِعة، وضاقت المناهج المتّسعة، وانفردت مصر عن الشّام، وطمع أهل الكُفْر في بلاد الإسلام. وكتب إلى ابن المقدَّم ينكر ما أقدموا عليه من تَفْريق الكلمة، وكيف اجترؤوا على أعضاد الدَّوْلة وأركانها، بل أهلها وإخوانها، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها، ويضره ضرهم وضرها. فكتب ابنُ المقدَّم إليه يَرْدَعُه عن هذه العزيمة، ويقبّح له استحسان هذه الشيمة، ويقول له: لا يقال عنك إنك طمعت في بيت مَنْ غرسك، وربّاك وأسّسك، وأصْفَى مَشْرَبك، وأضفى ملبسك، وأجلى سكونك لملك مصر، وفي دَسْته أجلسك، فما يليق بحالك، ومحاسن أخلاقك وخِلالك غَيْرُ فضلك وإفضالك.

فكتب إليه صلاح الدين بالإنشاء الفاضلي: إنّا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جَمَع شملهم وألّف كلمتهم، وللبيتِ الأتابكي ـ أعلاه الله تعالى ـ إلا ما حفظ أصلَه وفَرْعه، ودفع ضرَّه وجلب نفعه. فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبّة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العُداة، وبالجملة إنا في واد، والظّانون بنا ظَنَّ السَّوْء في واد، ولنا من الصّلاح مُرَاد، ولمن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طَلَب الصّلاح إنك قادح، ولمن ألقى السّلاح إنك جارح.

Marfat.com

فصل

[عزم السلطان صلاح الدين على دخول الشام]

قال العماد: ثم عَزَمَ السُّلْطان على أن يسارع إلى تلافي الأمر، فاعترضه أمران: أحدهما وصول أسطول صِقِلِّية إلى الإسكندرية وإدراكه، والثاني نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه. أما وصول الأسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحِجَّة سنة تسع وستين، وانهزم في أوَّل المحرَّم سنة سبعين.

[وصول أسطول صقلية إلى الإسكندرية وانهزامه]

ثم ذكر كتاباً وصل من صلاح الدين إلى بعض الأمراء بالشَّام بشرح الحال، وحاصله: أنَّ أول الأسطول وصل وقت الظُّهر، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غَفْلةٍ من المتوكلين بالنَّظر، لا على حين خفاءٍ من الخبر، فأمْرُ ذلك الأسطول كان قد اشتهر، ورُوِّع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربيَّة، وهدَّد به في الجزائر الرُّومية صاحبُ قُسْطنطينية. فشوهد في الثغر من وفور عُدَّته، وكثرة عِدَّته، وعظيم الهمة به، وفرط الاستكثار منه، ما ملأ البحر، واشتدَّ به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البرّ. ثم أشير عليهم أن يقربوا من السُّور، فأمكن الأسطول النزول، فاستنزلوا خيولهم من الطَّرائد، وراجلهم من المراكب، فكانت الخيل ألفاً وخمسمائة رأس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل، ما بين فارسٍ وراجل. وكانت عِدَّة الطرائد ستاً وثلاثين طريدةً تحمل الخيل، وكان معهم مائتا شيني في كل شيني مائة وخمسون راجلاً. وكانت عِدَّة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدة المراكب الحمَّالة برسم الأزواد للرجال أربعين مركباً، وفيها من الرَّاجل المتفرِّق، وغِلْمان الخيَّالة، وصُنَّاع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتمِّمُ خمسين ألف راجل.

ولما تكاملوا نازلين على البَرّ، خارجين من البحر، حملوا على المسلمين حملةً أوصلوهم إلى السُّور، وفُقِدَ من أهل الثَّغْر في وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بن البصارو بسهم جرخ، وجدَّفت مراكب الفرنج داخلةً إلى الميناء، وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة، فسبقهم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوها، وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها. واتَّصل القتال إلى المساء، فضربوا خيامهم بالبر، وكان عِدَّتهم ثلاثمائة خيمة.

Marfat.com

فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا، ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها، وثلاثة مجانيق كبار المقادير، تضربُ بحجارة سود استصحبوها من صِقِلّية، وتعجّب أصحابنا من شِدّة أثرها وعظم حجرها. وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها، وارتفاعها، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السُّور، ولجُّوا في القتال عامة النهار المذكور.

وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقُوس يومِ الثلاثاء ثالث يوم نزول العدوّ على جناح الطائر، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين إسكندرية ودِمْياط، احترازاً عليها، واحتياطاً في أمرها، وخوفاً من مخالفة العدو إليها، واستمرَّ القتال، وقُدِّمت الدَّبّابات، وضربت المنجنيقات، وزاحمت السُّور، إلى أن صارت منه بمقدار آماج البحر وإهاج الدور.

فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قُبالتها من السُّور ويتركوها مُعَلَّقة بالقشور. ثم فتحوا الأبواب على غفلة، وخرجوا منها على غِرَّةٍ، وركب مَنْ هناك من الأمراء، وخرجوا من الأبواب، وتكاثر صائح أهل الثَّغْر من كلِّ الجهات، فأحرقوا الدَّبابات المنصوبة، وصدقوا عندها القتال، وأنزل الله على المسلمين النَّصر، وعلى الكُفَّار الخِذْلان والقهر.

واتَّصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء وقد ظهر فشلُ الفرنج ورعبهم، وقصرت عزائمهم وفتر حربهم، وأُحرقت آلات قتالهم، واستحرَّ القتل والجراح في رجالهم. ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ ما به قِوام الحياة، وهم على نية المباكرة، والعدو على نية الهَرَبِ والمبادرة. ثم كَرَّ المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظلام، فهاجموهم في الخيام، فتسلَّموها بما فيها، وفتكوا في الرَّجّالة أعظم فتك، وتسلَّموا الخَيَّالة، ولم يسلم منهم إلا من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحَّم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها، فولَّت بقيَّة المراكب هاربة، وجاءتها أحكامُ الله الغالبة. وبقي العدو بين قَتْلٍ وغرق، وأَسْرٍ وفَرق، واحتمى ثلاثمائة فارس في رأس تَلٍّ، فأُخذت خيولهم، ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله. وأقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس.

وذكر ابن شَدَّاد أن نزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين

Marfat.com

ألفاً في ستمائة قطعة ما بين شيني[١] وطرادة[٢] وبطسة وغير ذلك.

فصل

[ثورة الكنز في الصعيد]

وأما نوبة الكنز، فقال ابنُ شَدَّاد: الكنز إنسان مقدَّم من المصريين، كان قد انتزح إلى أسوان، فأقام بها، ولم يزل يُدَبِّر أمره، ويجمع السُّودان عليه، ويُخيِّل لهم أنه يملك البلاد ويُعيدُ الدَّولة مصْرية. وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تُسْتَصْغَرُ هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خَلْقٌ كثير وجمعٌ وافر من السُّودان، وقصد قُوص وأعمالها. فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرَّد له عسكراً عظيماً، شاكين في السلاح، من الذين ذاقوا حلاوة مُلْك الديار المصرية، وخافوا على فَوْت ذلك منهم، وقدَّم عليهم أخاه سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم، فلقيهم بمصافٍّ فكسرهم، وقتل منهم خلقاً عظيماً، واستأصل شأفتهم، وأخمد نائرتهم، وذلك في السَّابع من صفر سنة سبعين، واستقرَّت قواعد الملك.

قال العماد: وفي أوَّل سنة سبعين مستهلَّها، قام المعروف بالكنز في الصَّعيد، وجَمَعَ من كان في البلاد من السُّودان والعبيد، وعدا ودعا من القريب والبعيد، وكان عنده من الأُمراء أخٌ لحسام الدين بن أبي الهيجاء السَّمين، ففتك به وبمن هناك من المقطَعين، فغارت حمية أخيه وثارت للثأر، وساعده أخوه السُّلْطان سيف الدين، وعز الدين موسك ابن خاله[٣]، وعدة من أُمرائه ورجاله، وجاؤوا إلى مدينة طَوْد فاحتمت عليهم، وامتنعت، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت، وأتى السيف على أهلها، وباءت بعد عِزِّها بذُلِّها.

ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه، وسوئه وسودانه، فسُفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وأريقت دماءُ سوده، وهجم غابه على أُسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وطُلَّ دمه ولم ينتطح فيه عَنْز، وارتدع المارقون فما رقوا بعده سُلَّم نفاق، والله لناصري دينه ناصر واق.

---

(١) الشيني: وتسمى أيضاً الشينية، وشونة: وهو المركب المعد للجهاد في البحر (مصطلحات صبح الأعشى ص٢٠٧).

(٢) الطرادة: من السفن الحربية والبطسة كذلك من السفن الحربية (صبح الأعشى ٢/ ٥١٩).

(٣) هو الأمير عز الدين موسك بن جكو الهذباني، وهو ابن خال السلطان، وكان من أكابر مقدمي كتائبه، توفي في تاسع عشر شعبان سنة ٥٨٥هـ. سترد ترجمة وافية له في الجزء الرابع.

Marfat.com

وقال ابن أبي طيّ: واتّفق أيضاً أن خرج بقريةٍ من قرى الصَّعيد يقال لها طَوْد رجلٌ يعرف بعباس بن شاذي، وثار في بلاد قُوص ونَهَبَها وخَرَّبها، وأخذ أموال الناس. واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ـ وكان السّلطان قد استنابه بمصر ـ فجمع له العساكر وأوقع به، وبدَّد شمله، وفضَّ جموعه وقتله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأُسوان، وكان قَصَدَ بلد طَوْد، فقتل أكثر عسكره، وهرب، فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

فصل

[توجه صلاح الدين إلى دمشق]

في توجُّه صلاح الدين إلى دمشق، ودخوله إليها في يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأوَّل.

قال العماد: لما خلا باله مما تقدَّم ذكره تجهَّز لقصد الشام، فخرج إلى البركة مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بِلْبيس ثالث عشر ربيع الأول. وكانت رسل شمس الدِّين صاحب بُصْرى صديق ابن جَاوْلي وشمس الدين بن المقدم عنده، تَسْتوْري في الحثّ والبعث زَنْدَه، وتستقدمه وجُنْدَه. وسار على صَدْر وأيْلة ووصل السير بالسُّرى، حتى أناخ على بُصْرى، بصيراً بالعُلا نصيراً للهدى، فاستقبله صاحب بُصْرى وشد أَزْرَه، وسدَّد أمره. واستضاف إلى بُصْرى صَرْخَد، وتفرَّد بالسَّبْق إلى الخدمة وتوحَّد، وسار في الخدمة معه إلى الكُسْوَة.

وبكَّر صلاح الدين يوم الاثنين انْسِلاخ الشهر، وسار في موكب قويّ بالعَدَد والعُدَد، وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الأطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق، وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق وخَرَقها، وكأنَّ الله تعالى له خَلقها، ودخل إلى دار العقيقي مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريحان الخادم في القلعة على تأبِّيه، فراسله حتى استماله، وأغزر له نَوَاله، وتملَّك المدينة والقلعة. ونزل بالقلعة سيف الإسلام أخو السُّلْطان صلاح الدين، وملَّك ابنَ المقدَّم داره وكل ما حواليها، وبذل له طَلِبته التي أشار إليها ونَصَّ عليها؛ وأظهر أنه قد جاء لتربية الملك الصَّالح، وحِفْظ مَالَهُ من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحقُّ بصيانة حقِّه.

واجتمع به أعيانُها، وخَلَصَ لولائه إسرارها وإعلانُها، وأصبح وهو سُلْطانُها. وزاره القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري، فوفَّاه حقَّه من الاحترام، ووفَّر له حَظَّ التبجيل والإعظام.

ونفّذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر، بهذا الفتح والنَّصر، وفي بعضها: يوم وصولنا إلى بُصْرى وقَبْله وفَدَتْ وهاجرت، وتزاحمت وتكاثرت، وتوافت، الأمراء والأجناد والأتراك، والأكراد، والعُرْبان، وراجل الأعمال، وأعيان الرجال. وورد كتاب من دمشق بعد كتاب، وكلٌّ مخبر وذاكر، وهو غائب بكتابه حاضر، يذكر أنَّ البلاد ممكنة القياد، مُذْعنة إلى المراد. وأما الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ فإنّا في هذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخيم، وأدلجنا وعيونهم متناومة، وجُزْنا وأنوفهم راغمة، ووطئنا ورقابهم صُغُر، ومررنا وعيشهم مُرّ. والله يزيدهم ذُلاً، ويجعل عداوة الإِسلام في صدورهم غِلاً، وفي أعناقهم غُلاً.

وفي كتاب آخر: وكان رحيلُنا من بُصْرى يوم الأربعاء الرَّابع والعشرين من ربيع الأول، وقد توجَّه صاحبها من بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها. ثم لقينا الأجل ناصر الدين ابن المولى أسد الدين رحمة الله عليه وأدام نعمته، والأمير سعد الدين بن أُنَر في السبت السابع والعشرين. ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب والأجناد الدِّمشقية إلينا متوافية، والوجوه على أبوابنا مترامية، ولم يتأخر إلا من أبقى وجهه وراقب صاحبه، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه في العاقبة. ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى، وعرض دون الدُّخول عَدَدٌ من الرِّجال، فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم، وعرَّفتهم كيف يكون اللِّقاء وعَلَّمتهم، ودخلنا البلد، واستقرَّت بنا دار والدنا رحمة الله عليه، قريرةً عيونُنا، مستقراً سكونُ الرعية وسكوننا، وأذَعْنا في أرجاء البلد النداء بإطابة النُّفوس، وإزالة المكوس. وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت، واليد المتعدِّية قد امتدَّت إلى أحوالهم وأجحفت، فشرعنا في امتثال أمر الشَّرْع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها.

[تسلم صلاح الدين دمشق]

قال ابنُ الأثير: لما خاف مَنْ بدمشق من الأُمراء أن يقصدَهم كُمُشْتِكِين والملك الصَّالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بني الدَّاية، راسلوا سيف الدين غازي ليسلِّموها إليه فلم يجبهم، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدَّم، ومن أشبه أباه فما ظلم[1]. فلما أتته الرُّسل لم يتوقَّف وسار إلى الشَّام، فلما وصل دمشق سلَّمها إليه من بها من

(١) هو من الأمثال المشهورة، وهو من قول كعب بن زهير: [الطويل]
أنا الذي لم يخزني في حياته قديماً ومن أشبى أباه فما ظلمْ =

Marfat.com

الأمراء، ودخلها واستقرَّ بها، ولم يقطع خُطْبة الملك الصالح، وإنما أظهر أني إنما جئت لأخدمه، واسترد له بلاده التي أخذها ابنُ عمِّه. وجرت أمورٌ آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصَّالح على ما بيده.

وقال القاضي ابن شدَّاد: لما تحقَّق صلاح الدين وفاة نور الدين، وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد، تجهَّز للخروج إلى الشَّام، إذ هو أصل بلاد الإسلام، فتجهَّز بجمع كثير من العَسَاكر، وخلَّف بالديار المصرية مَن يستقلُّ بحِفْظِها وحراستها، ونَظْم أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه، وهو يكاتب أهل البلَاد وأمراءها. واختلفت كلمة أصحاب الملك الصَّالح، واختلَّت تدبيراتهم، وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعضُ على جماعةٍ منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك، وسبباً لتنفير قلوب النَّاس عن الصَّبي، فاقتضى الحال أن كاتَبَ ابنُ المقدَّم صلاحَ الدين، فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصَّالح ليكون هو الذي يتولى أمره ويَرُبُّ حاله[1].

فدخل دمشق يوم الثلاثاء سَلْخ ربيع الآخر، وكان أول دخوله إلى دار أبيه. واجتمع النَّاس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في النَّاس مالاً طائلاً، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به. وصَعِدَ القلعة، واستقرَّ قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص، وأخذ مدينتها في جُمادى الأولى، ولم يشتغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب، ونازلها سَلْخ جُمادى المذكور، وهي الدفعة الأولى.

وقال ابنُ أبي طي: بلغ السُّلْطان أن ابنَ المقدَّم نقض عهد الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب المَوْصِل، واستيلائه على البلاد الشَّرْقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه. وقيل: إن ابنَ المقدَّم كاتَبَ السلطان ودعاه إلى الخروج. وقيل: إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركةٍ تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام، وشغل بعضهم ببعض، ولجواب مُمضٍّ ورد من ابن المقدَّم إليه. ولما تيقَّن ابنُ المقدم خروجَ السُّلْطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك، واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعده تسليم دمشق إليه.

= والبيت في ديوان كعب بن زهير ص٦٥، ومقاييس اللغة ٣/ ٤٦٨. ويروى البيت أيضاً بلفظ:

أقول شبيهات بما قال عالماً ... بهنّ ومن يشبه أباه فما ظلمْ

أي لم يضع الشبه في غير موضعه (المستقصى من أمثال العرب ٢/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣).

(١) يَرُبُّ حاله: أي يصلحه.

Marfat.com

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بُقعتها، نشر عَلَم العدل والإحسان، وعفَّى آثار الظُّلْم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدُّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات، والمؤن والضرائب المحرَّمات.

قلتُ: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدةً بعد مصافُ عَسْقَلان، أولها: [المنسرح]

تـهـنَّ يـا أَطْـوَلَ الـمـلـوكِ يَـداً ... فـي بَـسْـطِ عَـدْلٍ وسـطـوةٍ ونـدى
أجراً وذكراً مِنْ ذلك الشكر في الد (م) ـنـيـا ومـن ذلـك الـجِـنـان غـدا
لا تـسـتـقـلَّ الـذي صـنـعـتَ فـقـد ... قُـمْـتَ بـفـرض الـجـهـاد مـجـتـهـدا
وَجُسْتَ أرض العِدَى وأفنيتَ من ... أبـطـالـهـمْ مـا يـجـاوزُ الـعَـدَدا
ومـا رأيـنـا غـزا الـفِـرَنْـجَ مـن الـ ... ـمـلـوك فـي عُـقْـر دارِهـم أَحَـدا
فَسِرْ إلى الشَّام فالملائكة الـ ... ـأبـرارُ تـلـقـاك مـلـتـقـى حـمـدا
فـهْـو فـقـيـرٌ إلـيـك يـأمـلُ أنْ ... تُـضْـلِـحَ بـالـعَـدْلِ مـنـه مـا فَـسَـدا
والله يـعـطـيـك فـيـه عـاقـبـة الـنَّـ (م) ـصْـرِ كـمـا فـي كـتـابـهِ وَعَـدا
فـمـا حـبـاك الـورى وألـهـمـك الـ ... ـعَـدْل وأعـطـاك مـا مـلـكـتَ سُـدَى

ومَدَحَ وُحَيش الأَسَدي[1] صلاحَ الدين عند أخذه دمشق بقصيدةٍ، أولها[2]: [البسيط]

قد جاءك النَّصْرُ[3] والتوفيق فاصطحبا ... فَكُنْ لأضعافِ هذا النصر مُرْتَقِبا
لله أنـتَ صـلاحَ الـديـن مـن أسـدٍ ... أدنـى فـريـسـتِـهِ الأيـامُ إن وَثَـبَـا
رأيـتَ جِـلْـقَ ثَـغْـراً لا نـظـيـرَ لـه ... فـجـئـتـهـا عـامـراً مـنـهـا الـذي خَـرِبـا
نـادتـك بـالـذُّلِّ لـمـا قـلَّ نـاصِـرُهـا ... وأزْمَـعَ الـخَـلْـقُ مـن أوطـانـهـا هَـرَبـا
أحْيَيْتَها مِثْلَ ما أحييت مِصْرَ فقد ... أَعَـدْتَ مـن عَـدْلـهـا مـا كـان قـد ذَهَـبـا
هـذا الـذي نَـصَـرَ الإسـلامَ فـاتَّـضَـحَـتْ ... سـبـيـلُـهُ وأهـانَ الـكُـفْـرَ والـصُّـلُـبـا
ويـوم شـاورَ والإيـمـانُ قـد هُـزِمَـتْ ... جيوشُه كان فيه الـجَـحْـفَـلَ الـلَّـجِـبـا

---

(١) وحيش الأسدي: هو سبع بن خلف بن محمد، الأسدي الفقعسي، المعروف بوحيش، ولد سنة ٥٠٤هـ، ولقيه العماد في دمشق، وقصده بقصائد مدحه بها، فأحسن العماد جائزته («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٦).

(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٣) في «خريدة القصر»: «السعد» بدل: «النصر».

Marfat.com

أَبَتْ لـه الـضَّـيْـمَ نَـفْـسٌ مُـرَّةٌ ويـدٌ فـعَّـالـة وفـؤادٌ قَـطُّ مـا وَجَـبـا
يستكثر المدح يُتْلى في مكارِمه زُهْداً ويَسْتَصْغِرُ الدُّنيا إذا وَهَبا
ويـوم دِمْـيـاطَ والإسـكـنـدريـةَ قـد أصارَهـم مَثَلاً في الأرض قد ضُرِبا
والشَّام لو لم تُدَارِكْ أهلَه انْدَرَسَتْ آثـارُهُ وعَـفَـتْ آيـاتُـه حُـقُـبـا

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق
من فتح حمص وحماة وحصار حلب

قال ابن أبي طيّ: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك النَّاصر وميل النَّاس إليه، وانعكافهم عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته، فحمَّلوا قُطْب الدين يَنَال بن حَسَّان[1] رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملَّكتك مصر بأيدينا، والرماح التي حَوَيْتَ بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعما تصديت له تصدّك، وأنت فقد تعدَّيْتَ طورك، وتجاوزت حَدَّك، وأنت أحد غِلْمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السُّلْطان وُرود ابن حَسَّان عليه رسولاً تلقَّاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرِّسالة منه. فلما فاه ابن حسان بتلك الشَّقاشق الباطلة، وقعقع بتلك التمويهات العاطلة، لم يُعِره السُّلْطان رحمه الله تعالى طَرْفاً ولا سمعاً، ولا رَدَّ عليه خفضاً ولا رفعاً، بل ضرب عنه صَفْحاً وتغاضياً، وترك جوابه إحساناً وتجافياً، وجرى في ميدان أريحيته، واستنَّ في سنن مروءته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وقال له: يا هذا، اعلم أنني وصلت إلى الشَّام، لجمع كلمة الإسلام، وتهذيب الأمور، وحياطة الجمهور، وسَدِّ الثُّغور، وتربية ولد نور الدين، وكفِّ عادية المعتدين، فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، ودون ما

---

(١) أقطعه نور الدين منبج سنة ٥٦٢هـ، بعد أن عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصروه بها، وأخذها منه، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة ٥٧٢هـ (انظر أحداث سنة ٥٦٢هـ، من هذا الجزء).

ترومه خَرْطُ القَتَاد[١]، وفتُّ الأكباد، وإيتام الأولاد. فتبسَّم السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله، وأَوْمَى إلى رجاله بإقامته من بين يديه، بعد أن كاد يسطو عليه.

ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشَّام الأسفل، ورحل متوجِّهاً إلى حمص فتسلَّم البلد، وقاتل القلعة ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكَّل بها من يحصرها. ورحل إلى جهة حماة، فلما وصل إلى الرَسْتَن خرج صاحبها عز الدين جُرْديك[٢]، وأمر مَنْ فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره. وسار جُرْديك حتى لقي السُّلْطان، واجتمع به بالرَّسْتَن، وأقام عنده يوماً وليلة، وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سَلَّم إليه حماة، وسأله أن يكون السَّفير بينه وبين من بحلب، فأجابه السّلطان إلى مُرَاده. وسار إلى حلب، وبقي أخو جُرْديك بقلعة حماة.

قال: وسار جُرْديك إلى حلب وهو ظانٌّ أنه قد فعل شيئاً، وحصَّل عند من بحلب يداً، فاجتمع بالأمراء والملك الصَّالح، وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فاتَّهمه الأمراء بالمخامرة، وردُّوا مشورته، وأشاروا بقبضه، فامتنع الملك الصالح. ولجَّ سعد الدين كُمُشْتِكِين في القبض عليه، فقبض وثُقِّل بالحديد، وأُخذ بالعذاب الشديد، وحُمل إلى الجُبِّ الذي فيه أولاد الدَّاية.

قال: ولما قُدِّم جُرْديك وشُدَّ في وسطه الحبل وأُدْليَ إلى الجُبّ، وأحسَّ به أولاد الدَّاية، قام إليه منهم حسن وشَتَمَه أقبحَ شتم، وسَبَه ألأم سَبٍّ، وحلف بالله إن أُنزل إليهم ليَقتُلنَّه. فامتنعوا من تدليته، فأعلم سعد الدين كُمُشْتِكِين، فحضر إلى الجُبِّ، وصاح على حسن وشتمه وتوعَّده، فسكن حسن وأمسك، وأنزل جُرْديك الجُب، فكان عند أولاد الدَّاية، وأسمعه حسنٌ كلَّ مكروه.

قال: وكتب أبي إلى حلب حين اتصلَ به قبض أولاد الدَّاية وجُرْديك، وكانوا تعصَّبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب، قصيدةً منها: [البسيط]

بنُو فلانة أعوان الضَّلالة قد ... قضى بذُلِّهمُ الأفلاكُ والقَدَرُ
وأصبحوا بعد عِزِّ المُلْكِ في صَفَدٍ ... وقَعْرِ مَظْلَمَةٍ يغشى لها البَصَرُ
وجَرَّد الدَّهْرُ في جُرْديك عَزمته ... والدَّهْرُ لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ

قال: ولم يزل السُّلْطان مقيماً على الرَّسْتَن، ثم طال عليه الأمر، فسار إلى جباب التركمان، فلقيه أحد غِلْمان جُرْديك، وأخبره بما جرى على جُرْديك من

---

(١) هو من المثل: دونه خرط القتاد، يضرب للأمر الشاق، والقتاد: شجر صلب له شوكة كالإبر، وخرط الشجر: انتزاع الورق منه اجتذاباً (المستقصى ٢/ ٨٢ ـ ٨٣).
(٢) عز الدين جرديك: تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

الاعتقال والقهر، فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماة، وطلب من أخي جُرْديك تسليم حماة إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل. وصَعِدَ السُّلْطان إلى قلعة حماة واعتبر أحوالها. وولاها مُبارز الدين عليّ بن أبي الفوارس، وذلك مستهل جُمادى الآخرة.

وسار السّلطان إلى حلب ونزل على أنف جبل جَوْشَن فوق مشهد الدَّكّة ثالث جُمادى، وامتدَّت عساكره إلى الخَنّاقية وإلى السَّعْدي. وكان من بحلب يظنون أن السُّلْطان لا يقدَمُ عليهم، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، وخيمه تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت، فخافوا من الحلبيين أن يُسلِّموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطييب قلوب العامة، فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان، ويقبل عليهم بنفسه، ويخاطبهم بلسانه أنهم الوَزَرُ والملجأ. فأمر أن يُنادي باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالنَّاس، فنزل الصَّالح من باب الدرجة وصَعِدَ من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهل حلب، أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاجئ إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد. قال: وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة، وعلا نشيجه، فافتتن النَّاس وصاحوا صيحةً واحدة، ورمَوْا بعمائمهم، وضجُّوا بالبكاء والعويل، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك. وأقبلوا على الدُّعاء له، والترحُّم على أبيه.

وكانوا قد اشترطوا على الملك الصَّالح أنه يُعيد إليهم شرقية الجامع يُصَلُّون فيها على قاعدتهم القديمة، وأن يُجهر بحيّ على خير العمل والأذان والتذكير في الأسواق، وقُدَّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطَّاهر أبي المكارم حمزة ابن زُهْرة الحسيني، وأن تكون العصبية مرتفعة، والنَّاموس وازع لمن أراد الفتنة، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله تعالى. فأجيبوا إلى ذلك.

قال ابن أبي طيّ: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحيّ على خير العمل، وصلى أبي في الشَّرْقية مُسْبلاً، وصلَّى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا في الأسواق وقُدَّام الجنائز بأسماء الأئمة، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات، وأُذِنَ للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه، وفعلوا جميع ما وقعتِ الأيمان عليه.

Marfat.com

فصل

قال ابن أبي طيّ: وكانت هذه السنة شديدة البرد، كثيرة الثلوج، عظيمة الأمطار، هائجة الأهوية. وكان السُّلْطان قد جعل أولاد الدَّاية عُلالة له وسبباً يقطع به ألْسِنَة من يُنكر عليه الخروج إلى الشام وقَصْد الملك الصَّالح، ويقول: أنا إنما أتيتُ لاستخلاص أولاد الدَّاية وإصلاح شأنهم.

[مكاتبة كمشتكين لسنان صاحب الحشيشية]

وأرسل السُّلْطان إلى حلب رسولاً يُعَرِّض بطلب الصُّلْح، فامتنع كُمُشْتِكِين، فاشتدَّ حينئذٍ السُّلْطان في قتال البلد.

وكانت ليالي الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان، والفكرة في مخاتلته وإرسال المكروه إليه. فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشيَّة[1] في إرصاد المتالف للسلطان، وإرسال من يفتك به، وضمنوا له على ذلك أموالاً جمة وعِدَّة من القرى. فأرسل سنان جماعة من فُتَّاك أصحابه لاغتيال السلطان، فجاؤوا إلى جبل جَوْشَن واختلطوا بالعسكر، فعرفهم صاحب بوقُبيس[2] لأنه كان مثاغراً لهم، فقال لهم: يا ويلكم، كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه! فخافوا غائلته فوثبوا عليه، فقتلوه في موضعه، وجاء قومٌ للدفع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض، وبدر من الحشيشيّة أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار، فقتله، وطُلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

وقال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشيَّة كاتبوا قومص طرابلس، وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحَّل السلطان عن حلب. وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم[3]، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين. فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزّعْفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير.

---

(١) سنان صاحب الحشيشية: هو سنان بن سلمان بن محمد بن راشد البصري، المتوفى سنة ٥٨٨هـ، تقدّمت ترجمته الوافية قبل قليل في هذا الجزء.
(٢) هو الأمير ناصح الدين خمارتكين، كما سيأتي بعد قليل.
(٣) كسرة حارم: كانت سنة ٥٥٩هـ، انظر الجزء الأول، أحداث سنة ٥٥٩هـ.

Marfat.com

[مهاجمة الفرنج لحمص]

واتفق في أول هذه السَّنة موت ملك الفرنج صاحب القُدس وطبرية وغيرهما، فتكفَّل هذا القمص بأمر ولده المجذوم، فعَظُم شأنه وزاد خطره. فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان؛ لستُ ممن يَرْهَبُ بتألُّب الفرنج وها أنا سائرٌ إليهم. ثم أنهد قطعةً من جيشه وأمرهم بقصد أنطاكية، فغنموا غنيمةً حَسَنةً وعادوا. فقصد القمص جهة حمص فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده، وحصل الغرض من رحيل السُّلْطان عن حلب، ووصل إلى حمص فتسلَّم القلعة، ورتَّب فيها والياً من قِبَله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة، وستأتي[1]:

[المتقارب]

إيابُ ابن أيوب نحو الشَّام ... على كلِّ ما يرتجيه ظُهورُ
بيوسُف مِصْرٍ وأيَّامِهِ ... تَقَرُّ العيونُ وتَشْفى الصُّدُورُ
رأت منك حمصُ لها كافياً ... فواتاك منها القويُّ العَسِيرُ

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ[2] يقول في وصف قلعة حمص: والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهدُ به من كونها نجماً في سحاب، وعُقاباً في عِقاب، وهامةً لها الغمامة عِمامة، وأَنْمُلةً إذا خضبها الأصيل كان الهلالُ منها قُلامة، عاقدةً حبوةً صالحها الدَّهْرُ على ألا يَحُلَّها بقرعه، عاهدةً عصمةً صافحها الزمن على ألا يروعها بخَلْعه. فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طَبْعَ حمْصَ في العقارب، وضربت حجارةً بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحد إلا وقد أثَّرت فيها جُدَرِياً بضربها، ولم تصل إلى السابع إلا والبحران منذرٌ بنَقْبها. واتَّسع الخَرْقُ على الراقع، وسقط سَعْدُها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها الطَّالع، وفُتحت الأبراج فكانت أبواباً، سُيِّرت الجبال بها فكانت سراباً. فهنالك بدت نقوبٌ، يَرى قائم مِنْ دونها ما وراءها، وحُشيت فيها النَّار فلولا الشُّعاع من الشعاع أضاءها[3].

---

(١) الأبيات في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص٢٨.

(٢) هو علي بن إبراهيم بن نجا، المعروف بابن نجيّة، زين الدين، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة ٥٩٩هـ بمصر، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين، وفيات سنة ٥٩٩هـ.

(٣) الجملتان الأخيرتان مأخوذتان من عجزي بيتين لقيس بن الخطيم وهما: [الطويل]

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها ... يرى قائمٌ من دونها ما وراءها =

Marfat.com

ومن كتابٍ آخر فاضلي عن السُّلْطان إلى أخيه العادل: قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحد الذي يخرج عن العَدّ، وبعد أن نُرَتِّب أحوال حمص ـ حرسها الله تعالى ـ نتوجَّه إلى حماة، والله المعين على ما ننويه من الرَّشاد، وننظِّفه من طُرُقِ الجهاد.

وقال العماد: لما سمع المدبِّرون للملك الصَّالح بإقبال صلاح الدين المُؤذن بإدبارهم، سُقط في أيديهم، وراسلوا المواصلة وكاتبوهم، وأرسلوا إلى صلاح الدين بالإغلاظ والإحفاظ. وكان الواصل منهم قطب الدين يَنَال بن حَسَّان، وقد تجنَّب في قوله الإحسان، وقال له: هذه السُّيوف التي مَلَّكتك مصر ـ وأشار إلى سيفه ـ إليها تردُّك، وعمَّا تصدَّيت له تصدُّك. فحلم عنه السلطان واحتمله، وتغافل كرَماً وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبله، وذكر أنه وَصَل لترتيب الأُمور، وتهذيب الجمهور، وسَدِّ الثُّغور، وتربية ولد نور الدين، واستنقاذ إخوة مجد الدين. فقال له: أنت تريد الملك لنفسك، ونحن لا ننزع في قوسك، ولا نأنس بأنسك، ولا نرتاع لجرسك، ولا نبني على أُسُك، فارجع حيث جئت، أو اجهد واصنع ما شئت، ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع، ولا تطلع حيث ما لسعودك فيه مطلع. وناك من تقطيب القطب ينال، كل ما أحال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسُّم وأخفى الاحتمال.

ثم إنه استناب أخاه سيف الإسلام طُغْتِكِين بدمشق، وسار بالعسكر ونزل على حمص، فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأُولى، وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها. ورحل إلى حماة، فأخذها مستهل جُمادى الآخرة.

ثم مضى ونزل على حلب، فحصرها ثالث الشهر، فلمَّا اشتدَّ على الحلبيين الحصار، وأعوزهم الانتصار، استغاثوا بالإسماعيليَّة، وعيَّنوا لهم ضياعاً، وبذلوا لهم من البذول أنواعاً، فجاء منهم في يوم بارد شات، من فُتَّاكهم كُلُّ عات، فعرفهم الأمير ناصح الدين خُمارتِكِين صاحب بوقُبيس ـ وكان مثاغراً للإسماعيلية ـ فقال لهم: لأي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم! فقتلوه، وجاء من يدفع عنه فأثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على السُّلْطان في مقامه، وقد شهر سكين انتقامه، وطُغْرُل أمير جاندار واقف ثابت، ساكن ساكت، حتى وصل إليه، فشمل بالسَّيف رأسه، وما قُتل الباقون حتى قَتَلُوا عِدَّة، ولاقى من لاقاهم شِدَّة.

= طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائرٍ لها نَفَذٌ لولا الشعاع أضاءها
والبيتان في ديوان قيس بن الخطيم ص٤٦.

Marfat.com

وعصم الله حُشاشته في تلك النَّوْبة من سكاكين الحشيشِيَّة، فأقام إلى مستهل رجب، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قومص طرابلس ـ وقد كان في أسر نور الدين مُذْ كسرة حارِم، وبقي في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدى نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير ـ فتوجَّه في الإفرنجية إلى حمص، فلما سمع بالسُّلْطان رجع ناكصاً على عقبيه، خوفاً مما يقع فيه ويتم عليه.

ومن كتاب فاضليٍّ عن السُّلْطان إلى العادل: قد أعلمنا المجلس أن العدوَّ ـ خذله الله ـ كان الحلبيون قد استنجدوا بصُلْبانهم، واستطالوا على الإسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص، فوردنا حماة، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاه. فسار إلى حصن الأكراد متعلقاً بحبله مفتضحاً بحيله. وهذا فتحٌ تفتح له أبواب القلوب، وظفرٌ وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب، فإنَّ العدوَّ قد سقطت حِشْمته، وانحطَّت فيه هِمَّته، وولَّى ظهراً كان صدره يصونه، ونكَّس صليباً كانت ترفعه شياطينه.

وقال العماد في «الخريدة»: ولما خَيَّم السُّلْطان بظاهر حمص قصده المهذَّب بن أسعد[1] بقصيدةٍ، أوَّلها: [الكامل]

ما نامَ بَعْدَ البَيْنِ يستحلي الكَرى ... إلا لِيَطْرُقَه الخيالُ إذا سَرى
كَلِفٌ بِقُرْبِكُمُ فلمَّا عاقه ... بُعْدُ المَدَى سَلَكَ الطَّريق الأخصرا
ومُوَدِّعٍ أمرَ التفرُّق دَمْعَه ... ونَهَتْهُ رِقْبَةُ كاشحٍ فَتَحَيَّرا
تُرْدِي الكتائبَ كُتْبُهُ فإذا غَدَتْ ... لم يُدْرَ أَنْفَذ أسْطُراً أم عسكرا
لم يُحْسِنِ الإتْرابَ فوقَ سُطُورِها ... إلا لأن الجيشَ يعقِدُ عِثْيَرا[2]

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين: هذا الذي يقول: [البسيط]

والشِّعْرُ ما زَالَ عند التُّرْك متروكا

فعجَّلَ جائزَتَه لتكذيب قوله وتصديق ظنِّه، فشرَّفه وجمعَ له بين الخِلْعة والضَّيْعة.

وعَنى الفاضل ما قاله في قصيدة في مدح الصَّالح بن رُزِّيك التي أوَّلها: [البسيط]

أما كَفَاك تلافي في تلافيكا

---

(١) هو عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن أحمد، مهذب الدين، أبو الفرج الموصلي، المعروف بابن الدهان الشاعر، توفي بحمص سنة ٥٨١هـ، له ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧).

(٢) العِثْير، بكسر العين المهملة، وسكون الثاء المعجمة: العجاج الساطع.

Marfat.com

يقول فيها[١]: [البسيط]

يا كعبةَ الجُودِ إنَّ الفَقْرَ أَقْعَدَني ورِقَّةَ الحالِ عن مفروضِ حَجْيكا
من أرتجي يا كريمَ الدَّهرِ تَنْعَشُني جَدْواه إن خاب سَعْيي في رجائيكا
أأمْدَحُ التُّركَ أبغي الفَضْلَ عِنْدَهُمُ والشِّعْرُ ما زالَ عند التُّرْك متروكا
أم أمدح السُّوقَةَ النَّوْكى لِرِفْدِهُمُ واضَيْعَتَا إن تخطَّتني أياديكا
لا تتركَنِّي وما أمَّلتُ في سَفري سواك أُقْفِلُ نحو الأهل صُعْلُوكا

قلتُ: وقد مضى ذِكْرُ ابن أسعد هذا في أخبار سنة ثمانٍ وخمسين، وسيأتي من شعره أيضاً في أخبار سنة ستٍّ وسبعين، وثمانٍ وسبعين.

وما أحسنَ ما خرجَ ابنُ الدَّهَّان من الغَزَل إلى مدح ابن رُزِّيك في قوله من قصيدةٍ أوَّلها[٢]: [الطويل]

إذا لاحَ بَرْقٌ مِنْ جَنَابِكَ لامعُ أضاءَ لِوَاشٍ ما تُجِنُّ الأضالِعُ

يقول فيها: [الطويل]

تمادى بنا في جاهليَّة بُخْلها وقد قام بالمعرُوفِ في النَّاس شارعُ
وتحسَبُ ليلَ الشُّحِّ يمتدُّ بعدَما بدا طالعاً شَمْسُ السَّخاءِ طلائعُ

فصل

[إرسال صلاح الدين ابن أبي المضاء رسولاً إلى بغداد]

ثم أرسل السُّلْطان الخطيب شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء[٣] إلى الديوان العزيز برسالةٍ ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائقاً فائقاً، يشتمل على تعداد ما للسُّلْطان من الأيادي من جهاد الإفرنج في حياة نور الدين، ثم فتح مصر واليمن، وبلادٍ جمَّة من أطراف المغرب، وإقامة الخُطْبة العباسية بها، يقول في أوله للرسول:

فإذا قضى التسليم حَقَّ اللقاء، واستدعى الإخلاص جهد الدُّعاء، فلْيُعدْ وليعدَّ

(١) انظر القصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٣) هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، كما ذكره في أول أحداث سنة ٥٦٧هـ.

Marfat.com

حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثرُ منه ما قد جرى، وليشرح صدراً منها لعلّه يشرع منا صدراً، وليوضح الأحوال المستسرَّة فإن الله لا يُعبد سِرّاً: [الكامل]

ومن الغرائب أن تَسِير غرائِبٌ ... في الأرض لم يَعلَم بها المأمولُ
كالعيسِ أقتل ما يكون لها الصَّدى ... والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ

فإنا كنا نَقْتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونَلْقى السُّهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصُّفاح بصدورنا وغيرنا يدَّعي التَّصْدير. ولا بدّ أن نستردَّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تُرد به الغُصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألْسنِ كما أخذنا بحظِّ القلوب. وما كان العائقُ إلا أنا كُنّا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة، يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإيجاباً للحق، يشاكل إيجابنا للسَّبْق. وكان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكُفّار مُتقدِّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا. فأي مدينة فُتحت، أو مَعْقِل مُلك، أو عسكرٍ للعدوِّ كُسِرَ، أو مصافٍّ للإسلام معه ضُرب. فما يجهل أحدٌ صُنْعنا، ولا يجحد عدونا أنّا نصطلي الجمرة، ونملك الكَرَّة، ونتقدم الجماعة، ونُرتِّب المقاتلة، وندبر التَّعبئة، إلى أن ظهرت في الشّام الآثار التي لنا أجرُها، ولا يضرنا أنْ يكون لغيرنا ذكرُها.

وكانت أخبارُ مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دَوْلتها عليه من غلبة صغيرٍ على كبير، وأن النظام بها قد فَسَد، والإسلام بها قد ضَعُفَ عن إقامته كلُّ من قام وقَعَد. والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموالٍ كثيرة، لها مقادير خطيرة، وأنَّ كلمة السُّنَّة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشَّريعة وإن كان مسماة فإنها متحاماة. وتلك البدع بها على ما يُعلم، وتلك الضَّلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم. وذلك المذهب قد خالط من أهله اللَّحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهةً تُعْبَدُ من دون الله وتعظَّم وتفخم، فتعالى الله عن شَبه العباد، وويلٌ لمن غَرَّه تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد. فسمت هِمَّتُنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مُقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالَّته منها. فسرنا إليها في عساكر ضخمة، وجموع جمة، وبأموالٍ انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا. فعرضت عوارض منعت، وتوجَّهت للمصريين رُسلٌ باستنجاد الفرنج قطعت، و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] ولكلِّ أملٍ باب. وكان في تقدير الله تعالى أنّا نملكها على

الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغَدَرَ الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عَظُمَ خَطْبُها وخبطها، وعُلم أن استئصال كلمة الإسلام محطُّها، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان، كما كاتبنا المسلمون من الشَّام في هذا الأوان، بأنَّا إنْ لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نمهل إلى الغد. فسرنا بالعساكر المجموعة، والأمراء والأهل المعروفة، إلى بلاد قد تمهَّد لنا بها أمران، وتقرَّر لنا في القلوب وُدَّان: الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحقّ الأقدم، والآخر ما يرجونه من فكِّ إسارهم، وإقالة عِثارهم. ففعل الله ما هو أهلُه، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حَبْلُه، وضاقت به سُبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها، وبلادها وأقاليمها، قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صُلْبانه، ونُصبت بها أوثانه، وأُيس من أنْ يسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يُستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السَّرِّ فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر. وبها راجل من السُّودان يزيد على مائة ألف، كلهم أغتام[1] أعجام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: ٤٤] لا يعرفون ربّاً إلا ساكن قصره، ولا قِبْلةً إلّا ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكرٌ من الأرمن باقُون على النَّصْرانية، موضوعةٌ عنهم الجِزْية، كانت لهم شوكة وشِكَّة، وحُمة وحَمِيَّة. ولهم حواشٍ لقصورهم من بين داعٍ تَلَطَّفُ في الضلال مداخلُه، وتصيب القلوبَ مخاتلُه، ومن بين كُتَّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسَل، وخُدَّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النِّحَل، ودولة قد كَبر نملها الصَّغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع من خَطَرات الضَّمير، فكيف بخطوات التدبير. هذا إلى استباحةٍ للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادةٍ جائرة، وتحريفٍ للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مُراد الله بالتنزيل، وَكُفْرٍ سُمي بغير اسمه، وشرعٍ يُتَسَتَّرُ به ويُحكم بغير حكمه. فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشّفار، ونتحيَّفهم تحيُّف الليل والنهار للأعمار، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصُّلٍ ما كان من حيلة البشر ولا قُدْرتهم لولا إعانة المقادير. وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج، دفعة إلى بِلْبيس ودفعة إلى دِمْياط، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر[2]، والحشد الأوفر، وخصوصاً

(١) الغتمة، بالضم: العجمة، والأغتم: من لا يفصح شيئاً.
(٢) العدد المجهر: أي العدد المستكثر.

Marfat.com

في نوبة دمياط، فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب، مقاتل وحامل، وبرّاً في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها، ويماسونها ويصابحونها القتالَ الذي يصلُبه الصليب، والقِراع الذي ينادي به الموت من مكانٍ قريب، ونحن نقاتل العدوَّين الباطن والظَّاهر، ونصابر الضِّدَّين المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره، وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسُّودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة، تارةً بالأوامر المرهقة لهم، وبالأمور الفاضحة منهم، وبالسيوف المجرَّدة، وبالنار المحرقة، حتى بقي القصرُ ومن به من خدم ومن ذُرِّية قد تفرَّقت شِيَعُه، وتمزَّقت بدعه، وخفَتت دعوته، وخفِيَت ضلالته، فهنالك تَمَّ لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخُطْبة، والرفع للواء الأسود الأعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائه، وبرأنا من عُهدة يمين كان إثم حِنْثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته. ولما خلا ذرعنا، ورَحُب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكُفَّار، فلم تخرج سَنَة إلا عن سُنَّة أقيمت فيها براً وبحراً، مركباً وظهراً، إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها مُذْ أُخذت من أيديهم، ولا أُوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مُذْ مَلَكها أعاديهم. فمنها ما حُكِمت فيه يَدُ الخراب، ومنها ما استولت عليه يدُ الاكتساب، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدوُّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلُوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحَرَم، فسبى منه خَلْقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يُستولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غيرُ أهلها، ومقام الخليل عليه السَّلام، أن يقوم به من نَارُه غيرُ بَرْدٍ وسلام، ومضجع الرسول ﷺ أن يتطرَّقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام. ففتح الله هذه القلعة وصارت مَعْقِلاً للجهاد، وموئلاً لسُفَّار البلاد، وغيرهم من عُبَّاد العباد.

ثم قال: وكان باليمن ما عُلِمَ من ابن مهدي الضَّال الملحد، المبدع المتمرِّد، وله آثار في الإسلام، وثأر طالِبُهُ النبيُّ ﷺ، لأنه سبى الشرائف الصَّالحات، وباعهن بالثمن البَخْس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس، ودان ببدعة، ودعا إلى قبر أبيه وسمَّاه كعبة، وأخذ أموال الرَّعايا المعصومة وأجاحها[1]، وأحلَّ الفروج المحرَّمة وأباحها. فأنهَضْنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلَّفنا له نفقات واسعة، وأسلحة

(١) الجوح: الإهلاك، والاستئصال، وأجاح: أهلك واستأصل، ومنه الجائحة: للشدة المجتاحة للمال.

Marfat.com

رائعة، وسار فأخذناه ولله الحمد، وأنجح الله فيه القَصْد، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية، وإلى ما يقتضُ الإسلام عُذْرته متمادية.

ولنا في الغرب أثرٌ أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب؛ وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أنَّ أمْرَهم قد أَمِر[1]، وملكهم قد عُمِر، وجيوشهم لا تطاق، وأمرهم لا يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسَيَّرْنا إليها عسكراً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر. لأن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير: بَرْقة، قَفْصة، قَسْطِيلِية، تَوْزَر كلُّ هذه تقام فيها الخُطْبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله ـ أمير المؤمنين سلام الله عليه ـ ولا عهد للإسلام بإقامتها، وينفَّذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها.

وفي هذه السنة كان عندنا وَفْدٌ قد شاهده وفود الأمصار، ورموه بأسماع وأبصار، مقداره سبعون راكباً، كلُّهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسَيَّرنا الخِلَع والمناشير والألوية، بما فيها من الأوامر والأقضية. فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكُفَّار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشِّداد، فمنهم صاحب قُسْطَنْطينية، وهو الطَّاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدَّهْر وشربت، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغَلَبَتْ، جَرَت لنا معه غَزَواتٌ بحرية، ومناقلات ظاهرة وسِرِّية، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رُسله في جمعةٍ واحدة نَوْبتين، بكتابين، كلّ واحدٍ منهما يظهر فيه خفض الجَنَاح، وإلقاء السِّلاح، والانتقال من معاداة إلى مُهاداة، ومن مفاضحةٍ إلى مناصحة، حتى إنه أنذرَ بصاحب صِقِلِّية وأساطيله التي تردَّد ذِكرُها، وعساكره التي لم يخفَ أمرُها.

ومن هؤلاء الكُفَّار هذا صاحبُ صِقِلِّية، كان حين علم بأن صاحب الشَّام وصاحب قُسْطَنْطينية قد اجتمعا في نوبة دِمْياط فغُلبا وقُسرا، وهُزما وكُسرا، أراد أن يُظهر قوَّته المستقلَّة، فعمَّر أسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين يكثرُ عِدَّته، وينتخب عُدَّته، إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع، وخَطْبٌ هائل، ما أثقل ظهر البحر مِثْلُ حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورَجْله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم نَقَلَه، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله.

---

(١) أمرهم قد أمر: أي قد تمّ.

Marfat.com

ومن هؤلاء الجيوش البنادقة، والبياشنة، والجنوية[١] كلّ هؤلاء تارةً يكونون غُزاةً لا تُطاق ضراوة ضَرْهم، ولا تُطفأ شرارة شَرّهم، وتارةً يكونون سُفّاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصرُ عنهم يدُ الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قُرِّرت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المُسالمة، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثرُ وَهُمْ لا يؤثرون.

ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورِيَّة، وكنا في تلك السنة على نِيَّة الغَزَاة، والعساكر قد تجهَّزت، والمضارب قد برّزت، ونزل الفرنج بانياس، وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فُرْصةً مدُّوا يَدَ انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها، وعوجل بالهُدْنة الدمشقِيَّة التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها.

ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعُّب الآراء وتوزُّعها، وتشتُّت الأمور وتقطُّعها، وأن كل قلعةٍ قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيَّفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشَّامية، وأمراء الدولة النُّورية قد سُجن كبارُهم، وعُوقبوا وصودروا، والمماليك الأغمار الذين خُلقوا للأطراف لا للصُّدور، وجُعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدُّوا الأيدي والأعين والسيوف، وساءت سيرتُهم في الأمر بالمنكر والنَّهي عن المعروف، وكل واحدٍ يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً. وعلمنا أن البيت المقدَّس إن لم تتيسَّر الأسبابُ لفتحه، وأمرَ الكُفر إنْ لم يُجرد العزم في قَلْعه، وإلا نبتت عروقه، واتَّسعت على أهل الدين خُروقه، وكانت الحُجَّة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنّا لا نتمكن بمصر منه مع بُعْد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدَّواب التي بها على الجهاد القُوَّة، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتَلَّة، وأمورٍ مختَلة، وآراء فاسدة، وأمراءٍ متحاسدة، وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه، فإنَّا به أَوْلى من قوم يأكلون الدُّنيا باسمه، ويُظهرون الوفاء في خدمته، وهم عاملون بظلمه.

---

(١) البنادقة والبياشنة والجنوية: طوائف مشهورة من الفرنج، فالبنادقة قاعدة مملكتهم «البندقية» والبياشنة: ويقال لهم البيازنة، قاعدة مملكتهم «مدينة بيزة»، والجنوية، قاعدة مملكتهم «مدينة جنوة» (انظر صبح الأعشى ٥/ ٣٨٢ ـ ٣٨٨).

Marfat.com

والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبَّق بالاسم العباسي كل ما تطبقه العِهاد، وهو تقليد جامع بمصر، واليمن، والمغرب، والشَّام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العَبَّاسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخٍ أو ولد من بعدنا، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم به من السّمات التي فيها الملك. وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدَّس ليس له قِرْن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يَمَلُّ الشر حتى يملوا، وقِرْناً لا يزال محرم السيف حتى يحلوا، وإذا شَدَّ رأينا حُسْن الرأي ضربنا بسيفٍ يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويَدُ كلّ مؤمن تحت بُرْده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده.

ومن كتاب آخر فاضلي عن السُّلْطان إلى الديوان في تعداد ما له من الأيادي، قال: والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دَوَّخها، وسُنن الضلال التي نسخها، وعقود الإلحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رَحَضَها، وحجج الزَّندقة التي دحضها. فلله عليه المِنَّة فيه إذْ أهَّله لشرف مشهده، وما فعله إلا لوجهه، ويدُ الله كانت عون يده، وإلا فقد قضت الليالي والأيام على تلك الأمور وما تحرَّكت للفُلْك في قلعها نابضة، وغبرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضة. فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منها، أن يجتهد في أخرى مثلها في الكُفَّار، وقد عاد الإسلام إلى وطنه، وصوَّحت من الكُفْر خضراء دِمَنِهِ.

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العَباسية يقول فيه: حتى أتى الدُّنيا ابن بَجْدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط مَنْ لله في سُخطه رضا، وجعل وجه لابسي السَّواد[1] مُبيضاً، فأدرك لهم بثأرٍ نامت عنه الهمم، ودوَّخت عليه الأمم، وشفى الصُّدور، وجاء بالحق إلى من غَرَّه بالله الغَرور، واستبضع إلى الله تعالى تجارةً لن تبور.

ومن كتابٍ آخر: قد بورك للخادم في الطَّاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في في الأعداء شِفارها، وجمع عليها الدين وكان أدياناً، واستقامت بها القلوب على صِبْغة التكلُّف وكانت ألواناً.

ومن كتابٍ آخر: لم يكن سببُ خروج المملوك من بيته إلا وعدٌ كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله تعالى في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشَّام؛

---

(١) لابسو السواد: هم العباسيون، وكان شعارهم السواد.

المملوك بعسكري بَرِّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشَّام وَوَعْره. فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمور، اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكَّمت الآراء الفاسدة، وفُورقت المحاجُّ القاصدة، وصارت الباطِنية بطانةً من دون المؤمنين، والكُفَّار محمولةً إليها جِزَى المسلمين، والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد، وكانت سيوفُهم للنَّصْر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتَطَرُّقَ الكفار بالبناء في الحدود الإِسلامية، ولا خفاء أنَّ الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار، وسَيَّروا الصَّليب ومن كُسي مذابحهم بقمامة، وهدَّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة، ونفَّذوا البطارقَة والقِسِّيسين، برسائل صُوَرِ من يصورونه ممن يسمُّونهم القِدِّيسين، وقالوا: إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يُستدرك فارِطُه. وإن كلاً من صاحب قُسْطنطينية، وصاحب صِقِلِّية، وملك الألمان، وملوك ما وراء البحر، وأصحاب الجزائر، كالبندقية، والبيشانية، والجَنوية، وغيرهم، قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والأساطيل القوية، وللإسلام بأمير المؤمنين أعزُّ ناصر، لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقاً، وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خَلْقاً.

فصل

[مرثية العماد الكاتب لنُور الدين]

قال العماد: وكنت بالموصل فَسُئِلْتُ نَظْمَ مرثيةٍ في نور الدين، فنظمتُ بعد عودي إلى دمشق في رجب: [الكامل]

الدِّين في ظُلَم لغيبة نورِهِ ... والدَّهرُ في غُمم لِفَقْدِ أميرِه
فليندُبِ الإسلامُ حاميَ أهله ... والشامُ حافظَ مُلْكِهِ وثُغورِهِ
ما أعظم المِقْدَار في أخطاره ... إذْ كان هذا الخَطْبُ في مَقْدورِه
ما أكثرَ المتأسِّفين لفقدِ مَنْ ... قَرَّتْ نواظِرُهُمْ بِفَقْدِ نظيرِه
ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه ... أوَ ما كفاه الموتُ في تذكيرِهِ
من للمساجدِ والمدارس بانياً ... لله طَوْعاً عن خُلُوصِ ضَميرِهِ
مَنْ يَنْصُرُ الإسلامَ في غَزَواته ... فلقد أُصيبَ برُكنه وظَهيرِهِ
مَنْ للفرنج ومن لأَسْرِ ملوكها ... مَنْ للهُدى يبغي فَكَاك أسيرِه
من للخُطُوبِ مُذلِّلاً لجماحها ... مَنْ للزَّمانِ مُسَهِّلاً لوعُورِه
من كاشِفٌ للمُعْضِلاتِ برأيه ... من مُشْرِقٌ في الدَّاجيات بنورِه

Marfat.com

من للكريم ومن لنعش عِثارِهِ ... مَنْ لليتيم ومن لِجبْر كسيرِه
من للبلادِ ومن لنصر جيوشِها ... من للجهاد ومن لحِفْظِ أُمورِه
مَنْ للفُتوحِ محاولاً أبكارها ... بِرَواجِه في غَزْوه وبُكُورِهِ
مَنْ للعُلا وعُهودها مَنْ للنَّدَى ... ووفوده مَنْ للحِجا ووفُورِه
ما كنتُ أحسبُ نورَ دينِ محمدٍ ... يخبو وليْلُ الشِّرْكِ في دَيْجورِه
أَعْزِزْ عليَّ بليثِ غابٍ للهُدَى ... يخلو الثَّرى من زوره وزئيرِه
أَعْزِزْ عليَّ بأنْ أراه مُغيَّباً ... عنْ مَحْفِلٍ متشرِّفٍ بحضورِه
لهفي على تلك الأنامل إنَّها ... مُذْ غُيِّبَتْ غاضَ النَّدَى ببحورِه
ولَقَدْ أتى مَنْ كنتَ تُؤمن سِرْبَهُ ... وقِّع له بالأمن مِنْ مَحْذُوره
ولَقَدْ أتى مَنْ كنت تُجري رسمه ... فَضَعِ العلامة منك في منشورِه
ولَقَدْ أتى منْ كنت تكشفُ كُرْبَهُ ... فارفع ظُلامَتَه بنصر عشيره
وَلَقَدْ أتَى مَنْ كنتَ تُؤثر قُرْبَه ... فَأَدِمْ له التَّقْرِيبَ في تقريره
والجيش قد ركب الغَدَاة لعَرْضِهِ ... فاركبْ لتُبْصِرَه أوَانَ عبورِه
أنت الَّذي أحييْتَ شَرْعَ محمدٍ ... وقضيتَ بعد وفاته بنُشوره
كم قد أقمتَ من الشَّريعة مَعْلَماً ... هو مُنْذ غبتَ مُعَرَّضٌ لِدُثورِه
كم قد أمرتَ بحفر خندقِ مَعْقِلٍ ... حتى سَكَنْتَ اللَّحْدَ في محفورِهِ
كم قيصرٍ للرُّوم رُمْتَ بقسره ... إزْوَاءَ بيضِ الهند من تامورِه(١)
أُوتيتَ فتح حُصُونه ومَلَكْتَ عُقْـ ... ـرَ بلاده وسبيتَ أهلَ قُصُوره
أَزَهِدْتَ في دار الفَناء وأهلها ... ورَغبت في الخُلْدِ المقيم وحُورِه
أوَمَا وعدْتَ القُدْسَ أنك مُنْجِزٌ ... ميعادَهُ في فَتْحه وظهورِه
فمتى تجيرُ القُدْسَ مِنْ دَنسِ العِدَى ... وتقدِّسُ الرَّحمٰنَ في تطهيرِه
يا حاملينَ سريره مهلاً فمِنْ ... عَجَبٍ نهوضُكمُ بحَمْل ثبيره(٢)
يا عابرينَ بِنَعشه أنْشَقْتُمُ ... مِنْ صالحِ الأعمالِ نَشْرَ عَبيرِه
نزلتْ ملائكةُ السَّماءِ لِدَفْنِهِ ... مستجمعين على شَفِيرِ حَفِيرِهِ

---

(١) التأمور، بالهمزة الساكنة: الوعاء، والنفس وحياتها، والقلب وحبته، وحياته، ودمُه، أو الدم، والولد، ووعاؤه، وصومعة الراهب، وناموسه، والماء، وعرْيسة الأسد، والخمر، والإبريق، والحقّة.
(٢) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة.

Marfat.com

ومِنَ الجفاء له مُقامي بعده هلّا وفيتُ وسرتُ عند مسيره
حَيَّاك مُغتَلُّ الصَّبا بنسيمه وسقَاك مُنهَلُّ الحيا بدُرُوره
ولبستَ رضوان المهيْمن ساجِباً أذيالَ سُندسِ خَزِّه وحَريرِه
وسكنتَ علّيين في فِرْدَوْسِهِ جِلْفَ المَسَرَّة ظافراً بأُجورِه

قال العماد: وجاء نَجّابٌ إلى المَوْصِل، وذكر أنه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكُسوة وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الحظوة. فهاجني الطَّرَب لقصده، لسابق معرفته وقديم وُدّه، فقدمت دمشق على طريق البرية، والسُّلْطان على حلب.

وكان العماد في عقائيل[1] ألم، فلمّا شُفي وعاد السُّلْطان إلى حمص قصده فيها وقد تَسلَّم قلعتها في شعبان، في الحادي والعشرين منه.

قال: وكنتُ نظمتُ قصيدةً في الشَّوْق إلى دمشق والتأسُّف عليها، ثم جعلت مَدْحَ السُّلْطان مخلصها، وهي طويلة، أولها[2]: [المتقارب]

أجيرانَ جَيْرونَ مالي مُجيرُ سوى عَطْفِكُمْ فاعدِلُوا أوْ فَجُوروا
ومالي سوى طَيْفِكُمْ زائرٌ فلا تمنعوه إذا لمْ تزوروا
يَعِزُّ عليَّ بأنَّ الفؤادَ لدَيْكُمْ أسيرٌ وعنكم أَسِيرُ
وما كنتُ أعلم أنّي أعيـ ـشُ بعد الأَحِبَّةِ إني صَبُورُ
وَفَتْ أَدْمُعي غير أن الكَرَى وقلبي وصبري كلٌّ غَدُورُ
إلى ناس بَانَاس لي صَبْوَةٌ لها الوجدُ داع وذكرى مثيرُ
يزيد اشتياقي وينْمُو كما يزيدُ يزيد وثَوْرا يثورُ
ومن بَرَدى بَرْدُ قلبي المشوق فها أنا من حَرِّه مستَجيرُ
وبالمَرْجِ مَرْجُوُّ عَيْشي الذي على ذِكْرِهِ العَذْبِ عَيْشي مريرُ
فَقَدْتُكُمُ فَفَقَدْتُ الحياة ويومَ اللِّقاء يكونُ النُّشورُ
تطاولْ لسؤليَ عند القُصَير فعن نَيْلِهِ اليومَ باعي قَصِيرُ
وكن لي بريداً بباب البريد فأنتَ بأخبارِ شوقي خبير
متى تجد الرُّيَّ بالقريتَين خَوامِسُ أثَّرَ فيها الهجيرُ

(١) عقائيل: كذا بالأصل، ولعلها: عقابيل: وهي بقايا العلة والعداوة والعشق، وما يخرج على الشفه غبّ الحمى، والشدائد، واحدة الكل: عقبولة وعقبول، بضمهما.
(٢) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ١٩ ـ ٢٩.

Marfat.com

ونحو الجُلَيْجِل أُزجي المَطِيَّ لقد جَلَّ هذا المَرَامُ الخطيرُ
تُراني أُنيخ بأدنى ضُمير مطايا بَرَاها الوَجَا والضُّمُورُ
وعند القُطَيْفَة المشتهاة قُطوفٌ بها للأماني سُفُورُ
ومنها بُكوريَ نحو القُصَير ومُنْيَةُ عُمْريَ ذاك البُكُورُ
ويَا طِيبَ بُشْرايَ من جِلِّقٍ إذا جاءني بالنَّجاحِ البشيرُ
ويتبشرُ الأصدقاءُ الكرامُ هنالك بي وتُوفَّى النُّذُورُ
تُرَى بالسَّلامة يوماً يكون بباب السَّلامة مني عُبورُ
وأنَّ جوازي بباب الصَّغير لَعَمْري من العُمْر حظٌّ كبيرُ
وما جَنَّةُ الخُلْدِ إلا دمشقُ وفي القَلْبِ شوقٌ إليها سعيرُ
ميادينها الخُضْرُ فِيحُ الرِّحاب وسَلْسالها العَذْبُ صافٍ نميرُ
وجامعها الرَّحْبُ والقُبَّة الْـ ـمُنيفةُ والفلَكُ المستديرُ
وفي قُبَّة النَّسْرِ لي سادَةٌ بهمْ للمكارم أُفْقٌ مُنِيرُ
وبابُ الفراديس فِرْدَوْسُها وسُكَّانها أحسنُ النَّاس حورُ
والأرزة فالسَّهْمُ فالنَّيْرَبانِ فجنَّاتُ مِزَّتها فالكُفُورُ
كأنَّ الجواسِقَ مأهولةً بروجٌ تَطلَّعُ منها البُدُورُ
بنيربها تتسبير[1] الهموم بربوتها يتربَّى السُّرورُ
وما غَرَّ في الرَّبوة العاشقيـ ـنَ بالحُسْنِ إلّا الرَّبيبُ الغريرُ
وعند المغارة يَوْمَ الخميس أغارَ على القَلْبِ مني مُغِيرُ
وعند المُنَيْبع عَيْنُ الحياة مَدَى الدَّهْرِ نابعةٌ ما تَغُورُ
بجسر ابن شَوَّاش تَمَّ السُّكون لنفسي بنفسيَ تلك الجسورُ[2]
وما أَنْسَ لا أَنْسَ أُنْسَ العبور على جسر جِسْرين إني جَسُورُ
وكمْ بِتُّ ألهو بِقُرب الحبيـ ـب في بيت لِهْيا ونام الغَيُورُ
فأينَ اغتباطيَ بالغُوطتين وتلك الليالي وتلك العُصُورُ
وأشجار سَطْرا بَدَتْ كالسُّطُو رِ نَمَّقَهُنَّ البليغُ البصيرُ
وأيْنَ تأمَّلْتَ فُلْكٌ يدورُ وعينٌ تفُور وبحرٌ يمورُ

(١) تتسبير: كذا في الأصل، ولعلها: تستبير، أو تتبرا كما في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام.
(٢) جسر ابن شوّاش: أحد متنزهات دمشق (معجم البلدان ٣/ ٣٧٠).

Marfat.com

وأيــن نَــظَــرْتَ نــســيــمٌ يــرِقُّ وزهــرٌ يــروقُ وروضٌ نَــضِــيْــرُ
إلامَ الــقــســاوة يــا قــاسِــيــون وبــيــن الــسَّــنــا يــتــجــلَّــى سَــنــيــرُ
ومُــنْــذُ ثَــوى نــورُ ديــنِ الإلــ ـه لــم يــبــقَ لــلــدِّيــن والــشَّــامِ نُــورُ
ولــلــنَّــاس بــالــمــلــكِ الــنَّــاصِــرِ الــصَّــ (م) ـلاحِ صــلاحٌ ونَــصْــرٌ وخــيــرُ
هــو الــشَّــمْــسُ أفــلاكُــه فــي الــبــلادِ ومَــطْــلِــعُــهُ سَــرْجُــهُ والــسَّــريــرُ
إذا مــا ســطــا أو حــبــا واحــتــبــى فــمــا الــلَّــيــثُ مَــنْ حــاتــمٌ مــا ثــبــيــرُ
بــيــوسُــف مِــصْــرٍ وأيــامِــهِ تَــقَــرُّ الــعــيــونُ وتَــشْــفــى الــصُّــدورُ
مــلــكــتَ فــأسْــجِــحْ فــمــا لــلــبــلادِ ســواكَ مــجــيــرٌ ومــولًــى نَــصِــيــرُ
وفــي مِــعْــصَــمِ الــمُــلــك لــلــعــزِّ مــنــك سِــوَارٌ ومــنــك عــلــى الــدِّيــن سُــورُ
لــك الــلَّــهُ فــي كــلِّ مــا تــبــتــغــيــه بــحــقٍّ ظــهــيــرٌ ونِــعْــمَ الــظَّــهِــيــرُ
أمَــا الــمــفــســدونَ بــمــصــر عَــصَــوْكَ وهــذي ديــارهــمُ الــيــومَ قُــورُ[1]
أمــا الأدعــيــاءُ بــهــا إذْ نَــشَــطْــتَ لإبــعــادهــم زال مــنــك الــفُــتُــورُ
ويــوم الــفــرنــج إذا مــا الــقــوك عَــبُــوسٌ بــرغــمــهــمُ قَــمْــطَــرِيــرُ
نــهــوضــاً إلــى الــقُــدْسِ يــشــفــي الــغــلــيــل بــفــتــح الــفُــتــوحِ ومــاذا عــســيــرُ
سَــلِ الله تــســهــيــل صَــعْــب الــخُــطُــو ب فــهــو عــلــى كــلِّ شــيءٍ قــديــرُ
إلــيــك هَــجَــرْتُ مــلــوكَ الــزمــان فــمــا لَــك والله فــيــهــم نــظــيــرُ
وفــجــرك فــيــه الــقِــرى والــقُــرَان جــمــيــعــاً وفَــجْــرُ الــجــمــيــعِ الــفُــجُــورُ
وأنــتَ تــريــقُ دمــاءَ الــفِــرَنْــجِ وعــنــدَهُــمُ لا تــراقُ الــخــمــورُ

فــصــل

في فتح بَعْلَبَكّ

قال العماد: ولما فرغ السُّلْطانَ من حمص وحَصْنها سار إلى بعلبك، فتسلَّمها في رابع شهر رمضان.

قال ابن أبي طيّ: وكان بها خادم يقال له يُمْن، فلما شاهد كثرة عساكر السُّلْطان اضطرب في أمره وراسل مَنْ بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر؛ فطلب الأمان، وسلَّم بعلبك إلى السُّلْطان.

(١) القور: يقال: لقيت منه الأقورين، بكسر الراء والأقوريات: أي الدواهي، والقَوَر، محركة: العور.

قال العماد: وهنأته بأبياتٍ، منها: [الكامل]

بفُتوح عَصْرِك يَفْخَرُ الإسلامُ ... وبنُور نَصْرِكَ تُشْرِقُ الأيّامُ
وبفتح قلعة بَعْلَبَكَّ تهذَّبَتْ ... هذي الممالكُ واستقام الشَّامُ
وبكى الحَسُودُ دماً وثَغْرُ الثَّغْرِ من ... فَرَحٍ بنصرك للهُدَى بَسَّامُ
فتحٌ تَسنَّى في الصِّيامِ كأننا ... شكراً لما مَنَحَ الإلٰه صِيَامُ
من ذا رأى في الصَّوْمِ عيدَ سعادةٍ ... حَلَّت لنا والفِطْرُ فيه حَرَامُ
أسدى صلاح الدِّين والدُّنيا يداً ... بنَوَالها سُوقُ الرَّجاء تُقَامُ
فتملَّ فَتْحك واقصدِ الفتح الذي ... بحصوله لفُتوحك الإتمامُ
دُمْ للعُلا حتى يدومَ نظامُها ... واسلَمْ يَعِزُّ بنصرِك الإسلامُ

قال: ولزمتُ خدمته أرحل برحيله وأنزل بنزوله. وكنتُ ليلة عنده وهو يذكر جماعةً من شعراء الزَّمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أُسامة بن مُرْشد بن سديد الملك علي بن مُنْقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف، وإلى استحسانه مصروف. وقد استحسن قصيدةً له طائيَّة، لو عاش الطائيَّان[1] لأقرَّا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها. على أنَّ الشّعراء المحدثين ما منهم إلّا من نظم على رويّها ووزنها، واستمد خِصْب خاطره من مُزنها، فمنهم المَعَرّي[2]، وابن أبي

(١) الطائيان: هما حاتم الطائي وأبو تمام الطائي. وحاتم الطائي: هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني، أبو عدي، يضرب المثل بجودة شعره كثير، ضاع معظمه، توفي سنة ٤٦ قبل الهجرة (الأعلام ٢/ ١٥١).
وأبو تمام الطائي: هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، شاعر وأديب، أحد أمراء البيان، ولد في جاسم، من قرى حوران بسورية، توفي سنة ٢٣١هـ (الأعلام ٢/ ١٦٥، معاهد التنصيص ١/ ٣٨).

(٢) المعري: هو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد، أبو العلاء المعري، من معرة النعمان، الأديب اللغوي، ولد سنة ٣٦٣هـ، بالمعرة، وعمي من الجدري أول سنة ٣٦٧هـ، ودخل بغداد سنة ٣٩٨هـ، ودخلها ثانية سنة ٣٩٩هـ، وأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم رجع إلى المعرة ولزم منزله وشرح في التصنيف، توفي سنة ٤٤٩هـ، بالمعرة، له العديد من المصنفات، «إسعاف الصديق»، «الأمالي في الأدب»، «تفسير أمثلة سيبويه»، «تفسير خطبة الفصيح في اللغة»، «تفسير سقط الزند»، «تفسير منار القائف له»، «ثقة الواعظ»، «جامع الأوزان الخمسة»، «الحقير النافع في النحو»، «حماسة الراح في ذم الخمر»، «ذكرى الحبيب فيما في شرح ديوان أبي تمام من الغريب»، «راحة اللزوم في شرح لزوم ما لا يلزم»، «رسالة الغفران»، «سقط الزند» ديوان شعره، «ضوء السقط»، «كتاب الأيك والغصون» في اللغة، «كتاب الفائق» على مثال كليلة ودمنة، «كتاب القوافي»، «اللامع الغزنوي في شرح ديوان المتنبي»، «لزوم ما لا يلزم»، «معجز أحمد»، «مختصر ديوان أبي تمام»، وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٧٧، وفيات الأعيان ١/ ١١٣ ـ ١١٦، معجم الأدباء ١/ ١٨١، الأعلام ١/ ١٥٧).

Marfat.com

حُصَيْنَة[١]، والأرَّجاني[٢]. والصَّالح بن رُزِّيك[٣]. وقد أوردت جميعها في كتاب «الخريدة»، ومطلع قصيدة المعرِّي[٤]: [الطويل]

لمن جِيرةٌ سِيمُوا النَّوَالَ فلم يُنْطُوا

فنظمتُ في السُّلْطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية، منها[٥]: [الطويل]

عفا الله عنكم ما لكم أيها الرَّهْطُ ... قَسَطْتُمْ ومن قَلْبِ المحبِّ لكم قِسْطُ
شَرَطْتُمْ لنا حِفْظَ الوِدَادِ وخُنْتُمُ ... حَنَانَيْكُمُ ما هكذا الوُدُّ والشَّرْطُ
جَعَلْتُمْ فؤادَ المُسْتهام بكم لكم ... محطّاً فعنه ثِقْلَ هَمِّكُمُ حُطُّوا
مَلَكْتُمْ فَأَنْكَرْتُمْ قديمَ مَوَدَّتي ... كأنْ لم يكن في البينِ معرفةٌ قَطُّ
فَدَتْ مهجتي من لا يُذَمُّ لمهجتِي ... إذا حاكَمَتْهُ وهو في الحُكْم مُشْتَطُّ
وما كنتُ أدري قبلَ سَطْوَة طَرْفِهِ ... بأنَّ ضعيفاً فاتراً مِثْلَه يَسْطُو
وأهيفَ للإشفاقِ من ضَعْفِ خَصْرِهِ ... يحلُّ نطاقاً للقلوب به رَبْطُ
يلازمُ قَلبي في الهوى القَبْضُ مثلما ... يلازمُ كفَّ النَّاصِر الملكِ البَسْطُ
مليكٌ حوى الملكَ العقيمَ بضبطه ... كريمٌ وما للمالِ في يَدِهِ ضَبْطُ

---

(١) ابن أبي حصينة: هو الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجبار، المعروف بابن أبي حصينة، ولد في معرة النعمان سنة ٣٩٠هـ، وانقطع إلى دولة بني مرداس في حلب، فامتدح أمراءها، أوفد رسولاً إلى مصر للخليفة المستنصر سنة ٤٣٧هـ، وسنة ٤٥٠هـ، ومدحه سنة ٤٥١هـ، بقصيدة، فمنحه لقب الإمارة، توفي سنة ٤٥٧هـ (وفي كشف الظنون توفي سنة ٥٠٠هـ). (انظر: كشف الظنون ٥/ ٢٧٨، معجم الأدباء ١٠/ ٩٠ - ١١٨، تاريخ ابن الوردي ١/ ٥٥٠ - ٥٥١، فوات الوفيات ١/ ٣٣٢ - ٣٣٤).

(٢) الأرجاني: هو أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني (بفتح الهمزة وتشديد الراء وفتح الجيم وبعد الألف نون، كورة من الأهواز)، القاضي ناصح الدين، أبو بكر الفقيه الشاعر، ولد سنة ٤٦٠هـ، كان قاضياً بتستر وعسكر مكرم، وله شعر رائق، وهو عربي المحتد، توفي سنة ٥٤٤هـ، له ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٥/ ٨٤، الأنساب ١/ ١٧٤، معجم البلدان ١/ ١٤٤، وفيات الأعيان ١/ ١٥١ - ١٥٥، العبر للذهبي ٤/ ١٢١، الوافي بالوفيات ٧/ ٣٧٣ - ٣٧٨، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٥٢ - ٥٧).

(٣) الصالح بن رزيل: هو الملك الصالح طلائع بن رزيك، أبو الغارات، وزير مصر، ولد سنة ٤٩٥هـ، وتوفي سنة ٥٥٦هـ، له ديوان شعره في مجلدين (كشف الظنون ٥/ ٤٣٢).

(٤) عجز البيت:

يظلّلهم ما ظلّ ينبته الخطُّ

(٥) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٢٥ - ٣١.

Al-Maarfat.com

إذا لُثِمَتْ أيدي الملوكِ فعندَه مدَى الدَّهرِ إجلالاً له تُلْثَمُ البُسْطُ
عَنا لك طَوْعاً نيلُ مصرٍ ودِجْلَةُ الـ ـعراقِ ودانَ العُرْبُ والعُجْمُ والقِبْطُ
وللنِّيلِ شطٌّ ينتهي سَيْبُه به ونَيْلُكَ للرَّاجين نِيلٌ ولا شَطُّ
عدوُّك مثلُ الشَّمْعِ في نار حِقْدِهِ له عُنُقٌ إصلاحُ فاسِدِهِ القَطُّ

وهي ثمانية وثمانون بيتاً.

ولسعادة الأعمى قصيدة طائيّة في السُّلْطان سيأتي ذِكْرُها.

قال العماد: ولما وصلتُ إلى السُّلْطان، ورغبت منه في الإحسان، وجدته لأمري مُغْفلاً، ولشُغلي مهملاً، ثم عرفت أن حُسَّادي قالوا له: متى أعَدْتَ ديوان الكتابة إلى العماد، وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد، وهذا منصب الأجل الفاضل، وهو عنده في أجل المنازل، ربما ضاق صدره، وتشعَّث سِرُّه. فلما عرفتُ هذا المعنى، لجأت إلى الفضل الفاضلي لأنه به يُعْنى، فقام بأمري، ونَوَّه بقدري، وأراح سِرِّي، وشَدَّ أَزْري.

فصل

فيما جرى للمَوَاصلة والحلبيين مع السُّلطان في هذه السنة

قال ابنُ شدَّاد: ولما أحسَّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أنَّ الرجل قد استفحل أمره، وعَظُمَ شأنه، وعَلَت كلمته، وخاف أنه إنْ غفل عنه استحوذ على البلاد، واستقرَّ قدمه في المُلك وتعدَّى الأمر إليه. فجهَّز عسكراً وافراً، وجيشاً عظيماً، وقدَّم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً، وساروا يريدون لقاء السُّلْطان، وضَرْبَ المصافُ معه، وردَّه عن البلاد. فوصل إلى حلب والسُّلْطان بحمص، وانضمَّ إليه[1] من كان بحلب من العسكر، وخرجوا في جَمْعٍ عظيم. ولما عرف السُّلْطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماة وراسلهُم وراسلُوه، واجتهد أن يُصالحهم فَمَا صالحوه، ورأوا أن المصافَّ ربما نالوا به الغرض الأكبر، والمقصود الأوفر، والقضاء يجرُّ إلى أمورٍ وهم بها لا يشعرون، وقام المصاف بين العسكرين، فقضى الله تعالى أن انكسرُوا بين يديه، وأَسَر جماعةً منهم، ومنَّ عليهم وأطلقهم، وذلك عند قرون حماة في تاسع عشر شهر رمضان.

---

(١) إليه: كذا بالأصل، والأصح: إليهم.

ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب، وهي الدفعة الثَّانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة، وكفر طاب، وبارين.

وقال العماد: لما تسَلَّم السُّلْطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص وقد وصل عز الدين مسعود ـ أخو صاحب الموصل ـ إلى حلب نجدة. ولما عرفوا أن السّلطان مشغول بالحصون جاؤوا إلى حماة فحَصَروها، وراسلوا في الصُّلْح. فَقَدِمَ السُّلْطان في خِفٍّ من أصحابه، وجاء كُمُشْتِكِين وابن العَجَمي وغيرهما، وأجابهم السُّلْطان إلى ما طلبوا، وأن يردّ عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصَّالح وله خاطباً، وعلى الانتماء إليه مواظباً، وأن يردَّ كلّ ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة. فلما رأَوْه مجيباً لكل ما يُلتمس منه وهو في عسكرٍ خفيف قالوا: ما خبره صحيح. فشرعوا في الاشتطاط، وطلبوا الرَّحْبة وأعمالها، فقال: هي لابن عمي ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، وكيف أُلحق به في رضاكم المكروه. فنفَروا وجفلوا، وأصبحوا على الرَّحيل إلى جانب العاصي قريباً من شَيْزَر، وجمعوا العسكر، وأظهروا أنهم على المصافّ وعَزْم الانتصاف. فعَبَّر السُّلْطان إلى سفح قرون حماة خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه. ووصل العسكر المصري في عشرة من المقدَّمين منهم فَرُّخْشاه وأخوه تقي الدين. والتقوا، فهزمهم السُّلْطان، ونزل في منزلتهم.

قال العماد: ومما نظمتُ في هذه الوقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شِيركُوه قصيدةً، فقد كان له فيها غَنَاء وبلاء حسن، منها: [الكامل]

ولَقَدْ أَلِفتُ نِفارَها وهَوَيْتُها ... إذ ليس يُنكَرُ للظِّباء نِفارُ
يا جارةً للقلب جائرةً دَعِي ... ظُلمي وإلّا قلتُ جارَ الجارُ
قلبي كَطَرْفِكِ ما يُفيق إفاقةً ... سكران ما دارت عليه عُقَارُ
صَبٌّ بصبِّ الدَّمْعِ محترِقُ الحشا ... خَطَرَتْ ببالِ بلائه الأخطارُ
لم يَخْشَ من خَطَرِ الهوى حتى حَمى ... ذاكَ القَوَامَ شَبِيهُهُ الخَطَّارُ
يَذْري الدُّموع كأنهن عوارفٌ ... لابنِ المملَّك شِيركُوه غِزَارُ
من آل شاذي الشَّائدين بُنَى العُلا ... أركانُهنَّ لَهَاذِمٌ وشِفَارُ
حَسُنَتْ بهم للدَّوْلَةِ الأيامُ والـ ... أعمالُ والأحوالُ والآثارُ
قد حاز مُلْكَ الشَّام يوسفٌ الذي ... في مصر تَغْبِطُ عَصْرَه الأعْصَارُ
نَصَرَ الهُدَى فتوطَّد الإسلامُ في ... أيامِهِ وتَضَعْضَعَ الكُفَّارُ
لمَّا لقيتَ جُموعَهم منظُومَةً ... صَيَّرْتَ ذاك النَّظْمَ وهو نِثارُ

Marfat.com

فـي حـالـتَـيْ جُـودٍ وبـأسٍ لـم يَـزَلْ ... لـلـتِّـبْـرِ والأعـداءِ مِـنْـكَ تَـبَـارُ
تَـهَـبُ الألـوفَ ولا تـهـابُ ألـوفَـهـم ... هـانَ الـعـدوّ عـلـيـك والـدِّيـنـارُ
لـمـا جَـرَى الـعـاصي هـنـالـك طـائـعـاً ... بـدمـائـهـم فَـخَـرَتْ بـه الأنـهـارُ
وتـحـطَّـمَـتْ عـنـد الـقُـرونِ قُـرُونُـهُـمْ ... بـل كَـلَّـتِ الأنـيـابُ والأظـفـارُ
عَـبَـروا الـمَـعَـرَّة مـالـكـيـن مَـعَـرَّةً ... والـعـارُ يُـمـلـكُ تـارةً ويُـعَـارُ
أوَمَـا كـفـاهـم يـوم حـمـص وكـفَّـهـم ... فـي بَـعْـلَـبَـكَّ بـمـثـلـهـا الإنـذارُ

قال: وهنَّأت الملك المُظفَّر تقي الدين عمر بن شاهِنْشاه بن أيوب بقصيدةٍ، منها: [الكامل]

لا تُـفْـنِ مِـنْ فَـرَق الـفِـراقِ الأدْمُـعَـا ... فـهـي الـشـهـودُ عـلـى الـغَـرَامِ الـمُـدَّعَـى
واسـتـبـقِ صَـبْـرَكَ مـا اسْـتَـطَـعْـتَ فـإنـه ... عَـوْنٌ لـقـلـبـك إن هُـمـا ثـبـتـا مـعـا
قـلـبٌ أصـابَـتْـهُ الـعـيـونُ ولـم يَـزَلْ ... مـن مَـسِّـهـا بـالـهـاجِـسـاتِ مُـرَوَّعـا
مـا بـالُـه قـد صَـدَّ عـنـد صُـدُودهـم ... عـنـي ولـمَّـا ودَّعُـونـي وَدَّعـا
ومـن الـتـحـيُّـرِ أنـنـي أبْـصَـرْتُـهُ ... فـي ظَـعْـنـهـم وسـألـتُ عـنـه الأَضْـلُـعـا
أصـبـحـتُ إذ شَـيَّـعْـتُـهـم لـثـلاثـةٍ ... صـبـري وغـمـضـي والـفـؤاد مـشـيِّـعـا

أوَمـا اتَّـقـيـتـم حـيـن رُعْـتُـم سِـرْبَـه ... فـيـه تـقـي الـدِّيـن ذاك الأرْوَعـا
عـمـر بـن شـاهِـنْـشـاه مَـنْ هـو عـامـرٌ ... أركـانَ مُـلْـكِ الـشَّـام حـيـن تَـضَـعْـضَـعـا
خَـضَـعَ الـعـدوُّ وذلَّ بـعـد تـعـزُّزٍ ... لـكـمُ وحـقَّ عـدوِّكـم أنْ يـخـضَـعَـا
مِـنْ مـعـشـرٍ غُـرٌّ يَـرَوْنَ جـمـيـعَ مـا ... لـم يـبـذُلُـوه فـي الـسَّـمـاح مـضـيَّـعـا
فـي مـصـرَ والـيـمـنِ اجـتـلـيـنـا مـنـهـمُ ... فـي عـصـرنـا تـبـعـاً لـيـوسـف تُـبَّـعـا
الـحـاويـان بـمـلـك مـصـر ومـكَّـةٍ ... والـشَّـامِ والـيـمـن الـحـظـايـا الأَرْبـعـا
لـمـا عـصـى الأعـداءُ بـالـعـاصي جـرى ... بـدمـائـهـم طَـوْعـاً سُـيُـولاً دُفَّـعـا

وقال ابنُ أبي طيّ: لما تسلَّم السُّلْطان بَعْلَبَكَّ وأزاح عِللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود عز الدين مسعود ـ أخي سيف الدين صاحب الموصل ـ نجدةً للملك الصَّالح. وكان سببُ وروده أن جماعةَ أمراءِ حلب لما كان السُّلْطان نازلاً على حلب أجمعوا على آرائهم وكاتبوا سيف الدين، وألزموه نجدة ابن عَمِّه، وأخْبَروه أنَّ السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصدٌ إلا الموصل. وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشماً خطيب حلب، وقُطْب الدين ينَال بن حَسَّان، وغَرْس الدين قليج.

Marfat.com

وكان سيف الدين منازلاً لسِنْجار، وفيها أخوه عماد الدين زَنْكي، وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان، فأنجده السُّلْطان بقطعةٍ من جيشه فكسرهم، ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره.

فلما وصلت رسالةُ الحلبيين إلى سيف الدين صالحَ أخاه عماد الدين، وحشد عسكره، وأنفذ نُخَبهم مع أخيه عز الدين مسعود، فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك. فاغتنم الحلبيون بُعْدَ السلطان عنهم، فاحتشدوا وخرجوا جميعاً حتى خيَّموا على حماة، وأخذوا في حصارها. واتَّصل بالسُّلْطان ذلك، فرحل من بَعْلَبَكَّ إلى حمص، وبلغ عزَّ الدين، فعاد عن حماة، ونزل قريباً من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريب من شَيْزَر.

وراسل النائب بحماة علي بن أبي الفوارس، يقول له: إنما وَصَلْتُ في إصلاح الحال ووَضْعِ أوزار القتال. وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمة ويلُمُّ شَعَثَ الفُرْقة. فكتبَ ابن أبي الفوارس بذلك إلى السُّلْطان، وحَسَّن له الصُّلح، وتلطَّف في ذلك غاية التَّلَطُّف.

وقدم أبو صالح ابن العجمي وسعد الدين كُمُشْتِكِين لطلب الصُّلح، فأجابهما السلطان إلى ما أرادا، وتقرَّر الأمر على أنه يردُّ إليهم جميعَ الحصون والبلاد، ويقنع بدمشق وحدَها، ويكون نائباً للملك الصَّالح. فلما عاين سعد الدين إجابة السلطان إلى الصُّلْح، والنُّزول عَن جميع الحُصُون التي أخذها: حمص وحماة وبعلبك، طمع في جانب السلطان، وتجاوز الحدَّ في الاقتراح، وطلب الرَّحْبة وأعمالها. فقال: هي لابن عمي، ولا سبيل إلى أخذها. فقام سعد الدين من بين يديه نافراً، وكان ذلك برأي أبي صالح ابن العجمي لأنه كان معه، فاجتهد السُّلْطان به أن يرجع فلم يفعل، وخرج إلى عز الدين مسعود، وكان بعدُ نازلاً على حماة، وحدَّثه ما دار بينه وبين السلطان، وهوَّن عليه أبو صالح أمرَ السُّلْطان، وأخبره بقِلَّة من معه.

وكان السلطان لما كُوتب في أمر الصُّلْح سار في خِفٍ من أصحابه، فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه، وعَوَّلوا على لقائه، وانتهاز الفرصة في أمره. فكاتب باقي أصحابه واستعدَّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماة، وأخذ في مدافعة الأيام حتى يَقْدَمَ عليه باقي عسكره. وراسلهم في التلطف للأحوال، فلم ينجع فيهم حال. وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلةٍ يفتعلها، تسويفاً للأوقات وتقطيعاً للزمان، حتى يقدم عليه عسكره، وكانت هيبته قد ملأت صُدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفُرْصة، ونالوا منه الغَرَض.

Marfat.com

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا، ولم يكن بعد وَصل للسلطان من عسكره أحد. فتجمع أصحاب السلطان كُرْدُوساً واحداً، وأخذوا يحملون يمنةً ويسرةً، ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر. وضَرِي عسكر حلب والعسكر المَوْصلي على أصحاب السُّلْطان حين شاهدوا قِلَّتهم واجتماعهم، وكاد أصحاب السلطان يولُّون الأدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام سعادة السلطان، فإنه لو تأخَّر ساعة انكسر عسكره، فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بأن الحرب قائمة. فلما رأوا الناس في الكَرّ، والضَّرْب الهَبْر، حملوا جميعاً بعد أن افترقوا في الميمنة والميسرة، فصدموا عسكر المَوْصِل صدمةً ضعضعتهم.

وكان السُّلْطان في هذه المدة قد كاتَبَ جماعةً من عسكرهم واسْتَفسَدهم إليه، وحمل إليهم الأموال، وهذا هو الذي بَطَّأ بهم إلى أن وصلت عساكره، وإلا لو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السُّلْطان على الثُّبوت ساعة. فلما اشتدَّ القتال لم تنصح الجماعة التي كاتبها السلطان بل كانوا مثبطين مخوفين لمن قَرُب منهم. ثم إنهم بعد ذلك انهزموا، وتبعهم عسكر السلطان، واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السُّلْطان أصحابه ألا يُوغلوا في طلبهم، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً، ولا يُذَفِّفوا على جريح[1]، ورحل حتى نزل في منزلتهم.

ثم سار من وقته مجدّاً حتى نزل بمرج قرا حصار، ولم يزل هناك حتى عَيَّد عيد الفطر، فجاءته رُسُل الملك الصَّالح يسألونه المهادنة، وأن يقرّ الملكُ الصَّالح على ما في يده، وما هو جارٍ تحت حُكْمه من الشَّام الأسفل إلى بلد حماة، فلم يرض بذلك، فجعلوا له مع حماة المعرَّة وكَفْر طاب، فرضي بذلك، وحلف على نسخة رأيتُها، وعليها خَطُّه.

قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصَّالحَ عدوٌّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وألا يغيِّر الدُّعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السِّكَّة باسمه.

ولما حلف السلطان والملك الصَّالح وأمراؤه عاد السلطان قاصداً دمشق. فلما وصل إلى حماة وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السُّود، وتوقيعٌ من الدِّيوان بالسَّلْطنة ببلاد مصر والشَّام.

---

(١) ذفّف على الجريح: أجهز عليه.

وفي هذه الخِلَع يقول ابن سعدان الحلبي[١]:

يا أيها المَلِكُ الغزيرُ فَضْلُه ... لقد غَدَوْتَ بالعُلا مَلِيًّا
كفى أمير المؤمنين شَرَفاً ... أنك أصبحتَ له وليًّا
طارحك الودَّ على شَحْط النَّوى ... فكنتَ ذاك الصَّادِقَ الوفيّا
أوْلاكَ من لباسِهِ زخرفةً ... لم يُولِها قبلك آدميًّا
ناسبَتِ الرَّوْضَ سناً وبهجةً ... حتى حَكَتْهُ رَوْنقاً وزِيّا

قال: ورحل السُّلْطان من حماة إلى بعرين، وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزَّعفراني، وكان خرج إلى السُّلْطان لما وَصَل إلى الشَّام، وتطارح عليه وخدمه، وظن أن السلطان يقدمه على عساكره، فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حِصْن بعرين، فأغضب السلطان ذلك، وسار إليه وحاصره حتى تسلم حصنه.

وقال العماد: نزل السُّلْطان قراحصار، بنيَّة الحصار، فجاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقالوا: اقنعوا بما أخذتموه إلى حماة، ولا تُشْمِتُوا بنا العُدَاة، فاستزدنا عليهم كفر طاب والمعرَّة، واستوفينا عليهم الأيمان المستقرَّة، وسألهم في المعتقلين، إخوة مجد الدين، فأجابوا وأفرجوا عنهم، وتَمَّ الصُّلْح، وعَمَّ النُّجْح.

ورحلنا ظاهرين ظافرين، ونزلنا حماة يوم الاثنين ثاني عشر شوال، وبها وصلت إليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات، والتقليد بما أراد من الولايات. وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخِلَع، وخص ناصر الدين محمد بن شِيركُوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين، رحمه الله تعالى.

[تسلم صلاح الدين حصن بعرين]

ثم تسلم السلطان حصن بعرين، وكان بيد الأمير فخر الدين مسعود بن الزَّعفراني، وهو من أكابر أمراء نور الدين، وذلك في أواخر شوَّال، وأقطع مدينة حماة لابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محموداً، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين.

قال العماد: وأذكر أنَّا عبرنا نهر العاصي عائدين وقد انكسفت الشمس

(١) ابن سعدان الحلبي: هو عيسى بن سعدان الحلبي، لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي، وأورد له ياقوت الحموي أشعاراً في معجم البلدان: «جبل السماق»، «باب الجنان»، «فامية»، «ليلون»، «دابق»، «الدارين».

Marfat.com

وادلهمَّ النهار، وغلب على القلوب الاستشعار، وطاحت الأنوار، وخفيت الرُّسوم، وظهرت النجوم؛ وجئنا حمص، ثم بَعْلَبَكَّ، ثم البِقاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة.

فصل

قال العماد: قد سبق ذِكْرُ ما قرَّره حُسَّادي في خاطر السلطان، وقالوا: شُغله المكاتبة وهي منصب الأجل الفاضل، وهو يستنيب فيه من يراه من الأفاضل، وهذا تَصْرفُه برِفدٍ جزيل، ووجهٍ جميل. والسُّلْطان مع شِدَّة رغبته متوقف، وإلى ظهور وجه النَّجاح في أمري متشوِّف.

وكنت قد أنست مدَّة مقامي بالمعسكر بذي المجد والمفخر، ومورد الكرم والمصدر، الأمير نجم الدين بن مَصَال، وهو ذو فضلٍ وإفضال، وقَبول وإقبال، وله من السُّلْطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال، وقد مال إليَّ لفضله، ونباهته ونبله. وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده، متفرِّداً بسؤدَدِه ومجده. وكان من أهل السُّنَّة والجماعة، والتُّقى والورع والعفاف والطَّاعة، وله يَدٌ عند السلطان في النُّوَب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده الإحسان والبر، لا سيما عند كونه بالإسكندرية محصوراً. وكان إحسانه مشكوراً، واعتناؤه لحفظه مشهوراً. فلما ملك أحَبَّه، واختار قُرْبَه، فلزِمْتُ له التودُّد، وإليه التردُّد، وجعلته الوسيط بيني وبين الأجلِّ الفاضل، واتخذته من الحجج والوسائل، ووقفتُ خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً، ورسالة وشِعْراً، فمن ذلك ما كتبتُه إليه[1]: [السريع]

لعلَّ نجمَ الدِّين ذا الفضل ... يُذكِّرُ الفاضلَ في شُغلي
إنَّ أجلَّ النَّاسِ قَدْراً فتًى ... بفضله يَتْعَبُ من أجلي
ومثلُهُ من يعتني بالعُلا ... ويستديمُ الحَمْدَ من مِثْلي

قال: وأول ما أهديته للفاضل مِدْحةً حين لقيته بحمص في شعبان، منها[2] [الكامل]

عايَنْتُ طَوْدَ سكينةٍ ورأيت شَمْـ ... ـسَ فضيلةٍ وَوَرَدْتُ بَحْرَ فواضِلِ
ورأيتُ سَحْبَان البلاغةِ ساحباً ... ببيانه ذَيْلَ الفَخار لوائِلِ

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٣٧.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٣٧ ـ ٣٩.

أبصرتُ قُسّاً في الفَصَاحة معجزاً فعرفتُ أني في فهاهة باقِلِ
حِلْفُ الحصافة والفصاحة والسَّما حةِ والحماسةِ والتُّقى والنَّائلِ
بحرٌ من الفَضْلِ الغزير خِضَمُّهُ طامي العُباب وما لَهُ من ساحِلِ
وجميعُ ما في الأرض سبعة أبحر وبحوره تُسْمى بِعَشْرِ أنامِلِ
في كفِّه قَلَمٌ يعجِّلُ جَرْيُه ما كان من أجلٍ ورِزْقٍ آجلِ
يجري ولا جَرْيَ الحُسامِ إذا جَرَى حَدَّاه بل جَرْيَ القضاءِ النَّازِلِ
نابَتْ كتابتُهُ منابَ كتيبةٍ كَفَلَتْ بهَزْمِ كتائبٍ وجَحَافِلِ
فَعَدُوُّهُ في عَدْوه ووليُّه في عَدْله أكرِمْ بِعادٍ عادِلِ
ريَّان من ماءِ التُّقى صادٍ إلى كَسْبِ المحامِدِ وهي خَيْرُ مناهِلِ
يا واحد العَصْرِ الذي بَذَّ الورى فضلاً بغير مُشَابهٍ ومُشَاكِلِ
مالي وجاهَ الجاهلين فأغْنِني عنهمْ كُفيتَهُمُ وَجُدْ بالجاه لي
أرجوك مُعتنياً لدى السُّلطان بي كَرَماً فمثلُك يَعْتني بأماثلي
قَرِّر ليَ الشُّغلَ المبجَّل مُخْلياً بالي من الهمِّ المقيمِ الشَّاغِلِ

قال: فدخل الفاضل إلى السُّلْطان، وعَرَّفه أنه فيَّ راغب، وقال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سَفْرة، وغداً يكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات وحلّ التراجم، والعمادُ يفي بذلك ولك أختاره، وقد عُرف في الدولة النُّورية مقدارُه. وأخذ لي خَطَّ السلطان بما قرَّره لي من شغلي، وقد عَرَفَ أن الأجلَّ الفاضل قد أجَلَّ فضلي.

قال: وخدمتُ أمير المؤمنين المستضيء[1] في ذي القَعْدة مع الرّسل بهذه القصيدة[2]: [الطويل]

أصحُّ عقود الغانيات مَريضُها وأفتكُ ألحاظِ الحِسان غَضِيضُها
ومِنْ عَجَبٍ صَلَّتْ لِقِبْلةِ بأسِهِمْ رؤوسُ أعادٍ من ظُباهم مَحِيضُها

(١) المستضيء: هو الخليفة العباسي أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله ابن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، تولّى الحكم سنة ٥٦٦هـ، عند موت أبيه الإمام المستنجد بالله، وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر، وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، حليماً، محباً للعفو والصفح عن المذنبين، كانت وفاته في سنة ٥٧٥هـ (الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٣ ـ ٧٩، وفيات الأعيان ٤/ ٤٧٠، ٧/ ١٥٧.

(٢) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ٧١ ـ ٧٦.

Marfat.com

[ظهور متنبئ في مشغرا]

قال ابن أبي طيّ: وظهر في مَشْغَرا ـ قَريةٌ من قرى دمشق ـ رجلٌ ادعى النبوة وكان من أهل المغرب، وأظهر من التَّخاييل والتمويهات ما فُتن به النَّاس، واتَّبعه عالم عظيم من الفَّلاحين وأهل السَّواد، وعصى على أهل دمشق، ثم هرب من مشغرا في الليل، وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى إفساد عقول الفلَّاحين بما يريهم من الشعبذة والتخاييل، وهوي امرأةً وعلَّمها ذلك، وادَّعت أيضاً النبوَّة.

قال: وفيها توفي شهاب الدين الياس الأُرْتُقي صاحب البيرة، وأوصى إلى الملك الناصر بولده شهاب الدين محمد.

[الهدنة بين الفرنج وصلاح الدين]
ثم دخلت سنة إحدى وسبعين[1]

قال العماد: والسُّلْطان نازل بمرج الصُّفَّر من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهُدْنة، فأجابهم السُّلْطان بعد أن اشترط عليهم أموراً، فالتزموها.

وكان الشَّام ذلك العام جَدْباً، فأَذِنَ السلطانُ للعساكر المصرية في الرَّحيل إلى بلادهم وإذا استغلوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل، واعتمد على العماد فيما كان بصدده.

وواظب السلطان على الجلوس في دار العَدْل، وعلى الصَّيْد، ومدحه العماد بقصيدةٍ، منها: [المتقارب]

سواك لسهم العُلا لن يريشا ... فنسألُ ربَّ العُلا أن تعيشا
من الناس بالبِرِّ صِدْتَ الكِرام ... وبالبأس في البرِّ صِدْتَ الوحوشا
وكمْ سِرْتَ من مِصْرَ نحو العريش ... فهدَّمْتَ للمشركينَ العُروشا
سراياك تَبعث قُدَّامها ... من الرُّعْب نحو الأعادي جيوشا
ويوم حماةَ تركتَ العُدَاة ... كما طَيَّرَت بالفلا الرِّيحُ ريشا

قال: ومَدَحتُ مستهل ربيع الأول تقيَّ الدين بقصيدةٍ موسومة، وكان قد فَوَّض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما ولم أُسبَق إليهما، وهما: [الوافر]

يفيدُ العاقِلَ اليَقِظَ التَّغابي ... لِيُدْرِكَ في الغِنى حَظَّ الغبيِّ

(١) وخمسمائة.

Marfat.com

ولم تُصِبِ السُّهامُ على اعتدالٍ بها لولا اعوجاجٌ في القِسِيّ
فَقُلْ للدهرِ يُقْصِرُ عن عنادي أما هو يتَّقي بَأْسَ التَّقي
حَلَفْتُ بربِّ مكَّةَ والمُصَلَّى وثاوي تُرْبِ طَيْبَةَ والغَرِيِّ[1]
لأنتم يا بني أيوبَ خيرُ الـ ـوَرى بعد الإمام المستضيءِ

[فتنة قطب الدين قايماز في بغداد، وخروجه منها]

قال: وفي أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد موافقةً لقطب الدين قايماز، فأخذوا لأنفسهم بالالتجاء إلى السلطان الاحتراز.

وكان قايماز هذا مُحَكَّماً في الدولة الإمامية من أول الأيام المستنجدية، وقوي في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين ابن رئيس الرسساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافَه، ورام إتلافه، حتى استعاذ منه برباط صَدْر الدين شيخ الشيوخ، فَسَلِمَ به[2].

ثم إنَّ قايماز خالف الخليفة وشقَّ العَصَا، وعَزَّ له حصار الدَّار، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فلم ينج لمّا أُحيط بداره، إلا بفتح بابٍ في جداره، وانهزم فوصل إلى الحِلَّة في أوائل ذي القَعْدة سنة سبعين، وهو في موسم الحج، فجمع رجاله وتوجَّه إلى المَوْصِل، وخانه إخوانه، وخذله أصحابه، فتوفي في بعض قرى المَوْصِل، وتفرَّق أصحابه في البلاد، فمنهم من رجع إلى بغداد، ومنهم من أتى الشَّام؛ منهم حسام الدين تميرك، وعز الدين أقبوري بن أزغش، وكان صهر السلطان قديماً، وعنده كريماً، فأقطعه في الديار المصرية، وكتب في حقه إلى الديوان شفاعة في تخليص ماله، واستقامة حاله. وكان ذا خزائن مملوءة، وخَيْلٍ مسوَّمة، فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قايماز مما يقبل الصَّفْح. وكان أقبوري زوج أخت السُّلْطان، والسلطان خال بنته، وهي زوجة عز الدين فَرُّخْشاه ابن أخي السلطان[3].

قلتُ: وفي بعض الكتب عن السُّلطان إلى وزير بغداد بالمثال الفاضلي: وما نحسب أنَّا مع الموالاة المشتهرة، والنُّصرة المستظهرة، والمساعي التي كانت لثارات هذه الدَّولة بالغة، ولأعدائهم دامغة، ولمنازعيهم الأمر قاصمة،

---

(١) ثاوي ترب طيبة: هو رسول الله ﷺ، وطيبة من أسماء مدينة الرسول ﷺ. وثاوي ترب الغريّ: هو الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والغري من أسماء النجف الأشرف.
(٢) انظر أخبار قايماز وعضد الدين وما بينهما من عداوة في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٧١ ـ ٧٢.
(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٧١ ـ ٧٢.

Marfat.com

ولمجاذبيهم الحقَّ واقمة[١]، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمة، وكوننا ما أُعنا منها بنجدة من رجال، ولا بمادَّةٍ من مال، ولا بإعانة بحال من الأحوال ـ يرد سؤالنا من الدولة ـ أعلاها الله ـ في ذي قُرْبى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالأخبار عندنا واسعة، والأعواض لدينا غير متعذرة، والولايات التي نفوضها إليه عن كفايته غير مستغنية، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولا آثر غير سلطانه سلطاناً، وله أعذار لا بأس أن نعيرَه فيها لساناً وبياناً.

ثم ذكرها، ثم قال: وهذا الأمير جُزْءٌ منَّا فكيف يُعدُّ جزء منا عاصياً، وبألسنتنا وسيوفنا يدْعى الخلق إلى الطَّاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحدٍ من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة. فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبحظنا الذي لا نسمح به للإسلام نبخل، وأنت أيها الأمير السَّائر ثالث رسولٍ ندب في أمر هذا الأمير، والله وليُّ التَّدْبير.

وقال العماد في «الخريدة»[٢]: كنت جالساً بين يدي الملك النَّاصر صلاح الدِّين بدمشق في دار العدل، أنفِّذُ ما يأمر به من الشُّغْل، فحضَرَ سعادة الأعمىٰ من أهل حمص، وكان مملوكاً لبعض الدمشقيين مولداً، ويكتب على قصائده سعيد بن عبد الله[٣]، فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة إحدى وسبعين: [الكامل]

حيَّتْك أعطافُ القُدودِ ببانها ... لما انثنتْ تِيهاً على كُثْبانِها

ثم ذكر القصيدة وغزلها في وصف دمشق، ثم قال: [الكامل]

سُلْطانها الملك ابن أيوب الذي ... كَفَّاه لا تنكفُّ عن هطلانها
بمواهبٍ لوْ لمْ أكن نُوحاً لما ... نُجِّيتُ يَوْمَ نَداه من طُوفانها
سمحٌ يروحُ إلى النَّدِيِّ براحةٍ ... قد أَعْشَبَ المَعْرُوفُ بين بَنَانها
وفتًى إذا زَخَرَتْ بحارُ نَواله ... غَرِقَتْ بحارُ الأرضِ في خُلْجَانها
تلك السُّيوف المُرْهَفاتُ بِكَفِّهِ ... أمضى على الأيام من حِدْثانها

(١) وقَمَه، كوعده: قهره، وأذله، أو ردّه أقبح الرد، وحزنه أشدّ الحزن. والتوقّم: التهدّد والتعمّد، والإطناب في الشيء. وأوقمه: قمعه.
(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٠٦، ٤١١.
(٣) سعيد بن عبد الله: هو سعادة الضرير الحمصي، توفي سنة ٥٩١هـ. (انظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٠٦ ـ ٤٣٢.

Marfat.com

مَلِكٌ إذا جُلِيَتْ عرائسُ مُلْكِهِ رَصَعَتْ فريدَ العَدْلِ في تيجانها
فاسلمْ صلاحَ الدينِ وابْقَ لدولةٍ ذَلَّتْ لِدَولتها مُلوكُ زمانِها
وانهضْ إلى فَتْحِ السَّواحِلِ نَهْضَةً قادَتْ لك الأعداءَ بعد جِرَانِها

وهي طويلةٌ.

قال: وقام اليوم الذي يليه، وقد جلس السُّلْطان للعدل، فأنشده ـ يعني قصيدة ـ منها[1]: [البسيط]

هل بعد جِلْقَ إلا أن ترى حلَباً وقد تحَلَّلَ منها مُشْكِلٌ عَقِدُ
وقد أتتْك كما تختارُ طائعةً وقد عَنَا لك منها الحِصْنُ والبَلَدُ

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أول مملكة الملك النَّاصر، فمدحه بقصيدة طائية، فأعطاه ألف دينار. فمنها يصف غارته على غَزَّة، وعوده من ذلك الغزو بالعِزَّة[2]: [الطويل]

فتًى مُذْ غزا بالخيلِ والرَّجْل غَزَّةً نأى عن نواحيها الرِّضا ودنا السُّخْطُ
رماها بأُسْدٍ ما لهنَّ مَرابضٌ ولا أُجُمٌ إلا الذي يُنْبِتُ الخَطُّ
وعاث ضواحيها ضُحًى بكتائبٍ من التُّرْكِ لا نُوبٌ طَغَامٌ ولا قِبْطُ

وله في السلطان قصائد أُخر.

قال: وقام البهاء السِّنْجاري[3] وأنشد الملِك النَّاصر قصيدةً في دار العَدْل بدمشق سنة إحدى وسبعين في شعبان، منها[4]: [الكامل]

يا ظَبْيَةَ الْهَرَمَيْنِ من مصرٍ، على الرَّ (م) بْعِ السَّلامُ وإنْ تَقوَّضَ أوْ عَفَا
أصْبُو إلى عَصْرٍ تقادَم عَهْدُهُ فأزيدُ مِنْ وَلَهٍ عليه تَلَهُّفا
أحبابَنا بالقَصْرِ لو قَصَّرْتُمُ في الهَجْرِ ما شَمِتَ الحسُودُ ولا اشْتفى

---

(١) البيتان في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٠٦.
(٢) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤١٦ ـ ٤١٩.
(٣) البهاء السنجاري: هو أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب السلمي، أبو السعادات المنعوت بالبهاء الفقيه الشافعي، الشاعر، غلب عليه قول الشعر فاشتهر به، وقُدِّم عند الملوك، له أشعار جيدة اشتهرت في عصره، ولد سنة ٥٣٣هـ، وتوفي في أوائل سنة ٦٢٢هـ. وقد ناهز التسعين، له ديوان شعره مشهور (كشف الظنون ٥/ ٢٠٥، معجم البلدان ٣/ ٢٦٣، وفيات الأعيان ١/ ٢١٤، ٢١٧، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣، الوافي بالوفيات ٩/ ٣٢ ـ ٣٤، طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ١٢٩ ـ ١٣٠).
(٤) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

Marfat.com

أشكو إلى الوادي فيحنُو بانُه مِن رِقّةِ الشَّكوى عليَّ تَعَطُّفا
وجرى بي الأملُ الطَّموحُ فأمَّ بي سلطانَ أرضِ الله طُرّاً يُوسُفا
النَّاهب الأرواح في طَلَبِ العُلا والواهب الآجال في حُسْنِ الوفا

فصل

فيما تجدَّد للمواصلةِ والحلبيين

قد سبق ذِكْرُ الصُّلْح الذي جرى بين السُّلْطان والحلبيين، فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبَّخوهم، ونسبوهم إلى العَجَلة في ذلك، وسلوك غير طريق الحَزْم، فحملوهم على النَّقْض والنَّكْث، وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق، وتوجَّه ذلك الرسول منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة من السُّلْطان عهده، ويكشف أيضاً ما عنده. فلما خلا به طالبه السُّلْطان بنسخة الرأي، فغلط وأخرج من كُمِّه نسخة يمين الحلبيين لهم، وناولها إياه، فتأمَّلها وأخفى سِرّه وما أبداه، واطلع على ما اتفقوا عليه، وردَّها إليه، وقال: لعلَّها قد تبدلّت. فعرف الرسول أنه قد غلط؛ ولم يمكنه تلافي ما فرط. وقال السُّلْطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة، ومن شرط أيمانهم، أنهم لا يعتمدون أمراً إلّا بمراجعتهم لنا واستئذانهم؟ وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض، والوفاء مرفوض.

وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الرَّبيع، فكتب السلطان إلى أخيه العادل، وهو نائبه بمصر، يُعلمه بذلك، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان.

قلت: وفي كتابٍ طويل فاضلي جليلٍ إلى بغداد عن السلطان يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السِّلاح، وخفضوا الجناح، اقتصرنا، بعد أن كانت البلاد في أيدينا، على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات[1] إلى الكُفْر، وعرضنا علينا الأمانة فحملوها، والأيمان فبذلوها. وسار رسولنا وحلَّف صاحب الموصل بمحضرٍ من فقهاء بلده، وأمراء مشهده، يميناً جعل الله فيها حَكَماً، وضيَّق في نَكْثها المجال على من كان حنيفاً مسلماً، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها، أومى بيده ليخرجها، فأخرج

(١) البيكارات، أو البياكير: جمع البيكار: لفظ فارسي معناه الحرب عامة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٧٠).

Marfat.com

نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حِزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعدُ على إزالة خطبنا، والاستنفار لِمن هو على بُعْدنا وقربنا. وقد حلف بها كُمُشْتِكِين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأُولى. فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنا: هذه يمينٌ عن الأيمان خارجة، وأردتَ عمراً وأراد الله خارِجة[1].

وانصرف الرَّسول عن بابنا وقد نَزَّهنا الله أن يكون اسمُه معرَّضاً للحِنْث العظيم، والنَّكْث الذَّميم، وعلمنا أن الناقد بصير، والآخذ قدير. والمواقف الشريفة النبوية ـ أعلاها الله ـ مستخرجة الأوامر إلى الموصلي إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقه.

ثم ذكر أمر الفرنج، ثم قال: والمملوك بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظاً، ولا يَنْوُون لما استحفظوا حفظاً، وعدو كفر فما يجاورهم إلا بلادُه، ولا يقارعهم إلا أجناده.

ثم طلب خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونُوا للمَمْلوك على المشركين أعواناً، وأن يُمْتَثل أمر نبينا ﷺ في أن يكونوا بنياناً، فيعضدوه إذا سعى، ويلبُّوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثاره، وتطأطأت الرُّؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرةً لا ترقُّ على صَخْرته، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رِجْس الشِّرْك ومعرَّته. فإن

---

(١) أردت عمراً وأراد الله خارجة: يشير إلى قصة الخوارج الثلاثة الذين اجتمعوا وتعاهدوا على قتل كل من علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص: فقد ذكر ابن جرير وغير واحد من علماء التاريخ والسير وأيام الناس أن ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم الحميري، ثم الكندي، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، اجتمعوا فتذكروا قَتْل علي إخوانهم من أهل النهروان، فقال ابن ملجم: أما أنا فأكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص، فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه... وأما صاحب عمرو بن العاص ـ وهو عمرو بن بكر ـ فإنه كمن له ليخرج إلى الصلاة فاتفق أن عرض لعمرو بن العاص مغص شديد في ذلك اليوم فلم يخرج إلا نائبه إلى الصلاة ـ وهو خارجة بن أبي حبيبة من بني عامر بن لؤي، وكان على شرطة عمرو بن العاص فحمل عليه الخارجي فقتله وهو يعتقده عمرو بن العاص، فلما أخذ الخارجي قال: أردت عمراً وأراد الله خارجة، فأرسلها مثلاً، وقيل إن الذي قالها عمرو بن العاص، وذلك حين جيء بالخارجي فقال: ما هذا؟ قالوا: قتل نائبك خارجة، ثم أمر به فضربت عنقه (البداية والنهاية ٧/ ٢٦٠ ـ ٢٦٣).

Marfat.com

قعدت بهم العزائم، وأخذتهم في الله لومةُ لائم، فلا أقلَّ من ألا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه عن قَصْده، حريصين على إيصال المكروه إليه.

وقال ابنُ شَدَّاد: لما وقعت الوقعة الأولى مع الحلبيين والمواصلة، كان سيف الدين ـ صاحب الموصل ـ على سِنْجار يُحاصر أخاه عماد الدين بِقَصْد أخذها منه ودخوله في طاعته. وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السُّلطان صلاح الدين واعتصم بذلك. واشتدَّ سيف الدين في حصار المكان وضَرْبه بالمنجنيق حتى استُهدِم من سوره ثُلَمٌ كثيرة، وأشرف على الأخذ، فبلغه وقوع هذه الواقعة، فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتدُّ أمره ويقوى جأشه، فراسله في الصُّلْح، فصالحه.

ثم سار من وقته إلى نَصِيبين، واهتمَّ بجمع العساكر والإنفاق فيها، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة، وخيَّم على جانب الفرات الشَّامي، وراسل كُمُشْتِكِين والملك الصالح حتى تستقرَّ قاعدة يصل عليها إليهم. فوصل كُمُشْتِكِين إليه، وجَرَت مراجعات كثيرة عزم فيها على العَوْد مراراً، حتى استقرَّ اجتماعه بالملك الصَّالح وسمحوا به، وسار ووصل حلب، وخرج الصَّالح إلى لقائه بنفسه، فالتقاه قريب القلعة، واعتنقه، وضمَّه إليه وبكى. ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها، وسار هو حتى نزل بعين المباركة، وأقام بها مُدَّة، وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم.

وصَعِدَ القلعة جريدةً وأكل فيها خُبْزاً ونزل، وسار راحلاً إلى تل السُّلْطان، ومعه جمع كثير وأهل ديار بكر، والسلطان رحمه الله تعالى قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخَّرون في أمورهم وتدابيرهم، وهم لا يشعرون أنّ في التأخير تدميراً، حتى وصل عسكر مصر، فسار رحمه الله تعالى حتى أتى قرون حماة، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليَزَك، ووجَّهوا من كشف الأخبار، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان، وتفرَّق عسكره يسقي، فلو أراد الله نُصْرتهم لقصدوه في تلك السَّاعة، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا، وتعبّوا تعبئة القتال.

وأصبح القوم على مصاف، وذلك بُكْرة الخميس العاشر من شوَّال، فالتقى العسكران وتَصادما، وجرى قتالٌ عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر الدين، فإنه كان في ميمنة سيف الدين، وحمل السلطان بنفسه، فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء، منهم فخر الدين عبد المسيح، فمنَّ عليهم وأطلقهم.

Marfat.com

وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزانته، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده. وأمسك هو ـ رحمه الله ـ عن تتبع العسكر، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم، فإنهم كانوا قد أبقَوْا الثَّقَل على ما كان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرَّق الاصطبلات، ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيفِ الدين عزَّ الدين فَرُّخْشاه.

وقال العماد: رحلنا في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبَرْنا العاصي الله طائعين، وإلى المسارِّ مسارعين، فما عرَّجنا على بلد، ولا انتظرنا ما وراءنا من مَدَد، ونزلنا الغَسُولة وجُزنا حماة، وخيمنا في مرج بوقُبيس وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم[1]، وما وراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوَّة وشِدَّة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس. فرتَّب السلطان عسكره، وقوَّى بقوّة قَلبه قلْبَه، وأمدَّ الله بحزب ملائكته حزبه.

ولما وصل المواصلة إلى حلب، أطلقوا من كان في الأسر من ملوك الفرنج، منهم أرناط إبرنس الكَرَك، وجوسلين خال الملك، وقرَّروا معهم أن يدخلوا من مُساعدتهم في الدَّرك. فلما عيَّدْنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السُّلْطان، فعَبرْنا العاصي عند شَيْزَر، ورتَّبنا العسكر، وأعدنا الأثقال إلى حماة.

ثم وصف الوقعة إلى أن قال: وركب السّلْطان أكتافهم فشلّ مِيْيهمْ وآلافهم، حتى أخرجهم عن خيامهم، وأَشْرَقهم بمائهم. ووكل بِسُرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابنَ أخيه فَرُّخْشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدَّاه. ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدَّمين، ثم مَنَّ عليهم بالخِلَع بعد أن نقلهم إلى حماة وأطلقهم. ثم نزل في السُّرادق السيفي فتسلَّمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورَوَاسِيَ عِزّه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك أيدي الجُود، وفرّقها على الحضور والشُّهود، وأبقى

---

(١) استبعد ابن الأثير الجزري في «الكامل في التاريخ» أن يكون عدد عسكر سيف الدين غازي بن مودود في هذه الوقعة عشرين ألف فارس، وقال: وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس، ولم يكن كذلك، وإنما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس، أقل من خمسمائة، فإنني وقفت على جريدة العرض، وترتيب العسكر المصاف، ميمنة وميسرة وقلباً، وجاليشية، وغير ذلك، وكان المتولي لذلك، والكاتب له، أخي مجد الدين، أبا السعادات، المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله. إنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه، بأنه هزم بستة آلاف، عشرين ألفاً، والحق أحقّ أن يتبع، ثم يا ليت شعري كم هي الموصل، وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس (انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٧٤ ـ ٧٥: ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين).

Marfat.com

منها نصيباً للرُّسل والوفود. ورأى في بيت الشراب، بل في السُّرادق الخاص، طيوراً من القَمَاريّ والبلابل والهَزَار والبَبَّغاء في الأقفاص، فاستدعى أحد النُّدماء مُظَفَّراً الأقرع فآنسه، وقال: خُذْ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين، فأَوْصِلْها إليه، وسَلِّم منا عليه، وقل له: عدْ إلى اللعب بهذه الطُّيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور.

قال: ولما كُسِرَ القوم ولّوا مُدبرين إلى حلب، فلم يقفْ بعضهم على بعض، وظنُّوا أن العساكر وراءهم ركضاً وراء ركض؛ فتبعَّجت خيولهم، وتموَّجت سيولهم، وما صدَّقوا كيف يصلون إلى حلب ويغلِّقون أبوابها، ويسكِّنون اضطرابها. وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تلّ السلطان إلى بُزاعة، وجاوز في سَوْقه الاستطاعة، وفرق وفارق الجماعة.

وفي كتاب ابن أبي طيّ: أن ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرَّك إلى جانبها ليكون رِدْءاً لها ومدداً، فظنَّ باقي العسكر أنه قد انهزم فانهزموا، فحقَّق ما كان وهماً، فسار على وجهه هارباً لا يلوي على شيء. وتبعهم السُّلْطان، فهلك منهم جماعة قَتْلاً وغرقاً، وأَسر جماعة كبيرة من وجوههم وأمرائهم. ثم رجع وأمر أصحابه برفع السَّيف عن الناس، وتَرك التَّعرُّض لمن وُجد منهم بقتل أو نَهْب.

وفرَّق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسيَّر جَواريه وحظاياه إلى حلب، وأرسل إليه بالأقفاص وقال له: عُدْ إلى اللعب بهذه الطيور، فإنها ألذُّ من مُقاساة الحرب. ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك[1] والمغنين والمغنيات.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأنَّ السُّلْطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية. وكان أَنفذَ الأمراء الذين أسرهم إلى حماة ثم ردَّهم، وخلعَ عليهم وأرسلهم إلى حلب.

وهنأ العمادُ السُّلْطان رحمه الله تعالى بقصيدةٍ، منها[2]: [الكامل]

فالحمدُ لله الذي إفضَالُه ... حُلْوُ الجنا عالي السَّنا وضَّاحُهُ

---

(١) البرابط: جمع بربط، وهو العود، معرب بربط بالفارسية ومعناه: صدر البط لأنه يشبهه والعود: آل العزف المعروفة. وتسميه العرب: المزهر، بكسر الميم. والجنك: آلة محدثة طيبة النغمة، لذيذ السماع يقارب العود في حسنه، وشكله مباين لشكل العود ورأسه ممال إلى أسفل (انظر صبح الأعشى ٢/ ١٦٠).

(٢) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٧ ـ ٢٢.

Marfat.com

عاد العَدُوُّ بِظُلْمَةٍ من ظُلْمِهِ ... في ليل وَيْلٍ قد خَبا مِصْباحُهُ
وجنَى عليه جَهْلُه بوقوعه ... في قبضة البازي فَهِيضَ جَنَاحهُ
حَمَلَ السِّلَاح إلى القتال وما درى ... أنَّ الذي يَجْني عليه سلاحُه
أضحى يريد مواصليه صُدُودَه ... وغدا يجيد رثاءه مُدَّاحُهُ
إنْ أَفْسَدَ الدِّينَ الغُلاة[1] بِجِنْثِهِمْ ... فالنَّاصِرُ الملك الصَّلاحُ صلاحُهُ
قد كان عَزْمُك للإله مُصَمِّماً ... فيهمْ فلاحَ كما رأيتَ فلاحُهُ
وكأنني بالسَّاحل الأقصى وقد ... ساحَتْ ببَحْر دَمِ الفِرَنْجَةِ ساحُهُ
فاعبُر إلى القوم الفُراتَ ليشربوا الـ ... ـمَوْتَ الأُجاجَ فقد طَمَى طَفَّاحُهُ
لِتَفُكَّ من أيديهمُ رَهْنَ الرُّها ... عَجِلاً ويُدْرِكَ ليلَها إصْباحُهُ
وابغُوا لحَرَّان الخلاصَ فكم بها ... حَرَّانُ قَلْبٍ نحوكمْ مُلْتَاحُهُ
نجُّوا البلادَ من البلاءِ بِعَدْلِكُمْ ... فالظُّلْمُ بادٍ في الجميع صُرَاحُهُ
واستفتحوا ما كان من مُسْتَغْلِقٍ ... فيها فربُّكُمُ لكُمْ فَتَّاحُهُ
أنتم رجالُ الدَّهر بل فُرسانُهُ ... وَلِذِي الحُلوم الطائشات رِجَاحُهُ
فُتَّاكُهُ نُسَّاكُهُ ضُرَّارُهُ ... نُفَّاعُهُ مُنَّاعُهُ مُنَّاحُهُ
وأبو المُظَفَّر يوسفٌ مِطْعَامُه ... مِطْعانُهُ مِقْدامُهُ جَحْجَاحُهُ[2]
وإذا انتدَى في مَحْفِلٍ فحيِيُّهُ ... وإذا غدا في جَحْفَلٍ فَوَقَّاحُهُ

قال: وكان لعز الدين فَرُّخْشاه في هذه الوقعة يدٌ بيضاء، وهو محبٌّ للفضل وأهله، باعثٌ للخواطر على مدحه ببذله؛ فنظمتُ فيه قصيدةً، منها: [الكامل]

نَصْرٌ أنار لملكِكُم بُرْهانُه ... وعلا لذلَّة شانئيكم شانُهُ
ما أسعدَ الإسلامَ وهو مظفَّرٌ ... وأبو المُظَفَّر يوسفٌ سُلْطانُهُ
المُلْكُ مرفوعٌ لكم مقداره ... والعَدْلُ موضوعٌ بكم ميزانُهُ
والدَّهرُ لا يأتي بغيرِ مُرَادِكُمْ ... فهلِ القضاءُ لأجلكم جَرَيانُهُ
وكأنما لله في أحكامه ... فَلَكٌ على إيثاركم دَوَرانُهُ
فخراً بني أيوبَ إن فَخَاركم ... بذَّ الملوك السَّابقين رهانُهُ
يكفي حسودكم اعتقالاً همّه ... فكأنما أشجانُه أسجانُهُ

(١) في خريدة القصر: «العصاة» بدل: «الغلاة».
(٢) الجحجاح: السيد الكريم.

Marfat.com

الـدِّيـن عِـزَّ الـديـن عَـزَّ بـنـصـركـم والـكُـفْـرُ ذلَّ بـعـونـكـم أعـوانُـهُ
قـد كـانَ جـيـشـهـمُ كـبـحـرٍ زاخـرٍ والـلابِـسُـون جـواشـنـاً جِـيـتـانُـهُ
فـطـمـى لِـهُـلْـكِـهِـمُ عـلـيـهـم بَـحْـرُكُـمْ بـأسـاً وغـرَّق فُـلْـكَـهُـمْ طُـوفـانُـهُ
فَـضَـل الـمـلـوكَ الأكـرمـيـنِ بِـفَـضْـلـه فـعـلا زمـانَـهُـمُ الـبـهـيـجَ زمـانُـهُ
فـي فَـضْـلـه فـي عَـدْلـه فـي حِـلْـمِـهِ صِـدِّيـقُـه فـارُوقـه عُـثْـمـانُـهُ
هـو فـي الـسَّـمـاح وفـي الـلـقـاء عَـلِـيُّـه هـو فـي الـعَـفَـافِ وفـي الـتُّـقـى سَـلْـمـانُـهُ
مـن آلِ شـاذي الـشَّـائـديـن لـمـجـده بـبـنـيـه بـيـتـاً عـالـيـاً بُـنْـيـانُـهُ
بـيـتٌ مـن الـعـلـيـاء سـام سـامـقٌ يُـبْـنـى عـلـى كـيـوانـهـا إيـوانُـهُ[1]
يـا سـالـبَ الـتِّـيـجـان مـن أربـابـهـا ومـن الـثَّـنـاءِ مـصـوغـةٌ تِـيـجـانُـهُ
والـحـمـدُ مـالٌ أنـتـمُ بُـذَّالُـهُ والـمـال حـمـدٌ أنـتـمُ خُـزَّانُـهُ

قال: ثم إن صاحب المَوْصِل أسرع عودته، وواصل لذته، والحلبيون أوثقوا الأسباب، وغلَّقوا الأبواب، وسُقِطَ في أيديهم، حين أفرطوا في تعديهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلَّدوا وتلددوا، وتجادلوا ثم تجلَّدوا.

وقال ابنُ سعدان الحلبي من جُملة قصيدةٍ يهنئ بها السّلْطان بهذه الكسرة: [الطويل]

وما شكَّ قَوْمٌ حين قُمْتَ عليهمُ غَدَاةَ التقى الجمعانِ أنَّك غالبُ
ولو لم تَقُدْ تلك المقانبَ لاغتدى لنفسك في نفس العدوِّ مقانِبُ[2]

قال ابنُ أبي طيّ: وأما سيف الدين فإنه امتدَّت به الهزيمة إلى بُزَاعا، فأقام بها حتى تلاحق به من سَلِمَ من أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات، وصار إلى الموصل. وصار باقي عسكر حلب إلى حلب، في سابع شوال، في أقبح حال وأسوئه، عُراةً حُفاةً فقراء، يتلاوَمُون على نقض الأيمان والعهود.

[خوف أهل حلب من قصد السلطان لهم]

وخاف أهل حلب من قَصْد السُّلطان لهم، فأخذوا في الاستعداد للحصار، وجاء السُّلْطان وخيَّم عليها أيَّاماً، ثم قال: الرأي أن نقصد ما حَوْلها من الحصون والمعاقل والقلاع فنفتحها، فإنَّا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها. فصوَّبوا رأيه، فنزلوا على بُزاعا، فتسلَّمها بالأمان، وولاها عِزَّ الدين خُشترين الكُرْدي.

---

(١) كيوان: هو الكوكب زحل.
(٢) المقانب الأولى: الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين، أو زهاء الثلاثمائة، والمقانب الثانية: الذئاب الضارية.

فصل

في فتح جُمْلة من البلاد حوالي حلب(١)

قال العماد: ثم نزل السُّلْطان على حِصْن بُزاعة وتسلَّمه في الثَّاني والعشرين من شوَّال، ثم فتح مَنْبج في التَّاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قُطْب الدين يَنَال بن حَسَّان، والسلطان لا ينال به إحسان، بل كان في جَرِّ عسكر المَوْصِل إليه أقوى سبب، ولا يماذقه ولا يحفظ معه شرط أدب، ويواجهه بما يكره، فسلَّم القلعة بما فيها، وقُوِّم ما كان سلَّمه بثلاثمائة ألف دينار، منها عين ونقود، ومصوغ ومطبوع ومصنوع، ومنسوج، وغلات، وسَامُه على أن يخدم، فأبَى وأنف، وكبرت نفسه، فتعب سرُّه، وذهب ما جمعه. ومضى إلى صاحب المَوْصِل فأقطعه الرَّقة، فبقي فيها إلى أن أخذها السُّلْطان منه مرة ثانية في سنة ثمانٍ وسبعين.

وقال العماد: [مجزوء المتقارب]

نُزُولُكَ في مَنْبِجٍ ... على الظَّفَرِ المُبْهِجِ
ونُجْحُكَ في المُرتجى ... وَفَتْحُكَ للمُرْتَجِ
دليلٌ على كلِّ ما ... تحاول أو ترتجي
أمورك فيما تَرُو ... مُ واضحةُ المَنْهَجِ
وشانيك دامي الشُّؤو ... ن منك شَقِيٌّ شَجِي(٢)
ومن كان في حِضْنِهِ ... ومِنْ قَبْلُ لم يَخْرُجِ
يقال لهُ ليس ذا ... بعُشِّكَ قُمْ فاذْرُجِ(٣)
فَرَأْيُكَ يستنزلُ النُّـ (م) ـجُومَ من الأَبْرُجِ
فَعَجِّلْ عُبورَ الفُرات ... وأَسْرِ وَسِرْ واذلِجِ
وَعُجْ نحو تلك البلاد ... وعن غَيْرِها عَرِّجِ
فحَرَّان والرَّقَّتا ... نِ تَاليتَا مَنْبِجِ(٤)

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٧٥ ـ ٧٧: ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين. وذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها.
(٢) الشؤون: جمع شأن، وهو مجرى الدمع إلى العين.
(٣) هو من المثل: ليس بعشك فادرجي، يضرب لمن يدّعي أمراً ليس من شأنه (المستقصى ٢/ ٣٠٥).
(٤) الرقتان: تثنية الرقة. قال ياقوت الحموي في معجم البلدان ٣/ ٥٧: أظنهم ثنوا الرقة والرفقة، كما قالوا العراقان للبصرة والكوفة.

Marfat.com

وجَلٌ عن المُسْلمينَ لِيلهمُ المُدَّجي

قال ابن أبي طيّ: لما ملك السُّلْطان مَنْبِج، وتسلَّم الحِصْن صَعِدَ إليه وجلس يستعرض أموال ابن حَسان وذخائره، فكان في جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفِضَّة والآنية الذَّهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار. فحَانَ من السُّلْطان التفاتة، فرأى على الأكياس والآنية مكتوباً يوسف، فسأل عن هذا الاسم، فقيل له: ولدٌ يحبُّه ويؤثره اسمه يوسف كان يذخر هذه الأموال له. فقال السُّلْطان: أنا يوسُف وقد أخذت ما خُبئ لي. فتعجَّب النَّاس من ذلك.

قال: ولمَّا فرغ من مَنْبِج نزل على عَزَاز ونصب عليها عِدَّة مجانيق، وجَدَّ في القتال، وبَذَل الأموال.

قال العماد: ثمَّ نزل السّلْطان على حِصْن عَزَاز، وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز. وهو حِصْنٌ منيع رفيع، فحاصره ثمانية وثلاثين يوماً. وكان السُّلْطان قد أشفق على هذا الحِصْن من موافقة الحلبيين للفرنج، فإنَّ الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج، وإطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ في أَسْرهم، فرأى السّلطان أن يحتاط على المعاقل، ويصونها صَوْنَ العقائل، فتسلَّمها حادي عشر ذي الحِجَّة بعد مُدَّة حصارها المذكورة.

وقال العماد قصيدةً، منها: [الرجز]

أعطاه رَبُّ العالمين دولةً ... عِزَّةُ أهلِ الدِّين في إعزازها
حاز العُلا بباسِهِ وجُودِهِ ... وهْو أحقُّ الخَلْقِ باحتيازِها
بجدِّه أفنى كنوزاً فَنِيَ الْـ ... ـملوكُ في الجدِّ على اكتنازها
مهلكُ أهلِ الشِّرْك طُرّاً رُومِها ... أرمنها إفرنجها أبخازها
تفاخرَ الإسلامُ من سُلْطانه ... تفاخُرَ الفُرْسِ بأبراوازها[1]
تَهَنَّ من فَتْح عَزَازٍ نُصْرةً ... أوقعتِ العُداة في اغتزازِها
واليوم ذلَّتْ حلبٌ فإنَّها ... كانت تَنَالُ العِزَّ من عَزَازِها
وحلبٌ تنفي كُمُشْتِكينها ... كما انتفت بغدادُ من قَيْمازِها[2]

(١) بأبراوازها: كذا بالأصل، ولعل المقصود: كسرى أبرويز ملك الفرس الذي كتب إليه رسول الله ﷺ.

(٢) كمشتكينها: المقصود سعد الدين كمشتكين الخادم صاحب قلعة الموصل. وقيمازها: المقصود قطب الدين قايماز، وكان قايماز محكّماً في الدولة الإمامية من أول الأيام المستنجدية، وقوي في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين بن رئيس الرؤساء، =

Marfat.com

بَرَزْت في نصر الهدى بحجَّةٍ وضوحُ نهج الحقِّ في إبرازها
كم حاملٍ للرُّمْح عاد مبدياً عَجْزَ عجوز الحيِّ عن عكَّازها
ارفَعْ حظوظي من حضيض نقصها وعدْ عَنْ همَّازِها لَمَّازِها
والشُّغْرُ لا بُدَّ لهُ من باعثٍ كحاجة الخَيْلِ إلى مِهْمازِها

قال: وأغار عسكر حلب على عسكرنا في مدَّة مقامنا على عَزاز، فأخذوا على غِرَّة وغفلة ما تعجَّلوه، وعادوا، فركب أصحابنا في طلبهم، فما أدركوا إلا فارساً واحداً، فأمر السلطان بقطع يده بحكم حَرْدِه[1] فقلت للمأمور، وذلك بِمسْمَع من السُّلْطان: تمهَّل ساعة لعله يقبل مني شفاعة، ثم قلت: هذا لا يحِلُّ، وقدرُك بلْ دينُك عن هذا يجِلّ. وما زلت أكرِّر عليه الحديث حتى تبسَّم، وعادت عاطفته ورحم، وأمر بحبسه، وسرَّني سلامة نفسه. ودخل ناصر الدِّين بن أسد الدِّين، وقال: ما هذا الفشل والوَنَى، وإن سكتُّم أنتم فما أسكت أنا. ودمدم وزمجر، وغضب وزأر، وقال: لِمَ لا يُقْتلُ هذا الرجل ولماذا اعتقل! فوعظه السُّلْطان واستعطفه، وسكَّن غَيْظه وتعطَّفه، وتلا عليه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] وأُطلق سراحه، وتمَّ في نجاته نجاحُه.

فصل

في وثوب الحشيشيَّة على السُّلْطان مرَّة ثانية على عَزاز، وكانت الأولى على حلب

قال العماد: وفي حادي عشر ذي القَعْدَة قفز الحشيشية على السّلْطان ليلة الأحد وهو نازلٌ على عَزَاز، وكان للأمير جاولي الأسدي خيمة قريبةٌ من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات، وحضِّ الرجال، والحثِّ على القتال. وهو بارٌ ببثِّ أياديه، قارٌّ على الدَّهر بكفِّ عواديه، والحشيشيّة في زِيِّ الأجناد وقُوف، والرجال عنده صفوف،

= وسامه أنواع البلاء، وأخافه، ورام إتلافه. ثم إن قايماز خالف الخليفة وشق العصا، وعنّ له حصار الدار، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فلم ينج لما أحيط بداره، إلا بفتح باب في جداره، وانهزم فوصل إلى الحلّة سنة سبعين فجمع رجاله وتوجّه إلى الموصل، وخانه إخوانه وخذله أصحابه، فتوفي في بعض قرى الموصل (انظر خبره قبل صفحات من هذا الجزء).

(١) الحرد: الغيظ والغضب.

إذ قَفَزَ واحدٌ منهم فضرب رأسه بسكّينه، فعاقَتْه صفائح الحديد المدفونة في كمته عن تمكينه، ولفحت المدية خدَّه فخدشته. فقوَّى السُّلْطان قلبه، وحاش رأس الحشيشي إليه وجذبه، ووقع عليه وركبه وأدركه سيف الدين يازكوج[1] فأخذ حُشاشة الحشيشي وبضّعه، وقطَّعه، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه، وجرحه الحشيشي في جنبه، فمات بعد أيام. وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس، وضمَّه من تحت إبطيه، وبقيت يَدُ الحشيشي من ورائه لا يتمكن من الضَّرْب، ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب، فنادى: اقتلوني معه فقد قتلني، وأذهب قوَّتي وأذهلني، فطعنه ناصر الدين بن شِيركُوه بسيفه. وخرج آخر من الخيمة منهزماً، وعلى الفتك بمن يعارضه مُقْدِماً، فثار عليه أهل السُّوق فقطعوه.

وأما السُّلْطان فإنه ركب وجاء إلى سُرَادقه وقد خرعه الحادث، وقرعه الكارث، وصوتُه جَهْوريّ، وزئيره قَسْوريّ، ودم خده سائل، وعِطْف روعه مائل، وطوق كَزَاغُنْده بتلك الضَّرْبة مفكوك، ونهج سلامته مسلوك. وكان سلا سلامتَهُ، وأقام القوم قيامته، ومن بعد ذلك رعب ورهب، واحترز واحتجب، وضرب حول سُرَادقه على مثال خشب الخَرْكاة[2] تأزيراً، ووثَّقه تحجيراً، وجلس في بيتِ الخشب، وبرز للنَّاس كالمحتجب، وما صرَّف إلا من عرفه، ومن لم يعرفه صَرَفه، وإذا ركب وأبصر مَنْ لا يعرفه في موكبه أبعده ثم سأل عنه، فإن كان مُسْتَسْعفاً أو مُسْتَسْعِداً أسعفه وأسعده.

ومن كتابِ فاضلي إلى العادل: السَّلامة شاملة، والرَّاحة بحمد الله للجسم الشريف النَّاصري حاصلة، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدشٌ قَطَرَتْ منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها. والرُّكوب على رسمه، والحصار لأعزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً، ولا ما يشغل سراً.

وقال ابنُ أبي طيّ: لما فتح السُّلْطان حِصْن بُزَاعا ومَنْبِج أيقَن مَنْ بحلب بخروج ما في أيديهم من المعاقل والقلاع، فعادوا إلى عادتهم في نصب الحبائل للسُّلْطان. فكاتبُوا سِناناً صاحب الحشيشية مرَّة ثانية، ورغَّبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على إنفاذ من يَفْتك بالسلطان. فأرسل ـ لعنه الله ـ جماعةً من أصحابه،

---

(١) ولاه صلاح الدين قلعة حلب سنة ٥٧٩هـ، وتوفي بمصر سابع عشر ربيع الآخر سنة ٥٩٩هـ. (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

(٢) الخركاه: بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد (صبح الأعشى ٢/١٤٦).

Marfat.com

فجاؤوا بزِيِّ الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة، وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلّهم يجدون فُرْصة ينتهزونها. فبينما السلطان يوماً جالس في خيمة جاولي، والحرب قائمة، والسلطان مشغولٌ بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محترزاً خائفاً من الحشيشية، لا ينزع الزَّرَدِيَّة[1] عن بدنه، ولا صفائح الحديد عن رأسه، فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد. وأحسَّ الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فسَبح يده بالسكينة إلى خَدِّ السلطان، فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فَتَعْتَعَ السُّلْطان لذلك.

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه حتى وضعه على الأرض وركبه لينحره. وكان مَنْ حولَ السلطان قد أدركتهم دهشة أخذت بعقولهم.

وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج ـ وقيل: إنه كان حاضراً ـ فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله. وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير منكلان الكُرْدي[2] وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى منكلان فجرحه في جبهته، وقتله منكلان، ومات منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس، فهجم على الباطني ودخل الباطني فيه ليضربه، فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكّن من ضربه، فصاح علي: اقتلوه واقتلوني معه. فجاء ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، فطعن بطن الباطني بسيفه، وما زال يُخَضْخِضُهُ فيه حتى سقط ميتاً ونجا ابن أبي الفوارس، وخرج آخر من الحشيشية منهزماً، فلقيه الأمير شهاب الدين محمود؛ خال السلطان، فتنكبَ الباطني عن طريق شهاب الدين، فقصَده أصحابه، وقطعوه بالسُّيوف.

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سُرَادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه مثال الخَرْكاة[3]، ونصب له في وسط سُرَادقه برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلا مَنْ يعرفه، وبَطَلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السُّلْطان.

واضطرب العسكر، وخاف النَّاس بعضهم من بعض، فألجأت الحال إلى

---

(١) الزرديّة: نوع من الدروع.
(٢) تقدم قبل قليل في رواية العماد أن الذي اعترضه الأمير داود بن منكلان.
(٣) الخركاه: تقدم التعريف بها قبل قليل.

Marfat.com

ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته، وأخذ في قتال عَزَاز فقاتلها مدّة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها وسألوا الأمان، فتسلَّمها حادي عشر ذي الحِجَّة، وصَعِدَ إليها وأصلح ما تهدَّم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر.

وكانت عَزَاز أولاً للجُفينة غلام نور الدين، فلما ملك السُّلْطان مَنْبج أخذها منه الملك الصَّالح وقوَّاها لعله يحفظها من الملك الناصر، فلم يبلغ ذلك.

[نزول السلطان على حلب]

ولما فرغ السلطان من أمر عَزَاز حقد على مَنْ بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشيّة، فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذي الحِجَّة، وضربت خيمته على رأس الياروقية فوق جبل جَوشَن وجبى أموالها، وأقطع ضياعها، وضيَّق على أهلها، ولم يفسح لعسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد.

وكان سعد الدين كُمُشْتِكِين في حارِم، وكانت إقطاعه في يد نوابه، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائِبها.

وكان سببُ خروجه إليها أن السُّلْطان لما نزل على عَزَاز خاف كُمُشْتِكِين أن ينتقل منها إلى حارِم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كُمُشْتِكِين على كونه خارجاً في حارِم، وخاف أن يجري بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صُلْح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم. فراسل السلطان يتلطَّف معه الحال ويقول: لو فُسِحَ لي في الدُّخول إلى حلب لسارعتُ في الخدمة، وأصلحتُ الأمر على ما يرومه السلطان. وراسل أيضاً الملك الصَّالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلتُ خارجاً وقد بلغتني أمورٌ ولا بدّ من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصَّيرورة إليكم، فإن الذي قد حصل عندي لا يمكنني الكلام فيه. فراسل الملك الصَّالحُ السلطانَ في الإذن له في الدخول إلى حلب، فأذن له؛ وطلبوا الرَّهائن منه، فنفَّذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبي المضاء الخطيب[1] والعماد كاتب الإنشاء، وأنفذوا من حلب إلى السلطان رهينةً نصرة الدين بن زَنكي.

---

(١) هو محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء، أصله من بعلبك، ونشأ بمصر، وقرأ الأدب، وعاد إلى دمشق، فسمع بها من ابن عساكر، ورحل إلى بغداد، وسمع بها، وقرأ الفقه والأدب، ثم عاد إلى مصر، واتصل بالسلطان صلاح الدين، وتوفي في ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر سنة ٥٧١هـ (الوافي بالوفيات ٤/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٤٣).

Marfat.com

وحكى العماد الكاتب قال: لما حصلنا داخل حلب أُخذنا برأي العدل ابن العجمي وجُعِلْنا في بيت، ومنع منا غِلْماننا، ولم يُحضر لنا طعامٌ ولا مِصْباح، وبِتْنا في أنكد عيش.

وفي تلك الليلة دخل كُمُشْتِكِين إلى حلب، فلما أصبحوا أُحضرتُ أنا وابنُ أبي المضاء إلى مجلس الملك الصَّالح، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود وجماعة من أرباب الدولة، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمي، فأخذ يتحدث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويُضْرِبُ صفحاً عني، ويوهم الجماعة أني وأني: [السريع]

وما درى الغُمْرُ بأني امرؤ ... أُميِّزُ التِّبْرَ من التُّرْبِ
قد عارك الأهوالَ حتى غدا ... بين الوَرَى كالصَّارِم العَضْبِ
قد راضَه الدَّهر فلَو أمَّهُ ... بخطبهِ ما رِيعَ للخَطْبِ

قال: وعُرضت نسخة اليمين علينا، وصُرفنا، ولم يُلتفت إلينا.

فلما صارا إلى السلطان، وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلةً عليه حتى دخل كُمُشْتِكِين إلى حلب، فأطلق نُصْرَة الدين وقاتل أهل حلب.

ولم يزل منازلاً لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، ثم كان ما سيأتي ذكره.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة ودخول قَراقُوش إلى المغرب

قال العماد: وفي سابع شوَّال وصل أخو السُّلْطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق.

وذكر ابنُ شَدَّاد أنه قَدِمَ في ذي الحِجَّة.

قلت: ولما سمع السلطان بقُدومه أرسل إليه بالمثال الفاضلي كتاباً أوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٩٠]. وقال في آخره: ولقد أحسن عدنان المبشر، إذ طلع علينا طلوعَ الفجر قبل شمسه، وغَرَسَ في القلوب ما يسرُّنا ويسره جنى غَرْسه.

قال ابن أبي طيّ: كان سببُ خروجه من اليمن كراهية البلاد، والشَّوْق إلى أخيه الملك النَّاصر، وأن يُرِيَ ملوكَ الشَّام وغيرها وأمراء العساكر ما أنعم الله به عليه من النِّعم والأموال.

Marfat.com

قال: وحُكي أنَّه لما تحدَّث النَّاس بخروج شمس الدّولة من اليمن كان باليمن رجلٌ يقال له عَبَّاس، وكان صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر، وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمسَ الدولة سائرٌ إلى أخيه الملك النَّاصر إلى الشَّام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن؛ فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الإتاوة والرشوة يبقَ لكم. واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضراء يحاصِرُه.

فلما وقف شمسُ الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خَطُّك وعلامتك؟ قال: كأنه هو. قال: فبأي شيء استحققت منك هذا وقد قرَّبت منزلتك، وأبقيتُ عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل إقليمك. وأراه الكتاب. فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه، ولا يعرفه، ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره. فلم يصدِّقه شمس الدولة، وأمر به فقتل صبراً بين يديه. فهاب شمسَ الدولة ملوكُ اليمن، وحملوا إليه الأموال، وحلفوا له على الطاعة.

ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة، وتوجَّه إلى الشام، واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ[1]، وعثمان بن علي الزَّنجيلي[2] على عدن، وتوجَّه إلى حَضْرَمَوْت ففتحها، واستناب عنه بها رجلاً كردياً يسمى هارون، وكان مقامه بِشبام، واستمرَّ الكُرْدي بها مدَّة.

ثم إنَّ صاحب حضرموت تحرَّك وجمع، فقتل، وعاث هارون في تلك البلاد واستقام أمره. وولّى شمسُ الدولة ثغر تَعِز مملوكه ياقوت، وجعل إليه أمر الجند، وولّى قلعة تَعْكُر مملوكه قايماز.

قال: وكان وصول شمس الدّولة إلى السُّلْطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظَّفر، وأعطاه السلطان سُرَادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق

---

(١) هو ابن عم أسامة بن منقذ الشاعر المشهور، ولد سنة ٥٢٦هـ، بقلعة شيزر، وتوفي سنة ٥٨٩هـ، وهي سنة وفاة السلطان صلاح الدين (وفيات الأعيان ٤/ ١٤٤ ـ ١٤٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٨٩).

(٢) هو أبو عمرو عثمان بن علي، عز الدين الزنجيلي، توفي في دمشق بعد سنة ٥٩٠هـ، وفي الدارس في تاريخ المدارس: هرب من اليمن إلى دمشق وسكن فيها إلى أن توفي سنة ٥٨٣هـ (العقد الثمين ٦/ ٣٤ ـ ٣٥، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص١٩٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٢٦).

Marfat.com

وأعمالها والشام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السُّلْطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم.

[مقتل صديق بن جولة صاحب بصرى وصرخد]

قال: وفيها قُتِلَ صدِّيق بن جَوْلة صاحب بُصرى وصَرْخد قَتله ابنُ أخيه، وملك بعده بُصْرى وصَرْخد شهوراً، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان، وحلف له على ما يريده من إقطاع، واقترح شمس الدولة أن يكتب هو ما يريده ليحلف عليه، فأنفذ من بُصْرى نسخة يمين كتبها قاضي بُصْرى، وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرُّف في القول، فلم يستَقْصِ فيها وجوه التَّأويل. فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأوَّل عليه شمس الدولة في اليمين وقبضه، ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أن قتله.

[عصيان الأمير غرس الدين بتل خالد]

قال: وفيها عصى الأمير غرس الدين قليج بتل خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كُمُشْتِكِين، فأنهَدَ إليه من حَلَب عسكراً فحاصروه أياماً، وسَلَّم الحِصْن، وصَلُحت حاله.

قال: ولما ملك شمس الدولة اليمن سَمَتْ نَفْسُ ابن أخيه تقيُ الدِّين إلى المُلك، وجعل يرتاد مكاناً يحتوي عليه، فأُخبر أنَّ قلعة ازبري هي فم درب المغرب، وكانت خراباً فأشير عليه بعمارتها، وقيل له: متى عُمرت وسكنها أجنادٌ أقوياء شجعان مُلِكَت بَرْقة، وإذا مُلكت بَرقة مُلك ما وراءها. فأنفذ مملوكه بهاء الدِّين قَرَاقُوش، وقدَّمه على جماعةٍ من أجناده ومماليكه، فصاروا إلى القلعة المذكورة، وشرعوا في عمارتها.

[دخول قراقوش إلى المغرب]

واجتمع بقراقوش رجلٌ من المغرب فحدَّثه عن بلاد الجريد وفَزَّان، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغَّبه في الدُّخول إليها، فأخذ جماعة من أصحابه، وسار في حادي عشر المحرَّم من هذه السنة، فكان يكمن النَّهار ويسير الليل مدَّة خمسة أيام، وأشرف على مدينة أَوْجَلة، فلقيه صاحبها، وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به، ويزوِّجه بنته، ويحفظ البلاد من العرب، وله ثُلُث ارتفاعها، ففعل قَراقُوش ذلك، فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف لنفسه، وفرَّق على رجاله عشرين ألفاً.

وكان إلى جانب أَوْجَلَة مدينة يقال لها الأزراقية، فبلغ أهلها صنيع قَرَاقُوش

في أَوْجَلَة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه، ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه، ورغَّبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم. فأجاب إلى ذلك، واستخلف على أَوْجَلَة رجلاً من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من أصحابه، فحصل لِقَراقُوش أموال كثيرة.

واتفق أنَّ صاحب أَوْجَلَة مات، فقتل أهلُ أَوْجَلَة أصحابَ قَرَاقُوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عَنْوَةً، وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمةً عظيمة، واستولى على البلد.

ثم إنَّ أصحابه رغبوا في الرُّجوع إلى مصر، وخشي قَرَاقُوش أن يقيم وحدَه فرجع معهم. فلما حصل بمصر طاب له المقام وثَقُلَ عليه العَوْد، وزوَّجه تقي الدين بإحدى جواريه. وكان استناب بأَوْجَلَة، وقال لأهلها: أنا أمضي إلى مصر لتجديد رجال، وأعود إليكم.

[وزارة أبي الحسن علي بن جمال الدين لصاحب الموصل]

قال ابن الأثير[1]: وفي ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين استوزر سيف الدين صاحبُ الموصل جلالَ الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير ـ رحمهما الله تعالى ـ ومكَّنه في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يظُنَّها النَّاس، وبدا منه معرفةٌ بقواعد الدول وأوضاع الدواوين، وتقرير الأمور، والاطِّلاع على دقائق الحسبانات، والعلم بصناعة الكتابة الحسابية والإنشاء حَيَّرت العقول، ووضع في كتابة الإنشاء وضعاً لم يعرفوه.

وكان عمره حين ولي الوزارة خمساً وعشرين سنة، ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمِد ـ وكان قد زوَّجه بنته ـ فأُطلق وسار إليه، وبقي بآمِد يسيراً مريضاً، ثم فارقها، وتُوفي بدُنَيْسَر سنة أربع وسبعين، وحُمل إلى الموصل فدفن بها، ثُمّ حمل منها في موسم الحج إلى المدينة، ودُفِنَ عند والده. وكان من أحسن النَّاس صورةً ومعنًى، رحمه الله تعالى.

قال[2]: ثم إن سيف الدين استناب دُزْدَاراً بقَلْعَة الموصل الأمير مجاهد الدين قايماز في ذي الحِجَّة سنة إحدى وسبعين، وردَّ إليه أزمَّة الأُمور في الحَلِّ والعَقْد، والرفع والخفض، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إرْبِل وأعمالها، ومعه فيها ولدٌ

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٧٨.
(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٧٨.

Marfat.com

صغير لزين الدِّين علي، لقبه أيضاً زين الدِّين، فكان البلد لولد زين الدِّين اسماً لا معنى تحته، وهو لمجاهد الدِّين صورة ومعنًى.

قلت: وفي حادي عشر رجب توفى حافظ الشَّام أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر صاحب التاريخ الدِّمشقي[1]. رحمه الله تعالى، وحضر السُّلْطان صلاح الدِّين جِنازته، ودفن في مقابر باب الصَّغير.

وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السَّلام بن يوسف بن محمد بن مُقلَّد

---

(١) ابن عساكر: هو علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، الحافظ ثقة الدين، أبو القاسم الدمشقي الشافعي، المعروف بابن عساكر، ولد في محرم سنة ٤٩٩هـ. وتوفي في رجب من سنة ٥٧١هـ، له من التصانيف: «إتحاف الزائر»، «الاجتهاد في إقامة فرض الجهاد»، «أربعين البلدان»، «أربعون حديثاً من أربعين شيخاً من أربعين مدينة»، «الأربعون الطوال»، «أربعين المساواة»، «أربعين المصافحات»، «الأحاديث الخماسيات وأخبار ابن أبي الدنيا»، «الأحاديث المتخيرة في فضائل العشرة»، «أخبار أبي عمرو الأوزاعي»، «الإشراف على معرفة الأطراف» في الحديث، «أمالي في الحديث»، «التاريخ الكبير لدمشق» مشهور، «تاريخ المزة»، «التالي لحديث ملك العالي»، «تبيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط»، «تبيين الأمتان بالأمر بالختان»، «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي موسى الأشعري»، «ثواب الصبر على المصاب بالولد»، «جزء حديث الهبوط وجزء كفرسوسة»، «الزهادة في بذل الشهادة»، «سباعيات في الحديث»، «عوالي شعبة»، «عوالي الثوري»، «عوالي مالك»، «غرائب مالك»، «فضل أصحاب الحديث»، «فضل الجمرتين»، «فضل الربوة»، «فضل عاشوراء»، «فضل عسقلان»، «فضل مقام إبراهيم»، «القول في جملة الأسانيد في حديث المؤيد»، «كتاب الاعتزاز بالهجرة»، «كتاب السداسيات»، «كتاب المسلسلات»، «كتاب المعجم لمن سمع منه وأجاز له»، «فضل الكرم على أهل الحرم»، «فضائل الصديق»، «كتاب الأبدال»، «كتاب العزلة»، «كتاب المغطى في فضل الموطأ»، «مسند أبي حنيفة»، «مسند أهل داريا»، «مسند مكحول»، «المصاب بالوالدان»، «معجم الصحابة»، «معجم النسوان»، «مناقب الشبان»، «من وافقت كنيته كنية زوجته»، «الموافقات على الأئمة الثلاث الثقات» في الحديث، «تشريف يوم الجمعة»، «تقوية المنة على إنشاء دار السنة»، «الاقتداء بالصادق في حفر الخندق»، «تكميل الإنصاف والعدل بتعجيل الإسعاف بالعزل»، «تهذيب الملتمس من عوالي مالك بن أنس»، «رفع التخليط عن حديث الأطيط»، «ذكر البيان من فضل كتابة القرآن»، «دفع التثريب على من فسر معنى التثويب»، «حلول المحنة بحصول الابنة»، «الجواهر واللآلي في الأبدال العوالي»، «الجواب المبسوط لمن ذكر حديث الهبوط»، «مسلسل العيدين»، «المستفيد في الأحاديث السباعية الأسانيد»، «مجموع الرغائب مما وقع من حديث مالك الغرائب»، «معجم أسماء القرى والأمصار»، «معجم الشيوخ والنبلاء»، «معنى قول عثمان: ما تعنيت وما تمنيت»، «المقالة الفاضحة للرسالة الواضحة»، «من لا يكون مؤتمناً لا يكون مؤذناً، وغير ذلك كشف الظنون ٥/ ٧٠١ ـ ٧٠٢).

الدمشقي الأصل، البغدادي المولد، التّنوخي الجُماهِري[١] الصُّوفي ابن الصّوفي، ذكره العماد في «الخريدة» وقال: كان صديقي، وجلس للوعظ، وحضر عنده صلاح الدِّين وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد.

وذكر العماد من أشعاره مقطَّعات، منها في الحقائق، وأنشدها في مجلسه[٢]: [البسيط]

يا مالكاً مُهْجتي يا مُنْتهى أمَلي ... يا حاضراً شاهداً في القَلْب والفِكَرِ
خَلَقْتني من تُرَابٍ أنتَ خالِقُهُ ... حتى إذا صرتُ تمثالاً من الصُّوَرِ
أجريتَ في قالبي رُوحاً منوَّرَةً ... تَمُرُّ فيه كَجَري الماء في الشَّجرِ
جمَعْتَ بين صَفَا رُوحٍ منورَةٍ ... وهيكلٍ صُغْتَهُ من مَعْدِنٍ كَدِرِ
إنْ غِبتُ فيك فيا فَخْري ويا شَرَفي ... وإنْ حضرتُ فيا سَمْعي ويا بَصَري
أو احتجبتُ فَسِرِّي منك في وَلَه ... وإنْ خَطَرْتُ فقَلبي منك في خَطَرِ
تبدو فتمحُو رسُومي ثم تثبتُها ... وإنْ تَغَيَّبْتَ عنّي عشتُ بالأثَرِ

[عقد الصلح بين الحلبيين والمواصلة وصلاح الدين، وبذل السلطان عزاز لابنه نور الدين] ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

قال العماد: والسُّلْطان مقيمٌ بظاهر حلب، فعرف أهلُها أنَّ العُقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة. فدخلوا من باب التذلُّل، ولاذوا بالتوسُّل، وخاطبوا في التَّفضُّل، وطلبوا الصُّلح، فأجابهم، وعفا وعفّ، وكفى وكفّ، وأبقى للملك الصَّالح حلب وأعمالها، واستقرى كل عثرة لهم وأقالها؛ وأراد له الإعزاز، فرد عليه عَزَاز.

---

(١) هو عبد السلام بن يوسف بن محمد، أبو الفتوح الدمشقي، المتوفى سنة ٥٨١هـ، من تصانيفه: «أنموذج الزمان في شعراء الأعيان»، «ديوان الخطب». (كشف الظنون ٥/ ٥٧١).
والجماهري: بضم الجيم وتخفيف الميم نسبة إلى جماهر بن الأشعر، من القحطانية، من نسله الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري. وفي كشف الظنون: الجماهيري وهو تصحيف.
أما والده أبو الحجاج يوسف بن محمد بن مقلد التنوخي الدمشقي الشافعي الصوفي المعروف بالجماهيري (كذا في كشف الظنون) المتوفى سنة ٥٥٨هـ. صنّف «الارتجال في أسماء الرجال» في التاريخ والتراجم، «مجموعة المسائل» (كشف الظنون ٦/ ٥٥٢، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧، تاج العروس (جمهر)، النجوم الزاهرة ٦/ ٩٩).

(٢) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق المجلد الأول، الجزء الثالث ص٣١٥ ـ ٣١٦.

Marfat.com

وقال ابنُ شدَّاد: أخرجوا إليه ابنةً لنور الدين صغيرة سألت منه عَزَاز، فوهبها إياها.

قال ابن أبي طيّ: لما تَمَّ الصُّلْح، وانعقدت الأيمان، عوَّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عَزَاز منه، فأشار الأمراء عليه بإنفاذ أخته ـ وكانت صغيرة ـ فأُخرجت إليه، فأكرمها السُّلْطان إكراماً عظيماً، وقدَّم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عَزَاز، وجميع ما فيها من مالٍ وسلاح وميرة وغير ذلك.

وقال غيره: بعث الملك الصَّالح أُخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل فدخلت عليه، فقام قائماً، وقبَّل الأرض، وبكى على نور الدين، فسألت أن يردَّ عليهم أعزاز فقال: سمعاً وطاعة. فأعطاها إياها، وقدَّم لها من الجواهر والتُّحَف والمال شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصَّالح أنّ له من حماة وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الدَّاية.

قال العماد: وحلفوا له على كلِّ ما شرطه، واعتذروا عن كل ما أسخطه، وكان الصُّلح عامّاً وللمَواصلة وأهل ديار بكر. وكُتب في نسخة اليمين أنه إذا غدر منهم واحدٌ وخالف، ولم يَفِ بما عليه حالف، كان الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمةً متعاقدة، حتّى يفيءَ إلى الوفاء والوفاق، ويرجع إلى مرافقة الرفاق.

[محاصرة صلاح الدين لحصْن مصياث]

فلما انتظم الصُّلْح ذكر السُّلْطان ثأره عند الإسماعيلية، وكيف قصدوه بتلك البليّة، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرَّم، فحصر حصنهم مصياث، ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوْسعهم قتلاً وأسراً، وساق أبْقارهم، وخرَّب ديارهم، وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم، حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم، وقد انتقم منهم[1].

[إغارة الفرنج على البقاع وهزيمتهم]

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع، فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدَّم، وهو متولّي بَعْلَبكّ ومقْطَع أعمالها، ومُدَبِّر أحوالها، والمتحكّم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨١: ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيلية.

Marfat.com

مائتي أسير، وأحضرهم عند السُّلْطان وهو على حصار مصياث، فجدَّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث[١].

قال ابن أبي طيّ: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الإسماعيلية، لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى، وهو بعيدٌ عنه، فَرُبَّما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سِناناً وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج؛ ووقع من أصحابه عِدّة في الإِسار، منهم سيف الدين أبو بكر بن السَّلَّار.

[اجتماع السلطان بأخيه تورانشاه في حماة]

ووصل السُّلْطان إلى حماة وقد استكمل الظَّفَر، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر؛ وتعانق الأخوان في المخيّم بالميدان، وتحدَّثا في الحدثان، وروعات الفراق، ولوعات الأشواق.

وكان قد وصل إلى السُّلْطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمَّنه أبياتاً أظنها من شعر ابن المنجِّم المِصْري[٢]، أولها: [الكامل]

الشَّوْقُ أَوْلَعُ بالقُلُوبِ وأوْجَعُ ... فَعَلامَ أَدْفَعُ منه ما لا يُدْفَعُ
وَحَمَلْتُ منْ وَجْدِ الأَحِبَّة مُفْرداً ... ما ليس تحملُه الأَحِبَّة أَجْمَعُ
لا يَستقرُّ بيَ النَّوى في موضعٍ ... إلا تقاضاني التَّرحُّلَ مَوْضِعُ
فإلى صلاح الدِّين أشكو أنني ... مِن بُعده مُضْنَى الجوانح مُوجَعُ
جَزِعاً لِبُعْدِ الدَّار منه ولم أكن ... لولا هواه لِبُعْدِ دارٍ أَجْزَعُ
فلأركبنَّ إليه مَتْنَ عَزائمي ... ويَخُبُّ بي رَكْبُ الغَرام ويُوضِعُ
حتى أشاهِدَ منه أسعدَ طَلْعَةٍ ... من أُفْقها صُبْحُ السَّعادةِ يَطْلُعُ

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨١ ـ ٨٢: ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين.
(٢) ابن المنجم المصري: هونشو الدولة، أبو الحسن علي بن مفرج المنجم (وعند ابن خلكان في وفيات الأعيان: نشو الملك). شاعر مصري الأصل، مصري الولادة والوفاة. من طبقة ابن الذروي وابن قلاقس، ولد سنة ٥٤٩هـ، وتوفي سنة ٦٣٠هـ. (انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٦٨ ـ ١٦٩، حسن المحاضرة ١/ ٢٢٦، وفيات الأعيان ١/ ١٩٧).

Marfat.com

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رَوِيِّها ووزنها، فقلت، فذكر قصيدةً، منها: [الكامل]

مولاي شمسَ الدَّوْلَةِ الملك الذي ... شَمْسُ السِّيادَةِ من سَنَاه تَطْلُعُ
ما لي سِواك من الحوادث ملجأٌ ... ما لي سِواك من النَّوائِبِ مَفْزَعُ
ولأَنْت فَخْرُ الدين فخري في العُلا ... وملاذُ آمالي ورُكني الأَمْنَع
إلا بخدمتِك المُجِلَّة موقعي ... والله ما للملك عنديَ مَوْقَعُ
وبغَير قُرْبِكَ كلُّ ما أرجوه من ... ذَرْكِ المُنى متعذِّرٌ متمنِّعُ
النَّصْرُ إن أقبلتَ نحويَ مُقْبِلٌ ... واليُمْنُ إنْ أسرعتَ نحويَ مُسْرِعُ

قال: ثم سرنا إلى دمشق، ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوَّض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظَّم شمس الدولة، وعزم إلى مِصْر السَّفر.

فصل

في ذكر جماعةٍ من الأعيان تجدَّد لهم ما اقتضى ذكرُهُ في هذه السنة

[وفاة كمال الدين بن الشهرزوري وتعيين ابن أخيه ضياء الدين الشهرزوري]

قال العماد: في السَّادس من المحرَّم توفي بدمشق القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري[1]، وعمره ثمانون سنة، لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. وكان في الأيام النُّورية بدمشق هو الحاكم المتحكِّم، وصلاح الدين إذا ذاك يتولى الشُّحْنكية بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوخِّيه الأحكام الشرعيّة، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قَبُوله إعراضَه، ويقصد في كل ما يعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه، إلى أنْ نقله الله سبحانه من نيابة الشُّحْنكية

(١) هو القاضي كمال الدين، أبو الفضل، محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، قاضي دمشق، وجميع الشام، وإليه الوقوف بها، وكان جواداً فاضلاً، رئيساً ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول (انظر ترجمته في: الكامل في التاريخ ١٠/ ٨٤، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٧، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ٢٦٨، مرآة الزمان ٨/ ٢١٥ ـ ٢١٦، وفيات الأعيان ٤/ ٢٤١ ـ ٢٤٤، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٧ ـ ٦٠، الوافي بالوفيات ٣/ ٣٣١ ـ ٣٣٢، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١١٧ ـ ١٢١، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٩٩ ـ ١٠٠).

Marfat.com

إلى المُلك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السِّلْك، وكان في قلبه منه ما فيه، وما فَرَطَ منه فات وقت تلافيه. فلما ملك دمشق أجْرَاه على حكمه، ولم يؤاخِذه بجُرمه، واحترم نوَّابه، وأكرم أصحابه، وفتح للشَّرْع بابه، وخاطبه واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه، ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه.

وكان ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشَّهْرُزُوري[1] قد هاجر إلى صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك إرادته بإدارة فلكه، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذَّهب، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب، ووفَّر حظه من الذَّهب، وملَّكه داراً بالقاهرة نفيسةً جميلة، جليَّةً جليلة، ورتَّب له وظائف، وخصَّه بلطائف، ووصل مع صلاح الدين إلى الشَّام، وأمْرُه جارٍ على النِّظام.

ولما اشتدَّ بكمال الدين المرض، وكاد يفارق جَوْهَرَه العَرَض، أراد أن يبقي القضاء في ذويه، فوصَّى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه، علماً منه بأن السلطان يُمضي حُكمه لأجل سوالفه، ويجعلُه عنده من عوائد عوارفه. ومات ولم يخلف مثله، ومن شاهده شاهد العَقْل والفَضْل كُلَّه، بارّاً بالأبرار، مختاراً للأخيار، مكرماً للكرام، ماضياً في الأحكام. وقد قوَّاه نور الدين رحمه الله تعالى، وولده في أيامه، وسدَّد مرامي مرامه.

وهو الذي سن دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان، فلا يبقى عليه مغمزٌ ولا ملمز لذوي الشنآن، وهو الذي تولى له بناء أسوار دمشق، ومدارسها، والبيمارَسْتان، فاستمرَّت عادته واستقرَّت قاعدته في دولة السلطان. وتوفي ونحن بحلب محاصرون.

وذكر العماد في «الخريدة» لابنه محيي الدين[2] قصيدةً في مرثيته، منها[3]: [الطويل]

أَلِمُّوا بِسَفْحَيْ قاسيون فَسَلِّموا ... على جَدَثٍ بادي السَّنا وترحَّموا
وبالرَّغم منِّي أن أناجيه بالمُنى ... وأسأل مَعْ بُعْد المدى من يُسَلِّمُ
لقد عَدِمَتْ منك البَرِيَّةُ والداً ... أَحَنُّ من الأمِّ الرَّؤوف وأَرْحَمُ
ولا سيَّما إخوانُ صِدْقٍ بِجلِّقٍ ... هُمُ في سماء المَجْدِ والجُودِ أَنْجُمُ

---

(١) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم، ضياء الدين الشهرزوري، ولد ضياء الدين سنة ٥٣٤هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).
(٢) سترد ترجمة وافية له في الجزء الرابع.
(٣) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٣٦ ـ ٣٣٩.

Marfat.com

نَشَرْتَ لواءَ العَدْلِ فوقَ رؤوسهم فما كان فيهم من يُضَامُ ويُظْلَمُ
لَقِيتَ من الرّحمن عفواً ورحمةً كما كنتَ تعفو ما حَيِيتَ وتَرْحَمُ

قال العماد: وجلس ابنُ أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن إحسانه، وأبقى نُواب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه.

وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السُّلْطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الإِحسان، وهو شيخ مذهب الشَّافعي رضي الله عنه، والأقوم بالفُتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدِّين والدُّنيا، والسلطان يؤثر أن يفوّض إليه منصب القضاء، ولا يرى عَزْل الضِّياء، فأفضى بسرّ مراده إلى الأجل الفاضل، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصَّب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل، وأُشير عليه بالاستعفاء، ففعل، فأعفي، وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الأملاك.

قال العماد: وأول ما اشتريت منه بوكالة السُّلْطان الأرضَ التي ببستان بقر الوحش التي بنيتُ فيها المواضع من الحمَّام والدُّور والاصطبل والخان، وكنتُ قد احتكرتها في الأيام النورية، فملكتُها في الأيام الصَّلاحية.

قلت: قد خربت هذه الأماكن في سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار واستمرّ خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصَّفي خارج باب الفرج مارّاً إلى ناحية الميدان(١).

قال: فلما استعفى ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود بن إبراهيم بن عمر بن بلال الشَّافعي، وكان ينوبُ عن كمال الدين، فأمره السّلْطان أن يجري على رسمه، ويتصرف في حُكْمه.

وكان السلطان لإِحياء القضاء في البيت الزَّكوي مؤثراً، ولذكر مناقبه مكثراً، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راج، وبطلب نجاز

---

(١) قال أبو شامة في «الذيل على الروضتين» أحداث سنة ٦٤٣هـ: ثم دخلت سنة ٦٤٣هـ ومدينة دمشق محاصرة، ففي الثامن من المحرم ضويقت مضايقة شديدة وقد اجتمع عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوارزمية وغيرهم، ففي تلك الليلة أحرق قصر الحجاج، والشاغور واستولى الحريق على مساجد وخانات، ودور عظيمة، ومن ذلك مسجد جراح خارج باب الصغير.. ثم نصبت على دمشق المجانيق ورميت به بين بابي الجابية والصغير، ونصبت أيضاً مجانيق داخل البلد وترامى الفريقان، وأمر بتخريب حارة العقيبة خارج باب الفراديس، وباب السلامة، وباب الفرج، وأحرق حكر السماق خارج باب النصر، واشتد الغلاء وعظم البلاء... ثم أحرقت العقيبة في أول ربيع أول.

Marfat.com

عِدَته مُناج، ففوض إليه القضاء والحكم والإنفاذ والإمضاء، على أن يتولى محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكيّ الدين[١]، والأوحد قاضيين في دمشق، يحكمان، وهما عن نيابته يوردان ويصدران، وتوليتهما بتوقيع من السلطان، ولم يزل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون متولّياً للقضاء، منفرداً بالحكم والإمضاء، سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السُّلْطان الملك المعظم فخر الدين.

فلما عُدْنا إلى الشَّام تكلَّم الناس في ذهاب نور بصره، وأنّه لا يقوم في القضاء بورده وصدره، ففوض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد[٢]، كأنه نائب أبيه، ولا يظهر للنَّاس صرفه عما هو متوليه. واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين، ثم صُرف، واستقلَّ به ابن زكي الدين، فأقام في مدّة ولايته للشرع القواعد والقوانين، وفوّض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد إلى أخيه مجد الدين بن الزكي، فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقف اعتبار الأعمال، وتولّاها بعده أخوه محيي الدين على الاستقلال، إلى آخر عهد السلطان وبعده.

قلت: وفي صفر وقف السُّلْطان قرية حزم باللُّوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو يحضر لسماع الدروس بالزّاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزَّاهد نَصْر المقدسي[٣] رحمه الله تعالى، وعلى من هو مدرّسهم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وجعل النظر لقطب الدين النَّيْسابوري رحمه الله[٤]، ورأيتُ كتاب الموقف بذلك على هذه الصُّورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله تعالى: الحمد لله وبه توفيقي.

[وفاة شمس الدين بن أبي المضاء]

قال العماد: وفي ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر، ونحن في طريق

---

(١) هو قاضي دمشق محيي الدين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي، وهو أول من خطب بالبيت المقدس لما فتحه السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ، توفي سنة ٥٩٨هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٨هـ).

(٢) توفي سنة ٦٠١هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٠١هـ).

(٣) نصر المقدسي: هو الحافظ أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود بن أحمد المقدسي، المتوفى سنة ٤٩٠هـ، تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

(٤) قطب الدين النيسابوري: هو مسعود بن محمد بن مسعود الشافعي، المتوفى سنة ٥٠٥هـ، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

Marfat.com

الوصول إلى دمشق، توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء[١] بدمشق، وهو أول خطيب بالدِّيار المِصْرية للدولة العباسية. وكان يتولى الرسالة إلى الديوان العزيز، ويقصده الشعراء ويحضره الكرماء، فيكثر خِلَعهم وجوائزهم، ويبعث على مدحه غرائزهم، فحمل السلطان همه، وقرّب ولده، وجبر بِتربيته يُتْمه.

[تعيين ضياء الدين الشهرزوري رسولاً إلى بغداد]

ثم تعين ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري بعده للرسالة إلى الدِّيوان، وصارت منصباً له ينافس عليه، واستتبت له هذه السفارة إلى آخر العهد السُّلْطاني، وذلك بعد المضي إلى مصر والعود إلى الشَّام، فإنه بعد ذلك خاطب في هذا المرام، فأما في هذه السنة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصُّحبة، وهو متودد إليَّ بصفاء المحبة.

[زواج السلطان صلاح الدين من عصمة الدين بنت أنر]

وفي آخر صفر تزوَّج السلطان بالخاتون المنعوتة عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أُنَر، وكانت في عصمة نور الدين رحمه الله تعالى، فلما توفي أقامت في منزلها بقلعة دمشق، رفيعة القدر، مستقلَّة بأمرها، كثيرة الصَّدقات، والأعمال الصَّالحات. فأراد السُّلْطان حفظ حرمتها، وصيانتها وعصمتها، فأحضر شرف الدين بن أبي عصرون وعُدُوله، وزوَّجه إياها بحضرتهم أخوها لأبيها الأمير سعد الدين مسعود بن أُنَر بإذنها، ودخل بها وبات عندها، وقرن بسعده سعدها؛ وخرج بعد يومين إلى مصر.

[نبذة عن أسامة بن منقذ]

وذكر العماد بعد وفاة ابن الشَّهْرُزُوري وابن أبي المضاء الأمير مؤيد الدولة أبا الحارث أُسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن عليّ بن منقذ، وعوده إلى الشَّام عند علمه بوصول السلطان، فقال: هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء، والكرماء الكبراء، والسَّادة القادة العظماء، وقد متَّعه الله بالعمر وطول البقاء، وهو من المعدودين من شجعان الشَّام، وفرسان الإِسلام.

ولم يزل بنو منقذ ملّاك شَيْزَر، وقد جمعوا السيادة والمفخر، ولما تفرد بالمعقل منهم من تولاه، لم يرد أن يكون معه فيه سواه، فخرجوا منه في سنة أربع

---

(١) هو محمد بن المحسّن بن الحسين بن أبي المضاء، أصله من بعلبك، ونشأ بمصر، وقرأ الأدب، وعاد إلى دمشق، فسمع بها من ابن عساكر، ورحل إلى بغداد، وسمع بها، وقرأ الفقه والأدب، ثم عاد إلى مصر، واتصل بالسلطان صلاح الدين، وتوفي ولم يبلغ الأربعين (الوافي بالوفيات ٤/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٤٣).

Marfat.com

وعشرين وخمسمائة، وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد، وكلهم من الأجواد الأمجاد، وما فيهم إلا ذو فضل وبَذْل، وإحسان وعدل، وما مِنْهم إلا منْ له نظمٌ مطبوع، وشِعْرٌ مصنوع، ومن له قصيدة وله مقطوع.

وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب، وأعرفهم في الأدب، وكانت جَرَتْ له نبوةٌ في أيام الدمشقيين، وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين، في أيام المصريين، فتمت نوبة قتل المنعوت بالظَّافر، وقتل عباسٍ وزيرِهم إخوتَهُ، وإقامة المنعوت بالفائز، وما رَدَف ذلك من الهَزَاهز، فعاد مؤيد الدولة إلى الشَّام، وسار إلى حصْن كَيْفا وتوطَّن. ولما سمع بالملك الصلاحي جاء إلى دمشق، وذلك في سنة سبعين، وقال: [المتقارب]

حمدتُ على طول عُمْري المشيبا ... وإنْ كنتُ أكثرتُ فيه الذنوبا
لأني حَييتُ إلى أن لقِيـ ... ـتُ بعد العدوِّ صديقاً حبيبا

قال: وكنتُ أسمع بفضله وأنا بأصبهان في أيام الشَّبيبة، وأنشدني له مجدُ العرب العامري[1] بأصفهان في سنة خمسٍ وأربعين هذين البيتين، وهما من مبتكرات معانيه، في سنِّ قلعها: [البسيط]

وصاحب لا أَمَلُّ الدَّهْرَ صُحْبَتَهُ ... يشقى لنفعي ويَسْعى سَعْيَ مجتهدِ
لم ألْقَهُ مُذْ تصاحبْنا فحين بدَا ... لِناظريَّ افترقنا فُرْقَة الأَبَدِ

قال: فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه؛ مع كثيرٍ من شعره المبتكر من جنسه.

قلتُ: ومن عجيبِ ما اتفق أني وجدت هذين البَيْتين مع بيتين آخرين، المجموع أربعة أبيات، في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الأطرابلسي[2]، ومات ابن منير سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة. قرأت في ديوانه: وقال في الضِّرْس: [البسيط]

وصاحبٍ لا أَمَلُّ الدَّهْرَ صُحْبَتَهُ ... يسعى لنفعي وأجني ضرَّه بيدي

---

(١) مجد العرب العامري: في كشف الظنون: الغامدي وهو تصحيف، والصحيح العامري: وهو علي بن محمد بن غالب العامري، الشاعر المعروف بمجد العرب، أبو فراس، من كبار شعراء العراق في تلك الفترة، أقام في أصفهان من سنة ٥٣٧هـ، إلى سنة ٥٤٨هـ، توفي بالموصل سنة ٥٧٣هـ. (وفي كشف الظنون توفي سنة ٧٥٠هـ وهو خطأ)، له ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٧٢٠، «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ١٤١ ـ ١٧١، فوات الوفيات ٣/ ٨٧، الوافي بالوفيات ٢٢/ ١٠٩ ـ ١١٠).

(٢) تقدّمت ترجمته في الجزء الأول وفي الجزء الثاني.

Marfat.com

أدنى إلى القلب من سمعي ومن بَصَري ومن تِلادي ومن مالي ومن ولدي
أخلُو بِبَثِّيَ من خالٍ بوجنته مِداده زائِدُ التقصير للمَدَد

ثم قال:

لم ألقه مُذْ تصاحبنا... البيت

فالأشبه أنَّ ابن منير أخذهما وزاد عليهما ولهذا غَيَّر فيهما كلمات. وقد وجدت هذا البيت الأوّل على صورةٍ أخرى حسنة: [البسيط]

وصاحبٍ ناصح لي في معاملتي

ويجوز أن يكون أُسامة أنشدهما متمثلاً فنسبا إليه لما كان مظنة ذلك. ويجوز أن يكون اتفاقاً، والله أعلم.

قال العماد: وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مُرْهَفاً[1] وهو جليس صلاح الدين وأنيسه، وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين، وهو لشغفه به يفضّله على جميع الدَّواوين. ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشَّام، وإلى آخر عصره، وتوطن بمصر. فلما جاء مؤيد الدولة أبوه، أنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملَّكه من أعمال المعرَّة ضيعة زعم أنها كانت قديماً تجري في أملاكه، وأعطاه بدمشق داراً وإدراراً. وإذا كان بدمشق جالسهُ وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسه.

وكان ذا رأي وتجربة، وحنكة مهذَّبة، فهو يستشيره في نوائبه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواته، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، واستخرج رأيه في كشف مهماته، وحلِّ مشكلاته، وبلغ عمره ستّاً وتسعين سنة، فإن مولده سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

قلت: وقد تقدَّم من أخباره في قتل الأسد في شبيبته أيام كونه بشَيْزَر، وذكرت له أيضاً ترجمة حسنة في «تاريخ دمشق».

فصل

في رُجوع السُّلْطان إلى مِصْر

خرج من دمشق يومَ الجمعة، رابع شهر ربيع الأول.

---

(١) هو عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، توفي في ثاني صفر سنة ٦١٣هـ، وله من العمر اثنتان وتسعون سنة ونصف (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٣هـ).

قال العماد: ولما استتمت للسلطان بالشّام أمورُ ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أمْحَلت بعده من جُوده جَود السَّحاب، وتقدَّمه الأمراء والملوك. وخرج بُكْرة الجمعة، ونزل بمرج الصُّفَّر، ثم رحل عنه قبل العَصْرِ إلى قريب الصَّنَمَيْن، وخرجتُ معه وقلبي نزوع إلى أهلي، فما نزلتُ منزلاً إلا نَظَمْتُ أبياتاً. فقلتُ يوم المسير وقد عبرتُ بالخِيارة: [الطويل]

أقول لِرَكْبٍ بالخيارَة نُزَّلِ ... أثيروا فما لي في المقَام خِيارُ
همُ رحلُوا عنك الغداةَ وما دَرَوْا ... بأنهمُ قد خَلَّفوك وساروا
حليفَ اشتياق يرى من يحبه ... وفي القَلْب مِنْ نارِ الغَرَامِ أُوارُ
أجيروا من البَلْوى فؤادي فعندكُمْ ... ذِمامٌ له يا سادتي وجِوَارُ

وقلت وقد نزلنا بالفُقيع: [المنسرح]

رأيتُني بالفقيع منفرداً ... أضيَعَ مِنْ فَقْعِ قاعها الضَّائعْ
بعت بمصرِ دمشقَ عن غَررٍ ... مني فيا غَبْنَ صَفْقَةِ البائعْ
صبْريَ والقلبُ عاصيان وما ... غيرُ همومي وأَدْمُعي طائعْ

وقلت بالفَوَّار: [الطويل]

تحدَّر بالفَوَّار دَمْعي على الفَوْرِ ... فقلتُ لجيراني أجيرُوا من الجَوْرِ
وأَصْعَبُ ما لاقيتُ أنيَ قانعٌ ... من الطَّيْفِ مذ بنتم بزُورٍ من الزَّوْرِ

وقلت بالزَّرقاء: [الطويل]

ولَمْ أنسَ بالزرقاء يوم وَدَاعِنا ... أناملَ تَدْمى حَيْرةً للتَّنَدُّمِ
أعدتُك يا زرقاءُ حمراءَ إنني ... بكيتُك حتى شِيبَ ماؤك بالدَّمِ
تأخَّر قلبي عِنْدَهُمْ مُتخلِّفاً ... وخالَفْتُهم في عَزْمتي والتقدُّمِ
فيا ليت شِعْري هل أعودُ إليهمُ ... وهل لَيْتَ شِعْري نافعٌ للمتيَّمِ

قال: وقلتُ وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشَّوْبك، وفيها تختطف الفرنجُ القاصدين إلى مصر: [السريع]

طريقُ مِصْرَ ضيِّقُ المَسْلكِ ... سالكُهُ لا شكَّ في مَهْلكِ
وَحُبُّ مِصْرٍ صار حُبًّا لمن ... أوقعه في شَبَكِ الشَّوْبكِ
لكنَّما مِنْ دُونها كعبةٌ ... مخْجُوجة مبرُورة المَنْسَكِ
بها صلاحُ الدين يُشكي الذي ... إليه من أيامهِ يشتكي

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب،

Marfat.com

وإيراد البعيد منها والقريب. واتفق أن السلطان سَيَّرَ إلى مِصْر الملك المظفر تقي الدين، وكان لا يَسْتدعي من شاديه، إلا إنشادها في ناديه، ويطرب لسماعها، ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله بدمشق كما فارقتُ بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي. وهي هذه[1]: [الطويل]

هَجَرْتُكُمُ لا عن مَلَالٍ ولا غَدْرِ ... ولكن لمقدُورٍ أُتيحَ مِنَ الأَمْرِ
وأعلمُ أني مخطىءٌ في فِراقِكُمْ ... وعُذْرِيَ في ذنْبي وذنْبيَ في عُذري
أرى نُوَباً للدَّهْرِ تُحْصى ولا أرى ... أشدَّ من الهِجْرانِ في نُوَبِ الدَّهْرِ
بعيني إلى لُقْيا سواكم غِشَاوةٌ ... وسمعيَ عَنْ نجْوى سواكم لَذُو وَقْرِ
وقلبي وصَبْري فارقاني لِبُعْدِكُمْ ... فلا صَبْر في قلبي ولا قَلْبَ في صَدْري
وإني على العَهْدِ الذي تَعهدُونَهُ ... وسِرِّي لكُمْ سِرِّي وجَهْرِي لكم جَهْري
تجرَّعْتُ صِرْفَ الهَمِّ من كأسِ شَوْقِكُمْ ... وها أنا في صَحْوي نزيفٌ من السُّكْرِ
وإنَّ زماناً ليس يَعْمُرُ مَوْطني ... بسُكْناكُمُ فيه فَلَيْس مِنَ العُمْرِ
وأُقسم لو لم يَقْسِم البَيْنُ بيننا ... جَوَى الهَمِّ ما أمسيتُ مُقْتَسَمَ الفِكْرِ
أسيرُ إلى مِصْرَ وقَلْبي أسيرُكُم ... ومِنْ عَجَبٍ أَسْري وقَلبيَ في أَسْرِ
أخِلَّايَ قد شَطَّ المَزَارُ فأرسلوا الـ ... ـخيالَ وزُورُوا في الكَرَى وارْبَحُوا أجْرِي
تذكَّرْتُ أحبابي بجِلِّق بَعدمَا ... ترحَّلْتُ والمشتاقُ يأنَسُ بالذِّكْرِ
وناديتُ صَبْري مستغيثاً فلم يُجب ... فأسبلْتُ دَمْعي للبكاء على صَبْرِي
ولمَّا قَصَدنا من دمشق غَباغِباً ... وبِتْنا من الشَّوْقِ المُمِضِّ على الجَمْرِ
نَزَلْنا برأسِ الماء عند وَدَاعِنا ... موارد من ماءِ الدُّموعِ التي تجري
نزلنا بصَحْراء الفُقيع وغُودِرَتْ ... فواقعُ من فَيْضِ المَدَامِع في الغُدْرِ
ونهنهتُ بالفوار فيضَ مدامعي ... ففاضت وباحَتْ بالمكتَّم من سِرِّي
سَرَينا إلى الزَّرْقاء منها ومن يُصِبْ ... أُواماً يَسِرْ حتى يرى الوِرْدَ أو يَسْري[2]
تذكَّرْتُ حَمَّام القُصَيرِ وأهلَه ... وقد جُزْتُ بالحَمَّام في البَلَدِ القَفْرِ
وبالقريتَين القرْيتين وأين من ... مغاني الغواني منزل الأُدْم والعُفْرِ
ورَدْنا من الزَّيتون حِسْمَى وأيلةً ... ولم نستَرِحْ حتى صَدَرْنا إلى صَدْرِ
غَشِينا الغَوَاشي وهي يابسةُ الثَّرى ... بعيدةُ عهد القُطْرِ بالعَهْدِ والقَطْرِ

(١) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/٦ ـ ٩).
(٢) الأوام: شدة العطش.

Marfat.com

وضَنَّ علينا بالنَّدى ثَمَدُ الحصى ومن يرتجي رِيًّا من الثَّمَد النَّزْرِ
فقلتُ اشرحي بالخمسِ صَدْراً مطيَّتي بِصَدْرٍ وإلا جادَكِ النِّيلُ للعشْرِ
رأينا بها عَيْن المواساة إننا إلى عين موسى نَبذلُ الزَّادَ للسَّفْرِ
وما جَسَرَتْ عَيْني على فَيْضِي عبرةٍ أُكَفْكِفُها حتى عَبَرنا على الجِسْرِ
ومِلْنا إلى أَرْض السَّدِير وجَنَّةٍ هنالك من طَلْحٍ نضيدٍ ومن سِدْرِ
وجُبْنا الفَلا حتى أصَبْنا مباركاً على بركة الجُبِّ المبشِّر بالقَصْرِ
ولما بدا الفُسْطاط بَشَّرْتُ رِفْقتي بمن يتَلقَّى الوَفْدَ بالوَفْر والبِشْرِ
بَكَتْ أُمُّ عمرو مِنْ وشيكِ تَرَحُّلِي فيا خَجْلَتي مِنْ أُم عمرٍو ومِنْ عمرو
تقول إلى مِصْر تصير تعجُّباً وماذا الذي تبغي ومَنْ لك في مِصْرِ
فقلتُ ملاذي النَّاصرُ المَلِكُ الذي حَصَلْتُ بجَدْواه على المُلْكِ والنَّصْرِ
فقالتْ أقمْ لا تَعْدَمِ الخيرَ عندنا فقلتُ وهل تُغْني السَّواقي عن البحرِ
ثِقي برجُوعٍ يَضْمَنُ الله نُجْحَه ولا يقتضي أنْ نبدل العُسْرُ باليُسْرِ
عطيَّتُهُ قد ضاعَفَتْ مُنَّة الرَّجا ونعمته قد أضعفت مُنَّة الشُّكْرِ

قال: وكان الدُّخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأول بالزِيّ الأجمل والعِزّ الأكمل.

وتلقَّى السُّلْطان أخوهُ ونائبه الملك العادل سيف الدين إلى صَدْر، وعبر إلينا عند بحر القُلْزُم الجِسْر، وتلقَّانا خَيْرُ مصر، ووصلت إلينا ثمراتُها، وجُليت علينا زهراتها، فظهر بنا نشاطها، وزاد اغتباطها، ودخل السُّلْطان داره، ووفق الله في جميع الأمور إيرادَهُ وإصْداره.

وكانت قد صَعُبت عليَّ مفارقة دمشق وأهلها، لقِلَّة الوثوق بأنّي أحصل بمثلها، فنظمت يوم خُروجي منها أبياتاً إلى ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، منها: [المجتث]

بمُهجتي خِنْتُ العِطْـ ـفِ مستلذَّ الدَّلالِ
يقول لي بانكسارٍ ورقَّةٍ واغتلالِ
معاتباً بحديثٍ أصفى من السَّلْسَالِ
مَا مِصْرُ مثل دمشقٍ بعتَ الهُدَى بالضَّلالِ
فقلتُ عنَّت أمورٌ عجيبةُ الأشكالِ
أسيرُ في طلب العِزّ (م) مثل سَيْرِ الهِلالِ
لم يبلغ البدرُ لولا الـ ـمَسيرُ أوجَ الكمالِ

وكـيـف أتـرك شُـغـلـي وإنّـهُ رأسُ مـالـي
صـلاح حـالـي صـلاح الـدّ (م) يـن الـغـزيـر الـنـوَالِ
مـا لـي أفـارق مَـلْـكـاً مـلّـكـتُـهُ آمـالـي
يـا نـاصـرَ الـدّيـن قـلـبـي عـلـيـه فـي بَـلْـبـالِ

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة، وسيّدهم المولى الأجل الفاضل، وقد مدحه بقصيدةٍ، منها: [الخفيف]

كـيـف لا يـغـتـدي لـي الـدَّهْـرُ عـبـداً وأنـا عـبـدُ عَـبْـدِ الـرَّحـيـمِ
بـدوام الأجَـلّ سَـيِّـدِنـا الـفـا ضِـل يـا دَوْلَـةَ الأفـاضِـلِ دُومـي
إن آراءه تـنـوب لـدى الـمَـلْـ ـك مـنـابَ الأرواحِ عـنْـدَ الـجُـسـومِ
مـالـكُ الـحَـلّ فـي الـمـمـالـك والـعَـقْـ ـد وحُـكْـمِ الـتَّـحـلـيـل والـتَّـحـريـمِ
مُـعْـمَـلٌ لـلـنَّـفـاذ فـي كـلّ قُـطْـرٍ قَـلَـمـاً حـاكـمـاً عـلـى إقـلـيـمِ
يـتـلَـقّـى الـمـلـوكُ فـي كـلّ أرضٍ كُـتْـبَـهُ الـقـادمـاتِ بـالـتَّـعْـظِـيـمِ
نـاحـلُ الـجـسـم ذو خـطـابٍ بـه يَـضْـ ـغُـرُ لـلـدَّهْـرِ كـلُّ خَـطْـبٍ جـسـيـمِ

ثم ذكر الأخوين تقي الدين عمر وعز الدين فَرُّخشاه ـ وهما ابنا أخي السُّلْطان، وهو شاهنْشاه بن أيوب ـ وهمام الدين بُزْغُش الشنباشي؛ والي القاهرة، ومدح فَرُّخشاه بقصيدةٍ حسنة، منها: [الخفيف]

شـادنٌ كـالـقـضـيـب لَـدْنُ الـمـهـزَّهْ سَـلَـبَـتْ مُـقْـلـتـاه قـلـبـي بـغـمـزَهْ
كـلّـمـا رُمْـتُ وَصْـلَـهُ رامَ هـجـري وإذا زدتُ ذِلّـةً زاد عِـزَّهْ
لـلـصّـبـا مـن عِـذارِهِ نـسـجُ حُـسْـنٍ رَقَـمَ الـمِـسْـكُ فـي الـشَّـقـائـق طَـرْزَهْ
وعـزيـزٌ عـلـيَّ أنَّ اضْـطِـبـاري فـيـه قـد عَـزَّه الـغَـرَامُ وبَـزَّهْ
مـا رأى مـا رأيـتُ مـجـنـونُ لـيـلـى فـي هـواهُ ولا كُـثَـيِّـر عَـزَّهْ
مـا ذَكـرنـا الـفُـسْـطـاط إلا نـسـيـنـا مـا رأيـنـا بـالـتَّـيْـرَبـيـن والأرْزَهْ
فـمـهـا الـجِـيـرة الـجـوازي لـهـا الـمـيـ ـزةُ حُـسْـنـاً عـلـى ظـبـاء الـمِـزَّهْ
ونـصـيـري عـلـيـه نـائـل عـز الـدّ (م) يـن ذي الـفَـضْـلِ خـلّـد الله عِـزَّهْ
فـرَّغ الـكَـنْـزَ مـن ذخـائـر مـالٍ مـالـئـاً مـن نـفـائِـسِ الـحَـمْـدِ كَـنْـزَهْ
هِـمَّـةٌ مـسـتـهـامـةٌ بـالـمـعـالـي لـلـدَّنـايـا أبِـيَّـةٌ مُـشْـمَـئِـزَّهْ

قال العماد: وتوفَّرنا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني، والتنزُّه في الجزيرة والجِيزة، والأماكن العزيزة، ومنازل العِزّ والرَّوْضة، ودار الملك والنّيل

Marfat.com

والمقياس، ومراسي السُّفن، ومجاري الفلك والقصور بالقَرَافة، وربوع الضِّيافة، ورواية الأحاديث النبوية، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية.

[زيارة العماد الكاتب للأهرامات]

قال: واقترحنا على القاضي ضياء الدين بن الشَّهرُزُوري[1] أن يفرِّجنا في الأهرام، فقد كنا شُغفنا بأخبارها في الشَّام، فخرج بنا إليها، ودُرْنا تلك البرابي[2] والبراري، والرِّمال والصحاري، وأحمدنا المقارَّ والمقاري، وهالَنا أبُو الهول، وضاق في وصفه مجال القَوْل، ورأينا العجائب، ورَوْينا الغرائب، واستصْغَرْنا في جَنْب الهرميْن كلَّ ما استعظمناه، وتداولنا الحديثَ في الهرمِ ومَنْ بناه، فكلٌّ يأتي في وصفهما بما نقله، لا بما عقلَه، واجتهدوا في الصُّعود إليه فلم يُوجد من تَوَقَّله، وحارت العُقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توهُّم حدوده، فيَا لَهُ مِنْ مولودٍ للدَّهْرِ قبل الطُّوفان، انقرَضت القرون الخالية على آبائه وجدوده، وسُمَّار الأخبار تذكر حديث أحداث عَادِه وثَمُوده، ويُدلُّ إحكامُه وعلوُّه على همة بانيه في بأسه وجوده، وإنَّ في الأرض الهرمين كما أنَّ في السماء الفرقدين، وهما كالطَّودَيْن الرَّاسخيْن، وكالجبلين الشَّامخين، قد فنِيت الدُّهور وهما باقيانِ، وتقاصَرت القُصُور وهما راقيان، وكأنّهما لأمِّ الأرض ثَدْيان، وعلى ترائب التُّراب نَهْدَان، ولسُلطان العالَم علَمان، وإلى مراقي الأملاك سُلَّمان، وهُما للَّيل والنهار رقيبان، ولرَضْوى ولشَمَام نسيبان، ومن زُحلٍ والمريخ قريبان، ولِعَوادي الخُطوب خطيبان، ولثَوْرِ الفَلَك رَوْقان[3]، ولشخص الكُرَة الترابية ساقان.

قلت: ثم ذكر العماد جماعةً ممن كان يقيم الضِّيافة له ولمثله من الفضلاء الأعيان، فذكر منهم النَّاصح مؤدب أولاد السُّلْطان، وله دارٌ مشرفة على النيل. وذكر منهم اللسان الصُّوفي البَلْخي، وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دارٌ أيضاً على شاطئ النيل برسم ضيافة من نَزَل به.

---

(١) تقدّمت ترجمته قبل قليل.

(٢) البرابي: جمع برباة أو بربا: وهو اسم أطلقه المصريون على جميع المعابد والآثار القديمة، وهذا القول الذي قال به ابن جبير يؤيده ياقوت إذ يقول: بَرْبا كلمة قبطية، وهي اسم للبناء المحكم القديم الذي كان يقام في الأيام الوثنية، وكان يستعمل موضعاً للسحر. ويستعمل سفروس الأشمونيني المؤرخ النصراني لبطارقة الإسكندرية كلمة بربا بمعنى محدد ووثيق وهو المعبد الوثني تمييزاً له من العمائر المقامة للعبادة المسيحية، والكلمة العربية «بربا» هي رواية في رسم الكلمة القبطية «بربية» أي المعبد واستعمالها أكسبها الجمع الفصيح أي «برابي» (دائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٥٦٤).

(٣) الروق: القرن.

Marfat.com

قال: ثم وقف السُّلْطان دارَه على الصُّوفية من بعده، وانتقل بعد سنين إلى النَّعيم وخُلْده.

فصل

في بيع الكُتُب وعِمارة القلعة والمدرسة والبيمارَسْتان

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القَصر كلّ أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان وخزائنها في القصر مرتَّبة البُيوت، مقسَّمة الرُّفوف، مفهرسة بالمعروف. فقيل للأمير بهاء الدين قَراقُوش، متولِّي القصر، والحالّ والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العُثّ، وتساوى سمينُها والغَث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها، وإخراجها من بُيوت الخزانة إلى أرضها. وهو تركيٌّ لا خِبرة له بالكُتب، ولا دُرْبة له بأَسْفار الأدب. وكان مقصود دلّالي الكتب أن يُوكسوها، ويخرّموها ويعكسوها. فأُخرجت ـ وهي أكثر من مائة ألف ـ من أماكنها، وغُرِّبت من مساكنها، وخربت أوكارُها، وأُذهبت أنوارُها، وشُتّت شملها، وبُتّ حَبْلُها، واختلط أدبيُّها بنجُوميّها، وشرعيُّها بمنطقيِّها، وطبيُّها بهندسيِّها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلُها بمشاهيرها.

وكان فيها من الكُتب الكبار، وتواريخ الأَمْصار، ومصنَّفات الأخبار، ما يشتمل كلُّ كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلَّداً، إذا فُقِدَ منها جُزءٌ لا يُخلَف أبداً، فاختلطت واختبطَتْ، فكان الدَّلال يخرج عشرة عشرة من كلِّ فنّ كتباً مبتَّرة، فتُسام بالدُّون، وتُباع بالهُون، والدَّلال يعرف كلّ شدَّة، وما فيها من عدَّة، ويعلم أنّ عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفَّق كتاباً قد تقوَّم عليه بعشرة، باعه بعد ذلك لنفسه بمائة.

قال: فلما رأيت الأمر حَضَرْت القصر، واشتريْت كما اشتروا، ومَرَيْتُ الأطباء[1] كما مَرَوْا، واستكثرت من المتاع المبتاع، وحويت نفائس الأنواع، ولما عرف السُّلْطان ما ابتَغْتُه، وكان بمائين، أنعم عليَّ بها، وأبرأ ذمَّتي من ذهبها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عَيَّنْتُ عليه من كتبها.

ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلَّدات كثيرة انتُقيَت له من القصر، وهو ينظر

(١) المري: مسح ضرع الناقة لتدر لبناً. والأطباء: جمع طبي، بكسر الطاء وضمها: حلمات الضرع.

Marfat.com

في بعضها، وبسط يدي لقبضها، وقال: كنتَ طلبت كُتباً عيَّنتها، فهل في هذه منها شيء؟ فقلت: كلها، وما أستغني عنها، فأخرجتها من عنده بحمَّال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقلَّ نوال.

قال: وكان السلطان لما تملَّك مصر رأى أنَّ مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كلَّ واحدة بسور احتاجت إلى جُنْدٍ مفرد يحميها، وإني أرى أنْ أدير عليهما سوراً واحداً من الشَّاطئ إلى الشَّاطئ.

[أمر صلاح الدين ببناء القلعة على جبل المقطم]

وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المُقطَّم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم، وانتهى به إلى أعلى مِصْر ببروج وصلها بالبرج الأعظم، ووجدت في عهد السلطان ثبتاً رفعه النواب، وتكمَّل فيه الحساب، ومبلغه ـ وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل ـ تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان، من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البُرْج بالكوم الأحمر سبع آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع. وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النِّيل إلى النِّيل، على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشميّ[1] بتولي الأمير بهاء الدّين قَراقُوش الأَسَدي.

وبنى القلعة على الجبل، وأعطاها حقَّها من إحكام العمل، وقَطْعِ الخَندق وتعميقه، وحَفْر واديه وتضييق طريقه. وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئراً ينزل فيها بالدَّرج المنحُوتة من الجبل إلى الماء المعين، ولمْ يتأتَّ له هذا كله في سنين متَقاربة لولا إعانة رَبِّه المُعين.

وتُوفِّي السُّلْطان وقد بقي من السُّور مواضع والعمارة فيه مستمرّة، ووظائفُ نفقاتها مستدرَّة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتُّرْبة المقدسة الشَّافعيّة، ورتَّب قواعدها بفرط

---

(١) طول الذراع الهاشمي: ٦١,٦ سم. والقصبة الهاشمية ٣٦٩,٦ سم (النظم الإسلامية ص٤١٦).

الألمعيَّة، وتولاها الفقيه الزَّاهد نجم الدِّين الخبُوشاني[١]، وهو الشيخُ الصَّالح الفقيهُ الوَرِع التقي النقي.

قال: وأمر باتخاذ دارٍ في القَصْر بيمارَسْتاناً للمرضى، واستغفرَ الله تعالى بذلك واسترضى، ووقف على البيمارَسْتان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهبّ إلى مواهب فأسْداها، واهتمّ بفرائضَ ونوافل فأدَّاها.

فصل

في خروج السُّلْطان إلى الإسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: ثمَّ خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثَّاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأفْضَل عليّاً والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دِمْياط، ورأى في الحضور بالثَّغر المذكور ومشاهدتِه الاحتياط، وكانَ له بها سَبْيٌ كثير جلبه الأسطول، فامتدّ بظاهر البلدِ يومين، ووهَبَ لي منه جارية.

ثمَّ وصلنا إلى ثغر الإسكندرية، وتردَّدْنا مع السُّلْطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي[٢]، وداومنا الحضور عنده، واجتلَيْنا من وجهه نُورَ الإيمان وسَعْدَه، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر

---

(١) نجم الدين الخبوشاني: هو الأمير العالم محمد بن موفق الدين سعيد بن الحسن بن عبد الله الخبوشاني (نسبة إلى خبوشان بليدة بناحية نيسابور)، نجم الدين، أبو البركات الشافعي، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي بمصر سنة ٥٨٧هـ. من تصانيفه: «تحقيق المحيط في شرح الوسيط للغزالي» من فروع الشافعية (كشف الظنون ٦/ ١٠٢، الفتح القسي ص ٥٧٧، رحلة ابن جبير ص٤٨، وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٠٤، العبر للذهبي ٤/ ٢٦٢، الوافي بالوفيات ٥/ ٩٩ ـ ١٠٠، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٤، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٤٩٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٥ ـ ١١٦، حسن المحاضرة ١/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٢) أبو طاهر السلفي: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة السلفي الحافظ، أبو طاهر، صدر الدين الأصبهاني الشافعي، ولد سنة ٤٧٨، وتوفي سنة ٥٧٦هـ، من تصانيفه: «أربعين البلدانية» في الحديث، «سداسيات» في الحديث، «سلفيات من أجزاء الحديث»، «سلماسيات» أمالي يعرف بالمجالس الخمسة، «شرط القراءة على الشيوخ»، «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة»، «معجم السفر»، «المعجم لمشيخة أصبهان»، «المعجم لمشيخة بغداد» (كشف الظنون ٥/ ٨٧).

Marfat.com

رمضان، واغتنمنا الزَّمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العُمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر.

وشاهدنا ما استجدَّه السُّلْطان من السُّور الدائر، وما أبقاه من حُسْن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر بإتمام الثُّغور وتعمير الأسطول.

[أمر صلاح الدين بتعمير الأسطول]

قال ابن أبي طيّ: ولما نوى السُّلْطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها رأى أنَّه لا يُخْلي نفسه من ثوابٍ يقوم له مقام القَصْد إلى بلاد الكُفَّار والجهاد في المشركين، فرأى الأسطول وقد أخْلقت سُفُنه وتغيَّرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجَمع له من الأخشاب والصُّنَّاع أشياء كثيرة، ولما تَمَّ عَمَلُ المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السِّلاح، والعُدد ما يحتاج الأسطول إليه، وشحنه بالرِّجال، وولَّى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً، وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الأسطول، وأن لا يُمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول أن لا يُبارح البحر، ويغزي إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقُلت في معنى تنقُّلي في البلاد: [البسيط]

يوماً بجيٍّ ويوماً في دمشقَ وبالـ ـفُسطاط يوماً ويوماً بالعِرَاقَيْنِ
كأنَّ جسمي وقلبي الصَّبَّ ما خُلقا إلا ليُقْتسما بالشَّوْقِ والبَيْنِ

وقلت يوم الخروج من القاهرة: [الكامل]

يا باخلاً عند الوَداعِ بوقفةٍ لو سامَنني رُوحي بها لم أَبْخلِ
ما كان ضَرَّك لوْ وقَفْتَ لِسائلٍ تركَ الفؤادَ بدائه في المنزل
هلّا وَقَفْتَ لقلبِ مَنْ أحرقته مقدارَ إطفار الحريقِ المُشْعَلِ
إن أسْرِ مُرْتحلاً ففي أسْرِ الهوى قلبي لديك مُقَيّداً لم يَرْحَلِ
عَذُبَ العذابُ لدى فؤادي المبتَلى إذْ كنتَ أنتَ معذِّبي والمبتلي

وقلت: وقد نزلنا بين مُنية غَمْر ومُنية سَمنُّود: [الطويل]

نَزَلْتُ بأرض المُنْيَتين ومُنْيتي لقاؤكُمُ الشّافي وَوَصْلُكُم المجدي
سأبْلَى ولا تَبْلى سريرةُ ودِّكم وتؤنسني إنْ مُتّ في وحشة اللَّحْدِ

قال: وعُدْنا من الإسكندرية في شهر رمضان، فصُمنا بقيَّة الشهر بالقاهرة، والسُّلْطان متوفرٌ في ليله ونهاره، على نَشْر العدل وإنْشاره، وإفاضة الجُود

Marfat.com

وإغزاره، وسماع أحاديث الرسول ﷺ وأخباره، وإشاعة العلم والإعلان بأسراره، وإبداء شعار الشرع وإظهاره، وإبقاء المعروف على قراره، وإعدام الباطل وإنكاره.

وقال: ومِنْ مدائحي في السُّلْطان ما أنشدته إياه سادس شَوَّال[1]: [المتقارب]

فَدَيْتُكَ من ظالمٍ مُنْصِفِ ... وناهيكَ من باخِلٍ مُسْرِفِ[2]
أيبلغُ دهريَ قصدي وقد ... قَصَدْتُ بمصر ذَرا يوسف
ويوسف مِصْرٍ بغير التُّقَى ... وبذل الصَّنائع لم يُوصَفِ
فَسِرْ وافْتَحِ القُدْسَ واسفكْ به ... دماءً متى تُجْرِها يَنْظُفِ
وأهْدِ إلى الإسبتارِ التَّبَار ... وهُدَّ السُّقوفَ على الأُسْقُفِ
وخَلِّصْ من الكُفْرِ تلك البلاد ... يُخَلِّصْك الله في المَوْقِفِ

[وصول رسل الموصل إلى صلاح الدين بمصر]

قال: وفيها وصل رُسُل المواصلةِ وصاحبي الحِصْن ومارِدين إلى دمشق، فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب حِصْن كيفا في الأسر.

قال ابن أبي طيّ: وصل رسول المَوْصِل القاضي عماد الدين بن كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري بهدية وقود، فخرج الموكبُ إلى لقائه، وأكرمه السُّلْطان واحترمه. وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان ورسول صاحب مارِدين بهدايا، واجتمعوا في دمشق، وخرجوا إلى السلطان بمصر، فاعترضهم الفرنج، فأُسر رسول صاحب الحِصْن، ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان، فأطلقه وأحسن إليه.

قال: وفيها رجع قَرَاقُوش إلى أَوجَلَةَ وتلك البلاد فجمع أموالاً ورجع إلى مصر، ثم أراد الرُّجوع فمنعه العادل، ثم خلَّصه فَرُّخْشاه، فرجع وفتح بلاد فزَّان بأسرها.

قال العماد: ثم خرج السُّلطان إلى مرج فاقُوس، مِنْ أعمال مصر الشَّرْقية، لإرهاب العدو وهو يركب للصيد والقنص، والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص. واقترح عليَّ أن أمدح عز الدين فَرُّخْشاه بقصيدةٍ موسُومة، ألزم

---

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٥ ـ ١٧.
(٢) في «خريدة القصر»: «مسعفٍ» بدل: «مسرفٍ».

Marfat.com

فيها الشين قبل الهاء، فعملت ذلك في أواخر ذي الحِجَّة فقلت: [السريع]

مَـوْلَاي عـزَّ الـديـن فَـرُخْـشَـهْ ... الـدَّهْـرَ مَـنْ يَـرْجُـك لا يَـخْـشَـهْ
تَـلْـقـاه سَـمْـحَ الـكَـفِّ دَفَّـاقـهـا ... طَـلْـقَ الـمـحـيَّـا كَـرَمـاً بَـشَّـهْ
إنْ شـئـتَ فـوتـاً بـالـرَّدى فَـالْـقَـهُ ... أو شـئـتَ فـوزاً بـالـعُـلا فـاغْـشَـهْ
يُـديـم بـالأيـدي وبـالأَيْـدِ فـي ... حَـرْبـي لُـهـاه والـعِـدَى بـطـشَـهْ
كـم مَـلِـكٍ عـاداكـمُ لـم يَـبِـتْ ... إلا جَـعَـلْـتُـمْ عَـرْشَـهُ نَـعْـشَـهْ
خَـوَّفْـتُـمُ الـشِّـرْكَ فـلا قـمـصُـهُ ... أَمَّـنْـتُـمُ يـومـاً ولا فُـنْـشَـهْ
أورَثَـك الـسُّـؤدد يـا ابـن الـعُـلا ... والـدُك الـسَّـيِّـد شـاهِـنْـشَـهْ

وقال في «الخريدة»[1]: كنا مخيمين بمرج فاقوس، مصمِّمين على الغَزَاة إلى غَزَّة، وقد وصلت أساطيل ثَغْريْ دمياط والإسكندرية بسبي الكُفَّار، وقد أَوْفَتْ على ألف رأس عِدَّة من وصل في قيد الإسار، فحضر ابنُ رَوَاحة[2] منشداً مهنئاً بعيد النَّحر، سنة اثنتين وسبعين، ومُعَرِّضاً بما وَهبه الملك النَّاصر من الإماء والعبيد، قصيدة، منها: [الوافر]

لـقـد خَـبَـرَ الـتَّـجـاربَ مـنـهُ حَـزْمٌ ... وقَـلَّـبَ دَهْـرَهُ ظَـهْـرَاً لِـبَـطْـنِ
فـسـاقَ إلـى الـفـرنـج الـخـيـلَ بـرّاً ... وأدركـهـمْ عـلـى بـحـرٍ بِـسُـفْـنِ
لـقـد جَـلَـب الـجـواريَ بـالـجـواري ... يَـمِـدْن بـكـل قـدٍّ مُـرْجَـحِـنّ[3]
يـزيـدهُـمُ اجـتـمـاعُ الـشَّـمْـلِ بُـؤْسـاً ... فـمـرنـانٌ تـنـوحُ عـلـى مُـرِنّ
زَهَـتْ إسـكـنـدرِيَّـةُ يـوم سِـيـقُـوا ... ودمـيـاطٌ فـمـا مُـنِـيـا بِـغَـبْـنِ
يـرونَ خـيـالَـه كـالـطَّـيْـفِ يَـسْـري ... فـلـو هَـجَـعـوا أتـاهُـمْ بـعـد وَهْـن

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٩١ ـ ٤٩٦.

(٢) ابن رواحة: هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة، الشاعر الفقيه، ولد بحماة سنة ٥١٥هـ، ونشأ بها، ثم رحل إلى دمشق، فأقام بها مدة، واشتغل بالفقه، وسمع الحديث من مؤرخ الشام ابن عساكر وآخرين، ورحل إلى مصر أيام الصالح بن رزيك، ولما أراد الرجوع إلى الشام ركب البحر، فقطع عليه فرنج صقلية الطريق فأسروه بصقلية، وذلك نحو سنة ٥٦٠هـ، وبقي في أسرهم مدة، ثم عاد إلى حماة، ثم سافر إلى مصر، وأقام فيها في ظل السلطان صلاح الدين، وهناك أسمع ولده من الحافظ السلفي، قتل شهيداً بمرج عكا سنة ٥٨٥هـ (معجم الأدباء ١٠/ ٤٦ ـ ٥٦، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٨١ ـ ٤٩٦، مفرج الكروب ٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢، فوات الوفيات ١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧، الوافي بالوفيات ١٢/ ٤١٣ ـ ٤١٦).

(٣) الجواري الأولى: الإماء، والجواري الثانية: السفن، والمرجحن: المائل.

Marfat.com

أبادَهُمُ تخوُّفُهُ فأمسى مُناهُمْ لو يُبَيِّتُهمْ بأمْنِ
تملَّك حَوْلهم شرقاً وغرباً فصارُوا لاقتناصٍ تحتَ رَهْنِ
أقام بآل أيوبٍ رباطاً رأت منه الفرنج مضِيق سِجْنِ
رجا أقصى الملوكِ السِّلْم منهم ولم يَرَ جُهْدَه في البَأْس يُغْني

وفي هذه السَّنة أبطل السُّلْطان المَكْس الذي كان بمكة على الحاجّ، وسيأتي ذكره في أخبار سنة أربع وسبعين.

قال ابن الأثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شَرَع مجاهد الدين، يعني قايماز[1] دُزْدَار قلعة المَوْصِل، في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط، والمدرسة والبيمارَسْتان وكلّها متجاورات.

قال: وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل، وهو متولِّيها، والحاكم في الدولة الأتابكية النُّورية. وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحِجَّة، سنة إحدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين، وأُعيد إلى ولايتها بعد الإفراج عنه، وبقي إلى الآن، وكان أصلُه من أعمال شبختان، وأُخذ منها وهو طفل. وكان عاقلاً خيِّراً، ديّناً فاضلاً، يعلم الفِقْه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، ويحفظ من الأشعار والحكايات والنَّوادر والتَّواريخ شيئاً كثيراً، إلى غير ذلك من المعارف الحسنة، وكان يكثر الصَّوْم، وله وِرْدٌ يصلِّيه كل ليلة، ويكثر الصدقة، وبنى عِدَّة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى عِدَّة خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار، إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة.

قال العماد في «الخريدة»[2]: نزلنا ببركة الجُبّ لقصد فرض الجهاد، وعَرْضِ الأجناد، فكتب الأسعد بن مَمَّاتي[3] إليَّ أبياتاً في الملك النَّاصر، ويعرض بالشِّطْرنج

---

(١) هو مجاهد الدين قايماز الرومي الحاكم على الموصل، الذي بنى الجامع المجاهدي والمدرسة والرباط والمارستان بظاهر الموصل على دجلة. ولما مات عز الدين مسعود وولي ابنه أرسلان شاه حبسه وضيق عليه وآذاه فتوفي في الحبس سنة ٥٩٤هـ (انظر الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٥١، والذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٤هـ).

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٣) الأسعد بن مماتي: هو أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي المليح مماتي، القاضي وحيد الدين أبو المكارم الدمشقي، كان ناظر الدواوين بمصر، حنبلي المذهب، توفي سنة ٦٠٦هـ، من تصانيفه: «أخائر الذخائر»، «أعلام النصر»، «باعث الجلد عند حادث الولد»، «ترجمان الجمان»، «تلقين التفنن»، «تهذيب =

Marfat.com

فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين[١]: [المديد]

يا كريمَ الخِيْم في الخِيَم ... أهيفٌ كالرِّيم ذو شَمَم[٢]
عجبي للشَّمْسِ إذ طَلَعَتْ ... منه في داجٍ من الظُّلَم
كيف لا تُضمِي لواحظُه ... ورُماة الطَّرْف في العَجَم
لا تصدْ قَلْبَ المحبّ لكم ... لا يحلّ الصَّيدُ في الحَرَم
يا صلاحَ الدِّينِ يا ملكاً ... قد براه الله للأُمَم
أضحتِ الكُفَّارُ في نِقَم ... وغدا الإسلامُ في نِعَم
إنْ يَكُ الشِّطرنج مشغلةً ... لعليِّ القَدْر والهِمَم
فهي في ناديك تذكرةٌ ... لأمورِ الحَرْبِ والكَرَم
فلكم ضاعَفْتَ عِدَّتها ... بالعطاءِ الجمِّ لا القَلَم
ونَصَبْتَ الحَرْبَ نصبتها ... فانثنتْ كفَّاك بالقِمَم
فابقَ للأقدارِ[٣] ترفعها ... وأُمُرِ الأَقْدارَ كالخَدَم

[وفاة القاضي الشريف أبي محمد عبد الله العثماني]

وفيها توفي بالإسكندرية القاضي الشريف أبو محمد عبد الله العثماني الدِّيباجي من ولد الدِّيباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عَفَّان رضي الله عنهم، ويعرف بابن أبي إلياس، من بيت القضاء والعلم. وكان واسعَ الباع في علم الأحاديث، كثير الرواية، قيماً بالأدب، متصرِّفاً في النظم والنثر، إلا أنه مقلٌ من النظم، أوحد عصره في علم الشرُوط، وقوله المقبول على كل العدول، ذكر ذلك العماد رحمه الله في «الخريدة».

= الأفعال»، «حجة الحق على الخلق»، خصائص المعروف في المعميات»، «خلاصة في الفروع»، «درة التاج» ديوان شعره، «روائع الوقايع»، «زواهر السدف وجواهر الصدف»، «سر الشعر»، «سيرة السلطان صلاح الدين»، «سلاسل الذهب»، «علم النشر»، «الفاشوش في أحكام قراقوش»، «قرص العناب»، «قرقرة الدجاج في ألفاظ ابن الحجاج»، «قوانين الدواوين» يتعلق بدواوين مصر ورسومها، «كتاب الحض على الرض»، «كتاب المنجل»، «كرم البحار في حفظ الجار»، «لطائف الذخيرة لابن بسام»، «مذاهب المواهب»، «ملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار»، «ميسور النقد»، «نظم كليلة ودمنة»، «النهاية شرح الهداية للمحفوظ» في الفروع وغير ذلك. (كشف الظنون ٥/ ٢٠٥).

(١) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٠٦.

(٢) الخيم: الشيمة والخلق والسجية.

(٣) في «خريدة القصر»: «فابق للإسلام» بدل: «فابق للأقدار».

[عودة السلطان إلى القاهرة، وعزمه على غزو غزة وعسقلان]
ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

والسُّلطان مخيم بمرج فاقُوس[١]، فنظم العماد في الأجل الفاضل قصيدة ميميَّة في منتصف المحرَّم، وخدمه بها هناك في المخيم، أوَّلها[٢]: [مخلع البسيط]

ريمٌ هضيمٌ يروم هَضْمي ... مِنْ سُقْم عَيْنَيه عَيْنُ سُقْمي
إنْ رُمتَ يا عاذلي صلاحي ... فَخَلِّني والهَوى وزَعْمي
لومُك يُذكي الغَرام قُلْ لي ... أنت نصيحي أم أنتَ خصمي
أيا زماني الغشوم أَقْصِرْ ... إنَّك لا تستطيع غَشْمي[٣]
عَبْدُ الرَّحيم الرحيمُ أضحى ... عوني على خَطْبِكَ المُلِمِّ
بالفاضلِ الأفضلِ الأجلِّ ... المُفْضلِ الأشرفِ الأَشَمِّ
غيثُ غياثٍ وجودُ جودٍ ... وبَحْرُ عِلْمٍ وطَوْدُ حِلْمِ
يراعُهُ في اليمين منهُ ... يستخرجُ الدُّرَّ من خِضَمِّ

قال: وكان عندنا بالمخيم بالعباسة في المحرَّم علم الدين الشَّاتاني[٤]، وهو من أدباء المَوْصِل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وفد سنة اثنتين وسبعين إلى مصر، وأهدى النَّظم والنثر، واصطنعه عزّ الدين فَرُّخشاه، وأنزله في جواره، وجمع له من رِفْده ومن الأمراء ألف دينار، فمدح السُّلْطان بالمخيّم بكلمة، مطلعها[٥]: [الطويل]

غدا النَّصْرُ مَعْقُوداً برايَتك الصَّفْرا ... فَسِرْ وافتحِ الدُّنيا فأنتَ بها أَحْرى

قلت: لم يذكر العمادُ من هذه القصيدة غير هذا البيت، وإنه لقائم مقام قصائد كثيرة.

والشَّاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيد، له ترجمة في «تاريخ دمشق».

---

(١) في البرق الشامي ٣/ ٢٣: مرج الفاقوس.
(٢) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٢٤ ـ ٢٨، و«خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٥٢ ـ ٥٤. والقصيدة في البرق الشامي من ١١١ بيتاً.
(٣) لا تستطيع غشمي: أي لا تستطيع ظلمي. والغشم: الظلم. والغشوم: الظلوم.
(٤) علم الدين الشاتاني: هو أبو علي الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار بن إبراهيم، فقيه غلب عليه الشعر واشتهر به، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ، (وفيات الأعيان ٢/ ١١٣ ـ ١١٤، الوافي بالوفيات ١٢/ ١٧٥ ـ ١٧٨).
(٥) انظر البرق الشامي ٣/ ٢٩.

وذكره العماد في «الخريدة»، وذكر فيها من هذه القصيدة[١]: [الطويل]

يمينك فيها اليُمْنُ واليُسْرُ في اليُسْرى فَبُشرى لمن يرجو النَّدى منهما بُشرى

قال العماد: وكانت الأعلام السلطانية صُفراً، لا يفارق نشرها نصراً.

قلت: وفيها يقول بعضُ الفضلاء: [الطويل]

إذا اسْوَدَّ خَطْبٌ دونَه الموتُ أحمرُ أتَتْ بالأيادي البيضِ أعلامُهُ الصُّفْرُ
فمذ ظهرت منصوبةً جُزمَتْ بها ظهورُ العِدَى من رفعها انخفض الكُفْرُ
ولمْ لا يجوز الأرضَ شرقاً ومغرباً ولله في إعلاءِ رُتْبَتِهِ سِرُّ

وقال العماد[٢]: وعاد السُّلْطان إلى القاهرة وأقام بها، ثم اهتمت بالغزاة هِمَّته إلى غَزَّة وعَسْقَلان، فخرج يوم الجمعة ثالث جُمادى الأولى بعد الصَّلاة، وخَيَّم بظاهرِ بِلْبيس في خامسه بخميسه، ثم تقدَّمنا منه إلى السَّدير، وخيمنا بالمبرَّز، ثم نُودي: خذُوا زادَ عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار، ولإعواز ذلك عند توسُّط ديار الكُفَّار.

قال العماد: فركبت إلى سوق العسكر للابتياع، وقد أخذ السِّعْر في الارتفاع، فقلت لغُلامي: قد بدَا لي ـ وقد خطر الرُّجوع من الخطر ببالي ـ فاعْرِضْ للبيع أجْمالي وأثقالي، وانتهز فرصة هذا السِّعْر الغالي، وأنا صاحبُ قلم لا صاحب عَلَم، وقد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من عاقبة ندم. والمدى بعيد، والخَطْبُ شديد، وهذه نوبة السُّيوف لا نوبة الأقلام، وفي سلامتنا سلامة الإسلام. والواجب على كل منا أن يلزم شُغْلَه، ولا يتعدَّى حدَّه، ولا يتجاوز محلَّه، لا سيما ونواب الديوان قد استأذنوا في العودة، وأظهروا قِلَّة العِدَّة. وأظهرت سرِّي للمولى الأجل الفاضل، فسرَّه إشفاقاً علي، وإحساناً إليّ. وكان السلطان أيضاً يؤثر إيثاري، ويختار اختياري، فقال لي: أنت معنا أو عزمت أن تدعنا ولا تتبعنا؟ فقلت: الأمر للمولى، وما يختاره لي فهو أَوْلى. فقال: تَعود وتدعو لنا، وتسْأل اللَّهَ أنْ يبلِّغنا في النَّصر سُؤْلنا.

وكنتُ قد كتبت أبياتاً إلى المخدُوم الفاضل ونحن بالمبرَّز في العشرين من الشهر[٣]: [الرمل]

قِيلَ في مصْرَ نائلٌ عدد الرَّمْـ ـلِ وَوَفْرٌ كنيلِها المَوْفُورِ

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٦٤.
(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٣١.
(٣) الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٣٣، ولفظ العماد في البرق: وكنت قد كتبت أبياتاً إلى المخدوم الفاضل بقبول العذر منها على سبيل المداعبة.

فاغترزنا بها وسِرْنا إليها ووقعنا كما ترى في الغُرورِ
وحظِينا بالرَّمْلِ والسَّير فيه ومُنِعْنا من نِيلها المَيْسُورِ
وبرزنا إلى الممرّز نشكو سَدَراً من نزولنا بالسَّديرِ[1]
قيل لي سِرْ إلى الجهاد وماذا بالغٌ في الجهاد جهدُ مسيري
ليس يقوى في الجيش جأشي ولا قو سي يُرَى مُوتَراً إلى موتورِ
أنا للكُتْب لا الكتائب إقدا مي وللصُّحف لا الصِّفاح حضوري
كاد فضلي يضيع لولا اهتمامُ الـ ـفاضل الفائض النَّدى بأموري
فأنا منه في ملابس جاهٍ رافلاً منه في حبير حُبورِ
فهو رَقَّى من الحضيض حظوظي وسما بي إلى سرير السُّرورِ

وقال[2]: وما انقطعتُ عن السُّلْطان في غزواته إلا في هذه الغزوة، وقد عَصَمَ الله[3] فيها من النَّبْوَة، وكانت غزوات السلطان بعدها مُؤيَّدة، والسَّعادات فيها مجدَّدة.

وكنتُ لما فارقت القاهرة استَوحشت، وتشوَّقْتُ إلى أصدقائي وتشوشت[4]، وكتبت من المخيم بِبِلْبيس إلى القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفَرَّاش[5]، وقد أقام بالقاهرة، وكان صاحباً لي من الأيام النُّورية، واستشرته في التأخر عن السلطان. فكتب في الجواب: رافِقْه ولا تفارقْه. فكرهت رأيه، فكتبتُ إليه[6]: [البسيط]

إذا رضيتُم بمَكْرُوهي فذاك رضا لا أبتغي غير ما تَبغُون لي غَرَضا

---

(١) السدر: الدوار.
(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٣٦.
(٣) في البرق الشامي: وقد عصمني الله.
(٤) في البرق الشامي: وتشوقت إلى أصدقائي وتعطشت وتسورت بوحشة الوحدة وتشوشت.
(٥) هو القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، كان قاضي العساكر الصلاحية، وكان رسول صلاح الدين إلى السلطان عز الدين قلج أرسلان بن مسعود وأولاده، سلطان سلاجقة الروم ليصلح بينهم، وتردد بينهم مراراً أكثر من سنة، توفي في ربيع الأول سنة ٥٨٨هـ في ملطية في طريق عودته (تاريخ ابن الفرات ٤/ ٩٩ وسترد ترجمته في وفيات سنة ٥٨٨هـ من هذا الكتاب).
(٦) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٣٤، وهي فيه من ٢٥ بيتاً.

وإن رأيتم شفاء القَلْبِ في مَرَضي فإنني مُسْتطيبٌ ذلك المَرَضا
أنتم أشرتم بتعذيبي فصرتُ له مُستعْذباً أَسْتَلِذُّ الهمَّ والمضَضا
أصبحتُ ممتعضاً من أجل أني لا أرى[1] صديقاً لما ألقاه ممتعضا
إن رمتمُ عِوَضاً بي[2] في محبَّتكم فحاشَ لله أن أبغي بكم عِوَضا
لله عيشٌ تَقَضَّى عِنْدَكُمْ ومضى وكان مثلَ سحابٍ بَرْقُه ومَضَا
العَيْشُ دانٍ جناه الغَضّ عندكمُ والقلبُ محترِقٌ مني بجمرِ غَضَا
ما كنتُ أَعْهَد منكمْ ذا الجفاء ولا حسبتُ أنَّ وِدَادي عندكم رُفضا
قد أظلمَ الأفقُ في عيني لغيبتكم فإنْ أَذِنْتَ[3] لشخصي في الحضور أَضَا
ولستُ أوَّل صَبٍّ من أحبته لمَّا جفوا ما قَضى أوطاره وقضى
مُروا بما شئتُمُ مِن محنةٍ وأذًى فقد رأيتُ امتثالَ الأمرِ مُفْتَرضا
طوبى لكم مصرُ والدَّار التي قُضِيَتْ فيها المآربُ والعَيْش الذي خُفضا
بعيشكم إن خَلَوْتُمْ بانبساطِكُم تذكَّروا ضَجِراً بالعيش مُنْقَبِضا
رضيتُمُ سفري عنكم وأعهدُكم بسَفرتي عنكُمُ لا تُظهرون رِضا
هلا تكلَّفتمُ قولاً أُسَرُّ به هيهات جوهركم قد عادَ لي عَرَضا
تفضَّلوا واشرحوا صدري بِقُرْبِكُمُ أو فاشْرحُوا ليَ ذا المعنى الَّذي غَمُضا

فكتب إليَّ في جوابها أبياتاً، منها[4]: [البسيط]

لا تَنْسُبُوني إلى إيثار بُعْدِكُمُ فلَسْتُ أرضى إذا فارقتكم عِوَضا
ولي وِدادٌ تولَّى الصِّدْقُ عُقْدَتَهُ فما تَراه على الأيَّام مُنْتَقِضا
يلقاك قلبي على سُبْلِ العتاب له بصحَّةٍ ليس يخشى بَعْدَها مَرَضا
وصرت كالدَّهْرِ يجني أهلُه أسفاً ويَلْتقي من عِتاب المُذْنِب المضَضا

قال: ثمّ ودّعت وعُذت، ونهضوا وقعَدْت[5].

---

(١) في البرق الشامي: «أرضى» بدل: «أرى».
(٢) في البرق الشامي: «لي»، بدل: «بي».
(٣) في البرق الشامي: «أذنتم» بدل: «أذنت».
(٤) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٣٥، والقصيدة فيه من ١٤ بيتاً.
(٥) في البرق الشامي: ثم ودعت السلطان وعدت، وقربوا وبعدت، وسعدوا وسعدت، ونهضوا وقعدت.

Marfat.com

فصل

في نوبة كسرة الرَّمْلة(١)

وكانت على المسلمين بالجملة، وذلك يوم الجمعة غُرَّة جمادى الآخرة أو ثانيه.

ورحل السُّلْطان بعساكره فنزل على عَسْقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى، فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر، وكسب وكسر، وجمع هناك مَنْ كان معه من الأسْرى، فضرب أعناقهم، وتفرَّق عسكره في الأعمال مُغيرين ومبيدين، فلما رأوا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا.

وتوسَّط السُّلطان البلاد، واستقلَّ يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة، بالرَّمْلة، راحلاً ليقصد بعض المعاقل، فاعترضه نَهْرٌ عليه تلُّ الصَّافية فازدحمت على العُبور أثقال العساكر المتوافية، فما شعروا إلا بالفرنج طالبةً بأطلابها، حازبةً بأحْزابها، ذائبةً بذئابها، عاويةً بكلابها، وقد نفر نفيرُهم، وزفر زفيرهم. وسرايا المسلمين في الضِّياع مغيرة، ولرِحَا الحرب عليهم في دورهم مديرة، فوقف الملك المُظَفَّر تقي الدين وتلقَّاهم بصدره، وباشرهم بِبيضِه وسُمْره، فاستُشهد من أصحابه عِدَّة من الكرام، انتقلُوا إلى نعيم دار المقام؛ وهلك من الفرنج أضعافها.

وكان لتقيِّ الدين ولدٌ يقال له أحمد، أول ما طرَّ شاربه، فاستشهد بعدما أردى فارساً.

قال: وكان لتقي الدين أيضاً ولد آخر، اسمه شاهِنشاه، وقع في أسر الفرنج، وذلك أن بعض مستأمني الفرنج بدمشق خدعه وقال له: تجيء إلى المَلِك وهو يعطيك المُلك. وزوَّر له كتاباً، فسكن إلى صدقه وخرج معه، فلما تفرَّد به شَدَّ وثاقه، وغلَّه وقيَّده، وحمله إلى الدَّاوية، وأخذ به مالاً، وجدَّد عندهم له حالاً وجمالاً، وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكَّه السُّلْطان بمالٍ كثير، وأطلق للدَّاوية كلَّ مَنْ كان لهم عنده من أسير. فَغِلَظُ القلبِ التقوي على ذلك الولد جَرَّ هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه.

قال: ولو أن لتقيِّ الدين رِدْءاً لأردى القوم، لكن النَّاس تفرَّقوا وراء أثقالهم، ثم نجوا برحالهم، وصوَّب العدوُّ بجملتهم حملتهم على السُّلْطان، فثبت ووقف

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨٥ ـ ٨٦: ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة. والبرق الشامي ٣/ ٣٦ ـ ٥٠: ذكر نوبة الرملة ونبوة الحملة.

Marfat.com

على تقدمة من تخلَّف، وسمعته يوماً يصف تلك النَّوْبة، ويشكر من جماعته الصُّحْبَة، ويقول: رأيت فارساً يحثُّ نحوي حصانه، وقد صوَّب إلى نَحْري سِنانه، فكاد يُبْلغني طعانَه، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شانه، فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كلّ واحد إلى واحدٍ منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكَّنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسُوَيد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر، واتَّفق لسعادة السُّلْطان أن هؤلاء الثلاثة رافقوه وما فارقوه، وقارعوا العدو دونه وضايقوه.

فما زال السُّلْطان يسير ويقف، حتى لم يبق مَنْ ظنّ أنه يتخلف، ودخل اللَّيل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل، ولا كثير من الزَّاد والعلف ولا قليل، وتعسَّفوا السُّلوك في تلك الرِّمال والأوعاث والأوْعار، وبقُوا أياماً ولياليَ بغير ماء ولا زادٍ حتى وصلوا إلى الدِّيار. وأذن ذلك بتلف الدَّواب وترجّل الركاب، ولُغوب الأصحاب، وفَقْد كثير ممن لم يُعرف له خبر، ولم يظهر له أثر. وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى[1] وأخوه الظَّهير، ومن كان في صُحبتهم، فَضلَّ الطريق عنهم، وكانوا سائرين إلى وراء، فأصبحوا بقُرب الأعداء، فأكمنوا في مغارة، وانتظروا مَنْ يدلُّهم مِن بلد الإسلام على عمارة. فدلَّ عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم، وسعى في أسْرهم وعطبهم، فأسروا، وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين، بستين سبعين ألف دينار، وفكاك جماعة من الكُفَّار.

قال: وما اشتدَّت هذه النَّوْبة بكسرة، ولا عَدم نُصرة، فإن النِّكاية في العدوّ وبلاده بلغت منتهاها، وأدركت كلُّ نفسٍ مؤمنة مُشتهاها. لكن الخروج من تلك البلاد شتَّت الشَّمْل، وأوعر السهل، وسُلك مع عدم الماء والدليل الرَّمْل.

ومما قدَّره الله تعالى من أسباب السَّلامة، والهداية إلى الاستقامة، أنَّ الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الأعداء باستصحاب الكنانية[2] والأدلاء، وأنهم ما كانوا يفارقونه في الغداء والعشاء، فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه، وغِلْمانه وأصحابه، وأدلائه وأثقاله، وبثَّ أصْحابه في تلك الرِّمال، والوهاد والتِّلال، حتى أخذ خبر السُّلْطان وقصده، وأوضح بأدلائه جَدَده، وفرَّق ما كان معه من الأَزْوَاد

(١) هو ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، تقدّمت ترجمته.

(٢) الكنانية: نسبة إلى بني كنانة بن خزيمة بن مدركة، كان منهم بدمياط وما حولها من الديار المصرية طائفة، كما كان منهم فرقة بمناطق أخرى من مصر (قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، للقلقشندي ص١٣٤ ـ ١٣٦).

Marfat.com

على المنقطين، وجمعهم في خِدْمة السُّلْطان أجمعين، فسَهُل ذلك الوَعْر، وأنِس بعد الوحشة القَفْر، وجُبر الكسر.

وكان النَّاس في مبدأ توجُّه السُّلْطان إلى الجهاد، ودخول الأجل الفاضل معه إلى البلاد، ربما تحدَّثوا وقالوا: لو قعد وتخلَّف كان أولى به، فإن الحرب ليست من دأبه. ثم عُرف أنَّ السَّلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه.

وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجابين فخلع عليهم وأركبوا، وأُشيع بأن السلطان نصره الله، وأنَّ الفرنج كسروا وغلبوا. فركبت لأسمع حديث النجَّابين وكيف نصر الله المسلمين وإذا هُم يقولون: أبشروا فإن السُّلْطان وأهلَه سالمون، وإنهم واصلون غانمون، فقُلت لرفيقي: ما بُشِّر بسلامة السلطان إلا وقد تَمَّت كسرة، وما ثَمَّ سوى سلامته نُصرة.

ولما قرب خرجنا لتلقِّيه، وشكرنا الله على ما يسَّره من ترقيه وتوقِّيه، ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر، ونابت سلامتُه مناب الدهر[1]، وسيَّرْنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقاتها الطائر، لإخراس ألسنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف، فقد كانت نوبَتُها هائلة، ووقعتها غائلة[2].

وقال القاضي ابن شدَّاد: خرج السُّلْطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرَّمْلة، وذلك في أوائل جمادى الأُولى، وكان مقدم الفرنج البرنز أرناط ـ وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمن نورُ الدين رحمه الله تعالى ـ وجرى خللٌ في ذلك اليوم على المسلمين. ولقد حكى السلطان ـ قدَّس الله روحه ـ صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أن المسلمين كانوا قد تَعَبَّوْا تعبئة الحرب، فلما قارَبَ العدوّ رأى بعضُ الجماعة أن يغير الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب، ليكونوا حالَ اللقاء وراء ظهورهم تلٌّ معروف بأرض الرَّمْلة، فبينا اشتغَلوا بهذه التعبئة هجم الفرنج، وقدر الله تعالى كسرهم، فانكسرُوا كسرةً عظيمة، ولم يكن لهم حِصْن قريبٌ يأوُون إليه، فطلبوا جهة الدِّيار المصرية، وضلُّوا في الطريق وتبدَّدُوا، وأُسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى. وكان وَهْناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة، ولله الحمد.

قلت: وذلك بعد عشر سنين؛ فكسرة الرَّمْلَة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسر حِطِّين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

---

(١) في البرق الشامي: النصر.

(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٤٢، ولفظه: فقد كانت نوبتها هائلة، ووقعتها غائلة، فنبّه الله بها العزمات وصرف بها عن الأزمن أزمّة الأزمات.

Marfat.com

قال العماد الكاتب: وحيث كانت للملك المظفَّر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء، أنشدته قصيدةً، منها[١]: [الوافر]

سقى اللَّهُ العراقَ وساكنيه ... وحَيَّاه حيَا الغيثِ الهَتُونِ
وجيراناً أمِنْت الجَوْرَ منهم ... وما فيهم سِوَى وافٍ أمينِ
صفَوْا والدَّهْرُ ذو كَدَرٍ وقِدْماً ... وفَوْا بالعهد في الزَّمن الخؤونِ
بنو أيوبَ زانوا المُلْكَ منهم ... بحِلْية سُؤْدَدٍ وتُقًى ودينِ
ملوكٌ أصبحوا خيرَ البرايا ... لِخَيْرِ رَعِيَّةٍ في خير دين[٢]
أسانيدُ السيادةِ عن عُلاهم ... مُعَنْعَنةٌ مصحَّحةُ المُتُونِ
بنو أيوب مثلُ قريشَ مجداً ... وأنت لها كأنزعها البطينِ[٣]
أخفت الشِّرْكَ حتى الذُّعْرُ منهم ... يُرى قبل الولادةِ في الجنينِ
ويومَ الرَّمْلَةِ المرهوب بأساً ... تركت الشِّركَ منزعج القَطِينِ
وكنتَ لعسكرِ الإسلام كَهْفاً ... أوى منه إلى حِصْنٍ حَصِينِ
وقد عَرَفَ الفرنج سُطاك لما ... رأوا آثارها عينَ اليقينِ
وأنت ثَبتَّ دون الدِّين تحمي ... حِماهُ أَوَانَ ولَّى كلُّ دينِ[٤]

قال: واهتمَّ السُّلْطان بعد ذلك بإفاضة الجود، وتفريق الموجود، وافتقاد الناس بالنُّقود، والسنايا[٥] الصَّادقة الوعود، وجبر الكسير، وفك الأسير، وتوفير العدد، وتكثير المدد، وتعويض ما نفق[٦] من الدواب، فسلَوا ما نابهم، ولم يأسوا على ما أصابهم.

قال ابن أبي طيّ: وقال ابن سَعْدَان الحلبي[٧] يمدح السُّلْطان، ويذكر ما فعله على عَسْقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة، من قصيدة: [البسيط]

قرَّبْت من عسقلانٍ كلّ نائبة ... باتت تقلّ بوكَّافٍ من الأسَلِ

---

(١) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٤٦ ـ ٥٠، والقصيدة فيه من ٩٧ بيتاً.
(٢) في البرق الشامي: «حين» بدل: «دين».
(٣) الأنزع البطين: هو الإمام علي بن أبي طالب، وقد كان يوصف بذلك. والنزع: انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبي الجبهة. والبطين: الكبير البطن.
(٤) في البرق الشامي: «دونِ» بدل: «دين».
(٥) في البرق الشامي: النسايا.
(٦) في البرق الشامي: وتعويض ما وقت.
(٧) هو عيسى بن سعدان الحلبي، لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي، وأورد له ياقوت الحموي في معجم البلدان أشعاراً متفرقة: جبل السماق، باب الجنان، فامية، ليلون، دابق، الدارين.

Marfat.com

فاض النَّجيعُ عليها وهي مُمْحِلةٌ فأصْبَحَتْ مَرْتَعاً للخيلِ والإبِلِ
قُل للفرنجيّة الخذلى رُوَيْدكم بالثأر أو تخرجَ الشُّعْرَى من الحَمَلِ
ترقَّبوها من الفَوَّارِ طالعةً خوارق الأرض تمحو رونق الأُصُلِ
كأنني بِنَواصِيهِنَّ يَقْدُمها كاسٍ من الجود عُرْيانٍ من البَخَلِ
حَسْبُ العِدَى يا صلاحَ الدين حسبهمُ أن يقرفوك بجرحٍ غير مُنْدَمِلِ
وهل يخاف لسانَ النَّحْل ملتمسٌ مرَّت على أصبعيه لذَّةُ العَسَلِ

فصل

في وفاة كُمُشْتِكِين(١)
وخروج السُّلْطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد(٢): وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبِّري الملك الصَّالح، واستولى على أمره العَدْل بن العجمي أبو صالح. وكان سعد الدين كُمُشْتِكِين الخادم مقدَّم العسكر، وأمير المعشر، وهو صاحب حِصْن حارِم، وقد حسده أمثالُه من الأمراء والخُدَّام، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز عليه الإسماعيلية يوم الجمعة بعد الصَّلاة في جامع حلب فقتلوه.

واستقل كُمُشْتِكِين بالأمر، فتكلَّم فيه حُسَّادُه وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرَك ومُشيرَك ابنَ العجمي إلا كمشتكين، فهو الذي حَسَّن ذلك للإسماعيلية، وقالوا له: أنت السُّلْطان وكيف يكون لغيرك حُكمٌ أو أمر! فما زالوا به حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة حارِم، وأوقعوا بها لأجله العظائم، فكتب إلى نوابه بها فنبَوْا وأبَوْا، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوَّفوه بالصَّرعة، فلما طال أمره، قصر عُمره، واستبدَّ الصِّغار بعده بالأمور الكبار، وامتنعت عليه قلعة حارم، وجَرَّد إليها العزائم، ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعةٍ بذلها لهم الملك الصَّالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولّى بها مملوكاً لأبيه يقال له سرخك.

وقال ابن الأثير: سار الملك الصَّالح من حلب إلى حارِم ومعه كُمُشْتِكِين، فعاقبه

---

(١) انظر حادثة مقتل كمشتكين وابن العجمي في: البرق الشامي ٣/ ٥٠ ـ ٥٢، والكامل في التاريخ ١٠/ ٨٧ ـ ٨٨، ومرآة الزمان ٨/ ٣٤٦ ـ ٣٥٠.
(٢) البرق الشامي: ٣/ ٥٠.

ليأمُرَ مَنْ بها بالتَّسليم، فلم يجب إلى ما طلب منه، فعُلِّق منكوساً ودُخِّن تحت أنفه فمات، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها. ثم إنه أخذها بعد ذلك.

[نزول الفرنج على حارم ورجوعهم عنها]

قال ابن شدَّاد: أما الملك الصَّالح فإنه تخبَّطَ أمرُه، وقبض كُمُشْتِكِين صاحبَ دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم، طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقابل عسكر الملك الصَّالح العساكر الإفرنجيَّة، ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج سلَّموها إلى الملك الصَّالح في العشر الأواخر من شهر رمضان. ولما عرف الفرنج ذلك رحلوا عن حارِم طالبين بلادَهم، ثم عاد الصَّالح إلى حلب، ولم يَزَلْ أصحابه على اختلاف بميل بعضهم إلى جانب السلطان، قدَّس الله روحه.

[فسخ الفرنج للهدنة ومهاجمتهم لحماة وانهزامهم]

قال العماد[1]: ووصل في هذه السنة إلى السَّاحل من البحر كندٌ كبير يقال له اقلندس[2]، أكبر طواغيت الكفر، واعتقد خُلُوَّ الشَّام من ناصري الإسلام. ومن جملة شروط هُدْنة الفرنج أنهم إذا وَصَلَ لهم ملك أو كبير، ما لهم في دَفعه تدبير، أنهم يعاونونه ولا يباينونه، ويحالفونه ولا يخالفونه، فإذا عادَ عادت الهُدْنة كما كانت، وهانت الشدة ولانت. وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود، وجنَّدوا الجنود، ونزلوا على حماة في العشرين من جُمادى الأولى، وصاحبها شهاب الدين محمود الحارمي[3] مريض، ونائب السُّلْطان بدمشق يومئذٍ أخوه الأكبر تورانشاه، وهو والأمراء مشغولون بلذَّاتهم، وكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب[4] بالقُرْب، فدخلها وخرج للحرب، واجتمع إليها رجال الطَّعْن والضَّرْب، وجرت ضروبٌ من الحروب، وكاد الفرنج تهجم البلد فأخرجوهم من الدُّروب، ونصر الله أهل الإسلام، بعد حصارهم لهم أربعة أيام، فانهزم الملاعين ونزلوا على حِصْن حارم، كما تقدَّم ذكره. فرحَّلهم عنه الملك الصَّالح بعد حصاره أربعة أشهر.

---

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ٥٢ ـ ٥٥. وانظر أيضاً «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٨٦ ـ ٨٧: ذكر حصر الفرنج حماة.

(٢) في البرق الشامي: افلند.

(٣) هو خال السلطان صلاح الدين (انظر ترجمته في مرآة الزمان ٨/ ٣٥٠).

(٤) من أمراء السلطان صلاح الدين، تردد ذكره كثيراً في فترة حكم صلاح الدين، وورد ذكره في ترجمة ابنه في وفيات الأعيان ٢/ ١٨٠. توفي سنة ٥٨٨هـ وانظر أيضاً النجوم الزاهرة ٦/ ١١٧.

ومن كتابٍ فاضلي إلى بغداد: خرج الكُفَّار إلى البلاد الشَّامِيَّة، فاسخين لِعَقْدٍ كان مُحْكماً، غادرين غدْراً صريحاً، مقدّرين أنْ يُجهزوا على الشَّام لما كان بالجدب جريحاً، ونزلُوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جُمادى الأولى، وزحفوا إليها في ثانيه، فخرج إليهم أصحابنا، وتضمَّن كتاب سيف الدِّين ـ يعني المشطوب ـ أنَّ القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجلٍ ما بين فارس وراجل، شفى الله منهم الصُّدور، ورزق عليهم النصر والظهور. ثم انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصُّلُب وتحطيم الأصلاب، مفرَّقة أحزابُهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشَّريفة النَّبويَّة الأحزاب.

قال العماد[1]: وتسامعَ الحلبيُّون بيومِ رحيلنا[2] من مصر لِقَصد الشَّام لنُصْرة الإسلام، وقالوا: أوَّلُ ما يصل صلاح الدِّين يتسلَّم حارِم. فراسلُوا الإفرنج وقاربوهم، وأرغبوهم وأرهبُوهم، وقالُوا لهم: صلاح الدِّين وَاصِل، وما لكُم بعد حصوله عندكم حاصل. فرحل الفرنج بقَطِيعةٍ من المال أخذوها، وعِدَّة من الأسارى خلَّصوها.

ثم تُوفِّي خالُ السُّلْطان شهاب الدِّين محمود بن تكش الحارِمي، في جمادى الآخرة، وتوفي ولده تكش، ابن خال السُّلْطان قبله بثلاثة أيَّام وذلك أوان وقعة الرَّمْلَة[3].

ولمَّا سمع السُّلْطان بنزولُ الفرنج على حارم رحل من البِرْكة يوم عيد الفطر بعساكره، ووصل أَيْلَة في عاشر الشَّهر، واستناب بمصر أخاه العادل، وأقام بها أيضاً القاضي الفاضل بنيَّة الحج في السنة القابلة. ووصل السُّلْطان إلى دمشق في الرَّابع والعشرين من شَوَّال[4].

ومما نظمه العماد في التَّشوق إلى مصر قوله[5]: [الرمل]

سـاكـنـي مِـصْـرِ هَـنـاكُـمْ طِـيـبُـهـا   إنَّ عَـيْـشـي بَـعْـدَكُـمْ لَـمْ يَـطِـبِ

---

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) في البرق الشامي: بعزم رحلينا.
(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ٥٥ ـ ٥٦: ذكر وفاة شهاب الدين محمود بن تكش خال السلطان وصهره وولده تكش ابن أخت السلطان، وكان وفاة الولد يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة ووفاة الوالد يوم الأحد حادي عشر الشهر وبينهما ثلاثة أيام.
(٤) انظر البرق الشامي ٣/ ٥٦ ـ ٥٨: ذكر الرحيل من المخيم بالبركة إلى الشام يوم عيد الفطر بعد صلاة العيد يوم الخميس.
(٥) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٦٣، والقصيدة فيه من ١٣ بيتاً.

Marfat.com

لا عَـدِمْـتُـم راحـةً مـن قُـرْبِـهـا فـأنـا مـن بَـعْـدِهـا فـي تَـعَـبِ
بَـعُـدَ الـعَـهْـدُ بـأخـبـاركـمُ فـابْـعـثـوا أخـبـارَكُـمْ فـي الـكُـتُـبِ
لـيْـت مِـصْـراً عـرفَـت أنّـي وإنْ غِـبْـتُ عـنـهـا فـالْـهـوَى لـم يَـغِـبِ

ومن ذلك قوله[1]: [المتقارب]

تَـذَكَّـرْتُ فـي جِـلّـقٍ دارَكـم بـمِـصْـرَ ويـا بُـعْـدَ مـا بـيـنـنـا
ومـا أتـمـنَّـى سِـوى قُـرْبِـكُـمْ وذلـك والله كـلُّ الـمُـنَـى
لـكـم بـالـجِـنـان وطـيـبِ الـمَـقَـامِ وحُـسْـنِ الـنَّـعـيـمِ بـمـصـر الـهـنـا

ومن ذلك أيضاً[2]: [البسيط]

يا ساكني مِصْرَ قد فُقْتُمْ بفضلكمُ ذوي الـفَـضَـائـل مـن سُـكّـان أَمْـصَـارِ
لله دَرُّكُـمُ مـن عُـصْـبَـةٍ كَـرُمَـتْ وَدَرُّ مِـصْـرِكُـمُ الـغَـنَّـاء مِـنْ دَارِ

ومن ذلك أيضاً: [مجزوء الكامل]

يـا حـبَّـذا مِـصْـرٌ وبِـرْ كَـتُـهـا وصَـذْرٌ والـعَـريـشُ
فـهـنـاك أمـلاكـي الَّـذيـ ـنَ سَـمَـتْ بِـعِـزِّهِـمُ الـعُـرُوشُ

قال[3]: ووصل كتابٌ من الفاضل يذكر فيه أن العدو ـ خذله الله تعالى ـ نهض ووصل إلى صَدْر، وقاتَل القلعة ولم يتمَّ له أمر، فصرف الله شَرَّه، وكفى أمره.

ووصل من الفرنج مستأمِنٌ وذكر أنَّهم يريدُون الغارة على فاقُوس فاستقلُّوا أنفسهم وعرَّجوا، وذكر أنَّهم مَضَوْا بنية تجديد الحِشْد، ومعاودة القَصْد.

قال: وأما نوبة العدو في الرَّمْلة فقد كانت عثرةً، علينا ظاهرُها، وعلى الكُفَّار باطنها، ولزمنا ما نَسَّى من اسمها، ولزمهم ما بَقَّى من غرمها، ولا دليل أدلَّ على القوّة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشَّام، نخوضُ بلاد الفرنج بالقَوافل الثَّقيلة، والحشود الكثيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور.

قال العماد[4]: ولما دَخَلْنا دمشق وجَدْنا رُسُل دار الخلافة، قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة، وكان حينئذٍ صاحبُ المخزن ظهير الدين أبو بكر

(١) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٦٣، والقصيدة فيه من سبعة أبيات.
(٢) البيتان في البرق الشامي ٣/ ٦٤، وهي فيه من خمسة أبيات.
(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ٦٦ ـ ٦٨.
(٤) انظر البرق الشامي ٣/ ٦٩.

Marfat.com

منصور بن نصر العَطَّار[١]، وهو من ذوي الأخطار، وله التحكم في الإيراد والإصدار، وقد توفَّر على محبَّة السُّلْطان وتربية رجائه، وتلْبية دعائه. ووصل كتابُه ورسوله بكلّ ما سَرَّ السَّرائر، ونوَّر البصائر.

فصل

في ذكر أولاد السُّلْطان[٢]

قال العماد: وفي هذه السَّنة وُلد بمِصْر للسُّلْطان ابنُه أبو سليمان داود.

وكتب الفاضل إلى السُّلْطان يهنئه به ويقول: إنه وُلد لسبع بقين من ذي القَعْدة، وهذا الولدُ المُبارك هو المُوفي لاثني عشر ولداً، بل لاثنَي عشر نجماً متوقِّداً، فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجماً، ورآهم المَوْلى يقظةً ورأى تلك الأنجم حُلُماً، ورآهم ساجدين له، ورأينا الخلق له سجوداً، وهو قادرٌ سبحانه أن يزيد جُدُود المولى إلى أن يراهم أباءً وجدوداً[٣].

قال العماد: وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده[٤]، وجرى ذكرُ أولاده، واعْتِضادِه بهم واعتداده، فقلت له: لو عرفتُ أيام مواليدهم في أعوامها، لأنشأتُ رسالةً على نظامها، فذكر لي ما أثبته على ترتيب أسنانهم.

الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، وُلد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر سنة خمسٍ وستِّين وخمسمائة[٥].

العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدِّين، وُلد بمصر ثامن جُمادى الأولى سنة سبعٍ وستين[٦].

---

(١) كان صاحب مخزن الخليفة، وناب في الوزارة، توفي سنة ٥٧٥هـ، له ترجمة وافية في مرآة الزمان ٨/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠.

(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٧٥ ـ ٧٩.

(٣) البرق الشامي ٣/ ٧٥ ـ ٧٦.

(٤) البرق الشامي ٣/ ٧٦، وفيه: ذكر مواليد أولاد السلطان على ما سمعته منه في آخر عهده بالبيت المقدس سنة ثمان وثمانين.

(٥) توفي فجأة يوم الجمعة، في ربيع الأول سنة ٦٢٢هـ، ونقل إلى ظاهر حلب فدفن بها، وعمره سبع وخمسون سنة (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٥٦ ـ ٢٦٥، مرآة الزمان ٨/ ٦٣٧، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٢٢هـ، وفيات الأعيان ٣/ ٩٥، السلوك ١/ ٢١٦، مختصر أبي الفداء ٣/ ١٣٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٠، مفرج الكروب ٤/ ١٥٥، البداية والنهاية ١٣/ ١٠٨، كنز الدرر ص٢٧٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٢، شذرات الذهب ٥/ ١٠١).

(٦) توفي ليلة الأحد سابع عشر محرم، سنة ٥٩٥هـ، وكان سنه ٢٧ سنة، ومدة ملكه ست سنين =

Marfat.com

الظافر أبو العبَّاس خضر مظفر الدِّين، ولد بمصْر في خامس شعبان سنة ثمانٍ وستين، وهو أخو الأفضل لأبويه[١].

الظاهر أبو منصور غازي غياث الدِّين، ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمانٍ وستين[٢].

المعِزّ أبو يعقُوب إسحاق فتح الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبعين[٣].

المؤيَّد أبو الفتح مسعود نجم الدِّين، وُلد بدمشق في ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين، وهو أخو العزيز لأبويه[٤].

الأعزُّ أبو يوسف يعقوب شرف الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، وهو لأم العزيز[٥].

الزَّاهر أبو سلَيْمان داود مجير الدِّين، ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاثٍ وسبعين، وهو لأم الظَّاهر[٦].

= إلا شهراً. (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٣٥ ـ ٢٥١، مرآة الزمان ٨/ ٤٦٠، مفرج الكروب ٣/ ٨٢، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٥هـ، وفيات الأعيان ٢/ ٤١٤، مختصر أبي الفداء ٣/ ٩٥، البداية والنهاية ١٣/ ١٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٧٨، النجوم الزاهرة ٦/ ١٢٠، شذرات الذهب ٤/ ٣١٩).

(١) توفي في جمادى الآخرة سنة ٦٢٧هـ. بحرّان (انظر ترجمته في شفاء القلوب ص٢٦٦، وفيات الأعيان ٧/ ٢٠٥، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ١٨٧، ترويح القلوب ص٩٤).

(٢) توفي يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة سنة ٦١٣هـ. وكان عمره أربعاً وأربعين سنة وشهوراً، ومدة ملكه بحلب إحدى وثلاثين سنة. (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٥٢ ـ ٢٥٥، مرآة الزمان ٨/ ٥٧٩، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٣هـ، مفرج الكروب ٣/ ٢٣٧، البداية والنهاية ١٣/ ٧١، النجوم الزاهرة ٦/ ٢١٧، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٣٤ ـ ٣٧٠، كنز الدرر ٧/ ١٨٤، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٤٢، تاريخ ابن الفرات ٥/ ١٩٥، شذرات الذهب ٥/ ٥٥).

(٣) توفي في ذي الحجة سنة ٦٢٥هـ، وله سبع وخمسون سنة (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٦٥ ـ ٢٦٦).

(٤) توفي سنة ٦٠٦هـ (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٥١ ـ ٢٥٢، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٠٦هـ، مفرج الكروب ٣/ ١٩٨، السلوك ١/ ١٧١، البداية والنهاية ١٣/ ٥٥، مختصر أبي الفداء ٣/ ١١٢، تاريخ ابن الفرات ٥/ ٩٧).

(٥) توفي سنة ٦٢٤هـ (ترويح القلوب ص٩٤)، وفي الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ١٨٧: توفي سنة ٦٢٧هـ، وانظر ترجمته في شفاء القلوب ص٢٧٠.

(٦) مرض بالعسكر الكاملي، ثم توفي سنة ٦٣٢هـ، (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٦٦ ـ ٢٦٧، وفيات الأعيان ٢/ ٢٥٧، السلوك ١/ ٢٥٠، مفرج الكروب ٢/ ٤٢٤، مختصر أبي الفداء ٣/ ١٥٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٣٠).

المفضَّل أبو محمد موسى قطب الدِّين، ثم نعت بالمظفَّر، ولد بمصر سنة ثلاثٍ وسبعين. وهو لأم الأفضل[١].

الأشرف أبو عبد الله محمَّد عز الدِّين، وُلد بالشَّام سنة خمسٍ وسبعين[٢].

المُحسنِ أبو العباس أحمد ظهير الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبع وسبعين، وهو لأم الأشرف[٣].

المعظَّم أبو منصور تورانشاه فخر الدِّين، ولد بمصر في ربيع الأوَّل سنة سبع وسبعين أيضاً[٤].

قلت: ومات سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة وهي السَّنة التي أخرب العدوُّ من التتار ـ خذلهم الله تعالى ـ فيها مدينة حلب وغيرها، والله أعلم.

الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدين، ولد في ربيع الأوَّل سنة ثمانٍ وسبعين، وهو لأم المعزّ[٥].

الغالب أبو الفتح مَلِكْشاه نصير الدين، مولده بالشَّام في رجب سنة ثمانٍ وسبعين، وهو لأم المعظم[٦].

المنصور أبو بكر، وهو أيضاً أخو المعظَّم لأبويه، ولد بحرَّان بعد وفاة السُّلْطان[٧].

---

(١) توفي سنة ٦٣١هـ (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٧٠، السلوك ١/ ٢٤٩، ترويح القلوب ص٩٣).

(٢) توفي سنة ٦٠٥هـ (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٧٠، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٠٥هـ، الوافي بالوفيات ٥/ ٢٥١).

(٣) توفي بحلب رابع محرم سنة ٦٣٤هـ، وحمل إلى الرقة فدفن بها بقرب عمار بن ياسر (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٦٧ ـ ٢٦٨. مفرج الكروب ٢/ ٢٤٥، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٩٨، شذرات الذهب ٥/ ١٦٢).

(٤) هو آخر من بقي من إخوته، وكان كبير البيت الأيوبي توفي سابع وعشرين ربيع الأول، سنة ٦٤٨هـ بحلب. ودفن بدهليز داره، وله ثمانون سنة (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٦٨ ـ ٢٦٩)، ذيل مرآة الزمان ١/ ١٥، السلوك ١/ ٤٤١، النجوم الزاهرة ٧/ ٩٠، شذرات الذهب ٥/ ٢٩٢، ترويح القلوب ص١٠٠).

(٥) لم يذكر سنة وفاته (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٧٠، مفرج الكروب ٢/ ٤٢٥، ترويح القلوب ص٩٥).

(٦) وقيل العادل، ناصر الدين، ولم تذكر سنة وفاته. (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٧٠، ترويح القلوب ص٩٦).

(٧) نصرة الدين، وقيل: سيف الدين، وقيل: بل إنهما اثنان، ولم يذكر سنة وفاته (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٧١، ترويح القلوب ص٩٦).

Marfat.com

قلت: فهذه خمسة عشر ولداً ذكرهم العماد في هذا الموضع.

وقال في آخر كتاب «الفتح القُدسي»، على ما سنذكره في آخر هذا الكتاب: إنَّ السُّلطان لما تُوفِّي خلَّف سبعةَ عشرَ ولداً وابنةً صغيرة.

فقد فاته هنا ذكر اثنين، وهما عماد الدِّين شاذي[1]، لأم ولد، ونصير الدين مروان[2]، لأم ولد، وأمَّا البنت فهي مؤنسة خاتون[3]، تزوَّجها الملك الكامل محمَّد، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى، وهو ابن عمِّها الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن دَرَج في حياته[4]، كالملك المنصور حسن، وسيأتي ذكر وفاته، والأمير أحمد وهو الذي رثاه العَرْقَلة بقوله: [مجزوء الرجز]

أيّ هلالٍ كُسِفا ... وأيّ غُصْنٍ قُصِفا
كان سراجاً قد طفا ... على الورى ثمّ انطفا
لم يَركبْ الخيلَ ولم ... يقلِّدوه مُرْهفا
قل للنُّحاة وَيْحَكُمْ ... أحمدُكُمْ قد صُرِفا
صبراً صلاحَ الدِّين يا ... ربَّ السَّماحِ والوَفا

قال العماد[5]: وورد من الفاضل كتابٌ تاريخه من منتصف ذي الحجة من سنة ثلاثٍ وسبعين ذكر فيه فصولاً متعددة، منها: للمولى أولادٌ وقد صاروا رجالاً، ويجب أن تستجند[6] للقلاع رجالاً، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالاً، وقيل: القلاع أنوفٌ من حلَّها شَمَخَ بها: [الكامل]

ما في الرِّجال على النِّساء أمين

ومنها أبيات في ذكر السَّلام[7]: [الكامل]

مملوكُ مولانا ومملوكُ ابنه ... وأخيه وابن أخيه والجيران

---

(١) ويسمى عمر بن يوسف بن أيوب، ولم يذكر سنة ولادته ولا وفاته (انظر: شفاء القلوب ص٢٧١، وترويح القلوب ص٩٧).

(٢) هو نصرة الدين، توفي في السابع والعشرين من رجب سنة ٦٥٢هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٥٢هـ).

(٣) هي مؤنسة خاتون بنت يوسف بن أيوب، ولم يكن له من الإناث سواها، تزوجها ابن عمها الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، ودخل بها سنة ٥٩٦هـ (شفاء القلوب ص٢٧١).

(٤) ذكر في شفاء القلوب ص٢٦٩: الصالح إسماعيل مات في حياة أبيه.

(٥) انظر البرق الشامي ٣/ ٨١.

(٦) في البرق الشامي: يستجير.

(٧) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٨١ ـ ٨٢.

Marfat.com

طيّ الكتاب إليه منه إجابة ... لسلام مَوْلانا ابنه عثمان
والله قد ذَكَر السَّلام وأنه ... يجزي بأحسن منه في القُرْآنِ
وغريبة قد جئتُ فيها أوّلاً ... ومن اقتفاها كان بعدي الثاني
فرسوليَ السلطان في إرسالها ... والنَّاس رُسْلُهُم إلى السُّلْطانِ

قلت: ووصف الفاضل الملك المُؤيَّد في كتاب آخر فقال: وقد تمطَّت به السّنّ وامتدَّت، وتأهبّت السّعادة لخطبته واعتدَّت، ولاحظته العيون بالوقار وطرفت دون جلالته وارتدَّت.

وفي بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل: إعزازه لأهل الفضل دليلٌ على فضله، وأنّ الأولى أن تكون كتب الأدب عند أهله، وما أبهجنا، إذْ جال في فضاء الفضائل، وخطب من أبكار المعاني كرائم العقائل، وآخى بين السيف والقلم، وصار في موكبه العِلْمُ والعَلم.

ومن كتاب آخر في المعنى: فلقد زادَتْ هذه المنقَبة في مناقبه، ونظمت عقود سُؤدد في ترائبه: [الطويل]

فما تَرْجَمَ الإنسانُ عن سِرِّ فَضْلِهِ ... بأفضل من تقريبه لأُولي الفَضْلِ

قال العماد[1]: وخرج السُّلْطان للصيد في ذي الحِجَّة نحو قارا، فشكوت ضرسي، وعَدِمْتُ أُنسي، فرجعت مع عزّ الدين فَرُّخْشاه لحمَّى عَرَتْه فشكا منها، ألا تزور إلّا نهاراً جهاراً، ولا تفارقي بعرق، بالضدّ من الحُمَّى التي وصفها أبو الطيب المتنبي[2]،

---

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ٨٥.

(٢) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي أبو الطيب المتنبي، ولد سنة ٣٠٣هـ، وتوفي سنة ٣٥٤هـ. ويشير العماد هنا إلى القصيدة التي قالها المتنبي عندما أصابته الحمى في مصر، فقال يصفها ويعرض بالرحيل عن مصر وذلك في ذي الحجة سنة ٣٤٨هـ، ومطلعها: [الوافر]

ملومكما يجلّ عن الملام ... ووقعُ فعاله فوق الكلامِ

ويقول في وصف الحمى:

وزائرتي كأنّ بها حياءً ... فليس تزور إلا في الظلامِ
بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها ... فتوسعه بأنواع السقامِ
كأن الصبح يطردها فتجري ... مدامعها بأربعة سجامِ
أراقب وقتها من غير شوق ... مراقبة المشوق المستهامِ
إذا ما فارقتني غسلتني ... كأنا عاكفان على حرامِ

انظر الأبيات في ديوان المتنبي ٢/ ٢٤٦ (طبعة دار الكتب العلمية).

فنظمت فيه كلمة طويلة، أوّلها[1]: [الوافر]

يـمـيـنـك دَأْبُـهـا بَـذْلُ الـيـسـارِ ... وكَـفُّـك صَـوْبـهـا بِـدَرُ الـنُّـضـارِ
وإنـك مـن مـلـوكِ الأَرْضِ طُـرّاً ... بـمـنـزلـة الـيـمـيـنِ مِـنَ الـيـسـارِ
وأنـتَ الـبَـحْـرُ فـي بَـثِّ الـعـطـايـا ... وأنـت الـطَّـوْدُ فـي نـادي الـوقـار

ومنها في وصف الحُمَّى:

وزائـرةٍ ولـيـس بـهـا حَـيَـاءٌ ... فـلـيْـسَ تـزور إلّا فـي الـنَّـهـارِ
ولـو رَهِـبَـتْ لـدى الإقـدام جـوري ... لـمـا رَغِـبَـتْ جِـهـاراً فـي جِـواري
أتـتْ والـقـلـبُ فـي وَهَـجِ اشـتـيـاقٍ ... لـتـظـهـر مـا أُوارِي مـن أُوَاري
ولـو عـرفـت لـظـى سـطـواتِ عَـزْمـي ... لـكـانـت مـن سُـطَـاي عـلـى حِـذَارِ
تـقـيـمُ فـحـيـن تُـبـصـر مـن أنـاتـي ... ثـبـاتَ الـطَّـوْدِ تُـسْـرِع فـي الـفِـرَارِ
تـفـارقـنـي عـلـى غـيـر اغـتـسـالٍ ... فـلـم أحـلُـل لـزَوْرَتِـهـا إزاري
أيـا شـمـسَ الـمـلـوكِ بـقـيـتَ شـمـسـاً ... تـنـيـرُ عـلـى الـمـمـالـك والـدِّيـارِ
أحـمَّـاك اسـتـعـارَتْ لَـفْـحَ نـارٍ ... لِـعَـزْمِـكَ لـم تَـزَلْ ذاتَ اسْـتِـعـارِ

فـصـل

[قتل عضد الدين ابن رئيس الرؤساء وزير الخليفة]

قال العماد[2]: وفي العشر الأوّل من ذي القعدة قتل عضد الدين ابن رئيس الرؤساء[3] وزير الخليفة ببغداد، على أيدي الملاحدة، وكان قد توجَّه إلى الحج، فوقف له في مضيق قَطُفْتا، غربي دِجْلة، كهلٌ في يده قِصَّة يزعم أنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده، فأومأ ليوصل قِصَّته، فانتهز فيه فُرْصته، فقتله، وبَدَر

(١) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ٨٥ ـ ٨٦، وهي فيه من ٢٤ بيتاً.
(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٨٦ ـ ٨٨. والكامل في التاريخ ١٠/ ٨٨ ـ ٨٩.
(٣) هو أبو الفرج، محمد بن عبد الله بن هبة الله بن مظفر ابن الوزير الكبير رئيس الرؤساء أبي القاسم علي بن المسلمة، ولد سنة ٥١٤هـ، وكان أبوه أستاذدار المقتفي لأمر الله، فلما مات ولي عضد الدين مكانه، وبقي إلى أن مات المقتفي، فأقره المستنجد، فلما ولي المستضيء سنة ٥٦٦هـ، استوزره، ثم عزله سنة ٥٦٧هـ، ثم أعيد إلى الوزارة سنة ٥٧٠هـ، وبقي فيها حتى مقتله (انظر ترجمته الوافية في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ٢٧٣ ـ ٢٧٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ٨٨ ـ ٨٩، مرآة الزمان ٨/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٧٥ ـ ٧٧، الوافي بالوفيات ٣/ ٣٣٥).

Marfat.com

كمال الدين أبو الفضل ابن الوزير[١] فقتل قاتل أبيه بسيفه، وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له، فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوَّج[٢] فمات، وجرح آخر ولد قاضي القضاة، وقُطع الملاحدة وأحرقوا، واستقلَّ ظهير الدين أبو بكر منصور، بن نصر المعروف بابن العطَّار[٣] صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدناً مصافياً.

قلت: وابن العطَّار هذا هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد، كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين.

قال ابن الأثير: وكنت حينئذٍ ببغداد عازماً على الحجّ، فعبر عضد الدِّين دِجْلة في شبارة[٤]، فلما ركب دابته والنَّاس معه ما بين راكب وراجل، تقدَّم إليه بعض العامة ليدعو له، فمنعه أصحابه، فزجرهم وأمرهم ألا يمنعوا أحداً عنه، فتقدم إليه الباطنيّة فقتلوه بالجانب الغربي، وقُتل الباطنية وأحرقوا، وحُمل من موضعه إلى دارٍ له بِقَطُفْتا في الجانب الغربي، فتوفي بها.

قال العماد[٥]: ووردت مطالعة الفاضل إلى السُّلْطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين، وفيها: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فقد كان ـ عفا الله عنه ـ قتل ولدَيْ الوزير ابن هُبيرة[٦] وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى:

[مجزوء الرجز]

مَنْ يُرِ يوماً يُرَ بِهْ والدَّهْرُ لا يُغْتَرُّ بِهْ

وهذا البيت بيت ابن المُسْلمة عريق في القتل، وجدُّه[٧] هو المقتول بيد البساسِيري[٨] في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر،

---

(١) هو عبيد الله بن محمد، توفي سنة ٥٧٦هـ («خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٦).

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسين، قتل ولم يبلغ الثلاثين، (انظر ترجمته في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/ ٢٨٢، ومرآة الزمان ٨/ ٢٢٢).

(٣) انظر ترجمته في مرآة الزمان ٨/ ٢٢٨.

(٤) الشبارة: نوع من المراكب.

(٥) انظر البرق الشامي ٣/ ٨٩ ـ ٩١.

(٦) تقدّمت ترجمة الوزير ابن هبيرة في هذا الجزء.

(٧) هو علي بن الحسين بن أحمد، أبو القاسم بن المسلمة، ولد سنة ٣٩٧هـ، وقتل سنة ٤٥٠هـ (طبقات الشافعية للسبكي ٥/ ٢٤٧ ـ ٢٥٣).

(٨) البساسيري: هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله، كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، وكان مقدماً زمن القائم بأمر الله على جميع الأتراك، وخطب له على المنابر في العراق وخراسان، ثم إنه خرج على القائم، وأخرجه من بغداد، وخطب فيها للمستنصر =

Marfat.com

فهو من ذُرِيَّة لم تزل قاتلة مقتولة، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة، فهم في هذه الحادثة المسمعة المُصِمّة كما قال دُريد[١]: [الطويل]

أبـــى الـــمـــوتُ إلا آل صِـــمَّـــة

والأبيات المولى يحفظها، وهي في «الحماسة»، وقد ختمت له السعادة بما ختمت به له الشَّهادة، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله. قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]: [الكامل]

إنَّ الـمـسـاءةَ قـد تـسـرُّ وربـمـا كـان الـسُّـرورُ بـمـا كَـرِهْـتَ جـديـرا
إنَّ الـوزيـر وزيـرَ آل مـحـمـد أوْدَى فـمـن يَـشْـنـاك كـان وزيـرا

وهذان البيتان قيلا في أبي سَلَمة الخَلَّال[٢] أول وزير لبني العَبَّاس.

قلت: وبلغني أنَّ الفاضل كان ينشد: [الطويل]

وأحـسـنُ مـن نـيـل الـوزارة لـلـفـتـى حـيـاةٌ تـريـه مَـصْـرَعَ الـوزراءِ

[وفاة القاضي أحمد ابن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري]

قال العماد[٣]: وكان ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري[٤] قد سار في الرسالة إلى بغداد، وتوقَّف في المَوْصِل لحادثة الوزير، ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن

= العبيدي صاحب مصر، وذلك سنة ٤٥٠هـ، وبقي سنة حتى قتله عسكر طغرلبك السلجوقي سنة ٤٥١هـ، وطيف برأسه في بغداد (الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٩ ـ ٣٤٨، وفيات الأعيان ١/ ١٩٢ ـ ١٩٣، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٨ ـ ١٤٠).

(١) يروى البيت بتمامه:

أبـــى الـــقـــتـــل إلا آل صـــمـــة إنـــهـــم أبـوا غـيـره والـقـدر يـجـري إلـى الـقـدرِ

والبيت في شرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨٢٤.

(٢) أبو سلمة الخلال: هو حفص بن سليمان الخلال، أوّل من لقب بالوزارة في الإسلام، وزير أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس، وكان يعرف بوزير آل محمد والذي سرعان ما قتل بتحريض من الخليفة السفاح في رجب سنة ١٣٢هـ (صبح الأعشى ٣/ ٢٩٥).
والبيتان قالهما سليمان بن المهاجر البجلي. انظر: تاريخ الطبري ٧/ ٤٥٠، وفيات الأعيان ٢/ ١٩٦.

(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ٩٢ ـ ٩٣.

(٤) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم، ضياء الدين الشهرزوري، ولد سنة ٥٣٤هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

Marfat.com

عمه القاضي عماد الدين أحمد ابن القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري[١]، وكان شاباً، وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك، وفيه[٢]: [المتقارب]

يُدلَّى ابنُ عشرين في لَحْدِهِ وتسعون صاحِبُها راتِعُ

اغتُبط[٣] الولد مع نضارة الشباب المقتبل، وعُمْر الوالد مع ذبول المشيب المشتمل: [الطويل]

ليُعْلم أن الشّيب ليس بمُسلم وأن الشباب الغضَّ ليس بمانع

وليكون العبد حذِراً من بغتات الآجال، في كلّ الأحوال، والله يطيل للمولى العمر، كما أطال له في القَدْر ويُسمع منه ولا يُسمع فيه، ويبقيه سنداً للدين الحنيفيّ فإن بقاءه يكفيه.

آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى، يتلوه إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني:

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة، قال العماد: وكان شمس الدين بن المقدَّم من أكابر الأمراء.

ووافق الفراغ منه في سابع شهر ذي الحجة من سنة ست وسبعين وستمائة، غفر الله تعالى لمؤلفه وكاتبه وصاحبه والمنتفع به والمطلع عليه وجميع المسلمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

[نجز الجزء الثاني من كتاب الروضتين
ويليه الجزء الثالث
ويبدأ بحوادث سنة (٥٧٤هـ)]

---

(١) ولد سنة ٥٢٧هـ، بالموصل، وولي القضاء فيها، (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٨).
(٢) البيت في البرق الشامي ٣/ ٩٢.
(٣) في البرق الشامي: اعتبط، بالعين المهملة.

فهرس المحتويات

وفاة فتح الدين بن أسد الدين شيركوه ٣
ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة ٣
فتح نور الدين حصن المنيطرة ٣
وفاة الجليس بن الحباب ٤
عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر للمرة الثانية ٧
ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة ٧
استغاثة شاور بالفرنج ٧
تسلم شيركوه الإسكندرية من غير قتال واستنابة صلاح الدين فيها،
وعوده إلى الصعيد ٩
حصار الفرنج والمصريين للإسكندرية ٩
فصل: قدوم العماد الكاتب إلى دمشق وتجديد معرفته بنجم الدين وشيركوه،
وبداية معرفته بصلاح الدين، ومدحه لهم ١١
فصل: اجتماع قطب الدين ونور الدين على غزو الفرنج، وتخريب قلعة جبلة
وفتح العريمة وصافيتا ١٦
عصيان الأمير غازي ابن حسان صاحب منبج على نور الدين ١٧
وفاة الشاعر الرشيد أحمد بن علي بن الزبير ١٧
تعريف القاضي الشهرزوري لنور الدين بالعماد الكاتب ١٩
قضاء نور الدين الشتاء في قلعة حلب ٢١
ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة ٢١
توجه نور الدين إلى منبج لتهذيب أحوالها ٢٣
سير نور الدين من منبج إلى قلعة نجم على الفرات ٢٣
عودة نور الدين إلى حلب ٢٥
ولاية أسد الدين لحمص ٢٦
فصل: في وفاة زين الدّين ٢٧
تملك نور الدين قلعة جعبر وتولية شمس الدين علي ابن الداية عليها ٢٩

Marfat.com

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة ٢٩
وفاة بهاء الدين عمر ٣١
فصل: مسير أسد الدين لمصر للمرة الثالثة وفتحه لها ٣٢
فصل: فيما فعله نور الدين ٣٤
فصل: في القبض على شاور وقتله ٣٨
فصل: في وزارة أسد الدين ٤٣
نسخة منشور العاضد في وزارة أسد الدين ٤٤
فصل: في وفاة أسد الدين وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه ٤٧
فصل: رواية ابن أبي طي لقصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية
إلى أن تمت وزارة صلاح الدين ٥٦
مقتل رزيك بن طلائع وطي وسليمان ابني شاور ٥٧
ولاية ضرغام الوزارة في مصر ٥٨
خروج أسد الدين من مصر وإقطاعه حمص ٦٧
كتاب شاور لنور الدين ٦٧
رسالة شمس الخلافة محمد بن مختار إلى مري ٧١
تولي صلاح الدين وزارة مصر ٧٦
فصل: قصائد في التهنئة بملك مصر ٧٩
فصل: في قتل المُؤْتَمن بالخرقانية ووقعة السُّودان بين القصرين، وغير ذلك ٨٦
نزول الفرنج على دمياط ٩١
ثم دخلت سنة خمسٍ وستين وخمسمائة ٩١
رحيل الفرنج عن دمياط ٩٤
فصل: إرسال نور الدين كتاب تهنئة للعاضد برحيل الفرنج عن دمياط ٩٤
إرسال نور الدين العماد الكاتب إلى خلاط ٩٧
فصل: في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله ٩٧
ولادة الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ١٠٠
فصل: في ذكر الزَّلْزلة الكبرى ١٠٠
فصل: في غزوة صاحب البيرة ووفاة صاحب المَوْصِل ١٠٤
فصل: عزم نور الدين على دخول الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين ١٠٧
ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة ١٠٨
حصار نور الدين الموصل ١٠٩
مسير نور الدين إلى الشام ١٠٩

Marfat.com

سفارة العماد الكاتب إلى بغداد ١١٠
فصل: في ذكر الشيخ عمر الملا ١١١
عودة نور الدين إلى سنجار ١١٢
فصل: وفاة الخليفة المستنجد بالله وتولي ابنه المستضيء بأمر الله ١١٥
فصل: فيما جرى بمصر في هذه السَّنة ١١٧
وفاة القاضي الموفق أبي الحجاج يوسف بن الخلال ١١٨
شروع صلاح الدين في عمارة سور القاهرة وشروعه في تمهيد أسباب
الخطبة لبني العباس ١٢٠
إقامة صلاح الدين الخطبة لبني العباس ١٢٣
ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة ١٢٣
وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر ١٢٤
إرسال نور الدين المطهر بن أبي عصرون إلى بغداد للبشارة بإقامة الخطبة
العباسية في مصر ١٣٢
وصول عماد الدين صندل من بغداد في جواب بشارة نور الدين ١٣٥
أمر صلاح الدين بالقبض على قصور العاضد وجميع ما فيها من مال
وذخائر وفرش وسلاح ١٣٦
فَصْل: نبذة عن الدولة الفاطمية ١٣٩
فصل: في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة ١٤٦
فتح نور الدين عرقة ١٤٦
نكث الفرنج الهدنة مع نور الدين ١٤٦
فصل: في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر ١٤٨
فصل: في الحَمَام ١٤٩
فصل: في باقي حوادث هذه السنة ١٥١
إسقاط صلاح الدين المكوس بمصر ١٥١
وفاة ملك النحاة الحسن بن صافي ١٥٤
ثم دخلت سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة ١٥٤
تسيير صلاح الدين تحفاً وهدايا من خزائن العاضد إلى نور الدين ١٥٤
فصل: في جهاد السُّلْطانين للفرنج في هذه السنة ١٥٦
محاولة الفرنج الإغارة على زرا وخروج نور الدين لدفعهم عنها ١٥٨
فصل: في فتح بلاد النُّوبة ١٦٠
فصل: في وفاة نجم الدّين أيُّوب والد صلاح الدّين، وطرف من أخباره ١٦٢

Marfat.com

فصل: قصد نور الدين بلاد قليج أرسلان عازماً على حربه وأخذ بلاده منه،
وفتح مرعش، وبهسنى ١٧٠
المعاهدة بين نور الدين وقليج أرسلان ١٧١
قدوم قطب الدين النيسابوري إلى حلب ١٧٢
فصل: استيلاء مليح بن لاون للدروب، وكسره للروم وإرساله لنور الدين
ثلاثين أميراً من مقدميهم ١٧٤
استيلاء قراقوش على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ١٧٥
وصول ابن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب
هارون وصريفين ١٧٦
عودة نور الدين من بلاد الروم إلى حلب ثم دخوله دمشق ١٧٦
ثمَّ دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة ١٧٦
إبطال نور الدين فريضة الأتبان ١٧٧
فصل: في فتح اليمن ١٧٧
فصل: ذكر المبارك بن منقذ المستناب بزبيد ١٨١
تسيير نور الدين البشارة لبغداد بفتح اليمن وكسره الروم ١٨١
نزول نور الدين إلى المدرسة العمادية ١٨٢
فصل: وصول رسول نور الدين إلى مصر مطالباً صلاح الدين بحساب
البلاد وإرسال صلاح الدين هدية إلى نور الدين ١٨٣
فصل: في صَلْبِ عُمارة اليمني الشّاعر وأصحابه ١٨٥
فصل: في التعريف بحال عُمارة ونسبه وشعره ١٩٥
فصل: في وفاة نور الدين رحمه الله ٢٠٠
فصل: ولاية الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ٢٠٨
فصل: قصد الفرنج بانياس ٢١١
فصل: هروب سعد الدين كمشتكين من قلعة الموصل إلى حلب ٢١٣
الهدنة بين الفرنج وابن المقدم ٢١٥
وفاة مري ملك بيت المقدس ٢١٧
قتل جرديك لابن الخشاب في حلب ٢١٧
ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة ٢١٧
مسير العماد الكاتب إلى الموصل ٢١٨
مساءة صلاح الدين مما جرى لإخوة مجد الدين ابن الداية ٢١٨
فصل: عزم السلطان صلاح الدين على دخول الشام ٢١٩

Marfat.com

وصول أسطول صقلية إلى الإسكندرية وانهزامه ٢١٩
فصل: ثورة الكنز في الصعيد ٢٢١
فصل: توجه صلاح الدين إلى دمشق ٢٢٢
تسلم صلاح الدين دمشق ٢٢٣
فصل: فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماة وحصار حلب ٢٢٦
فصل: مكاتبة كمشتكين لسنان صاحب الحشيشية ٢٢٩
مهاجمة الفرنج لحمص ٢٣٠
فصل: إرسال صلاح الدين ابن أبي المضاء رسولاً إلى بغداد ٢٣٣
فصل: مرثية العماد الكاتب لنور الدين ٢٤٠
فصل: في فتحِ بَعْلَبَكّ ٢٤٤
فصل: فيما جرى للمَوَاصلة والحلبيين مع السُّلطان في هذه السنة ٢٤٧
تسلم صلاح الدين حصن بعرين ٢٥٢
فصل: ظهور متنبئ في مشغرا ٢٥٥
الهدنة بين الفرنج وصلاح الدين ٢٥٥
ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ٢٥٥
فتنة قطب الدين قايماز في بغداد، وخروجه منها ٢٥٦
فصل: فيما تجدَّد للمواصلةِ والحلبيين ٢٥٩
خوف أهل حلب من قصد السلطان لهم ٢٦٥
فصل: في فتح جُمْلة من البلاد حوالي حلب ٢٦٦
فصل: في وثوب الحشيشيَّة على السُّلْطان مرَّة ثانية على عَزاز،
وكانت الأُولى على حلب ٢٦٨
نزول السلطان على حلب ٢٧١
فصل: في باقي حوادث هذه السنة ودخول قَراقُوش إلى المغرب ٢٧٢
مقتل صديق بن جولة صاحب بصرى وصرخد ٢٧٤
عصيان الأمير غرس الدين بتل خالد ٢٧٤
دخول قراقوش إلى المغرب ٢٧٤
وزارة أبي الحسن علي بن جمال الدين لصاحب الموصل ٢٧٥
عقد الصلح بين الحلبيين والمواصلة وصلاح الدين، وبذل السلطان
عزاز لابنه نور الدين ٢٧٧
ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ٢٧٧
محاصرة صلاح الدين لحصن مصياث ٢٧٨

Marfat.com

إغارة الفرنج على البقاع وهزيمتهم ٢٧٨
اجتماع السلطان بأخيه تورانشاه في حماة ٢٧٩
فصل: في ذكر جماعةٍ من الأعيان تجدَّد لهم ما اقتضى ذكرُهُ في هذه السنة ٢٨٠
وفاة كمال الدين بن الشهرزوري وتعيين ابن أخيه ضياء الدين الشهرزوري ٢٨٠
وفاة شمس الدين بن أبي المضاء ٢٨٣
تعيين ضياء الدين الشهرزوري رسولاً إلى بغداد ٢٨٤
زواج السلطان صلاح الدين من عصمة الدين بنت أنر ٢٨٤
نبذة عن أسامة بن منقذ ٢٨٤
فصل: في رُجوع السُّلْطان إلى مِصْر ٢٨٦
زيارة العماد الكاتب للأهرامات ٢٩١
فصل: في بيع الكُتُب وعِمارة القلعة والمدرسة والبيمارَسْتان ٢٩٢
أمر صلاح الدين ببناء القلعة على جبل المقطم ٢٩٣
فصل: في خروج السُّلْطان إلى الإسكندرية وغير ذلك من بواقي
حوادث هذه السَّنة ٢٩٤
أمر صلاح الدين بتعمير الأسطول ٢٩٥
وصول رسل الموصل إلى صلاح الدين بمصر ٢٩٦
وفاة القاضي الشريف أبي محمد عبد الله العثماني ٢٩٩
عودة السلطان إلى القاهرة، وعزمه على غزو غزة وعسقلان ٣٠٠
ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ٣٠٠
فصل: في نوبة كسرة الرَّمْلة ٣٠٤
فصل: في وفاة كُمُشْتِكِين وخروج السُّلْطان من مصر بسبب حركة الفرنج ٣٠٨
نزول الفرنج على حارم ورجوعهم عنها ٣٠٩
فسخ الفرنج للهدنة ومهاجمتهم لحماة وانهزامهم ٣٠٩
فصل: في ذكر أولاد السُّلْطان ٣١٢
فصل: قتل عضد الدين ابن رئيس الرؤساء وزير الخليفة ٣١٧
وفاة القاضي أحمد ابن القاضي كمال الدين بن الشهرزوري ٣١٩

Marfat.com

كتاب الروضتين

في

أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان
المقدسي الدمشقي الشافعي
المعروف بأبي شامة
المتوفى سنة ٦٦٥هـ

وضع حواشيه وعلق عليه
إبراهيم شمس الدين

المجلد الأول
١-٢

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Marfat.com